
التعليقاتُ البَهية
عَلى شَرحِ العلاَّمةِ الهرَّاسِ على الوَاسطيَّة
لفضيلة الشيخ
أَبِي عَائِش محمَّد سَمِيح فَاضِل فَضل الشَّيخ
وَفَقه الله لمَرضَاتِه
دكتوراة في الفلسفة الإسلامية
دار العلوم . جامعة القاهرة

الدرس الأول

مقدمة بين يدي الشرح

إن الحمد لله, نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله تعالى من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله, صلى الله عليه, وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد:

{يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ} [آل عمران: 102].

{يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا} [النساء: 1].

{يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا} [الأحزاب: 70-71].

أما بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله تعالى, وخير الهدي هدي محمدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ, وشر الأمور محدثاتها, وكل محدثة بدعة, وكل بدعة ضلالة, وكل ضلالة في النار.

فاليوم إن شاء الله نبدأ درسًا جديدًا في شرح كتاب آخر من كتب الاعتقاد, وهو كتاب العقيدة الواسطية لشيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ، وهذه العقيدة المباركة عليها شرح نفيس للشيخ الدكتور محمد بن خليل هرّاس رَحِمَهُ اللهُ.

قبل أن نشرع في شرح هذه العقيدة السلفية المباركة والتعليق عليها، نبدأ بعرضٍ موجز لبعض الفوائد من سيرة شيخ الإسلام ابن تيمية، وكذلك فضيلة العلامة السلفي محمد خليل هرّاس طيب الله ثراهما.

أما شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ فهو غني عن التعريف، ولولا أن سيرته تُلهم العبد ليزداد عبادة لربه تَبَارَكَ وَتَعَالَى وجهادًا في سبيله ومثابرةً على الدعوة إلى دينه لاكتفينا بما يعرفه الناس من سيرته, ويشبهه كذلك الشيخ محمد خليل هرّاس رحمه الله.

شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ هو تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الحراني, المولود في القرن السابع, في أواسط القرن السابع سنة إحدى وستين وستمائة من هجرة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ولد بحرَّان؛ بلدة إبراهيم الخليل عَليهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمَ التي وُلد فيها, وكانت بين النهرين بين دجلة والفرات, وتقع الآن جنوب شرق تركيا.

في سن الثالثة من عمره، أي سنة سبع وستين وستمائة، أغار التتار على بلدته, فتركتها عائلته إلى دمشق, وهناك استقر وطلب العلم ونبغ وتأهل للتدريس قبل العشرين من عمره, وكان ذلك بعد وفاة والده رَحِمَهُ اللهُ, فإنه كان من علمائها وأعلامها, وكذلك جده وأبو جده كذلك, ذرية بعضها من بعض، بلدٌ طيب يخرج نباته بإذن ربه.

جاء ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ في عصر مليء بالفتن الداخلية, فإنه كان في دولة المماليك, وكان بينهم فتن داخلية بسبب الصراع على الحكم, مع ما كان من وقوع هجوم الفرنجة على العالم الإسلامي في هذا الوقت, وكذلك ما كان من غزو التتار لبلاد المسلمين, حيث سقطت الخلافة العباسية سنة ست وخمسين وستمائة من الهجرة. أي بعد ولادة شيخ الإسلام ابن تيمية بخمس سنوات.

وأما الحالة الاجتماعية لبلاد الإسلام في هذا الوقت فقد ذكرها الهرّاس رَحِمَهُ اللهُ في محاضرة له بعنوان **ابن تيمية السلفي**, وهذه المحاضرة ألقاها بالجامع الأزهر يوم أن كان دكتورًا في الجامعة.

فكان العالم الإسلامي عبارة عن مجتمع دبَّ فيه الفساد وأصابه التغير والانحراف, وغلب على حكامه العُجمة والجهل، وراجت فيه الخرافة, فاستعجمت الألسن والعقول والأخلاق والعادات, وامتزجت علوم الدين بالفلسفة, وفشت البدع وتغلغلت في كل شيء, وغلب على العلماء وقتئذٍ نزعة التقليد والتعصب المذهبي وقام التكفير والتضليل مقام الإقناع, والدليل كما فعلوا مع شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ, هذا مع انتشار الفسق والفجور وتقنين المحرمات كالزنا والمكوث الظالمة مع ظهور الغش والاحتكار.

إن الصورة السابقة تعكس لك دور ذلك الرجل المصلح رَحِمَهُ اللهُ في هذا الزمان المظلم في خضم فتن الشبات والشهوات؟

لقد قاتل التتار مع جيش المسلمين وانتصر عليهم وحارب البدع ونبذ العصبية والتقليد, ودعا الناس إلى الصراط المستقيم إلى العودة إلى الكتاب والسنة بفهم أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والسلف الصالحين، لا يخشى

في الله لومة لائم، يضع نصب عينيه نصرة الحق بالحجة والبرهان عقيدة وعملا، مما ادى إلى قيام متعصبة الفقهاء والمتصوفة والمتكلمين خاصة الجهمية عليه مجتمعين. قاموا عليه ووشوا به إلى الولاة, فما وجف له قلب رَحِمَهُ اللهُ, ولا ارتجف ولا جف له قلم ولا كفَّ له لسان.

كل ذلك يجاهد في سبيل الله بلسانه ويده وجنانه -رضي الله عنه ورحمه الله- حتى وافته المنية في غيابة السجن محبوسًا في قلعة دمشق, وكان ذلك سنة ثمان وعشرين وسبعمائة من هجرة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

كان ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ رأسًا في العقليات والنقليات, ولا أدل على ذلك من كثرة الرسائل التي أُلفت فيما كتبه ابن تيمية, فتجد رسائل أُلفت في فقه ابن تيمية في العبادات والمعاملات والبيوع، في أصول الفقه عند ابن تيمية, في توحيد العبادة عند ابن تيمية, توحيد الأسماء والصفات عند ابن تيمية, في موقفه من الأشعرية، والصوفية، وغير ذلك مما تركه من إرث عظيم.

بل مما تفرد به ابن تيمية رحمه الله في هذا الزمان -ولا نعلم له نظيرًا- أنه ما من نازلة تنزل بالمسلمين إلا وتجد في كلام ابن تيمية ما قد يكون حلاً لهذه النازلة.

سبحان الله، تجد كل من تكلم عن النوازل التي نزلت بالمسلمين في المسائل المستجدة يرجع إلى ما قرره ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ في كتبه.

ترك رَحِمَهُ اللهُ العديد من الكتب والتي هي أصول لا غني عنها، خاصة في باب الاعتقاد, فله كتاب درء تعارض العقل والنقل, أو موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول, وهو كتاب عظيم لم يؤلف مثله في الإسلام كما قال تلميذه

ووارث علمه ابن القيم، وقد رد فيه على قانون الفخر الرازي في رد نصوص الشرع، وادعاء التعارض بين العقل والنقل فنقض ذلك نقضا.

وله كذلك بيان تلبيس الجهمية, وله كذلك الجواب الصحيح في الرد على من بدَّل دين المسيح, وله الصارم المسلول على شاتم الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ, وله الواسطية والحموية والتدمُرية, وهذه في الأسماء والصفات خاصة وفي الرد على أهل البدع من المتكلمين, وله الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان في الرد على من زاغ من أهل التصوف.

وما سبق يبين لنا سبب الهجوم على ابن تيمية في هذه الأزمان, وذلك لأنه هدم بدعتين عظيمتين بما قرره وكرره من أصول وبما سطره من كلام.

البدعة الأولى وهي: بدعة أهل الكلام.

وقد بيَّن رَحِمَهُ اللهُ باطلهم فيما يتعلق بأسماء الله وصفاته سُبْحَانَهُ وَتعَالَى, وبيَّن أصل بدعتهم, وأن أصل هذه البدعة إنما هو افتتانهم بما عند أهل اليونان من الفلسفة, وأن أصول علمهم –هذا الذي زعموه علمًا– ما هي إلا أصول أهل اليونان, والصابئة واليهود والنصارى، فقدموها على كتب الله وسنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ, وجعلوها قطعيات وسموها قطعيات العقل, وردُّوا كل ما جاء في كتاب الله وسنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إما بتعطيل أو تأويل أو تجهيل, ونصبوا طاغوتا حاكموا إليه نصوص الشريعة وهو أن العقل مقدم على النقل, وسيأتي بيان معنى العقل عندهم الذي هو مقدم على النقل.

وأما البدعة الثانية وهي: بدعة التصوف والغلو فيه إلى حد يخرجه إلى الزندقة والانسلاخ من الشرع.

فبيَّن أصل التصوف, وأنه ليس من الصفاء وليس من الصفوة, كذلك لا تصح نسبته إلى أهل الصُفَّة أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولا إلى غير ذلك من النِسب, وإنما النسبة الصحيحة إلى الصوف, أنهم كانوا يلبسون الصوف, وبيَّن ما عندهم من المحدثات والأحوال الشيطانية والتي جعلوها من كرامات الأولياء وما هي خرافات وإحداث في دين الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، تتضح حقيقتها عند عرضها على ميزان الشرع الحنيف.

فلما هدم هاتين البدعتين ونقضهما نقضا قامت عليه قائمة أهل الزيغ والضلال ورموه عن قوس واحدة، أكثرهم يكذب عليه، ومن لم يكذب عليه، لا يعلم حقيقة ما دعا إليه رحمه الله.

هذا هو شيخ الإسلام الذي سطَّر هذه العقيدة (العقيدة الواسطية), كتبها لأهل واسط ليبين لهم المعتقد الصحيح في أسماء الله وصفاته, وفي أركان الإيمان وفي أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ, وما كان عليه السلف الصالح من أخلاق حميدة.

فسيرته رَحِمَهُ اللهُ تحمل المرء على المثابرة وعلى الصبر في طلب العلم وفي الدعوة إلى كتاب الله وسنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ, وعلى جهاد أهل البدع وبيان الحق وبيان سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فالحق ممتحن ومنصور .... فلا تعجب فهذه سنة الرحمن.

وأما شارح هذه العقيدة، فهو الشيخ محمد خليل هرّاس, ذلك العالم السلفي ناصر السنة وقامع البدعة, أحد أعمدة أنصار السنة في مصرنا الحبيبة

وللشيخ قصة عجيبة في هدايته إلى المنهج السلفي, يحكيها تلميذه الشيخ الدكتور محمد أمان الجامي رَحِمَهُ اللهُ, ويبين لنا كيف انتقل الشيخ رَحِمَهُ اللهُ مما كان عليه من معتقد كلامي صوفي إلى عقيدة أهل السنة والجماعة.

فالشيخ الجامي رَحِمَهُ اللهُ يذكر – كما سمع من شيخه– أن الشيخ الهرّاس كان يعادي شيخ الإسلام ابن تيمية كما كان عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يعادي رسول الله قبل الإسلام, ويذكر أنه سمع ذلك مشافهة من الشيخ الهرّاس, وقد طلبوا منه رَحِمَهُ اللهُ في الجامعة أن يكتب رسالة في الرد على شيخ الإسلام ابن تيمية فيما يتعلق بنصرة أهل الكلام من الأشعرية والماتريدية وغيرهم من أهل التعطيل, فما كان من الشيخ إلا أن أقبل على كتب شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ, وعكف على دراستها ثلاثة أشهر.

يقول الشيخ رَحِمَهُ اللهُ: فبعد أن أتم الهرّاس دراسته لهذه الكتب تبين أنه لم يكن يفهم الإسلام فهمًا صحيحًا, ذلك العمر الطويل وبعد هذه الدراسة الطويلة التي درسها في الجامعة الأزهرية, وفي المرحلة الابتدائية والثانوية, فهدى الله عَزَّ وَجلَّ الشيخ الهرّاس بكتب شيخ الإسلام ابن تيمية, فكتب رسالته للدكتوراه: ابن تيمية وبيان موقفه من الفرق الكلامية, وجعل رسالته في نوال درجة الاستاذية: ابن تيمية السلفي.

وفي هذا يقول الشيخ الهرّاس في مقدمة كتابه جدليات شيخ الإسلام حول النبوات والغيبيات, وقد كتب هذا الكتاب بعد ثلاثين سنة من نوال الدكتوراه, يقول: "وها أنا ذا وبعد نحو من ثلاثين عامًا, ما زالت الرغبة في ذلك تُلح عليّ – أي: في تأليف هذا الكتاب– رغم تقدم السن ووهن القوى, بحيث لا أجد بُدًّا

من الاستجابة لتلك الرغبة, مهما كلفني ذلك من جهد قيامًا بواجب الوفاء لذلك الرجل الذي هداني الله به ونشلني من أحوال المذاهب الكلامية والأهواء المضلة."

هكذا يقول رَحِمَهُ اللهُ في بيان أثر شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ عليه.

الشيخ الهراس رَحِمَهُ اللهُ من مواليد محافظة الغربية بقرية الشين، بدأ تعليمه في الأزهر الشريف، وولد سنة ألف وتسعمائة وستة عشر من الميلاد, سنة ألف وثلاثمائة وأربع وثلاثين من هجرة المصطفى . حاز على الشهادة العالمية (الدكتوراه) من الجامعة الأزهرية في التوحيد والمنطق, وقلنا كانت رسالته في الدكتوراه بعنوان ابن تيمية ورده على مذاهب المتكلمين.

وعمل أستاذًا بكلية أصول الدين في جامعة الأزهر, ثم بعد ذلك أعير إلى المملكة العربية السعودية, وكان قبل الإعارة قد بدأ ينشط رَحِمَهُ اللهُ ويبين المذهب الحق مذهب السلف في جانب الاعتقاد في توحيد الإلهية وتوحيد الأسماء والصفات, وانتشر أمره بين أقرانه, فلما طلبته المملكة العربية السعودية للإعارة بطلب من العلامة ابن باز رَحِمَهُ اللهُ لكي يُدِّرس العقيدة في جامعة محمد بن سعود أن ذاك، اعترض الأزهر اعتراضًا شديدًا, وأبى أن يخرج ليدِّرس هذه العقيدة ولينشر مذهب السلف, وتدخل الملك فيصل رَحِمَهُ اللهُ إلى أن تمت الموافقة له على ذلك رَحِمَهُ اللهُ.

سافر ودرَّس العقيدة وأسس قسم الدراسات العليا شعبة العقيدة في كلية الشريعة, ثم عاد إلى مصر بعد ذلك وشغل منصب نائب الرئيس العام لجماعة أنصار السنة المحمدية الشيخ عبد الرحمن الوكيل في ذلك الوقت, ثم بعد ذلك

كان الرئيس العام لها بالقاهرة, وقد توطدت صلته قبل ذلك بمؤسس الجمعية الشيخ محمد حامد الفقي رَحِمَهُ اللهُ.

ثم بعد ذلك أسس رَحِمَهُ اللهُ جماعة في بلدته في محافظة الغربية سماها جماعة الدعوة الإسلامية, وكان أول رئيس لها, وكان نشيطًا جدًا في الدعوة إلى التوحيد وإلى سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ, فكان سلفي العقيدة شديدًا في الحق قوي الحجة والبيان, أفنى كل حياته في التعليم والتأليف ونشر السنة وعقيدة أهل السنة والجماعة.

كانت مقالاته الدعوية تنشر في مجلة الهدي النبوي, وكان من ضمنها مقالات بعنوان: عقيدة القرآن والسنة, يرد بهذه المقالات على عقائد المتكلمين, وله مقال كذلك بعنوان: "الله مستوٍ على عرشه ولو كره المعطلون", يرد كذلك على عقائد المعطلة الجهمية.

قال عنه فضيلة الشيخ محمد رشاد الشافعي رَحِمَهُ اللهُ, رئيس جمعية أنصار السنة: كان يلاقي رَحِمَهُ اللهُ من عنت الجبارين وكيد المبتدعين وزندقة الملحدين ما لا يطيقه إلا الصابرون المحتسبون, فظل رَحِمَهُ اللهُ طوال حياته مدافعًا عن الحديث الشريف الصحيح من اعتداءات منكري السنة, فكان رَحِمَهُ اللهُ أول من رد عليهم كيدهم, فتعرض رَحِمَهُ اللهُ لمحاولات عديدة للقتل من متشددي الصوفية ومنكري السنة, لكن الله كان أعلم بمكائدهم فنجاه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى حتى يكون شوكة في حلقهم.

كان الهراس رَحِمَهُ اللهُ غزير العلم واضح الأسلوب, فاهمًا للعقائد المخالفة لعقيدة السلف الصالح, فكان يرد في كل ذلك بعلم وحلم رَحِمَهُ اللهُ وحجة وبيان لا لَبْس فيه.

أما تلاميذه: فمن الذين تتلمذوا على يديه الشيخ الدكتور محمد أمان بن علي الجامي رَحِمَهُ اللهُ, وكذلك الشيخ علي بن ناصر الفُقيهي, وحضر له كثير من العلماء كالشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ.

له رَحِمَهُ اللهُ مؤلفات عدة, من ذلك شرحه على القصيدة النونية في مجلدين, وكذلك كتابه ابن تيمية ونقضه لمسالك المتكلمين, وهذه رسالته للدكتوراه, وتحقيق وتعليق على كتاب التوحيد لابن خزيمة, وكذلك تحقيقه لكتاب المغني لابن قدامة, وغير ذلك من الكتب التي تركها رَحِمَهُ اللهُ, والمقالات التي نُشرت والصوتيات التي فُرغت بعد ذلك ونُشرت كذلك.

توفي رَحِمَهُ اللهُ سنة ألف وثلاثمائة وخمس وتسعين, بعد ستين عامًا تقريبًا من الدعوة إلى الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى على بصيرة, فرحمه الله رحمة واسعة, ونسأل الله عَزَّ وَجلَّ أن ينفعنا بعلمه, وأن يلحقنا به على خير, وأن يثبتنا وإياكم على الصراط المستقيم.

الكتاب الذي معنا كما قلنا هو كتاب في الاعتقاد, والاعتقاد من الأهمية بمكان, لأن الزيغ فيه أمره شديد, فكل أمر من أمور الدين يأتي تبعًا للاعتقاد الصحيح, وكل قبول لعبادة العبد إنما يأتي تبعًا للاعتقاد الصحيح, فقبول الأعمال موقوف على العقيدة الصحيحة.

ولذلك لما سئل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن رجل من أهل الجاهلية كان يطعم الطعام ويقري الضيف وهو عبد الله بن جدعان, هل نفعه ذلك؟ قال: "لَا يَنْفَعُهُ، إِنَّهُ لَمْ يَقُلْ يَوْمًا: رَبِّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ".

والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بيَّن أن الله حجر التوبة على كل صاحب بدعة, فهذا بسبب فساد اعتقاده وفساد سلوكه في جانب سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ, فالاعتقاد يصحح لك الإخلاص إلى الله عَزَّ وَجلَّ ويصحح لك سلوك الطريق إليه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

الاعتقاد من الأهمية بمكان في الدنيا والآخرة, فصاحب العقيدة الصافية السليمة في أسماء الله وصفاته, وفي ربوبيته وفي ألوهيته هذا يهنأ في الدنيا والآخرة, يكفيه القليل من العمل, وهو خير ممن يعمل كثيرًا على غير هدى, على بدعة وضلالة.

ولذلك لا يكفي المرء أن يدرس كتابًا واحدًا أو كتابين أو ثلاثة كتب في الاعتقاد, لكن عليه أن يقرأ وأن يسمع وأن يتعلم في هذا الباب خاصة, لأن الشبهة فيه الآن, والسعي في تحريف العقيدة والسلوك على أشده، ولأن الزيغ فيه عظيم.

لو أن إنسانًا ضل في مسالة فقهية أو جانب الصواب في مسالة فقهية ما الذي يترتب على ذلك؟ هل يترتب على ذلك دخوله النار؟ لا يترتب على ذلك دخوله النار إن شاء الله تعالى, قال: بقول واحد من العلماء, وإن كان هذا القول ضعيفًا, غاية أمره أنه قلده.

لكن لو أنه زاغ في أمر من أمور الاعتقاد, مما يتعلق بذات الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى وصفاته، أو ركن من أركان الإيمان أو أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ, فهذا الزيغ قد يكون سببًا في هلاكه وضياعه, نسال الله السلامة والعافية.

وقد أخبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -وخبره صدق- أن هذه الأمة لابد أن تختلف وتفترق في مسائل الاعتقاد, فهذا مما يحمل المرء على عدم الاطمئنان وعلى عدم ركونه لما عنده من عقيدة يغلب على ظنه أنها عقيدة سليمة صحيحة دون البرهنة عليها بالكتاب والسنة, هذا لا يكفي, هذه العقيدة ينبغي أن تُغذى وأن تنمى وأن يحافظ عليها وأن يُنظر في دليلها المرة بعد المرة حتى تثبت وحتى يزداد المرء إيمانًا.

فأخبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن هذه الأمة ستفترق, فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "لَتَتبَعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، شِبْرًا بشبر وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ، حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَتبِعْتُمُوهُمْ", قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى؟ قَالَ: "فَمَنْ".

فأخبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن هذه الأمة ستضاهي اليهود والنصارى في اعتقادها وفي سلوكها.

وجاء عنه كذلك صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: "لَيَأْتِيَنَّ عَلَى أُمَّتِي مَا أَتَى عَلَى بني إسرائيل حَذْوَ النَّعْلِ بِالنَّعْلِ، حَتَّى إِنْ كَانَ مِنْهُمْ مَنْ أَتَى أُمَّهُ عَلاَنِيَةً لَكَانَ فِي أُمَّتِي مَنْ يَصْنَعُ ذَلِكَ، وَإِنَّ بني إسرائيل تَفَرَّقَتْ عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ مِلَّةً، وَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَى ثَلاَثٍ وَسَبْعِينَ مِلَّةً، كُلُّهُمْ فِي النَّارِ إِلَّا مِلَّةً وَاحِدَةً"، قَالُوا: وَمَنْ هِيَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: "مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي".

ففي هذا الحديث بيَّن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن هذه الأمة ستفترق, وهي حديث مشهور ثابت عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ, فهذا الافتراق واقع لا محالة, وأن النجاة لن تكون إلا لفرقة واحدة, وهذه الفرقة وإن اختلفت أسماؤها على مر العصور إلا أن صفتها واحدة, سواءً سمُّوا أهل السنة والجماعة, أو الفرقة الناجية, الطائفة المنصورة, السلفيين, فسمتهم وأصلهم واحد: كتاب الله وسنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بفهم أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ولذلك لما سئل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن هذه الفرقة الناجية ما قال أنا وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير, لكن ذكر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أوصافًا دون أعيان, فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي", أي: من منهج في الاعتقاد وفهم معين لكتاب الله وسنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وجاء كذلك عن معاوية أن رسول الله قال: "إِنَّ أَهْلَ الْكِتَابَيْنِ افْتَرَقُوا فِي دِينِهِمْ عَلَى اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ مِلَّةً، وَإِنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ سَتَفْتَرِقُ عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ مِلَّةً", يعني: الأهواء كلهم في النار إلا واحدة وهي الجماعة.

وقال: "إِنَّهُ سَيَخْرُجُ مِنْ أُمَّتِي أَقْوَامٌ تَجَارَى بِهِمْ تِلْكَ الْأَهْوَاءُ، كَمَا يَتَجَارَى الْكَلْبُ بِصَاحِبِهِ", وهو داءٌ -نسأل الله السلامة والعافية- يصيب صاحبه ولا شفاء منه, قال: "فَلَا يَبْقَى مِنْهُ عِرْقٌ وَلَا مَفْصِلٌ إِلَّا دَخَلَهُ".

بعض الناس- وقد يكون من أهل الأهواء- يرد هذا الحديث ويقول: هذا الحديث يقتضي أن أكثر أمة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في النار, وأنهم مبتدعة وأنهم مخلدون.

نقول: إن الوعيد الوارد في هذا الحديث لا يلزم منه الخلود في النار, فليس كل من تُوعد بالنار خالدًا فيها, وإلا فقد نص الشرع على الوعيد بالنار في معاصي وكبائر.

فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الكاسيات العاريات: "لَا يَدْخُلْنَ الْجَنَّةَ وَلَا يَجِدْنَ رِيحَهَا", أي: لا يدخلن دخولًا أوليًا, أو لابد أن يعذَّبن إن شاء الله أن يعذِّبهن, ثم بعد ذلك يكن من أهل الجنة لأن معهن التوحيد.

فلا يلزم من الوعيد الخلودُ في النار, هذا أولًا.

ولا يلزم من الوعيد وقوعه, لأنه لابد من وجود الشروط وانتفاء الموانع, يعني: قد لا يصدق الوعيد على من وقع فيه بسبب جهل, بسبب إكراه, بسبب تأويل, هذا ثانيًا.

ثم إن هذا الذي تقولونه كذب, لماذا هو كذب؟ لأنكم زعمتم أن أكثر الناس على ضلال, أما نحن فما زعمنا أن أكثر الناس على ضلالة وعلى مخالفة للمعتقد الصحيح, فعامة الناس فطرهم سليمة.

ولذلك لما رد العلامة المُقبلي رَحِمَهُ اللهُ على هؤلاء استقصى ذلك استقصاءً تاريخيًا من أيام النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

مَن الفرقة الناجية أيام النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ النبي وصحبه رضي الله عنهم, فأكثر الناس يومئذ الفرقة الناجية.

بعد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ التابعون, الصلاح كان منتشرًا فيهم, أتباع التابعين, الصلاح كان منتشرًا فيهم كذلك.

ثم بعد ذلك وإن قلَّ الدين في الناس إلا أن عامة الناس أصحاب فطرٍ سليمة, فلا يعني قول النبي: "كُلُّهُمْ فِي النَّارِ إِلَّا مِلَّةً وَاحِدَةً", أن أكثر الناس داخلون النار, لكن الافتراق لابد أن يقع, وهذا مما يوقع الخوف في قلب العبد.

وقد قال الله عَزَّ وَجلَّ محذرًا هذه الأمة مما وقعت فيه الأمم قبلها, قال تعالى: {وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا} [آل عمران: 105].

وقال: {إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ} [الأنعام: 159].

وقال تعالى: {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ} [الأنعام: 153].

إلى غير ذلك من النصوص التي هي من نصوص التخويف من الفُرقة, ومن نصوص الأمر بلزوم ما كان عليه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه رَضِي اللهُ عَنْهُم.

وقد وقع ما أخبر به الشرع؛ اختلف الناس وتفرقوا وكان هذا الاختلاف والتفرق لأسباب عديدة:

منها: اتباع خطوات الشيطان.

ومنها: اتباع الهوى والجهل وكيد الأعداء والتعصب والتقليد والخصومات في الدين والغلو والتنطع في الدين, إلى غير ذلك من الأسباب التي كانت سببًا في وقوع هذه الفُرقة.

لكن لما خلُص أهل السنة والجماعة من هذه الأسباب عصمهم الله عَزَّ وَجلَّ من الوقوع في الفُرقة.

وقد كانت أول البدع ظهورًا في هذه الأمة البدع العلمية, لا البدع العملية، فظهر الخلاف

ما الفرق بين البدعة العلمية والبدعة العملية؟

البدعة العلمية هي: بدعة الاعتقاد, يعني: في الأسماء والصفات, في القدر, في الإيمان بالملائكة, في الإيمان بالرسل.

وأما البدعة العملية فهي: بدعة السلوك, البدع الواقعة في كيفية عبادة الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

فالبدعة التي وقعت أولًا هي بدعة عقدية , بدعة علمية, وهذه كانت أكثر في القرون التي تبعت أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ, وهذا يبين لنا لماذا كانت أكثر مصنفات أئمتنا في البدع العلمية وفي بيان العقيدة الصحيحة فيما يتعلق بالأمور العلمية.

من ذلك كتاب التوحيد من صحيح البخاري, هذا الكتاب وإن سُمي كتاب التوحيد إلا أنه قائم على بيان المعتقد الصحيح في أسماء الله وصفاته, هذا هو الأساس الذي قام عليه هذا الكتاب.

كذلك كتاب الحافظ ابن منده في التوحيد, كتاب ابن خزيمة في التوحيد, العقيدة الواسطية, السنة للبربهاري ,السنة للخلاَّل, أصول الاعتقاد للالكائي, وغيرها من مصنفات أئمتنا. أكثر أبواب هذه الكتب في بيان العقيدة الصحيح فيما يتعلق بالأمور العلمية, لماذا؟ لأن هذ البدع هي التي ظهرت أولًا.

والسبب الثاني في كثرة التأليف فيما يتعلق بباب الاعتقاد العلمي: أن الشبهة فيه أقوى, وأهل هذه البدع أكثر عقلاً وجدالا؛ إذ بضاعتهم الكلام والسفسطة.

ولذلك تجد من منظري هذه البدع علماء في الأصول, علماء في اللغة, كالرازي, الزمخشري, الجويني, الغزالي, وكذلك من سبقهم من علماء الكلام، وشبههم قوية, ولذلك صنف الأئمة في الرد عليهم.

وأما البدع العملية –التي هي منتشرة في هذا الزمان خاصة– فيقول شيخ الإسلام ابن تيمية عنها: وأما بدع هؤلاء فأهلها أجهل, وهم أبعد عن متابعة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فالبدع العلمية كانت أكثر انتشارًا من البدع العملية.

لكن لماذا انتشرت البدع العملية في أمة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زماننا هذا ؟ لأن هذه البدع يشترك فيها كل أحد, لأنها راجعة إلى الإرادة كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية.

فجنس الناس يشتركون فيه, ما من واحد إلا وعنده إرادة لعبادة ربه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى, فكلٌ يعبد ربه على هواه ولو لم يكن عالمًا, ولو كان من أجهل الناس.

ولذلك لو أمعنت النظر أو قلبت نظرك في أرجاء المعمورة لرأيت عجبًا فيما يتعلق بالبدع العملية.

هل البدع الموجودة في مصر هي البدع الموجودة في شرق أسيا؟ هي البدع الموجودة في غرب إفريقيا؟ في وسط إفريقيا؟ البدع تختلف, وأما بدع الاعتقاد فواحدة, يعني: الأشعرية, الاعتزال, بدع واحدة, أصولها واحدة.

فالبدع الاعتقادية كما قلنا: كانت أسبق ظهورًا وانتشارًا من البدع العملية, فافترق الناس وكانت لهم أصول, وهذه الأصول خالفها وفارقها أهل السنة والجماعة.

وأجمعُ من ذكر هذه الأصول في موضع واحد -وأحسب أنه فكر فيها قبل كتابتها- هو الإمام أحمد بن حنبل رَحِمَهُ اللهُ في مقدمته لكتاب الرد على الجهمية والزنادقة. ذكر في خطبة الكتاب المشهورة من أصول أهل الأهواء والافتراق, **أصولًا عشرة**, فقال رَحِمَهُ اللهُ:

- عقدوا ألوية البدع.

إذًا: الابتداع قاسم مشترك بينهم, الابتداع والإحداث في الدين هذا قاسم مشترك بين أهل البدع, فمستقل ومستكثر.

- قال: وأطلقوا عنان الفتنة.

ولذلك كانوا أهل فتنة وفُرقة ومفارقة للسنة.

- قال: فهم مختلفون في الكتاب.

يعني: في الوحي, في الكتاب والسنة.

- قال: مخالفون للكتاب, مجمعون على مفارقة الكتاب ومعارضته, يقولون: على الله -يعني: بغير علم- وفي الله -يعني: يتكلمون في أسمائه وصفاته وفعاله وذاته بغير علم- وفي كتاب الله بغير علم, يتكلمون بالمتشابه من الكلام.

ولذلك تجد كل كلامهم متشابهًا في الأسماء والصفات والقدر والغيب, ويخدعون جُهَّال الناس بما يشبهون عليهم, فيلبسون الحق بالباطل.

ولذلك كانت أصولهم ومناهجهم مخالفة لأصول أهل السنة والجماعة, فعندهم أصول خالفوا بها أهل السنة والجماعة, وأصل ذلك المخالفة في مصادر التلقي, فمصادر التلقي عندنا الكتاب والسنة والإجماع, هذه مصادر التلقي في باب العقيدة, الكتاب والسنة وإجماع السلف الصالح.

لكن هؤلاء عندهم خلط في مصادر التلقي, فمرة يركنون للشرع, ومرة أخرى يتركون الكتاب, يستدلون بالسنة, ثم يقولون هي خبر آحاد يتركونها, يعمدون إلى أصول فاسدة ويسمونها عقليات قطعيات يعارضون بها الكتاب والسنة, مرة يميلون إلى ما عند الفرق الأخرى التي سبقت الإسلام من فلسفات فاسدة, ومرة أخرى يعتمدون على الوضع والكذب على رسول الله وعلى أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما يفعل الصوفية وكما يفعل الرافضة, مرة يركنون إلى الرؤى والأحلام والكشف والذوق, فيقولون: حدثني قلبي عن ربي، أي: لا يوجد واسطة بينه وبين ربنا سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

وأخرى يجعلون آراء الرجال وآراء أئمتهم مقدمة على كل قول وكل نقل من كتاب الله أو سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ, ثم هم متناقضون بعد ذلك فيما بينهم, فليس يجمعهم منهج واحد.

ولذلك تجد المعتزلة يردون على الأشعرية, والأشعرية يردون على المعتزلة, وهؤلاء يردون على غيرهم, وغيرهم يرد عليهم, وكلٌّ منهم قد وضع أصلاً له, يقول: هذه الأصول التي من خالفها كفر, وغيرهم يقول: هذه الأصول التي من خالفها كفر, وكلها أصول فاسدة، بل قد تجد في الفرقة الواحدة خلافات تصل إلى حد التكفير.

وأما أهل السنة والجماعة فأصولهم واحدة, وإن اختلفت بلدانهم, وإن اختلفت لهجاتهم, وإن اختلفت عصورهم, لأن مشربهم واحد, يعظمون الكتاب والسنة وفهم أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فهم أولًا يحصرون الاستدلال في الوحيين وفي إجماع أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ, الكتاب والسنة وفهم أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وأما الحجة العقلية الصحيحة عندهم فقائمة على العقليات البديهية التي يقر بها كل عقل سليم, وليس العقليات الفاسدة التي أحدثها المتكلمون.

ثم هم يراعون قواعد الاستدلال, فيقدمون المقدم ويؤخرون المؤخر, ولا يضربون نصوص الوحيين ببعضها, ولا يستدلون بالمتشابه لرد المحكم, بل يردون المتشابه إلى المحكم, لأن الله عَزَّ وَجلَّ قال: {مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ} [آل عمران: 7], ما معنى {أُمُّ الْكِتَابِ}؟ أي: أصل الكتاب, هذه الآيات هي التي يُرد إليها كل متشابه في كتاب الله وفي سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ثم هم يعملون بكل ما صح عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ, لا يفرقون بين آحاد ومتواتر, فكل ما جاء عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وثبت فهو حق, ولذلك هم أسعد الناس بلقب أهل السنة، وبشرف هذا الانتساب.

وأنا قلت قبل ذلك في هذا المكان: هؤلاء الذين يردون أخبار الآحاد فيما يتعلق بالمعتقد لو أن الواحد منهم خرج ليناظر بعض الحداثيين, بعض التنويريين كإسلام بحيري أو إبراهيم عيسى أو غيرهم ممن طمس الله على قلوبهم, لو أنه خرج ليناظره في حجية سنة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ, فاحتج عليه

بحديث في صحيح البخاري في إثبات اليد لله, وفي إثبات العين لله, وهؤلاء لا يُثبتون يدًا ولا عينًا لله عَزَّ وَجلَّ لأنهم يقولون: هذه جارحة, وإنما اليد بمعنى: القدرة, والعين بمعنى: الرعاية والحفظ.

كيف يكون الجواب؟ يعني: لو قال له: هذا الحديث الذي فيه إثبات اليد لله عَزَّ وَجلَّ: "الْمُقْسِطُونَ عِنْدَ اللهِ عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ عَنْ يَمِينِ الرَّحْمَنِ، وَكِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ", الحديث في البخاري.

لو جاء له هذا التنوير أو هذا الظلام بهذا الحديث ليُثبت العقيدة في يد الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى كيف يجيب من يرد خبر الآحاد؟

يقول له: هذا خبر آحاد غير معمول به في الاعتقاد, إذًا: كيف نصر سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وذب عن صحيح البخاري؟

أما أهل السنة فلا يفرقون بين آحاد ولا عزيز ولا مشهور ولا متواتر, كلٌ يؤخذ من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طالما أنه صح عنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ثم هم يفارقون أهل البدع في اعتماد تفسير أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للنصوص, هذا لا تجده إلا عند أهل السنة والجماعة.

ولذلك تمتلئ كتبهم بالنقل عن أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعن التابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

ثم هم يجتنبون الألفاظ البدعية في العقيدة, فلا تجد الواحد منهم يتكلم لا بالعرض ولا بالجوهر ولا بالجسم ولا بالجهة ولا بغير ذلك من الألفاظ الدخيلة المجملة التي لم ترد في كتاب الله وفي سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ثم إنهم يُجْرون النصوص على ظاهرها دون تأويل, لأن الذي قالها هو ربنا سُبْحَانَهُ وَتعَالَى وهو أعلم بمراده من غيره, والذي نقلها هو رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو أعلم بمراد ربه من غيره, ثم أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ العدول نقلوا ذلك دون تعرض لهذا الظاهر وما قال واحد منهم إنه غير مراد, فأسعد الناس بكل ذلك هم أهل السنة والجماعة.

ولذلك سطَّر شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ هذه العقيدة التي هي العقيدة الواسطية ليبين لنا ما كان عليه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين من أئمة الهدى ومصابيح الدجي فيما يتعلق بالاعتقاد الصحيح.

ولذلك تجد هذه العقيدة مبناها على قال الله وقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبعض النقول عن أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وما تقتضيه لغة العرب.

لا تجد أصولًا فاسدة ولا عقليات كاسدة, وإنما هي عقيدة سهلة ميسورة كما قلنا مشروحة بواسطة هذا العلامة رَحِمَهُ اللهُ محمد خليل هرّاس, واخترنا أن يكون الشارح هو الشيخ الهراس لأنه أزهري, وكم في الأزهر ممن يعتقدون منهج أهل السنة والجماعة!!

لكن أبى الله في هذه الأزمان إلا أن يظهر أهل البدع, وأن تكون كلمتهم هي الرائجة السائدة في وسائل التواصل الاجتماعي وفي التلفاز وغير ذلك, لكن كل ذلك لا يروج على أصحاب الفطر السليمة, فأهل السنة والجماعة وإن كانوا قِلة

إلا أنهم منصورون, منصورون بالبيان والحجة, لأن حجتهم أقوى وأعلى وأسمع وأوقع في قلوب الناس.

أنت ما تذكر على كل مسالة إلا قول الله وقول رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وما كان عليه أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

لكن لو أنك جلست مجلسًا كهذا يُشرح فيه مثلاً أساس التقديس للرازي, أو يُشرح فيه الاقتصاد في الاعتقاد للغزالي, أو جوهرة التوحيد بنظمها التي تدرس في الأزهر, لا تسمع آية ولا حديثا إلا على سبيل الشُبهة, فيتكلم في الجسم, وأن الله منزه عن الجسم, وعن الجوهر وعن العرض, فلا صفة له ولا مكان له ولا كذا وكذا ولا كذا, يعبد عدمًا.

ثم يقول: فإن قال لك قائل: قد جاء عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه سأل جارية: **"أَيْنَ اللَّهُ؟"**، قَالَتْ: فِي السَّمَاءِ، قَالَ: **"مَنْ أَنَا؟"** قَالَتْ: أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ، فقَالَ للصحابي معاوية بن الحكم السُلمي راوي الحديث: **"أَعْتِقْهَا فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ"**.

فالجواب عن هذه الشبهة من وجوه:

أما الوجه الأول هذا يقوله الكوثري –عليه من الله ما يستحق-, وهو من جهمية العصر, ومن أشد الناس حنقًا على أهل السنة والجماعة, محمد زاهد الكوثري.

فيقول: أما الجواب الأول: فراوي هذا الحديث وإن كان من أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلا أنه لم يكن من فقهائهم, بل كان أعرابيًا ولا يُعرف له إلا هذا الحديث.

والأمر الثاني: أن هذه الجارية جارية لا تعرف شيئًا, فلو كلمها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالمعقولات فلربما كان ذلك سببًا في إعراضها عن الإيمان, ولذلك وَكَلَهَا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى ما عندها!!

يعني: كأنها قالت الباطل وأقرها عليه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

والجواب الثالث: أن رواية الحديث بالمعنى كانت منتشرة عند نقلة الحديث, فلربما كان هذا الحديث من الرواية بالمعنى فغيروا فيه وبدلوا ولم يكن السؤال بـ(أين), إلى غير ذلك من الأجوبة.

يقول: الله عَزَّ وَجلَّ ليس له مكان, فإذا قال قائل: لكن جاء في السنة: "يَنْزِلُ رَبُّنَا تبارك وتعالى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرُ", فنقول الجواب: أن هذا من أخبار الآحاد, وأخبار الآحاد إذا عارضت العقليات القطعيات فإنها تُرد.

وهل المراد بالعقل القطعي هذا آية في الكتاب؟ ليس آية في كتاب الله, إذًا: ما المراد بالعقليات القطعيات؟ ما وضعوه من قواعد وعقليات فاسدة, مبناها على عقل اليونان وفلسفة اليونان والصابئة واليهود والنصارى.

بعض الناس طبعًا لما يسمع كلمة عقل وقطعي وأن العقل إذا تعارض مع النقل يُقدم العقل يظن أن العقل هاهنا هو العقل البديهي الذي يشترك في جميع الناس, وهذا خطأ.

لكن يقصد بالعقل هنا إذا كان المتكلم أشعريًا يقصد به عقل الأشعري, إذا كان المتكلم معتزليًا يقصد به عقل المعتزلي, لا يقصد به العقل الذي يشترك فيه

جميع الناس من الأمور البديهية التي تقرها العقول السليمة, فقلَّ ما تجد آية أو حديثًا في كتب هؤلاء.

{لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} [الشورى: 11], وكذلك هذه الآية لما استدلوا بها كان الاستدلال لتعطيل الله عَزَّ وَجلَّ عن صفاته, إلى غير ذلك من الطرق المنحرفة المخالفة لمنهج أهل السنة والجماعة.

ولذلك أهل السنة والجماعة كانوا أسعد حظًا وأوفر حظًا بنصوص الكتاب والسنة.

وصل الحال ببعضهم أن يقول: لودِدتُّ أني حككت هذه الآية من المصحف!

الجعد أو الجهم يقول هذه الكلمة, يريد أن يحك الرحمن على العرش استوى من المصحف حتى لا يكون لها أثر, حتى لا يمر عليها إذا قرأها.

وصل الأمر ببعضهم أن يقول في حديث: حدثنا الصادق المصدوق: "إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً".

يقول: لو سمعت الشعبي لرددته عليه, لو سمعت ابن مسعود لرددته عليه, لو سمعت رسول الله لرددته عليه! لو سمعت الله يتكلم به لقلت له: ما على هذا أخذت العهد عليه! مع أنه ثابت عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أعلم الخلق بربه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فعندهم جرأة عجيبة على نصوص الكتاب والسنة! وأما أهل السنة والجماعة فهم أكثر الناس تعظيمًا لنصوص الكتاب والسنة, فاحمدوا الله عباد الله على هذه النعمة.

فنسأل الله عَزَّ وَجلَّ أن يثبتنا عليها وأن يتوفانا على ذلك إنه ولي ذلك والقادر عليه.

وإن شاء الله في الدرس القادم نبدأ في هذه العقيدة المباركة, العقيدة الواسطية لشرح الشيخ محمد خليل هرّاس.

الدرس الثاني

إن الحمد لله, نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله تعالى من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله, صلى الله عليه, وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد:

فنشرع اليوم إن شاء الله في قراءة العقيدة الواسطية وشرح الشيخ الهراس عليها، وهذا هو الدرس الأول في قراءة هذه العقيدة المباركة.

العقيدة –بارك الله فيكم- مأخوذة من العقد.

قال ابن فارس: العين والقاف والدال أصل واحد يدل على شَدٍّ وشِدةِ وثوق، وإليه ترجع فروع الباب كلها، ومنه عقد الحبل وعقد اليمين وعقود البيع، وكذلك العقيدة والاعتقاد، فمدار هذه الكلمة على الشدة وعلى الوثوق وعلى الجزم والإحكام.

وأما العقيدة في الاصطلاح فيراد بها ما عقد المرء قلبه عليه عقدًا جازمًا.

كل ما عقد المرء عليه قلبه عقدًا جازمًا فهو عقيدة, سواء كان حقًا أو باطلاً، فإن هناك كثيرًا من العقائد الباطلة فيما يتعلق بعبادة الرب تبارك وتعالى أو أسمائه وصفاته، أو أصول الإيمان وأركانه.

وأما العقيدة السليمة: فهي ما عقد المرء قلبه عليه عقدًا جازمًا وصدقه وآمن به فيما يتعلق بأمور الغيب فيصدقها، وتوحيد الرب مع البراءة مما يخالف ذلك من الكفر والشرك والابتداع.

فهذا هو معنى العقيدة السليمة: ما ينعقد عليه قلب المرء انعقادًا جازمًا لا شك فيه ويصدق بذلك ويؤمن به فيما يتعلق بتصديق الغيب وتوحيد الرب تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وهذا يشمل توحيد الربوبية والألوهية والأسماء والصفات، مع البراءة مما يخالف ذلك من الكفر والشرك والابتداع، وذلك لأن الدين مبناه على النفي والإثبات.

كما قال الله عَزَّ وَجلَّ: {فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} [البقرة: 256]، فلابد من اجتماع التخلية والتحلية، أو التسبيح والتحميد.

هذا هو معنى العقيدة.

وعندنا ألفاظ قد تتداخل وقد يختص بعضها ببعض الأمور، فمن ذلك التوحيد, ما الفرق بين التوحيد والعقيدة؟

التوحيد أخص من العقيدة، فالعقيدة أعم والتوحيد أخص، لأن التوحيد يتعلق بإثبات ما اختص الله به ولم يشركه معه غيره، هذا هو التوحيد ولذلك ينقسم إلى:

توحيد ربوبية، أي: إثبات ما اختص الله عَزَّ وَجلَّ به من الأفعال.

وتوحيد ألوهية، أي: إثبات ما اختص الله عَزَّ وَجلَّ به من عبادة خلقه له.

وتوحيد الأسماء والصفات: إثبات ما اختص الله عَزَّ وَجلَّ به من الأسماء الحسنى والصفات المثلى.

فالتوحيد أخص من العقيدة.

وكذلك مما يتعلق بهذا الباب المنهج، كلمة المنهج, وهي أوسع الكلمات, فهي أوسع من العقيدة.

كما يقول العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ: إذ إن المنهج هو ما يسير عليه العبد في عقيدته وأقواله وأفعاله وتوحيده، وأما العقيدة فهي عقد القلب، كما أن المنهج في الغالب يتعلق بالظاهر بخلاف العقيدة فإنها تتعلق بالأمور الباطنة.

إلا أن العقيدة والمنهج من الكلمات التي إذا اجتمعت افترقت وإذا افترقت اجتمعت, كالإسلام والإيمان، والفقير والمسكين، والبر والتقوى.

فلو أُطلقت كلمة العقيدة فإنها تشمل المنهج، ولذلك هذه العقيدة تسمى بالعقيدة الواسطية, وفيها مباحث تتعلق بالمنهج والسلوك، وإذا أُطلقت كلمة المنهج فإنها كذلك يدخل فيها العقيدة التي يعتنقها المرء.

هذه العقيدة تسمى بالعقيدة الواسطية.

والسبب في هذه التسمية: هو أن ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ كتبها لأهل واسط، كتبها ليُبين لهم المعتقد الصحيح معتقد أهل السنة والجماعة، جاءه رجل من واسط وطلب منه أن يكتب له المعتقد الصحيح، فدله ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ على علماء غيره ممن هم على منهج أهل السنة والجماعة، فأبى الرجل إلا أن يأخذ هذه العقيدة من ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ.

ويمكن تسميتها كذلك بالعقيدة الوسطية ؛ لأن هذه العقيدة بيَّنت منهج أهل السنة والجماعة الذي هو وسط بين الفِرق كما أن الإسلام وسط بين الملل، فهي عقيدة وسطية لا إفراط فيها ولا تفريط، لا غلو فيها ولا جفاء.

وهذه العقيدة على مذهب السلف الصالح، مبناها على ما كان عليه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه الكرام, ومن تبعهم بإحسان من الأئمة الأعلام، فلا تجد فيها كلامًا لأهل البدع ولا ألفاظًا مجملة ولا تدليلاً على مسائل العقيدة بأمور مُحدثة، وإنما مبناها على منهج استدلالي صحيح وهو الكتاب والسنة بفهم سلف الأمة، وهذا هو المذهب الحق المأثور عن النبي وصحبه ومن تبعهم من الأئمة.

وأتباع هذا المنهج بلا شك هم الفرقة الناجية, وهم الطائفة المنصورة, وهم من عناهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما سُئل عن الفرقة الناجية من بين الفرق الثلاث والسبعين التي ذكرها، قال: **"من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي فهم هذه الطائفة"**.

وإن اختلفت أسماؤهم فكانت هذه الفرقة في زمان ما تسمى بأهل السنة والجماعة، وفي زمان آخر تسمى بالطائفة المنصورة، وفي زمان ثالث تسمى بالفرقة الناجية، وفي زمان آخر تسمى بأهل الحديث، وفي زمان معاصر تسمى بالسلفيين، فهذه الأسماء كلها ترجع إلى منهج واحد مستقيم، نسأل الله عَزَّ وَجلَّ أن يثبتنا وإياكم عليه.

وهذا المنهج وهذه الطريقة هي أعلم وأسلم وأحكم، خلافًا لما قال به أهل التجهيل من أهل البدع والتحريف, فإنهم قالوا مقولة ردية ظنوا أنهم بذلك نصروا السلف ولم يعيبوهم وحفظوا مكانتهم وعلمهم، فقالوا: منهج السلف أسلم، ومنهج الخلف أعلم وأحكم.

وهم بذلك يقدحون في سلف هذه الأمة، يقدحون في النبي وأصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وفي القرون الخيرية، يقولون: منهج السلف أسلم، ومنهج الخلف -أي: الذين جاءوا بعد السلف- أعلم وأحكم.

وهي عبارة متناقضة, إذ كيف يكون المنهج أسلم ثم لا يكون أعلم ولا أحكم؟! ثم هم بذلك يزعمون أنهم أعلم من النبي وصحبه, وأكثر حكمة من النبي وصحبه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ولذلك لو نظرنا في تفسيرهم لهذه الكلمة (أسلم) لوجدنا أنهم يعنون بها أنهم سلموا من التعرض لمعاني النصوص, فجعلوهم من أهل الجهالة، فزعموا أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصحبه كانوا يقرؤون النصوص دون معرفة بمعانيها!

فكان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقرأ: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} [طه: 5]، ولا يدري معنى استوى، {بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ} [المائدة: 64]، ولا يدري معنى اليدين، وكان يذكر لهم: ينزل ربنا في الثلث الأخير من الليل ولا يدري معنى النزول.

ويزعمون أن الصحابة سكتوا عن هذه المعاني لأنهم ما كانوا يعرفونها! ثم هم تكلموا بعد ذلك في هذه المعاني, فقالوا: إن الاستواء بمعنى: الاستيلاء، وإن النزول هو نزول الرحمة، وإن اليدين يقصد بهما القدرة أو النعمة، فحرَّفوا فقالوا: نحن أعلم بالمعاني ممن سبقنا ومنهجنا أحكم, فضلوا وأضلوا، وقد نقض شيخ الإسلام هذه المقولة ووصف قائليها بالأغبياء في صدر فتواه الحموية الكبرى.

وذلك لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصحبه رضي الله عنهم لما سكتوا عن معاني هذه النصوص ولم يتعرضوا لها بتأويل دل ذلك على أن الأصل هو إجراء هذه النصوص على ظاهرها دون تأويل، وهذا هو معنى قول السلف: أمروها كما جاءت، ولا تفسروها، أي: لا تفسروها تفسير أهل الكلام من الجهمية المعتزلة.

فهذا المنهج عباد الله هو المنهج الصحيح، وهذا المنهج هو الذي سار عليه شيخ الإسلام في هذه العقيدة, وسار عليه الشيخ الهراس رَحِمَهُ اللهُ في شرحه لهذه العقيدة.

قال الشيخ الهراس رَحِمَهُ اللهُ في مقدمته لشرحه:

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ، وَالصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ عَلَى أَشْرَفِ الْمُرْسَلِينَ، نَبِيِّنَا محمَّد، عَبْدِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ ومَن تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ:

فَلَمَّا كَانَتِ ((الْعَقِيدَةُ الْوَاسِطِيَّةُ)) لِشَيْخِ الْإِسْلاَمِ ابْنِ تَيْمِيَّةَ رحمه الله مِنْ أَجْمَعِ مَا كُتِبَ فِي عَقِيدَةِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ، مَعَ اختصارٍ فِي اللَّفْظَةِ، ودقَّة فِي الْعِبَارَةِ، وَكَانَتْ تَحْتَاجُ فِي كَثِيرٍ مِنْ مَوَاضِعِهَا إِلَى شَرْحٍ يجلِّي غَوَامِضَهَا، وَيُزِيحُ السِّتَارَ عَنْ مَكْنُونِ جَوَاهِرِهَا، وَيَكُونُ مَعَ ذَلِكَ شَرْحًا بَعِيدًا عَنِ الْإِسْهَابِ وَالتَّطْوِيلِ وَالْإِمْلاَلِ بِكَثْرَةِ النُّقول، حَتَّى يُلاَئِمَ مَدَارِكَ النَّاشِئِينَ، وَيُعْطِيَهُمْ زُبْدَةَ الْمَوْضُوعِ فِي سُهُولَةٍ وَيُسْرٍ؛ فَقَدِ استخرتُ اللَّهَ تبارك وتعالى، وأقدمتُ عَلَى هَذَا الْعَمَلِ؛ رَغْمَ

كَثْرَةِ الشَّوَاغِلِ، وَزَحْمَةِ الصَّوَارِفِ؛ سائلاً الله عز وجل أَنْ يَنْفَعَ بِهِ كُلَّ مَنْ قَرَأَهُ، وَأَنْ يَجْعَلَهُ خَالِصًا لِوَجْهِهِ؛ إِنَّهُ قريبٌ مجيبٌ.

فبيَّن الشيخ رَحِمَهُ اللهُ في هذه المقدمة الحامل له على شرح هذه العقيدة، فشرحها لكونها جامعة لعقيدة أهل السنة والجماعة، والذي ينظر في متن هذه العقيدة يجد أنه لم يخرج عنها إلا مسائل معدودة، فحوت جُلَّ أصول الاعتقاد التي عليها أهل السنة والجماعة.

وكذلك من الأمور التي حملته على شرح هذه العقيدة: أنها بحاجة إلى شرح، كما قال: يُجلي الغوامض ويزيح الستار عن مكنون ما بها من جواهر، فانتدب الشيخ رَحِمَهُ اللهُ نفسه ليقوم بهذا الأمر، بعد استخارة الله تعالى، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يعلم أصحابه الاستخارة كما يعلمهم السورة من القرآن، لما لها من أثر عظيم في توفيق العبد لبلوغ مراده وسعادته في الدارين، ولعل الشيخ الهراس أقدم على هذا العمل رغم كثرة مشاغله لشدة عنايته رحمه الله بعقيدة السلف، وكذلك ردا لبعض جميل شيخ الإسلام عليه رحمهما الله تعالى. والعقيدة الواسطية لها شروح كثيرة مطبوعة ومسموعة، تأتي دراستها قبل دراسة الحموية والتدمرية لأنها عقيدة صافية لم تتعرض لشبهات من انحرف في هذا الباب، أعني باب التوحيد والقدر.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ في صدر هذه العقيدة المباركة:

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الَّذي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللهِ شَهِيدًا.

وأَشْهَدُ أَن لَّا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ إِقْرَارًا بِهِ وَتَوْحِيدًا.

وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ تسليمًا مَزِيدًا.

قال الشيخ الهراس رَحِمَهُ اللهُ في قول المصنف: بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ.

قال: اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي الْبَسْمَلَةِ؛ هَلْ هِيَ آيَةٌ مِنْ كُلِّ سُورَةٍ افتُتِحت بِهَا؟ أَوْ هِيَ آيَةٌ مُسْتَقِلَّةٌ أُنزلت لِلْفَصْلِ بِهَا بَيْنَ السُّوَرِ وللتبرُّك بِالابْتِدَاءِ بِهَا؟

قال: وَالْمُخْتَارُ: الْقَوْلُ الثَّانِي.

فالذي اختاره الهراس أن البسملة آية مستقلة أنزلها الله عَزَّ وَجلَّ للفصل بين السور، وهذا القول هو الذي رجحه كذلك شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ في مجموع فتاويه.

وأما القول الثاني: أنها آية من كل سورة افتتحت بها خلا سورة براءة, فإنها لم تُفتتح ببسم الله الرحمن الرحيم، وذكروا علة لذلك سيذكرها الشيخ رَحِمَهُ اللهُ.

قال: واتَّفقوا عَلَى أَنَّهَا جُزْءُ آيَةٍ مِنْ سُورَةِ النَّمْلِ.

{إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣٠) أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ} [النمل: 30-31].

فاتفقوا أنها جزء آية من سورة النمل هذا لا خلاف فيه، لكن الذي اختلفوا فيه هل هي آية من الفاتحة أم لا؟ هل هي آية من كل سورة أم لا؟

وهذا لا يعني اختلافهم في كونها آية من القرآن فهذا لا خلاف فيه، فالبسملة آية من القرآن؛ إذ لم يكتب في المصحف إلا كلام ربي تبارك وتعالى.

بل جاء عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وحسنه الشيخ الألباني أو صححه ما هو نص في أنها آية من الفاتحة.

فجاء عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قوله: "**وبسم الله الرحمن الرحيم آية منها**"، أي: من الفاتحة، وهذا نص يدل على أنها الآية الأولى من سورة الفاتحة.

قال: واتَّفقوا عَلَى أَنَّهَا جُزْءُ آيَةٍ مِنْ سُورَةِ النَّمْلِ، وَعَلَى تَرْكِهَا فِي أَوَّلِ سُورَةِ بَرَاءَةٌ.

يعني: اتفقوا على ذلك، لِأَنَّهَا جُعِلَت هِيَ وَالْأَنْفَالُ كَسُورَةٍ وَاحِدَةٍ.

وقالوا كذلك سبب عدم افتتاحها بالبسملة: لأن (براءة) إنما خُلِّصت للكلام عن المنافقين, ولذلك لم تُفتتح بالبسملة.

قال: وَالْبَاءُ فِي ((بِسْمِ)) لِلاِسْتِعَانَةِ، وَهِيَ مُتَعَلِّقَةٌ بِمَحْذُوفٍ، قدَّره بَعْضُهُمْ فِعْلاً، وقدَّره بَعْضُهُمُ اسْمًا، وَالْقَوْلَانِ مُتَقَارِبَانِ، وبكلٍّ وَرَدَ فِي الْقُرْآنِ؛ قَالَ تَعَالَى: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ} .

وَقَالَ: {بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا}.

ففي الآية الأولى قال: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ}، فظهر هاهنا الفعل، فالمقدر فعل.

وقال في الآية الثانية: {بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا}، وهذا اسم, فقالوا: إما أن يُقدر المحذوف فعلاً أو اسمًا.

ورجح بعضهم وهو الشيخ ابن عثيمين: أن المقدر الفعل، قال: وذلك لأن الأصل في العمل هو الفعل وليس الاسم, والأمر قريب.

قال: وَيَحْسُنُ جَعْلُ المقدَّر مُتَأَخِّرًا.

أيه هل تقول: آكل بسم الله أم بسم الله آكل؟ بسم الله أقرأ، بسم الله أكتب، بسم الله أنام؟

قال: وَيَحْسُنُ جَعْلُ المقدَّر -يعني: غير المذكور- أن يأتي مُتَأَخِّرًا.

لماذا؟ عللوا ذلك كما قال الشيخ: لِأَنَّ الِاسْمَ أَحَقُّ بِالتَّقْدِيمِ، وَلِأَنَّ تَقْدِيمَ الْجَارِّ وَالْمَجْرُورِ يُفِيدُ اخْتِصَاصَ الِاسْمِ الْكَرِيمِ بِكَوْنِهِ متبَرَّكًا بِهِ.

فتقديم ما حقه التأخير يفيد الاختصاص والاهتمام، فأنت قدمت اسم الله لتتبرك به.

قال: وَالِاسْمُ هُوَ اللَّفْظُ الْمَوْضُوعُ لِمَعْنًى تَعْيِينًا لَهُ أَوْ تَمْيِيزًا.

وهذا هو الاسم في لغة العرب، ولم يقترن بأحد الأزمنة الثلاثة المعروفة التي تدل على المضي أو الحال أو الاستقبال.

قال: واختُلِفَ فِي أَصْلِ اشْتِقَاقِهِ.

يعني: كلمة الاسم مشتقة من ماذا؟ ما فعلها؟

فَقِيلَ: إِنَّهُ مِنَ السِّمَةِ؛ بِمَعْنَى: الْعَلَامَةِ, وَقِيلَ: مِنَ السُّمُوِّ, وَهُوَ الْمُخْتَارُ.

وَهَمْزَتُهُ هَمْزَةُ وَصْلٍ.

هذا الاختلاف منقول عن البصريين والكوفيين، عن مدرستي النحو بالعراق، مدرسة البصرة وهي التي عليها جمهور أهل العلم من النحويين، ورأيها غالبًا يكون هو الصواب.

قالت مدرسة البصرة: الاسم مشتق من السمو فأصله الفعل (سَمَوَ).

ما معنى (سَمَوَ)؟ أي: علا وارتفع.

ومنه سُميت السماء سماءً لعلوها وارتفاعها، فالاسم يعلو على المسمى ويدل على ما تحته، كما قال المُبرِّد.

فالاسم يعلو على المسمى، صلاح، ومحمد ، وأحمد يعلو على الذات المسماة بهذا الاسم ويدل عليه، فيكون فوقه ويسمو عليه.

قالوا: فالاسم مأخوذ من السمو.

وأما الكوفيون فقالوا: هو مشتق من الوسم، من الفعل (وَسَمَ).

ما معنى (وَسَمَ)؟ أي: علَّم عليه، مشتق من الوسم، أي: العلامة، فالاسم سمة توضع على الشيء يُعرف بها.

فإذا قيل: عمر- معروف من هو عمر، علي- معروف من هو علي.

والصواب في الاشتقاق هو قول البصريين, ولهم علل في ذلك مذكورة في غير هذا الموضع، والأمر قريب ولا يترتب عليه خلاف عقدي ولا مخالفة عقدية، لكنها مسألة لغوية.

ثم قال: وَلَيْسَ الاِسْمُ نَفْس المسمَّى؛ كَمَا زَعَمَ بَعْضُهُمْ، فَإِنَّ الاِسْمَ هُوَ اللَّفْظُ الدَّالُّ، والمسمَّى هُوَ الْمَعْنَى الْمَدْلُولُ عَلَيْهِ بِذَلِكَ الاِسْمِ.

وَلَيْسَ هُوَ كَذَلِكَ نَفْسَ التَّسْمِيَةِ؛ فَإِنَّهَا فِعْلُ المسمِّي.

فإذا سميت فلانًا فهذه تسمية وهي فعله.

يُقَالُ: سميتُ وَلَدِي مُحَمَّدًا؛ مَثَلاً.

والصحيح في ذلك: أن يقال الاسم للمسمى، فلا يقال هو المسمى، ولا يقال غير المسمى.

وقد تعرضوا في ذلك لمسألة تتعلق بذات الله وأسمائه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، هل أسماؤه هي هو أم هي غيره؟

فالذي جاء في القرآن والسنة ألا يقال إن أسماء الله هي الله، ولا يقال إن أسماء الله هي غيره، وإنما يقال الاسم للمسمى، فأسماء الله له ليست هي هو وليست هي غيره, لا يُطلق ذلك، لما في ذلك من إجمال، وإنما يقال أسماء الله له تختص به.

من أين جئنا بهذا المذهب الصحيح؟

قال الله عَزَّ وَجلَّ: {وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا} [الأعراف: 180]، فاللام للاختصاص.

وقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إِنَّ لِلهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا، مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ".

فالصحيح في مسألة الاسم هل هو للمسمى أم ليس للمسمى أم هو غيره؟ يعني: هل هو هو أم هو غيره؟ أن يقال الاسم للمسمى.

قال الشيخ الهراس: وَقَوْلُ بَعْضِهِمْ: إِنَّ لَفْظَ الِاسْمِ هُنَا مُقْحَمٌ؛ لِأَنَّ الِاسْتِعَانَةَ إِنَّمَا تَكُونُ بِاللَّهِ عز وجل لَا بِاسْمِهِ.

يعني: بعض من تكلم في البسملة، قال: لفظة الاسم مقحمة هاهنا زائدة، ولا يقال تأدبًا مع الله عَزَّ وَجلَّ وتأدبًا مع القرآن إن في القرآن شيئًا زائدًا، إنما يعبرون عن ذلك بأنه صلة جيء به للتوكيد أو لغرض بلاغي.

فقال بعضهم: إن لفظ الاسم مقحم، وإنما يقال: (بسم بالله الرحمن الرحيم)، فالأصل ألا يُذكر الاسم ولا تذكر هذه اللفظة.

قال الشيخ الهراس: وهذا لَيْسَ بِشَيْءٍ.

يعني: هذا القول ضعيف لا يُعتد به.

لِأَنَّ الْمُرَادَ ذِكْرُ الِاسْمِ الْكَرِيمِ بِاللِّسَانِ.

هذا مطلوب هاهنا.

كَمَا فِي قَوْلِهِ تعالى: {سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى}, أَيْ: سبِّحْهُ نَاطِقًا بِاسْمِ رَبِّكَ، متكلِّمًا بِهِ، فَالْمُرَادُ التبرُّك بِالِابْتِدَاءِ بِذِكْرِ اسْمِهِ تَعَالَى.

قال: وَاسْمُ الْجَلَالَةِ.

(بسم الله)، فالله هو اسم الجلالة، ويقال هو الاسم الحسن، والأولى ألا يقال لفظ الجلالة، لأن هذه الكلمة كلمة مُحدثة غير واردة في كلام السلف.

ولذلك كما قلنا قبل ذلك: لو فتشت في تفاسير السلف المتقدمة وتفاسير أئمتنا المتقدمين لما وجدت هذه اللفظة (لفظ الجلالة), لكنه الاسم الحسن.

قال: وَاسْمُ الْجَلَالَةِ؛ قِيلَ: إِنَّهُ اسْمٌ جامدٌ غَيْرُ مشتقٍّ.

يعني: كلمة (الله)، قالوا: هذا اسم جامد، يعني: لا فعل له، هو جامد علم مرتجل على الله عَزَّ وَجلَّ يدل عليه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، لماذا قالوا ذلك؟

قال: لِأَنَّ الِاشْتِقَاقَ يَسْتَلْزِمُ مَادَّةً يُشْتَقُّ مِنْهَا.

هذا كلام أشبه بكلام المتكلمين, وليس أشبه بالكلام السُني السلفي.

قالوا: لِأَنَّ الِاشْتِقَاقَ يَسْتَلْزِمُ مَادَّةً يُشْتَقُّ مِنْهَا، وَاسْمُهُ تَعَالَى قَدِيمٌ، وَالْقَدِيمُ لَا مادَّةَ لَهُ.

أما تسمية الله عَزَّ وَجلَّ بالقديم فهذا غير وارد لا في الكتاب ولا في السنة، وإنما الذي ورد الأول الذي ليس قبله شيء والآخر الذي ليس بعده شيء، فلا يسمى الله عَزَّ وَجلَّ بالقديم وإنما يوصف بالأولية، فهذه صفته وهذا اسمه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

قالوا: فَهُوَ كَسَائِرِ الْأَعْلَامِ المَحْضَة، الَّتِي لَا تتضمَّن صفاتٍ تَقُومُ بمسمَّياتِها.

وهذا كلام المعتزلة هم الذين يقولون: هو سميع بلا سمع، بصير بلا بصر، يقولون: إن اسمه لا يتضمن صفة، لشبهة متهافتة خلاصتها أن تعدد الصفات من رحمة ورأفة وسمع وبصر يعني تعدد الذوات والقدماء، وهذا يوافق اعتقاد النصارى، هكذا قالوا، وهذا كلام باطل لا يصح عقلا ولا شرعا، فإن القرآن والسنة يدلان على اتصاف الله عَزَّ وَجلَّ بكثير من الصفات التي تضمنتها أسماؤه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، وهي صفات لموصوف واحد سبحانه، وإذا كان هذا متصورا في المخلوق دون وجه نقص فالخالق من باب أولى كما بين ذلك الإمام أحمد في رده على الجهمية.

فسمَّى نفسه الرحيم ووصف نفسه بأنه يرحم، قال الله عَزَّ وَجلَّ: {بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ}.

وقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "ارْحَمُوا من في الأرْضِ، يَرْحَمْكُمْ من في السَّماءِ".

فوصف ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى بأنه يرحم وأن من فعله الرحمة، وهذا في سائر الأسماء والصفات، فهذا القول هو قول المعتزلة.

قال: وَالصَّحِيحُ أَنَّهُ مشتقٌّ.

الصحيح: أن اسم الله مشتق، أي: له فعل ويتضمن صفة.

قال: واختُلِفَ فِي مَبْدَأِ اشْتِقَاقِهِ، فَقِيلَ: مِنْ أَلَهَ يَأْلَهُ أُلوهَةً وإِلاهَةً وأُلوهِيةً؛ بِمَعْنَى: عبدَ عِبَادةً.

وَقِيلَ: مِنْ أَلِهَ – بِكَسْرِ اللاَّمِ – يَأْلَهُ – بِفَتْحِهَا – أَلَهًا؛ إِذَا تحيَّر.

قال الشيخ: وَالصَّحِيحُ الأَوَّل، فَهُوَ إِلهٌ؛ بِمَعْنَى مأْلوهٍ؛ أَيْ: مَعْبُودٍ.

فالله، أي: المعبود محبةً وتعظيمًا.

قال: وَلِهَذَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: ((اللهُ ذُو الإلهيةِ والعُبوديةُ عَلَى خَلْقِهِ أَجْمَعِينَ)).

ذكره الطبري في تفسيره.

ومما يدل على صحة هذا الاشتقاق ، أن اسم الله مشتق من: أَلَهَ يَأْلَهُ أُلوهَةً، أي: عَبَدَ، أمور كثيرة:

أول ذلك: لغة العرب، فقد جاء ذلك في لسان العرب.

قال رؤبة بن العجاج:

لله در الغانيـــــات المُـــــدَّهِ   سبحن واسترجعن من تألُّهي

الغانيات يعني: الجميلات الحسان اللاتي استغنينا بجمالهن.

المدهِ يعني: البالغات في الحُسن.

ماذا صنعت الغانيات الجميلات، سبحن أي قلنا: سبحان الله، واسترجعن أي قلنا: إنا لله وإنا إليه راجعون، لماذا؟

سبحن واسترجعن من تألُّهي: رؤبة كان شابًا, والأصل في الشاب أن يميل إلى الفتيات الحسان وإلى النساء، لكن الرجل شُغل بالعبادة.

فقالت الغانيات: سبحان الله إنا لله وإنا إليه راجعون، فسبحن واسترجعن من تألهي، أي: من عبادة، فهذا وارد في كلام العرب.

وكذلك ورد في كتاب الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، قال الله عَزَّ وَجلَّ: {وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ} [الزخرف: 84].

ما معنى {فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ}؟ أي: معبود في السماء ومعبود في الأرض، وأما هو سبحانه ففوق العرش، {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} [طه: 5].

وكذلك قال قوم فرعون لفرعون عن موسى ومن معه من المؤمنين، قال: {أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ} [الأعراف: 127]، ما معنى {وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ}؟ يعني: معبوداتك.

وهناك قراءة وإن كانت غير متواترة: {وَإِلَهَتَكَ}، كان يقرأ بها ابن عباس.

{وَإِلَهَتَكَ}، أي: وعبادتك، أي: يتركك وعبادتك.

فدل ذلك على أن الاشتقاق الصحيح هو من الفعل: أَلَهَ يَأْلَهُ أُلوهَةً وإِلاهَةً، أي بمعنى: عَبَدَ.

قال: وَعَلَى الْقَوْلِ بِالاِشْتِقَاقِ.

وهو القول الصحيح.

يَكُونُ وَصْفًا فِي الْأَصْلِ، وَلَكِنْ غَلَبَتْ عَلَيْهِ العَلَمِيَّة.

يعني: هو في الأصل وصف لأنه مشتق من العبادة، وَلَكِنْ غَلَبَتْ عَلَيْهِ العَلَمِيَّة، أي: صار علمًا على ذات الرب سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، فإذا ذُكر هذا الاسم (الله) فلا ينصرف الذهن إلا إلى ذات ربنا سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

قال: وَلَكِنْ غَلَبَتْ عَلَيْهِ العَلَمِيَّة، فَتَجْرِي عَلَيْهِ بَقِيَّةُ الْأَسْمَاءِ أَخْبَارًا وَأَوْصَافًا.

يعني: إذا ذُكرت الأسماء بعده فإنها تكون إخبارًا عنه ووصفًا له.

قال: يُقَالُ: اللَّهُ رحمنٌ رحيمٌ سميعٌ عليمٌ.

فهذه أسماء ربنا سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، فعندما نسأل: ما أسماء الله؟ الرحمن الرحيم السميع القدير.

ما صفات الله عَزَّ وَجلَّ؟ هو رحمن رحيم سميع، فتجري على هذا الاسم بعده إخبارًا عن الله عَزَّ وَجلَّ ووصفًا له، كما قال في الآية: {بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ}.

ولذلك جمهور أهل العلم على أن اسم (الله) هو الاسم الأعظم، اسم الله الأعظم هو (الله)، وهذا هو قول جمهور أهل العلم.

حتى إنهم جعلوا عطفه على غيره من الأسماء ليس من عطف الصفة على الموصوف،

يعني مثلاً لو قلنا: {بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ}، {بِسْمِ اللَّهِ}, الله: مضاف إليه، هذا الاسم مضاف إليه, لأن {بِسْمِ}: نكرة، و{اللَّهِ}: هو أعرف المعارف ومعرفة، فنكرة ومضاف إذًا: مضاف إليه.

{بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ}: صفة لله.

{الرَّحِيمِ}: صفة ثانية.

لو عكسنا، يعني لو قلنا: (بسم الرحمن الله الرحيم)؟

أهل العلم جعلوا هذا الاسم غير تابع لغيره، يعني: لا يكون وصفًا لاسم غيره, وإنما جعلوا ذلك من باب البدلية وعطف البيان.

مثال يتضح به المقال: قال الله عَزَّ وَجلَّ في صدر سورة إبراهيم, قال: {كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ} [إبراهيم: 1], الآية التي تليها: {اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ} [إبراهيم: 2].

ما إعراب {اللَّهِ}؟ هناك قراءة: {اللهُ}: خبر لمبتدأ هو اللهُ الذي له ما في السماوات وما في الأرض.

لكن على قراءتنا: {اللهِ} ما إعراب هذا الاسم؟

الآية التي بعدها انتهت بقوله: {الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (١) اللَّهِ}، لو جاء غير هذا الاسم الله، لقالوا: نعت صفة، لكن لما تكلموا في إعراب اسم الله {اللهِ} في هذه الآية قالوا: هو بدل، وقالوا: هو عطف بيان.

فكأن الله عَزَّ وَجلَّ قال: (بإذن ربهم إلى صراط اللهِ إلى صراط العزيز الحميد)، فاسمه (الله) هو بدل من اسمه العزيز الحميد وليس وصفًا لاسمه العزيز الحميد.

قال: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ.

قال الشيخ الهراس: (الرَّحْمَنِ الرَّحِيم) : اسْمَانِ كَرِيمَانِ مِنْ أَسْمَائِهِ الْحُسْنَى، دالَّان عَلَى اتِّصافه تَعَالَى بِصِفَةِ الرَّحْمَةِ، وَهِيَ صِفَةٌ حقيقيَّة لَهُ سُبْحَانَهُ، عَلَى مَا يَلِيقُ بِجَلالِهِ، وَلَا يَجُوزُ الْقَوْلُ بِأَنَّ الْمُرَادَ بِهَا لَازِمُهَا؛ كَإِرَادَةِ الْإِحْسَانِ وَنَحْوِهِ؛ كَمَا يَزْعُمُ الْمُعَطِّلَةُ.

فالجهمية من المعتزلة والأشاعرة يقولون: إن المراد بالرحمة، أثر الرحمة، يعني: إرادة الثواب والإنعام.

يقولون: اسمه (الرحمن): أي: الذي يهب ويعطي الرحمة ويعطي النعمة ويثيب وينعم على خلقه، فلا يجعلون الله عَزَّ وَجلَّ موصوفًا بالرحمة, وإنما يعطلونه عن هذه الصفة، ولهم تعليل في ذلك قد يأتي في كلام الشيخ رَحِمَهُ اللهُ.

فيفسرون الصفة بلازمها, لأن الرحمة من الإحسان, ومن لازمها العطاء، فيفسرون الرحمة بلازمها ولا يفسرون الرحمة بما دلت عليه من المعنى الصحيح.

قال: وَسَيَأْتِي مَزِيدُ بَيَانٍ لِذَلِكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ.

قال: واختُلِفَ فِي الْجَمْعِ بَيْنَهُمَا.

يعني: لماذا جُمع بين اسمه (الرحيم) واسمه (الرحمن)؟

فَقِيلَ: الْمُرَادُ بِـ (الرَّحْمَنِ) الَّذِي وَسِعَتْ رَحْمَتُهُ كُلَّ شَيْءٍ فِي الدُّنْيَا؛ لِأَنَّ صِيغَةَ (فَعْلان) تدلُّ عَلَى الِامْتِلَاءِ وَالْكَثْرَةِ.

فجعلوا الرحمن للدنيا، فوسعت رحمته كل شيء في الدنيا, فشملت المؤمن والكافر والبر والفاجر والطير والحيوانات وسائر المخلوقات.

قالوا: وَ (الرَّحِيمِ) الَّذِي يختصُّ بِرَحْمَتِهِ الْمُؤْمِنِينَ فِي الْآخِرَةِ.

فجعلوا الرحيم خاصًا بالمؤمنين في الآخرة، وجعلوا الرحمن خاصًا بجميع الخلق، ولذلك قال: {رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا} [غافر: 7]، فكما أنه لا يَعزُب عن علمه شيء فكذلك لا تقصر رحمته عن شيء في الدنيا، ولذلك جاء اسمه الرحمن مع أوسع مخلوقاته أي العرش، هكذا قالوا.

قال: وَقَدْ ذَهَبَ العلاَّمة ابْنُ الْقَيِّمِ رحمه الله إِلَى أَنَّ (الرَّحْمَنِ) دالٌّ عَلَى الصِّفَةِ الْقَائِمَةِ بِالذَّاتِ، وَ (الرَّحِيمِ) دالٌّ عَلَى تعلُّقها بِالْمَرْحُومِ، وَلِهَذَا لَمْ يَجِئْ الِاسْمُ الرَّحْمَنُ متعدِّيًا فِي الْقُرْآنِ؛ قَالَ تَعَالَى: {وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا}.

وَلَمْ يَقُلْ: رَحْمَانًا.

وَهَذَا أَحْسَنُ مَا قِيلَ فِي الْفَرْقِ بَيْنَهُمَا.

وهذا هو الصحيح.

فالصحيح أن الرحمن يتضمن صفة ذات، والرحيم يتضمن صفة فعل، فالرحمن أي: ذو الرحمة الواسعة، والرحيم: ذو الرحمة الواصلة يوصلها لمن شاء من خلقه على مقتضى مشيئته وحكمته سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

قال: وَرُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ:

((هُمَا اسْمَانِ رَقِيقَانِ؛ أَحَدُهُمَا أرقُّ مِنَ الْآخَرِ)).

وهذا الأثر عن عبد الله بن عباس أثر موضوع لا يصح إسناده مسلسل بالكذابين, الذي فيه أنه قال: "هُمَا اسْمَانِ رَقِيقَانِ"، هذا لا يصح، ولعل المراد أنهما من نعوت جماله سبحانه وتعالى.

قال: وَمَنَعَ بَعْضُهُمْ كَوْنَ (الرَّحْمَنِ) فِي الْبَسْمَلَةِ نَعْتًا لِاسْمِ الْجَلَالَةِ؛ لِأَنَّهُ عَلَمٌ آخَرُ لَا يُطلق عَلَى غَيْرِهِ، وَالْأَعْلَامُ لَا يُنْعَتُ بِهَا.

فجعلوه كاسم الله.

قال: وَالصَّحِيحُ أَنَّهُ نعتٌ لَهُ بِاعْتِبَارِ مَا فِيهِ مِنْ مَعْنَى الْوَصْفِيَّةِ.

لأن الرحمن يتضمن صفة الرحمة, ففيه وصف، وأسماء الله أعلام وأوصاف، فهو نعت باعتبار ما تضمنه من وصف؛ إذ أسماؤه ليست أعلاما محضة.

فَ(الرَّحْمَنِ) اسْمُهُ تَعَالَى وَوَصْفُهُ، وَلَا تُنافي اسميَّتُهُ وصفيَّتَهُ، فَمِنْ حَيْثُ هُوَ صفةٌ جَرَى تَابِعًا عَلَى اسْمِ اللَّهِ، وَمِنْ حيثُ هُوَ اسمٌ وَرَدَ فِي الْقُرْآنِ غَيْرَ تَابِعٍ، بَلْ وُرُودُ الِاسْمِ الْعَلَمِ؛ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى}.

فلا منافاة بين وروده تابعا باعتباره وصفا، ووروده علما على الذات العلية كما جاء في الآية المذكورة.

إذًا: هذا كله فيما يتعلق بالبسملة.

ثم قال بعد ذلك شيخ الإسلام: (الحمد لله الَّذي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللهِ شَهِيدًا).

قال الشيخ الهراس: ((الْحَمْدُ لِلَّهِ)).

قال: رُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم أَنَّهُ قَالَ:

((كلُّ كلامٍ لَا يُبْدَأُ فِيهِ بِحَمْدِ اللَّهِ وَالصَّلاةِ عليَّ؛ فَهُوَ أَقْطَعُ، أَبْتَرُ، مَمْحُوقُ الْبَرَكَةِ)).

وهذا لا يصح عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، رواه ابن ماجة وضعفه الألباني في الإرواء.

قال: وَوَرَدَ مِثْلُ ذَلِكَ فِي الْبَسْمَلَةِ.

يعني: ورد في البسملة أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **"كل أمرٍ ذي بالٍ لا يُبدأ فيه ببسم الله الرحمن الرحيم فهو أقطع"**، وهذا كذلك ضعفه الألباني في الإرواء وقال: ضعيف جدًا ولا تغتر بمن حسنه.

فعندنا الآن الحديث المروي عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **"كلُّ كلامٍ لَا يُبْدَأُ فِيهِ بِحَمْدِ اللَّهِ؛ فَهُوَ أَقْطَعُ"**.

وعندنا: **"كل أمرٍ ذي بالٍ لا يُبدأ فيه ببسم الله الرحمن الرحيم فهو أقطع"**، وكلاهما ضعيف، لكن خطبة الحاجة التي كان يبدأ بها صلى الله عليه وسلم كلامه تبدأ بالحمد، ولذا كان ذلك من سنن أهل العلم في تأليف كتبهم، وكذلك

البسملة البدء بها ثابت في سنة النبي صلى الله عليه وسلم العملية كما في رسائله، وكذلك القولية كما في الأمر بها في صلح الحديبية، ومن قبل ذلك بدء كتاب ربنا بالبسملة.

فقال الشيخ رَحِمَهُ اللهُ: وَلِهَذَا جَمَعَ الْمُؤَلِّفُ بَيْنَهُمَا عَمَلاً بِالرِّوَايَتَيْنِ.

يعني: بدأ ببسم الله ثم ثنى بالحمد لله، والراجح ضعف الروايتين، وفي الصحيح غنية عنهما.

قال: وَلَا تعارُض بَيْنَهُمَا؛ فَإِنَّ الابْتِدَاءَ قِسْمَانِ.

الرواية الأولى قالت: ((كلُّ كلامٍ لَا يُبْدَأُ))، والثانية: ((كل أمر لا يبدأ))، فالابتداء قسمان.

فَإِنَّ الابْتِدَاءَ قِسْمَانِ: حَقِيقِيٌّ وَإِضَافِيٌّ.

أيهما الحقيقي وأيهما الإضافي؟ البدء بماذا؟ البدء (ببسم الله) هو الحقيقي.

والمراد بالابتداء الحقيقي: أي: ما تقدم المقصود ولم يسبقه شيء، المقصود المتن، فالذي تقدم المتن (بسم الله الرحمن الرحيم).

طيب هل سبق البسملة شيء؟ لا، فهذا ابتداء حقيقي.

وأما الابتداء الإضافي أو النسبي فهو: ما يسبق المقصود لكن يسبقه شيء من غير المقصود، يعني: الحمد لله هذه تسبق المقصود، لأن شيخ الإسلام بدأ بعد ذلك بعد أن ذكر هذه الخطبة قال: فهذا اعتقاد أهل السنة والجماعة.

فهذا الابتداء سبق المقصود، لكن هل هو أول الكلام؟ أول الكلام (بسم الله الرحمن الرحيم)، فلا تعارض بينهما.

ثم قال الشيخ: وَالْحَمْدُ ضِدُّ الذَّمِّ, يُقال: حمدتُ الرَّجُلَ أَحْمَدُهُ حَمْدًا ومَحْمَدًا ومَحْمَدَةً، فَهُوَ محمودٌ وحميدٌ.

وَيُقَالُ: حَمَّد اللهَ بِالتَّشْدِيدِ, أي: أَثْنَى عَلَيْهِ الْمَرَّةَ بَعْدَ الْأُخْرَى.

لأن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى، والحمد ضد الذم ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم في البخاري: أَلَم تَرَوْا كيف يَصرِفُ اللهُ عنِّي لَعْنَ قُرَيشٍ وشَتْمَهم! يَشتُمونَ مُذَمَّمًا، وأنا مُحَمَّدٌ.

وأما الحمد فقد قال الشيخ فيه: هُوَ الثَّنَاءُ بِاللِّسَانِ عَلَى الْجَمِيلِ الاختياريِّ.

وبعضهم عرَّفه بقوله: ذكر خصال المحمود مع محبته وتعظيمه.

فالشيخ هاهنا يقول: هُوَ الثَّنَاءُ بِاللِّسَانِ عَلَى الْجَمِيلِ الاختياريِّ.

و(الحمد) لا يكون ثناءً إلا إذا تكرر, كما سبق القول في ذلك.

قال: نِعْمَةً كانَ أَوْ غَيْرَهَا؛ يُقَالُ: حمدتُ الرجلَ عَلَى إِنْعَامِهِ، وحمدتُه عَلَى شَجَاعَتِهِ.

فلو نظرنا في المثالين اللذين ذكرهما الهراس رحمه الله لوجدنا أن متعلق الحمد أمران: الحمد على جميل الخصال، والحمد على كريم الفعال.

فالله عَزَّ وَجلَّ محمود على ماذا؟ على صفاته الباهرة الكاملة وعلى نعمه الواصلة، فهو محمود على ما له من الصفات المثلى، وعلى ما له من إنعام وإحسان إلينا سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

قال: وَأَمَّا الشُّكْرُ؛ فَعَلَى النِّعْمَةِ خَاصَّةً، وَيَكُونُ بِالْقَلْبِ وَاللِّسَانِ وَالْجَوَارِحِ.

إذًا: الشكر لا يكون إلا على النعمة، وأما الحمد فيكون في السراء والضراء، ويكون على الخصال الحميدة.

فربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى حمد نفسه في كتابه، على ما له من خصال وفعال جليلة.

قال: {الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}، {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا} [الكهف: 1]، {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ} [الأنعام: 1]، وحمده خلقه على جميل فعاله فيهم كما قالوا {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ (34) الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ (35) } فحمد نفسه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى على جميل خصاله وكريم فعاله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، وحمده خلقه، وهو يُحمد كذلك على السراء والضراء سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

السؤال: يعني: "عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ"؟

الجواب: نعم "عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ"، ولذلك نحن في السراء نقول: الحمد لله رب العالمين، شخص نجح ماذا يقول؟ الحمد لله رب العالمين، طيب كانت الأخرى؟ يقول كذلك: الحمد لله على كل حال، فيُحمد في السراء والضراء، وأما الشكر فلا يكون إلا على النعمة.

إذًا من هذه الجهة أيهما أعم؟ الحمد، وأيهما أخص؟ الشكر.

طيب من جهة الآلة التي تقع بها عبادة الحمد يكون باللسان، فتقول: الحمد لله بلسانك، والشكر يكون بالقلب واللسان والجوارح، فمن جهة الآلة أيهما أعم؟ الشكر، وأيهما أخص؟ الحمد.

ولذلك قال الشاعر في الشكر كما ذكر الشيخ الهراس ومن قبله ابن كثير في تفسيره لسورة الفاتحة، قال:

أَفَادَتْكُمُ النَّعْماءُ مِنِّي ثَلاثَةً: يعني: ما أنعمتم به عليَّ هذا يستوجب مني الشكر بأمور ثلاثة.

أَفَادَتْكُمُ النَّعْمَاءُ مِنِّي ثَلاثَةً ... يَدِي وَلِسَانِي وَالضَّمِيرَ الْمُحَجَّبا

يقصد بالضمير: القلب والعرفان، فالشكر أعم من هذه الجهة.

قال الشيخ الهراس: وَعَلَى هَذَا؛ فَبَيْنَ الْحَمْدِ وَالشُّكْرِ عمومٌ وخصوصٌ مِنْ وَجْهٍ.

أي: أن الحمد أعم من وجه وأخص من وجه، والشكر أعم من وجه وأخص من وجه.

قال: يَجْتَمِعَانِ فِي الثَّنَاءِ بِاللِّسَانِ عَلَى النِّعْمَةِ، وينفردُ الْحَمْدُ فِي الثَّنَاءِ بِاللِّسَانِ عَلَى مَا لَيْسَ بِنِعْمَةٍ مِنَ الْجَمِيلِ الاختياريِّ، وينفردُ الشُّكْرُ بِالثَّنَاءِ بِالْقَلْبِ وَالْجَوَارِحِ عَلَى خُصُوصِ النِّعْمَةِ.

فَالْحَمْدُ أعمُّ متعلَّقًا.

لأنه يتعلق بماذا؟ يتعلق بالخصال والنعمة والنقمة والبلاء.

وأخصُّ آلَةً.

لأن آلة الحمد اللسان.

وَالشُّكْرُ بِالْعَكْسِ.

قال: وَأَمَّا الْفَرْقُ بَيْنَ الْحَمْدِ وَالْمَدْحِ؛ فَقَدْ قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ:

((إِنَّ الْحَمْدَ إِخْبَارٌ عَنْ مَحَاسِنِ الْمَحْمُودِ، مَعَ حُبِّهِ، وَتَعْظِيمِهِ.

ولعل هذا هو أدق في معنى الحمد.

إِخْبَارٌ عَنْ محَاسِنِ الْمَحْمُودِ، مَعَ حُبِّهِ، وَتَعْظِيمِهِ، فَلاَ بدَّ فِيهِ مِنِ اقْتِرَانِ الْإِرَادَةِ بِالْخَيْرِ؛ بِخِلاَفِ الْمَدْحِ؛ فَإِنَّهُ إِخْبَارٌ مجرَّدٌ)).

قد يمدح بعض الشعراء أميرًا ولا يحبه، ثم هو غير مقتصر على الأشخاص ، ولذا قال رحمه الله:

وَلِذَلِكَ كَانَ المدحُ أوسَعَ تَنَاوُلًا؛ لِأَنَّهُ يَكُونُ للحيِّ والميِّت وَلِلْجَمَادِ أَيْضًا.

قال: وَ(أَلْ) فِي الْحَمْدِ لِلاِسْتِغْرَاقِ؛ لِيَتَنَاوَلَ كُلَّ أَفْرَادِ الْحَمْدِ الْمُحَقَّقَة والمُقَدَّرَة.

فالله عَزَّ وَجلَّ له جميع الحمد الذي نعرفه ولا نعرفه، فـ(أل) للاستغراق، وعلامتها أنه يصح أن يحل محلها كل.

وَقِيلَ: لِلْجِنْسِ.

وقوله: قيل، كأنه يضعف هذا القول. وهو حقا ضعيف، لأن الجنس يقتضي خروج بعض الأفراد، لكن الاستغراق يمنع خروج أي فرد.

فإذا قلنا: إن (أل) للاستغراق فهذا معناه أن كل المحامد بجميع ما تضمنه من معان ثابتة لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، لأنه له الأسماء الحسنى والصفات العليا سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، لا منتهى للحسن والعلو.

قال: وَمَعْنَاهُ: ((أَنَّ الْحَمْدَ الْكَامِلَ ثابتٌ لِلَّهِ، وَهَذَا يَقْتَضِي ثبوتَ كُلِّ مَا يُحْمَدُ عَلَيْهِ مِنْ صِفَاتِ كَمَالِهِ وَنُعُوتِ جَمَالِهِ.

هذا معنى أن (أل) للاستغراق، وقوله صفات كماله ونعوت جماله، فيه أن لا فرق بين النعت والصفة على الحقيقة، وأنه لا محذور في ذكر الصفة لله تعالى خلافا لمن منع ذلك كابن حزم وسيأتي لاحقا كلامه والرد عليه، وصفات الله تعالى ثلاثة أقسام:

- صفات كمال كالحياة والعلم والقدرة
- وصفات جمال كالرحمة والمحبة والرأفة.
- وصفات جلال كالعزة والقهر والانتقام.

قال: إِذْ مَنْ عَدِمَ صِفات الْكَمَالِ؛ فَلَيْسَ بِمَحْمُودٍ عَلَى الْإِطْلَاقِ، وَلَكِنْ غَايَتُهُ أَنَّهُ محمودٌ مِنْ وجهٍ دُونَ وجهٍ، وَلَا يَكُونُ مَحْمُودًا مِنْ كُلِّ وَجْهٍ.

وقوله: مِنْ وجهٍ دُونَ وجهٍ، وَلَا يَكُونُ مَحْمُودًا: هذه ساقطة من بعض النسخ والكلام يقتضيها.

ولذلك قال -هذا كلام ابن القيم-: وَلَكِنْ غَايَتُهُ أَنَّهُ محمودٌ مِنْ وجهٍ دُونَ وجهٍ، وَلَا يَكُونُ مَحْمُودًا مِنْ كُلِّ وَجْهٍ وَبِكُلِّ اعْتِبَارٍ بِجَمِيعِ أَنْوَاعِ الْحَمْدِ؛ إِلَّا مَن حَازَ صِفَاتِ الْكَمَالِ جَمِيعَهَا.

فالله تعالى له الكمال المطلق من غير وجه نقص، وقد دل على ذلك النقل والعقل:

▪ أما النقل فسبيل إثبات كماله سبحانه أمران:

- كثرة الصفات المثبتة لذلك الكمال في كتابه وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، فالإثبات مفصل.
- ما ورد من صفة منفية فالمراد بها إثبات كمال الضد للباري تعالى؛ إذ النفي المحض لا حمد فيه ولا كمال.

▪ والعقل كذلك يوجب اتصاف الإله الحق بجميع أنواع الحمد، ولا يكون ذلك إلا باتصافه بصفات الكمال جميعها.

فكل ذلك ثابت لربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

ثم قال بعد ذلك: الرَّسُولُ.

لأن شيخ الإسلام قال: الحمد لله الَّذي أَرْسَلَ رَسُولَهُ.

قال: الرَّسُولُ فِي اللُّغَةِ هُوَ مَن بُعِث بِالرِّسَالَةِ؛ يُقَالُ: أَرْسَلَهُ بِكَذَا؛ إِذَا طَلَبَ إِلَيْهِ تَأْدِيَتَهُ وَتَبْلِيغَهُ وَجَمْعُهُ: رُسْل -بِسُكُونِ السِّينِ-, ورُسُل –بِضَمِّهَا–.

قال: وَفِي لِسَانِ الشَّرْعِ: إنسانٌ، ذكرٌ، حرٌّ، أُوحِيَ إِلَيْهِ بشرعٍ، وأُمِرَ بِتَبْلِيغِهِ.

فَإِنْ أوحِيَ إِلَيْهِ، وَلَمْ يُؤْمَرْ بِالتَّبْلِيغِ؛ فَهُوَ نبيٌّ.

فَكُلُّ رَسُولٍ نبيٌّ، وَلَا عَكْسَ، فَقَدْ يَكُونُ نَبِيًّا غَيْرَ رَسُولٍ.

الرسول لغة فعول بمعنى مُفعل أي مُرسل، ويدخل فيها كل مرسَل برسالة ، وقد قال الله تعالى: (اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ) فليست الرسالة مقصورة على الناس، وهذا من جهة اللغة .

واشتراط الذكورة في الرسالة أمر متفق عليه، والخلاف في ذلك غير معتبر والله أعلم. وهذا ما جاء به القرآن، قال الله عَزَّ وَجلَّ: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ}.

قال ابن تيمية في الصفدية: "وقد حكى الإجماع على انه لم يكن في النساء نبية غير واحد كالقاضي أبي بكر بن الطيب والقاضي أبي يعلى وأبي المعالي الجويني وخلاف ابن حزم شاذ مسبوق بالإجماع فإن دعواه أن أم موسى كانت نبية هي ومريم قول لا يعرف عن أحد من السلف والأئمة وقد ثبت في الصحيح عدد من كمل من النساء وليس فيهن أم موسى"

فكونه ذكرًا هذا أمر متفق عليه.

ومن عجيب أمر هذا الزمان، وكم فيه من أعاجيب أن بعض هؤلاء الرويبضة الذين أخبر عنهم النبي صلى الله عليه وسلم كان يتكلم في لقاء تليفزيوني ونحن في عصر النسوية وعصر نصرة الأنثى وحملها على التمرد على الذكر، نسأل الله أن يسلمنا من هذه الفتن.

فكان مما قاله: من قال إن الذكر أفضل من الأنثى فهو مُخطئ، لماذا؟ قال: لأن الله عَزَّ وَجلَّ قال: {وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ} [آل عمران: 36].

قال: والمعلوم في بلاغة العرب أن المُشبه ليس في درجة المُشبه به، كأن تقول: ليس محمد كالقمر، فأيها أجمل؟ القمر.

فإذا قلت: {وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى}، فأيها أعلى منزلة؟ الأنثى، هكذا قال وحيد دهره.

وهذا كلام لا يعتد به, لأنه مخالف لإجماع أهل اللغة وإجماع المسلمين على أن الذكر أفضل من الأنثى.

ولو لم يكن في ذلك إلا اصطفاء الله عَزَّ وَجلَّ للأنبياء والرسل من الذكور لكفى, فهم صفوة الله من خلقه، والله عَزَّ وَجلَّ قال: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ}.

لكن كما قلت: نحن في عصر النسويات ونصرة الأنثى على الذكر بلا مبرر، وكأن الرجال يظلمون النساء وهم المظلومون ليل نهار.

وقول أم مريم عليها السلام {وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى}, إنما قالته كأنها اشتهت الذكر، هذا هو المفهوم من كلامها، ولو رجعت في تفاسير العلماء لهذه الآية

لوجدت ذلك, وكانت ترجو أن تلد ذكرًا لتهبه لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، فهو أقوى في القيام بحق الله تعالى، هكذا رجت.

ثم إن هذا القول منقوض كذلك، فعند قولي: ليس أحمد كمحمد، قد أقصد: ليس أحمد كمحمد في الغباء، فيكون محمد أشد غباءً من أحمد، يعني: ليست هذه القاعدة على إطلاقها, ولكن باعتبار الوصف المراد.

قال: وَفِي لِسَانِ الشَّرْعِ: إنسانٌ، ذكرٌ، حرٌّ، أُوحِيَ إِلَيْهِ بشرعٍ، وأُمِرَ بِتَبْلِيغِهِ.

وقوله حر: هذا من مقتضيات الرسالة حتى يتم البلاغ، وتقوم الحجة على الخلق؛ لأن العبد ليس ملك نفسه، فرِقُّه يتعارض مع تمكنه من البلاغ، والقيام بأعباء الرسالة.

قال: فَإِنْ أوحِيَ إِلَيْهِ، وَلَمْ يُؤْمَرْ بِالتَّبْلِيغِ؛ فَهُوَ نبيٌّ. فَكُلُّ رَسُولٍ نبيٌّ، وَلَا عَكْسَ، فَقَدْ يَكُونُ نَبِيًّا غَيْرَ رَسُولٍ.

هذا الكلام مع شهرته كلام ضعيف، أعني أن النبي لم يؤمر بالبلاغ.

أولًا: لأن النبوة من النبأ، فالنبي إما أن يكون مُنبَّئًا من قِبَل ربه، يعني: يوحى إليه من قِبَل ربه، أو أن يكون مُنبِّئًا لغيره، فإن كان مُنبِّئًا لغيره فهذا يُبلِّغ، هذا أولًا هذا من جهة اللغة.

وقد اختلف العلماء في ذلك على أقوال أشهرها ثلاثة:

القول الأول: أنه لا فرق بين الرسول والنبي، وهذا أضعف الأقوال عدم التمييز بين الرسول والنبي.

لأن الله تعالى قد مايز وغاير بينهما، فقال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ} [الحج: 52]، فهذا العطف يقتضي المغايرة.

ومما يضعف هذا القول أيضًا: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما سُئل عن الأنبياء -كما في حديث أبي ذر- قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **"أربعة وعشرون ومائة ألف"**، فهذا عدد الأنبياء الذين نبأهم الله عَزَّ وَجَلَّ وأوحى إليهم

ولما سُئل صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الرسل، قال: **"ثلاثمائة وبضعة عشر رسولًا"**، فالرسل أقل والأنبياء أكثر، هذا هو القول الأول وهو قول ضعيف.

القول الثاني وهو قول أكثر أهل العلم: وهو أن النبي أعم من الرسول، فكل رسول نبي والعكس، وهذا صحيح أن كل رسول نبي وليس العكس.

وقالوا: الرسول: من أوحي إليه بشرع وأُمر بتبليغه.

والنبي: لم يؤمر بالبلاغ.

واستدلوا بآيات قرنت الرسالة بالبلاغ، ولم يرد مثلها في النبوة.

كقول الله تعالى: {يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ} [المائدة: 67]، فقالوا: {يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ}، إذًا: البلاغ مرتبط بالرسالة لا بالنبوة.

القول الثالث وهو قول بعض المحققين وهو قول قوي: أن الرسول أوحي إليه بشرع جديد ناسخ للشرع الذي قبله أو ناسخ لبعض الشرع الذي قبله وأُمر بالتبليغ.

إذًا: الرسول: أوحي إليه بشرع جديد ينسخ الشرع الذي قبله كله أو بعضه ويُرسل إلى قوم مخالفين.

وأما النبي: فهو الذي يأتي بعد رسول, لكن هذا القيد يشكل عليه أن آدم عليه السلام نبي ولم يكن بعد رسول, فهو أول الأنبياء وكان نبي مكلمًا كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فلا يُشترط في النبي أن يكون بعد رسول، لكنه في قومه كالعالم المصلح المجدد للدين، لا يأتي لقوم مخالفين، ولكن يأمرهم كذلك وينهاهم ويُنذرهم ويُبشرهم، فهو بمنزلة المجدد لشريعة ربه تبارك وتعالى.

والدليل على ذلك قول الله عَزَّ وَجلَّ: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ}، فجعل الرسالة للرسول والنبي, فهذا يوحى إليه وهذا يوحى إليه.

وقال الله عَزَّ وَجلَّ: {كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ} [البقرة: 213].

والنبي إذا أُطلق يدخل فيه الرسول، فالرسول يُبشر ويُنذر، والنبي يُبشر ويُنذر كذلك، فالبشارة والنذارة للأنبياء والرسل سواء, فهم يبلغون عن ربهم، وهذا القول هو أرجح الأقوال والله أعلم.

فقال الشيخ رَحِمَهُ اللهُ: فَإِنْ أوحِيَ إِلَيْهِ، وَلَمْ يُؤْمَرْ بِالتَّبْلِيغِ؛ فَهُوَ نبيٌّ.

قلنا: هذا ضعيف، وفي الحديث: "يأتي النبي ومعه الرجل الرجلان, ويأتي وليس معه أحد" من هؤلاء؟ أتباعه على دينه الذين دعاهم.

فَكُلُّ رَسُولٍ نبيٌّ، وَلَا عَكْسَ، فَقَدْ يَكُونُ نَبِيًّا غَيْرَ رَسُولٍ.

قال: والمُراد بِالرَّسُولِ الْمُضَافِ إِلَى ضَمِيرِ الرَّبِّ هُنَا مُحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وقد يكون المراد جنس الرسل، لأن كل الرسل أرسلهم الله عَزَّ وَجلَّ بالهدى ودين الحق، فقد يُراد بذلك جنس الرسل لكن الراجح كما قال الشيخ أن المراد ههنا رسولنا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهو كذلك أرسله ربه تبَارَكَ وَتَعَالَى بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، لكن رسالته أكمل الرسالات وأشملها، ناسخة لكل رسالة ودين ظاهرة عليه، وهي رسالة عامة بخلاف غيرها.

الدرس الثالث

إن الحمد لله, نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله تعالى من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله, صلى الله عليه, وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد:

فما زال حديثنا موصولًا مع شرح العلامة الهراس لقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ في عقيدته الواسطية.

الحمد لله الَّذي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللهِ شَهِيدًا.

وكنا قد توقفنا عند قول الشيخ رَحِمَهُ اللهُ:

وَ((الْهُدَى)) فِي اللُّغَةِ: الْبَيَانُ وَالدَّلَالَةُ؛ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: {وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى}, فَإِنَّ الْمَعْنَى: بَيَّنَّا لَهُمْ.

وَكَمَا فِي قَوْلِهِ: {إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا}.

قال: والهُدى بِهَذَا الْمَعْنَى عامٌّ لِجَمِيعِ النَّاسِ، وَلِهَذَا يوصَفُ بِهِ الْقُرْآنُ؛ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: {إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يِهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ}.

وَيُوصَفُ بِهِ الرَّسُولُ صلى الله عليه وسلم؛ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: {وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ}.

وَقَدْ يَأْتِي الهُدى بِمَعْنَى التَّوْفِيقِ وَالْإِلْهَامِ، فَيَكُونُ خَاصًّا بمَن يَشَاءُ اللَّهُ هِدَايَتَهُ؛ قَالَ تَعَالَى: {فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ}.

وَلِهَذَا نفاهُ اللَّهُ عَنْ رَسُولِهِ؛ قَالَ تَعَالَى: {إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاء}.

وَالْمُرَادُ بالهُدى هُنَا: كلُّ مَا جَاءَ بِهِ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْإِخْبَارَاتِ الصَّادِقَةِ، وَالْإِيمَانِ الصَّحِيحِ، وَالْعِلْمِ النَّافِعِ، وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ.

الشيخ رَحِمَهُ اللهُ بيَّن في هذه القطعة من شرحه أن الهدى يأتي في اللغة بمعنى البيان والدلالة, وإذا جاء في الآيات على هذا المعنى كان الهدى هدى بيان وإرشاد, وهذا يقوم به الأنبياء المرسلون والعلماء الدعاة, جعله الله عَزَّ وَجلَّ لهم, ولذلك قال: {وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى}.

فلما قال الله عَزَّ وَجلَّ: {فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى}, دل ذلك على أن الهدى هاهنا هو هدى البيان والإرشاد وليس هدى التوفيق, لأنه لو كان هدى التوفيق لما قال الله عَزَّ وَجلَّ: {فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى}, لكن غاية الأمر أن صالحًا عَليهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَم بيَّن لهم لكنهم استحبوا العمى على الهدى.

قال: فَإِنَّ الْمَعْنَى: بَيَّنَّا لَهُمْ.

وَكَمَا فِي قَوْلِهِ: {إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا}.

{إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ}: أي: بينا له الطريق بإنزال الكتب وإرسال الرسل.

والذي يدل في هذه الآية أيضًا على أن الهدى هاهنا هدى بيان وإرشاد قوله تعالى: {إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا}, لأن الهداية هاهنا لو كانت هداية توفيق لما قال الله عَزَّ وَجلَّ: {وَإِمَّا كَفُورًا}.

ولذلك قال: والهُدى بِهَذَا الْمَعْنَى عامٌّ لِجَمِيعِ النَّاسِ، وَلِهَذَا يوصَفُ بِهِ الْقُرْآنُ؛ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: {إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ}: أي يهدي جميع الخلق,

جميع من بلغه القرآن يهديه للتي هي أقوم وبذلك تقوم الحجة على الخلق وتنقطع المعاذير, ولكن التوفيق لقبول القرآن وما جاء به القرآن من الخبر والأمر والنهي هذا بيد الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى وهذا هو هدى التوفيق.

قال: وَيُوصَفُ بِهِ الرَّسُولُ صلى الله عليه وسلم؛ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: {وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ}.

إذًا: هذا أول نوع من أنواع الهداية, والهداية لها أنواع كثيرة, أوصلها تلميذ شيخ الإسلام ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ في كتابه شفاء العليل في القضاء والقدر والحكمة والتعليل إلى **أنواع خمسة.**

- الهداية العامة لجميع الخلق: يقول الله عَزَّ وَجلَّ: {سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (١) الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى (٢) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى} [الأعلى: 1-3], فهذه هداية عامة لجميع الخلق, للإنس والجن والطير والشجر وغير ذلك, هدى جميع خلقه لأرزاقهم, لما تقوم به حياتهم, فهذه هداية عامة.
- أخص منها هداية البيان والإرشاد التي جاءت في هذه الآيات.
- أخص منها هداية التوفيق التي ستأتي في الآيات التي سيذكرها المصنف رَحِمَهُ اللهُ, فهذه أنواع ثلاثة.
- أخص منها هدايتان تكونان يوم القيامة, وهي الهداية إلى الجنة والهداية إلى النار, {وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} [الأعراف: 43].

وقال في سورة الصافات: {احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (٢٢) مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ} [الصافات: 22-23], إذًا: الهداية تكون إلى الجنة وتكون إلى النار.

فهذه خمسة أنواع, ذكر المصنف هاهنا نوعين فقط:

النوع الأول: هداية البيان والإرشاد, وهذه التي أثبتها الله عَزَّ وَجلَّ لنبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ, قال: {وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ}.

وأما النوع الثاني من الهداية فهو الذي قال فيه: وَقَدْ يَأْتِي الهُدى بِمَعْنَى التَّوْفِيقِ وَالْإِلْهَامِ، فَيَكُونُ خَاصًّا بمَن يَشَاءُ اللَّهُ هِدَايَتَهُ؛ قَالَ تَعَالَى: {فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ}.

{فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ}: أي: يوفقه لطاعته.

قال: وَلِهَذَا نفاهُ اللَّهُ عَنْ رَسُولِهِ؛ قَالَ تَعَالَى: {إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاء}.

(لَا): هاهنا نافية, بخلاف (لام) الأولى التي قال الله عَزَّ وَجلَّ فيها: {وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ}، فإنها لام التوكيد المزحلقة.

فـ(لَا)هاهنا في هذه الآية: {إِنَّكَ لَا تَهْدِي} نافية, {لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاء}.

ولذلك جلس النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عند رأس عمه وقال له: "يَا عَمِّ، قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ", وما استطاع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يستخرج منه هذه الكلمة, لأن القلوب بيد الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى, ولأن هداية التوفيق بيد الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى وحده، لا بيد ولي ولانبي ولا ملك، ولا واحد من الخلق.

إذا قلنا في صلاتنا: {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ}, فأي أنواع الهدايتين نسال الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى؟ نسأل كلا الهدايتين, وهذا مما ينبغي أن يكون حاضرًا في ذهن قارئ الآية.

إذا قال: {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ}, أي: بيِّن لنا وأرشدنا, فإذا أرشدتنا فوفقنا إلى لزوم الصراط المستقيم وإلى السير فيه وإلى ملازمته وثبتنا عليه.

ولذلك استشكل بعضهم حال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وحال من هداه الله عَزَّ وَجلَّ ووفقه إلى الصراط المستقيم, ما الفائدة في أن يقول سبعة عشر مرة كل يوم {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ}, وهو قد وُفق لهداية البيان والإرشاد ولهدية التوفيق, فصار عابدًا لله عَزَّ وَجلَّ عالمًا بكتابه وسنة نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟

فنقول: هذا يسأل الله الثبات على الصراط المستقيم, فأنت تسأل الله هداية البيان والإرشاد وهداية التوفيق والثبات على الصراط المستقيم, ثم إن ما غاب عنك أضعاف أضعاف ما تعلمه، بل تحتاج للتوفيق والثبات حتى فيما تعلمه من الحق، نسأل الله عَزَّ وَجلَّ أن يجعل لنا أوفر الحظ والنصيب من كل ذلك.

قال: وَالْمُرَادُ بالهُدى هُنَا: كلُّ مَا جَاءَ بِهِ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْإِخْبَارَاتِ الصَّادِقَةِ، وَالْإِيمَانِ الصَّحِيحِ، وَالْعِلْمِ النَّافِعِ، وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ.

الهدى فُسر في كلام السلف بالعلم النافع, ودين الحق فُسر بالعمل الصالح, فالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جاء بالعلم النافع والعمل الصالح.

جاء بالعلم النافع في باب الأخبار, فباب الأخبار جاء النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيه بالعلم النافع في أمور الغيب ما يتعلق بالله عَزَّ وَجلَّ وأسمائه وصفاته واليوم الآخر وفي أمور الأمر والنهي.

فإذا كنت تعتقد ذلك فيجب عليك أن تصدقه في كل ما أخبر به, وأن تلتزم كل ما قاله في باب الأمر والنهي, تنتهي عما نهى عنه وزجر، وأن تفعل المأمورات قدر الاستطاعة, {فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ} [التغابن: 16].

ثم قال: والدِّين يَأْتِي لِعِدَّةِ معانٍ:

مِنْهَا: الْجَزَاءُ؛ كَمَا فِي قوله تعالى: {مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ}.

ومنهُ قولُهم: كَما يَدِينُ الفَتى يُدَانُ.

فالدين يأتي بمعنى بالجزاء, والله عَزَّ وَجلَّ {مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ}, أي: مالك يوم الجزاء، وتفسير الدين ههنا بالجزاء من تفسير القرآن بالقرآن، لأن الله تعالى قال: وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ (17) ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ (18) يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا ۖ وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ} قال ابن جرير رحمه الله: يوم الحساب والمجازاة

وَمِنْهَا: الْخُضُوعُ وَالِانْقِيَادُ؛ يُقَالُ: دَانَ لَهُ؛ بِمَعْنَى: ذلَّ وَخَضعَ، وَيُقَالُ: دان اللهَ بِكَذَا، أَوْ كَذَا؛ بِمَعْنَى اتَّخذه دِينًا يَعْبُدُهُ بِهِ.

قلت: ومنه حديث الصحيح: كَانَ قُرَيْشٌ وَمَنْ دَانَ دِينَهَا يَقِفُونَ بالمزْدَلفَةِ وَكَانُوا يُسمَّوْنَ الحُمْسَ.

وَالْمُرَادُ بالدِّين هُنَا: جَمِيعُ مَا أَرْسَلَ اللَّهُ بِهِ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم مِنَ الْأَحْكَامِ وَالشَّرَائِعِ؛ اعْتِقَادِيَّةً كَانَتْ، أَمْ قَوْلِيَّةً، أَمْ فِعْلِيَّةً.

وَإِضَافَتُهُ إِلَى الْحَقِّ مِنْ إِضَافَةِ الْمَوْصُوفِ إِلَى صِفَتِهِ:

فالموصوف هو الدين, وصفته أنه حق, فالدين الذي جاء به النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دين حق, وكل ما خالفه فهو دين باطل

قال: أَيِ: الدِّينُ الْحَقُّ.

والحقُّ: مصدرُ حَقَّ يَحِقُّ إِذَا ثَبَتَ وَوَجَبَ: ولذلك كانت كلمة (حق) من ألفاظ الوجوب, حق على كل مسلم ألا يبيت ليلة إلا ووصيته مكتوبة عند رأسه, أي: هذا يجب عليه.

فـ(حق) من ألفاظ الوجوب, فالدين الحق أي: الدين الذي وجب وثبت.

قال: فَالْمُرَادُ بِهِ: الثَّابِتُ، الْوَاقِعُ. وَيُقَابِلُهُ: الْبَاطِلُ الَّذِي لَا حَقِيقَةَ لَهُ.

إذًا: النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جاء بالهدى الذي هو العلم النافع ودين الحق الذي هو العمل الصالح.

قال: اللاَّمُ فِي قَوْلِهِ: ((لِيُظْهِرَهُ)) لَامُ التَّعْلِيلِ: تبين لماذا أرسل الله عَزَّ وَجلَّ نبيه بالهدى ودين الحق؟ {لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ}.

قال: وَهِيَ مُتَعَلِّقَةٌ بِـ (أَرْسَلَ) ، وَهُوَ مِنَ الظُّهُورِ؛ بِمَعْنَى: العلوِّ وَالْغَلَبَةِ؛ أَيْ: لِيَجْعَلَهُ عَالِيًا عَلَى الْأَدْيَانِ كُلِّهَا بِالْحُجَّةِ وَالْبُرْهَانِ.

أو بالسيف والسنان, فالظهور ظهوران: ظهور بالحجة والبيان, أو بالسيف والسنان.

ولذلك قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "لَا يَزَالُ مِنْ أُمَّتِي أُمَّةٌ قَائِمَةٌ بِأَمْرِ اللَّهِ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ وَلَا مَنْ خَالَفَهُمْ، حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ".

أين ظهور هذه الطائفة الآن بالسنان؟ هذا الظهور غير موجود بالسنان بالجهاد.

ولذلك قال علمائنا: قد يكون الظهور بالسنان في زمان من الأزمنة, وقد يضعف ويختفي هذا الظهور حينا، وأما الظهور بالحجة والبيان فإنه لا يختفي أبدًا, فلا يزال في الأرض طائفة تنصر دين الله وتقول بالحق.

الظهور بالسنان -أي: الجهاد في سبيل الله, الجهاد بالبدن والنفس والمال- هذا قد يختفي في زمن من الأزمان لضعف المسلمين ولضعف أمة الإسلام وتكالب الأمم الكافرة عليها،, أما الظهور بالحجة والبرهان فهذا لا يختفي إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

ولذلك هذه الطائفة أخبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنها ظاهرة إلى قرب قيام الساعة, لأن الساعة لا تقوم إلا على شرار الخلق على الكفار المشركين.

فقال: ((لِيُظْهِرَهُ)): أي: ليجعله عاليًا على الأديان كلها بالحجة والبرهان.

ثم قال: وَ (أَلْ) فِي ((الدِّينِ)) لِلْجِنْسِ: في الدين لما قال: {لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ}, فَيَدْخُلُ فِيهِ كُلُّ دِينٍ بَاطِلٍ، وَهُوَ مَا عَدَا الْإِسْلاَمَ.

والفرق بين (أَلْ) التي تفيد الاستغراق, والتي تفيد الجنس، أن الأولى يخرج فرد من أفرادها عنها كما قلنا في: {الْحَمْدُ لِلَّهِ}, فـ(أَلْ) التي تفيد الاستغراق تستغرق أفرادها بذاتها.

وأما (أَلْ) التي تفيد الجنس فيدخل فيها ههنا كذلك كل دين يخالف دين الإسلام دخولا تبعيا, اي بقرائن تدل على ذلك لا من حيث وضعها اللغوي، ولذلك يخرج من هذا الدين دين الإسلام لأنه دين حق, فينفصل عنها.

ثم قال: {وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا}, وأصل هذه الجملة: كفت شهادة الله, أي: شهادة الله كافية على صدق ما جاء به محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

و(شَهِيدًا): تمييز محول عن فاعل, لأن أصل الجملة كفت شهادة الله, شهادة: فاعل, فهذا أصل الجملة, فصارت {وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا}.

كقول الله عَزَّ وَجلَّ: {وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا} [القمر: 12], وكقوله تعالى: {وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا} [مريم: 4].

فـ(عُيُونًا) و(شَيْبًا): هذا تمييز محول, محول أي: كان في أصله في موضع إعرابي غير التمييز.

هنا قال الله عَزَّ وَجلَّ: {وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا}, ما الفرق من جهة البلاغة بين قولنا (فجرنا عيون الأرض), وقول الله تعالى:{وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا}؟

(وفجرنا عيون الأرض) منطوق هذه الآية أن عيون الأرض فُجِّرت, كل عين في الأرض فُجِّرت.

وأما {وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا}: فكأن الأرض كلها فُجِّرت فصارت عيونًا.

وهذا يبين لنا شدة الطوفان الذي أيد به الله عَزَّ وَجلَّ به نوحًا عَليهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَم.

فالأرض كلها صارت عيونًا فُجِّرت.

{وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا}, ما الفرق بينه وبين (واشتعل شيب الرأس)؟

(واشتعل شيب الرأس): المعنى مقصور على ما شاب من شعر الرأس.

{وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا}:صار شعر الرأس كله شيبًا.

فإذا قال: {وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا}, قال: وَالشَّهِيدُ: فعيلٌ, بمعنى فاعل, فشهد بمعنى شاهد, لكن إذا جاءت على وزن فعيل أفادت المبالغة, لأن فعيل من صيغ المبالغة.

قال: وَهُوَ مبالغةٌ مِنْ شَهِدَ، وَهُوَ إِمَّا مِنَ الشَّهَادَةِ؛ بِمَعْنَى الْإِخْبَارِ وَالْإِعْلَامِ، أَوْ مِنَ الشَّهَادَةِ؛ بِمَعَنَى الْحُضُورِ: وما الفرق بينهما؟

{وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا}: أي: شاهدًا على صدق محمد, وقد أخبر الله عَزَّ وَجلَّ في كتابه أن محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صادق, فيُصدق صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ, هذا هو معنى الإخبار والإعلام.

أو أن الشهادة بمعنى الحضور, بمعنى الرقابة, فلو كان محمد كاذبًا لما تركه الله عَزَّ وَجلَّ, لماذا؟ لأنه نسخ الشرائع التي قبله وأحل وحرم وحارب وجاهد وسبى, كل ذلك وهو يقول: هذا يوحى إليّ من قِبل الله.

والله عَزَّ وَجلَّ يقول: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ} [الأنعام: 93].

قال: {وَمَنْ أَظْلَمُ}, وهذا التركيب اللغوي معناه: لا أحد أظلم من هذا الشخص الذي يقول: أوحي إليّ من قِبل الله, ولم يوحى إليه شيء إنه، يكذب على الله عَزَّ وَجلَّ.

فيقول: {وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا}, أي: كفى بالله مراقبًا, فالشهادة هاهنا بمعنى المراقبة.

وابن القيم يقول في نونيته:

وهو الرقيب على الخواطر واللواحظ ....كيف بالأفعال والأركان.

فالله عَزَّ وَجلَّ رقيب يراقب عباده, فلو كان محمد كاذبًا لانتقم الله عَزَّ وَجلَّ منه.

ومن عجيب مناظرات ابن القيم لأحد علماء أهل الكتاب أنه قال: إنكم بتكذيبكم محمداً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تطعنون في الرب, فتطعنون في وجوده أو في عدله.

قال: وكيف ذلك؟

قال له: هذا رجل –يعني: النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- جاء فحلل وحرم وقاتل وسبى ونسخ الشرائع التي قبله, وهو يقول كل ذلك من عند الله, والله عَزَّ وَجلَّ يقول: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ}, فلو كان محمد كاذبًا ولم ينتقم الله عَزَّ وَجلَّ منه وهذه عادة الله فيمن يكذب عليه أن يفضحه, لكن محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مات دون أن يُفضح ودون أن يَبِين أمره إن كان كاذبًا, لكن دعوته انتشرت وآمن به الناس, بل الأعجب من ذلك أنه كان يدعو فيستجيب الله عَزَّ وَجلَّ له وينصره بلا حيلة منه, فقولكم هذا يستلزم أحد أمرين:

- إما أن يكون الله عَزَّ وَجلَّ غير موجود فأنتم بذلك تجحدون وجود الرب
- أو أن يكون موجودًا وتركه يفعل ذلك دون أن يعاقبه, فأنتم بذلك تتهمون الرب بالظلم.

فقال هذا العالم من أهل الكتاب: معاذ الله أن نقول ذلك في ربنا, بل كل منصف منا يعلم أنه نبي من قِبل الله, لكنه أُرسل إلى العرب خاصة.

فقال له ابن القيم: أنت تقول إنه نبي؟

قال: أجل.

قال: أيكذب النبي؟

قال: لا.

قال: فقد قال هذا النبي فيما يوحى إليه من قِبل ربه: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ}, {إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا} [سبأ: 28], فأخبر أنه أُرسل إلى جميع الخلق.

فما كان من هذا العالم إلا أن قام وفر, لم يستطع أن يجيب, فالله عَزَّ وَجلَّ كفى به شهيدًا, أي: يعلم ما يقوم به محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ, ولو كان كاذبًا لبين أمره.

قال: وَالْمَعْنَى: وكَفَى باللهِ شَهِيدًا مُخْبِرًا بِصِدْقِ رَسُولِهِ، أَوْ حَاضِرًا مطَّلِعًا لَا يَغِيبُ عَنْهُ شيءٌ.

قال: وَالْمَعْنَى الْإِجْمَالِيُّ لِمَا تَقَدَّمَ أَنَّ جَمِيعَ أَوْصَافِ الْكَمَالِ ثابتةٌ لِلَّهِ عَلَى أَكْمَلِ الْوُجُوهِ وأتمِّها, وَمِمَّا يُحْمَدُ عَلَيْهِ سُبْحَانَهُ نِعَمُهُ عَلَى عِبَادِهِ، الَّتِي لَا يُحْصِي أحدٌ مِنَ الْخَلْقِ عدَّها، وَأَعْظَمُهَا إِرْسَالُهُ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ، وَبُشْرَى للمتَّقين؛ لِيُظْهِرَهُ عَلَى جَمِيعِ الْأَدْيَانِ بِالْحُجَّةِ وَالْبُرْهَانِ، وَالْعِزِّ وَالتَّمْكِينِ وَالسُّلْطَانِ، وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا عَلَى صِدْقِ رَسُولِهِ، وَحَقِيقَةِ مَا جَاءَ بِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ثم قال: وَشَهَادَتُهُ سُبْحَانَهُ تَكُونُ بِقَوْلِهِ وَفِعْلِهِ وَتَأْيِيدِهِ لِرَسُولِهِ بِالنَّصْرِ وَالْمُعْجِزَاتِ وَالْبَرَاهِينِ المتنوِّعة عَلَى أَنَّ مَا جَاءَ بِهِ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ.

ثم قال شيخ الإسلام بعد ذلك رَحِمَهُ اللهُ:

(وأَشْهَدُ أَن لَّا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ إِقْرَارًا بِهِ وَتَوْحِيدًا).

قال الشيخ الهراس:

((الشَّهَادَةُ)): الْإِخْبَارُ بِالشَّيْءِ عَنْ عِلْمٍ بِهِ، وَاعْتِقَادٍ لِصِحَّتِهِ وَثُبُوتِهِ، وَلَا تُعْتَبَرُ الشَّهَادَةُ إِلَّا إِذَا كَانَتْ مَصْحُوبَةً بِالْإِقْرَارِ وَالْإِذْعَانِ، وَوَاطَأَ القلبُ عَلَيْهَا اللِّسَانَ؛ فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ كَذَّبَ الْمُنَافِقِينَ فِي قَوْلِهِمْ: {نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ}، مَعَ أَنَّهُمْ قَالُوا بِأَلْسِنَتِهِمْ.

إذًا: الشهادة لابد أن يجتمع فيها أمران: اعتقاد القلب مع قول اللسان, فمن اعتقد ولم يتكلم فهذا لا يعتبر شاهدًا, ومن تكلم دون اعتقاد فهذا ليس بشاهد.

وخير دليل على ذلك: تكذيب الله عَزَّ وَجلَّ للمنافقين, قال الله عَزَّ وَجلَّ: {إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ} [المنافقون: 1].

لو قال المنافقون:(نقول إنك لرسول الله) لما كذبهم الله, لماذا؟ لأن القول قول اللسان.

فلو قالوا: (نقول إنك لرسول الله) لما كذبهم الله لأنهم قالوا ذلك بألسنتهم, لكن لما جاءوا قالوا: (نشهد) والشهادة لابد أن يجتمع فيها أمران: إقرار القلب وتصديقه ونطق اللسان.

هل المنافق يقر برسالة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ ما يقر برسالته, إذًا: هم كاذبون في ذلك.

ولذلك قال الله عَزَّ وَجلَّ: {وَاللَّهُ يَشْهَدُ}, أي: يُخبر عن علم بحالهم وما في قلوبهم, {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ}.

ولذلك القول أمام القاضي يسمى شهادة, ووالله لو علم الشاهد معنى هذه الكلمة لما كذب, لماذا؟

لأن هذا معناه أنه لابد أن يطابق قوله ما يعتقده أي أن يكون صادقًا, أما أن يشهد شهادة الزور فهذا الذي جاء فيها قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما ذكر الكبائر: ﴿أَلا وشهادة الزور﴾, فما زال يكررها.

فشهادة الزور تعني أن يقول قولًا بلسانه لا يطابق ما في قلبه.

ويوضح ذلك كذلك أيضا أن المرء إذا دخل الإسلام ماذا يقول؟ يقول: أشهد ان لا إله إلا الله, وأن محمدًا رسول الله.

حتى علماؤنا ومترجمونا لما ترجموا هذه الجملة ليقولها من يريد الدخول في الإسلام من غير العرب, اختاروا لها لفظا معينا يوافق المعنى العربي للفظة الشهادة.

هل أحد يعرف ترجمة أشهد أن لا إله إلا الله باللغة الإنجليزية؟

لا يقول من يريد الدخول في الإسلام:

(I say there is no true God but Allah), لا يقول: (I say), لكن يقول: (I bear witness), ما معنى (witness)؟ يعني: يشهد.

يعني: حتى وهو ينطقها باللغة الإنجليزية لا يقول: أقول, وإنما يقول: أشهد, لماذا؟ لأنه عندما ينطق هذه الكلمة يطابق ما في قلبه ما جرى على لسانه, فالشاهد أنه يأتي بكلمة (أشهد), كذلك في غير لغة العرب, حتى يطابق ما قاله ما في قلبه.

فأنت عندما تقول: (أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له) هذا إقرار منك ومطابقة ما جرى على لسانك لما وَقَر في قلبك.

عندنا إشكال, النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: "أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ، حَتَّى يَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَإِذَا قَالُوهَا، وَصَلَّوْا صَلاَتَنَا، وَاسْتَقْبَلُوا قِبْلَتَنَا، وَذَبَحُوا ذَبِيحَتَنَا، فَقَدْ حَرُمَتْ عَلَيْنَا دِمَاؤُهُمْ وَأَمْوَالُهُمْ، إِلَّا بِحَقِّهَا، وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ".

بيان ذلك أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: "حَتَّى يَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ", لأن لنا الظاهر, ديننا يقوم على ما يظهر من العبد, وأما ما في قلبه فلا يعلمه إلا الله.

ولذلك المنافقون كانوا إذا أتوا إلى النبي وقالوا: (نشهد أن لا إله إلا الله) كان يقبل منهم, فإذا جاء إنسان وقال: (لا إله إلا الله) وقالها بلسانه فهذا يكفي في عصمة دمه.

واعتبر بقصة أسامة رضي الله عنه مع المشرك الذي أثخن الجراح في المسلمين وقتل كثيرًا منهم, لما علاه أسامة بالسيف قال: (لا إله إلا الله) فقتله أسامة, فلما أُخبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: "يَا أُسَامَةُ، أَقَتَلْتَهُ بَعْدَ مَا قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ", قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّمَا قَالَهَا مُتَعَوِّذًا، قَالَ: "فَهَلاَّ شَقَقْتَ عَنْ قَلْبِهِ", **أي لنا الظاهر، والله يتولى السرائر.**

فالإنسان يقول: (لا إله إلا الله), لكن الشهادة هذه لا يعلمها إلا الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

فقال: وأَشْهَدُ أَن لَّا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ: (أَن) هذه -وهذه لفتة نحوية- (أَن) هذه تسمى بـ(أَن) التفسيرية, فليس مصدرية وليست هي (أَنَّ) المشددة التي لها اسم تنصبه وخبر ترفعه, وإنما تسمى بـ(أَن) التفسيرية.

وضابطها: أن تأتي بين جملتين, قبلها جملة وبعدها جملة, وتأتي بعد كلمة فيها معنى القول وليس لفظه, فـ(أشهد) فيها معنى القول, و(نادى) فيها معنى القول, و(أوحى) فيها معنى القول, وبعث فيها معنى القول، لأن الوحي بالقول, والمناداة بالقول, والشهادة بالقول, وإن كان قولًا وزيادة.

فعلامة القول بأن (أَن) تفسيرية أن تأتي بين جملتين, وأن تأتي بعد فعل فيه معنى القول.

كما في قوله تعالى: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ} ، فأن تفسيريه، لأن البعث فيه معنى القول.

(أشهد أَنْ لا إله إلا الله): يعني: أقول وأُقر وأعترف.

مواضع أخرى في كتاب الله عَزَّ وَجلَّ (أَن) التفسيرية هذه:

قال الله عَزَّ وَجلَّ: {وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ} [الأعراف: 46].

ولذلك لا نقول بعد (أَن) سلامًا مثلاً على اعتبار أنها (أَنَّ) تنصب ما بعدها, لا, هي حرف تفسيري.

{وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا} [الأعراف: 44], هذه آية أخرى.

قال الله عَزَّ وَجلَّ في سورة يونس, قال: {وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}, يعني: آخر قول يقوله أهل الجنة: {أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}.

قال الله عَزَّ وَجلَّ: {فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ}, يعني: أوحينا إلى نوح, {أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا} [المؤمنون: 27], أي: قلنا له, فـ(أن) هذه تفسيرية, قبلها جملة {أَوْحَيْنَا} فعل وفاعل, وبعد جملة {اصْنَعِ الْفُلْكَ}.

قال تعالى: {وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي}, يعني: قال للنحل وألهم النحل.

فمن الخطأ الذي يقع فيه بعض المؤذنين أنهم يقولوا (أشهد أنَّ لا إله إلا الله), فـ(أَن) تفسيرية مخففة واسمها ضمير الشأن أنه, وليست (أَن) المشددة الناصبة.

قال: و((لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)): هِيَ كَلِمَةُ التَّوْحِيدِ، الَّتِي اتَّفقت عَلَيْهَا كَلِمَةُ الرُّسُلِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلامُهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ؛ بَلْ هِيَ خُلاَصَةُ دَعَوَاتِهِمْ وَزُبْدَةُ رِسَالَاتِهِمْ، وَمَا مِنْ رَسُولٍ مِنْهُمْ إِلَّا جَعَلَهَا مُفْتَتَحَ أَمْرِهِ، وَقُطْبَ رَحَاهُ؛ كَمَا قَالَ نبيُّنا صلى الله عليه وسلم: ((أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَإِذَا قَالُوهَا؛ فَقَدْ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا، وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ عز وجل)).

أول واجب على العبيد (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ), معرفة الرحمن بالتوحيد, أي: أن يقولوا: (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)، وهي أساس دعوة الرسل، بل ما خلق الله الخلق إلا لها، وما أنزل الكتب ولا أرسل الرسل إلا من أجل عبادته سبحانه، وتحقيق هذه الكلمة.

أول واجب على العبيد ليس الشك ولا النظر وليس القصد للنظر كما يقول المتكلمون, ينظر أولًا ليعلم هل هذا العالم له إله رب محدِث له, وهل العالم حادث , وطالما أنه حادث إذًا لابد له من مُحدِث, والمُحدِث هذا قديم, وما لا يخلو من الحوادث فهو حادث, ويعيش طيلة حياته غاية عقيدته أن يثبت أن الكون له رب, ولا يقرب من (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ), لا يعرف معناها، ولا يعمل بمقتضاها، فيقع الخلل في التوحيد.

ولذلك إذا أراد أن يفسرها أخطأ, فيقول: (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ), أي: لا رب إلا الله, وهذا ليس معناها، ولو كان هذا معناها لما حاربت أعداء الرسل الرسالات، لأنهم يقرون أن الرب الخالق الرازق هو الله.

لا إله موجود إلا الله, وهذا ليس معناها كذلك لوجود الآلهة الباطلة.

لا إله قادر على الاختراع إلا الله, وهذا ليس معناها أيضا, لماذا؟ لأن المشركين كانوا يعلمون أن الله هو القادر الخالق الرازق المدبر.

لا إله يحتاج إلى الخلق إلا الله, يستغني بنفسه عن خلقه إلا الله, كما يقول الأشعرية, وهذا ليس معناها.

فأخطأوا في معناها, لأنهم صرفوا جُل همهم في غير معرفة معناها, وهي الكلمة التي جاءت بها الرسل, وهي التي كان بسببها المعركة بين المرسلين وقومهم, ما كانت المعركة من أجل إثبات وجود الله, من أجل إثبات أن الله هو الخالق الرازق المدبر, كل هذا كان يُقر به المشركون, إنما كانت من أجل تحقيق هذه الكلمة, فلما كانوا يعرفون معناها أبوْا أن يقولوها, {إِنَّهُمْ

كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ} [الصافات: 35], يعني: يستكبرون عن قولها والخضوع والانقياد لها مع البراءة مما يضادها.

"يَا عَمِّ، قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، كَلِمَةً أحاج لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ", يقول له أبو جهل: (يَا أَبَا طَالِبٍ، أَتَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ), لأنه يعرف معناها الذي سيأتي بعد قليل.

فـ(لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ) هي هذه الكلمة العظيمة, ولا يدخل المرء في الإسلام إلا بها, وهي أعظم الذكر, كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في دعاء عرفة, قال: "أَفْضَلُ مَا قُلْتُ أَنَا وَالنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِي: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ, لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ, وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ", فهذا أفضل الذكر، هِيَ خُلَاصَةُ دَعَوَاتِهِمْ وَزُبْدَةُ رِسَالَاتِهِمْ، وَمَا مِنْ رَسُولٍ مِنْهُمْ إِلَّا جَعَلَهَا مُفْتَتَحَ أَمْرِهِ، وَقُطْبَ رَحَاهُ كما يقول الشيخ الهراس رحمه الله.

لابد أن يأتي بها المرء هكذا جملة كاملة, لا كما يأتي بها الصوفية, يقولون: (الله, الله, الله, يا الله, يا الله,) هذه ليست جملة مفيدة.

لماذا تقول: (الله) ولا تأتي بالجملة كاملة؟! وهذا من عجيب تبريراتهم, يقولون: لأن الواحد لو قال: (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ) لربما قُبضت روحه قبل أن يُكمل الجملة فيقول: (لَا إِلَهَ) ويموت, يموت على الكفر, ولذلك نحن نقول: (الله) فقط!!

وبعضهم يغالي في ذلك جدًا ويقول ربما لو قال الواحد (الله) لقال نصف الكلمة ولم يستطع فمات قبل أن يأتي بها, ولذلك بقوله: (هُوْ, هُوْ, هُوْ)!! نسأل الله السلامة والعافية.

ولهم تبرير آخر يقولون: إن الذي يُكثر من قول (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ) يريد أن يدلل على صدق ما في قلبه, وهذا حاله يشبه حال المنافقين, ونحن قد عرفنا بقلوبنا أن لا إله إلا الله, ولذلك لا نحتاج لقولها, والإكثار منها مذموم غير ممدوح.

ولذلك قال ابن عربي النكرة, أوقال عبد الوهاب الشعراني بيت قبيحًا, قال:

بـــذكر الله تـــزداد الـــذنوب وتنطمس البصائر والقلوب!!

فقالوا: ما ينبغي للمرء أن يُكثر من الذكر! كيف هذا والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يذكر الله في المجلس الواحد أكثر من سبعين مرة, وفي رواية: أكثر من مائة مرة؟! هؤلاء والله هم الذين طُمس على أبصارهم قلوبهم, نسأل الله السلامة والعافية.

فقال: وَدَلَالَةُ هَذِهِ الْكَلِمَةِ عَلَى التَّوْحِيدِ بِاعْتِبَارِ اشْتِمَالِهَا عَلَى النَّفْيِ وَالْإِثْبَاتِ الْمُقْتَضِي لِلْحَصْرِ، وَهُوَ أَبْلَغُ مِنَ الْإِثْبَاتِ المجرَّد؛ كَقَوْلِنَا: اللَّهُ وَاحِدٌ. مَثَلاً فَهِيَ تدلُّ بِصَدْرِهَا عَلَى نَفْيِ الْإِلَهِيَّةِ عَمَّا سِوَى اللَّهِ تَعَالَى، وتدلُّ بِعَجُزِهَا عَلَى إِثْبَاتِ الْإِلَهِيَّةِ لَهُ وَحْدَهُ, وَلَا بدَّ فِيهَا مِنْ إِضْمَارِ خبرٍ تَقْدِيرُهُ: لَا معبودَ بحقٍّ موجودٌ إِلَّا اللَّهُ.

إذًا: ما هما ركنا كلمة التوحيد؟ النفي والإثبات, لا يكفي ركن واحد.

فالركن الأول: لا ينفي الشراكة, وهذا كان يقوله المشركون, فالمشركون كانوا يثبتون ولا ينفون, ولذلك تعددت آلهتهم.

والركن الثاني: يجحد كل إله حقًا كان أو باطلاً, (إلا الله).

الركن الأول (لا إله): هذا يجحد كل الآلهة.

والركن الثاني الذي هو (لا إلا الله): يُثبت كون الرب إلها ولا ينفي ذلك عن غيره سبحانه.

فلابد من اجتماع الركنين وهما: النفي والإثبات.

النفي نفي عام, والإثبات إثبات خاص.

النفي نفي عام (لا إله), (إله): نكرة في سياق النفي فتعُم كل إله باطل.

(إلا الله): هذا إثبات خاص, إثبات الألوهية الحقة لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

ولذلك كانت كلمة (الله) بدل من الخبر (حق) وليست بدلا من اسم (لا إله), لأن الله عَزَّ وَجلَّ أصلاً لم يدخل في هذه الآلهة الباطلة, وإنما هو إله حق سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

فالخبر المضمر هاهنا تقديره (حق) وليس تقديره موجود, ولا قادر على الاختراع ولا غير ذلك، ودل على ذلك القرآن، حيث يقول الله تعالى: (ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ ما يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْباطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ)، ويقول: (إِلاَّ مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ)

قال: وَأَمَّا قَوْلُهُ: ((وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ))؛ فَهُوَ تَأْكِيدٌ لِمَا دلَّت عَلَيْهِ كَلِمَةُ التَّوْحِيدِ.

هذا تأكيد لما دلت عليه كلمة التوحيد, وهذا يدل على عظم هذه الكلمة وعظم معناها, فالله عَزَّ وَجلَّ يؤكد ذلك ويكرر ويعيد في كتابه حتى لا يُعبد إلا هو سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

((وَحْدَهُ)): أي: حال كونه واحدًا في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته.

((لَا شَرِيكَ لَهُ)): لا في ربوبيته ولا في ألوهيته ولا في أسمائه وصفاته.

قال: وَقَوْلُهُ: ((إِقْرَارًا بِهِ)) مصدرٌ مؤكِّدٌ لِمَعْنَى الْفِعْلِ: ((أَشْهَدُ))، وَالْمُرَادُ: إِقْرَارُ الْقَلْبِ وَاللِّسَانِ: وهذا معنى الشهادة.

وَقَوْلُهُ: ((تَوْحِيدًا)) ؛ أَيْ: إِخْلاَصًا لِلَّهِ عز وجل فِي الْعِبَادَةِ، فَالْمُرَادُ بِهِ التَّوْحِيدُ الْإِرَادِيُّ الطَّلَبِيُّ الْمَبْنِيُّ عَلَى تَوْحِيدِ الْمَعْرِفَةِ وَالْإِثْبَاتِ.

من يشرح لنا هذه الجملة: فَالْمُرَادُ بِهِ التَّوْحِيدُ الْإِرَادِيُّ الطَّلَبِيُّ الْمَبْنِيُّ عَلَى تَوْحِيدِ الْمَعْرِفَةِ وَالْإِثْبَاتِ؟

الطالب: توحيد الإرادة هو توحيد الألوهية, المبني على توحيد المعرفة والإثبات الذي هو توحيد الربوبية والأسماء والصفات.

الشيخ: أحسنت, ما معنى المعرفة والإثبات, وما معنى الطلب والقصد؟

الجواب: المعرفة والإثبات يعني: أن توحيد الربوبية يقوم على اعتقاد ذلك ومعرفته وإثباته والإقرار به, لا يتطلب منك عملاً بالجوارح, فانت تعتقد ان الله هو الخالق الرازق المدبر, فهذه معرفة وإثبات.

وتوحيد الألوهية: توحيد قصد وطلب, لأنه قائم على الأمر والنهي, على الفعل والترك, هذا فعل العبد, على ما تقصده في عملك, تقصد الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى تخلص العبادة له, تطلبه وتطلب رضاه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

فهذا معنى التوحيد الإرادي الطلبي ومعنى توحيد المعرفة والإثبات.

كلمة الإخلاص لها ركنان ما هما؟ النفي والإثبات.

لها شروط: شروطها سبعة, فلابد من العلم بمعناها, والعمل بمقتضاها, والانقياد لها, والإخلاص والقبول, والمحبة ، والصدق.

وهذه الشروط لابد منها حتى تُقبل منك الكلمة.

جاء عند البخاري أنه قيل لوهب بن منبه –وهو من التابعين-: "أليس مفتاح الجنة (لا إله إلا الله)؟" قال: "بلى, ولكن ليس من مفتاح إلا وله أسنان, فإن أتيت بمفتاح له أسنان فُتح لك".

ما أسنان (لا إله إلا الله)؟ شروط (لا إله إلا الله), لابد من معرفتها ومن الإتيان بها.

- **أول شرط لها: العلم.**

قال الله عَزَّ وَجلَّ لنبيه: {فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ} [محمد: 19].

قد يقول بعض من أهل الدعوة إلى التوحيد: أنتم جالسون مجلسا مثل هذا وتدرسون معنى (لا إله إلا الله), وكلنا مؤمنون ونعرف (لا إله إلا الله)؟

فقُل له هذه الآية في سورة محمد: {فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ}.

وسورة محمد مدنية, أي ظل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُعلم قومه وأصحابه ويدعو للتوحيد ثلاث عشرة سنة ومع ذلك يقول له ربه في سورة مدنية: {فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ}.

فمعنى ذلك: أن التوحيد يحتاج إلى تكرار, وتعلم التوحيد يحتاج إلى مراجعة وتكرار, لأن هذا مما يجدد الإيمان, لأن الإيمان يخلَق في القلوب كما يخلَق الثوب, كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فأول شرط لها: العلم بمعناها نفيًا وإثباتًا.

- **الشرط الثاني: اليقين**, أي: استيقان القلب بها دون شك ولا ارتياب.

قال تعالى: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا} [الحجرات: 15].

وقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ, لَا يَلْقَى اللهَ بِهِمَا عَبْدٌ غَيْرُ شَاكٍ فِيهِمَا إِلَّا دَخَلَ الْجَنَّةَ".

▪ **الشرط الثالث: الإخلاص.**

كما قال الله تعالى: {وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ} [البينة: 5], فيُخلص المرء في عبادته لربه, وتوحيد الإلهية: هو توحيد الله عَزَّ وَجلَّ بعبادة العبد, فتكون عبادته مبناها على الإخلاص، خالية من الرياء والتسميع، من ابتغاء وجه غير الله تعالى. تكون عبادته خالصة له سبحانه دون غيره كحال المشركين، يعبدونه ويعبدون غيره معه، فنقضوا بشركهم عبادتهم.

▪ **الشرط الرابع: الصدق المنافي للكذب.**

كما قال الله عَزَّ وَجلَّ: {وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ} [الزمر: 33]. فالذي جاء بالصدق هو محمد صلى الله عليه وسلم، والصدق هو شهادة أن لا إله إلا الله. وقال الطبري رحمه الله في قول أعم وأشمل: كلّ من دعا إلى توحيد الله, وتصديق رسله, والعمل بما ابتعث به رسوله من بين رسل الله وأتباعه والمؤمنين به, وأن يقال: الصدق هو القرآن, وشهادة أن لا إله إلا الله, والمصدّق به: المؤمنون بالقرآن, من جميع خلق الله كائنا من كان من نبيّ الله وأتباعه.

وقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "مَا مِنْ أَحَدٍ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، صِدْقًا مِنْ قَلْبِهِ إِلَّا حَرَّمَهُ اللَّهُ عَلَى النَّارِ"، أي تواطئ جوارحه ما نطق به لسانه.

▪ **الشرط الخامس: المحبة.**

قال تعالى: {فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ} [المائدة: 54]، والمراد محبة هذه الكلمة، لأنها سبيل النجاة في الدارين، وكذلك محبة أهلها، أهل التوحيد الخالص، مع بغض ما يضادها من أقوال وأفعال، وأشخاص، كما قال إبراهيم ومن معه من المؤمنين لقومهم: (إِنَّا بُرَآؤُا مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنا بِكُمْ وَبَدا بَيْنَنا وَبَيْنَكُمُ الْعَداوَةُ وَالْبَغْضاءُ أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ)

- **الشرط السادس: الانقياد لها ظاهرًا وباطنًا.**

كما قال تعالى: {وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى} [لقمان: 22]، فما هو الإقرار بالقلب، والنطق باللسان، والعمل بالجوارح بما تقتضيه هذه الكلمة العظيمة.

الشرط السابع: القَبول لها، وعدم ردها، ورد ما تقتضيه، وإلا كان حاله كحال إبليس لعنه الله.

وقد جمعها الشيخ حافظ حكمي رَحِمَهُ اللهُ في سُلّمه بقوله:

وفي شروط سبعة قد قُيدت	**وفي نصوص الوحي حقًا**
فإنه لا ينتفع قائلها	**بالنطق إلا حيث يستكملها**
العلم واليقين والقبول	**والانقياد فادر ما أقول**
والصدق والإخلاص والمحبة	**وفقك الله لما أحبه**

وزاد بعضهم شرطًا ثامنًا وهو: الكفر بالطاغوت, بكل ما يُعبد من دون الله, كما قال الله عَزَّ وَجلَّ: {فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى} [البقرة: 256].

فهذه شروط (لا إله إلا الله) التي لابد من العلم بها، والعمل بها.

ثم قال الشيخ بعد ذلك: (وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا مَزِيدًا). عرفنا معنى (أشهد).

فقال الشيخ الهراس رَحِمَهُ اللهُ: وَجَعَلَ الشَّهَادَةَ لِلرَّسُولِ صلى الله عليه وسلم بِالرِّسَالَةِ وَالْعُبُودِيَّةِ مَقْرُونًا بِالشَّهَادَةِ لِلَّهِ بِالتَّوْحِيدِ؛ لِلإِشَارَةِ إِلَى أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ كُلٍّ مِنْهُمَا، فَلاَ تُغني إِحْدَاهُمَا عَنِ الْأُخْرَى.

ولذلك من يقول: من كان موحدا من أهل الكتاب من هذه الأمة فله الجنة ولو لم يؤمن برسالة نبينا صلى الله عليه وسلم!!

فنقول: هذا كذب وتضليل؛ لأن الله قطع بعدم نجاة من فرّق بين رسله فآمن ببعض وكفر ببعض كما قال تعالى، والكلام عن أهل الكتاب: (إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً (150) أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا (151) وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا) فلم يجعل النجاة في الآخرة إلا لمن آمن بجميع الرسل دون استثناء.

ولأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال كما في الصحيح: "وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٌّ وَلَا نَصْرَانِيٌّ، ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ".

فلابد أن يقرن شهادة التوحيد بالشهادة بنبوة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ورسالته, فلا تُغني إحداهما عن الأخرى.

قال: وَلِهَذَا قَرَنَ بَيْنَهُمَا فِي الْأَذَانِ، وَفِي التَّشَهُّدِ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى: {وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ}: يَعْنِي: لَا أُذْكَرُ إِلَّا ذُكِرتَ مَعِي.

وَإِنَّمَا جَمَعَ لَهُ بَيْنَ وَصْفَي الرِّسَالَةِ وَالْعُبُودِيَّةِ؛ لِأَنَّهُمَا أَعْلَى مَا يُوصَفُ بِهِ الْعَبْدُ.

لأن الرسالة هي أعلى المقامات البشرية, والعبودية هي أسمى مقام للعبد, أن يكون عبدًا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جُمع له بين أشرف مقامين، فهو رسول لا يُكذَّب وعبد لا يُعبد, وهذا اعتقاد أهل السنة والجماعة، أهل التوحيد في رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ, اعتقادهم مبناه على الوسطية, لا إفراط ولا تفريط.

رسول لا يُكذَّب خلافًا لمن كذب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وجحد أمره وجحد سنته كاليهود والنصارى والعقلانُيين منكري سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ, فهؤلاء يكذبون النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وهو عبد لا يُعبد, هذا رد على الصوفية الذين يغلون في رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ, فيقول بعضهم في حق النبي:

فإن من جودك الدنيا وضرَّتها ومن علومك علمَ اللوح

هكذا يقول البوصيري في حق النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ, و(من) هذه تبعيضية، فمن جود النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ, ومن كرمه الدنيا والآخرة؛ لأن ضرت الدنيا الآخرة, هذا من جوده.

ومن علومه؛ أي من بعض علومه علم اللوح والقلم،, وهذا غلو ما بعده غلو في رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ, فهو رسول لا يُكذَّب وعبد لا يُعبد, صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال: وَالْعِبَادَةُ: هِيَ الْحِكْمَةُ الَّتِي خَلَقَ اللَّهُ الخَلْقَ لِأَجْلِهَا؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ}.

فَكَمَالُ الْمَخْلُوقِ فِي تَحْقِيقِ تِلْكَ الْغَايَةِ، وَكُلَّمَا ازْدَادَ الْعَبْدُ تَحْقِيقًا لِلْعُبُودِيَّةِ؛ ازْدَادَ كَمَالُهُ، وَعَلَتْ دَرَجَتُهُ, وَلِهَذَا ذَكَرَ اللَّهُ نبيَّه بِلَقَبِ الْعَبْدِ فِي أَسْمَى أَحْوَالِهِ وَأَشْرَفِ مَقَامَاتِهِ؛ كَالْإِسْرَاءِ بِهِ، وَقِيَامِهِ بِالدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ، وَالْإِيحَاءِ إِلَيْهِ، والتحدِّي بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَيْهِ.

وَلِهَذَا ذَكَرَ اللَّهُ نبيَّه بِلَقَبِ الْعَبْدِ فِي أَسْمَى أَحْوَالِهِ وَأَشْرَفِ مَقَامَاتِهِ؛ كَالْإِسْرَاءِ بِهِ: فقال تعالى: {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ} [الإسراء: 1]، والإضافة ههنا إضافة تشريف.

قال: وَقِيَامِهِ بِالدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ: فقال تعالى: {وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا} [الجن: 19].

قال: وَالْإِيحَاءِ إِلَيْهِ: كما قال: {فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى} [النجم: 10].

قال: والتحدِّي بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَيْهِ: كما قال تعالى: {وَإِنْ كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ} [البقرة: 23].

قال: ونبَّه بِوَصْفِ الْعُبُودِيَّةِ أَيْضًا إِلَى الرَّدِّ عَلَى أَهْلِ الْغُلُوِّ الَّذين قَدْ يَتَجَاوَزُونَ بِالرَّسُولِ قَدْرَهُ، وَيَرْفَعُونَهُ إِلَى مَرْتَبَةِ الْأُلُوهِيَّةِ؛ كَمَا يَفْعَلُ ضُلَّالُ الصُّوفِيَّةِ قَبَّحَهُمُ اللَّهُ.

والشيخ الهراس خبير بذلك كما أنه خبير بمذاهب المتكلمين, فقد كان قريبا من هذا النهج إلى أن هداه الله عَزَّ وَجلَّ إلى صراطه المستقيم بفضل هذا العالم الذي هو شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ.

قال: كَمَا يَفْعَلُ ضُلاَّلُ الصُّوفِيَّةِ قَبَّحَهُمُ اللَّهُ, وَقَدْ صحَّ عَنْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: ((لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ، وَإِنَّمَا أَنَا عبدٌ، فَقُولُوا عبدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ)).

وَالْمَقْصُودُ أَنَّ هَذِهِ الشَّهَادَةَ -يعني: شهادة (وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله)- تَتَضَمَّنُ اعْتِرَافَ الْعَبْدِ بِكَمَالِ عُبُودِيَّتِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِرَبِّهِ، وَكَمَالِ رِسَالَتِهِ، وَأَنَّهُ فَاقَ جميعَ البَشرِ فِي كلِّ خصلةٍ كمالُه, وَلَا تَتِمُّ هَذِهِ الشَّهَادَةُ – هذه شروط الشهادة للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالعبودية والرسالة- حَتَّى يُصَدِّقَهُ الْعَبْدُ فِي كُلِّ مَا أَخْبَرَ بِهِ، وَيُطِيعَهُ فِي كُلِّ مَا أَمَرَ بِهِ، وَيَنْتَهِيَ عَمَّا نَهَى عَنْهُ.

فهذه شروط ثلاثة ذكرها الشيخ، وأضف إليها شرطا رابعا: ألا يعبد الله إلا بما شرع على لسانه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وهذه الشروط عند التدقيق **خمسة شروط**:

- **الإقرار برسالته وعبوديته, هذا الشرط الأول.**
- **الثاني: وأن يصدقه فيما أخبر.**
- **الثالث: ويطيعه فيما أمر.**
- **الرابع: وأن ينتهي عما نهى وزجر.**
- **الخامس: وألا يعبد الله إلا بما شرع على لسانه.**

قال: الصَّلاَةُ فِي اللُّغَةِ: الدُّعَاءُ؛ قَالَ تَعَالَى: {وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاَتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ}.

والصلاة في اللغة بمعنى: الحُنُوِّ والعطف, كما حقق ذلك ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ.

ومن أفراد معانيها: الدعاء, هي في أصلها الحُنُوَّ والعطف والثناء, والدعاء من الثناء, ومن العطف والحنو.

أصح ما قيل فيها من جهة الشرع: قال: وأصحُّ مَا قِيلَ فِي صَلاَةِ اللَّهِ عَلَى رَسُولِهِ هُوَ مَا ذَكَرَهُ الْبُخَارِيُّ فِي ((صَحِيحِهِ)) عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ؛ قَالَ: ((صَلاَةُ اللَّهِ عَلَى رَسُولِهِ: ثَنَاؤُهُ عَلَيْهِ عِنْدَ الْمَلاَئِكَةِ)).

وهنا استشكال ذكره العلامة العثيمين في شرحه على بلوغ المرام في معنى صلاة الله على عبده؟

قال رحمه الله "ما قاله أبو العالية الرياحي: إنها ثناء الله على عبده في الملأ الأعلى عند الملائكة يعني: ذكر الله تعالى عبده بالذكر الحسن عند الملائكة. هذا ما اختاره كثير من العلماء، ولا سيما المتأخرون منهم، لكن في النفس من هذا شيء: وهو أن أبا العالية رحمه الله من التابعين ومثل هذا لا يقال بالرأي، لأن من يقول: إن الله يثني عليه فيحتاج إلى دليل من السنة يتبين به الأمر ويتضح"

وقال في موضع آخر من الشرح:

"ونقل العلماء عن أبي العالية رحمه الله من التابعين أنه قال: ((صلاة الله على عبده: ثناؤه عليه في الملأ الأعلى))، وهذا الكلام لأبي العالية يحتاج إلى نقل صحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم، فإن صح عن النبي صلى الله عليه وسلم وجب قبوله، وإن لم يصح فلا يجوز أن نفسره بهذا؛ أي: بأنها ثناؤه عليه في الملأ الأعلى؛ لأن هذا يحتاج إلى دليل"

وقد يُجاب عن ذلك بأن ما ذكره أبو العالية رحمه الله لا يخرج عن حد اللغة، مع ما تقتضيه الدلائل الشرعية من التفريق بين صلاة الله تعالى، وصلاة الخلق على غيرهم، فلا يحتاج لتوقيف والله أعلم.

قال: وَالْمَشْهُورُ أَنَّ الصَّلاةَ مِنَ الْمَلائِكَةِ الاِسْتِغْفَارُ؛ كَمَا فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: ((وَالْمَلاَئِكَةُ يصلُّون عَلَى أَحَدِكُمْ مَا دَامَ فِي مَجْلِسِهِ الَّذِي صلَّى فِيهِ؛ يَقُولُونَ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ، اللَّهُمَّ ارْحَمْهُ)): وهذا دعاء منهم واستغفار.

قال: وَمِنَ الْآدَمِيِّينَ: التضرُّع والدُّعاء.

قال: وَآلُ الشَّخْصِ هُمْ مَنْ يمتُّون إِلَيْهِ بِصِلَةٍ وَثِيقَةٍ مِنْ قَرَابَةٍ وَنَحْوِهَا.

هذا من حيث أصل الوضع اللغوي.

وَآلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُراد بِهِمْ أَحْيَانًا مَن حَرُمَت عَلَيْهِمُ الصَّدَقَةُ، وَهُمْ بَنُو هَاشِمٍ وَبَنُو المطَّلب –يعني: المؤمنين منهم– وَيُرَادُ بِهِمْ أَحْيَانًا كُلُّ مَن تَبِعَهُ عَلَى دِينِهِ.

إذًا: إذا قلنا إن المراد بـ(الآل): كل من تبع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على دينه, فعطف الصحب على (الآل) من عطف الخاص على العام، وقد ذكر ابن القيم رحمه الله في جلاء الأفهام خمسة أقوال في تفسير الآل فراجعه.

قال: وَأَصْلُ (آلٍ): أَهْلٌ، أُبْدِلَتِ الْهَاءُ هَمْزَةً، فَتَوَالَتْ هَمْزَتَانِ: يعني: صارت (أأل), مثل: {آمَنُوا}, أصلها همزتان, ما الذي حدث؟

قال: فقُلِبَتِ الثَّانِيَةُ مِنْهُمَا أَلِفًا، وَيُصَغَّرُ عَلَى أُهَيل أَوْ أُوَيْل، وَلَا يُسْتَعْمَلُ إِلَّا فِيمَا شَرُفَ غَالِبًا، فَلاَ يُقَالُ: آلُ الْإِسْكَافِي.

أي صانع الأحذية.

فَلاَ يُقَالُ: آلُ الْإِسْكَافِي -على سبيل الشرف- وَآلُ الْحَجَّامِ.

وَالْمُرَادُ بِالصَّحْبِ أَصْحَابُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُمْ كُلُّ مَنْ لَقِيَهُ حَالَ حَيَاتِهِ مُؤْمِنًا، وَمَاتَ عَلَى ذَلِكَ.

وهذا هو أصح وأدق حد للصحابي, كل من لقي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ, وليس كل من رأى النبي, ليدخل فيه الأكفَّاء، جمع كفيف، وآمن به حال حياته صلى الله عليه وسلم، ومات على ذلك، وإن تخلل ذلك ردة على الصحيح.

وتُعرف الصحبة بأمور ذكرها أهل العلم: مثل أن يتواتر أنه صحابي، أو بشهادة صحابي آخر له، وتارة بروايته عن النبي صلى الله عليه وسلم أو مشاهدته مع المعاصرة، وتارة بإخباره عن نفسه، وتارة بإخبار تابعي ثقة.

وانتبه لهذه الفائدة اللغوية: يقال إنسان كفء, أي: متفوق, وجمعها: أَكْفَاء, وأما جمع كفيف: فأَكِفَّاء.

إذًا: أَكِفَّاء جمع كفيف -بالتشديد- وأما بالتسهيل فهذه جمع كفء.

قال: وَالْمُرَادُ بِالصَّحْبِ أَصْحَابُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُمْ كُلُّ مَنْ لَقِيَهُ حَالَ حَيَاتِهِ مُؤْمِنًا، وَمَاتَ عَلَى ذَلِكَ.

فإن قلنا هاهنا إن (الآل) هم الأتباع على دينه فالصحب من باب عطف الخاص على العام, وأهل السنة والجماعة يعطفون الصحب على (الآل) مخالفة للرافضة, لأن الرافضة يصلون على آل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دون صحبه, فيصلون على آل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويلعنون أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ, فكان أهل السنة والجماعة يعطفون الصحب على (الآل) في الصلاة مخالفة للروافض.

قال: وَالسَّلاَمُ: اسْمُ مَصْدَرٍ مِنْ سلَّم تَسْلِيمًا عَلَيْهِ؛ بِمَعْنَى طَلَبَ لَهُ السَّلاَمَةَ مِنْ كُلِّ مَكْرُوهٍ، وَهُو اسْمٌ مِنْ أَسْمَائِهِ تَعَالَى.

ما دليل هذا الاسم في الكتاب ؟ {الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلاَمُ} [الحشر: 23], و ما معنى (السَّلاَمُ)؟ أي الذي يُسلِّم على عباده إذا دخلوا الجنة, أو السالم من كل عيب ونقص, أو الذي يُسلِّم عبده من كل مكروب.

قال: وَمَعْنَاهُ: الْبَرَاءَةُ وَالْخَلاَصُ مِنَ النَّقَائِصِ وَالْعُيُوبِ، أَوِ الَّذِي يسلِّم عَلَى عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ فِي الْآخِرَةِ.

قال: وَ((مَزِيدًا)) صفةٌ لِ(تَسْلِيمًا)، وَهُوَ اسْمُ مَفْعُولٍ مِنْ (زَادَ) المتعدِّي، وَالتَّقْدِيرُ: مَزِيدًا فِيهِ.

فكلمة مزيد يائية الوسط زاد يزيد، فاسم المفعول منها مزيد لا مزاد، ومثلها مَبيع لا مُباع، ومن الخطأ اللغوي والشرعي قول بعضهم: البضاعة المباعة لا ترد ولا تستبدل، إذ الصحيح المبيعة، ثم هو خطأ شرعي لأن البضاعة ربما كان فيها عيب ظاهر مؤثر، فكيف لا ترد ولا تستبدل.

ثم قال الشيخ رَحِمَهُ اللهُ بعد ذلك: أَمَّا بَعْدُ؛ فَهَذَا اعْتِقَادُ الْفِرْقَةِ النَّاجِيَةِ الْمَنْصُورَةِ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ: أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ.

وهذا سيكون موضوع حديثنا إن شاء الله في الدرس القادم.

الدرس الرابع

إن الحمد لله, نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله تعالى من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله, صلى الله عليه, وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد:

فما زال الحديث موصولًا في قراءة شرح الشيخ الهراس رَحِمَهُ اللهُ على عقيدة شيخ الإسلام ابن تيمية العقيدة الواسطية.

وكنا قد توقفنا في الدرس الماضي عند قول المصنف: أَمَّا بَعْدُ؛ فَهَذَا اعْتِقَادُ الْفِرْقَةِ النَّاجِيَةِ الْمَنْصُورَةِ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ: أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ.

قال الشيخ الهراس رَحِمَهُ اللهُ: ((أَمَّا بَعْدُ)): كَلِمَةٌ يُؤتَى بِهَا للدِّلالة عَلَى الشُّرُوعِ فِي الْمَقْصُودِ، وَكَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسْتَعْمِلُهَا كَثِيرًا فِي خُطَبِهِ وَكُتُبِهِ، وَتَقْدِيرُهَا عِنْدَ النحويِّين: مَهْمَا يَكُنْ مِنْ شَيْءٍ بَعْدُ.

ولذلك حسُن أن تقترن الجملة التي بعدها (بالفاء), لأن (أما بعد) في معنى الشرط، ومعناها: (أما بعد الذي ذُكر) فهذا ويذكر المصنف ما يريد أن يذكره من اعتقاد أو غير ذلك من مؤلَفِه.

قال: والْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ: ((هَذَا)) إِلَى مَا تضمَّنه هذا الْمُؤَلَّفُ مِنَ الْعَقَائِدِ الْإِيمَانِيَّةِ الَّتِي أَجْمَلَهَا فِي قَوْلِهِ: ((وَهُوَ الْإِيمَانُ بِاللَّهِ ...)).

فقوله: ((هَذَا))، قد تكون هذه الإشارة لشيء تحقق وجوده، وعليه فالشيخ كتب المقدمة بعد الفراغ من عقيدته، كتب العقيدة أولًا ثم أشار إليها وقال: فَهَذَا اعْتِقَادُ الْفِرْقَةِ النَّاجِيَةِ الْمَنْصُورَةِ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ.

فالإشارة هاهنا إلى شيء موجود.

أو أن يكون قد كتب هذه المقدمة أولاً، فالإشارة لما سيكون مما قام في ذهنه رَحِمَهُ اللهُ.

قال: وَالِاعْتِقَادُ: مَصْدَرُ اعْتَقَدَ كَذَا؛ إِذَا اتَّخذه عَقِيدَةً لَهُ؛ بِمَعْنَى عَقَدَ عَلَيْهِ الضَّمِيرُ وَالْقَلْبُ، وَدَانَ لِلَّهِ بِهِ، وَأَصْلُهُ مِنْ (عَقَدَ الْحَبْلَ)، ثُمَّ استُعْمل فِي التَّصْمِيمِ وَالِاعْتِقَادِ الْجَازِمِ.

فإن كان هذا الاعتقاد مطابقًا للواقع فهو الاعتقاد الصحيح، وإن خالف ذلك فهو الاعتقاد الباطل، كاعتقاد المشركين في آلهتهم بأنها تنفع وتضر، واعتقاد النصارى في عيسى ابن مريم عَليهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمِ، فهذه اعتقادات, لكنها اعتقادات باطلة لأنها خالفت الحق.

قال: ((الْفِرْقَةِ)), -بِكَسْرِ الْفَاءِ-: الطَّائِفَةُ مِنَ النَّاسِ.

قال الله عَزَّ وَجلَّ: {فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ} [التوبة: 122]، فالفرقة هي الطائفة والجماعة من الناس.

وأما بالضم: فهي الافتراق، الفُرقة: الافتراق، وأما الفِرقة: فهي الجماعة أو الطائفة من الناس، هذا اعتقاد الفرقة الناجية المنصورة.

وَوَصفَهَا بِأَنَّهَا ((النَّاجِيَةِ الْمَنْصُورَةِ)) أَخْذًا مِنْ قَوْلِهِ عليه السلام:

((لَا تزالُ طائفةٌ مِنْ أُمَّتي عَلَى الحقِّ مَنْصُورَةٌ، لَا يضرُّهم مَنْ خَذلهم، حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ)).

فهذه الفرقة موصوفة بأنها ناجية، هي ناجية في الدنيا من ركوب البدع والضلالات، لأنها تبعت صراط النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وما كان عليه

أصحاب النبي رَضِي اللهُ عَنْهُم، كما أنها ناجية في الآخرة من النار، فهي ناجية في الدنيا والآخرة.

وهي كذلك منصورة إما بالسِنان أو بالبيان، ونصرتها بالبيان يكون أبدًا فلا تزال هذه الطائفة موجودةً إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، لأنها قائمة بحجة الله على خلقه.

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ", أو: "إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ": أراد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى قرب قيام الساعة، لأن الساعة لا تقوم إلا على شرار الخلق، وأما خيار الخلق فإن الله عَزَّ وَجلَّ يُرسل ريحًا طيبة تأخذ روح كل مؤمن.

"فلا تقوم الساعة إلا على شرار الخلق"، "ولا تقوم الساعة حتى لا يكون في الأرض من يقول: الله الله"، كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

أو أن قوله: "إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ"، أي: إلى قيام ساعتهن، فإن من مات فقد قامت قيامته, كما يقول العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ.

قال: وَمِنْ قَوْلِهِ.

يعني: أخذ هذا الوصف للفرقة بأنها ناجية، مِنْ قَوْلِهِ فِي الْحَدِيثِ الْآخَرِ: (سَتَفْتَرِقُ هَذِهِ الْأُمَّةُ عَلَى ثَلاَثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً: كُلُّهُمْ فِي النَّارِ إلا وَاحِدَةً، وَهِيَ مَن كَانَ عَلَى مِثْلِ مَا أَنَا عَلَيْهِ الْيَوْمَ وَأَصْحَابِي).

هذا حديث عظيم، ولعل الكلام كله يكون عنه الليلة، وذلك لأهمية مباحثه.

فهذا الحديث ثابت عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو المعروف بحديث الافتراق وأحاديث الفِرق.

وقد روى هذا الحديث الترمذي في جامعه وأبو داود في السنن وأحمد في المسند والطبراني في الكبير وغيرهم عن جماعة من أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأسانيد ترتقي للحكم على الحديث بالصحة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ في اقتضاء الصراط المستقيم: هذا حديث محفوظ، وحسنه الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ.

وقال الحافظ العراقي في تخريج أحاديث الإحياء: أسانيده جياد.

وصححه العلامة الألباني في الصحيحة.

وعدَّه بعض العلماء من المتواتر، أي: الحديث الذي نُقل بكثرة في جميع طبقات السند إلى أن ينتهي إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ, بحيث تحيل العادة تواطؤهم على الكذب, ومستندهم في ذلك الحس.

يقولون أو ينتهي الأمر إلى أن يقولوا: سمعنا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول، فعدَّه بعضهم وهو السيوطي من الأحاديث المتواترة.

وهذا الحديث من أعلام النبوة، فإن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أخبر بما سيقع بعدُ، ولذلك قال: "سَتَفْتَرِقُ".

وقد كان ما أخبر به النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من وقوع الافتراق في الدين وظهور البدع والأهواء.

وقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "وَسَتَفْتَرِقُ هَذِهِ الْأُمَّةُ"، هذا فيه إشارة إلى سلامة منهج السلف الصالح، فيه إشارة إلى سلامة منهج أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والتابعين وأتباع التابعين، فيه إشارة إلى سلامة منهج القرون الفاضلة وصحة طريقتهم في الدين، لأن الافتراق سيقع لاحقًا.

قال: "وسَتَفْتَرِقُ"، إذًا: الافتراق لم يكن في عهد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولا أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ولذلك جاء الحضُّ على الاعتصام بطريقتهم وفهمهم, لأن طريقتهم وفهمهم للدين أعلم وأحكم وأسلم ممن جاء بعدهم.

لكن ما المراد بفهم السلف الصالح؟

المراد بفهمهم: ما علِمَه وفهِمَه واستنبطه أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والتابعون وأتباعهم, من مجموع النصوص الشرعية أو آحادها مرادًا لله تعالى ولرسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيما يتعلق بالمسائل العلمية والعملية، أي: في باب الخبر وفي باب الطلب.

والمراد: إجماعهم، فكل مسألة أجمع أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومن تبعهم بإحسان على فهمها على طريقة معينة فهذا هو فهم السلف الصالح، ومن خالف هذا الفهم فهو ضال مضل.

أو أن يكون هذا الفهم فهمًا لجمهورهم, لفهم نص من النصوص، أو أن ينتشر فهم آحادهم مع عدم ظهور مخالفٍ له، وهذا هو الإجماع السكوتي.

إذًا: إذا فهم أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والتابعون وأتباعهم إحدى مسائل الدين وأجمعوا على ذلك فهذا هو الفهم الصحيح.

لو أنهم أجمعوا على تفسير آية ولم يخالف فيها واحد قط فجاء من خالفهم بعد ذلك وقال: إن العربية تقبل ذلك أو تقتضي ذلك، هذا يُرد عليه لأنهم أعلم بالعربية منه، ومع ذلك حملوا الآية على غير هذا الوجه الذي جاء به.

وكذلك إذا اتفق جمهورهم على فهم مسألة من مسائل الدين، فلا شك أن هذا الفهم هو الفهم المقدم وهو فهمهم.

أو أن يفهم واحد منهم أمرًا من أمور الدين على طريقة معينة, ثم يقره السلف الصالحون ولا يعترضون عليه، وذلك لأن هذا الفهم لو كان فهمًا باطلاً لما سكتوا فإنهم لا يقرون باطلاً ولا منكرًا، وقد عصم الله أمة نبيه صلى الله عليه وسلم من الاجتماع على ضلالة.

وهذا القيد في بيان فهم السلف الصالح يُخرج اجتهاد بعضهم في فهم بعض الأحكام الجزئية، ويُخرج كذلك اجتهادهم في تفسير آية مع مخالفة غيرهم لهم، وهذا تجده في تفسير بعض الآيات، يقول ابن عباس فيها بقول، ويقول ابن مسعود فيها بقول، ويقول مجاهد فيها بقول.

فالمرجح في ذلك هو النظر في أقرب هذه الأقوال إلى الكتاب والسنة بقرائن معروفة عند أهل العلم، وقد قال تعالى:{وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ} [الشورى: 10].

وقال الله عَزَّ وَجلَّ: {فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ} [النساء: 59].

فهذا لا يسمى فهمًا للسلف الصالح, إن اختلف الفهم في فهم آية فاختلفوا فيه، فقال ابن عباس فيها بقول، وقال ابن مسعود فيها بقول, لا يُقال: إن الصحابة اختلفوا، فكيف ترجعوننا إلى فهم السلف الصالح؟

نقول هذه مسائل جزئية ترجع إلى الاجتهاد، وما أردنا هذه المسائل بفهم السلف الصالح، لكن أردنا ماذا؟

أردنا فهم المسائل العلمية كفهم أمور الاعتقاد، أردنا فهم المسائل العملية وكيفية تطبيقها في مسائل العبادة والذكر وغير ذلك، في كيفية الصلاة على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، في كيفية الاتيان بالأوراد.

أردنا كيف كان الصحابة والتابعون يظهرون حبهم للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كيف فهم أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الوحي والتنزيل، فإن أجمعوا أو تكلم واحد منهم وسكت الباقون فهذا هو فهمهم، ومع ذلك فلو اختلفوا في تفسير الآية على قولين، فلا يجوز لمن جاء بعدهم أن يحدث قولا ثالثا يخالف القولين مخالفة تضاد، فانتبه.

إذًا المراد هاهنا بهذا الفهم: فهم الصحابة والتابعين وأتباع التابعين لنصوص الشريعة على مراد الله ومراد رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لأن هؤلاء إما أن يكون عاينوا الوحي أو قابلوا من عاين الوحي كالتابعين، أو سمعوا هذا الفهم من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لكنهم لم ينشطوا لأن يقولوا: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

أو سمعوه ممن سمع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أو استنبطوه على مقتضى ما عندهم من علم وفقه وفهم وتربية من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ, وإحاطة بالعربية هم أعلم بها ممن جاء بعدهم، فهذا كله يرجح فهم هؤلاء على فهم من جاء بعدهم.

والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما سُئل عن الفرقة الناجية قال هي: **"مَنْ كَانَ عَلَى مِثْلِ مَا أَنَا عَلَيْهِ الْيَومَ وَأَصْحَابِي"**، على ما كان عليه هو وأصحابه في ماذا؟ في فهم الدين.

وقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسَيَرَى اخْتِلاَفًا كَثِيرًا, فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ، تَمَسَّكُوا بِهَا وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ"، فهذان حديثان يجعلان العصمة في فهم السلف عند وقوع الاختلاف والفُرقة.

قال ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: "من كان متأسيًا فليتأس بأصحاب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإنهم كانوا أبر هذه الأمة قلوبًا وأعمقها علمًا وأقلها تكلفًا وأحسنهم حالًا، قومًا اختارهم الله عَزَّ وَجلَّ لصحبة نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وإقامة دينه، فاعرفوا لهم فضلهم واتبعوهم في آثارهم، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم".

وقال حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وعن أبيه، قال: "اتقوا الله يا معشر القُرَّاء، خذوا طريق من كان قبلكم، والله لئن استقمتم عليه لقد سبقتم سبقًا بعيدًا، ولئن تركتموه يمينًا وشمالًا لقد ضللتم ضلالًا بعيدًا".

وقال عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللهُ: "سنَّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وولاة الأمر من بعده سننًا الأخذ بها تصديقٌ لكتاب الله, ليس لأحد تغييرها ولا تبديلها، فمن اقتضى بما سنُّوا اهتدى، ومن استبصر بصر، ومن خالفها واتبع غير سبيل المؤمنين -ويعني بغير سبيل المؤمنين: أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ولاه الله ما تولاه وأصلاه جهنم وساءت مصيرًا"، كما قالت آية الأنعام.

فهذه النصوص عن السلف الصالحين التي ذكرناها تُبين أن المتمسك بفهم السلف الصالح معصوم من التفرق والاختلاف، ولذلك كل فتنة تنزل بالمسلمين في دينهم خاصة لا ينجو منها إلا من تمسك بالعتيق.

من تمسك بما كان عليه أصحاب النبي الأمين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، يعرض فهم المعاصرين مهما علت كعوبهم على فهم السلف الصالحين، فإن خالفوا هذا الفهم رُدَّ فهمهم ولا كرامة لمن أصر على المخالفة والمشاقة، بهذا تكون العصمة.

والمرء يستدل بما كان على ما لم يكن، فإن الأمور مشتبهات كما جاء عن علي بن أبي طالب رَضِي اللهُ عَنْهُ، فكل نازلة تنزل بالمسلمين لها شبه قد سبق، ماذا صنع السلف الصالحون وأئمتنا؟ صنعوا كذا، إذًا: نقتدي بهم.

والعجيب في أمر هؤلاء الذين يخالفون في مسائل الإصلاح والتغيير وطريق ذلك، أنهم كانوا يقولون في كل مسألة من المسائل العملية، يعني: في الطهارة والصلاة والصيام والحج: صححه الألباني، ضعفه الألباني، قال الشيخ ابن عثيمين، قال الشيخ ابن باز.

فلما قامت الفتنة قيل لهم: هؤلاء الأئمة الثلاثة قد ماتوا وعصموا من الفتنة، وهذه نصوصهم وأقوالهم في مثل هذه الفتن يسيرون فيها على منهج السلف، قالوا: ماتوا ونحن أعلم بالواقع منهم.

فكان ما رأينا سلمنا الله عَزَّ وَجلَّ وإياكم من الفتن وعصمنا منها حتى نلقاه ونحن على الصراط المستقيم.

فهذه النصوص التي نقلناها عباد الله عن السلف الصالح فيها أن المتمسك بفهم السلف الصالح معصوم وناجٍ من الفتن والاختلاف.

وفيها أن التمسك بفهمهم فيه إشارة إلى صحة الاستدلال وقُربه من الحق، فالذي يتكلم في مسألة وينقل عليها فهم الصحابة والتابعين وأتباع التابعين، هذا فيه إشارة إلى قُربه من الحق، فهو أقرب للحق من غيره.

قال الشاطبي رَحِمَهُ اللهُ: "يجب على كل ناظر في الدليل الشرعي مراعاة ما فهم منه الأولون وما كان عليه في العمل, فهو أحرى بالصواب وأقوم في العلم والعمل"، وأهل السنة والجماعة والسلفيون هم أسعد الناس حظًا بهذا الكلام.

ولذلك تجد في كل مسألة الكثرة الكاثرة من النقول عن الصحابة والتابعين وأتباع التابعين في المسائل العلمية والمسائل العملية، في باب الأخبار وفي باب الطلب، إن تكلموا في الاعتقاد تجدهم ينقلون بكثرة عن الأئمة السابقين، إن تكلموا في العمليات ينقلون كذلك عن الأئمة السابقين, ويذكرون اختلافهم في المسائل أو إجماعهم على هذه المسائل.

وهذه النصوص كذلك فيها: أن الابتعاد عن الباطل والقول به والخوض فيه لابد أن يكون لمن تمسك بهدي السلف الصالح، لأن ما سكت عنه السلف الصالح وتكلم فيه الخلف هو مظنة للوقوع في الابتداع والأهواء.

ولذلك نحن نتكلم فيما تكلم به السلف الصالحون, ونُمسك عما أمسكوا عنه, خاصة في باب الاعتقاد، وهذا كان من أسباب تفريج المحنة على أهل السنة والجماعة, محنة خلق القرآن.

فابن الأذرمي رَحِمَهُ اللهُ لما دخل على الواثق وطلب منه أن يناظر ابن أبي دُؤاد, كيف ناظره؟ وكيف هزمه؟

كل مسألة تكلم فيها ابن أبي دُؤاد يقول له: هل علمها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ فإن قال له: علمها، قال له: هل تكلم بها؟ قال: لا، قال: إذًا يسعنا ما وسعه.

وإن قال: لم يعلمها، قال له: لم يعلمها رسول الله ولا أبو بكر ولا عمر وعلمتها أنت؟! فسكت.

إلى أن انتهى إلى قوله: يا أمير المؤمنين لا وسَّع الله على من لم يسعه ما وسع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصحبه.

فأخذ الواثق يردد هذه الكلمة، وكانت سببًا في رفع المحنة, فنحن نمسك عما أمسك عنه السلف الصالح ونتكلم بما تكلموا به رضي الله عنهم وأرضاهم.

إذًا: هذه المباحث استفدناها من قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "وَسَتَفْتَرِقُ".

ثم قال: "وَسَتَفْتَرِقُ هَذِهِ الْأُمَّةُ"، والمراد هاهنا: أمة الإجابة, وهم من أجابوه وأطاعوه واتبعوه في الجملة، أعني المسلمين أهل القبلة.

وهذه الأمة هي الواردة في قول الله عَزَّ وَجلَّ: {كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ} [آل عمران: 110].

وهي الواردة في قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "شَفَاعَتِي لِأَهْلِ الْكَبَائِرِ مِنْ أُمَّتِي"، فالمراد بالأمة هاهنا: أمة الإجابة، أي: المسلمين.

وأما أمة الدعوة: فهي كل من دعاهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى دينه, ومنهم اليهود والنصارى وعُباد الأوثان من الإنس والجن, فكل هؤلاء يسمون بأمة الدعوة، فإن لم يؤمنوا كانوا من أصحاب النار.

وهم الواردون في قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٌّ وَلَا نَصْرَانِيٌّ، ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ"، يعني: من أمة الدعوة.

فقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "وَسَتَفْتَرِقُ هَذِهِ الْأُمَّةُ"، أراد أمة الإجابة.

إذًا: هذا الافتراق سيكون في المسلمين, لا يدخل فيه لا اليهود ولا النصارى لأن هؤلاء خارجون عن الإسلام, غير معنيين في هذا الحديث.

لكن ما سبب الافتراق؟ وما حقيقة هذا الافتراق؟ هل كل افتراق صاحبه متوعد وداخل في هذا الحديث؟

لا يراد هاهنا –بارك الله فيكم– مطلق الافتراق، لأن ذلك يلزم منه أن يكون المختلفون في مسائل الفروع داخلين تحت هذا اللفظ, وهذا لا يصح بالإجماع، لأن الخلاف قد وقع منذ زمن أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في المسائل الاجتهادية، والآثار في ذلك كثيرة جدًا عنهم.

الصحابة اختلفوا في مسائل الطهارة وفي مسائل الصلاة واختلفوا في مسائل المواريث، اختلفوا في المسائل الاجتهادية، فهم غير داخلين في هذا الحديث، فلا يُراد هاهنا مطلق الافتراق، فليس كل افتراق يدخل في هذا الحديث.

وإنما المراد بالافتراق هاهنا: افتراق مخصوص على صورة وصفة معينة بينتها الآيات الكريمة التي وردت في كتاب الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، كقول الله تعالى: {وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٣١) مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ} [الروم: 31-32].

وقال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ} [الأنعام: 159].

إذًا: ما المراد بالافتراق على مقتضى هاتين الآيتين؟ المراد بالافتراق هاهنا: ما صار به المفترقون شيعًا وأحزابًا قد فارق بعضهم بعضًا, ليسوا على تآلف ولا تناصر, تفرقت قلوبهم قبل أبدانهم لوقوع العداوة والبغضاء بينهم.

لكن أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كانوا يختلفون في المسائل الاجتهادية وما كان يقع ذلك بينهم، كانوا أمة واحدة، فدل ذلك على أن هذا الافتراق غير مقصود، لكن الافتراق المقصود ما ذكرناه.

وهذا الافتراق قد يكون سببه أمرًا دنيويًا هو في نفسه غير معصية، وقد يكون بسبب الابتداع في الدين.

وتخصيصه بالأول فقط كما يقول الشاطبي رَحِمَهُ اللهُ في كتاب الاعتصام: أي تخصيص الافتراق بالأول فقط، أي: بأن يكون سببه أمرًا دنيويًا لا قائل به.

وكلام العلماء على أن الفرق المذكورة أو أن الفُرقة المذكورة سببها الابتداع في الدين على الخصوص.

إذًا السبب الرئيس في الافتراق: هو الابتداع في الدين، وهذا ظاهر من ذكر العلماء لأصول هذه الفِرق.

فإنهم لما عددوا الفِرق -كما سيأتي- رد بعضهم أصولها إلى أربعة: إلى الجبرية والقدرية والمرجئة والخوارج، وهذه الفرق مخالفتها مخالفة دنيوية أم عقدية؟ مخالفة عقدية، فهؤلاء بدعهم بدع عقدية سلوكية.

فإن قيل بما تصير الفرقة فرقة مخالفة للفرقة الناجية؟ هل أي مخالفة في باب الاعتقاد تُصيِّرُ صاحبها صاحب فرقة أو مؤسسًا لفرقة أم ماذا؟

الجواب: إنما تصير الفرقة فرقة لمخالفتها للفرقة الناجية في معنىً كليٍ في الدين، أن تكون المخالفة في أصل كلي من أصول الدين وقاعدة من قواعد الشريعة، أو في كثير من الجزئيات، وذلك أن المخالفة في كثير من الجزئيات يعود على كثير من الشريعة بالمعارضة كما يقول الشاطبي رَحِمَهُ اللهُ.

والناظر في أصول هذه الفِرق التي ذكرها أهل العلم يجد أنهم قد خالفوا في أصل كلي، فبعضهم قال بالتحسين والتقبيح العقلي المجرد، فأوجبوا على الله عَزَّ وَجلَّ ما لم يوجبه على نفسه، وشبهوا الله عَزَّ وَجلَّ بخلقه، فما يصلح من العبد لابد أن يصلح من الخالق، وما لا يصلح من العبد لا يصلح من الخالق.

ولذلك تجد أنهم خالفوا في أصول كلية في أصولهم الخمسة، هذه مخالفة في قواعد الشريعة الكلية، المُرجئة كذلك خالفوا في أصول كلية، الخوارج خالفوا في أصول كلية.

أو أن تكون المخالفة في كثير من جزئيات الشريعة، يعني: بعض الجماعات المعاصرة حكم عليها بعض العلماء بأنها من الفِرق النارية، وسيأتي المراد بالفِرق النارية، فتجد الواحد من هؤلاء يقول لك مثلاً: ما الأصل الذي خالفوا فيه؟

نقول: لا يلزم أن تكون المخالفة في أصل كلي، وإن كان هذا موجودًا عند آحادهم.

يعني: يرد السنة بعقله لا يقبل خبر الآحاد، لا يلزم أن تكون المخالفة في أصل، لكن لو نظرت في حالهم لوجدت أنهم خالفوا في كثير من الجزئيات، فهذه الجزئيات بمجموعها تعود على الشريعة بماذا؟ بالمعارضة والإبطال.

قال: "وَسَتَفْتَرِقُ هَذِهِ الْأُمَّةُ عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً"، هل مفهوم العدد هاهنا مراد أم غير مراد؟ يعني: هل أراد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حقيقة هذا العدد وأن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة لا تزيد ولا تنقص أم أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أراد التكثير، يعني: ستفترق إلى فرق كثيرة؟

الظاهر والله أعلم أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أراد حقيقة العدد، وهذا واضح من سياق الحديث، فإن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال في الأمتين الكتابيتين اللاتين سبقتا أمة الإسلام، قال: "افْتَرَقَتِ الْيَهُودُ عَلَى إِحْدَى وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، وَافْتَرَقَتِ النَّصَارَى عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، وَسَتَفْتَرِقُ هَذِهِ الْأُمَّةُ عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً".

فالنصارى زادت فرقة على اليهود، وهذه الأمة زادت فرقة على النصارى، فدل ذلك والله أعلم على أن العدد هاهنا مقصود.

وأما تعيين هذه الفِرق فهذا كما يقول الطرطوشي رَحِمَهُ اللهُ كما في البدع والحوادث: "هذا طاشت فيه أحلام الخلق".

فبعض من عدَّ هذه الفرق أدخل فيها فرقًا خارجة عن الإسلام، وبعضهم تكلم في الفرق حتى عصره، فقال: هذه الفرق الثلاث والسبعون التي عناها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذا قد يكون في القرن السابع أو الثامن أو التاسع.

فماذا عن الأزمان التي جاءت بعده وقد أحدثت طوائف بعدهم أصولًا كلية خالفوا فيها أو خالفوا في كثير من جزئيات الشريعة؟ ومنهم من زاد على العدد المذكور، وبعضهم ردها كما قلنا إلى أصول أربعة: وهي الخوارج والمرجئة والقدرية والروافض.

ثم تشعبت سائر الفرق عن هذه الأصول الأربعة، فهذه الفرق الأربعة هي كالأجناس لأنواعها، وكالغصون للفروع، فتجد كل فرقة قد أخذت من هذه الفرق الأربعة.

ومن هنا فلا ينبغي -كما يقول الشاطبي- للراسخ في العلم أن يقول: هؤلاء الفرق هم بنوا فلان وبنوا فلان وبنوا فلان، وإن كان يعرفهم بعلاماتهم بحسب اجتهاده إلا في موضعين، لا يجوز أن تُحدد فرقة بعينها وأن تقول: هم بنوا فلان وهم بنوا فلان وهم جماعة فلان إلا في موضعين:

- أما الموضع الأول: فهو حيث نبه الشارع على تعيينهم كالخوارج, فالشارع نبه على تعيينهم، بل قال بعض أهل العلم: لم يثبت حديث صحيح في تحديد آحاد هذه الفرق إلا في الخوارج فقط, هم الذين صح فيهم الحديث دون غيرهم.

فحيث نبه الشارع على تعيينهم كالخوارج فهم متمكنون في الدخول تحت حديث الفِرق، وذلك لاشتهار صفاتهم التي لا تلتبس على أحد.

وما أبرز صفاتهم؟ يقتلون أهل الإسلام ويَدَعُون أهل الكفر، صفة بارزة جدًا لا تلتبس على أحد.

فإذا عينهم الشرع عيناهم وقلنا: هؤلاء خوارج، لأنهم يفعلون كما فعل الخوارج الأولون، وفيهم الصفات التي ذكرها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

إذًا: هذا الموضع الأول.

▪ والموضع الثاني -وهذا موضع مهم جدًا-: حيث تكون الفرقة داعيةً إلى ضلالتها مزينة لها في قلوب العامة ومن لا علم عنده، فضررهم كضرر إبليس, وهم شياطين الإنس فلابد من تسميتهم والتصريح بأنهم من أهل البدع والضلالة والافتراق.

إذا كانت هذه الفرقة داعية لضلالتها منافحة عنها تدعو العامة إليها وتُضل الناس جهارًا نهارًا فلابد من تسميتهم والتحذير منهم.

فإذا فُقد الأمران، يعني: لم تكن سماتهم ظاهرة كما بيَّنها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وإنما هو محض تخرص ومحض اجتهاد وتخمين، وكذلك لم تكن هذه الفرقة وهذه الجماعة داعية لضلالتها, بل هي خامدة لا يعرف بها أحد.

فلا ينبغي أن يُذكروا أو أن يُعينوا وإن وجدوا حتى لا تقع الشحناء والعداوة والبغضاء وتفترق الأمة ويزيد شرهم، طالما أن بدعتهم خامدة لا يعرفها أحد فلا يجوز لك أن تسميهم ولا أن تُشهِّر بهم إلا إن دعوا إليها وضلوا الناس وصاروا يحملون الناس عليها.

لكن ما علامات هذه الفِرق على سبيل الإجمال؟ يعني: كيف نعرف أن هذه فرقة؟ ما السمات التي تُدخلهم في هذه الفرقة المنحرفة؟ كل هذه الفِرق تشترك في صفات ثلاثة إجمالية:

- أما الصفة الأولى: فهي الفُرقة ومفارقة جماعة المسلمين، وسيأتي المراد بجماعة المسلمين.

كما قال الله عَزَّ وَجلَّ: {إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ} [الأنعام: 159].

إذًا: هم يفترقون عن الناس بفهم وسلوك وطريقة عما كان عليه السابقون.

- والعلامة الثانية والصفة الثانية: وهي اتباع المتشابه من القرآن، أنهم يتبعون المتشابه من القرآن.

كاستشهاد الخوارج مثلاً بقول الله: {إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ}، وكفَّروا كل من حكَّم الرجال، وإن كان قد حكم بقال الله وقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كما فعلوا مع أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وكاستشهاد القائلين بخلق القرآن بقول الله تعالى: {اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ} [الزمر: 62].

وكاستشهاد المُرجئة بالأحاديث التي فيها ضمان الجنة لمن قال: (لا إله إلا الله)، وتركوا الأحاديث التي فيها العمل وفيها الوعيد.

وكاستشهاد الوعيدية من الخوارج والمعتزلة بالأحاديث وبالآيات التي فيها الوعيد دون الأحاديث والآيات التي فيها الوعد.

فهؤلاء جماعة يستدلون بالمتشابه من القرآن والسنة، وذلك أنهم اعتقدوا أولًا ثم بحثوا عن دليل لاعتقادهم.

- وأما السمة الثالثة والصفة الثالثة: وهي اتباع الهوى لا اتباع الدليل.

كما قال الله عَزَّ وَجلَّ: {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ} [آل عمران: 7].

ماذا يصنع أهل السنة والجماعة؟ ما تشابه في موضع ردوه إلى المُحكم الذي هو أصل الكتاب وأم الكتاب, لكن أهل الأهواء والفرق والبدع قال الله عَزَّ وَجلَّ عنهم: {فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ} [آل عمران: 7].

إذًا: هم يبتغون الفتنة والافتراق، ويتبعون المتشابه ويتبعون الهوى, فيميلون عن الحق اتباعًا للهوى.

قال: "وَسَتَفْتَرِقُ هَذِهِ الْأُمَّةُ عَلَى ثَلاَثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً"، وهذا وعيد يدل على أن هذه الفِرق ارتكبت كل واحدة منها ذنبًا عظيمًا وكبيرة من الكبائر، فلم تقع هذه الفِرق في الصغائر, وإنما وقعت في كبيرة من الكبائر, وهذا هو حد الكبيرة.

ما توعد الشرع عليه بوعيد من نار أو لعن أو طرد من رحمة الله أو فيه حد في الدنيا ، فهذا حد الكبيرة.

والمراد كما قلنا هاهنا: الفِرق من أمة الإجابة، وهذا يعني أنهم ليسوا كفارًا.

لأن بعض الناس يريد أن يُلبِّس على العوام، فإذا قيل: هذه فرقة نارية أو هذه من الفِرق التي ذكرها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يقول: يُكفِّرون الناس.

فنقول: لا يلزم من الوعيد التكفير، كما لا يلزم من الوعيد دخول النار, فضلاً عن الخلود في النار، لأن هذا الأمر مبناه على وجود شروط وانتفاء موانع.

فهذا قد يكون وقع في كبيرة من الكبائر, لكن عنده من الحسنات ما يرجح على هذه الكبيرة.

قد يكون في مشيئة الله عَزَّ وَجلَّ يوم القيامة إن شاء عذبه وإن شاء غفر له، فلا يعني دخول فرقة معينة في هذا الوعيد أن تكون من المخلدين في النار، بل هو وعيد كما قلنا يتحقق بوجود شروط وانتفاء الموانع.

قال: "كُلُّهُمْ فِي النَّارِ إِلا وَاحِدَةً".

إذًا: ثنتان وسبعون في النار، وفرقة واحدة في الجنة، وهذا فيه بنصه أن الحق واحد لا يتعدد, فلو كان للحق فِرق لم يقل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إِلا وَاحِدَةً".

وهذا فيه بيان خطأ وضلال من قال: إن كل هذه الجماعات التي تفهم الدين على مزاجها وهواها موصلة إلى الله عَزَّ وَجلَّ, وموصلة إلى الصراط المستقيم, وأفهامهم مختلفة, واستدلالاتهم مختلفة, متناقضة متعارضة غير متآلفة، فهذا يدل على أن الحق واحد.

وقد قال الله عَزَّ وَجلَّ: {فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ} [يونس: 32].

وقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " إذا اجْتَهَدَ الْحَاكِمُ فَأَصَابَ.... وَإِذا أَخْطَأَ...." الحديث، فإما الصواب وإما الخطأ، فهذا يدل على أن الحق واحد.

ولذلك خطَّأ العلماء من قال: نتعاون فيما اتفقنا عليه ويعذر بعضنا بعضًا فيما اختلفنا فيه، فهذا قول باطل لا يصح، لكن كل ما كان فيه خلاف فمردُّه إلى الكتاب والسنة وفهم السلف، وينبغي التفريق بين الخلاف والاجتهاد.

ولذلك من المقولات الخاطئة: لا إنكار في مسائل الخلاف.

الصحيح أن نقول: لا إنكار في مسائل الاجتهاد، وأما مسائل الخلاف فهذه فيها إنكار، كل من خالف يُنكر عليه، طالما أنه خالف الدليل الصحيح وخالف

فهم السلف فهذا يُنكر عليه, وأما المسائل التي فيها الاجتهاد ويحتملها الدليل فهذه لا إنكار فيها.

هناك اختلاف في دعاء الاستفتاح، النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نُقل عنه كثير من أدعية الاستفتاح فبعض الصحابة والتابعين يرجح هذا وبعض الأئمة يرجح هذا وبعضهم يرجح هذا، هذا اجتهاد، فلا إنكار في مثل هذه المسائل.

إذا رفعنا من الركوع نقبض أم نُرسل؟ هذا اختلاف، لكن اختلاف مرده إلى الاجتهاد في فهم النص، ليس فيها نص صريح قاطع.

إذا أردنا أن نسجد نُقدم الأيدي أم نُقدم الرُّكب؟ هذه فيها اختلاف، فلا إنكار في كل مسألة مردها إلى الاجتهاد، لكن يُبين بعضنا لبعض الحق بقلوب صافية، ويقبل كل واحد منا الحق من أخيه.

وأما مسائل الخلاف، أي خلاف التضاد فهذه لابد فيها من الإنكار، فمن خالف في طريقة الصلاة، في طريقة الذكر، في طريقة الصيام، في طريقة فهم الأسماء والصفات، في غير ذلك من الأمور، هذا يُرد عليه ويُنكر عليه.

قيل: يا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما هي؟ أي: ما هذه الفِرقة؟ قال: "مَن كَانَ عَلَى مِثْلِ مَا أَنَا عَلَيْهِ الْيَوْمَ وَأَصْحَابِي".

ما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هي أنا وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي، هي فلان وفلان، لكن حدد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أوصافًا ولم يحدد أشخاصًا ولا أعيانًا، فالناجون هم المتمسكون بما كان عليه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصحبه.

هذا القيد الذي ذكره النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُبين لنا أن كل من ادَّعى أنه على الصراط المستقيم حوكم إلى فهم السلف الصالحين، لأن الجميع يقولون: كتاب وسنة, ولا يذكرون القيد المهم الذي هو بفهم سلف الأمة.

ففهم الكتاب والسنة لا يكون صحيحًا إلا إذا عُضِّدَ بفهم سلف الأمة، وإلا فالخارجي يستدل بآية وحديث، والمعتزلي يستدل بآية وحديث، والمُرجئي يستدل بآية وحديث، حتى الرافضي يستدل بآية وحديث، لكن أين فهم ذلك من فهم أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟!

هنا مسألة مهمة ينبغي الانتباه لها: هل هذا الحديث يقتضي وعيد أكثر الأمة أو دخول أكثر الأمة النار؟ لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: "وَسَتَفْتَرِقُ هَذِهِ الْأُمَّةُ عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً"، هل هذا يقتضي أن تكون أكثر أمة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ متوعدة بالنار ومن ثَمَّ يُرد هذا الحديث ولا يُقبل؟

هذا أشكل به بعض الأشاعرة على أهل السنة والجماعة، فقال لهم: على قولكم هذا فالأشاعرة أكثر الأمة، فعلى قولكم هذا أكثر الأمة في النار، وهذا من سوء فهمه، وإلا فأكثر الأمة ليسوا بأشاعرة, منذ بعثة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

يعني: بعد موت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أكثر الأمة على المعتقد الصحيح، أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ربَّاهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم من بعدهم التابعون, ربَّاهم أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وكانت البدع فيهم قليلة جدًا في التابعين أو من عاصرهم.

ثم بعد ذلك أتباع التابعين لم تكن البدع ظاهرة فيهم، ثم بعد ذلك علماء وعوام, والعوام الأصل فيهم أنهم على الفطرة السوية السليمة، فهم ناجون من هذا الافتراق وهذا الوعيد.

وفي كل عصر لو نظرت لوجدت أن أكثر العوام, إنما هم على الفطر السوية يعرف أن الله في السماء وأن له صفات مذكورة في القرآن، لا يتكلم لا بالجوهر ولا بالعرض ولا بالاستيلاء ولا أن هذا يستلزم كذا ولا بما لا يخلو من الحوادث فهو حادث، فكيف يقال إن أكثر الأمة أشعرية؟

وإلا فقل لي بربك مَنْ مِنَ العوام على عقيدة الأشعرية؟ بل إن أكثر العوام لا يعرفون من هم الأشاعرة, ومن هو أبو الحسن الأشعري، فكيف يقال إن إثبات هذا الحديث والقول بصحة هذا الحديث يستلزم الوعيد لأكثر الأمة ؟ فهذا مردود عليهم.

فالحديث ثابت –رحمكم الله- وفيه هذه الفوائد التي ذكرناها.

ثم قال المصنف بعد ذلك: وَقَوْلُهُ: ((أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ)) ؛ بَدَلٌ مِنَ الْفِرْقَةِ.

ماذا يريد بقوله: بَدَلٌ مِنَ الْفِرْقَةِ؟

يريد ضبط الكلمة، لأن البدل من التوابع، والتابع له حكم المتبوع في الإعراب، فكيف نقرأ هذه الجملة؟ نقول: فَهَذَا اعْتِقَادُ الْفِرْقَةِ النَّاجِيَةِ الْمَنْصُورَةِ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ: أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ، بخفض كلمة أهل.

ونستطيع أن نقرأها على القطع كذلك: أَهْلُ السنة والجماعة، على أنها خبر لمبتدأ محذوف، تقديره هم.

ونستطيع أن نقرأها كذلك: أَهْلَ السنة والجماعة، على أساس أنها مفعول به لفعل محذوف تقديره (أعني).

ومثله كذلك في الاستعاذة، فيقولون: أعوذ بالله من الشيطانِ الرجيمِ، من الشيطانِ الرجيمُ، من الشيطانِ الرجيمَ.

(من الشيطانِ الرجيمِ): صفة.

(من الشيطانِ الرجيمُ): على القطع، أي: هو الرجيم- خبر لمبتدأ محذوف.

(من الشيطانِ الرجيمَ): على أساس أنها مفعول لفعل محذوف تقديره (أعني)، وهذا معنى قوله: بَدَلٌ مِنَ الْفِرْقَةِ.

وَالْمُرَادُ بِالسُّنَّةِ: الطَّرِيقَةُ الَّتِي كَانَ عَلَيْهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابُهُ قَبْلَ ظُهُورِ الْبِدَعِ وَالْمَقَالَاتِ.

السنة في اللغة: هي الطريقة, محمودة كانت أو مذمومة، طريقة وسبيل مسلوك, سواء كان هذا الطريق أو هذه الطريقة محمودة أو مذمومة.

ومنه قول لبيد:

من معشرٍ سنَّت لهم آباؤهم ... ولكل قوم سنة وإمامها

لكل قوم سنة، يعني: طريقة مسلوكة.

وأما السنة في الاصطلاح -في اصطلاح العلماء-: فهي تختلف باختلاف من أطلق هذا الاصطلاح.

فالسنة عند المُحدِّثين: هي ما أُضيف إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من قول أو فعل أو تقرير أو وصف خَلْقي أو خُلُقي.

والسنة عند الأصوليين: هي ما أُضيف للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من قول أو فعل أو تقرير مما يصلُح للاستدلال على الأحكام الشرعية على سبيل الإجمال.

ولذلك الأصوليون يتكلمون في الأدلة الكلية حُجية السنة، يعني: حُجية قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وفعله وتقريره.

والسنة عند الفقهاء: ترادف المندوب والمستحب، فهي: ما يُثاب فاعله امتثالًا ولا يعاقب تاركه.

وأما السنة عند علماء العقيدة: فيعنون بها طريقة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصحبه في فهم الدين والعمل به, النبي وصحبه رَضِي اللهُ عَنْهُم.

كما في حديث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي"، أي: عن فهمه للدين والعمل به.

ولذلك قال هاهنا: وَالْمُرَادُ بِالسُّنَّةِ: الطَّرِيقَةُ الَّتِي كَانَ عَلَيْهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابُهُ قَبْلَ ظُهُورِ الْبِدَعِ وَالْمَقَالَاتِ.

ولذا كان المنهج الصحيح العاصم من الزلل الاحتكام إلى ما كانت عليه جماعة المسلمين قبل ظهور البدع والمقالات.

وَالْجَمَاعَةُ فِي الْأَصْلِ: الْقَوْمُ الْمُجْتَمِعُونَ، وَالْمُرَادُ بِهِمْ هُنَا سَلَفُ هَذِهِ الْأُمَّةِ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ، الَّذِينَ اجْتَمَعُوا عَلَى الْحَقِّ الصَّرِيحِ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى وَسُنَّةِ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

هذه اللفظة (الجماعة) جاءت في كثير من أحاديث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما في حديث حذيفة: "تَلْزَمُ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ وَإِمَامَهُمْ"، "قُلْتُ: فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ جَمَاعَةٌ وَلَا إِمَامٌ؟"، قال: "فَاعْتَزِلْ تِلْكَ الْفِرَقَ كُلَّهَا وَلَوْ أَنْ تَعَضَّ بِأَصْلِ شَجَرَةٍ".

ومنه كذلك قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "من أرَادَ بُحْبُوحةَ الجنَّةِ فليَلْزَمِ الجَماعةَ".

ومنه كذلك قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "مَنْ فَارَقَ الجَمَاعَةَ قِيدَ شِبْرٍ فَقَدْ خَلَعَ رِبْقَةَ الإِسْلاَمِ مِنْ عُنُقِهِ".

إلى غير ذلك من الأحاديث.

العلماء لما نظروا في هذه الأحاديث اختلفوا في معنى الجماعة على خمسة أقوال:

- أما القول الأول: فقالوا المراد بالجماعة: السواد الأعظم من أهل الإسلام، وهذا الفهم قد يكون صحيحًا إن أرادوا به القرون الأولى.

هذا الفهم للحديث أو لمعنى الجماعة من الأحاديث قد يكون صحيحًا إن أرادوا القرون الأولى، لأن السواد الأعظم في القرون الأولى كانوا أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والتابعين وأتباع التابعين ممن زكاهم الشرع وكانوا على عقيدة سليمة صافية، فالنجاة في اتباعهم.

- ومن أهل العلم من قال: المراد بالجماعة: جماعة العلماء المجتهدين، لأن العامة تأخذ دينها عنها وإليها تفزع في النوازل وهم تبع لها.

إذًا: المراد بالجماعة: جماعة العلماء المجتهدين، والعامة تبع لهم، لماذا؟ لأن العامة تأخذ دينها عن هؤلاء المجتهدين، وإذا نزلت نازلة فإنهم يفزعون إليهم، فالنجاة في سبيلهم.

- ومن العلماء من قال: المراد بالجماعة: جماعة الصحابة.

وهذا مطابق لقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "مَا أَنَا عَلَيْهِ الْيَوْمَ وَأَصْحَابِي"، فقالوا المراد بالجماعة: جماعة الصحابة.

- ومنهم من قال -وهذا قول الطبري-: هم جماعة المسلمين إذا اجتمعوا على أمير، ويعنون بجماعة المسلمين: أهل الحل والعقد, وهم في الغالب يكونون من العلماء.

والمتأمل لهذه الأقوال في تفسير الجماعة يجد أنها دائرة على اعتبار أهل السنة والاتباع، لأننا قلنا: السواد الأعظم هذا يصدق على القرون الأولى، وقلنا: العلماء المجتهدون كذلك يعني: الأئمة، خاصة في باب الاعتقاد، وقلنا: هم الصحابة فهذا لا إشكال فيه، وقلنا: الناس إذا اجتمعوا إلى أمير، جماعة المسلمين، يعني: العلماء إذا اجتمعوا على أمير ونصَّبوه، يعني: أهل الحل والعقد.

فهذه الأقوال تدور على اعتبار أهل السنة والاتباع، وأنهم المرادون بالأحاديث, سواء ضموا إليهم العوام أم لا، وليس المعنى أن اتباع جماعة العوام هو المراد.

وقد كنا نسمع ذلك أيام الثورات المشئومة، يقولون: أنت تخالف جميع الناس، الناس كلها في الميادين, أنت من شذَّ عنهم، قلنا لهم: مَن الناس؟! أنت تتكلم عن عوام مقلدة، كيف تُصحح فهمهم وتزكيه وتجعل فعالهم حجة في النوازل؟!

فالمراد هاهنا كما قلنا: أهل السنة والجماعة, وليس المراد جماعة العوام, وإن خالفهم العلماء، بل العكس هو المراد, فإن العلماء هم السواد الأعظم وإن قلوا.

أنت الجماعة ولو كنت وحدك كما جاء عن ابن مسعود رضي الله عنه.

فإن العلماء هم السواد الأعظم وإن قلوا.

ولذلك لما سُئل ابن المبارك عن الجماعة، قال: أبو بكر وعمر، قيل له: مات أبو بكر وعمر ، قال: محمد بن ثابت والحسين بن واقد، قيل له: قد ماتوا، فأخذ يُعدد ناسًا حتى قال: أبو حمزة السكري هو الجماعة, وهو محمد بن ميمون, وكان من علماء القرن الثاني ومن أئمة الحديث.

فالعلماء هم السواد الأعظم -كما قلنا- وإن قلوا، وقد كان أحمد بن حنبل رَحِمَهُ اللهُ وحده في فتنة خلق القرآن هو الجماعة.

فالمراد هاهنا بأهل السنة والجماعة، أي: من كان على طريقة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصحبه، من كان على طريقة أصحابه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ, وكان مع أميره في العسر واليسر والمنشط والمكره، فالجماعة جماعتان: جماعة فهوم وجماعة أبدان.

أما جماعة الفهوم: فهذه ترجع إلى فهم أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وأما جماعة الأبدان: فهي الجماعة التي لها أمير نُصِّب باختيارهم، أو تولى عليه رغمًا عنهم، قهرهم بالسيف وتولى عليهم، فهذا أميرهم كما جاءت به النصوص.

فمن كان من أصحاب الجماعتين داخلاً في الجماعتين لا يفهم الكتاب والسنة إلا على مقتضى ما كان عليه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصحبه، ولا ينزع يدًا من طاعة لجماعة قد تولى عليها أميرٌ وجعل له السمع والطاعة في غير معصية الله فهذا هو الناجي من الفتن, وهذا هو المتمسك بما جاء بالكتاب والسنة.

ولذلك لا يدخل في أهل السنة والجماعة من خالفهم كالأشاعرة والمعتزلة والماتريدية والخوارج وغير هؤلاء.

يقول العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ: أهل السنة والجماعة مجتمعون على السنة, فهم أهل السنة والجماعة، ولذلك لا يدخل فيهم من خالفهم في طريقتهم، فالأشاعرة مثلاً والماتريدية لا يُعدون من أهل السنة والجماعة في هذا الباب, لأنهم مخالفون لما كان عليه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه في إجراء صفات الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى على حقيقتها.

ولهذا يُخطئ من يقول: إن أهل السنة والجماعة ثلاثة: سلفيون وأشعريون وماتريديون! وهم والله لا يدخلون السلفيين.

يقولون: أهل السنة والجماعة هم الأشاعرة والماتريدية، يقولونها هكذا صراحة، أما هؤلاء الوهابية أو هؤلاء السلفيون فهؤلاء خوارج خرجوا على الفهم الصحيح للكتاب والسنة، هكذا يقول أهل البدع. وصدق القائل: رمتني بدائها وانسلَّت.

فيقول الشيخ رَحِمَهُ اللهُ: ولهذا يخطئ من يقول: إن أهل السنة والجماعة ثلاثة: سلفيُّون، وأشعريُّون، وماتريديُّون، فهذا خطأ؛ نقول: كيف يكون الجميع أهل سنة وهم مختلفون؟! فماذا بعد الحقِّ إلا الضلال؟! وكيف يكونون أهل سنَّةٍ وكلُّ واحدٍ منهُم يردُّ على الآخر، هذا لا يمكن؛ إلا إذا أمكن الجمع بين الضِّدين؛ فنعم! وإلا؛ فلا شك أن أحدهم وحده هو صاحب السنة، فمن هو؟ الأشعرية أم الماتريدية أم السلفية؟

قال: نقول مَن وافق السنَّة؛ فهو صاحب السنة، ومَن خالف السنة؛ فليس صاحب سنة، فنحن نقول: السلف هم أهل السنة والجماعة، ولا يصدق الوصف

على غيرهم أبدًا، والكلمات تعتبر بمعانيها: يعني هؤلاء يقولون: نحن أهل السنة والجماعة.

فلننظر كيف نسمي من خالف السنة أهل سنة؟ لا يمكن! وكيف يمكن أن نقول عن ثلاث طوائف مختلفة، إنهم مجتمعون؟ فأين الاجتماع؟ فأهل السنة والجماعة هم السلف معتقدًا، حتى المتأخر إلى يوم القيامة. إذا كان على طريقة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه؛ فإنه سلفي، وإلا فدون ذلك خرط القتاد.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم، وجزاكم الله خيرًا.

الدرس الخامس

إن الحمد لله, نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله تعالى من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله, صلى الله عليه, وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد:

فاليوم إن شاء الله نبدأ في بيان هذا الاعتقاد الذي سطره شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ وشرحه العلامة الهراس, وقد انتهينا من شرح : أَمَّا بَعْدُ؛ فَهَذَا اعْتِقَادُ الْفِرْقَةِ النَّاجِيَةِ الْمَنْصُورَةِ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ: أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ.

ثم قال: وَهُوَ الإِيمانُ بِاللهِ وَمَلاَئِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ، والإِيمَانِ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ.

هذا هو مجمل الإيمان الواجب على العبد, وهذا الإيمان مبني على حديث جبريل الذي جاء النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فسأله عن مراتب الدين الثلاثة, عن الإسلام والإيمان والإحسان, فقال له: مَا الْإِيمَانُ؟ قال: ﴿أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَبالبَعْثِ بَعَدَ المَوْتِ وَبِالقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ﴾, فقال جبريل: صَدَقْتَ.

والإيمان والإسلام إذا اجتمعا افترقا, وإذا افترقا اجتمعا, فلو أن الإسلام ذُكر مع الإيمان فالإسلام يراد به الأعمال الظاهرة من الصلاة والصيام والزكاة والحج والصوم, والإيمان يراد به الأعمال الباطنة التي تقوم على الاعتقاد, كما جاء في حديث جبريل.

فهذه المذكورات الست مبناها على الاعتقاد -اعتقاد القلب-: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره.

فالواجب على المؤمن أن يؤمن وأن يصدق ما جاء الخبر به.

فهذه الأركان الستة كما قلنا جاءت في حديث جبريل عَليهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَم, والحديث في الصحيح من حديث ابن عمر وأبي ذر وابن عباس وأبي هريرة وفي غير الصحيح من دواوين السنة، وقد سماه بعض العلماء لأهميته بأم السُّنة كالفاتحة أم الكتاب، ولذا قال النبي صلى الله عليه وسلم في آخره: هذا جبريل جاء يعلمكم أمور دينكم، فهو مشتمل على الدين كله.

قال المصنف رَحِمَهُ اللهُ: وَهُوَ الإِيمانُ بِاللهِ: أي: أن اعتقاد الفرقة الناجية هو الإيمان بالله.

الإيمان عرفه بعضهم بأنه التصديق بهذه الأمور, فقالوا: الإيمان هو التصديق, وهذا معناه في اللغة, هكذا قالوا.

وعلى هذا: فهناك علاقة بين اللغة والشرع, قد يكون المعنى اللغوي أوسع من المعنى الشرعي, وقد يكون عكس ذلك؛ المعنى الشرعي أوسع من المعنى اللغوي, فقالوا: الإيمان في اللغة هو التصديق, وفي الشرع هو كذلك التصديق بهذه المذكورات، دون زيادة ولا نقصان لأن هذا حده اللغوي.

وقد رد شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ على من عرف الإيمان بالتصديق في كتابه الإيمان الكبير, المجلد السابع من مجموع الفتاوى, من وجوه عدة ذكرتُ كثيرا منها في شرح اعتقاد أئمة الحديث:

منها:

- أن الإيمان لا يرادف التصديق في لغة العرب, وإنما هناك فرق بين الإيمان والتصديق, وحتى على القول بالترادف، فالتصديق تصديق القلب فقط, وهو أحد أجزاء الإيمان الشرعي، والنبي صلى الله عليه وسلم قد جاء ببيان الشرعيات لا اللغويات.

إذًا: التصديق جزء من أجزاء الإيمان, ولا يرادف الإيمان الشرعي, وليس في نصوص الشريعة ما يفسر الإيمان بالتصديق فقط, لأن التصديق كما قلنا: إنما هو تصديق القلب فقط.

وأما الإيمان في الشرع: فهو إقرار القلب بهذه المذكورات, , مع خضوعه واستسلامه لله وظهور ذلك في عمل الجوارح.

فالشرع لم يفسر الإيمان بالتصديق فقط, بل فسره بالإقرار والإذعان.

- ومما يبين خطأ من فسره بالتصديق كذلك أن التصديق لا يكون إلا للأخبار, والشرع على قسمين: خبر وإنشاء.

فالواجب تجاه الخبر أن نصدقه, فإذا جاء خبر عن الله وأسمائه وكتبه ورسله واليوم الآخر فالواجب تجاه ذلك أن نصدقه وأن نقر به وأن نعتقده.

ماذا عن الإنشاء الذي هو افعل أو اترك؟ الذي هو جملة التكاليف التي أُنيطت بالمكلف ؟

وهذا يبين قصور كلمة التصديق في تعريف الإيمان, ولو قلنا إن الإيمان بمعنى التصديق -وهذا يعضد ما سبق- فهذا يقتصر على تصديق الخبر, فأين تنفيذ الطلب؟

ومن هنا يظهر لنا لماذا أخرجت المرجئة الأعمال من مسمى الإيمان, لأنهم لما عرفوا الإيمان بالتصديق قصروه على تصديق الخبر, فماذا عن الطلب والطلب هو العمل؟

فقالوا: العمل غير داخل في مسمى الإيمان, لأنهم ما فسروا الإيمان بالإقرار, وإنما فسروه بالتصديق.

وبسبب تفسيرهم للإيمان بالتصديق قال بعضهم: يكفي تصديق القلب ولو لم ينطق اللسان.

وقال بعضهم: إنما هو تصديق ونطق, وهذا قول الأشعرية, تصديق القلب ونطق اللسان, والإعمال غير داخلة في مسمى الإيمان.

فهذا يبين كذلك لماذا فسر أهل السنة والجماعة الإيمان بالإقرار ولم يفسروه بالتصديق.

- ومما يبين وهاء هذا القول أيضًا: أن الذي يقابل التصديق التكذيب والجحود, فضد كلمة (صدَّقَ) كلمة (كذَّبَ).

ولذلك نجد هؤلاء يقصرون الكفر على كفر التكذيب والجحود, فليس عندهم كفر العمل, لأنهم عرفوا الإيمان بالتصديق.

وأما الإيمان فمقابله الكفر, وله شُعب كثيرة, فهناك كفر الأفعال وكفر الأقوال وكفر الإرادات وكفر الشك وكفر الإعراض والاستكبار والجحود, فأنواع الكفر كثيرة، لكنهم لما قصروا معنى الإيمان على التصديق قصروا معنى الكفر على كفر الجحود والتكذيب فقط.

- ومما يدل كذلك على عدم صحة تعريف الإيمان بالتصديق: أن الإيمان يتعدى بحرف جر لا يتعدى به التصديق, فيقال: آمن به, وأما التصديق فيقال: صدَّقه.

أما الإيمان فيقال: آمن به, {آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ} [البقرة: 285], أي: أقروا بذلك وأذعنوا واستسلموا له.

وأما التصديق فلا يتعدى بحرف الجر وإنما يتعدى بنفسه, فيقال: صدَّقته.

فالصحيح: أن الإيمان هو الإقرار, فإذا قلنا: الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله, أي: أن نقر بهذه المذكورات إقرارا جازما يستلزم ظهور آثاره على الجوارح.

قال الشيخ الهراس رَحِمَهُ اللهُ: هَذِهِ الْأُمُورُ السِّتَّةُ هِيَ أَرْكَانُ الْإِيمَانِ، فَلاَ يتمُّ إيمانُ أحدٍ إِلَّا إِذَا آمَنَ بِهَا جَمِيعًا عَلَى الْوَجْهِ الصَّحِيحِ الَّذِي دلَّ عَلَيْهِ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ، فمَنْ جَحَدَ شَيْئًا مِنْهَا أَوْ آمَنَ بِهِ عَلَى غَيْرِ هَذَا الْوَجْهِ؛ فَقَدْ كَفَرَ.

فمن آمن بالله ولم يؤمن بالملائكة فقد كفر, ومن آمن بهذه الأركان دون ركن واحد فكذلك هو كافر, فلابد من الإتيان بهذه الأركان الستة، وهذا مما فارقت به أركان الإيمان أركان الإسلام الأربعة العملية؛ إذ ترك بعضها ليس كفرا، مع اعتبار الخلاف الوارد في الصلاة.

وكذلك من آمن بها على غير الوجه الذي جاء في الكتاب والسنة, يعني: آمن بالبعث بعد الموت, لكن قال: لا يوجد بعث بعد الموت بالأجساد, وإنما هو بعث الأرواح فقط, وهذا قول الفلاسفة المنتسبين إلى الإسلام كابن سينا والفارابي.

وكفَّرهم الغزالي في كتابه تهافت الفلاسفة, انتقد عليهم عشرين مسألة وكفرهم في ثلاثة منها, وهي:

- أنهم يقولون بقِدم العالم, وحجتهم في ذلك نظرية باطلة متهافتة, وهي نظرية الفيض والصدور, فيقولون: إن العالم قد فاض عن العلة الأولى كما يفيض شعاع الشمس عن الشمس بلا خلق من الله ولا إرادة ولا عناية ولا غير ذلك, وإنما هو فيض محض.

ويجعلون وسائط بين الله وبين خلقه يسمونها بالعقول العشرة, ويجعلون آخرها العقل الفعال ويسمونه جبريل أو روح القدس, ويجعلون خلق هذا العالم من شأنه, فهو الذي خلق هذا العالم.

فنسبوا الخلق لغير الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى, وقالوا: إنما فاض العالم مع الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى, يعني: منذ القِدم وهذا العالم موجود, هذا العالم ليس محدثًا وليس موجودًا بعد عدم, فكفَّرهم الغزالي بسبب هذه المسألة.

ونجد في بلدتنا وفي غيرها من يسمي بعض المدارس بمدرسة ابن سينا, ومن يقول عنه الشيخ الرئيس, ويقول عن الفارابي المعلم الثاني, لأن المعلم الأول هو أرسطو, فأين رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟! يعظمون هؤلاء ويجلونهم.

فكفَّرهم الغزالي لقولهم بقِدم العالم

- ولقولهم بامتناع بعث الأجساد بعد الموت, وإنما تبعث الأرواح دون الأجساد, ويكون النعيم في الآخرة نعيمًا روحيًا, لا يقع النعيم على الجسد, فلا زواج ولا نكاح ولا طعام ولا شراب في الجنة ولا شيء من

ذلك, وإنما تتنعم الأرواح, وأما الأجساد فتبلى ولا تعود مرة أخرى, وهذا اعتقاد اليهود والنصارى, وليس اعتقاد المسلمين.

- وأما المسألة الثالثة التي كفَّرهم بسببها: فهي قولهم بأن الله يعلم الكليات دون الجزئيات.

فالله يعلم أن هناك عالمًا وأن فيه مخلوقات, أما أنه يعلم أن أحمد يفعل كذا, وأن صلاح يفعل كذا, وأن هذا يحيا, وهذا يموت, وهذا يقوم, وهذا ينام, فهذا لا يعلمه الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى, لأن الله واحد منزه عن الكثرة, فعلمه بهذه الجزئيات يترتب عليه اتصاله وعلمه بالكثرة, والله واحد منزه عن الكثرة, هكذا يقولون وهو قول باطل رد عليه أهل العلم.

فمن الناس من يؤمن بهذه الأركان, لكن لا يؤمن بها كما جاء في الكتاب والسنة وفي الاعتقاد الصحيح, فهذا كذلك كافر غير مؤمن بها.

ولذلك قال الشيخ رَحِمَهُ اللهُ: فَمَنْ جَحَدَ شَيْئًا مِنْهَا أَوْ آمَنَ بِهِ عَلَى غَيْرِ هَذَا الْوَجْهِ؛ فَقَدْ كَفَرَ.

وَقَدْ ذُكِرَت كُلُّهَا فِي حَدِيثِ جِبْرِيلَ الْمَشْهُورِ، حِينَ جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم فِي صُورَةِ أَعْرَابِيٍّ يَسْأَلُهُ عَنِ الْإِسْلامِ وَالْإِيمَانِ وَالْإِحْسَانِ؟ فَقَالَ: ((أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ، وَمَلائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَتُؤْمِنَ بِالْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ، وَبِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ))؛ حُلْوِهِ وَمُرِّهِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى.

قال: ((أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ: ولم يتعرض الشيخ الهراس رَحِمَهُ اللهُ للإيمان بالله, والإيمان بالله مبناه على أمور أربعة:

- أن تؤمن بوجوده

- وبربوبيته
- وألوهيته
- وبأسمائه وصفاته.

أما وجوده: فهذا لا ينكره ذو عقل, وقد دل على وجوده العقل والفطرة والحس والشرع, وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

ولذلك جاء عن أبي حنفية رحمه الله أنه ناظر قومًا من السُمنية الذين يجحدون الضروريات ولا يؤمنون إلا بالحسيات, ناظرهم في وجود الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى, ففرض لهم فرضًا وهو وجود سفينة تحمل البضائع وتمخر عُباب الماء وتفرغ ما فيها من البضائع, كل ذلك وليس عيلها رُبَّان, وإنما تفعل ذلك من تلقاء نفسها, فأنكروا ذلك وجحدوا, فقال لهم: تجحدون ذلك في سفينة ولا تثبتون ذلك في هذا العالم المشهود؟ فبُهتوا.

وكذلك الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللهُ, جاء عنه أنه لما سئل عن الدليل على وجود الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى ذكر ورقة التوت, وقال: تأكلها الشاة فتخرج بعرًا, وتأكلها الظبية فتخرج مِسكًا, وتأكلها الدودة فتخرج حريرًا, , وتأكلها النحلة فتخرج عسلاً, وهي ورقة واحدة هذا كله يدل على وجود ربٍّ قادرٍ سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

وكذلك أحمد رَضِي اللهُ عَنْهُ لما سئل عن الدليل على وجود الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى ذكر البيضة, صرح أملس لا منفذ فيه, ومع ذلك يخرج منه حيوان يصيح, فمن الذي أدخل له الهواء والطعام ؟

وهذا الأعرابي لما سئل عن الدليل على وجود الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى, قال: البعرة تدل على البعير, والأثر على المسير, فسماء ذات أبراج, وأرض ذات فجاج, ألا يدل ذلك على اللطيف الخبير.

كل هذه منبهات تنبه النفوس على ما هي مفطورة عليه من الإقرار بالخلق سبحانه وتعالى.

وهذا كذلك جبير بن مطعم رضي الله عنه لما سمع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقرأ قول الله تعالى: {أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (٣٥) أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ} [الطور: 35-36] قال: كاد قلبي أن يطير. فهذا دليل عقلي, والقرآن مليئ بالأدلة العقلية.

{أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ}, خُلِقُوا من غير خالق لهم, لا لم يخلقوا من خالق لهم, {أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ}.

خَلَقُوا أنفسهم؟ هم يقرون أنهم لم يخلقوا أنفسهم.

خلقوا السماوات والأرض؟ فاقد الشيء لا يعطيه ، ومن ثم ما خلقوا السماوات والأرض.

إذًا: لابد من خالق موجود لكل هذه المخلوقات, فكل ذلك من أدلة العقل, ولا يجحدها إلا مكابر.

قال تعالى: (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) آية عظيمة كلها براهين عقلية على وجود

الله تعالى، وكونه ربا لهذا الخلق العظيم، ومن ثم استحق العبادة دون من سواه، ولذا قال بعدها: (وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ۖ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ)

فإذا أنكر الملحد وجود الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى وقال: لا دليل على وجود الله فهذا لا يُناظر ولا يُجادل, وإنما هذا يُعاقب ويُزجر, وخير ما يُرد عليه به الوعيد والتذكير بيوم الحساب والتخويف من عذاب الله في الآخرة, لأن عقل هذا لا يحتاج إلى إقامة برهان على وجود الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى, وإنما الذي ينفع معه إذا نفعه أن يُذَّكر بعذاب الله في الآخرة, وأنه سُيرد في الآخرة إلى الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى وسيعلم حينها إن كان هناك إله موجود يحاسب أم لا, هذا الذي يزجره وهذا الذي ينفعه إن نفعه.

ولذلك كانت أكثر العقائد ذكرا في السور المكية التي تخاطب المشركين وتخاطب جحدة رب العالمين هي عقيدة البعث بعد الموت, لا تكاد تخلو منها سورة ، تدبر فقط سور جزء عم المكية لتقف على ذلك, فهذه العقيدة هي التي تنجع مع هؤلاء.

ودل على وجوده كذلك: الفطرة, فالله عَزَّ وَجلَّ فطر النفوس على الإقرار بوجوده وربوبيته لهذا الكون, كما ذكر ذلك في سورة الأعراف, وكما ذكر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ﴾.

ودل على ذلك أيضًا: الحس, فكم من إنسان دعا ربه في الكروبات والشدائد وأجابه الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى, وقد جاء الأعرابي إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو

على المنبر, فقال: يا رسول الله هلكت الزروع والمواشي فادع الله لنا, فرفع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يده يدعو ربه تَبَارَكَ وَتَعَالَى ويستسقي, وما في السماء من سحابة, فما نزل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من على المنبر إلا والمطر يتحادر على لحيته صلى الله عليه وسلم, فمن الذي أجاب؟

ودل على وجوده كذلك: الشرع, والكتب السماوية مليئة بالأدلة على وجود الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

فأول أركان الإيمان بالله: أن تؤمن بوجوده.

ثم أن تؤمن بربوبيته, وأنه رب كل شيء ومليكه وخالقه ورازقه ومدبره سُبْحَانَهُ وَتعَالَى, كما قال في أول آية في القرآن: {الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}.

وكذلك أن تؤمن بألوهيته, أنه الإله المعبود المستحق للعبادة دون من سواه, ومن أجل ذلك أرسل الرسل وأنزل الكتب وخلق الجنة والنار, وجعل الناس فريقين: فريقًا في الجنة وفريقًا في السعير.

كذلك من الإيمان: أن تؤمن بأن له أسماءً حسنى وصفاتٍ مثلى, ذكرها في كتابه وعلى لسان نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ, ولها قواعد ستأتي إن شاء الله.

فهذه الأمور الأربعة لازمة لكمال الإيمان بالله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى, فمن آمن ببعضها دون بعض لم يكن محققًا للإيمان بالله, فمن آمن بوجوده وبربوبيته وأشرك في ألوهيته فهذا غير محقق للإيمان بالله.

وكذلك من خالف في الإيمان بأسمائه وصفاته كما في جاء في الكتاب والسنة فهذا غير محقق للإيمان بالله على الوجه الذي يرضيه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

قال: وَالْمَلَائِكَةُ: جَمْعُ مَلَك، وَأَصْلُهُ مَأْلَكٌ؛ مِنَ الْأَلُوكَةِ، وَهِيَ الرِّسَالَةُ.

فالملائكة رسلٌ ووسائط شرعية بين الله ورسله, كما قال الله عَزَّ وَجلَّ: {جَاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً أُولِي أَجْنِحَةٍ} [فاطر: 1].

والملك كما قال أصله مألك, جاء في لسان العرب: أَلِكْ أَلِكْني إِليه أَي كُنْ رسولي إِليه؛ وقا ل أَبو عبيد في قوله: أَلِكْني يا عُيَيْنُ إِليكَ عني أَي: أَبلغ عني الرسالة إِليك، والمَلَكُ مشتق منه، وأَصله مَأْلَك، ثم قلبت الهمزة إِلى موضع اللام فقيل مَلأَك، ثم خففت الهمزة بأَن أُلْقيت حركتها على الساكن الذي قبلها فقيل مَلَك، والجمع ملائكة، ومنه الألوكة أي الرسالة.

قال: وَهُمْ نوعٌ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ عَزَّ وَجلَّ، أَسْكَنَهُمْ سماواته.

إذًا: الملائكة خلقٌ من خلق الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى, خلقهم من نور, كما جاء في حديث عائشة رَضِي اللهُ عَنْهَا: ﴿خُلِقَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ، وَخُلِقَ الْجَانُّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ، وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ﴾, أي: من طين, من صلصال, من حمإ مسنون, إلى غير ذلك مما جاء في كتاب الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

فالملائكة خَلْقُهم من نور, لكن هل هم نور الآن؟ لأن بعض الناس إذا عرَّف الملائكة يقول: أجسام نورانية لطيفة.

نقول: هذا غيب لا يعلمه إلا الله, هم خُلقوا من نور, لكن هل هم نور الآن؟ هذا لا يعلمه إلا الله.

أنت خُلقت من تراب, هل أنت تراب الآن؟ لا.

الجن مخلوق من نار, هل هم نار الآن؟ فهذا غيب لا يعلمه إلا الله.

فأصل خلقهم النور, لكن هل هم نور الآن؟ هذا لا يعلمه إلا الله.

ولذلك الصحيح: أن نعرِّف الملائكة بأنهم عالم غيبي خلقهم الله من نور, {لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ} [التحريم: 6], {يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ} [الأنبياء: 20], إلى غير ذلك مما جاء في وصفهم, أما أن نقول: إنهم الآن نور؟ فهذا غيب لا يعلمه إلا الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

السؤال: هل يؤيد ذلك حديث صورة جبريل التي رآه النبي عليها؟

الجواب: وهذا مما يرُد إطلاق القول بأنهم نور الآن, أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما رأى جبريل رآه وله ستمائة جناح, كل جناح قد سد الأفق.

فقال رَحِمَهُ اللهُ: وَالْمَلَائِكَةُ: جَمْعُ مَلَك، وَأَصْلُهُ مَأْلَكٌ؛ مِنَ الْأَلُوكَةِ، وَهِيَ الرِّسَالَةُ، وَهُمْ نوعٌ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ عَزَّ وَجلَّ، أَسْكَنَهُمْ سماواته.

إذًا: أصل مسكنهم في السماء, والجن والأنس أصل مسكنهم في الأرض.

قال: ووكلهم بشؤون خَلْقِهِ، وَوَصَفَهُمْ فِي كِتَابِهِ بِأَنَّهُمْ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ، وَأَنَّهُمْ يسبِّحون لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَا يَفْتُرُونَ.

فَيَجِبُ عَلَيْنَا الْإِيمَانُ بِمَا وَرَدَ فِي حَقِّهِمْ مِنْ صِفَاتٍ وَأَعْمَالٍ فِي الْكِتَابِ والسنَّة، وَالْإِمْسَاكُ عمَّا وَرَاءَ ذَلِكَ؛ فَإِنَّ هذا من شؤون الْغَيْبِ الَّتِي لَا نَعْلَمُ مِنْهَا إِلَّا مَا علَّمنا اللَّهُ وَرَسُولُهُ.

هذه الأوصاف التي ذكرها الشيخ رحمه الله ترد قول من قال من الفلاسفة وغيرهم أنهم قوى نفسانية لا حقيقة لها، وقد نقض شيخ الإسلام قولهم بأن الملائكة قوى نفسانية بأكثر من وجه، **ومن ذلك**:

- ما أخبر الله في كتابه من الدلائل الكثيرة من أنه خالق الأشياء بالأسباب، وقد كانت الملائكة من جملة الوسائط التي خلق بها، كما قال تعالى (فالمدبرات أمرا)، وكما قال تعالى (فالمقسمات أمرا).
- ما أخبرت به الرسل من أن الجن والملائكة أحياء ناطقة قائمة بنفسها، ليست أعراضا قائمة بغيرها، وأخبروا أنهم يأتون بأخبار الأمور الغائبة، وأنهم يفعلون أفعالا خارجة عن قدرة البشر كما أخبر الله تعالى عن الملائكة لما أتت إبراهيم عليه السلام ثم ذهبوا إلى قوم لوط ليرسلوا عليهم حجارة من طين مسومة، وهذا مما لا يكون بالقوى النفسانية، حيث خاطبهم إبراهيم، وخاطبتهم سارة زوجه، مما يدل على أنهم خلق منفصل قائم بنفسه.
- ما جاء في السنة من إتيان جبريل النبي صلى الله عليه وسلم في صورة أعرابي، وفي صورة دحية بن خليفة الكلبي رضي الله عنه، وإتيانه مريم عليها السلام، ومن المعلوم أن القوى النفسانية تكون في نفس النبي وغير النبي ولا يراها الحاضرون.
- أن الله وصف الملائكة بصفات تقتضي أنهم أحياء ناطقون خارجون عن قوى البشر، وعن النفوس والعقول التي تثبتها الفلاسفة، ومن ذلك قوله تعالى عن جبريل عليه السلام :(عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ (5) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ (6) وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ (7) ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ (8) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ (9) فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ (10) مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ (11) أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ (12) وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ) وقوله تعالى: (إِنَّهُ لَقَوْلُ

رَسُولٍ كَرِيمٍ (19) ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ (20) مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ (21) وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ (22) وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ)

فكل ما سبق يرد قول من قال من الفلاسفة وكثير من المدرسة العقلية المعاصرة مدرسة الأفغاني ومحمد عبده، ومن تأثر بهم من مترجمي معاني القرآن الكريم كيوسف علي ومحمد أسد بأنهم قوى نفسية لا مخلوقات حية تقوم بذاتها

من المباحث التي تتعلق بالملائكة أنهم لا يوصفون بذكورة ولا أنوثة. هل الملائكة ذكور؟ الله عَزَّ وَجلَّ نفى أن يكون إناثًا, فهل نقول بمفهوم المخالفة طالما أن الله عَزَّ وَجلَّ نفى أنهم إناث فهم ذكور؟

نقول: لا يجوز ذلك, لأن هذا عالم الغيب, ولا يجوز فيه القياس, وإنما مبناه على السمع المحض, يعني: ما جاء في كتاب الله وفي سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من إثبات نثبته, وما جاء من نفي ننفيه, وما لم يأت نسكت عنه ولا نتكلم فيه، فليس ههنا إعمال لمفهوم المخالفة، فانتبه.

والملائكة خلق عظيم من خلق الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى, قال الله عَزَّ وَجلَّ: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلاَئِكَةٌ غِلاَظٌ شِدَادٌ} [التحريم: 6].

وقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "أُذِن لي أن أُحدِّث عن مَلَكٍ من حملة العرش, رأسه مثنية تحت العرش, ورجلاه قد مرقت في الأرض, يقول: سبحانك ما أعظمك, فيقول الله عَزَّ وَجلَّ: ما عَلِم ذلك من حلف بي كذبًا".

فخلْقُهم عظيم, والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رأى جبريل على صورته الحقيقة مرتين, له سِتمائة جناح, كل جناح قد سد الأفق.

السؤال: غير مسموع.

الجواب: نعم, هناك كثير من الأحاديث والآثار التي تدل على عِظم خلْقهم.

السؤال: غير مسموع.

الجواب: الملائكة مخلوقة من نور مخلوق, يعني: الملائكة من خلق الله, هي مخلوقة ونورها مخلوق لكن خُلقت منه, أما النور هذا صفة لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى, والصفة تتبع الموصوف, والله عَزَّ وَجلَّ غير مخلوق؛ فصفته غير مخلوقة سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

وأعظم هؤلاء الملائكة ثلاثة: جبريل, وميكائيل, وإسرافيل.

وهؤلاء الثلاثة كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يتوسل بربوبية الله لهم في صلاة الليل, "اللَّهُمَّ رَبَّ جِبْرَائِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ، فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ. اهْدِنِي لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ، إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ" .

وهؤلاء الملائكة الثلاثة وُكِّلوا بأنواع ثلاثة من الحياة:

فجبريل عَليهِ السَّلاَم وُكِّل بالوحي, وبه تحيا القلوب.

وميكائيل وُكِّل بالقطر والإنبات, وبه تحيا الأبدان.

وإسرافيل وُكِّل بالصور والبوق, وبه تحيا الأجساد لتبعث لتقوم بين يدي الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

وأما عددهم فلا يعلمه إلا الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى, {وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ} [المدثر: 31].

ويكفي في بيان عظيم عددهم أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليلة المعراج رأى البيت المعمور, وهو بيت في السماء السابعة فوق بيت الله الذي هو في الأرض ويسمى الضُراح.

جاء ذلك عن علي رَضِي اللهُ عَنْهُ: رأى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سبعين ألف ملك يدخلون البيت كل يوم ثم لا يخرجون, فعددهم لا يعلمه إلا الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

والملائكة خُلقوا قبل آدم, ولذا لما أخبر الله عَزَّ وَجلَّ الملائكة وقال: {إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ } [البقرة: 30], فدل ذلك على أن خلْقهم سابق على خلق آدم.

ولما نفخ الله عَزَّ وَجلَّ الروح في آدم فعطس قال: الحمد لله, فقالت الملائكة لآدم: يرحمك الله, فكانت موجودة قبل آدم عَليهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمِ.

ولهم قدرة على التشكل بإقدار الله عَزَّ وَجلَّ لها على ذلك, فجاء جبريل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -كما في حديث الباب- في صورة أعرابي شديد بياض الثوب شديد سواد الشعر, جلس إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأسند ركبتيه إلى ركبتيه ووضع يده على فخذيه.

وكان جبريل يأتي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في صورة دحية الكلبي رَضِي اللهُ عَنْهُ.

وكذلك جاء جبريل مريم عَليهَا السَّلاَمَ لما بشَّرها بعيسى عَليهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَم.

وأما أسماؤهم: فلا نعلم منها إلا ميكائيل وإسرافيل وجبريل ومالك خازن النار, وأما تسمية ملك الموت بأنه عزرائيل فهذا في الإسرائيليات ولم يثبت في شرعنا هذه التسمية.

وكذلك تسميته بعبد الرحمن, هذا كذلك لم يثبُت, وإنما هو ملك الموت.

وكذلك تسمية خازن الجنة برضوان, هذا كذلك لم يثبُت عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ, فلم يثبُت اسم عزرائيل ولا رضوان، والأصل في هذا الباب وفي غيره من أبواب الغيب التوقيف لا الاجتهاد فتنبه.

والإيمان بالملائكة له ثمرات عديدة، **فمن هذه الثمرات:**

- أن عِظم خلْقهم يدل على عِظم الخالق سُبْحَانَهُ وَتعَالَى, فخلْقهم عظيم, فهذا يدل على كمال عِظم الخالق وقوته وسلطانه.
- وكذلك ما جاء في وصفهم سبيل لمحبتهم وموالاتهم, فهم خلقٌ لا يعصون ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون, يسبحون الليل والنهار لا يفتُرون, يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون من يؤمرون, جبلوا على الطاعة, فهذا يحمل المرء على محبة الملائكة.
- وكذلك من ثمرات الإيمان بالملائكة: أن يشكر العبد ربه تَبَارَكَ وَتَعَالَى إذا علم أن الملائكة موكلة برعايته وحفظه, قال الله تعالى: {لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ} [الرعد: 11], أي: بأمر الله, فالمعقبات ملائكة

وُكِّلت بحفظك, تحفظك من كل مكروه وسوء, حتى إذا جاء القدر خُلِّي بينك وبين القدر.

▪ وكذلك من ثمرات الإيمان بالملائكة: أن يستشعر العبد وجودهم, وهذا يُورثه المراقبة وأن يتحلى بالأخلاق الحميدة, {مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ} [ق: 18], فالملائكة معك تراقبك وتكتب كل شيء.

حتى قيل: إنهم يكتبون الأنين, كان أحمد رَحِمَهُ اللهُ يئنُّ في مرضه, فلما أُخبر أن الملائكة تكتب الأنين كفَّ الأنين.

السؤال: غير مسموع.

الجواب: يقصدون به أنه يتحلى بالكثير من الأخلاق الحميدة والصفات الطاهرة.

السؤال: هل الملائكة مجبرون على الطاعة؛ بمعنى أنهم لا إرادة لهم؟

الجواب: هم مجبولون على الطاعة, يعني: جبلهم الله عَزَّ وَجلَّ على طاعته, لكن ما الفرق بين الجبْل والجبْر؟

الجبْر لفظ لم يرد لا في كتاب الله ولا في سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ, وهو لفظ مجمل.

وأما الذي جاء في الشرع: فهو ما جاء في حديث أشج عبد قيس, لما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ له: "إِنَّ فِيكَ خَصْلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللهُ وَرَسُولُهُ قَدْ جَبَلَكَ اللهُ عَلَيْهِمَا", فقال: "جَبَلَكَ", والجبْل لا ينافي وجود الإرادة.

ولذلك قال تعالى: {يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ}, وقال: {لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ}.

ولما نزل جبريل عَلَيهِ السَّلاَمِ إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ, وقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لجبريل: "لِمَ لا تأتينا؟" كان صلى الله عليه وسلم يحب أن يأتيه جبريل, أنزل الله عَزَّ وَجلَّ: {وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا} [مريم: 64].

فمعنى ذلك: أن جبريل يحب وأنه يريد أن ينزل إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لكن يمنعه من ذلك أن الله عَزَّ وَجلَّ لم يأمره بذلك, فلهم عقول ولهم إرادة ولهم مشيئة, لكن جبلهم الله عَزَّ وَجلَّ على الطاعة.

إذن قد يرد سؤال الآن: هل للملائكة إرادة ومشيئة؟ لأني قد سُئِلت مرة:

" لو أنَّ الملائكة مُسيَّرون ،وإبليس كان من الملائكة فكيف له أن يعصي الله في السجود لسيدنا أدم وجزاك الله خيراً ؟"

وكان الجواب:

- أولا: الصحيح- الذي يؤيده الدليل- من أقوال أهل العلم أنَّ إبليس لم يكن من الملائكة ، بل كان من الجن كما دلَّ على ذلك الكتاب والسنة.

أمَّا الكتاب ، فقد قال الله تعالى "وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلّا إبليس كان من الجنِّ ففسق عن أمرِ ربِّه... " الآية.

وأمَّا السُّنة ، ففي صحيح مسلم من حديث عائشة -رضي الله عنها - مرفوعا "خُلقت الملائكة من نور ، وخُلق الجان من مارج من نار ، وخلق آدمُ مما وُصف لكم" وهذا ظاهر جداً في بيان المقصود.

- ثانيا: القول بأن الملائكة لا اختيار لهم ولا إرادة قول لا يصح ، والدليل على خلافه ، ومن ذلك:

• قوله تعالى (لا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ)

ولا يسمَّى العاصي عاصيا إلّا إذا تعمَّد ارتكاب المعصية أو ترك الواجبات، ولو كانت الملائكة عاجزةً بطبعها عن ذلك لما كان مَدحها لفعل الأوامر ، ولما سُمِّي ما عجزت عنه معصية .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – :

"العاصي هو الممتنع من طاعة الأمر مع قدرته على الامتثال ، فلو لم يفعل ما أمر به لِعجزه : لم يكن عاصياً ، فإذا قال : (لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ) : لم يكن في هذا بيان أنهم يفعلون ما يؤمرون ؛ فإن العاجز ليس بِعاصٍ ، ولا فاعل لما أمر به ، وقال : (وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ) ليبين أنهم قادرون على فعل ما أمروا به ، فهم لا يتركونه ، لا عجزاً ، ولا معصية ، والمأمور إنما يترك ما أمر به لأحد هذين ، إما ألا يكون قادراً ، وإما أن يكون عاصياً لا يريد الطاعة ، فإذا كان مطيعاً يريد طاعة الآمر وهو قادر : وجب وجود فعل ما أمر به ، فكذلك الملائكة المذكورون ، لا يعصون الله ما أمرهم ، ويفعلون ما يؤمرون . " انتهى من مجموع الفتاوى " (13 / 61) .

• قولُ رسول الله – صلى الله عليه و سلم – " إنَّ اللَّهَ إذا أحَبَّ عَبْدًا دَعا جِبْرِيلَ فقالَ: إنِّي أُحِبُّ فُلانًا فأحِبَّهُ، قالَ: فيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ يُنادِي في السَّماءِ فيَقولُ: إنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلانًا فأحِبُّوهُ، فيُحِبُّهُ أهْلُ السَّماءِ، قالَ ثُمَّ يُوضَعُ له القَبُولُ في الأرْضِ، وإذا أبْغَضَ عَبْدًا دَعا جِبْرِيلَ فيَقولُ: إنِّي أُبْغِضُ فُلانًا فأبْغِضْهُ، قالَ فيُبْغِضُهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ يُنادِي في أهْلِ السَّماءِ إنَّ اللَّهَ يُبْغِضُ فُلانًا فأبْغِضُوهُ، قالَ: فيُبْغِضُونَهُ، ثُمَّ تُوضَعُ له البَغْضاءُ في الأرْضِ". رواه البخاري ومسلم ،واللفظ له.

فاتصاف الملائكة بالحب والبغض دليل واضح على ما عندهم من الإرادة .

• ما جاء في حديث اختصام الملأ الأعلى ، ومراجعتهم القول في الكفارات والدرجات ، وكذلك حديث قاتل المائة نفس ، واختصام ملائكة الرحمة و العذاب فيه يدل دلالة واضحة على اتصاف الملائكة بالإرادة والمشيئة ، وأنهم ليسوا مجبورين أو مُسيَّرين كما جاء في السؤال .

• وكذلك ما صحّ من أن جبريل عليه السلام كان يضع الطين في فم فرعون لئلا ينطق بما يكون سبباً في نجاته من عذاب الله.

فالصحيح أنَّ الملائكة اختارت طاعة ربِّها دائما وعدم عصيانه ووفقها الله تعالى لذلك فصارت الطاعة جِبلَّةً لها ، والله أعلم.

قال: وَالْكُتُبُ: جَمْعُ كِتَابٍ، وَهُوَ مِن الكَتْب؛ بِمَعْنَى: الجَمْعِ وَالضَّمِّ، وَالْمُرَادُ بِهَا الْكُتُبُ المنزَّلة مِنَ السَّمَاءِ عَلَى الرُّسُلِ عَلَيهِمُ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ, وَالْمَعْلُومُ لَنَا مِنْهَا: صُحُفُ إِبْرَاهِيمَ، وَالتَّوْرَاةُ الَّتِي أُنزلت عَلَى مُوسَى فِي الْأَلْوَاحِ، وَالْإِنْجِيلُ الَّذِي أُنزل عَلَى عِيسَى، والزَّبور الَّذِي أُنزل عَلَى دَاوُدَ، وَالْقُرْآنُ الْكَرِيمُ الَّذِي هُوَ آخِرُهَا نُزُولًا، وَهُوَ المصدِّق لَهَا، وَالْمُهَيْمِنُ عَلَيْهَا، وَمَا عَدَاها يَجِبُ الْإِيمَانُ بِهِ إِجْمَالًا.

الركن الثالث من أركان الإيمان هو الإيمان بالكتب, وهذا الترتيب الذي ذُكر في الحديث وكذلك في قول الله تعالى: {آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ} [البقرة: 285] ترتيب مراد.

هذا الترتيب ترتيب مقصود, فإن الرسالة من الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى, والذي يحمل الرسالة من الله إلى الأنبياء والمرسلين هم الملائكة, يحملون الكتب, وهذه الكتب تنزل على الرسل, والرسل مبلغون عن ربهم إلى الخلق.

ولذلك قال: {آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ}.

فالكتب كما قال: جَمْعُ كِتَابٍ, والكتاب هاهنا المراد به جنس الكتب المنزلة من قِبل الله عَزَّ وَجلَّ على الرسل, وهذه الكتب نعرف منها خمسة, كما ذكر المصنف رَحِمَهُ اللهُ: صُحُفُ إِبْرَاهِيمَ، وَالتَّوْرَاةُ الَّتِي أُنزلت عَلَى مُوسَى فِي الْأَلْوَاحِ، وَالْإِنْجِيلُ الَّذِي أُنزل عَلَى عِيسَى، والزَّبور الَّذِي أُنزل عَلَى دَاوُدَ، وَالْقُرْآنُ الْكَرِيمُ الَّذِي هُوَ آخِرُهَا نُزُولًا.

والواجب تجاه هذه الكتب أن نؤمن بها إجمالًا إلا القرآن, فإنه لابد من الإيمان بكل ما جاء فيه من الخبر والطلب, فكل ما جاء فيه من خبر فالواجب أن نصدقه, وكل ما جاء فيه من طلب فالواجب أن ننفذه قدر الاستطاعة, وأما ما عدا القرآن فيجب أن نؤمن به إجمالًا لا تفصيلاً, لأن هذه الكتب قد تجد في تفاصيلها ما لم يكن في شرعنا وكان في شرع من قبلنا, وشرعنا ناسخ للشرع الذي سبقه.

ولذلك قال الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى عن القرآن: {وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ ومهيمنًا عليه} [المائدة: 48].

وقوله: {لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ}, لا يعني الإنجيل, ولا يعني التوراة فقط, وإنما يعني جنس الكتب التي نزلت قبل القرآن, فما صدقه القرآن فهو الحق, وما كذبه القرآن في هذه الكتب فهو محرف ومبدل منسوخ وليس من دين الله.

ولذلك تُعرض هذه الكتب على القرآن ولا يُعرض القرآن عليها, فالقرآن هو الأصل الشاهد لكل ما جاء في هذه الكتب من صدق.

وهو كذلك الأصل الشاهد لكل ما يقوم في دنيا الناس من علوم يزعمون أن مردها إلى هذه الكتب, وهذا قيد مهم جدًا لابد أن يتقيد به المفتونون الغالون بما يسمى بالإعجاز العلمي, فتجد الواحد من هؤلاء يتكلم عن قضية أو عن نظرية أو عن اكتشاف ويقول: هذا الاكتشاف يَردُّ تفاسيرَ السلف لهذه الآية, أو هذا الاكتشاف يفسر هذه الآية تفسيرًا ليس موجودًا في تفاسير المتقدمين, أو هذه الآية لابد فيها من قيد كذا حتى تتوافق مع هذا الاكتشاف, ولا يكون اكتشافًا ولا حقيقة علمية, وإنما هو مجرد فرض.

وقد يكون مبناه على باطل أو على أصل إلحادي كنظرية التطور ونظرية الانفجار العظيم أو الانسحاق الشديد أو غير ذلك من النظريات التي يفسرون بها وجود الإنسان أو يفسرون بها مبدأ خلق هذا العالم أو فناء هذا العالم, ويلوون أعناق نصوص الكتاب والسنة حتى تتوافق مع هذه النظريات، وحتى يقال: في كتابنا المعجز ما يدل على هذه النظريات التي توصلتم إليها!! وكل ذلك جراء الهزيمة النفسية التي نزل بالمسلمين، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

فنقول: القرآن هو الأصل, وهو المصدق لهذه الحقائق دون تأويل, وإنما يؤخذ القرآن على ظاهره, لا يخضع لا لكتاب سابق ولا لاكتشاف يزعمون أنه

من الحقائق, وإنما كما الله عَزَّ وَجلَّ: {وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} [الأنعام: 115], صدقًا في في الأخبار, وعدلًا في الأحكام.

فيؤمن المرء بكل ما جاء في القرآن تفصيلاً, ويعرض على القرآن كل ما جاء في الكتب السابقة, فإن صدقه القرآن آمنا به, وإن خالف ما جاء في القرآن نقول: هو من المحرف المبدل وليس من دين الله.

وقد أنزل الله تعالى هذه الكتب لقطع أعذار الخلق، وإقامة الحجة عليهم، لئلا يكون للناس على الله حجة، ولذا نزلت بلسان أقوامهم ليحصل البلاغ، ومن ثم فطلب الهداية في غيرها سبيل الضلال، من كشف أو ذوق أو تجربة، أو رؤيا منامية، فمن فعل ذلك فقد أعرض عن صراط الله المستقيم، واتخذ الهدى ظهريا.

قال: وَالرُّسُلُ: جَمْعُ رَسُولٍ، وَقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّهُ مَنْ أَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ بِشَرْعٍ وَأَمَرَهُ بِتَبْلِيغِهِ.

وقلنا هذا القيد فيه ما فيه, فالرسل كالأنبياء أوحى الله عَزَّ وَجلَّ إليهم وأمرهم بالبلاغ, وبيَّنا الفرق بين الرسول والنبي.

ثم قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَعَلَيْنَا أَنْ نُؤْمِنَ تَفْصِيلاً بِمَن سمَّى اللَّهُ فِي كِتَابِهِ مِنْهُمْ، وَهُمْ خَمْسَةٌ وَعِشْرُونَ، ذَكَرَهُمُ الشَّاعِرُ فِي قَوْلِهِ:

فِي {تِلْكَ حُجَّتُنَا} مِنْهُمْ ثَمَانِيَة ... مِنْ بَعْدِ عَشْرٍ وَيَبْقَى سَبْعَةٌ وَهُمُ

إِدْرِيسُ هُودُ شُعَيْبٌ صَالِحٌ وَكَذا ... ذُو الكِفْلِ آدَمُ بِالْمُخْتَارِ قَدْ خُتِمُوا

فِي {تِلْكَ حُجَّتُنَا}: يعني: آية الأنعام, هذه الآية وما بعدها ذُكر فيها ثمانية عشرة رسولًا, ذكرهم الله عَزَّ وَجلَّ في هذا الموضع.

ثم ذكر المصنف رَحِمَهُ اللهُ بقية الرسل المذكورين في كتاب الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى, وخُتموا بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال: وَأَمَّا مَن عدَا هَؤُلَاءِ مِنَ الرُّسُلِ وَالْأَنْبِيَاءِ؛ فَنُؤْمِنُ بِهِمْ إِجْمَالًا عَلَى مَعْنَى الِاعْتِقَادِ بنبوَّتهم وَرِسَالَتِهِمْ، دُونَ أَنْ نكلِّف أَنْفُسَنَا الْبَحْثَ عَنْ عِدَّتِهِمْ وَأَسْمَائِهِمْ، فَإِنَّ ذَلِكَ مِمَّا اختصَّ اللَّهُ بِعِلْمِهِ؛ قَالَ تَعَالَى: {وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ}.

قال: وَيَجِبُ الْإِيمَانُ بِأَنَّهُمْ بلَّغوا جميعَ مَا أُرسلوا بِهِ عَلَى مَا أَمَرَهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجلَّ، وبيَّنوه بَيَانًا لَا يَسعُ أَحَدًا مِمَّن أُرسلوا إِلَيْهِ جَهْلُهُ، وَأَنَّهُمْ مَعْصُومُونَ مِنَ الْكَذِبِ وَالْخِيَانَةِ، وَالْكِتْمَانِ وَالْبَلَادَةِ, وَأَنَّ أَفْضَلَهُمْ أُولُو الْعَزْمِ، وَالْمَشْهُورُ أَنَّهُمْ: مُحَمَّدٌ، وَإِبْرَاهِيمُ، وَمُوسَى، وَعِيسَى، وَنُوحٌ؛ لِأَنَّهُمْ ذُكروا مَعًا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: {وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ}.

وَقَوْلِهِ: {شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ}.

فهؤلاء هم أولوا العزم, والعزم: الصبر, وهؤلاء صبروا في ذات الله شديدًا وفي سبيل الدعوة إلى دين الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى, أولهم: نوح, وآخرهم: محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، على المشهور من قول أهل العلم ، فقد قال بعض أهل العلم: كل الرسل كانوا أولي عزم ، لم يبعث الله نبيا إلا كان ذا عزم وحزم ، ورأي وكمال عقل ، وإنما أدخلت " من " للتجنيس لا للتبعيض.

وقد ذكرهم الله على التخصيص في قوله : " وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم..... " (الأحزاب - 7) ، وفي قوله تعالى : " شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا.... " (الشورى - 13)

وأول الرسل هو نوح عَليهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَم, وأول الأنبياء آدم عَليهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَم, فقد نبيًا مكلمًا, وأما نوح فهو أول الرسل.

قال الله عَزَّ وَجلَّ: {إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ} [النساء: 163]،فلو كان هناك رسول قبل نوح عليه السلام لذكره الله تعالى.

وجاء في حديث الشفاعة أن الناس يقولون لنوح عَليهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَم: "أنت أول رسول أرسله الله إلى أهل الأرض فاشفع لنا عند ربك", فدل ذلك على أن نوح هو أول رسول, وأما آدم عَليهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَم فأول نبي, والرسول إنما يأتي إلى قوم مخالفين, وقد كان مبدأ الشرك في الأرض في قوم نوح عَليهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَم.

والواجب تجاه الرسل ما ذكره المصنف رَحِمَهُ اللهُ أن نعتقد: أَنَّهُمْ بلَّغوا جميعَ مَا أُرسلوا بِهِ عَلَى مَا أَمَرَهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجلَّ، وبيَّنوه بيَانًا لَا يَسَعُ أَحَدًا ممَّن أُرسلوا إِلَيْهِ جَهْلُهُ، ومن ثَمَّ فالنجاة لا تكون إلا في المتابعة التامة لهم.

ومما يدل عل كمال نبينا للشرع صلى الله عليه وسلم: أن هناك آيات في كتاب الله لو كتم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شيئًا من الوحي لكتمها.

قال تعالى: {يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ} [التحريم: 1].

وقال الله عَزَّ وَجلَّ: {وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ} [الأحزاب: 37].

{عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ} [التوبة: 43].

{عَبَسَ وَتَوَلَّى (١) أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى (٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى}[عبس: 1-3].

فلو كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كاتمًا شيئًا من الوحي لكتم هذه الآيات, فكل الأنبياء والمرسلين بلغوا ما أمرهم الله عَزَّ وَجلَّ بتبليغه, هذا يجب أن يُعتقد فيهم أجمعين, وأما من اعتقد أنهم كتموا شيئًا فهذا يقدح في إيمانه بالأنبياء والمرسلين, ومن كفر برسول واحد فقد كفر بجميع الأنبياء والمرسلين, فمن آمن بمحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولم يؤمن بعيسى أو موسى أو نوح أو إبراهيم فهذا كافر بالله العظيم.

ولذلك قال الله عَزَّ وَجلَّ: {كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ} [الشعراء: 105], مع إنهم ما كذَّبوا إلا نوح, لكن من كذَّب برسول واحد كذَّب بجميع الأنبياء والمرسلين, ولذلك قال: {لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا}.

وأسعد الناس حظًا بذلك هم هذه الأمة -أمة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فإنهم آمنوا بجميع الأنبياء والمرسلين, وأما النصارى فلم يؤمنوا بمحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ, واليهود لم يؤمنوا لا بعيسى ولا بمحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ, بل جعلوا كثيرًا ممن سبق موسى عَليهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمَ من الملوك ولم يثبتوا لهم النبوة والرسالة كما أثبتوها لموسى عَليهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَم.

فقال كذلك: وَأَنَّهُمْ مَعْصُومُونَ مِنَ الْكَذِبِ وَالْخِيَانَةِ، وَالْكِتْمَانِ وَالْبَلَادَةِ.

لأن هذا يقدح في نبوتهم ورسالتهم, فالنبي لا يكذب ولا يخون ولا يكتم شيئًا وليس هو ببليد, وإنما كانوا أذكى الخلق وأزكى الخلق, صلوات الله وسلامه عليهم.

لكن هذا لا يحملنا على أن نقول: كان محمد عبقريًا, ونتبجح بذلك بين الحين والآخر, ونسمي بعض الكتب عبقرية محمد, هذا فيه طعن في النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ, لماذا؟

لأنه جعله كغيره من بني البشر ممن وهبهم الله عَزَّ وَجلَّ ذكاءً عاليًا وفطنة شديدة, فكأنه يشير إلى أن ما قام به النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من سياسة الناس في هذه الدنيا بالدين إنما كان راجعًا إلى عقله وذكائه لا إلى نبوته وتوفيق الله عَزَّ وَجلَّ له والوحي, فهذا مما يعاب على من أَلَّف أو وصف النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بذلك, وإن كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أذكى الخلق وازكى الخلق, وكذلك سائر الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم.

قال: وَ((الْبَعْثِ)) فِي الْأَصْلِ: الْإِثَارَةُ وَالتَّحْرِيكُ: هذا أصل كلمة (البعث) في اللغة.

وَالْمُرادُ بِهِ فِي لِسَانِ الشَّرْعِ: إِخْرَاجُ الْمَوْتَى مِنْ قُبُورِهِمْ أَحْيَاءً يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ لِفَصْلِ الْقَضَاءِ بَيْنَهُمْ.

وهذا من جملة الإيمان باليوم الأخر, وهو من أكثر العقائد ذكرًا في السور المكية، وذلك لما يحدثه في النفوس من تذكير بمآل العبد مهما طالت حياته، وسُمي اليوم الأخر باليوم الأخر لأنه لا يوم بعده, إنما هو آخر أيام الدنيا, ثم بعد ذلك الناس إما إلى جنة وإما إلى نار, يُبعث الناس للفصل بينهم,

{يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ} [المطففين: 6]. قال تعالى: (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ (68) وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (69) وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ (70)....) الآيات، وفيها بيان مآل العباد في الآخرة؛ إما إلى جنة برحمة الله وفضله، وإما إلى نار بعدله سبحانه وتعالى، ولا يظلم ربنا أحدا.

قال: فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذرَّة خَيْرًا يرَهُ، ومَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ.

فالكل مجزي بعمله في هذا اليوم، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه.

وَيَجِبُ الْإِيمَانُ بِالْبَعْثِ عَلَى الصِّفَةِ الَّتِي بيَّنها اللَّهُ فِي كِتَابِهِ، وَهُوَ أَنَّهُ جمعُ مَا تحلَّل مِنْ أَجْزَاءِ الْأَجْسَادِ الَّتِي كَانَتْ فِي الدُّنْيا، وَإِنْشَاؤُهَا خَلْقًا جَدِيدًا، وإعادةُ الْحَيَاةِ إِلَيْهَا: وكل ذلك مذكور في كتاب الله في مواضع كثيرة، ومن ذلك قوله تعالى في سورة البقرة: (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (260)، أراد إبراهيم عليه السلام أن يريه كيف يحيي الموتى ليرى عيانا ما كان عنده من علم ذلك خبرا ، وقوله صلى الله عليه وسلم في الصحيحين: مَا بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ أَرْبَعُونَ قَالَ: أَرْبَعُونَ يَوْمًا؟ قَالَ: أَبَيْتُ، قَالَ: أَرْبَعُونَ شَهْرًا؟ قَالَ: أَبَيْتُ، قَالَ: أَرْبَعُونَ سَنَةً؟ قَالَ: أَبَيْتُ، قَالَ: ثُمَّ يُنْزِلُ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيَنْبُتُونَ

كَمَا يَنْبُتُ البَقْلُ، لَيْسَ مِنَ الإِنْسَانِ شَيْءٌ إِلَّا يَبْلَى، إِلَّا عَظْمًا وَاحِدًا وَهُوَ عَجْبُ الذَّنَبِ، وَمِنْهُ يُرَكَّبُ الخَلْقُ يَوْمَ القِيَامَةِ)

وكذلك ما ذكره الله تعالى آخر سورة يس من قوله تعالى (أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ (77) وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (78) إلى آخر السورة، فقد ذكر الله ستة براهين قاطعة ترد شبهة منكري البعث، وتجيب عنها بأتم جواب وأحسنه وأوضحه كما بين ذلك الشيخ السعدي في تفسيره فارجع إليه فإنه تقرير سلفي نفيس.

قال: وَمُنْكِرُ الْبَعْثِ الْجُسْمَانِيِّ كَالْفَلاَسِفَةِ وَالنَّصَارَى كَافِرٌ.

الفلاسفة يقولون: إن البعث للأرواح لا للأجساد, ويطعنون في قدرة الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى على إعادة الأجساد مرة أخرى، ونحن نعلم أن الفلاسفة والنصارى أهل تخييل، يجعلون ما ورد في الشرع من قبيل الرمز والخيال الذي لا حقيقة له، بل ما ذكر إلا لحمل الناس على العبادة، ولا حقيقة لنعيم الجنة، أو عذاب النار للأجساد، وإنما تبقى النفس بعد الموت بقاء سرمدياً إما في لذة لا يحيط الوصف بها لعظمها وإما في ألم لا يحيط الوصف به لعظمه، ثم قد يكون ذلك الألم مخلداً وقد ينمحي على طول الزمان. ثم تتفاوت طبقات الناس في درجات الألم واللذة تفاوتاً غير محصور كما يتفاوتون في المراتب الدنيوية ولذاتها تفاوتاً غير محصور، واللذة السرمدية للنفوس الكاملة الزكية والألم السرمدي للنفوس الناقصة الملطخة والألم المنقضي للنفوس الكاملة، ولا يحصل ذلك إلا بانفصال الروح عن الجسد، فخالفوا في إنكار حشر الأجساد، وفرض المستحيلات العقلية- زعموا- في إعادة الأجساد مرة أخرى، بعد طول فنائها أو

تحولها لمادة أخرى، فطعنوا في قدرة الرب القدير المقتدر على كل شيء ثم إنكار اللذات الجسمانية في الجنة والآلام الجسمانية في النار وإنكار وجود جنة ونار كما وصف في القرآن.

ومن جميل ما رد به أبو حامد في بيان تهافتهم أن قال:

- لو لم ير إنسان المغناطيس وجذبه للحديد وحكي له ذلك لاستنكره وقال: لا يتصور جذب للحديد إلا بخيط يشد عليه ويجذب فإنه المشاهد في الجذب، حتى إذا شاهده تعجب منه وعلم أن علمه قاصر عن الإحاطة بعجائب القدرة. وكذلك الملحدة المنكرة للبعث والنشور إذا بعثوا ورأوا عجائب صنع الله فيه ندموا ندامة لا تنفعهم ويتحسرون على جحودهم تحسراً لا يغنيهم ويقال لهم: "هذا الذي كنتم به تكذبون" كالذي يكذب بالخواص والأشياء الغريبة.

إن الإنسان لو خلق عاقلاً لأنكر خلق الإنسان من النطفة، بل لو خلق إنسان عاقلاً ابتداء وقيل له إن هذه النطفة القذرة المتشابهة الأجزاء تنقسم أجزاؤها المتشابهة في رحم آدمية إلى أعضاء مختلفة لحمية وعصبية وعظمية وعرقية وغضروفية وشحمية فيكون منه العين على سبع طبقات مختلفة في المزاج واللسان والأسنان على تفاوتهما في الرخاوة والصلابة مع تجاورهما وهلم جرا إلى البدائع التي في الفطرة لكان إنكاره أشد من إنكار الملحدة حيث قالوا: أئذا كنا عظاماً نخرة الآية. فيجب عدم إنكار ما لم يشاهد

- فليس يتفكر المنكر للبعث أنه من أين عرف انحصار أسباب الوجود فيما شاهد ولم يبعد أن يكون في إحياء الأبدان منهاج غير ما شاهده. وقد ورد

في بعض الأخبار أنه يعم الأرض في وقت البعث مطر قطراتها تشبه النطف وتختلط بالتراب فأي بعد في أن يكون في الأسباب الإلهية أمر يشبه ذلك ونحن لا نطلع عليه ويقتضي ذلك انبعاث الأجساد واستعدادها لقبول النفوس المحشورة، وهل لهذا الإنكار مستند إلا الاستبعاد المجرد؟

ولذا قال أبو حامد رحمه الله بعد أن بي، أنه مجرد إنكار وجحد مجرد: تكفيرهم لا بد منه، لا تلائم الإسلام بوجه ومعتقدها معتقد كذب الأنبياء. وإنهم ذكروا ما ذكروه على سبيل المصلحة تمثيلاً لجماهير الخلق وتفهيماً وهذا هو الكفر الصراح الذي لم يعتقده أحد من فرق المسلمين.

قال: وَأَمَّا مَن أقرَّ بِهِ وَلَكِنَّهُ زَعَمَ أَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ الْأَرْوَاحَ فِي أجسامٍ غَيْرِ الْأَجْسَامِ الَّتِي كَانَتْ فِي الدُّنْيَا؛ فَهُوَ مبتدعٌ وفاسقٌ.

أي أن هناك فريقا يقول: نعم البعث يكون للأرواح والأجساد, لكن لا تكون الأجساد هي هذه الأجساد الموجودة الآن, وإنما هي أجساد جديدة يخلقها الله عَزَّ وَجلَّ ويُنشئها إنشاءً جديدًا لم تكن هي الأجساد الأولى, ثم يجعل الله عَزَّ وَجلَّ الأرواح فيها, فهذا لم يكن منكرًا للبعث للروح والجسد, وإنما قال: أو زعم أن بعث الأجساد يكون لأجساد جديدة، فهذا مبتدع فاسق لأنه لم يجحد أصل البعث للأجساد نفسها، بل دخلت عليه شبهة آلت به لهذا القول، فهذا فاسق مبتدع.

قال الشيخ رَحِمَهُ اللهُ: فَهُوَ مبتدعٌ وفاسقٌ.

قال: وَأَمَّا ((الْقَدَرِ))؛ فَهُوَ فِي الْأَصْلِ، مَصْدَرٌ تَقُولُ: قدرتُ الشَّيْءَ - بِفَتْحِ الدَّالِ وَتَخْفِيفِهَا - أَقْدِرُهُ - بِكَسْرِهَا - قَدْرًا وقَدَرًا؛ إِذَا أحطتَ بِمِقْدَارِهِ.

وَالْمُرَادُ بِهِ فِي لِسَانِ الشَّرْعِ أَنَّ اللَّهَ عز وجل عَلِمَ مَقَادِيرَ الْأَشْيَاءِ وَأَزْمَانَهَا أَزَلًا، ثُمَّ أَوْجَدَهَا بِقُدْرَتِهِ وَمَشِيئَتِهِ عَلَى وَفْقِ مَا عَلِمَهُ مِنْهَا، وَأَنَّهُ كَتَبَهَا فِي اللَّوْحِ قَبْلَ إِحْدَاثِهَا؛ كَمَا فِي الْحَدِيثِ:

(أَوَّلُ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمُ، فَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ, قَالَ: وَمَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبْ كُلَّ مَا هُوَ كَائِنٌ).

وَقَالَ تَعَالَى: {مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا}.

الكلام عن القَدَرِ سيأتي لاحقا مفصلاً في هذه الرسالة .

فالقدر سر الله في خلقه، والإيمان بالقدر خيره وشره ركن لا يصح إيمان العبد إلا به، وإذا صح إيمان العبد به وكمل هنئ في الدنيا والآخرة، وذلك الذي يجمع بين الإيمان بين الشرع والقدر، لا يعارضهما ببعض.

والقدر إجمالًا له مراتب أربعة هي:

- العلم
- والكتابة
- والمشيئة
- والخلق.

دليل مرتبة العلم

{يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [الحجرات: 16].

{أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ} [الحج: 70].

{وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا} [الأنعام: 59].

{أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [المجادلة: 7].

المرتبة الثانية: الكتابة, علم فكتب, ما الدليل على الكتابة؟

الحديث: ﴿كَتَبَ اللهُ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾.

وقال الله عَزَّ وَجلَّ: {مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ} [الأنعام: 38], والصحيح: أن (الكتاب) هاهنا هو اللوح المحفوظ.

المرتبة الثالثة: المشيئة، ما دليلها؟

{وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ} [الإنسان: 30].

ما دليل دليل الخلق؟

{اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ} [الزمر: 62].

{وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ} [الصافات: 96].

فهذه مراتب القدر الأربعة إجمالًا, ويأتي تفصيلها في هذه الرسالة.

الدرس السادس

إن الحمد لله, نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله تعالى من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله, صلى الله عليه, وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد:

فما زال حديثنا موصولًا في التعليق على شرح العلامة الهراس على العقيدة الواسطية لشيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ.

وكنا قد توقفنا عند قول المصنف: وَمِنَ الإِيمَانِ بِاللهِ: الإِيمَانُ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ، وَبِمَا وَصَفَهُ بِهِ رَسُولُهُ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ مِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ وَلَا تَعْطِيلٍ، وَمِنْ غَيْرِ تَكْيِيفٍ وَلَا تَمْثِيلٍ.

هذا الأصل العظيم الذي ذكره المصنف رَحِمَهُ اللهُ في الإيمان بالله إجمالًا, ليبني عليه بعد ذلك ما يأتي تفصيلاً, مما ورد في كتاب الله وسنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فيما يتعلق بمبحث الصفات خاصة، وكذلك سائر أبواب الاعتقاد.

قال العلامة الهراس رَحِمَهُ اللهُ: ((وَمِنَ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ)).

قال: هَذَا شروعٌ فِي التَّفْصِيلِ بَعْدَ الْإِجْمَالِ، وَ(مِنْ) هُنَا لِلتَّبْعِيضِ، وَالْمَعْنَى وَمِنْ جُمْلَةِ إِيمَانِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ بِالْأَصْلِ الْأَوَّلِ الَّذِي هُوَ أَعْظَمُ الْأُصُولِ وَأَسَاسُهَا، وَهُوَ الْإِيمَانُ بِاللَّهِ: أَنَّهُمْ يُؤْمِنُونَ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ ... إلخ.

مضى في الدرس الماضي أن الإيمان بالله تعالى يستلزم أمورًا أربعة، حتى يكتمل إيمان العبد بربه؛ لابد أنّ يؤمن بوجوده وبربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته.

وخص المصنف رَحِمَهُ اللهُ -أعني شيخ الإسلام ابن تيمية- هذا الأخير وهو الإيمان بالأسماء والصفات، لأن الخلاف كان على أشُده في هذا الأصل مع جهمية عصره.

فقد كانت الجهمية وعلى رأسهم الأشاعرة ينشرون مذهبهم ويستعينون بالسلطان في نشره والوشاية بشيخ الإسلام ابن تيمية وغيره من علماء السنة.

والسنة إذا ذُكرت هاهنا وأهل السنة والجماعة إذا ذُكروا هاهنا فالمراد بهم: أهل الحديث خاصة، المراد بهم: من كان على ما كان عليه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه رَضِي اللهُ عَنْهُم، فلا يدخل فيهم الجهمية على اختلاف فِرَقِها من معتزلة وكلابية وأشعرية وماتريدية.

وقد يدخل هؤلاء في مفهوم أهل السنة إذا كان المراد بهذا اللقب ما يقابل الرافضة، لأن هؤلاء يعظمون أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بخلاف الرافضة.

وأما إذا ذُكر أهل السنة والجماعة في هذا الباب فالمراد بهم: الفرقة الناجية والطائفة المنصورة وأهل الحديث والأثر، والمراد بهم: السلفيون خاصة دون غيرهم.

فهؤلاء هم فقط الذين يؤمنون بما وصف الله به نفسه في كتابه وعلى لسان رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ, على مقتضى مراد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعلى ما كان عليه أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين من القرون الفاضلة, وأما غيرهم ممن ذكرنا فبدلوا وغيروا وحرفوا، فمستقل ومستكثر.

فقال: وَمِنَ الإيمَانِ باللهِ: الإيمَانُ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ، وَبِمَا وَصَفَهُ بِهِ رَسُولُهُ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وهذا فيه قاعدة عظيمة جدًا, وهي: أن هذا الباب مبناه على التوقيف على النص الوارد في كتاب الله وفي سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لا دخل للعقل أو الاستحسان أو الهوى في هذا الباب.

ولذلك قال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ: "لا يوصف الله إلا بما وصف به نفسه، أو وصفه به رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لا يُتجاوز القرآن والحديث".

والله عَزَّ وَجلَّ أعلم بنفسه من غيره، ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو أعلم الخلق بربه تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

والسؤال الآن الذي يورد على هؤلاء الذين يتكلمون في صفات الله بعقولهم فيثبتون ما يشاؤون ويعطلون ما يشاؤون على حسب عقولهم الفاسدة، يقال لهم: هل بيَّن الله عَزَّ وَجلَّ في كتابه شيئًا من صفاته؟

أجل، فإن ذكر الأسماء والصفات في كتاب الله أكثر بكثير جدًا من ذكر أي شيء آخر، بل هو أكثر من ذكر المعاد والجنة والنار والجزاء، كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ.

ولذلك قلَّما تُقلب صفحة من صفحات المصحف إلا وتجد فيها ذكرًا لأسماء الله وصفاته، بل قلَّما ترد آية في كتاب الله إلا وفيها إشارة إلى ذلك، لماذا؟ لأن هذا هو أعظم مطلوب.

الله عَزَّ وَجلَّ قال: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} [الذاريات: 56]، كيف نعبد من لا نعرفه؟ فالله عَزَّ وَجلَّ يُعرفنا بنفسه من خلال كتابه.

وكذلك نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عرَّفنا بربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى بالقول والفعل والإقرار، فيقول: "يَنْزِلُ رَبُّنَا كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا".

ويقول: "إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ القَمرَ لَيْلَةَ البَدْرِ".

ويقول: "إِنَّ اللهَ لَا يَنَامُ، وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ، يَخْفِضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ، حِجَابُهُ النُّورُ".

إلى غير ذلك من أحاديث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ التي كثُر فيها ذكر صفات ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

وهو في حجة الوداع يقول: "اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ، اللهُمَّ فَاشْهَدْ", ويشير إلى السماء.

فهذا فعله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ, يُبين أن الله عَزَّ وَجلَّ قد استوى على عرشه فوق السماء السابعة.

وتأتيه الجارية فيقول لها: "مَنْ أَنَا؟", فتقول: أَنْتَ رَسُولُ اللهِ ، ويقول لها: "أَيْنَ اللَّهُ؟", فتقول: فِي السَّمَاءِ ، فيقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لمعاوية بن الحكم السلمي: "أَعْتِقْهَا فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ"، فأقرها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على ذلك.

ويأتيه الحبر من اليهود ويقول: "يَا مُحَمَّدُ، إِنَّ اللَّهَ يَضَعُ السَّمَاءَ عَلَى إِصْبَعٍ- يعني: يوم القيامة-, وَالْأَرْضَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالْجِبَالَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالشَّجَرَ وَالْأَنْهَارَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَسَائِرَ الْخَلْقِ عَلَى إِصْبَعٍ، ثُمَّ يَقُولُ بِيَدِهِ: أَنَا الْمَلِكُ, فَضَحِكَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تصديقًا للحبر", كما يقول عبد الله بن مسعود.

فالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول ويفعل ويُقر ليُبين صفات ربنا تبارك وتعالى، وهكذا نقلها أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، نقلوا القرآن والحديث.

فظهر بذلك أن الله عَزَّ وَجلَّ عرَّفنا بنفسه من خلال الصفات التي ذكرها في كتابه والأسماء، وكذلك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: بِمَا وَصَفَ الله بِهِ نَفْسَهُ: فيه دلالة على أن هذا الباب مبناه على التوقيف.

ولذلك حتى الألفاظ التي يُعبر بها عن الصفات وعن الأسماء ألفاظ توقيفية.

ولذلك رد أهل السنة والجماعة على المعطلة والمؤولة والمحرفة لما استخدموا ألفاظًا كالعرض, والجوهر, والجهة, والحيز, وغير ذلك من الألفاظ المجملة، لأن هذه الألفاظ لم يُعبر بها لا في كتاب الله ولا في سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

فأهل السنة والجماعة هم أسعد الناس بالكتاب والسنة، ولذلك تجد على كلامهم برهانًا إما من آية أو حديث.

وأما المعطلة والجهمية فإنهم لا يوردون الآية والحديث في الغالب إلا على سبيل الشبهة.

فبعد أن ينفي الواحد منهم علو الله عَزَّ وَجلَّ على خلقه يقول: فإن قال قائل:

قد قال الله عَزَّ وَجلَّ: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} [طه: ودليل رد هذا الظاهر عقلاً كذا!! فجعل ما أخبر الله عَزَّ وَجلَّ به عن نفسه في كتابه شبهة، وجعل ما ورد على عقله الفاسد هو الأصل الذي يُرد به القرآن.

ولذلك كان مآل هؤلاء إلى الحيرة والاضطراب، وكان مآلهم إلى أن يتمنى الواحد منهم أن يموت على دين العجائز، ولهم في ذلك أشعار وكلمات عديدة تُبين أنهم اضطربوا، أو عاد بعضهم إلى المعتقد الصحيح وإلى ما كان عليه أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال: بِمَا وَصَفَ الله بِهِ نَفْسَهُ.

هل يجوز لنا أن نقول: وصف الله به نفسه وأن لله صفة أم لا يجوز؟ يجوز.

الشيخ: ما الدليل على ذلك؟

الطالب: القرآن الكريم.

الشيخ: أين في القرآن؟

الطالب: قال الله تعالى: {إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} [الإسراء: 1].

الشيخ: أين لفظة الصفة؟

الطالب: وصف نفسه بالسمع, ووصف نفسه بالبصر.

الشيخ: لفظة الصفة؟ يعني نحن قلنا الآن: أهل السنة والجماعة ردوا على المعطلة الألفاظ التي استخدموها من العرض والجوهر وغير ذلك، أين لفظة الصفة؟

الطالب: {تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ} [المائدة: 116].

الشيخ: أين لفظة الصفة؟ لماذا أسأل هذا السؤال؟

لأن ابن حزم -غفر الله له وعفا عنه وهو من هو- قال: إن إطلاق الصفة على الله من البدع، وما أطلقها إلا المعتزلة، وأما الحديث الذي ورد فيه لفظة الصفة فهو حديث ضعيف، يعني حديث: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ}، الذي هو في الصحيح.

حديث ذلك الرجل الذي أمَّره النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على سرية, فكان كلما صلى بهم قرأ سورة الإخلاص، فلما عادوا إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأخبروه، قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "سَلُوهُ لِمَ يَفْعَلُ ذَلِكَ؟"، فلما سألوه قال: (إنها صفة الرحمن وأنا أحبها)، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "حُبُّكَ إِيَّاهَا أَدْخَلَكَ الْجَنَّةَ".

وفي رواية قال: "أخبروه أن الله يُحبه بحبه إياها".

فالصحابي قال: صفة الرحمن، وأقره النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهذا فيه دليل على إطلاق الصفة على الله عَزَّ وَجلَّ وأن له صفات.

وقد رد الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ على ابن حزم هذا القول ، فذكر الحافظ رَحِمَهُ اللهُ في شرح حديث عائشة رَضِي اللهُ عَنْهَا: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعث رجلاً على سرية, وكان يقرأ لأصحابه في صلاتهم، فيختم بـ{قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ}، فلما رجعوا ذكروا ذلك للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: ﴿سَلُوهُ لِأَيِّ شَيْءٍ يَصْنَعُ ذَلِكَ﴾، فسألوه فقال: (لِأَنَّهَا صِفَةُ الرَّحْمَنِ، وَأَنَا أُحِبُّ أَنْ أَقْرَأَ بِهَا)، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿أَخْبِرُوهُ أَنَّ اللَّهَ يُحِبُّهُ﴾.

قال الحافظ رَحِمَهُ اللَّهُ: وفي حديث الباب حجة لمن أثبت أن لله صفة, وهو قول الجمهور, وهو قول أهل السنة والجماعة.

وشذَّ ابن حزم فقال: هذه لفظة اصطلح عليها أهل الكلام من المعتزلة ومن تبعهم، ولم تثبت عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولا عن أحد من أصحابه، فإن اعترضوا بحديث الباب فهو من أفراد سعيد بن أبي هلال وفيه ضعف، يعني: الحديث الذي في البخاري، وفيه ضعف.

قال: وعلى تقدير صحته، فـ{قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ}، صفة الرحمن كما جاء في هذا الحديث ولا يُزاد عليه.

يعني: اقرأ الحديث ولا تفسره، {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ}، صفة الرحمن ولا يُزاد على ذلك، بخلاف الصفة التي يطلقونها فإنها في لغة العرب لا تطلق إلا على جوهر أو عرض.

قال الحافظ: كذا قال، ثم رد عليه من أكثر من وجه, فقال رَحِمَهُ اللَّهُ: وسعيد متفق على الاحتجاج به فلا يُلتفت إليه في تضعيفه، هذا أولًا.

الوجه الثاني: وكلامه الأخير مردود باتفاق الجميع على إثبات الأسماء الحسنى، أن الجميع اتفقوا على إثبات الأسماء، نحن الآن لا نتكلم في الصفات، وإنما اتفق الجميع على إثبات الأسماء لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

قال الله تعالى: {وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا} [الأعراف: 180].

وقال بعد أن ذكر عدة أسماء في آخر سورة الحشر: {لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى} [الحشر: 24].

قال: والأسماء المذكورة فيها صفات، ففي إثبات أسمائه إثبات صفاته، لأنه إذا ثبت أنه حي مثلاً فقد وصف بصفة زائدة على الذات وهي صفة الحياة، ولولا ذلك لوجب الاقتصار على ما يُنبئ عن وجود الذات فقط.

وقد قال سُبْحَانَهُ وَتعَالَى: {سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ} [الصافات: 180].

إذًا: الله عَزَّ وَجلَّ ذكر أسماءً له في القرآن، والأسماء تتضمن صفات، لأن أسماء الله عَزَّ وَجلَّ تفارق أسماء المخلوقين في ماذا؟

في أنها أعلام وأوصاف، أما أسماء المخلوقين فهي أعلام محضة، فقد تجد الرجل يسمى محمدًا وهو مذمم، كريمًا وهو بخيل، وأما أسماء الله عَزَّ وَجلَّ فهي أعلام على ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى وتضمنت أوصافًا.

ولذلك يقول علماؤنا: إن أسماء الله مترادفة متباينة، مترادفة باعتبار دلالتها على ذات واحدة وهي ذات الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، ومتباينة باعتبار ما تضمنته من صفات، فصفة الرحمة تخالف صفة الحياة، تخالف صفة الغنى، تخالف صفة الخلق، ليست الصفات على معنىً واحد، فهذا هو الرد الثاني.

ثم قال رَحِمَهُ اللهُ: وقد قال سُبْحَانَهُ وَتعَالَى: {سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ}.

إذًا: هذه اللفظة كذلك وردت في القرآن، فنزه نفسه عما يصفونه به من صفة النقص ومفهومه، يعني: مفهوم المخالفة.

والعلماء إذا قالوا: ومفهوم ذلك, يريدون مفهوم المخالفة.

عندنا مفهومان: مفهوم الموافقة، ومفهوم المخالفة.

مفهوم الموافقة: أن يوافق المفهوم المنطوق في الحكم.

ومفهوم المخالفة: أن يخالف المفهوم المنطوق في الحكم.

نعود لكلام الحافظ: وهو أن الله عَزَّ وَجلَّ هاهنا قال: {سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ}، فنزه نفسه عما يصفونه به من صفة النقص، ومفهومه -يعني: مفهوم المخالفة- أن وصفة بصفة الكمال مشروع، وقد وصف ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى نفسه بصفات الكمال.

ثم قال رَحِمَهُ اللهُ: وقد قسَّم البيهقي وجماعة من أئمة السنة جميع الأسماء المذكورة في القرآن وفي الأحاديث الصحيحة على قسمين -وهذا يدل على أنهم يثبتون الصفات-:

أحدهما: صفات ذاته, وهي: ما استحقه فيما لم يزل ولا يزال.

والثاني: صفات فعله, وهي: ما استحقه فيما لا يزال دون الأزل.

قال: ولا يجوز وصفه إلا بما دل عليه الكتاب والسنة الصحيحة الثابتة أو ما أُجمع عليه, ثم منه ما اقترنت به دلالة العقل كالحياة والقدرة والعلم والإرادة والسمع والبصر والكلام من صفات ذاته، وكالخلق والرزق والإحياء والإماتة والعفو والعقوبة من صفات فعله، ومنه ما ثبت بنص الكتاب والسنة كالوجه واليد والعين من صفات ذاته، وكالاستواء والنزول والمجيء من صفات فعله.

فيجوز إثبات هذه الصفات له لثبوت الخبر بها على وجه ينفي عنه التشبيه، فصفة ذاته لم تزل موجودة بذاته ولا تزال، وصفة فعله ثابتة عنه ولا يحتاج في الفعل إلى مباشرة، {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} [يس: 82].

فهذا النص يُبين لنا بجلاء أن نسبة الحافظ ابن حجر إلى الأشعرية -كما يدندن الأشعرية ويقولون: هو من أئمة الأشعرية- من الظلم البين.

الحافظ رحمه الله أقرب لأهل السنة والجماعة منهم , له هنات في مواضع من التعليق على بعض الأحاديث -أحاديث الصفات-، لكن هذا النص يُبين الاعتقاد الذي كان عند الحافظ ابن حجر.

فيقول: مما يدل على إثبات الصفة لله أن العلماء قسموا هذه الصفات إلى صفات ذات وصفات فعل.

ما صفات الذات؟ التي لا تنفك عن ذات ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى، والتي دل العقل على وجودها فتعاضد العقل والشرع على وجودها، كالعلم، هل هناك إله خالق غير عليم؟ والقدرة والحياة والكلام والإرادة، فهذه تسمى بصفات الذات.

والقسم الثاني: وهو صفات الفعل: وهي التي ترجع إلى مشيئة الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، وتتعلق بأسبابها، كالغضب والفرح والمجيء والنزول والاستواء, وغير ذلك من صفات الفعل، فهذا كله يُرد به على ابن حزم رَحِمَهُ اللهُ فيما رده.

وهذه الألفاظ التي ذكرها من العرض والجوهر ألفاظ غير معروفة، والألفاظ التي يستعملها المتكلمون تنقسم إلى قسمين:

إما أن تكون ألفاظًا غير واردة في النص القرآني أو في القرآن أو السنة في الكلام عن صفات الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، فهي ألفاظ غريبة أجنبية كهذه الألفاظ التي ذكرناها.

والواجب اتجاه هذه الألفاظ: أن يُسأل هؤلاء عن مرادهم من إطلاق هذه الألفاظ، فيقال: ماذا تريد بالعرض والجوهر والحيز والجسم؟

فإن ذكر معنى صحيحًا أثبتنا المعنى ورددنا اللفظ، وإن ذكر معنى باطلاً رددنا المعنى واللفظ.

فلو قلنا مثلاً: ماذا تريد بنفي الجسم عن الله؟ فلو قال: أردت بذلك أن أنفي عن الله ما جاء في كتابه من الصفات من العين واليد والقدم والرجل في الكتاب والسنة وغير ذلك، هذه صفات وردت في الكتاب والسنة، فهنا نرد ماذا؟ نرد اللفظ والمعنى الذي أراده لأن اللفظ مجمل والمعنى باطل.

لكن لو قال: أردت أن الله لا يفتقر إلى أحد لأن الجسم يفتقر إلى طعام وشراب وهو أبعاض وأجزاء يفتقر بعضها لبعض، فأردت أن أنزه الله عَزَّ وَجلَّ عن ذلك، فنقول: المعنى صحيح, لكن اللفظ غير صحيح، فاللفظ يُرد، فهذا القسم الأول من الألفاظ التي استعملوها.

والقسم الثاني من الألفاظ التي استعملوها: ألفاظ وردت في الكتاب والسنة لكنهم غيَّروا وحرَّفوا معانيها.

ولذلك وضع لنا شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ قاعدة مهمة جدًا, وهي: وجوب الاستفصال عن الألفاظ التي يطلقها كل من خالف أهل السنة والجماعة.

حتى الملاحدة، فتجد مثلاً المُلحد يقول: لا أجد دليلاً على وجود الله, فأنت تقول له: هناك أدلة كثيرة, وتبدأ معه في عرض الأدلة، وهو لا يريد معنى الدليل المعروف في لغة العرب.

الأَوْلى مع هؤلاء ألا يُكلَّموا وأن يُهجروا وأن يُزجروا وأن يُذكَّروا بعقاب الله الأليم يوم القيامة، كما هي طريقة القرآن في خطاب المعاندين الجاحدين.

لكن هب أنك سألته فعليك أن تسأله أولًا: ماذا تعني بالدليل؟ يقول: لا أجد دليلاً على وجود الله، فيقول لك: أعني بذلك الدليل التجريبي الذي أستطيع أن أُخضعه للتجربة، فكأنه يريد أن يُدخل إثبات وجود الله إلى معمل من المعامل التجريبية، فتجد أنه أراد بالدليل أمرًا غير معروفًا في لغة العرب.

فهؤلاء كذلك يستعملون بعض الألفاظ التي وردت في الكتاب والسنة لكنهم لا يريدون معناها، فيقولون: الله عَزَّ وَجلَّ أحد.

إذا فتشنا عن تفسير: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ}، في تفسير الكشاف للزمخشري مثلاً ، أو في تفسير مفاتيح الغيب للفخر الرازي، تجده يقول: الأحد: هو الواحد الذي لا يتكثَّر ولا يتجزأ، ولذلك يقولون: هو واحد لا قسيم له، واحد لا شبيه له، واحد لا مثيل له.

ما معنى لا يتجزأ؟ يريدون بذلك نفي الصفات الخبرية, التي هي أبعاض وأجزاء بالنسبة لنا، التي هي اليد والسمع والعين والقدم.

هل هذا هو المعنى العربي المعروف للفظة أحد؟! ، فيأتون باللفظ القرآني, لكنهم لا يريدون المعنى الذي أراده الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

فقال رَحِمَهُ اللهُ هاهنا، أعني شيخ الإسلام: الإِيمَانُ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ فِي كِتابِهِ الْعَزِيزِ، وَبِمَا وَصَفَهُ بِهِ رَسُولُهُ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ثم قال: مِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ.

قال العلامة الهراس رَحِمَهُ اللهُ: وَقَوْلُهُ: ((مِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ)) متعلِّقٌ بِالْإِيمَانِ قَبْلَهُ؛ يَعْنِي أَنَّهُمْ يُؤْمِنُونَ بِالصِّفَاتِ الْإِلَهِيَّةِ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ الْخَالِي مِنْ كُلِّ هَذِهِ الْمَعَانِي الْبَاطِلَةِ؛ إِثْبَاتًا بِلاَ تَمْثِيلٍ، وَتَنْزِيهًا بِلاَ تَعْطِيلٍ.

ثم قال: وَالتَّحْرِيفُ فِي الْأَصْلِ مَأْخُوذٌ مِنْ قَوْلِهِمْ: حَرَفتُ الشَّيْءَ عَنْ وَجْهِهِ حَرْفًا، مِنْ بَابِ ضَرَبَ؛ إِذَا أَمَلْتَهُ وَغَيَّرْتَهُ، وَالتَّشْدِيدُ لِلْمُبَالَغَةِ.

حرفت, وهو في أصله غير مشدد، والتشديد للمبالغة, لأن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى.

قال: وَتَحْرِيفُ الْكَلَامِ: إِمَالَتُهُ عَنِ الْمَعْنَى الْمُتَبَادِرِ مِنْهُ إِلَى مَعْنًى آخَرَ لَا يدلُّ عَلَيْهِ اللَّفْظُ إِلَّا بِاحْتِمَالٍ مرجوحٍ، فَلاَ بُدَّ فِيهِ مِنْ قرينةٍ تبيِّن أَنَّهُ الْمُرَادُ.

وهو الذي يعبرون عنه بالتأويل، **والأولى أن يُعبر عنه بالتحريف, كما عبر شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ:**

أولا: لأن هذا هو لفظ القرآن.

القرآن ما قال يؤولون الكلم عن مواضعه، وإنما قال: {يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ} [النساء: 46]، هذا أولًا.

والأمر الثاني: لأن التأويل منه ما هو حق ومنه ما هو باطل.

ولذلك قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ داعيًا لعبد الله بن عباس: ﴿اللهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ وَعَلِّمْهُ التَّأْوِيلَ﴾، والمراد بالتأويل: التفسير.

ويقول الإمام الطبري كثيرًا في تفسيره: وتأويل هذه الآية، أو القول في تأويل هذه الآية كذا، ثم يأتي بآثار السلف في تفسير الآية، فأراد بالتأويل التفسير.

وقد يُراد بالتأويل: مآل الشيء وعاقبته وحقيقته.

كما قال الله عَزَّ وَجلَّ: {هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ} [الأعراف: 53]، أي: يوم يأتي وقوعه، يعني: يوم يقع ويظهر لهم الحق.

فإذا طلعت الشمس من مغربها وأراد إنسان أن يتوب لا يقبل الله عَزَّ وَجلَّ توبته، لأن الله عَزَّ وَجلَّ بيَّن على لسان نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن الشمس إذا طلعت من مغربها أُغلق باب التوبة، فإذا طلعت الشمس من مغربها فقد ظهر تأويل ما أخبر به النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أي: ظهر حقيقة ما أخبر به النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فالتأويل يأتي في لسان العرب بمعنيين لا ثالث لهما، وكذلك هو في القرآن بمعنى: التفسير، وبمعنى: الحقيقة والمآل والعاقبة.

وعلى هذا كانت القراءتان للسلف للآية السابعة من سورة آل عمران: {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ} [آل عمران: 7]، فـ(الواو) هاهنا عاطفة على قراءة، فالله يعلم التأويل, والراسخون في العلم يعلمون التأويل.

ما معنى التأويل هاهنا؟ التفسير.

ولذلك جاء عن عبد الله بن عباس رَضِي اللهُ عَنْهُما أنه كان يقول: "أنا ممن يعلمون تأويله"، في تفسير هذه الآية.

والقراءة الأخرى: {وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا}، تقف على الاسم الحسن، ثم تستأنف، فتكون الواو حينئذ استئنافيه، أي أن ما بعدها جملة مستقلة عما قبلها.

ما معنى {وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ}؟ حقيقته، ويدخل في ذلك حقيقة صفات ربنا سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، لا يعلم كيفيتها إلا الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

ويدخل في ذلك حقائق الغيب, من الدار الآخرة ومما يكون من أمور الغيب التي جاءت في كتاب الله وفي سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فهذان المعنيان هما الواردان في كتاب الله وفي سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وفي لسان العرب.

جاء المتأخرون واخترعوا معنى آخر أو معنى ثالثًا للتأويل: وهو الذي عبَّر عنه شيخ الإسلام هاهنا بالتحريف, وهو الذي يرد في كتب أصول الفقه، وهو صرف اللفظ عن ظاهره من المعنى الراجح إلى المعنى المرجوح لقرينة.

إذا كانت القرينة من كتاب الله ومن سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فهو تأويل صحيح وهو تنفيذ للطلب، وتصديق الخبر.

قال الله عَزَّ وَجلَّ: {فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ} [النحل: 98].

هل أنت تقرأ القرآن أولًا ثم تستعيذ بالله أم تستعيذ أولًا؟ تستعيذ أولًا.

ما الذي جعلنا نؤول هذا التأويل؟ أن الاستعاذة مشروعة, وهذا متفق عليه بين يدي القراءة لا أثناء القراءة.

كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا دخل الخلاء قال: «غُفْرَانَكَ»، أي: إذا أراد أن يدخل الخلاء، فهذا تأويل, لكن له قرينة من سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

لكن أين القرينة في أن (الاستواء) بمعنى الاستيلاء؟ أين في كتاب الله أن (الاستواء) بمعنى الاستيلاء؟

أين في السنة "ينزل ربنا"؟ أي: تنزل رحمة ربنا, {وَجَاءَ رَبُّكَ}، أي: جاء أمر ربك.

أين في كتاب الله؟ لا يوجد، أين في سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ لا يوجد.

أين القرينة إذن؟ يقولون: القرينة العقلية.

ما هذه القرينة العقلية؟ يقولون لو أننا أثبتنا استواء الله على عرشه فهذا يستلزم الجسم والتحيز، ألفاظ مجملة غريبة.

لو أننا أثبتنا نزول الله كل ليلة إلى السماء الدنيا يلزم من ذلك أن تكون السماء الدنيا ظرفًا يحل الله عَزَّ وَجلَّ فيه.

فشبَّهوا الخالق الذي ليس كمثله شيء بالمخلوق، وقاسوا الخالق على المخلوق، وردوا الآيات والأحاديث بقرينة عقلية فاسدة.

ولذلك القرينة المُحكمة عند هؤلاء هي القرينة العقلية لا القرينة اللفظية، والمراد عقولهم وأقيستهم الفاسدة، فحرَّفوا، فليس هذا تأويلاً, بل هو تحريف.

ولذلك عبَّر عنه شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ بالتحريف.

قال: مِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ وَلَا تَعْطِيلٍ.

ما التعطيل؟

قال: وَأَمَّا التَّعْطِيلُ؛ فَهُوَ مَأْخُوذٌ مِنَ الْعَطَلِ، الَّذِي هُوَ الخلوُّ وَالْفَرَاغُ وَالتَّرْكُ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: {وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَة}, أَيْ: أَهْمَلَهَا أَهْلُهَا، وَتَرَكُوا وِرْدها.

وَالْمُرَادُ بِهِ هُنَا نَفْيُ الصِّفَاتِ الْإِلَهِيَّةِ، وَإِنْكَارُ قِيَامِهَا بِذَاتِهِ تَعَالَى.

فهؤلاء عطَّلوا، أي: جعلوا الذات بلا صفات، نفوا صفات ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى، لأن التعطيل في لغة العرب بمعنى: الخلو والفراغ.

قال امرؤ القيس في بيت مشهور له يستدل به هاهنا كثيرًا على بيان المعنى اللغوي، قال:

وجِيدٍ كَجِيد الرِّئْم ليس بفاحشٍ إذا هــي نَصَّــتْهُ ولا بمعطــلِ

يصف عُنيزة ابنة عمه التي قال فيها قصيدته: قفا نبكِ.

يقول: وجِيدٍ ، ما المراد بالجِيد؟ العنق.

وجِيدٍ كَجِيد الرئم ، الرِّئْم: الظبي، تعرفون الرقبة والعنق للغزالة.

وجِيدٍ كَجِيد الرِّئْم ليس بفاحشٍ: يعني: ليس بفاحش في طوله.

إذا هي نَصَّتْهُ: أي: أقامته ونصبته, ظهر جماله.

ولا بمعطلِ: يعني: ليس خاليًا من الحُلي.

فهؤلاء عطَّلوا، أي: أنكروا قيام صفات ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى، ولهم في ذلك شبهة تَرِد إن شاء الله في موضعها, وهي: مسألة أن إثبات الصفات يستلزم -إذا كانت الصفات صفات فعلية- فهذا يستلزم حلول الحوادث بالخاطر، وسيأتي تفصيل ذلك.

وأما إذا كانت الصفات صفات خبرية التي هي اليد والعين إلى غير ذلك من الصفات، فهذا يستلزم الجسم والحاجة إلى الغير والافتقار والتركيب، وسيأتي الرد على كل ذلك.

قال العلامة الهراس رَحِمَهُ اللهُ: فَالْفَرْقُ بَيْنَ التَّحْرِيفِ وَالتَّعْطِيلِ: أَنَّ التَّعْطِيلَ نفيٌ لِلْمَعْنَى الْحَقِّ الَّذِي دلَّ عَلَيْهِ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ.

فالله عَزَّ وَجلَّ يقول: {وَجَاءَ رَبُّكَ} [الفجر: 22]، المعطل يقول: ليس هناك مجيء للرب، (ينزل ربنا)، ليس هناك نزول، لا يثبتون صفات الباري تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

وَأَمَّا التَّحْرِيفُ؛ فَهُوَ تَفْسِيرُ النُّصُوصِ بِالْمَعَانِي الْبَاطِلَةِ الَّتِي لَا تدلُّ عَلَيْهَا.

فـ{وَجَاءَ رَبُّكَ}، أي: جاء أمره، و(ينزل)، أي: ينزل الملك، أو تنزل الرحمة، (استوى)، أي: استولى، فحرَّفوا النص.

والتحريف نوعان: قد يكون تحريف اللفظ، أو تحريف المعنى، والذي وقع في هذه الأمة هو تحريف المعنى.

وأما اليهود فقد حرفوا اللفظ، لما قيل لهم: {وَقُولُوا حِطَّةٌ} [البقرة: 58]، فقالوا: حِنطة.

يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ في نونيته:

أُمِـر اليهـود أن يقولـوا حطـةٌ ... فـأبوا وقـالوا حنطـة لهـوانِ

وكذلك الجهمي قيل له استوى ... فـأبى وزاد الحـرف للنقصـانِ

حرف (اللام) استولى، زاده في المعنى.

قـال استوى اسـتولى وذا مـن ... لغـة وعقـلاً مـا همـا سـيانِ

نـون اليهـود ولام جهمـي هما ... في وحـي رب العرش زائـدتانِ

إذًا: ما العلاقة بين التحريف والتعطيل؟

قال الشيخ رَحِمَهُ اللهُ: وَالنِّسْبَةُ بَيْنَهُمَا الْعُمُومُ وَالْخُصُوصُ الْمُطْلَقُ.

والمراد بالعموم والخصوص المطلق، أي: أنهما يجتمعان في بعض الأفراد وينفرد أحدهما في بعض آخر.

ولذلك قال: فَإِنَّ التَّعْطِيلَ أعمُّ مُطْلَقًا مِنَ التَّحْرِيفِ؛ بِمَعْنَى أَنَّهُ كُلَّمَا وُجِدَ التَّحْرِيفُ؛ وُجِدَ التَّعْطِيلُ؛ دُونَ الْعَكْسِ.

كلما وجد التحريف وجد التعطيل، يعني لو قال: استوى بمعنى: استولى، هنا حرَّف وعطل، حرَّف المعنى فقال: استوى بمعنى: استولى، وعطل صفة الاستواء التي هي العلو والظهور والارتفاع.

لكن هل إذا وجد التعطيل يستلزم ذلك وجود التحريف؟ لا، لأنه لو قال الله عَزَّ وَجلَّ: لا يستوي على العرش، هنا نفى الصفة لكنه لم يُحرِّف المعنى، فأيهما أعم؟ التعطيل أعم ، والتحريف أخص، وهذا هو معنى العموم والخصوص المطلق.

قال: وَبِذَلِكَ يُوجَدَانِ مَعًا فِيمَنْ أَثْبَتَ الْمَعْنَى الْبَاطِلَ وَنَفَى الْمَعْنَى الْحَقَّ: كمن فسَّر الاستواء بالاستيلاء.

وَبِذَلِكَ يُوجَدَانِ مَعًا فِيمَنْ أَثْبَتَ الْمَعْنَى الْبَاطِلَ وَنَفَى الْمَعْنَى الْحَقَّ، وَيُوجَدُ التَّعْطِيلُ بِدُونِ التَّحْرِيفِ فِيمَنْ نَفَى الصِّفَاتِ الْوَارِدَةَ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَزَعَمَ أَنَّ ظَاهِرَهَا غَيْرُ مُرَادِهَا، وَلَكِنَّهُ لَمْ يُعَيِّنْ لَهَا مَعْنًى آخَرَ، وَهُوَ مَا يُسَمُّونَهُ بِالتَّفْوِيضِ.

ثم قال رَحِمَهُ اللهُ وهو يتكلم عن التفويض، قال: وَمِنَ الْخَطَأِ الْقَوْلُ بِأَنَّ هَذَا هُوَ مَذْهَبُ السَّلَف؛ كَمَا نَسَبَ ذَلِكَ إِلَيْهِمُ الْمُتَأَخِّرُونَ مِنَ الْأَشَاعِرَةِ وَغَيْرِهِمْ، فَإِنَّ السَّلَفَ لَمْ يَكُونُوا يفوِّضون فِي عِلْمِ الْمَعْنَى، ولا كانوا يقرؤون كَلاَمًا لَا يَفْهَمُونَ مَعْنَاهُ؛ بَلْ كَانُوا يَفْهَمُونَ مَعَانِيَ النُّصُوصِ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَيُثْبِتُونَهَا لِلَّهِ عَزَّ وَجلَّ، ثُمَّ يفوِّضون فِيمَا وَرَاءَ ذَلِكَ مِنْ كُنْهِ الصِّفَاتِ أَوْ كيفيَّاتها؛ كَمَا قَالَ مَالِكٌ

حِينَ سُئِلَ عَنْ كَيْفِيَّةِ اسْتِوَائِهِ تَعَالَى عَلَى الْعَرْشِ: ((الاِسْتِوَاءُ معلومٌ، والكيفُ مجهولٌ)).

هذا المذهب من أشر مذاهب المعطلة الجهمية, وهو مذهب التفويض، وهم أقسام الثلاثة ذكرهم شيخ الإسلام في آخر الحموية.

فيقولون: إن السلف الصالح فوَّضوا المعنى، ما معنى فوضوا المعنى؟ أي: أنهم كانوا كالأعاجم, يقرؤون القرآن ولا يعرفون معناه, ما معنى استوى؟ الله أعلم، ما معنى {وَجَاءَ رَبُّكَ}؟ الله أعلم، {بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ}؟ الله أعلم.

فجعلوا القرآن الذي نزل بلسان عربي مبين جعلوه أعجميًا، فأثبتوا ما نفاه الله عَزَّ وَجلَّ عن كتابه، أثبتوا أنه لا يُفقه ولا يُفهم، ونفوا البلاغ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما ترك شيئًا إلا وعلم أمته إياه، فاتهموا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ثم هم بعد ذلك يقولون: مذهب السلف أسلم، ومذهب الخلف أعلم وأحكم.

ويريدون بقولهم مذهب السلف أسلم: يعنون التفويض, أن السلف كانوا إذا سُئلوا عن معاني الآيات قالوا: قراءتها تفسيرها، الله أعلم بمراده. هكذا كذبوا على السلف.

ومذهب الخلف أعلم، أي أعلم من مذهب من مذهب السلف وأحكم، وهذه مقولة مضطربة، إذ لا يكون المذهب أسلم إلا إذا كان أعلم وأحكم، وصاحبها لابد أن تصيبه الحيرة والاضطراب.

وإلا فمن الذي اضطرب؟ ومن الذي رجا أن يموت على دين العجائز؟ ومن الذي قال أنه ما حصل في دنياه على طول بحثه إلا قيل وقال؟ الخلف المتكلمون الذين أعملوا عقولهم في نصوص الكتاب والسنة, وفي صفات ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى، لا السلف الكرام الذين جمعوا بين ذكاء العقول، وزكاة النفوس، وصدق من قال عنهم: إنهم عن علم وقفوا. وببصر ناقد كفوا. وهم على كشفها كانوا أقوى. وبالفضل لو كان فيها أحرى. فإنهم السابقون و لئن كان الهدى ما أنتم عليه فلقد سبقتموهم إليه ولئن قلتم حدث بعدهم حدث فما أحدثه إلا من خالف سبيلهم ورغب بنفسه عنهم ولقد تكلموا منه بما يكفي ووصفوا منه ما يشفى فما دونهم مَقصر ولا فوقهم محسر. ولقد قصر عنهم أقوام فجفوا، وطمح عنهم آخرون فغلوا. وإنهم فيما بين ذلك لعلى هدى مستقيم رضي الله عنهم.

فهذا المذهب هو مذهب التفويض من شر المذاهب، لأنه يُثبت التنقص لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولازمه أن أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما كانوا يعرفون معاني القرآن.

أمر يسير جدًا نستطيع أن نرد به على هؤلاء، نقول لهم: اِيتونا بآية واحدة لا نقول في الصفات، بل بكلمة واحدة ولفظة واحدة في القرآن لم يتكلم فيها السلف الصالح؟

يا أخي حتى الحروف المقطعة ذكروا لها معاني، فكيف يقال أنهم سلَّموا المعنى ولم يتكلموا فيه؟!

مجاهد يقول: "عرضت المصحف على ابن عباس ثلاث مرات، أستوقفه عند كل آية " لم يستثني رحمه الله آية واحدة، ما قال هذه الآية من المتشابه الذي لا يعلم معناه إلا الله، فهذا كله يُبين ضلالة هؤلاء.

نحن- أهل السنة والجماعة- نُثبت المعنى ونُفوض الكيف، لأن المعنى عربي معلوم، وقد أمرنا الله تعالى بتدبر كتابه كله، ولم يستثن سبحانه.

ولذا قال الإمام مالك رحمه الله: (الإِسْتِوَاءُ معلومٌ)، ما معنى معلوم؟ معلوم المعنى، والكيف غير معقول.

هذا اللفظ الصحيح للأثر: (الاستواء معلوم والكيف غير معقول).

ما معنى غير معقول؟ يعني: لا تدركه العقول، والإيمان به واجب، أي: الإيمان بهذا المعنى والسؤال عنه بدعة، أي السؤال عن الكيفية بدعة.

إذًا: نحن نثبت الصفات من غير تحريف ولا تعطيل.

قال: وَأَمَّا قَوْلُهُ: ((وَمِنْ غَيْرِ تَكْيِيفٍ وَلَا تَمْثِيلٍ)) ؛ فَالْفَرْقُ بَيْنَهُمَا أَنَّ التَّكْيِيفَ أَنْ يَعْتَقِدَ أَنَّ صِفَاتِهِ تَعَالَى عَلَى كَيْفِيَّةِ كَذَا، أَوْ يَسْأَلُ عَنْهَا بِكَيْفَ.

جاء عن سلفنا الصالح أنهم قالوا عن الصفات: أمروها كما جاءت بلا كيف، وقولهم: بلا كيف له معاني ثلاثة:

أما المعنى الأول: أي: بلا تكييف للصفات، لا تقل كيفية الصفة كذا وكذا.

أو أن يُراد بقولهم بلا كيف، أي: بلا سؤال عن الكيف.

ولذلك لما دخل الرجل على مالك رَحِمَهُ اللهُ وقال له: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى}، كيف استوى؟ قال له مالك: الاستواء معلوم والكيف غير معقول

والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة وما أراك إلا مبتدعًا، ثم أمر به فأُخرج من المسجد.

فلما قال له: كيف استوى؟ نهره مالك، فبلا كيف، أي: بلا سؤال عن الكيف.

لماذا لا يجوز لنا أن نتكلم عن الكيف؟ لأمور ثلاثة:

- لأننا لم نر الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى،
- ولم نر مثيلاً وندًا له،
- ولم يأتنا خبر صادق عن معصوم بكيفية صفات ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى:

والمعنى الثالث: أي: بلا كيف تدركه العقول.

ولذلك قال مالك: والكيف غير معقول.

إذًا: ما المراد بالكيف أو بالتكييف؟ اعتقاد كيفية معينة لصفات الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

هل لصفات الله كيفية؟ نعم، لها كيفية, لكن لا نعلم هذه الكيفية.

قال: وَأَمَّا التَّمْثِيلُ؛ فَهُوَ اعْتِقَادُ أَنَّهَا مِثْلُ صِفَاتِ الْمَخْلُوقِينَ.

فيقول القائل: يد الله كيد فلان، وعين الله كعين فلان أو مثل عين فلان.

والله عَزَّ وَجلَّ قال: {لَيسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} [الشورى: 11]، وسيأتي الكلام بالتفصيل على هذه الآية، لأن هذه الآية هي عمدة المعطلة, يستدلون بها على نفي صفات ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

وقال: {هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا} [مريم: 65]، أي: هل تعلم للرب مثلا أو شبها؟

وقال: {وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ} [الإخلاص: 4]. أي لم يكن أحد من خلقة مماثلا ولا مشابها له ، لا في أسمائه ولا في صفاته، ولا في أفعاله، تبارك وتعالى وتقدس

فالتَّمْثِيلُ؛ هُوَ اعْتِقَادُ أَنَّهَا مِثْلُ صِفَاتِ الْمَخْلُوقِينَ.

وَلَيْسَ الْمُرَادُ مِنْ قَوْلِهِ: ((مِنْ غَيْرِ تَكْيِيفٍ)) أَنَّهُمْ يَنْفُونَ الْكَيْفَ مُطْلَقًا؛ فَإِنَّ كُلَّ شَيْءٍ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ عَلَى كَيْفِيَّةٍ مَا.

قال: فَإِنَّ كُلَّ شَيْءٍ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ عَلَى كَيْفِيَّةٍ مَا: وهل الله (شيء)؟ نعم، الله شيء, يُخبر عنه بأنه شيء, ويراد به: أنه موجود سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

قال: {كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ} [القصص: 88]، فاستثنى الوجه من الشيء, فهو شيء سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

وقال: {قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ} [الأنعام: 19]، وهذا من باب الخبر، فلا يُسمى الله عَزَّ وَجلَّ به, ولا يُدعى به.

لا يُقال: يا شيء اغفر لي، كما لا يُقال: يا موجود اغفر لنا، لأن هذا كله من باب الأخبار عن الله عَزَّ وَجلَّ والإخبار عن الله عَزَّ وَجلَّ، إنما لا يُدعى إلا بصفاته الحسنى المثلى وأسمائه الحسنى التي وردت في الكتاب والسنة.

قال: فَإِنَّ كُلَّ شَيْءٍ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ عَلَى كَيْفِيَّةٍ مَا، وَلَكِنَّ الْمُرَادَ أَنَّهُمْ يَنْفُونَ عِلْمَهُمْ بِالْكَيْفِ؛ إِذْ لَا يَعْلَمُ كَيْفِيَّةَ ذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ.

ما العلاقة بين التكييف والتمثيل؟

بين التكييف والتمثيل عموم وخصوص مطلق، لأن كل ممثل مكيف ولا عكس، كما قلنا في التحريف والتعطيل، فكذلك نقول في التكييف والتمثيل.

كل ممثل مكيف، لماذا ؟ لأن الذي يقول: يد الله كيد فلان، مثَّل يد الله بيد فلان وجعلها على كيفية معينة، وليس كل مكيف ممثلاً، لأنه يقول: كيفية يد الله كذا، لكنه ما شبهها وما مثلها.

مسألة أخيرة ونحتم بها: أيهما أولى بالنفي التمثيل أم التشبيه؟ هل نقول: من غير تكييف ولا تمثيل أم من غير تكييف ولا تشبيه؟

الأولى أن نقول: من غير تكييف ولا تمثيل، لأن هذا هو الذي ورد في القرآن، قال: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ}، فالمنفي هو التمثيل.

أما التشبيه فإنه لا يُنفى بإطلاق للقاعدة: أنه ما من شيئين إلا وبينهما قَدْر مشترك وقَدْر فارق.

فالله عَزَّ وَجلَّ له حياة ولك حياة، فالاشتراك في معنى الحياة في الذهن، وأما عند إضافة الحياة فالحياة تختلف, فحياة الخالق ليست كحياة المخلوق سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، كما أن ذات الخالق ليست كذات المخلوق، فالقول في الصفات كالقول في الذات، كلٌّ بحسب ما يليق به. فلا يُنفى التشبيه بإطلاق, ولكن يُنفى التمثيل، وإلا حصل ما وقع فيه الجهمية من التعطيل ؛ إذ المشابهة في وجه لا تقتضي المماثلة في الذات والصفات والمقدار.

قال ابن تيمية رحمه الله في الصفدية: والمقصود هنا التنبيه على مجامع الأقوال ومنشأ الضلال حيث أخذوا لفظ التشبيه بمعنًى مشترك مجمل، فأرادوا نفيه بكل معنى من المعاني ومن المعلوم أنه ما من موجودين إلا و بينهما قدر يتفقان فيه، و إن كان المعنى الكلي المشترك وجوده في الأذهان لا في الأعيان فلا بد أن يكون بين أفراد الاسم العام الكلي نوع من المشابهة باعتبار اتفاقهما في ذلك المعنى العام،

و هذا موضع غلط فيه كثير من الناس في أحكام الأمور الكلية التي تشتبه فيها أعيانها ...) إلى قوله: (فيقال لهؤلاء: التشبيه الممتنع إنما هو مشابهة الخالق للمخلوق في شيء من خصائص المخلوق، أو أن يماثله في شيء من صفات الخالق، فإن الرب تعالى منزه عن أن يوصف بشيء من خصائص المخلوق أو أن يكون له مماثل في شيء من صفات كماله، و كذلك يمتنع أن يشاركه غيره في شيء من أموره بوجه من الوجوه، بل يمتنع أن يشترك مخلوقان في شيء موجود في الخارج، بل كل موجود في الخارج فإنه مختص بذاته وصفاته القائمة به، لا يشاركه غيره فيها ألبتة."

ثم ذكر بعد ذلك رَحِمَهُ اللهُ تفصيل هذا الذي أجمله، وهذا ما نبدأ به في الدرس القادم.

الدرس السابع

إن الحمد لله, نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله تعالى من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله, صلى الله عليه, وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد:

فما زال حديثنا موصولًا في قراءة شرح العلامة الهراس على العقيدة الواسطية لشيخ الإسلام ابن تيمية.

وكنا قد توقفنا في الدرس الماضي عند قوله رَحِمَهُ اللهُ: وَمِنَ الإِيمَانِ بِاللهِ: الإِيمَانُ بِمَا وَصفَ بِهِ نَفْسَهُ فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ، وَبِمَا وَصَفَهُ بِهِ رَسُولُهُ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ مِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ وَلَا تَعْطِيلٍ، وَمِنْ غَيْرِ تَكْيِيفٍ وَلَا تَمْثِيلٍ.

ثم ذكر معتقد أهل السنة والجماعة فقال: بَلْ يُؤْمِنُونَ بِأَنَّ اللهَ {لَيسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ}.

فَلاَ يَنْفُونَ عَنْهُ مَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ، وَلَا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ، وَلَا يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَاءِ اللهِ وآيَاتِهِ، وَلَا يُكَيِّفُونَ وَلَا يُمَثِّلُونَ صِفَاتِهِ بِصِفَاتِ خَلْقِهِ, لأَنَّهُ سُبْحَانَهُ: لَا سَمِيَّ لَهُ، وَلَا كُفْءَ لَهُ، وَلَا نِدَّ لهُ, ولَا يُقَاسُ بِخَلْقِهِ سُبْحَانَهُ وَتعالَى.

هذه القطعة فيها بيان اعتقاد أهل السنة والجماعة تجاه صفات ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى، فيما يتعلق بالإثبات والنفي، وقد اشتملت على ست جُملٍ تحتاج إلى الوقوف عليها.

ومن هذه الجُمل قوله رَحِمَهُ اللهُ: بَلْ يُؤْمِنُونَ بِأَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ: {لَيسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ}.

هذه الآية التي ذكرها المصنف رَحِمَهُ اللهُ آية محكمة، ومن أمهات الكتاب التي أنزلها الله عَزَّ وَجلَّ في كتابه، وعليها اعتماد أهل السنة والجماعة في هذا الباب -باب الأسماء والصفات-، فهي ميزان العدل الذي توزن به الأقوال في صفات ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

فكل من يتكلم في صفات الباري نعرض أقواله على هذه الآية، فإن جمع بين النفي والإثبات على مراد الله ومراد رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبلنا كلامه، وإلا رُدَّ عليه.

وهذه الآية التي معنا: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}، هي عمدة كل معطل، فإنك لا تكاد تفتح تفسيرًا من تفاسير أهل الكلام عند هذه الآية إلا وتجد تقريرًا لنفي صفات ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى, بحجة أن إثبات الصفات يقتضي التشبيه والتمثيل والتجسيم وحلول الحوادث بربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى, إلى غير ذلك من القواعد العقلية الفاسدة التي أخذها المتكلمون عن أهل اليونان، فهؤلاء هم علماؤهم وساداتهم, وقولهم مُقدم على كل قول.

ولذلك يَعرضون على أقوالهم نصوص الكتاب والسنة، فإن وافقت أقوالهم قبلوها، وإلا أولوها أو حرفوها أو ردوها, مع أن الآية حجة عليهم لا لهم.

فهذه الآية فيها تقرير قاعدة عامة من قواعد الدين، وهذه القاعدة هي: أن الدين كله مبناه على النفي والإثبات.

فديننا من أوله إلى آخره مبناه على النفي والإثبات، على التخلية والتحلية، على التسبيح والتحميد، كما يُعبر عن ذلك في كتاب ربنا وسنة نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ولذلك كانت كلمة التوحيد التي هي أعظم كلمة مشتملة على النفي والإثبات (لا إله إلا الله).

ثم هي تُبين معتقد أهل السنة والجماعة فيما يتعلق بهذا الباب وهو النفي المُجمل والإثبات المُفصل.

ولذلك قال الله عَزَّ وَجلَّ: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ}، ثم فصَّل وقال: {وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ}، فذكر اسمين من أسمائه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، والكمال في النفي المُجمل لا المُفصل، فإن النفي المُفصل مآله إلى إثبات النقص والعيب للموصوف به.

وأما النفي المُجمل فهذا سبيل إلى الكمال، خاصةً إذا عرفنا أن كل نفي في كتاب الله فإنما يستلزم إثبات كمال الضد، فما نفاه الله عَزَّ وَجلَّ عن نفسه في كتابه يستلزم أن نثبت له عكس ذلك، بل نثبت له الكمال في عكس ذلك.

فإذا نفى الله عَزَّ وَجلَّ عن نفسه السِنة فهذا فيه إثبات كمال القيومية والحياة، وإذا نفى عن نفسه الظلم فهذا فيه إثبات كمال العدل، وهكذا.

فقاعدة أهل السنة والجماعة: أن النفي الوارد على صفات الله عَزَّ وَجلَّ هو نفي مُجمل.

وأما قاعدة أهل البدع على اختلاف أسمائهم فهي: أن النفي عندهم نفي مُفصل، وأما الإثبات فهو إثبات مُجمل، فتجدهم يُفصلون جدًا في النفي بألفاظ غير واردة في الكتاب والسنة.

فإن قيل: قد جاء التفصيل في النفي في مواضع في كتاب ربنا تَبَارَكَ وَتعَالَى.

كما قال: {وَمَا رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ} [فصلت: 46].

وكما قال: {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ} [البقرة: 255].

وكما قال: {مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ} [المؤمنون: 91].

أليس هذا نفيًا مفصلاً؟ نقول: بلى، هذا نفي مُفصل، لكن هذا قليل في كتاب الله، وجيء به لغرض, كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ في بيان تلبيس الجهمية، يقول: إن النفي المُفصل الذي ورد في كتاب الله عَزَّ وَجلَّ إنما ورد لأحد سببين:

▪ أما السبب الأول: فهو ردُّ النقص, وردُّ ما اتهم به أهل الضلالة أو ما نسبه أهل الضلالة لربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى، كما قال تعالى: (وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ) قال قتادة رحمه الله: أكذب الله اليهود والنصارى وأهل الفرى على الله, وذلك أنهم قالوا: إن الله خلق السموات والأرض في ستة أيام, ثم استراح يوم السابع, وذلك عندهم يوم السبت, وهم يسمونه يوم الراحة.

وأما السبب الثاني: فهو نفي وردُّ ما قد يُتوهم كأثر لعظيم فعل الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

فالله عَزَّ وَجلَّ قال: {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ}، قيوم على ماذا؟ قيوم السماوات والأرض، رب السماوات والأرض ومن فيهن، وملك السماوات والأرض ومن فيهن، قائم بنفسه وقائم على شئون خلقه.

فهذا قد يتوهم توهم أن هذا يستلزم أن الله عَزَّ وَجلَّ في حاجة إلى نوم وسِنة ليرتاح, كما تقول اليهود، {وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ

وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ} [ق: 38]، هذا تفصيل في النفي، لكن لماذا فصل الله عَزَّ وَجلَّ هاهنا؟ لردِّ ما قد يُتوهم.

فالتفصيل في النفي يأتي بأحد السببين:

لرد ما نسبه المشركون لربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى من اتخاذ الصاحبة والولد أو من الظلم وغير ذلك.

أو لرد ما قد يتوهم بسبب ما اختص به ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى من عظيم صفاته ومن قيامه على شئون خلقه, ومن خلقه للسماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام.

وأما بخلاف ذلك فإن النفي يكون مُجملاً.

قال: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ}.

هذه (الكاف) التي معنا {كَمِثْلِهِ}، اختلف فيها العلماء على قولين، وأنا أقرأ لكم كلام الشيخ صالح آل الشيخ -حفظه الله- في شرحه على الطحاوية فيما يتعلق (بالكاف)، لأنه كلام نفيس وله صلة بباب الاعتقاد.

فقال حفظه الله: اختلف فيه المفسرون في معنى (الكاف) في قوله: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ}، والكاف هنا على أي شيء تدل؟

أما القول الأول: فإنهم قالوا: إن (الكاف) هذه بمعنى: مثل، فيكون معنى قوله: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ}، أي: (ليس مثله, أو ليس مثل مثله شيء)، مبالغة في النفي عن وجود مثل المثل.

فكيف يوجد المثل؟ فإذا نفى الله عَزَّ وَجلَّ مثل المثل فنفي المثل من باب أولى.

قال: ومجيء (الكاف) بمعنى: الاسم، هذا موجود في القرآن وكذلك في لغة العرب، فأما مجيؤه في القرآن، أي: مجيء (الكاف) بمعنى الاسم وهي حرف، كما في قوله عَزَّ وَجلَّ: {ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً} [البقرة: 74]، فقوله: {أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً}، عطف الاسم على (الكاف) التي هي في قوله: {كَالْحِجَارَةِ}، فهي كالحجارة أو أشد.

ومعلوم أن الاسم إنما يُعطف على الاسم، فقوله: {فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ}، يعني: فهي مثل الحجارة أو أشد قسوة من الحجارة، فهنا (الكاف) بمعنى: مثل.

ومجيؤه في اللغة أيضًا ظاهر ومحفوظ، كقول الشاعر:

لو كان في قلبي كقدر قُلامة ... حبًا لغيركِ ما أتتكِ رسائلي

فقوله: لو كان في قلبي كقدر قُلامة: هذا جعل شبه الجملة الجار والمجرور في (قلب) مقدم، وجعل الاسم (كقدر) لكون الكاف بمعنى: مثل.

يعني: لو كان في قلبي مثل قدر قُلامة، (فالكاف) هاهنا بمعنى: مثل.

قال: وهذا التوجيه الأول لطائفة من المفسرين في أن (الكاف) هاهنا بمعنى: مثل، على ما ذكرنا، وهذا التوجيه لهم وجيه وظاهر في اللغة ومستقيم المعنى أيضًا في الآية.

القول الثاني: أن (الكاف) في قوله: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ}، ليست اسمًا, وإنما هي صلة، والتي تسمى في خارج القرآن حرفًا زائدًا، أما في القرآن فلا يقال فيه حرف زائد تأدبًا مع كلام ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وإنما يقال حرف صلة.

فقال: فهذه صلة, وهي التي تسمى عند النحويين زائدة، وزيادتها ليست زيادة للفظ, وإنما هي زيادة لها لكون المعنى زائدًا، فليست زائدة بمعنى أن

وجودها وعدم وجودها واحد، حاشا وكلاَّ أن يكون في القرآن شيء من ذلك، وإنما تُزاد ليكون مبالغة في الدلالة على المعنى.

فقوله: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ}، تكون (الكاف) صلة, ومجيء الصلة في لغة العرب, المراد بمجيء الصلة: ومجيء الصلة في مقام تَكرار الجملة تأكيدًا، في مقام تَكرار -وليس تِكرار، إنما المصدر كرر تَكرارًا- في مقام تَكرار الجملة تأكيدًا، يعني: كأنه كرر هذه الجملة أكثر من مرة.

قال: كما حرره ابن جِني النحوي المعروف في كتابه الخصائص، حيث قال: إن الصلة والزيادة تكون في الجمل لتأكيدها, وتكون مقام تكريرها مرتين أو أكثر، أو كما قال.

فيكون معنى قوله: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ}، ليس مثله شيء، ليس مثله شيء، ليس مثله شيء وهو السميع البصير.

قال: وهذا تفهمه العرب من كلامها.

قال: وجاءت الزيادة بالصلة في مواضع كثيرة من القرآن، كقول الله عَزَّ وَجلَّ: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ} [آل عمران: 159]، أصلها: فبرحمة.

قال: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ}، قال: فقوله: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ}، يعني: فبرحمة من الله لنت لهم، فبرحمة من الله لنت لهم، فبرحمة من الله لنت لهم، يعني: ليس من جهتك, وإنما هو رحمة من الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

قال: وكقوله عَزَّ وَجلَّ: {فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ} [المائدة: 13]، يعني: فبنقضهم ميثاقهم لعنَّاهم، فبنقضهم ميثاقهم لعنَّاهم.

قال: وكقوله تعالى: {لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ} [القيامة: 1]، في أحد وجهي التفسير.

قال: إذا تكرر لك ذلك فإن الوجه الأولى من هذين التفسيرين هو الثاني، من كون (الكاف) صلة زائدة في مقام تكرير الجملة, يعني: أن النفي أُكِّدَ, فتكون أبلغ من أن يُنفى مثل المثل، هذا أبلغ، لأنه قد يُشكل في نفي مثل المثل أن يكون نفي المثلية الأولى ليس مستقيمًا دائمًا، أو ليس مفهومًا دائمًا.

وأما الثاني فإنه واضح من جهة العربية وواضح من جهة العقيدة، يعني: لا إشكال عليه من جهة العقيدة، وواضح من جهة دلالته على تأكيد النفي الذي جاء في الآية.

إذًا: الراجح أن (الكاف) هاهنا حرف وصلة، وجيء به من أجل تكرار الجملة، ومن أجل توكيد المعنى، فالله عَزَّ وَجلَّ ينفي أن يكون شيءٌ مثله ويؤكد ذلك في هذه الآية.

ولذلك قال: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ}.

و{شَيْءٌ} نكرة في سياق النفي، فتعم كل شيء، لا يُشبهه شيء سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، {هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا} [مريم: 65], قال تعالى: {وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ} [الإخلاص: 4]، سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

لكن هل يُخبر عن الله عَزَّ وَجلَّ بأنه شيء؟ أجل، هذا من باب الإخبار وليس من باب الصفة أو التسمية.

ولذلك لا يجوز دعاء ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى بقولنا: يا شيء، كما لا يجوز أن ندعو الله عَزَّ وَجلَّ بقولنا: يا موجود، والله موجود سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

ما الدليل على الإخبار عن الله عَزَّ وَجلَّ بأنه شيء؟ هذه الآية التي معنا، وآية سورة الأنعام: {قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ} [الأنعام: 19], وقوله تعالى: {كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ} [القصص: 88], سُبْحَانَهُ وَتعَالَى, فيُخبر عنه بأنه شيء، والمراد: إثبات وجوده سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، فالإخبار عنه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى بأنه (شيء) إثبات لوجوده.

فقال: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}.

فما اقتصر ربنا تَبَارَكَ وَتعَالَى على النفي، لكنه جمع بين النفي والإثبات، وعلى هذا عقيدة أهل السنة والجماعة إثبات ما أثبته الله عَزَّ وَجلَّ لنفسه من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل، ونفي ما نفاه الله عَزَّ وَجلَّ عن نفسه في كتابه وعلى لسان رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع إثبات كمال الضد.

قال: {وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}.

والله عَزَّ وَجلَّ ذكر هذين الاسمين اللذين تضمنا صفتا السمع والبصر، وهما من أظهر صفات المخلوق كذلك، فلما فارقت صفات المخلوق صفات الخالق في هاتين الصفتين، كان في غيرهما أولى كما أشار لذلك بعض أهل العلم.

ومن ناحية أخرى عاب على آلهة المشركين أنها لا تسمع ولا تُبصر.

قال إبراهيم عَليهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمِ لأبيه: {يَاأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا} [مريم: 42].

والمراد {مَا لَا يَسْمَعُ} سمعًا إجابة ودعاء، لأن المعبود قد يكون سميعًا بصيرًا، قد يكون واحدًا من الخلق من البشر، لكن المراد هاهنا: سمع إجابة للدعاء والاستغاثة.

ولا يُبصر كذلك ما يكون فيه رعاية للعبد وحفظ للعبد، فهذا ما اتصف به ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وله الكمال في هذه الصفات، ولا منتهى لحسن هذه الصفات، ولا منتهى لحسن أسمائه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

ولذلك لما نزل قول الله عَزَّ وَجلَّ لما جاءت المجادلة تشكوا زوجها لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: {قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا} [المجادلة: 1].

ورأت عائشة أو نظرت في الأحوال التي لابست نزول الآية، عائشة كانت مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حجرة ضيقة والمرأة تُخفي كلامها، والله عَزَّ وَجلَّ يقول: {قَدْ سَمِعَ}، يحقق ذلك, والله يسمع، {إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ}.

فقالت عائشة رَضِي اللهُ عَنْهَا: "سبحان الذي وسع سمعه الأصوات كلها"، فهو سميع وله الكمال في سمعه وبصره سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

وكذلك يقول الله عَزَّ وَجلَّ في موضع آخر عن هذه الآلهة: {هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ} [الشعراء: 72].

ولذلك هذه الصفات كانت من الصفات العقلية النقلية الثابتة لربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى، لأنه لا يتصور إله بغير سمع ولا بصر، لا يتصور إله لا يجيب دعاء عباده، فكان هذا سبيلاً لأنبياء الله ورسله للإنكار على قومهم الذين يعبدون آلهة لا تسمع ولا تُبصر ولا تُغني شيئًا.

فهي آية عظيمة, وأسعد الناس بها أهل السنة والجماعة.

قال الشيخ الهراس رَحِمَهُ اللهُ: وقَوْلُهُ: {لَيسَ كَمِثْلِه}.

يعني الآية: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ}.

قال: هَذِهِ الْآيَةُ الْمُحْكَمَةُ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجلَّ هِيَ دُسْتُورُ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ فِي بَابِ الصِّفَاتِ، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجلَّ قَدْ جَمَعَ فِيهَا بَيْنَ النَّفْيِ وَالْإِثْبَاتِ، فَنَفَى عَنْ نَفْسِهِ الْمِثْلَ، وَأَثْبَتَ لِنَفْسِهِ سَمْعًا وَبَصَرًا: وهو سمع وبصر حقيقيان.

ولذلك لما قرأ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا}.

هكذا صنع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأراد تحقيق السمع والبصر، وأن الله عَزَّ وَجلَّ له سمع وبصر حقيقيان، وليس على المجاز, ولا يراد مجرد الحفظ والرعاية وكمال العلم كما يؤوله المعتزلة، فإنهم يردون كل الصفات إلى العلم ولا يثبتون سمعًا ولا بصرًا لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

فجَمَعَ ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِيهَا بَيْنَ النَّفْيِ وَالْإِثْبَاتِ، فَنَفَى عَنْ نَفْسِهِ الْمِثْلَ، وَأَثْبَتَ لِنَفْسِهِ سَمْعًا وَبَصَرًا، فدلَّ هَذَا عَلَى أَنَّ الْمَذْهَبَ الْحَقَّ لَيْسَ هُوَ نَفْيَ الصِّفَاتِ مُطْلَقًا؛ كَمَا هُوَ شَأْنُ المعطِّلة، وَلَا إِثْبَاتُهَا مُطْلَقًا؛ كَمَا هُوَ شَأْنُ الممثِّلة؛ بَلْ إِثْبَاتُهَا بِلاَ تَمْثِيلٍ.

إذًا: الآية فيها رد على طائفتين ضالتين، {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ}، هذا فيه رد على الممثلة، {وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ}، فيه رد على المعطلة.

قال: كَمَا هُوَ شَأْنُ الممثِّلة؛ بَلْ إِثْبَاتُهَا بِلاَ تَمْثِيلٍ.

قال: وَقَدِ اختُلِفَ فِي إِعْرَابِ: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} عَلَى وُجُوهٍ؛ أصحُّها: أَنَّ الكافَ صلةٌ زِيدَت لِلتَّأْكِيدِ.

وهذا ما رجحه كذلك الشيخ صالح كما رأينا.

قال: كَمَا فِي قَوْلِ الشَّاعِرِ:

لَيْسَ كَمِثْلِ الْفَتَى زُهَيْرٍ ... خَلْقٌ يُوَازِيهِ فِي الفَضَائِلِ

قال: وقوله: فَلاَ يَنْفُونَ عَنْهُ: أي: فلا ينفون عنه ما وصف به نفسه.

قال: تفريعٌ عَلَى مَا قَبْلَهُ؛ فَإِنَّهُمْ إِذَا كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ؛ فَلاَ يَنْفُونَ وَلَا يحرِّفونَ، وَلَا يكيِّفون وَلَا يمثِّلُون.

وإنما يثبتون ما أثبته الله لنفسه، لأنه أعلم بنفسه من غيره، ويثبتون ما أثبته له رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأنه أعلم بربه من غيره، وكذلك القول فيما نفاه ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى عن نفسه؛ فمن الله الرسالة، وعلى الرسول البلاغ، وعلينا التسليم.

قال: وَالْمَوَاضِعُ: جَمْعُ مَوْضِعٍ.

لأنه قال: وَلَا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ.

وفي موضع آخر في القرآن: {مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ} [المائدة: 41].

قال: وَالْمُرَادُ بِهَا الْمَعَانِي الَّتِي يَجِبُ تَنْزِيلُ الْكَلاَمِ عَلَيْهَا؛ لِأَنَّهَا هِيَ الْمُتَبَادِرَةُ مِنْهُ عِنْدَ الْإِطْلاَقِ.

مِنْهُ: أي: من الكلام، هذا هو ظاهر الكلام.

لِأَنَّهَا هِيَ الْمُتَبَادِرَةُ مِنْهُ عِنْدَ الْإِطْلاَقِ، فَهُمْ لَا يعدِلون بِهِ عَنْهَا.

فمعنى قول شيخ الإسلام: لَا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ, كما ذكر المصنف رَحِمَهُ اللهُ, ونزيد بيانًا ونقول: قال فيه ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ كذلك معنى: لَا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ، أي: يتأولونه على غير تأويله, ويفسرونه بغير مراد الله تعالى.

وقال العلامة السعدي: أي: جلب معانٍ للألفاظ ما أرادها الله ولا قصدها.

ولذلك يقول الشافعي رَحِمَهُ اللهُ: آمنت بالله وما جاء عن الله على مراد الله، وآمنت برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وما جاء عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على مراد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال: وَأَمَّا قَوْلُهُ: ((وَلَا يُلْحِدون فِي أَسْمَاءِ اللَّهِ وَآيَاتِهِ))؛ فَقَدْ قَالَ الْعَلاَّمَةُ ابْنُ القيِّم رَحِمَهُ اللهُ: ((وَالْإِلْحَادُ فِي أَسْمَائِهِ هُوَ الْعُدُولُ بِهَا وَبِحَقَائِقِهَا وَمَعَانِيهَا عَنِ الْحَقِّ الثَّابِتِ لَهَا؛ مأخوذٌ مِنَ الْمَيْلِ؛ كَمَا يَدُلُّ عَلَيْهِ مَادَّةُ (لحد): (اللام, والحاء, والدال) أصل يدل على الميل والانحراف.

فَمِنْهُ اللَّحْدُ، وَهُوَ الشَّقُّ فِي جَانِبِ الْقَبْرِ، الَّذِي قَدْ مَالَ عَنِ الْوَسَطِ.

ومنه قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "اللَّحْدُ لَنَا وَالشَّقُّ لِغَيْرِنَا".

وَمِنْهُ الْمُلْحِد فِي الدِّينِ: أي: أن كلمة (الملحد) مشتقة من هذا الأصل (ل,ح, د) التي تدل على الميل والانحراف.

أي: الْمَائِلُ عَنِ الْحَقِّ، الْمُدْخِل فِيهِ مَا لَيْسَ مِنْهُ)).

قال: فَالْإِلْحَادُ فِيهَا: يعني: في أسمائه وآياته.

إِمَّا أَنْ يَكُونَ بِجَحْدِهَا وَإِنْكَارِهَا بالكليَّة.

كما فعل الجهم بن صفوان, فإنه أنكر كل اسم وكل صفة لربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى، لا يُثبت له اسمًا ولا صفة.

لما ناظر السُمنية وأقاموا حجتهم عليه وأراد أن يجاريهم في أصلهم الفاسد وهو عدم الإيمان بكل ما غاب عن الحواس, وإنما مرد الأمر إلى ما هو محسوس, نفى أسماء الله عَزَّ وَجلَّ وصفاته زاعمًا أننا لو أثبتنا ذلك لشبهناه بالمخلوق، فنفى كل الأسماء والصفات، ولذلك كان يعبد عدمًا.

قال: وَإِمَّا بِجَحْدِ مَعَانِيهَا وَتَعْطِيلِهَا.

كحال المعتزلة, فإنهم يثبتون الأسماء دون الصفات، فيقولون: هو سميع بلا سمع، بصير بلا بصر، هكذا في سائر أسمائه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

قال: وَإِمَّا بِتَحْرِيفِهَا عَنِ الصَّوَابِ وَإِخْرَاجِهَا عَنِ الْحَقِّ بِالتَّأْوِيلاَتِ الْفَاسِدَةِ.

وهذا يشترك فيه جميع فِرق الضلال, فمستقل ومستكثر، فهم يتعرضون لصفات ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى وأسمائه ويحرِّفونها ويسمون ذلك تأويلاً، ويريدون بالتأويل التحريف، يريدون به صرف ظاهر القرآن، بل هو نص القرآن كما يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ، لأن الكلام عن صفات ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى في كل موضع من القرآن والسنة لم يتغير.

ففي كم موضع مثلاً ذُكر (الاستواء)؟ في مواضع سبعة في كتاب ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى، في جميعها {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى}، يتعدى بـ(على)، وفي جميعها: {اسْتَوَى}، ولا تجد في واحدة منها استولى.

فهذا ليس ظاهر القرآن فحسب, وإنما هو نص القرآن كما يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ، لأن اضطراد استعمال القرآن أو ورود هذا اللفظ في القرآن على هذه الصورة يُبين أن هذا هو المعنى المقصود الوحيد لهذه اللفظة، فكل استواء في القرآن مقرون بحرف الجر (على) إنما يراد به العلو والظهور والارتفاع.

لا يأتي أبدًا بمعنى الاستيلاء أو الاستواء، الاستواء، أي: استوى، كما يقولون: استوى الماء والخشبة، استواء في مقام واحد، وإنما استوى على، {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى}.

فهؤلاء أخرجوها بالتأويلات الفاسدة, فقالوا: تأويل هذه الآيات مصروف لمعنًى مرجوح لقرينة أوجبت ذلك.

ما هذه القرينة؟ هل هي قرينة لفظية؟ ليست قرينة لفظية، هل هي قرينة شرعية؟ ليست قرينة شرعية، وإنما هي قرينة عقلية فاسدة.

قاسوا الخالق على المخلوق، ثم وضعوا شريعة تناسب الخالق, فأوجبوا عليه أشياء وحرموا عليه أشياء، فقالوا: يجب في حقه كذا, ويمتنع في حقه كذا، بعد أن شبهوه بخلقه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

فقال: وَإِمَّا بِجَحْدِ مَعَانِيهَا وَتَعْطِيلِهَا، وَإِمَّا بِتَحْرِيفِهَا عَنِ الصَّوَابِ وَإِخْرَاجِهَا عَنِ الْحَقِّ بِالتَّأْوِيلاَتِ الْفَاسِدَةِ، وَإِمَّا بِجَعْلِهَا أَسْمَاءً لِبَعْضِ الْمُبْتَدَعات؛ كَإِلْحَادِ أَهْلِ الاِتِّحَادِ.

والإلحاد في أسماء ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى وصفاته وآياته على أقسام ستة:

- أما القسم الأول: فهو تسمية الله عَزَّ وَجلَّ بما لا يليق بذاته وجلاله وعظمته سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، فالله عَزَّ وَجلَّ سمى نفسه في كتابه, وأسمائه توقيفية.

فإذا سمى واحد ربه تَبَارَكَ وَتَعَالَى بأسماء غير واردة في الكتاب والسنة فهذا من الإلحاد، كتسمية النصارى له أبًا، وتسمية الفلاسفة له عِلة، يسمونه بالعلة الأولى، ويقولون: هو علة كل العلل، وهذه تسميات باطلة, وهي من الإلحاد في أسمائه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

- والقسم الثاني: هو تسمية بعض مخلوقاته باسمه، كما فعل المشركون, فسموا أحد أصنامهم بـ(اللات) على اختلاف في الاشتقاق، هل اللات لأنه كان يلت السويق؟

إذًا: هو بتشديد التاء (اللاتّ)، أو (اللاتْ) من اسم الله (الله)، فاشتقوا لأصنامهم اسمًا من اسم الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، فهذا من الإلحاد.

وكتسميتهم العُزَّى من العزيز، ومناة من المنان، فهذا من الإلحاد.

- والقسم الثالث: وهو وصفه تعالى بما يتنزه عنه سبحانه من النقائص، فهذا من الإلحاد في صفاته، كوصف اليهود -عليهم لعائن الله- له بالبخل، {وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ} [المائدة: 64]، وقالوا كذلك: {إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ} [آل عمران: 181].

فوصف ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى بشيء من النقائص هذا فيه إلحاد في صفاته.

- والقسم الرابع: وهو تعطيل الأسماء عن معانيها، فيُثْبتون الأسماء دون الصفات, كما فعل المعتزلة.

- والقسم الخامس: وهو تشبيهه بخلقه في الصفات، كحال الممثلة، فيشبهون الله عَزَّ وَجلَّ بخلقه.

- والقسم السادس: وهو الإلحاد في آياته، كما قال المصنف هاهنا: ((وَلَا يُلْحِدون فِي أَسْمَاءِ اللَّهِ وَآيَاتِهِ)).

والإلحاد في آياته على قسمين:

- إلحاد في آياته الكونية, من نسبتها لغيره سُبْحَانَهُ وَتعَالَى خلقًا وتقديرًا، كحال الملاحدة الذين يقولون بِقِدَم العالم, أو الذين يجعلون هذا الخلق

إنما مداره على محض جريان الأسباب الطبيعية دون خلق ولا مشيئة ولا إرادة ولا تدبير من ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى، فلا إله عندهم إلا الطبيعة!!

وكذلك الإلحاد في الآيات الشرعية، والمراد بالآيات الشرعية: كتبه التي أنزلها سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، والإلحاد فيها يكون بتكذيبها, أو بردّ ما فيها, أو بتأويله على غير وجه صحيح، فكل هذا من الإلحاد.

قال تعالى: {وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ} [الأعراف: 180].

ما معنى: {يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ}؟ يعني: يردُّونها، يُثبتون الأسماء دون الصفات، يحرفونها.

فأسماء ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى أعلام وأوصاف، فهي أعلام على ذات ربنا وتضمنت أوصافًا.

ولذلك كان لهذه الأسماء دلالات ثلاثة: دلالة المطابقة، ودلالة التضمُّن، ودلالة اللزوم.

أما دلالة المطابقة فهي أن يدل الاسم على الذات والصفة، فإذا قلنا: (الرحمن) دل ذلك على ذات ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وعلى أنه متصف بصفة الرحمة، فهذه دلالة مطابقة.

فإن دل على إحدى الدلالتين فهي دلالة تضمن، فاسمه (الرحمن) إن دل على ذات ربنا فقط، فهذه دلالة تضمُّن، لأن الاسم يتضمن الدلالة على الذات، وإن دل على صفة الرحمة، فهذه كذلك دلالة تضمُّن.

وأما إن دل على الذات والصفة فهي: دلالة مطابقة، وهي: الدلالة على جميع مدلولات الاسم.

وأما دلالة التضمن: فهي الدلالة على بعض مدلولات الاسم.

فإن دل على ما يُفهم من لوازم هذا الاسم فهي دلالة اللزوم، فالله عَزَّ وَجلَّ من أسمائه (الخالق) واسمه (الخالق) يدل على ذات وصفة الخلق دلالة مطابقة، ويدل على صفة الخلق وحدها دلالة تضمُّن، وعلى ذات الله وحدها دلالة تضمُّن.

هذا الخلق يستلزم العلم والقدرة والحياة، فهذه دلالات لزوم.

ويمثلون لذلك أيضًا بالبيت، فالسقف والأعمدة والجدران، كل هذه تدل على مسمى البيت دلالة مطابقة، فإن ذكرنا السقف فقط تضمُّن، أو الأعمدة فقط تضمُّن.

إن ذكرنا من بنى البيت, هذا لازم، ولذلك قالوا: دلالة اللزوم دلالة عقلية, دل العقل على لزومها وعدم انتفائها.

قال المصنف رَحِمَهُ اللهُ بعد ذلك: وَخُلاَصَةُ مَا تَقَدَّمَ: أَنَّ السَّلَفَ رَضِي اللهُ عَنْهُم يُؤْمِنُونَ بِكُلِّ مَا أَخْبَرَ اللَّهُ بِهِ عَنْ نَفْسِهِ فِي كِتَابِهِ، وَبِكُلِّ مَا أَخْبَرَ بِهِ عَنْهُ رَسُولُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِيمَانًا سَالِمًا مِنَ التَّحْرِيفِ وَالتَّعْطِيلِ، وَمِنَ التَّكْيِيفِ وَالتَّمْثِيلِ.

وذكرنا معاني هذه الكلمات في الدرس الماضي.

وَيَجْعَلُونَ الْكَلاَمَ فِي ذَاتِ الْبَارِي وَصِفَاتِهِ بَابًا وَاحِدًا.

وهذه قاعدة كبرى من قواعد الأسماء والصفات, وهي: أن الكلام في الصفات كالكلام في الذات، فإذا كان الكلام في الذات كلامًا في إثبات وجود؛ فالكلام في الصفات كذلك كلام في إثبات وجود هذه الصفات.

ولذلك قال الشيخ رَحِمَهُ اللهُ: وَيَجْعَلُونَ الْكَلاَمَ فِي ذَاتِ الْبَارِي وَصِفَاتِهِ بَابًا وَاحِدًا؛ فَإِنَّ الكَلاَمَ فِي الصِّفَاتِ فرعُ الْكَلاَمِ فِي الذَّاتِ، يُحْتَذَى فِيهِ حَذْوُه، فَإِذَا كَانَ إِثْبَاتُ الذَّاتِ إثبات وجودٍ لَا إِثْبَاتَ تَكْيِيفٍ؛ فَكَذَلِكَ إِثْبَاتُ الصِّفَاتِ.

فيقال لهم: أنتم تثبتون ذاتًا لربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى، والمخلوق له ذات، فيقولون: لكن ليست ذات الخالق كذات المخلوق، فنقول لهم: وكذلك ليست صفات الخالق كصفات المخلوق.

فالكلام في الصفات كالكلام في الذات، إنما مداره على إثبات الوجود, دون السعي إلى محاولة التكييف أو التمثيل.

قال: وَقَدْ يعبِّرون عَنْ ذَلِكَ بِقَوْلِهِمْ: ((تُمَرُّ كَمَا جَاءَتْ بِلاَ تَأْوِيلٍ)).

تُمَرُّ: أي: الصفات, كما جاءت عن ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى بلا تأويل.

ما المراد بلا تأويل؟

الطالب: بلا تفسير.

الشيخ: لا, بلا تفسير قد فسرها سلفنا، وقالوا: استوى، أي: علا وارتفع، فـ(بلا تأويل) هذه الكلمة ما قالها الصحابة, وإنما قالها أئمتنا لما ظهرت الجهمية والمعتزلة.

إذًا قولهم: بلا تأويل: أي: بلا تأويل كتأويل الجهمية, أي التأويل الذي تعارف عليه المتأخرون، وهو التأويل الذي تجد حده في كتب الأصول وفي كتب التفسير المتأخرة التي ألفها المتكلمون خاصة.

وهو: صرف اللفظ عن ظاهره من المعنى الراجح إلى المعنى المرجوح لقرينة أو لدليل، وإن بحثت عن القرينة أو الدليل لن تجد إلا القرينة العقلية الفاسدة.

فقولهم: (بلا تأويل) ليس المراد بلا تفسير، فإن سلفنا الصالح ما تركوا حرفًا في كتاب الله إلا وتكلموا في معناه، حتى الحروف المقطعة تكلموا في معانيها، وإنما (بلا تأويل) يعني: بلا تأويل كتأويل أهل الباطل.

ولذلك قال الشيخ: وَمَن لَمْ يَفْهَمْ كَلاَمَهُمْ؛ ظَنَّ أَنَّ غَرَضَهُمْ بِهَذِهِ الْعِبَارَةِ هُوَ قِرَاءَةُ اللَّفْظِ دُونَ التعرُّض لِلْمَعْنَى، وَهُوَ بَاطِلٌ.

ولذلك هذه الجملة التي وردت في كلام السلف وينقلها الترمذي في جامعه وغيره ((تُمَرُّ كَما جَاءَتْ بِلاَ تَأْوِيلٍ)) هذه يُحتج بها المعتزلة ويحتج بها الجهمية، يقولون: قال سفيان كذا ويذكرون هذا القول، لكنهم أرادوا التفويض، بلا تأويل، أي: بلا تفسير.

ولذلك قال الشيخ: وَمَن لَمْ يَفْهَمْ كَلاَمَهُمْ؛ ظَنَّ أَنَّ غَرَضَهُمْ بِهَذِهِ الْعِبَارَةِ هُوَ قِرَاءَةُ اللَّفْظِ دُونَ التعرُّض لِلْمَعْنَى، وَهُوَ بَاطِلٌ، فَإِنَّ الْمُرَادَ بِالتَّأْوِيلِ الْمَنْفِيِّ هُنَا هُوَ حَقِيقَةُ الْمَعْنَى وَكُنْهُهُ وَكَيْفِيَّتُهُ.

وهذا معنًى آخر، أي: بلا كلام في كيفية الصفة، لأننا لم نر الله ولم نر مثيلاً له, ولم يأتنا خبر عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في ذلك.

قال: قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ رحمه الله: ((لَا يوصَفُ اللَّهُ إِلَّا بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ، أَوْ وَصَفَهُ بِهِ رَسُولُهُ، وَلَا يُتَجَاوَزُ الْقُرْآنُ وَالْحَدِيثُ)).

وَقَالَ نُعيم بْنُ حمَّاد (شَيْخُ الْبُخَارِيِّ): ((مَن شبَّه اللهَ بِخَلْقِهِ؛ كَفَرَ، ومَن جَحَدَ مَا وَصَفَ اللَّهُ بِهِ نَفْسَهُ؛ كَفَرَ وَلَيْسَ فِيمَا وَصَفَ اللَّهُ بِهِ نَفْسَهُ أَوْ وَصَفَهُ بِهِ رَسُولُهُ تشبيهٌ وَلَا تمثيلٌ)).

وقد قسَّم شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ أهل التحريف إلى أقسام ثلاثة، الذين انحرفوا عن جادة طريق السلف وهم:

- **أهل التخييل**
- **وأهل التأويل**
- **وأهل التجهيل.**

- **أما أهل التخييل** -التخييل مأخوذ من الخيال-: فهم الفلاسفة ومن سلك سبيلهم, ويأتي على رأسهم ابن سينا والفارابي والكندي، وغير هؤلاء ممن يسمون بالفلاسفة المشَّائين الذين ينتسبون إلى الإسلام.

فأهل التخييل يقولون: إن ما ذكر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أمر الإيمان بالله وصفاته واليوم الآخر إنما هو مجاز و تخييل للحقائق لينتفع بها الجمهور وليس له حقيقة.

فليست الآخرة جنة ولا نار, وليس فيها نعيم حسي, وليس في الجنة ولدان مخلدون, وليس فيها كواعب أتراب، يقولون هكذا صراحة، وإنما هذا من باب التخييل.

لماذا هو من باب التخييل؟ لحمل العباد على عبادة ربهم تَبَارَكَ وَتَعَالَى، فجعلوا ظاهر القرآن باطلاً وليس له حقيقة.

ولذلك هؤلاء لا يؤمنون بالبعث الجسماني, أنكروه، وقد كفَّرهم الغزالي في تهافت الفلاسفة، لقولهم ببعث الأرواح دون الأجساد.

طيب ماذا عن هذا النعيم المذكور في كتاب الله؟ ماذا عن هذا العذاب؟ يقولون: مجرد تخييل.

- **وأما القسم الثاني**: وهم أهل التأويل, وهؤلاء الذين تعرضوا للنصوص الواردة في الصفات, وقالوا: إن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يقصد أن يعتقد الناس الباطل, وأن يحملوا النصوص على ظاهرها، وإنما أراد معاني أخرى.

وهذه المعاني هي كذا، الاستواء بمعنى: الاستيلاء، ونزوله، أي: نزول رحمته، ومجيئه، أي: مجيء أمره، وهكذا سلطوا تأويلهم وتحريفهم على سائر النصوص، فهؤلاء أهل التأويل، وهذا قول المتكلمين والجهمية والمعتزلة, ومن تأثر بهم ممن ينتسب لأحد المذاهب الأربعة.

- **وأما القسم الثالث**: وهم أهل التجهيل، لأن قولهم فيه تجهيل للسلف، وهؤلاء هم الذين قالوا: مذهب السلف أسلم ومذهب الخلف أعلم وأحكم، فهؤلاء زعموا أن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يكن يعرف معاني ما أنزل الله من آيات في الصفات، ولم يكن جبريل يعلم ذلك، ولا عرف ذلك أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ولذلك قرأوا هذه الآيات دون التعرض لمعناها, لأنهم ما كانوا يعرفون معناها فسلموا، وأما نحن أهل التأويل فإنا نتعرض لمعناها على الوجه اللائق بربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

ولذلك تجد هؤلاء يقفون عند قول الله تعالى: {وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ} [آل عمران: 7]، يوجبون الوقف على هذه الآية.

{وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ}، فظنوا أن قوله: {وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ}، يعني: ما يعلم تفسيره إلا الله، فالرسول نفسه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي نزل عليه القرآن لا يعرف تفسير هذه الآيات.

فكيف يكون صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مبيِّنًا لكتاب ربه إذن؟ وكيف يصدُق عليه أنه بلغ وأكمل الدين وأنزل الله عَزَّ وَجلَّ فيه: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي} [المائدة: 3]، فهذا كله خلاف مذهب الحق.

إذن لماذا لا ينفي أهل السنة والجماعة عن ربنا ما وصف به نفسه ولا يحرفون الكلم عن موضعه ولا يلحدون في أسماء الله وآياته ولا يكيفون ولا يمثلون صفاته بصفات خلقه، لماذا؟

قال رَحِمَهُ اللهُ: لأَنَّهُ سُبْحَانَهُ: لَا سَمِيَّ لَهُ.

وهذا تعليل لقوله فيما تقدم إخبارًا عن أهل السنة والجماعة أنهم لا يكيفون ولا يمثلون، لماذا لا يكيف أهل السنة؟ لأنه لا سميَّ له، ما معنى لا سميَّ له؟ يعني: لا شبيه له, ولا ند له سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، حتى يقاس عليه غيره من خلقه.

قال: لأَنَّهُ سُبْحَانَهُ: لَا سَمِيَّ لَهُ.

تَعْلِيلٌ لِقَوْلِهِ فِيمَا تَقَدَّمَ إِخْبَارًا عَنْ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ: ((لَا يكيِّفون وَلَا يمثِّلون)).

وَمَعْنَى: ((لَا سميَّ لَهُ)) أَيْ: لَا نَظِيرَ لَهُ يستحقُّ مِثْلَ اسْمِهِ، أَوْ لَا مساميَ لَهُ يُسَامِيه، وَقَدْ دلَّ عَلَى نَفْيِهِ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ مَرْيَمَ: {هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا}.

قال تعالى: {رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا}.

قال: فَإِنَّ الِاسْتِفْهَامَ هُنَا إِنكاريٌّ، مَعْنَاهُ النَّفْيُ.

قال العثيمين رَحِمَهُ اللهُ: والقاعدة في ذلك: كل استفهام يراد به النفي فهو مُشرب بمعنى التحدي.

كل استفهام ورد في القرآن يراد به النفي فهو في معنى التحدي.

فقال: {هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا}، أي: ايتوني بمن يسامي ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى، ولن تجد إلى ذلك سبيلاً.

قال تعالى: {هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ} [فاطر: 3]، هذا نفي، استفهام يراد به النفي، وهو مُشرب بمعنى التحدي.

{أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ} [النمل: 60]، هذا كذلك استفهام ويراد به النفي.

فخذ هذه القاعدة: أن كل استفهام ورد في القرآن يراد به النفي فهو مُشرب بمعنى التحدي.

قال: وَلَيْسَ الْمُرَادُ مِنْ نَفْيِ السميِّ أَنَّ غَيْرَهُ لَا يسمَّى بِمِثْلِ أَسْمَائِهِ، فَإِنَّ هُنَاكَ أَسْمَاءً مُشْتَرَكَةً بَيْنَهُ وَبَيْنَ خَلْقِهِ، ولكنَّ الْمَقْصُودَ أَنَّ هَذِهِ الْأَسْمَاءَ إِذَا سمِّي اللَّهُ بِهَا؛

كَانَ مَعْنَاهَا مُخْتَصًّا بِهِ لَا يَشْرَكُهُ فِيهِ غَيْرُهُ، فَإِنَّ الِاشْتِرَاكَ إِنَّمَا هُوَ فِي مَفْهُومِ الِاسْمِ الكلِّي، وَهَذَا لَا وُجُودَ لَهُ إِلَّا فِي الذِّهْنِ.

فإذا أُضيف صار على حسب المضاف إليه، فاسم الله يليق بالله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، واسم المخلوق يليق بالمخلوق، كما أن صفة الله عَزَّ وَجلَّ تليق به سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، فالقدر المشترك كلي ذهني، والقدر الفارق بحسب الإضافة والتخصيص فتنبه.

قال: وَأَمَّا فِي الْخَارِجِ؛ فَلاَ يَكُونُ الْمَعْنَى إِلَّا جُزْئِيًّا مُخْتَصًّا، وَذَلِكَ بِحَسَبِ مَا يُضَافُ إِلَيْهِ، فَإِنْ أُضِيفَ إِلَى الرَّبِّ؛ كَانَ مُخْتَصًّا بِهِ، لَا يُشَارِكُهُ فِيهِ الْعَبْدُ، وَإِنْ أُضِيفَ إِلَى الْعَبْدِ كَانَ مُخْتَصًّا بِهِ لَا يُشَارِكُهُ فِيهِ الرَّبُّ.

ثم قال: وَأَمَّا الْكُفْءُ؛ فَهُوَ الْمُكَافِئُ الْمُسَاوِي، وَقَدْ دلَّ عَلَى نَفْيِهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: {وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ}.

قال: وَأَمَّا النِّدُّ؛ فَمَعْنَاهُ الْمُسَاوِي الْمُنَاوِئُ؛ قَالَ تَعَالَى: {فَلاَ تَجْعَلُواْ لِلّهِ أَندَاداً وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ}.

ثم قال: وَأَمَّا قَوْلُهُ: ((يُقاسُ بِخَلْقِهِ))؛ فَالْمَقْصُودُ بِهِ أَنَّهُ لَا يَجُوزُ اسْتِعْمَالُ شيءٍ مِنَ الْأَقْيِسَةِ الَّتِي تَقْتَضِي الْمُمَاثَلَةَ وَالْمُسَاوَاةَ بَيْنَ المَقِيس والمَقِيس عليه في الشؤون الْإِلَهِيَّةِ, وَذَلِكَ مِثْلُ قِيَاسِ التَّمْثِيلِ.

القياس في أصل وضعه اللغوي بمعنى: التمثيل والاعتبار والمساواة، فيُنفى عن ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى قياس التمثيل وقياس الشمول, ولا يُثبت له إلا قياس الأولى.

ما معنى قياس التمثيل؟

يقول المصنف رَحِمَهُ اللهُ: وَذَلِكَ مِثْلُ قِيَاسِ التَّمْثِيلِ الَّذِي يعرِّفه عُلَمَاءُ الْأُصُولِ بِأَنَّهُ إِلْحَاقُ فَرْعٍ بِأَصْلٍ فِي حكمٍ جَامِعٍ: الجامع الموجب للإلحاق هو العلة.

كَإِلْحَاقِ النَّبِيذِ بِالْخَمْرِ فِي الْحُرْمَةِ لِاشْتِرَاكِهِمَا فِي عِلَّةِ الْحُكْمِ، وَهِيَ الْإِسْكَارُ.

وإن كان هذا المثال يعترض عليه بعض الأصوليين، لأن التحريم هاهنا بالنص وليس بالإلحاق، فالنص عام يندرج تحته أفراده لا نحتاج معه لقياس.

قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "كُلَّ مُسْكِرٍ خَمْرٌ"، هذا نص يندرج تحته كل مُسكر، فالنبيذ يندرج تحته، والخمر يندرج تحت هذا النص.

لكن لو ألحقنا الأرز بالشعير أو البُر في الربا، لأن العلة واحدة والجامع واحد أنه مكيل ويُدخر، فهو كذلك من الأصناف الربوية, فيُقاس على الأصناف المذكورة في حديث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فنحن ألحقنا الأرز الذي هو الفرع بالأصل الذي هو البُر أو الشعير في حكمٍ هو جريان الربا فيه، لاشتراكهما في علة واحدة وهي التي تسمى بالجامع هاهنا، فلا يجوز قياس الله عَزَّ وَجلَّ على خلقه قياس تمثيل، يكون فيه فرعا- سبحانه وتعالى-

قال: فَقِيَاسُ التَّمْثِيلِ مبنيٌّ عَلَى وُجُودِ مُمَاثَلَةٍ بَيْنَ الْفَرْعِ وَالْأَصْلِ، وَاللَّهُ عَزَّ وَجلَّ لَا يَجُوزُ أَنْ يمثِّل بِشَيْءٍ مِنْ خَلْقِهِ.

وهؤلاء جعلوا المخلوق هو الأصل وجعلوا الله عَزَّ وَجلَّ هو الفرع، فما يُنزه عنه المخلوق يُنزه عنه الخالق، فقاسوا الله عَزَّ وَجلَّ بخلقه وشبهوه بهم, فوضعوا

كما قلنا له شريعة فيما يجب له وما يمتنع قياسًا على المخلوق، فصار توحيدهم إلحادًا, وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا, ويريدون تنزيه الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

فلا يجوز في حقه قياس التمثيل، ولا يجوز في حقه قياس الشمول، فما قياس الشمول؟

قال: وَمِثْلُ قِيَاسِ الشُّمُولِ الْمَعْرُوفِ عِنْدَ الْمَنَاطِقَةِ بِأَنَّهُ الاِسْتِدْلَالُ بكليٍّ عَلَى جزئيٍّ بِوَاسِطَةِ انْدِرَاجِ ذَلِكَ الْجُزْئِيِّ مَعَ غَيْرِهِ تَحت هَذَا الكُلِّيِّ.

هذا هو قياس الشمول: الاستدلال بكلي على جزئي، عن طريق انْدِرَاجِ ذَلِكَ الْجُزْئِيِّ مَعَ غَيْرِهِ تَحْتَ هَذَا الكُلِّي.

فَهَذَا الْقِيَاسُ مبنيٌّ عَلَى اسْتِوَاءِ الْأَفْرَادِ الْمُنْدَرِجة تَحْتَ هَذَا الكُلِّي، وَلِذَلِكَ يُحكَم عَلَى كُلٍّ مِنْهَا بِمَا حُكِمَ بِهِ عَلَيْهِ.

والمراد بالكلي أي قضية كلية أي حكم على جميع الأفراد، والجزئية حكم على بعض الأفراد.

فيقولون مثلاً: كل إنسان حي، مقدمة صحيحة أم غير صحيحة؟ صحيحة، كل إنسان حي، وعمر إنسان، النتيجة؟ النتيجة عمر حي.

فعندنا الآن جزئي وهو عمر، وعندنا أصل كلي وهو كل إنسان حي، فهذا القياس مبني على استواء الأفراد المندرجة تحت هذا الكلي.

ومعلومٌ أَنَّهُ لَا مُسَاوَاةَ بَيْنَ اللَّهِ عَزَّ وَجلَّ وَبَيْنَ شَيْءٍ مِنْ خَلْقِهِ, وَإِنَّمَا يُستعمل فِي حَقِّهِ تَعَالَى قِيَاسُ الأَوْلَى.

فهذه كلها أقيسة فاسدة في حق الله تعالى، وهي سبب عامة ضلال الفلاسفة والمتكلمين، يسوون بين شيئين لاشتراكهما في بعض الأمور مع أن بينهما من

الفرق ما يوجب أعظم المخالفة، فكل من سوَّى بين شيئين أو فرَّق بينهما بغير الأوصاف المعتبرة في حكم الله ورسوله صلى الله عليه وسلم فقياسه فاسد كقياس إبليس، والذي يستعمل في حق الله تعالى قياس الأولى، فما قياس الأولى؟

قال: وَمَضْمُونُهُ أَنَّ كلَّ كَمَالٍ ثَبَتَ لِلْمَخْلُوقِ وَأَمْكَنَ أَنْ يتَّصف بِهِ الخَالِقُ؛ فَالْخَالِقُ أَوْلَى بِهِ مِنَ الْمَخْلُوقِ.

هذا هو قياس الأولى، ودليل قياس الأولى: {وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى} [النحل: 60].

قال الله عَزَّ وَجلَّ في كتابه: {فَلاَ تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ} [النحل: 74]، أيّ أمثال؟ التمثيل والشمول، هذه الآية نافية.

وقال في موضع آخر: {وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى}، فأثبت له المثل سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، لكن المراد بالمثل الأعلى هاهنا: قياس الأولى، أي: له الكمال المطلق من كل وجه، فله المثل الأعلى المنزه عن كل عيب ونقص في قلوب أوليائه وهو التعظيم والإجلال.

كما يقول ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ.

وهذا لأهل السنة وحدهم، وأما غيرهم فما قدروا الله حق قدره.

نعود مرة أخرى لمعنى قياس الأولى، قال: وَمَضْمُونُهُ أَنَّ كلَّ كَمَالٍ ثَبَتَ لِلْمَخْلُوقِ وَأَمْكَنَ أَنْ يتَّصف بِهِ الخَالِقُ؛ فَالْخَالِقُ أَوْلَى بِهِ مِنَ الْمَخْلُوقِ.

لأن الكمال قد يكون كمالًا في حق المخلوق، لكنه ليس كمالًا في حق الخالق.

يعني: الزواج بالنسبة للمخلوق كمال أم نقص؟ كمال، أما هو في حق الخالق فنقص، الطعام والشراب كمال للمخلوق، ولذلك الذي لا يأكل ولا يشرب يكون مريضا، النوم في حق المخلوق كمال، أما في حق الخالق فنقص.

ولذلك لا ينضبط قياس الأولى إلا بقولنا: كلَّ كَمَالٍ ثَبَتَ لِلْمَخْلُوقِ وَأَمْكَنَ أَنْ يتَّصف بِهِ الْخَالِقُ؛ فَالْخَالِقُ أَوْلَى بِهِ مِنَ الْمَخْلُوقِ، وكلَّ نقصٍ تَنَزَّهَ عَنْهُ الْمَخْلُوقُ؛ فَالْخَالِقُ أَحَقُّ بالتنزُّه عَنْهُ.

أما الكمال الواجب إثباته لله تعالى، فسبيل إثباته الشرع والعقل، أي أن العقل يعضد ذلك ويؤيده، وأما النقص فقد يستدل عليه بالعقل ولو لم يرد الشرع بنفيه عن الله تعالى، كالظلم والموت، والخيانة، والكذب، والعجز والجهل وغير ذلك.

ثم قال رَحِمَهُ اللهُ، هذه قاعدة عقلية: وَكَذَلِكَ قَاعِدَةُ الْكَمَالِ الَّتِي تَقُولُ: إِنَّهُ إِذَا قُدِّر اثْنَانِ: أَحدُهُمَا مَوْصُوفٌ بِصِفَةِ كَمَالٍ، وَالْآخَرُ يَمْتَنِعُ عَلَيْهِ أَنْ يَتَّصِفَ بِتِلْكَ الصِّفَةِ؛ كَانَ الْأَوَّلُ أَكْمَلَ مِنَ الثَّانِي، فَيَجِبُ إِثْبَاتُ مِثْلِ تِلْكَ الصِّفَةِ لِلَّهِ مَا دَامَ وُجُودُهَا كَمَالًا وَعَدَمُهَا نَقْصًا.

ومثال ذلك صفة الكلام فمن كان متكلما بصوت يُسمع أولى بالكمال من الأخرس الأبكم، ولذا عاب الله إله اليهود عبدة العجل بقوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَٰذَا إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ (88) أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ عابهم بذلك، وسفه أحلامهم بما فعلوا ونالوا منه، أفلا يرون أن العجل الذي زعموا أنه إلههم وإله موسى لا

يكلمهم، وإن كلَّموه لم يرد عليهم جوابا، ولا يقدر على ضرّ ولا نفع، فكيف يكون ما كانت هذه صفته إلها؟

وصدق ابن القيم:

وكمال من أعطى الكمال لنفسه * أولى وأقدم وهو أعظم شان**

أيكون قد أعطى الكمال وما له * ذاك الكمال أذاك ذو إمكان**

أيكون إنسان سميعا مبصرا * متكلما بمشيئة وبيان**

وله الحياة وقدرة وإرادة * والعلم بالكلي والأعيان**

والله قد أعطاه ذاك وليس هـ *** ـذا وصفَه فاعجب من البهتان

ثم انتقل بعد ذلك لأصل آخر أو كلام آخر لشيخ الإسلام ابن تيمية, نذكره إن شاء الله في الدرس القادم.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم، وجزاكم الله خيرًا.

الدرس الثامن

إن الحمد لله, نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله تعالى من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله, صلى الله عليه, وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد:

فما زال الكلام موصولًا بالتعليق على شرح العلامة الهراس على عقيدة شيخ الإسلام ابن تيمية العقيدة الواسطية, وكنا قد تناولنا في الدرس الماضي قوله رَحِمَهُ اللهُ عن أهل السنة والجماعة:

بَلْ يُؤْمِنُونَ بِأَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}.

فَلاَ يَنْفُونَ عَنْهُ مَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ، وَلَا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَّوَاضِعِهِ، وَلَا يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَاءِ اللهِ وآيَاتِهِ، وَلَا يُكَيِّفُونَ وَلَا يُمَثِّلُونَ صِفَاتِهِ بِصِفَاتِ خَلْقِهِ, لِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ لَا سَمِيَّ لَهُ, وَلَا كُفُوَ لَهُ, وَلَا نِدَّ لَهُ, وَلَا يُقَاسُ بِخَلْقِهِ سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

ثم قال المصنف بعد ذلك: فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ أَعْلَمُ بِنَفْسِهِ وَبِغَيْرِهِ, وَأَصْدَقُ قِيلاً، وَأَحْسَنُ حَدِيثًا مِنْ خَلْقِهِ, ثُمَّ رُسُلُه صَادِقُونَ مُصَدَّقُون؛ بِخِلاَفِ الَّذِينَ يَقُولُونَ عَلَيْهِ مَا لَا يَعْلَمُونَ.

وَلِهَذَا قَالَ: {سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ - وَسَلامٌ عَلَى الْمُرْسَلِين - وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}, فَسَبَّحَ نَفْسَهُ عَمَّا وَصَفَهُ بِهِ الْمُخَالِفُونَ لِلرُّسُلِ، وَسَلَّمَ عَلَى الْمُرْسَلِينَ؛ لِسَلامَةِ مَا قَالُوهُ مِنَ النَّقْصِ وَالْعَيْبِ.

قال الشيخ الهراس رَحِمَهُ اللهُ: ((فَإِنَّهُ أَعْلَمُ بِنَفْسِهِ وَبِغَيْرِهِ ...)) إِلَى قَوْلِهِ: ((... ثُمَّ رُسُلُهُ صَادِقُونَ مَصْدُوقُونَ))؛ تعليلٌ لصحَّة مَذْهَبِ السَّلَفِ فِي الْإِيمَانِ بِجَمِيعِ الصِّفَاتِ الْوَارِدَةِ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ.

أي: أن شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ يريد أن يعلل لماذا كان منهج السلف هو المنهج الصحيح فيما يتعلق بباب صفات ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وقد أفاض رحمه الله تعالى وطيب ثراه في التدليل على ذلك بما لا يدع مجالا لطالب الحق في مخالفته في صدر فتواه الحموية فراجعه فإنه نفيس.

قال هنا: فَإِنَّهُ إِذَا كَانَ اللَّهُ عَزَّ وَجلَّ أَعْلَمَ بِنَفْسِهِ وَبِغَيْرِهِ، وَكَانَ أَصْدَقَ قَوْلًا وَأَحْسَنَ حَدِيثًا، وَكَانَ رُسُلُهُ عَلَيْهِمُ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ صَادِقِينَ فِي كُلِّ مَا يُخْبِرُونَ بِهِ عَنْهُ، مَعْصُومِينَ مِنَ الْكَذِبِ عَلَيْهِ وَالْإِخْبَارِ عَنْهُ بِمَا يُخَالِفُ الْوَاقِعَ؛ وَجَبَ التَّعْوِيلُ إِذًا فِي بَابِ الصِّفَاتِ نَفْيًا وَإِثْبَاتًا عَلَى مَا قَالَهُ اللَّهُ وَقَالَهُ رَسُولُهُ الَّذِي هُوَ أَعْلَمُ خَلْقِهِ بِهِ، وَأَنْ لَا يُتْرك ذَلِكَ إِلَى قَوْلِ مَن يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَيَقُولُونَ عَلَيْهِ مَا لَا يَعْلَمُونَ.

فبيَّن رَحِمَهُ اللهُ لماذا تُستقى عقيدة الأسماء والصفات من كتاب ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى, لأن الله عَزَّ وَجلَّ الذي بيَّن ذلك في كتابه أصدق قولًا وأحسن حديثًا, وهو أعلم بنفسه من غيره سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

فكلام ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى الذي أنزله على رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كلام صدق لا كذب فيه, ولذلك قال: {وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً} [النساء: 122], أي: لا أحد أصدق من الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

وقد سبق أن كل استفهام في كتاب يراد به النفي فإنه مُشرب بمعنى التحدي, أي: لا تجد أحدًا أصدق قيلاً من ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

وهذا الكلام كذلك صادر عن علم تام, ولذلك قال: فَإِنَّهُ أَعْلَمُ بِنَفْسِهِ وَبِغَيْرِهِ.

فإذا كان هو أعلم بنفسه وأخبر بذلك عن نفسه فوجب قبول ما أخبر به سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

وكذلك كلامه أفصح الكلام وأبينه لا لبس فيه, وهذا المقصود من قول الله تعالى في كتابه: {وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا} [النساء: 87], فحديث ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى حديث فصيح بيِّن في اللفظ والمعنى.

وكذلك هذا الكلام صادر عن سلامة قصد وإرادة, فما أراد الله عَزَّ وَجلَّ أن يضل عباده, وإنما تكلم عن صفاته في كتابه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى ليهدي الخلق لمعرفته, فإذا كان قد أمرهم أن يعبدوه فإنه لا يُعبد سُبْحَانَهُ وَتعَالَى إلا بعد معرفته, ولا تكون معرفته إلا من خلال أسمائه وصفاته.

ولذلك بيَّن في كتابه أنه ما أنزل الكتاب إلا من أجل هداية الخلق: {الم (١) ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ} [البقرة: 1-2], فأنزله هدى للمتقين.

وقال الله عَزَّ وَجلَّ: {يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ} [النساء: 26].

وقال تعالى: {يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا} [النساء: 176], أي: كي لا تضلوا.

فإذا كانت هذه الصفات الواردة في الآيات السابقة هي صفات كتاب ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى وكلامه تَبَارَكَ وَتَعَالَى فإن المنهج الصحيح في الأسماء والصفات لا

يؤخذ إلا من كلام ربنا, ولا يؤخذ إلا من كلام نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ, فإنه مسدد مؤيد معصوم من قِبل الله عَزَّ وَجلَّ.

ولذلك قال بعدها: ثُمَّ رُسُلُهُ صَادِقُونَ مَصْدُوقُونَ: هم صادقون في أنفسهم, فالرسول لا يكذب, الرسول لا يقع في كبيرة من الكبائر, لا يقع في الشرك, لا يقع في الخيانة, لا يقع في كتمان ما أنزله الله عَزَّ وَجلَّ عليه, فهو صادق في نفسه, كل أنبياء الله ورسله كذلك, كلهم صادقون لا يكذبون, لا قبل البعثة ولا بعد البعثة, ولذلك عُرف عن نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه الصادق الأمين صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ثم هم كذلك: مَصْدُوقُونَ: أو (مُصَدَّقونَ), ضبطان لهذه اللفظة التي ذكرها شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ.

هم (مَصْدُوقُونَ) أي: أَخبروا بالصدق, أي: خبرهم صدق, فجاءوا بالخبر الصدق.

أو (مُصَدَّقونَ) أي: من قِبل الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى فالله عَزَّ وَجلَّ يصدق نبيه, {وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ} [الحاقة: 44-46].

ولذلك لا يفتري نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى, ولا يزيد ولا ينقُص في كتاب الله عَزَّ وَجلَّ, ولو كان كاتمًا شيئًا من الوحي لكتم هذه الآيات التي ذكرتها عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا, ولكتم عتاب الله عَزَّ وَجلَّ له في مواضع من كتابه, لكن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صادق مصدق من قِبل الله عَزَّ وَجلَّ.

أو أن المراد بقوله: (مُصَدَّقونَ) أي: من قِبل الخلق, فهذا خبر يراد به الإنشاء, أي: واجب على الخلق أن يصدقوه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فواجب علينا أن نصدق النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في كل ما جاء به عن ربه, فهذا هو الذي يجب أن نعول عليه في هذا الباب نفيًا وإثباتًا, وإلا قلنا على الله ما لا نعلم.

والله عَزَّ وَجلَّ يقول: {قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ} [الأعراف: 33].

فالكلام في هذا الباب دون الرجوع إلى كتاب الله وسنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من القول على الله بغير علم, وكل من خالف أهل السنة والجماعة واقع في القول على الله بغير علم, فمستقل ومستكثر.

ثم قال رَحِمَهُ اللهُ مبينًا لماذا وجب التعويل على كتاب الله وسنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذا الباب, قال:

وَبَيَانُ ذَلِكَ أَنَّ الْكَلاَمَ -يراد به جنس الكلام, كل كلام- إِنَّمَا تَقْصُر دَلاَلَتُهُ عَلَى الْمَعَانِي المُرادة مِنْهُ لِأَحَدِ ثَلاَثَةِ أَسْبَابٍ: أي أن كل كلام يصيبه القصور والنقص بسبب واحد من هذه الأمور الثلاثة.

- إِمَّا لِجَهْلِ الْمُتَكَلِّمِ وَعَدَمِ عِلْمِهِ بِمَا يتكلَّم بِهِ ؛فهو يتكلم عن جهل.
- وَإِمَّا لِعَدَمِ فَصَاحَتِهِ وَقُدْرَتِهِ عَلَى الْبَيَانِ؛ فعنده علم لكنه لا يستطيع أن يُبين عما ما في نفسه .
- وَإِمَّا لَكَذِبِهِ وَغِشِّهِ وَتَدْلِيسِهِ، فكلامه لا يطابق الواقع.

فهذه أسباب القصور في الكلام: إما أن يكون المتكلم جاهلاً, إما أن يكون غير فصيح, إما أن يكون غاشًا ومُدلسًا على الخلق.

فهل تجد صفة من هذه الصفات الثلاثة في كتاب ربنا وفي كلام نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ كلا, لا نجد شيئًا من ذلك البتة حاشا وكلا.

ولذلك قال: وَنُصُوصُ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ بَرِيئَةٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمُورِ الثَّلَاثَةِ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ، فَكَلَامُ اللَّهِ وَكَلَامُ رَسُولِهِ فِي غَايَةِ الْوُضُوحِ وَالْبَيَانِ.

فما قيل في كلام الله يقال في كلام النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ, لأنه لا ينطق عن الهوى, إن هو إلا وحي يوحى.

ولذلك كان ابن مسعود رَضِي اللهُ عَنْهُ يقول: "حدثنا الصادق المصدوق", صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فقال: فَكَلَامُ اللَّهِ وَكَلَامُ رَسُولِهِ فِي غَايَةِ الْوُضُوحِ وَالْبَيَانِ؛ كَمَا أَنَّهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي الصِّدْقِ وَالْمُطَابَقَةِ لِلْوَاقِعِ؛ لِصُدُورِهِ عَنْ كَمَالِ الْعِلْمِ بِالنِّسَبِ الْخَارِجِيَّةِ، وَهُوَ كَذَلِكَ صَادِرٌ عَنْ تَمَامِ النُّصْحِ، وَالشَّفَقَةِ، وَالْحِرْصِ عَلَى هِدَايَةِ الْخَلْقِ وَإِرْشَادِهِمْ.

فالخبر: هو ما يحتمل الصدق والكذب.

متى يحتمل الصدق؟ إن طابق الواقع, فكذلك كلام نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ, وكذلك كلام ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

وكذلك قال: كَمَا أَنَّهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى: يعني: كلام الله وكلام رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

الْأَعْلَى فِي الصِّدْقِ وَالْمُطَابَقَةِ لِلْوَاقِعِ؛ لِصُدُورِهِ عَنْ كَمَالِ الْعِلْمِ بِالنِّسَبِ الْخَارِجِيَّةِ: لأن الله عَزَّ وَجلَّ يعلم ما كان, وما هو كائن, وما سيكون, عالم الغيب والشهادة سُبْحَانَهُ وَتعَالَى, فكلامه صادر عن علم تام.

قال: وَهُوَ كَذَلِكَ صَادِرٌ عَنْ تَمَامِ النُّصْحِ، وَالشَّفَقَةِ: قلت: إن كان هذا الكلام يُقصد به كلام النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فنعم إذًا, وإن كان هذا الكلام يُقصد به كلام ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى فل, فالله عَزَّ وَجلَّ لا يوصَف بالشفقة, لأن الشفقة فيها معنى الخوف, كما نبه على ذلك علمائنا, ومنهم الشيخ البراك حفظه الله.

يقال: فلان مشفق على فلان أي: خائف عليه.

وأما الله عَزَّ وَجلَّ فلا يوصَف بالشفقة, ولا يوصَف كذلك بالحرص على هداية الخلق وإرشادهم, لأن الحرص فيه معنى الخوف كذلك, ولذلك جاء الحرص وصفًا لنبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ, {لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ} [التوبة: 128], فالحرص والشفقة يصدقان وصفًا لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا وصفًا لربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى, فوصف الله عَزَّ وَجلَّ توقيفي, وصفاته كلها صفات كمال.

قال: فَقَدِ اجْتَمَعَتْ لَهُ الْأُمُورُ الثَّلَاثَةُ –يعني: كلام ربنا– الَّتِي هِيَ عَنَاصِرُ الدَّلَالَةِ وَالْإِفْهَامِ عَلَى أَكْمَلِ وَجْهٍ.

فَالرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَعْلَمُ الْخَلْقِ بِمَا يُرِيدُ إِخْبَارَهُمْ بِهِ، وَهُوَ أَقْدَرُهُمْ عَلَى بَيَانِ ذَلِكَ وَالْإِفْصَاحِ عَنْهُ، وَهُوَ أَحْرَصُهُمْ عَلَى هِدَايَةِ الْخَلْقِ، وأشدُّهم إِرَادَةً لِذَلِكَ، فَلاَ يُمْكِنُ أَنْ يَقَعَ فِي كَلاَمِهِ شَيْءٌ مِنَ النَّقْصِ وَالْقُصُورِ؛ بِخِلاَفِ كَلاَمِ غَيْرِهِ؛ فَإِنَّهُ لَا يَخْلُو مِنْ نَقْصٍ فِي أَحَدِ هَذِهِ الْأُمُورِ أَوْ جَمِيعِهَا، فلاَ

يَصِحُّ أَنْ يُعْدَلَ بِكَلاَمِهِ كَلاَمُ غَيْرِهِ؛ فَضْلاً عَنْ أَنْ يُعْدَلَ عَنْهُ إِلَى كَلاَمِ غَيْرِهِ؛ فَإِنَّ هَذَا هُوَ غَايَةُ الضَّلاَلِ، وَمُنْتَهَى الْخِذْلاَنِ.

ثم قال رَحِمَهُ اللهُ بعد ذلك: بِخِلاَفِ الَّذِينَ يَقُولُونَ عَلَيْهِ.

من الذين يقولون على الله ما لا يعلمون؟ كل من خالف أهل السنة والجماعة, سواء كان هؤلاء ممن خالفوا في أصول التوحيد, ممن خالفوا في الربوبية والألوهية والأسماء والصفات, وكذلك كل من خالف أهل السنة والجماعة الموحدين في هذا الباب خاصة أي: في باب الأسماء والصفات, كالجهمية والأشعرية والمعتزلة والماتريدية والفلاسفة, فكل هؤلاء يقولون على الله ما لا يعلمون، ولسان حالهم نفي ما وصف الله به كلامه، فلم يكن القرآن كتاب هدى للناس، ولا كذلك كلام رسوله صلى الله عليه وسلم.

قال: ((وَلِهَذَا قَالَ ... إِلَخْ)) ؛ تعليلٌ لِمَا تَقَدَّمَ –يعني: ذكر هذه الآية– مِنْ كَوْنِ كَلاَمِ اللَّهِ وَكَلاَمِ رَسُولِهِ أَكْمَلَ صِدْقًا، وأتمُّ بَيَانًا وَنُصْحًا، وَأَبْعَدَ عَنِ الْعُيُوبِ وَالْآفَاتِ مِنْ كَلاَمِ كُلِّ أَحَدٍ.

ماذا قال ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى؟ قال: {سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٨٠) وَسَلاَمٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ (١٨١) وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}, هذه الآية ختم الله عَزَّ وَجلَّ بها سورة الصافات.

قال الشيخ رَحِمَهُ اللهُ: وَ((سُبْحَانَ)) ؛ اسْمُ مَصْدَرٍ مِنَ التَّسْبِيحِ.

فليست هي المصدر من الفعل (سَبَّحَ), فالمصدر هو تسبيحًا, سَبَّحَ تَسْبيحًا, وإنما هي اسم مصدر.

واسم المصدر: هو ما دل على معنى المصدر دون حروفه, أي: لا يشتمل على جميع حروف المصدر, وهو يدل على نفس المعنى, لكن لا يكون كحروف المصدر, وهي هاهنا مفعول مطلق, سَبَّحَ سبحان.

قال: اسْمُ مَصْدَرٍ مِنَ التَّسْبِيحِ، الَّذِي هُوَ التَّنْزِيهُ وَالْإِبْعَادُ عَنِ السُّوءِ، وَأَصْلُهُ مِنَ السَّبْحِ، الَّذِي هُوَ السُّرْعَةُ وَالِانْطِلَاقُ: ويقال: (سَبَحَ) أي: إذا بعُد في الماء.

قال: وَأَصْلُهُ مِنَ السَّبْحِ، الَّذِي هُوَ السُّرْعَةُ وَالِانْطِلَاقُ وَالْإِبْعَادُ، وَمِنْهُ فرسٌ سَبُوحٌ؛ إِذَا كَانَتْ شَدِيدَةَ الْعَدْوِ.

فأهل السنة والجماعة ينزهون الله عَزَّ وَجلَّ عن كل عيب ونقص, فهذا هو معنى التسبيح, فيما يتعلق بذاته أو صفاته أو ربوبيته أو ألوهيته سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

قال: وَإِضَافَةُ الرَّبِّ إِلَى الْعِزَّةِ مِنْ إِضَافَةِ الْمَوْصُوفِ إِلَى صِفَتِهِ: أي: أن العزة هاهنا ليست مخلوقة, وإنما هي صفة من صفات ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى, فهذا من إضافة الموصوف إلى صفته, فـ(رَبُّ) هاهنا بمعنى: صاحب, {سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ}, أي: صاحب العزة.

والعزة تأتي في كلام العرب على معان ثلاثة, كلها ثابتة لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى, فتأتي بمعنى القوة, وبمعنى الامتناع, وبمعنى الغلبة, وكل ذلك ثابت لربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى, وتضمنه اسم الله العزيز.

ولذلك يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ في نونيته:

وهو العزيز فلن يُرام جنابه	أنَّى يُرام جناب ذي السلطانِ
وهو العزيز القاهر الغلاب لم	يغلبه شيء هذه صفتانِ
وهو العزيز بقوة هي وصفه	فالعز حينئذٍ ثلاث معانِ
وهي التي كمُلت له سبحانه	من كل وجه عادم النقصانِ

سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

قال: وَإِضَافَةُ الرَّبِّ إِلَى الْعِزَّةِ مِنْ إِضَافَةِ الْمَوْصُوفِ إِلَى صِفَتِهِ, وَهُوَ بَدَلٌ مِنَ الرَّبِّ قَبْلَهُ: {سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ}, فـ(رَبِّ الْعِزَّةِ) بدل من (رَبِّكَ).

فَهُوَ سُبْحَانَهُ ينزِّه نَفْسَهُ عَمَّا يَنْسُبُهُ إِلَيْهِ الْمُشْرِكُونَ مِنَ اتِّخَاذِ الصَّاحبة وَالْوَلَدِ, وَعَنْ كُلِّ نَقْصٍ وَعَيْبٍ.

ولذلك حسُن أن تأتي هذه الآية في ختام سورة الصافات.

يقول الشيخ عبد العزيز السلمان رَحِمَهُ اللهُ في شرحه للعقيدة الواسطية, يقول: في هذه الآية الكريمة أدب رباني وختام إلهي لتلك السورة التي نفت عن الله الصاحبة والزوجة والشريك والولد والقرين, حتى يتأدب المسلمون بهذا, ولا يُخِل به في ختام جلائل أعمالهم, فنزه نفسه عما وصفه به المخالفون للرسل, مما لا يليق بجلاله وعظمته, ثم سلَّم على المرسلين لسلامة ما قالوه من النقص والعيب, وهذا فيه إشارة إلى أنه كما يجب تنزيه الله عَزَّ وَجلَّ وإبعاده عن كل شائبة عيب ونقص فيجب اعتقاد سلامة الرسل في أقوالهم وأفعالهم عن كل عيب كذلك, فلا يكذبون على الله ولا يشركون ولا يغشون أممهم ولا يقولون على الله إلا الحق, عَليهم الصَّلاَةُ والسَّلاَم.

ولذلك اتفق أهل السنة والجماعة على أن الأنبياء والرسل معصومون في البلاغ عن ربهم تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

قال: ثُمَّ يسلِّم عَلَى رُسُلِهِ عَلَيْهِمُ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ بَعْدَ ذَلِكَ؛ لِلإِشَارَةِ إِلَى أَنَّهُ كَمَا يَجِبُ تَنْزِيهُ اللَّهِ عز وجل وَإِبْعَادُهُ عَنْ كُلِّ شَائِبَةِ نَقْصٍ وَعَيْبٍ، فَيَجِبُ اعْتِقَادُ

سَلاَمَةِ الرُّسُلِ فِي أَقْوَالِهِمْ وَأَفْعَالِهِمْ مِنْ كُلِّ عَيْبٍ كَذَلِكَ، فَلاَ يَكْذِبُونَ عَلَى اللَّهِ، وَلَا يُشْرِكُونَ بِهِ، وَلَا يغشُّون أُمَمَهُمْ، وَلَا يَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ.

فالله عَزَّ وَجلَّ يُسلِّم على رسله تنبيهًا أو إشارة إلى سلامة منهجهم وسلامة طريقهم في اعتقادهم, وكذلك يُسلم عليهم السلام الذي هو التحية, لماذا؟ لأنهم أخبروا الخلق وبلغوهم بما يجب في حق ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى, ولأنهم صادقون فيما وصفوا به الله عَزَّ وَجلَّ، وقد اتهم أهل التخييل من الفلاسفة والمتكلمين الرسل بالكذب فيما بلغوه والغش لمن أرسلوا إليهم، كما اتهمهم أهل التفويض والتجهيل بالجهل والعي، مع أن الله تعالى اصطفهم وعصمهم من كل ذلك.

قال: قَوْلُهُ: ((والحمدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ))؛ ثناءٌ مِنْهُ سُبْحَانَهُ على نفسه بماله مِنْ نُعُوتِ الْكَمَالِ، وَأَوْصَافِ الْجَلاَلِ، وَحَمِيدِ الْفِعَالِ.

وهذا معنى الحمد, وهو: ذكر صفات المحمود على جهة المحبة والتعظيم, فإن خلت من المحبة فهذا مدح، وإن تكرر الحمد فهو ثناء وتمجيد كما دل على ذلك حديث قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين.

قال: وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلاَمُ عَلَى مَعْنَى الْحَمْدِ، فَأَغْنَى عَنْ إِعَادَتِهِ.

ومما أعجبني وأنا أقرأ في شروحات هذه العقيدة المباركة هذا الاستنباط الذي استنبطه الشيخ سلمان رَحِمَهُ اللهُ من هذه الآية, استنبط منها خمسا وعشرين فائدة, وكلها فوائد ظاهرة, وهذا فتح ما بعده فتح لمن تدبر القرآن.

فقال رحمه الله في هذه الآية: مما يؤخذ من الآية:

- تنزيه الله وتقديسه وتبرئته عما يقول الظالمون. لأن الله قال: {سُبْحَانَ}.
- قال: وصحة ما جاء به المرسلون وأنه الحق لا مرية فيه.

- وكذلك: إثبات صفة الربوبية. من أين؟ {سُبْحَانَ رَبِّكَ}, والربوبية هاهنا ربوبية خاصة, فالخطاب للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ, كما قال في موضع آخر: {رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ} [الأعراف: 122].
- قال: وفيه إثبات صفة العزة, فالعزة صفة لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى, فهو صاحبها, إذًا: هي ليست مخلوقة.
- قال: وفيه إثبات صفة الكلام لله. لأن الله عَزَّ وَجلَّ هو الذي تكلم بهذا القرآن.
- قال: وفيه الرد على منكري الصفات. لأن الله عَزَّ وَجلَّ قال: {سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ}, أين مفعول (يَصِفُونَ)؟ غير موجود, وهذا يفيد الإطلاق, تنزيه الله عَزَّ وَجلَّ عن كل عيب ونقص يصفه به المبطلون, سواء تعلق ذلك بذاته أو صفاته أو ربوبيته أو ألوهيته, فالآية فيها رد على المشركين كمن دونهم ممن افتروا على الله كذبًا.

ولذلك ما قال: (سبحان ربك رب العزة عما يصفونه بكذا), فهو حذف المتعلق, المفعول معلوم وهو الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى عما يصفونه, عما يصفونه بماذا؟ هذا ما حذفه ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

- قال: وفيه الرد على منكري الصفات, وفيه إرشاد العباد.
- فيها إرشاد العباد إلى حمده على إرساله رسله إليهم مبشرين ومنذرين, فالآية تبين وظيفة الرسل, وأن الله عَزَّ وَجلَّ أرسل رسله مبشرين ومنذرين ومعلمين الخلق.

- قال: وفيها تعليم العباد كيف يصنعون عند إنعامه عليهم وما يثنون عليه سبحانه, وفي الآية على أن القرآن كلام الله لا كلام محمد, ولا جبريل, ولا غيرهما.
- وفيها: رد على اليهود القائلين: عزير ابن الله, لأن الآية جاءت في ختام سورة جاء فيها ذِكر هذه النقائص التي وصف بها المشركون ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى.
- وفيها: رد على النصارى القائلين: عيسى ابن الله, تعالى الله عن قولهم علوًا كبيرًا.
- وفيها: رد على المشركين القائلين: إن الملائكة بنات الله.
- وفيها: رد على من نسب إلى الله الصاحبة والولد, تعالى الله عما يقول الظالمون علوًا كبيرًا.
- وفيها: إثبات صفة الحمد لله جَلَّ وَعلا, وفيها: إثبات صفة الخلق لله.

من أين جاء بصفة الخلق؟ من اسمه (الرب), {سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ}, فالرب هو الخالق السيد المدبر سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

- وفيها: إثبات الألوهية.
- وفيها: الحث على الاقتداء بالرسل.
- وفيها: دليل على أن الله هو الغني الحميد المربي لجميع الخلق تربية عامة ولأوليائه تربية خاصة, يربيهم تربية القلوب بالعقائد النافعة والأعمال الصالحة.
- وفيها: دليل على صِدق الرسل.

- وفيها: وجوب اعتقاد سلامة الرسل في أقوالهم وأفعالهم.
- وفيها: دليل أن الرسل لا يغشون, وأن الرسل ناصحون.
- وفيها: وجوب احترام الرسل, لأن الله عَزَّ وَجلَّ زكاهم وزكى سبيلهم.
- وفيها: وجوب اعتقاد أنهم أكمل الخلق علمًا وعملاً وأكملهم أخلاقًا.
- وفيها: وجوب محبتهم وتعظيمهم والاهتداء بهديهم.

ولذلك قال الله عَزَّ وَجلَّ بعد أن ذكر ثمانية عشر رسولًا في سورة الأنعام, قال: {أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ} [الأنعام: 90].

ثم قال رَحِمَهُ اللهُ بعد ذلك: وَهُوَ سُبْحَانَهُ قَدْ جَمَعَ فِيمَا وَصَفَ وَسَمَّى بِهِ نَفْسَهُ بينَ النَّفْيِ وَالإِثْبَاتِ.

فالكلام في باب الأسماء والصفات أو الصفات خاصة مبناه على النفي والإثبات، بل الدين كله مبناه على ذلك: التسبيح والتحميد.

قال الشيخ الهراس رَحِمَهُ اللهُ: لَمَّا بيَّن فِيمَا سَبَقَ أَنَّ أَهْلَ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ يَصِفُونَ اللَّهَ عَزَّ وَجلَّ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ، وَبِمَا وَصَفَهُ بِهِ رَسُولُهُ، وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ كُلُّهُ إِثْبَاتًا وَلَا كُلُّهُ نَفْيًا؛ نبَّه عَلَى ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: ((وَهُوَ سُبْحَانَهُ قَدْ جَمَعَ ... إِلَخْ)): أي: جمع بين النفي والإثبات.

قال: وَاعْلَمْ أَنَّ كُلاًّ مِنَ النَّفْيِ وَالْإِثْبَاتِ فِي الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ مجملٌ ومفصَّلٌ:
يعني: هكذا جاء القرآن وجاءت السنة, جاء بالنفي المفصل والنفي المجمل, وبالإثبات المفصل والإثبات المجمل.

قال: أَمَّا الْإِجْمَالُ فِي النَّفْيِ؛ فَهُوَ أَنْ يُنفَى عَنِ اللَّهِ عز وجل كلُّ مَا يضادُّ كَمَالَهُ مِنْ أَنْوَاعِ الْعُيُوبِ وَالنَّقَائِصِ؛ مِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ}.

وَكَقَوْلِهِ: {هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا}: وهذا استفهام, يراد به النفي, فلا سميَّ له سُبْحَانَهُ وَتعَالَى ولا ندَّ له.

وَكَقَوْلِهِ: {سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ}: فهذا كله نفي مجمل, يراد به نفي جميع أنواع النقائص والعيوب عن ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى, لإثبات سائر الكمالات له من كل وجه.

قال: وَأَمَّا التَّفْصِيلُ فِي النَّفْيِ: وقد ذكرنا قبل ذلك لماذا قد يفصل في النفي, يفصل في النفي لرد ما أثبته المشركون فمن دونهم من النقائص لربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى, فرد الله عَزَّ وَجلَّ عليهم, أو قد يتوهم من نقص ينسب لربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى, فكذلك يأتي التفصيل في النفي.

قال: وَأَمَّا التَّفْصِيلُ فِي النَّفْيِ؛ فَهُوَ أَنْ يُنَزَّهَ اللَّهُ عَنْ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْ هَذِهِ الْعُيُوبِ وَالنَّقَائِصِ بِخُصُوصِهِ، فينَزَّهُ عَنِ الْوَالِدِ، وَالْوَلَدِ، وَالشَّرِيكِ، وَالصَّاحِبَةِ، وَالنِّدِّ، وَالضِّدِّ، وَالْجَهْلِ، وَالْعَجْزِ، وَالضَّلَالِ، وَالنِّسْيَانِ، والسِّنة، وَالنَّوْمِ، وَالْعَبَثِ، وَالْبَاطِلِ ... إِلَخْ.

وكل ذلك وارد في كتاب الله وسنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ثم ذكر لنا قاعدة, قال: وَلَكِنْ لَيْسَ فِي كِتَابِ اللَّهِ وَلَا فِي السُّنَّةِ نفيٌ محضٌ.

ما معنى نفي محض؟ أي: لمجرد النفي, ما جيء به إلا لمجرد النفي, لماذا هذا غير موجود في كتاب الله وسنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟

قال: فَإِنَّ النَّفْيَ الصِّرْفَ –أي: المحض– لَا مَدْحَ فِيهِ: يعني: إذا نفيت الجهل عن إنسان دون أن تُثبت العلم هذا لا مدح فيه, وإنما يكون المدح في إثبات ضد الصفة المنفية الذي هو العلم.

ولذلك نقول: إن كل نفي ورد في كتاب الله وفي سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يراد به إثبات كمال الضد, لا يراد به إثبات الضد فقط, وإنما إثبات كمال الضد.

فإذا تكلم العلماء مثلاً عن قول الله تعالى: {وَمَا رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ} [فصلت: 46], {وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا } [الكهف: 49].

لا يقولون: إن النفي هاهنا يراد به إثبات العدل, وإنما يراد به إثبات كمال العدل لربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

وهذا يحملنا على بيان قواعد أهل السنة والجماعة في النفي, فهناك قواعد وضعها أهل السنة والجماعة استقراؤها من كتاب الله وسنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ, وكلام الأئمة فيما يتعلق بنفي النقائص عن الله عَزَّ وَجلَّ.

ومن هذه القواعد:

- **أن النفي توقيفي كالإثبات.**

ما معنى توقيفي؟ أي: يفتقر إل دليل.

فكما أنه لا يجوز لك أن تصف الله بصفة ليس عليها دليل من كتاب الله أو سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فكذلك لا يجوز لك أن تنفي صفة عن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى غابت عنا, لأن هذا سيكون من القول على الله بغير علم, فالنفي كالإثبات يحتاج إلى دليل.

قال ابن قدامة رَحِمَهُ اللهُ في ذم التأويل, قال: صفات الله تعالى لا تُثبت ولا تُنفى إلا بالتوقيف.

- **والقاعدة الثانية: أن الأصل في النفي أنه مجمل, والإثبات مفصل.**

هذا الذي ورد في كتاب ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى أن الأصل في النفي أنه مجمل, فهذا فيه غاية الأدب مع الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى, فالإجمال في النفي فيه غاية الأدب مع الله تعالى, في تنزيهه عن النقائص والعيوب, بخلاف التفصيل, فهذا فيه دليل على سوء الأدب مع جنابه العظيم سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

ووفق الله عَزَّ وَجلَّ أهل السنة لذلك, وخُذل أهل البدعة والضلال, فإنهم يفصلون في النفي, فيقولون في صفات ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى: إن الله عَزَّ وَجلَّ ليس بجسم ولا عَرَضٍ, وليس له طول ولا عَرْضٌ ولا عمق ولا ارتفاع, وليس له كذا وليس له كذا وليس له كذا, تفصيل طويل في نفي صفات ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

وهذا سوء أدب مع الله عَزَّ وَجلَّ, هذا لم يرد لا في كتاب الله ولا في سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ, وإنما هذا مأخوذ عن فلاسفة اليونان, أخذه الفلاسفة المشاؤون كابن سينا والفارابي والكندي, وأخذه كذلك المعتزلة عنهم, ثم أخذه الأشاعرة عن المعتزلة وهكذا, ظلمات بعضها فوق بعض, ليس عليها أثارة من نور, لا من كتاب الله ولا من سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

والذي جاء به الكتاب هو النفي المجمل, كما رأينا في هذه الآيات: {وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ}, {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}, {هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا}, {سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ }.

وإن فُصِّل في النفي فلهذه الغايات التي بيناها, وأما الإثبات فمفصل, اقرأ آخر سورة الحج, تجد فيها تفصيلاً طويلاً جدًا في الأسماء والصفات, وأنا نظرت في كتاب الله فما وجدت موضعًا في كتاب الله فيه هذا التفصيل –في الربع الأخير

من سورة الحج- في الأسماء والصفات لربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كهذا الموضع في آخر سورة الحج.

وكذلك اقرأ آخر الحشر, فكذلك فيها تفصيل في أسماء ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى, فهذه طريقة القرآن وطريقة سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ولذلك قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا﴾, ثابتًا أم منفيًا؟ ثابتًا, كل أسماء ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى أسماء ثبوتية.

يعني: هل يسمى بالعليم أم ليس بالجاهل؟ العليم, أسماء ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كلها أسماء ثبوتية, تتضمن صفات ثبوتية, وهذا دليل على كماله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى, فإن التفصيل في الإثبات إنما هو شأن الحميد جَلَّ وَعلا.

- **القاعدة الثالثة: كل نقص تنزه عنه المخلوق فالخالق أولى بالتنزه عنه.**

فإذا كان المخلوق يتنزه عن الخيانة وعن الكذب وعن غير ذلك من الصفات فالله عَزَّ وَجلَّ أولى بالتنزه عن هذه الصفات, لأنه لا كمال فيها من أي وجه, وإنما هي نقص محض.

- **القاعدة الرابعة وهي التي أشار إليها الشيخ هاهنا: أن النفي بلا تعطيل محض, بل يستلزم إثبات كمال الضد.**

ولذلك لم تكن صفات النفي أصلاً في معرفة الباري, يعني: ما جيء بصفات النفي لكي نعرف الباري بها, وإنما جيء بها لكي نعرف كمال أضدادها, فهكذا يُعرف ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

- **القاعدة الخامسة: أن نفي العلم بالكيفية لا ينافي الإيمان بأصل الصفة.**

هل نعلم كيفية ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ؟ كيفية صفاته؟ لا نعلم كيفية الصفات ولا كيفية الذات.

لكن هل هذا يستلزم نفي معاني الصفات؟ فإذا قيل ما معنى {اسْتَوَى}؟ نقول: الله أعلم بمراده.

إذا قيل ما معنى {يَعْلَمُ}؟ إذا قيل ما معنى (اليد)؟ إذا قيل ما معنى (يَنْزِل)؟ ما معنى (يأتي)؟ ما معنى (يجيء)؟ ما معنى (يفرح)؟ ما معنى (يغضب)؟

معاني الصفات معلومة, أما الكيفية فمجهولة منفية, فليس نفي الكيفية مستلزمًا لنفي أصل الصفة.

ولذلك كان سلفنا الصالح يقولون: أمرُّوها كم جاءت بلا كيف.

يعني: أمرُّوها كما جاءت على حسب ما وردت به معاني العرب, بلا كيف أي: بلا تكييف.

فنفى هؤلاء معرفتنا بالكيفية, أو حذرونا من السؤال عن الكيفية, مع أمرهم لنا بأن نثبتها على حسب اللسان العربي.

ولذلك لما دخل الرجل على الإمام مالك وقال: كيف استوى؟ قال: استواء غير مجهول.

غير مجهول يعني: معلوم, معلوم ماذا؟ معلوم المعنى, والكيف مجهول, فنفي معرفتنا بالكيف لا يستلزم نفي معنى الصفة.

فهذه قواعد معرفتها ضرورية في فقه النفي المتعلق بهذا الباب العظيم، باب الأسماء والصفات.

قال الشيخ الهراس هاهنا: وَلَكِنْ لَيْسَ فِي كِتَابِ اللَّهِ وَلَا فِي السُّنَّةِ نفيٌ محضٌ؛ فَإِنَّ النَّفْيَ الصِّرْفَ لَا مَدْحَ فِيهِ، وَإِنَّمَا يُراد بِكُلِّ نفيٍ فِيهِمَا إِثْبَاتُ مَا يُضَادُّهُ مِن الْكَمَالِ, فَنَفْيُ الشَّرِيكِ وَالنِّدِّ؛ لِإِثْبَاتِ كَمَالِ عَظَمَتِهِ وتفرُّده بِصِفَاتِ الْكَمَالِ، وَنَفْيُ الْعَجْزِ؛ لِإِثْبَاتِ كَمَالِ قُدْرَتِهِ، وَنَفْيُ الْجَهْلِ؛ لِإِثْبَاتِ سَعَةِ عِلْمِهِ وَإِحَاطَتِهِ، وَنَفْيُ الظُّلْمِ؛ لِإِثْبَاتِ كَمَالِ عَدْلِهِ، وَنَفْيُ الْعَبَثِ؛ لِإِثْبَاتِ كَمَالِ حِكْمَتِهِ، وَنَفْيُ السِّنة وَالنَّوْمِ وَالْمَوْتِ؛ لِإِثْبَاتِ كَمَالِ حَيَاتِهِ وقيُّوميَّته.. وَهَكَذَا.

وَلِهَذَا كَانَ النَّفي فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّة إِنَّمَا يَأْتِي مُجْمَلاً فِي أَكْثَرِ أَحْوَالِهِ؛ بِخِلَافِ الْإِثْبَاتِ؛ فَإِنَّ التَّفْصِيلَ فِيهِ أَكْثَرُ مِنَ الْإِجْمَالِ؛ لِأَنَّهُ مَقْصُودٌ لِذَاتِهِ.

إذًا: الإثبات مقصود لذاته, والنفي مقصود لغيره.

الإثبات مقصود لذاته, وهو إثبات الكمال لربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى, والنفي مقصود لإثبات كمال الضد، وما كان مقصود لذاته هو الأصل ، ولذا جاء مفصلا، بخلاف ما كان مقصودا لغيره.

قال: وَأَمَّا الْإِجْمَالُ فِي الْإِثْبَاتِ؛ فَمِثْلُ إِثْبَاتِ الْكَمَالِ الْمُطْلَقِ، وَالْحَمْدِ الْمُطْلَقِ، وَالْمَجْدِ الْمُطْلَقِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ؛ كَمَا يُشِيرُ إِلَيْهِ مِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى: {الْحَمْدُ للَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}.

فله الحمد من كل وجه, ولذلك العلماء لما تكلموا في (أل) التي في (الحمد) قالوا: إنها للاستغراق, فكل أفراد الحمد تدخل (أل) هذه.

فله الحمد في أمور خمسة: له الحمد في أسمائه وصفاته, وفي ربوبيته, وفي ألوهيته, وفي أمره الشرعي, وفي أمره الكوني القدري, له الحمد في كل هذه الأمور سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

وقال: {وَلِلّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَىَ}.

فهذا كذلك في إثبات الكمالات لربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى إجمالا.

قال: وَأَمَّا التَّفْصِيلُ فِي الْإِثْبَاتِ؛ فَهُوَ متناوِلٌ لِكُلِّ اسْمٍ أَوْ صِفَةٍ وَرَدَتْ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَهُوَ مِنَ الْكَثْرَةِ بِحَيْثُ لَا يُمْكِنُ لِأَحَدٍ أَنْ يُحْصِيَهُ؛ فَإِنَّ مِنْهَا مَا اخْتَصَّ اللَّهُ عز وجل بِعِلْمِهِ؛ كَمَا قَالَ عَليهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمَ: ((سُبْحَانَكَ لَا نُحْصِي ثَنَاءً عليكَ أَنْتَ كَمَا أثنيتَ عَلَى نَفْسِكَ)).

وَفِي حَدِيثِ دُعَاءِ الْمَكْرُوبِ: ((أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ؛ سميتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ أَوْ علَّمته أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ)).

هذا من أدلة أهل السنة والجماعة على أن أسماء الله لا يعلم عددها إلا هو, وأننا لا نستطيع أن نحصرها, وليست فقط هي العدد الوارد في كلام النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إِنَّ لِلهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا، مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ".

وقد قال **الخطابي** وغيره: إن معنى قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو كقول القائل: إن لي تسعين درهماً أعددتها للصدقة.

فهذا لا يعني: أنه ليس معه إلا تسعون درهمًا, فكذلك إن لله تسعة وتسعين اسمًا في كتاب الله وفي سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ, من أحصى هذه الأسماء دخل الجنة, فليس فيها قصر الأسماء على هذا العدد.

ودليلهم: هذا الذي ذكره المصنف رَحِمَهُ اللهُ من حديث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فالله عَزَّ وَجلَّ أسماؤه جاءت مفصلة, وكذلك صفاته, وصفاته جاءت مطلقة ومقيدة.

فالمطلقة: كالعليم, أنه يعلم وأنه يسمع سُبْحَانَهُ وَتعَالَى, وأنه يرى وأنه يخلق, فهذه صفات مطلقة.

وأما الصفات المقيدة: فهي التي لا يكون الكمال إلا بتقييدها, كالمكر والاستهزاء والخداع, قال: {يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ} [النساء: 142], فالله يخادع من خدع عباده المؤمنين.

ولا تكون الصفة المقيدة كمالا إلا إذا كانت فيما ما يقابلها, يعني: لو أن العبد مكر بمن لم يمكر به، فهذه صفة نقص, وهو ظالم في ذلك, فهذه الصفات صفات مقيدة, يعني: لا يُشتق منها أسماء لله ولا تُطلق على الله بإطلاق, وإنما لابد من تقييدها.

وهناك صفات نقص لا تُطلق على الله عَزَّ وَجلَّ بحال من الأحوال, قلنا: لأنها لا مدح فيها البتة, كالعجز والخيانة والكذب والعمى, وغير ذلك من الصفات.

كيف نعرف صفات ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى؟ لو أن إنسانًا أراد أن يحصي صفات الله عَزَّ وَجلَّ في الكتاب والسنة ماذا يصنع؟

عليه:

- أولًا أن يبحث عن الصفات بلفظها التي نص الله عَزَّ وَجلَّ عليها في كتابه.

{سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ}, فالعزة صفة.

{وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ} [الزخرف: 32], والله عَزَّ وَجلَّ ذكر أن من صفاته الرحمة، وهكذا.

فأولًا: يجمع هذه الصفات التي وردت صراحة في كتاب الله وفي سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

- والطريق الثاني: أن يجمع أسماء الله عَزَّ وَجلَّ, فإنه ما من اسم إلا وتضمن صفة, فإذا سمى نفسه العليم, فالعليم تضمن صفة العلم, كذلك السميع: السمع, البصير: البصر, المقتدر: القدرة, وهكذا.
- والطريق الثالث: وهو اشتقاقها من الأفعال.

أن نشتق الصفة من الفعل, لأن الفعل يتضمن في لغة العرب زمنًا وحدثًا, فالحدث هو الصفة.

فعندما يقول الله عَزَّ وَجلَّ: {وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا} [النساء: 164], {وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ} [مريم: 52], فالمناداة صفة لله عَزَّ وَجلَّ, والكلام صفة لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى, أخذناها من ماذا؟ من أفعال الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

لكن هل الأسماء مشتقة من الصفات؟ لو قلنا: إن الأسماء مشتقة من الصفات لجاز لنا أن نسمي الله عَزَّ وَجلَّ بما لم يسم به نفسه, فنشتق له اسمًا من كل صفة وردت في كتابه, وكذلك من كل فعل.

إذًا: ما معنى قول أهل السنة والجماعة: إن الأسماء مشتقة؟ لأن بعض الناس غلط في فهم قول أهل السنة والجماعة: إن الأسماء مشتقة, فظنوا أنهم يقصدون

بذلك أنها مشتقة من الصفات، أي يجوز لنا اشتقاق أسماء لم تأتي بلفظها في الشرع.

لا, مشتقة يعني: ليس جامدة, وإنما هي أسماء تضمنت صفات, أسماء دلت على صفات, كما ذكرنا الدلالات الثلاثة في الدرس الماضي: دلالة المطابقة, ودلالة التضمن, ودلالة اللزوم.

فأسماء الله مشتقة أي: تضمنت صفات, وليس جامدة.

ولذلك رد أهل السنة والجماعة على ابن حزم رَحِمَهُ اللهُ لما جعل الدهر من أسماء الله, يقول الله عَزَّ وَجلَّ في الحديث الصحيح: "أَنَا الدَّهْرُ أُقَلِّبُ لَيْلَهُ وَنَهَارَهُ", فقال: إن الدهر من أسماء الله.

فهل الدهر من أسماء الله؟ ليس من الله, لماذا؟ لأن الدهر اسم جامد لا يتضمن صفة, فليس من أسمائه.

ثم قال المصنف رَحِمَهُ اللهُ بعد ذلك: فَلاَ عُدُولَ لأَهْلِ السُّنَّةُ وَالْجَمَاعَةِ عَمَّا جَاءَ بِهِ الْمُرْسَلُونَ؛ فَإِنَّهُ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ، صِرَاطُ الَّذِينَ أَنْعَمَ الله عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ والصَالِحِينَ.

إذًا: بعد أن بيَّن شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ سبيل أهل السنة والجماعة وأن سبيلهم مبني على كتاب الله وعلى سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ, قال: فَلاَ عُدُولَ.

وهذا خبر يراد به الإنشاء, يعني: لا تعدلوا عن هذا المنهاج المستقيم, منهاج أهل السنة والجماعة.

فَلاَ عُدُولَ لأَهْلِ السُّنَّةُ وَالْجَمَاعَةِ عَمَّا جَاءَ بِهِ الْمُرْسَلُونَ: لا تعدلوا عن سبيل أهل السنة والجماعة, ولا يجوز لأهل السنة والجماعة أن يعدلوا عن سبيل الأنبياء والمرسلين, لماذا؟ قال: فَإِنَّهُ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ، صِرَاطُ الَّذِينَ أَنْعَمَ الله عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ والصَالِحِينَ.

قال الشيخ: قَوْلُهُ: ((فَلاَ عُدولَ ... إلخ)) ؛ هَذَا مترتِّبٌ عَلَى مَا تَقَدَّمَ مِنْ بَيَانِ أَنَّ مَا جَاءَ بِهِ الرُّسُلُ عَلَيْهِمُ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ هُوَ الْحَقُّ الَّذِي يَجِبُ اتِّباعه، وَلَا يصحُّ الْعُدُولُ عَنْهُ، وَقَدْ عُلِّلَ بِأَنَّهُ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ، يَعْنِي الطَّرِيقَ السَّوِيَّ الْقَاصِدَ الَّذِي لَا عِوَجَ فِيهِ وَلَا انْحِرَافَ.

ولذلك في حديث عبد الله بن مسعود: "خطَّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خطًّا مستقيمًا", هذا هو الصراط.

ولذلك لما خطَّه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قرأ قول الله عَزَّ وَجلَّ: "{وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ} [الأنعام: 153], وخطَّ عن يمينه وشماله خطوطًا وسماها سبل الشيطان".

قال: وَالصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ لَا يَكُونُ إِلَّا وَاحِدًا.

فالصراط والحق واحد, ولذلك لا يأتي في كتاب الله إلا مفردًا, وأما سبل الشياطين فإنها تأتي جمعًا, لماذا؟ لأنها مختلفة, كثيرة, متنازعة.

قال الله: {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ}, فجمع السبل, وأفرد الصراط لأن الصراط واحد, وهو طريق الأنبياء والمرسلين, هو طريق هؤلاء الذين ذكرهم في الآية, طريق النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

وهذا فيه إيناس لسالك هذا الطريق, لأنه يضع قدميه مكان أقدام هؤلاء , فيضع قدمه مكان قدم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والصديقين -وعلى رأسهم الصديق رَضِي اللهُ عَنْهُ- والشهداء والصالحين.

ولذلك قال الله عَزَّ وَجلَّ: {وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا} [النساء: 69], يعني: لن تجد رُفقة هي أفضل من هذه الرُفقة, نسأل الله عَزَّ وَجلَّ أن يجعلنا في رُفقتهم.

والصراط: مرة يضيفه الله عَزَّ وَجلَّ إلى نفسه, ومرة يضيفه إلى عباده.

فقال: {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي}, وقال في الآية في سورة الفاتحة: {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ}, فأضاف الصراط إلى من أنعم عليهم.

فهل هناك تعارض؟ ليس هناك تعارض, إضافته لنفسه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى باعتبار أنه هو المرشد إليه والهادي إليه, وهو الموضح له سُبْحَانَهُ وَتعَالَى, وإضافته إلى من أضاف من الخلق باعتبار أنهم هم سالكوه.

والصراط صراط: صراط معنوي, وصراط حسي. أيهما في الدنيا وأيهما في الآخرة؟

الصراط المعنوي في الدنيا, وهو صراط النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ, فليس هناك طريق حسي تسير عليه, وإنما هو طريق الكتاب والسنة وَفَهْم أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ, فهذا هو الصراط المعنوي, ومن وفق للسير على الصراط المعنوي والتزامه وُفق للسير على الصراط الحسي الذي هو مضروب على متن جهنم, نسأل الله عَزَّ وَجلَّ أن يوفقنا لاجتياز الصراطين, إنه ولي ذلك والقادر عليه.

قال: وَالصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ لَا يَكُونُ إِلَّا وَاحِدًا؛ مَنْ زَاغَ عَنْهُ أَوِ انْحَرَفَ وَقَعَ فِي طريقٍ مِنْ طُرُقِ الضَّلاَلِ والجور؛ كَمَا قَالَ تعَالَى: {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ}.

فبعد أن بيَّن أن صراطه هو الصراط المستقيم أمر باتباعه, وأكد ذلك بالنهي عن اتباع غيره من السبل, وبيَّن العلة في ذلك: {فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ}, ثم قال: {ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}.

قال: وَالصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ هُوَ طَرِيقُ الْأُمَّةِ الْوَسَطُ، الْوَاقِعُ بَيْنَ طَرَفِي الْإِفْرَاطِ وَالتَّفْرِيطِ.

فلم نمثل ولم نعطل, فالإفراط في التمثيل والتفريط في التعطيل, فأهل السنة والجماعة وسط بين الفرق كما أن الإسلام وسط بين الملل.

قال: وَلِهَذَا أَمَرَنَا اللَّهُ عَزَّ وَجلَّ وعلَّمنا أَنْ نَسْأَلَهُ أَنْ يَهْدِيَنَا هَذَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ فِي كُلِّ رَكْعَةٍ مِنَ الصَّلاَةِ؛ أَيْ: يُلْهِمَنَا وَيُوَفِّقَنَا لِسُلُوكِهِ وَاتِّبَاعِهِ, فَإِنَّهُ صِرَاطُ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّين والصدِّيقين والشهداءِ وَالصَّالِحِينَ وحَسُنَ أُولئك رَفِيقًا.

نسأل الله عَزَّ وَجلَّ أن يجمعنا وإياكم بهؤلاء, إنه ولي ذلك والقادر عليه.

والذي سيأتي بعد ذلك هو التفصيل في صفات ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى الواردة في كتاب الله وفي سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ, فيبدأ المصنف رَحِمَهُ اللهُ بذكر سورة الإخلاص, ثم بعد ذلك آية الكرسي, وهكذا يتكلم عن صفات ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

نسأل الله عَزَّ وَجلَّ أن يتقبل منا ومنكم صالح الأعمال, إنه ولي ذلك والقادر عليه.

الدرس التاسع

إن الحمد لله, نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله تعالى من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله, صلى الله عليه, وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد:

فما زال حديثنا موصولًا في قراءة شرح العلامة الهراس على العقيدة الواسطية لشيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ.

وكنا قد توقفنا عند قوله: وَقَدْ دَخَلَ فِي هِذِهِ الْجُمْلَةِ مَا وَصَفَ الله بِهِ نَفْسَهُ فِي سُورَةِ الإِخْلاَصِ الَّتِي تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ، حَيثُ يَقُولُ: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ}.

هذه سورة عظيمة، وهي تعدل ثلث القرآن كما جاء عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الصحيح وغيره، وهي سورة الإخلاص، وهذا اسمها الذي عُرفت به، مع أن هذه اللفظة لم ترد في آية من آيات هذه السورة، أعني لفظة (الإخلاص).

لكن العلماء قالوا: إنما سُميت سورة الإخلاص بهذا الاسم لأنها خُلِّصت لوصف الرحمن، فالسورة من أولها إلى آخرها في وصف ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

ولذلك جاء في الصحيح أن الصحابي رَضِي اللهُ عَنْهُ لما سُئل لماذا تُكرر هذه السورة في صلاتك؟ قال: (لِأَنَّهَا صِفَةُ الرَّحْمَنِ، وأنا أحبها).

وقالوا كذلك في سبب تسميتها: لأنها تُخلِّص قارئها من شرك الاعتقاد العلمي، كما أن سورة الكافرون تُخلِّص قارئها من شرك الاعتقاد العملي, كما

سيأتي، فمن عمل بمقتضاها حقق الإخلاص بإذن الله تعالى، لِتَجْرِيدِهَا التَّوْحِيدَ مِنْ شَوَائِبِ الشِّرْكِ وَالْوَثَنِيَّةِ كما سيأتي في كلام الهراس رحمه الله.

فهذه السورة تسمى بسورة الإخلاص, وفضلها عظيم كما قلنا، وقد جاء في فضلها أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: "إِنَّهَا تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ".

في حديث أبي سعيد الخدري رَضِي اللهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: "أَيَعْجِزُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَقْرَأَ ثُلُثَ الْقُرْآنِ فِي لَيْلَةٍ؟"، فشق ذلك عليهم، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "{قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ} ثُلُثُ الْقُرْآنِ".

فالذي يقرأ سورة الإخلاص, التي لا تتجاوز أربع آيات كأنه قرأ ثلث القرآن، فمن كررها ثلاث مرات فكأنه قرأ القرآن كله، أي: في الأجر والثواب.

ولذلك قال علماؤنا: هي تعدل ثلث القرآن في الجزاء لا الإجزاء، فلا تُجزئ عن قراءة جميع القرآن، فلو أن إنسانًا اقتصر على هذه السورة لا يقرأ غيرها فهذا يكون هاجرًا للقرآن، وإنما هذا الذي ذكره النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إنما هو في بيان فضلها.

وهذا كمن صلى في المسجد الحرام صلاة واحدة، هذه الصلاة بمائة ألف صلاة كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فلو أن هذا المصلي صلى في المسجد الحرام ثلاث صلوات، فكم تعدل هذه الصلوات الثلاثة؟ ثلاثمائة ألف صلاة، فهل هذه الصلوات الثلاثة تُجزئ عن صلاته الفريضة لو عاش مائة عام؟ فالواحد منا لو عاش مائة عام فإن صلاته كلها تقريبًا تقرُب من ثلاثمائة ألف صلاة.

ولو أردنا أن نحسب ذلك على وجه الدقة: فإنه لو حافظ على الصلوات الخمس وعاش مائة عام فإنه يصلي مائتي ألف صلاة وأربعًا وتسعين ألف صلاة، يعني: ما يقارب ثلاثمائة.

فهل لو صلى الإنسان ثلاث صلوات في المسجد الحرام نقول له هذا يُجزئك عن صلاة الفريضة ؛ إذن لا تصل الفريضة؟ لا، وإنما هذا في الجزاء وليس في الإجزاء.

فهي سورة عظيمة كما بيَّن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

يقول الشيخ الهراس رَحِمَهُ اللهُ: وَلَمَّا كَانَتْ سُورَةُ الْإِخْلاَصِ قَدْ تضمَّنَت أُصول هَذَا الْعِلْمِ.

يعني: العلم بربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى، العلم بأسمائه وصفاته.

وَاشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ إِجْمَالًا؛ صحَّ أَنْ يُقَالَ: إِنَّهَا تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ.

وهذا يتضح بمعرفة سبب نزول هذه السورة إذ معرفة السبب معين على فهم المسبب، فقد جاء في سبب نزولها أن المشركين, وفي قول بعضهم: أن اليهود قالوا لنبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: انْسُبْ لَنَا رَبَّكَ, وجاء في بعض الروايات: ما صفة ربك؟ أهو من حجر أو ذهب أو غير ذلك؟ فأنزل الله عَزَّ وَجلَّ هذه السورة يصف نفسه ويُخبر عن نفسه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

فتضمنت أصول هذا العلم علم الأسماء والصفات، ولذلك كانت تعدل ثلث القرآن.

لماذا تعدل ثلث القرآن؟ لأن القرآن أثلاث ثلاثة كما قال العلماء:

ثلث القرآن يتحدث عن توحيد ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى وأسمائه وصفاته.

وثلثه الثاني يتحدث عن العبادات والعمليات التي كُلِّف بها المسلم من صلاة وزكاة وصوم وحج وغير ذلك.

وثلث القرآن الأخير يتحدث عن الأمم السابقة وعن أحوالهم وماذا صنعوا مع أنبيائهم؟ فمنهم من آمن ومنهم من كذب، وكيف جازاهم الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

فلما كان ثلث القرآن مختصًا بالكلام عن التوحيد وأمور الغيب وكانت هذه السورة قد خُلِّصت لذلك استحقت أن تكون ثلث القرآن.

والقرآن كله توحيد كما يقول ابن القيم رحمه الله:" فكل آية في القرآن متضمنة للتوحيد شاهدة به داعية إليه؛ فإن القرآن:

- إما خبر عن الله وأسمائه وصفاته وأفعاله فهو التوحيد العلمي الخبري
- وإما دعوة إلى عبادته وحده لاشريك له وخلع كل ما يعبد من دونه فهو التوحيد الإرادي الطلبي
- وإما أمر ونهي وإلزام بطاعته في نهيه وأمره فهي حقوق التوحيد ومكملاته
- وإما خبر عن كرامة الله لأهل توحيده وطاعته وما فعل بهم في الدنيا وما يكرمهم به في الآخرة فهو جزاء توحيده
- وإما خبر عن أهل الشرك وما فعل بهم في الدنيا من النكال وما يحل بهم في العقبى من العذاب فهو خبر عمن خرج عن حكم التوحيد، فالقرآن كله في التوحيد وحقوقه وجزائه وفي شأن الشرك وأهله وجزائهم ".

قال الشيخ الهراس رَحِمَهُ اللهُ: وَابْتَدَأَ بِتِلْكَ السُّورَةِ الْعَظِيمَةِ؛ لِأَنَّهَا اشْتَمَلَتْ مِنْ ذَلِكَ عَلَى مَا لَمْ يَشْتَمِلْ عَلَيْهِ غَيْرُهَا، وَلِهَذَا سُمِّيَتْ سُورة الْإِخْلَاصِ؛ لِتَجْرِيدِهَا التَّوْحِيدَ مِنْ شَوَائِبِ الشِّرْكِ وَالْوَثَنِيَّةِ.

فأولها: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ}، هو أحد اختص بهذه الوحدانية في أسمائه وصفاته وألوهيته سُبْحَانَهُ وَتعَالَى وربوبيته، فجرَّدت التوحيد وخلصته من شوائب الشرك والوثنية.

قال: رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي ((مُسْنَدِهِ)) عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ رضي الله عنه فِي سَبَبِ نُزُولِهَا: أَنَّ الْمُشْرِكِينَ قَالُوا: يَا مُحَمَّدُ! انْسُبْ لَنَا رَبَّكَ, فَأَنْزَلَ اللَّهُ تبارك وتعالى: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ} إِلَخِ السُّورَةِ. السند ضعيف، لكن جمهور السلف على أن هذا سبب نزولها، وقد جاء عن أحمد قوله: [ثلاثة ليس لها أصل: التفسير والملاحم والمغازي] ومعنى ذلك أن الغالب عليها أنها مرسلة و منقطعة فإذا كان الشيء مشهورا عند أهل الفن قد تعددت طرقه فهذا مما يرجع إليه أهل العلم بخلاف غيره.

قال: وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّهَا تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ.

قلنا تعدل في الجزاء وليس الإجزاء.

وَقَدِ اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي تَأْوِيلِ ذَلِكَ عَلَى أَقْوَالٍ؛ أَقْرَبُهَا مَا نَقَلَهُ شَيْخُ الْإِسْلَامِ عَنْ أَبِي الْعَبَّاسِ. وَحَاصِلُهُ أَنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ اشْتَمَلَ عَلَى ثَلَاثَةِ مَقَاصِدَ أَسَاسِيَّةٍ:

أَوَّلُهَا: الْأَوَامِرُ وَالنَّوَاهِي المتضمِّنة لِلْأَحْكَامِ وَالشَّرَائِعِ الْعَمَلِيَّةِ الَّتِي هِيَ مَوْضُوعُ عِلْمِ الْفِقْهِ وَالْأَخْلَاقِ.

وهذه هي العمليات والأحكام الشرعية.

وثَانِيهَا: الْقِصَصُ وَالْأَخْبَارُ الْمُتَضَمِّنَةُ لِأَحْوَالِ الرُّسُلِ عَلَيْهِمُ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ مَعَ أُمَمِهِمْ، وَأَنْوَاعِ الْهَلاَكِ الَّتِي حَاقَتْ بالمكذِّبين لَهُمْ، وَأَحْوَالِ الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ، وَتَفَاصِيلِ الثَّوَابِ وَالْعِقَابِ.

وثَالِثُهَا: عِلْمُ التَّوْحِيدِ، وَمَا يَجِبُ عَلَى الْعِبَادِ مِنْ مَعْرِفَةِ اللَّهِ بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، وَهَذَا هُوَ أَشْرَفُ الثَّلاَثَةِ.

لأن شرف العلم من شرف المعلوم، وأعظم معلوم هو ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى, ولذلك لما كان القرآن كلامه كان أكثر ما يُذكر في القرآن ذكر أسمائه وصفاته سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

فهو أكثر بكثير جدًا من ذكر الجنة والنار وما فيهما من النعيم والعذاب، ومن ذكر الميعاد وما يكون في الدار الآخرة، لأن معرفة الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى الذي هو المعبود بحق لن تكون إلا بذلك, إلا بمعرفته من خلال أسمائه وصفاته.

ولأن نجاة العبد في الدنيا والآخرة لن تكون كذلك إلا بمعرفته من خلال أسمائه وصفاته، ولأن نجاة العبد من الفتن وتعلقه بربه تَبَارَكَ وَتَعَالَى لن تكون إلا بذلك.

ولذلك جاء في إحدى روايات أحاديث الدجال: أن الرجل المؤمن الذي يسمع بالدجال ويذهب لكي يحاججه، يلقاه جنود الدجال فيقولون له: إلى ما تعمِد؟ يقول: أَعْمِدُ إِلَى هَذَا الَّذِي خَرَجَ، فَيَقُولُونَ لَهُ: أَوَمَا تُؤْمِنُ بِرَبِّنَا؟ فَيَقُولُ: مَا بِرَبِّنَا خَفَاءٌ.

ماذا يعني بقوله : مَا بِرَبِّنَا خَفَاءٌ؟ أي: أن الله عَزَّ وَجَلَّ أعلمنا بأسمائه وصفاته في كتابه وسنة نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقد جاءت في السنة:

"أَنَّ رَبَّكُمْ لَيْسَ بِأَعْوَرَ"، والدجال أعور، فكان ذلك سببًا في نجاته من هذه الفتنة، فشرف العلم من شرف المعلوم، فأنَّى للمعطل أن يقول لجنود الدجال ذلك؟!

ثم قال: وَلَمَّا كَانَتْ سُورَةُ الْإِخْلَاصِ قَدْ تضمَّنَت أُصول هَذَا الْعِلْمِ.

يعني: القسم الثالث وهو علم التوحيد.

وَاشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ إِجْمَالًا؛ صحَّ أَنْ يُقَالَ: إِنَّهَا تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ.

وَأَمَّا كيف اشتملت هذا السُّورَةُ عَلَى عُلُومِ التَّوْحِيدِ كُلِّهَا، وتضمَّنت الْأُصُولَ الَّتِي هِيَ مَجَامِعُ التَّوْحِيدِ الْعِلْمِيِّ الِاعْتِقَادِيِّ؟ فَنَقُولُ:

إِنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى: {اللَّهُ أَحَدٌ} دلَّت عَلَى نَفْيِ الشَّرِيكِ مِنْ كُلِّ وجهٍ: فِي الذَّاتِ، وَفِي الصِّفَاتِ، وَفِي الْأَفْعَالِ؛ كَمَا دلَّت عَلَى تفرُّده سُبْحَانَهُ بِالْعَظَمَةِ وَالْكَمَالِ وَالْمَجْدِ وَالْجَلَالِ وَالْكِبْرِيَاءِ، وَلِهَذَا لَا يُطلق لَفْظُ {أَحَدٌ}، فِي الْإِثْبَاتِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجلَّ، وَهُوَ أَبْلَغُ مِنْ وَاحِدٍ.

فأول ما يدل على أن هذه السورة جردت التوحيد لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى ونفت الشريك عنه من كل وجه: قوله تعالى للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مخبرًا عن نفسه: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ}.

فهذه اللفظة: {أَحَدٌ}، تشير إلى اختصاصه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى وانفراده بأمور ليست لواحد من خلقه، فهو أحد في ذاته وفي كمال صفاته سُبْحَانَهُ وَتعَالَى وفي استحقاقه للألوهية وفي كمال ربوبيته سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، وهو أحد متفرد بالعظمة والكمال والمجد والجلال والكبرياء.

قال: وَلِهَذَا لَا يُطلق لَفْظُ {أَحَدٌ}، فِي الْإِثْبَاتِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجلَّ.

وهذا في الغالب, وهذا كثير في القرآن أن هذا اللفظ: {أَحَدٌ}، لا يأتي في غالب القرآن إلا في سياق النفي، وقد يأتي في سياق الإثبات لكنه قليل.

ومن ذلك قوله تعالى: {وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ} [البقرة: 102].

وقوله تعالى: {لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ} [البقرة: 285].

وقوله تعالى: {وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ} [البقرة: 102].

وقوله تعالى: {وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا} [التوبة: 84].

فهذه اللفظة لا تأتي إلا في النفي غالبًا.

وقد جاءت في الإثبات: {وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ} [التوبة: 6]، لكن الشرط فيه معنى النفي كذلك فاضطردت القاعدة.

قال: وَقَوْلُهُ: {اللَّهُ الصَّمَد} قَدْ فسَّرها ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بِقَوْلِهِ: السَّيِّدُ الَّذِي كَمُلَ فِي سُؤْدَدِه.

والسيد من أسمائه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، وهو: الكامل الذي لا منتهى لكماله في سيادته وسؤدده سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

وَالشَّرِيفُ الَّذِي كَمُلَ فِي شَرَفِهِ، وَالْعَظِيمُ الَّذِي قَدْ كَمُلَ فِي عَظَمَتِهِ، وَالْحَلِيمُ الَّذِي قَدْ كمُل فِي حِلْمِهِ، وَالْغَنِيُّ الَّذِي قَدْ كَمُلَ فِي غِنَاهُ، والجبَّار الَّذِي قَدْ كَمُلَ فِي جَبَرُوتِهِ، وَالْعَلِيمُ الَّذِي قَدْ كَمُلَ فِي عِلْمِهِ، وَالْحَكِيمُ الَّذِي قَدْ كمُل فِي حِكْمَتِهِ.

وهكذا في كل أسمائه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، تقول: الرحمن الذي قد كمُل في رحمته، القهار الذي قد كمُل في قهره سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، فأسمائه حُسنى وصفاته عُليا.

وَهُوَ الَّذِي قَدْ كَمُلَ فِي أَنْوَاعِ الشَّرَفِ وَالسُّؤْدَدِ، وَهُوَ اللَّهُ عَزَّ وَجلَّ، هَذِهِ صِفَتُهُ، لَا تَنْبَغِي إِلَّا لَهُ، لَيْسَ لَهُ كفءٌ، وَلَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ).

وهذا ما فسر به ابن عباس رَضِي اللهُ عَنْهُ لفظة: {الصَّمَدُ}، وهي بهذا ترجع إلى كونها صفة ذاتية لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، فهذه الأوصاف التي ذكرها لربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى وهذه الأسماء أسماء تتضمن صفات ذاتية لا تنفك عن ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

قال: وَقَدْ فُسِّر الصَّمَدُ أَيْضًا بِأَنَّهُ الَّذِي لَا جَوْفَ لَهُ.

وهذا يعني كماله وعدم حاجته وغناه، لأن الذي لا جوف له لا يحتاج إلى طعام ولا شراب، فهذا يدل على كمال غناه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى بنفسه عن خلقه.

وَبِأَنَّهُ الَّذِي تَصْمُدُ إِلَيْهِ الْخَلِيقَةُ كُلُّهَا وَتَقْصِدُهُ فِي جَمِيعِ حَاجَاتِهَا ومهمَّاتها.

كذلك {الصَّمَدُ} هاهنا بهذا المعنى الآخر بمعنى: المصمود إليه، فـ{الصَّمَدُ} بمعنى: المصمود إليه، فَعَل بمعنى: مفعول.

فـ{الصَّمَدُ} بمعنى: الذي تصمد إليه الخلائق وتلجأ إليه الخلائق في قضاء حاجاتها.

قال: فَإِثْبَاتُ الْأَحَدِيَّةِ لِلَّهِ تضمَّن نَفْيَ الْمُشَارَكَةِ وَالْمُمَاثَلَةِ.

وَإِثْبَاتُ الصمديَّة بِكُلِّ مَعَانِيهَا الْمُتَقَدِّمَةِ تَتَضَمَّنُ إِثْبَاتَ جَمِيعِ تَفَاصِيلِ الْأَسْمَاءِ الْحُسْنَى وَالصِّفَاتِ الْعُلَى, وَهَذَا هُوَ تَوْحِيدُ الْإِثْبَاتِ، وهذا ظاهر جلي من تفسير السلف لمعنى الصمد إذ جعلوا تحته جميع صفاته الثبوتية على جهة الكمال.

وَأَمَّا النَّوْعُ الثَّانِي, وَهُوَ تَوْحِيدُ التَّنْزِيهِ؛ فَيُؤْخَذُ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: {لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ}.

إذًا: هذه السورة دلت على القاعدة الكبرى في باب الصفات, وهي: النفي والإثبات، فما يُنفى عن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى يستلزم كمال الضد، وما يثبت لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى فله الكمالات في كل ما أثبته لنفسه أو أثبته له نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فقال مرة أخرى: فَإِثْبَاتُ الْأَحَدِيَّةِ.

{قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ}.

تتضمَّن نَفْيَ الْمُشَارَكَةِ وَالْمُمَاثَلَةِ.

لأنه واحد في ذاته لا شريك له، واحد في صفاته لا شبيه له سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

وَإِثْبَاتُ الصمديَّة.

{اللَّهُ الصَّمَدُ}، ما معنى الصمد؟ الذي كمُل في سائر أسمائه وصفاته، أو الذي تصمد إليه الخلائق.

إذا قلنا: الذي كمُل في أسمائه وصفاته, هذا إثبات أم نفي؟ هذا إثبات.

إذًا: هذا الاسم يدخل تحته كل كمال وكل صفة ثبتت لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى على وجه الكمال، كما قال ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُما.

قال: وَأَمَّا النَّوْعُ الثَّانِي. وَهُوَ تَوْحِيدُ التَّنْزِيهِ.؛ فَيُؤْخَذُ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: {لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ}, أَيْ: لَمْ يتفرَّع عَنْهُ شَيْءٌ، وَلَمْ يتفرَّع هُوَ عَنْ شَيْءٍ.

لَمْ يتفرَّع عَنْهُ شَيْءٌ: {لَمْ يَلِدْ}.

وَلَمْ يتفرَّع هُوَ عَنْ شَيْءٍ: {وَلَمْ يُولَدْ}.

وَلَيْسَ لَهُ مُكَافِئٌ وَلَا مُمَاثِلٌ وَلَا نَظِيرٌ.

فالله عَزَّ وَجلَّ {لَمْ يَلِدْ}، فليس له ولد، {وَلَمْ يُولَدْ}، فليس له أب، لماذا؟ لأنه ما من شيء يولد إلا وسيموت، وما من شيء يموت إلا ويورث، والله عَزَّ وَجلَّ حي لا يموت، والله عَزَّ وَجلَّ أولٌ بلا ابتداء, وآخرٌ بلا انتهاء, سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

فلو كان مولودًا لما استحق هذه الأولية التي أثبتها لنفسه من قوله: {هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ} [الحديد: 3].

ومن قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "أَنْتَ الْأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ".

وكذلك لو كان مولودًا لكان بعد أن لم يكن، وهذا من صفات المخلوق، فالله ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى خالق غير مخلوق.

ولم يلد لأنه لم تكن له صاحبة، لأن كونه يلد يستلزم أن تكون له صاحبة، وليس له صاحبة.

ولذلك أنكر على من نسب إليه الصاحبة, فقال: {أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ} [الأنعام: 101].

فأنكر على من نسب إليه الولد, كالمشركين الذين قالوا: إن الملائكة بنات الله، والنصارى الذين قالوا: إن المسيح ابن الله، وكاليهود الذين قالوا: أن عُزيرًا ابن الله.

فقال الله عَزَّ وَجلَّ: {أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ}، أي: كيف يكون له ولد، {وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ}.

فهو سُبْحَانَهُ وَتعَالَى مستغنٍ عن الولد، وغيره من المخلوقين في حاجة إلى الولد.

إذًا: الولد بالنسبة للمخلوق صفة كمال أم صفة نقص؟ صفة كمال، لماذا هو صفة كمال؟ لأنه يعينه، ولأنه يرثه من بعده ويحمل اسمه من بعده، وإن كان صالحًا كان في ميزان حسناته ودعا له وجرى عليه عمله، كما أخبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وأما الله عَزَّ وَجلَّ فهو غنيٌ عمن سواه، وكل شيء مفتقر إليه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، فلذلك قال: {لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ}.

وقال كذلك في آخر سورة مريم، وهذه الآيات تُختم بما يدل على شدة هذا القول, وشدة نكير الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى على من قال هذا القول: {وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا (٨٨) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا} [مريم: 88-89]، يعني: عظيمًا.

{تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (٩٠) أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا (٩١) وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا (٩٢) إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا} [مريم: 90-93].

فآيات شديدة, تُنكر على من نسب الولد لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

فهذه السورة كما قلنا تضمنت الإثبات والنفي.

قال: فَانْظُرْ كَيْفَ تضمَّنت هَذِهِ السُّورَةُ تَوْحِيدَ الاِعْتِقَادِ وَالْمَعْرِفَةِ، وَمَا يَجِبُ إِثْبَاتُهُ للرَّبِّ تَعَالَى مِنَ الأَحَدِيَّة الْمُنَافِيَةِ لِمُطْلَقِ الْمُشَارَكَةِ، والصمَدِيَّة الْمُثْبِتَة لَهُ جَمِيعَ صِفَاتِ الْكَمَالِ الَّذِي لَا يَلْحَقُهُ نقصٌ بِوَجْهٍ مِنَ الْوُجُوه، وَنَفْيَ الْوَلَدِ وَالْوَالِدِ الَّذِي هُوَ مِنْ لَوَازِمِ غِنَاهُ وصمَدِيَّته وأَحدِيَّته، ثُمَّ نَفْيَ الْكُفْءِ الْمُتَضَمِّنَ لِنَفْيِ التَّشْبِيهِ

وَالتَّمْثِيلِ وَالنَّظِيرِ؟ فحُقَّ لِسُورَةٍ تضمَّنت هَذِهِ الْمَعَارِفَ كُلَّهَا أَنْ تَعْدِلَ ثُلُثَ الْقُرْآنِ.

يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ كما جاء في بدائع التفسير في كلامه على هذه السورة، يقول: فهو توحيد منه لنفسه -أي قوله تعالى: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ}- يقول: هو توحيد منه لنفسه وأمر للمخاطب بتوحيده.

فهو أمر للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولأمته من بعده, فإذا قال العبد: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ}، كان قد وحد الله بما وحد به نفسه سبحانه.

قال: وأتى بلفظة {قُلْ} تحقيقًا لهذا المعنى وأنه مُبلغ محض.

إذًا: الخبر من الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى عن نفسه, من الله البلاغ وعلى الرسول الرسالة.

فقال له: {قُلْ}، فالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُبلغ محض قائل لما أُمر بقوله والله أعلم.

قال: وهذا بخلاف قوله: {قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ}, و{قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ}, فإن هذا أمر محض بإنشاء الاستعاذة لا تبليغ.

يعني لما قال الله عَزَّ وَجلَّ للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: {قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ}، و{قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ}، أمر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يستعيذ برب الفلق وبرب الناس، أي: أن يُنشئ الاستعاذة بالله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

قال: فإن الله لا يستعيذ من أحد.

أما لما قال في سورة الإخلاص: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ}، من الذي قال هو الله أحد؟ الله، ما وظيفة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ بلَّغ ذلك عن ربه.

لما قال: {قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ}، من الذي قال أعوذ برب الناس؟ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهذه استعاذة من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمره الله عَزَّ وَجلَّ أن يُنشئها.

قال: فإن الله لا يستعيذ من أحد، وذلك عليه محال, بخلاف قوله: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ}، فإنه خبر عن توحيده، وهو سبحانه يُخبر عن نفسه بأنه الواحد الأحد، فتأمل هذه النكتة البديعة، والله المستعان.

وقال رَحِمَهُ اللهُ: فسورة: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ}، متضمنة لتوحيد الاعتقاد والمعرفة.

التوحيد قسمان: توحيد الاعتقاد والمعرفة، وتوحيد الطلب والقصد.

توحيد الاعتقاد والمعرفة الذي هو: توحيد الربوبية والأسماء والصفات، لأن هذا لا عمل فيه إلا عمل القلب الذي هو الاعتقاد، وليس فيه صلاة ولا ذكر ولا دعاء ولا غير ذلك، بخلاف النوع الآخر من التوحيد.

فهذه السورة: تضمَّنت هَذِهِ السُّورَةُ تَوْحِيدَ الاعْتِقَادِ وَالْمَعْرِفَةِ، وَمَا يَجِبُ إِثْبَاتُهُ للرَّبِّ تَعَالَى مِنَ الأَحَدِيَّة الْمُنَافِيَةِ لِمُطْلَقِ الْمُشَارَكَةِ بِوَجْهٍ مِنَ الْوُجُوهِ، والصمَديَّة.

إذًا: هذا الكلام الذي ذكره الشيخ الهراس هو كلام ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ.

قال: والصمَديَّةِ الْمُثْبِتَة لَهُ جَمِيعَ صِفَاتِ الْكَمَالِ الَّذِي لَا يَلْحَقُهُ نقصٌ بِوَجْهٍ مِنَ الْوُجُوه، وَنَفْيَ الْوَلَدِ وَالْوَالِدِ الَّذِي هُوَ مِنْ لَوَازِمِ الصمدية.

لأن الصمد من معانيها: الذي لا جوف له، والولد يكون في الجوف، فالصمدية تعني نفي الولد.

ولذلك قال بعض علمائنا: إن كل آية من هذه السورة تُفسرها الآية التي بعدها، {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ}، هو واحد لأنه صمد قائم بنفسه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، له من الصفات ما اختص بها ولم يشركه واحد من الخلق.

{اللَّهُ الصَّمَدُ}، أي: الذي لا جوف له.

لا جوف له إذًا: {لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ}.

إذًا: {وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ}، سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

قال: وَنَفْيِ الْوَلَدِ وَالْوَالِدِ الَّذِي هُوَ مِنْ لَوَازِمِ الصَّمَدِيَّةِ، وَغِنَاهُ وَأَحَدِيَّتِهِ، وَنَفْيِ الْكُفْءِ الْمُتَضَمِّنِ لِنَفْيِ التَّشْبِيهِ وَالتَّمْثِيلِ وَالتَّنْظِيرِ.

فَتَضَمَّنَتْ هَذِهِ السُّورَةُ إِثْبَاتَ كُلِّ كَمَالٍ لَهُ، وَنَفْيَ كُلِّ نَقْصٍ عَنْهُ، وَنَفْيَ إِثْبَاتِ شَبِيهٍ أَوْ مَثِيلٍ لَهُ فِي كَمَالِهِ، وَنَفْيَ مُطْلَقِ الشَّرِيكِ عَنْهُ، وَهَذِهِ الْأُصُولُ هِيَ مَجَامِعُ التَّوْحِيدِ الْعِلْمِيِّ الِاعْتِقَادِيِّ الَّذِي يُبَايِنُ صَاحِبُهُ جَمِيعَ فِرَقِ الضَّلَالِ وَالشِّرْكِ، وَلِذَلِكَ كَانَتْ تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ، فَإِنَّ الْقُرْآنَ مَدَارُهُ عَلَى الْخَبَرِ وَالْإِنْشَاءِ.

كل القرآن إما خبر أو إنشاء، وكلام العرب كله إما خبر أو إنشاء، والقرآن نزل بلسان عربي مبين.

قال: فَإِنَّ الْقُرْآنَ مَدَارُهُ عَلَى الْخَبَرِ وَالْإِنْشَاءِ، وَالْإِنْشَاءُ ثَلَاثَةٌ: أَمْرٌ، وَنَهْيٌ، وَإِبَاحَةٌ.

وهذا هو خطاب التكليف، لأن خطاب التكليف استدعاء وطلب، إما طلب فعل أو طلب ترك، وكذلك الإباحة التي يستوي فيها الطرفان، فهي من الحكم الشرعي, وإن لم تكن من الحكم التكليفي عند كثير من أهل العلم.

قال: وَالْخَبَرُ نَوْعَانِ: خَبَرٌ عَنِ الْخَالِقِ تَعَالَى وَأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَحْكَامِهِ، وَخَبَرٌ عَنْ خَلْقِهِ.

فهذه هي أقسام القرآن الثلاثة:

قسم هو: الإنشاء الأمر والنهي.

وقسم هو: الخبر، خبر عن الله، وخبر عن خلقه.

قال: فَأَخْلَصَتْ سُورَةُ {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ}, الْخَبَرَ عَنْهُ، وَعَنْ أَسْمَائِهِ، وَصِفَاتِهِ، فَعَدَلَتْ ثُلُثَ الْقُرْآنِ، وَخَلَّصَتْ قَارِئَهَا الْمُؤْمِنَ بِهَا مِنَ الشِّرْكِ الْعِلْمِيِّ، كَمَا خَلَّصَتْ سُورَةُ {قُلْ يَاأَيُّهَا الْكَافِرُونَ}, مِنَ الشِّرْكِ الْعَمَلِيِّ الْإِرَادِيِّ الْقَصْدِيِّ.

لأن سورة الكافرون تقول: {قُلْ يَاأَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لَا أَعْبُدُ}، والعبادة عمل أم اعتقاد؟ المقصود بها هاهنا العمل، ومن أفراد العمل ما كان يقوم به المشركون من الذبح والنذر والدعاء والتقرب لهذه المعبودات الباطلة.

فجاءت هذه السورة: {قُلْ يَاأَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ (٤) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ}.

قال: وَلَمَّا كَانَ الْعِلْمُ قَبْلَ الْعَمَلِ وَهُوَ إِمَامُهُ وَقَائِدُهُ وَسَائِقُهُ، وَالْحَاكِمُ عَلَيْهِ وَمُنْزِلُهُ مَنَازِلَهُ، كَانَتْ سُورَةُ {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ}, تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ, وَالْأَحَادِيثُ بِذَلِكَ تَكَادُ تَبْلُغُ مَبْلَغَ التَّوَاتُرِ، وَ{قُلْ يَاأَيُّهَا الْكَافِرُونَ}, تَعْدِلُ رُبُعَ الْقُرْآنِ.

وهذا حسنه الألباني في صحيح الجامع, أن: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ}، تعدل ثلث القرآن، وأن: {قُلْ يَاأَيُّهَا الْكَافِرُونَ}، تعدل ربع القرآن.

قال: وَالْحَدِيثُ بِذَلِكَ فِي الترمذي مِنْ رِوَايَةِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يَرْفَعُهُ "{إِذَا زُلْزِلَتِ} [الزلزلة: 1], تَعْدِلُ نِصفَ الْقُرْآنِ وَ{قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ} [الإخلاص: 1], تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ، وَ{قُلْ يَاأَيُّهَا الْكَافِرُونَ} [الكافرون: 1]، تَعْدِلُ رُبُعَ الْقُرْآنِ".

قال: رَوَاهُ الحاكم فِي "الْمُسْتَدْرَكِ" وَقَالَ: صَحِيحُ الْإِسْنَادِ.

وخالفه الذهبي رَحِمَهُ اللهُ, وقال: بل يمان -وهو أحد الرواة- ضعَّفوه.

وقال الشيخ الألباني رَحِمَهُ اللهُ في صحيح الترمذي، قال: صحيح دون فضل: {إِذَا زُلْزِلَتِ}.

يعني: الذي ثبت عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ}، تعدل ثلث القرآن، وأن: {قُلْ يَاأَيُّهَا الْكَافِرُونَ}، تعدل ربع القرآن.

قال المباركفوري في شرحه على الترمذي في بيان وجه كون سورة الكافرون تعدل ربع القرآن، قال: لأن القرآن يشتمل على أحكام الشهادتين وأحوال النشأتين، فهي لتضمنها البراءة من الشرك صارت ربع القرآن.

توحيد، وإثبات لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، وإثبات التوحيد الخالص لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، ونفي الشرك.

وكذلك القسم الآخر من القرآن يتكلم عن النشأتين، فصارت ربع القرآن.

قال: وَلَمَّا كَانَ الشِّرْكُ الْعَمَلِيُّ الْإِرَادِيُّ أَغْلَبَ عَلَى النُّفُوسِ لِأَجْلِ مُتَابَعَتِهَا هَوَاهَا.

الشرك العملي وهو: الذبح والنذر والسجود والطواف حول قبور الأنبياء والصالحين، والتقرب للأصنام.

يقول: لما كان هذا النوع من الشرك أغلب على النفوس، ولذلك عامة من يقع في هذا النوع من الشرك من العوام, وهم أكثر الناس، هم الذين يقعون في هذا النوع من الشرك العملي، لأنهم يتابعون أهوائهم ويقلدون كبراءهم، فهم كالبهيمة تُقاد أينما انقادت.

قال: وَكَثِيرٌ مِنْهَا تَرْتَكِبُهُ مَعَ عِلْمِهَا بِمَضَرَّتِهِ وَبُطْلاَنِهِ، لِمَا لَهَا فِيهِ مِنْ نَيْلِ الْأَغْرَاضِ.

قال: وَإِزَالَتُهُ وَقَلْعُهُ مِنْهَا أَصْعَبُ، وَأَشَدُّ مِنْ قَلْعِ الشِّرْكِ الْعِلْمِيِّ وَإِزَالَتِهِ، لِأَنَّ هَذَا يَزُولُ بِالْعِلْمِ وَالْحُجَّةِ.

الشرك العلمي يزول بالعلم والحُجة، فإذا أُقيم عليه الحُجة من كتاب الله وسنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن لله أسماء في الكتاب والسنة، وأن له صفات في الكتاب والسنة، وأن الصحابة قالوا كذا، وتجرد طالب الحق عن الهوى، زال ذلك الشرك بإذن الله تعالى.

ولذلك كثير من هؤلاء إذا أُقيمت عليهم الحُجة وكان طالبًا للحق يرجع ويقبل، بخلاف هذا النوع من الشرك الذي هو الشرك العملي.

فقال عن النوع الأول وهو الشرك العلمي، قال: لِأَنَّ هَذَا يَزُولُ بِالْعِلْمِ وَالْحُجَّةِ، وَلَا يُمْكِنُ صَاحِبُهُ أَنْ يَعْلَمَ الشَّيْءَ عَلَى غَيْرِ مَا هُوَ عَلَيْهِ، بِخِلاَفِ شِرْكِ الْإِرَادَةِ وَالْقَصْدِ، فَإِنَّ صَاحِبَهُ يَرْتَكِبُ مَا يَدُلُّهُ الْعِلْمُ عَلَى بُطْلاَنِهِ وَضَرَرِهِ.

ولذلك كان قبح الشرك العملي مستقرًا في العقول والفطر قبل الشرائع, قبح الشرك العملي من السجود لصنم أو الطواف حوله أو التقرب إليه بسائر العبادات، هذا القبح مستقر في العقول والنفوس والفطر قبل الشرائع.

وقد ضرب الله تعالى المثل لذلك كما في حديث الحارث الأشعري رضي الله عنه: إن الله أوحى إلى يحيى بن زكريا بخمس كلمات أن يعمل بهن ويأمر بني إسرائيل أن يعملوا بهن أولاهن: لا تشركوا بالله شيئا فإن مثل من أشرك بالله كمثل رجل اشترى عبدا من خالص ماله بذهب أو ورق ثم أسكنه دارا فقال اعمل وارفع إلي، فجعل يعمل ويرفع إلى غير سيده! فأيكم يرضى أن يكون عبده كذلك! فإن الله خلقكم ورقكم فلا تشركوا به شيئا"

هل هذه الأصنام؟ هل هؤلاء الأولياء ينفعون أو يضرون؟ يملكون لكم موتًا أو حياة أو نشورًا؟ يخلقون؟ لا يصنعون شيئًا من ذلك.

هل يملكون شيئًا في السماوات والأرض؟ هل يشاركون الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى في شيء منها؟ هل هم أعوان له سُبْحَانَهُ وَتعَالَى؟ هل يملكون الشفاعة دونه؟

إذا كانت كل هذه الصفات منفية عن هذه المعبودات، فكيف تُعبد من دون الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى؟!

قال تعالى: {قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ} [سبأ: 22] {وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ} [سبأ: 23]، لا يملكون شيئًا من ذلك فكيف يُعبدون من دون الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى؟!

ولذلك كانت كثير من الآيات التي تخاطب المشركين وتقيم الحجة على بطلان شركهم-خاصة الآيات المكية- يختمها الله عَزَّ وَجلَّ: {أَفَلاَ تَعْقِلُونَ}، {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} [الروم: 24]، لماذا؟ لأن هذا مما يُعلم بالعقل، فالعقل السليم لا يقبل بذلك.

قال: بِخِلاَفِ شِرْكِ الْإِرَادَةِ وَالْقَصْدِ، فَإِنَّ صَاحِبَهُ يَرْتَكِبُ مَا يَدُلُّهُ الْعِلْمُ عَلَى بُطْلاَنِهِ وَضَرَرِهِ لِأَجْلِ غَلَبَةِ هَوَاهُ، وَاسْتِيلاَءِ سُلْطَانِ الشَّهْوَةِ وَالْغَضَبِ عَلَى نَفْسِهِ، فَجَاءَ مِنَ التَّأْكِيدِ وَالتَّكْرَارِ فِي سُورَةِ {قُلْ يَاأَيُّهَا الْكَافِرُونَ}, الْمُتَضَمِّنَةِ لِإِزَالَةِ الشِّرْكِ الْعَمَلِيِّ، مَا لَمْ يَجِئْ مِثْلُهُ فِي سُورَةِ {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ}.

ولذلك قال: {لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ (٤) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ}، لماذا كان هذا التكرار؟

هذا التكرار لا شك أنه لفائدة، هذه الفائدة هي أن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى يريد أن يُبين شدة بغضه لهذا النوع من الشرك، وأن ما جاءوا به من الدين الباطل يخالف دين التوحيد، ولذلك قال في نهاية السورة: {لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ}، ولابن القيم تحقيق بارع حول النفي الوارد في سورة الكافرون في بدائع الفوائد فراجعه.

قال: وَلَمَّا كَانَ الْقُرْآنُ شَطْرَيْنِ: شَطْرًا فِي الدُّنْيَا وَأَحْكَامِهَا، وَمُتَعَلَّقَاتِهَا، وَالْأُمُورِ الْوَاقِعَةِ فِيهَا مِنْ أَفْعَالِ الْمُكَلَّفِينَ وَغَيْرِهَا، وَشَطْرًا فِي الْآخِرَةِ وَمَا يَقَعُ فِيهَا، وَكَانَتْ سُورَةُ {إِذَا زُلْزِلَتِ}, قَدْ أُخْلِصَتْ مِنْ أَوَّلِهَا وَآخِرِهَا لِهَذَا الشَّطْرِ، فَلَمْ يُذْكَرْ فِيهَا إِلَّا الْآخِرَةُ وَمَا يَكُونُ فِيهَا مِنْ أَحْوَالِ الْأَرْضِ وَسُكَّانِهَا، كَانَتْ تَعْدِلُ نِصْفَ الْقُرْآنِ.

لأن الله يقول: {إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا (١) وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا (٢) وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا} إلخ السورة، فكل ذلك يتكلم عن الشطر الثاني الذي هو يتعلق بأحوال الآخرة ومقدماتها.

قال: ولذلك كَانَتْ تَعْدِلُ نِصْفَ الْقُرْآنِ.

لكن الحديث لا يصح في ذلك، فالذي ثبت إنما هو في سورة الإخلاص وفي سورة الكافرون.

فسورة الإخلاص كما رأينا فيها إثبات ونفي، وفيها إسمان لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى لم يردا إلا في هذه السورة, وهو: اسمه (الأحد) واسمه (الصمد) سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

فـ(الأحد): مُشعر باختصاصه بما لا يشاركه فيه أحد.

وأما (الصمد): فمُشعر باتصافه بسائر صفات الكمال سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

ثم كان الكلام بعد ذلك عن آية الكرسي، وهي آية عظيمة تأخذ منا وقتًا طويلاً، ولذلك نرجئها للدرس القادم.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم، وجزاكم الله خيرًا.

الدرس العاشر

إن الحمد لله, نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله تعالى من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله, صلى الله عليه, وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد:

فما زال حديثنا موصولًا في قراءة هذا المعتقد المبارك, معتقد شيخ الإسلام ابن تيمية ومعتقد أهل السنة والجماعة, والذي سُطِّر في العقيدة التي شُهِرت بعد ذلك بالعقيدة الواسطية, وشرحها جمع من أهل السنة والجماعة, ومن هؤلاء العلامة محمد بن خليل هراس.

وكنا قد توقفنا في الدرس الماضي عند قول المصنف رَحِمَهُ اللهُ وهو يعدد الأدلة التي تدل على هذه القاعدة الكبرى, قاعدة أهل السنة والجماعة, في أن باب الأسماء الصفات في كتاب الله وفي سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مبناه على التوقيف, ومبناه على النفي والإثبات, إثبات بلا تكييف ولا تمثيل، ونفي بلا تعطيل ولا تحريف، فلا نصف الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى إلا بما وصف به نفسه في كتابه وعلى لسان نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فبعد أن ذكر المصنف رَحِمَهُ اللهُ سورة الإخلاص وما فيها من معان جليلة تدل على صفات ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى وكيف أنها خُلِّصت للكلام عنه, ذكر بعد ذلك آية الكرسي.

فقال رَحِمَهُ اللهُ: وَمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ فِي أَعْظَمِ آيَةٍ فِي كِتَابِهِ؛ حَيْثُ يَقُولُ: {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ

مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاء وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلَا يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ}.

قال: وَلِهَذَا كَانَ مَنْ قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ فِي لَيْلَةٍ لَمْ يَزَلْ عَلَيْهِ مِنْ اللَّهِ حَافِظٌ وَلَا يَقْرَبُهُ شَيْطَانٌ حَتَّى يُصْبِحَ.

فهذه الآية التي ذكرها المصنف رَحِمَهُ اللهُ هي أعظم آية في كتاب الله, ودليل ذلك ما جاء عند مسلم في صحيحه من حديث أبي بن كعب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ, أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سأله: "أَيُّ آيَةٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ أَعْظَمُ؟" قَالَ أُبَيٌّ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: فَرَدَّدَهَا مِرَارًا، ثُمَّ قَالَ أُبَيٌّ: آيَةُ الْكُرْسِيِّ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "لِيَهْنِكَ الْعِلْمُ أَبَا الْمُنْذِرِ", أي: هنيئًا لك العلم أبا المنذر.

وفي رواية عند أحمد: "وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ؛ إِنَّ لَهَا لِسَانًا وَشَفَتَيْنِ تُقَدِّسُ الْمَلِكَ عِنْدَ سَاقِ الْعَرْشِ".

هذا الحديث يدل على أن هذه الآية هي أعظم آية في كتاب الله عَزَّ وَجلَّ.

ويدل كذلك على أن القرآن فيه عظيم وأعظم, وأن كلام الله عَزَّ وَجلَّ يتفاضل, وإنما يقع التفاضل باعتبار معانيه لا باعتبار قائله, فالقرآن كله من أول آية لآخر آية كلام الله عَزَّ وَجلَّ, ليس فيه كلام واحد من البشر.

ولذلك هو لا يتفاضل من هذه البابة, أن الله عَزَّ وَجلَّ هو الذي تكلم به, وإنما يتفاضل باعتبار ما يتضمنه من المعاني, فأعظم آية في كتاب الله هي آية الكرسي, لأنها تكلمت عن ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى وصفاته وجمعت بين النفي والإثبات.

سورة الإخلاص كما مضى تعدل ثلث القرآن, وهذا يدل على فضلها وأنها تفضل غيرها من السور, فليست سورة الإخلاص كسورة المسد من جهة المعنى, وليست آية الكرسي كآية الدَّين من جهة المعنى, مع أن آية الدَّين أطول من آية الكرسي, ومع ذلك فآية الكرسي هي أعظم آية في كتاب الله عَزَّ وَجلَّ. إذن القرآن باعتبار المتكلم به سبحانه لا يتفاضل، وأما باعتبار ما تضمنه من المعاني يقع التفاضل.

وأما دليل: مَنْ قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ فِي لَيْلَةٍ لَمْ يَزَلْ عَلَيْهِ مِنْ اللهِ حَافِظٌ وَلَا يَقْرَبُهُ شَيْطَانٌ حَتَّى يُصْبِحَ:

فذلك ما جاء في الصحيح من حديث أبي هريرة رَضِي اللهُ عَنْهُ أنه قال: وَكَّلَنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِحِفْظِ زَكَاةِ رَمَضَانَ، فَأَتَانِي آتٍ، فَجَعَلَ يَحْثُو مِنَ الطَّعَامِ -يعني: أخذ من طعام بيت مال المسلمين- فَأَخَذْتُهُ -يعني: أخذ الذي يحثو من الطعام- وَقُلْتُ: وَاللَّهِ لَأَرْفَعَنَّكَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم، قَالَ: إِنِّي مُحْتَاجٌ وَعَلَيَّ عِيَالٌ وَلِي حَاجَةٌ شَدِيدَةٌ، قَالَ: فَخَلَّيْتُ عَنْهُ، فَأَصْبَحْتُ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "يَا أَبَا هُرَيْرَةَ مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ الْبَارِحَةَ", قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، شَكَا حَاجَةً شَدِيدَةً، وَعِيَالًا فَرَحِمْتُهُ فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ، قَالَ: "أَمَا إِنَّهُ قَدْ كَذَبَكَ وَسَيَعُودُ", قال: فَرَصَدْتُهُ، فَجَاءَ يَحْثُو مِنَ الطَّعَامِ ثَلَاثَ لَيَالٍ.

كل ذلك والرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: "أَمَا إِنَّهُ قَدْ كَذَبَكَ وَسَيَعُودُ", وفي رواية أنه قال: فَعَرَفْتُ أَنَّهُ سَيَعُودُ لِقَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (إِنَّهُ سَيَعُودُ).

قال: فلما كانت الثالثة قُلْتُ: لَأَرْفَعَنَّكَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهَذَا آخِرُ ثَلَاثِ مَرَّاتٍ تَزْعُمُ لَا تَعُودُ، ثُمَّ تَعُودُ، قَالَ: دَعْنِي أُعَلِّمْكَ كَلِمَاتٍ يَنْفَعُكَ اللَّهُ بِهَا، قُلْتُ مَا هُوَ؟ قَالَ: إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ، فَاقْرَأْ آيَةَ الْكُرْسِيِّ: {اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ} حَتَّى تَخْتِمَ الْآيَةَ، فَإِنَّكَ لَنْ يَزَالَ عَلَيْكَ مِنَ اللَّهِ حَافِظٌ، وَلَا يَقْرَبَنَّكَ شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبِحَ.

فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "أَمَا إِنَّهُ قَدْ صَدَقَكَ وَهُوَ كَذُوبٌ، تَعْلَمُ مَنْ تُخَاطِبُ مُنْذُ ثَلَاثِ لَيَالٍ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ؟"، قَالَ: لَا، قَالَ: "ذَاكَ شَيْطَانٌ".

فأخبر أن من قرأ هذه الآية في ليلته لم يزل عليه من الله حافظ حتى يصبح، فهي آية عظيمة.

قال الشيخ الهراس رَحِمَهُ اللهُ: رَوَى مُسْلِمٌ فِي ((صَحِيحِهِ)) عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ أَنَّ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَأَلَهُ: ((أَيُّ آيَةٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ أَعْظَمُ؟)).

قَالَ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ.

فردَّدها مِرَارًا، ثُمَّ قَالَ أُبَيٌّ: آيَةُ الْكُرْسِيِّ.

فَوَضَعَ النَّبِيُّ يَدَهُ عَلَى كَتِفِهِ، وَقَالَ: ((لِيَهْنِكَ هَذَا الْعِلْمُ أَبَا الْمُنْذِرِ)).

وَفِي رِوَايَةٍ عِنْدَ أَحْمَدَ:

((وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ؛ إِنَّ لَهَا لِسَانًا وَشَفَتَيْنِ تقدِّس الْمَلِكَ عِنْدَ سَاقِ الْعَرْشِ)).

وهذا فيه إثبات فضل هذه الآية، وفيه كذلك إثبات اليد لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، قال: ((وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ))، أي: بيد ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى، والله عَزَّ وَجلَّ له يدان تليقان به.

ولا يؤول هذا الحديث بـ(والذي نفسي في قدرته), كما سمعنا ذلك مرارًا في إذاعة القرآن الكريم عند ذكر هذه الأحاديث التي فيها قسم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأن نفسه بيد الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى, فالله عَزَّ وَجلَّ له يدان حقيقيتان, لا نعلم كيفيتهما.

قال: وَلَا غَرْوَ، فَقَدِ اشْتَمَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ الْعَظِيمَةُ مِنْ أَسْمَاءِ الربِّ وَصِفَاتِهِ عَلَى مَا لَمْ تَشْتَمِلْ عَلَيْهِ آيَةٌ أُخْرَى.

فهذا هو الذي كان سببًا في فضلها؛ أنها اشتملت من أسماء الرب وصفاته على ما لم تشتمل عليه آية أخرى.

قال: فَقَدْ أَخْبَرَ اللَّهُ فِيهَا عَنْ نَفْسِهِ بِأَنَّهُ المتوحّد فِي إلهيَّتِه، الَّذِي لَا تَنْبَغِي الْعِبَادَةُ بِجَمِيعِ أَنْوَاعِهَا وَسَائِرِ صُوَرِهَا إِلَّا لَهُ.

فبدأها بقوله: {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ}, أي: لا معبود حق إلا هو سُبْحَانَهُ وَتعَالَى, لا تنبغي العبادة إلا له.

قال: ثُمَّ أَرْدَفَ قَضِيَّةَ التَّوْحِيدِ بِمَا يَشْهَدُ لَهَا مِنْ ذِكْرِ خَصَائِصِهِ وَصِفَاتِهِ الْكَامِلَةِ.

فلو قال قائل: هذه الآية تقول: {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ}, أي: لا يستحق العبادة إلا هو سُبْحَانَهُ وَتعَالَى, فما علامة ذلك؟ وما دليل ذلك أنه يستحق العبادة وحده دون من سواه؟

دليل ذلك: أنه هو الحي القيوم.

فقال: ثُمَّ أَرْدَفَ قَضِيَّةَ التَّوْحِيدِ بِمَا يَشْهَدُ لَهَا مِنْ ذِكْرِ خَصَائِصِهِ وَصِفَاتِهِ الْكَامِلَةِ، فَذَكَرَ أَنَّهُ الْحَيُّ الَّذِي لَهُ كَمَالُ الْحَيَاةِ؛ لِأَنَّ حَيَاتَهُ مِنْ لَوَازِمِ ذَاتِهِ، فَهِيَ أزليَّة أبديَّة.

أزلية باعتبار ماذا؟ باعتبار ما مضى, فالله عَزَّ وَجلَّ أول بلا ابتداء, وأبدية باعتبار ما يستقبل, فهو آخر بلا انتهاء سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

وحياته ليست كحياة المخلوق, لأن حياته سُبْحَانَهُ وَتعَالَى لم يسبقها عدم ولا يتبعها فناء, فله كمال الحياة سُبْحَانَهُ وَتعَالَى. قال الخطابي: هو الذي لم يزل موجودًا وبالحياة موصوفًا، لم تحدث له الحياة بعد موت، ولا يعترضه الموت بعد الحياة، وسائر الأحياء يعتورهم الموت أو العدم في أحد طرفي الحياة أو فيهما معًا.

وهذا كله مستفاد من اسمه (الحي), فاسمه (الحي) يتضمن جميع صفاته الذاتية, ومن صفاته الذاتية العلم, والقدرة, والإرادة, وغير ذلك من الصفات.

قال: وَكَمَالُ حَيَاتِهِ يَسْتَلْزِمُ ثُبُوتَ جَمِيعِ صِفَاتِ الْكَمَالِ الذاتيَّة لَهُ، مِنَ العزَّة وَالْقُدْرَةِ وَالعِلْمِ وَالْحِكْمَةِ وَالسَّمْعِ وَالْبَصَرِ وَالْإِرَادَةِ وَالْمَشِيئَةِ وَغَيْرِهَا؛ إِذْ لَا يَتَخَلَّفُ شَيْءٌ مِنْهَا إِلَّا لنقصٍ فِي الْحَيَاةِ.

فإذا كمُلت حياته سُبْحَانَهُ وَتعَالَى فهذا يدل على كمال جميع صفاته الذاتية.

قال: فَالْكَمَالُ فِي الْحَيَاةِ يَتْبَعُهُ الْكَمَالُ فِي سَائِرِ الصِّفَاتِ اللاَّزِمَةِ لِلْحَيِّ.

وما المراد بالصفات الذاتية؟ أي التي لا تنفك عن ذاته سُبْحَانَهُ وَتعَالَى, فلا يتعلق وجودها بإرادة أو مشيئة أو سبب, بخلاف الصفات الفعلية, فإنها تتعلق بأسبابها ومشيئة ربنا تَبارَكَ وَتعَالَى.

قال: فَالْكَمَالُ فِي الْحَيَاةِ يَتْبَعُهُ الْكَمَالُ فِي سَائِرِ الصِّفَاتِ اللاَّزِمَةِ لِلْحَيِّ.

ثُمَّ قَرَنَ ذَلِكَ بِاسْمِهِ الْقَيُّومِ, وَمَعْنَاهُ الَّذِي قَامَ بِنَفْسِهِ، وَاسْتَغْنَى عَنْ جَمِيعِ خَلْقِهِ غِنًى مُطْلَقًا لَا تشوبُه شائبةُ حاجةٍ أَصْلاً؛ لِأَنَّهُ غِنًى ذاتيٌّ.

والله عَزَّ وَجلَّ غني بذاته سُبْحَانَهُ وَتعَالَى عمن سواه, وأما المخلوق ففقير بذاته غني بغيره, لأن الذي أغناه هو الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى, ولو شاء لأفقره.

والغني يستمد غناه من غيره, فيستمد غناه من أبيه, ومن ماله, ومن ولده, ومن عائلته وحسبه ونسبه, وأما الله عَزَّ وَجلَّ فهو الغني الحميد, غناه غنى ذاتي سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

والفقر لي وصف ذات لازم أبدا * كما الغنى أبدا وصف له ذاتي**

قال: وَبِهِ قَامَتِ الْمَوْجُودَاتُ كُلُّهَا، فَهِيَ فَقِيرَةٌ إِلَيْهِ فَقْرًا ذَاتِيًّا، بِحَيْثُ لَا تَسْتَغْنِي عَنْهُ لَحْظَةً, فَهُوَ الَّذِي ابْتَدَأَ إِيجَادَهَا عَلَى هَذَا النَّحْوِ مِنَ الْإِحْكَامِ وَالْإِتْقَانِ، وَهُوَ الَّذِي يدبِّر أُمُورَهَا، وَيُمِدُّهَا بِكُلِّ مَا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي بَقَائِهَا.

إذًا: القيوم, والقيام, والقيم, هذه أسماء ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى, والذي جاء في القرآن اسمه القيوم, ما معنى القيوم؟

إن قلنا: إنه يدل على صفة الذات فالله عَزَّ وَجلَّ قائم بنفسه مستغن عن غيره سُبْحَانَهُ وَتعَالَى, لا يحتاج لأحد من الخلائق.

وإن قلنا: إنها يراد بها القائم على شئون عباده فتضمنت صفات أفعال ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

فقيام ربنا على شئون عباده يستلزم أنه هو الذي خلقهم, وأنه هو الذي رزقهم, وأنه هو الذي يُمدهم سُبْحَانَهُ وَتعَالَى ويدبر أمرهم, وهذا كله من صفات أفعاله.

وقد قال الله عَزَّ وَجلَّ هاهنا: {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ}.

وقال في سورة الرعد: {أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ} [الرعد: 33], فهو قائم على كل نفس, وكل هذه من ألفاظ العموم, فكل ما يصدُق عليه أنه نفس فالله عَزَّ وَجلَّ قائم على شأنه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى, من مبدأ إيجاد هذه النفس إلى ما لا منتهى له من أرزاق هذه النفس, ومما تحتاج إليه في هذه الحياة الدنيا.

ولذلك قال: فَهَذَا الِاسْمُ -يعني: اسمه القيوم- متضمِّنٌ لِجَمِيعِ صِفَاتِ الْكَمَالِ الفعليَّة, كَمَا أَنَّ اسْمَهُ الْحَيَّ متضمِّن لِجَمِيعِ صِفَاتِ الْكَمَالِ الذَّاتِيَّةِ، وَلِهَذَا وَرَدَ أَنَّ الْحَيَّ الْقَيُّومَ هُمَا اسْمُ اللَّهِ الْأَعْظَمِ الَّذِي إِذَا سُئِلَ بِهِ أَعْطَى، وَإِذَا دُعِي بِهِ أَجَابَ.

واسم الله الأعظم هذا مما اختلف فيه أهل العلم, وقد نقل هذا الاختلاف الحافظ ابن حجر في فتح الباري, وأوصله إلى أربعة عشرة قولًا في المسألة, وأشهر هذه الأقوال:

- **قول الجمهور,** وهو: أن اسم الله الأعظم هو (الله), وهذا قول الجمهور, قالوا: لأنه لم يُطلق على أحد غير الله, وهو اسم جامع لجميع أسمائه وصفاته, لأنه علم على الذات مختص به سُبْحَانَهُ وَتعَالَى ترجع إليه جميع الأسماء الحسنى.

ولذلك: (بسم الله الرحمن الرحيم), لا نقول: بسم الرحمن الرحيم الله, وإنما كل الأسماء تأتي تبعًا لاسمه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى (الله).

وقالوا كذلك: إن هذا الاسم ورد في جميع النصوص التي ورد فيها ذكر اسم الله الأعظم, فهذا يدل على أنه اسم الله الأعظم.

- **والقول الثاني:** وهو أن اسم الله الأعظم هو (الحي القيوم), وهذا رجحه النووي, ورجحه العلامة العثيمين من المتأخرين.

وقالوا: لأن بعض الأحاديث صرحت بذلك, كحديث أبي أمامة عند ابن ماجة: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: ﴿اسم الله الأعظم في سور من القرآن ثلاث: في البقرة, وآل عمران, وطه﴾, فبحث العلماء في هذه السور الثلاثة فوجدوا أن الاسم الذي تكرر في هذه السور ولم يأت في غيرها اسم الله (الحي) واسمه (القيوم).

- **والقول الثالث:** وهو أن اسم الله الأعظم هو (الأحد الصمد), لما جاء عند الترمذي من حديث بريدة رَضِي اللهُ عَنْهُ, أن رسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سمع رجلاً يقول: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ أَنِّي أَشْهَدُ أَنَّكَ أَنْتَ اللَّهُ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، الْأَحَدُ الصَّمَدُ الَّذِي لَمْ يَلِدْ، وَلَمْ يُولَدْ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ، فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿لَقَدْ سَأَلْتَ اللَّهَ بِالِاسْمِ الَّذِي إِذَا سُئِلَ بِهِ أَعْطَى، وَإِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ﴾.

ففي بعض الأحاديث (الأحد الصمد), وفي بعضها (الحي القيوم), وفي جميعها اسم (الله).

- **ولذلك كان القول الرابع هو القول الراجح:** وهو أن أسماء الله كلها عظيمة, وأن كل اسم من أسمائه تعالى يجوز وصفه بأنه الأعظم, وذلك بحسب الحالة التي يكون عليها الداعي بأي اسم من أسمائه.

فالمراد أن الداعي إذا كان مستغرقًا في دعائه بحيث لا يكون في فكره حالة إذٍ غير الله تعالى فمن فعل ذلك اُستجيب له.

فإذا دعا الله عَزَّ وَجلَّ باسمه (الغفور الرحيم) واستغرق في دعائه وجاء بآداب الدعاء كان هذا الاسم في حقه هو اسم الله الأعظم, وهو القول به تجتمع الأدلة, ومال إليه الطبري وجماعة من أهل العلم.

قال: ثُمَّ أَعْقَبَ ذَلِكَ بِمَا يدلُّ عَلَى كَمَالِ حَيَاتِهِ وقيُّوميَّته، فَقَالَ: {لَا تَأْخُذُهُ}؛ أَيْ لَا تَغْلِبُهُ {سِنَةٌ}؛ أَيْ نعاسٌ {وَلَا نَوْمٌ}.

والسِنة: هي مقدمة النوم, تكون في العين, فإذا انتقلت إلى القلب كان النوم.

فالمراد هاهنا: أن الله عَزَّ وَجلَّ لا ينام قهرًا ولا اختيارًا.

ولذلك قال: {لَا تَأْخُذُهُ}, فهذا فيه معنى القهر.

وقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حديث أبي موسى: «إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجلَّ لَا يَنَامُ وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ», هذا أمر منعه الله عَزَّ وَجلَّ على نفسه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى, لأنه يخفض القسط ويرفعه, ولأنه يُمسك السماوات والأرض أن تزولا, ولأنه يدبر أمر هذا العالم وأمْر خلقه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

فلا تأخذه سِنة ولا نوم, لا قهرًا ولا اختيارًا, وهذا يدل على كمال قيوميته, وكمال حياته سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

وما المراد بالنفي هاهنا: {لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ}؟ المراد: إثبات كمال الضد, أي: إثبات كمال حياته سُبْحَانَهُ وَتعَالَى وقيوميته.

فقال: فَإِنَّ ذَلِكَ يُنَافِي الْقَيُّومِيَّةَ؛ إِذِ النَّوْمُ أَخُو الْمَوْتِ، وَلِهَذَا كَانَ أَهْلُ الجنَّة لَا يَنَامُونَ.

ثُمَّ ذَكَرَ عُمُومَ مِلْكِهِ لِجَمِيعِ العوالِمِ العُلْوية والسُّفلية، وَأَنَّهَا جَمِيعًا تَحْتَ قَهْرِهِ وَسُلْطَانِهِ، فَقَالَ: {لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ}.

هذه الآية فيها أكثر من دلالة على ما ذكر المصنف رَحِمَهُ اللهُ, وأول ذلك: تقديم ما حقه التأخير, وهذا يدل على أن ذلك مقصور على ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى, فهو وحده الذي له مُلك السماوات والأرض, واللام في (له) للملك، لدخولها على أمور حسية.

وكذلك (ما) الموصولة التي تدل على مُلكه لجميع ما في السماوات وما في الأرض, فالآية بمعناها: له كل ما في السماوات وما في الأرض وما بينهما, هذا كله له وحده سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

ومما يدل على ذلك كذلك: (أل) التي في قوله: {السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ}, فـ(أل) هاهنا للعموم, فكل ما في السماوات وما في الأرض لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

قال الشيخ السعدي رَحِمَهُ اللهُ في منظومته في القواعد الفقهية:

و(أل) تفيـد الكـل في العمـوم في الجمـع والإفـراد كـالعليم

فإذا دخلت على الاسم المفرد والاسم الجمع فإنها تفيد العموم, ما لم تكن للعهد الذهني أو الذكر أو الحضور, والمراد هاهنا (أل) المستغرقة في هذه الآية.

قال: ثُمَّ أَرْدَفَ ذَلِكَ بِمَا يدلُّ عَلَى تَمَامِ مُلْكِهِ، وَهُوَ أَنَّ الشَّفَاعَةَ كُلَّهَا لَهُ، فَلاَ يَشْفَعُ عِنْدَهُ أحدٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ.

قال: {مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ}, قال: فَلاَ يَشْفَعُ عِنْدَهُ أحدٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ.

قال: وَقَدْ تضمَّن هَذَا النَّفْيُ وَالاِسْتِثْنَاءُ أَمْرَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: إِثْبَاتُ الشَّفَاعَةِ الصَّحِيحَةِ.

فعندنا شفاعة صحيحة, وشفاعة باطلة.

الشفاعة الصحيحة: تكون في الآخرة, وتكون بشروط, وهذه الشروط قال:

وَهِيَ أَنَّهَا تَقَعُ بِإِذْنِهِ سُبْحَانَهُ لِمَنْ يَرْضَى قَوْلَهُ وَعَمَلَهُ.

فلابد من إذن الرب تَبَارَكَ وَتَعَالَى ولابد من رضاه عن الشافع والمشفوع فيه, لا تكون الشفاعة إلا بذلك.

ولذلك الشفاعة العظمى لا تكون إلا بعد إذن ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى لنبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أن يشفع, والله عَزَّ وَجلَّ يرضى عن نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وكذلك سائر الشفاعات التي تكون في الآخرة مما اختص بها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ, أو مما يشركُهُ غيره من النبيين ومن الملائكة ومن الصالحين, هذه لابد فيها من إذن ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى ومن رضاه.

ويدل على ذلك قوله تعالى: {مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ}, والاستفهام هاهنا مُشرب بمعنى النفي, أي: لا يشفع احد عنده إلا بإذنه, فأنت إذا أجبت عن هذا السؤال: {مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ}؟ تقول: لا أحد يشفع عنده إلا بإذنه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى, لا ملك مقرب ولا نبي مرسل, أولو العزم أنفسهم يقولون يوم القيامة: نفسي نفسي, ولا يبتدئ واحد مهم الشفاعة دون إذن ربنا تَبارَكَ وَتعَالَى.

وكذلك قوله: {وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى} [الأنبياء: 28], يعني: لمن ارتضى من خلقه.

وكذلك قال في سورة النجم: {وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى} [النجم: 26].

فهذه الأدلة تدل على إثبات الشفاعة الصحيحة, وهي كائنة يوم القيامة, خلافًا لأهل البدع الذين ينكرون بعض هذه الشفاعات كالشفاعة في أهل الكبائر كالخوارج والمعتزلة, فإنهم ينكرون هذا النوع من الشفاعة, والقرآن والسنة يدلان على ثبوت هذه الشفاعة.

قال: وَالثَّانِي: إِبْطَالُ الشَّفَاعَةِ الشركيَّة الَّتِي كَانَ يَعْتَقِدُهَا الْمُشْرِكُونَ لِأَصْنَامِهِمْ، وَهِيَ أَنَّهَا تَشْفَعُ لَهُمْ بِغَيْرِ إِذْنِ اللَّهِ وَرِضَاهُ.

وهذه هي الشفاعة المنفية في كتاب الله.

ومنها قوله تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ} [البقرة: 254], فالشفاعة المنفية هاهنا: هي الشفاعة بغير إذنه ورضاه, التي كان يعتقدها المشركون لأصنامهم.

قال: ثُمَّ ذَكَرَ سَعَةَ عِلْمِهِ وَإِحَاطَتَهُ، وَأَنَّهُ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنَ الْأُمُورِ الْمُسْتَقْبَلَةِ وَالْمَاضِيَةِ.

ما الذي يدل في هذه الآية على أنه: لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنَ الْأُمُورِ الْمُسْتَقْبَلَةِ وَالْمَاضِيَةِ؟ قال: {يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ}.

ما المراد بما خلفهم؟ يراد هاهنا الأمور الماضية, فهذه يعلمها الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى, ويعلم ما بين أيديهم, أي: ما يستقبلون من أمور, فالله عَزَّ وَجلَّ علمه شامل ومحيط بكل شيء, سبحانه وسع كل شيء رحمة وعلمًا, يعلم ما كان, وما هو كائن, وما سيكون, وما لم يكن لو كان كيف كان يكون.

هذه الأمور التي لا تقع لو وقعت لعلم الله عَزَّ وَجلَّ حال وقوعها كيف ستكون.

ودليل ذلك: كما قال في سورة الأنعام: {وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَالَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} [الأنعام: 27].

وقال الله عَزَّ وَجلَّ: {بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا}, يعني: هم تمنوا أن يعودوا إلى الحياة الدنيا وأن يعملوا صالحًا, فقال الله عَزَّ وَجلَّ: {وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا}, فهل يردهم الله عَزَّ وَجلَّ؟ لا يردهم الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى, لكنهم لو ردوا لعادوا إلى عتوهم وكفرهم وعنادهم.

فقال: وَأَمَّا الْخَلْقُ فَإِنَّهُمْ {وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ}.

ما معنى: {وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ}؟ قال: قِيلَ: يَعْنِي مِنْ مَعْلُومِهِ: أي: مما يعلمه ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى من أمور خلقه, فلا يحيطون بشيء من معلومه إلا بما شاء, يعني: إلا بما أعلم خلقه من الأنبياء والمرسلين ومما أقدر الله عَزَّ وَجلَّ خلقه على العلم به.

والعلم كل يوم يكتشف شيئًا جديدًا مما يعلمه الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى من أمور الخلق, وهذا بإعلام الله عَزَّ وَجلَّ لهم.

وَقِيلَ: مِنْ عِلْمِ أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ؛ {إِلَّا بِمَا شَاء} اللَّهُ سُبْحَانَهُ أَنْ يُعْلِمَهُمْ إِيَّاهُ عَلَى أَلْسِنَةِ رُسُلِهِ.

فهذا كذلك لا يعلم الخلق منه شيئًا إلا بإعلام الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

ولذلك قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ", فمن أسماء الله عَزَّ وَجلَّ ما لم يطلع عليه لا ملك مقرب ولا نبي مرسل.

فقال على ألسنة رسله, وهذا يختص بعلم الأسماء والصفات, هذا مبناه على التوقيف.

وأما قوله: أَوْ بِغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ طُرُقِ الْبَحْثِ وَالنَّظَرِ وَالِاسْتِنْتَاجِ وَالتَّجْرِبَةِ: فهذا يرجع إلى ما يتعلق بمعلومه من أمور الخلق من اكتشافات تقع للناس كل يوم, فهذا مما أقدر الله عَزَّ وَجلَّ خلقه عليه, وأما علم الأسماء والصفات فليس مرده لا إلى البحث ولا إلى النظر ولا إلى الاستنتاج ولا إلى التجربة ولا إلى غير ذلك, كل ما كان من الغيب المحض فلا سبيل لمعرفتنا به إلا عن طريق الأنبياء والمرسلين.

ولذلك كان من الضلال المبين إرجاع نشأة الخلق وبَدْءِ الخلق إلى نظرية تقوم على تخرصات واستنتاجات مفترضة كنظرية الانفجار العظيمBig Bang, الذين يقولون: أن مبدأ هذا الكون ومبدأ خلق العالم كان كرة صغيرة ملتهبة, ثم بعد ذلك ازداد حجمها فانفجرت وتمددت, وما زالت تمتد إلى الآن, ثم تعود هذه الكرة مرة أخرى إلى الانكماش, العالم سينكمش مرة أخرى ليضمحل وينتهي وتقوم الساعة.

أصحاب هذه النظرية لا يؤمنون بقيام الساعة, لكن مما يؤسف له أن المفتونين عندنا بما يسمى بـ(الإعجاز العلمي) أخذوا هذه النظريات الفاسدة الملحدة التي صرَّح واضعوها بأنهم بهذه النظريات لا حاجة لهم للإيمان بالله بوجود إله, أنهم فسروا كل شيء ووقعوا على كل شيء عن طريق التجريب, هم يصرحون بذلك.

ثم يأتي هؤلاء المفتونون بما يسمى بـ(بالإعجاز العلمي) ويبحثون في آيات الله ليقولوا بعد ذلك: هذه آية من كتاب الله قد دلت على نظرية الانفجار العظيم.

كالآية التي قال الله عَزَّ وَجلَّ فيها: {أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ} [الأنبياء: 30]، مع أنك لو بحثت في معنى الآية في تفسير المفسرين تجد أنها تناقض ما ذكر هؤلاء.

فالمفسرون يقولون: أن السماوات والأرض كانتا ملتصقتين ففتقهما الله عَزَّ وَجلَّ بالماء، فأنزلت السماء الماء وفتق الأرض بخروج النبات، يعني: يوم أن صنع الله عَزَّ وَجلَّ ذلك كانت هناك سماء وكانت هناك أرض، أما بحسب نظرية الانفجار العظيم كانت هناك كرة صغيرة.

يقولون: العالم منذ أن انفجرت هذه الكرة وهو يتمدد إلى الآن, الكون يتمدد ويتسع!!

فبحث الإعجازيون عما يؤيد هذا التخرص. لابد أن نجد دليلا لنقول للقوم: قرآننا دل على ذلك، فما الدليل؟ {وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ} [الذاريات: 47].

وهذا كله من الغيب المحض الذي لا يستطيع الإنسان أن يصل إليه إلا بوحي من الله.

قال الله عَزَّ وَجلَّ: {مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ} [الكهف: 51]

فتجد هؤلاء يحاولون لي أعناق النصوص لكي تتوافق مع هذه النظريات، ولكي يقولوا للغرب: ها قد أثبتنا من قرآننا أن هذا العلم معروف من قبلكم من أربعة عشر قرن.

طيب أين كنتم؟ وأين أنتم؟ ما أخرجتم هذه الآية إلا بعد أن اكتشفنا، لماذا لم يذكر المفسرون هذا القول؟

فيعود قولهم بعد ذلك على القرآن بالنقض والإبطال, والاستهزاء هؤلاء بكتاب ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وتسفيه تفاسير السلف من أجل موافقة ما وصل إليه هؤلاء الملاحدة من فرضيات ونظريات أصولها إلحادية.

قال: ثُمَّ ذَكَرَ مَا يَدُلُّ عَلَى عَظِيمِ مُلْكِهِ، وَوَاسِعِ سُلْطَانِهِ، فَأَخْبَرَ أَنَّ كرسيَّه قَدْ وَسِعَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ جَمِيعًا.

وفي هذا حديث أبي ذر عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: " ما السَّماوات السّبع في الكُرسيِّ إلَّا كحلقةٍ ملقاةٍ بأرضٍ فلاةٍ، وفضلُ العرشِ على الكُرسيِّ كفضلِ تلك الفلاةِ على تلك الحلقةِ ".

فالسماوات السبع والأرضون السبع بالنسبة للكرسي الذي هو موضع قدم الرحمن سُبْحَانَهُ وَتعالَى، كحلقة أُلقيت في فلاة من الأرض، في صحراء، فأين هذه الحلقة من هذه الفلاة؟

ثم قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "وَإِن فَضْلُ الْعَرْشِ عَلَى الْكُرْسِيِّ كَفَضْلِ الْفَلَاةِ عَلَى الْحَلْقَةِ"، أي أن العرش لا يقدر قدره إلا الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، وهذا صححه الألباني, ورواه الطبراني في التفسير.

والكرسي: هو موضع قدم الرحمن، وهل لله عَزَّ وَجلَّ قدم؟ أجل، له قدم سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

وجاء ذلك في الصحيح: " إذا وضع الله عَزَّ وَجلَّ قدمه على النار ينزوي بعضها إلى بعض وتقول: قط قط قد امتلأت"، فالله عَزَّ وَجلَّ له قدم تليق به سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

قلنا: الكرسي موضع القدمين، هذا ثابت عن ابن عباس من رواية سعيد بن جُبير رَضِي اللهُ عَنْهُ أن ابن عباس قال: "الْكُرْسِيَّ مَوْضِعُ الْقَدَمَيْنِ"، فالله عَزَّ وَجلَّ له قدمان، "والْعَرْشَ لَا يُقَدِّرُ قَدْرَهُ إلَّا اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتعَالَى"، وهذا صحيح موقوف كما قال الألباني، ومثله لا يُقال بالرأي, لأنه من الغيب، فهذا مرفوع حكمًا.

قال: ثُمَّ ذَكَرَ مَا يَدُلُّ عَلَى عَظِيمِ مُلْكِهِ، وَوَاسِعِ سُلْطَانِهِ، فَأَخْبَرَ أَنَّ كرسيَّه قَدْ وَسِعَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ جَمِيعًا.

قال: وَالصَّحِيحُ فِي الْكُرْسِيِّ أَنَّهُ غَيْرُ الْعَرْشِ، وَأَنَّهُ مَوْضِعُ الْقَدَمَيْنِ، وَأَنَّهُ فِي الْعَرْشِ كحلْقة مُلْقَاةٍ فِي فَلاَةٍ.

وذكرنا الدليل على ذلك.

قال: وَأَمَّا مَا أَوْرَدَهُ ابْنُ كَثِيرٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ.

ومن قبله الطبري وانتصر له, فِي تَفْسِيرِ الْكُرْسِيِّ بِالْعِلْمِ؛ فَإِنَّهُ لَا يصحُّ، وَيُفْضِي إِلَى التَّكْرَارِ فِي الْآيَةِ.

أورد الإمام ابن جرير الطبري بسنده إلى ابن عباس أنه فسر الكرسي بالعلم، {وَسِعَ كُرْسِيُّهُ}، أي: وسع علمه السماوات والأرض، لكن هذا لا يصح، هذا الأثر لا يصح, وهو مردود من أكثر من جهة.

- **أما الجهة الأولى**: فضعف إسناده، ومثل هذا يُرد به الأثر, لأنه من الكلام في الغيب، فلابد في ذلك من وحي ومن سند صحيح.
- **الأمر الثاني**: فهو معارض بما هو صحيح، لا أقول: بما هو أصح منه، بل بما هو صحيح، وهذا ضعيف, والضعيف لا يعارض الصحيح.

وقد ذكرنا ذلك من قول ابن عباس: "الْكُرْسِيَّ مَوْضِعُ الْقَدَمَيْنِ"، وكذلك قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي ذكرناه.

- **وأما الأمر الثالث** -كما يقول ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ في بيان تلبيس الجهمية-: فإنه لا يُعرف في لغة العرب أن الكرسي بمعنى العلم، وأن مادته هي مادة العلم في أصل اشتقاقها.
- **وأما الأمر الربع**: فهو أن علم الله غير مختص بالسماوات والأرض فقط.

قال: {وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ}، وعلم الله عَزَّ وَجَلَّ غير مختص بالسماوات والأرض سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، فهو سبحانه وسع كل شيء رحمة وعلما، ولا يعزب عن علمه شيء.

- **الأمر الخامس**: فهو أن سياق الآيات في القدرة والسلطان وبيان عظمة مخلوقاته سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

فالذي يُناسب الآيات أن الكرسي هاهنا هو ما جاء في الآثار السلفية وفي السنة النبوية.

- ثم **الأمر السادس** الذي يُرد به هذا التفسير: وهو أن هذا التفسير ركن إليه المعطلة الجهمية، كما ذكر ذلك الإمام عثمان بن سعيد الدارمي رَحِمَهُ اللهُ في رده على بشر المريسي، فذكر أنهم يفسرون الكرسي بالعلم.

وأما أهل السنة والجماعة فقد نقل غير واحد منهم على أن الكرسي هو الكرسي الذي جاء في الآثار.

- **والأمر السابع** كذلك ما ذكره المصنف رَحِمَهُ اللهُ: أن هذا يُفْضِي إِلَى التَّكْرَارِ فِي الْآيَةِ, لأنه قال قبل ذلك: {وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ}، ثم يقول: وسع علمه السماوات والأرض، بل هذا فيه ما قد يُشبه التناقض.

{وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ}، هذا يدل على كمال علمه سُبْحَانَهُ وَتعالَى، وأن علمه لا يحيط به أحد, ثم يقول بعد ذلك: وسع علمه السماوات والأرض.

قال: ثُمَّ أَخْبَرَ سُبْحَانَهُ بَعْدَ ذَلِكَ عَنْ عَظِيمِ قُدْرَتِهِ وَكَمَالِ قُوَّتِهِ بقوله: {وَلَا يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا}.

الضمير يعود إلى السماوات والأرض, أَيِ: السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِمَا، لا يصعب عليه تعالى حفظهما.

قال: وَفَسَّرَ الشَّيْخُ رَحِمَهُ اللهُ -يعني: ابن تيمية في الأصل- {يَؤُودُه} بـ: (يُثْقِلُهُ ويُكْرِثُه)، وَهُوَ مِنْ آدَهُ الْأَمْرُ: إِذَا ثَقُلَ عَلَيْهِ.

وهذه صفة منفية عن ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى، تستلزم ماذا؟ إثبات كمال الضد, وهو كمال قوته وقدرته سُبْحَانَهُ وَتعالَى.

قال: ثُمَّ وَصَفَ نَفْسَهُ سُبْحَانَهُ فِي خِتَامِ تِلْكَ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ بِهَذَيْنِ الْوَصْفَيْنِ الْجَلِيلَيْنِ؛ وَهُمَا: {الْعَلِيُّ}، وَ {الْعَظِيمُ}.

وهما اسمان كريمان من أسماء الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، دالان على كماله سبحانه.

فالعَلِيُّ: هُوَ الَّذِي لَهُ العلوُّ الْمُطْلَقُ مِنْ جَمِيعِ الْوُجُوهِ.

له علو الذات, وهذا يعني: كونه فوق خلقه مستويًا على عرشه.

قال تعالى: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} [طه: 5], {إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ} [فاطر: 10].

قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرُ".

هناك أكثر من ألف دليل على علو الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

فقال: عُلُوِّ الذَات: وَكَوْنِهِ فَوْقَ جَمِيعِ الْمَخْلُوقَاتِ مُسْتَوِيًا عَلَى عَرْشِهِ.

وهذا العلو لا يُثبته إلا أهل السنة والجماعة السلفيون, وأما المعطلة بسائر فرقها فإنها لا تُثبت علو الله عَزَّ وَجلَّ فوق خلقه.

قال: وَعُلُوِّ القَدْرِ: إِذْ كَانَ لَهُ كُلُّ صِفَةِ كَمَالٍ، وَلَهُ مِنْ تِلْكَ الصِّفَةِ أَعْلَاهَا وَغَايَتُهَا.

فله علو القَدْر سُبْحَانَهُ وَتعَالَى, وعلو الشأن, وعلو الصفات وكمالها من غير وجه نقص.

قال: وَعُلُوِّ القَهْرِ: إِذْ كَانَ هُوَ الْقَاهِرَ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ. أي المستعلي عليهم سبحانه. قال الحَليمي: "الذي يَقهر ولا يُقهر بحال".

وقال الخطابي: "هو الذي قهر الجبابرة من عتاة خلقه بالعقوبة، وقهر الخلق كلهم بالموت".

وقال ابن القيم في نونيته:

وَكذلِكَ القَهّارُ مِنْ أوْصَافِهِ * فَالخَلْقُ مَقْهُورُونَ بِالسُّلْطَانِ

لَوْ لَمْ يَكُنْ حَيّاً عَزِيزاً قَادِراً * مَا كَانَ مِنْ قَهْرٍ وَمِنْ سُلْطانِ

قال: وَأَمَّا الْعَظِيمُ؛ فَمَعْنَاهُ الْمَوْصُوفُ بِالْعَظَمَةِ، الَّذِي لَا شَيْءَ أَعْظَمُ مِنْهُ، وَلَا أَجَلُّ، وَلَا أَكْبَرُ، وَلَهُ سُبْحَانَهُ التَّعْظِيمُ الْكَامِلُ فِي قُلُوبِ أَنْبِيَائِهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَأَصْفِيَائِهِ.

ولهذا استحق ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى هذه الأنواع الثلاثة من العلو: علو الذات, وعلو القهر, وعلو القَدْر.

بقي معنا كلام لابن كثير رَحِمَهُ اللهُ في هذه الآية العظيمة.

قال رَحِمَهُ اللهُ: وَهَذِهِ الْآيَةُ مُشْتَمِلَةٌ عَلَى **عَشْرِ جُمَلٍ مُسْتَقِلَّةٍ.**

- فقوله تعالى: {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ}, إِخْبَارٌ بِأَنَّهُ الْمُتَفَرِّدُ بِالْإِلَهِيَّةِ لِجَمِيعِ الْخَلَائِقِ.
- {الْحَيُّ الْقَيُّومُ}, أَيِ: الْحَيُّ فِي نَفْسِهِ الَّذِي لَا يَمُوتُ أَبَدًا، الْقَيِّمُ لِغَيْرِهِ, وَكَانَ عُمَرُ يَقْرَأُ (القيّام) فَجَمِيعُ الْمَوْجُودَاتِ مُفْتَقِرَةٌ إِلَيْهِ وَهُوَ غَنِيٌّ عَنْهَا، وَلَا قِوَامَ لَهَا بِدُونِ أَمْرِهِ، كَقَوْلِهِ: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ}.
- وَقَوْلُهُ: {لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ}, أَيْ لَا يَعْتَرِيهِ نَقْصٌ وَلَا غَفْلَةٌ وَلَا ذُهُولٌ عَنْ خلقه، بَلْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ، شَهِيدٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ, لَا يَغِيبُ عَنْهُ شَيْءٌ وَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ، وَمِنْ تَمَامِ الْقَيُّومِيَّةِ أَنَّهُ لَا يَعْتَرِيهِ سِنة وَلَا نَوْمٌ.

فَقَوْلُهُ: {لَا تَأْخُذُهُ}, أَيْ لَا تَغْلِبُهُ, {سِنَةٌ}, وَهِيَ الْوَسَنُ وَالنُّعَاسُ, وَلِهَذَا قَالَ {وَلَا نَوْمٌ}, لِأَنَّهُ أَقْوَى مِنَ السِّنة.

قال: وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي مُوسَى قَالَ: قَامَ فِينَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ فَقَالَ: "إِنَّ اللَّهَ لَا يَنَامُ وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ، يُخْفِضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ، يُرْفع إِلَيْهِ عَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ، وَعَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ، حِجَابُهُ النُّورُ أَوِ النَّارُ، لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ".

- قال: وَقَوْلُهُ تَعَالَى: {لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ}, إِخْبَارٌ بِأَنَّ الْجَمِيعَ عَبِيدُهُ وفي ملكه وتحت قهر وسلطانه, كقوله: {إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا (93) لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا (94) وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا}.
- قال: وقوله تَعَالَى: {مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ}، كقوله: {وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى}، وكقوله: {وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى}.

قال: وَهَذَا مِنْ عَظَمَتِهِ وَجَلَالِهِ وَكِبْرِيَائِهِ عَزَّ وَجلَّ، أَنَّهُ لَا يَتَجَاسَرُ أَحَدٌ عَلَى أَنْ يَشْفَعَ لأحد عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ لَهُ فِي الشَّفَاعَةِ, كَمَا فِي حَدِيثِ الشَّفَاعَةِ: "آتِي تَحْتَ الْعَرْشِ فَأَخِرُّ سَاجِدًا فَيَدَعُنِي مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَدَعَنِي"، ثُمَّ يُقَالُ: "ارْفَعْ رَأْسَكَ وَقُلْ تُسْمَعْ، واشفع تُشَفَّعْ", قَالَ: "فَيَحِدُّ لِي حَدًّا فَأُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ".

- قال: وقوله تعالى: {يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ}, دَلِيلٌ عَلَى إِحَاطَةِ عِلْمِهِ بِجَمِيعِ الْكَائِنَاتِ, مَاضِيهَا وَحَاضِرِهَا وَمُسْتَقْبَلِهَا، كَقَوْلِهِ إِخْبَارًا عَنِ

الْمَلائِكَةِ: {وَمَا نَتَنزلُ إلا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا}.

- وَقَوْلُهُ: {وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إلا بِمَا شَاءَ} أَيْ: لَا يَطَّلِعُ أَحَدٌ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ عَلَى شَيْءٍ إلا بِمَا أَعْلَمَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجلَّ وَأَطْلَعَهُ عَلَيْهِ, وَيَحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ لَا يَطَّلِعُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ عِلْمِ ذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ إِلَّا بِمَا أَطْلَعَهُمُ اللَّهُ عَلَيْهِ, كَقَوْلِهِ: {وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا} [طَهَ:110].

- وَقَوْلُهُ: {وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ}, قَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ وابْنُ جَرِيرٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: {كُرْسِيُّهُ}: عِلْمُهُ.

قال الشيخ أحمد شاكر في تحقيقه في اختصاره لتفسير ابن كثير, قال في هذا الأثر: هو شاذ بمرة, مخالف للثابت الصحيح عن ابن عباس, كما سياتي.

قال هاهنا في بعض أسانيد الطبري, قال: إسناده جيد, لكنه شاذ بمرة.

والشاذ: هو الذي يخالف فيه الثقة من هو أوثق منه.

قَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: وَرُوِيَ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ مِثْلُهُ, قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَقَالَ آخَرُونَ: الْكُرْسِيُّ مَوْضِعُ الْقَدَمَيْنِ, ثُمَّ رَوَاهُ عَنْ أَبِي مُوسَى وَالسُّدِّيِّ وَالضَّحَّاكِ.

وَقَالَ شُجَاعُ بْنُ مَخْلَدٍ فِي تَفْسِيرِهِ: أَخْبَرَنَا أَبُو عَاصِمٍ عَنْ سُفْيَانَ عَنْ عَمَّارٍ الدُّهْني عَنْ مُسْلِمٍ الْبَطِينِ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: سُئِلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ قَوْلِ اللَّهِ: {وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ}, قَالَ: "كُرْسِيُّهُ مَوْضِعُ قَدَمَيْهِ, وَالْعَرْشُ لَا يُقَدِّرُ قَدْرَهُ إِلَّا اللَّهُ عَزَّ وَجلَّ".

قال: كَذَا أَوْرَدَ هَذَا الْحَدِيثَ الْحَافِظُ أَبُو بَكْرِ بْنُ مَرْدَوَيْهِ مِنْ طَرِيقِ شُجَاعِ بْنِ مَخْلَدٍ الْفَلاَّسِ، فَذَكَرَهُ وَهُوَ غَلَطٌ, وَقَدْ رَوَاهُ وَكِيع فِي تَفْسِيرِهِ: حَدَّثَنَا سُفْيَانُ عَنْ

عَمَّارٍ الدُّهْنِي عَنْ مُسْلِمٍ الْبَطِينِ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ, قَالَ: "الْكُرْسِيُّ مَوْضِعُ الْقَدَمَيْنِ وَالْعَرْشُ لَا يُقَدِّرُ أَحَدٌ قَدْرَهُ", وهذا وإن كان موقوفًا على ابن عباس وهو صحيح على شرط الشيخين إلا أنه لا يقال بالرأي.

ثم قال: وَقَدْ زَعَمَ بَعْضُ الْمُتَكَلِّمِينَ عَلَى عِلْمِ الْهَيْئَةِ مِنَ الْإِسْلَامِيِّينَ: أَنَّ الْكُرْسِيَّ عِنْدَهُمْ هُوَ الْفَلَكُ الثَّامِنُ وَهُوَ فَلَكُ الثَّوَابِتِ الَّذِي فَوْقَهُ الْفَلَكُ التَّاسِعُ وَهُوَ الْفَلَكُ الْأَثِيرُ وَيُقَالُ لَهُ: الْأَطْلَسُ.

قال: وَقَدْ رَدَّ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ آخَرُونَ, وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ مِنْ طَرِيقِ جُويبر عَنِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: الْكُرْسِيُّ هُوَ الْعَرْشُ.

قال: وَالصَّحِيحُ أَنَّ الْكُرْسِيَّ غَيْرُ الْعَرْشِ وَالْعَرْشَ أَكْبَرُ مِنْهُ، كَمَا دَلَّتْ عَلَى ذَلِكَ الْآثَارُ وَالْأَخْبَارُ.

- وَقَوْلُهُ: {وَلا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا}, أَيْ: لا يثقله ولا يُكْرِثُهُ حِفْظُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِمَا وَمَنْ بَيْنَهُمَا، بَلْ ذَلِكَ سَهْلٌ عَلَيْهِ يَسِيرٌ لَدَيْهِ, وَهُوَ الْقَائِمُ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ، الرَّقِيبُ عَلَى جَمِيعِ الْأَشْيَاءِ، فَلَا يَعْزُبُ عَنْهُ شَيْءٌ وَلَا يَغِيبُ عَنْهُ شَيْءٌ, وَالْأَشْيَاءُ كُلُّهَا حَقِيرَةٌ بَيْنَ يَدَيْهِ, مُتَوَاضِعَةٌ ذَلِيلَةٌ صَغِيرَةٌ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِ، مُحْتَاجَةٌ فَقِيرَةٌ, وَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ, الْفَعَّالُ لِمَا يُرِيدُ، الَّذِي لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ, وَهُوَ الْقَاهِرُ لِكُلِّ شَيْءٍ, الْحَسِيبُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ, الرَّقِيبُ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ, لَا إِلَهَ غَيْرُهُ وَلَا رَبَّ سِوَاهُ, فَقَوْلُهُ: {وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ}, كَقَوْلِهِ: {الْكَبِيرُ الْمُتَعَال} [الرَّعْدِ:9].

قال: وَهَذِهِ الْآيَاتُ وَمَا فِي مَعْنَاهَا مِنَ الْأَحَادِيثِ الصِّحَاحِ الْأَجْوَدُ فِيهَا طَرِيقَةُ السَّلَفِ الصَالِحِ إِمْرَارُهَا كَمَا جَاءَتْ مِنْ غَيْرِ تَكْيِيفٍ وَلَا تَشْبِيهٍ.

رضي الله عن ابن كثير.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم, وجزاكم الله خيرًا.

الدرس الحادي عشر

إن الحمد لله, نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله تعالى من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله, صلى الله عليه, وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد:

فما زال الحديث موصولًا في قراءة هذه العقيدة, عقيدة شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ العقيدة الواسطية.

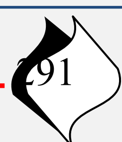
وكنا قد توقفنا عند الدليل الثالث من الأدلة التي ذكرها المصنف رَحِمَهُ اللهُ التي تبين اعتقاد أهل السنة والجماعة في باب الأسماء والصفات, فقال رَحِمَهُ اللهُ:

وَقَوْله سُبْحَانَهُ: {هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [الحديد: 3].

قال الشيخ الهراس: قَوْلُهُ: {هُوَ الأَوَّلُ}؛ الْجُمْلَةُ هُنَا جَاءَتْ مُعَرَّفَةَ الطَّرَفَيْنِ؛ فَهِيَ تُفِيدُ اخْتِصَاصَهُ سُبْحَانَهُ بِهَذِهِ الْأَسْمَاءِ الْأَرْبَعَةِ وَمَعَانِيهَا عَلَى مَا يَلِيقُ بِجَلالِهِ وَعَظَمَتِهِ، فَلاَ يُثْبَت لِغَيْرِهِ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ.

{هُوَ الأَوَّلُ}: مبتدأ وخبر, وهو ضمير, والضمير معرفة, و{الأَوَّلُ}: خبر, وهو معرفة كذلك معرف بالألف واللام.

والجملة إذا كانت معرفة الطرفين فإنها تفيد الاختصاص, تفيد حصر الخبر في المبتدأ, كما جاء في هذه الآية, فهو وحده سبحانه الأول الذي ليس قبله شيء, كما سيأتي في حديث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.



وهذا يعني كما قال الشيخ رَحِمَهُ اللهُ: أنه لا يُثْبَت لِغَيْرِهِ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ, فليس لأحد سواه هذه الأولية.

قال: وَقَدِ اضْطَرَبَتْ عِبَارَاتُ المتكلِّمين فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْأَسْمَاءِ، وَلَا دَاعِيَ لِهَذِهِ التَّفْسِيرَاتِ بَعْدَمَا وَرَدَ تَفْسِيرُهَا عَنِ الْمَعْصُومِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلامُهُ عَلَيْهِ.

لو نظرت في تفاسير المتكلمين -وأنا أذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر- لو نظرت في تفسير الفخر الرازي وماذا قال في هذه الآية: {هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}؛ لوجدت كلامًا يقسي القلوب, كلامًا لا علاقة له بتوحيد رب العالمين, يشتت ذهن العبد, لا يستدل على ذلك لا بآية أخرى ولا بحديث من أحاديث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وقد سطر في تفسير هذه الآية وحدها أكثر من عشر صفحات, حشاها كلها بفلسفات المتكلمين وبإيراد الشبهات التي من عرفها وقرأها قد لا يستطيع أن يخرج منها سالمًا.

والفخر الرازي -عفا الله عنه- كانت هذه عادته في تفسيره, كما قالوا عنه أنه كان يستدل للمخالفين أحسن من استدلالهم لأنفسهم, ويقرر شبهاتهم, ثم إذا أراد أن يرد عليها رد ردودًا واهية لا تفي بالمراد.

وقد يستدل لهم هاهنا ويؤخر الرد في مكان آخر, لا تستطيع أن تربط بين الشبهة والرد عليها, فقالوا عنه: أنه كان يورد الشبهة نقدًا ويرد عليها نسيئة!!

وغير الرازي اضطربت أقوالهم كذلك في تفسير هذه الأسماء, ولا حاجة لنا لهذا الكلام وقد جاء تفسير النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ, ونحن نعلم أن أفضل طرق التفسير أن يفسر القرآن بالقرآن, وأن يفسر بسنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

وَسَلَّمَ, وأن يفسر بأقوال أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ, فإن لم نجد لا في القرآن ولا في السنة ولا في أقوال أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من ذلك شيئًا لجأنا إلى لغة العرب, فإذا جاء التفسير عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فحسبك, هذا يكفيك.

وقد جاء تفسير النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لهذه الأسماء في حديث رواه الإمام مسلم, ذكره المصنف هاهنا, قال: فَقَدْ رَوَى مُسْلِمٌ فِي ((صَحِيحِهِ)) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِي اللهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ إِذَا أَوَى إِلَى فِرَاشِهِ:

((اللهمَّ ربَّ السَّماوَاتِ السَّبْعِ، وربَّ الأرضِ، ربَّ كُلِّ شَيْءٍ، فَالِقَ الْحَبِّ وَالنَّوَى، مُنْزِلَ التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ؛ أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ كُلِّ ذِي شرٍّ أَنْتَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهِ، أَنْتَ الْأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ، اقضِ عَنِّي الدَّيْنَ وأَغْنِنِي مِنَ الْفَقْرِ)).

((اللهمَّ ربَّ السَّماوَاتِ السَّبْعِ، وربَّ الأرضِ، ربَّ كُلِّ شَيْءٍ)): فخصّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثم عمم, توسل بربوبية الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى للسماوات السبع والأرضين السبع ثم توسل بما هو أعم من ذلك بأنه رب كل شيء سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، فكل ما يصدق عليه أنه شيء لا يخرج عن ربوبيته تعالى.

فهذا الدعاء يصلح لأن يكون من أذكار النوم, ويصلح لأن يتوسل العبد به إلى ربه تَبَارَكَ وَتَعَالَى ليخرجه من الفقر إلى الغني, وليقضي عنه دينْه, لأن النبي

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد جاء في هذا الدعاء بآداب الدعاء, وهو أنه قدم بين يدي حاجته التوسل بالله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى وأسمائه وصفاته.

قال: فَهَذَا تَفْسِيرٌ واضحٌ جامعٌ يدلُّ عَلَى كَمَالِ عَظَمَتِهِ سُبْحَانَهُ، وَأَنَّهُ محيطٌ بِالْأَشْياءِ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ.

فَالْأَوَّلُ وَالْآخِرُ: بَيَانٌ لِإِحَاطَتِهِ الزَّمَانِيَّةِ.

ولذلك قال: ((أَنْتَ الْأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ)), هذا من جهة الزمان, فالله عَزَّ وَجلَّ من أسمائه (الأول), وليس من أسمائه (القديم), فالمتكلمون يطلقون على الله عَزَّ وَجلَّ أنه (القديم) كاسم له, وأما ما جاء في الكتاب والسنة فـ(الأول).

وهذا أدق وأصح, فليس من أسماء الله عَزَّ وَجلَّ (القديم), لماذا؟ لأن القديم يحتمل معاني لا تليق بالله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى, فقد يكون قدمه قدمًا نسبيًا ليس قدمًا مطلقًا.

كما قال الله عَزَّ وَجلَّ: {وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ} [يس: 39], فالعرجون قديم باعتبار ما آل إليه, وإلا فإنه لم يكن قديمًا قبل ذلك, فالقديم يحتمل بعض المعاني التي لا تليق بحق الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

وأسماء الله عَزَّ وَجلَّ حسنى, لا وجه نقص فيها, ولذلك لا يسمى الله عَزَّ وَجلَّ بـ(القديم), ولا يوصف كذلك بأنه قديم, وإن كان قد جاء في بعض عبارات المنتسبين لأهل السنة والجماعة الإخبار عنه بذلك, لأن هذا لم يرد لا في الكتاب ولا في السنة, والأصل في الأسماء والصفات التوقيف.

وأما ما جاء في حديث دخول المسجد من قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "أعوذ بالله العظيم وبسلطانه القديم", فهذا وصف لسلطانه, لكن لا يوصف الله عَزَّ وَجلَّ به بإطلاق, وأما هو فهو الأول سُبْحَانَهُ وَتعَالَى الذي ليس قبله شيء, والآخر الذي ليس بعده شيء, فهذه إحاطة زمنية.

قال: وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ: بَيَانٌ لِإِحَاطَتِهِ الْمَكَانِيَّة.

ما معنى الظاهر؟ أي: الذي علا على خلقه, وليس معناه الذي ظهرت آياته في خلقه, كما فسره بذلك المتكلمون, لأنهم ينكرون علو الله عَزَّ وَجلَّ على خلقه, فالظاهر أي: الذي علا على خلقه.

ولذلك قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ)), ليس فوقه شيء من جهة ماذا؟ من جهة ذاته سُبْحَانَهُ وَتعَالَى ومن جهة صفاته, فهو أعلى من كل شيء ذاتًا وصفة.

ولذلك كان له أنواع ثلاثة من العلو والفوقية والظهور: علو الذات, وعلو الشأن أو القدر أو الصفات, وعلو القهر.

وبعض أهل السنة والجماعة يجعلون العلو نوعين:

- علو الذات
- وعلو الصفات

لأن علو القهر صفة, وعلو الشأن كذلك صفة, وعلو القدر صفة, فيجعلون ذلك قسمين.

ومنهم من يذكر هذه الأقسام الثلاثة.

فقال: وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ: بَيَانٌ لِإِحَاطَتِهِ الْمَكَانِيَّة.

كَمَا أَنَّ اسْمَهُ الظَّاهِرُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ الْعَالِي فَوْقَ جَمِيعِ خَلْقِهِ، فَلاَ شَيْءَ مِنْهَا فَوْقَهُ.

فسقف المخلوقات هو العرش, لا مخلوق أعلى من العرش والله عَزَّ وَجلَّ فوق العرش ولا يخفى عليه شيء من أمورنا وأحوالنا سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

قال: فَمَدَارُ هَذِهِ الْأَسْمَاءِ الْأَرْبَعَةِ عَلَى الْإِحَاطَةِ، فَأَحَاطَتْ أَوَّلِيَّتُهُ وآخريَّتُهُ بِالْأَوَائِلِ وَالْأَوَاخِرِ، وَأَحَاطَتْ ظاهريَّته وباطنيَّتُهُ بِكُلِّ ظاهرٍ وباطنٍ.

فَاسْمُهُ الْأَوَّلُ: دالٌّ عَلَى قِدَمِهِ وأزليَّتِهِ.

وَاسْمُهُ الْآخِرُ: دالٌّ عَلَى بَقَائِهِ وأبديَّتِهِ.

وَاسْمُهُ الظَّاهِرُ: دالٌّ عَلَى عُلوِّهِ وَعَظَمَتِهِ.

وَاسْمُهُ الْبَاطِنُ: دالٌّ عَلَى قُرْبِهِ وَمَعِيَّتِهِ.

فالباطن أي: القريب من خلقه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

قال: ثُمَّ خُتِمَت الْآيَةُ بِمَا يُفِيدُ إِحَاطَةَ عِلْمِهِ بِكُلِّ شَيْءٍ مِنَ الْأُمُورِ الْمَاضِيَةِ وَالْحَاضِرَةِ وَالْمُسْتَقْبَلَةِ، وَمِنَ الْعَالَمِ العُلوي والسُّفلي، وَمِنَ الْوَاجِبَاتِ وَالْجَائِزَاتِ وَالْمُسْتَحِيلاَتِ، فَلاَ يَغِيبُ عَنْ عِلْمِهِ مِثْقَالُ ذرَّة فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ.

فَالْآيَةُ كُلُّهَا فِي شَأْنِ إِحَاطَةِ الرَّبِّ سُبْحَانَهُ بِجَمِيعِ خَلْقِهِ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ، وَأَنَّ الْعَوَالِمَ كُلَّهَا فِي قَبْضَةِ يَدِهِ؛ كَخَرْدَلَةٍ فِي يَدِ الْعَبْدِ، لَا يَفُوتُهُ مِنْهَا شَيْءٌ، وَإِنَّمَا أَتَى بَيْنَ هَذِهِ الصِّفَاتِ بِالْوَاوِ مَعَ أَنَّهَا جَارِيَةٌ عَلَى مَوْصُوفٍ وَاحِدٍ؛ لِزِيَادَةِ التَّقْرِيرِ وَالتَّأْكِيدِ؛ لِأَنَّ الْوَاوَ تَقْتَضِي تَحْقِيقَ الْوَصْفِ الْمُتَقَدِّمِ وَتَقْرِيرَهُ، وَحَسُنَ ذَلِكَ لِمَجِيئِهَا بَيْنَ أَوْصَافٍ مُتَقَابِلَةٍ.

قال: {الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ} [الحديد: 3], فهي أوصاف متقابلة.

قَدْ يَسْبِقُ إِلَى الْوَهْمِ اسْتِبْعَادُ الاِتِّصَالِ بِهَا جَمِيعًا؛ فَإِنَّ الْأَوَّلِيَّةَ تُنَافِي الْآخِرِيَّةَ فِي الظَّاهِرِ، وَكَذَلِكَ الظَّاهِرِيَّةُ وَالْبَاطِنِيَّةُ، فَانْدَفَعَ توهُّم الْإِنْكَارِ بِذَلِكَ التَّأْكِيدِ.

انتهى كلام الشيخ الهراس رَحِمَهُ اللهُ.

وكما ذكرت لكم عن الرازي –عفا الله عنه- وما قرره فيما يتعلق بهذه الآية, أذكر لكم كلام عالم من علماء أهل السنة والجماعة وأئمتهم ومحققيهم في هذا الباب خاصة –باب الأسماء والصفات-, وله في ذلك المصنفات الجليلة التي لم يصنف مثلها, وهو ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ.

فصنف في ذلك اجتماع الجيوش الإسلامية في الرد على المعطلة الجهمية, وصنف في ذلك الصواعق المرسلة, حتى إن بعض أساتذتنا في الجامعة كلية دار العلوم -عفا الله عنه- كان يتهكم على هذه الأسماء, يقول: يعني: أسماء شديدة, وهي شديدة حقًا وهي في موضعها, لأن هؤلاء أفسدوا فسادًا عريضًا في هذ ا الباب العظيم باب الأسماء والصفات.

فماذا قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ في تقرير هذه الأسماء الأربعة؟

قال كلامًا طويلاً شافيًا ممتعًا, يقرر العقيدة ويبين كيف يعبد العبد ربه تَبَارَكَ وَتَعَالَى على مقتضى هذه الأسماء, لأن بعض المنحرفين من أهل الوجد والتذوق ووحدة الوجود ظن في اسمه (الباطن) ما يفيد اختلاط الله عَزَّ وَجلَّ بخلقه, ويفيد الاعتقاد بوحدة الوجود والحلول والاتحاد, فقرر ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ ما ينبغي أن نعتقده وكيف نعبد الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى على مقتضى هذه الأسماء.

فقال رَحِمَهُ اللهُ في قول الله تعالى: {هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}.

قال: **فائدة بديعة.**

القاعدةُ: أن الشيءَ يُعْطف على نفسه؛ لأن حروف العطف بمنزلة تَكْرار العامل؛ لأنك إذا قلت: "قام زيد وعَمْرو"، فهي بمعنى: "قام زيد وقام عَمْرو"، والثاني غير الأول، فإذا وجدت مثل قولهم: "كذبًا وميناً". كما جاء في بيت الشاعر.

قال: فهو لمعنًى زائد في اللفظ الثاني. لأن الكذب هو المين, كلاهما بمعنى واحد.

قال: لمعنًى زائد في اللفظ الثاني، وإنْ خَفِيَ عنك.

ولهذا يبعد جدًّا أن يجيء في كلامهم: "جاءني عُمَر وأبو حفص" وكلاهما واحد، و: "رضي الله عن أبي بكر وعَتِيْقٍ"، فإن الواو إنما تجمع بين الشيئين، لا بين الشيء الواحد، فإذا كان في الاسم الثاني فائدة زائدة على معنى الاسم الأول كنت مخيرًا في العطف وتركه، فإن عطفتَ فمن حيث قصدتَ تَعْداد الصفات وهي متغايرة، وإن لم تعطف فمن حيث كان في كلٍّ منهما ضميرٌ هو الأول.

فعلى الوجه الأول تقول: "زيد فقيه وكاتب"، وعلى الثاني: "فقيه كاتب". وكلاهما جاء في حق الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

يعني: هاهنا في هذه الآية: {هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ}.

لكن اقرأ آخر سورة الحشر: {هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ}, ليس هناك عطف.

فجاء هذا وذاك في حق الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى, لكنه سيبين هاهنا لماذا جاء العطف, ولماذا لم يقل الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى: (هو الأول الآخر الظاهر الباطن).

قال: فعلى الوجه الأول تقول: "زيد فقيه وكاتب"، وعلى الثاني: "فقيه كاتب", كأنك عطفتَ بالواو الكتابةَ على الشعر، وحيث لم تعطف أتبعت الثاني الأول؛ لأنه هو من حيث اتحد الحامل للصفات.

قال: وأما في أسماء الرب تبارك وتعالى؛ فأكثر ما يجيء في القرآن بغير عطف، نحو: "السميع العليم"، "العزيز الحكيم"، "الغفور الرحيم"، "الملك القدوس السلام" إلى آخرها.

قال: وجاءت معطوفة في موضعين:

أحدهما: في أربعة أسماء، وهى: {الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ} [الحديد: 3].

والثاني: في بعض الصفات بالاسم الموصول مثل دوله: {الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى (2) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى (3) وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى} [الأعلى: 2 – 4].

قال: ونظيره: {الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (10) وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ (11) وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا} [الزخرف: 10 – 12].

قال: فأما ترك العطف في الغالب؛ فلتناسب معاني تلك الأسماء وقرب بعضها من بعض، وشعور الذهن بالثاني منها عند شعوره بالأول.

يعني: عندنا اقتران بين أسماء معينة في كتاب الله, فإذا ذُكر: "الغفور الرحيم", "السميع العليم".

يقول: ألا ترى أنك إذا شعرت بصفة المغفرة انتقل ذهنك منها إلى الرحمة، وكذلك إذا شعرت بصفة السمع انتقل الذهن إلى البصر.

قال: وكذلك: {الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ} [الحشر: 24], لأنها قريبة في المعنى.

قال: وأما تلك الأسماء الأربعة؛ فهي ألفاظ متباينة المعاني، متضادَّة الحقائق في أصل موضوعها.

فليس الأول من جهة المعنى هو الآخر, وليس الظاهر هو الباطن, فهذه أسماء متقابلة.

قال: الرب تعالى، لا يبقى منها معنى لغيره، بل هو أول كما أنه هو آخر، وظاهر كما أنه باطن. ولا يناقض بعضها بعضًا في حقِّه، فكان دخول الواو صَرْفًا لوهم المخاطب -قبل التفكر والنظر- عن توهم المحال. واجتماع الأضداد؛ لأن الشيءَ لا يكون ظاهرًا باطنًا من وجهٍ واحد، وإنما يكون ذلك باعتبارين.

وهذه الاعتبارات بيَّنها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الحديث: ((أَنْتَ الْأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ)).

قال: فكان العطف هاهنا أحسن من تركه لهذه الحكمة.

هذا جواب من؟

قال: هذا جواب السهيلي.

وهو أبو القاسم السهيلي, صاحب الروض الأُنف في سيرة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ, وهو من أفضل الكتب التي أُلفت في سير ة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ, لا تجد فيه سيرة فقط, لكن تجد فيه السيرة وتفسير معاني الآيات ومباحث نفيسة جدًا في باب النحو والبلاغة وغير ذلك, وكان ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ من المعجبين به جدًا وكثيرًا ما ينقل قوله, وهو من أئمة النحو والحديث في القرن السادس, وكما قلنا ينقل عنه ابن القيم كثيرًا, خاصة في كتابه بدائع الفوائد.

فهذا الجواب الذي مضى كان جواب السهيلي.

قال: وأحسن منه أن يقال: لما كانت هذه الألفاظ دالة على معانٍ متباينة، وأن الكمال في الاتصاف بها على تبايُنِها.

متى يأتي الكمال؟ بالاتصاف بها على تبايُنِها.

أتى بحرف العطف الدال على التغاير بين المعطوفات، إيذانًا بأن هذه المعاني مع تباينها فهي ثابتة للموصوف بها.

ووجه آخر وهو أحسن منهما وهو: أن الواو تقتضي تحقيق الوصف المتقدم وتقريره، فيكون في الكلام متضمِّنًا لنوع من التأكيد من مزيد التقرير.

هذا الكلام بنصه نقله الشيخ الهراس.

قال: وبيان ذلك بمثال نذكره مرقاةً إلى فهم ما نحن فيه: إذا كان لرجل -مثلاً- أربع صفات هو: عالم وجواد وشجاع وغني، وكان المخاطَب لا يعلم ذلك أو لا يقر به، ويعجب من اجتماع هذه الصفات في رجل، فإذا قلتَ: زيد عالم، وكأنَّ ذهنه استبعد ذلك، فتقول: وجواد، أي: وهو مع ذلك جواد، فإذا قدَّرتَ استبعاده لذلك، قلت: وشجاع، أي: وهو مع ذلك شجاع وغني، فيكون في العطف مزيد تقرير وتوكيد لا يحصل بدونه، تدرأ به توهم الإنكار.

قال: وإذا عرفت هذا؛ فالوهم قد يعتريه إنكار اجتماع هذه المقابلات أو المقابلات في موصوف واحد.

فإذا قيل: هو الأول، ربما سَرَى الوهم إلى أن كونه أولاً يقتضي أن يكون الآخر غيره.

يعني: إذا قلت: هو الأول وسكت, ربما صار إلى الذهن أن الآخر غيره سُبْحَانَهُ وَتعَالَى, لأن الأولية والآخرية من المتضايفات.

يعني: الأمور التي يكمل بعضها بعضًا, فإذا ذُكر الأول يُذكر الآخر, فلا يتم المعنى إلا بذكر شقه الذي يكمِّله.

قال: لأن الأولية والآخرية من المتضايفات.

المتضايفات معناها ما ذكرنا.

قال: وكذلك "الظاهر والباطن" إذا قيل: هو الظاهر ربما سَرَى الوهم إلى أن الباطن مقابله.

قال: فقطع هذا الوهم بحرف العطف الدال على أن الموصوف بالأولية هو الموصوف بالآخرية، فكأنه قيل: هو الأول وهو الآخر لا غيره، وهو الظاهر وهو الباطن لا سواه، فتأمل ذلك فإنه من لطيف العربية ودقيقها.

ثم قال: والذي يوضح لك ذلك: أنه إذا كان للبلد مثلاً قاض وخطيب وأمير، فاجتمعت في رجل، حَسُنَ أن تقول: زيد هو الخطيب والقاضي والأمير، وكان للعطف هنا مَزِية ليست للنعت المجرَّد، فعَطْف الصفات هاهنا أحسن، قطعًا لوهم متوهم أن الخطيب غيره وأن الأمير غيره.

ثم قال فائدة, وهذه الفائدة ذكرها في زاد المعاد.

قال: وأرشدَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من بُلِيَ بشيءٍ من وسوسة التَّسلسل في الفاعلين.

أراد ما جاء في حديث أبي هريرة رَضِي اللهُ عَنْهُ: "لَا يَزَالُ النَّاسُ يَتَسَاءَلُونَ حَتَّى يَقُولَ: مَنْ خَلَقَ كَذَا مَنْ خَلَقَ كَذَا؟ حَتَّى يَقُولَ: مَنْ خَلَقَ رَبَّكَ؟ فَإِذَا بَلَغَ أَحَدُكُمْ ذَلِكَ فَلْيَسْتَعِذْ بِاللَّهِ وَلْيَنْتَهِ".

فأرشدَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من بُلِيَ بشيءٍ من وسوسة التَّسلسل في الفاعلين, التَّسلسل في الفاعلين المراد: أن يكون للحادث فاعل, وللفاعل فاعل, وللفاعل فاعل, لأنهم يقولون: "مَنْ خَلَقَ كَذَا مَنْ خَلَقَ كَذَا؟", وهكذا إلى ما لا نهاية, وهذا ممتنع في أصل التأثير والخلق.

لأن ذلك يقتضي عدم وجود شيءٍ, وأن الكل مفتقر إلى من يوجده, وليس فيها من هو موجود بذاته, موجدٌ لغيره, لأن لو هذا التسلسل صار هكذا إلى ما لا نهاية فهذا ممتنع عقلاً, لأنه لابد أن ينتهي إلى موجود بذاته سُبْحَانَهُ وَتعَالَى, إلى خالق غير مخلوق.

ما الذي يدفع هذه الوسوسة, {هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ}, الأول الذي ليس قبله شيء سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

فقال: وأرشدَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من بُلِيَ بشيءٍ من وسوسة التَّسلسل في الفاعلين, إذا قيل له: هذا الله خلقَ الخلْقَ، فمَن خلقَ اللَّه؟ أن يقرأ: {هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [الحديد: 3].

وأنا بحثت عن هذا الحديث فلم أجده, الذي ورد أن النبي أرشد من ابتُلي بذلك أن يقرأ: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (1) اللَّهُ الصَّمَدُ (2) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (3) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ}.

وأنا يقول: "آمنت بالله وبرسوله", أن يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم, لكن هذا ثابت عن عبد الله بن عباس, كما سيأتي.

حيث قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ لأبي زميل سماك بن الوليد الحنفي، وَقَدْ سَأَلَهُ: مَا شَيْءٌ أَجِدُهُ فِي صَدْرِي؟ قَالَ: مَا هُوَ؟ قَالَ: قُلْتُ: وَاللَّهِ لَا أَتَكَلَّمُ بِهِ.

الصحابة اشتكوا إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، نَجِدُ فِي أَنْفُسِنَا الشَّيْءَ نُعْظِمُ أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهِ، أَوِ الْكَلَامَ بِهِ، مَا نُحِبُّ أَنَّ لَنَا وَأَنَّا تَكَلَّمْنَا بِهِ، قَالَ: "أَوَقَدْ وَجَدْتُمُوهُ؟" قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: "ذَاكَ صَرِيحُ الْإِيمَانِ".

يعني: آخر عمل الشيطان أن رد ذلك إلى الوسوسة, "ذَاكَ صَرِيحُ الْإِيمَانِ"، ليس الشك هو صريح الإيمان, وإنما أن ينتهي الأمر إلى مجرد الوسوسة هذا هو صريح الإيمان.

قَالَ فَقَالَ لِي: أَشَيْءٌ مِنْ شَكٍّ؟ قُلْتُ: بَلَى، فَقَالَ لِي: مَا نَجَا مِنْ ذَلِكَ أَحَدٌ.

أي: هذا من وساوس الشياطين الواردة على عقول البشر, هناك أمور تعرض على عقول البشر أجمعين, ولكن المرء يرد ذلك بالإيمان والتوكل والاعتصام بالله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

ابن مسعود رَضِي اللهُ عَنْهُ لما ذكر التطير, ماذا قال؟ قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "الطِّيَرَةُ مِنَ الشِّرْكِ، وَمَا مِنَّا إِلَّا، وَلَكِنَّ اللَّهَ يُذْهِبُهُ بِالتَّوَكُّلِ" فهذا قد يعرضه الشيطان على قلب ابن آدم.

فقال ابن عباس: مَا نَجَا مِنْ ذَلِكَ أَحَدٌ، حَتَّى أَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وجلَّ: {فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ} [يونس: 94].

والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يشك, وإنما هذا من باب الفرض, يعني: إن وقع هذا, ولن يقع حشاه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ابن عباس نصحه, قَالَ: فَقَالَ لِي: فَإِذَا وَجَدْتَ فِي نَفْسِكَ شَيْئًا، فَقُلْ: {هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [الحديد: 3].

وهذا حسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: فَأَرْشَدَهُمْ بِهَذِهِ الْآيَةِ إِلَى بُطْلَانِ التَّسَلْسُلِ الْبَاطِلِ بِبَدِيهَةِ الْعَقْلِ، وَأَنَّ سِلْسِلَةَ الْمَخْلُوقَاتِ فِي ابْتِدَائِهَا تَنْتَهِي إِلَى أَوَّلَ لَيْسَ قَبْلَهُ شَيْءٌ، كَمَا تَنْتَهِي فِي آخِرِهَا إِلَى آخِرٍ لَيْسَ بَعْدَهُ شَيْءٌ، كَمَا أَنَّ ظُهُورَهُ هُوَ الْعُلُوُّ الَّذِي لَيْسَ فَوْقَهُ شَيْءٌ، وَبُطُونَهُ هُوَ الْإِحَاطَةُ الَّتِي لَا يَكُونُ دُونَهُ فِيهَا شَيْءٌ، وَلَوْ كَانَ قَبْلَهُ شَيْءٌ يَكُونُ مُؤَثِّرًا فِيهِ لَكَانَ ذَلِكَ هُوَ الرَّبَّ الْخَلَّاقَ، وَلَا بُدَّ أَنْ يَنْتَهِيَ الْأَمْرُ إِلَى خَالِقٍ غَيْرِ مَخْلُوقٍ وَغَنِيٍّ عَنْ غَيْرِهِ، وَكُلُّ شَيْءٍ فَقِيرٌ إِلَيْهِ قَائِمٌ بِنَفْسِهِ، وَكُلُّ شَيْءٍ قَائِمٌ بِهِ مَوْجُودٌ بِذَاتِهِ، وَكُلُّ شَيْءٍ مَوْجُودٌ بِهِ قَدِيمٌ لَا أَوَّلَ لَهُ، وَكُلُّ مَا سِوَاهُ فَوُجُودُهُ بَعْدَ عَدَمِهِ بَاقٍ بِذَاتِهِ، وَبَقَاءُ كُلِّ شَيْءٍ بِهِ فَهُوَ الْأَوَّلُ الَّذِي لَيْسَ قَبْلَهُ شَيْءٌ، وَالْآخِرُ الَّذِي لَيْسَ بَعْدَهُ شَيْءٌ، الظَّاهِرُ الَّذِي لَيْسَ فَوْقَهُ شَيْءٌ، الْبَاطِنُ الَّذِي لَيْسَ دُونَهُ شَيْءٌ.

وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "لَا يَزَالُ النَّاسُ يَتَسَاءَلُونَ حَتَّى يَقُولَ قَائِلُهُمْ: هَذَا اللَّهُ خَلَقَ الْخَلْقَ فَمَنْ خَلَقَ اللَّهَ؟ فَمَنْ وَجَدَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا، فَلْيَسْتَعِذْ بِاللَّهِ وَلْيَنْتَهِ".

وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: {وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} [فصلت: 36].

من المباحث الهمهمة التي تتعلق بهذا الأسماء الأربعة:

كيف نعبد الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى بها؟

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: والمقصود أن التعبد باسمه الظاهر يجمع القلب على المعبود.

ما معنى الظاهر؟ الذي ليس فوقه شيء, لا في ذاته ولا في صفاته, فله الأسماء الحسنى والصفات المثلى سُبْحَانَهُ وَتعَالَى, فمن عرف الله عَزَّ وَجلَّ على هذا المقتضى جمع قلبه على ربه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

قال: والمقصود أن التعبد باسمه (الظاهر) يجمع القلب على المعبود, ويجعل له ربًا يقصده وصمدًا يصمد إليه في حوائجه, وملجأً يلجأ إليه, فإذا استقر ذلك في قلبه وعرف ربه باسمه الظاهر استقامت له عبوديته وصار له معقل وموئل يلجأ إليه ويهرب إليه ويفر كل وقت إليه.

هذا التعبد باسمه الظاهر, أي: الذي علا في صفاته سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

هل تجد لذلك وصفًا في مخلوق ممن يُعبدون من دون الله؟ ولذلك من عرف ذلك جمع قلبه على ربه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى وجعل العبادة كلها له.

قال: وأما تعبده باسمه (الباطن) فأمر يضيق نطاق التعبير عن حقيقته, ويكلّ اللسان عن وصفه, وتصطلم الإشارة إليه وتجفو العبارة عنه.

قبل أن نتم كلام ابن القيم قلنا: إن من انحرف عن نهج أهل السنة والجماعة خاصة في باب السلوك جعل اسمه (الباطن) سبيلاً لتقرير عقيدة الحلول ووحدة الوجود.

ولذلك ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ يقول: لن تعبد الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى بهذا الاسم إلا إذا عرفت ربك سُبْحَانَهُ وَتعَالَى, وكانت هذه المعرفة خلية من شوائب التعطيل, مخلصة من فرث التشبيه, منزّهة عن رجس الحلول والاتحاد.

قال: فإِنه يستلزم معرفة بريئة من شوائب التعطيل, مخلصة من فرث التشبيه، منزهة عن رجس الحلول والاتحاد, وكانت عبارة مؤدية للمعنى كاشفة عنه، ويستلزم ذوقاً صحيحاً سليماً من أَذواق أهل الانحراف, فمن رُزق هذا فهِم معنى اسمه (الباطن) وصح له التعبد به.

وسبحان الله كم زلّت في هذا المقام أَقدام وضلّت فيه أَفهام، ونَظَم فيه الزنديق بلسان الصديق، فاشتبه فيه إِخوان النصارى بالحنفاء المخلصين، لنبو الأَفهام عنه وعِزة تخلُّص الحق من الباطل فيه، والتباس ما في الذهن بما هو في الخارج إِلا على من رزقه الله بصيرة في الحق ونوراً يميّز به بين الهدى والضلال، وفرقاناً يفرق به بين الحق والباطل، ورُزق مع ذلك اطّلاعاً على أَسباب الخطأْ وتفرق الطرق ومثار الغلط، فكان له بصيرة في الحق والباطل، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاءُ والله ذو الفضل العظيم.

قال: وباب هذه المعرفة والتعبد: هو معرفة إِحاطة الرب تَبَارَكَ وَتَعَالَى بالعالم وعظمته، وأَن العوالم كلها في قبضته.

من هنا تستطيع أن تعرف معنى "الظاهر والباطن", فاسمه (الباطن) دليل على قربه من خلقه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

كيف نعرف معنى هذا الاسم حق المعرفة؟ أن تعرف إحاطة الله عَزَّ وَجلَّ بالعالم, وأن العوالم كلها في قبضته, وأن السماوات السبع والأرضين السبع في يده كخردلة في يد العبد.

قال تعالى: {وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنّ رَبّكَ أَحَاطَ بِالنّاسِ} [الإسراء: ٦٠]، وقال: {واللهُ مِنْ وَرَآئِهِمْ مُحِيطُ} [البروج: ٢٠].

وقال الله تعالى: {وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ} [الزمر: 67].

الأرض جميعًا في قبضته سُبْحَانَهُ وَتعَالَى, والسماوات مطويات بيمينه, قال: {يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ } [الأنبياء: 104].

جاء الحبر وقال: " أَنَّ اللَّهَ يَجْعَلُ السماوات عَلَى إِصْبَعٍ وَالْأَرَضِينَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالشَّجَرَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالْمَاءَ وَالثَّرَى عَلَى إِصْبَعٍ, ثُمَّ يَهُزُّهُنَّ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ".

فكل ذلك يدل على إحاطة الرب تَبَارَكَ وَتَعَالَى بهذا العالم, وأن العالم كله في قبضته سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

قال: ولهذا يقرن سبحانه بين هذين الاسمين الدالين على هذين المعنيين: اسم العلو الدال على أَنه الظاهر وأَنه لا شيء فوقه، واسم العظمة الدال على الإِحاطة وأَنه لا شيء دونه، كما قال تعالى: {وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ} [البقرة: ٢٥٥].

لأنه وصفه بالعلو هذا قد يوهم أن الأشياء بعيدة عنه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى, لأنه عليٌّ بذاته فوق خلقه, فقرن بين اسمه (العلي) واسمه (العظيم).

وقال تعالى: {وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ} [سبأ: ٢٣]، وقال: {وَللهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلّواْ فَثَمّ وَجْهُ اللهِ إِنّ اللهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} [البقرة: ١١٥], أحاط بكل شيء سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

قال: وهو تَبَارَكَ وَتَعَالَى كما أَنه العالي على خلقه بذاته فليس فوقه شيء، فهو الباطن بذاته فليس دونه شيء، بل ظهر على كل شيء فكان فوقه، وبَطَن فكان أَقرب إِلى كل شيء من نفسه، وهو محيط به حيث لا يحيط الشيء بنفسه, وكل شيء في قبضته, وليس شيء في قبضة نفسه، فهذا أَقرب لإِحاطة العامة.

وهذا قربه من جميع خلقه, ويدل عليه هذه الآيات والأحاديث التي ذكرناها.

قال: وأما القُرب المذكور في القرآن والسُّنَّة فقُرب خاص من عابديه وسائليه وداعيه، وهو من ثمرة التعبد باسمه الباطن, كما قال تعالى: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنّي فَإِنّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدّاعِ إِذَا دَعَانِ} [البقرة: ١٨٦] ، فهذا قُربه من داعيه، وقال تعالى: {إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ} [الأعراف: ٥٦].

فهو الباطن سُبْحَانَهُ وَتعَالَى قريب من خلقه, خلقه في قبضته كخردلة, وهو كذلك قريب من عباده المؤمنين القرب الخاص.

قال: وقال تعالى: {إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ} [الأعراف: ٥٦]، فوجد الخبر وهو قريب عن لفظ الرحمة, وهي مؤنثة.

الأصل في السياق العربي: إن رحمة الله قريبة, لأن الوصف للرحمة, عندنا الآن مبتدأ وخبر قبل دخول (إن), ما المبتدأ؟ {رَحْمَتَ اللَّهِ}, ما وصف هذه

الرحمة وخبرها؟ تقول: قريبة, ومع ذلك الآية: {إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ}.

إذًا: لابد من وجود فائدة.

فقال: فوجد الخبر وهو قريب عن لفظ الرحمة, وهى مؤنثة إيذاناً بقُربه تعالى من المحسنين، فكأنه قال: إِن الله برحمته قريب من المحسنين.

وهذا من آثار اسمه (الباطن).

قال: فوجد الخبر وهو قريب عن لفظ الرحمة, وهى مؤنثة إيذاناً بقُربه تعالى من المحسنين، فكأنه قال: إِن الله برحمته قريب من المحسنين. وفى الصحيح عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: "أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ, وَأَقْرَبُ مَا يَكُونُ الرَّبُّ مِنْ عَبْدِهِ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ"، فهذا قرب خاص غير قُرب الإِحاطة وقُرب البطون.

قال: وفى الصحيح من حديث أبى موسي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنهم كانوا مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في سفر، فارتفعت أصواتهم بالتكبير فقال: "أَيُّهَا النَّاسُ ارْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ، إِنَّكُمْ لَيْسَ تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا، إِنَّ الَّذِي تَدْعُونَهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ, أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ عُنُقِ رَاحِلَتِهِ".

ومن جاء في ذهنه هذه الآيات والأحاديث التي ذكرناها قبل قليل: {وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ}, علم مراد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إن الله عَزَّ وَجلَّ أقرب إلى أحدنا من عنق راحِلته, فكل ذلك في قبضته سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

قال: فهذا قربه من داعيه وذاكره، أي: فأي حاجة بكم إِلى رفع الأَصوات, وهو لقُربه يسمعُها وإِن خُفِضت، كما يسمعُها إِذا رُفِعت، فإِنه سميع قريب.

وهذا القُرب من لوازم المحبة, فكلما كان الحب أعظم كان القُرب أَكثر، وقد استولت محبة المحبوب على قلب محبه بحيث يفنى بها عن غيرها، ويغلب محبوبه على قلبه حتى كأنه يراه ويشاهده.

هذا كلام أهل السنة والجماعة, كلام يرقق القلوب ويُقرب العبد من ربه.

قال: إن لم يكن عنده معرفه صحيحة بالله وما يجب له ويستحيل عليه, وإِلا طرق باب الحلول إن لم يَلِجْهُ، وسببه: ضعف تمييزه وقوة سلطان المحبة، واستيلاءُ المحبوب على قلبه بحيث يغيب عن ملاحظة سواه.

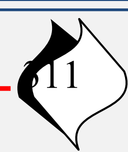
يعني: هو الآن يتكلم عن حال أصحاب الحلول والاتحاد, هؤلاء كانوا جُهالًا بما يجوز وما يجب وما يمتنع في حق الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى, وما ينبغي أن يُثبت في حقه أو من حقه في باب الأسماء والصفات وما ينبغي أن ينزه عنه, فلما كانوا جاهلين بهذا الباب خائضين في التكلم فيه وفي السلوك فيه من غير علم جاءوا بعبارات كُفرية, كما قال الحلاج كما نقله عنه ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ.

قال: وفى مثل هذه الحال يقول: من قال سبحاني، أَو: ما في الجُبة إِلا الله.

لأن هذا هو الذي فهمه من معنى اسمه (الباطن), ومن معنى قرب الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى من خلقه.

قال: ونحو هذا من الشطحات التي نهايتها أن يُغفر له ويُعذر لسكره وعدم تمييزه في تلك الحال.

وهذا مرده إلى الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.



قال: فالتعبد بهذا الاسم هو التعبد بخالص المحبة وصفو الوداد، وأن يكون الإله أَقرب إِليه من كل شيء, وأَقرب إِليه من نفسه، مع كونه ظاهرًا ليس فوقه شيء.

فهو أقرب إليك من نفسك بصفاته سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

قال: ومن كثُف ذهنه وغلظ طبعه عن فهم هذا فليضرب عنه صفحًا إلى ما هو أَولى به.

أي لا يخوض في هذا الباب كثيرًا.

فقد قيل:

إِذا لَمْ تَسْتَطعْ شَيئاً فَدَعْه ... وجاوزه إِلى ما تستطيع

ثم قال رَحِمَهُ اللهُ: واعلم أن لك أَنت أولًا وآخرًا وظاهرًا وباطنًا، بل كل شيء فله أول وآخر وظاهر وباطن، حتى الخطْرة واللحظة والنَفَس وأدنى من ذلك وأكثر, فأَولية الله عَزَّ وَجلَّ سابقة على أولية كل ما سواه، وآخريته ثابتة بعد آخرية كل ما سواه, فأَوليته سبقه لكل شيء، وآخريته بقاؤه بعد كل شيء، وظاهريته سبحانه فوقيته وعلوه على كل شيء، ومعنى الظهور يقتضى العلو، وظاهر الشيء هو ما علا منه وأحاط بباطنه.

وبطونه سبحانه إِحاطته بكل شيء, بحيث يكون أقرب إليه من نفسه, وهذا قُربٌ غير قُرب المحب من حبيبه، هذا لون وهذا لون, فمدار هذه الأَسماءِ الأَربعة على الإحاطة, وهى إحاطتان زمانيه ومكانيه, فأحاطت أَوليته وآخريته بالقَبل والبَعد، فكل سابق انتهى إِلى أَوليته, وكل آخر انتهى إِلى آخريته,, فأَحاطت أَوليته وآخريته بالأَوائل والأَواخر، وأَحاطت ظاهريته وباطنيته بكل

ظاهر وباطن، فما من ظاهر إلا والله فوقه، وما من باطن إِلا والله دونه, وما من أول إلا والله قَبْله, وما من آخر إلا والله بعده, فالأَول قِدَمُه، والآخر دوامه وبقاؤه, والظاهر علوه وعظمته، والباطن قربه ودُنوه.

فسبق كل شيء بأَوليته, وبقى بعد كل شيء بآخريته، وعلا على كل شيء بظهوره، ودنا من كل شيء ببطونه, فلا تواري منه سماء سماء ولا أرض أرضا، ولا يحجُب عنه ظاهر باطنًا, بل الباطن له ظاهر، والغيب عنده شهادة، والبعيد منه قريب، والسر عنده علانية، فهذه الأَسماءُ الأَربعة تشتمل على أَركان التوحيد، فهو الأَول فى آخريته, والآخر فى أَوليته، والظاهر في بطونه, والباطن في ظهوره، لم يزل أَولاً وآخرًا وظاهرًا وباطنًا.

ثم قال: والتعبد بهذه الأَسماءِ رتبتان:

- الرتبة الأولى: أَن تشهد الأَولية منه تعالى في كل شيء, والآخرية بعد كل شيء, والعلو والفوقية فوق كل شيء, والقرب والدنو دون كل شيء، فالمخلوق يحجبه مثله عما هو دونه, فيصير الحاجب بينه وبين المحجوب.

يعني: المخلوق يحجبه مثله فالجدار هذا مخلوق, يحجبني عما وراءه, فيصير الحاجب بينه وبين المحجوب، والرب سبحانه ليس دونه شيء أقرب إِلى الخلق منه.

- والرتبة الثانية من التعبد: أَن يُعامل كل اسم بمقتضاه، فيعامل سبقه تعالى بأَوليته لكل شيء, وسبقه بفضله وإِحسانه الأَسباب كلها بما يقتضيه ذلك من إِفراده, وعدم الالتفات إِلى غيره, والوثوق بسواه والتوكل على غيره.

إذًا: هذا مسلك آخر, هذا ذكره في طريق الهجرتين.

كيف تعبد الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى باسمه الأول؟ تعبده بأنه سبق كل شيء, ومن ذلك كما قال: أنه سبق كل شيء بأوليته, سبق بالفضل والإحسان, سبق الأسباب كلها, لأن قد تجد بعض الناس يتعلق بالأسباب الحسية, وينسى ما وراء ذلك من توفيق الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى ومن إحسانه, فيتعلق قلبه بهذه الأسباب وينسى المسبب سُبْحَانَهُ وَتعَالَى, يعلق قلبه بالنعمة وينسى المنعم سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

ولذلك قال ابن القيم كلامًا عجيبًا, قال: فمن ذا الذى شفع لك في الأَزل حيث لم تكن شيئاً مذكورًا, حتى سمَّاك باسم الإسلام.

هذا اصطفاء, {وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ} [القصص: 68].

من الذي شفع لك عند الله عَزَّ وَجلَّ من الأنبياء والمرسلين أو ومن دونهم حتى تكون مسلمًا دون الخلق؟ دون هؤلاء الذين يعبدون الأصنام ويثلثون؟ ويعبدون الشجرة والحجر والبقر؟ هذا محض اصطفاء من ربنا سُبْحَانَهُ وَتعَالَى, فإحسانه سبق إليك قبل كل شيء سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

فقال: فمن ذا الذى شفع لك في الأَزل حيث لم تكن شيئاً مذكورًا, حتى سمَّاك باسم الإسلام، ووسمك بِسِمة الإيمان، وجعلك من أَهل قبضة اليمين.

فهل شفع لك أحد من الخلق في الأزل من الأنبياء والمرسلين فمن دونهم عند الله لتكون مسلمًا؟ هذا محض فضل من الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى بلا سبب منك.

قال: وأَقطعك في ذلك الغيب عمالات المؤمنين، فعصمك.

يعني: وفقك وهداك لتعمل عمل المؤمنين, فلم تكن الهداية موقوفة على هداية البيان والإرشاد التي يستوي فيها المؤمن والكافر, فالكتب نزلت للناس

أجمعين, نزلت للإنس والجن, والرسل أرسلت للناس أجمعين, للمؤمن والكافر, لكن الله عَزَّ وَجلَّ هدى ووفق هذا، وخذل هذا, حبب الإيمان وزيَّنه في قلبك, وكره إليك الكفر والفسوق والعصيان, هذا محض فضل منه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

قال: فعصمك عن العبادة للعبيد، وأَعتقك من التزام الرق لمن له شكل ونديد، ثم وجه وجهة قلبك إِليه تَبَارَكَ وَتَعَالَى دون ما سواه، فاضرع إِلى الذى عصمك من السجود للصنم، وقضى لك بقدم الصدق في القدم، أن يُتم عليك نعمة هو ابتدأَها وكانت أَوليتها منه بلا سبب منك، واسمُ بهمَّتك عن ملاحظة الاختيار, ولا تركنن إِلى الرسوم والآثار، ولا تقنع بالخسيس الدون، وعليك بالمطالب العالية والمراتب السامية التي لا تُنال إِلا بطاعة الله.

هذا كله من آثار التعبد باسمه الأول سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

قال: فإن الله عَزَّ وَجلَّ قضى أن لا يُنال ما عنده إلا بطاعته، ومن كان لله كما يريد كان الله له فوق ما يريد، فمن أَقبل إِليه تلقاه من بعيد, ومن تصرف بحوله وقوته ألان له الحديد، ومن ترك لأَجله أَعطاه فوق المزيد، ومن أراد مراده الديني أراد ما يريد.

ثم اسمُ بسرِّك إِلى المطلب، واقصر حبك وتقرُّبك على من سبق فضله وإِحسانه إِليك كل سبب منك، بل هو الذى جاد عليك بالأسباب، وهيأَ لك وصرف عنك موانعها, وأَوصلك بها إلى غايتك المحمودة, فتوكل عليه وحده وعامله وحده, وآثر رضاه وحده, وأجعل حبه ومرضاته هو كعبة قلبك التي لا تزال طائفاً بها, مستلمًا لأركانها، واقفًا بملتزمها.

فيا فوزك ويا سعادتك إِن اطَّلع سبحانه على ذلك من قلبك، ماذا يفيض عليك من ملابس نعمه وخُلَعِ أفضاله: "**اللَّهُمَّ لا مانع لما أَعطيت ولا معطى لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد سبحانك وبحمدك**".

قال: ثم تَعَبَّد له باسمه (الآخر) بأَن تجعله وحده غايتك التي لا غاية لك سواه، ولا مطلوب لك وراءَه, فكما انتهت إِليه الأَواخر وكان بعد كل آخر فكذلك اجعل نهايتك إِليه، فإِن إِلى ربك المنتهى، إِليه انتهت الأَسباب والغايات, فليس وراءَه مرمى ينتهى إِليه.

وقد تقدم التنبيه على ذلك وعلى التعبد باسمه (الظاهر), وأَما التعبد باسمه (الباطن)، فإِذا شهدت إِحاطته بالعوالم وقرب العبيد منه وظهور البواطن له وبُدُوِّ السرائر له وأَنه لا شيء بينه وبينها, فعامله بمقتضى هذا الشهود، وطهِّر له سريرتك فإِنها عنده علانية, وأَصلح له غيبك فإِنه عنده شهادة, وزكِّ له باطنك فإِنه عنده ظاهر.

ثم قال: فانظر كيف كانت هذه الأَسماءُ الأَربعة جِماع المعرفة بالله، وجِماع العبودية له, فهنا وقفت شهادة العبد مع فضل خالقه ومنته, فلا يرى لغيره شيئًا إِلا به وبحوله وقوته، وغاب بفضل مولاه الحق عن جميع ما منه هو مما كان يستند إِليه أو يتحلى به, أو يتخذه عقدة أو يراه ليوم فاقته, أَو يعتمد عليه في مهمٍّ من مهماته، فكان ذلك من قصور نظره وانعكاسه عن الحقائق والأَصول إِلى الأَسباب والفروع, كما هو شأَن الطبيعة والهوى وموجب الظلم والجهل.

والإِنسان ظلوم جهول, فمن جلّى الله سبحانه صدأً بصيرته وكمَّل فطرته وأوقفه على مبادئ الأُمور وغاياتها ومناطها ومصادرها ومواردها, أَصبح

كمُفلس حقًا من علومه وأَعماله وأَحواله وأَذواقه, يقول: أَستغفر الله من علمي ومن عملي، أَي: من انتسابي إِليهما وغيبتي بهما عن فضل من ذكرني بهما, وابتدأني بإعطائهما من غير تقدم سبب منى يوجب ذلك.

فهو لا يشهد غير فضل مولاه وسبق منته ودوامه، فيثيبه مولاه على هذه الشهادة العالية بحقيقة الفقر الأَوسط بين الفقرين الأَدنى والأَعلى ثوابين:

أَحدهما: الخلاص من رؤية الأَعمال, حيث كان يراها ويُمتدح بها ويستكثرها, فيستغرق بمطالعة الفضل غائبًا عنها ذاهبًا عنها فانيًا عن رؤيتها.

الثواب الثاني: أَن يقطعه عن شهود الأَحوال- أَي: عن شهود نفسه فيها متكثرة بها- فإِن الحال محله الصدر, والصدر بيت القلب والنفس، فإِذا نزل العطاءُ في الصدر للقلب وثبتت النفس لتأْخذ نصيبها من العطاءِ, فتتمدح به وتدل به وتزهو وتستطيل وتقرر إِنِّيتها, لأَنها جاهلة ظالمة, وهذا مقتضى الجهل والظلم.

فإِذا وصل إِلى القلب نور صفة المنة، وشهد معنى اسمه المنان، وتجلى سبحانه على قلب عبده بهذا الاسم مع اسمه (الأَول) ذهل القلب والنفس به, وصار العبد فقيرًا إِلى مولاه بمطالعة سبق فضله الأَول، فصار مقطوعاً عن شهود أمر أو حال ينسبه إِلى نفسه, بحيث يكون بشهادته لحاله مفصوماً مقطوعاً عن رؤية عِزة مولاه وفاطره وملاحظة صفاته.

قال: فصاحب شهود الأَحوال منقطع عن رؤية منة خالقه وفضله ومشاهدة سبق الأَولية للأَسباب كلها، وغائب بمشاهدة عِزة نفسه عن عِزة مولاه،

فينعكس هذا الأمر في حق هذا العبد الفقير, وتشغله رؤية عِزة مولاه ومنته ومشاهدة سبقه بالأَولية عن حال يعتز بها العبد أَو يشرُف بها.

وكذلك الرجوع إلى السبق بمطالعة الفضل يمحِّص من أَدناس مطالعات المقامات، فالمقام ما كان راسخاً فيه، والحال ما كان عارضاً لا يدوم.

فمطالعات المقامات وشرفه بها, وكونه يرى نفسه صاحب مقام قد حققه وكمله, فاستحق أَن ينسب إِليه ويوصف به, مثل أَن يقال: زاهد, صابر, خائف, راج, محب, راض، فكونه يرى نفسه مستحقاً بأَن تضاف المقامات إِليه وبأَن يوصف بها على وجه الاستحقاق لها هذا خروج عن الفقر إِلى الغنى، وتعدٍّ لطور العبودية، وجهل بحق الربوبية, فالرجوع إِلى السبق بمطالعة الفضل يستغرق همة العبد ويمحصه ويطهره من مثل هذه الأَدناس، فيصير مصفًّى بنور الله عَزَّ وَجلَّ عن رذائل هذه الأَرجاس.

وصل الله اللهم وسلم وبارك على النبي الأمين, وعلى آله وصحبه أجمعين, والحمد لله رب العالمين.

الدرس الثاني عشر

إن الحمد لله, نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله تعالى من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله, صلى الله عليه, وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد:

فما زال حديثنا موصولًا في قراءة العقيدة الواسطية وشرحها للعلامة الهراس.

وكنا قد وصلنا إلى قول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ وهو يُعدد الآيات التي دلت على صفات ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

قال رَحِمَهُ اللهُ: وَقَوْلُهُ سُبْحَانَهُ: {وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ} [الفرقان: 58].

قال الشيخ الهراس: قَوْلُهُ: {وَتَوَكَّلْ} ...إلخ؛ هَذِهِ الْجُمْلَةُ مِنَ الْآيَاتِ سَاقَهَا الْمُؤَلِّفُ لِإِثْبَاتِ بَعْضِ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ.

فَالْآيَةُ الْأُولَى فِيهَا إِثْبَاتُ اسْمِهِ الحيِّ، كَمَا تضمَّنت سَلْبَ الْمَوْتِ الَّذِي هُوَ ضِدُّ الْحَيَاةِ عَنْهُ، وَقَدْ قدَّمنا أَنَّهُ سُبْحَانَهُ حيٌّ بِحَيَاةٍ هِيَ صِفَةٌ لَهُ لَازِمَةٌ لِذَاتِهِ، فَلَا يَعْرِضُ لَهَا مَوْتٌ وَلَا زَوَالٌ أَصْلاً، وَأَنَّ حَيَاتَهُ أَكْمَلُ حَيَاةٍ وَأَتَمُّهَا، فَيَسْتَلْزِمُ ثبوتُها لَهُ ثبوت كُلِّ كَمَالٍ يضادُّ نفيُه كمالَ الْحَيَاةِ.

هذه الآية التي ذكرها المصنف رَحِمَهُ اللهُ وعلق عليها الشيخ الهراس وهي قوله تعالى: {وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ}، فيها إثبات اسم الله (الحي)، وهذا من أسمائه التي وردت في كتاب الله.

وورد كذلك نفي ما يضادها في هذه الآية أيضًا، قال: {وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ}، فكل ما سوى الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى فإنه يموت، وأما الله عَزَّ وَجلَّ فإنه حي لا يموت، وكما قال تعالى في ثلاث آيات : (كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ..) يخبر تعالى إخبارا عاما يعم جميع الخليقة بأن كل نفس ذائقة الموت ، كقوله : (كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ) فهو تعالى وحده هو الحي الذي لا يموت والإنس والجن يموتون ، وكذلك الملائكة وحملة العرش ، وينفرد الواحد الأحد القهار بالديمومة والبقاء ، فيكون آخرا كما كان أولا .

ما سوى الله عَزَّ وَجلَّ يتبعه فناء ويسبقه عدم، وقد لا يتبعه فناء لكن يسبقه عدم, كحال الولدان المخلدين في الجنة، وكحال الحور العين، فإنهم خالدون فيها أبدًا, لكنهم كانوا بعد أن لم يكونوا, وأما الله عَزَّ وَجلَّ فهو حي لا يموت، لم يسبق حياته عدم ولا يتبع حياته فناء سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

وحياته صفة لازمة له وهي صفة ذات، وهي صفة لازمة غير متعدية، **فصفات الله عَزَّ وَجلَّ نوعان**: صفات لازمة، وصفات متعدية.

والإيمان بالصفات اللازمة يستلزم أمرين:

- أن نؤمن بهذه الصفة
- وأن نؤمن كذلك بالاسم الذي تضمن هذه الصفة كاسمه (الحي)، فنؤمن بأن من أسمائه (الحي)، وأن اسمه (الحي) تضمن صفة الحياة على وجه الكمال.

وأما النوع الثاني من الصفات: وهو الصفات المتعدية التي لها أثر في الخلق، كصفة الخلق وصفة الرزق وصفة الرحمة، فاسمه (الرزاق, والخالق, والرحمن, والرحيم).

فهذه الأسماء والصفات تستلزم من العبد حتى يكمُل إيمانه بها أمورًا ثلاثة:

- أن يؤمن بالاسم
- وأن يؤمن بالصفة
- وأن يؤمن بآثار هذه الصفة في خلقه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

فالله عَزَّ وَجلَّ من أسمائه (الرحمن, الرحيم)، ومن صفاته الرحمة، وآثار رحمته ظاهرة في خلقه، {فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا} [الروم: 50].

فالاسم المتعدي حتى يكمُل إيمان العبد به لابد فيه من أمور ثلاثة، وأما الاسم اللازم فإنه لابد فيه من الإيمان بأمرين: أن نؤمن بالاسم وما تضمنه من الصفات.

قال: {وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ}.

التوكل: هو اعتماد القلب على الله تعالى في جلب النفع ودفع الضُر, مع الثقة به وفعل الأسباب الصحيحة.

هذا هو حد التوكل، اعتماد القلب على الله تعالى دون غيره من الخلق في جلب النفع ودفع الضُر, مع الثقة بالله تعالى وحسن الظن به وفعل الأسباب الصحيحة، فهذا هو تمام التوكل.

ومن هنا نعلم أن التوكل لا ينافي الأخذ بالأسباب، فلا يصح التوكل إلا مع الأخذ بالأسباب، وإلا كان توكلاً فاسدًا, وكان تواكلاً.

ولذلك قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو يُبين حقيقة التوكل، قال: "لَو أَنَّكُم تَوَكَّلُون عَلَى الله حَق تَوَكُّلِه، لَرُزِقْتُم كَمَا تُرْزَق الطَّيْر، تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوح

بِطَانًا"، فالطير يأخذ بالأسباب، يخرج في الصباح خماصًا ويعود بطانًا، فيرزقه الله عَزَّ وَجلَّ.

والتوكل من أشرف أعمال القلوب, وهو عمل قلبي خالص.

ولذلك لا يصح أن يقول المسلم: توكلت على الله وعليك، ولا: توكلت على الله ثم عليك، فهذا الثاني يصح مثلاً في المشيئة، ما شاء الله ثم شئت، أما التوكل فلا يصح فيه ذلك، لماذا؟ لأنه عمل قلبي خالص لا ينبغي أن يكون إلا لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

وأما التوكل على غير الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى فهو أقسام ثلاثة:

- فإذا توكل العبد على غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله، كهؤلاء الذين يتوكلون على الأموات والأولياء والمقبورين في جلب رزق أو دفع ضر أو غير ذلك، فهذا شرك أكبر، من علق قلبه بمخلوق فيما لا يقدر عليه إلا الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى فقد أشرك الشرك الأكبر.
- والنوع الثاني: وهو التوكل على المخلوق في الأسباب الظاهرة فيما يقدر عليه المخلوق, لكنه يعلق قلبه بالمخلوق.

يعلق قلبه بالسبب دون المسبب سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، كمن يعلق قلبه برئيسه في العمل أو بالأمير أو السلطان في جلب رزق أو جلب منفعة أو دفع أذى ، فهذا شرك أصغر، لأن التوكل كما قلنا: عبادة قلبية ما ينبغي أن تُصرف إلا لله.

لكن ما الفرق بين هذا والقسم الأول؟ أن الأول علق قلبه فيما لا يقدر عليه إلا الله، فكأنه جعل للمخلوق شيئاً من صفات الرب تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وأما هذا

فقد علق قلبه فيما يقدر عليه المخلوق, فأخطأ في ذلك، وعلق قلبه بالسبب دون المسبب.

- والنوع الثالث: وهو الوكالة, أو توكيل الإنسان غيره في فعل ما يقدر عنه, يقدر عليه نيابة عنه، كأن توكل إنسانًا في إبرام أمر ما, شراء بيت، أو بيع شيء، فهذا جائز.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: القلب لا يصلح ولا يُسرُّ ولا يلتذ ولا يطيب ولا يسكن ولا يطمئن إلا بعبادة ربه وحبه والإنابة إليه، ولو حصَّل كل ما يلتذ به من المخلوقات لم يطمئن ولم يسكن، إذ فيه فقر ذاتي إلى ربه من حيث هو معبوده ومحبوبه ومطلوبه، وبذلك يحصل له الفرح والسرور واللذة والنعمة والسكون والطمأنينة، وهذا لا يحصل إلا بإعانة الله له وبالتوكل عليه، ولا يقدر على تحصيل ذلك له إلا الله, فهو دائمًا مفتقر إلى حقيقة: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} [الفاتحة: 5].

فهو مفتقر إليه من حيث هو المطلوب المحبوب المعبود، ومن حيث هو المستعان به المتوكل عليه، فهو إلهه لا إله له غيره، وهو ربه ولا رب له سواه، ولا تتم عبوديته إلا بهذين.

ثم قال المصنف رَحِمَهُ اللهُ بعد ذلك: وَقَوْلُهُ: {وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ} [التحريم: 2]، {وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ} [سبأ: 1].

وهذه الآيات وما بعدها إنما هي في إثبات صفة العلم لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فهو سبحانه عليم بعلم موصوف بهذا العلم، وهذا ما يقتضيه الاسم المشتق (العليم)، فعيل مبالغة في وصف الله بالعلم سبحانه، فهي أبلغ من عالم، ومثله

كذلك: (الحكيم, والسميع, والخبير, والبصير)، فهذه الأسماء كلها تتضمن صفات.

وقد جاء ذلك في كتاب الله عَزَّ وَجلَّ على صور شتى، فيذكر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى أسمائه الحسنى, والأسماء تتضمن الصفات، ويذكر كذلك صفاته المثلى، وهذا نص على أنه موصوف بصفات سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، {سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ} [الصافات: 180]، فنزه نفسه عما يصفه به المشركون، وهذا فيه إثبات لما وصف به نفسه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

ومما دل كذلك على صفاته: أفعاله التي ذكرها في كتابه، فالفعل كذلك يتضمن صفة، لماذا؟ لأن الفعل ينحل عن مصدر وزمن، {قَدْ سَمِعَ} [المجادلة: 1].

(سمع): فعل ماض، هذا ينحل عن ماذا؟ عن مصدر, والمصدر هو صفة السمع، وزمن، أي: سمع ما مضى من كلام.

{قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ}، وهذا كذلك فيه إثبات الصفة.

{إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ}، هذا كذلك فيه إثبات الصفة.

وهذا خلافًا للمعتزلة, الذين يثبتون الأسماء لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى دون الصفات, فيقولون: هو عليم بلا علم، سميع بلا سمع، بصير بلا بصر.

أو يقولون: إن الصفات هي الذات، هو عليم بذاته، سميع بذاته، بصير بذاته، وهذا ضلال منهم، فمعروف أن الصفة غير الذات، والله عَزَّ وَجلَّ كان بصفاته ولا زال بصفاته سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

فقال المصنف رَحِمَهُ اللهُ: وَأَمَّا الْآيَاتُ الْبَاقِيَةُ؛ فَفِيهَا إِثْبَاتُ صِفَةِ الْعِلْمِ وَمَا اشْتُقَّ مِنْهَا؛ كَكَوْنِهِ عَلِيمًا، وَيَعْلَمُ وَأَحَاطَ بِكُلِّ شيءٍ عِلْمًا.

وَالْعِلْمُ صِفَةٌ لِلَّهِ عَزَّ وَجلَّ، بِهَا يُدْرِكُ جَمِيعُ الْمَعْلُومَاتِ عَلَى مَا هِيَ بِهِ، فَلاَ يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْهَا شَيْءٌ؛ كَمَا قَدَّمْنَا.

إذًا: العلم صفة ذات لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى لا تنفك عنه أبدًا، فهو من لوازم ذاته، إذ عدم وجودها يستلزم الاتصاف بضدها، والله تعالى منزه عن ذلك سبحانه.

قال: وَفِيهَا إِثْبَاتُ اسْمِهِ الْحَكِيمِ، وَهُوَ مأخوذٌ مِنَ الْحِكْمَةِ، وَمَعْنَاهُ: الَّذِي لَا يَقُولُ وَلَا يَفْعَلُ إِلَّا الصَّوَابَ، فَلاَ يَقَعُ مِنْهُ عبثٌ وَلَا باطلٌ، بَلْ كُلُّ مَا يَخْلُقُهُ أَوْ يَأْمُرُ بِهِ فَهُوَ تابعٌ لِحِكْمَتِهِ.

الحكيم مادته (ح, ك, م)، وهذه المادة تدل على حكم وإحكام ومنع وقضاء وحكمة، هذا كله يرجع إلى هذه المادة: (ح, ك, م).

ولذلك قالوا في قول الله تعالى: {وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ}، {وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ}، هاهنا كما ذكر.

قالوا: حكيم فعيل، مادة هذه اللفظة: (ح, ك, م)، فـ(حكيم): صيغة مبالغة من اسم الفاعل المشتق (حاكم أو مُحكم)، من مادة (حكم).

فـ(حكيم) إما بمعنى: أنه حاكم فيرجع إلى الحكم، أو بمعنى: أنه مُحكم فيرجع إلى الإحكام والإتقان.

فالله عَزَّ وَجلَّ إذًا:

- ذو حكمة

- وذو حكم
- وذو إحكام سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

فالحكيم يدل على حكمه الكوني والشرعي، ويدل على إحكامه وإتقانه لهذا الكون، ويدل على حكمته.

والحكمة: هي وضع الشيء في موضعه الذي يليق به على مقتضى الغايات الحسنة.

والحكمة تعادل العدل، والحكمة عدل وزيادة، ولذلك ضد الحكمة: الظلم والسفه.

فما معنى الظلم والسفه؟

يفسر المتكلمون الظلم بأنه التصرف في مُلك الغير، وهذا خطأ، لأن الله عَزَّ وَجلَّ هو مالك كل شيء ومليكه ومصرفه.

ولذلك كان الصحيح أن الظلم: هو وضع الشيء في غير موضعه اللائق به، والله عَزَّ وَجلَّ منزه عن ذلك.

فالشاهد: أن (حكيم): إما أن تكون بمعنى: حاكم أو مُحكم، فهو ذو حكم وذو حكمة سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، فذو حكمة كما قلنا: وهو وضع الشيء في موضعه اللائق به على مقتضى الغايات المحمودة.

وذو حكم: فهو الحَكَم في الأولى والآخرة سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، ولا راد لحكمه، ولا مبدل لقضائه، فله الحكم الكوني، {إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} [آل عمران: 47]، سُبْحَانَهُ وَتعَالَى في ملكوته وسماواته وأرضه وخلقه, من خلق ورزق وإحياء وإماتة، فكل ذلك داخل في حكمه الكوني القدري.

وله حكمه الشرعي سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، ولذلك أنزل الكتب وأرسل الرسل ورد الناس إلى هذا الحكم، قال تعالى: {وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ} [الشورى: 10].

وله الحكم الجزائي الأخروي, فهو الذي يفصل بين عباده يوم القيامة، هو الملك وحده لا ملك غيره يوم القيامة، قال: {لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ} [غافر: 16]، فكل ذلك داخل في اسمه (الحكيم).

وهو كذلك المُحكم خلقه, فأتقن كل شيء خلقًا وصنعةً سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

قال المصنف رَحِمَهُ اللهُ: وَفِيهَا إِثْبَاتُ اسْمِهِ الْحَكِيمِ، وَهُوَ مأخوذٌ مِنَ الْحِكْمَةِ، وَمَعْنَاهُ: الَّذِي لَا يَقُولُ وَلَا يَفْعَلُ إِلَّا الصَّوَابَ، فَلاَ يَقَعُ مِنْهُ عبثٌ وَلَا باطلٌ، بَلْ كُلُّ مَا يَخْلُقُهُ أَوْ يَأْمُرُ بِهِ فَهُوَ تابعٌ لِحِكْمَتِهِ.

قال: وَقِيلَ: هُوَ مِنْ فَعِيلٍ بِمَعْنَى مُفْعِل، وَمَعْنَاهُ: الْمُحْكِم لِلأَشْيَاءِ، مِنَ الْإِحْكَامِ: وَهُوَ الْإِتْقَانُ، فَلاَ يَقَعُ فِي خَلْقِهِ تفاوتٌ وَلَا فطورٌ، وَلَا يَقَعُ فِي تَدْبِيرِهِ خللٌ أَوِ اضطرابٌ.

قال: {ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ} [الملك: 4].

قال: وَفِيهَا كَذَلِكَ إِثْبَاتُ اسْمِهِ الْخَبِيرِ، وَهُوَ مِنَ الْخِبْرَةِ؛ بِمَعْنَى كَمَالِ الْعِلْمِ، وَوُثُوقِهِ، وَالْإِحَاطَةِ بِالْأَشْيَاءِ عَلَى وَجهِ التَّفْصِيلِ، وَوُصُولِ عِلْمِهِ إِلَى مَا خَفِيَ ودقَّ مِنَ الْحِسِّيَّاتِ وَالْمَعْنَوِيَّاتِ.

الله عَزَّ وَجلَّ من أسمائه: العليم والشهيد والخبير واللطيف، ومرد هذه الأسماء إلى صفة العلم.

أما اسمه العليم: فهذا يعني العلم بالظواهر والبواطن سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

وأما اسمه الشهيد: فهو العليم بظواهر الأمور، لأن الشهادة خلاف الغيب.

وأما اسمه الخبير: فهو العليم ببواطن الأمور, كما قال الشيخ هاهنا: والْخِبْرَة؛ بِمَعْنَى كَمَالِ الْعِلْمِ، وَوُثوقِهِ، وَالْإِحَاطَةِ بِالْأَشْيَاءِ عَلَى وَجْهِ التَّفْصِيلِ، وَوُصُولِ عِلْمِهِ إِلَى مَا خَفِيَ ودقّ.

فالخبير: هو العليم ببواطن الأمور من الخبرة.

ولذلك يقال في حال الخلق يقولون: ائتِ بفلان لأنه خبير في هذه الصنعة، إذا أعجزهم إصلاح شيء يقولون: عليكم بفلان, فإنه خبير في هذه الصنعة، يعني: يعلم خفاياها ودقائقها.

فالله عَزَّ وَجلَّ يحيط بالأشياء على وجه الدقة، والعلم عندما يُضاف إلى الخفايا الباطنية يسمى خبرة، فهل الله عَزَّ وَجلَّ موصوف بالخبرة؟ نعم، لأن من أسمائه الخبير سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

وأما اسمه اللطيف فهو على معنيين:

إما أن يكون بمعنى الذي لطف بعباده سُبْحَانَهُ وَتعَالَى, فأكرمهم بجزيل النعم ودفع عنهم البلايا والمحن.

وإما أن يكون بمعنى الذي أدرك الخفايا وما احتوته الصدور وما أخفته الأرض.

{يَابُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ} [لقمان: 16]، فجمع بين اللطف والخبرة.

فهذه الأسماء بينها عموم وخصوص، وأعمها اسمه العليم، وهذه الأسماء كما قلنا ذكرها المصنف رَحِمَهُ اللهُ لإثبات صفة العلم لربنا تَبارَكَ وَتَعالَى.

ثم قال المصنف بعد ذلك مُكملاً ذكر هذه الآيات التي تتحدث عن علم ربنا تَبارَكَ وَتَعالَى.

قال: وَقَوْلُهُ: {يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ} [سبأ: 2].

وَقَوْلُهُ: {وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ} [الأنعام: 59].

وَقَوْلُهُ: {وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ} [فصلت: 47].

وَقَوْلُهُ: {لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا} [الطلاق: 12].

هذه الآيات كما نرى ذكرها المصنف رَحِمَهُ اللهُ كذلك في بيان علم الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى وصفة هذا العلم.

قال الشيخ الهراس رَحِمَهُ اللهُ: وَقَدْ ذَكَرَ سُبْحَانَهُ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ بَعْضَ مَا يتعلَّق بِهِ علمُه؛ لِلدَّلَالَةِ عَلَى شُمُولِهِ وَإِحَاطَتِهِ بِمَا لَا تَبْلُغُهُ عُلُومُ خَلْقِهِ, فَذَكَرَ أَنَّهُ: {يَعْلَمُ مَا يَلِجُ}؛ أَيْ: يَدْخُلُ {فِي الأَرْض} مِنْ حبٍّ وبذرٍ وَمِيَاهٍ وَحَشَرَاتٍ وَمَعَادِنَ، {وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا} مِنْ زرعٍ وأشجارٍ وعيونٍ جاريةٍ وَمَعَادِنَ نَافِعَةٍ كَذَلِك، {وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاء} مِنْ ثلجٍ وَأَمْطَارٍ وصواعقَ وملائكةٍ، {وَمَا

يَعْرُجُ}؛ أَيْ: يَصْعَدُ {فِيهَا} كَذَلِكَ مِنْ مَلائِكَةٍ وَأَعْمَالٍ وطَيْرٍ صوافَّ ... إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يَعْلَمُهُ جَلَّ شَأْنُهُ.

وَذَكَرَ فِيهَا أَيْضًا أَنَّ {عِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ}، وَمَفَاتِحُ الْغَيْبِ؛ قِيلَ: خَزَائِنُهُ. وَقِيلَ: طُرُقُهُ وَأَسْبَابُهُ الَّتِي يُتَوَصَّلُ بِهَا إِلَيْهِ، جَمْعُ مِفتح؛ بِكَسْرِ المِيمِ، أَوْ مِفْتَاحٍ؛ بِحَذْفِ يَاءِ مَفَاعِيل.

قال: وَقَدْ فَسَّرَهَا النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِقَوْلِهِ: ((مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ خَمْسٌ لَا يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ))، ثُمَّ تلاَ قَوْلَهُ تَعَالَى: {إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} [لقمان: 34].

هذه الآيات التي ذكرها المصنف رَحِمَهُ اللهُ فيها عظيم الدلالة على تفصيل صفة علم ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

فالآية الأولى يقول الله عَزَّ وَجلَّ فيها: {يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ}.

ولو قرأنا الآية التي قبلها وهي أول آية في سورة سبأ لعلمنا أن هذا التفصيل إنما هو تفصيل لاسمه الخبير.

فقال الله عَزَّ وَجلَّ في الآية التي قبلها: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ}، ما صفة هذه الخبرة؟

قال: {يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ}.

فالله عَزَّ وَجلَّ يعلم كل والج في الأرض وكل داخل فيها، وهذا معنى الولوج، ويعلم كل خارج من الأرض دق أو جل، ويعلم كل نازل من السماء وكل عارج إلى السماء، لأنه قال: {يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ}.

و(ما): هذه موصولة، ونحن نعلم أن الأسماء الموصولة من ألفاظ العموم، واللفظ العام هو لفظ يستغرق كل ما يصح أن يكون من مفرداته بلا حصر، فلا منتهى لهذه الأمور التي تلج في الأرض.

فالله عَزَّ وَجلَّ يعلم ما كان مما ولج في الأرض وما هو كان وما سيكون، وكذلك ما يخرج من الأرض، وكذلك يعلم كل ما ينزل من السماء وما يعرج فيها على وجه التفصيل، لا يعلم ذلك علمًا كليًا كما تقول الفلاسفة كما سيأتي، وإنما يعلم ذلك على وجه التفصيل سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

وقال تعالى: {وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}.

{وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ}، ما إعراب هذه الجملة؟

مفاتح الغيب عنده، فالمبتدأ هاهنا: مفاتح، والخبر شبه الجملة، فهنا تقديم وتأخير، وتقديم ما حقه التأخير يفيد الحصر والقصر، هذا عند ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى ليس عند غيره.

{وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ}، وهذا كذلك حصر مؤكد للحصر السابق, لأن الاستثناء جاء بعد النفي، والاستثناء إذا جاء بعد النفي فإنما يفيد الحصر والقصر، فعلم ذلك مقصور على ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى على جهة التفصيل.

{وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ}، و(ما) كذلك موصولة، فهي تدل على شمول أفراد ما في البر والبحر، وكم في البحر من عوالم, وكم في البر من عوالم لا يعلمها إلا الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى!!

ثم قال: {الْبَرِّ}، والألف واللام تفيد كذلك العموم, عموم البر، يعلم كل ما يقع في كل ما يصدُق عليه أنه بر، وفي كل ما يصدُق عليه أنه بحر، هذا كله يعلمه ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى على جهة التفصيل, لا يعذب عن علمه شيء سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

{وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا}، وقوله: {وَرَقَةٍ}، هذه نكرة في سياق النفي, فتعم كل ورقة، فكل ورقة على وجه هذه البسيطة تسقط يعلم الله عَزَّ وَجلَّ هذه الورقة, ويعلم كم مرة تتقلب في الهواء، ويعلم متى سقطت، ويعلم أين صارت وإلام تحولت، يعلم عددها ويعلم صفتها، كل ذلك على وجه التفصيل، لا يعذب عنه شيء سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

{وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ}، و(من) هذه تفيد النص في العموم.

{وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا}، يعني لو قال: وما تسقط ورقة إلا يعلمها، فالنكرة في سياق النفي تفيد العموم, ليس على جهة القطع والنص، فلما جاء بقوله: {مِنْ وَرَقَةٍ}، أي: لا يعذب عنه ورقة سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

{وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}، كذلك كل حبة وكل رطب وكل يابس في ظلمات الأرض في البر والبحر، هذا كله في كتاب مبين.

وهذا فيه إثبات علم الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، لأن هذا مكتوب في كتاب مبين الذي هو اللوح، والكتابة لا تكون إلا بعد علمه، ولذلك كانت مراتب القدر أربعة منها: العلم والكتابة، فالكتابة تالية للعلم.

فقوله: {إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}، هذا كذلك فيه إثبات صفة العلم لربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

وكذلك قوله: {فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}، ما معنى (مبين)؟ يعني: واضح ظاهر بيِّن، فهذا فيه صفة علم ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى، لا لبس فيه ولا اشتباه.

وقوله تعالى: {وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ}، (ما) و(إلا)، فهذا كذلك يدل على اختصاصه بذلك سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، فكل ما تحمله الأنثى وتضعه فهذا يعلمه الله عَزَّ وَجلَّ على جهة التفصيل.

وقوله تعالى: {لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا}، فربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى وسع كل شيء رحمة وعلمًا، فكل ما يصدُق عليه أنه شيء يقع تحت علم ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

{أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا}، فالمراد بالإحاطة هاهنا: إحاطة العلم، وليست هي كل الإحاطة.

فالله عَزَّ وَجلَّ محيط بخلقه علمًا وسمعًا وبصرًا وسلطانًا، سُبْحَانَهُ وَتعَالَى لا يخفى عليه خافية، لكن الكلام هاهنا عن صفة العلم.

فقال: {أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا}، وقال: {لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}، وهاتان كليتان مطلقتان لا تخصيص فيهما.

الكلية الأولى وهي: عموم مشيئة الله وقدرته سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، وكذلك عموم علمه ومطلق علمه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، علمه المطلق الذي أحاط بكل شيء، فهذا عموم مطلق لا مخصص له، فلا يخرج أحد عن قدرته ولا عن علمه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

ولذلك نقول: إن قول من قال من الفقهاء والأصوليين: إنه ما من عام إلا وقد خُص، وهذا دارج على ألسنتهم، نقول: إن هذا يُراد به أمور التكليف، الأحكام التكليفية فهي التي يكثر فيها تخصيص العام رحمة من ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى بنا.

"فِيمَا سَقَتِ السَّمَاءُ الْعُشْرُ"، يعني: في كل ما سقت السماء.

ثم قال: "لَيْسَ فِيمَا دُونَ خَمْسَةِ أَوْسُقٍ صَدَقَةٌ".

قال تعالى في سورة البقرة: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ} [البقرة: 267]، من كل ما يخرج من الأرض.

ولذلك الأحناف أوجبوا الزكاة في كل ما يخرج من الأرض.

لكن عندنا كثير من النصوص التي خصصت هذا العموم، فالتخصيص في الأحكام التكليفية إنما هو رحمة من ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وأما غير ذلك فالأصل فيه العموم، العموم كثير جدًا في شرع ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

اقرأ سورة الفاتحة كلها عمومات، {الْحَمْدُ}، (أل) للاستغراق.

{الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}، كذلك {رَبِّ الْعَالَمِينَ}: لا يخرج أحد عن ربوبيته.

{الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ}، استغراق الصفات, كما سيأتي في منظومة القواعد في الدرس القادم إن شاء الله.

و(أل) تفيد الكل في العموم ... في الجمع والإفراد كالعليم

فالعموم وارد في كثير من آيات ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

إذًا: قولهم: ما من عام إلا وخُص، هذا يُراد به الأحكام التكليفية.

فقال المصنف رَحِمَهُ اللهُ: وَقَدْ فَسَّرَهَا النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِقَوْلِهِ: ((مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ خَمْسٌ لَا يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ))، ثُمَّ تلاَ هذه الآية: {وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ}.

ما المراد بالمفاتح؟

قال: المفاتح؛ قيل: هي الخزائن، وقيل: هي الأسباب والطرق التي يتوصل بها إليه، جَمْعُ مِفتح، أَوْ مِفْتَاحٍ.

فهذه الأمور مفاتيح لغيرها، فالساعة مثلاً مفتاح الدار الآخرة، {إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ}، فالساعة مفتاح الدار الآخرة.

{وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ}، ونزول الغيث هو مفتاح الحياة على الأرض، فبنزول الغيث ينبت النبات وتزدهر ويحيا الناس.

{وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ}، وهذا مفتاح حياة الإنسان إذا خرج من الرحم.

{وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا}، وهذا مفتاح الكسب.

{وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ}، وهذا مفتاح الانتقال للآخرة.

فهذا مما اختص الله تعالى به؛ وهذا يظهر من تقديم ما حقه التأخير ، تقديم الخبر على المبتدأ.

قال رَحِمَهُ اللهُ: وَقَدْ فَسَّرَهَا النبيُّ صلى الله عليه وسلم بِقَوْلِهِ: ((مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ خَمْسٌ لَا يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ))، ثُمَّ تلاَ قَوْلَهُ تعَالَى: {إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ

وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ} [لقمان: 34].

لماذا اختص الله عَزَّ وَجلَّ بهذه الأمور؟ {إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ}، و(إن) هذه تعليلية.

فإذا ذكر الله عَزَّ وَجلَّ اسمًا من أسمائه في آخر آية وسبق هذا الاسم (إن) فهذا يدل على أن هذا تعليل لما سبق من الأحكام، فأحكام الله عَزَّ وَجلَّ معللة, وهي موضوعة لغايات وحِكَم.

ولذلك دائمًا تجد المناسبة بين ذكر الأسماء وما سبقها من أحكام.

الأعرابي لما سمع رجلا يقرأ قول الله تعالى: (والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاءً بما كسبا نكالًا من الله والله غفور رحيم)، سمع: والله غفور رحيم، قال: لا، اقرأ الآية، فأعادها: {وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}، لأن هذا تعليل لحكم الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، عزَّ فحَكَمَ, فكان القطع جزاءً للسارق.

قال: وَقَدْ دَلَّتِ الْآيَتَانِ الْأَخِيرَتَانِ عَلَى أَنَّهُ سُبْحَانَهُ عَالِمٌ بِعِلْمٍ هُوَ صِفَةٌ لَهُ، قَائِمٌ بِذَاتِهِ؛ خِلاَفًا لِلْمُعْتَزِلَةِ الَّذِينَ نَفَوْا صِفَاتِهِ، فَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: إِنَّهُ عَالِمٌ بِذَاتِهِ، وَقَادِرٌ بِذَاتِهِ.. إلخ، وَمِنْهُمْ مَن فَسَّرَ أَسْمَاءَهُ بمعانٍ سَلْبِيَّةٍ، فَقَالَ: عَلِيمٌ؛ مَعْنَاهُ: لَا يَجْهَلُ, وقادرٌ؛ مَعْنَاهُ: لَا يَعْجِزُ.. إلخ.

فسرت المعطلة نفاة الصفات صفاته سُبْحَانَهُ وَتعَالَى بالمعاني السلبية ، وفسروا أسمائه كذلك بالسلوب، ولم يثبتوا لله عَزَّ وَجلَّ الصفات التي أثبتها لنفسه، فالغلاة منهم نفوا أسماءه وصفاته، والمعتزلة نفت الصفات دون الأسماء

نفيا للتشبيه زعموا، فاحتجت عليهم الفلاسفة بأن إثبات الأسماء كذلك يقتضي تشبيه الله بالمخلوق.

قال: وَهَذِهِ الْآيَاتُ حُجَّةٌ عَلَيْهِمْ.

لكن لماذا قالت المعتزلة هذه المقالة؟

أولًا: ينبغي أن نعلم أن عقيدة المتكلمين في باب الأسماء والصفات خاصة مأخوذة بنصها من الفلاسفة، فلاسفة اليونان الدهرية الملحدين لما تكلموا عن الرب تَبَارَكَ وَتَعَالَى لم يتكلموا لا بكتاب مُنزَّل ولا بكلام نبي مرسل، وإنما تكلموا بالهوى والعقل المحض, عقل فاسد.

فكلٌّ منهم تكلم عن الإله بما شاء، فجعلوا الإله عدمًا محضًا لا صفة له، ووصفوه بالسلوب، فليس بجسم ولا جوهر ولا عرض، ....ثم لما تُرجمت كتب اليونان أُعجب بها المتكلمون والفلاسفة المتألهين كما تسميهم كتب المقالات كالفارابي وابن سينا، فأخذوا ما في هذه الكتب وعرضوه على كتاب ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

وكان الأصل المقدم عندهم ما في هذه الكتب المترجمة، فجعلوا ما في كتاب الله وفي سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خاضعًا لهذه الكتب، فآل ذلك إلى صفات ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَ.

فالمعتزلة يقولون: لا نصِف الله عَزَّ وَجلَّ بصفة، لأن هذه الصفة إما أن تكون حادثة أو قديمة، فلو كانت الصفة حادثةً ووصفنا الله عَزَّ وَجلَّ بها فهذا كفر، كون الصفة حادثة، يعني: مخلوقة وموجودة بعد أن لم تكن، وهذا يعني أننا نجعل الله عَزَّ وَجلَّ محِلاً للحوادث، ومن جعل الله عَزَّ وَجلَّ محِلاً لخلقه كفر.

ولو قلنا: إنها قديمة، فهذا يعني وجود قديم آخر مع الله، وهذا هو معتقد النصارى تعدد القدماء، وهذا ينافي أحديته سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، وأنه الواحد، ولذلك نفوا الصفات، وهذا جهل منهم بالشرع وبلغة العرب.

هل الصفة تقوم بنفسها ؟ لا تقوم بنفسها بل لابد من محل تقوم فيه, فكيف يُقال: هي قديمة مع الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، وهذا يقتضي تعدد القدماء؟

ولذلك أهل العلم من أهل السنة يقولون: كان الله بصفاته، فهو لا يزال متصفًا بها أزلًا سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، وصفته لا تنفك عنه.

ولا يلزم من قِدَم الصفة إن عبَّرنا باصطلاحهم تعدد القدماء، فهذا كله كلام باطل لا ينصره لا عقل ولا شرع ولا لغة، فالموصوف واحد سبحانه وصفاته متعددة ولا يلزم من ذلك تعدد الموصوف عقلا ولا شرعا، كما ضرب الإمام أحمد بالنخلة محتجا عليهم، لها كرب وليف، وجريد وعرجون، وهي نخلة واحدة، وكما وصف الله الوحيد في صدر سورة المدثر بصفات متعددة وهو واحد، ولله المثل الأعلى سبحانه.

فقال رَحِمَهُ اللهُ: وَهَذِهِ الْآيَاتُ حُجَّةٌ عَلَيْهِمْ، فَقَدْ أَخْبَرَ فِيهَا سُبْحَانَهُ عَنْ إِحَاطَةِ عِلْمِهِ بِحَمْلِ كُلِّ أُنْثَى وَوَضْعِهَا مِنْ حَيْثُ الْمَعْنَى وَالْكَيْفِ؛ كَمَا أَخْبَرَ عَنْ عُمُومِ قُدْرَتِهِ، وَتَعَلُّقِهَا بِكُلِّ مُمْكِنٍ، وَعَنْ إِحَاطَةِ عِلْمِهِ بِجَمِيعِ الْأَشْيَاءِ.

وَمَا أَحْسَنَ مَا قَالَهُ الْإِمَامُ عَبْدُ الْعَزِيزِ الْمَكِّيُّ -الذي هو صاحب كتاب (الحيدة) عبد العزيز الكناني- فِي كِتَابِهِ ((الْحِيدَةِ)) لِبِشْرٍ الْمَرِيسِيِّ الْمُعْتَزِلِيِّ وَهُوَ يُنَاظِرُهُ فِي مَسْأَلَةِ الْعِلْمِ.

وهذا الكتاب -أقسم بالله غير حانث- أنْ لو لم ينص أهل العلم على ثبوته للإمام عبد العزيز الكناني لوقع الشك في ثبوت هذا الكتاب، وفي أن تكون هذه مناظرة قيلت هكذا ارتجالًا أمام الناس.

الكتاب فيه تسديد وتوفيق عجيب من الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى في استحضار الآيات، وفي آداب المناظرة، وفي إقامة الحجة على الخصم، وفي انقطاع الخصم، وفي الأدب مع الأمير وفي كيفية الإتيان بالحجة من الدليل واستنباط الحجة من الدليل، أمور عجيبة ومباحث لغوية وأصولية تبين ما كان عليه أئمتنا رحمهم الله..

فهذا توفيق من الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، وهو حقيق بأن يُقرأ, بل بأن يُحفظ، ليُعلم ما فيه وما كان عليه أئمة السنة من علم بالسنة وبلغة العرب وبأقوال المبتدعة وكيف يناظرونهم وكيف يقطعونهم، إن شاء الله لعلنا نقرأه في مجلس.

فقال: الْإِمَامُ عَبْدُ الْعَزِيزِ الْمَكِّيُّ فِي كِتَابِهِ ((الْحِيدَةِ)) لِبِشْرٍ الْمَرِيسِيِّ الْمُعْتَزِلِيِّ.

سبب هذه المناظرة له قصة: أن الإمام عبد العزيز رحمه الله سمع أن القول بخلق القرآن قد استفحل، وأراد أن ينصر عقيدة أهل السنة والجماعة, ففكر في حيلة ماذا يصنع؟

فكر في أن يقوم في المسجد الجامع وأن يصرخ بأن القرآن كلام الله، ووقتئذ من كان يقول هذا الكلام علانية أمام الناس يُقتل أو يعذب شديداً، فجاء عبد العزيز يوم الجمعة ووقف بين الناس وقال: القرآن كلام الله غير مخلوق. كثير من المعتزلة همُّوا به لَمَّا سمعوه، فاستدرجهم حتى حملوه إلى الخليفة، وكان هذا ما

يريد, أن يُحمل إلى الخليفة ثم أن يدعو من يناظره, ثم يكون الأمر على ما أراد الله سُبْحَانَهُ وتعَالَى.

ومثل هذه المناظرة كذلك مناظرة أبي عبد الرحمن الأذرمي الذي ناظر ابن أبي دؤاد أمام الواثق، لما قال له: فلا وسَّع الله على من لم يسعه ما وسِع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه، وكانت سببًا في رفع المحنة، وقد ذكرها الإمام الآجري في كتاب الشريعة هذه كذلك كان فيها توفيق من الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

فقال لِبِشْرٍ المَرِيسِيِّ الْمُعْتَزِلِيِّ وَهُوَ يُنَاظِرُهُ فِي مَسْأَلَةِ الْعِلْمِ: ((إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجلَّ لَمْ يَمْدَحْ فِي كِتَابِهِ مَلَكًا مقرَّبًا وَلَا نَبِيًّا مُرْسَلاً وَلَا مُؤْمِنًا تَقِيًّا بِنَفْيِ الجَهْلِ عَنْهُ؛ لِيَدُلَّ عَلَى إِثْبَاتِ الْعِلْمِ لَهُ.

أراد رحمه الله أن الله عَزَّ وَجلَّ لما مدح الملائكة أو مدح الأنبياء أو المرسلين أو أولياءه المتقين، هل مدحهم في كتابه بنفي الصفة عنهم أم بإثبات الصفة لهم؟ ومن ذلك العلم، هل مدحهم بنفي الجهل أم بإثبات العلم؟ بإثبات العلم.

هل قال: قل هل يستوي الذين لا يجهلون والذين يجهلون، أم قال: {الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ} [الزمر: 9]؟

هل قال يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين خلوا من الجهل أم {وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ} [المجادلة: 11]؟ {وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ}.

فالله عَزَّ وَجلَّ ما مدح واحدًا من هؤلاء بنفي الجهل عنهم ليدل على إثبات العلم له, ((وَإِنَّمَا مَدَحَهُمْ بِإِثْبَاتِ الْعِلْمِ لَهُمْ، فَنَفَى بِذَلِكَ الجَهْلَ عَنْهُمْ)), لأنك لو أثبت العلم نفيت الجهل, ((فمَن أَثْبَتَ الْعِلْمَ نَفَى الْجَهْلَ، ومَن نَفَى الجَهْلَ لَمْ يُثْبِتِ الْعِلْمَ))، وهذه قاعدة متينة في رد باطل المعطلة الذين يجعلون تعطيلهم محضا.

إذًا هذا دليل من القرآن.

وَالدَّلِيلُ الْعَقْلِيُّ عَلَى عِلْمِهِ تَعَالَى: أي: أنه موصوف بعلم، وهذا كله رد على المعتزلة.

قال: وَالدَّلِيلُ الْعَقْلِيُّ عَلَى عِلْمِهِ تَعَالَى أَنَّهُ يَسْتَحِيلُ إِيجَادُهُ الْأَشْيَاءَ مَعَ الْجَهْلِ؛ لِأَنَّ إِيجَادَهُ الْأَشْيَاءَ بِإِرَادَتِهِ، وَالْإِرَادَةُ تَسْتَلْزِمُ الْعِلْمَ بالمُراد، وَلِهَذَا قَالَ سُبْحَانَهُ: {أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ} [الملك: 14].

وهذا استنباط جيد أن الله عَزَّ وَجلَّ هو الذي خلق، والخلق مرده إلى العلم والقدرة، ولذلك كانت مراتب القدر على مقتضى هذه الأفعال: علم فكتب فشاء فخلق.

قال: وَلِأَنَّ الْمَخْلُوقَاتِ فِيهَا مِنَ الْإِحْكَامِ وَالْإِتْقَانِ.

هذا دليل آخر.

وَلِأَنَّ الْمَخْلُوقَاتِ فِيهَا مِنَ الْإِحْكَامِ وَالْإِتْقَانِ وَعَجِيبِ الصَّنْعَةِ وَدَقِيقِ الْخِلْقَةِ مَا يَشْهَدُ بِعِلْمِ الْفَاعِلِ لَهَا؛ لِامْتِنَاعِ صُدُورِ ذَلِكَ عَنْ غَيْرِ عِلْمٍ.

وهذا فيه رد على من دعاة نظرية التطور، إذ مِن أُسس هذه النظرية العشوائية, أو ما يسمونه الانتخاب الطبيعي، أن الطبيعة هي التي انتخبت، اختارت هذا ليبقى واختارت هذا ليفنى، فكأنه لا إله إلا الطبيعة، وهذا كله قائم على العشوائية وعدم العلم.

ولذلك يُخطئ خطئًا فادحًا من يحاول تقريبها لكتاب الله وسنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويسمون ذلك بالتطور الإلهي أو التطور الموجه أو غير ذلك من الخرافات، وفيما يقرره هذا الاتجاه من الهزيمة النفسية والانبطاح للأصول

الفاسدة لهذه النظرية ما قد قرره المحققين من أهل السنة في هذا الباب كما حقق ذلك فضيلة الدكتور أبي الفداء حسام مسعود في كتابه معيار النظر.

قال: وَلِأَنَّ -هذا دليل آخر- مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ مَنْ هُوَ عالِمٌ، وَالْعِلْمُ صِفَةُ كَمَالٍ، فَلَوْ لَمْ يَكُنِ اللَّهُ عَالِمًا؛ لَكَانَ فِي الْمَخْلُوقَاتِ مَن هُوَ أَكْمَلُ مِنْهُ.

وكل كمال في المخلوق من غير وجه نقص فالله عَزَّ وَجلَّ أولى به سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

وهذا مما حققه شيخ الإسلام وقرره في مواضع من كتبه، ومنها الصفدية ، إذ كيف يكون المخلوق أكمل صفةً من الخالق سبحانه الذي وهبه هذه الصفة كالكلام والسمع والبصر وغير ذلك من صفات الكمال.

قال: وَكُلُّ عِلْمٍ فِي الْمَخْلُوقِ إِنَّمَا اسْتَفَادَهُ مِنْ خَالِقِهِ، وَوَاهِبُ الْكَمالِ أَحَقُّ بِهِ، وَفَاقِدُ الشَّيْءِ لَا يُعْطِيهِ.

ولذا قال تعالى عن إسحاق عليه السلام (فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ عليمٍ) ، فهو سبحانه من وهبه صفة العلم، وقال تعالى (هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا (1) إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا) فهو سبحانه من وهب الإنسان صفة السمع والبصر.

وَأَنْكَرَتِ الْفَلاَسِفَةُ عِلْمَهُ تَعَالَى بِالْجُزْئِيَّاتِ.

وعلى رأسهم ابن سينا, الذي يسمونه بالشيخ الرئيس.

وَقَالُوا: إِنَّهُ يَعْلَمُ الْأَشْيَاءَ عَلَى وَجْهٍ كليٍّ ثابتٍ، وَحَقِيقَةُ قَوْلِهِمْ أَنَّهُ لَا يَعْلَمُ شَيْئًا؛ فَإِنَّ كُلَّ مَا فِي الْخَارِجِ هُوَ جُزْئِيٌّ.

ذلك أن الكلي المطلق بشرط الإطلاق دون قيد أو وصف أو إضافة لا يكون إلا في الذهن، ولا حقيقة له في الخارج.

كَمَا أَنْكَرَ الغُلاة مِنَ القدَرِيَّة عِلْمَهُ تَعَالَى بِأَفْعَالِ الْعِبَادِ حَتَّى يَعْمَلُوهَا؛ توهُّمًا مِنْهُمْ أَنَّ عِلْمَهُ بِهَا يُفْضِي إِلَى الْجَبْرِ، وَقَوْلُهُمْ مَعْلُومُ الْبُطْلَانِ بِالضَّرُورَةِ فِي جَمِيعِ الْأَدْيَانِ.

إذًا: غلاة القدرية نفوا علم الله عَزَّ وَجلَّ، وهم الذين جاء فيهم الحديث, أول حديث في صحيح مسلم، قال حميد بن عبد الرحمن: " إِنَّهُ قَدْ ظَهَرَ قِبَلَنَا نَاسٌ يَقْرَؤُونَ الْقُرْآنَ، وَيَتَقَفَّرُونَ الْعِلْمَ, يقولون: وَأَنَّ الْأَمْرَ أُنُفٌ ".

ما معنى "وَأَنَّ الْأَمْرَ أُنُفٌ"؟ أي: أن الله عَزَّ وَجلَّ لا يعلم الأشياء إلا بعد وقوعها.

أُنُفٌ أي مستأنف، فكفرهم الصحابة، فمن أنكر علم الله عَزَّ وَجلَّ السابق هذا يكفر، وهذه الطائفة تكاد تكون انقرضت والله أعلم، وإلا فلكل قوم وارث.

والموجود الآن هم متوسطة المعتزلة، وهم الذين يثبتون المرتبتين الأوليين وينفون المرتبتين اللاحقتين، فيثبتون العلم والكتاب وينفون المشيئة والخلق، فيجعلون مشيئة العبد مستقلة وخلقه لأفعاله كذلك خلقًا مستقلاً، ولهم في ذلك شبهة لعلها تأتي في باب القدر.

لكن الفلاسفة أثبتوا لله علمًا كليًا، ونفوا عن الله عَزَّ وَجلَّ العلم بالجزئيات، العلم التفصيلي، فينفون علم الله بالجزئيات.

وقد رد عليهم الغزالي في كتابه تهافت الفلاسفة, الذي أقضَّ مضاجع الفلاسفة ، إلا أن الغزالي عفا الله عنه لما دخل في الفلسفة لم يستطع أن يخرج منها سالمًا، كما أنه لما دخل في التصوف كذلك لم يستطع أن يخرج منه سالمًا، لكنه رد عليهم في هذا الكتاب على الفلاسفة وأخذ عليهم عشرين مسألة, كفَّرهم في ثلاثة منها.

ومن هذه المسائل الثلاثة: مسألة علم الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى بالكليات دون الجزئيات. رد عليهم الغزالي وكذلك أبو البركات البغدادي كما في كتابه المعتبر, ونقل عنه شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ كثيرًا في كتاب درء التعارض ردًا على ابن سينا في هذه االمسألة وعلى الفلاسفة على اختلاف طوائفهم.

الفلاسفة ومنهم ابن سينا يقولون: أن الله يعلم الأشياء كلها بنوع كلي، هذا العلم لا يدخل تحت الزمان، يعني: لا يتعلق لا بماضٍ ولا بحاضر ولا مستقبل، علم قديم أزلي كالكلام عند الأشاعرة.

الأشاعرة يقولون: إن الله عَزَّ وَجلَّ كلامه نفسي قديم، هو لا يتكلم سُبْحَانَهُ وَتعَالَى بكلام قديم النوع حادث الآحاد خاطب به محمدا كما خاطب به من قبله من الرسل صلى الله عليهم وسلم، وإنما هو كلام واحد نفسي قديم .

كذلك هؤلاء الفلاسفة يقولون: علمه قديم لا يتعلق بالجزئيات، يعني: لا يدخل تحت الزمان، ولا يعلم الجزئيات التي يوجب تجدد الإحاطة بها تغيرًا في ذات العالِم كما يقولون.

فلو أن الله عَزَّ وَجلَّ علم أن عليًّا الآن يجلس معنا يفتح الكتاب، وأن فلانًا يصلي، وأن محمدا قد دخل علينا الآن، فإن هذه الجزئيات المتجددة تؤدي إلى وجود تغير في ذات العالِم، وهذا ما سموه بمسألة حلول الحوادث.

وذكر الغزالي كذلك: أنهم اتفقوا على أنه لا يعلم الجزئيات المنقسمة بانقسام الزمان إلى الكائن وما كان ويكون، يعلمها علمًا كليًا لا يدخل تحت الزمان، ولا يختلف بالماضي والمستقبل والآن.

ومن هنا كفَّرهم الغزالي وغيره فضلاً عن أئمة المسلمين كمالك والشافعي وأحمد, فإنهم كفروا غلاة القدرية الذين أنكروا علمه السابق -هذا كلام شيخ الإسلام ابن تيمية- الذين أنكروا علمه بالأفعال الجزئية قبل وجودها.

علماء المسلمون كفَّروا غلاة القدرية الذين أنكروا علم الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، وأنه يعلم الأفعال الجزئية قبل وجودها، فكيف من أنكر علمه بالجزئيات كلها قبل الوجود وبعد الوجود؟! فهؤلاء أشد كفرًا.

وقد ذكر الغزالي مثالًا لما احتجوا به على نفي العلم بالجزئيات، وهذا المثال ذكره ابن سينا، وهذا المثال المضروب هو كسوف الشمس في المستقبل والحاضر والماضي.

قالوا: هذا الكسوف نعلمه بعلوم ثلاثة، هكذا يقولون.

وهو أن الشمس مثلاً: تنكسف بعد أن لم تكن منكسفة، ثم ينجلى هذا الكسوف، فيحصل له ثلاثة أحوال -أعني الكسوف- هكذا يقول الغزالي:

حالة: هو فيها معدوم منتظر الوجود، فالكسوف لم يحصل بعد، فالكسوف الآن معدوم منتظر الوجود، أي: سيكون.

وحال: هو فيها موجود، أي: هو كائن, وقع الكسوف الآن.

وحالة ثالثة: هو فيها معدوم لكنه كان من قبل.

قالوا: ولنا بإيذاء الأحوال الثلاثة ثلاثة علوم مختلفة:

فإنا نعلم أولًا: أن الكسوف معدوم وسيكون.

وثانيًا: أنه كائن.

وثالثًا: أنه كان وليس كائنًا الآن.

قالوا: وهذه العلوم الثلاثة متعددة ومختلفة وتعاقبها على المحل يوجب تغير الذات العالمة، فإنه لو علم بعد الانجلاء أن الكسوف موجود الآن كان جهلاً لا علمًا، ولو علم عند وجوده أنه معدوم كان جهلاً، فبعض هذه لا يقوم مقام بعض.

فزعموا أن الله لا يختلف حاله في هذه الأحوال الثلاثة، فإنه إن اختلف فإن ذلك يؤدي إلى التغير، وما لم يختلف حاله لم يُتصور أن يعلم هذه الأمور الثلاثة، فإن العلم يتبع المعلوم، فإذا تغير المعلوم –أراد أن الكسوف ليس موجودا ووجد وانتهى– إذا تغير هذا المعلوم تغير العلم، وإذا تغير العلم تغير العالم لا محالة، والتغير على الله محال.

إذًا: الله عَزَّ وَجلَّ لا يعلم جزئيات العلم، يعلمها علمًا كليًا. يعلم أنه يوجد شيء اسمه كسوف، كما يعلم أنه يوجد شيء اسمه بشر موجودون على الأرض، يوجد شيء اسمه سماء، يوجد شيء اسمه قمر، لكن ما يحدث في السماء، ما يحدث في القمر على وجه البسيطة، ما يقوم به محمد وعليّ من إيمان وكفر وغير ذلك، هذا لا يعلمه الله عَزَّ وَجلَّ على جهة التفصيل، لماذا؟

قالوا: لأن هذا العلم يقتضي تغييرًا في العالِم، ولأنه يقتضي تعبًا وعِيًّا، يعلم ماذا أم ماذا ؟ هكذا يعتقدون في ربنا سُبْحَانَهُ وَتعَالَى!

ولأنه يقتضي اكتمالًا بغيره، هذه هي شبههم الثلاثة.

قال الغزالي رَحِمَهُ اللهُ: ومع هذا زعم أنه يعلم الكسوف وجميع صفاته وعوارضه، ولكن علمًا هو يتصف به في الأزل، ولا يختلف مثل أن يعلم مثلاً أن الشمس موجودة، وأن القمر موجود، فأنهما حصلا منه بواسطة الملائكة.

تعرفون نظرية كيف وقع الخلق التي انتصر لها الفارابي، ذكرناها في شرح كتاب تجريد التوحيد للمقريزي رحمه الله بالتفصيل، نظرية الفيض والصدور، يقولون: أن الله عَزَّ وَجلَّ واحد وهو علة واحدة، لا يصدر عنه إلا واحد، لأنه لو صدر عنه أكثر من واحد فهذا يدل على مباشرة الواحد للكثرة، وهذا لا يجوز في حق الله، لأنه واحد بسيط في ذاته وفي صفاته, ليس له صفات، هو واحد فقط، ليس له صفة.

ولذلك اخترعوا ما يسمى بالعقول العشرة، فالعقل الأول خلق العقل الثاني، والعقل الثاني خلق الثالث، حتى العقل العاشر الذي خلق هذا العالم.

والله عَزَّ وَجلَّ صدرت عنه هذه العقول دون إرادة ولا مشيئة, فاضت عنه كما يفيض شعاع الشمس عنها، هكذا يقولون.

قال: فجعلوا هذه المخلوقات حاصلة بواسطة الملائكة التي سموها باصطلاحهم عقولًا مجردة، ويعلم أنها تتحرك حركات دورية، ويعلم أن بين فلكيها تقاطعٌ على نقطتين: هما الرأس والذنب.

يشرح هنا كيف يقع الكسوف.

قال: وأنهما يجتمعان في بعض الأحوال في العقدتين, فتنكسف الشمس، أي: يحول جرم القمر بينها وبين أعين الناظرين، فتستتر الشمس عن الأعين، وأنه إذا جاوز العقدة مثلاً بمقدار كذا، وهو سنة مثلاً، فإنه ينكسف مرة أخرى، وأن ذلك الانكساف يكون في جميعه أو ثلثه أو نصفه، وأنه يمكث ساعة أو ساعتين، وهكذا إلى جميع أحوال الكسوف وعوارضه، فلا يعزب عن علمه شيء، ولكن علمه بهذا قبل الكسوف.

هذا كله يعلمه قبل الكسوف, أن الكسوف يقع على هذه الصورة، لا يختلف هذا العلم، أما أنه يعلم الكسوف وقت وقوعه وما وقع فيه، فهذا لا يعلمه الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، فجميع الحوادث مكشوفة له انكشافًا واحدًا لا يؤثر فيه الزمان.

قال: وكذا علمه بجميع الحوادث، فإنها إنما تحدث بأسباب، وتلك الأسباب لها أسباب أخرى، إلى أن تنتهي إلى الحركة الدورية السماوية، وسبب الحركة الدورية نفس السماوات.

إلى غير ذلك مما ذكر

قال: فهو يعلم الخواص ولا يعلم عوارضها.

يعني: يعلم أعيان الأشياء، لكن ما وقع بها من صفات حادثة هذا لا يعلمه الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

قال: وكذا مذهبهم فيما ينقسم بالمادة والمكان, كأشخاص الناس, لا يعلم ما يقوم به أفراد الناس, والحيوانات, فإنهم يقولون: لا يعلم عوارض زيد وعمرو وخالد، وإنما يعلم الإنسان المطلق بعلم كلي ويعلم عوارضه وخواصه، وأنه ينبغي أن يكون بدنه مركبًا من أعضاء بعضها للبطش، وبعضها للمشي، وبعضها

للإدراك، وبعضها زوج، وبعضها فرد، وأن قواه ينبغي أن تكون مبثوثة في أجزائه، وهلم جرا إلى كل صفة في داخل الآدمي وباطنه، وكل ما هو من لواحقه وصفاته ولوازمه، حتى لا يعزب عن علمه شيء ويعلمه كلياً.

وأما العوارض -يعني: الصفات الحادثة المتجددة- فلا يميزها إلا الحِس، فأما شخص زيدٍ فإنما يتميز عن شخص عمرو للحس لا للعقل، فإن عماد التمييز إليه الإشارة إلى جهة معينة، والعقل يعقل الجهة المطلقة الكلية والمكانة الكلية.

فأما قولنا هذا وهذا فهو إشارة إلى نسبة حاصلة لذلك المحسوس إلى الحاس بكونه منه على قرب أو بعد أو جهة معينة, وذلك يستحيل في حقه.

قلنا: لأن الإله عندهم لا صفة له، فمعنى أنه يسمع، أي: يسمع الكلام الوارد من جهة معينة، يبصر، يعني: ينظر إلى جهة معينة، وكل هذا منفي عن الإله عندهم، مستحيل عليه, فهو إله لا صفة له.

قال الغزالي: وهذه قاعدة اعتقدوها واستأصلوا بها الشرائع بالكلية، إذ مضمونها أن زيدًا مثلاً: لو أطاع الله أو عصاه لم يكن الله عالمًا بما يتجدد من أحواله.

هو يعلم أن هناك زيدًا وأن هناك عمروًا، لكن ماذا يصنع زيد؟ هذا لا يعلمه الله عَزَّ وَجلَّ، لأن هذا العلم علم تفصيلي ليس علمًا كليًا.

قال: إذ مضمونها أن زيدًا مثلاً: لو أطاع الله أو عصاه لم يكن الله عالمًا بما يتجدد من أحواله، لأنه لا يعرف زيدًا بعينه، فإنه شخص، وأفعاله حادثة بعد أن لم تكن، وإذ لم يعرف الشخص لم يعرف أحواله وأفعاله، بل لا يعرف كُفر زيد

ولا إسلامه، وإنما يعلم كفر الإنسان وإسلامه مطلقًا كليًا، لا مخصوصًا بالأشخاص.

يعلم أن هناك كفرًا وإيمانًا، لكن فلان آمن، فلان كفر، هذا لا يعلمه.

قال: بل يلزم أن يقال: تحدى محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالنبوة، وهو لم يعرف في تلك الحالة أنه تحدى بها -يعني: الله عَزَّ وَجلَّ لا يعلم ذلك-, وكذلك الحال مع كل نبي معين، وإنه إنما يعلم أن من الناس من يتحدى بالنبوة.

هو يعلم ذلك, من الناس من سيتحدى بالنبوة.

قال: وأن صفة أولئك كذا وكذا، فأما النبي المعيَّن بشخصه فلا يعرفه، فإن ذلك يعرف بالحس والأحوال الصادرة.

لكن لماذا قالوا ذلك؟ السبب توهمهم أن هذه أحوال ثلاثة مختلفة، والمختلفات إذا تعاقبت على محل واحد أوجبت فيه تغيرًا لا محالة.

فإن كان حالة الكسوف عالمًا بأنه سيكون كما كان قبله فهو جاهل لا عالم، وإن كان عالمًا بأنه كائن وقبل ذلك كان عالمًا بأنه ليس بكائن وأنه سيكون فقد اختلف علمه واختلف حاله، فلزم التغير إذ لا معنى للتغير إلا اختلاف العالم، فإن من لم يعلم شيئًا ثم علمه فقد تغير، ولم يكن له علم بأنه كائن, ثم حصل حالة الوجود فقد تغير في الإضافة.

حدث له علم بعد أن لم يكن، وبهذا نفوا كل صفات الله الفعلية، كالفرح والغضب والمجيء والإتيان والاستواء والنزول، قالوا: هذه حاصلة بعد أن لم تكن، فلو أثبتناها لربنا سُبْحَانَهُ وَتعَالَى لأثبتنا قيام الحوادث به، وهذا ضلال مبين، لأنهم شبهوا الخالق بالمخلوق.

والله عَزَّ وَجلَّ كما أن ذاته تفارق ذات المخلوقين، فكذلك صفاته سُبْحَانَهُ وَتعَالَىٰ تفارق صفات المخلوقين، نعلم معناها ولكن لا نعلم كيفيتها.

وبهذا أخذ سائر المتكلمين، فكل المتكلمين على اختلاف فرقهم ينفون صفات الله الفعلية الاختيارية.

قال الغزالي رحمه الله ردًا عليهم: نقول: إن هذه الأحوال الثلاثة هي إضافة محضة، ككونك يمينًا وشمالًا، فإن هذا لا يرجع إلى وصف ذاتي, بل هو إضافة محضة.

يعني: لو أن شخصًا تحول من على يمينك إلى شمالك، فقد تغيرت إضافتك ولم تتغير ذاتك بحال, فالذي تغير هو المعلوم, وليس علم الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَىٰ.

يعني: الذي تغير هو الكسوف, وُجد بعد أن لم يكن, آمن فلان بعد كفره، وكفر بعد إيمانه، وغضب بعد فرحه، فتفاصيل هذه المعلومات لا تغير علم الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَىٰ.

قال: وهذا تبدل إضافة على الذات, وليس بتبدل في الذات.

وأما شبهتهم بأنك ذلك مآله للتعب ، فيقول شيخ الإسلام ابن تيمية في الدرء: إن قالوا: إن في العلم بالجزئيات تعبًا, يقولون: يعني: يعلم جزئيات كثيرة, هذا سبيله إلى الكلال والتعب.

قيل لهم: من لم يتعب بالفعل كيف يتعب بالعلم بطريق أولى؟

فالله خالق كل هذه المخلوقات سُبْحَانَهُ وَتعَالَىٰ, هل تعب لما خلقها؟

ولذلك سُبْحَانَهُ وَتعَالَىٰ نعى على اليهود الذين قالوا: إن الله تَبَارَكَ وَتعَالَىٰ ارتاح في يوم السبت, في اليوم السابع بعد خلقه.

فالله عَزَّ وَجلَّ فعَّال لما يريد, لم يتعب بفعله, فكيف يتعب بعلمه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى؟!

قال: ففي الجملة كل ما توهم المتوهم أنه نقص في العلم، مثل: كونه استكمالًا بالغير، أو كونه تغيرًا، أو كونه متعبًا، مثله في فعل ذلك لغير المعلوم بطريق أولى, وإذا كان الفعل لا نقص فيه بل هو كمال، فكذلك للعلم.

يقال لهم: أنتم تُثبتون أفعال الله دون كلال وتعب, فكذلك العلم من باب أولى.

قال: فإذا قيل: إن كماله به.

وهذه إجابة شبهة أخرى: يقولون لو أثبتنا علمه بالجزئيات فهذا يعني أنه يكمُل بعلمه بهذه الجزئيات, فيقال: ليس كماله إلا بنفسه, فعلمه صفة له سُبْحَانَهُ وَتعَالَى, ولم يستكمل بعلم خلقه, بعلمٍ مخلوق.

قال: فليس كماله إلا بنفسه، إذ هو المبدع له، فلم تفتقر نفسه إلى غير نفسه، ونحن نعقل أن ما هو غني عنا علمُنا به أكمل من أن لا نعلمه وإن كان غنيًا عنا, فلو قُدِّر أن في الوجود ما ليس مفعولًا له، كان أن يَعلمه أكمل من أن لا يَعلمه، فكيف إذا كان هو مفعوله؟ سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

وهل يقال: إن من عَلِم الأشياء بعلوم متجددة، بل عَلِمها بعد وجودها، أنقص ممن لا يعلمها بحال، فكيف يكون من لا يعلمها قبل وجودها وبعد وجودها؟

هب أننا قلنا: إن من عَلِم الأشياء بعلوم متجددة، لو قلنا: إن هذا العلم -العلم بالجزئيات- يقتضي التغير وحدوث علم جديد بعد عدم وجوده، هذا

أنقص أم من لا يعلمه قبل الوجود ولا بعد الوجود؟ الأنقص هو من نفينا عنه العلم مطلقا.

يقول: وكلما كانت صفات الكمال أكمل، كان الموصوف أكمل، فإن الإنسان أكمل من الحيوان البهيم، والحيوان أكمل من الجماد، وإن قُدِّر أن علمه وفعله مستلزم للحركة، بل للحركة المكانية فهو أكمل ممن لا علم له ولا يتحرك بإرادته، فالمتحرك بإرادته أكمل ممن لا يمكنه الحركة البتة، هذا هو المعقول في الموجودات.

إلى غير ذلك مما ذكره.

حتى قال رَحِمَهُ اللهُ: والكمال الممكن وجوده الذي لا نقص فيه بوجه يجب إثباته لله تعالى، وإن العلم من أعظم الكمالات الذي لا نقص فيه بوجه، وقد وجد العلم في الوجود فثبوته له أولى، كما ذكر الشيخ رَحِمَهُ اللهُ، العلم صفة كمال، فلو لم يكن الله عالمًا لكان المخلوق أكمل من الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

فيقول: وإن العلم من أعظم الكمالات الذي لا نقص فيه بوجه، وقد وجد العلم في الوجود, فثبوته له أولى من ثبوته لغيره، وإن العلم من حيث هو علم لا يستلزم نقصًا أصلاً، ولكن النفوس الظالمة إذا علمت بعض الأشياء قد تستعين بالعلم على الظلم، والنفوس الجاهلة به إذا عرفت بعض الحقائق قد يضرها معرفة تلك الحقائق، فيحصل الضرر لما في النفوس من الشر.

وأما المقدس المنزه عن كل عيب -سُبْحَانَهُ وَتعَالَى- فعلمه من تمام كماله، وهو مما يُحمد به ويُثنى به عليه، ولا يستلزم الذم والنقص بوجه من الوجوه، وكل ذلك لا يستلزم تعبًا ولا نقصًا ولا غير ذلك مما ذكروه.

وهذا مما يُبين أن قول اليهود الذين وصفوه بالتعب لما خلق السماوات والأرض في ستة أيام وأنه استراح بعد ذلك، هذا أقرب إلى المعقول –مع استلزامه للنقص– من قول أرسطو وأتباعه الذين يقولون: لو كان عالمًا بهذا لتعب، وهذا يُبين ضلالهم.

قال الهراس رحمه الله: كما أنكر الغلاة من القدرية علمه تعالى بأفعال العباد حتى يعملوها، توهما منهم أن علمه بها يُفضي إلى الجبر، وقولهم معلوم البطلان بالضرورةِ في جميع الأديان.

يرد شبهة القدرية هذه معرفة أن العلم علمان:

- علم الله ما الخلق عاملون، وهذا مكتوب في اللوح المحفوظ، وليس في ذلك قيام حجة على الخلق.
- علم الله بالفعل حال وقوعه من العبد، وهذا ما يترتب عليه الجزاء إذا بلغت الحجة صاحبها من إنزال الكتب وإرسال الرسل وحصول البلاغ، وبه يُفسر قوله تعالى ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾

فعلم الله تعالى السابق لا يقتضي جبرا للعبد على فعله، لأنه من المعلوم أن العبد له إرادة ومشيئة، والفعل فعله هو؛ فهو الصائم القائم المصلي الحاج لا الرب سبحانه وتعالى، وقد حقق ذلك ابن القيم رحمه الله في شفاء العليل.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم، وجزاكم الله خيرًا.

الدرس الثالث عشر

إن الحمد لله, نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله تعالى من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله, صلى الله عليه, وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد:

فما زال حديثنا موصولًا في قراءة العقيدة الواسطية لشيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ وشرحها للعلامة الهراس.

وكنا قد توقفنا عند قول المصنف رَحِمَهُ اللهُ وهو يذكر الأدلة على معتقد أهل السنة والجماعة فيما يتعلق بباب الأسماء والصفات, قال: {إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ} [الذاريات: 58].

أراد المصنف رَحِمَهُ اللهُ هاهنا أن يبين أن من أسماء الله عَزَّ وَجلَّ الرزاق والرازق, وله صفة الرَزق, فالرزاق والرازق اسمان مشتقان من رَزَق يَرْزق رَزْقًا ورِزْقًا.

ما الفرق بين الرَزق والرِزق؟ الرَزق: صفة الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى, فالله عَزَّ وَجلَّ يرزق رَزقًا, فالرَزق صفته, وأما الرِزق: فهو المرزوق المخلوق, وهو ما ينال العبد من العطاء, فليس من صفة الله الرِزق, لأن الرِزق مخلوق, وأما الصفة فهي الرَزق –بفتح الراء–.

والراء والزاي والقاف كما يقول ابن فارس رَحِمَهُ اللهُ: أصل واحد يدل على عطاء لوقت, ثم يُحمل عليه غير الموقوت, فالرِزق عطاء الله جل ثناؤه, يقال: رزقه الله رَزقًا.

وقال الجوهري: الرِزق ما يُنتفع به.

كل ما يُنتفع به العبد فهو من رِزق الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى, والجمع أرزاق.

فالله عَزَّ وَجلَّ هو الرزاق وهو الرازق, أي: الذي يرزق الخلق أجمعين, فله اسمه الرازق والرزاق, وقد دل على هذين الاسمين كتاب الله تعالى وسنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فمن كتاب الله عَزَّ وَجلَّ هذه الآية التي ذكرها المصنف: {إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ}.

{وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (56) مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ (57) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ} [الذاريات: 56-58].

وكذلك جاء في كتاب الله: {وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ} [المائدة: 114].

واما سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فجاء عند أبي داود وصححه الألباني, ان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **"إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمُسَعِّرُ، الْقَابِضُ الْبَاسِطُ الرَّازِقُ"**.

وجاء في سنن الترمذي أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **"إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمُسَعِّرُ، القَابِضُ، البَاسِطُ، الرَّزَّاقُ"**.

فجاء الحديث بلفظ: الرازق, وبلفظ الرزاق.

وذكر القرطبي الإجماع على تسمية الله عَزَّ وَجلَّ بالرازق والرزاق, فهذان اسمان لربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى, أي: أن الله عَزَّ وَجلَّ هو الذي تكفل بأرزاق خلقه وأقواتهم, وهو ذو القوة المتين سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

ورزق الله عَزَّ وَجلَّ رزقان: رزق عام ورزق خاص.

- أما الرزق العام: فهذا الذي يشمل جميع عباده, البر منهم والفاجر, والمؤمن والكافر, وهو رزق الأبدان, قال الله عَزَّ وَجلَّ: {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا} [هود: 6].
- والنوع الآخر وهو رزق خاص بالمؤمنين, وهو: رزق القلوب, فالرزق الأول رزق حسي, والرزق الآخر رزق معنوي.

فالله عَزَّ وَجلَّ يرزق قلوب المؤمنين بالهداية والعلم والإيمان, وهو كذلك الذي يرزقهم في الآخرة جنات النعيم, كما قال تعالى: {وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا} [الطلاق: 11].

فهناك رزق عام ورزق خاص.

وهناك رزق شرعي ورزق قدري.

- أما الرزق الشرعي: فهو ما أباحه الله عَزَّ وَجلَّ لعباده وشرع لهم السعي في كسبه والنفقة منه.

قال تعالى: {أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ} [البقرة: 254], فهذا هو الرزق الحلال الذي لا دخل للحرام فيه.

- وأما الرزق الآخر وهو الرزق القدري: فهو كل ما سبق في علم الله وكتبه في اللوح المحفوظ من رزق العبد, سواء كان هذا الرزق حلالًا أم حرامًا.

فهذا كذلك من رزق الله, كما جاء في حديث الصادق المصدوق, أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: ﴿ثُمَّ يَبْعَثُ اللَّهُ مَلَكًا فَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ، وَيُقَالُ لَهُ: اكْتُبْ عَمَلَهُ، وَرِزْقَهُ، وَأَجَلَهُ، وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ﴾.

فهذا رزق قدره الله على العباد وشاء وقوعه منهم, وإن لم يكن بعضه مشروعًا لهم؛ لأن العبد قد يتحصل عليه بطريق غير مشروع, لكن كل ذلك داخل في رزق الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى, فهو الرازق الرزاق على الحقيقة.

والقدرية -كما سيأتي في كلام الشيخ تلميحًا- يُنكرون هذا النوع من الرزق, فلا يقولون إلا بالرزق الحلال, وأما هذا الرزق فإنهم لأصلهم الفاسد في التحسين والتقبيح العقلي ويدعون أنه محض العدل يقولون: كيف يكون الحرام رزقًا للعبد, ثم الله عَزَّ وَجلَّ يحاسب العبد عليه بعد ذلك؟

ولذلك يقولون: إن هذا لا يدخل في رزق الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى, وإنما يستقل العبد بالحصول عليه.

ويرد عليهم هذا الحديث الذي ذكرناه, أن الله عَزَّ وَجلَّ يأمر العبد بكتب كل رزق للعبد قبل أن يخرج إلى هذه الحياة الدنيا.

وكذلك قول الله تعالى: {نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} [الزخرف: 32].

والناس في هذه الحياة الدنيا يتقلبون في أرزاق منها الحلال الخالص ومنها المخلوط, وكل ذلك من قِسمة الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى ومن رزقه للعباد.

فالله عَزَّ وَجلَّ هو الذي تفرد بالرزق وتكفل به في خلقه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى, كما قال: {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ} [هود: 6], كتب ذلك في اللوح المحفوظ سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

وكما قال تعالى: {وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} [العنكبوت: 60].

لكن الله تعالى أنزل الكتب وأرسل الرسل، وهدى العبد النجدين، وأقام عليه الحجة ليميز بين الحلال والحرام، فإن أكل الحرام حوسب عليه، ووجد عاقبة ذلك، ولا يظلم ربنا أحدا سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

قال المصنف رَحِمَهُ اللهُ: {إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ} [الذاريات: 58].

تضمَّنَتْ إِثْبَاتَ اسْمِهِ الرَّزَّاق، وَهُوَ مُبَالَغَةٌ مِنَ الرَّزْقِ، وَمَعْنَاهُ: الَّذِي يَرْزُقُ عِبَادَهُ رِزْقًا بَعْدَ رِزْقٍ فِي إِكْثَارٍ وَسَعَةٍ, وَكُلُّ مَا وَصَلَ مِنْهُ سُبْحَانَهُ مِنْ نفعٍ إِلَى عِبَادِهِ فَهُوَ رزقٌ.

فكل ما يكتسبه العباد هو من رِزق الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى, يعني: مما خلقه الله عَزَّ وَجلَّ لهم وجعلهم ينتفعون به.

قال: مُبَاحًا كَانَ أَوْ غَيْرَ مُبَاحٍ.

وهذا فيه رد على المعتزلة القدرية, ولذلك حد المعتزلة القدرية الرزق بأنه مال الحي الانتفاع به من غير تعدٍّ فيه, ففرقوا بين الرزق المشروع والرزق القدري, فالرزق عندهم لا يكون إلا حلالًا, وقلنا الآيات والأحاديث ترد عليهم.

وأُشكل عليهم بهذه المسألة, قيل لهم: هب أن طفلاً صغيرًا سرقه لصوص, وعاش بينهم حتى شب وصار رجلاً وكان منهم, ولم يأكل طعامًا حلالًا قط إلى أن مات, فمن الذي رزقه؟

على قولهم هذا: لم يرزقه الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى قط, لأن هذا النوع من الرزق الذي عاش فيه هذا الصبي الصغير حرام, وإنما هو من فعله المستقل وليس من رزق الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى الذي ساقه إليه!!

فكل ما ساقه الله عَزَّ وَجلَّ إلى العبد من رزق سواء كان مباحًا أو غير مباح فهو من عند الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

قال: عَلَى مَعْنَى أَنَّهُ قَدْ جعَلَهُ لَهُمْ قُوتًا وَمَعَاشًا؛ قَالَ تَعَالَى: {وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ * رِزْقًا لِّلْعِبَادِ} [ق: 10], وَقَالَ: {وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُون} [الذاريات: 22].

قال: إِلَّا أَنَّ الشَّيْءَ إِذَا كَانَ مَأْذُونًا فِي تَنَاوُلِهِ؛ فَهُوَ حلالٌ حُكْمًا، وَإِلَّا كَانَ حَرَامًا، وَجَمِيعُ ذَلِكَ رزقٌ.

أي: هذا كله رزق, لا نفرق بين الحلال والحرام إلا من جهة الشرع, أن المرء إذا اكتسب الحرام فإن الله عَزَّ وَجلَّ يحاسبه عليه.

ثم قال: وَتَعْرِيفُ الْجُمْلَةِ الِإسْمِيَّةِ وَالْإِتْيَانُ فِيهَا بِضَمِيرِ الْفَصْلِ؛ لِإِفَادَةِ اخْتِصَاصِهِ سُبْحَانَهُ بِإِيصَالِ الرِّزْقِ إِلَى عِبَادِهِ.

تعريف الجملة الإسمية في هذه الآية: {إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ}.

الله الرزاق: مبتدأ وخبر, ثم جيء بضمير الفصل, ضمير الفصل الذي هو: (هو), وضمير الفصل لا محل له من الإعراب، وعلامته أن يسبقه مبتدأ، أو ما

كان مبتدأ في الأصل، ويتبعه الخبر معرفة أو كالمعرفة، وفائدته كما قال: لِإِفَادَةِ اخْتِصَاصِهِ سُبْحَانَهُ بِإِيصَالِ الرِّزْقِ إِلَى عِبَادِهِ.

وسبق أن ذكرنا في قول الله تعالى: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ}: أن الجملة الإسمية إذا كانت مُعرَّفة الطرفين فإنها تفيد الاختصاص والحصر, كما في هذه الآية: (الله الرزاق), ثم جيء بضمير الفصل لإفادة اختصاصه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى بذلك.

قال: وَرُوِيَ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِي اللهُ عَنْهُ قَالَ:

(أَقْرَأَنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنِّي أَنَا الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ).

وابن مسعود أخذ سبعين سورة من فم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ, وهو من كبار الصحابة ومن قُرَّائهم, وحض النبيُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على الاهتداء بهديه, وحض صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على قراءة القرآن على قراءته وعلى سماع القرآن منه -رَضِي اللهُ عَنْهُ- وقد سمع منه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعضًا من سورة النساء, فهذا يدل على شرفه ومكانته.

يقول: إن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد أقرأني, يعني: هذا كان قرآنًا يتلى, ((أَقْرَأَنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنِّي أَنَا الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ)), والآية الآن في المصحف: {إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ}.

نقول: كل هذه القراءات كانت قبل العرضة الأخيرة, والعرضة الأخيرة من الذي سمعها كاملة من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ زيد بن ثابت رَضِي اللهُ عَنْهُ, فجاء جبريل في آخر رمضان لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعرض عليه القرآن مرتين, وكانت هذه هي العرضة الأخيرة, وهذه هي التي انتهى إليها الأمر فيما يُثبت في المصحف, فالذي في مصاحفنا الآن هو العرضة الأخيرة.

والله عَزَّ وَجلَّ ينسخ ما يشاء ويُثبت سُبْحَانَهُ وَتعَالَى وعنده أم الكتاب.

يوحي بذلك لجبريل عَليهِ السَّلاَم يقول للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ضع هذه الآية في سورة كذا, ضع هذه الآية بين كذا وكذا, ضع هذه اللفظة, ارفع هذه اللفظة, وهذا كلام الله عَزَّ وَجلَّ يفعل فيه ما يشاء سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

لكن هذا ليس مذكورًا عندنا في مصاحفنا, لأن ذلك لم يكن في العرضة الأخيرة، ولذا لا تصح الصلاة بها، وإن جاز التفسير بها.

قال: وَأَمَّا قَوْلُهُ: {ذُو الْقُوَّة}؛ أَيْ صَاحِبُ الْقُوَّةِ؛ فَهُوَ بِمَعْنَى اسْمِهِ الْقَوِيِّ؛ إِلَّا أَنَّهُ أَبْلَغُ فِي الْمَعْنَى، فَهُوَ يدلُّ عَلَى أَنَّ قُوَّتَهُ سُبْحَانَهُ لَا تَتَنَاقَصُ فِيهِمْ أَوْ يَفتُرُ.

أي: لا نقص فيها ولا فتور, فقوة المخلوق فيها نقص وفتور, وأما قوة الله عَزَّ وَجلَّ فلا نقص فيها ولا فتور, لأن الصفة على قدر الموصوف سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، وهو صاحب القوة التي هي صفته الذاتية سبحانه.

وقَوْلُهُ: {ذُو الْقُوَّة}, فيه رد على على المعتزلة الذين يُثبتون الأسماء دون الصفات, لأن الله عَزَّ وَجلَّ من أسمائه القوي, والقوي يتضمن صفة القوة, فهم يقولون: إن الأسماء أعلام محضة, كأنها أسماء جامدة غير مشتقة فجاءت هذه الآية التي تُثبت أن لله صفة القوة.

قال: {إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ}, أي: صاحب القوة.

كما قال كذلك في سورة الصافات: {سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ}, ما معنى {رَبِّ الْعِزَّةِ}؟ أي: صاحب العزة, ومن أسمائه العزيز, فهذه الآية كذلك فيها رد على المعتزلة الذين يُثبتون الأسماء دون الصفات.

قال: وأما {الْمَتِينُ}؛ فَهُوَ اسْمٌ لَهُ مِنَ الْمَتَانَةِ، وَقَدْ فَسَّرَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ بِـ: ((الشَّدِيدِ)).

فهو سبحانه الشديد في جميع صفات جبروته سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

فقال: {إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ}.

{إِنَّ اللَّهَ}: الاسم الأحسن اسم (إن) منصوب.

{هُوَ}: ضمير فصل لا محل له من الإعراب

{الرَّزَّاقُ}: خبر (إن).

{ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ}: من العلماء من قال: همتا صفتان للرزاق, فهو سُبْحَانَهُ وَتعَالَى ذو قوة في رَزقه متين في رَزقه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

ولذلك كان رَزقه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى للعباد على خلاف كل رَزق, ولذلك جاء في بعض الآيات أنه: {خَيْرُ الرَّازِقِينَ}.

فبعض العباد قد يوصف بأنه يرزق غيره, يعطيه مالًا أو يعطيه طعامًا أو شرابًا, فهذا يدخل في حد الرزق, لكن الله عَزَّ وَجلَّ هو خير الرازقين, فدلل على ذلك بقوله: {إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ}.

ومن العلماء من قال: الرزاق: خبر, وذو القوة: خبر ثان, والمتين: خبر ثالث, فهي أسماء لربنا تَبَارَكَ وَتعَالَى.

السؤال: {فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ}, هل هذا يعني أن الرزق لا يكون إلا عند الله؟

الجواب: نعم, هذه الآية في سورة العنكبوت, وهي من قول إبراهيم عَليهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَم, وهذا فيه رد على المشركين الذين كانوا يبتغون الرزق عند الآلهة

الباطلة والأصنام التي لا تنفع ولا تضر, فالله عَزَّ وَجلَّ يُطعم ولا يُطعم سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

ثم قال المصنف بعد ذلك: وَقَوْله: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} [الشورى: 11].

سبق الكلام عن هذه الآية لما تكلمنا عن الكاف في {كَمِثْلِهِ}, وهذه الآية هي ميزان باب الأسماء والصفات, لأنها تجمع بين النفي والإثبات، وهذا ما عليه أهل السنة والجماعة، إثباتا بلا تمثيل ولا تكييف، ونفيا وتنزيها بلا تعطيل ولا تحريف.

قال الشيخ رَحِمَهُ اللهُ: قَوْلُهُ: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ...} إِلَخْ؛ دلَّ إثباتُ صِفتَي السَّمْعِ وَالْبَصَرِ لَهُ سُبْحَانَهُ بَعْدَ نَفْيِ الْمِثْلِ عَنْهُ، عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ الْمُرَادُ مِنْ نَفْيِ الْمِثْلِ نَفْيَ الصِّفَاتِ؛ كَمَا يدَّعي ذَلِكَ المعطِّلة، وَيَحْتَجُّونَ بِهِ بَاطِلاً، بَلِ الْمُرَادُ إِثْبَاتُ الصِّفَاتِ مَعَ نَفْيِ مُمَاثَلَتِهَا لِصِفَاتِ الْمَخْلُوقِينَ.

هذه الآية هي العمدة استدلالات المعطلة, لا يخلو منها كتاب من كتب أهل الكلام, يستدلون بها على ماذا؟ على تعطيلهم لصفات الباري وأسمائه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

والآية فيها أكثر من حجة عليهم، ومن ذلك:

- أن الآية ما جاءت هكذا: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} فقط, لكن جمعت بين النفي والإثبات, فقال: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}.

فدلت على أن الله عَزَّ وَجلَّ موصوف بصفات, لكن هذه الصفات ليست كصفات أحد من خلقه, ولذلك قال: {وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}, هذا أولًا.

- ثانيًا: هذه الآية جاءت في مقام الرد على عبدة الأصنام, فكيف يقال إنها تدل على نفي الصفات؟!

لو رجعنا إلى صدر سورة الشورى لوجدنا أن هذه السورة تتحدث عن الأصنام التي كانت تُعبد من دون الله, ما صفة هذه الأصنام؟ ماذا قال إبراهيم عَليهِ الصَّلاةُ والسَّلاَم لأبيه؟ {يَاأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا} [مريم: 42], صفات منفية عن هذه الآلهة الباطلة.

موسى عَليهِ الصَّلاةُ والسَّلاَم لما أنكر على قومه عبادة العجل, ماذا قال لهم؟ {أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا} [طه: 89], يعني: لا يتكلم, لا ينفع, لا يضر.

فهذه الآيات سيقت للرد على عبدة الأصنام وعلى عبدة الآلهة الباطلة, فكيف يقال إنها سيقت لنفي الصفات عن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى؟!

قال المصنف رَحِمَهُ اللهُ: قَالَ العلاَّمة ابْنُ الْقَيِّم رَحِمَهُ اللهُ: ((قَوْلُهُ: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ...} إِنَّمَا قُصِدَ بِهِ نَفْيَ أَنْ يَكُونَ مَعَهُ شريكٌ أَوْ معبودٌ يستحقُّ الْعِبَادَةَ وَالتَّعْظِيمَ؛ كَمَا يَفْعَلُهُ الْمُشَبِّهُونَ وَالْمُشْرِكُونَ، وَلَمْ يُقْصَدْ بِهِ نَفْيَ صِفَاتِ: كَمَالِهِ، وَعُلُوِّهِ عَلَى خَلْقِهِ، وَتَكَلُّمِهِ بِكُتُبِهِ، وَتَكْلِيمِهِ لِرُسُلِهِ، وَرُؤْيَةِ الْمُؤْمِنِينَ لَهُ جَهْرَةً بِأَبْصَارِهِمْ كَمَا تَرَى الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ فِي الصَّحْوِ ...)).

قال: وَمَعْنَى {السَّمِيعُ}: الْمُدْرِكُ لِجَمِيعِ الْأَصْوَاتِ مَهْمَا خَفَتَتْ، فَهُوَ يَسْمَعُ السِّرَّ وَالنَّجْوَى بِسَمْعٍ هُوَ صِفَةٌ لَا يُمَاثِلُ أَسْمَاعَ خَلْقِهِ.

ولذلك جاء في حديث عائشة رَضِي اللهُ عَنْهَا لما نزلت سورة المجادلة قالت: "سُبْحَانَ الَّذِي وَسِعَ سَمْعُهُ الْأَصْوَاتَ".

وَمَنْ مِنَ الخلق يسع سمعه الأصوات كلها؟ هذا ليس لواحد من الخلق.

ولذلك من نادى واحدا من الخلق واستغاث به من المقبورين والأولياء وإن كانوا صالحين في البر والبحر وزعم سماعه وإجابته له فقد وقع في الشرك الأكبر.

رجل في لجة البحر قال: يا بدوي, أين أنت من البدوي؟! هذا ما قال ذلك إلا لاعتقاده أن سمع البدوي وسع الأصوات كلها, وهذا لا يكون إلا الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى, كما جاء في حديث عائشة.

فسمعه صفة له سُبْحَانَهُ وَتعَالَى لا يماثل أسماع خلقه, وسمعه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى وكذلك بصره كما قال العلامة العثيمين: يأتي ويراد به معنيان, لكن نقرأ كلام الشيخ أولًا في معنى البصير.

قال: وَمَعْنَى {البَصِيرُ}: الْمُدْرِكُ لِجَمِيعِ الْمَرْئِيَّاتِ مِنَ الْأَشْخَاصِ وَالْأَلْوَانِ مَهْمَا لَطُفَتْ أَوْ بَعُدَتْ، فَلاَ تُؤَثِّرُ عَلَى رُؤْيَتِهِ الْحَوَاجِزُ وَالْأَسْتَارُ، وَهُوَ مِنْ فَعِيلٍ بِمَعْنَى مُفْعِلٍ.

بصير بمعنى: مبصر, سميع فعيل بمعنى: فاعل, فهذه فيها مبالغة من اسم الفاعل, وكذلك البصير فيها مبالغة من اسم الفاعل مبصر, لأنه من الرباعي أبصر.

قال: وَهُوَ دالٌّ عَلَى ثُبُوتِ صِفَةِ الْبَصَرِ لَهُ سُبْحَانَهُ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي يَلِيقُ بِهِ.

قال العثيمين رَحِمَهُ اللهُ: السميع له معنيان:

أحدهما: بمعنى المجيب, والثاني: بمعنى السامع للأصوات.

أما السميع بمعنى المجيب فمثلوا له بقوله تعالى عن إبراهيم: {إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ} [إبراهيم: 39], فليس المراد هاهنا مجرد إدراك أصوات العباد, وإنما المراد أنه يسمع ويجيب.

ومنه قولنا إذا رفعنا من الركوع: (سمع الله لمن حمده), يعني: أجاب دعاءه, أي: المجيب لدعائه.

قال: وأما السميع بمعنى إدراك الصوت فإنهم قسموه إلى عدة أقسام:

الأول: سمع يراد به بيان عموم إدراك سمْع الله عَزَّ وَجلَّ, وأنه ما من صوت إلا ويسمعه الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

كما قال الشيخ حافظ حكمي في السلم:

وَهْوَ الذي يَرَى دَبِيبَ الذَّرِّ • في الظُّلُمَاتِ فَوقَ صُمِّ الصَّخْرِ

وسامِعٌ للجَهْرِ والإخفاتِ • بسَمعِهِ الواسعِ للأصواتِ

والثاني: سمع يراد به النصر والتأييد.

والثالث: سمع يراد به الوعيد والتهديد.

ومثلوا للأول بقوله تعالى: {قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ} [المجادلة: 1], قال: فهذا فيه بيان إحاطة سمع الله تعالى بكل مسموع.

ولذلك قالت عائشة: "سُبْحَانَ الَّذِي وَسِعَ سَمْعُهُ الْأَصْوَاتَ, وَاللَّهِ لَقَدْ جَاءَتِ الْمُجَادِلَةُ تَشْتَكِي زَوْجَهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَنَا فِي جَنْبِ الْبَيْتِ، وَإِنَّهُ لَيَخْفَى عليَّ بَعْضُ كَلامِهَا".

ومثال الثاني الذي هو بمعنى النصر والتأييد: كقوله تعالى لموسى وهارون: {إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى} [طه: 46], فليس المراد هاهنا مجرد السمع والبصر, لكن المراد هاهنا النصر والتأييد.

ومثلوا للثالث الذي هو الوعيد والتهديد: بقوله تعالى: {أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ} [الزخرف: 80], قال: فإن هذا يراد به تهديدهم ووعيدهم, حيث كانوا يُسرون ما لا يرضى من القول.

ومثله كذلك قول الله تعالى: {لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ} [آل عمران: 181], فهذا كذلك السمع يدل على التهديد.

فهذه الآية التي ذكرها المصنف رَحِمَهُ اللهُ هي عمدة اهل السنة والجماعة كما قلنا في هذا الباب باب الأسماء والصفات.

يقول الشوكاني رَحِمَهُ اللهُ في تفسيره لهذه الآية, قال: ومن فهم هذه الآية حق فهمها, وتدبرها حق تدبرها, مشى بها عند اختلاف المختلفين في الصفات على جادة بيضاء واضحة, ويزداد بصيرة إذا تأمل معنى قوله: {وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} [الشورى: 11], فإن هذا الإثبات بعد ذلك النفي للماثل قد اشتمل على ضرب اليقين وشفاء الصدور وانثلاج القلوب, فاقْدُر يا طالب العلم قدر هذه الحجة النيرة والبرهان القوي, فإنك تحطم بها كثيرًا من البدع وتهشم بها رؤوس من الضلال وترغم بها أُنوف فئام من المتكلمين, ولاسيما إذا ضممت إليه قول الله تعالى: {وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا} [طه: 110], فالآية مشتملة على النفي والإثبات.

قال: وَقَوْلُهُ تَعَالَى: {إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا} [النساء: 58].

هذه الآية لم يتكلم عنها الشيخ عندي, ما ذكر شيئًا رَحِمَهُ اللهُ, لكن هذه الآية فيها حديث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي ذكره أبو هريرة رَضِي اللهُ عَنْهُ لما قرأ قول الله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا} [النساء: 58].

ماذا فعل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم قرأ: {إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا}, وضع الإبهام على أذنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والسبَّاحة على عينه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ, ماذا أراد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هاهنا؟ هل أراد إثبات الأذن والعين لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى؟ ما أراد إثبات العين والأذن لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى, لماذا؟

لأن هذا إنما يُثبت بدليل آخر, فالعين ثابتة لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى, {تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا} [القمر: 14], {وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي} [طه: 39], "إِنَّ رَبَّكُمْ لَيْسَ بِأَعْوَرَ"، فالله عَزَّ وَجَلَّ له عينان حقيقيتان تليقان به سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

ماذا عن الأُذن؟ هل لله أُذُن؟ نقول: القول في الإثبات كالقول في النفي, هذه قاعدة ذكرناها قبل ذلك, إذا كان الإثبات لا يكون إلا بدليل فكذلك النفي لا يكون إلا بدليل في مثل هذه الصفات, فلا نُثبت ولا ننفي.

لا نقول إن لله أُذنًا طالما أنه يسمع, كما افترى المعطلة على أهل السنة والجماعة, لما أثبتنا السمع لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى كما جاء في الكتاب والسنة, قالوا: هؤلاء يقولون إن لله أُذنًا وهذه الأذن لها صماخ ولها أذن وسطى وغير ذلك, وما قلنا ذلك, وما أثبتنا لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى ما لم يثبته له رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولا جاء في كتاب الله, وإنما أثبتنا ما أثبته لنفسه من السمع.

فالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما وضع أصبعيه على الأُذن والعين إنما أراد إثبات السمع والبصر, لأن الآية ماذا تقول؟ {إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا}.

فيقول: {إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ}, {نِعِمَّا}: هي نِعْمَ, وما, ونِعْمَ من ألفاظ المدح, ماذا عن (ما)؟ قيل: هي نكرة موصوفة, كأنه قال: نِعْمَ شيئًا يعظكم به, وقيل: هي موصولة, أي: نِعْمَ الشيء الذي يعظكم به, وهو أداء الأمانة والحكم بين الناس بالعدل.

ثم قال: {إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا}.

وقلنا قبل ذلك إن (إن) من مسالك التعليل عند الأصوليين, فإذا خُتمت الآية بـ(إن) واسم أو اسمين من أسماء الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى فهذا تعليل للحكم السابق, قال: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا}, يسمع حكمكم ويُبصر أداءكم للأمانة من عدمها, فيحاسبكم على ذلك سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

قال: {إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا}.

فالسمع والبصر من صفات الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى الذاتية, و"السميع والبصير" اسمان من أسماء الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى, وهو يسمع بسمع ويبصر ببصر, خلافًا للقدرية أو للمعتزلة, وكل ذلك على الوجه الذي يليق به سُبْحَانَهُ وَتعَالَى, فهو الذي لا يَعزب عن سمعه مسموع, يسمع دبيب النملة السوداء في الليلة الظلماء على الصخرة الصماء, لا فرق في ذلك بين قُرب المخلوق وبُعده عنه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، وسره وعلانيته.

ولذلك قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما جهر الصحابة بالدعاء, قال: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ ارْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ، فَإِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا", والصمم خلاف السمع, وهذا فيه إثبات السمع لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

"إِنَّ الَّذِي تَدْعُونَهُ أَقْرَبُ إِلَيْكُمْ مِنْ عُنُقِ رَاحِلَتِكُمْ", أو كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ولا تختلط عليه الأصوات على اختلاف اللغات وعلى تفنن الحاجات, كما قال سلفنا الصالح, فكلها عنده كصوت واحد, وإذا أردت أن تميز عظمة ذلك وأن تعرف قدره فما عليك إلا أن تتفكر في حال الناس فوق عرفة, وفي حال الناس في البيت الحرام إذا دعوا ربهم سُبْحَانَهُ وَتعَالَى, تجد أناسًا من شتى بقاع الأرض, وتجد اختلافًا عجيبًا في الألسن, وكلٌّ يدعوا ربه بلغته, والله عَزَّ وَجلَّ يسمع هذا ويُجيبه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى, فلا تختلف عليه الأصوات.

فأهل السنة والجماعة يثبتون السمع والبصر صفتين لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى, ومن أسمائه "السميع والبصير".

ماذا عن المبتدعة؟ ماذا عن القدرية المعتزلة وعن الأشعرية؟

نقول أولًا: هل تثبت المعتزلة لله السمع والبصر؟ وما المراد بالسمع والبصر عند هؤلاء؟

فنقول أولًا: اختلفت المعتزلة في المقصود بهاتين الصفتين بعد أن اتفقوا على نفيهما عن الله, قلنا: هم يثبتون الأسماء دون الصفات, إذًا: لا يثبتون هذه الصفات له سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

فليست هذه الصفات صفات أزلية لا تنفك عن ذات الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى عندهم ولا هي صفات حادثة, يعني: لا هي صفات مخلوقة ولا هي صفات تقوم به سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

إذًا: إذا وردت هذه الصفات في كتاب الله ما معناها؟

قال تعالى {قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا} [المجادلة: 1], {إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا}, ماذا تعني هذه الصفات؟

منهم من قال: قوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ}, {إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا}, أي: أنه حيٌّ لا آفة به تمنعه من إدراك المسموع والمرئي إذا وُجد ومن العلم به, ففسروا السمع والبصر بمعنى الحي الذي لا آفة له.

فالله حي لا آفة له, لكن هل هو موصوف بصفة من هذه الصفات؟ ليس موصوفًا بصفة من هذه الصفات.

ويقولون: إن الحي إذا سلمت نفسه عن الآفة سمي سميعًا بصيرًا, ولا ندري أين ذلك في لغة العرب, أما أنه موصوف بالسمع والبصر: فيقولون: هذا لا يوصف الله عَزَّ وَجلَّ به.

ولذلك يقول البغدادي في كتابه الفَرْق بين الفِرَق, وهو يحكي مذاهب المخالفين له -وقد كان أشعريًا- في هاتين الصفتين, يقول: الفرقة الرابعة قدرية البصرة, قالوا: إن الله تعالى لم يزل سميعًا بصيرًا على معنى أنه كان حيًّا لا آفة به تمنعه من إدراك المسموع إذا وُجد.

فمعنى السميع والبصير عند هؤلاء أي: الحي الذي لا آفة به, والآفة: أي: المرض والعلة والنقص.

ومنهم من قال: إن الله تعالى لا يسمع ولا يبصر على الحقيقة, والمراد بالسمع والبصر العلم بالمسموعات والمرئيات, فردوا سائر الصفات إلى العلم.

ردوا سائر الصفات التي وردت في كتاب الله عَزَّ وَجلَّ إلى العلم, فإذا وصف نفسه بأنه يسمع ويبصر أي: أنه يعلم المسموعات ويعلم المبصرات, أما هو فلا يسمع ولا يبصر سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

هذا قول المعتزلة.

وأما الأشاعرة: فإنهم اختلفوا في هاتين الصفتين في أمور عديدة, مع أنهم وافقوا أهل السنة والجماعة في قولهم بأن الله سميع بصير, وأنه موصوف بالسمع والبصر, فلا يقولون كقول المعتزلة بأنه سميع بلا سمع أو بصير بلا بصر, لكن اختلفوا أولًا في دليل إثبات هاتين الصفتين, ما الدليل على إثبات هاتين الصفتين لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى؟

ففريق منهم قالوا: الدليل هو النقل, لأن هذه الآيات التي ذكرناها جاءت بهذين الاسمين, وجاءت كذلك الآيات بصفة السمع والبصر, وهذا ما ذهب إليه الرازي, يقولون: فخر الدين الرازي, وعضد الدين الإيجي, وسيف الدين الآمدي, وهؤلاء من أكابر علماء الأشاعرة.

ولذلك أحسن من قال من علمائنا: إنك إذا ذكرت هؤلاء تقول: الفخر الرازي, ولا تقل: فخر الدين.

فالرازي والإيجي والجرجاني والسنوسي قالوا: المعول في ذلك على النقل.

وذهب الآمدي إلى أن السمعيات -يريد بها النقل- لا مدخل لها في هذا, لأن كل السمعيات عند هؤلاء من قبيل الظنون, وهذا من أصول الاعتقاد عندهم

ومن أصول الدين, وأصول الدين عندهم لا تثبُت إلا بالقطعيات -والمراد القطع: العقل عندهم- وما أصلوه من أصول فاسدة.

ولذلك قالوا: إن دليل ثبوت هاتين الصفتين لله عَزَّ وَجلَّ هو العقل.

هؤلاء الذين قالوا إن دليل ثبوت الصفتين هو العقل, كيف دل العقل على ثبوت هاتين الصفتين؟

الفريق الأول الذي قال السمع هذا انتهى, جاء الدليل في الكتاب والسنة بإثبات صفة السمع والبصر وانتهى الأمر, لكن هؤلاء الذين قالوا الدليل هو العقل, كيف دل الدليل العقلي على ثبوت هاتين الصفتين لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى؟

قالوا: دل على ذلك دليل الضدية والتقابل, فلو لم يتصف بكونه سميعًا بصيرًا لاتصف بضدهما وكان ذلك نقصًا, فلما كان الضد نقصًا أثبتنا ما يضاد الضد وهو السمع والبصر.

وفريق آخر قالوا: إن العقل دل على ذلك من جهة ما يسمى بدليل الكمال, أي أن السمع والبصر من صفات الكمال ويجب وصف الله عَزَّ وَجلَّ بجميع صفات الكمال؛ ولذلك وصفناه بأنه سميع بصير.

ما معنى السمع والبصر عند الأشاعرة؟

اختلف الأشاعرة في المراد بالسمع والبصر, فبعضهم رأى أنهما مرادفتين للعلم, فالسمع والبصر بمعنى العلم, وهذا منقول عن أبي الحسن الأشعري.

ولقد رجح بعض أساتذتنا وهو الدكتور محمد السيد الجليند –حفظه الله وبارك فيه- وهو من أعمدة كلية دار العلوم في قسم الفلسفة, رجح أن آخر مراحل أبي الحسن الأشعري لم تكن كتاب الإبانة الذي قال فيه: أنا على مذهب

الإمام أحمد, وإنما كان كتاب اللُّمع, الذي كان قريبًا فيه من المعتزلة, والذي جادل فيه بأسلوب المعتزلة, وهذا الكلام وهو أن السمع والبصر صفتان مرادفتان للعلم هو كلام المعتزلة.

فهؤلاء كما قلنا بعضهم ردها للعلم كأبي الحسن الأشعري, وبعضهم لم يكن واضحًا في كلامه, هل هما صفتان ذاتيتان لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى زائدتان عن العلم؟ يعني: يخالفان العلم أم لا؟ وهذا هو المشهور من مذهب الأشاعرة.

هل السمع والبصر يتعلق بالمسموعات والمبصرات التي تقع الآن عند الأشاعرة؟

نقول: إن الأشاعرة يقولون: إن ذلك يؤدي إلى حلول الحوادث بالخالق, وحلول الحوادث معناه: وقوع التغير فيه, والله عَزَّ وَجلَّ منزه عن ذلك.

ولذلك يقولون: سمعه قديم وبصره قديم كما أن علمه قديم, فكل ذلك صفة قديمة لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى, وهذا مما يرجح أنهم لا يثبتون السمع والبصر كصفة فعل لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى, أنه يسمعنا الآن وأنه يبصرنا الآن وأنه يسمع من في الطريق ويسمع من في البيت ويسمع من يقول كذا وكذا وكذا من أقوال وأصوات متجددة, , لأن هذا لو أثبتوه يكون نقضًا لعقيدتهم, وهذه العقيدة مبناها على نفي حلول الحوادث بالله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

أصل هذه العقيدة ماذا؟ إثبات قِدم الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى وحدوث العالم.

كيف أثبتوا أن هذا العالم حادث؟ أي كان بعد أن لم يكن, وأن القديم هو الذي أحدثه, القديم يعنون به ربنا تَبَارَكَ وَتعَالَى .

يقولون: إن هذا العالم مبناه من الجواهر والأعراض.

الجواهر يعني: الأجسام, أي أنت جوهر, وأنت جوهر, وأنت جوهر, والكرسي هذا جوهر.

والأعراض تعني: الصفات, فالأعراض: هي الصفات التي تقوم بالجواهر.

هذه الأعراض ثابتة أم متغيرة؟ متغيرة, فلان كان صحيحا فمرض, هذه أعراض, فتغير الأعراض على الجواهر دليل على حدوث الجواهر, ونحن عندنا ليل ونهار, وصيف وشتاء, وبرد وحر, هذه متغيرات, فكل ذلك يدل على حدوث العالم.

لو أنهم قالوا بإثبات الصفات لربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى ومنها الصفات الفعلية أي أنه يسمع الآن ويبصر الآن، فهذا يعني ماذا؟

أي أنهم نقضوا الأصل الذي بنوا عليه إيمانهم، فأصل الإيمان عندهم إثبات القديم وإثبات وجود الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى, ليس عندهم الأصل توحيد الإلهية وأن الله هو الذي يستحق العبادة دون من سواه, لكن الأصل الأصيل عندهم الذي يدندنون عليه في كتبهم إثبات أن لهذا العالم خالقًا وأنه موجود، سبحان الله، أفي الله شك؟!

المرأة التي مر عليها قوم كُثُر وكانت تقف عند باب دارها, فقالت: من هؤلاء؟ ومن هذا؟ التفوا حول الرازي . فقال أحدهم لها: ألا تعرفين هذا؟ ظنت أنه ملك من الملوك, قالت: لا والله ما أعرفه, قالوا لها: هذا الرازي معه ألف دليل على وجود الله, فقالت: أفي الله شك؟! والله ما بحث عن ألف إلا لما قام في قلبه ألف شك، هكذا يذكرون هذه الحكاية عن الرازي.

فهؤلاء نفوا صفات الله عَزَّ وَجلَّ الفعلية وأنه يسمع ويبصر بسمع وبصر, يسمع المسموعات والمبصرات التي كانت وهي كائنة وستكون سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

ولذلك هذه الآية التي معنا: {إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا}, هل يُفهم منها أن الله كان سميعًا بصيرًا وهو الآن لا يسمع ولا يبصر؟ إذا كانت (كان) هذه تدل على المضي, فكيف تُفسر؟

تُفسر بأكثر من طريقة, نقول: (كان) هاهنا مسلوبة الزمان كما يقول الشيخ ابن عثيمين, أي: تدل على اتصاف الله عَزَّ وَجلَّ بصفات ملازمة له, أو نقول: إن (كان) فعل ماض يدل على تحقق اتصاف الله عَزَّ وَجلَّ بالصفة.

وقد جاء أنه: {كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا}, و {قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ}, "سميع وبصير", اسم مشتق, والاسم المشتق يدل على وجود صفة لازمة له سُبْحَانَهُ وَتعَالَى, وأما هؤلاء فكما قلنا فإنهم نفوا هذه الصفات الفعلية لهذا الأصل الفاسد عندهم.

ولذلك قالوا: لو كان موصوفًا بهذا الإدراك, يعني: إدراك المسموعات والمبصرات الآن لكانت هذه الصفة متغيرة, فهو يسمع اليوم ويسمع غدًا وبعد غد, لأنه على هذا يكون رائيًا للشيء حال وجوده, وما كان رائيًا له قبل وجوده.

وكذلك يكون سامعًا للصوت حال حصوله, أي أن الله عَزَّ وَجلَّ يسمعنا الآن, هل كان يسمع حديثنا هذا قبل ساعة من جلوسنا؟ ما كان يسمع حديثنا هذا, كُتِب في اللوح المحفوظ أننا سنجلس ونتحدث, كُتِب فيه كل ذلك, لكن متى سمع الله عَزَّ وَجلَّ حديثنا هذا؟ لما تكلمنا به, {وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا

وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ} [الأعراف: 143], سمع موسى كلام ربه حين كلمه أم كان كلامًا أزليًا؟ حين كلمه.

فهؤلاء يقولون: لأنه لو كان رائيًا للشيء حال وجودة وما كان رائيًا قبل وجوده, وكذلك يكون سامعًا للصوت حال حصوله ولا يكون سامعًا له قبل حصوله, فيلزم من ذلك وقوع التغير في صفة الله وهو محال, فآل الأمر إلى ماذا؟ إلى تعطيل الصفتين.

فالأشاعرة كذلك لا يُثبتون سمعًا ولا بصرًا لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى على وجه الحقيقة.

وهذا الذي وقع فيه الأشاعرة من قولهم أولًا: بأن السمع والبصر يرادفان العلم غلط محض, دل على هذا الغلط كتاب الله وسنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولغة العرب.

أما الكتاب فقال الله عَزَّ وَجلَّ: {وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا} [النساء: 134].

وجاء عن عائشة في حديث المجادلة قالت: "الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَسِعَ سَمْعُهُ الْأَصْوَاتَ".

ومعلوم أن العلم بالألوان ليس مثل إبصارها, يعني: العلم بالشيء ليس كإبصاره, كما أن العلم بالأصوات ليس كسماعه, وكذلك المطعومات, ومعلوم أنه بالإبصار والسمع يتبين صحة المعلومات, فلان يخبرك عن شيء وأنت تتبين ذلك بالسمع والبصر.

مثال: خيار الرؤية في البيع والشراء. يبيعك إنسان سيارة بشرط الرؤية, فتذهب فتجد السيارة على خلاف ما أخبرك وما أعلمك به, فالسمع والبصر يخالف العلم, والسمع والبصر يصوب العلم أو يُخطِّئه.

والله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى قد بيَّن في كتابه مفارقة الصفتين للعلم, فقال تعالى: {وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} [البقرة: 127], ففرق بين السمع والعلم.

وقال تعالى: {فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} [البقرة: 137].

وقال: {وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} [الأنعام: 13].

وقال: {وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} [الأنعام: 115].

فالعليم في كل هذه الآيات ليس توكيدًا للسميع.

وكذلك هذا يخالف لغة العرب, فالسمع يخالف البصر في اللغة وكذلك يخالف العلم.

ثم هم يقولون: إن السمع والبصر ليستا صفتين فعليتين لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى, لأنهما لو كانوا صفتين فعليتين لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى لزم من ذلك التغير.

والقرآن دل على خلاف ذلك, ودل على أن الله يسمع الأصوات حين صدورها من المخلوقين, كما في هذه التي كررناها أكثر من مرة: {قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ}, سمعها متى؟ حين جاءت إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وقال تعالى: {وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ} [التوبة: 105].

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ: دل الكتاب والسنة واتفاق سلف الأمر ودلائل العقل على أنه سميع وبصير, والسمع والبصر لا يتعلق بالمعدوم, فإذا خلق الأشياء رآها سبحانه, وإذا دعاه عباده سمع دعائهم وسمع نجواهم.

وكذلك قال: {أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ} [الزخرف: 80].

فالله تعالى إذا خلق العباد فعملوا وقالوا فلابد أنه يرى هذا العمل ويسمع أقوالهم.

ثم إن القرآن فرق بين السمع والبصر ولم يجعلهما واحدًا, {قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى} [طه: 46].

وفرق كذلك بين متعلق السمع ومتعلق البصر, فالسمع متعلقه الكلام والبصر متعلقه ما يُرى بالأبصار.

قال تعالى: {وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [آل عمران: 77].

وقال: {الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ (218) وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ} [الشعراء: 218-219].

فلم يقل سبحانه يسمع تقلبك, إنما قال يراك, ولم يقل يسمع الله عملكم, فلم يذكر الرؤية فيما يُسمع ولا السماع فيما يُرى, سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

فدل ذلك كله على بطلان مذهب المعتزلة وبطلان مذهب الأشاعرة, وأن الحق مع أهل السنة والجماعة نقلاً وعقلاً, وهم من وفقهم الله عَزَّ وَجلَّ للجمع بين العقل والنقل.

فنسأل الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى أن يمسكنا بهذا المذهب الحق -مذهب أهل السنة والجماعة- إلى أن نلقاه, إنه ولي ذلك والقادر عليه, وجزاكم الله خيرًا.

الدرس الرابع عشر

إن الحمد لله, نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله تعالى من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله, صلى الله عليه, وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد:

فقد وصلنا إلى الكلام عن إرادة الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، والآيات التي ذكرها شيخ الإسلام ابن تيمية لبيان أن الله عَزَّ وَجلَّ ذو إرادة ومشيئة.

قال رَحِمَهُ اللهُ: وَقَوْلُهُ: {وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاء اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ} [الكهف: 39].

وَقَوْلُهُ: {وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُواْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ} [البقرة: 253].

وَقَوْلُهُ: {أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ} [المائدة: 1].

وَقَوْلُهُ: {فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاء} [الأنعام: 125].

هذه الآيات التي ذكرها المصنف رَحِمَهُ اللهُ فيها بيان أن الله عَزَّ وَجلَّ متصف بالمشيئة والإرادة، ومشيئته وإرادته تندرج في مراتب القدر الأربعة، فالقدر مبناه على مراتب أربعة: العلم، والكتابة، والمشيئة، والخلق.

فالله عَزَّ وَجلَّ علم ما الخلق عاملون، وكتب ذلك في اللوح المحفوظ قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، ثم شاء ربنا تَبَارَكَ وَتعَالَى وأراد أن يخلق خلْقه على ما علمه وكتبه في اللوح المحفوظ, فكان الخلق.

فالمشيئة من مقتضيات ربوبيته سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، وهي من مراتب القدر، والله عَزَّ وَجلَّ قادر وقدير ومقتدر يفعل ما يشاء في مُلكه؛ لأنه لو لم يكن شائيًا أو مريدًا لكل ما كان من خلقه لكان هناك من ينازعه؛ ولذا ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

والإرادة أو المشيئة عند أهل السنة والجماعة صفة ذاتية لله تعالى قائمة به لا تنفك عنه أبدًا، والكلام في الإرادة كالكلام في كلامه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

فإذا قلنا: إن كلامه قديم النوع حادث الآحاد، أي: أن الله عَزَّ وَجلَّ لم يزل متصفًا بالكلام؛ لأن الكلام من صفات كماله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، وهو من الصفات الذاتية، لكنه في نفس الوقت يتكلم وقتما شاء.

فلما أنزل الكتاب على نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تكلم بالكتاب الذي هو القرآن وقت نزوله على محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولما أنزل التوراة على موسى عَليهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَم تكلم بالتوراة وقت نزولها على موسى، وهكذا في سائر كلامه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

الكلام باعتبار أصله وباعتبار نوعه قديم، أي: لم يزل الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى متصفًا بصفة الكلام.

وهذ معنى قول العلماء: إن الكلام قديم النوع حادث الآحاد، أي: أنه متجدد، والله عَزَّ وَجلَّ يتكلم بما شاء وقتما شاء.

فالذي يُقال في الكلام يُقال في الإرادة، فإرادة الله عَزَّ وَجلَّ كذلك إرادة قديمة إرادة أولية، كان الله بصفاته سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، لم يزل متصفًا بها سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

ومع ذلك إذا أراد شيئًا الآن أو أراد شيئًا مستقبلاً؛ فإن هذا الشيء يكون؛ ولذلك كانت الإرادة كذلك قديمة النوع حادثة الآحاد، وهذا الذي عليه أهل السنة والجماعة، فهي من حيث تعلقها بالأشياء متجددة وحادثة، ومن حيث أصلها قديمة، الكلام فيها كالكلام في الكلام وفي الخلق وفي الرزق، وفي غير ذلك من صفاته سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

هذا هو معتقد أهل السنة والجماعة في مسألة الإرادة بصفة عامة.

ماذا عن اعتقاد الفرق الأخرى؟

أما الأشعرية؛ فيقولون: إن إرادة الله عَزَّ وَجلَّ قديمة.

ما الذي دل على هذه الإرادة؟ لماذا أثبتم الإرادة لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى؟

يقولون: إن الذي دل على صفة الإرادة لربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى ما وقع في المخلوقات من تخصيص.

أهل السنة والجماعة يستدلون على صفة الإرادة بكتاب الله وسنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وقد يأتي هذا الدليل الذي ذكره الأشعرية فيما بعد، أي أنهم دللوا على صفة الإرادة من جهة العقل؛ فقالوا: إن التخصيص الواقع في المخلوقات يدل على أن الخالق سبحانه ذو إرادة.

فالله عَزَّ وَجلَّ خصَّ مخلوقاته بأزمان معينة وبأمكنة معينة وبأوصاف معينة، فخلقك في هذا الزمن دون غيره من الأزمان، وخلقك في هذا المكان دون غيره من الأماكن، وخلقك على هذه الصفة من الطول أو القصر أو البياض أو السواد أو غير ذلك دون غيرها من الصفات.

والخلق ليسوا سواء, فهذا طويل وهذا قصير، وهذا سمين وهذا نحيف، وهذا خُلق في مكان غير مكان هذا، فكل هذا يدل على التخصيص، ويدل على إرادة ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى، فأثبتوا ذلك من جهة العقل ومن جهة ما يرونه في الحس.

لكننا نقول: إن ذلك قد يأتي تبعًا، فالأصل في أسماء ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى وصفاته أن إثباتها يكون بالوحي؛ لأن العقل يصيب ويُخطئ، وأما الوحي؛ فإنه معصوم أبدًا.

فأهل السنة والجماعة أثبتوا الإرادة بما جاء في كتاب الله وسنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكذلك هذا الذي ذكره الأشعرية.

وأما الأشعرية؛ فإنهم قالوا: الذي دل على الإرادة ما ذكرناه.

لكن الإرادة عندهم قديمة كالكلام تمامًا بتمام، فعندهم كلام ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كلام قديم كلام نفسي، لما أنزل الله عَزَّ وَجَلَّ القرآن على محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يتكلم به وقت نزوله، ولذلك يقولون: إن الذي تكلم به هو جبريل، عبَّر جبريل عما في نفس الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

ولذلك الأشعرية يقولون: القرآن عبارة عن كلام الله.

اربطها هكذا، الأشعرية بها عين، وعبارة فيها عين، يقولون: القرآن عبارة عن كلام الله، وليس هو كلام الله.

أما الكُلابية الذين هم أشياخ الأشعرية فيقولون: القرآن حكاية عن كلام الله.

وأما أهل السنة والجماعة فيقولون: القرآن كلام الله، تكلم به حقيقة بصوت وحرف، سمعه جبريل عليه السلام وبلغه محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فكما أن الكلام قديم عند الأشعرية فكذلك الإرادة قديمة.

كيف تتعلق الإرادة بما يقع من خلق الآن وبعد الآن؟ يقولون: إن تعلقها بوقوع الأشياء هذا مرده إلى القدرة، القدرة تنفذ ما أراده الله عَزَّ وَجلَّ قديمًا، وما خصصه الله عَزَّ وَجلَّ قديمًا.

فالإرادة قديمة مردها إلى العلم، يعلم الله عَزَّ وَجلَّ أن محمدًا سيولد في الوقت الفلاني في المكان الفلاني على الصفة الفلانية.

ما الذي يُنفذ هذه الإرادة القديمة؟ قدرة الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، أما أن هناك إرادةً حادثة، يعني: تحدث أو توجد بوجود المخلوقات فهذا ينفيه هؤلاء.

لماذا ينفونه؟ للأصل عندهم؛ أن تجدد الإرادة بتجدد الموجودات هذا يستلزم حلول الحوادث بربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وما لا يخلو من الحوادث فهو حادث؛ فشبَّهوا الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى بخلقه.

يقولون: الإرادة قديمة وأما تعلقها كما قلنا بوقوع الأشياء هذا مرده إلى القدرة، وأما ما وقع من تخصيص قديم فهو تابع لصفة العلم.

أي: أن الله عَزَّ وَجلَّ يعلم أن هذا يصلح في زمان كذا وفي مكان كذا على صفة كذا، هذا قديمًا.

يخرج هذا من العدم إلى الوجود لقدرة الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، فليست الإرادة عندهم متجددة الآحاد كما هو قولهم في الكلام، كصفة لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

وعندهم كذلك أن الله تكلم بكلامه الشرعي في الأزل ، تكلم بالقرآن قديمًا وبالتوراة وبالإنجيل، فكذلك أراد الله عَزَّ وَجلَّ قديمًا، أما أنه يتكلم بالقرآن حال نزوله على محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلا، ولا شك أن هذا خلاف المذهب الحق.

فالله عَزَّ وَجلَّ عبَّر عن الإرادة وذكر إرادته بأفعال مضت وأفعال تدل على الحال والاستقبال.

قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "مَا شَاءَ اللهُ كَانَ".

وقال الله عَزَّ وَجلَّ: {يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}.

وقال: {يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ} [النساء: 28].

وقال الله عَزَّ وَجلَّ: {إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} [النحل: 40].

و(إذا): حرف شرط لما يُستقبل من الزمن؛ فالله عَزَّ وَجلَّ فعال لما يريد، لم يزل يخلق سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، ولم يزل يريد.

ولذلك كان القول بالإرادة القديمة فقط قولًا باطلاً، هذا قول الأشعرية.

ماذا عن المعتزلة؟ المعتزلة يقولون: هناك إرادة لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، لكنها ليست صفة له، لأنهم لا يثبتون الصفات لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، وإنما هي إرادة حادثة مخلوقة لا في محل.

وهذا كلام عجيب.

يعني: لا تقوم بذات الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، ولا تقوم بذات المخلوق، وهذا محض هذيان منهم، وسيأتي إشارة الشيخ لكلامهم.

وأما الفلاسفة؛ فإنهم ينفون الإرادة كليةً, لا يثبتون لا إرادة قديمة ولا إرادة حادثة، ويقولون -أعني الفلاسفة المؤلِّهة الذين يثبتون إلهًا- لكن ما طبيعة وما صفة هذا الإله؟ إله مجرد عن الصفات، إله لا يوجد إلا في الذهن، إله بسيط كما يسمونه لا صفة له، وإنما هو موصوف بالنفي المحض، فليس بجوهر ولا بعرض ولا جسم، هذه صفة الإله عند الفلاسفة وأخذها منهم المتكلمون.

فهؤلاء يقولون: هذا الإله الذي نثبته ليس له إرادة ولا يتصف بالإرادة.

كيف صدر الخلق عنه؟ يقولون: إنما صدر الخلق عنه فيضًا كما يفيض النور من الشمس، وكما يفيض الشعاع من الشمس، ولهم في ذلك نظرية وهي **نظرية الفيض والصدور.**

وهذه النظرية خلاصتها: أن هذا العالم صدر عن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى دون إرادة منه ودون عناية على هذه الصورة التي ذكرناها, وفق وسائط عشرة ذكروها وسموها بالعقول أو النفوس.

فالعقل الأول صدر عن العلة الأولى الذي هو الله كذا يسمونه، صدر دون إرادة من الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

والعقل الثاني صدر عن الأول، والثالث صدر عن الثاني، إلى العقل العاشر الفعال وهو جبريل، يسمونه جبريل أو يقولون: هو جبريل، صدر عنه هذا العلم؛ فهو الذي خلق هذا العالم، بلا إرادة من الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، فلا يثبتون له إرادة.

ويقولون: هناك تلازم ضروري بين وجود الله ووجود هذا العالم.

هذا يستلزم ماذا؟ يستلزم قدم العالم، أن هذا العالم قديم غير حادث، وهذا قول الفارابي وقول ابن سينا وقول الفلاسفة المشائين المنتسبين للإسلام والذين يقولون: إنهم يثبتون إلهًا.

لكن هم يقولون بقدم العالم؛ ولذلك كفرهم الغزالي رَحِمَهُ اللهُ في مسائل ثلاثة، هذه أول مسألة كفرهم فيها، وهي أنهم يقولون بقدم العالم، وأن العالم قديم كقدم الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، قديم من جهة الزمان.

ما معنى قديم من جهة الزمان؟ يعني: هو مع الله منذ الأزل ملازم لوجود الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، ما خلقه الله عَزَّ وَجلَّ بإرادة؛ لأنهم لا يثبتون الإرادة، فهذه مذاهب الناس في الإرادة.

قال الشيخ رَحِمَهُ اللهُ: قَوْلُهُ: {وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ ...} إِلَخْ. هَذِهِ الْآيَاتُ دلَّت عَلَى إِثْبَاتِ صِفَتَيِ الْإِرَادَةِ وَالْمَشِيئَةِ، وَالنُّصُوصُ فِي ذَلِكَ لَا تُحْصَى كَثْرَةً.

الإرادة هي المشيئة، لكن الإرادة تنقسم بخلاف المشيئة، فالمشيئة مشيئة كونية قدرية, وسيأتي معنى الكونية القدرية.

وأما الإرادة؛ فإنها تنقسم إلى إرادة كونية قدرية، وإلى إرادة شرعية، وسيأتي كذلك ضابط الإرادة الشرعية، وكلاهما موصوف به ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى، لأن النصوص جاءت بذلك.

قال: وَالْأَشَاعِرَةُ يُثْبِتُونَ إِرَادَةً وَاحِدَةً قَدِيمَةً تعلَّقت فِي الْأَزَلِ بِكُلِّ الْمُرَادَاتِ.

من جهة التخصيص -كما قلنا-: الله عَزَّ وَجلَّ خصص أو ميز الكائنات بصفات معينة وبأزمنة معينة، هكذا تعلقت الإرادة القديمة بالمخلوقات في الأزل.

قال: فَيَلْزَمُهُمْ تخلُّف الْمُرَادِ عَنِ الْإِرَادَةِ.

لأن الله عَزَّ وَجلَّ إذا أراد شيئًا كان، لكن هؤلاء يقولون: إن الإرادة قديمة، وأنت متى خُلقت؟ الآن.

إذًا: تخلف المراد عن الإرادة، فأراد الله عَزَّ وَجلَّ –مثلاً– خلق فلان منذ الأزل، ثم تخلف المراد إلى الآن وهذا نقص، بل هذا نقص في المخلوق إن وُصِف به، أنه يريد الشيء ولا يتحقق له هذا الشيء إلا بعد زمان، فيلزمه من كلامهم تخلف المراد عن الإرادة.

قال: وَأَمَّا الْمُعْتَزِلَةُ؛ فَعَلَى مَذْهَبِهِمْ فِي نَفْيِ الصِّفَاتِ لَا يُثْبِتُونَ صِفَةَ الْإِرَادَةِ، وَيَقُولُونَ: إِنَّهُ يُرِيدُ بِإِرَادَةٍ حَادِثَةٍ لَا فِي مَحَلٍّ.

أي لا تقوم بأحد لا بالخالق ولا بالمخلوق، وهم هاهنا خالفوا أصلهم؛ لأن الإرادة صفة وعرض، يسمونها بالعرض، وعندهم أن الأعراض لابد أن تقوم بالأجسام، فهم يقولون: هذه الإرادة حادثة لا في محل، فخالفوا الأصل الذي بنوا عليه أصلهم الكلي في مسألة إثبات حدوث العالم.

قال: فَيَلْزَمُهُمْ قِيَامُ الصِّفَةِ بِنَفْسِهَا، وَهُوَ مِنْ أَبْطَلِ الْبَاطِلِ.

هل رأيت صفة هكذا كالكلام تمشي في الطريق وحدها، تقوم لا في محل؟، أو الإرادة أو الغضب، أم هذه لابد أن تقوم بالذات؟ لابد أن تقوم بالذات، هم يقولون: إن الإرادة لم تقم في محل، لم يتصف بها الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، وكذلك لا يتصف بها المخلوق.

وَأَمَّا أَهْلُ الْحَقِّ –يعني: أهل السنة والجماعة– فَيَقُولُونَ: إِنَّ الْإِرَادَةَ عَلَى نَوْعَيْنِ.

- هم أولًا: أثبتوا الإرادة لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، والإرادة -كما قلنا-: ترادف المشيئة إن كان يُراد بها الإرادة الكونية القدرية، ولا ترادفها إن كان يراد بها الإرادة الشرعية على هذا التقسيم الذي ذكره، وكلاهما ثابت في كتاب الله ويُفهم من النصوص، وهذه الآيات التي ذكرها المصنف رَحِمَهُ اللهُ توضح ذلك.

قال: وَأَمَّا أَهْلُ الْحَقِّ؛ فَيَقُولُونَ: إِنَّ الْإِرَادَةَ عَلَى نَوْعَيْنِ:

إِرَادَةٌ كَوْنِيَّةٌ تُرَادِفُهَا الْمَشِيئَةُ، وَهُمَا تتعلَّقان.

هُمَا، أي: الإرادة الكونية أو المشيئة.

تتعلَّقان بِكُلِّ مَا يَشَاءُ اللَّهُ فِعْلَهُ وَإِحْدَاثَهُ، فَهُوَ سُبْحَانَهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا وَشَاءَهُ؛ كَانَ عَقِبَ إِرَادَتِهِ لَهُ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}.

فهذه الآية فيها رد على الأشعرية الذين لا يثبتون إلا إرادة قديمة، ويلزم من ذلك -كما قلنا-: تخلف المراد عن الإرادة.

قال: وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: ((مَا شَاءَ اللَّهُ كَانَ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ)).

وهذا رواه أبو داود، وضعفه الألباني رَحِمَهُ اللهُ في ضعيف الجامع وفي ضعيف أبي داود، لكن معناه صحيح: ((مَا شَاءَ اللَّهُ كَانَ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ))، سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

إذًا: صفة الإرادة الكونية أنها ترادف المشيئة، فكل آية وردت فيها لفظة المشيئة فهي تعني الإرادة الكونية القدرية.

وهذا يعني أن المشيئة لا تنقسم، ليس في مشيئة الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى مشيئة كونية قدرية ومشيئة شرعية.

وقد أخطأ ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ في تفسيره لما قسَّم المشيئة في تفسيره سورة الكهف وقال: منها مشيئة شرعية، ومنها كونية قدرية، وهذا خلاف الصواب، وتابعه في ذلك الشيخ حافظ حكمي في شرحه على سُلَّم الوصول في معارج القبول.

والذي عليه أهل السنة والجماعة أن المشيئة لا تنقسم، إنما هي مشيئة واحدة مشيئة كونية قدرية, وهي التي ترادف الإرادة الكونية القدرية.

ومن صفة هذه المشيئة كذلك أنها لا تتخلف، يعني: ما شاء الله عَزَّ وَجلَّ لابد أن يقع.

- النوع الثاني قال: وَإِرَادَةٌ شَرْعِيَّةٌ تَتَعَلَّقُ بِمَا يَأْمُرُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ مِمَّا يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ.

إذًا: الإرادة الكونية تتعلق بخلقه، والإرادة الشرعية تتعلق بأمره، والله عَزَّ وَجلَّ له الخلق والأمر سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

الإرادة الكونية تتعلق بخلقه إذا أراد شيئًا قال له كن فكان، فخرج من العدم إلى الوجود، وأما الإرادة الشرعية؛ فهي تتعلق بأمره الشرعي، تتعلق بما يحبه الله عَزَّ وَجلَّ ويرضاه.

قال: وَهِيَ الْمَذْكُورَةُ فِي مِثْلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: {يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ} [البقرة: 185].

الإرادة هاهنا إرادة شرعية ترادف المحبة، يعني: تساوي المحبة، فهذا ما يحبه الله عَزَّ وَجلَّ ويرضاه لعباده، أنه يريد لهم وبهم اليسر ولا يريد بهم العسر.

قال: وَلَا تَلازُمَ بَيْنَ الْإِرَادَتَيْنِ؛ بَلْ قَدْ تتعلَّق كُلٌّ مِنْهُمَا بِمَا لَا تَتَعَلَّقُ بِهِ الْأُخْرَى.

لا تلازم بين الإرادة الكونية القدرية والإرادة الشرعية، قد تتعلق كل منهما بما لا تتعلق به الأخرى.

يعني لو ضربنا مثالًا: قلنا الإرادة الشرعية ترادف المحبة, ويلزم منها أن الله عَزَّ وَجلَّ يحب هذا الذي وقع، وأما الإرادة الكونية القدرية؛ فإنها لا تستلزم المحبة، فقد يريد الله وقوع شيء وهو لا يحبه ولا يرضاه، لكنه شاءه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى أن يكون موجودًا في خلقه لحكمة، بل لِحِكَم عظيمة؛ كوجود الشر ووجود المعاصي ووجود شرار الخلق كإبليس وغير هؤلاء.

فلو قلنا مثلاً: الله عَزَّ وَجلَّ خلق أبا بكر الصديق، وجاء النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ودعا الصديق رَضِي اللهُ عَنْهُ للإسلام فآمن الصديق؛ إيمان أبي بكر الصديق أراده الله عَزَّ وَجلَّ كونًا أم شرعًا؟ أراده الله عَزَّ وَجلَّ كونًا وشرعًا.

كيف أراده الله عَزَّ وَجلَّ؟ ما الدليل على أن الله عَزَّ وَجلَّ أراده كونًا؟ أنه وقع، وقلنا: الإرادة الكونية تستلزم وقوع المراد.

هل آمن أبو بكر الصديق؟ نعم آمن أبو بكر الصديق.

وما الدليل على أن الله عَزَّ وَجلَّ أراد ذلك شرعًا؟ أن إيمان أبي بكر الصديق محبوب لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

أنتم لما جئتم هاهنا وجلستم هذا المجلس هذا الذي ، هل أراده الله عَزَّ وَجلَّ كونًا أم شرعًا؟ شرعًا وكونًا.

ما الدليل على أن الله عَزَّ وَجلَّ أراده كونًا؟ أنه وقع، أن الله عَزَّ وَجلَّ هداك لذلك ووفقك فجئت.

ما الدليل على أن الله عَزَّ وَجلَّ أراده شرعًا؟ أن الله عَزَّ وَجلَّ يحب ذلك منا إن شاء الله.

كفر أبي جهل وكفر أبي لهب ومعصية العاصي أراد الله عَزَّ وَجلَّ ذلك كونًا أم شرعًا؟ أراد الله عَزَّ وَجلَّ ذلك كونًا.

ما الدليل على أن الله عَزَّ وَجلَّ أراده كونًا؟ أنه وقع.

هل ظلمه الله عَزَّ وَجلَّ بذلك؟ ما ظلمه ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى؛ لأنه أرسل الرسل وأنزل الكتب، لكن لما زاغوا أزاغ الله قلوبهم.

هل أراده الله عَزَّ وَجلَّ شرعًا؟ هذا الكفر أراده الله عَزَّ وَجلَّ شرعًا؟ ما أراده الله عَزَّ وَجلَّ شرعًا.

لماذا لم يرده الله عَزَّ وَجلَّ شرعًا؟ لأن الله عَزَّ وَجلَّ لا يحبه، فالله لا يحب الفساد ولا يرضى لعباده الكفر.

إيمان أبي جهل وأبي لهب وطاعة العاصي، أرادها الله عَزَّ وَجلَّ كونًا وقدرًا؟ ما أرادها الله عَزَّ وَجلَّ كونًا وقدرًا، لأنه لو أراد ذلك كونًا وقدرًا لوقع.

أراد الله عَزَّ وَجلَّ ذلك شرعًا؟ نعم أراد الله عَزَّ وَجلَّ ذلك شرعًا؛ لأن الله عَزَّ وَجلَّ يحب إيمان هؤلاء.

إذًا نخلص من ذلك: أن الإرادة الشرعية لا تستلزم الوقوع، وأما الإرادة الكونية القدرية؛ فلابد من وقوع المراد.

عدم سجود إبليس هذا أراده الله عَزَّ وَجلَّ كونًا وقدرًا، ولم يرده شرعًا، لأن الله عَزَّ وَجلَّ يحب منه أن يسجد.

قال: بَلْ قَدْ تتعلَّق كُلٌّ مِنْهُمَا بِمَا لَا تَتَعَلَّقُ بِهِ الْأُخْرَى.

واتضح بهذه الأمثلة التي ذكرناها.

فَبَيْنَهُمَا عمومٌ وخصوصٌ مِنْ وَجْهٍ.

فَالْإِرَادَةُ الْكَوْنِيَّةُ أعمُّ مِنْ جِهَةِ تعلُّقها بِمَا لَا يحبُّه اللَّهُ وَيَرْضَاهُ مِنَ الْكُفْرِ وَالْمَعَاصِي.

فالله عَزَّ وَجلَّ لا يحب الكفر ولا يحب الفساد ولا يأمر بالفحشاء سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

وهي أخصُّ مِنْ جِهَةِ أَنَّهَا لَا تَتَعَلَّقُ بِمِثْلِ إِيمَانِ الْكَافِرِ وَطَاعَةِ الْفَاسِقِ.

لأن الله عَزَّ وَجلَّ أراد منهم ذلك محبة، ومع ذلك لم يقع، ولو أراده لوقع.

وَالْإِرَادَةُ الشَّرْعِيَّةُ أعمُّ مِنْ جِهَةِ تعلُّقها بِكُلِّ مَأْمُورٍ بِهِ وَاقِعًا كَانَ أَوْ غَيْرَ وَاقِعٍ.

لكن هذا لابد أن يُقيد بما يحبه الله ويرضاه.

وَالْإِرَادَةُ الشَّرْعِيَّةُ أعمُّ مِنْ جِهَةِ تعلُّقها بِكُلِّ مَأْمُورٍ بِهِ.

أي: مأمور به شرعًا.

وَاقِعًا كَانَ أَوْ غَيْرَ وَاقِعٍ.

وأخصُّ مِنْ جِهَةِ أَنَّ الْوَاقِعَ بِالْإِرَادَةِ الْكَوْنِيَّةِ قَدْ يَكُونُ غَيْرَ مَأْمُورٍ بِهِ.

لأنه غير محبوب من قبل الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

قال: وَالْحَاصِلُ أَنَّ الْإِرَادَتَيْنِ قَدْ تَجْتَمِعَانِ مَعًا فِي مِثْلِ إِيمَانِ الْمُؤْمِنِ، وَطَاعَةِ الْمُطِيعِ.

واتضح ذلك بمثال أبي بكر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

وَتَنْفَرِدُ الْكَوْنِيَّةُ فِي مِثْلِ كُفْرِ الْكَافِرِ، وَمَعْصِيَةِ الْعَاصِي.

كما ذكرنا في كفر أبي جهل.

وَتَنْفَرِدُ الشَّرْعِيَّةُ فِي مِثْلِ إِيمَانِ الْكَافِرِ، وَطَاعَةِ الْعَاصِي.

لأن الله عَزَّ وَجلَّ أراد منهم ذلك، أي: يحب ذلك منهم شرعًا، لكنه لم يقع، والإرادة الشرعية لا تستلزم الوقوع.

قال: وَقَوْله تعالى: {وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاء اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ} الْآيَةَ؛ هَذَا مِنْ قَوْلِ اللَّهِ حِكَايَةً عَنِ الرَّجُلِ الْمُؤْمِنِ لِزَمِيلِهِ الْكَافِرِ صَاحِبِ الجنَّتين؛ يَعِظُهُ بِهِ أَنْ يَشْكُرَ نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْهِ، ويردَّها إِلَى مَشِيئَةِ اللَّهِ، وَيَبْرَأَ مِنْ حَوْلِهِ وَقُوَّتِهِ؛ فَإِنَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ.

قال: {وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاء اللَّهُ}.

يعني: ما شاء الله كان، أو (ما) خبر لمبتدأ محذوف، يعني: هذا ما شاء الله، هو لما دخل جنته أُعجب بها، كما قال الله عَزَّ وَجلَّ: {وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا} [الكهف: 34].

{وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا}، فأصابه الغرور والعُجب لما عنده من نعيم الجنتين.

فقال له صاحبه المؤمن: {وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ} [الكهف: 39]، يعني: هذا الذي في الجنتين شاءه الله عَزَّ وَجلَّ كونًا وقدرًا؛ ولذلك وقع، ولذلك المشيئة هاهنا ترادف الإرادة الكونية القدرية.

{لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ}، يعني: لا حيلة لي ولا قوة إلا بإعانة الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، لكنه لم يشكر ولم يرد ذلك إلى مشيئة الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

قال: {وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ}، ولذلك هذه الجملة: (ما شاء الله لا قوة إلا بالله) لا يقولها المرء خشية الحسد، وإنما يقولها خشية العُجب، ويقولها تحدثًا بنعمة الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

يعني: أنت عندما ترى ثوبًا جديدًا، أو يُعجبك شخص تقول: ما شاء الله، ما شاء الله، لا، هذا خطأ، وإنما الأولى أن تقول: تبارك الله.

لكن لو أنك دخلت جنتك أو أعطاك الله عَزَّ وَجلَّ المال الكثير؛ حتى لا تنسى المُنعم سُبْحَانَهُ وَتعَالَى واجب عليك أن تقول: ما شاء الله لا قوة إلا بالله.

يعني: أن تُذكر نفسك بأن الله عَزَّ وَجلَّ هو الذي شاء ذلك؛ فكان شكرًا له سُبْحَانَهُ وَتعَالَى على هذه النعم.

قال: وَقَوْلُهُ: {وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُواْ ...} الْآيَةَ؛ إخبارٌ عَمَّا وَقَعَ بَيْنَ أَتْبَاعِ الرُّسُلِ مِنْ بَعْدِهِمْ: مِنَ التَّنَازُعِ، وَالتَّعَادِي بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَحَسَدًا.

في قوله تعالى: {وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ}، قلنا: (ما) خبر لمبتدأ محذوف تقديره: هذا ما شاء الله، أو أن (ما) هي المبتدأ والخبر كان، الخبر محذوف، قلت: ما شاء الله، يعني: الذي شائه الله كان، (فما) بمعنى: الذي اسم موصول.

وهنا قال هذه الآية: {وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا}، قال: إخبارٌ عَمَّا وَقعَ بَيْنَ أَتْبَاعِ الرُّسُلِ مِنْ بَعْدِهِمْ: مِنَ التَّنَازُعِ، وَالتَّعَادِي بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَحَسَدًا، وأنَّ ذَلِكَ إِنَّمَا كَانَ بِمَشِيئَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجلَّ.

وقول الشيخ: أَتْبَاعِ الرُّسُلِ: يعني: فيه ما يُشعر أن هذا وقع بين المؤمنين، لكن لو نظرنا في الآية لوجدنا أن الكلام عن المؤمن والكافر.

ولذلك قال الله عَزَّ وَجلَّ: {وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ} [البقرة: 253].

فلعل الأقرب -والله أعلم- كما مال إليه الشيخ ابن عثيمين: أن هذا فيمن دعاهم الرسل، فمنهم من أجاب الرسل فآمنوا، ومنهم من كفر بالرسل.

قال: وأنَّ ذَلِكَ إِنَّمَا كَانَ بِمَشِيئَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجلَّ.

نأتي بالآية من أولها، قال: {تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا} [البقرة: 253].

{وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ}، يعني: من بعد الرسل، {مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ}.

إذًا قول الشيخ: وَقَعَ بَيْنَ أَتْبَاعِ الرُّسُلِ مِنْ بَعْدِهِمْ؛ يعني: بعد أن تركهم رسلهم، فمنهم من ضل على إيمانه، ومنهم من كفر بهؤلاء الرسل.

قال: وأنَّ ذَلِكَ إِنَّمَا كَانَ بِمَشِيئَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجلَّ، وَلَوْ شَاءَ عَدَمَ حُصُولِهِ مَا حَصَلَ، وَلَكِنَّهُ شَاءَهُ فَوَقَعَ.

إذًا: المشيئة هنا مشيئة كونية قدرية أم مشيئة شرعية؟ مشيئة كونية.

لماذا ليست مشيئة شرعة؟ لأن المشيئة لا تنقسم، المشيئة إذا ذُكرت في كتاب الله فهي التي تُرادف الإرادة الكونية القدرية لا تنقسم.

قال: وَقَوْلُهُ: {فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ ...} إِلَخْ؛ الْآيَةُ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ كُلاًّ مِنَ الْهِدَايَةِ وَالضَّلاَلِ بِخَلْقِ اللهِ عَزَّ وَجلَّ.

وهذا فيه رد على القدرية؛ لأنهم يقولون: إن ذلك ليس لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى وينفون هداية التوفيق، فلا يثبتون إلا هداية الإرشاد.

ويقولون: الناس سواء في ذلك, المؤمن والكافر أرسل الله عَزَّ وَجلَّ لهم الرسل وأنزل لهم الكتب، والناس بأعمالهم, فمنهم من آمن ومنهم من كفر؛ ولذلك أوجبوا على الله عَزَّ وَجلَّ إثابة الطائعين، وإدخال العاصين النار، والله عَزَّ وَجلَّ لا يهدي هذا ولا يخذل هذا، يقولون ذلك.

والله عَزَّ وَجلَّ هاهنا يقول: {فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامَِ}.

هنا جاءت لفظة الإرادة، فأي الإرادتين أراد الله عَزَّ وَجلَّ في هذه الآية: {فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ}؟ إرادة كونية قدرية.

إذا أراد الله عَزَّ وَجلَّ هداية الإنسان شرح صدره للإسلام ووفقه لطاعته؛ فالإرادة هاهنا كونية.

والهداية؟ {فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ}، {يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ}، تُبين نوع الهداية هل هي هداية بيان أم هداية توفيق وإرشاد؟

هنا توفيق وإرشاد، وبهذا يكون الشرح شرح الصدور يترتب عليه قبول الحق؛ فالإرادة هاهنا إرادة كونية، والهداية هداية التوفيق.

قال: الْآيَةُ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ كُلاًّ مِنَ الْهِدَايَةِ وَالضَّلاَلِ بِخَلْقِ اللَّهِ عَزَّ وَجلَّ، فَمَنْ يُرِدْ هِدَايَتَهُ أَيْ: إِلْهَامَهُ وَتَوْفِيقَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ.

يشرح صدره للإسلام بهذا، هذا يصدق على كل ما يكون به الشرح للإسلام؛ فيوفقه الله عَزَّ وَجلَّ لطاعة الأنبياء والرسل، ويوفقه للدخول في الإسلام، ويجعل قلبه مطمئنًا بالإسلام، ويوفقه للعمل بهذا الإسلام.

هذا كله يندرج تحت قوله: يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ.

قال: بِأَنْ يَقْذِفَ فِي قَلْبِهِ نُورًا، فَيَتَّسِعَ لَهُ، وَيَنْبَسِطَ؛ كَمَا وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ.

وهذا الحديث الذي أشار إليه المصنف رَحِمَهُ اللهُ لفظه أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما سُئل عن هذه الآية: كيف يشرح صدره يا رسول الله؟

قال: "نُورٌ يُقْذَف فِيهِ، فَيَنْشَرِحُ لَهُ وَيَنْفَسِحُ"، قَالُوا: فَهَلْ لِذَلِكَ مِنْ أَمَارَةٍ يُعرف بِهَا؟ قَالَ: "الْإِنَابَةُ إِلَى دَارِ الْخُلُود، والتَّجَافِي عَنْ دَارِ الْغُرُورِ، وَالِاسْتِعْدَادُ لِلْمَوْتِ قَبْلَ لِقَاءِ الْمَوْتِ".

وهذا رواه الطبراني في التفسير، والبيهقي في الأسماء والصفات، وضعفه الشيخ شاكر في تعليقه على الطبري، وقواه ابن كثير في التفسير لتعدد طرقه، وضعفه الشيخ الألباني رَحِمَهُ اللهُ في الضعيفة، فهذا هو الحديث الذي أراده المصنف.

قال: وَمَنْ يُرِدْ إِضْلاَلَهُ وَخِذْلاَنَهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ فِي غَايَةِ الضِّيقِ وَالْحَرَجِ، فَلاَ يَنْفُذُ إِلَيْهِ نُورُ الْإِيمَانِ، وشبَّه ذَلِكَ بِمَنْ يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ.

قال: يَصْعد أم يصَّعَّد؟ يَصَّعَّد، والزيادة في المبنى تدل على زيادة المعنى، فهذا فيه شدة معاناة هذا؛ أنه يجد في صدره حرجًا شديدًا من ذكر الإيمان وأهل الإيمان

ومن دعوة الناس له للدخول في الإيمان والإقبال على الطاعة؛ فحاله كهذا الذي يصَّعَّد في السماء، حاله كهذا الذي يُطلب منه أن يصعد جبلاً عاليًا، فكلما صعد هذا الجبل ضاق صدره جدًا.

قال: تضمَّنت هَذِهِ الْآيَاتُ إِثْبَاتَ أفعالٍ لَهُ تَعَالَى نَاشِئَةٍ عَنْ صِفَةِ الْمَحَبَّةِ.

الشيخ لم يتعرض لآية المائدة، وهي قوله تعالى: {أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ} [المائدة: 1].

قال تعالى: {أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ}، والفعل هاهنا مبني لما لم يسم فاعله، وهكذا ينبغي أن يُقال في كل فعل جاء على هذه الصورة في حق الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، لا يُقال مبني للمجهول؛ لأن الله عَزَّ وَجلَّ ليس بمجهول سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، لكن تأدبًا مع الله عَزَّ وَجلَّ نقول: مبني لما لم يسم فاعله، أو هو فعل مغير الصيغة، وفاعله معروف؛ لأن الذي أحل ذلك الله عَزَّ وَجلَّ في كتابه ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في سنته.

فقال: {أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ}، فالأصل في المنافع الحِل.

هذه قاعدة: الأصل في كل ما ينفع على وجه هذه البسيطة أن الله عَزَّ وَجلَّ أحله؛ لأن الله عَزَّ وَجلَّ سخر لنا ما في السماوات وما في الأرض جميعًا منه، والتسخير يُستفاد منه الحِل.

كما قال في سورة الجاثية: {وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ} [الجاثية: 13].

وقال كذلك في سورة البقرة: {هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ} [البقرة: 29]، وخلقه لنا إنما ذُكر هاهنا على سبيل الامتنان؛ فهذا كذلك يدل على أن الأصل في كل ما ينفع على وجه هذه البسيطة أنه حلال، إلا ما استثنى الدليل.

ولذلك قال: {أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ}، يعني: إلا ما حرمه الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، وهذا إجمال فصله الله عَزَّ وَجلَّ في مواضع.

فقال: {حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ} [المائدة: 3]، وحرم علينا الموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع.

فقال: {أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ}، يعني: حال إحرامكم لا يجوز لكم الصيد, يحرم عليكم صيد بهيمة الإنعام، ويحرم عليكم الإعانة كذلك على هذا الصيد، أو مجرد الإشارة كذلك، كل ذلك يحرُم على المُحرم.

قال: {وَأَنْتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ}، وهذه تعليلية.

{إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ}، شرعًا أم قدرًا؟ سياق الآية يدل على أن ذلك شرع، هذا شرع شرعه الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، وهو كذلك يحكم ما يريد كونًا وقدرًا، لكن المفهوم من سياق الآية والأقرب للفهم أن الإرادة هاهنا هي الإرادة الشرعية.

فهذه الآيات التي ذكرها المصنف رَحِمَهُ اللهُ وغيرها: تضمَّنت هَذِهِ الْآيَاتُ إِثْبَاتَ أفعالٍ لَهُ تَعَالَى نَاشِئَةٍ عَنْ صِفَةِ الْمَحَبَّةِ.

قال: وَمَحَبَّةُ اللَّهِ عَزَّ وَجلَّ لِبَعْضِ الْأَشْخَاصِ وَالْأَعْمَالِ وَالْأَخْلَاقِ صِفَةٌ لَهُ قَائِمَةٌ بِهِ.

وسيأتي الكلام في الباب اللاحق عن صفة المحبة، الله يحب المحسنين والمتقين والصابرين، ويأتي الكلام عنهم.

وسبب ذكر المحبة هاهنا: أنها ترادف الإرادة الشرعية.

قال: وَهِيَ مِنْ صِفَاتِ الْفِعْلِ الاِخْتِيَارِيَّةِ الَّتِي تَتَعَلَّقُ بِمَشِيئَتِهِ.

وتتعلق بسبب.

فَهُوَ يحبُّ بَعْضَ الْأَشْيَاءِ دُونَ بَعْضٍ عَلَى مَا تَقْتَضِيهِ الْحِكْمَةُ الْبَالِغَةُ.

وَيَنْفِي الْأَشَاعِرَةُ وَالْمُعْتَزِلَةُ صِفَةَ الْمَحَبَّةِ؛ بِدَعْوَى أَنَّهَا تُوهِمُ نَقْصًا؛ إِذِ الْمَحَبَّةُ فِي الْمَخْلُوقِ مَعْنَاهَا مَيْلُهُ إِلَى مَا يُنَاسِبُهُ أَوْ يستلذُّه.

ماذا فعل أهل التعطيل؟ ما عطلوا إلا لما شبهوا؛ فقالوا: المحبة في المخلوق تستدعي ماذا؟ وتستلزم ماذا؟ تستلزم ميلك إلى من تحب، وأن تستلذ بهذه المحبة، فلو أثبتنا المحبة لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى لكان الله عَزَّ وَجلَّ مشابهًا للمخلوق؛ ولذلك نفوا المحبة، هذا من جهة.

ومن جهة أخرى قالوا: إذا قلنا: إن الله عَزَّ وَجلَّ أحب ويحب وسيحب؛ فهذا يدل على حلول الحوادث به سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، كقاعدة عامة عندهم في كل صفاته الاختيارية؛ كالفرح والغضب والمحبة، فهم ينفون كل هذه الصفات، بناءً على هذا الأصل الفاسد الذي أثبتوا به حدوث العالم.

فلو قالوا: بإثبات المحبة لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى وألزموا أنفسهم بما يسمونه حلولًا للحوادث، لهدموا الأصل الأول ولانهدم الكهف على رؤوسهم؛ لأن الإيمان عندهم مبناه كليةً على إثبات حدوث العالم وعلى أن الله قديم، هذا هو

الإيمان عندهم أن الله موجود قديم، وأن هذا العالم حادث مخلوق بعد أن لم يكن، هذا هو غاية الإيمان عندهم.

فالأشاعرة يرجعون صفة المحبة إلى صفة الإرادة، يعني: إذا أحب الله فلانًا، أي: أراد إثابته، وأراد إكرامه.

فنستشكل عليهم ونقول: والمخلوق له إرادة، فلماذا أثبتم إرادة لله ولم تثبتوا المحبة؟ اضطرادًا لهذا الأصل؛ لأن المخلوق يحب، قالوا: لو أحب الله لو أثبتنا له صفة المحبة لشبهناه بالمخلوق.

المخلوق يريد، يقولون: لكن إرادة الله تفارق إرادة المخلوق، نقول كذلك: محبة الله تفارق محبة المخلوق، والصفة على قدر الموصوف، هذا أولًا.

ونقول لهم ثانيًا: والإرادة تستلزم الميل، فإن الإنسان لا يريد شيئًا إلا إذا مال إليه وطلبه وأحبه، فما ادعيتموه في المحبة هو هو موجود في الإرادة.

ولذلك يقولون: إِنَّ مَحَبَّةَ اللَّهِ لِعَبْدِهِ لَا مَعْنَى لَهَا إِلَّا إِرَادَتُهُ لِإِكْرَامِهِ وَمَثُوبَتِهِ.

فكل آية في كتاب الله جاء فيها لفظ المحبة يفسرونها بأن الله عَزَّ وَجلَّ يريد أن يكرمه ويريد أن يثيبه.

يعني: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ} [المائدة: 54].

ما معنى (يُحبهم)؟ يعني: يريد إكرامهم وإثابتهم، هكذا يفسرونها ولا يثبتون المحبة صفة لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ الْعَبْدَ نَادَى: يَا جِبْرِيلُ، إِنِّي أُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبَّهُ"، إذا أحب الله عبدًا، يعني: إذا أراد أن يكرمه وأن يثيبه.

فيقولون: إن المحبة على هذا المعنى الذي ذكرناه، وكذلك يقولون في صفات الرضا والغضب والكراهية والسخط.

كل هذه الصفات عندهم بمعنى إرادة الثواب والعقاب.

يقولون: الغضب -كما يذكر ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ عنهم في مجموع الفتاوى-: الغضب معناه: غليان الدم في عروق الإنسان، في عروق المخلوق.

ولذلك الإنسان عندما يغضب تنتفخ أوداجه ووجهه يحمر ويتغير لونه، هذا ما يناسب المخلوق.

والخالق سُبْحَانَهُ وَتعَالَى ليس كمثله شيء, لا في أسمائه ولا في صفاته ولا في ذاته سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

يقولون: لو أثبتنا صفة الغضب لشبَّهنا الله عَزَّ وَجلَّ بخلقه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

وَكَذَلِكَ يَقُولُونَ فِي صِفَاتِ الرِّضَا وَالْغَضَبِ وَالْكَرَاهِيَةِ وَالسَّخَطِ؛ كُلُّهَا عِنْدَهُمْ بِمَعْنَى إِرَادَةِ الثَّوَابِ وَالْعِقَابِ.

وأن الله عَزَّ وَجلَّ يريد أن ينتقم منهم.

ماذا نصنع بقول الله تعالى: {فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ} [الزخرف: 55]؟ ما معنى آسفونا؟ أي: أغضبونا، وهذا من درجات الغضب.

هل معنى الآية فلما أردنا الانتقام منهم انتقمنا منهم؟ لا، ليس هذا هو المعنى.

وكذلك: {وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي} [طه: 81]، يفسرونها إرادة انتقام، أن الله عَزَّ وَجلَّ يريد الانتقام منهم.

فالشاهد: أنهم يؤولون كل هذه الصفات.

وَأَمَّا الْمُعْتَزِلَةُ؛ فَلأَنَّهُمْ لَا يُثْبِتُونَ إِرَادَةً قَائِمَةً بِهِ، فَيُفَسِّرُونَ الْمَحَبَّةَ بِأَنَّهَا نَفْسُ الثَّوَابِ الْوَاجِبِ عِنْدَهُمْ عَلَى اللَّهِ لِهَؤُلَاءِ؛ بِنَاءً عَلَى مَذْهَبِهِمْ فِي وُجُوبِ إِثَابَةِ الْمُطِيعِ وَعِقَابِ الْعَاصِي.

وهذا على مذهبهم في مسألة التحسين والتقبيح العقليين، من الذي صام وصلى وزكى وحج؟ المخلوق هو الذي فعل ذلك؛ إذًا: يجب على الله عَزَّ وَجلَّ أن يثيبه.

كالعامل تمامًا، كالأجير تمامًا إذا عمل عملاً لابد أن يؤجر وأن يأخذ حقه، حقه هذا ليس تطفلاً من الله عَزَّ وَجلَّ، وليس هناك منة من الله عَزَّ وَجلَّ في ذلك، وإنما هذا محض العدل من الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، يجب عليه ذلك.

ولذلك يفسرون كل (باء) جاءت في هذا السياق بأنها (باء) العوض والثمنية، {ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} [النحل: 32].

تجد الزمخشري وغيره من أهل الاعتزال يقولون عن هذه (الباء) إنها باء الثمنية والعوض والجزاء.

والصحيح: أن هذه (الباء) باء السببية، فالأعمال سبب في دخول الجنة، وليست الجنة ثمنًا للأعمال أو عوضًا عن الأعمال؛ لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: "لَا يُدْخِلُ أَحَدًا مِنْكُمْ الْجَنَّةَ بعَمَله"، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: "ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته، فادخلوا الجنة برحمة الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى".

قال: وَأَمَّا أَهْلُ الْحَقِّ؛ فَيُثْبِتُونَ الْمَحَبَّةَ صِفَةً حَقِيقِيَّةً لِلَّهِ عَزَّ وَجلَّ عَلَى مَا يَلِيقُ بِهِ، فَلَا تَقْتَضِي عِنْدَهُمْ نَقْصًا وَلَا تَشْبِيهًا.

للأصل العام: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} [الشورى: 11]؛ فنثبت الصفة إثبات وجود لا إثبات كيفٍ نعلمه.

هذه القاعدة عامة في سائر الصفات: أن إثباتها إثبات وجود، صفة موجودة معناها معلوم؛ لأنه بلسان عربي مبين، هكذا جاءت الصفة في كتاب ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى، لكن الكيف هذا لا يعلمه إلا الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

كَمَا يُثْبِتُونَ لَازِمَ تِلْكَ الْمَحَبَّةِ، وَهِيَ إِرَادَتُهُ سُبْحَانَهُ إِكْرَامَ مَنْ يُحِبُّهُ وَإِثَابَتَهُ.

إذًا: الذي وقع فيه الأشاعرة أنهم أثبتوا لازم الصفة ولم يثبتوا الصفة.

وقد أخطأ بعض من ألف في الاعتقاد , فألَّف كتابًا سماه ابن كثير بين التأويل والتفويض، يتكلم عن الحافظ ابن كثير، والحافظ ابن كثير سُني سلفي مُثبت لصفات الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

لكن هذا الذي لا يعلم مذهب ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ وجد أن ابن كثير –مثلاً– جاء عند قول الله تعالى: {يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ} [الفتح: 10]؛ فذكر أن قدرة الله فوق قدرتهم، فيقول: ابن كثير أوِّل.

فجمع الآيات التي تكلم عنها ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ على هذه الصورة وسمى الكتاب ابن كثير بين التفويض والتأويل.

أي أنه رحمه الله إما مفوض أو مؤول، وهذا جهل منه بحقيقة مذهب ابن كثير ومذهب السلف؛ فالسلف يثبتون الصفات، لكن هذا لا يلزم منهم أنه كلما وردت الصفة في موضع يقولون وفي هذه الآية إثبات اليد أو إثبات العين لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

{تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا} [القمر: 14]، ما معنى تجري بأعيننا؟ يعني: تجري برعايتنا وحفظنا، فهم يثبتون الصفة في موضع ويذكرون أثرها في موضع آخر.

فلو نظرت في كلام ابن كثير عند قول الله تعالى: {مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ} [ص: 75]، لوجدته يثبت اليدين لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

فإذا جاء في قوله تعالى: {يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ}، وقال قدرة الله.

أو {وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي} [طه: 39]، يعني: على حفظ مني، هذا مذكور في لسان السلف أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لكنهم ذكروا ذلك مع إثباتهم لصفات الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، يذكرون لازم الصفة في مواضع مع إثباتهم لحقيقتها.

وأما الأشعرية فإنهم يثبتون لازم الصفة، لا يثبتون الصفة فرارًا من التشبيه، وما عطلوا إلا لما شبهوا.

قال: كَمَا يُثْبِتُونَ لَازِمَ تِلْكَ الْمَحَبَّةِ، وَهِيَ إِرَادَتُهُ سُبْحَانَهُ إِكْرَامَ مَنْ يُحِبُّهُ وَإِثَابَتَهُ.

وَلَيْتَ شِعْرِي بِمَاذَا يُجِيبُ النَّافُونَ للمحبَّة عَنْ مِثْلِ قَوْلِهِ عَلَيهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمَ فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ: ((إِنَّ اللَّهَ إِذَا أحبَّ عَبْدًا؛ قَالَ لِجِبْرِيلَ عليه السلام: إِنِّي أُحِبُّ فُلاَنًا فأحبَّه)).

إني أحب فلانًا، فعلى قول هؤلاء أريد إثابته وأريد إكرامه، فأثبه يا جبريل، ليس هذا هو المراد، بدليل باقي السياق لما قال: ((وَيُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ)).

السؤال الآن: من الذي وضع له القبول في الأرض جبريل أم الله عَزَّ وَجلَّ هو الذي وضع له القبول في الأرض؟

الجواب: الله عَزَّ وَجلَّ هو الذي وضع له القبول في الأرض.

((قَالَ لِجِبْرِيلَ عليه السلام: إِنِّي أُحِبُّ فُلاَنًا فأحبَّه. قَالَ: فَيَقُولُ جِبْرِيلُ عليه السلام لِأَهْلِ السَّمَاءِ: إِنَّ رَبَّكُمْ عَزَّ وَجلَّ يُحِبُّ فُلاَنًا فَأَحِبُّوهُ)).

لو قلنا: إن الثواب من قِبل جبريل لأن الله عَزَّ وَجلَّ أمره بذلك، فماذا نقول في قول جبريل لأهل السماء: ((إِنَّ رَبَّكُمْ عَزَّ وَجلَّ يُحِبُّ فُلاَنًا فَأَحِبُّوهُ))؟ يعني: أكرموه وأثيبوه.

قَالَ: ((فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، وَيُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ، وَإِذَا أَبْغَضَهُ فَمَثِيلُ ذَلِكَ)).

قال: إني أبغض فلانًا فأبغضه، ثم يأمر أهل السماء أن يبغضوه، فهذا فيه رد لمذهبهم الباطل.

فهذه الآيات التي ذكرها المصنف رَحِمَهُ اللهُ في إثبات الإرادة فيها بيان أن الإرادة تنقسم بخلاف المشيئة.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم، وجزاكم الله خيرًا.

الدرس الخامس عشر

إن الحمد لله, نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله تعالى من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله, صلى الله عليه, وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد:

فما زال الحديث موصولًا في قراءة هذا المعتقد المبارك معتقد أهل السنة والجماعة, والذي سطره شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ في العقيدة الواسطية.

فقال رَحِمَهُ اللهُ: وَقَوْلُهُ: {وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} [البقرة: 195].

وَقَوْلُهُ: {وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ} [الحجرات: 9].

وَقَوْلُهُ: {فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ} [التوبة: 7].

وَقَوْلُهُ: {إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ} [البقرة: 222].

وَقَوْلُهُ: {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ} [آل عمران: 31].

وَقَوْلُهُ: {فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ} [المائدة: 54].

وَقَوْلُهُ: {إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ} [الصف: 4].

وَقَوْلُهُ: {وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ} [البروج: 14].

هذه الآيات التي ساقها المصنف رَحِمَهُ اللهُ هي في إثبات صفة المحبة لله تعالى, ولعل هذا الترتيب الذي مشى عليه شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ ترتيب مقصود, فإنه في المبحث الذي قبل هذا المبحث تكلم عن مشيئة الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى وعن إرادته بنوعيها الكونية والشرعية.

وبيَّنا من خلال شرح العلامة الهراس أن من أهل البدع من جعل المحبة بمعنى الإرادة, فجاء في الآيات التي فيها إثبات محبة الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى وفسرها أو أوَّلها بإرادة الثواب, فجعل المحبة بمعنى إرادة الثواب, أي: أن الله عَزَّ وَجلَّ يريد أن يثيبهم وأن يكرمهم, مع أن الإرادة تنقسم, فالإرادة لا تعني دائمًا المحبة, وإنما هذا قسم واحد من أقسام الإرادة وهي الإرادة الشرعية, فهي التي ترادف المحبة.

وأما الإرادة الكونية فإنها لا ترادف المحبة, فلا يلزم من إرادة الله عَزَّ وَجلَّ وجود شيء في هذا الكون أن يكون يحبه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى, فقد أراد الله عَزَّ وَجلَّ وجود إبليس في هذا الكون وهو لا يحبه, واراد وجود غيره من الشرور وهي من خلق الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى وهو لا يحب كل ذلك, والله لا يحب الفساد ولا يرضى لعباده الكفر, وكل ذلك موجود في خلقه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى, فلا ترادف الإرادة دائمًا المحبة.

فكأن الشيخ رَحِمَهُ اللهُ أراد أن يبين هاهنا أن الله عَزَّ وَجلَّ موصوف بالمحبة, وأنه لا يحب إلا ما يقرره شرعًا سُبْحَانَهُ وَتعَالَى ويريده من عباده شرعًا.

فالمحبة صفة ثابتة لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى, وهي صفة فعلية, والله عَزَّ وَجلَّ يُحِب ويُحَب, والمراد هاهنا إثبات أن الله عَزَّ وَجلَّ يُحِب عباده إذا اتصفوا بصفات معينة, وهذه الصفة ثابتة بكتاب الله وبسنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبإجماع سلف الأمة.

أما الكتاب: فقد جاءت هذه الآيات التي ذكرها المصنف رَحِمَهُ اللهُ, ففيها إثبات أن الله يُحِب سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

وكذلك أحاديث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو أعلم الخلق بربه جاء فيها إثبات المحبة لله كصفة, ومن ذلك قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "لَأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ غَدًا رَجُلاً يُفْتَحُ عَلَى يَدَيْهِ، يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ", ففيها إثبات المحبة لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى وأنه يُحِب.

وكذلك جاء في الصحيح أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: "إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ الْعَبْدَ نَادَى: يَا جِبْرِيلُ، إِنِّي أُحِبُّ فُلاَنًا فَأَحِبَّهُ".

وكذلك أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: "مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ", فالمُحِب هاهنا هو ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

وأجمع سلف الأمة على ثبوت هذه الصفة لربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى, وينبغي أن نعلم أن محبة الله للعبد هي أجل نعمة, فإذا أحب الله عَزَّ وَجلَّ عبده فقد أنعم عليه بنعمة عظيمة وفضل جليل؛ فإن الله عَزَّ وَجلَّ إذا أحب عبدًا يسر له الأسباب وهون عليه كل عسير ووفقه لفعل الخيرات وترك المنكرات, كما جاء في الحديث: "فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ: كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ", فهذا كله من ثمار محبة الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى للعبد.

ولذلك قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: ليس الشأن أن تُحِب, وإنما الشأن أن تُحَب, أي: أن يُحِبك الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى, فإذا وُفقت لأن تنال هذه المنزلة فهذا فضل عظيم ونعمة من الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

قال الشيخ الهراس رَحِمَهُ اللَّهُ: وَقَوْلُهُ تَعَالَى فِي الْآيَةِ الْأُولَى: {وَأَحْسِنُوا} أمرٌ بِالْإِحْسَانِ الْعَامِّ فِي كُلِّ شَيْءٍ.

لأنه قال: {وَأَحْسِنُواْ}, وحذف متعلق الإحسان, ما قال: أحسنوا إلى كذا وكذا من الخلق, وإنما قال: {وَأَحْسِنُواْ}, فهذا أمر بالإحسان العام.

قال: لَا سِيَّمَا فِي النَّفَقَةِ الْمَأْمُورِ بِهَا قَبْلَ ذَلِكَ.

لأن الله عَزَّ وَجلَّ قال في صدر هذه الآية: {وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} [البقرة: 195].

وذكرنا قبل ذلك أن (إن) إذا جاءت بعد أمر ونهي فهذا تعليل لحكم الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى الشرعي.

وكذلك قد تجيء في الخبر, كما قال النبي في الهرة, قال: "إِنَّهَا لَيْسَتْ بِنَجَسٍ، إِنَّهَا مِنَ الطَّوَّافِينَ عَلَيْكُمْ وَالطَّوَّافَاتِ" فهذا تعليل لعدم نجاسة الهرة.

قال: وَالْإِحْسَانُ فِيهَا يَكُونُ بِالْبَذْلِ وَعَدَمِ الْإِمْسَاكِ، أَوْ بِالتَّوَسُّطِ بَيْنَ التَّقْتِيرِ وَالتَّبْذِيرِ، وَهُوَ الْقَوَامُ الَّذِي أَمَرَ اللَّهُ بِهِ فِي سُورَةِ الْفُرْقَانِ.

{وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا} [الفرقان: 67], وهذا حال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال تعالى في سورة الإسراء: {وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا} [الإسراء: 29].

وجاء كذلك في حديث عمار بن ياسر عند النسائي أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: "وَأَسْأَلُكَ الْقَصْدَ فِي الْغِنَى وَالْفَقْرِ".

فهذا هو الإحسان.

قال: رَوَى مُسْلِمٌ فِي ((صَحِيحِهِ)) عَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ؛ فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ، وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذِّبْحَةَ، وليحدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ، وَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ)).

الكتابة هاهنا شرعية أم كونية قدرية؟ وهذا نسينا أن نذكره الدرس الماضي أن هناك من الألفاظ ما ينقسم إلى الشرعي والكوني القدري, فكما أن الإرادة تنقسم فكذلك الكتابة تنقسم.

فمنها: الكتابة الشرعية, ولا يلزم منها الوقوع, ومنها: الكتابة الكونية القدرية, وهذه يلزم وقوعها.

فأيُّ نوعي الكتابة في هذا الحديث: ((إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ))؟

الطالب: الشرعية.

الشيخ: لماذا الشرعية؟ لأننا لو نظرنا في حال الناس لوجدنا كثيرًا من الناس غير محسن في هذا الأمر, فلو كانت الكتابة هاهنا كتابة كونية قدرية للزم من ذلك أن يكون جميع الخلق محسنين.

قال: ((إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ؛ فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ، وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذِّبْحَةَ، وليحدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ، وَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ)).

فهذا من الإحسان إلى الخلق, والإحسان منه: إحسان العبد في عبادته لربه تَبَارَكَ وَتَعَالَى ومنه: إحسان إلى المخلوق.

فيقال: إن العبد قد أحسن في عبادته, ولا يقال إنه قد أحسن إلى الله, وإنما أحسن في عبادته, لأن الإحسان يعود عليه هو بالنفع امتثالًا لأمر الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في مرتبة الإحسان: "أَنْ تَعْبُدَ الله كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ", فهذا إحسان للعبد في عبادته.

النوع الآخر: الإحسان إلى المخلوق, وذلك بجلب النفع أو دفع الضر.

ما مرتبة الإحسان في الدين؟ الإحسان منه ما هو واجب, ومنه ما هو مستحب.

{إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى} [النحل: 90], إذًا: الإحسان مأمور به, لأن الله عَزَّ وَجلَّ كتبه على كل شيء، وهو داخل فيما أمر الله به في هذه الآية الكريمة.

لكنه ليس على درجة واحدة, منه ما هو واجب: كالإحسان إلى الوالدين, ومنه ما هو مستحب: كالإحسان إلى الأقرباء والأرحام.

أما العدل: فكله واجب, لابد أن يعدل المرء في كل شيء.

قال: وَأَمَّا قَوْلُهُ: {إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} فَهُوَ تَعْلِيلٌ لِلأَمْرِ بِالْإِحْسَانِ، فَإِنَّهُمْ إِذَا عَلِمُوا أَنَّ الْإِحْسَانَ موجبٌ لمحبَّته؛ سَارَعُوا إِلَى امْتِثَالِ الْأَمْرِ بِهِ.

وأهل التقوى وأصحاب الكمالات هذا عندهم أفضل وأعظم من مجرد دخول الجنة ؛ أن يعلم الواحد منهم أن الله يحب المحسنين فيسعى في أن يكون محسنًا هذا أعظم عنده من أن يدخل الجنة, أن ينال محبة الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى, فهذا أعظم من من مجرد دخول الجنة.

ولذلك جاء في الآية بعد أن ذكر جنة عدن: {وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ} [التوبة: 72], فمحبة الله للعبد ورضا الله عَزَّ وَجلَّ عن العبد هذا أعظم من مجرد دخول الجنة.

قال: فَهُوَ تَعْلِيلٌ لِلأَمْرِ بِالْإِحْسَانِ، فَإِنَّهُمْ إِذَا عَلِمُوا أَنَّ الْإِحْسَانَ موجبٌ لمحبَّته؛ سَارَعُوا إِلَى امْتِثَالِ الْأَمْرِ بِهِ.

قال: وَأَمَّا قَوْلُهُ فِي الْآيَةِ الثَّانِيَةِ: {وَأَقْسِطُوا} ؛ فَهُوَ أمرٌ بِالْإِقْسَاطِ، وَهُوَ الْعَدْلُ فِي الْحُكْمِ بَيْنَ الطَّائِفَتَيْنِ الْمُتَنَازِعَتَيْنِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَهُوَ مِنْ قَسَطَ؛ إِذَا جَارَ، فَالْهَمْزَةُ فِيهِ لِلسَّلْبِ، وَمِنْ أَسْمَائِهِ تَعَالَى: الْمُقْسِط.

أصل أقسط: قَسَطَ, أصل من الثلاثي: قَسَطَ, لكن ماذا حصل لها؟ أُدخلت عليها الهمزة, فالهمزة فيه للسلب.

ما معنى للسلب؟ أي: تقوم بإلغاء الصفة التي تضمنها الفعل, فيكون معنى الفعل عكس المعنى قبل دخول الهمزة, فقبل دخول الهمزة ماذا يعني الفعل (قَسَطَ)؟ يعني جار وظلم.

ولذلك اسم الفاعل من الفعل (قَسَطَ): قاسط, وأما اسم الفاعل من الفعل (أَقْسَطَ): مُقسط.

ولذلك جاء في حديث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: "الْمُقْسِطُونَ عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ عَنْ يَمِينِ الرَّحْمَنِ".

ما معنى المقسطون؟ أي: العادلون, الذين يعدلون في ذويهم وما ولُّوا, أو كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فالقاسط كما قلنا: الجائر, والقَسْطُ: الجور, بفتح القاف وتسكين السين, وأما القِسْطُ: العدل.

قال: فَالْهَمْزَةُ فِيهِ لِلسَّلْبِ، وَمِنْ أَسْمَائِهِ تَعَالَى: الْمُقْسِط.

وهذا لم يثبُت في حديث صحيح عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن المقسط من أسمائه, وإنما جاء في الرواية المدرجة المشهورة من رواية الوليد بن مسلم -وهو مدلس- والتي فيها سرد أسماء الله الحسنى, وهذه رواية مدرجة.

أما الرواية الصحيحة فآخرها: "إِنَّ لِلهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ".

وأما الرواية التي جاءت عند الترمذي وغيره فأهل العلم على أنها رواية مدرجة.

ولذا ورد فيها أسماء لم تثبُت في كتاب الله ولا في سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ, هي من اجتهاد بعض العلماء، ومنها المُقسط.

قال: وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى: {فَمَا اسْتَقَامُواْ لَكُمْ فَاسْتَقِيمُواْ لَهُمْ}.

إذًا: كذلك الآية السابقة قال الله عَزَّ وَجلَّ: {وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ} , فهذا يحمل المرء على أن يكون مقسطًا عادلًا في نفسه, في معاملته مع ربه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى, لا يظلم نفسه, ولا يعرِّض نفسه لغضب الله وعذابه, وكذلك في معاملته للخلق.

وأول هؤلاء المستحقين لعدله وإحسانه أهل بيته وأولاده, فيقوم برعايتهم حق الرعاية, لأنه مسئول عنهم أمام الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

وكذلك أن يؤدي الحقوق إلى الخلق, من إنسان وحيوان وطير, وكلٌّ بحسبه, والمقسطون ليسوا على درجة واحدة.

ولذلك كان نوال محبة الله على درجات متفاوتة, فهل محبة الله عَزَّ وَجلَّ للأنبياء والمرسلين كمحبته لأوليائه المؤمنين كمحبة للعصاة من المؤمنين؟ لا, المحبة تتفاوت.

ولذلك من الناس من لا يحبه الله عَزَّ وَجلَّ البتة, وهو المشرك الكافر لا يُحب, وإنما يبغض.

ولذلك جاء في القرآن: {فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ} [النحل: 106], {وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ} [التوبة: 68], توعدهم الله عَزَّ وَجلَّ بالنار خالدين فيها أبدًا, وهذا لا يكون محبوبا لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

ومن عباده من يُحبهم الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى حتى تصل إلى درجة الخُلة, وهي أعلى درجات المحبة.

ومن عباد الله من يحبهم الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى من وجه ويبغضهم من وجه, وهم الذي خلطوا عملاً صالحًا وآخر سيئًا, فهؤلاء يحبهم الله عَزَّ وَجلَّ لما معهم من العمل الصالح, ويبغضهم الله لما اقترفوه من العمل السيء, لكنهم لو تابوا وأنابوا وأقلعوا وعادوا إلى الله عَزَّ وَجلَّ أحبهم سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

ولذلك قلنا إن المحبة صفة فعلية تتعلق بسببها, فإذا وجد السبب وجد المسبب, فالله عَزَّ وَجلَّ يحب من يسعى في محبته سُبْحَانَهُ وَتعَالَى ويقوم بالأعمال الصالحة من الإحسان والقسط والتقوى والتطهر, كما جاء في هذه الآيات.

قال: وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى: {فَمَا اسْتَقَامُواْ لَكُمْ فَاسْتَقِيمُواْ لَهُمْ}.

وهذه الآية في سورة التوبة.

قال: وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى: {فَمَا اسْتَقَامُواْ لَكُمْ فَاسْتَقِيمُواْ لَهُمْ}؛ فَمَعْنَاهُ: إِذَا كَانَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ أحدٍ عهدٌ كَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ عَاهَدْتُمُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ؛ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ عَلَى عَهْدِهِمْ مُدَّةَ اسْتِقَامَتِهِمْ لَكُمْ، فَ (مَا) هُنَا مَصْدَرِيَّةٌ ظَرْفِيَّةٌ.

وقد تكون شرطية كما قال أهل العلم, يعني: إن استقاموا لكم فاستقيموا لهم.

ثُمَّ علَّل ذَلِكَ الْأَمْرَ بِقَوْلِهِ: {إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ}؛ أَيْ: يحبُّ الَّذِينَ يتَّقون اللَّهَ فِي كُلِّ شَيْءٍ، وَمِنْهُ عَدَمُ نَقْضِ الْعُهُودِ.

فهنا كذلك في هذه الآية إثبات صفة المحبة لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى, لكن هل الناس على درجة واحدة في التقوى؟ ليسوا على درجة واحدة, إذًا: الناس ليسوا على درجة واحدة في محبة الله, الأتقياء ليسوا على درجة واحدة في محبة الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى, فمن أراد أن يكون له أعظم الحظ والنصيب في محبة الله عَزَّ وَجلَّ فعليه أن يتقي الله عَزَّ وَجلَّ حق تقاته.

قال: وَأَمَّا قَوْلُهُ: {إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ ...} إِلَخْ؛ فَهُوَ إِخْبَارٌ مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتعَالَى عَنْ مَحَبَّتِهِ لِهَذَيْنِ الصِّنْفَيْنِ مِنْ عِبَادِهِ.

أَمَّا الْأَوَّلُ: فَهُمُ التَّوَّابون؛ أَيْ: الَّذِينَ يُكْثِرُونَ التَّوْبَةَ وَالرُّجُوعَ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجلَّ بِالِاسْتِغْفَارِ مِمَّا أَلَمُّوا بِهِ عَلَى مَا تَقْتَضِيهِ صِيغَةُ الْمُبَالَغَةِ.

التوابون فعَّالون, صيغة المبالغة تدل على ماذا؟ على كثرة التوبة منهم, فكلما أذنبوا ذنبًا تابوا إلى الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى, وعندهم كذلك صدق في التوبة والإنابة، وهذا مما يحبه الله عَزَّ وَجلَّ أن يكون العبد منيبًا راجعًا توابًا له سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

قال: فَهُمْ بِكَثْرَةِ التَّوْبَةِ قَدْ تطهَّروا مِنَ الْأَقْذَارِ وَالنَّجَاسَاتِ الْمَعْنَوِيَّةِ الَّتِي هِيَ الذُّنُوبُ وَالْمَعَاصِي.

وهذه أعظم من النجاسات الحسية, فهنا تطهروا تطهرًا باطنيًا, تطهروا طهارة معنوية, وأعظم هذ الطهارة أن يتطهر المرء من الشرك ومن البدعة ومن المعصية, فهذه أدران القلب الثلاثة, وأعظمها الشرك.

ولذلك قال: {إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ} [التوبة: 28], ونجاسة المشركين ليست نجاسة حسية, وإنما هي نجاسة قلوب, فقلوبهم نجسة غير زكية, لا يطهرها إلا التوحيد والإيمان.

ولذلك قال الله عَزَّ وَجلَّ: {وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ (6) الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ} [فصلت: 6-7], أي زكاة هذه والآية مكية؟ أن يأتوا بكلمة التوحيد (لا إله إلا الله محمد رسول الله), وهذا قول أكثر المفسرين أن الزكاة هاهنا هي الزكاة المعنوية.

وهذه الطهارة الأولى.

قال: وَأَمَّا الثَّانِي: فَهُمُ الْمُتَطَهِّرُونَ؛ الَّذِينَ يُبَالِغُونَ فِي التَّطَهُّرِ.

من أين جاء بقوله: يُبَالِغُونَ فِي التَّطَهُّرِ؟ قال: الْمُتَطَهِّرُونَ, ما قال الطاهرون أو المطهرون, والزيادة في المبنى تدل على زيادة المعنى, فهم يبالغون في التطهر.

وَهُوَ التَّنْظِيفُ بِالْوُضُوءِ -فهذا في الحدث الأصغر- أَوْ بِالْغُسْلِ مِنَ الْأَحْدَاثِ وَالنَّجَاسَاتِ الْحِسِّيَّةِ -وهذا في الحدث الأكبر-.

فالله عَزَّ وَجلَّ يحب من جمع بين الطهارة المعنوية والطهارة الحسية, وهذا حال المؤمن.

والتوبة لها شروط:

أول هذه الشروط: الإخلاص, أن يبتغي بتوبته وجه الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

ثاني هذه الشروط: أن يندم.

وكذلك: أن يعزم على عدم العوْد.

وكذلك: أن يبادر إلى التوبة.

وإذا كان الأمر يتعلق بحقوق العباد فلا توبة كاملة إلا بأداء هذه الحقوق إلى أهلها.

وكذلك أن يتوب قبل ألا يقبل الله عَزَّ وَجلَّ توبته, وذلك بأن يصل المرء إلى حد الغرغرة, "إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجلَّ لَيَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ مَا لَمْ يُغَرْغِرْ", كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وكذلك: ما لم تطلع الشمس من مغربها.

فالله يحب التوابين ويحب المتطهرين.

قال: وَقِيلَ: الْمُرَادُ بِالْمُتَطَهِّرِينَ هُنَا الَّذِينَ يَتَنَزَّهُونَ مِنْ إِتْيَانِ النِّسَاءِ فِي زَمَنِ الْحَيْضِ أَوْ فِي أَدْبَارِهِنَّ، وَالْحَمْلُ عَلَى الْعُمُومِ أَوْلَى.

والقول بأن المراد بالمتطهر الذين يتنزهون من إتيان النساء في زمن الحيض- هذا باعتبار سياق الآية, والآية جاءت عرية من المتعلَّق فتعم.

ولذلك قال الشيخ رَحِمَهُ اللهُ: وَالْحَمْلُ عَلَى الْعُمُومِ أَوْلَى: يعني: يحب الله عَزَّ وَجلَّ من تطهر طهارة معنوية وكذلك طهارة حسية.

قال: وَأَمَّا قَوْلُهُ: {قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ}؛ فَقَدْ رُوِيَ عَنِ الْحَسَنِ فِي سَبَبِ نُزُولِهَا أَنَّ قَوْمًا ادَّعوا أَنَّهُمْ يحِبّون اللَّهَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ مِحْنَةً لَهُمْ.

فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ مِحْنَةً لَهُمْ: يعني: اختبارًا وابتلاءً, ولذلك هذه الآية تسمى بآية المحنة.

وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ قَدْ شَرَطَ اللَّهُ لمحبَّته اتِّبَاعَ نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَلاَ يَنَالُ تِلْكَ الْمُحَبَّةَ؛ إِلَّا مَنْ أَحْسَنَ الاِتِّبَاعَ وَالاِسْتِمْسَاكَ بِهَدْيِهِ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلاَمِ.

إذًا: هذه الآية حاكمة على كل من ادعى محبة الله عَزَّ وَجلَّ كما يقول ابن كثير في تفسير هذه الآية.

هذه الآية حاكمة على كل من ادعى محبة الله عَزَّ وَجلَّ, فشرط إثبات هذه المحبة أن يتابع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ, فهذا الشرط لابد منه, فإذا انتفى الشرط انتفى المشروط, فإذا أراد إنسان أن يُبرهن أو أن يُثبت محبته بطريقة غير سُنية سَنيَّة على خلاف هدي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصحبه نقول كذبت, إذا أردت أن تُثبت أنك تحب الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى فشرط ذلك أن تتابع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ولذلك يقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ: وكلما كان الرجل أتبعَ لمحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان أعظم توحيدًا لله وإخلاصًا له في الدين, وإذا بعُد عن متابعته نقُص من دينه بحسب ذلك, فإذا كثُر بُعْدُه عنه ظهر فيه من الشرك والبدع ما لا يظهر فيمن هو أقرب منه إلى اتباع الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فأهل البدع درجات, أبعدهم عن محبة الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى أبعدهم عن سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وكان من المنتظر أن يقال في تتمة هذه الآية: (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يثبُت صدق محبتكم) لكن تفضل الله عَزَّ وَجَلَّ بهذا الفضل العظيم وقال: {يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [آل عمران: 31].

قال: وَقَوْلُهُ: {وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ} [البروج: 14].

لماذا جاء بهذه الآية ضمن كلامه على صفة المحبة؟ لأن (الود) أحد درجات المحبة.

ولذلك جعل ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ المحبة مراتب تسعة:

أَوَّلُهَا: الْعَلاَقَةُ، وَهِيَ تَعَلُّقُ الْقَلْبِ بِالْمَحْبُوبِ.

الثَّانِيَةُ: الْإِرَادَةُ، وَهِيَ مَيْلُ الْقَلْبِ إِلَى مَحْبُوبِهِ وَطَلَبُهُ لَهُ.

الثَّالِثَةُ: الصَّبَابَةُ، وَهِيَ انْصِبَابُ الْقَلْبِ إِلَيْهِ بِحَيْثُ لَا يَمْلِكُهُ صَاحِبُهُ.

الرَّابِعَةُ: الْغَرَامُ، وَهِيَ الْحُبُّ اللاَّزِمُ لِلْقَلْبِ.

الْخَامِسَةُ: الْمَوَدَّةُ، وَهِيَ صَفْوُ الْمَحَبَّةِ وَخَالِصُهَا وَلُبُّهَا.

السَّادِسَةُ: الشَّغَفُ، وَهِيَ وُصُولُ الْمَحَبَّةِ إِلَى شَغَافِ الْقَلْبِ.

السَّابِعَةُ: الْعِشْقُ: وَهُوَ الْحُبُّ الْمُفْرِطُ الَّذِي يُخَافُ عَلَى صَاحِبِهِ مِنْهُ.

الثامنة: التَّتَيُّمُ، وَهُوَ بِمَعْنَى التَّعَبُّدِ.

التَّاسِعَةُ: الْخُلَّةُ، وَهِيَ الْمَحَبَّةُ الَّتِي تَخَلَّلَتْ رُوحَ الْمُحِبِّ وَقَلْبَهُ.

هل كل هذه المرتب تثبُت في حق الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى فيقال إن الله يود عبده؟

الطالب: نعم.

الشيخ: نعم, وهو الودود.

هل يقال: إن الله يعشق عبده؟ مُتيَّم بعبده؟ ما يجوز هذا.

إذًا: هذه المراتب لابد في إثباتها من نص وتوقيف, فنُثبت ما أثبته النص, ومن ذلك الخُلة, والمحبة, والمودة, والإرادة, فهذا كله ثابت لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

إذا قلنا أن هذه المراتب إذا رجعت إلى محبة العبد لربه هل تثبُت جميعًا للعبد فيقال إن العبد يعشق ربه؟

لا, ولذلك لا تثبُت كذلك هذه المراتب, كلها في حق محبة العبد لربه, لأن فيها شيئا من النقصان, وفيها لا ينبغي أن يكون مع جناب الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى, فالأمر كذلك يعود إلى التوقيف.

إذًا: الأمر فيما يتعلق بمحبة العبد لربه يعود إلى التوقيف, وفي محبة الرب لعبده كذلك يعود إلى التوقيف.

قال: قَوْلُهُ: {وَهُوَ الْغَفُورُ ...} إِلَخْ؛ تَضَمَّنَتِ الْآيَةُ إِثْبَاتَ اسْمَيْنِ مِنَ الْأَسْمَاءِ الْحُسْنَى، وَهُمَا: الْغَفُورُ، وَالْوَدُودُ.

وفي ذلك يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ:

وهو الغفور فلو أتى بقرابها — من غير شرك بل من العصيانِ
لاقاه بالغفران ملء قرابها — سبحانه هو واسع الغفرانِ

ويقول في اسمه (الودود):

وهو الودود يحبهم ويحبه — أحبابه والفضل للمنان

لأن سيأتي في معنى اسمه (الودود) أي: الوادّ, من الفعل (ودَّ) فاسم الفاعل (واد).

أو أن يكون الودود بمعنى مفعول, أي: مودود من قِبل خلقه, محبوب من قِبل خلقه.

ولذلك يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ:

وهو الودود يحبهم ويحبه أحبابه والفضل للمنان

لأن الذي أحبه هو الذي وفَّق لأن يُحب سُبْحَانَهُ وَتعَالَى, فالفضل له أولًا وأخرًا, والقلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن يُقلِّبها كيف شاء.

قال:

وهذا الذي جعل المحبة في قلو بهم وجازاهم بحب ثانِ

هذا هو الإحسان حقا لا معا وضة ولا لتوقع الشكرانِ

فالله عَزَّ وَجلَّ من أسمائه الغفور, وهو واسع المغفرة, فالعبد قد يغفر ذلة غيره ويعفو عنه ويسامحه, أما ربنا سُبْحَانَهُ وَتعَالَى فهو واسع المغفرة, {إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ} [النجم: 32].

وجاء في الحديث الإلهي أن الله عَزَّ وَجلَّ قال: **"يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطَايَا"**, ما معنى **"بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطَايَا"**؟ يعني: بما يقارب ملء الأرض خطايا, وهذا أمر عجيب.

هل يتصور في حق عبد أن يُخطئ على هذه الصورة؟

قال: **"ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً"**, وهذا من أعظم أحاديث الرجاء, والمؤمن يرجو ما عند ربه من الرحمة والمغفرة, لكنه لا يركن إلى ذلك ولا يأمن مكر الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى, ولذلك يسير إلى الله عَزَّ وَجلَّ بين جناحين: جناح الخوف وجناح الرجاء، ورأس ذلك المحبة.

قال: وَهُمَا: الْغَفُورُ، وَالْوَدُودُ.

أَمَّا الْأَوَّلُ: فَهُوَ مُبَالَغَةٌ فِي الْغَفْرِ، وَمَعْنَاهُ الَّذِي يَكْثُرُ مِنْهُ السَّتْرُ عَلَى الْمُذْنِبِينَ مِنْ عِبَادِهِ، وَالتَّجَاوُزُ عَنْ مُؤَاخَذَتِهِمْ, وَأَصْلُ الْغَفْرِ: السَّتْرُ، وَمِنْهُ يُقَالُ: الصَّبْغُ أَغْفَرُ لِلْوَسَخِ. وَمِنْهُ: الْمِغْفَرُ لِسُتْرَةِ الرَّأْسِ.

وَأَمَّا الثَّانِي: فَهُوَ مِنَ الودِّ الَّذِي هُوَ خَالِصُ الْحُبِّ وَأَلْطَفُهُ، وَهُوَ إِمَّا مِنْ فَعُولٍ بِمَعْنَى فَاعِلٍ، فَيَكُونُ مَعْنَاهُ: الْكَثِيرُ الْوُدِّ لِأَهْلِ طَاعَتِهِ، وَالْمُتَقَرِّبُ إِلَيْهِمْ بِنَصْرِهِ لَهُمْ وَمَعُونَتِهِ, وَإِمَّا مِنْ فَعُولٍ بِمَعْنَى مَفْعُولٍ، فَيَكُونُ مَعْنَاهُ: الْمَوْدُودُ لِكَثْرَةِ إِحْسَانِهِ، المستَحِقُّ لِأَنْ يَوَدَّه خَلْقُهُ فَيَعْبُدُوهُ وَيَحْمَدُوهُ.

وإذا كان الودود بمعنى المودود فما معنى (الود) في لغة العرب؟ صفو المحبة وخالصها ولُبُّها, وهذا فيه اشتراط أن تكون المحبة خالصة لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

وقد نعى الله عَزَّ وَجلَّ على المشركين, {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ} [البقرة: 165], أي: إن محبتهم خالصة لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

وهم يحبون الله ولله وفي الله, فمن أحب لله, وأعطى لله, ومنع لله فقد استكمل عُرى الإيمان, كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **"أوثق عُرى الإيمان: أن تُحِب في الله, وأن تُبغض في الله, وأن تُعطي في الله, وأن تمنع في الله"**, فمن فعل ذلك فقد استكمل عُرى الإيمان, أو كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وكذلك جاء في الصحيحين: **"ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَّ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ: مَنْ كَانَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ أَنْ أَنْقَذَهُ اللهُ مِنْهُ، كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ"**.

فهذه الآيات التي ذكرها المصنف رَحِمَهُ اللهُ كما نرى فيها الدلالة على إثبات صفة المحبة لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى, وهي من الصفات الفعلية, تتعلق بحكمة الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى ومشيئته.

فأهل السنة والجماعة يقولون: إن الله يحب ويرضى, وهذا ثابت في الكتاب والسنة.

ويقولون: إن المحبة والرضا أخص من الإرادة, لأن الإرادة أعم, منها: إرادة كونية قدرية, وإرادة شرعية, وهذا فيه رد على الأشعرية.

فالله عَزَّ وَجلَّ لا يحب الكفر والفسوق والعصيان ولا يرضاه, وإن كان كل ذلك داخلاً في مراده كما دخلت سائر المخلوقات, أي: في مراده الكوني القدري, لكن لم يدخل في مراده الشرعي سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

هذه الصفة –أعني صفة المحبة- منها الخُلة كذلك, ولها دليلها في كتاب الله وفي سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ولو أن الشيخ ذكر كذلك الدليل عليها لكان قد جمع بين المراتب الثابتة لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

ولذلك قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ وهو يتكلم عن هذه الآيات, قال: وأتمنى لو أن المؤلف رَحِمَهُ اللهُ أضاف آية تاسعة في المحبة وهي الخُلة, لقوله تعالى: {وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً} [النساء: 125], والخليل: هو من كان في أعلى المحبة.

فالخُلة أعلى أنواع المحبة, لأن الخليل هو الذي وصل حبه إلى سويداء القلب وتخلل مجاري عروقه -هذا بأصل وضع اللغة- وليس فوق الخُلة شيء من أنواع المحبة أبدًا.

فالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يحب أصحابه كلهم, لكن ما تخذ واحدًا منهم أبدًا, قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو يخطب الناس: "لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أُمَّتِي خَلِيلاً لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ", وأبو بكر هو من أحب الناس إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ, لكن لم يصل إلى درجة الخُلة, لأن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يتخذ أحدًا خليلاً.

لماذا لم يتخذ أحدًا خليلاً؟ قال: "إِنَّ اللَّهَ اتَّخَذَنِي خَلِيلاً كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً".

ولذلك من الخطأ ما نراه في كلام بعض الناس: أن يصف النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأنه حبيب الرحمن, أو حبيب الله, وهذا فيه انتقاص لقدر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ, بل هو خليل الله, كما أن إبراهيم عَليهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمَ هو خليل الله.

النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نُهي عن اتخاذ الخليل ولم يتخذ خليلاً, وجاء في لسان بعض الصحابة أنهم كانوا يقولون: " أوصاني خليلي", كما في حديث أبي الدرداء وأبي ذر, فكيف نجمع بين "أوصاني خليلي", وعدم اتخاذ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خليلاً من أصحابه؟

الطالب: الخلة هنا بمعنى الصاحب.

الطالب: النبي لم يتخذه خليلاً, هو الذي اتخذ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خليلاً.

الشيخ: إذًا: المنهي هو أن يتخذ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أحدًا خليلاً, ولا بأس أن يتخذ الصحابة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خليلاً, فهذا لا بأس به.

هذه الصفة -أعني صفة المحبة ومنها الخُلة- هي أول البدع التي أنكرها أهل البدع من صفات الرحمن تَبَارَكَ وَتَعَالَى, وكان الذي قام بذلك الجعد بن درهم, والجعد شيخ الجهم بن صفوان والجعد بن درهم ظهر في أواخر دولة بني أمية, وكان مُعلم أخر ملوك بني أمية وهو مروان بن محمد, وكان استاذه ومعلمه, ولذلك لُقِّب بـ(مروان الحمار).

وقد بين شيخ الإسلام ابن تيمية أن من أسباب سقوط دولة بني أمية انتشار البدع في أخرها, ويكفي أن معلم مروان بن محمد كان الجعد بن درهم.

ماذا فعل الجعد بن درهم؟ أنكر أن يكون الله عَزَّ وَجلَّ قد اتخذ إبراهيم خليلاً أو كلم موسى تكليمًا.

ولذلك جاء به خالد بن عبد الله القسري رَحِمَهُ اللهُ وأوثقه في يوم عيد الأضحى وخطب الناس, وقال: أَيُّهَا النَّاسُ ضَحُّوا، تَقَبَّلَ اللَّهُ ضَحَايَاكُمْ، فَإِنِّي مُضَحٍّ بِالْجَعْدِ بْنِ دِرْهَمٍ، إِنَّهُ زَعَمَ أَنَّ اللَّهَ لَمْ يَتَّخِذْ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً، وَلَمْ يُكَلِّمْ مُوسَى تَكْلِيمًا، ثم نزل فذبحه, وشكر أهل العلم له ذلك من أهل السنة والجماعة.

وفي هذا يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ في نونيته:

ولأجل ذا ضحى بجعد خالد	**ـقسري يـوم ذبـائح القربـانِ**
إذ قـال إبـراهيم لـيس خليلـه	**كـلا ولا موسى الكليم الـداني**
شكر الضحية كل صاحب سنة	**لله درك مـــن أخـــي قربـــانِ**

هذه الصفة هل يُثبتها أهل البدع؟ يعني: هل يُثبت الأشعرية ومن قبلهم المعتزلة وغير هؤلاء من أهل البدع, هل يثبتون أن الله عَزَّ وَجلَّ يُحِب؟ لا يُثبتون ذلك.

هل يُثبتون أن الله يُحَب؟ نعم, يثبتون أن الله يُحَب, وأن المؤمن يُحب ربه تَبَارَكَ وَتَعَالَى, أما أن الله عَزَّ وَجلَّ يُحِب فهذا لا يُثبتونه.

قلنا: لأن المحبة صفة فعل تتعلق بالسبب, إذا وجد السبب وجدت الصفة, وإذا انتفى السبب انتفت الصفة.

فالله عَزَّ وَجلَّ يُحب المؤمن ويُبغض الكافر, يُحب الطائع ويُبغض العاصي, وهم لا يقولون بذلك, لأن هذا يقتضي حلول الحوادث بالله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى, وما لا يخلو من الحوادث فهو حادث.

هذا بالنسبة للأشعرية.

وأما المعتزلة فإنهم يقولون: إن الله زم لا يُحِب ولا يتصف بشيء من الصفات, وإنما ما جاء من أسمائه فهي أسماء وأعلام محضة لا تدل على صفة لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

ثم هؤلاء كذلك يقولون -أعني الأشعرية-: إن الله عَزَّ وَجلَّ لا يُحب, لماذا لا يُحب؟ لأن المحبة لا تكون إلا بين متجانسين متماثلين شبيهين, فالمخلوق يُحب المخلوق, فلو أثبتنا أن الله عَزَّ وَجلَّ يُحب خلقه لشبهناه بخلقه, فلا تكون هذا العلاقة أو هذا الحب بين الخالق والمخلوق, لكن لا بأس أن تكون بين المخلوقات, لأن المحبة -كما قلنا- تقتضي المجانسة.

الشيخ ابن عثيمين له رد طيب, يقول: الإنسان عنده ساعة قديمة, ما أتعبته بالصيانة يومًا وما فسدت عليه قط, فتجده يُحبها, وعنده ساعة تأخذ منه نصف وقته في التصليح, فتجده يبغضها, وأيضًا نجد أن البهائم تُحِب وتُحَب, فنحن ولله الحمد نُثبت لله المحبة بينه وبين عباده.

ولذلك يقول: إن هذه الشبهة شبهة عليلة, ويكفي في ردها أن الكتاب والسنة قد جاء بإثباتها, وأن الإجماع قد قام على ذلك.

يقول الشيخ عبد العزيز سلمان رَحِمَهُ اللهُ في شرحه على الواسطية, يقول: أنكرت الجهمية والمعتزلة ومن وافقهم محبة الله, وقالوا: المحبة لا تكون إلا بين متناسبين –يعني: متجانسين كما قال الشيخ ابن عثيمين– وبهذه الشبهة الفاسدة رد صفة من صفات الله الثابتة له.

قال الإمام أحمد: لا نزيل عن الله صفة من صفاته لأجل شناعة المشنِّعين, والمناسبة لفظ مجمل.

ماذا تعني بالمناسبة؟ وعادة أهل البدعة الإجمال دائمًا, الركون إلى الألفاظ المجملة, ثم يفسرونها بهذه الألفاظ بغير ما هو معروف عنها في لغة العرب, يقولون: جسم وعرض وجوهر وحيّز.

هذه ألفاظ لها معنى في لغة العرب, هم ما أرادوا المعنى الموجود في لغة العرب, لكن أحدثوا معاني وعرضوا الكتاب والسنة عليها.

قالوا: والمناسبة لفظ مجمل, فإنه قد يراد به التوالد والقرابة, يقال: هذا نسيب فلان, ويناسبه إذا كان بينهم قرابة مستندة إلى الولادة والآدمية, والله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى منزه عن ذلك, ويراد بها المماثلة, فيقال: هذا يناسب هذا أي: يماثله, والله

سُبْحَانَهُ وَتعَالَى أحدٌ صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد, ويراد بها الموافقة في معنى من المعاني وضدها المخالفة.

إذًا: المناسبة يراد بها أمور ثلاثة, أيُّ هذه المعاني هو الحق؟ قال: ويراد بها الموافقة في معنى من المعاني وضدها المخالفة, والمناسبة بهذا الاعتبار ثابتة, فإن أولياء الله تعالى يوافقونه فيما يأمر به فيفعلونه, وفيما يحبه فيحبونه, وفيما نهى عنه فيتركونه, وفيما يعطيه فيصيبونه, والله وتر يحب الوتر, جميل يحب الجمال, نظيف يحب النظافة, محسن يحب المحسنين.

من هذه أسماء ثابته لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى, ومنها ما يجوز الإخبار عن الله عَزَّ وَجلَّ به.

مقسط يُحب المقسطين, إلى غير ذلك من المعاني, فإذا أريد بالمناسبة هذا وأمثاله فهذه المناسبة حق, وهي من صفات الكمال, فإن من يُحب صفات الكمال أكمل ممن لا فرق عنده بين صفات النقص والكمال, أو لا يُحب صفات الكمال.

وإذا قُدِّر موجودان, أحدهما: يُحب العلم والصدق والعدل والإحسان ونحو ذلك, والآخر: لا فرق عنده بين هذه الأمور وبين الجهل والكذب والظلم ونحو ذلك, لا يحب هذا ولا يبغض هذا كان الذي يحب تلك الأمور أكمل من هذا.

فالله عَزَّ وَجلَّ إذا أحب المتقين والمقسطين والمحسنين فلا شك أن هذا من كماله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

فأهل السنة والجماعة يُثبتون لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى ما أثبته لنفسه من صفات الكمال, ومن ذلك صفة المحبة.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم, وجزاكم الله خيرًا.

الدرس السادس عشر

إن الحمد لله, نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله تعالى من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله, صلى الله عليه, وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد:

فقد وصلنا إلى الآيات التي ذكرها المصنف رَحِمَهُ اللهُ في بيان صفة الرحمة، وأن الله عَزَّ وَجلَّ متصف بهذه الصفة على ما يليق به سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

فقال رَحِمَهُ اللهُ: وَقَوْلهُ: {بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ}.

وَقَوْلُهُ: {رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا} [غافر: 7].

وَقَوْلُهُ: {وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا} [الأحزاب: 43].

وَقَوْلُهُ: {وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ} [الأعراف: 156].

وَقَوْلُهُ: {كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ} [الأنعام: 54].

وَقَوْلُهُ: {وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} [الأحقاف: 8], [يونس: 107].

وَقَوْلُهُ: {فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ} [يوسف: 64].

هذه الآيات ساقها المصنف رَحِمَهُ اللهُ في العقيدة الواسطية لبيان أن الله عَزَّ وَجلَّ موصوف بالرحمة، فالرحمة صفة ذات وصفة فِعل له سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

ولذلك كان من أسمائه: الرحمن والرحيم.

فـ(الرحمن): أي: ذو الرحمة الواسعة، وهي صفة ذات، فرحمته لا تنفك عنه أزلا وأبدًا سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، وهي من صفات جماله.

و(الرحيم): أي: ذو الرحمة الواصلة، أي: يوصلها لمن يشاء من خلقه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، فهي صفة فعل.

وقد تنوعت الألفاظ التي جاءت في بيان هذه الصفة، فجاء الاسم منها، وجاءت الصفة، وجاء القدْر المشترك بين ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى والمخلوقين.

فسمى الله عَزَّ وَجلَّ نفسه الرحمن الرحيم؛ كما في هذه الآية التي ذكرها المصنف رَحِمَهُ اللهُ: {بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ}.

وكذلك وصف نفسه بأنه يرحم، ووصفه كذلك نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وذكر أنه أرحم الراحمين.

ولا شك أن الرحمة من صفات الخلق، والله عَزَّ وَجلَّ كذلك من صفاته الرحمة، لكن الفرق بين رحمة الخلق ورحمة الخالق؛ كالفرق بين ذات الخالق وذات المخلوق، فالصفة على قدر الموصوف.

فالله عَزَّ وَجلَّ وصف نفسه بالرحمة في كتاب الله وفي سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومن ذلك قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "ارْحَمُوا مَنْ فِي الْأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ"، وقال: "الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمْ الرَّحْمَنُ"، في نفس الحديث؛ فربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى موصوف بالرحمة، وعلى هذا إجماع أهل السنة والجماعة.

أما أهل البدع فإنهم يردون هذه الصفة ولا يثبتونها لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لكن لما كانت عقولهم مختلفة كانت طريقتهم في رد هذه الصفة كذلك مختلفة.

فالجهمية لا يثبتون أسماء الله ولا صفاته، ومن ثَمَّ فإنهم لا يثبتون الرحمة لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، ويقولون: إن الرحمة التي وصف بها الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى رحمة

مخلوقة، فيفسرون الرحمة بالمخلوقات المنفصلة، يفسرونها بالمرحوم نفسه، ولا يجعلونها صفة لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

وأما المعتزلة؛ فإنهم يثبتون الأسماء دون الصفات؛ ولذلك لا يثبتون الرحمة صفة لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، ويقولون: إن الرحمة مجاز عن إنعامه تَبَارَكَ وَتَعَالَى، فإذا ذُكرت الرحمة؛ فهذا معناه أن الله يُنعم على خلقه، فيفسرون الرحمة بأثرها، يفسرون الصفة بأثرها.

فإن من آثار رحمة الله عَزَّ وَجلَّ أن يُنعم على خلقه، فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يُحيي الأرض بعد موتها؛ فهذا من آثار رحمته سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، ومن آثار ربوبيته.

فجعلوا معنى الرحمة ما هو من آثار ربوبية الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، فمعنى كون الرب يرحم عباده، أي: أنه يُنعم عليهم.

وأما الأشعرية؛ فهؤلاء اختلفوا على قولين:

فمنهم من قال بقول المعتزلة، ونحن نعلم أن الأشعرية مخانيث المعتزلة، هكذا سماهم أهل السنة والجماعة؛ لأنهم في أغلب أقوالهم يوافقون المعتزلة، لكن المعتزلة كانوا أكثر جُرأة من هؤلاء.

فالأشعرية لهم قول كقول المعتزلة، فهم يقولون كذلك: إن الرحمة مجاز عن إنعام ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى، ويفسرونها بأثر هذه الصفة.

ولهم قول آخر يقولون: إن مرد هذه الصفات إلى الإرادة، أي: صفات الرحمة والفرح والغضب والانتقام كلها ترجع إلى الإرادة، فيقولون معنى أنه يرحم؛ أنه

يريد أن يُثيب العباد، فيؤولونها، ومعنى أنه يغضب؛ أي: يريد أن ينتقم وأن يعاقب.

وهكذا في سائر هذه الصفات وفي كل صفة توهموا أنها لا تليق بالله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، فإنهم يردون هذه الصفة إلى صفات سبعة، يقولون: إن هذه الصفات دل عليها العقل أنها تثبت لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

ومن هذه الصفات: الإرادة، فردوا هذه الصفات إلى صفة الإرادة, فيتأولونها بإرادة الإنعام.

ولا شك أن هذه الأقوال كلها أقوال باطلة مخالفة لكتاب الله وسنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وما عليه سلف الأمة.

لكن ما الذي حمل هؤلاء على تأويل هذه الصفة؟

يقولون: إن الرحمة ضعف وخَوَر وتألم على المرحوم، فلو أثبتناها لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى لأثبتنا النقص, والله عَزَّ وَجلَّ منزه عن النقص سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

وهذه الشُبهة رد عليها شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ في مجموع الرسائل والمسائل، فقال: هذا الزعم باطل من وجوه:

- أما الوجه الأول: فلأن الضعف والخَوَر مذموم من الآدميين، والرحمة ممدوحة، فليست الرحمة هي الضعف والخَوَر؛ فأنت تمدح من يرحم الخلق، وتذم الضعيف الجبان.

والله عَزَّ وَجلَّ قال في كتابه: {وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ} [البلد: 17]؛ فهنا أمر بالرحمة.

وفي آية أخرى قال: {وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنتُم مُّؤْمِنِينَ} [آل عمران: 139]؛ فنهى عن الحزن والضعف والوهم.

وقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "لَا تُنْزَعُ الرَّحْمَةُ إِلَّا مِنْ شَقِيٍّ"، ولو كانت الرحمة صفة ذم لما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذا القول.

وقال: "مَنْ لَا يَرْحَمُ لَا يُرْحَمُ".

وقال: "ارْحَمُوا مَنْ فِي الْأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ".

فهذا يدل على أن قولهم هذا قول لا يصح.

- ويُردُّ عليهم أيضًا بأننا لو قدرنا أنها في حق المخلوقين مستلزمة لهذا الذي ذكروه من الضعف والخور والتألم على المرحوم؛ فهذا لا يجب أن يكون في حق الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى؛ للقاعدة عندنا: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} [الشورى: 11]، سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

وللقاعدة التي ذكرها الخطابي فمن جاء بعده: أن القول في الصفات كالقول في الذات.

فكما أن ذاته لا تُشبه ذوات المخلوقين؛ فكذلك صفاته لا تشبه صفات المخلوقين.

- ثم يُقال لهؤلاء: إنكم تثبتون لله عَزَّ وَجلَّ العلم والقدرة والسمع والبصر والكلام، وهذه صفات ثابتة للمخلوق، فلماذا أثبتموها لله وهي على قولكم من صفات المخلوق؟

فتراهم يقولون: لأن هذه الصفات المضافة لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى التي اتصف تفارق صفات المخلوقين، فكذلك باقي الصفات ينبغي أن يكون الباب واحدا.

- ويُقال كذلك: إننا نعلم بالاضطرار أننا إذا فرضنا موجودين, أحدهما يرحم غيره, فيجلب له المنفعة ويدفع عنه المضرة، والآخر قد استوى عنده هذا وهذا.

عندنا شخصان، الأول يرحم الناس فيدفع عنهم المضرة ويجلب إليهم المنفعة، وشخص آخر استوى عنده الأمران، وليس عنده ما يقتضي لا جلب المنفعة ولا دفع المضرة، أيهما أكمل؟ لا شك أن الأول أكمل من الثاني.

وتأول بعضهم كذلك الرحمة كما قلنا: بإرادة الإنعام والإحسان، وقلنا: هذا قول الأشعرية؛ فإنهم هم الذين تأولوا، وهذا يُرد عليه أولًا بماذا؟

بأن هذا خلاف ما ورد في كتاب الله وفي سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلم يرد قط لا في كتاب الله ولا في سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن الرحمة تعني إرادة الإحسان، بل هي ثابتة على الحقيقة لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، ثم إن إرادة الإحسان لا تنفك الرحمة، فما المانع من أن نثبت الرحمة وأن نثبت أثر الرحمة؟ وكل ذلك ثابت لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

فالصحيح: أن الرحمة صفة لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

والرحمة تنقسم: فهناك رحمة عامة، ورحمة خاصة.

- أما الرحمة العامة: فهي التي قال الله عَزَّ وَجلَّ فيها: {وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ} [الأعراف: 156]، وهذه الآية يستدل بها أهل الباطل على إيمان النصارى، وعلى أنهم من أهل النجاة في الآخرة.

يقولون: كيف تحجرون واسعا وتضيقون الرحمة والله عَزَّ وَجلَّ قال: {وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ}؟ و(كل) من ألفاظ العموم، فلا يبقى شيء إلا ويدخل تحت هذه الكلية.

{رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا} [غافر: 7]، أليست هذه آية في كتاب الله؟

نعم، هي جزء آية. نقول له: أكمل الآية، قال تعالى: {وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ (156) الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ}.

إذًا: الآية في الرد على اليهود والنصارى، وفي بيان أن النجاة لا تكون إلا بمتابعة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لكن حال هؤلاء كحال الذي قرأ: {فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ} [الماعون: 4]، ولم يُكمل.

فهذه الرحمة -التي هي رحمة عامة- والتي يدخل فيها المسلم والكافر والبر والفاجر والبهائم وسائر الخلق؛ هذه في الدنيا، هذه رحمة الدنيا؛ لأن هذا من آثار ربوبيته سُبْحَانَهُ وَتعالَى.

من الذي خلق الخلق؟ من ربهم؟ ما معنى الرب؟ أي: الذي ربى خلقه على ما يُنعم عليهم من النعم؛ فهذا من مقتضى ربوبيته سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

فالإنعام هاهنا والرحمة هاهنا رحمة عامة؛ يدخل فيها الطعام والشراب والأرزاق وصحة الأبدان، هذا كله من رحمة الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، لكن هذا من الرحمة العامة.

● والقسم الآخر وهي: الرحمة الخاصة؛ وهذه لا تكون إلا للمؤمنين وأولياء الله الصالحين, ويأتي على رأسهم الأنبياء والمرسلون؛ ولذلك قال تعالى: {وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا} [الأحزاب: 43]؛ وهنا تقديم وتأخير.

{وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا}، أي: لا يرحم غيرهم في الآخرة، فالنجاة في الآخرة لا تكون إلا لأهل التوحيد.

كما أن الرحمة كذلك تنقسم إلى قسمين آخرين: فهناك رحمة هي صفة لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، ورحمة مخلوقة.

- أما الرحمة المخلوقة: فهي التي ترد في النصوص من إضافة المفعول إلى فاعله، من إضافة المخلوق إلى خالقه، فهذه رحمة مخلوقة؛ كقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "احْتَجَّتِ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ".

فقال الله عَزَّ وَجلَّ للجنة: "إِنَّمَا أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ".

فالجنة رحمة الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، لكن هل هي صفة لله؟ الجنة مخلوقة، فهذه الرحمة المضافة إلى الله عَزَّ وَجلَّ من قول الله تعالى: "أَنْتِ رَحْمَتِي"، هي من إضافة المفعول، أي: المخلوق إلى خالقه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

لماذا سميت الجنة رحمة؟ لأنها خُلقت بالرحمة وللرحمة، لأنها خُلقت بالرحمة لأنها من آثار رحمة الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، وخُلقت للرحمة؛ ولذلك الجنة كلها رحمة, ليس فيها شيء قط يُنغِّص على المؤمنين.

ولذلك أهل الجنة لا يمرضون ولا ينامون ولا يهرمون ولا يبولون ولا يتغوطون، ليس عندهم نوم, إنما هو نعيم، {عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ} [هود: 108]؛ كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

ومن ذلك أيضًا وهذا الحديث صريح في أن من الرحمة ما هو مخلوق، قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿خَلَقَ اللهُ الرَّحمةَ يَوْمَ خَلَقَهَا مِائَةَ رَحْمَة﴾.

ومنه كذلك قول الله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ} [الأعراف: 57]، يعني: المطر، فالمطر من رحمة الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

- أما القسم الآخر: فهو الرحمة التي هي صفة لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، فإذا أُضيفت إلى الله عَزَّ وَجلَّ فهذا من إضافة الصفة إلى الموصوف، ومنه قول الله تعالى: {إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ} [الأعراف: 56].

يدل على أن هذه الرحمة غير مخلوقة أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سأل ربه بها، ولا يجوز السؤال بالمخلوق؛ فهذا يدل على أن الرحمة الواردة في هذا الدعاء هي صفة ربنا تَبَارَكَ وَتعَالَى.

ولهذا ذكرنا هذا من قبل أن المضاف إلى الله عَزَّ وَجلَّ إما أن يكون عينًا أو وصفًا، الذي يُضاف إلى الله عَزَّ وَجلَّ في كتابه وفي سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إما أن يكون عينًا قائمة بنفسها، أو وصفًا.

فإن كانت عينًا فهذا من إضافة المخلوق إلى الخالق؛ كناقة الله، وبيت الله؛ فهذا من إضافة المخلوق إلى الخالق، وهذه الإضافة تقتضي التشريف.

وقد تقتضي في بعض المواضع المِلك؛ كعباد الله، فالعبودية تأتي أحيانًا في كتاب الله ويُراد بها عبودية الاضطرار، وليست عبودية الاختيار، فالإضافة هاهنا إضافة مِلك، وإضافة مخلوق إلى خالق.

أما إذا كان المضاف صفة؛ فهذا من إضافة الصفة إلى الموصوف.

السؤال: العين قائمة بنفسها أو لا تقوم بنفسها؟

الجواب: العين تقوم بنفسها، العين يعني: الذات.

الطالب: أقصد اليد والعين.......

الشيخ: اليد والعين صفة لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى, هذه صفة، سواء كانت صفة معنوية؛ كالعلم والقدرة وغير ذلك، أو صفة هي أبعاض وأجزاء بالنسبة لنا، وهي التي تسمى بالصفات الخبرية، ومنها: العين واليد, وغير ذلك من الصفات الثابتة لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، فهذه من إضافة الصفة إلى الموصوف.

قال الشيخ الهراس رَحِمَهُ اللهُ: وَأَمَّا قَوْلُهُ: {بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ}, وَمَا بَعْدَهَا مِنَ الْآيَاتِ؛ فَقَدْ تَضَمَّنَتْ إِثْبَاتَ اسْمَيْهِ الرَّحْمَنِ وَالرَّحِيمِ، وَإِثْبَاتَ صِفَتَي الرَّحْمَةِ وَالْعِلْمِ.

فأثبتت اسم الله الرحمن والرحيم، وكذلك الرحمة والعلم، يعني: {رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا}.

قال: وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي تَفْسِيرِ {بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ} الْكَلَامُ عَلَى هَذَيْنِ الِاسْمَيْنِ، وَبَيَانُ الْفَرْقِ بَيْنَهُمَا، وَأَنَّ أَوَّلَهُمَا دالٌّ عَلَى صِفَةِ الذَّاتِ.

الذي هو اسم الرحمن، فهو يدل على أن الله عَزَّ وَجلَّ موصوف أبدًا بصفة الرحمة، فهو ذو الرحمة الواسعة.

وَالثَّانِيَ -الرحيم- دالٌّ عَلَى صِفَةِ الْفِعْلِ.

وَقَدْ أَنْكَرَتِ الْأَشَاعِرَةُ وَالْمُعْتَزِلَةُ صِفَةَ الرَّحْمَةِ بِدَعْوَى أَنَّهَا فِي الْمَخْلُوقِ ضعفٌ وخَوَرٌ وتألُّمٌ لِلْمَرْحُومِ، وَهَذَا مِنْ أَقْبَحِ الْجَهْلِ، فَإِنَّ الرَّحْمَةَ إِنَّمَا تَكُونُ مِنَ الْأَقْوِيَاءِ لِلضُّعَفَاءِ، فلاَ تَسْتَلْزِمُ ضَعْفًا وَلَا خَوَرًا.

ولذلك كم وجدنا من أقوياء وهم رحماء، وكم وجدنا من جبناء ضعفاء ولا رحمة في قلوبهم, بل هي القسوة، هذا موجود، فليست القاعدة مضطردة كما يزعم هؤلاء, بَلْ قَدْ تَكُونُ مَعَ غَايَةِ الْعِزَّةِ وَالْقُدْرَةِ.

قد تكون الرحمة مع غاية العزة والقدرة.

فَالْإِنْسَانُ الْقَوِيُّ يَرْحَمُ وَلَدَهُ الصَّغِيرَ وَأَبَوَيْهِ الْكَبِيرَيْنِ ومَن هُوَ أَضْعَفُ مِنْهُ، وَأَيْنَ الضَّعْفُ وَالْخَوَرُ. وَهُمَا مِنْ أَذَمِّ الصِّفَاتِ. مِنَ الرَّحْمَةِ الَّتِي وَصَفَ اللَّهُ نَفْسَهُ بِهَا، وَأَثْنَى عَلَى أَوْلِيَائِهِ الْمُتَّصِّفِينَ بِهَا وَأَمَرَهُمْ أَنْ يتواصَوْا بِهَا؟!.

كما ذكرنا في هذه الآيات التي معنا.

وهذه الآية التي ذكرها وهي: {بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ}.

الصحيح: أنها آية من القرآن، وأنها آية مستقلة في صدر كل سورة، وليست من تعداد السور، والخلاف واقع في سورة الفاتحة، فمنهم من قال: هي آية من سورة الفاتحة، ومنهم من قال: ليست آية من سورة الفاتحة، ولذلك يقسِم الآية الأخيرة.

والشيخ الألباني رَحِمَهُ اللهُ حسَّن حديثًا عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يقول فيه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "وَبِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ آيَة مِنَ الفَاتِحَة"، والمسألة خلاف بين أهل العلم.

هذه الآية: {بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ}؛ فيها إثبات النبوات.

أين إثبات النبوات؟ {بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ}؛ ظاهر فيها إثبات اسم الله والرحمن والرحيم، وفيها أكثر من جهة على إثبات النبوات.

الجهة الأولى: من اسمه الله، أي: المعبود محبة وتعظيمًا، هذا معنى الله، يعني: ذو العبودية والألوهية على خلقه.

كيف نعرف أنه يستحق العبودية إلا من طريق الأنبياء والمرسلين؟ فهذا فيه إثبات النبوة، ومن اسمه الرحمن.

كما يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: فرحمته تمنع إهمال عباده وعدم تعريفهم ما ينالون به غاية السعادة.

فهذا كذلك مما يدل على إثبات النبوة؛ ولذلك كان من آثار هذه الرحمة أن أرسل الله عَزَّ وَجلَّ الرسل وأنزل الكتب، وهذا لا شك أنه أعظم من إنزال المطر والغيث وإخراج النبات، إلى غير ذلك مما ذكره رَحِمَهُ اللهُ.

فالآية الأولى التي معنا وهي هذه الآية.

وأما الآية الثانية فقال: {رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا} [غافر: 7].

وهذه الآية من دعاء الملائكة للمؤمنين، وهذا يبين لنا عظمة الإيمان؛ لأن الملائكة يدعون للمؤمنين، الملائكة الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون للذين آمنوا.

وهؤلاء الملائكة يُسميهم أهل العلم بالملائكة الكروبيين، وهذه التسمية لم ترد لا في كتاب الله ولا في سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ولكن بعض أهل العلم قال: إن هذا الاسم يرجع إلى الكرب وإلى الشدة, وإلى ما هم فيه من اهتمام بحال المؤمنين, وأنهم يستغفرون لهم ويسألون الله عَزَّ وَجلَّ أن يغفر لهم، وأن يرزقهم الفوز العظيم, أما التسمية من قِبل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فهذه لم ترد.

كما أن تسمية خازن الجنة برضوان؛ هذه كذلك لم ترد، وتسمية ملك الموت بعزرائيل؛ هذه كذلك لم ترد, اسمه ملك الموت.

فقوله: {رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا} [غافر: 7].

قال: هذا مِنْ كَلاَمِ اللَّهِ عز وجل حِكَايَةً عَنْ حَمَلَةِ الْعَرْشِ وَالَّذِينَ حَوْلَهُ، يتوسَّلون إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجلَّ بِرُبُوبِيَّتِهِ وَسَعَةِ عِلْمِهِ وَرَحْمَتِهِ فِي دُعَائِهِمْ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَهُوَ مِنْ أَحْسَنِ التوسُّلات الَّتِي يُرْجَى مَعَهَا الْإِجَابَةُ.

لأنهم توسلوا بصفة الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، ثم بعد ذلك دعوا لعباد الله المؤمنين.

قال: وَنَصَبَ قَوْلَهُ: {رَّحْمَةً وَعِلْمًا} عَلَى التَّمْيِيزِ المحوَّل عَنِ الْفَاعِلِ.

فالتمييز نوعان: تمييز نسبة، وتمييز محول.

التمييز المحول؛ أي: أنه قبل أن يكون تمييزًا -قبل أن تكون هذه اللفظة تمييزًا- تفسر ما انبهم من الذوات؛ فإن هذه اللفظة كان لها موقع في الجملة، وهذا الموقع قد يكون مبتدأً، قد يكون فاعلاً، قد يكون مفعولًا, وهذا ورد في كتاب الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى: {فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا} [الكهف: 34].

{أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا}، (مالًا): تمييز محول عن ماذا؟ عن مبتدأ، أي: مالي أكثر من مالك.

قال تعالى: {وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا} [القمر: 12]، فـ(عُيُونًا) كذلك تمييز، تمييز محول عن مفعول، لأن أصل الجملة: وفجرنا عيون الأرض، لكن أيهما أبلغ؟

{وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا}؛ كأن الأرض كلها صارت عيونًا، أما فجرنا عيون الأرض؛ لم ينفجر إلا ما يصدُق عليه أنه عين.

{وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا} [مريم: 4]، (شيبًا): تمييز محول عن فاعل، أصلها: واشتعل شيب الرأس.

ما الفرق بين واشتعل شيب الرأس، {وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا}؟

لأن اشتعل شيب الرأس؛ هذا فيه الكلام فقط عما شاب من الشعر، لكن: { وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا}؛ يعني: صار كل الشعر شيبًا.

قال: وَنَصب قَوْلَهُ: {رَّحْمَةً وَعِلْمًا} عَلَى التَّمْيِيزِ المحوَّل عَنِ الْفَاعِلِ، وَالتَّقْدِيرُ: وَسِعَتْ رحمتُك وعلمُك كُلَّ شَيْءٍ.

فـ(رحمتك) فاعل.

قال: فَرَحْمَتُهُ سُبْحَانَهُ وَسِعَتْ فِي الدُّنْيَا الْمُؤْمِنَ وَالْكَافِرَ وَالْبَرَّ وَالْفَاجِرَ، وَلَكِنَّهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ تَكُونُ خَاصَّةً بالمتَّقين؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: {فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ...} [الأعراف: 156].

وقد يراد بالزكاة هاهنا، قول: (لا إله إلا الله)، والسورة مكية، ولم تكن الزكاة قد فُرضت بعد على قول بعض أهل العلم، فإن كان بعض أهل العلم قال: فُرضت في مكة وبُين أنصبتها بمدينة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ, لكن قد تكون الزكاة هاهنا بمعنى: التوحيد؛ فهو أعظم الزكاة.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: {كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ} [الأنعام: 54].

{كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ}.

ما معنى (كَتَبَ)؟ أَيْ: أَوْجَبَهَا عَلَى نَفْسِهِ تفضُّلاً وَإِحْسَانًا، وَلَمْ يُوجِبْهَا عَلَيْهِ أحدٌ.

ما نوع الكتابة هاهنا عباد الله؟ {كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ}، ما نوع الكتابة هاهنا شرعية أم كونية قدرية؟ الكتابة هاهنا كتابة كونية قدرية.

قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إن الله لما خلق الخلق: "إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ كِتَابًا فَهُوَ مَوْضُوعٌ عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ: إِنَّ رَحْمَتِي تَغْلِبُ غَضَبِي"؛ فهذا واقع من قِبل الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى؛ أن رحمته تسبق غضبه.

قلنا: الكتابة الشرعية لا تستلزم الوقوع، لكن ما كتبه الله عَزَّ وَجلَّ, وأوجبه على نفسه تفضلاً منه؛ فهذا هو الذي ورد هاهنا، والكتابة هاهنا كتابة كونية قدرية.

لكن هل الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى كتب ذلك على نفسه على سبيل المقابلة والاستحقاق كما تقول المعتزلة أم أنه كتب ذلك على نفسه وأوجب ذلك على نفسه تفضلاً وإنعامًا منه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى؟

كتب ذلك على نفسه تفضلاً منه وإنعامًا، فلا يوجب أحد شيئًا على ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى، هو الذي يوجب ذلك على نفسه.

ولذلك أهل السنة والجماعة جمعوا بين آية وحديث، والآية والحديث فهمهما خطأً المعتزلة.

الآية هي قول الله تعالى كما في سورة الأعراف: {وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا

أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} [الأعراف: 43]، هنا (باء)، {بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ}.

والحديث قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "لَنْ يَدْخُلَ أَحَدٌ مِنكُم الْجَنَّةَ بِعَمَلِهِ"، -هنا (باء) أخرى- قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: "وَلَا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللهُ بِرَحْمَتِهِ".

فهنا يقال لهم في الآية: {ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} [النحل: 32], والحديث يقول: "لَنْ يَدْخُلَ أَحَدٌ مِنكُمْ الْجَنَّةَ بِعَمَلِهِ"، فهل هناك تعارض بين الآية والحديث؟ ليس هناك تعارض بين الآية والحديث.

إنما متى يقال بالتعارض؟ إذا كان التعارض والتقابل في محل واحد وفي معنًى واحد.

لما قال المؤمنون: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ}، وقيل: {ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ}، (الباء) هاهنا تسمى بـ(باء) السببية، فالأعمال سبب لدخول الجنة.

وأما قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "لَنْ يَدْخُلَ أَحَدٌ مِنكُمْ الْجَنَّةَ بِعَمَلِهِ"، فـ(الباء) المنفية هاهنا: هي باء الجزاء والمقابلة والثمنية.

إذًا: المثبتة باء السببية، والمنفية باء الثمنية، فليست الجنة ثمنًا للأعمال وجزاءً للأعمال، يعني: مقابلة للأعمال، وإنما هي من رحمة الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، هذا قول أهل السنة والجماعة.

وأما المعتزلة فماذا قالوا؟ قالوا: إن هذه (الباء) هي باء المعاوضة وباء المقابلة، وهذا واجب على الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى أن يجزي عباده المؤمنين؛ كما يجب

عليه أن يعاقب العاصين، فأوجبوا على الله عَزَّ وَجلَّ ما لم يوجبه على نفسه، لماذا؟

للأصل الفاسد عندهم وهو أصل التحسين والتقبيح العقلي، فقالوا: هذا مما يحسُن في حق ابن آدم؛ فكذلك يجب أن يحسن في حق الله، فهم مشبهة في الأفعال، وهذا مما يقبح في حق ابن آدم؛ فكذلك يقبح في حق الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

وقالوا: لو أن الله تفضل على عباده بإدخالهم الجنة بعد العمل لكان هذا من المِنة التي تُكدِّر السعادة.

قاسوا الله عَزَّ وَجلَّ على المخلوق.

شخص يعمل عندك، وقد قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : **"أَعْطِ الْأَجِيرَ أَجْرَهُ"**، أنت تعطيه الأجر هذا مقابل أم منة؟ مقابل، وماذا لو أعطيته له منة؟ هكذا أنت تكدر عليه، يعني: كأنك تمن عليه؛ فتكدر عليه صفوه وسعادته، وإنما تعطيه ما يستحقه.

هذا قد يُقال إن كانت الجنة وما فيها من النعيم تُقابل العمل القليل، لكن الأمر ليس كذلك، والذي سمع منكم حديث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أدنى أهل الجنة منزلة يعلم فضل الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، فليست الجنة مقابلة للعمل.

فهؤلاء قالوا: إن (الباء) الواردة إنما هي باء الجزاء والمعاوضة أو الثمنية أو غير ذلك مما ذكروا.

وقالوا: إن الكَتب هاهنا كتب واجب على سبيل الاستحقاق، وأما نحن أهل السنة والأدب مع الله فنقول: الكتب هنا من الله عَزَّ وَجلَّ من باب الإنعام.

والكتابة قد تكون شرعية أو كونية قدرية، الكتابة الشرعية هذه التي أمر الله عَزَّ وَجلَّ بها، فالشرعية ترادف الأمر.

قال تعالى: {كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ} [البقرة: 183]، يعني: شُرع لكم الصيام، يعني: أمركم الله عَزَّ وَجلَّ بالصيام.

قال: {وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ} [المائدة: 45]، هذه كذلك كتابة شرعية.

الله عَزَّ وَجلَّ في الكتابة الكونية القدرية قال: {كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي} [المجادلة: 21].

وقال تعالى: {وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ} [الأنبياء: 105].

فالله عَزَّ وَجلَّ ليس للعباد عليه حق واجب على سبيل الاستحقاق.

ولذلك قال القائل:

ما للعباد عليه حق واجب ... كلا ولا سعي لديه ضائع
إن عُذِّبوا فبعدله أو نُعِّموا ... فبفضله وهو الكريم الواسع

أهل السنة والجماعة كما قلنا قالوا هذه الكتابة كتابة كونية قدرية، وقالوا هذه الكتابة ليست من باب الاستحقاق، إنما هي تفضل من الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

قال: أَيْ: أَوْجَبَهَا عَلَى نَفْسِهِ تفضُّلاً وَإِحْسَانًا، وَلَمْ يُوجِبْهَا عَلَيْهِ أحدٌ.

فقال: {كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ} [الأنعام: 54].

ما معنى بجهالة؟ ليس المراد بجهل وبغير قصد، لو كان الأمر كذلك فإنه لا يؤاخذ، "إِنَّ اللهَ تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأَ وَالنِّسْيَانَ وَمَا اسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ".

لكن معنى الجهالة السفاهة والطيش.

وهذه هي التي تُفسر بها آية النساء من قول الله عَزَّ وَجلَّ: {قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ} [النساء: 18].

{إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ} [النساء: 17].

الجهالة بمعنى الطيش والسفه، وليس هي ضد العلم.

قال: {كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ}، بدليل أنه قال: {ثُمَّ تَابَ}؛ فهذا يدل على أنه وقع في معصية.

من آثار رحمة الله عَزَّ وَجلَّ: أن من تاب تاب الله عليه، وأن الله عَزَّ وَجلَّ هو الذي يوفقه للتوبة، وأن الله عَزَّ وَجلَّ هو الذي يقبل التوبة عن عباده سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، وأن الله عَزَّ وَجلَّ يقلب سيئاتهم حسنات، كل ذلك من آثار رحمته سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

قال: وَفِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ فِي ((الصَّحِيحَيْنِ)) : ((إِنَّ اللَّهَ لَمَّا خَلَقَ الْخَلْقَ كَتَبَ كِتَابًا، فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ: إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ -أَوْ تَسْبِقُ- غَضَبِي)).

إِنَّ اللَّهَ لَمَّا خَلَقَ الْخَلْقَ كَتَبَ كِتَابًا، فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ: ونحن نعلم بإجماع المسلمين أن العرش سقف المخلوقات.

ماذا عن هذا الحديث؟ الكتاب فوق العرش، والعرش أعلى المخلوقات!!

لم أجد جوابًا شافيًا في الجمع بين هذا الإجماع وهذا الحديث، والذي وقفت عليه شيئان من المكتوب والمسموع:

- فمن أهل العلم من قال: هذا مما يستثنى.

الكتاب مما يستثنى، أعلى المخلوقات هو العرش، ويستثنى من ذلك هذا الكتاب الذي هو فوق العرش.

الكرسي يكون تحت العرش، السماء السابعة فوقها ماء، وفوق الماء الكرسي، وفوق الكرسي العرش، وفوق العرش ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى، ولا يخفى عليه شيء من أعمالنا، هكذا جاء في الأثر.

هذا الجواب الأول: أن هذا مما يستثنى، وهذا سمعته من الشيخ عبد الرزاق البدر -حفظه الله- في حج العام الماضي.

▪ الجواب الثاني وهو جواب ابن حبان، وقال: إن (فوق) من ألفاظ التضاد، ففوق العرش يعني: تحت العرش، لأن عندنا إجماع أن العرش هو أعلى المخلوقات.

فقال معنى: ((إِنَّ اللَّهَ لَمَّا خَلَقَ الْخَلْقَ كَتَبَ كِتَابًا، فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ))؛ أي: تحت العرش.

ولم أجد غير هذين الجوابين.

قول ابن حبان هذا نقله محقق كتاب التوحيد لابن منده، أبو مالك الرياشي.

قال: وَأَمَّا قَوْلُهُ: {فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا} [يوسف: 64].

قال: فَالْحَافِظُ وَالْحَفِيظُ مَأْخُوذٌ مِنَ الْحِفْظِ، وَهُوَ الصِّيَانَةُ، وَمَعْنَاهُ: الَّذِي يَحْفَظُ عِبَادَهُ بِالْحِفْظِ الْعَامِّ، فَيُيَسِّرُ لَهُمْ أَقْوَاتَهُمْ، وَيَقِيهِمْ أَسْبَابَ الْهَلَاكِ وَالْعَطَبِ، وَكَذَلِكَ يَحْفَظُ عَلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ، وَيُحْصِي أَقْوَالَهُمْ، وَيَحْفَظُ أَوْلِيَاءَهُ بِالْحِفْظِ الْخَاصِّ.

إذًا معنى الحافظ والحفيظ؛ إما أنه الذي يحفظ أعمال العباد ويحصيها عليهم؛ كما قال الله عَزَّ وَجلَّ: "يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا،

فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلاَ يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ"؛ فهو الذي يحفظ عليهم أعمالهم.

وإما أن تكون من الحفظ الذي هو حفظ العباد من الهلاك والعطب، هذا حفظ عام وحفظ خاص.

فالحفظ العام من آثار ربوبيته لجميع الخلق سُبْحَانَهُ وَتعَالَى؛ ولذلك لا يزال ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى يرزقنا, ويرزق المؤمن والكافر، والبر والفاجر، والعوالم على اختلافها، فهذا حفظ عام.

وكذلك هناك حفظ خاص, وهو: حفظ الله عَزَّ وَجلَّ لعباده المؤمنين ولأوليائه.

قال: وَيَحْفَظُ أَوْلِيَاءَهُ بِالْحِفْظِ الْخَاصِّ، فَيَعْصِمُهُمْ عَنْ مُوَاقَعَةِ الذُّنُوبِ، وَيَحْرُسُهُمْ مِنْ مَكَايِدِ الشَّيْطَانِ، وَعَنْ كُلِّ مَا يضرُّهم فِي دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ.

قال: وَانْتَصَبَ {حَافِظًا} تَمِييزًا لِـ {خَيْر} الَّذِي هُوَ أَفْعَلُ تَفْضِيلٍ.

فما بعد أفعل التفضيل يكون تمييزًا؛ لأن خير أصلها: أخير، كما أن شر أصلها: أشر، لكن هذا غير مستعمل في لسان العرب بكثرة.

فالعرب يقولون: هذا خير من هذا، يعني: هذا أخير من هذا، هذا أكثر خيرًا من هذا، فما بعدها لأنها هاهنا أفعل التفضيل، فما بعدها تمييز.

وتُعرب كذلك: حالًا، يعني: فالله خيرٌ حال كونه حافظًا سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ هو الذي ذكر فيها الإعرابين.

ما الذي حمل المبتدعة على هذا التأويل؟ أمران:

الأمر الأول: أنهم قالوا بالتأويل.

الأمر الثاني: أنهم قالوا بالمجاز.

قالوا بالتأويل فأولوا الرحمة بإرادة الإنعام، ومنهم من قال: أن الرحمة مجاز ويُراد به الثواب، الرحمة هاهنا مخلوقة وليست صفة لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

فنقول: إن التأويل منه ما هو صحيح ومنه ما هو فاسد، والتأويل الذي ورد في كتاب الله وفي سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وفي لسان العرب لا يخرج عن معنيين:

المعنى الأول: الذي هو التفسير.

والمعنى الثاني: الذي هو عاقبة الشيء ومآله وحقيقته.

وعلى هذا كان خلاف المفسرين في (واو) الآية السابعة من سورة آل عمران: {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ} [آل عمران: 7].

هذه (الواو) اختلف فيها أهل العلم ومنهم أهل السنة على قولين:

فمنهم من قال: إن هذه (الواو) واو عاطفة، فكما أن الله عَزَّ وَجلَّ يعلم التأويل؛ فكذلك الراسخون في العلم يعلمون التأويل.

وجاء عن عبد الله بن عباس أنه قال: "أَنَا مِنْ الرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ الَّذِينَ يَعْلَمُونَ تَأْوِيلَهُ"، فالتأويل هاهنا بمعنى: التفسير.

ولذلك كان مجاهد يعرض القرآن آية آية على عبد الله بن عباس رَضِي اللهُ عَنْهُما يسأله عن كل آية، ومنه: "اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ، وَعَلِّمْهُ التَّأْوِيلَ"، التأويل هاهنا كذلك بمعنى: التفسير.

ومن أهل العلم من قال: إن (الواو) هنا واو استئنافية، ما معنى استئنافية؟ يعني: تبدأ جملة جديدة، ولذلك من الخطأ قول بعضهم إذا توقف درسه: إن شاء الله الاثنين القادم نستأنف الدرس.

نستأنف الدرس أي نبدأ درسا جديدا، هذا من الخطأ، ولكن قل: نستكمل الدرس، لأن الاستئناف هو الابتداء.

لماذا كفَّر الصحابةُ القدريةَ الغُلاة؟ لأنهم كانوا يقولون: إن الأمر أُنُف، يعني: مستأنف، يعني: أن الله لا يعلم الشيء إلا بعد وقوعه.

فإذا كانت (الواو) استئنافية، أي: ما بعدها جملة، {وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ}، هذه جملة، فما الذي اختص الله عَزَّ وَجلَّ بعلمه؟

المآل والعاقبة والحقيقة، فيدخل في ذلك كيفية الصفات وكيفية ما غيبه الله عَزَّ وَجلَّ عنا من أحوال الدار الآخرة، فليس في الدنيا من الجنة، أو في الجنة من الدنيا إلا الأسماء، كما قال ابن عباس، أما الحقيقة والكيفية فهذا لا يعلمه إلا الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

هذا الذي وقع في معنى التأويل، قال الله عَزَّ وَجلَّ: {هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا} [الأعراف: 53].

ما معنى التأويل هاهنا؟ الحقيقة والمآل، إذا ظهر وبان ما كانوا يكذبون به ويقولون: {فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا}، فالتأويل هاهنا بمعنى الحقيقة والمآل.

ثم ظهر نوع ثالث أو حد ثالث للتأويل، وهذا الحد منه الصحيح ومنه الفاسد، وهذا الحد هو المذكور في كتب الأصول، يذكرونه دائمًا إذا ذكروا الظاهر، لأن الألفاظ عندنا أقسام: منها ما هو نص، ومنها ما هو ظاهر، ومنها ما هو مؤول، ومنها ما هو مُجمل.

فالنص: ما لا يحتمل إلا معنًى واحدًا.

المُجمل: ما احتمل معنيين أو أكثر على السواء.

الظاهر: ما احتمل معنيين هو في أحدهما أظهر وأبين من الآخر، فهذا الذي هو أظهر هو الراجح، والاحتمال الضعيف هو المرجوح.

لكن إذا كانت هناك قرينة ودليل ترفع هذا المرجوح وتجعله راجحًا، صار مؤولًا، يسمى مؤولًا.

أضرب لكم مثالا: كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا دخل الخلاء قال: " **اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْخُبُثِ وَالْخَبَائِثِ**"، ما معنى إذا دخل الخلاء؟ يعني: إذا أراد أن يدخل الخلاء، وليس معنى ذلك أنه كان يقول ذلك داخل الخلاء.

وأظهر من ذلك قول الله تعالى: { إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاَةِ} [المائدة: 6]، ما معنى إذا قمتم إلى الصلاة؟ ليس المراد: وأنت داخل الصلاة توضأ، وإنما إذا أردتم كما بيّن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال تعالى: {وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً} [الإسراء: 72].

ما المراد بالعمى هاهنا عمى البصر؟ لا، عمى البصيرة، مع أن العمى إذا أُطلق ينصرف إلى عمى البصر.

ما الذي جعلنا نقول عمى البصيرة؟

الدليل الآخر: قال الله عَزَّ وَجلَّ: {فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ} [الحج: 46]؛ فعمى البصر لا حيلة للمرء فيه حتى يُعاقب عليه ويؤاخذ عليه في الآخرة.

إذًا: هذا التأويل متى يكون صحيحًا؟ إذا كان هناك دليل واضح بيِّن وقرينة صحيحة.

هؤلاء الذين أولوا على أي أساس أولوا تأويلا فاسدا عطلوا به النصوص؟ هل هو دليل صحيح؟ آية من كتاب الله؟ حديث من أحاديث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ إجماع للأمة؟ قول للصحابة؟ لا، وإنما هي شُبه عقلية فاسد.

فنقول: إن تأويلهم تأويل مردود، خاصة أن ما جاء في كتاب الله عَزَّ وَجلَّ لا يخرج عن أن يكون نصًا في مراد المتكلم لا يحتمل إلا غيره، الألفاظ الواردة في كتاب الله عَزَّ وَجلَّ وهذه كل الألفاظ.

إما أن تكون نصًا، يعني: لا تحتمل إلا معنًى واحدًا لا يحتمل غيره، فهذه لا يدخلها التأويل مطلقًا.

قال الله عَزَّ وَجلَّ: {فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ} [البقرة: 196], تحتمل الإحدى عشر؟ لا، تسعة؟ لا، الاثنا عشر؟ لا، نص.

{قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ}؛ هذه نص، فهذا لا يتحمل إلا معنًى واحد، وهذا يستحيل دخول التأويل عليه، فمن أدخل عليه التأويل فقد كذب وافترى على

الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى وحرف الكلم عن مواضعه، ومن ذلك صفات ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى فإنها من النص.

وهذه مسألة ينبغي أن يُنبه عليها؛ لأن بعض أهل العلم قد تجد في كلامه مسألة الظاهر لا يجوز صرف الآية عن ظاهرها؛ فيظن السامع أن الظاهر هاهنا, وهو ما احتمل معنيين وفي أحدهما أرجح من الآخر.

نقول: هذا يصح في غير صفات الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، وذلك أن الصفات اطرد ذكرها في جميع آيات الله على معنًى واحد.

ومن ذلك الاستواء ورد في مواضع سبعة، هل جاء في أحدها بمعنى الاستيلاء أي غير معنى العلو والارتفاع والظهور؟ ما جاء، فلما توارد هذا المعنى دل ذلك على أنه نص في العلو والارتفاع والظهور، فصفات الله عَزَّ وَجلَّ من النص وليست من الظاهر.

في كتاب الله ما احتمل معنيين هو أرجح وأظهر في أحدهما من الآخر، فنقول: هذا يحتمل التأويل كما ذكرنا في: {فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ} [الحج: 46].

أو: {وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى} [الإسراء: 72].

وكذلك آية الوضوء، لكن لابد من وجود القرائن القوية التي تجعلنا نترك المعنى الظاهر ونأخذ بالمعنى المرجوح، حتى نقول: هذا المعنى هو المعنى المراد.

وهذا إن وجد في بعض الآيات إلا أنه غير وارد في الآيات التي فيها صفات ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

القسم الثالث: الألفاظ المجملة والتي ليست بنص ولا ظاهر ولم يرد بيانها لا في سياق الآية نفسها ولا في موضع آخر، وإنما هذا متروك للقارئ حتى يفسره على ما يرى.

هل هذا موجود في كتاب الله؟ ليس موجودًا في كتاب الله.

فلو كان هذا النوع موجودًا في كتاب الله لقلنا للمتكلمين والمبتدعة قولوا ما شئتم، وأعملوا عقولكم، لكن هذا ليس موجودًا في كتاب الله.

هذا قد تجده موجودًا في كلام بعض الخلق، لكن الله عَزَّ وَجلَّ أصدق حديثًا، وأحسن قيلاً سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، والمُبلغ عنه معصوم من الخطأ في البيان، وهو أفصح الناس صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ما هذه القرينة التي ذهب إليها هؤلاء فقالوا بالتأويل كما قالوا بالمجاز؟ القرينة هي القرينة العقلية، والواحد من هؤلاء إذا قال: العقل دل على ذلك، ونحن قلنا كلمة مهمة جدًا: أي لفظة يطلقها المبتدع لابد أن تسأله وتقول له: ماذا تقصد بهذه اللفظة؟ لأنهم غيروا معاني الألفاظ عما هو وارد في لسان العرب.

فمثلاً لفظة العقل، هل الله عَزَّ وَجلَّ ذم العقل أم مدحه؟ مدحه، لكن ما المراد بالعقل الذي مدحه الله عَزَّ وَجلَّ؟ العقل السوي؛ الذي يدل على قبول البديهيات، العقل الذي يتفق عليه جميع الناس مما هو كائن في فطرهم.

هذا هو العقل؛ الغريزة التي جعلها الله عَزَّ وَجلَّ في ابن آدم، ويستطيع أن يميز بها بين الضار والنافع، بين الحسن والقبيح، هذا هو العقل الممدوح.

لكن هؤلاء ما أرادوا بقولهم العقل هذا العقل، لكن ماذا أرادوا؟ استمع لما يقوله القاضي عبد الجبار وهو رئيس طائفة المعتزلة؟

يقول: فاعلم أن الدلالة أربعة: حجة العقل والكتاب والسنة والإجماع.

إذًا: الذي يدل على النصوص وعلى إثبات الصفات لله عَزَّ وَجلَّ أربعة، يقول: حجة العقل قدم العقل، والكتاب والسنة والإجماع.

قال: ومعرفة الله وأسمائه وصفاته لا تُنال إلا بحجة العقل.

ثم يُفصِّل هذا ويقول: وهاهنا أصل آخر؛ وهو أن ما هذا سبيله من الأخبار؛ فإنه يجب أن يُنظر فيه -الأخبار عن الله عَزَّ وَجلَّ وأسمائه وصفاته, يتكلم عن الأخبار عمومًا- فإن كان مما طريقه العمل -يعني: الوضوء والصلاة والذكر، العمليات- عُمل به إذا ورد بشرائطه.

يعني: ثبت عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حديث في الوضوء فتوضأ كما كان يتوضأ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مع أن الذي نقل أحاديث العمليات هم أنفسهم الذين نقلوا الأحاديث التي فيها صفات ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

قال: وإن كان مما طريقه الاعتقادات، قال: يُنظر فإن كان موافقًا للحجج العقلية قُبِل واعتُقد موجبه، يعني: الأثر المترتب عليه.

قال: لا لمكانه، أي: ليس لمكان النص الآية والحديث، بل للحجة العقلية، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

قال: وإن لم يكن موافقًا لها، فإن الواجب أن يُرد وأن يُحكم بأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يقله، هذا في الحديث، حتى لو جاء في البخاري ومسلم.

فعمرو بن عُبيد قال في حديث: حدثني الصادق المصدوق، قال: "لو سمعت الشعبي لرددت عليه، ولو سمعت ابن مسعود لرددت عليه، ولو سمعت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لرددت عليه، ولو سمعت الله يقول بذلك لقلت له: ما على هذا أخذت العهد علي"، أي: يرده بعقله.

فيقول: لا لمكانه بل للحجة العقلية، قال: وإن لم يكن موافقًا لها فإن الواجب أن يُرد وأن يُحكم بأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يقله، وإن قاله فإنما قاله عن طريق الحكاية عن غيره!!!

ماذا عن آي القرآن؟

قال: هذا إذا لم يحتمل التأويل إلا بتعسف، فأما إذا احتمله فالواجب أن يتأول.

إذًا: هذا قول المعتزلة، والأشعرية مخانيث المعتزلة.

ولذلك يقول الفخر الرازي في نهاية العقول: لو قدرنا قيام الدليل العقلي القاطع على خلاف ما أشعر به ظاهر الدليل السمعي، فلا خلاف بين أهل التحقيق- يعني: أئمة الكلام- فلا خلاف بين أهل التحقيق أنه يجب تأويل الدليل السمعي.

ولذلك وضع القوانين العشرة في صرف النص عن ظاهره ورده، وهذه هي التي رد عليها شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابين من أعظم كتبه رحمه الله: في درء تعارض العقل والنقل، وكذلك في بيان تلبيس الجهمية، فهما في الرد على الفخر الرازي.

كان يوجد كلام آخر عن المجاز، وأن المجاز واقع في لغة العرب؛ ولذلك نقول به، فلعلنا ننقله في درس آخر حتى لا نطيل عليكم.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم، وجزاكم الله خيرًا.

الدرس السابع عشر

إن الحمد لله, نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله تعالى من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله, صلى الله عليه, وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد:

فما زال الحديث موصولًا في قراءة العقيدة الواسطية لشيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ، وتعليق الشيخ العلامة محمد خليل هراس.

وكنا قد انتهينا في الدرس الماضي من الكلام عن صفة الرحمة.

واليوم إن شاء الله نتكلم عن مجموعة من صفات فعل ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وهي الأفعال الاختيارية.

ولذلك قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ: وقَوْلُهُ: {رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ} [المائدة: 119], [التوبة: 100], [المجادلة: 22], [البينة: 8].

وَقَولُهُ: {وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ} [النساء: 93].

وَقَولُهُ: {ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ} [محمد: 28].

وقوله: {فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ} [الزخرف: 55].

وَقَوْلُهُ: {وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ} [التوبة: 46].

وَقَوْلُهُ: {كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ} [الصف: 3].

فهذه الأفعال التي جاءت في هذه الآيات؛ كالرضا والغضب والمقت والكراهية والسخط، كلها من صفات فعل ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وهي التي تسمى بصفات الأفعال أو الأفعال الاختيارية.

ومعنى أن تكون الصفة صفة فعل لربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى، أي: أنها ترجع إلى مشيئته وحكمته سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، فليست كالصفات الذاتية التي لا تنفك عن ذاته أبدًا، فهذه الصفات صفات لها أسباب.

ولذلك إذا وجد سبب الغضب يغضب ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وإذا وجد سبب الفرح يفرح ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وإذا وجد كذلك سبب المقت واللعن والكراهية؛ فإن الله عَزَّ وَجلَّ تقوم به هذه الأفعال.

وهذه الأفعال -كما قلنا- متعلقة بمشيئة ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى؛ ولذلك غضب على من مضى من المشركين والكافرين؛ كأبي جهل وأبي لهب وفرعون وقارون وهامان وقوم نوح، والأقوام كذلك الذين خالفوا رسلهم وكفروا بالله العظيم، فهؤلاء غضب الله عَزَّ وَجلَّ عليهم، ورضي عن عباده المؤمنين.

والله عَزَّ وَجلَّ يغضب على من يعصيه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ومن يكفره ويجحده، وهذا واقع الآن، وربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى يغضب يوم القيامة غضبًا لم يغضب مثله قبله، ولن يغصب مثله بعده؛ كما أخبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فالله غضب ويغضب وسيغضب، وكذلك ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى رضي ويرضى وسيرضى عن عباده، فهذا يدل على أن هذه الأفعال تتعلق بمشيئته، وأنها تقع عند وجود أسبابها.

ولذلك جاء عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -كما في الصحيحين-: "إِنَّ اللهَ يَقُولُ: لِأَهْلِ الْجَنَّةِ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، يَقُولُونَ: لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ وَالخير بين يديك"، ينادي أهل الجنة فيجيبه أهل الجنة، يجيبه أهل الجنة الآن أم إذا دخلوا الجنة؟ إذا دخلوا الجنة.

"فيَقُولُونَ: لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ، فَيَقُولُ: هَلْ رَضِيتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: وَمَا لَنَا لَا نَرْضَى وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، فَيَقُولُ: أَنَا أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ، قَالُوا: يَا رَبِّ، وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ؟ فَيَقُولُ الله عَزَّ وَجلَّ: أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي فَلاَ أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا".

"أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي"؛ أي: يحل الله عَزَّ وَجلَّ عليهم رضوانه الآن وهم في الجنة إذا دخلوها.

"فَلاَ أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا"؛ أي: لا يقع السخط من الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى على أهل الجنة أبدًا، وهذا فيما يُستقبل.

ولذلك قلنا: إن هذه الأفعال متعلقة بمشيئته وبأسبابها وليست قديمة.

فبعض أهل البدع يقول: إن هذه الأفعال قديمة، أي: أنها صفات قديمة لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، فالله غضب في الأزل، وفرح في الأزل، ورضي في الأزل، وكره في الأزل، ولعن في الأزل، قديمًا.

ويقولون: إن هذا الغضب وهذا الفرح وهذا الرضا هو باعتبار موافاة العبد، أي: ما يكون منه في آخر حاله وأمره.

فالله عَزَّ وَجلَّ يعلم أن عمر بن الخطاب رَضِي اللهُ عَنْهُ سيكون من عباد الله الصالحين، ومن سادات الصحابة، فهؤلاء يقولون: إن الله رضي عن عمر بن الخطاب وهو في جاهليته وكفره.

فيوم أن كان يعبد الأصنام رضي الله عنه، فالرضا قديم، كيف رضي الله عنه؟ يقولون: هذا باعتبار مآله.

ولو أن رجلاً مسلمًا يصلي الآن ويصوم ويزكي ويحج ويأتي بالأعمال الصالحة، وهذا في مكتوب الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى أنه سيرتد، يقولون: غضب الله عليه ولعنه، فهو الآن في غضب الله وسخطه باعتبار ما سيؤول إليه.

فكيف يُعقل أن يكون المرء الآن عابدًا لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى والله عَزَّ وَجلَّ لا يرضى عنه ويغضب عليه باعتبار ما سيكون؟! فهذا يلزم منه لوازم خطيرة.

لكن : لماذا لم يثبت هؤلاء هذه الصفات لربنا تَبارَكَ وَتَعَالَى مع أنها واردة في كتاب الله وفي سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومن ذلك هذه الآيات والأحاديث التي ذكرناها؟

وذلك للأصل الفاسد عندهم، وهذا الأصل هو الذي حاكموا إليه كل صفات ربنا تَبارَكَ وَتَعَالَى؛ وهو أصل التركيب أو التجسيم، وكذلك أصل حلول الأعراض والحوادث، فشبهوا الله عَزَّ وَجلَّ بخلقه.

فقالوا: لو أننا أثبتنا له الصفات الخبرية من سمع وبصر ويد وعين؛ فإننا نكون قد شبهناه بالجسم، جعلناه جسمًا، وجعلناه يشبه المخلوق؛ ولذلك نفوا هذه الصفات، مع أن الله عَزَّ وَجلَّ وهو أعلم بنفسه من غيره سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، أخبر بذلك عن نفسه.

ولو كان ظاهر هذه الصفات غير مراد لأخبر الله عَزَّ وَجلَّ عن المراد، لكن أن يترك الناس هكذا يعتقدون هذا الظاهر، والحق في خلافه ، ثم يأتي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويقرأ هذا القرآن على الناس ويتركهم هكذا دون أن يُبين هذا الظاهر، أنَّى يكون هذا؟!

حتى دون أن يُبين هذا الظاهر لخواصه وأصدقائه وأصحابه كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي، ثم يموت أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأكابر الصحابة ولا يكشفون لنا عن هذا المراد؟! فلا شك أن هذا يلزم منه لوازم خطيرة.

والله عَزَّ وَجلَّ قد قال عن نفسه: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} [الشورى: 11]؛ فله سمع وبصر وعين ويدان وقدمان، لكن على ما يليق به سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

ثم هم كذلك ينفون هذه الصفات التي معنا -أعني الصفات الفعلية أو الأفعال الاختيارية لربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى- يقولون: لأنكم تقولون: إنه قد غضب ويغضب وسيغضب؛ فهذا يدل على أن هذه الحوادث وهذه الأعراض تتجدد في ذات ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى، فجعلتموه محلاً للحوادث، وما لا يخلو من الحوادث فهو حادث، وما تحل به الأعراض إنما هو المخلوق، فقاسوا الله عَزَّ وَجلَّ كذلك على خلقه.

ويكفي أن نرد عليهم بما ذكرناه من أن الله عَزَّ وَجلَّ أخبر بذلك عن نفسه، وكذلك أخبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأجرى السلف الصالح هذه الصفات والأفعال على ظاهرها.

ثم نقول: إن هذه الصفات التي ذكرها الله عَزَّ وَجلَّ هي له أم لغيره؟ له سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، أضافها لنفسه.

إذًا: هذا من إضافة الصفة للموصوف، وليس من إضافة المخلوق للخالق.

وكان الذي قال بذلك الجهم بن صفوان، الجهم هذا رأس كل ضلالة، ما جاء أحد بشر قط كما جاء به الجهم بن صفوان، وكان متكلمًا، وقابل قومًا من السمنية, وهم أناس من الهند لا يعترفون ولا يؤمنون إلا بالمحسوس.

فأراد أن يثبت لهم وجود الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، وأنه خالق غير مخلوق، فدلل على ذلك بحدوث العالم، وأن العالم فيه أعراض وجوهر، وهذه الأعراض تتغير، فهذا يدل على أنه حادث وليس قديمًا.

ثم لما أراد أن يُثبت الله عَزَّ وَجلَّ وأن يثبت صفات الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، كان كلما جاء على آية في كتاب الله عَزَّ وَجلَّ فيها صفات ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى، نظر فوجد صفة له تعالى، لو أنه جاء بها لقيل له: إنها أعراض وإنها صفات، فلو أثبتها لجعلت خالقك مخلوقًا، فنفى كل صفات ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

ثم جاء بعده المعتزلة فأثبتوا صفات معينة بعقولهم، صفتين أو ثلاثة، ثم جاء بعد ذلك الأشاعرة والكُلابية فأثبتوا سبع صفات.

وهكذا خالف كل هؤلاء هذه النصوص المتكاثرة التي جاءت في كتاب الله وسنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا شك أن هذا ضلال مبين.

فهاهنا يذكر الشيخ رَحِمَهُ اللهُ صفة الرضا، والله عَزَّ وَجلَّ يرضى ورضي وسيرضى، وهي من صفات أفعاله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

فقال الشيخ الهراس رَحِمَهُ اللهُ: قَوْلُهُ: {رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ}.

قال: تضمَّنت هَذِهِ الْآيَاتُ إِثْبَاتَ بَعْضِ صِفَاتِ الْفِعْلِ مِنَ الرِّضى لِلَّهِ، والغَضَب، واللَّعنُ، وَالكُرهِ، والسَّخْط، والمَقْت، والأَسَف.

وسيأتي أن الأسف في لغة العرب على معنيين:

فيأتي بمعنى: شدة الحزن؛ وهذا ينزه الله عَزَّ وَجلَّ عنه.

ويأتي بمعنى: شدة المقت والغضب؛ وهذا هو الثابت لربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى؛ كما قال: {فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ} [الزخرف: 55]، يعني: أغضبونا.

فهذه الصفات كما يقول الشيخ رَحِمَهُ اللهُ: وَهِيَ عِنْدَ أَهْلِ الْحَقِّ.

أي: عند أهل السنة والجماعة، فهم فقط من يثبتون صفات الفعل لربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى دون غيره، وسائر الفرق تعطل هذه الصفات، وعمدتهم في ذلك ورأس مذهبهم الجهم بن صفوان.

مع أن العجيب في حال هؤلاء أنهم في كتبهم يطعنون في الجهم بشدة، ويقولون: إنه ضل وأضل ، وأفسد الأمة، ثم تجد أن أصولهم كلها أصول الجهم بن صفوان، وهذا من عجيب أمرهم.

قال: وَهِيَ عِنْدَ أَهْلِ الْحَقِّ صِفَاتٌ حَقِيقِيَّةٌ لِلَّهِ عَزَّ وَجلَّ، عَلَى مَا يَلِيقُ بِهِ، وَلَا تُشْبِهُ مَا يَتَّصِفُ بِهِ الْمَخْلُوقُ مِنْ ذَلِكَ، وَلَا يَلْزَمُ مِنْهَا مَا يَلْزَمُ فِي الْمَخْلُوقِ.

ولذلك نحن نقول في هذه الصفة التي ذكرها صفة الرضا، نقول: الرضا معلوم والكيف غير معقول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة، هذه قاعدة مطردة في سائر الصفات.

إذا كان مالك رَحِمَهُ اللهُ قد قال: الاستواء معلوم، فنحن نقول: الرضا معلوم والغضب معلوم والكراهية معلومة، هذا معلوم من جهة المعنى، فمعناها تعرفه العرب.

والكيف غير معقول، لا تصل إليه عقولنا؛ لأننا لم نر الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى ولم نر شبيهًا له، ولم يأتنا خبر عن النبي المعصوم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بكيفية هذه الصفة, والإيمان بالصفة واجب وكذلك بالكيف، والسؤال عن الكيف بدعة فلا يلزم من إثبات هذه الصفات ما يلزم في المخلوق.

إذا قلنا: إن الغضب يلزم منه احمرار الوجه, وانتفاخ الأوداج, وغليان الدم في العروق، يقال: هذا هو الغضب اللائق بالمخلوق، لأنه مخلوق، الأصل فيه النقص لا الكمال.

وأما غضب ربنا تَبَارَكَ وَتعَالَى فليس كمثله غضب؛ كما أن ذات الله عَزَّ وَجلَّ ليس كمثلها ذات.

ومن الأمور الدقيقة التي ينبغي أن ينتبه لها طالب العلم أن بعض من وضع معاجم الله يضع حدودا لبعض الألفاظ على ما يعرفه من صفات المخلوق، ثم تراه يذكر حديث رسول الله في صفة معينة، ويقول: والله منزه عن كذا وكذا!! كما فعل صاحب اللسان عند ذكره للفعل نزل، فتنبه لهذا.

قال: فَلاَ حُجَّةَ لِلأَشَاعِرَةِ وَالْمُعْتَزِلَةِ عَلَى نَفْيِهَا، وَلَكِنَّهُمْ ظَنُّوا أَنَّ اتِّصَافَ اللَّهِ عَزَّ وَجلَّ بِهَا يَلْزَمُهُ أَنْ تَكُونَ هَذِهِ الصِّفَاتُ فِيهِ عَلَى نَحْوِ مَا هِيَ فِي الْمَخْلُوقِ.

ولذلك ما عطل معطل إلا وقد شبَّه قبل تعطيله، فلما ظنوا أن هذه الصفات يلزم أن تكون على نحو ما هي في المخلوق عطلوا.

قال الشيخ: وَهَذَا الظنُّ الَّذِي ظَنُّوهُ فِي رَبِّهِمْ أَرْدَاهُمْ فَأَوْقَعَهُمْ فِي حَمْأَةِ النَّفْيِ وَالتَّعْطِيلِ.

وَالْأَشَاعِرَةُ يُرْجعون هَذِهِ الصِّفَاتِ كُلِّهَا إِلَى الْإِرَادَةِ؛ كَمَا عَلِمْتَ سَابِقًا.

فيقولون: رضي، أي: أراد إثابتهم، غضب، أي: أراد أن يعاقبهم، وهكذا.

فَالرِّضَا عِنْدَهُمْ إِرَادَةُ الثَّوَابِ، وَالْغَضَبُ وَالسَّخَطُ.. إِلَخْ إِرَادَةُ الْعِقَابِ.

وقد رددنا على ذلك في الدروس الماضية.

وَأَمَّا الْمُعْتَزِلَةُ؛ فَيُرْجِعُونَهَا إِلَى نَفْسِ الثَّوَابِ وَالْعِقَابِ.

فهي إذًا: صفات مخلوقة عند المعتزلة.

وَقَوْلُهُ سُبْحَانَهُ: {رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ}؛ إخبارٌ عمَّا يكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَوْلِيَائِهِ مِنْ تَبَادُلِ الرِّضَا وَالْمَحَبَّةِ.

أَمَّا رِضَاهُ عَنْهُمْ؛ فَهُوَ أَعْظَمُ وأجلُّ مِنْ كُلِّ مَا أُعطوا مِنَ النَّعِيمِ، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ:

{وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ}.

فبعد أن ذكر الله عَزَّ وَجلَّ جنات عدن؛ قال تعالى في سورة التوبة: {وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ}.

وهذا فسره الحديث الذي ذكرناه؛ قال الله عَزَّ وَجلَّ: "أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي، فَلاَ أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا".

قال: وَأَمَّا رِضَاهُمْ عَنْهُ؛ فَهُوَ رِضَا كُلٍّ مِنْهُمْ بِمَنْزِلَتِهِ.

فإذا دخل أهل الجنة الجنة، كل من في الجنة يرضى بمنزلته، ولا يتطلع إلى منزلة من فوقه، لا يحسده على ذلك، لماذا؟ لأن الله عَزَّ وَجلَّ غني حميد، وجنته فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

ويكفي أن تعلم أن أقل أهل الجنة منزلة ، يقول له الله عَزَّ وَجلَّ: (ادخل الجنة), فينظر هذا الرجل فيعود إلى ربه تَبَارَكَ وَتَعَالَى ويقول: يا رب وجدتها ملئا، وهذا حين ينظر فيجد أن الناس قد أخذوا أخذاتهم.

فيقول الله عَزَّ وَجلَّ: **"أَتَرْضَى أَنْ يَكُونَ لَكَ مِثْلُ مُلْكِ مَلِكٍ مِنْ مُلُوكِ الدُّنْيَا؟"**, أعظم ملك من ملوك الدنيا، لك مثل ملك من ملوك الدنيا, **"فَيَقُولُ: رَضِيتُ رَبِّ، فَيَقُولُ: لَكَ ذَلِكَ وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ، فَقَالَ فِي الْخَامِسَةِ: رَضِيتُ رَبِّ، فَيَقُولُ: هَذَا لَكَ وَعَشَرَةُ أَمْثَالِهِ، وَلَكَ مَا اشْتَهَتْ نَفْسُكَ"**.

هذا كله لأقل أهل الجنة منزلة، وهذا معنى: {وَرَضُوا عَنْهُ}؛ أي: يرضى كل واحد منهم بمنزلته.

لماذا يرضى بمنزلته؟ لأنه لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله، أيُّ عمل هذا الذي يحصل لأدنى أهل الجنة منزلة بأن يكون له هذا النعيم؟

ولذلك دخول الجنة برحمة ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى؛ ولذلك يرضى كل واحد من أهل الجنة بمنزلته مهما كانت، ويُسَرُّ بها حتى يظن أنه لم يؤت أحد خيرًا مما أوتي، وذلك في الجنة.

إذًا: هذا رضا يكون في الجنة.

فالله عَزَّ وَجلَّ يكتب الرضا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لعباده فيرضى عن العابد، ويرضى عن عمله، يرضى عن العابد؛ كما قال: {رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ}.

وكذلك يرضى على عمل العبد العمل الصالح؛ كما جاء في الحديث: " **إِنَّ اللهَ يَرْضَى لَكُمْ ثَلاثًا، أَنْ تَعْبُدُوهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا** "، فهذا عمل.

فالله عَزَّ وَجلَّ يرضى كذلك عن الأعمال الصالحة.

وقال تعالى: {وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ} [الزمر: 7]، يعني: يرضى هذا الشكر لكم، وهذا رضا عن العمل.

فمن صفات ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى ومن أفعاله الاختيارية التي تقوم به هذه الصفة التي ذكرها المصنف رَحِمَهُ اللهُ، وهي صفة الرضا.

ثم قال المصنف بعد ذلك: {وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ} [النساء: 93].

وَقَوْلُهُ: {ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ} [محمد: 28].

وقوله: {فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ} [الزخرف: 55].

وَقَوْلُهُ: {وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ} [التوبة: 46].

وَقَوْلُهُ: {كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ} [الصف: 3].

فهذه الآيات الكريمات التي ذكرها المصنف رَحِمَهُ اللهُ فيها صفات الغضب واللعن والسخط والكراهية والأسف والمقت، هذه الصفات كلها مذكورة في هذه الآيات مضافة لربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

إذًا: هي صفاته، وهي صفات فعل، ما معنى أنها صفات فعل؟ أنها تتعلق بالمشيئة والسبب.

فقال الشيخ الهراس رَحِمَهُ اللهُ: {وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا}.

قال: الْآيَةَ؛ فَقَدِ احْتَرَزَ بِقَوْلِهِ: {مُؤْمِنًا} عَنْ قَتْلِ الْكَافِرِ.

أي: ليس هذا الجزاء المذكور في الآية فيمن قتل كافرًا محاربًا يستحق القتل، وإنما هو فيمن قتل مؤمنًا موحدًا، ثم هو قتله متعمدًا، أي: حال قتله على سبيل العمد، يعني: قاصدًا لذلك؛ ولذلك كان في القتل العمد ما ليس في غيره من القتل الخطأ.

قال: وَبِقَوْلِهِ: {مُّتَعَمِّدًا} - أَيْ: قَاصِدًا لِذَلِكَ، بِأَنْ يَقْصِدَ مَن يَعْلَمُهُ آدَمِيًّا مَعْصُومًا، فَيَقْتُلَهُ بِمَا يَغْلِبُ عَلَى الظَّنِّ مَوْتُهُ بِهِ - عَنِ الْقَتْلِ الْخَطَأ.

فهذا الجزاء المذكور في الآية من أن الله عَزَّ وَجلَّ يجعله خالدًا في نار جهنم ويغضب عليه ويلعنه، إنما هو فيمن يقتل مؤمنًا متعمدًا.

قال: وَقَوْلُهُ: {خَالِدًا فِيهَا} ؛ أَيْ: مُقِيمًا عَلَى جِهَةِ التَّأْبِيدِ.

وهذا قول بعضهم في الآية.

وَقِيلَ الْخُلُودُ: الْمُكْثُ الطَّوِيلُ.

وهذا هو الراجح؛ لأن قاتل النفس المؤمنة وإن كان مرتكبًا كبيرة من أكبر الكبائر وجاء فيها الوعيد الشديد -كما سنرى في الأحاديث- إلا أنه ليس بكافر.

ولذلك الخلود المذكور في هذه الآية هو ليس خلود أبدي، وإنما هو خلود أمدي؛ أي طول المدة، أي: سيبقى في نار جهنم إن عذبه الله عَزَّ وَجلَّ مدة طويلة.

لأن الله عَزَّ وَجلَّ قال: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ} [النساء: 48]؛ فهذه الآية أصل في أن غير المشرك لابد أن ينجو من النار يومًا ما، إن مات مرتكبًا للكبيرة؛ فلابد إن لم يغفر الله عَزَّ وَجلَّ أن ينفعه توحيده، وأن يخرج من النار إلى الجنة.

وعندنا كذلك قاتل مائة النفس، هذا الرجل قتل ما قتل ثم تاب، فتاب الله عَزَّ وَجلَّ عليه، لأنه سيأتي معنا أن جماعة من السلف قالوا: إن القاتل لا توبة له.

قال: وَاللَّعْنُ: هُوَ الطَّرْدُ وَالْإِبْعَادُ عَنْ رَحْمَةِ اللَّهِ، وَاللَّعِينُ وَالْمَلْعُونُ: مَنْ حَقَّت عَلَيْهِ اللَّعْنَةُ.

كما قال الله عَزَّ وَجلَّ عن إبليس: {لَعْنَةَ اللَّهِ}، أي: حقت عليه لعنة الله.

أَوْ دُعِي عَلَيْهِ بِهَا.

قال: وَقَدِ اسْتَشْكَلَ الْعُلَمَاءُ هَذِهِ الْآيَاتِ مِنْ حَيْثُ إِنَّهَا تدلُّ عَلَى أَنَّ الْقَاتِلَ عَمْدًا لَا تَوْبَةَ لَهُ، وَأَنَّهُ مخلَّد فِي النَّارِ.

وهذا ظاهر الآية.

قال: وَهَذَا معارضٌ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ}.

فهذه الآية في كل من مات على ذنب ولم يتب منه، فهو في مشيئة الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى ما لم يكن مشركًا.

كيف أجاب العلماء عن هذه الآية؟ هذه الآية آية النساء مشكلة حقًا.

وَقَدْ أَجَابُوا عَنْ ذَلِكَ بِعِدَّةِ أَجْوِبَةٍ؛ مِنْهَا:

فقالوا: أَنَّ هَذَا الْجَزَاءَ لِمَنْ كَانَ مُسْتَحِلاًّ قَتْلَ الْمُؤْمِنِ عَمْدًا.

أي أن إنسانًا يرى قتل المؤمن عمدًا حلال وليس بحرام، فالاستحلال - استحلال الذنوب والمعاصي- كفر، لكن هذا القول ضعيف ورده أحمد، لماذا؟ لأنه يكفر بمجرد الاستحلال ولو لم يقتُل.

فلو أن إنسانًا قال: إن الزنا حلال ولم يزن فهو كافر، قال: إن شرب الخمر حلال ولو لم يشرب الخمر فهو كافر؛ لأنه كذَّب القرآن والسنة ورد الحكم الثابت فيهما.

وقيل: إنَّ هَذَا هُوَ الْجَزَاءُ الَّذِي يستحقُّه لَوْ جُوزِيَ، مع إمكان أن لا يُجَازَى، بِأَنْ يَتُوبَ أَوْ يَعْمَلَ صَالِحًا يَرْجَحُ بِعَمَلِهِ السَّيِّئِ.

وهذا مروي عن أبي هريرة رَضِي اللهُ عَنْهُ أنه قال: "هذا جَزاؤُه إن جَازاهُ الله".

إن جازاه الله فهو خالد مخلد في النار وعليه لعنة الله، وهذا الأثر فيه ضعف وهو مُشكل كذلك، لماذا؟

لأن الله عَزَّ وَجلَّ لو جازاه فمعنى ذلك: أنه سيكون مخلدًا في النار، فأين توحيده؟ فهذا كذلك مُشكل، وهذا فيه أن هذا الذنب سبب في خلود صاحبه في النار أبدًا.

وهذا على خلاف القاعدة العامة المعروفة: أن كل الذنوب خلا الشرك في مشيئة الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، إن لم يتب صاحبها منها.

وقيل: أَنَّ الْآيَةَ وَارِدَةٌ مَوْرِدَ التَّغْلِيظِ وَالزَّجْرِ.

يعني: خرجت مخرج الزجر؛ حتى لا يُقْدِم المؤمن على ذلك.

وقيل: أَنَّ الْمُرَادَ بِالْخُلُودِ الْمُكْثُ الطَّوِيلُ كَمَا قَدَّمْنَا.

فهذا معنى أنه يُخلد في النار، أي: أنه يبقى فيها طويلاً، فالخلود كما قلنا نوعان: خلود أمدي، وخلود أبدي، وليس لموحد الخلود الأبدي.

قال: وَقَدْ ذَهَبَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَجَمَاعَةٌ إِلَى أَنَّ الْقَاتِلَ عَمْدًا لَا تَوْبَةَ لَهُ، حَتَّى قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ((إِنَّ هَذِهِ الْآيَةَ مِنْ آخِرِ مَا نَزَلَ، وَلَمْ يَنْسَخْهَا شيءٌ))، لكن أراد ابن عباس رضي الله عنه بالنسخ هنا ما هو أعم من اصطلاح المتأخرين، فيدخل في ذلك التخصيص والتقييد.

يقول الشيخ الهراس: وَالصَّحِيحُ أَنَّ عَلَى الْقَاتِلِ حُقُوقًا ثَلاثَةً: حَقًّا لِلَّهِ، وَحَقًّا لِلْوَرَثَةِ، وَحَقًّا لِلْقَتِيلِ.

هناك حق لله؛ لأنه انتهك المحارم, وخالف نهي الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى عن قتل النفوس المعصومة، وحقًا للورثة أولياء الدم، وحقًا للقتيل.

فَحَقُّ اللَّهِ يَسْقُطُ بِالتَّوْبَةِ.

قال الله عَزَّ وَجلَّ: {قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} [الزمر: 53]؛ فلو تاب المرء حتى من الشرك؛ فإن الله يقبل توبته.

سقط حق الله عَزَّ وَجلَّ، وسقط حق الورثة بأن يعفو، أو بأن يأخذوا الدية، ماذا عن حق القتيل؟

وَأَمَّا حَقُّ الْقَتِيلِ؛ فَلاَ يَسْقُطُ حَتَّى يَجْتَمِعَ بِقَاتِلِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَيَأْتِيَ رَأْسُهُ فِي يَدِهِ، وَيَقُولُ: يَا رَبِّ! سَلْ هَذَا فِيمَ قَتَلَنِي؟.

وهذا ثابت عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

أما ما ذكره عن ابن عباس رَضِي اللهُ عَنْهُما؛ فهو أن رجلاً أتى ابن عباس بعد أن كُفَّ بصره، فناداه يا عبد الله بن عباس مَا تَرَى فِي رَجُلٍ قَتَلَ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا؟

وهذا الكلام الحمد لله أنه جاء في وقته, فقد سمعنا أول أمس ما وقع من جريمة قتل بشعة لهذا الشاب (محمود) نسأل الله عَزَّ وَجلَّ أن يغفر له، وأن يرحمه، وأن يسكنه الفردوس الأعلى، وقد كان من أهل القرآن، وقبلها كذلك وقعت جريمة قتل لمحامٍ، فالقتل أمره عظيم.

وانظر ماذا قال عبد الله بن عباس رَضِي اللهُ عَنْهُما، جاءه الرجل يقول له: مَا تَرَى فِي رَجُلٍ قَتَلَ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا؟ فقال ابن عباس: "جَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا، وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا".

فقال الرجل: أَفَرَأَيْتَ إِنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى؟ قال ابن عباس: " قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ثَكِلَتْهُ أُمُّهُ وَأَنَّى لَهُ التَّوْبَةُ وَالْهُدَى؟ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ سَمِعْتُ نَبِيَّكُمْ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: "ثَكِلَتْهُ أُمُّهُ؛ قَاتِلُ مُؤْمِنٍ مُتَعَمِّدًا جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ آخِذَهُ بِيَمِينِهِ أَوْ بِشَمَالِهِ تَشْخُبُ أَوْدَاجُهُ مِنْ قِبَلِ عَرْشِ الرَّحْمَنِ".

فهذا القاتل يأتي يوم القيامة وأوداجه وعنقه تشخب دمًا، وينزل هذا الدم.

"وَهُوَ يَلْزَمُ قَاتِلَهُ بِشِمَالِهِ وَبِيَدِهِ الْأُخْرَى رَأْسُهُ"؛ يعني: يُمسك قاتله بالشمال وبالأخرى يُمسك رأسه.

والله عَزَّ وَجلَّ قادر على كل شيء، وأحواله يوم القيامة تخالف أحوال الدنيا، فالكيفية لا نعلمها.

قال: "وَبِيَدِهِ الْأُخْرَى رَأْسُهُ، يقول: يا رب، سَلْ هَذَا فِيمَ قَتَلَنِي؟".

قال ابن عباس: "والذي نفس عبد الله بيده لقد أُنزلت هذه الآية فما نسختها من آية حتى قُبض نبيكم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ".

وهذا الحديث يُبين لنا خطورة قتل النفوس المعصومة.

ومنه كذلك ما جاء عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -وبعضهم رجح وقفه- جاء عن البراء بن عازب, عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: "لزوال الدنيا وما فيها أهون عند الله من قتل مؤمن، ولو أن أهل سماواته وأهل أرضه اشتركوا في قتل مؤمن لأدخلهم الله تعالى في النار".

وكذلك صح عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -كما في حديث معاوية- أنه قال: "كُلُّ ذَنْبٍ عَسَى اللهُ أَنْ يَغْفِرَهُ إِلَّا الرَّجُلُ يَقْتُلُ الْمُؤْمِنَ مُتَعَمِّدًا، أَوِ الرَّجُلُ يَمُوتُ كَافِرًا".

وجاء عن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُما، أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: "لو أن الثقلين -**أي: الجن والإنس**- اجتمعوا على قتل مؤمن لأكبهم الله تعالى على مناخرهم في النار، وأن الله عَزَّ وَجلَّ حرم الجنة على القاتل والآمر به".

وقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "مَنْ سَمَّعَ سَمَّعَ اللَّهُ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، قَالَ: وَمَنْ شاقَّ شقَّ اللَّهُ عَلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ"، فَقَالُوا: أَوْصِنَا يا رسول الله، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إِنَّ أَوَّلَ مَا يُنْتِنُ مِنَ الْإِنْسَانِ بَطْنُهُ، فَمَنِ اسْتَطَاعَ أَنْ لَا يَأْكُلَ إِلَّا طَيِّبًا فَلْيَفْعَلْ، وَمَنِ اسْتَطَاعَ أَنْ لَا يُحَالَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ بِمِلْءِ كَفٍّ مِنْ دَمٍ أَهْرَاقَهُ فَلْيَفْعَلْ"، أي: كان سببًا في سفكه.

وكذلك جاء عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -وصححه الألباني في الصحيحة- قال: "أَبَى اللهُ أَنْ يَجْعَلَ لِقَاتِلِ الْمُؤْمِنِ تَوْبَة".

وقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -كما عند البخاري-: "لَنْ يَزَالَ الْمُؤْمِنُ فِي فُسْحَةٍ مِنْ دِينِهِ، مَا لَمْ يُصِبْ دَمًا حَرَامًا".

فهذه النصوص كلها فيها بيان خطورة قتل النفوس المعصومة.

الطالب: غير مسموع.

الشيخ: كما قلنا: إن هناك حقوقًا ثلاث:

الحق الأول: وهو حق الله، يسقط بالتوبة.

وحق الولي, يسقط بالعفو أو بالدية.

ماذا عن حق المقتول؟ فهناك حق باقٍ إلى يوم القيامة، وهذا معنى أنه لا توبة له.

يعني: لن تكتمل توبته بسبب أن صاحب الحق سيطالبه بهذا الحق يوم القيامة.

والله عَزَّ وَجلَّ كتب على نفسه أن يعفو عن حقه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى لمن يشاء، أما حقوق العباد بعضهم من بعض فلابد من القصاص.

فجاء في بعض النصوص أن الله عَزَّ وَجلَّ يُرضي المقتول يوم القيامة حتى يعفو عن القاتل، وذلك إذا حسُنت توبته في الدنيا.

فالصحيح والراجح: أن من تاب تاب الله عليه، وأن هذا الجزاء الذي ذكره الله عَزَّ وَجلَّ قد يعارضه مانع, يمنع من استيفائه وحقوقه ووقوعه؛ وهو توبة العبد، وعفو الولي، وعفو صاحب الحق.

هذه الآيات التي ذكرها المصنف رَحِمَهُ اللهُ -كما قلنا-: من الغضب واللعن والكراهية والأسف والكره والمقت؛ كلها آيات ثابتة لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى على ما يليق به.

قال الشيخ رَحِمَهُ اللهُ: وَأَمَّا قَوْلُهُ: {فَلَمَّا آسَفُونَا}.

قال: فَالْأَسَفُ يُسْتَعْمَلُ بِمَعْنَى شِدَّةِ الْحُزْنِ، وَبِمَعْنَى شِدَّةِ الْغَضَبِ وَالسَّخَطِ، وَهُوَ الْمُرَادُ فِي الْآيَةِ.

وَالِانْتِقَامُ: الْمُجَازَاةُ بِالْعُقُوبَةِ، مَأْخُوذٌ مِنَ النِّقْمَةِ، وَهِيَ شِدَّةُ الْكَرَاهَةِ وَالسَّخَطِ.

فالله عَزَّ وَجلَّ موصوف بأنه يكره، لكن هل يكره بغير سبب؟ {وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ} [فصلت: 46].

كيف يكره عبده دون سبب يقوم بالعبد يستوجب الكراهية؟ فكما أنه يرضى عن العبد إذا كان فيه ما يُرضي الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى؛ فكذلك لا يكرهه ولا يغضب عليه ولا يلعنه وهو الرؤوف الرحيم سُبْحَانَهُ وَتعَالَى الذي سبقت رحمته غضبه؛ إلا إذا كان في العبد ما يستوجب ذلك.

فنثبت كل هذه الصفات لربنا سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، على ما يليق به، ولا نقول كما قال أهل البدع الذين نفوا هذه الصفات بحجة أن إثباتها يستلزم مشابهة المخلوق، فنقول: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}.

ثم نقول لهم: ماذا عن الصفات التي رددتم إليها هذه الصفات، أنتم تثبتون الإرادة، فالمخلوق له إرادة، فلماذا أثبتم صفة الإرادة لله وهي في المخلوق؟ فتراهم يقولون ماذا؟ يقولون: لكن إرادة الله عَزَّ وَجلَّ تختص به على ما يليق به، نقول: وكذلك غضبه وانتقامه وسخطه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى كل هذه الصفات تختص به على ما يليق به سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

فالله عَزَّ وَجلَّ موصوف بالغضب وابن آدم يغضب، فالاشتراك في معنى الصفة، هناك قَدْر مشترك، وهناك قَدْر فارق يعود إلى المتصف بهذه الصفة.

فالله يغضب وابن آدم يغضب، لكن غضب ابن آدم يليق بابن آدم، وغضب الله عَزَّ وَجلَّ يليق بالله، فنُثبت القَدْر المشترك.

وكذلك لا نُثبت القَدْر الفارق، نُثبت القَدْر المشترك ولا نُثبت القَدْر الفارق.

أي: الذي تفارق به صفة الخالق صفة المخلوق؛ لأنه ما من شيئين إلا وبينهما قدر مشترك وقدر فارق.

فجميع الموجودات تشترك في صفة الوجود، لكن هل وجودك كوجود غيرك من المخلوقات؟ كوجود الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى؟ فهناك قدر مشترك وقدر فارق.

فمن نفى القدر الفارق فقد مثَّل، الذي ينفي القدر الفارق فهذا مثَّل الله عَزَّ وَجلَّ بخلقه، ومن نفى القدر المشترك فقد عطَّل؛ الذي هو أصل الصفة ومعنى الصفة.

فنُثبت ما أثبته الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى لنفسه, ونقول: من الله الرسالة، وعلى الرسول البلاغ، وعلينا التسليم.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم، وجزاكم الله خيرًا.

الدرس الثامن عشر

إن الحمد لله, نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله تعالى من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله, صلى الله عليه, وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد:

فما زال الحديث موصولًا في قراءة هذا المعتقد المبارك معتقد أهل السنة والجماعة، والذي سطَّره شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ في العقيدة الواسطية.

وكنا قد وقفنا عند قوله:

وَقَولُهُ: {هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلاَئِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ} [البقرة: 210].

وقوله: {هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلاَئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ} [الأنعام: 158].

وقوله: {كَلاَّ إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا (21) وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا} [الفجر: 21-22].

وقوله: {وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلاَئِكَةُ تَنْزِيلاً} [الفرقان: 25].

هذه الآيات التي ذكرها المصنف رَحِمَهُ اللهُ ساقها لبيان عقيدة أهل السنة والجماعة في صفات الفعل الثابتة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ذكر المصنف بعض الآيات التي تدل على بعض صفات ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى، كذلك المتعلقة بمشيئته؛ كالغضب والبُغض والكراهية والرضا والمحبة.

وهاهنا يذكر آيات تتعلق بصفتين ثابتتين لله عَزَّ وَجلَّ, وهما: صفتا الإتيان والمجيء، الله عَزَّ وَجلَّ يأتي ويجيء، ومعناهما متقارب.

وقد أثبت لنفسه ذلك سُبْحَانَهُ وَتعَالَى؛ فقال: {هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ}.

وقال: {أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ}.

وقال: {وَجَاءَ رَبُّكَ}.

وقال: {وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلاً}.

ونزول الملائكة مقدمة لنزول الرب تَبَارَكَ وَتَعَالَى، ففيه إثبات صفة النزول له سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

فهاتان الصفتان ثابتتان لله عَزَّ وَجلَّ، ويؤمن أهل السنة والجماعة بهما، ويثبتونهما له سُبْحَانَهُ وَتعَالَى على ما يليق به, من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تمثيل ولا تكييف.

لأن القول في بعض الصفات كالقول في البعض الآخر، فإذا أثبتنا بعض الصفات لله عَزَّ وَجلَّ الواردة في كتاب الله وفي سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فالباب واحد؛ فنثبت غيرها من الصفات؛ لأن الذي أخبر بها أعلم بنفسه من غيره، والذي أخبر بها في سنته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أعلم بربه من غيره، {وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (3) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى} [النجم: 3-4].

فنثبتها على ما جاءت من غير تحريف، ومن غير صرف لها عن ظواهرها اللائقة به كحال أهل البدع، فهذه الصفات ورد ذكرها في كتاب الله وفي سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

إذًا: هي ثابتة من جهة النقل، والواجب تجاه ما ورد في الكتاب والسنة من الأخبار أن نصدقه.

وكذلك ليس في العقل ما يحيل إثبات هذه الصفات لربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى؛ لأن إثباتها إنما هو من جهة الكمال؛ فالمتصف بها أكمل ممن لا يتصف بها.

أيهما أكمل؟ الذي يأتي ويجيء وينزل ويفرح ويغضب، وله غير ذلك من الصفات التي ترجع إلى مشيئته وحكمته, هذا الذي يتصف بذلك أكمل، أم من سُلبت عنه هذه الصفات، فصار كالعاجز الناقص؟ لا شك أن من اتصف بذلك كان أكمل.

ولذلك أهل السنة والجماعة أثبتوا هذه الصفات لربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

قال الشيخ الهراس رَحِمَهُ اللهُ: وَقوله: {هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَآئِكَةُ وَقُضِيَ الأَمْرُ}.

قال: فِي هَذِهِ الْآيَاتِ إِثْبَاتُ صِفَتَيْنِ مِنْ صِفَاتِ الْفِعْلِ لَهُ سُبْحَانَهُ.

وَهُمَا صِفَتَا الْإِتْيَانِ وَالْمَجِيءِ، وَالَّذِي عَلَيْهِ أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ الْإِيمَانُ بِذَلِكَ عَلَى حَقِيقَتِهِ، وَالِابْتِعَادُ عَنِ التَّأْوِيلِ الَّذِي هُوَ فِي الْحَقِيقَةِ إِلحادٌ وَتَعْطِيلٌ.

التأويل منه ما هو صحيح ومنه ما هو فاسد كما مضى، أما الصحيح فهو التفسير أو مآل الأمور، وهذا هو الوارد في سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وفي كتاب الله عَزَّ وَجلَّ، ودللنا على ذلك بشواهد من كتاب الله وسنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الدروس الماضية.

ومن التأويل الصحيح كذلك: صرف اللفظ من المعنى الراجح الظاهر إلى المعنى المرجوح لقرينة.

وهذه القرينة قد تكون آية في كتاب الله أو حديثًا عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهذا كذلك تأويل صحيح؛ لأن الانتقال من معنًى إلى معنًى آخر إنما كان بناءً على قرينة ودليل، {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاَةِ فَاغْسِلُوا} [المائدة: 6]، أي: إذا أردتم القيام.

لماذا صرفنا ظاهر الآية؟ لأن ظاهر الآية: {إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاَةِ فَاغْسِلُوا}؛ أن ذلك يكون داخل الصلاة؛ إذا قمتم فاغسلوا.

وقد بينت سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن الوضوء إنما يكون قبل الصلاة، ثم إن الوضوء شرط لصحة الصلاة، والشرط يكون سابقًا للمشروط.

كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا دخل الخلاء قال: "اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْخُبُثِ وَالْخَبَائِثِ"، أي: إذا أراد أن يدخل الخلاء؛ لأن الاستعاذة إنما تكون قبل الدخول إلى موطن ذكران الجن وإناثهم، فهذا كله من التأويل الصحيح.

وأما التأويل الباطل الذي هو إلحاد وتعطيل: فهو صرف النصوص عن ظواهرها وعن صريح معناها بغير قرينة ولا دليل.

ولذلك قال: فأهل السنة والجماعة يؤمنون بهذه الصفات على حقيقتها، ويبتعدون عن التأويل الذي هو في الحقيقة إلحاد وتعطيل.

ولذلك قلنا: الصحيح أن ذلك لا يسمى تأويلاً، هذا الذي يصنعونه لا يسمى تأويلاً، وإنما يسمى تحريفًا، وهذا الذي ورد به الكتاب.

قال: {يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ} [النساء: 46]، وقال: {يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ} [المائدة: 41]؛ فهذا هو الذي ورد في كتاب الله في بيان التأويل الذي هو التحريف.

قال: ولعلَّ مِنَ الْمُنَاسِبِ أَنْ نَنْقُلَ إِلَى الْقَارِئِ هُنَا مَا كَتَبَهُ حَامِلُ لِوَاءِ التجهُّم وَالتَّعْطِيلِ فِي هَذَا الْعَصْرِ، وَهُوَ الْمُدْعُو بِزَاهِدٍ الْكَوْثَرِيِّ.

زاهد الكوثري هذا كان حنفيًا متعصبًا، وكان ماتريديًا، ذا نفس خبيث جدًا على أهل السنة والجماعة يسبهم سبًا شديدًا، لا يَسلم من سبه المتقدمون والمتأخرون من أهل السنة والجماعة الذين تكلموا في باب الاعتقاد خاصة، وله كلام قبيح جدًا فيهم.

فزاهد الكوثري لـمَّا علَّق على الأسماء والصفات للبيهقي، والبيهقي ما مذهبه؟ شافعي، والكوثري حنفي متعصب، لماذا يعلق على الأسماء والصفات للبيهقي وهو شافعي؟

هذا من خبثه، يريد كذلك أن يطعن في معتقد أهل السنة والجماعة ، والبيهقي أقرب للأشاعرة في هذا الباب، وقد كان من أهل الحديث رَحِمَهُ اللهُ، إلا أنه كان يعلق على بعض الأحاديث بما يحرفها عن المراد الصحيح.

فحشَّى على كتاب الأسماء والصفات للبيهقي، فماذا قال؟

قال: قَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ مَا مَعْنَاهُ.

يعني: في تأويل هذه الآيات، في تحريف معاني هذه الآيات.

إِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بعذابٍ فِي الْغَمَامِ.

الآية تقول: {إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ}؛ فالله هو الذي يأتي، ولذلك هذا الاسم الحسن (الله) هو فاعل الفعل (يأتيهم).

لكن الكوثري نقل عن الزمخشري قوله: إِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بعذابٍ فِي الْغَمَامِ الَّذِي يُنْتَظَرُ مِنْهُ الرَّحْمَةُ، فَيَكُونُ مَجِيءُ الْعَذَابِ مِنْ حَيْثُ تُنتظر الرَّحْمَةُ أَفْظَعَ وَأَهْوَلَ.

ثم قال: وَقَالَ إِمَامُ الْحَرَمَيْنِ فِي مَعْنَى الْبَاءِ كَمَا سَبَقَ.

يعني: {فِي ظُلَلٍ}، يعني: هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله بظلل من الغمام، فقال: إن (في) بمعنى الباء.

قال: وَقَالَ الْفَخْرُ الرَّازِيُّ: أَنْ يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ اللَّهِ.

فحمل هذه الآية على ماذا؟ على المجاز بالحذف، قال: إن الآية فيها حذف.

يعني: {أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ}، يعني: أن يأتيهم عذاب الله، أو يأتيهم أمر الله، والمجاز -كما قلنا-: هو ذريعة كل مبتدع لرد صفات الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

ولذلك سماه ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: طاغوتًا في الصواعق المرسلة.

هذا هو الطاغوت الذي سلطه أهل البدعة على صفات ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى, فنفوا هذه الصفات.

وقد نقول: إن المجاز قد يُصار إليه عند تعذر حمل اللفظ على معناه الحقيقي، وعلى معناه الظاهر، فهل يتعذر هاهنا أن نثبت لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الإتيان والمجيء؟ هل يتعذر أن نثبت لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الفرح والضحك والغضب والكره والبغض والمحبة؟

لا يتعذر ذلك؛ لأن إثبات هذه الصفات مضبوط بقول الله عَزَّ وَجلَّ: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} [الشورى: 11]، فنثبت الصفة ونثبت معناها، وأما كيفية ذلك فلا نعلم حقيقته.

فهؤلاء قالوا: إن في الآية مجازًا.

الكيفية لا نعلمها، نفوض الكيفية، وأما المعنى فإننا نعلمه، لكن هل لصفات الله كيفية؟

نعم لها كيفية, لكن لا نعلم حقيقة هذه الكيفية؛ لأننا لم نر الله عَزَّ وَجلَّ، وليس له سَميٌّ سُبْحَانَهُ وَتعَالَى حتى نراه، {وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ}، ولم يأتنا خبر من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن هذه الكيفية؛ ولذلك نُسلِّم ونقول: صدقنا بما جاء به الخبر.

قال الشيخ الهراس: فَأَنْتَ تَرَى مِنْ نَقْلِ هَذَا الرَّجُلِ عَنْ أَسْلاَفِهِ فِي التَّعْطِيلِ مَدَى اضْطِرَابِهِمْ فِي التَّخْرِيجِ وَالتَّأْوِيلِ.

عَلَى أَنَّ الْآيَاتِ صَرِيحَةٌ فِي بَابِهَا، لَا تَقْبَلُ شَيْئًا مِنْ تِلْكَ التَّأْوِيلاَتِ.

فَالْآيَةُ الْأُولَى.

وهي قول الله عَزَّ وَجلَّ: {هَلْ يَنْظُرُونَ}، وما معنى ينظرون؟ أي: ينتظرون، حيث إنها عُديت بنفسها، والنظر إذا عُدِّي بنفسه دون حرف الجر؛ فإنه بمعنى الانتظار.

يقول المنافقون للمؤمنين يوم القيامة: {انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ} [الحديد: 13]، أي: انتظرونا نقتبس من نوركم.

وإذا عُدِّي بحرف الجر (إلى)؛ فهو بمعنى النظر، {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (22) إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ} [القيامة: 22-23]، أي: ناظرة إلى ربها.

وإذا عُدِّي بحرف الجر (في)؛ فهو بمعنى التفكر، {قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ} [العنكبوت: 20].

{قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا}، أي: انظروا في الخلق، أي: تفكروا في الخلق، وكما قال تعالى (قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ)

قال ابن جرير: يقول تعالى ذكره: قل، يا محمد ، لهؤلاء المشركين من قومك، السائليك الآياتِ على صحّة ما تدعوهم إليه من توحيد الله وخلع الأنداد والأوثان: انظروا ، أيها القوم ، ماذا في السمواتِ من الآيات الدّالة على حقيقة ما أدعوكم إليه من توحيد الله ، من شمسها وقمرها، واختلافِ ليلها ونهارِها، ونزول الغيث بأرزاق العبادِ من سحابها ، وفي الأرض من جبالها ، وتصدُّعها بنباتها، وأقوات أهلها، وسائر صنوف عجائبها، فإن في ذلك لكم إن عقلتم وتدبَّرتم موعظة ومعتبرًا، ودلالةً على أن ذلك من فعل من لا يجوز أن يكون له في ملكه شريك ، ولا له على تدبيره وحفظه ظهير يُغْنيكم عما سواه من الآيات." انتهى.

فينظرون في الآية التي ذكرها الشيخ أي: ينتظرون، فالله عَزَّ وَجلَّ يتوعد هؤلاء.

فَالْآيَةُ الْأُولَى تتوعَّد هَؤُلَاءِ المصِرِّين عَلَى كُفْرِهِمْ وَعِنَادِهِمْ وَاتِّبَاعِهِمْ لِلشَّيْطَانِ بِأَنَّهُمْ مَا يَنْتَظِرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجلَّ فِي ظلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ لِفَصْلِ الْقَضَاءِ بَيْنَهُمْ.

و (في) هاهنا بمعنى: مع، (في) تأتي بمعنى: مع، ونحن نعلم أنه جائز في لغة العرب أن تتناوب حروف الجر، فالله عَزَّ وَجلَّ يقول: {قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ}، فهل نحن نسير في باطن الأرض أم على الأرض؟ على الأرض.

وكذلك قوله {فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ} [الجمعة: 10].

"ارْحَمُوا مَنْ فِي الْأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ"؛ فليس المقصود رحمة الدود الذي هو في باطن الأرض، ولكن ارحموا من هو على وجه هذه البسيطة.

فالله عَزَّ وَجلَّ يأتي مع ظُلل من الغمام لفصل القضاء بينهم، وَذَلِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلِهَذَا قَالَ بَعْدَ ذَلِكَ: {وَقُضِيَ الأَمْرُ}.

إذًا: هذه الآية فيها إثبات الإتيان لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

قال: وَالْآيَةُ الثَّانِيَةُ أَشَدُّ صَرَاحَةً؛ إِذْ لَا يُمْكِنُ تَأْوِيلُ الْإِتْيَانِ فِيهَا بِأَنَّهُ إِتْيَانُ الْأَمْرِ أَوِ الْعَذَابِ؛ لِأَنَّهُ ردَّد فِيهَا بَيْنَ إِتْيَانِ الْمَلائِكَةِ وَإِتْيَانِ الرَّبِّ، وَإِتْيَانِ بَعْضِ آيَاتِ الرَّبِّ سُبْحَانَهُ.

ما معنى ردد؟ أي قال: إلا، إلا، إلا، فهذا التقسيم يمنع حمل اللفظ على المجاز؛ كما يقول ابن القيم.

هذا التقسيم: {هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا}.

وقد فسر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذلك بطلوع الشمس من مغربها، فإذا طلعت الشمس من مغربها أُغلق باب التوبة، تاب الناس أجمعون لكن لا يقبل الله عَزَّ وَجلَّ توبة أحد يومئذٍ.

فهذه الآية تثبت إتيان الله عَزَّ وَجلَّ؛ ولذلك فرَّق الله عَزَّ وَجلَّ بين إتيانه وإتيان الملائكة وإتيان آياته سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، فكل ذلك يمنع حمل اللفظ على المجاز.

وَقَوْلُهُ فِي الْآيَةِ الَّتِي بَعْدَهَا: {وَجَاء رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا}.

قال تعالى: {كَلاَّ إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا} [الفجر: 21].

وهذا توكيد إما أن يكون المراد به أن الدك سيكون دكًا عظيمًا، أو أن الأرض تُدك دكًا بعد دك فيتكرر هذا الدك.

ثم بعد أن تُدك الأرض قال الله عَزَّ وَجلَّ: {وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا}؛ فهؤلاء يقولون: {وَجَاءَ رَبُّكَ}، أي: وجاء أمر ربك، يقولون: هاهنا مجاز بالحذف.

كما قال الله عَزَّ وَجلَّ: {وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ} [يوسف: 82]، أي: واسأل أهل القرية، فيقولون: هذه كذلك فيها مجاز بالحذف، وهذا كله لا دليل عليه، ولا يمتنع أن نحمل هذه الآيات على ظواهرها، ولا حذف هنا على الصحيح، إذ السياق يوضح أن المراد سؤال القرية التي هي مجمع الناس لا الجدار، وهذا يفهمه العربي دون حاجته لتقدير محذوف، وهنا الآية تنص على مجيء الرب ومجيء الملك بما يمنع المجاز، وذلك أن العطف يقتضي الاشتراك في أصل صفة المجيء ويمنع تأويل أحدهما دون الآخر كما هو معروف في لغة العرب.

قال: لَا يُمْكِنُ حَمْلُهَا عَلَى مَجِيءِ الْعَذَابِ؛ لِأَنَّ الْمُرَادَ مَجِيئُهُ سُبْحَانَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِفَصْلِ الْقَضَاءِ، وَالْمَلَائِكَةُ صُفُوفٌ؛ إِجْلَالًا وَتَعْظِيمًا لَهُ، وَعِنْدَ مَجِيئِهِ تَنْشَقُّ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ؛ كَمَا أَفَادَتْهُ الْآيَةُ الْأَخِيرَةُ.

وَهُوَ سُبْحَانَهُ يَجِيءُ وَيَأْتِي وَيَنْزِلُ وَيَدْنُو وَهُوَ فَوْقَ عَرْشِهِ.

وهذه كلها من صفات أفعاله.

ولذلك قلنا: إن كيفية صفاته سُبْحَانَهُ وَتعَالَى تفارق كيفية صفات المخلوقين، فالله عَزَّ وَجلَّ يفعل كل ذلك وهو فوق عرشه بائن من خلقه، فَهَذِهِ كُلُّهَا أَفْعَالٌ لَهُ عَلَى الْحَقِيقَةِ.

ثم قال: وَدَعْوَى الْمَجَازِ تعطيلٌ لَهُ عَنْ فِعْلِهِ، واعتقادُ أَنَّ ذَلِكَ الْمَجِيءَ وَالْإِتْيَانَ مِنْ جِنْسِ مَجِيءِ الْمَخْلُوقِينَ وَإِتْيَانِهِمْ نزوعٌ إِلَى التَّشْبِيهِ يُفْضِي إِلَى الْإِنْكَارِ وَالتَّعْطِيلِ.

ولذلك هؤلاء المبتدعة المعطلة ماذا صنعوا؟ شبَّهوا قبل أن يعطلوا، شبَّهوا الله عَزَّ وَجلَّ بخلقه ثم عطلوا بعد ذلك، فكل معطل مُشبه، لابد أن يُشبِّه وأن يقع في التشبيه قبل أن يعطل.

لكن لماذا ذهب هؤلاء لنفي مثل هذه الصفات؟ صفات الفعل التي ذكرناها هذه وهي الإتيان والمجيء؟

قالوا: لأن ذلك يستلزم الحركة، والحركة من صفات المخلوقين.

ما الدليل على ذلك؟ قالوا: الدليل آية من كتاب الله جاءت على لسان إمام المتكلمين، ومن إمام المتكلمين؟ قالوا: إبراهيم الخليل هو إمامنا!!

قال الله عَزَّ وَجلَّ حاكيًا ما وقع بينه وبين قومه: {فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ} [الأنعام: 76].

قالوا: {فَلَمَّا أَفَلَ}، أي: فلما تحرك الكوكب وغاب، {قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ}.

إذًا: الحركة من صفات المخلوقين، والإتيان والمجيء والنزول من جنس الحركة، وقد تأثر بهذا الاعتقاد الفاسد بعض اللغويين، فأدخلوه معاجمهم، وانظر ماذا قال ابن منظور بعد أن ذكر معنى الفعل نزل ومشتقاته، قال: وفي الحديث إِن الله تعالى وتقدّس يَنزِل كل ليلة إِلى سماء الدنيا النُّزول والصُّعود والحركة والسكونُ من صفات الأَجسام والله عز وجل يتعالى عن ذلك ويتقدّس والمراد

به نُزول الرحمة والأَلطافِ الإِلهية وقُرْبها من العباد" أين ما زعمه ابن منظور من كلام العرب؟!

فهؤلاء المعطلة يقولون: لو أثبتناها لله عَزَّ وَجلَّ لشبَّهناه بالمخلوقين، ولقلنا: إن الحوادث قد حلت به، وما لا يخلو من الحوادث فهو حادث؛ فربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى محرك غير متحرك، وهو المحرك الأول.

هل تعلمون هذا كلام من؟ هذا كلام فلاسفة اليونان، هذا كلام أرسطو معلم اليونان الأول كما يقولون، والفارابي معلم المسلمين الثاني بعد أرسطو، وابن سينا هو المعلم الثالث، فأين محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟!!

هكذا يسمون هؤلاء الثلاثة: أرسطو المعلم الأول، وأبو نصر الفارابي هو المعلم الثاني، وابن سينا الشيخ الرئيس هو المعلم الثالث.

بما وصف أرسطو هذا الإله؟ قال: هو محرك لا يتحرك.

إذًا: إذا كان لا يتحرك؛ فهذا يعني أنه لا تقوم به أي صفة من صفات الفعل التي تفيد الحركة والتغير، الاستواء والنزول والمجيء والإتيان، كل ذلك يقولون: من لازمه أن يتحرك.

إذًا: ننفي كل هذه الصفات.

فهؤلاء المبتدعة ليس زعيم طائفتهم ولا أصل اعتقادهم في هذا الباب ما كان عليه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصحبه، ليس منبع اعتقادهم كتاب الله وسنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وفهم أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإنما منبع اعتقادهم ما كان عليه الفلاسفة.

ثم تجد الواحد من هؤلاء يذم الفلسفة ويصفها بالإلحاد والزندقة؛ كما يذم الجهم بن صفوان ويطعن فيه ويخرجه من الإسلام إلى الكفر وهو في معتقده وأصوله متأثر بطريقة هؤلاء.

فهؤلاء قالوا: إن إبراهيم عَليهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَم هو إمام المتكلمين؛ لأنه قال: {فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ}.

فقالوا: إن إبراهيم عَليهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَم لما أراد أن يثبت وجود الرب تَبَارَكَ وَتَعَالَى استدل على صفاته ووجوده بماذا؟ بأنه لا يتحرك، وبأنه لا يغيب.

الزمخشري في كشافه يفسر هذه الآية هكذا: لا أحب عبادة الأرباب المتغيرين عن حال إلى حال، المنتقلين من مكان إلى مكان -يعني: المتحركين- المحتجبين بستر فإن ذلك من صفات الأجرام.

أي من صفات المخلوقات، ومن هذه المخلوقات الشمس والقمر والكواكب والنجوم.

وكذلك مثله الرازي الأشعري، كما جاء عنه في محصل أفكاره، وكما جاء عنه في تفسيره لهذه الآية، بل جعل الرازي هذا القول قول المحققين.

وكذلك الغزالي في قسطاسه، وأبو منصور الماتريدي في كتابه في التفسير، والذي سماه تأويلات أهل السنة.

وكذلك ابن حزم في الفِصل، وغير هؤلاء كثير كلهم يفسر هذه الآية على هذا القانون المبتدع؛ أن ما لا يخلو من الحوادث فهو حادث، وأن كل متحرك فهو حادث، يقولون: لأن إبراهيم عَليهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَم هكذا استدل على حدوث هذه المخلوقات.

ففسروا الأُفول بالحركة والتغير، ثم لما فسروا الأُفول بالحركة والتغير بنوا على ذلك أن المتحرك حادث، أن كل متحرك فهو حادث؛ لأن الحركة حدثت بعد أن لم تكن، وما لا يخلو من الحوادث فهو حادث.

ومن هنا كانت النتيجة المترتبة على الاستدلال بهذه الآية أنهم نفوا كل صفات الأفعال الواجبة لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى؛ كالاستواء والنزول والكلام والفرح والغضب والرضا والمجيء، وعطلوها وحرفوها تحت غطاء المجاز والتأويل، هذا بالنسبة للمتكلمين.

ماذا عن الفلاسفة؟ وعلى رأسهم في الاستدلال بهذه الآية أبو علي ابن سينا، ماذا قال عن هذه الآية؟ استدل بهذه الآية على إثبات وجود الرب، وهذا معناه أن إبراهيم عَليهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمَ خليل الرحمن هو إمام الفلاسفة كذلك!!

فاستدل بهذه الآية على إثبات وجود الرب، لكن ليس بطريقة المتكلمين في مسألة الحدوث، وأن ما لا يخلو من الحوادث فهو حادث، الحدوث والقِدَم.

ابن سينا استدل بهذه الآية على طريقة الفلاسفة، وهي طريقة الوجوب والإمكان.

فالمتكلمون يستدلون على وجود الله بالقِدَم والحدوث؛ ولذلك يقولون: إن الله قديم والعالم حادث, أحدثه الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، ويسمون الله عَزَّ وَجلَّ بالقديم.

بل المعتزلة يجعلون أخص صفة لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى هي صفة القِدَم، ورتبوا على ذلك أمورًا فاسدة منها أنهم نفوا كل صفات الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، وقالوا:

لأننا لو أثبتنا الصفات لتعددَ القدماء، وقلنا بقول النصارى، وهذا كلام باطل متهافت لا تقبله العقول، وسبق بيان تهافته وبطلانه.

الفلاسفة طريقتهم هي طريقة الوجوب والإمكان، فيقولون: إن كل مخلوق ممكن، لا يقولون: إن كل مخلوق حادث، لكن يقولون: إن كل مخلوق ممكن.

ما معنى ممكن؟ أي: ما حكم العقل بجواز وجوده وجواز عدمه أي أن العقل يحكم بأن أحمد هذا قد يوجد وقد لا يوجد، فما يحكم العقل بجواز أنه قد يوجد وقد لا يوجد, فهذا يسمى عندهم بالممكن.

ماذا عن الوجوب؟ هو ما حكم العقل بحتمية وجوده؛ أنه يمتنع عدم وجوده.

فالقسمة العقلية للوجود ثلاثة:

- ممكن الوجود
- وواجب الوجود
- وممتنع الوجود، أي يحيل العقل وجوده، كاجتماع النقيضين على محل واحد كأن يكون الشيء ساكنا متحركا في وقت واحد.

ولذلك يقولون: إن الله عَزَّ وَجلَّ واجب الوجود، وإن المخلوق ممكن الوجود، فاستدلوا بهذه الآية من هذا الطريق, وهو طريق الوجوب والإمكان.

فسروا الأُفول في قوله تعالى {فَلَمَّا أَفَلَ}، بالإمكان، أي: طالما أنه حدث بعد أن لم يكن وتغير وتحرك وأفل؛ فهذا دليل على إمكان وجوده لا وجوبه.

هكذا ترقوا في الاستدلال حتى وصلوا إلى إثبات واجب الوجود، والممكن لابد أن ينتهي وجوده إلى واجب الوجود؛ كما يقول ابن سينا في كتابه النجاة، له كتاب يسمى بالنجاة, ولا نجاة فيه، بل الهلاك فيه.

ويقول كذلك في كتابه الإشارات والتنبيهات: إن كل من هوى في حظيرة الإمكان فقد أفل.

في حظيرة الإمكان، أي: كان ممكنًا فهو آفل، أي: مُحدث مخلوق.

هل هذا الاستدلال بهذه الآية والذي ترتب على الاستدلال بهذه الطريقة نفي صفات الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى الفعلية، هل هو استدلال صحيح؟

لا شك أنه استدلال باطل؛ لأن تفسير الأفول بالحركة أو التغير أو الإمكان لا يُعرف في لغة العرب البتة، والقرآن نزل بلسان عربي مبين، فليس الأُفول في لغة العرب بمعنى الحركة والتغير.

وهذا التفسير حمل الهوى أصحابَه على القول به، حتى إنك لتعجب من أمثال الزمخشري، وإمام في لغة العرب, له قدر ومكانة عظيمة في فهمه لغة العرب، لكن مع ذلك يطوع اللغة العرب لما ينصر هواه بدعته.

فحمله اعتزاله على تقديم معاني أهل اليونان على معاني لغة العرب التي نزل بها القرآن، فليس في اللغة أن كل متحرك أو متغير يسمى آفلاً.

لا يُقال للمصلي الذي يتحرك يقوم ويقعد ويسجد، ولا يُقال للماشي أنه آفل، هذا ليس معروفًا في لغة العرب، ولا يُقال للتغير الذي هو استحالة كالمرض، إنسان يمرض بعد أن كان صحيحًا، وكاصفرار الشمس إن ذلك من الأُفول، وإنما يقال غابت الشمس واحتجبت، وهذا هو المعروف في لغة العرب.

إذًا: هذا لا ينصره دليل من لغة العرب، ولا من كتاب الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، فاستدلال المتكلمين بهذه الآية وقولهم: إن إبراهيم هو إمام المتكلمين في إثبات وجود الله عَزَّ وَجلَّ على هذه الطريقة، نقول: هو استدلال فاسد.

وأشد فسادًا منه استدلال الفلاسفة، لماذا؟ لأن الكوكب يتحرك، وهم يقالون: إن كل آفل ممكن، وهذا الكوكب أمَا تحرك إلا عندما نظر إبراهيم إليه أم أنه يتحرك أبدًا ودائمًا؟

القمر يتحرك دائمًا، فالكوكب يتحرك منذ بزوغه، ولم يقل إبراهيم عَليهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمَ لا أحب الآفلين، منذ بدأ حركته وتغير كما يفسرون الأُفول.

فأشد فسادًا من استدلال المتكلمين استدلال الفلاسفة -كابن سينا- للتدليل على التفريق بين الواجب والممكن.

يقول ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ في درء تعارض العقل والنقل: وذلك أن قانونهم جعل كل ما سوى الله عَزَّ وَجلَّ الذي يسمونه واجب الوجود ممكنًا.

يقولون: كل ما سوى الله عَزَّ وَجلَّ فهو ممكن، والله عَزَّ وَجلَّ واجب الوجود، فجعلوا الأفول صفة كل مخلوق بناءً على هذه الآية، فكل مخلوق يقولون: هو آفل، والعرب لا تسمي كل مخلوق آفلاً، ولا كل ممكن آفلاً، فهذا جاء كذلك بلغة العرب.

أضف إلى ذلك أن الآية حجة عليهم لا لهم، لأن إبراهيم عَليهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمَ لما رأى القمر بازغًا، قال: {هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ}، وقال ذلك في الشمس أيضًا؛ فتبين أن هذه الأجرام أفلت بعد أن لم تكن آفلة.

إذًا: الأُفول هاهنا وصف لازم أم وصف طارئ؟ وصف طارئ؛ لأن إبراهيم وصفها بالأُفول بعد أن لم تكن آفلة.

وابن سينا يقول: إن الأفول من لوازم الممكن؛ فصار الأفول وصفًا طارئًا كما هو واضح، وابن سينا يجعل الأفول الذي هو الإمكان وصفًا لازمًا للمخلوق.

إذًا كيف يستدل هؤلاء بقول الخليل عَليهِ الصَّلاةُ والسَّلاَم؟

فالصحيح -كما قلنا-: هو إثبات هذه الصفات التي وردت في كتاب الله وفي سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وإجراؤها على ظواهرها؛ فنُثبت لله عَزَّ وَجلَّ أنه يأتي وأنه يجيء سُبْحَانَهُ وَتعَالَى وأنه ينزل، وكل ذلك ثابت له لا على وجه مشابهة المخلوقين سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

قال المصنف رَحِمَهُ اللهُ بعد ذلك: وَقَوْلُهُ تعالى: {وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ}.

قبل أن ننتقل لهذه النقطة، هل يجوز أن نصف الله عَزَّ وَجلَّ بالحركة؟ لأننا قلنا هذا معروف في لغة العرب، إن من لوازم الإتيان والمجيء الحركة والنزول كذلك، لكن هل يجوز لنا أن نصف الله عَزَّ وَجلَّ بأنه يتحرك؟

نقول: هذا مما اختلف فيه أهل السنة والجماعة، فقوم أثبتوه وقالوا: هذا من لوازم اسمه (الحي القيوم)؛ الذي يقوم على شئون خلقه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، والذي يأتي ويجيء وينزل سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، واستوى على عرشه بعد أن لم يكن مستويًا عليه، وهذا الذي نصره الإمام الدارمي عثمان بن سعيد الدارمي رَحِمَهُ اللهُ في رده على بشر المريسي.

ومنعه آخرون من أهل السنة والجماعة, وقالوا: هذا لا يجوز؛ لأنه لم يرد في كتاب الله ولا في سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وتوقف قوم.

لكن الأسلم ماذا؟ أن نقف مع النص، ما ورد في الكتاب والسنة من صفة ثابتة فهذه نثبتها لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، وما دون ذلك فلا نثبته له سُبْحَانَهُ وَتعَالَى؛ لأن الأصل في هذا الباب التوقيف.

وهؤلاء الذين أثبتوه من أهل السنة والجماعة قالوا: هو من جنس قولنا بائن عن خلقه، استوى على عرشه وبان من خلقه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، ومن جنس قولهم: استوى بذاته، ومن جنس قولهم: القرآن كلام الله غير مخلوق.

فغير مخلوق لم ترد في كتاب الله ولا في سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكذلك لفظة البائن ولفظة بذاته؛ هذه كذلك لم ترد في كتاب الله وفي سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لكن لما احتاجوها للرد على أهل البدع ولم يكن في ذلك محظور شرعي تكلم بها من تكلم من أهل السنة والجماعة.

قال: وَقَوْلُهُ: {وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ} [الرحمن: 27].

وَقَوْلُهُ: {كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ} [القصص: 88].

الظاهر من هذه الآيات ماذا؟ أن المصنف رَحِمَهُ اللهُ ساقها لإثبات صفة الوجه لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

والوجه ثابت لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى كصفة ذاتية خبرية؛ دل على ذلك الخبر، أي: آية أو حديث، وهي صفة ذاتية لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، أي: لا تنفك عن ذاته سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

والقول فيها كالقول في غيرها من الصفات، فطالما أنها وردت في الكتاب وفي السنة وأجمع عليها أهل السنة والجماعة؛ فإننا نثبتها لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

ومن الكتاب هذه الآيات التي ذكرها المصنف ومنها قول الله عَزَّ وَجلَّ: {وَيَبْقى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الجْلالِ وَالإِكْرَامِ}.

(يبقى) ما إعرابه؟ فعل مضارع مرفوع وعلامة رفعه الضمة المقدرة على آخره، منع من ظهورها التعذر.

أي لا تستطيع أن تنطق بها لو ولو حاولت ليوم القيامة، لا تستطيع أن تنطق بهذه الضمة.

{وَيَبْقَى وَجْهُ}، ما إعراب (وجه)؟ ما الذي يبقى؟ الوجه، إذاً: (وجه): فاعل مرفوع وعلامة رفعه الضمة.

{وَجْهُ رَبِّكَ}، ما إعراب (الرب)؟ مضاف إليه، والرب: مضاف, والكاف كذلك مضاف إليه.

{ذُو الجْلاَلِ وَالْإِكْرَامِ}، ما إعراب (ذو)؟ صفة، صفة لماذا؟ لربك أم لوجه؟ لوجه، لأنها مرفوعة كالوجه.

وذو: مضاف.

والجلال: مضاف إليه.

والإكرام: معطوف.

لأن هذا الإعراب سينصر قول أهل السنة والجماعة بإثبات الوجه لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

قال هاهنا: {وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الجْلالِ وَالإِكْرَامِ}.

وقال تعالى: {كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ}.

قال الشيخ الهراس رَحِمَهُ اللهُ: قَوْلُهُ: {وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ} إلخ، تضمَّنت هَاتَانِ الْآيَتَانِ إِثْبَاتَ صِفَةِ الْوَجْهِ لِلَّهِ عَزَّ وَجلَّ.

وَالنُّصُوصُ فِي إِثْبَاتِ الْوَجْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ لَا تُحصى كَثْرَةً.

ولذلك نصوص إثبات الوجه متواترة.

وَكُلُّهَا تَنْفِي تَأْوِيلَ المعطِّلة الَّذِينَ يُفَسِّرُونَ الْوَجْهَ بِالْجِهَةِ أَوِ الثَّوَابِ أَوِ الذَّاتِ.

إذًا: هؤلاء كذلك حرَّفوا ولم يثبتوا الوجه لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى؛ لأنهم قالوا: إن إثبات الوجه يستلزم التشبيه؛ لأن إثبات الوجه واليد والرجل هذا يستلزم التجسيم، يستلزم أن يكون الله جسمًا، وأن يكون مفتقرًا إلى أبعاض وأجزاء، وهذه الأبعاض والأجزاء يفتقر بعضها إلى بعض حتى تتركب؛ فنفوا صفات الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، بهذه الشبه العليلة المبنية على تشبيه سابق، وتعطيل لاحق.

ومن قبيح قول الرازي -كما نقل عنه شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ في بيان تلبيس الجهمية- أنه لما تكلم عن هذه الصفات قال: أما في القرآن فبيانه من وجوه الأول وهو أنه ورد في القرآن ذكر الوجه وذكر الأعين وذكر الجنب الواحد وذكر الأيدي وذكر الساق الواحد فلو أخذنا بالظاهر يلزمنا إثبات شخص له وجه وعلى ذلك الوجه أعين كثيرة وله جنب واحد وعليه أيدٍ كثيرة وله ساق واحدة ولا نرى في الدنيا شخصاً أقبح صورة من هذه الصورة المتخيلة ولا أعتقد أن عاقلاً يرى بأن يوصف ربه بهذه الصفة!!

يعني: لو تخيلت أن تركب هذا الإله, وهو يريد أن ينفي الصفات, لك أن تتخيل ربًا على هذه الصورة له عيون كثيرة، لأن الله عَزَّ وَجلَّ قال: {تَجْرِي

بِأَعْيُنِنَا} [القمر: 14]؛ فظن هذا المعطل أن قول الله عَزَّ وَجلَّ: {تَجْرِي بِأَعْيُنِنا}، في إثبات العيون الكثيرة لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، وهذا إن لم يكن من العجمة التي أصابتهم، فهو من آثار الاعتقاد الفاسد.

الله عَزَّ وَجلَّ قال: {وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي} [طه: 39]؛ فهذا فيه إثبات عين واحدة، و {تَجْرِي بِأَعْيُنِنا}، فيه إثبات عين.

عين هذا مفرد مضاف؛ فيشمل الاثنين وما فوقها؛ لأن المفرد المضاف يجمع كل ذلك ويعم كل ذلك ويدخل فيه الجمع.

و {تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا}، نقول: إن أقل الجمع اثنان؛ فيشمل الاثنين فما فوق الاثنين.

قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "أَلَا إِنَّ رَبَّكُمْ لَيْسَ بِأَعْوَرَ، وَإِنَّ الدَّجَالَ أَعْوَرُ العَيْنِ اليُمْنَى"، والعور لا يكون إلا لذي عينين.

إذًا: الله عَزَّ وَجلَّ له كم عين؟ له عينان، ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى؛ كما في حديث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

لكن انظر إلى ما جرَّ هذا الاعتقاد الفاسد هؤلاء حتى صوروا ربهم تَبَارَكَ وَتَعَالَى على هذه الصورة؟

فقالوا: إن إثبات هذه الصفات الخبرية التي هي أبعاض وأجزاء بالنسبة لنا يستلزم أن يكون جسمًا، وأن يكون بعضه مفتقرًا إلى بعض.

فنقول: خيبكم الله، هذه صفات من؟ هذه صفات ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى، يعني: العينان واليدان والسمع والبصر والوجه، هذه صفات ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى، كان الله عَزَّ وَجلَّ بصفاته أم لم يكن بصفاته؟ هذه الصفات له أم لغيره؟

إذًا: هو غني بصفاته، حميد بصفاته, وليس بصفات غيره سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، فكيف يقال إنه مفتقر لهذه الصفات؟! نقول: إنه مفتقر لها لو كانت هذه الصفات لغيره، لكن أضافها لنفسه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى إضافة الصفة إلى الموصوف.

فحتى يفر هؤلاء من شبهة التمثيل والتشبيه فسروا الوجه بماذا؟ بالجهة أو الثواب، ففسروه بمخلوق، أو الذات, فقالوا: {وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ}، أي: وتبقى ذات ربك..

ولذلك قلنا: إن إعراب الآية يرد عليهم؛ لأن الله عَزَّ وَجلَّ قال: {وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ}.

إذًا: هاهنا النعت جاء للوجه وليس لربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى؛ فهذا مما يمنع تفسير الوجه بالذات.

قال الشيخ الهراس: وَالَّذِي عَلَيْهِ أَهْلُ الْحَقِّ أَنَّ الْوَجْهَ صفةٌ غيرُ الذَّاتِ، وَلَا يَقْتَضِي إِثْبَاتُهُ كَوْنَهُ تَعَالَى مُرَكَبًا مِنْ أَعْضَاءٍ، كَمَا يَقُولُهُ المجسِّمة، بَلْ هُوَ صِفَةٌ لِلَّهِ عَلَى مَا يَلِيقُ بِهِ، فَلَا يُشْبِهُ وَجهًا وَلَا يُشْبِهُهُ وَجْهٌ.

واستدلَّت المعطِّلة بِهَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِالْوَجْهِ الذَّاتُ؛ إِذْ لَا خُصُوصَ لِلْوَجْهِ فِي الْبَقَاءِ وَعَدَمِ الْهَلَاكِ.

وهذا قول باطل؛ لأننا لو قلنا: هب أن هاتين الآيتين يجوز لنا أن نقول: إن المراد بالوجه الذات، ماذا نصنع في قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "وَأَسْأَلُك لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجهِك الكَرِيم"؟

ماذا نصنع في قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -وهو أصرح من حديث عمار- في قوله في دعاء دخول المسجد: "أَعُوذُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ، وَبِوَجْهِهِ الْكَرِيمِ وَسُلْطَانِهِ الْقَدِيمِ"؟ ففرَّق بين الوجه وبين الذات.

هؤلاء يقولون كذلك كما ذكر الشيخ: إِذْ لَا خُصُوصَ لِلْوَجْهِ فِي الْبَقَاءِ وَعَدَمِ الْهَلَاكِ.

يعني: لماذا ذكر الله عَزَّ وَجلَّ الوجه؟

فنقول: إن الله عَزَّ وَجلَّ ذكر الوجه ونص عليه لأن المؤمنين دائمًا يتطلعون إلى رضا الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، وما تقع منهم عبادة إلا ابتغاء وجهه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى؛ فذكر الله عَزَّ وَجلَّ الوجه حملاً للمؤمنين على القيام بالعبادة، وعلى جعلها له سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

ونقول كذلك: إن الله عَزَّ وَجلَّ خص الوجه لجلاله وإكرامه وتشريفه؛ كما قلنا: لأنه مقصود عباد الله المؤمنين في أعمالهم.

لكن هل يُفهم من ذلك أن الوجه وحده هو الذي يبقى، فالله عَزَّ وَجلَّ قال: {كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (26) وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ}، هل يُفهم من ذلك أن الوجه وحده هو الذي يبقى يوم القيامة؟

نقول: لا يستلزم ذلك، لكن يُستفاد منه من هذه الآية: بقاء الله عَزَّ وَجلَّ؛ لأن بقاء صفة ذاتية لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى يستلزم بقاؤه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

ولذلك كان الشعبي رَحِمَهُ اللهُ يقول: إذا قرأت: {كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ}، فلا تسكت، هذا قول الشعبي وهو قول طيب.

يقول: إذا قرأت: {كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ}، فلا تسكت, ولكن صلها بها بعدها، لا تسكت حتى تقرأ: {وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ}.

يعني تقرأها هكذا: {كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (26) وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ} لأن المراد ليس هو إثبات فناء الأشياء وموتها، ليس هذا هو المراد هاهنا، بل المراد حمد الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى على بقاء وجهه بعد فناء ما يفنى من خلقه.

هذا هو الذي أراده الله عَزَّ وَجلَّ أن يحمد نفسه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، وهذا قول لا شك أنه قول طيب.

يقول الشيخ رَحِمَهُ اللهُ: وَنَحْنُ نُعَارِضُ هَذَا الاِسْتِدْلَالَ.

أي قولهم: إن إثبات الوجه يستلزم الجسم ويستلزم التشبيه.

الشيخ يقول: وَنَحْنُ نُعَارِضُ هَذَا الاِسْتِدْلَالَ بِأَنَّهُ لَوْ لَمْ يَكُنْ لِلَّهِ عَزَّ وَجلَّ وجهٌ عَلَى الْحَقِيقَةِ لَمَا جَاءَ اسْتِعْمَالُ هَذَا اللَّفْظِ فِي مَعْنَى الذَّاتِ؛ فَإِنَّ اللَّفْظَ الْمَوْضُوعَ لِمَعْنًى لَا يُمْكِنُ أَنْ يُسْتَعْمَلَ فِي مَعْنًى آخَرَ إِلَّا إِذَا كَانَ الْمَعْنَى الْأَصْلِيُّ ثَابِتًا لِلْمَوْصُوفِ، حَتَّى يُمْكِنُ لِلذِّهْنِ أَنْ يَنْتَقِلَ مِنَ الْمَلْزُومِ إِلَى لَازِمِهِ.

هذا الرد ذكره الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ في الصواعق المرسلة، أي أن هؤلاء الذين يقولون في قول الله عَزَّ وَجلَّ: {مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ} [ص: 75]، فيقولون: إن ذكر اليد مجاز عن القدرة.

فالقاعدة عندنا -كما يقول الشيخ هاهنا وكما يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ- يقول: لا يُستعمل اللفظ الموضوع لمعنى، إلا إذا كان هذا الذي أُضيف إليه هذا اللفظ متصفًا بالمعنى الحقيقي؛ لأنهم يقسمون الألفاظ إلى حقيقة ومجاز.

فاليد موضوعة لمعنى، واليد معناها معروف في لغة العرب، لا يستعمل هذا اللفظ في معنًى آخر. معنى القدرة –مثلاً–

مثلما تقول: لفلان يدٌ عليَّ، ما معنى لفلان يدٌ عليَّ؟ أي له فضل.

هذا لا يُقال إلا لصاحب يد حقيقية، هل تستطيع أن تقول لهذا الجدار يد عليَّ؟ لا تستطيع، وإنما هذا يُقال لصاحب اليد الحقيقية.

لما يقول الله عَزَّ وَجلَّ: {وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي}، ويقول تعالى: {تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا}؛ فتجد المفسرين يقولون في قوله تعالى: {تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا}، يعني: بحفظنا ورعايتنا وكلاءتنا.

هذا لا يكون إلا لصاحب عينين حقيقيتين؛ فهو الذي يستطيع أن يحفظ وأن يرعى.

فلا يجوز لنا أن نضيف المعنى الثاني إلى من أُضيف إليه هذا اللفظ إلا إذا كان ثابتًا له المعنى الأول، فكذلك الوجه هنا.

ثم قال الشيخ رَحِمَهُ اللهُ: عَلَى أَنَّهُ يُمْكِنُ دَفْعُ مَجَازِهِمْ بِطَرِيقٍ آخَرَ؛ فَيُقَالُ: إِنَّهُ أَسْنَدَ الْبَقَاءَ إِلَى الْوَجْهِ.

قال: {وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ}.

وَيَلْزَمُ مِنْهُ بَقَاءُ الذَّاتِ؛ بَدَلًا مِنْ أَنْ يُقَالَ: أَطْلَقَ الْوَجْهَ وَأَرَادَ الذَّاتَ.

لأن هذا قد تجده في كلام بعض من يرد على أهل البدع، فيقولون: أطلق الجزء وأراد الكل، وهذا لا يجوز في حق الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، أن يوصف الله عَزَّ وَجلَّ أو أن يُعبر عن صفاته بالكل والجزء، لكن يُقال: أطلق الوجه وأراد الذات سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

فلو أراد أن يرد عليهم فيقول: فَيُقَالُ: إِنَّهُ أَسْنَدَ الْبَقَاءَ إِلَى الْوَجْهِ، وَيَلْزَمُ مِنْهُ بَقَاءُ الذَّاتِ.

قال: وَقَدْ ذَكَرَ الْبَيْهَقِيُّ نَقْلاً عَنِ الْخَطَّابِيِّ أَنَّهُ تعَالَى لَمَّا أَضَافَ الْوَجْهَ إِلَى الذَّاتِ، وَأَضَافَ النَّعْتَ إِلَى الْوَجْهِ، فَقَالَ: {وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ}؛ دَلَّ عَلَى أَنَّ ذِكْرَ الْوَجْهِ لَيْسَ بِصِلَةٍ.

ما معنى ليس بصلة؟ أي يمكن حذفه، لأنهم قالوا: {وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ}، أي: وتبقى ذات ربك.

قال بعد ذلك: {ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ}، فالنعت هاهنا للوجه، فهذا يدل على أن ذكر الوجه ليس بصلة.

وَأَنَّ قَوْلَهُ: {ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ} صفةٌ لِلْوَجْهِ، وَالْوَجْهُ صفةٌ للذَّات.

وَكَيْفَ يُمْكِنُ تَأْوِيلُ الْوَجْهِ بِالذَّاتِ أَوْ بِغَيْرِهَا فِي مِثْلِ قَوْلِهِ عليه السلام فِي حَدِيثِ الطَّائِفِ: ((أعوذُ بنورِ وجهِكَ الَّذِي أشرقتْ لَهُ الظُّلُماتُ))، وَقَوْلِهِ فِيمَا رَوَاهُ أَبُو مُوسَى الْأَشْعَرِيُّ: ((حِجَابُهُ النُّورُ أَوِ النَّارُ، لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ))؟!.

قال: "لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ"، والبصر يكون في الوجه، فكيف يُفسر هذا الحديث بالذات؟

وكذلك هذا الذي ذكرناه من قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "وَأَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ".

وكذلك دعاء دخول المسجد.

فكل ذلك يرد عليهم القول بالمجاز، فنثبت لله عَزَّ وَجلَّ الوجه على ما ورد في كتاب الله وفي سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ولو تدبرت الآية الأخرى كذلك في سورة الرحمن لما نعت الله عَزَّ وَجلَّ ذاته، قال: {تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ} [الرحمن: 78].

وأما الوجه فقال: {ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ}, لو أردنا أن نعرب هذه الآية:

تبارك: فعل ماضٍ مبني على الفتح الظاهر على آخره.

اسم: فاعل مرفوع وعلامة رفعه الضمة.

واسم: مضاف.

وربك: مضاف إليه، والكاف كذلك: مضاف إليه.

ذي: صفة لربك، صفة مجرورة وعلامة جرها الياء، لأنها من الأسماء الستة.

وذي: مضاف.

والجلال: مضاف إليه.

فهنا النعت كان لذات الرب سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

وأما النعت في الآية الأولى التي ذكرناها فإنه لوجه ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم، وجزاكم الله خيرًا.

الدرس التاسع عشر

إن الحمد لله, نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله تعالى من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله, صلى الله عليه, وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد:

فما زال الحديث موصولًا في قراءة العقيدة الواسطية لشيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ, وقراءة شرح الشيخ العلامة محمد خليل هراس والتعليق عليه.

وكنا قد وصلنا إلى قول المصنف رَحِمَهُ اللهُ وهو يذكر الآيات الدالة على ما ثبت لربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى من صفات مثلى, ومن ذلك صفة اليدين.

فقال: وَقَوْلُهُ: {مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ} [ص: 75].

وَقَوْلُهُ: {وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ} [المائدة: 64].

هاتان الآيتان اللتان ذكرهما المصنف رَحِمَهُ اللهُ فيهما إثبات صفة اليد لله عَزَّ وَجلَّ, فالله عَزَّ وَجلَّ له يدان تليقان به, كما ثبت في كتابه وفي سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

واليد صفة ذاتية خبرية, ومعنى أنها صفة ذاتية أي: لا تنفك عن ذات الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى أبدًا, ومعنى أنها صفة خبرية أي: أن طريق معرفتها الخبر, والخبر يراد به كتاب الله وسنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فالله عَزَّ وَجلَّ له يد تليق به, نعلم المعنى, أما الكيف فلا يعلمه إلا هو سُبْحَانَهُ وَتعَالَى, فاليد معلومة والكيف مجهول والإيمان بهذه اليد وبمعناها وكيفيتها أمر واجب على كل مسلم, والسؤال عن الكيفية بدعة.

قال الشيخ الهراس رَحِمَهُ اللهُ: قَوْلُهُ: {مَا مَنَعَكَ} إِلَخْ؛ تضمَّنَتْ هَاتَانِ الْآيَتَانِ إِثْبَاتَ الْيَدَيْنِ صِفَةً حَقِيقِيَّةً لَهُ سُبْحَانَهُ عَلَى مَا يَلِيقُ بِهِ، فَهُوَ فِي الْآيَةِ الْأُولَى يُوَبِّخُ إِبْلِيسَ عَلَى امْتِنَاعِهِ عَنِ السُّجُودِ لِآدَمَ الَّذِي خَلَقَهُ بِيَدَيْهِ.

وَلَا يُمْكِنُ حَمْلُ الْيَدَيْنِ هُنَا عَلَى الْقُدْرَةِ؛ فَإِنَّ الْأَشْيَاءَ جَمِيعًا حَتَّى إِبْلِيسَ خَلَقَهَا اللَّهُ بِقُدْرَتِهِ، فَلاَ يَبْقَى لِآدَمَ خُصُوصِيَّةٌ يَتَمَيَّزُ بِهَا.

يريد الشيخ رَحِمَهُ اللهُ أن يقول هاهنا: إن الله عَزَّ وَجلَّ ذكر في هاتين الآيتين أن له يدين, وجاء ذلك منصوصًا عليه في آية المائدة, قال: {بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ}, فله يدان سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

ويريد أن يبين غلط وضلال وانحراف من حمل اليد على معنى القدرة أو النعمة, كما هو حال الجهمية الذين أوّلوا يد الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى فقالوا: هي بمعنى القدرة.

{يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ} [الفتح: 10], قالوا: قدرة الله فوق قدرتهم، دون إثبات اليد صفةً لله تعالى.

{مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ}, أي: لما خلقت بقدرتي.

إذا جاء في حديث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ", يقولون: أي: والذي ذاتي في قدرته, ولا يثبتون يدا حقيقة لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

ولهم في ذلك شبهتان:

▪ الشبهة الأولى: يقولون: إننا لو أثبتنا اليد لله لأثبتنا له الجارحة.

والجارحة تعني: أن الله جسم, والله منزه عن الجسمية, لأنه لا يُشبه خلقه, فشبهوا أولًا ثم عطلوا, وجعلوا ما ليس بلازم لازمًا.

فالفرق بين صفة الخالق وصفة المخلوق كالفرق بين ذات الخالق وذات المخلوق, فالخالق له ذات والمخلوق له ذات, فلماذا أثبتم ذاتًا للخالق وللمخلوق ذاتا؟

يقولون: لأن الذات تفارق الذات, نقول: كذلك الصفات تفارق الصفات, أنتم تثبتون بعض الصفات وتنفون بعضًا, فما الفارق بين هذه الصفات وتلك؟ لا تجد فارقًا منضبطًا عندهم, فنقول لهم: القول في بعض الصفات كالقول في بعضها الآخر, والقاعدة واحدة مضطردة, {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} [الشورى: 11].

نُثبت ما أثبته لنفسه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى, فلا يلزم من إثباتِ اليد لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى أن تكون كيد المخلوق, لأن ذات الله ليست كذات المخلوق, وإذا كانت الأيدي تختلف من مخلوق إلى مخلوق, وكيفيتها تختلف من مخلوق إلى مخلوق, فكيف بالخالق سُبْحَانَهُ وَتعَالَى الذي قال عن نفسه{لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ}؟!

▪ والشبهة الثانية: قالوا: إننا لو أثبتنا اليد فهذا يقتضي الافتقار إلى التركيب, فالله عَزَّ وَجلَّ مُركَّب من عينين ووجه ويدين ورجل, وهذا يعني: افتقار هذه الأجزاء بعضها إلى بعض, والله غني حميد.

ونقول: هذا ضلال مبين, وكلام في غيب ليس للعقول فيه مدخل, لأن الله عَزَّ وَجلَّ أعلم بنفسه من غيره, وأثبت هذه الصفات له سُبْحَانَهُ وَتعَالَى, والله عَزَّ وَجلَّ ذاته تفارق ذات المخلوق.

ثم نقول لهم: ما تريدون بقولكم هذ اللفظة المجملة: يفتقر بعضها إلى بعض, أو أبعاض وأجزاء؟

فإن قالوا: نريد هذا الذي أثبته الله عَزَّ وَجلَّ من صفة له, نقول: نعم, هي صفات ثابتة لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى, لكن هل سماها الله عَزَّ وَجلَّ في كتابه أو على لسان نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أبعاضًا وأجزاء؟ ما سماها كذلك, والأصل في هذا الباب التوقيف, فلا نسمي صفات الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى إلا بما سماها هو به.

ثم هذا الافتقار –هذا اللفظ- المجمل والموهم للنقص ماذا تريدون به؟ تريدون أن لله عَزَّ وَجلَّ صفات هي بالنسبة لنا أبعاض وأجزاء نحن نفتقر إليها ليكمُل جسدنا؟ فيقولون: أجل, نقول: هذا يتصور في حق المخلوق, فإنه يفتقر إلى هذه الأعضاء لأنها ليست ملكًا له, وإنما الذي أعطاه إياها الخالق سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

وأما ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى فهو صاحب هذه الصفات, ولم يزل متصفًا سُبْحَانَهُ وَتعَالَى, ولم يكتسبها بعد أن لم تكن كحال المخلوق.

قال الله عَزَّ وَجلَّ في حق المخلوق: {هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا (1) إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ} [الإنسان: 1-2]، وقال تعالى (وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

فالإنسان يكون نطفة, ثم علقة, ثم مضغة, ثم بعد ذلك العظام, ثم تكسى هذه العظام لحمًا, ثم تكون أعضاؤه, فتكتمل أعضاؤه, هذا متصور في حق المخلوق المشاهد, وأما في حق الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى فالله عَزَّ وَجلَّ غني حميد, غني بصفاته التي هي من لوازم ذاته.

فهذه كذلك كما قلنا شبهات عليلة أملاها عليهم اعتقادهم السابق, فإنهم اعتقدوا أولًا, ثم لما جاءت هذه الآيات والأحاديث صرفوها عن معانيها وحرفوها عن مراد الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

فهاهنا يقول: وَلَا يُمْكِنُ حَمْلُ الْيَدَيْنِ هُنَا عَلَى الْقُدْرَةِ, لماذا لَا يُمْكِنُ حَمْلُ الْيَدَيْنِ هُنَا عَلَى الْقُدْرَةِ؟ لأنها جاءت مثناة.

فهل قول الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى: {مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ}, أي: بقدرتيَّ؟ وهل لله عَزَّ وَجلَّ قدرتان فقط؟ هذا ضلال مبين, هذا لا يستجاز في لغة العرب, فمن أين جاءوا بهذا التأويل؟!

وكذلك: {بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ}, لو قلنا إن اليد هاهنا بمعنى القدرة إذًا: معنى الآية: بل قدرتاه مبسوطتان, فهل لله عَزَّ وَجلَّ قدرتان فقط؟! فهذا ضلال كذلك مبين, ولا يتفق مع سياق الآية.

يعني: حتى لو قلنا إن اليد قد تأتي في بعض المواضع على حسب السياق بمعنى القدرة, لكن نقول: هذا السياق يمنع أن تكون اليد بمعنى القدرة.

قال: فَلاَ يَبْقَى لِآدَمَ خُصُوصِيَّةٌ يَتَمَيَّزُ بِهَا.

لأن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى أضاف الخلق إلى نفسه, فقال: {مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ}.

فلو كان معنى الآية لما خلقت بقدرتي, ذلك أن الله خلق كل الأشياء بقدرته, فأيُّ تمييز لآدم عَليهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمَ في هذه الآية؟ وأيُّ خصوصية لآدم في هذه الآية؟ ولماذا يقول الناس لآدم عَليهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمَ في حديث الشفاعة: "يَا آدَمُ أَنْتَ أَبُو الْبَشَرِ، خَلَقَكَ اللَّهُ بِيَدِهِ"؟

إذا كان معنى اليد القدرة هل يريدون خلقك الله بقدرته؟ الله عَزَّ وَجلَّ خلق إبراهيم بقدرته ونوحًا بقدرته وعيسى بقدرته ومحمدًا بقدرته وجميع الخلق بقدرته سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

ومن بلاغة القرآن التي تتأكد بها صحة عقيدة أهل السنة في إثبات يدين حقيقيتين لله تعالى قوله تعالى في هذه الآية (لما) بدلا مِن (لمن) والمراد به آدم عليه السلام مع أن (ما)في أصل وضعها اللغوي لغير العاقل ، لكنها قد تستخدم للعاقل إن أريد بها الصفات والمعاني لا الذات، وهذا ما اختص به آدم عليه السلام أنْ خلقه الله بيديه سبحانه فاختص بصفة لم يشاركه فيها غيره من البشر فليس المراد هنا باليدين القدرة لأنه ليس لله قدرتان؛ فالتثنية تنفي المجاز.

ومِن بديع رد الإمام الدارمي على بِشرٍ المريسي في تحريفه لصفة اليدين .

قال رحمه الله : " ثم إنَّا ما عرفنا لآدم من ذريته ابناً أعقَّ ، ولا أحسدَ منه- يعني المريسي-؛ إذ ينفي عنه أفضل فضائله ، وأشرفَ مناقبه ، فيُسوِّيه في ذلك بأخسِّ خلقِ الله ، لأنَّه ليس لآدم فضيلةٌ أفضلَ من أنَّ الله خلقه بيده من بين خلائقه ، ففضَّله بها على جميع الأنبياء والرسل والملائكة ."

ثم نظم ابن القيم- رحمه الله - هذا المعنى في نونيته فقال :

ولدٌ عَقوق عقَّ والدَه ولم * يَثبت بذا فضلٌ على الشيطان !**

قال: وَفِي حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو: ((إِنَّ اللَّهَ عز وجل خَلَقَ ثَلاثَةَ أَشْيَاءَ بِيَدِهِ: خَلَقَ آدَمَ بِيَدِهِ، وَكَتَبَ التَّوْرَاةَ بِيَدِهِ، وَغَرَسَ جَنَّةَ عَدْنٍ بِيَدِهِ)).

فهذه الأمور الثلاثة خلق الله عَزَّ وَجلَّ بيده.

قال: فَتَخْصِيصُ هَذِهِ الثَّلاثَةِ بِالذِّكْرِ مَعَ مُشَارَكَتِهَا لِبَقِيَّةِ الْمَخْلُوقَاتِ فِي وُقُوعِهَا بِالْقُدْرَةِ دالٌّ عَلَى اخْتِصَاصِهَا بِأَمْرٍ زَائِدٍ.

الله عَزَّ وَجلَّ خلق جميع الخلق بقوله: {كُنْ}, وأما هذه الثلاثة المذكورة فخلقها الله عَزَّ وَجلَّ بيده, فلم تُخلق بالكلمة, لكن خلقها الله عَزَّ وَجلَّ بيده.

وهنا نص على هذه الثلاثة, والعلماء يقولون: إن التنصيص تخصيص, خاصة أنه ورد في مطلق الخلق أن الله عَزَّ وَجلَّ خلقهم بقوله: {كُنْ}, {إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ}, يعني: إرادة كونية, {أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} [النحل: 40].

إذا أراد الله عَزَّ وَجلَّ وجود شيء بعد أن لم يكن قال له: كن فكان, وأما هذه الثلاثة فقد نُص عليها, فدل ذلك على أنها فارقت المخلوقات في صفة الخلق.

قال: وَأَيْضًا؛ فَلَفْظُ الْيَدَيْنِ بِالتَّثْنِيَةِ لَمْ يُعرف اسْتِعْمَالُهُ إِلَّا فِي الْيَدِ الْحَقِيقِيَّةِ، وَلَمْ يَرِدْ قَطُّ بِمَعْنَى الْقُدْرَةِ أَوِ النِّعْمَةِ.

كما قلنا: قد يرد في لسان العرب أن اليد إذا أُفردت تكون بمعنى القدرة أو النعمة, فإذا قلت: لفلان يد عليَّ, ما معنى لفلان يد عليَّ؟ أي: نعمة سابقة عليَّ, فقد تأتي اليد بمعنى النعمة, لكن هذا -كما سيرد- لا يكون إلا في حق صاحب اليد الحقيقية, هذا الإطلاق لا يكون إلا في حق من له يد حقيقية.

ولذلك لا نقول: للجدار يد عليَّ, لا نقول: للكتاب يد عليَّ, وإنما نقول: لمحمد يد عليَّ.

فقال: فَلَفْظُ الْيَدَيْنِ بِالتَّثْنِيَةِ لَمْ يُعرف اسْتِعْمَالُهُ إِلَّا فِي الْيَدِ الْحَقِيقِيَّةِ، وَلَمْ يَرِدْ قَطُّ -يعني: لم يرد المثنى قط- بِمَعْنَى الْقُدْرَةِ أَوِ النِّعْمَةِ.

ونقول: وهب أنه جاء بمعنى القدرة؟ فلابد كذلك ألا يكون مضافًا لله كصفةٍ له تعالى, لأنه قد يُشكل علينا بأحاديث الدجال وأحاديث نزول عيسى بن مريم عَليهِ الصَّلاةُ والسَّلامَ, أنه إذا خرج يأجوج ومأجوج في آخر الزمان يقول الله عَزَّ وَجلَّ لعيسى: "إنه قد خرج أناس لا يدان لكم بهم, فحرِّز عبادي إلى الطور".

ما معنى "لا يدان لكم بهم"؟ يعني: لا طاقة ولا قدرة لكم بهم, الحديث في صحيح مسلم, قال: "لا يدان", ومعناه: لا قدرة.

فهل يُشكل بذلك على ما ذكرناه؟ نقول: لا يُشكل بذلك على ما ذكرناه, لأن اليد المثناة إنما جاءت مضافة, وأما الحديث الذي ذكرناه فقد جاء مقطوعًا عن الإضافة, فهو كقول الله عَزَّ وَجلَّ: {يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ} [القلم: 42].

وهذه الآية مما اختلف فيها السلف, هل هي من آيات الصفات أم ليست من آيات الصفات؟ ما سبب الخلاف؟ أنها لم تأت مضافة, لم تأت بهذا اللفظ: (يوم يُكشف عن ساقي), أي: لم يضفها الله عَزَّ وَجلَّ لنفسه في الآية, لم يُضف الساق لنفسه في الآية.

ولذلك قال ابن عباس: {يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ}, أي: عن أمر شديد.

وعلى هذا نقول: هذه الآية ليست من آيات الصفات.

وأما سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقد أثبتت الساق للرحمن, كما في حديث أبي سعيد الخدري عند البخاري: "يَكْشِفُ رَبُّنَا عَنْ سَاقِهِ", هنا الساق جاءت مضافة أم مقطوعة عن الإضافة؟ مضافة, إذًا: هي من صفات ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

أما الآية فلنا أن نقول: هي من الصفات أو ليست من الصفات لأنها مقطوعة عن الإضافة.

كذلك حديث عيسى: "إنه قد خرج أناس لا يدان لكم بهم, فحرِّز عبادي إلى الطور", نقول: هذه ليست مضافة, فليس فيها حجة على ما ذكروا.

قال: وَأَيْضًا؛ فَلَفْظُ الْيَدَيْنِ بِالتَّثْنِيَةِ لَمْ يُعرف اسْتِعْمَالُهُ إِلَّا فِي الْيَدِ الْحَقِيقِيَّةِ، وَلَمْ يَرِدْ قَطُّ بِمَعْنَى الْقُدْرَةِ أَوِ النِّعْمَةِ؛ فَإِنَّهُ لَا يَسُوغُ أَنْ يُقَالَ: خَلَقَهُ اللَّهُ بِقُدْرَتَيْنِ أَوْ بِنِعْمَتَيْنِ, عَلَى أَنَّهُ لَا يَجُوزُ إِطْلَاقُ الْيَدَيْنِ بِمَعْنَى النِّعْمَةِ أَوِ الْقُدْرَةِ أَوْ غَيْرِهِمَا -هذا هو الرد الثالث: لا يجوز هذا الإطلاق- إِلَّا فِي حَقِّ مَنِ اتَّصَفَ بِالْيَدَيْنِ عَلَى الْحَقِيقَةِ، وَلِذَلِكَ لَا يُقَالُ: لِلرِّيحِ يَدٌ، وَلَا لِلْمَاءِ يَدٌ.

قال: وَأَمَّا احْتِجَاجُ المعطِّلة بِأَنَّ الْيَدَ قَدْ أُفْرِدَتْ فِي بَعْضِ الْآيَاتِ، وَجَاءَتْ بِلَفْظِ الْجَمْعِ فِي بَعْضِهَا؛ فَلاَ دَلِيلَ فِيهِ؛ فَإِنَّ مَا يُصْنَعُ بِالِاثْنَيْنِ قَدْ يُنْسَبُ إِلَى الْوَاحِدِ.

أين جاءت اليد مفردة؟

{يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ}, "إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجلَّ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا".

أين جاءت اليد مجموعة؟

في آخر سورة يس: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا} [يس: 71], فجاءت مجموعة.

{وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ} [الذاريات: 47], الأيد هاهنا ليست بمعنى الأيادي أو الأيدي, لأن الأيدي بمعنى القوة والقدرة, ليست جمع يد, وسيأتي ذلك.

فهؤلاء قالوا: هذه اليد مرة جاءت مفردة, ومرة جاءت مثناة, ومرة جاءت جمعًا, فأي ذلك نُثبته لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى؟

وقالوا مثل ذلك في العين, فقالوا: العين مرة جاءت مفردة: {وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي} [طه: 39].

ومرة جاءت مثناة: "إِنَّ رَبَّكُمْ لَيْسَ بِأَعْوَرَ, وَإِنَّ الْمَسِيحَ الدَّجَّالَ أَعْوَرُ العَيْنِ الْيُمْنَى", والعور لا يكون إلا في عينيه.

ومرة جاءت مجموعة: {تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا} [القمر: 14].

قالوا: فأيُّ ذلك نُثبته لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى؟ فدل ذلك على أن اليد بمعنى: القدرة أو النعمة, وأن العين بمعنى: الرعاية والحفظ.

قال: وَأَمَّا احْتِجَاجُ المعطِّلة بِأَنَّ الْيَدَ قَدْ أُفْرِدَتْ فِي بَعْضِ الْآيَاتِ، وَجَاءَتْ بِلَفْظِ الْجَمْعِ فِي بَعْضِهَا؛ فَلَا دَلِيلَ فِيهِ؛ فَإِنَّ مَا يُصْنَعُ بِالِاثْنَيْنِ قَدْ يُنْسَبُ إِلَى الْوَاحِدِ؛ تَقُولُ: رَأَيْتُ بِعَيْنِي، وَسَمِعْتُ بِأُذُنِي.

وهل رأيت بعين واحدة؟ هل سمعت بأُذن واحدة؟ فهذا وارد في لغة العرب أن يأتي الإفراد ويراد به المثنى.

قال: وَسَمِعْتُ بِأُذُنِي، وَالْمُرَادُ: عَيْنَايَ، وَأُذُنَايَ.

وَكَذَلِكَ الْجَمْعُ يَأْتِي بِمَعْنَى الْمُثَنَّى أَحْيَانًا؛ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: {إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا} [التحريم: 4].

والخطاب موجه إلى حفصة وعائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

قال: وَالْمُرَادُ: قَلْبَاكُمَا.

لكن غير فصيح في لغة العرب, والقرآن جاء باللغة الفصحى.

فقال: وَكَذَلِكَ الْجَمْعُ يَأْتِي بِمَعْنَى الْمُثَنَّى أَحْيَانًا؛ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: {إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا} [التحريم: 4], وَالْمُرَادُ: قَلْبَاكُمَا.

قال: وَكَيْفَ يتأتَّى حملُ الْيَدِ عَلَى الْقُدْرَةِ أَوِ النِّعْمَةِ؛ مَعَ مَا وَرَدَ مِنْ إِثْبَاتِ الْكَفِّ وَالْأَصَابِعِ وَالْيَمِينِ وَالشِّمَالِ وَالْقَبْضِ وَالْبَسْطِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا لَا يَكُونُ إِلَّا لِلْيَدِ الحقيقيَّة؟!

وهذا رد آخر: هم يقولون: إن اليد بمعنى القدرة أو بمعنى النعمة, كيف ذلك وقد جاء صفات لليد تمنع حملها على هذا المعنى؟ فجاء أن لليد أصابع, وأن لليد أنامل, وأن هذه اليد تقبض وتبسط وتطوي, كل ذلك جاء في كتاب الله وفي سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وجاء في بعض الأحاديث –وإن كان بعض أهل العلم ضعفها- بأن لله عَزَّ وَجلَّ يدًا يمينًا ويدًا شمالًا, فجاء في حديث مسلم من رواية عمر بن حمزة, وهو راوي ضعيف, لكن جاء في المتابعات والشواهد ولم يأت أصلاً في الباب, جاء ذِكر الشمال في هذا الحديث, فمن أهل السنة من أثبت الشمال لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى, ومنهم من قال: بل يداه كلتا يديه يمين, كما جاء في الحديث وسيأتي توجيه ذلك.

فإذا جاء إثبات الكف والأصابع واليمين والشمال والقبض والبسط, ألا يكون ذلك لليد الحقيقية وليس لغيرها أم لا؟ بلى، إنما هو لليد الحقيقية, الكف صفة واردة لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

وردت صفة لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى في المتصدق أن صدقته تقع في كف الرحمن قبل أن تقع في يد المتصدق عليه, هذا ثابت عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "فِي كَفِّ الرَّحْمَنِ".

وجاء في حديث الصورة, قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "وَجَدْتُ بَرْدَ أَنَامِلِهِ".

وقال في حديث عبد الله بن مسعود: "إِنَّ اللَّهَ يَضَعُ السَّمَوَاتِ عَلَى إِصْبَعٍ وَالْأَرْضِينَ عَلَى إِصْبَعٍ".

فكل ذلك ثابت صفة لليد, فهذا كله مما يبين أن المراد باليد هاهنا اليد الحقيقية.

قال: وَفِي الْآيَةِ الثَّانِيَةِ.

والتي هي قول الله عَزَّ وَجلَّ: {وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ} [المائدة: 64].

يَحْكِي اللَّهُ سُبْحَانَهُ مَقَالَةَ الْيَهُودِ قبَّحهم اللَّهُ فِي رَبِّهِمْ، وَوَصْفَهُمْ إِيَّاهُ حَاشَاهُ بِأَنَّ يَدَهُ مَغْلُولَةٌ؛ أَيْ: مُمْسِكَةٌ عَنِ الْإِنْفَاقِ.

ثُمَّ أَثْبَتَ لِنَفْسِهِ سُبْحَانَهُ عَكْسَ مَا قَالُوا، وَهُوَ أَنَّ يَدَيْهِ مَبْسُوطَتَانِ بِالْعَطَاءِ؛ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ؛ كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: ((إِنَّ يَمِينَ اللَّهِ مَلأَى سحَّاء الليلَ والنهارَ؛ لَا تَغيضُها نَفَقةٌ)).

قال: تُرَى لَوْ لَمْ يَكُنْ لِلَّهِ يَدَانِ عَلَى الْحَقِيقَةِ؛ هَلْ كَانَ يَحْسُنُ هَذَا التَّعْبِيرُ بِبَسْطِ الْيَدَيْنِ؟!

أَلَا شاهَتْ وُجوهُ المتأوِّلين!!

فهذه الآية فيها رد على اليهود, لأنهم وصفوا الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى بالبخل كما وصفوه في آية أخرى بأنه فقير, {قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ} [آل عمران: 181] .

فقالوا: يد الله مغلولة, تعالى الله عن قولهم علوًا كبيرًا, فقال الله عَزَّ وَجلَّ: {غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ}.

وهذا إما أن يكون خبرًا من الله عَزَّ وَجلَّ, فهذا حال اليهود أبدًا أنهم بخلاء ممسكون أبدًا, وهذا واقع اليهود, فهم أبخل خلق الله كما هو معروف معلوم عنهم.

وإما أن يكون دعاءً عليهم, {غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ}, أي: أن يكون ذلك في الدينا والآخرة, يعني: أن تكون أيديهم مغلولة في الأسر, كتب عليهم الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى ذلك في الدنيا, وأن تكون كذلك مغلولة في جهنم, أي: غُلَّت أيديهم في الدنيا والآخرة.

{وَلُعِنُوا}, أي: أُبعدوا وطُردوا من رحمة الله, فاللعن هو الطرد من رحمة الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

أهل البدع المعطلون كانت لهم كما قلنا شبهات في هذا الباب خاصة, أي: باب إثبات اليدين لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى, وكل ذلك بسبب أنهم أعرضوا عن تركيب الآيات, فتركيب الآية وسياق الآية مهم جدًا في فهم مراد الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى, فلا يجوز لنا أن ننزع لفظة من سياقها ونقول معناها كذا.

ولذلك بيَّن أهل السنة والجماعة ضلالهم لما قالوا: {لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ}, أي: بقدرتيّ, فهل لله قدرتان؟ سياق الآية يأبى.

{بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ}, هل لله عَزَّ وَجلَّ قدرتان مبسوطتان فقط, نعمتان فقط؟ وهو الذي قال: {وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا} [النحل: 18].

إذًا: لابد من النظر إلى سياق الآية والتركيب.

ولذلك قلنا في: {يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ} من أهل السنة والجماعة ومن السلف من قال: أي: يوم يُكشف عن أمر عظيم وشدة وهول, وهذا كلام مقبول, مقبول لماذا؟ لأن سياق الآية يحتمل ذلك, لفظة الساق لم تأت مضافة إلى الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

فالآية تحتمل ذلك, لكن الحديث: "يَكْشِفُ رَبُّنَا عَنْ سَاقِهِ", فهذه صفة مضافة إلى الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى, ولذلك أثبتها أهل السنة والجماعة.

فهؤلاء ماذا قالوا؟ قالوا: كيف لنا أن نُثبت لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى يدًا وقد جاءت مفردة ومثناة ومجموعة؟ وهذا ذكره الرازي وكوَّن به صورة قبيحة لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى في مخيَّلته, وهذا عاقبة التعطيل أنهم يشبهون أولًا حتى يُنفِّروا الخلق عن صفات ربنا سُبْحَانَهُ وَتعَالَى ثم يأتي التعطيل.

يقول ابن جماعة يريد تعطيل الصفة: نقول لهؤلاء: -يعني: أهل الحديث المُثبتين لصفات الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى- ماذا تقولون عن قول الله تعالى: {يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ}, بإفراد اليد, مع قوله: {لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ}, بتثنيتها, مع قوله: {وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ}, بجمعها..

وقطعا هذا خطأ في فهم لغة العرب, لأن الأيد ليست هي جمع اليد, وإنما معناها القوة والقدرة.

يقول: فإذا كنتم تُعملون النصوص على ظواهرها حقيقة فأخبرونا, أله يدًا واحدة بناءً على الآية الأولى, أم له يدان اثنتان بناءً على الآية الثانية, أم له أيدٍ كثيرة أكثر من ثنتين بناءً على الآية الثالثة؟

قلنا: لا إشكال في ذلك, لكن هؤلاء لماذا عارضوا بمثل هذه الأمور؟ لأنهم اعتقدوا أولًا ثم استدلوا, فلا إشكال في أن تأتي اليد مفردة ومثناة ومجموعة, ولا إشكال أن تأتي العين مفردة ومثناة وكذلك مجموعة, لأن الله عَزَّ وَجلَّ لما قال: {يَدُ اللَّهِ}, فهذا مفرد مضاف إلى معرفة, فاسم الله أعرف المعارف وأعلى المعارف, فهذا مفرد مضاف إلى معرفة ماذا يفيد ؟

الطالب: يفيد العموم.

إذًا: هذا التركيب يفيد العموم, فيشمل كل ما ثبت لله من يد, وليس معناه أن لله يدًا واحدة.

إذًا: هذا التركيب يدل على أصل الصفة, لا يدل على العدد, فهو كقول الله تعالى: {وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا}, هل هذا يدل على عدد معين لنِعم الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى أم يدل على أصل الصفة وأصل النعم؟ يدل على أصل النعم.

ولذلك أفرد النعمة وعبر عنها بالإحصاء, وإنما يعبر بالإحصاء على النعم الكثيرة وعلى الأمور الكثيرة, "إِنَّ لِلهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ", وهذا عدد كثير.

وأما التثنية التي وردت في الآية فهي دالة على الحقيقة والعدد, لأنه لا يجوز حمل اليدين على المجاز ولا على معنى القدرة أو معنى النعمة, إذًا: هي نص في العدد.

ماذا عن الجمع؟ نقول: إن الجمع إما أن يكون على صورة التعظيم وهو يدل على أصل الصفة لا على حقيقة العدد, وهو كقول الله تعالى: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ} [الحجر: 9], ونحن, وقلنا, فهذا كله يدل على تعظيم ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

وإما أن يكون دالًا على التثنية, من جهة أن بعض العلماء قال: إن أقل الجمع اثنان, وهذا ورد في حديث ضعيف: "اثْنَانِ فَمَا فَوْقَهُمَا جَمَاعَةٌ".

ولذلك لو صلى المصلي وبجواره رجل آخر هل هي جماعة أم لا؟ جماعة.

فمن أهل العلم من قال: إن أقل الجمع اثنان, فإذا حُمل الجمع على أقله -الذي هو اثنان- فلا معارضة بينه وبين التسمية.

وإذا حملناه على صورته وعلى قول الجمهور: إن أقل الجمع ثلاثة, لأن الإفراد جاءت له التسمية أنه مفرد, والمثنى جاءت له التسمية, وما هو بخلاف المفرد والمثنى يكون جمعًا.

فنقول: الآية قد جاءت للتعظيم, كما قال الله عَزَّ وَجلَّ: {إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ} [الشعراء: 15], وكما ورد في الآية التي ذكرناها قبل ذلك.

فلا إشكال في الجمع بين الإفراد والتثنية والجمع, وبهذا يُردّ على ابن جماعة.

ثم نقول: إن الله عَزَّ وَجلَّ لما ذكر يده سُبْحَانَهُ وَتعَالَى قد نوَّع -وهذا من الإخبار عن الله عَزَّ وَجلَّ- في استعمال هذه اللفظة بصورة تمنع حملها على المجاز وعلى غير الحقيقة, فهناك قرائن تدل على أن الأصل هو الحقيقة وليس المجاز, وأن الأصل حمل هذه الآيات على ظاهرها.

فقال الله عَزَّ وَجلَّ: {لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ}.

وقال الله عَزَّ وَجلَّ: {وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ}, فأثبت القبض, والقبض من صفات اليد, {وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ} [الزمر: 67], فأثبت الطيّ, والطيّ كذلك من صفات اليد.

وجاء في حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِي اللهُ عَنْهُمَا, أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: "إِنَّ الْمُقْسِطِينَ عِنْدَ اللهِ عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ عَنْ يَمِينِ الرَّحْمَنِ عَزَّ وَجلَّ", واليمين صفة لليد, قال: "وَكِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ".

هل يجوز لنا أن نقول: وكلتا قدرتيْه يمين؟ وكلتا نعمتيْه يمين؟ هذا كله لا يجوز.

وكذلك جاء في حديث أبي هريرة, ان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: "إِنَّ يَمِينَ اللَّهِ مَلأَى لَا يَغِيضُهَا نَفَقَةٌ، سَحَّاءُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ، أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مُنْذُ خَلَقَ السماوات وَالْأَرْضَ، فَإِنَّهُ لَمْ يَنْقُصْ مَا فِي يَمِينِهِ، وَعَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ، وَبِيَدِهِ الْأُخْرَى".

قال: "وَبِيَدِهِ الْأُخْرَى", هل معنى ذلك وبقدرته الأخرى؟ فهل لله قدرة وقدرة؟ "وَبِيَدِهِ الْأُخْرَى الْفَيْضُ، أَوِ الْقَبْضُ، يَرْفَعُ وَيَخْفِضُ".

ولذلك قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ معلقًا على قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إِنَّ يَمِينَ اللَّهِ مَلأَى", قال: ويُتعقب بهذه اللفظة على من فسر اليد هاهنا بالنعمة, وأبعد منه من فسرها بالخزائن, وقال: أطلق اليد على الخزائن لتصرفها فيه.

فكل ذلك لا يجوز, والسياق يأباه.

وكذلك مما يُرد به على هؤلاء: تحقيق النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لمعنى هذه الصفة, فقد جاء في الصحيح من حديث أبي هريرة رَضِي اللهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى

اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: "يَقْبِضُ اللَّهُ الْأَرْضَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَيَطْوِي السَّمَاءَ بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَيْنَ مُلُوكُ الْأَرْضِ".

ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لما ذكر كلام النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بيَّن صفة قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لهذا الكلام, فأخبر أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جعل يقبض أصابعه ويبسُطها, لا يريد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ التشبيه والتمثيل, وإنما يريد أن يبين أن الصفة على حقيقتها, وأنها ليست بمعنى النعمة أو القدرة.

وكذلك مما يُرد عليهم: هذا الذي ذكره ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ وغيره, أن اليد والنعمة لا يُعرف استعمالها إلا في حق من له يد حقيقية إذا أُضيفت للحي, فلا يقال: يد الهواء, ولا يد الماء, فهذا كله يُرد به عليهم.

وكذلك مما يُرد به على هؤلاء: أن الآيات التي ذكرناها -آية ص, وآية المائدة- جاءت بتركيب يأبى حمل الكلام على القدرة, {خَلَقْتُ بِيَدَيَّ}, نسب الله عَزَّ وَجلَّ الخلق إلى نفسه, لأنه أسند الفعل إلى نفسه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

ذكر نفسه بصيغة المفرد مع ياء المتكلم, {خَلَقْتُ بِيَدَيَّ}, أنه عدّى الفعل بالباء, {خَلَقْتُ بِيَدَيَّ}, وهذا يدل على المباشرة, أي: باشر الله عَزَّ وَجلَّ خلق آدم بيده.

ولذلك أنت إذا قلت: كتبت بالقلم, هذا ماذا يُفهم منه؟ أنك باشرت الكتابة بالقلم, فهناك جهة فاعلة التي هي الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى فهو الذي خلق, وهناك جهة مباشرة للفعل الذي هو آدم عَليهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَم.

وكذلك مما يُرد به على هؤلاء: هذا التركيب, قال: {مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ}, إبليس لما اعترض ماذا قال: {قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا} [الإسراء: 61].

فلماذا عبر عن آدم بقوله: {لِمَا خَلَقْتُ}, ولم يقل: (لمن خلقت)؟ ونحن نعلم أن (ما) تأتي لغير العاقل, الأصل هي أنها تأتي لغير العاقل, و(من) تأتي للعالم والعاقل.

إذا جاءت في حق الله نقول تأتي للعالم, لأن الله عَزَّ وَجلَّ لا يُوصف بالعقل سُبْحَانَهُ وَتعَالَى, هذا لم يرد, ومع ذلك قال الله عَزَّ وَجلَّ عن آدم: {مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ}.

إذًا: هذا خلاف الأصل, الأصل المضطرد في لغة العرب.

لا يمكن أن نخرج عن هذا الأصل إلا لفائدة وإلا لعلة, وهذا نظر بلاغي مهم جدًا يستفاد به في تقريب مذهب أهل السنة والجماعة.

كما قلنا: لأن (من) للعالم أو العاقل إذا قُصد بها مجرد الشخص, أما إذا قُصد بها المعاني والصفات فإننا نعبر عن ذلك بـ(ما).

ولذلك قال الله عَزَّ وَجلَّ: {فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ} [النساء: 3].

إذًا: من حيث الصفة, فالمراد هاهنا الصفة التي تكون عليها المرأة.

ولذلك قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مما يؤيد هذا الكلام: "تُنْكَحُ الْمَرْأَةُ لِأَرْبَعٍ: لِمَالِهَا، وَلِحَسَبِهَا، وَجَمَالِهَا، وَلِدِينِهَا، فَاظْفَرْ بِذَاتِ الدِّينِ تَرِبَتْ يَدَاكَ", لهذه الصفات, وليس لمجرد أنها امرأة.

فلما قال: {لِمَا خَلَقْتُ}, هنا غُلِّب أمرٌ ما على مجرد شخص آدم, فليس المراد هاهنا شخص آدم, ولكن ما قام به من صفة ومن تخصيص وتمييز, ومرد هذا التمييز إلى ماذا؟ إلى ان الله خلقه بيده.

إذًا: آدم عَليهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَم اتصف بصفة ليس موجودة في سائر نسله, وهو أن الله عَزَّ وَجلَّ خلقه بيده, وأما سائر نسله فقال الله عَزَّ وَجلَّ لهم: كونوا فكانوا.

ولذلك إبليس لما ردّ قال { أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا}, فإبليس أراد أن يُنكر الفضائل والمعاني التي تميز بها آدم, فالله قال: {لِمَا خَلَقْتُ}, وإبليس قال: {لِمَنْ خَلَقْتَ}, فأراد أن يُنكر الفضائل والمعاني التي ميَّز الله عَزَّ وَجلَّ بها آدم عَليهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَم.

وكذلك مما يُرد به على هؤلاء: الأحاديث التي وردت في بيان صفة يد ربنا سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

وقبل أن أنسى, {وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ}, قولنا: {بِأَيْدٍ}, أي: بقوة, لأنها مصدر من الفعل (أَدَ), أي: قويَ واشتد, يقال: أَدَ, يَئِدُ, أَيْدًا, إذا اشتد وقويَ, فليست هي جمعًا لليد.

ماذا جاء في سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إضافة إلى الأحاديث التي ذكرناها, قال: **"لَا يَتَصَدَّقُ أَحَدٌ بِتَمْرَةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ، إِلَّا أَخَذَهَا اللهُ بِيَمِينِهِ، فَيُرَبِّيهَا كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فَلُوَّهُ، أَوْ قَلُوصَهُ، حَتَّى تَكُونَ مِثْلَ الْجَبَلِ أَوْ أَعْظَمَ"**, وهذا فيه إثبات صفة اليمين لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "قُلُوبُ الْعِبَادِ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ يُقَلِّبُهَا كَيْفَ يَشَاءُ", وهذا فيه إثبات الأصابع, والأصابع إنما تكون لليد.

جاء كما قلنا عند مسلم في بعض روايات أحاديث ذكر اليدين لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى: "وَبِيَدِهِ الْأُخْرَى".

وفي بعض الروايات: "وَبِشِمَالِهِ".

لكن هذه الرواية ضعيفة غير صحيحة, لأنها من رواية عمر بن حمزة وهو ضعيف, ولذلك جاء بها مسلم في الشواهد والمتابعات.

لكن الشاهد منها أنه إذا كانت اليد توصف بالشمال فهذا لا يصدُق على القدرة أو النعمة, وإنما هو وصف لليد الحقيقية.

ونقول: إن وصف اليد بـ(الشمال) لا يوهم النقص, لأن كلتا يديه يمين, أي: مليئة بالبركة. وأخيرًا نقول: قام إجماع أهل السنة والجماعة على إثبات اليدين لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

وقد حكى هذا الإجماع غير واحد من أهل السنة, منهم أبو الحسن الأشعري, وكذلك ابن تيمية والسفاريني وابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ.

ولكل ذلك نقول: لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى يدان حقيقيتان لهما صفات وردت في الكتاب وفي سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تمنع هذه الصفات أن تحرَّف اليد إلى معنى القدرة أو النعمة أو غير ذلك, وهذا يبين لنا صحة وقوة مذهب أهل السنة والجماعة كما هو أبدًا. وكذلك نقول: إن سياق الآيات والأحاديث يأبى هذا التحريف. فنسأل الله عَزَّ وَجلَّ أن يثبتنا وإياكم على هذا المعتقد حتى نلقاه, إنه ولي ذلك والقادر عليه, وجزاكم الله خيرًا.

الدرس العشرون

إن الحمد لله, نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله تعالى من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله, صلى الله عليه, وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد:

فقد وصلنا إلى قول شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ وهو يذكر الأدلة الواردة في كتاب الله على صفات ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

قال: وَقَولُهُ: {وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا} [الطور: 48].

وَقَولُهُ: {وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ (13) تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ} [القمر: 13-14].

وَقَولُهُ: {وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي} [طه: 39].

هذه الآيات التي ذكرها المصنف رَحِمَهُ اللهُ هي في إثبات صفة العين لله عَزَّ وَجلَّ؛ فالله عَزَّ وَجلَّ له عينان تليقان به سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، وعيناه كوجهه ويديه وقدمه وساقه، وغير ذلك مما ثبت في كتاب الله وسنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مما أطلق عليه أهل السنة والجماعة أنه صفة ذاتية خبرية؛ فالعين صفة ذاتية لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

- ومعنى كونها ذاتية: أي: لا تنفك عن ذات الله أبدًا.
- ومعنى كونها خبرية: أي: أن مرد إثباتها إلى الخبر إلى كتاب الله وسنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فهذه الآيات التي ذكرها المصنف رَحِمَهُ اللهُ فيها إثبات العينين لله عَزَّ وَجلَّ، وهذا مما أجمع عليه أهل السنة والجماعة؛ فإنهم أجمعوا على أن لله عَزَّ وَجلَّ عينين، ونقل هذا الإجماع غير واحد من أئمتهم.

قال ابن خزيمة رَحِمَهُ اللهُ في كتاب التوحيد: ونحن نقول لربنا الخالق عينان يبصر بهما ما تحت الثرى، وتحت الأرض السابعة السُفلى، وما فوق السماوات العُلى.

وأما سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فقد جاء فيها كذلك ما يبين أن لربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى عينين.

ومن ذلك ما جاء في الصحيح من حديث الدَّجَّال من أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال في وصفه: "إِنَّ رَبَّكُمْ لَيْسَ بِأَعْوَرَ، وَإِنَّ الدَّجَّالَ أَعْوَرُ العَيْنِ اليُمْنَى"، والعور لا يكون إلا في ذي عينين؛ فدل ذلك على أن لله عَزَّ وَجلَّ عينين تليقان به سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

وفي إحدى روايات أحاديث الدجال: أن الرجل المؤمن الذي يسمع بالدجال ويذهب لكي يحاججه، يلقاه جنود الدجال فيقولون له: إلى ما تعمِد؟ يقول: أَعْمِدُ إِلَى هَذَا الَّذِي خَرَجَ، فَيَقُولُونَ لَهُ: أَوَمَا تُؤْمِنُ بِرَبِّنَا؟ فَيَقُولُ: مَا بِرَبِّنَا خَفَاءٌ.

ماذا يعني بقوله : مَا بِرَبِّنَا خَفَاءٌ؟ أي: أن الله عَزَّ وَجلَّ أعلمنا بأسمائه وصفاته في كتابه وسنة نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقد جاءت في السنة: ﴿أَنَّ رَبَّكُمْ لَيْسَ بِأَعْوَرَ﴾، والدجال أعور، فكان ذلك سببًا في نجاته من هذه

الفتنة، فشرف العلم من شرف المعلوم. أنَّى للمعطل أن يقول ذلك لجنود الدجال؟!!

وكذلك ما جاء عند أبي داود وغيره من حديث أبي هريرة رَضِي اللهُ عَنْهُ، أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما قرأ قول الله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا} [النساء: 58]، فوضع صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إبهامه على أذنه، والتي تلي الإبهام على عينيه، يريد أن يُبين أن الله عَزَّ وَجلَّ موصوف بالسمع والبصر.

أما السمع؛ فالذي ورد فيه أن الله عَزَّ وَجلَّ يسمع وله سمع, وهو السميع سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، وأما صفة الأذن؛ فلم تثبت لله عَزَّ وَجلَّ، لم يرد نص بإثباتها؛ فلذلك لا نتكلم فيها إثباتًا أو نفيًا، وإنما نُمسك عن ذلك.

ماذا عن البصر؟ نقول: جاء النص بإثبات صفة البصر، وأن الله عَزَّ وَجلَّ يُبصر، وكذلك جاء النص بأن لله عينين؛ كما جاء في هذه الآيات وفي هذه الأحاديث التي ذكرناها.

فأهل السنة والجماعة يثبتون العينين لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، وسيأتي الجمع بين هذه الآيات، والتي فيها أن العين جاءت جمعًا في موضع وجاءت مفردة في موضع، وجاءت بالتثنية في حديث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويُشبه هذا الكلام في اليد؛ لأنه كما مضى في الدرس السابق أن اليد كذلك جاءت مفردة في موضع، وجاءت بالتثنية في موضع، وجاءت مجموعة في موضع، وبيَّنا أنه لا تعارض بين ذلك، وأن هذا مما تسعه لغة العرب.

قال الشيخ الهراس رَحِمَهُ اللهُ: قَوْلُهُ: {وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ} ... إِلَخْ الآيات.

قال: فِي هَذِهِ الْآيَاتِ الثَّلَاثِ يُثْبِتُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ لِنَفْسِهِ عَيْنًا يَرَى بِهَا جَمِيعَ الْمَرْئِيَّاتِ.

إذًا: من الذي يثبت لنفسه ذلك؟ الله عَزَّ وَجلَّ.

والله عَزَّ وَجلَّ أعلم بنفسه من غيره سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، ولذلك من رد هذه الصفات يقال له: أنت أعلم بالله من نفسه؟! أنت أعلم بالله من صفاته سُبْحَانَهُ وَتعَالَى؟!

لو لم يكن له هذه الصفات لما اثبتها لنفسه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، وقد وصف الله عَزَّ وَجلَّ كتابه بأنه هدى، قال: {الم (1) ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ} [البقرة: 1-2].

فإذا كان ظواهر هذه الآيات التي فيها صفات ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى لا تُحمل على ما هو معروف من لغة العرب من معنى هذه الصفات، لم يكن كتاب الله عَزَّ وَجلَّ هاديًا للخلق.

قال: وَهِيَ صِفَةٌ حَقِيقِيَّةٌ لِلَّهِ عَزَّ وَجلَّ عَلَى مَا يَلِيقُ بِهِ، فَلاَ يَقْتَضِي إِثْبَاتُهَا كَوْنَهَا جَارِحَةً مركَّبة مِنْ شَحْمٍ وَعَصَبٍ وَغَيْرِهِمَا.

بهذا يرد الشيخ الهراس رَحِمَهُ اللهُ على أهل التعطيل الذين لم يثبتوا لله عَزَّ وَجلَّ العينين، وهذا موجود عند سائر من خالف أهل السنة والجماعة.

فالجهمية لا يثبتون لله الأسماء والصفات، الأشعرية لا يثبتون لله العينين ولا الوجه ولا اليد ولا الساق ولا غير ذلك من الصفات الخبرية مع الصفات الفعلية، والمعتزلة كذلك، والماتريدية كذلك، هؤلاء لا يثبتون هذه الصفات لله عَزَّ وَجلَّ، لماذا؟

يقولون: لأن إثبات ذلك يقتضي التجسيم؛ أن يكون الله عَزَّ وَجلَّ جسمًا؛ لأن هذه المذكورات جوارح، والجارحة من خصائص المخلوق، والمخلوق جسم، فلو أثبتنا هذه الصفات لجعلنا الله عَزَّ وَجلَّ جسمًا كخلقه.

يقولون: إذا وردت هذه في أحاديث نقول: هذه الأحاديث أحاديث آحاد لا يُعمل بها في العقائد.

ماذا لو وردت في كتاب الله؟ نقول: هي مؤولة على معنى الحفظ والرعاية والعلم، لكن لا يثبتونها صفة لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

ونقول: هذا ليس بلازم للقواعد التي ذكرناها كثيرًا قبل ذلك؛ لأن هذه صفات ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى، فهي تليق بمن أُضيفت إليه، فالصفة على قدر الموصوف.

فالله عَزَّ وَجلَّ أضافها لنفسه، فكما أن ذاته لا تُشبه ذوات المخلوقين، فكذلك صفاته لا تُشبه صفات المخلوقين.

ثم يقال لهم كذلك: ماذا عن الصفات التي تثبتونها؟ أليس المخلوق متصفًا بها؟ يقولون: بلى، لكن المخلوق يتصف بها على وجه يليق به، والخالق يتصف بها على وجه يليق به.

نقول: والبابة واحدة، لماذا فرقتم بين صفة وصفة؟ ولماذا لم تجعلوا القاعدة مضطردة؟

يقولون: لأن العقل دل على ذلك، نقول: عقل من؟ وأين عقل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ أين عقولكم من عقل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ أين عقولكم من عقل أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟

إيتوا لنا بحديث واحد أو أثر عن واحد من أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تكلم بالعرض والجوهر والجسم والحيز والأبعاض والأجزاء، وغير ذلك من الألفاظ المُحدثة التي جعلتموها سبيلاً لرد صفات ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى؟

فهذا يدل على أن عقولكم فاسدة، غير مستقيمة، وليست على الهدي السوي المستقيم.

قال: وَتَفْسِيرُ المعطِّلة لَهَا بِالرُّؤْيَةِ.

فيقولون: {وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا}، يعني: نحن نراك، وهذا من تخليط الأشعرية؛ فإنهم يثبتون لله عَزَّ وَجلَّ السمع والبصر، يثبتون أن الله يرى، لكن لا يثبتون له العينين.

ولذلك يقولون: معنى: {فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا}، يعني: نحن نراك، فيفسرون الصفة بماذا؟ بأثرها.

ونقول: ولا بأس أن نفسر الصفة بأثرها مع إثبات الصفة، وهذا وارد في كلام السلف، فلا تجد في كلام السلف وفي تفاسيرهم عند تفسير كل آية تضمنت صفة من صفات الله عَزَّ وَجلَّ، لا تجدهم يقولون: وهذه الآية اشتملت على صفة كذا لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى؛ لأنهم قرروا ذلك من قبل.

فتجد الواحد منهم مثلاً يذكر عند قول الله عَزَّ وَجلَّ: {وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا}، أي يقول: على مرأى منا وحفظ منا، نحن نحوطك ونحفظك، مع إثباتهم لأصل الصفة.

ومن ذلك قول الطبري رَحِمَهُ اللهُ في هذه الآية: يقول الله تعالى ذكره لنبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: واصبر لحكم ربك يا محمد -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- الذي

حكم به عليك، وامضي لأمره ونهيه، وبلغ رسالاته، فإنك بمرأى منا نراك ونرى عملك، ونحن نحوطك ونحفظك، فلا يصل إليك من أرادك بسوء من المشركين.

فتجد الواحد ممن لا يفهم كلام السلف يأتي على مثل قول الطبري يقول: الطبري أوَّل، أئمتكم يؤولون.

فنقول له: هذا من جهلك بطريقة السلف، فالسلف يذكرون أثر الصفة مع إثباتهم للصفة.

إذًا: ما الفرق بين المثبتة من أهل السنة والجماعة والمعطلة؟ أن المثبتة يجمعون بين إثبات الصفة وأثرها وما تضمنته، وأما المعطلة؛ فإنهم لا يثبتون إلا الأثر فقط.

قال: وَتَفْسِيرُ المعطِّلة لَهَا بِالرُّؤْيَةِ أَوْ بِالْحِفْظِ وَالرِّعَايَةِ نفيٌ وتعطيلٌ.

وما عطلوا إلا لما شبهوا.

قال: وَأَمَّا إِفْرَادُهَا فِي بَعْضِ النُّصُوصِ وَجَمْعُهَا فِي الْبَعْضِ الْآخَرِ؛ فَلاَ حُجَّةَ لَهُمْ فِيهِ عَلَى نَفْيِهَا؛ فَإِنَّ لُغَةَ الْعَرَبِ تَتَّسِعُ لِذَلِكَ، فَقَدْ يعبَّر فِيهَا عَنِ الِاثْنَيْنِ بِلَفْظِ الْجَمْعِ.

كما قال تعالى: {إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا} [التحريم: 4]، والخطاب موجه لعائشة وحفصة رَضِي اللهُ عَنْهَما، ومع ذلك قال: {قُلُوبُكُما}؛ فعبر عن التثنية بصيغة الجمع، وهذا وارد في لسان العرب.

قال: وَيَقُومُ فِيهَا الْوَاحِدُ مَقَامَ الِاثْنَيْنِ كَما قدَّمنا فِي الْيَدَيْن.

ومن هنا نقول في هذه الآيات التي معنا: {وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا}، هذا مفرد أم جمع؟ هذا جمع مضاف؛ فيعم؛ فيشمل الواحد والاثنين والثلاثة وما فوق ذلك، الجمع المضاف يعم كالمفرد المضاف.

لماذا قال الله عَزَّ وَجلَّ: {فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا}؟ هذا خرج على صورة التعظيم؛ كما قال الله عَزَّ وَجلَّ: (إِنَّا) وقال: (نحن)؛ فهذا وارد في لسان العرب ومعروف في لسان العرب؛ أن الخطاب قد يأتي من المفرد على صورة الجمع من أجل التعظيم، وهذا لا ينفي أن يكون واحدًا أو أن يكون اللفظ يشير إلى اثنين.

ثم نقول: من أهل اللغة من قال: إن أقل الجمع اثنان، فإذا قال: {فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا}، فهذا فيه إشارة على أن لله عَزَّ وَجلَّ عينين.

قال: {وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ}، أي: على سفينة ذات ألواح.

و(الدُسُر) هي: المسامير أو القيود والحبال التي تُربط بها هذه الألواح، والمراد هاهنا: على سفينة ذات ألواح ودسر، والكلام عن نوح عَليهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَم.

{تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ}، والقول في {تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا}، كالقول في: {فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا}، فهذا كذلك جمع مضاف.

و (الباء) هاهنا للمصاحبة وليست للظرفية؛ ولذلك قال سلفنا الصالح: أي: تجري بمرأى منا، فعيْن الله تصحب المؤمنين وسادات المؤمنين الأنبياء والمرسلين.

قال: وَقَوْلُهُ: {وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي}.

{وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي}، هذه معناها: أن الله عَزَّ وَجلَّ أحب موسى عَليهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَم؛ ولذلك اصطفاه وجعله كليمه.

أو معناها: أن أحدًا لا يرى موسى عَليهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَم إلا ويحبه.

فالآية معناها: أن الله يحبه، أو أنه لا يرى أحد موسى عَليهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَم إلا ويحبه، ولا مانع أن تُحمل الآية على المعنيين، لأنه لا تضاد بينهما.

قال: {وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي}، يعني: لتُربى على عيني، ولتكون رعايتك على عيني.

هنا قال: {عَلَى عَيْنِي}، ولم يقل: بعيني، قلنا: (الباء) للمصاحبة، لكن جاء بـ(على) هاهنا لماذا؟

لأن أم موسى عَليهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَم وكذلك بنو إسرائيل ماذا كانوا يصنعون بأطفالهم؟ كانوا يخفونهم خشية أن يقتلهم فرعون، فهذا الإخفاء فيه عدم ظهور.

فقال الله عَزَّ وَجلَّ: {وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي}، و(على) تفيد الظهور، أي: أن الله عَزَّ وَجلَّ سيُظهر شأنه ويرفعه عَليهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَم.

العين هاهنا جاءت مفردة، لكن هذا مفرد مضاف، فكذلك يعم, ولا يعني أن لله عَزَّ وَجلَّ عينًا واحدة، وإنما هذا يشير إلى أصل الصفة، ولا يمنع أن تكون العين عينين أو ثلاثة أو أربعة؛ لأن المفرد المضاف يعم كل ذلك.

كما قال الله عَزَّ وَجلَّ: {وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا} [النحل: 18]، فليس لله عَزَّ وَجلَّ نعمة واحدة.

إذًا: الجمع المضاف لا ينفي المثنى، والمفرد المضاف كذلك لا ينفي المثنى، ويدخل فيه المفرد والمثنى والجمع، فجاءت سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لتنص على أن لله عينين، والتثنية أو المثنى ينفي المجاز ولا يقبل المجاز.

ولذلك قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إِنَّ رَبَّكُمْ لَيْسَ بِأَعْوَرَ، وَإِنَّ الدَّجَّالَ أَعْوَرُ العَيْنِ اليُمْنَى"، والعور لا يكون إلا لذي عينين؛ فدل أن لله عَزَّ وَجلَّ عينين، وعلى هذا إجماع أهل السنة والجماعة.

فلا حجة لهؤلاء فيما جاء في النصوص مفردًا، وفيما جاء فيها كذلك مجموعًا، قلنا: لأن لغة العرب تتسع لكل ذلك.

ثم قال رَحِمَهُ اللهُ: عَلَى أَنَّهُ لَا يُمْكِنُ اسْتِعْمَالُ لَفْظِ الْعَيْنِ فِي شَيْءٍ مِنْ هَذِهِ الْمَعَانِي الَّتِي ذَكَرُوهَا إِلَّا بِالنِّسْبَةِ لِمَنْ لَهُ عَيْنٌ حَقِيقِيَّةٌ.

وهذا كذلك رُد به على كلامهم في اليدين، فلا يقال: إن اليد بمعنى النعمة، أو إن اليد بمعنى القدرة، إلا في حق من له يد حقيقية.

قلنا: ولذلك لا يقال للريح عليَّ يدٌ، للجدار عليَّ يدٌ ، لليل عليَّ يدٌ، هذا لا يقال ولا يُقبل في كلام العرب، وإنما يقال لفلان عليَّ يدٌ؛ لأن له يدًا حقيقية.

فالله عَزَّ وَجلَّ له عينان -كما قلنا- تليقان به، لأنه لا يمكن استعمال لفظ العين؛ كما يقول الشيخ رَحِمَهُ اللهُ: فِي شَيْءٍ مِنْ هَذِهِ الْمَعَانِي الَّتِي ذَكَرُوهَا، يعني: الرعاية والحفظ، إِلَّا بِالنِّسْبَةِ لِمَنْ لَهُ عَيْنٌ حَقِيقِيَّةٌ.

قال: فَهَلْ يُرِيدُ هَؤُلَاءِ المعطِّلة أَنْ يَقُولُوا: إِنَّ اللَّهَ يتمدَّح بِمَا لَيْسَ فِيهِ، فَيُثْبِتُ لِنَفْسِهِ عَيْنًا وَهُوَ عاطِلٌ عَنْهَا؟!.

هل إثبات العين نقص أم كمال؟ إثبات العين كمال، المُبصر أكمل حالًا أم الأعمى؟ المُبصر، {قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ} [الأنعام: 50].

فهل الله عَزَّ وَجلَّ يتمدح بما ليس فيه من الكمال؟ هذا هو لسان حالهم، هؤلاء الذين أولوا الصفات وعطلوا الصفات هذا لسان حالهم.

وينبغي أن نعلم -أيها الإخوة- أن مسألة نفي صفة لله عَزَّ وَجلَّ أو إثبات صفة لله عَزَّ وَجلَّ، ليس بالأمر الهين.

القاعدة التي يقوم عليها هذا الباب باب الأسماء والصفات: النفي والإثبات؛ نفي ما نفاه الله عَزَّ وَجلَّ عن نفسه، وإثبات ما أثبته الله عَزَّ وَجلَّ لنفسه.

ماذا لو أثبت المخلوق للخالق صفة ليست له؟ هذا أمر عظيم شنيع، أمر شديد، هذا من أكبر الكبائر، هذا أشد عند الله من الزنا وقتل النفس.

ودليل ذلك قول الله تعالى: {وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا} [مريم: 88].

إذًا: أثبتوا لله عَزَّ وَجلَّ الولد، {لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا (89) تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (90) أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا (91) وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا} [مريم: 89-92].

كل هذا فيه رد على من أثبت صفة لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى لم يثبتها لنفسه.

ماذا عن هذا الذي نفى صفة عن الله عَزَّ وَجلَّ، الله عَزَّ وَجلَّ أثبتها لنفسه؟ هذا كذلك قال قول شديدًا، قال على الله عَزَّ وَجلَّ ونفى عن الله عَزَّ وَجلَّ ما أثبته لنفسه.

قال تعالى {وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (21) وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ} [فصلت: 21-22].

هم نفوا العلم تمامًا أم ظنوا أن الله لا يعلم بعض ما يخفونه؟ ظنوا أن الله لا يعلم بعض ما يخفونه، بما رد الله عَزَّ وَجلَّ عليهم؟

قال: {وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (23) فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ} [فصلت: 23-24].

هذا لمن نفى بعض ما يتعلق بصفة العلم، فكيف بمن نفى علم الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى كما سيأتي؟ كيف بمن نفى صفات الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى؟

فلسان حال هؤلاء المعطلة أنهم يقولون: إِنَّ اللَّهَ يتمدَّح بِمَا لَيْسَ فِيهِ، فَيُثْبِتُ لِنَفْسِهِ عَيْنًا.

وليس له عين، ويثبت لنفسه وجهًا وهو عاطل عن هذا الوجه، ويثبت لنفسه يدين وهو عاطل عن اليدين، هذا لسان حالهم.

قال: وَهَلْ يُرِيدُونَ أَنْ يَقُولُوا: إِنَّ رُؤْيَتَهُ لِلأَشْيَاءِ لَا تَقَعُ بِصِفَةٍ خَاصَّةٍ بِهَا؛ بَلْ هُوَ يَرَاهَا بِذَاتِهِ كُلِّهَا. كَمَا تَقُولُ الْمُعْتَزِلَةُ: إِنَّهُ قَادِرٌ بِذَاتِهِ، مُرِيدٌ بِذَاتِهِ ... إلخ؟!.

فالمعتزلة لا يثبتون لله صفة القدرة، وإنما يقولون: هو قادر بذاته، مريد بذاته، عليم بذاته.

يردون كل الصفات إلى الذات، ولا يثبتون لله عَزَّ وَجلَّ صفة، فهذا كله من ضلالهم.

قال: وَفِي الْآيَةِ الْأُولَى يَأْمُرُ اللَّهُ نبيَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالصَّبْرِ لِحُكْمِهِ، وَالِاحْتِمَالِ لِمَا يَلْقَاهُ مِنْ أَذَى قَوْمِهِ، ويعلِّل ذَلِكَ الْأَمْرَ بِأَنَّهُ بِمَرْأًى مِنْهُ، وَفِي كِلَاءَتِهِ وَحِفْظِهِ.

كما قال: {قُلْ مَنْ يَكْلَؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ} [الأنبياء: 42]، ومعنى (يكلؤكم)أي يحفظكم.

فيأمر الله عَزَّ وَجلَّ نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالصبر، والصبر لغة: الحبس، يقال: مات فلان أو قُتل فلان صبرًا، يعني: محبوسًا.

وأما الصبر في الاصطلاح: فهو حبس النفس على ما تكرهه تقربًا إلى الله تعالى.

يصبر لماذا؟ قال: يصبر لحكم ربه، لحكم الله.

وحكم الله عَزَّ وَجلَّ نوعان: حكم شرعي، وحكم كوني قدري.

- الحكم الشرعي يتعلق بأمره، ومنه ما أنزله الله عَزَّ وَجلَّ على لسان نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الوحي الذي هو القرآن، فالقرآن حكم الله الشرعي.

وكيف يكون الصبر لحكم الله الشرعي؟ بأمور ثلاث: بامتثال المأمور، وترك المحظور، وتصديق الخبر.

الصبر على حكم الله الشرعي يكون بامتثال المأمور، والمأمور يدخل فيه الواجب والمندوب، وترك المحظور وهذا يدخل فيه المحرم والمكروه.

والأمر الثالث قلنا: وتصديق الخبر، لأن القرآن نزل بلسان عربي مبين، وكلام العرب إما إنشاء وإما خبر، والإنشاء هو الطلب.

- النوع الثاني من حكم الله عَزَّ وَجلَّ: وهو حكم الله الكوني القدري؛ وهذا الذي يتعلق بخلقه، وهذا يجب على المرء أن يصبر عليه إن كان بلاءً، والصبر واجب وقد أمر الله عَزَّ وَجلَّ به في مواضع عديدة في كتابه، عدها الإمام أحمد رَحِمَهُ اللهُ وأوصلها إلى تسعين موضعًا.

وأما الرضا فمستحب، فيصبر المرء على قضاء الله الكوني القدري، وأما ما كان من قضاء الله الكوني القدري مما لا يحبه الله من الذنوب والمعاصي, فهذا هل يحبه المرء ويصبر على فعله أم يصبر على تركه؟ يصبر على تركه.

فعندنا صبر على الطاعة، وصبر على البلاء، وصبر عن المعصية، أي: ترك المعصية.

قال: {وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ}، والرب هو المالك المتصرف سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، الذي يربي خلقه على عينه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

قال: {فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا}، وهذه تعليلية.

إذًا هذا هو الذي ثبت قلب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وجعله يصبر على حكم الله الشرعي فبلغه، حتى قال الله عَزَّ وَجلَّ: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي} [المائدة: 3]، وصبر على حكم الله الكوني القدري، فعصمه الله عَزَّ وَجلَّ من الذلل، وكذلك صبر على أذية المشركين.

وقد أوذي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أشد الأذية، فقيل في حقه: إنه ساحر وكاهن وشاعر، ويأتي بأساطير الأولين، وتُهم في عرضه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ،

وتعرض لشخصه الكريم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأُلقي سلى الجذور على ظهره وهو يصلي، وخُنق صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكل ذلك وهو صابر محتسب أجره عند الله عَزَّ وَجلَّ.

لو أن أحدنا تكلم إنسان في حقه بكلمة ليست فيه، والله لا يستطيع النوم، وربما لم يصبر، وهذا يُبين لك كيف صبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأن الله عَزَّ وَجلَّ قال له: {فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا}؛ فالله عَزَّ وَجلَّ هو الذي ثبَّت قلب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال الله عَزَّ وَجلَّ كذلك في الآية الثانية: {وَحَمَلْنَاهُ}.

يعني: حمل نوحًا عَليهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَم على ذات ألواح ودسر، والألواح معروفة، قلنا: والدسر هي المسامير.

فيُخبر الله عَزَّ وَجلَّ أنه حمله على ذلك ونجاه من الطوفان ومن المشركين عبيد الأصنام، وكان قومه أول من أظهر الشرك، لكن حفظه الله عَزَّ وَجلَّ وحفظ سفينته على ما جاء في وصف هذا الطوفان العظيم في كتاب الله: {فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ (11) وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ} [القمر: 11-12].

التقى ماء السماء مع ماء الأرض، فلك أن تتصور وأن تتخيل كيف كان هذا الطوفان، ابن نوح عَليهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَم يقول: {سَآوِي إِلَى جَبَلٍ} [هود: 43]، فيعلوا الماء هذا الجبل حتى يغرق ولده، هذا كله يُبين لنا شدة هذا الطوفان.

ويقول الله عَزَّ وَجلَّ: {تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا}، يعني: كانت هذه السفينة تجري برؤية الله عَزَّ وَجلَّ لها، وحفظ الله عَزَّ وَجلَّ لها، فنجاه الله عَزَّ وَجلَّ وأغرق المشركين الكافرين.

وقال الله عَزَّ وَجلَّ لنوح عَليهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَم ومن معه: {اهْبِطْ بِسَلاَمٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ} [هود: 48]، فهذا يُبين لنا كيف تكون معية الله عَزَّ وَجلَّ لعبده المؤمن.

وهذه المعية ليست على درجة واحدة، رعاية الله عَزَّ وَجلَّ لعبده بالسمع والبصر والحفظ، هذه ليس على درجة واحدة.

لا يستوي فيها المرسلون والأنبياء مع سائر المؤمنين، لا يستوي فيها المؤمن كامل الإيمان مع العاصي، العاصي له قدر من معية الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، وقدر من سمع الله عَزَّ وَجلَّ، سمع الإجابة، لكن هذا لا يستوي مع المؤمن الذي صابر وثابر على طاعته سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

فهذه الآية كذلك فيها إثبات العينين لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

وكذلك ذكر الله عَزَّ وَجلَّ ما كان من حال موسى عَليهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَم، قال: {وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي}.

وهذه تزكية ما بعدها تزكية، أن يقول الله عَزَّ وَجلَّ في حق موسى: {وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي}، وأن يذكر الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى ذلك ويقول: {وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي}؛ فهذا فيه شرف لموسى عَليهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَم، فكرَّمه الله عَزَّ وَجلَّ بالوحي والرسالة وبالحفظ والرعاية.

قلنا: هذه الآيات فيها إثبات الصفات لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى على الوجه الذي يليق به، وقد رددنا على شبهاتهم.

ثم نقول أيضًا ردًا على هؤلاء: أنتم تقولون: ليس لله عين ولا عينان ولا ثلاثة، هذا كله لا يجوز في حق الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

نقول: قد أثبت الله عَزَّ وَجلَّ ذلك لنفسه في كتابه وعلى لسان نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وجاء ذلك صريحًا واضحًا في كلام النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ كما في حديث الدَّجَّالَ، قال: "إِنَّ رَبَّكُمْ لَيْسَ بِأَعْوَرَ".

فإن قالوا: إن معنى أعور: أي: معيب، "إِنَّ رَبَّكُمْ لَيْسَ بِأَعْوَرَ"، يعني: ليس بمعيب، ليس له صفة نقص، وإن الدَّجَّال معيب.

نقول أولًا: قولكم هذا جهل بلغة العرب؛ لأن العور لا يطلق على المعيب إلا إذا كان العيب في ذي عينين، هذا هو المعروف في لغة العرب.

ثم نقول: قد جاء النص على ذلك صريحًا في رواية البخاري، قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إِنَّ الدَّجَّالَ أَعْوَرُ الْعَيْنِ الْيُمْنَى، كَأَنَّ عَيْنَهُ عِنَبَةٌ طَافِيَةٌ".

تعرف عندما تفقأ العنب هكذا، تدري كيف يكون شكلها عندما يخرج الماء منها؟

إذًا: عين الدَّجَّالَ هكذا، حتى إذا رأيته -نسأل الله عَزَّ وَجلَّ السلامة والعافية- عرفته.

والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: "مَنْ سَمِعَ بِالدَّجَّالِ فَلْيَنْأَ عَنْهُ"، يعني: لا تذهب له, لا, هذا خلاف أمر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

لكن مع ذلك ذكر لك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صفةً لم يقلها واحد من الأنبياء لقومه قبل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ما من نبي أتى قومه إلا وحذرهم الدَّجَّال، التحذير من الدَّجَّال منذ متى؟

يقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إِنِّي أُنْذِرُكُمُوهُ، وَمَا مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا قَدْ أَنْذَرَهُ قَوْمَهُ، لَقَدْ أَنْذَرَهُ نُوحٌ قَوْمَهُ، وَلَكِنْ سَأَقُولُ لَكُمْ فِيهِ قَوْلًا لَمْ يَقُلْهُ نَبِيٌّ لِقَوْمِهِ".

من الذي أخبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن نوحًا عَليهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمَ لم يقل ذلك لقومه وقد كان أميًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يقرأ ولا يكتب ولم يطلع على كتب السابقين؟ هذا وحي.

جاء جبريل إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقال: يا محمد إن الله يخبرك بصفة للدجال لم يخبر أحدًا قبلك بها من الأنبياء والمرسلين، وهذا فيه محبة الله عَزَّ وَجلَّ لهذه الأمة، ورعاية الله عَزَّ وَجلَّ لهذه الأمة؛ لأنه يعلم سُبْحَانَهُ وَتعَالَى أن الدَّجَّال سيخرج في هذه الأمة.

ماذا قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "تَعْلَمُونَ أَنَّهُ أَعْوَرُ، وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِأَعْوَرَ".

إذًا: نص النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على عور الدَّجَّال؛ هذا من خصائص هذه الأمة التي أُخبرت بها، فلا يقال: أعور في لغة العرب إلا لذي عينين.

فهذا الحديث يدل على أن لله عَزَّ وَجلَّ عينين اثنتين فقط.

ثم نقول كذلك تأكيدًا لاعتقادنا أن الله عَزَّ وَجلَّ له عينان فقط، نقول كما يقول الشيخ ابن عثيمين: لو كان لله عَزَّ وَجلَّ أكثر من اثنتين لكان البيان به أوضح من البيان بالعور؛ لأنه لو كان لله أكثر من عينين لقال: إن ربكم له أعين؛

لأنه إذا كان له أعين أكثر من ثنتين صار وضوح أن الدَّجَّال ليس برب أبين، لماذا؟

كل مرئي من المخلوقات له عينان، كل ما تراه من المخلوقين له عينان، البهائم لها عينان، الإنس لهم عينان، الأسماك لها عينان، هذا هو الأصل.

والدَّجَّال سينزل بين الناس ويكلم الناس، وفيه كثير من صفات البشر وهيئة البشر، فلو كان للدجال أكثر من عينين لذكر ذلك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فإن ذلك سيكون أوضح في بيان حال الدَّجَّال.

فلما قال: "إِنَّهُ أَعْوَرُ، وَإِنَّ رَبَّكُمْ لَيْسَ بِأَعْوَرَ"؛ دل ذلك على أن لله عَزَّ وَجلَّ عينين.

يقول الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ: وأيضًا لو كان لله عَزَّ وَجلَّ أكثر من عينين لكان ذلك من كماله، وكان ترك ذكره تفويتًا للثناء على الله؛ لأن الكثرة تدل على القوة والكمال والتمام، فلو كان لله أكثر من عينين لبيَّنها الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لئلا يفوتنا اعتقاد هذا الكمال, وهو الزائد على العينين الثنتين.

وقد جاء حديث صريح في إثبات العينين لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، لكن هذا الحديث حديث ضعيف، وهو ما جاء أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: "إن العبد إذا قام في الصلاة قام بين عيني الرحمن"، لكن هذا الحديث -كما قلنا- حديث ضعيف، رواه العُقيلي في الضعفاء، والبزار في كشف الأستار, وقال الألباني رَحِمَهُ اللهُ في الضعيفة، قال: ضعيف جدًا.

هل يستدل بهذا الحديث في إثبات صفة العينين لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى ؟نقول: قد يُستدل به، لماذا؟

لورود الصحيح في إثبات الصفة، هذا أولًا.

ولإجماع أهل السنة والجماعة على إثبات الصفة -أعني العينين لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى-.

ثم من أهل السنة والجماعة من يستدل بمثل هذه الأحاديث لأنها تكون أصرح في الدلالة.

يعني: في حديث الدَّجَّال قال: "إِنَّ الدَّجَّالَ أَعْوَرُ، وَإِنَّ رَبَّكُمْ لَيْسَ بِأَعْوَرَ"، فلم يأت في حديث الدَّجَّال إن الله عَزَّ وَجلَّ له عينان.

لكن هذا الحديث قال: "إن العبد إذا قام في الصلاة قام بين عيني الرحمن"؛ فهذا أصرح في إثبات الصفة لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

قلنا: وعلى هذا إجماع أهل السنة والجماعة، وذكر هذا الإجماع غير واحد من أهل العلم, منهم: الدارمي في رده على بشر المريسي، ومنهم كذلك ابن خزيمة، وكذلك أبو الحسن الأشعري سيد الطائفة الذي تبرأ من هذه الطريقة بعد ذلك، ثم هم تبرءوا من طريقة أبي الحسن الأشعري وأنكروا آخر ما كتب، ومن ذلك الإبانة.

والمتقدمون من الأشعرية كانوا يثبتون هذه الصفات، كانوا يثبتون الصفات الخبرية، أعني العينين والوجه واليدين والاستواء، كانوا يثبتون هذه الصفات, ومنهم الباقلاني، وقبله تلاميذ الأشعري.

ثم بعد ذلك تطور حالهم وتدرجوا في أطوار حتى صاروا أشبه بأهل الاعتزال، فالأشعرية الآن طريقتهم طريقة المعتزلة، وأصولهم أصول المعتزلة.

فنثبت ما أثبته الله عَزَّ وَجلَّ لنفسه من صفات مثلى, ومن ذلك العينان، فلله عَزَّ وَجلَّ عينان تليقان به على ما جاء في كتاب الله وفي سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم، وجزاكم الله خيرًا.

الدرس الحادي والعشرون

إن الحمد لله, نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله تعالى من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله, صلى الله عليه, وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد:

فقد وصلنا إلى قول المصنف رَحِمَهُ اللهُ في عقيدته الواسطية:

وَقَوْلُهُ: {قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ} [المجادلة: 1].

وَقَوْلُهُ: {لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ} [آل عمران: 181].

وَقَوْلُهُ: {أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ} [الزخرف: 80].

وَقَوْلُهُ: {إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى} [طه: 46].

وَقَوْلُهُ: {أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى} [العلق: 14].

وَقَوْلُهُ: {الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ * وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ * إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} [الشعراء: 218-220].

وَقَوْلُهُ: {وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ} [التوبة: 105].

هذه الآيات التي ذكرها شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ ذكرها لإثبات صفة السمع والبصر والعلم والمعية والرؤية, هذه الصفات كلها قد وردت في هذه الآيات.

فصفة السمع وكذلك صفة البصر وكذلك صفة العلم صفات ذاتية لربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى لا تنفك عنه أبدًا, فهي من لوازم ذاته.

وهذه الصفة –أعني صفة السمع- لا ينفيها من الفرق إلا المعتزلة, ففرق الجهمية على اختلافهم من أشعرية وكلابية وماتريدية يُثبتون هذه الصفة, ولا ينفيها صراحة إلا المعتزلة؛ لأنهم يردون جميع الصفات إلى الذات, فيقولون: سميع بذاته عليم بذاته, لشبهتهم التي ذكرناها قبل ذلك.

يقولون: لو أثبتنا هذه الصفات لربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى فإما أن تكون هذه الصفات مُحدثة مخلوقة, فلو أثبتناها لجعلنا الله محل للمخلوقات والحوادث, وهذا كفر, ولو جعلناها قديمة فهذا يستلزم تعدد القدماء.

وعندهم أخص صفة لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى هي صفة القِدم, فلو أثبتنا هذه الصفات فإنهم يقولون يلزم من ذلك أن يكون هناك قدماء مع الله عَزَّ وَجلَّ, وهذا فيه شبه من عقيدة النصارى, وهذا جهل وضلال من جهة الشرع واللغة والعقل؛ كما بينا ذلك من قبل.

أما الشرع؛ فقد جاء بإثبات هذه الصفات لربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى, بل جاء التنوع في الشرع بما يدل دلالة قاطعة على أن الله عَزَّ وَجلَّ موصوف بهذه الصفات, فجاء: سمع, ويسمع, وسميع, وجاء توكيد ذلك كما سيأتي في الآيات.

وأما العقل؛ فإنه لا يُعقل ذات إلا وهي متصفة بصفات, وكل صفة تليق بالذات التي أُضيفت إليها, فصفات المخلوق مخلوقة مثله, وصفات الخالق سُبْحَانَهُ وَتعَالَى ليست مخلوقة, وإنما هي من كمال ذاته، أولية لأوليته سبحانه.

والله عَزَّ وَجلَّ لم يكتسبها بعد ان لم تكن, فهي من كماله, ولم يكتسبها من غيره سُبْحَانَهُ وَتعَالَى حتى يقال: إن إثبات هذه الصفات يستلزم الافتقار إلى الغير.

فلا ينفي هذه الصفة صراحة إلا المعتزلة, وأما غيره كالأشعرية؛ فإنهم مع إثباتهم لهذه الصفة -أعني صفة السمع والبصر- يقولون: إن هذه الصفة صفة قديمة, لا تتعلق بما جد وبما يحدث من مرئيات ومسموعات, فسمع الله قديم, وعلم الله قديم, وبصر الله قديم.

وشبهتهم في ذلك أيضًا أننا لو أثبتنا هذه الصفات وقلنا: إنها من النوع الذي يقال فيه إنه قديم النوع حادث الآحاد, أي: إنها من صفات ربنا تَبَارَكَ وَتعَالَى الذي لم يزل متصفًا بها ومع ذلك تتعلق بما يجد من مبصرات ومن معلومات ومن مسموعات, يقولون: لو أثبتنا ذلك لجعلنا الله عَزَّ وَجلَّ محلاً للتغير والحوادث.

وكل ذلك كما قلنا إنما هو مأخوذ من كلام الفلاسفة, وهو كلام بعيد كل البعد عن سنن الأنبياء والمرسلين وما جاءت به كتب رب العالمين.

يقول الشيخ الهراس رَحِمَهُ اللهُ: قَوْلُهُ: {قَدْ سَمِعَ اللَّهُ ...} إِلَخْ؛ هَذِهِ الْآيَاتُ سَاقَهَا الْمُؤَلِّفُ لِإِثْبَاتِ صِفَاتِ السَّمْعِ وَالْبَصَرِ وَالرُّؤْيَةِ.

أَمَّا السَّمْعُ؛ فَقَدْ عبَّرت عَنْهُ الْآيَاتُ بِكُلِّ صِيَغِ الِاشْتِقَاقِ، وَهِيَ: سَمِعَ، ويَسْمَعُ، وسميعٌ، ونَسْمَعُ، وَأسمَعُ، فَهُوَ صِفَةٌ حَقِيقِيَّةٌ لِلَّهِ، يُدْرِكُ بِهَا الْأَصْوَاتَ؛ كَمَا قَدَّمْنَا.

إذًا: هذا التنوع الذي جاء في هذه الآيات كقول الله: {قَدْ سَمِعَ}, {اللَّهَ يُسْمِعُ}, {لَقَدْ سَمِعَ}, {إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ}, هذا يدل على وجوب إثبات هذه الصفة كصفة لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى دون تحريف لها, ولذلك كان إنكارها من أبشع ما يكون.

لو أنها جاءت في آية واحدة لقلنا تنزلًا معهم: إن هذا قد يحتمل ما ذكرتموه, لكنها جاءت في آيات كثيرة -كما سنرى- وفي أحاديث كثيرة لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ, وكلها محمول على السمع الحقيقي والبصر الحقيقي.

قال: وَأَمَّا الْبَصَرُ؛ فَهُوَ الصِّفَةُ الَّتِي يُدْرِكُ بِهَا الْأَشْخَاصَ وَالْأَلْوَانَ، وَالرُّؤْيَةُ لَازِمَةٌ لَهُ.

قلنا: هذا من لوازم صفاته وذاته سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

وَقَدْ جَاءَ فِي حَدِيثِ أَبِي مُوسَى: ((يَا أَيُّهَا النَّاسُ ارْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ؛ إِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أصمَّ وَلَا غَائِبًا، وَلَكِن تَدْعُونَ سَمِيعًا بَصِيرًا، إِنَّ الَّذِي تَدْعُونَ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ عُنُقِ رَاحِلَتِهِ)).

فهنا أثبت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صفة السمع والبصر لربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى من جهتين:

أما الجهة الأولى: فهي أنه نص على كون الله عَزَّ وَجلَّ سميعًا بصيرًا, قال: ((وَلَكِنْ تَدْعُونَ سَمِيعًا بَصِيرًا)).

وأما الجهة الأخرى: فهي نفي الصمم والغيب عن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى, قال: ((إِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أصمَّ وَلَا غَائِبًا)), لأن هذه الصفات صفات نقص, والله عَزَّ وَجلَّ منزه عن النقص.

قال: وكلٌّ مِنَ السَّمْعِ وَالْبَصَرِ صِفَةُ كَمَالٍ.

وهذه هي الطريقة الثالثة, وهي: أن هذه الصفات صفات كمال, فلو لم تثبُت لله عَزَّ وَجلَّ الملك الخالق الرب الإله لاستلزم هذا نقصًا, أن يكون موصوفًا بالنقص, فلا يجادل أحد أن السمع والبصر والعلم والقدرة والإرادة, من صفات الكمال, وأن من اتصف بها اكمل حالًا ممن لم يتصف بها.

ولذلك قال الله عَزَّ وَجلَّ: {قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ} [الرعد: 16].

قال: وَقَدْ عَابَ اللَّهُ عَلَى الْمُشْرِكِينَ عِبَادَتَهُمْ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ.

أين هذا؟ لما قال إبراهيم عَليهِ الصَّلاةُ والسَّلاَم لأبيه: {يَاأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا} [مريم: 42], فعاب الله عَزَّ وَجلَّ على المشركين, لأنهم عبدوا آلهة لا تسمع ولا تبصر ولا تجيب هؤلاء.

قال: وَقَدْ نَزَلَتِ الْأُولَى.

يعني: قوله: {قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ} [المجادلة: 1].

فِي شَأْنِ خَوْلَةَ بِنْتِ ثَعْلَبَةَ حِينَ ظَاهَرَ مِنْهَا زَوْجُهَا.

قال لها: أنتِ عليَّ كظهر أمي, وكان الظهار في الجاهلية طلاقًا.

فَجَاءَتْ تَشْكُو إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتحاوِرُهُ، وَهُوَ يَقُولُ لَهَا: ((مَا أَرَاكِ إِلَّا قَدْ حَرُمْتِ عَلَيْهِ)).

جاء عند ابن أبي حاتم بسياق هو أتم مما عند البخاري رَحِمَهُ اللهُ, جاء عن عائشة رَضِي اللهُ عَنْهَا أنها قالت: "تَبَارَكَ الَّذِي أَوْعَى سَمْعُهُ كُلَّ شَيْءٍ، إِنِّي لَأَسْمَعُ كَلاَمَ خَوْلَةَ بِنْتِ ثَعْلَبَةَ وَيَخْفَى عَلَيَّ بَعْضُهُ وَهِيَ تَشْتَكِي زَوْجَهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهي تقول يا رسول الله أكل مالي وأفنى شبابي ونثرت له بطني حتى إذا كبر سِنِّي وَانْقَطَعَ وَلَدِي ظَاهَرَ مِنِّي، اللَّهُمَّ إِنِّي أَشْكُو إِلَيْكَ، قَالَتْ عائشة رَضِي اللهُ عَنْهَا: فَمَا بَرِحَتْ حَتَّى نَزَلَ جِبْرِيلُ بِهَذِهِ الْآيَةِ: {قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِها}".

وجاء عند البخاري كما ذكر الشارح رَحِمَهُ اللهُ: فِي ((صَحِيحِهِ)) عَنْ عُرْوَةَ عَنْ عَائِشَةَ رَضِي اللهُ عَنْهَا؛ قَالَتِ: ((الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وسعَ سمعُهُ الأصواتَ.

فربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى لا تخفى عليه خافية, يسمع كما قالوا: دبيب النملة السوداء في الليلة الظلماء على الصخرة الصماء, ولا يعذب عن سمعه وبصره شيء سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

قال: ((لَقَدْ جَاءَتِ الْمُجَادِلَةُ: اسم فاعل من الفعل جَادَلَ, يعني: خولة, تَشْكُو إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَنَا فِي ناحيةٍ مِنَ البيتِ مَا أَسْمَعُ مَا تَقُولُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عز وجل: {قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا ...} الْآيَاتِ)).

ومن أراد أن يعلم معنى قول عائشة رَضِي اللهُ عَنْهَا, وهي العليمة بربها وصفات ربها سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

من أراد أن يعلم معنى قولها: ((الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وسعَ سمعُهُ الأصواتَ)), فما عليه إلا أن يقرأ قول الله تعالى: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} [طه: 5].

وما عليه إلا أن يقرأ أثر عبد الله بن مسعود, والذي ذكر فيه: "أن ما بين السماوات والأرض مسيرة خمسمائة عام, وسُمك كل سماء مسيرة خمسمائة عام, وأن ما بين السماء الأولى إلى الثانية مسيرة خمسمائة عام, وهكذا إلى السماء السابعة, وفوق السماء السابعة بحر, وفوق البحر الكرسي, وفوق الكرسي عرش الرحمن, والله فوق العرش ولا يخفى عليه شيء من أعمالكم".

فالله فوق العرش, وعائشة رَضِي اللهُ عَنْهَا تقول: "إني معها في حجرة واحدة, ويخفى عليَّ بعض حديثها".

فيقول الله عَزَّ وَجلَّ بعد أن تشكو المجادلة زوجها, يقول: {قَدْ سَمِعَ}, و(قد) تفيد التحقيق, أي: تحقق سماع ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى لقول هذه المجادلة رَضِي اللهُ عَنْهَا.

فقال: {قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا}.

{وَاللَّهُ يَسْمَعُ}, هذا فيه رد على من؟ الأشعرية الذين يقولون: إن صفة السمع صفة قديمة.

يقول الله عَزَّ وَجلَّ: {وَاللَّهُ يَسْمَعُ}, سمع قديمًا أم يسمع وقت شكوى المجادلة لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ وقت شكوى المجادلة لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ولذلك نزلت هذه الآية وقت الشكوى.

ثم قال: {إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ}, و(إِنَّ) تعليلية, تبين لماذا سمع الله عَزَّ وَجلَّ شكوى هذه المجادلة, ولماذا وسع سمعه الأصوات كلها, لأن الله عَزَّ وَجلَّ موصوف بكمال السمع وكمال البصر, موصوف بصفة هي من كمال ذاته سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

قال: وَأَمَّا الْآيَةُ الثَّانِيَةُ.

والتي هي: {لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ} [آل عمران: 181].

قال: فَقَدْ نَزَلَتْ فِي فِنْحَاصَ الْيَهُودِيِّ الْخَبِيثِ -وفِنحاص هذا من أحبار اليهود وعلمائهم- حِينَ قَالَ لِأَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لَمَّا دَعَاهُ إِلَى الْإِسْلَامِ: وَاللَّهِ يَا أَبَا بَكْرٍ مَا بِنَا إِلَى اللَّهِ مِنْ حَاجَةٍ مِنْ فَقْرٍ، وَإِنَّهُ إِلَيْنَا لَفَقِيرٌ، وَلَوْ كَانَ غَنِيًّا مَا استَقْرَضَنا.

ذهب أبو بكر الصديق رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ليدعو هذا اليهودي, ذهب إليه في مِدراسه كما جاء في أسباب النزول, في المكان الذي يتعلمون فيه وعرض عليه الإسلام, فكان من جواب هذا الخبيث أنه قال هذه الجملة لأبي بكر الصديق, فماذا فعل الصديق؟ فصكه أبو بكر الصديق رَضِيَ اللهُ عَنْهُ صكًا شديدًا على وجهه, فغضب فِنحاص, وذهب للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ, وقبل ذلك كما جاء في أسباب النزول أن الصديق رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: "والله لولا ما كان بيننا وبينكم من عهد وميثاق لضربت عنقك", فذهب فنحاص إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يشكو أبا بكر, فلما سأل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أبا بكر الصديق عما

فعل ذكر له السبب الذي من أجله ضربه وصكه على وجهه, فجحد فنحاص, فأنزل الله عَزَّ وَجلَّ: {لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ}.

وهذه كذلك فيها تحقق سمع الله عَزَّ وَجلَّ وسماع الله لما جرى بين أبي بكر الصديق رَضِي اللهُ عَنْهُ وهذا اليهودي, لأن الله عَزَّ وَجلَّ قال: {لَقَدْ سَمِعَ}.

قال: وَأَمَّا الْآيَةُ الثَّالِثَةُ.

والتي فيها قول الله تعالى: {أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ} [الزخرف: 80].

قال: فَـ (أَمْ) بِمَعْنَى (بَلْ).

(بل يحسبون), يحسبون يعني: يظنون.

قال: فَـ (أَمْ) بِمَعْنَى (بَلْ)، وَالْهَمْزَةُ لِلاِسْتِفْهَامِ، فَهِيَ (أَمِ) الْمُنْقَطِعَةُ، وَالاِسْتِفْهَامُ انكاريٌّ يتضمَّن مَعْنَى التَّوْبِيخِ.

والمراد بـ(أم) المنقطعة التي جاءت في قول الله عَزَّ وَجلَّ: {أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ} التي تقع بين جملتين مستقلتين في المعنى, فليست أحدهما جزءًا من الأخرى, وهي حرف ابتداءٍ يفيد الإضراب, ولذلك فُسرت بمعنى (بل).

ومعنى كونها منقطعة أي: ليس لها مقابل, بخلاف (أم) المتصلة, فهناك (أم) المتصلة, كما قال تعالى: {سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ} [البقرة: 6], فقابل الإنذار بعدم؟ فهذه (أم) تسمى بـ(أم) المتصلة.

وأما (أم) هذه التي في الآية التي معنا فهي (أم) المنقطعة, فقد جاء قبلها قول الله تعالى: {أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ} [الزخرف: 79], لأنهم أجمعوا أمرهم على إيذاء رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما جاء في سورة الأنفال.

لأنهم اختلفوا هل يُثبتون النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ ما معنى يثبتون النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ يسجنونه في بيته لا يخرجون من بيته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أم ينفون رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أم يقتلوه؟ اختلفوا في ذلك.

فسمع الله عَزَّ وَجلَّ هذا الإبرام وهذا المكر الذي كان منهم والذي أجمعوا عليه, فقال الله عَزَّ وَجلَّ: {أَمْ يَحْسَبُونَ}, يعني: أيظنون, {أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ}.

إضافة لسمع الله عَزَّ وَجلَّ لما أسروا وتناجوا به فإن الرسل, أي الملائكة, الكتبة يكتبون ما يتكلم به هؤلاء.

قال: وَالْمَعْنَى: بَلْ أيظنُّ هَؤُلَاءِ فِي تخفِّيهم وَاسْتِتَارِهِمْ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ؛ بَلَى نَسْمَعُ ذَلِكَ، وَحَفَظَتُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ مَا يَقُولُونَ وَمَا يَفْعَلُونَ.

والشاهد في هذه الآية على المراد: هو قول الله عَزَّ وَجلَّ: {أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى}, أي: أن الأمر على خلاف ذلك, هذا هو المراد, أي: أن الله يسمع سرهم ونجواهم.

ثم قال رَحِمَهُ اللهُ: وَأَمَّا الْآيَةُ الرَّابِعَةُ؛ فَهِيَ خطابٌ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجلَّ لِمُوسَى وَهَارُونَ عَلَيْهِمَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حِينَ شَكَوْا إِلَى اللَّهِ خَوْفَهُمَا مِنْ بَطْشِ فِرْعَوْنَ بِهِمَا، فَقَالَ لَهُمَا: {لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى}.

لكن ما المراد بالسمع هاهنا؟ ما المراد بالمعية والسمع والرؤية هاهنا؟ سمع الإجابة, وكذلك الرؤية التي يترتب عليها الحفظ والرعاية, والمعية هاهنا معية خاصة, لأن هذه الأمور ليست على درجة واحدة, أعني السمع والبصر والمعية ليست على درجة واحدة.

فهناك السمع الذي هو مطلق السمع, وهو سمع الإدراك, وهذا الذي يتعلق بالأصوات, ويتعلق بمراقبة العباد وإحصاء أعمالهم والإحاطة بهم, وهو من كمال ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى, ومن لوازم كونه ربًا خالقًا مدبرًا مالكًا لعباده سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

ومنه هذه الآية التي صدر بها المصنف رَحِمَهُ اللهُ هذه الآيات, وهي قول الله تعالى: {قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا}.

وهناك سمع فهم وعقل, وهو الذي يتعلق بالمعاني, ومنه قول الله تعالى: {لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا} [البقرة: 104], فليس المراد سمع مجرد الكلام, بل المراد سمع الفهم والعقل, كما قال الشيخ عبد العزيز السلمان رَحِمَهُ اللهُ.

ومنه كذلك قول الله عَزَّ وَجلَّ: {سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا} [البقرة: 285].

وهناك كذلك سمع الإجابة والعطاء, أن يعطي الله عَزَّ وَجلَّ من سأله ما سأله من عباده, كقولنا في الصلاة: "سمع الله لمن حمده".

ومنه كذلك: السمع الذي يقتضي القبول والانقياد, كقول الله تعالى: {سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ} [المائدة: 42], أي: قابلون للكذب منقادون له غير منكرين له.

ومنه كذلك: قول الله تعالى: {وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ} [التوبة: 47], يعني: يسمعون كلامهم ويقبلون ما يقولون.

فالسمع الذي ورد في هذه الآية: {لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى}, يعني: أسمع سمع الإجابة, وأسمع ما يقوله فرعون, وأرى ما يفعله جنوده, فسمعي يكون معكم, ورؤيتي كذلك بالإحاطة والنصرة والتأييد.

وأما المعية هاهنا فهي معية خاصة, فالمعية التي ترد في كتاب الله إما أن تكون معية عامة, وهي التي تأتي بمعنى: العلم والإحاطة والمراقبة والسلطان, وأما المعية الخاصة فهي التي تأتي بمعنى: النصرة والتأييد, وهي التي تسمى بمعية الصفات, أي: أن الله يكون مع من اتصف بصفات معينة, {وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ} [العنكبوت: 69], {إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ} [البقرة: 153] [الأنفال: 46].

قال: وَأَمَّا الْآيَةُ الْخَامِسَةُ؛ فَقَدْ نَزَلَتْ فِي شَأْنِ أَبِي جَهْلٍ لَعَنَهُ اللَّهُ حِينَ نَهَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الصَّلَاةِ عِنْدَ الْبَيْتِ، فَنَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى: {أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى * عَبْدًا إِذَا صَلَّى}.

فـ(الَّذِي): هو أبو جهل, و(العبد الذي كان يصلي): هو رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فقال الله عَزَّ وَجلَّ: {أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى * عَبْدًا إِذَا صَلَّى * أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَى * أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى * أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّى * أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى} {أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى (13) أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى} [العلق: 9-14].

{أَلَمْ يَعْلَمْ}, يعني: هذا الجهول, {بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى}.

وقد جاء عند البخاري والنسائي والترمذي, قَالَ أَبُو جَهْلٍ: (لَئِنْ رَأَيْتُ مُحَمَّدًا يُصَلِّي عِنْدَ الْكَعْبَةِ لَأَطَأَنَّ عَلَى عُنُقِهِ)، فَبَلَغَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: "لَوْ فَعَلَهُ لَأَخَذَتْهُ الْمَلَائِكَةُ".

فيقول الله عَزَّ وَجلَّ في هذه الآية: {أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى * عَبْدًا إِذَا صَلَّى}, قال ابن كثير في تفسير هذه الآية: فَوَعَظَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ أَوَّلًا فَقَالَ: {أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى} أَيْ: فَمَا ظَنُّكَ إِنْ كَانَ هَذَا الَّذِي تَنْهَاهُ عَلَى الطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمَةِ فِي فِعْلِهِ، أَوْ {أَمَرَ بِالتَّقْوَى} بِقَوْلِهِ، وَأَنْتَ تَزْجُرُهُ وَتَتَوَعَّدُهُ عَلَى صِلاتِهِ.

فذكر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه لو فعل ذلك لأخذه الملك.

وجاء عند مسلم هذا الحديث بتكملة, جاء عند مسلم قال: (فَمَا فَجَأَهُمْ مِنْهُ إِلَّا وَهُوَ يَنْكِصُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَيَتَّقِي بِيَدَيْهِ), يعني: يرجع ويتقي شيئًا بيديه, لكن قومه لا يرون شيئًا.

قال: (وَيَتَّقِي بِيَدَيْهِ، فَقِيلَ لَهُ مَا لَكَ؟ قَالَ: إِنَّ بَيْنِي، وَبَيْنَهُ لَخَنْدَقًا مِنْ نَارٍ وَهَوْلًا وَأَجْنِحَةً).

والله لقد كان كافيًا في أن يؤمن, لكن القلوب بيد الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "لَوْ دَنَا مِنِّي لَاخْتَطَفَتْهُ الْمَلَائِكَةُ عُضْوًا عُضْوًا", فأنزل الله عَزَّ وَجلَّ هذه الآية.

فهذه الآيات التي ذكرها المصنف رَحِمَهُ اللهُ هي بعض ما يدل على اتصاف الله عَزَّ وَجلَّ بالسمع والبصر والمعية, وهناك آيات أخرى أظن أننا لو قرأناها إن شاء الله نزداد إيمانًا على إيماننا.

قال تعالى: {إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى}.

وقال تعالى: {أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى}.

وقال تعالى: {فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ} [الشعراء: 15], وهذه الآية خطاب لموسى وهارون عَليهِمَا الصَّلاَةُ والسَّلاَم في سورة الشعراء, فقد كان الله عَزَّ وَجلَّ معهما فأيدهما بنصره سُبْحَانَهُ وَتعَالَى بالحجة والبرهان, وكذلك أهلك فرعون وجنوده وأغرقهم في اليم.

وقال تعالى: {إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ} [إبراهيم: 39], من قال ذلك؟

الطالب: إبراهيم عَليهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَم.

{إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ}, أي: لمجيب الدعاء, فالسمع هاهنا يراد به سمع الإجابة.

وقال تعالى: {إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ} [آل عمران: 38], من الذي قال ذلك؟

الطالب: سيدنا زكريا.

وقال تعالى: {عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ} [الأعراف: 129], أين في هذه الآية إثبات البصر؟ في قوله: {فَيَنْظُرَ}.

وقال تعالى: {قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ}, وهذه الآية هي أقوى الآيات التي تدل على تحقق هذه الصفة.

وقال تعالى: {الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ (218) وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ}, هذه الآية ذكرها المصنف رَحِمَهُ اللهُ ولم يتكلم عنها الشيخ الهراس رَحِمَهُ اللهُ.

{الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ}, أي: حين تقوم من الليل, فالله عَزَّ وَجلَّ يراه ويسمعه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

قال: {وَتَقَلُّبَكَ}, ما إعرابها؟

الطالب: مفعول به منصوب, وعلامة نصبه الفتحة.

{وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ}؟ هي مصدر من الفعل تقلب تقلبًا.

قال: {وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ}, ما المراد {فِي السَّاجِدِينَ}؟ يعني: في المصلين, يعني: يرى تقلبك مع من يصلون صلاة الجماعة, فتقوم وتركع وتسجد معهم, فالله عَزَّ وَجلَّ يرى ذلك, وهذا فيه فضيلة لصلاة الجماعة ولمن يصلي الصلاة مع الجماعة أن الله عَزَّ وَجلَّ يراه.

وقال تعالى: {لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} [الإسراء: 1].

وقال تعالى: {أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ}.

وقال تعالى: {وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ}, وهذه كذلك فيها رد على من؟ على الأشعرية الذين يثبتون سمعًا قديمًا, لأن الله عَزَّ وَجلَّ قال: {فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ}.

وقال تعالى: {لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ}.

وقال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلاً أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [آل عمران: 77].

والشاهد قوله تعالى: {وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ}.

وهناك أحاديث كثيرة في هذا الباب, منها ما ذكرنا.

ومنها كذلك ما جاء عند البخاري من حديث أبي موسى الأشعري رَضِي اللهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: "مَا أَحَدٌ أَصْبَرُ عَلَى أَذًى سَمِعَهُ مِنَ اللهِ، يَدَّعُونَ لَهُ الْوَلَدَ، ثُمَّ يُعَافِيهِمْ وَيَرْزُقُهُمْ", ففيه إثبات السمع لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

وجاء كذلك عن ابن مسعود عند البخاري في قول الله تعالى: {وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ} [فصلت: 22].

قال ابن مسعود: "كَانَ رَجُلاَنِ مِنْ قُرَيْشٍ وَخَتَنٌ لَهُمَا مِنْ ثَقِيفَ، أَوْ رَجُلاَنِ مِنْ ثَقِيفَ وَخَتَنٌ لَهُمَا مِنْ قُرَيْشٍ، فِي بَيْتٍ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: أَتُرَوْنَ أَنَّ اللَّهَ يَسْمَعُ حَدِيثَنَا؟ قَالَ بَعْضُهُمْ: يَسْمَعُ بَعْضَهُ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَئِنْ كَانَ يَسْمَعُ بَعْضَهُ لَقَدْ يَسْمَعُ كُلَّهُ، فَأُنْزِلَتْ: {وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلا أَبْصَارُكُمْ}".

وكذلك جاء عند البخاري من حديث أبي هريرة رَضِي اللهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: "إِنَّمَا جُعِلَ الْإِمَامُ لِيُؤْتَمَّ بِهِ، فَلاَ تَخْتَلِفُوا عَلَيْهِ، فَإِذَا رَكَعَ فَارْكَعُوا، وَإِذَا قَالَ سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ، فَقُولُوا: رَبَّنَا لَكَ الْحَمْدُ، وَإِذَا سَجَدَ فَاسْجُدُوا، وَإِذَا صَلَّى جَالِسًا فَصَلُّوا جُلُوسًا أَجْمَعُونَ".

والشاهد هاهنا: "وَإِذَا قَالَ سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ"

وكذلك جاء عند البخاري من حديث سالم بن عبد الله عن أبيه عبد الله بن عمر رَضِي اللهُ عَنْهُمَا, أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: "مَنْ جَرَّ ثَوْبَهُ خُيَلاَءَ، لَمْ يَنْظُرِ اللَّهُ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ".

والشاهد قوله: "لَمْ يَنْظُرِ اللَّهُ".

وجاء عن أبي هريرة كذلك عند البخاري: "لَا يَنْظُرُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَى مَنْ جَرَّ إِزَارَهُ بَطَرًا", يعني: خُيلاء.

وجاء عند البخاري من حديث أبي هريرة, قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "ثَلاَثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ: رَجُلٌ عَلَى فَضْلِ مَاءٍ بِطَرِيقٍ يَمْنَعُ مِنْهُ ابْنَ السَّبِيلِ، وَرَجُلٌ بَايَعَ رَجُلاً لَا يُبَايِعُهُ إِلَّا لِلدُّنْيَا، فَإِنْ أَعْطَاهُ مَا يُرِيدُ وَفَى لَهُ، وَإِلَّا لَمْ يَفِ لَهُ، وَرَجُلٌ سَاوَمَ رَجُلاً بِسِلْعَةٍ بَعْدَ الْعَصْرِ، فَحَلَفَ بِاللهِ لَقَدْ أَعْطَى بِهِ كَذَا وَكَذَا، فَأَخَذَهَا", يعني: حلف كاذبًا, فهذا لا ينظر الله إليه, وهذا موضع الشاهد.

وجاء كذلك عند مسلم من حديث أبي سعيد الخدري رَضِي اللهُ عَنْهُ, أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: "إِنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ، وَإِنَّ اللهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ".

وجاء كذلك عند مسلم: "ثَلاَثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ: شَيْخٌ زَانٍ, وَمَلِكٌ كَذَّابٌ, وَعَائِلٌ مُسْتَكْبِرٌ".

إلى غير ذلك من الأحاديث التي تُثبت سمع الله وبصره سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

وأما المعية: فهي نوعان: معية عامة, ومعية خاصة, وقد جاء فيها كذلك آيات وأحاديث.

ومن ذلك قول الله تعالى: {وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا} [المائدة: 12].

ما نوع المعية هاهنا؟ معية النصرة, أي: إني ناصركم على عدوكم وعدوِّي.

وقال تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ} [المجادلة: 7].

ما نوع المعية هاهنا؟ معية الإحاطة, العلم والإحاطة, لأنها تتعلق بجميع الخلق, وهي معية العلم, ولذلك بدأت الآية بالعلم وانتهت بالعلم.

وقال تعالى: {وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ} [محمد: 35].

ما نوع المعية هاهنا؟

الطالب: معية الحفظ والرعاية.

الشيخ: ما الدليل على أنها معية الحفظ والرعاية؟

أول الآية, قال الله عَزَّ وَجلَّ: {فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ}.

وما معنى {وَلَنْ يَتِرَكُمْ}؟ أي: لن يظلمكم أجوركم فينقصكم ثوابها, فهو معكم معية النصر والتأييد.

وقال تعالى: {وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ}؟ وهذه معية الإحاطة, وهي التي آخرها: {وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} [الحديد: 4].

وقال تعالى: {إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا} [الأنفال: 12].

ما نوع المعية هاهنا؟ معية النصر والتأييد.

وقال تعالى: {قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى} [طه: 46]؟ معية خاصة, وهي معية النصر والتأييد كذلك.

وقال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ}؟ معية خاصة.

هذه معية الصفات, فمستقل ومستكثر, على قدر ما يكون معك من الصبر يكون الله عَزَّ وَجلَّ معك.

وقال تعالى مخبرًا عن نبيه موسى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: {قَالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ} [الشعراء: 62], هذه كذلك معية خاصة.

وقال تعالى مخبرًا عن نبيه محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: {لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا} [التوبة: 40], وهذه كذلك معية خاصة.

وقال تعالى: {وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ} [العنكبوت: 69], وهذه كذلك معية خاصة.

وكذلك على قدر الإحسان تكون المعية, فقال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ} [النحل: 128], فالله عَزَّ وَجلَّ مع الأتقياء ومع المحسنين.

وقال تعالى: {وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ} [البقرة: 249] [الأنفال: 66].

وقال تعالى: {وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ} [البقرة: 194].

وقال تعالى: {وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ} [الأنفال: 19].

فكل هذه من المعية الخاصة.

وجاء عند البخاري من حديث أبي هريرة رَضِي اللهُ عَنْهُ, أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: "يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي، فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَإٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ شبراً تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا، وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً", وهذه معية خاصة.

وجاء عند أحمد, أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: "أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا دَعَانِي".

وجاء عند البخاري من حديث أنس عن أبي بكر رَضِي اللهُ عَنْهُ قال: "كُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْغَارِ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَإِذَا أَنَا بِأَقْدَامِ الْقَوْمِ", ولم يكن هناك لا بيضتان ولا حمامة ولا عنكبوت, هذا كله لم يثبُت.

ولذلك قال الله عَزَّ وَجلَّ في سورة التوبة: {وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا} [التوبة: 40].

الآية صريحة, ولو كانت هذه الآيات ظاهرة واضحة للعين فلماذا قال الله عَزَّ وَجلَّ: {لَمْ تَرَوْهَا}؟

فيقول الصديق رَضِي اللهُ عَنْهُ: كُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْغَارِ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَإِذَا أَنَا بِأَقْدَامِ الْقَوْمِ، فَقُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، لَوْ أَنَّ بَعْضَهُمْ طَأْطَأَ بَصَرَهُ –يعني: خفض بصره– رَآنَا، فَقَالَ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "اسْكُتْ يَا أَبَا بَكْرٍ، اثْنَانِ اللَّهُ ثَالِثُهُمَا".

والآية أصرح من ذلك, أنه قال: {لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا} [التوبة: 40].

فنسأل الله عَزَّ وَجلَّ أن بأسمائه وصفاته أن يرزقنا معيته الخاصة, وأن يُمدنا بمدد من عنده, وأن يجعل لنا من هذه الصفات التي يحبها ويرضاها أوفر الحظ والنصيب, إنه ولي ذلك والقادر عليه, والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الدرس الثاني والعشرون

إن الحمد لله, نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله تعالى من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله, صلى الله عليه, وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد:

فقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ في العقيدة الواسطية وهو يُدلل على ما ثبت لله عَزَّ وَجلَّ من أسمائه الحسنى وصفات عُليا.

قال: وَقَوْلُهُ: {وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ} [الرعد: 13].

وَقَوْلُهُ: {وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ } [آل عمران: 54].

وَقَوْلُهُ: {وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ} [النمل: 50].

وَقَوْلُهُ: {إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا (15) وَأَكِيدُ كَيْدًا} [الطارق: 15-16].

هذه الآيات التي ذكرها المصنف رَحِمَهُ اللهُ تتعلق بباب من أبواب صفات ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وهو باب الصفات التي تُذكر على سبيل المقابلة.

فعندنا صفات لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى تُطلق من غير قيد؛ كما جاء إطلاقها في كتاب الله وفي سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ كالسمع والبصر والكلام والقدرة والإرادة، فنقول: أراد الله، سمع الله، والله يسمع ويريد.

وهناك نوع آخر من الصفات وهو ما جاء على سبيل المقابلة، أي: لم يأت الوصف في الكتاب والسنة مطلقًا، وإنما جاء مقيدًا؛ كالمكر والخداع والاستهزاء.

فالله عَزَّ وَجلَّ يستهزئ بمن يستهزئ بالمؤمنين، {وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ (14) اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ} [البقرة: 14-15].

فقال المنافقون: {إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ}، أي: مستهزئون بالمؤمنين، فقال الله عَزَّ وَجلَّ: {اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ}.

وقال: {يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ} [النساء: 142].

وقال هاهنا: {إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ❋ وَأَكِيدُ كَيْدًا}.

وقال: {وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا}.

فهذه الصفات لا تُذكر في حق الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى إلا على جهة المقابلة؛ لأن إطلاق هذه الصفات بلا قيد يحتمل الذم، فالذي يمكر بمن لم يمكر به ليظلم، هذا مذموم, وأما من مكر بمن مكر به أو مكر بأولياء الله الصالحين؛ فهذا النوع من المكر الذي هو على جهة المقابلة ممدوح.

والأمر الثاني الذي ينبغي أن يُعلم: أن هذه الصفات لا يُشتق منها اسم لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

فلا يُقال: إن من أسماء الله الماكر، ولا الكائد، ولا المستهزئ، بخلاف الأسماء أو الصفات التي وردت مطلقة، فمنها: ما يكون من باب الإخبار, فنقول: الله متكلم، فالمتكلم ليس من أسمائه، وإنما هذا إخبار عنه تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

الله مريد لكذا، الله راضٍ عن عباده المؤمنين، فالراضي ليس من أسمائه، والمتكلم ليس من أسمائه، لكن هذا يُخبر به عن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ فيُشتق من

الفعل اسم الفاعل، فيقال: الله عَزَّ وَجلَّ مريد، والله عَزَّ وَجلَّ متكلم، راضي، وأما هذه الصفات فلا يُشتق منها اسم فاعل يُطلق على الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

إذًا: لابد من هذه الصفات من التقيد بما جاء في النص.

الأمر الثالث الذي يتعلق بهذه الصفات: أنها من صفات الفعل الاختيارية وليست من الصفات اللازمة؛ لأن الصفات اللازمة حيثما أُطلقت؛ فإنها تقتضي الكمال أبدًا، وأما هذه فمتى تقتضي الكمال؟

إذا أُطلقت على جهة المقابلة، إذا أُطلقت في حق من يستحق ذلك، إذا أُطلقت في حق من جاء بالسبب، فهي تتعلق بمشيئته وحكمته وبوجود سبب ذلك، وهذا كله يرجع إلى الصفات الاختيارية الفعلية.

قال الشيخ الهراس رَحِمَهُ اللهُ، قال: وَقَوْلُهُ: {وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ}؛ تضمَّنت هَذِهِ الْآيَاتُ.

أي هذه الآية والتي جاء بعدها.

تضمَّنت هَذِهِ الْآيَاتُ إِثْبَاتَ صِفَتَيِ الْمَكْرِ وَالْكَيْدِ، وَهُمَا مِنْ صِفَاتِ الْفِعْلِ الاِخْتِيَارِيَّةِ.

وَلَكِنْ لَا يَنْبَغِي أَنْ يشتقَّ لَهُ مِنْ هَاتَيْنِ الصِّفَتَيْنِ اسْمٌ، فَيُقَالَ: مَاكِرٌ، وَكَائِدٌ.

هذا لا يجوز.

بَلْ يُوقَفُ عِنْدَ مَا وَرَدَ بِهِ النَّصُّ مِنْ أَنَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ، وَأَنَّهُ يَكِيدُ لِأَعْدَائِهِ الْكَافِرِينَ.

قال: أَمَّا قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ: {وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ}؛ فَمَعْنَاهُ: شَدِيدُ الْأَخْذِ بِالْعُقُوبَةِ؛ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: {إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ}، وفي قوله تعالى: {إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ}.

قال: وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ((مَعْنَاهُ: شَدِيدُ الحَوْلِ)).

والحوْل من الحيلة، والحيلة: هي ما يتوصل بها بأسباب خفية إلى حق مقصود، أو إلى الإيقاع بالخصم.

أن تفعل أسبابًا خفية فتوقع بخصمك وهو لا يحس ولا يدري، لكنها بالنسبة للذي قام بذلك معلومة.

فهذه الحيلة إذا كانت في مقابل من يحتال محمودة، إذا كانت في مقابل من يظلم فهي ممدوحة.

فهذا معنى قول ابن عباس: ((مَعْنَاهُ: شَدِيدُ الحَوْل)).

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ((شَدِيدُ القوَّة)).

قال: وَالْأَقْوَالُ مُتَقَارِبَةٌ.

وهذه الآية التي معنا جاءت في سورة الرعد، وهي والآيات التي سبقتها والتي تلتها تُبين قدرة الله عَزَّ وَجلَّ، وتُبين كيف أن المشركين لم يقدروا الله عَزَّ وَجلَّ حق قدره.

فالله عَزَّ وَجلَّ يقول في سياق هذه الآيات: {هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ} [الرعد: 12]، خوفًا من نزول صاعقة من هذا البرق، وطمعًا في نزول المطر ونزول رحمة الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

قال: {وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ (12) وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ} [الرعد: 12-13]، أي: تسبح الملائكة من خيفته.

قال: {وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ}، أي: يشكون في عظمته سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، وأنه لا إله إلا هو، {وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ}.

إذًا قوله: {وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ}، جاء في مقابل ماذا؟ {وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ}.

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ في تفسير هذه الآية، قال: {وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ}، قال: أي: يشكون في عظمته وأنه لا إله إلا هو، {وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ}.

قال: وهذه الآية شبيهة بقوله تعالى: {وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (50) فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ} [النمل: 50-51].

قال: وَأَمَّا قَوْلُهُ تعالى: {وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ}.

يعني قال: {وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ}.

قال: فَمَعْنَاهُ: أَنْفَذُهُمْ وَأَسْرَعُهُمْ مَكْرًا.

فإذا كان الماكرون يمكرون؛ فالله عَزَّ وَجلَّ خير الماكرين، فمكره في مقابل مكر هؤلاء ينفذ في خفاء وسرعة لا يشعر به أحد، وكيف يُقارن مكر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى بمكر أحد من المخلوقين؟!

ولذلك هذه الآية جاءت في سياق قصة رفع عيسى عَليهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَم، فاليهود مكروا بعيسى عَليهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَم حتى يقتلوه، ودل على عيسى يهوذا الإسخريوطي، ودخل البيت الذي فيه عيسى والحواريون ليُرشد عن عيسى

عَليهِ الصَّلاةُ والسَّلامَ، فرفع الله عَزَّ وَجلَّ عيسى ابن مريم إلى السماء، وألقى شبه عيسى على يهوذا هذا، فلما خرج على يهود بني إسرائيل قال: إن عيسى بالداخل، لكن هم لما رأوه وجدوا من أمامهم؟

وجدوا عيسى فيما بدا لهم؛ لأن الله عَزَّ وَجلَّ ألقى الشبه عليه فأخذوه وصلبوه، فالذي أخذوه وصلبوه ليس عيسى عَليهِ الصَّلاةُ والسَّلامَ.

أرادوا مكرًا فالله عَزَّ وَجلَّ قابل مكرهم بمكر هو أنفذ وأشد وأسرع؛ ولذلك قال: {وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ} [النساء: 157].

قال: وَقَدْ فسَّر بَعْضُ السَّلَفِ مَكْرَ اللَّهِ بِعِبَادِهِ بِأَنَّهُ اسْتِدْرَاجُهُمْ بالنِّعم مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ.

الله عَزَّ وَجلَّ قد يعطي العبد النعم وهو مقيم على المعصية، ويظن العبد أن ذلك رضًا من الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، وإنما هو استدراج لهذا العبد، قال: {سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (182) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ} [الأعراف: 182-183].

قال: فَكُلَّمَا أَحْدَثُوا ذَنْبًا أَحْدَثَ لَهُمْ نِعْمَةً.

نعوذ بالله أن نكون من هؤلاء ممن يقيمون على معصية الله مع ما عنده من نعم الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى العظيمة، ولا يلتفت إلى هذه النعم ولا يشكر هذه النعم، بل يزداد طغيانًا ومعصية.

قال: فَكُلَّمَا أَحْدَثُوا ذَنْبًا أَحْدَثَ لَهُمْ نِعْمَةً.

قال: وَفِي الْحَدِيثِ: ((إِذَا رأيتَ اللَّهَ يُعطي الْعَبْدَ مِنَ الدُّنْيَا مَا يحبُّ وَهُوَ مقيمٌ عَلَى مَعْصِيَتِهِ.

هذه جملة حالية، هذا حاله؛ يعطيه الله عَزَّ وَجلَّ من نعيم الدنيا وهو مقيم على معصيته.

قال: فَاعْلَمْ أَنَّمَا ذَلِكَ مِنْهُ اسْتِدْرَاجٌ)).

وهذا رواه أحمد والطبراني في الكبير وابن جرير في التفسير من حديث عقبة بن عامر رَضِي اللهُ عَنْهُ، وصححه الألباني في الصحيحة.

قال: وَقَدْ نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي شَأْنِ عِيسَى عليه السلام حِينَ أَرَادَ الْيَهُودُ قَتْلَهُ، فَدَخَلَ بَيْتًا فِيهِ كوَّةٌ، وَقَدْ أَيَّده اللَّهُ بِجِبْرِيلَ عليه السلام، فَرَفَعَهُ إِلَى السَّمَاءِ مِنَ الْكُوَّةِ.

الكُوَّة: الفتحة التي تكون في البيت.

فَدَخَلَ عَلَيْهِ يَهُوذَا؛ ليدلهم عَلَيْهِ فَيَقْتُلُوه، فَأَلْقَى اللَّهُ شبهَ عِيسَى عَلَى ذَلِك الْخَائِنِ، فَلَمَّا دَخلَ الْبَيْتَ فَلَمْ يَجِدْ فِيهِ عِيسَى؛ خَرَجَ إِلَيْهِمْ وَهُوَ يَقُولُ: مَا فِي الْبَيْتِ أَحدٌ.

لكنه لما خرج إليهم كان قد ألقى الله عَزَّ وَجلَّ شبه عيسى عليه.

قال: فَقَتَلُوهُ وَهُمْ يَرَوْنَ أَنَّهُ عِيسَى، فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: {وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ اللَّهُ}.

فالمكر هاهنا جيء به في مقابل مكرهم.

قال: وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى: {وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا}.

قال: فَهِيَ فِي شَأْنِ الرَّهْطِ التِّسْعَةِ مِنْ قَوْمِ صَالِحٍ عليه السلام حِينَ {تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ}.

ما معنى تقاسموا؟ يعني: أقسموا بالله.

{لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ}، يعني: قتلا.

أَيْ: لَيَقْتُلُنَّه بَيَاتًا هُوَ وَأَهْلَهُ.

هذا الفعل ليقتلنه مبني أم معرب ؟

الفعل المضارع يُبنى؟ نعم، متى يُبنى الفعل المضارع؟ إذا اتصلت به نون النسوة، أو نون التوكيد اتصالا مباشرا. هذه ليست نون النسوة.

ههنا اتصلت نون التوكيد الثقيلة به اتصالًا مباشرًا، فالفعل مبني على الفتح.

الشاهد إذًا: ضبط هذه الكلمة كيف نضبطها؟ {تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ} أَيْ: لَيَقْتُلَنَّه بَيَاتًا هُوَ وَأَهْلَهُ، {ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ}، فكانَ عاقبةُ هَذَا الْمَكْرِ مِنْهُمْ أَنْ مَكَرَ اللَّهُ بِهِمْ.

جاء في كتب التاريخ وكذلك في كتب التفسير؛ أنهم لما دخلوا نزلت عليهم الصخرة وأُغلق عليهم الغار الذي أرادوا فيه الكيد بصالح عَليهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَم، فدمَّرهم وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ.

فقال: {وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ}.

لذلك قلنا: إن مكر الله عَزَّ وَجلَّ أنفذ وأسرع من مكر هؤلاء.

وقوله تعالى: {إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا (15) وَأَكِيدُ كَيْدًا (16) فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا} [الطارق: 15-17]، هو كذلك من هذا الباب.

ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ له كلام ضابط في هذا الباب يحسن أن نقرأه, ذكره في مدارج السالكين، قال رَحِمَهُ اللهُ: والمكر: الأخذ في غفلة كما قال تعالى: {سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ}.

قال: فنسبة الكيد والمكر ونحوهما إليه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى من إطلاق الفعل عليه تعالى، والفعل أوسع من الاسم.

قلت: عندنا أضيق الأبواب باب الأسماء، أوسع من ذلك الصفات، أوسع من ذلك الأفعال، أوسع من ذلك الأخبار.

إذًا: هي أربع حلقات، الحلقة الأضيق حلقة الأسماء؛ لأن كل اسم يتضمن صفة، الحلقة التي هي أوسع من ذلك حلقة الصفات، لا يلزم من وصف الله عَزَّ وَجلَّ بصفة أن يكون له اسم من هذه الصفة.

إذًا: الأسماء أضيق، الأوسع الصفات.

أوسع من ذلك الأفعال، فمن الأفعال ما لا يُشتق منه صفة بالنسبة لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، أوسع من ذلك باب الأخبار، وهو أن يُخبر عن الله عَزَّ وَجلَّ بما لم يرد لا في كتاب الله ولا في سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولم يكن في هذا الإخبار ما يقتضي النقص.

ولذلك تجد في كلام المفسرين: وقد عاملهم الله عَزَّ وَجلَّ بكذا –مثلاً- تقول –مثلاً-: والله عَزَّ وَجلَّ لا يغفل ولا ينام، نفي الغفلة ليس واردًا في كتاب الله ولا في سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لكن هذا من باب الإخبار، الإخبار عن الله عَزَّ وَجلَّ بأنه شيء، بأنه موجود.

هل الله موجود؟ نعم، لا بأس أن نُخبر عن الله عَزَّ وَجلَّ بأنه موجود؛ لأن بعض الناس يُنكر ذلك ويقول: لا تُخبر عن الله بأنه موجود، لأن هذا يعني أن غيره أوجده، نقول: هذا ليس بصحيح.

أردنا بقولنا: موجود، أي: أن له ذاتًا، وهذه الذات لها صفات، ووجوده سُبْحَانَهُ وَتعَالَى غير مكتسب من غيره؛ لأنه هو الخالق غير المخلوق سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، فأوسع الأبواب كما قلنا باب الإخبار.

قال: والفعل أوسع من الاسم، ولهذا أطلق الله على نفسه أفعالًا لم يتسم منها بأسماء الفاعل؛ كأراد وشاء وأحدث، ولم يُسم بالمريد والشائي والمُحدث.

لكن هذا يجوز لنا أن نُخبر عنه بذلك، لكن لا نقول: إن هذا اسم من أسمائه.

كما لم يُسم نفسه بالصانع والفاعل والمُتقن، قال: وغير ذلك من الأسماء التي أطلق الله أفعالها على نفسه، فباب الأفعال أوسع من باب الأسماء، وقد أخطأ أقبح الخطأ من اشتق له من كل فعل اسمًا، وبلغ بأسمائه زيادة على الألف، فسماه الماكر والمخادع والفاتن ونحو ذلك.

وكذا باب الإخبار عنه بالاسم أوسع من تسميته به؛ فإنه يُخبر عنه بأنه شيء موجود ومذكور ومعلوم ومراد ولا يُسمى بذلك.

وقلنا: يُراد بكل ذلك أن له ذاتًا سُبْحَانَهُ وَتعَالَى وهذه الذات لها صفات اتصفت بها، فهذا كله من الإخبار عن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

وهذه الجملة قد لا يفهمها البعض، ما معنى أن الأسماء لا تشتق من الصفات ولا من الأفعال؟

السؤال الآن: هل الأسماء مشتقة؟ مشتقة من الصفات؟ هذا وجه الخطأ، نعم الأسماء مشتقة ومشتقة من الأفعال والصفات، لكن ما معنى أنها مشتقة من الأفعال والصفات؟

هذا لا يُضاد قولنا بأنها توقيفية، يوضح ذلك جواب هذا السؤال: هل من أسماء الله عَزَّ وَجلَّ الدهر؟ لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: "لَا تَسُبُّوا الدَّهْرَ؛ فَإِنَّ اللهَ هُوَ الدَّهْرُ"، الدهر ليس من أسماء الله, خلافًا لابن حزم رَحِمَهُ اللهُ.

لماذا الدهر ليس من أسماء الله؟ لأنه اسم جامد لا يتضمن صفة ولا يتضمن فعلاً.

إذًا: ما معنى أن الأسماء مشتقة؟ أي: أنها تتضمن صفات، هذا معنى أن الأسماء مشتقة، ليست أعلاما جامدة.

لأن بعض الإخوة عندما سمع بعض المشايخ يقول: إن الأسماء ليست مشتقة، ومن قال بذلك فقد وافق المعتزلة، صارت عندهم قاعدة؛ أن الأسماء ليست مشتقة.

ابن القيم نفسه يقول رَحِمَهُ اللهُ: إن الأسماء مشتقة.

وهذا الذي عليه أهل السنة والجماعة، لكنهم أرادوا أنها تتضمن الصفات.

قال رَحِمَهُ اللهُ بعد ذلك في الباب الذي بعده، قال: وَقَوْلُهُ: {إِن تُبْدُواْ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوَءٍ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا} [النساء: 149].

وقوله: {وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} [النور: 22].

وَقَوْلُهُ: {وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ} [المنافقون: 8].

وَقَوْلُهُ تعالى عَنْ إِبْلِيسَ: {فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ} [ص: 82].

إذًا: هذه الآيات التي ذكرها المصنف رَحِمَهُ اللهُ في تعداد كذلك ما يدل على صفات ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى وأسمائه، فيها إثبات صفة العفو والقدرة والمغفرة والرحمة والعزة، هذه الصفات كلها ثابتة لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

قال: {إِن تُبْدُواْ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوَءٍ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا}؛ فالله عَزَّ وَجلَّ من أسمائه العفو، وقد تكلمنا عن هذا الاسم من قبل.

قال الشيخ الهراس: فالعَفُوُّ الَّذِي هُوَ اسْمُهُ تَعَالَى.

إذًا: العفو من أسماء الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، هل يجوز لمسلم أن يسمي ولده عبد العفو؟ نعم، لماذا؟

هذا من التعبد لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، ومن إحياء هذه التسمية، لو سمى الرجل ولده عبد العفو هي مثل عبد الغفور، وعبد السلام، وإن لم يعتده الناس.

قال: فالعَفُوُّ الَّذِي هُوَ اسْمُهُ تَعالَى؛ مَعْنَاهُ: الْمُتَجَاوِزُ عَنْ عُقُوبَةِ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ تَابُوا إِلَيْهِ وَأَنَابُوا؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: {وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ}.

إذًا: هذا هو معنى العفو، والعفو في أصله يعني التجاوز وإزالة الأثر، فهذا معنى العفو في أصله اللغوي.

والمغفرة في أصلها اللغوي تعنى التغطية، وأما بالنسبة لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، فهو سبحانه الذي يتجاوز عن عقوبة عباده إذا هم تابوا إليه، بل ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى يبدل هذه السيئات حسنات.

كما قال الله عَزَّ وَجَلَّ بعد أن ذكر: {وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (68) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (69) إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا} [الفرقان: 68-70].

فالله يتجاوز عن عقوبة عبده ويقلب سيئاته حسنات ويبدلها، وهذا لأن رحمته تغلب غضبه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، فهو لا يفرح بعقوبة عبده، ولا ينتظر عقوبة

العبد سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، وإنما توبة عبده إليه أحب إليه، ويكون ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى أشد فرحًا بهذه التوبة من أحدنا إذا انفلتت منه راحلته بأرض ثم وجدها بعد ذلك؛ كما ذكر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال: فالعَفُوُّ الَّذِي هُوَ اسْمُهُ تَعَالَى؛ مَعْنَاهُ: الْمُتَجَاوِزُ عَنْ عُقُوبَةِ عِبَادِهِ.

المتجاوز هذه من باب الإخبار، هذا يجوز أم لا يجوز؟ يجوز، ما ضابط الجواز في باب الإخبار؟ عدم النقص، أن اللفظ لا يتضمن نقصا لا يوهم النقص، فيجوز لك أن تُخبر عن الله عَزَّ وَجلَّ بأي لفظ بهذا الضابط، وإن لم يكن في الكتاب والسنة ما يغني عنه.

لا يُشترط في هذا اللفظ أن يكون واردًا في لسان السلف، أن يكون واردًا في تفاسير الأئمة، طالما أن هذا اللفظ لا يتضمن نقصًا فيجوز أن تُخبر به عن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، لكن لا يُسمى الله عَزَّ وَجلَّ بهذا اللفظ، ولا يُشتق منه اسم، وكذلك لا تُشتق منه صفة، وإنما هو من باب الإخبار.

قال: وَلَمَّا كَانَ أَكْمَلُ الْعَفْوِ هُوَ مَا كَانَ عَنْ قُدْرَةٍ تامَّة عَلَى الِانْتِقَامِ وَالْمُؤَاخَذَةِ؛ جَاءَ هَذَانِ الِاسْمَانِ الْكَرِيمَانِ: العَفُوُّ وَالْقَدِيرُ مُقْتَرِنَيْنِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ وَفِي غَيْرِهَا.

ومن أفضل ما يتعبد به المرء إلى ربه تَبَارَكَ وَتَعَالَى أن ينظر في المناسبة بين ذكر الأسماء في آخر الآيات.

أن ينظر العبد في العلاقة بين هذه الأسماء المذكورة في آخر الآية وما سبقها من خبر أو حكم، هذه تفتح على المسلم أبوابًا عظيمة من معرفة الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، ومن معرفة قدره عَزَّ وَجلَّ.

وهناك باب آخر للتعبد وهو أن ينظر في وجه الاقتران بين الاسمين المذكورين.

أضرب مثالًا: ما أكثر اسمين ذُكرا في سورة النساء؟ العليم والحكيم، فلك أن تسأل نفسك لماذا ذُكرا هذان الاسمان خاصة في هذه السورة؟

فانظر في أحكام هذه السورة والتشريعات التي وردت فيها وخاصة أنها تسمى بسورة النساء، وهذا فيه رد على من يقولون: الإسلام ظلم المرأة وهضم حقها، فيُرد على هؤلاء بأن الله عَزَّ وَجلَّ عليم حكيم؛ ولذلك كانت هذه التشريعات نابعة عن علم وحكمة.

كذلك هاهنا بعد أن قال: {إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا}، أي: إن عفوت عفا الله عنك، {هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ} [الرحمن: 60]، وأعظم العفو ما كان عن قدرة، وما كان عمن يستحق أن تعفو عنه.

هناك من يعفو لأنه ضعيف، لا يقال إن عفوه عفو تام كامل من كل وجه، قد يعفو لأنه إن لم يعف قد يصيبه ضرر عظيم، فالعفو محمود، لكن أكمل العفو ما كان عن قدرة، وما كان عمن يستحق أن يُعفى عنه.

لو كان هناك مثلاً ظالم أو بلطجي حيث تسكن، ثم جاءت الشرطة وأخذته لأنه مثلاً تسبب في إيذائك أو إيذاء جيرانك, هل يجوز لك أن تذهب وأنت تعلم أنك إن عفوت عنه لن يزداد إلا طغيانًا وأشرا، هل يجوز لك أن تعفو عنه؟ لا يجوز لك أن تعفو عنه.

الذي يسرق أموال الناس المرة بعد المرة ويحذره الناس وينبهونه، هل يجوز لك أن تعفو عنه؟ لا يجوز لك أن تعفو عنه، هذا ليس من العفو المحمود.

لكن إن كان عفوك سببًا في انتهائه عن عدوانه وفي أن يُصاب بخجل وحياء، فنقول: هذا العفو كذلك مطلوب.

ومن طريف ما يُذكر في ذلك ما ذكره الخطيب البغدادي في تاريخه، قال: كان لأبي حنيفة جار بالكوفة إسكافي يصنع الأحذية- كان يعمل نهاره أجمع، حتى إذا جنَّ عليه الليل رجع إلى منزله وقد حمل لحمًا أو سمكًا فيأكل ولا يزال يشرب، حتى إذا دب الشراب فيه غنَّى بصوت عالٍ وأخذ يقول: يذكر بيت العرجي -وهو شعر مشهور-:

أضاعوني وأي فتًى أضاعوا ... ليوم كريهة وسداد ثغرِ

كل ليلة يكرر في البيت هذا بصوت عال، فلا يزال يشرب ويردد هذا البيت حتى ينام, وكان أبو حنيفة يصلي ويذاكر ويذكر الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، فلما فقد صوته ليلة سأل عنه، فعلم أن الشرطي جاء وأخذه، فما كان من أبي حنيفة رَحِمَهُ اللهُ إلا أن ذهب وشفع في إخراجه، فخرج, فكان جزاء ذلك أن كف هذا الرجل عن الشراب وعن أذية جيرانه.

فهذا لما جاء به وأحسن إليه وعفا عنه، فلم يطلب من رجال الشرطة أن يعاقبوه، كان هذا سببًا في انتهائه، أما إن كان العفو يترتب عليه زيادة الطغيان، فهذا ليس بالعفو المحمود، والله عَزَّ وَجلَّ قدير في عفوه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، لا يعفو عن ضعف.

قال: وَأَمَّا الْقُدْرَةُ؛ فَهِيَ الصِّفَةُ الَّتِي تتعلَّق بِالْمُمْكِنَاتِ إِيجَادًا وَإِعْدَامًا.

فسائر المخلوقات هي من الممكنات، وهذا المصطلح ليس مصطلحًا سلفيًا، وإنما هو من مصطلحات أهل الكلام والفلاسفة واجب الوجود وممكن الوجود, وممتنع الوجود فيقولون: إن ممكن الوجود هذا يُطلق على سائر المخلوقات، فالقدرة تتعلق بسائر الممكنات، فالله عَزَّ وَجلَّ قادر على أن يوجدها، وقادر على أن يفنيها وأن يعدمها سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

قال: فكلُّ مَا كَانَ وَوَقَعَ مِنَ الْكَائِنَاتِ وَاقِعٌ بِمَشِيئَتِهِ وَقُدْرَتِهِ؛ كَمَا فِي الْحَدِيثِ: ((مَا شَاءَ اللَّهُ كانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ)).

قال: وَأَمَّا قَوْلُهُ تعَالَى: {وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا} الْآيَةَ؛ فَقَدْ نَزَلَتْ فِي شَأْنِ أَبِي بَكْرٍ رَضِي اللهُ عَنْهُ حِينَ حَلَفَ لَا يُنْفِقُ عَلَى مِسْطَحِ بْنِ أُثَاثَةَ، وَكَانَ مِمَّنْ خَاضُوا فِي الْإِفْكِ، وَكَانَتْ أُمُّ مِسْطَحٍ بِنْتَ خَالَةِ أَبِي بَكْرٍ، فَلَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ قَالَ أَبُو بَكْرٍ: ((وَاللَّهِ إِنِّي لَأُحِبُّ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لِي))، وَوَصَلَ مِسْطَحًا.

والحديث في الصحيح، وذلك أن مسطحا كان من شهد بدرًا, لكنه تكلم في عائشة رَضِي اللهُ عَنْهَا بغير حق، وخاض مع من خاض، وكان أصل ورأس من خاض في عائشة عبد الله بن أبي بن سلول, وخاض معه المنافقون وخاض بعض أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكان من هؤلاء مسطح رَضِي اللهُ عَنْهُ، فقطع أبو بكر رَضِي اللهُ عَنْهُ النفقة, وكان ينفق عليه.

فلما قال الله عَزَّ وَجلَّ: {وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ}، جزاء عظيم.

الله عَزَّ وَجلَّ يقول: {أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ}، فلما سمع أبو بكر رَضِي اللهُ عَنْهُ ذلك قال: "بلى، أحب أن يغفر الله لي"؛ فعفا عنه ووصله بعد أن قطعه، رضي الله عن أبي بكر الصديق.

قال: {أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ}، فمن أسماء الله عَزَّ وَجلَّ الغفور والرحيم.

ما معنى اسم الله الغفور؟ غفور فعول؛ فهي إما أن تكون اسم فاعل للمبالغة، يعني: هي في أصلها غافر، لكن جيء بها على هذه الصيغة للمبالغة، وإما أن تكون في أصلها صفة مُشبهة.

ما الفرق بين الصفة المُشبهة وبين اسم الفاعل؟

اسم الفاعل يدل على اتصاف الله عَزَّ وَجلَّ بهذه الصفة، فلما جيء باسم الفاعل على هذه الصورة دل ذلك على كثرة وقوع المغفرة منه سُبْحَانَهُ وَتعالَى، وأما الصفة المشبهة فتدل على لزوم ذلك وأن هذا من لوازم ذاته سُبْحَانَهُ وَتعالَى.

ولذلك المغفرة صفة ذات وصفة فعل، فالله عَزَّ وَجلَّ لم يزل متصفًا بذلك، وهو يغفر لمن يشاء من عباده سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، {إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ} [النساء: 48].

إذًا: هي صفة فعل وصفة ذات، والغفور؛ كما قلنا من أسمائه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

قال: وما قيل في غفور يقال في رحيم، فهي إما إنها رحيم، أي: راحم جاء بها على هذه الصيغة للمبالغة، أو أنها صفة مُشبهة.

قال: وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى: {وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ}.

هذه فيها إثبات العزة لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، والله عَزَّ وَجلَّ له العزة التي هي بمعنى القوة، والتي دل عليها اسمه القوي واسمه المتين.

وله العزة التي هي بمعنى الامتناع والغلبة والغنى، فلا يحتاج لأحد من خلقه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، ولم يبلغ أحدٌ ضره سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، وله العزة التي هي بمعنى القهر.

إذًا: هذه أنواع ثلاثة ومعاني ثلاثة للعزة.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ:

وهو العزيز فلن يرام جنابه ... أنى يرام جناب ذي السلطانِ

وهو العزيز القاهر الغلاب لم ... يغلبه شيء هذه صفتانِ

وهو العزيز بقوة هي وصفه ... فالعز حينئذ ثلاث معانِ

وهي التي كملت له سبحانه ... من كل وجه عادم النقصانِ

فله هذه الأوجه الثلاثة على جهة الكمال لا نقص فيها، هي له سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، فقال: {وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ}.

قال: فَقَدْ نَزَلَتْ فِي شَأْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أُبَيٍّ ابْنِ سَلُولَ رَئِيسِ الْمُنَافِقِينَ، وَكَانَ فِي بَعْضِ الْغَزَوَاتِ قَدْ أَقْسَمَ ليخرجنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هُوَ وَأَصْحَابَهُ مِنَ المدينة، فنزل قول تَعَالَى: {يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ} [المنافقون: 8].

ويقصدون بالأعز أنفسهم.

وَيَقْصِدُ بِالْأَذَلِّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ.

من الذي سمع ذلك منهم وأخبر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لكنه كان صغير السن؟ زيد بن أرقم رضي الله عنه.، هو الذي سمع ذلك وأخبر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ففرك رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أذنه، ولم يتكلم بشيء.

فلما نزلت هذه الآية ناداه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأخبره أن الله عَزَّ وَجلَّ يقول: {يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ}، وهذا رد من الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى عليهم، ثم قال: {وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ}.

قال: والعِزَّة صفةٌ أثبتها لله عز وجل لِنَفْسِهِ؛ قَالَ تَعَالَى: {وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}.

إذًا: من أسمائه العزيز، تضمن صفة العزة.

{سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ} [الصافات: 180]،

ما معنى {سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ}؟ يعني: صاحب العزة، فالعزة هاهنا صفته سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

قال: وَقَالَ: {وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا} [الأحزاب: 25].

قال: وَأَقْسَمَ بِهَا سُبْحَانَهُ؛ كَمَا فِي حَدِيثِ الشَّفَاعَةِ: ((وعِزَّتِي وكِبْريائي وَعَظَمَتِي؛ لأخرجنَّ مِنْهَا مَن قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)).

أين وجه الدلالة من هذا الحديث على أن العزة صفة لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى؟

هذه الواو واو القسم، فأقسم الله عَزَّ وَجلَّ بصفة من صفاته سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، هذه واحدة.

الثانية: أن العزة والكبرياء والعظمة هذه صفات أم أعيان؟ صفات، ونحن عندنا ضابط فيما يُضاف إلى الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، متى يكون مخلوقًا ومتى يكون صفة؟

إن كان لا يستقل بنفسه فهذه صفة لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، {يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ} [الفتح: 10]، وهنا قال: ((وعزَّتي وكِبْريائي وَعَظَمَتِي))، فهذه صفات لا تقوم بنفسها؛ إذًا: هي من صفات الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

أصرح منها قول إبليس، وهذا ما قصدت، قال: {فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ} [ص: 82]، ، (الباء) هذه الباء باء القسم، وأحرف القسم ثلاثة: (الباء والواو والتاء).

ولا يجوز القسم بمخلوق. لله عَزَّ وَجلَّ أن يقسم بما شاء، لكن هل للمخلوق أن يقسم بمخلوق؟ لا يجوز أن يقسم بمخلوق.

فلما ذكر الله عَزَّ وَجلَّ عن إبليس أنه أقسم بقوله: {فَبِعِزَّتِكَ}، دل ذلك على أن العزة صفة لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، لأنه لا يجوز للمخلوق أن يُقسم بمخلوق.

ولذلك استدل الإمام أحمد وغيره بقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ".

فالمخلوق لا يُستعاذ به، فلما استعاذ بكلمات الله دل ذلك على أن كلمات الله ليست مخلوقًا، ومنها القرآن كلام الله ،فالقرآن ليس بمخلوق.

قال: ((وعزَّتي وكِبْريائي وَعَظَمَتِي؛ لأخرجنَّ مِنْهَا مَن قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)).

قال: وَأَخْبَرَ عَنْ إِبْلِيسَ أَنَّهُ قَالَ: {فَبِعِزَّتِكَ لأغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ}.

سبحان الله إبليس أعرف بربه من كثير من البشر، ومن كثير من أهل الأهواء والكلام الذين ينفون صفات الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

وهذه الآية فيها إثبات الجن؛ لأن من الناس من ينكر وجود الجن؛ بحجة أنه لا يراه، وهؤلاء لا يؤمنون إلا بما هو مشاهد محسوس لا يؤمنون بالجن، الغرب عامتهم لا يؤمنون بالجن ويقولون: هو من باب الخُرافة.

وعندنا من لا يؤمن بدخول الجني في جسد الإنسي ويقول: هو من باب الخُرافة، وكان من هؤلاء الذين يقولون بذلك محمد عبده، ومحمد رشيد رضا، عفا الله عنهما، كانا يقولان بذلك.

يقولان: لأننا لا نشعر بدخول الجن إلى أجسامنا، وكانوا ينكرون قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنِ ابْنِ آدَمَ مَجْرَى الدَّمِ"، فيقولون: لو كان هذا حاصلاً لشعرنا بالشيطان في أجسامنا، ولشعرنا به وهو يدخل ويخرج، فنقول: هذا ليس بلازم، وهذا يرده العقل والنقل.

كثير من الميكروبات التي لا تراها تدخل في جسدك وتخرج وأنت لا تراها. هذه الميكروبات التي تراها الآن والجراثيم تحت الميكروسكوب، هل كنت تراها قبل ذلك؟ ما كنت تراها قبل ذلك.

إذًا: هؤلاء لما رأوها آمنوا بها، نقول: معنى ذلك أنها كانت موجودة قبل ذلك، ولا يعني أنكم لا ترونها بأعينكم أنها غير موجودة، وهذا من الابتلاء بالإيمان بالغيب.

ثم نقول: إن القرآن دل على ذلك، وكذلك سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

قال الله عَزَّ وَجلَّ: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} [الذاريات: 56].

إذًا: هناك عالم اسمه عالم الجن.

وقال: {قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ} [الجن: 1].

{وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ} [الأحقاف: 29].

{وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ} [الأعراف: 179].

{إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ} [الكهف: 50].

وكذلك جاء في سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أن عفريتًا من الجن تفلت عليه ليقطع عليه صلاته، فأراد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يُمسك به وأن يربطه في سارية المسجد ليلعب به الصبيان، ثم تذكر دعوة أخيه سليمان: {رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي} [ص: 35]، فلم يصنع ذلك صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وهذا الحديث من أقوى الأدلة في الرد على الذين يستعملون الجن ويقولون: إنما نستعمله فيما هو مباح، في علاج المرضى، نقول: لو كان ذلك جائزًا لفعله رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ماذا أراد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؟ أراد أن يربطه في سارية المسجد ليلعب به الصبيان، وهذا أمر مباح، ومع ذلك تذكر دعوة سليمان، سليمان ماذا قال؟ {لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي}.

فرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أبى أن يصنع ذلك صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فهذا يدل على أن ما يفعله هؤلاء خلاف الحق وخلاف الصواب.

ويستدلون بكلام لابن تيمية في ذلك، يقول: ويجوز ذلك في المباح.

فنقول: ابن تيمية يُصيب ويُخطئ وليس معصومًا, قد يكون كلام ابن تيمية رجع إلى أحوال وظروف معينة.

ابن تيمية كأنه يتكلم عن وقائع معينة وقعت وحصلت، لا يريد تشريع ذلك وبيان أن ذلك من المباح وأنه يجوز للإنسان أن يستدعي الجن وأن يستعمله وأن يصنع كذا وكذا، خاصة إذا أدى ذلك إلى أمور خطيرة جدًا.

والله -يا إخوة -هؤلاء تتعلق قلوبهم بالجن لا بالله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى؛ ولذلك تجد هؤلاء الذين يستدعون الجن والقرين لعلاج بعض الحالات، تجد أنه ما أن يجلس إلا ويستدعي الجن.

أنا أعرف جارا لنا، قال: جئنا بالشيخ فلان، قال: ما أن وقف أمام البيت إلا وقال: أمك عندها كذا وكذا دون أن يدخل ودون أن يقرأ شيئا من القرآن، من الذي أخبره بذلك؟

ثم تجد الواحد من هؤلاء يتوكل على الجن، ويُعلق قلبه به، وهو عالم غيبي، والأصل فيه الكذب كما أخبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فالجن عالم موجود دل على ذلك الكتاب والسنة وإجماع أهل السنة، لكن لا يجوز الاستعانة به، لكن هب مثلاً أن إنسانًا كان يبحث عن شيء ما فجاء الجن بهذا الشيء ووضعه أمامه، يجوز له أن يأخذه أم لا يجوز؟

هو لم يستعن بالجن ولم يطلب الجن لأمر مباح أو غير مباح، لكن هذا عرض له الجن وعرض عليه المساعدة، هذا الذي نقول فيه: إنه جائز، لكن فلان معه قرين، أو يسخر الجن فيما يزعم أنه جائز ومباح، هذا كله لا يجوز.

ومما يدل كذلك على صفة العزة كما ذكر الشيخ الهراس رَحِمَهُ اللهُ، قال: وَفِي ((صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ)) وَغَيْرِهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: ((بَيْنَمَا أَيُّوب عليه السلام يَغْتَسِلُ عُرْيَانًا خرَّ عَلَيْهِ جَرَادٌ مِنْ ذَهَبٍ، فَجَعَلَ يَحْثِي فِي ثَوْبِهِ، فَنَادَاهُ ربُّه: يَا أَيُّوب! أَلَمْ أَكُنْ أَغْنَيْتُكَ عَمَّا تَرَى؟ قَالَ: بَلَى؛ وعزَّتك.

هذه كذلك كقول إبليس، لكن الذي قال الأولى لعنه الله، لكن هذا عَلَيهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَم نبي.

قال: وعزَّتك: هذه الواو واو القسم.

قَالَ: بَلَى؛ وعزَّتك، وَلَكِنْ لَا غِنَى لِي عَنْ بَرَكَتِكَ)).

قال: وَقَدْ جَاءَ فِي حَدِيثِ الدُّعَاءِ الَّذِي علَّمه النبيُّ صلى الله عليه وسلم لِمَنْ كَانَ بِهِ وَجَعٌ: ((أَعُوذُ بعزَّة اللَّهِ وَقُدْرَتِهِ مِنْ شرِّ مَا أَجِدُ وأُحاذر)).

والاستعاذة لا تكون بمخلوق، وهذا رواه مسلم والترمذي وغيرهما من حديث عثمان بن أبي العاص رَضِي اللهُ عَنْهُ.

قال: وَالْعِزَّةُ تَأْتِي بِمَعْنَى الْغَلَبَةِ وَالْقَهْرِ؛ مِنْ عزَّ يعزُّ. بِضَمِّ الْعَيْنِ فِي الْمُضَارِعِ. يُقَالُ: عزَّه؛ إِذَا غَلَبَهُ.

كما قال: {وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ} [ص: 23]، أي: غلبني في الخطاب، وكان بحجته ألحن مني.

قال: وَتَأْتِي بِمَعْنَى الْقُوَّةِ وَالصَّلابَةِ؛ مِنْ عزَّ يعَزُّ . بِفَتْحِهَا .، وَمِنْهُ أَرْضٌ عَزَازٌ؛ لِلصَّلْبَةِ الشَّدِيدَةِ.

وَتَأْتِي بِمَعْنَى علوِّ الْقَدْرِ وَالامْتِنَاعِ عَنِ الْأَعْدَاءِ؛م نْ: عزَّ يَعِزُّ - بِكَسْرِهَا -.

قال: وَهَذِهِ الْمَعَانِي كُلُّهَا ثَابِتَةٌ لِلَّهِ عَزَّ وَجلَّ. وقد سبق بيانها ونظمها في نونية ابن القيم رحمه الله.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم، وجزاكم الله خيرًا.

الدرس الثالث والعشرون

إن الحمد لله, نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله تعالى من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله, صلى الله عليه, وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد:

فقد وصلنا إلى قول المصنف رَحِمَهُ اللهُ في عقيدته الواسطية, وَقَوْلُهُ: {تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ} [الرحمن: 78].

وهذه الآية التي ذكرها المصنف رَحِمَهُ اللهُ فيها بيان أن أسماء الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى كلها مباركة معظمة كثيرة البركة.

ولذلك قال: {تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ}.

فالاسم هاهنا جاء مضافًا, فيعم كل اسم من أسماء الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى, فالبركة تكون لأسمائه وتكون عند ذكر أسمائه, والبركة تكون منه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى, فالبركة من الله.

ولذلك لا يجوز لإنسان إذا زاره واحد من الصالحين أن يقول: زارتنا البركة, أو أن يصف رجلاً صالحًا بأنه بركة, لماذا؟ لأن البركة إنما تكون من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى, وتُستمد منه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال الشيخ الهراس: وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى: {تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ...} فَإِنَّهُ مِنَ الْبَرَكَةِ بِمَعْنَى دَوَامِ الْخَيْرِ وَكَثْرَتِهِ.

أي: تعالى وتعاظم, ولا يليق ذلك كما قلنا إلا للرب تعالى, فالبركة منه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

والبركة نوعان كما ذكر أهل العلم:

بركة هي فعله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى, فهي صفة له, وهذه قد تأتي متعدية بنفسها ومتعدية بحرف الجر (على) أو بـ(في), والمفعول منه: مبارك.

ولذلك إذا هنأنا شخصًا نقول له مبارك, ولا نقول مبروك, لأن مبروك هذه ليست لغة صحيحة من البركة, وإنما هي من بروك البعير, فيقال مبارك أي: بارك الله لك وعليك.

و إذا هنأنا العروس نقول له: بارك الله لك وبارك عليك وجمع بينكما في خير.

فنقول: بارك الله لك –فعديت باللام- وبارك عليك –عديت كذلك بـ(على)-.

ونقول: فلان باركه الله, فالبركة من الله كما قلنا.

وكما قال الله عَزَّ وَجلَّ: {وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا} [فصلت: 10].

فأول أنواع البركة لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى فعل منه, فإذا بارك الله عَزَّ وَجلَّ العبد أو بارك عليه أو بارك له صار هذا الفعل مباركًا, وصار هذا الشخص مباركًا.

والنوع الثاني: بركة تضاف إليه كصفة له سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

فالأولى: فعله, فهو الذي يبارك.

والثانية: صفته سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

وهذه كذلك لا تقال لغيره عَزَّ وَجلَّ.

وَقَوْلُهُ: {ذِي الْجَلالِ}؛ أَيْ: صَاحِبِ الْجَلاَلِ وَالْعَظَمَةِ سُبْحَانَهُ، الَّذِي لَا شَيْءَ أجلَّ وَلَا أَعْظَمُ مِنْهُ.

وَ{وَالإِكْرَامِ}: الَّذِي يَكْرُمُ عَمَّا لَا يَلِيقُ بِهِ: أي: ينزه عما لا يليق به سُبْحَانَهُ وَتعَالَى, فينزه عن جميع المعائب وصفات النقص.

قال: وَقِيلَ: الَّذِي يُكْرِمُ عِبَادَهُ الصَّالِحِينَ بِأَنْوَاعِ الْكَرَامَةِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

فإما أن تكون هذه الصفة صفة ذاتية لازمة فينزه الله عَزَّ وَجلَّ نفسه عن كل عيب ونقص ويُكرم عن ذلك, وإما أن تكون صفة متعدية, أي: أنه يُكرم عباده, ولذلك قال: وَقِيلَ: الَّذِي يُكْرِمُ عِبَادَهُ الصَّالِحِينَ بِأَنْوَاعِ الْكَرَامَةِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

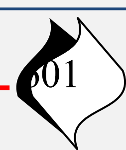
وأسماء الله كما قلنا كلها مباركة, وإذا ذُكرت في شيء حلت البركة في هذا الشيء بإذنه سبحانه.

ولذلك سُن لنا, بل هذا شرط في الذبيحة أن نسمي عليها, قال: {وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ} [الأنعام: 121].

فإذا سمينا وذبحنا حلت البركة على هذه الذبيحة وصارت حلالًا مباركًا طيبًا, وإذا تركنا التسمية عمدًا كانت ميتة, وإن تركناها نسيانًا اختلف أهل العلم في ذلك.

والراجح: أن تسمي وتأكل, لأن الله عَزَّ وَجلَّ عفا عن ذلك.

وكذلك إذا سمينا عند الوضوء, فبعض أهل العلم يجعل ذلك شرطًا في صحة الوضوء, «وَلَا وُضُوءَ لِمَنْ لَمْ يَذْكُرِ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ», وهذا حديث عن



رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ, لكنه حديث لا يصح, لكن بعض أهل العلم أخذ منه أن ذلك واجب.

وكذلك إذا سمى المرء على طعامه, فقال قبل أن يأكل: بسم الله, ما عاقبة ذلك؟ قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيما معناه: (لم يأكل معه الشيطان), إذا دخل بيته فقال: بسم الله, وإذا أكل فقال: بسم الله, قال الشيطان: لا مبيت ولا عشاء لكم.

وكل ذلك ببركة اسم الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

لكن لو ترك التسمية؟ رُفعت هذه البركة وأكل الشيطان وبات معه, وقال لأقرانه: دركتم المبيت والعشاء, وهذا يبين لنا أهمية ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

إذا أتى المرء أهله, علمه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يقول: "بِسْمِ اللَّهِ، اللَّهُمَّ جَنِّبْنَا الشَّيْطَانَ وَجَنِّبْ الشَّيْطَانَ مَا رَزَقْتَنَا، فَرُزِقَا وَلَدًا لَمْ يَضُرَّهُ الشَّيْطَانُ".

لكن ماذا لو ترك التسمية؟ كان ولده عُرضة للشيطان, وهذا يبين لنا أهمية هذه التسمية.

ومن جميل ما سمعته من شيخنا الشيخ عبد الرزاق البدر -حفظه الله- أنه قال: إن جدَّه حمدًا رَحِمَهُ اللهُ -فهو عبد الرزاق بن عبد المحسن بن حمد البدر العباد- سئل أنى لك هذه الذرية الصالحة؟ يعني: أولاده كلهم صالحون, ماذا تصنع؟ قال: والله ما كنت أصنع غير أني لا أترك الأذكار خاصة عند إتيان أهلي.

يعني: كان إذا أتى أهله يقول: (بسم الله, اللهم جنبني الشيطان, وجنب الشيطان ما رزقتني).

فهذا كله يبين لنا أهمية ذكر اسم الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى, لأن اسم الله والمراد هاهنا كل اسم لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى فإنه مبارك.

قال: وَقَوْلُهُ: {فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا} [مريم: 65].

وَقَوْلُهُ: {وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ} [الإخلاص: 4].

وَقَوْلُهُ: {فَلاَ تَجْعَلُواْ لِلّهِ أَندَاداً وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ} [البقرة: 22].

وَقَوْلُهُ: {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ} البقرة: 165].

وَقَوْلُهُ: {وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَم يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلَّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا} [الإسراء: 111].

وَقَوْلُهُ: {يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [التغابن: 1].

وَقَوْلُهُ: {تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا * الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا} [الفرقان: 1-2].

وَقَوْلُهُ: {مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلاَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ * عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ} [المؤمنون: 91-92].

وَقَوْلُهُ: {فَلاَ تَضْرِبُواْ لِلّهِ الأَمْثَالَ إِنَّ اللّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ} [النحل: 74].

وَقَوْلُهُ: {قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ} [الأعراف: 33].

هذه الآيات التي ذكرها المصنف رَحِمَهُ اللهُ فيها بيان طريقة أهل السنة والجماعة في هذا الباب باب الصفات, وهي النفي المجمل والإثبات المفصل.

الأصل في هذا الباب: أن يكون النفي مجملاً لا تفصيل فيه, لأن هذا هو الكمال, وأن يكون الإثبات مفصلاً, وأن النفي لا يؤتى به لمجرد النفي, لأن النفي المحض لا كمال فيه, وإنما يؤتى به لإثبات كمال الضد, فكل صفة نفاها الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى عن نفسه إنما أراد أن يُثبت كمال ضد هذه الصفة.

فذكر المصنف رَحِمَهُ اللهُ هذه الآيات العديدة التي تُثبت ذلك.

قال الشيخ الهراس رَحِمَهُ اللهُ: قَوْلُهُ: {فَاعْبُدْهُ ...} إِلَخْ؛ تضمَّنت هَذِهِ الْآيَاتُ الْكَرِيمَةُ جُمْلَةً مِنْ صِفَاتِ السُّلُوبِ.

ما معنى صفات السلوب؟ أي: صفات النفي, وبعض أهل العلم يأبى تسمية هذه الصفات بالصفات السلبية, يقول: لأن السلب فيه ما يُشبه القهر.

ونقول: لا محظور في ذلك؛ لأن المراد هاهنا أن هذه الصفات جاءت منفية عن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى, والسلب ضد الإثبات أو الإيجاب, فكما أوجب الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى صفات لنفسه ووصف نفسه بها فكذلك هو الذي سلب ونفى هذه الصفات عن نفسه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

وهذه الصفات التي نفاها عن نفسه قال: وَهِيَ نَفْيُ السَّمِيِّ وَالْكُفْءِ والنِّد وَالْوَلَدِ وَالشَّرِيكِ وَالْوَلِيِّ مِنْ ذلٍّ وَحَاجَةٍ؛ كَمَا تضمَّنت بَعْضَ صِفَاتِ الْإِثْبَاتِ؛ مِنَ: الْمُلْكِ، وَالْحَمْدِ، وَالْقُدْرَةِ وَالْكِبْرِيَاءِ، وَالتَّبَارُكِ.

إذًا: هذا هو القول المجمل في هذه الصفات.

فقال الله عَزَّ وَجلَّ: {فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا}.

{فَاعْبُدْهُ}: يعني: لا تعبد غيره سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

والملاحظ في هذه الآيات أنها تُثبت إخلاص التوحيد لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى, وهو التوحيد الذي جاء به الأنبياء والمرسلون, وكل ما خالف هذا التوحيد من ملل باطلة جاءت في اليهودية المحرفة أو النصرانية أو غير ذلك من الأديان والملل المحرفة, فهذه لا يمكن أبدًا أن تجتمع مع دين التوحيد في دين واحد.

ولذلك نقول: إن هذه الدعوة الفاجرة الباطلة إلى توحيد هذه الأديان في دين واحد يسمى دين إبراهيم -وإبراهيم عَليهِ السَّلاَمُ منه براء- أو البيت الإبراهيمي, أو الملة الواحدة.

نقول: إن كل ذلك باطل, إذ كيف يجتمع التوحيد مع الشرك؟! وكيف يجتمع كمال تنزيه الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى مع كمال إثبات النقص ومحض النقص له سُبْحَانَهُ وَتعَالَى كما قرأنا في رسالة الشيخ بكر رَحِمَهُ اللهُ، وكيف أن اليهود والنصارى جاءوا بما ينقض التوحيد فيما يتعلق بصفات الباري سُبْحَانَهُ وَتعَالَى, وجاءوا بما ينقض أصل الإيمان فيما يتعلق بصفات الأنبياء والمرسلين؟

فهذه الآيات لو أمعنَّا النظر فيها مرة أخرى لوجدنا أنها تتعلق بإخلاص التوحيد له سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

فقال: {فَاعْبُدْهُ}: يعني: لا تعبد غيره, {وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ}: ما قال: واصبر, وإنما قال: {وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ}, وهذا فيه مبالغة في الصبر, لماذا؟ لأن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى, فامرنا سُبْحَانَهُ وَتعَالَى أن نصطبر لهذه العبادة وأن نصبر عليها.

قال الشيخ: أَمَّا قَوْلُهُ: {هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا} ؛ فَقَدْ قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللهُ: ((قَالَ أَهْلُ اللُّغَةِ: {هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا}؛ أَيْ: نَظِيرًا استحقَّ مِثْلَ اسْمِهِ، وَيُقَالُ: مُسَامِيًا يُسَامِيه, وَهَذَا مَعْنَى مَا يُرْوَى عَنِ ابن عباس: {هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا} ؛ مَثَلاً أَوْ شَبِيهًا)).

وَالِاسْتِفْهَامُ فِي الْآيَةِ إِنْكَارِيٌّ، مَعْنَاهُ النَّفْيُ؛ أَيْ: لَا تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا.

وهذه الآية كقول الله تعالى في سورة الإخلاص: {وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ}.

وإذا كان يراد بالاستفهام هاهنا النفي فما الذي يقابل هذا النفي؟

الطالب: كمال الضد.

الشيخ: وما هو كمال الضد؟ إثبات كمال تفرد الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى بصفات الكمال, فليس له سميّ في ذاته ولا أسمائه ولا صفاته سُبْحَانَهُ وَتعَالَى ولا ما اختص به من الألوهية والربوبية, قال: وَالِاسْتِفْهَامُ فِي الْآيَةِ إِنْكَارِيٌّ، مَعْنَاهُ النَّفْيُ؛ أَيْ: لَا تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا.

قال: وَأَمَّا قَوْلُهُ: {وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ}.

هذه الآية جاءت في أخر سورة الإخلاص, التي خُلصت للكلام عن صفات ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

فقال: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ}, أي: واحد في ذاته وصفاته.

{اللَّهُ الصَّمَدُ}, أي: الذي تصمد إليه الخلائق ولا يحتاج إلى غيره من الخلائق, الذي كمُل في سُؤدده وفي عظمته وفي رحمته وفي حلمه.

{لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ}, أي: أنه منزه عن كل عيب ونقص, ومنزه عن كل حاجة, فلم يوجد بعد عدم سُبْحَانَهُ وَتعَالَى ولا يحتاج إلى ولد يُكمل به نقصًا ويكون له حاجة إليه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى, لأنه الصمد.

ثم أجمل ذلك في قوله: {وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ}, أي: لم يكن له مساو.

ولذلك قال الشيخ: فَالْمُرَادُ بِالْكُفْءِ: الْمُكَافِئُ الْمُسَاوِي.

فَهَذِهِ الْآيَةُ تَنْفِي عَنْهُ سُبْحَانَهُ النَّظِيرَ وَالشَّبِيهَ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ؛ لِأَنَّ {أَحَدٌ} وَقَعَ نَكِرَةً فِي سِيَاقِ النَّفْيِ، فَيَعُمُّ، وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى تَفْسِيرِ سُورَةِ الْإِخْلَاصِ كُلِّهَا، فَلْيُرْجَعْ إِلَيْهَا.

الله عَزَّ وَجلَّ قال: {وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ}, فـ(أحد): نكرة في سياق النفي, فيندرج تحتها كل أحد, فليس هناك أحد يكافئ الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى ويُساميه.

قال: وَأَمَّا قَوْلُهُ: {فَلاَ تَجْعَلُواْ لِلّهِ أَندَاداً ...} إلخ, فَالْأَنْدَادُ جَمْعُ نِدٍّ، وَمَعْنَاهُ كَمَا قِيلَ: النَّظِيرُ الْمُنَاوِئُ, وَيُقَالُ: لَيْسَ لِلَّهِ نِدٌّ وَلَا ضِدٌّ، وَالْمُرَادُ نَفْيُ مَا يُكَافِئُهُ وَيُنَاوِئُهُ، وَنَفْيُ مَا يُضَادُّهُ وَيُنَافِيهِ.

فالله عَزَّ وَجلَّ تفرد بألوهيته وبروبيته وسلطانه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى, وكل ما سواه عبيد له سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

ولذلك قال: {إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا} [مريم: 93], هذا قاله بعد أن قال سُبْحَانَهُ وَتعَالَى: {وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا (88) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا (89) تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ

الْجِبَالُ هَدًّا (90) أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا (91) وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا (92) إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا (93) لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا (94) وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا} [مريم: 88-95].

فهذه الآيات كما نرى كلها تدل على كمال عزة الله سُبْحَانَهُ وَتعالَى وكمال سلطانه وتفرده بمُلكه.

قال: وَجُمْلَةُ: {وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ} وَقَعَتْ حَالًا مِنَ الْوَاوِ فِي {تَجْعَلُواْ}، وَالْمَعْنَى: إِذَا كُنْتُمْ تَعلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ وَحْدَهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَرَزَقَكُمْ، وَأَنَّ هَذِهِ الْآلِهَةَ الَّتِي جَعَلْتُمُوهَا لَهُ نُظَرَاءَ وَأَمْثَالًا وَسَاوَيْتُمُوهَا بِهِ فِي اسْتِحْقَاقِ الْعِبَادَةِ لَا تَخْلُقُ شَيْئًا، بَلْ هِيَ مَخْلُوقَةٌ، وَلَا تَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا؛ فَاتْرُكُوا عِبَادَتَهَا، وأفردوه سُبْحَانَهُ بِالْعِبَادَةِ وَالتَّعْظِيمِ.

وهذه طريقة القرآن المضطردة؛ الاستدلال على استحقاقه للإلهية بما تفرد به تعالى من أفراد ربوبيته التي ليست لواحد من خلقه.

قال: وَأَمَّا قَوْلُهُ: {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ ...} إِلَخْ.

إذًا: هذه الآية إنما هي في الندية في المحبة, وليست في الخلق والرزق والتدبير؛ لأن الآية التي قبلها قال: {وَأَنتُمْ تَعلَمُونَ}, أنتم تعلمون أن الله هو الخالق الرازق المالك المدبر.

فهؤلاء جعلوا الندية في المحبة وصرف العبادة لغير الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

إذًا: شركهم كان في المحبة, وهذا ترتب عليه الشرك في العبادة.

قال: {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ ...} إِلَخْ؛ فَهُوَ إِخبارٌ مِنَ اللَّهِ عَنِ الْمُشْرِكِينَ بِأَنَّهُمْ يحِبُّون آلِهَتَهُمْ كَحُبِّهِم لِلَّهِ عَزَّ وَجلَّ؛ يَعْنِي: يَجْعَلُونَهَا مُسَاوِيَةً لَهُ فِي الْحُبِّ.

{وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلّهِ} مِنْ حُبِّ الْمُشْرِكِينَ لِآلِهَتِهِمْ؛ لِأَنَّهُمْ أَخْلَصُوا لَهُ الْحُبَّ، وَأَفْرَدُوهُ بِهِ، أَمَّا حُبُّ الْمُشْرِكِينَ لِآلِهَتِهِمْ؛ فَهُوَ موزَّعٌ بَيْنَهَا، وَلَا شَكَّ أَنَّ الحبَّ إِذَا كَانَ لِجِهَةٍ وَاحِدَةٍ كَانَ أَمْكَنَ وَأَقْوَى.

وَقِيلَ: الْمَعْنَى: أَنَّهُمْ يحبُّون آلِهَتَهُمْ كَحُبِّ الْمُؤْمِنِينَ لِلَّهِ، وَالَّذِينَ آمَنُوا أشدُّ حُبًّا لِلَّهِ مِنَ الْكُفَّارِ لِأَنْدَادِهِمْ.

والصحيح القول الأول كما رجح ذلك أبو العباس ابن تيمية وجماعة من أهل العلم في غير موضع.

وهذا هو الفارق بين محبة المؤمنين لله عَزَّ وَجلَّ ومحبة المشركين, أن المؤمنين جعلوا الهم همًا واحدًا, وجعلوا الحب حبًا واحدًا.

ولذلك قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ:

فلواحدٍ كُن واحدًا في واحدٍ أعني سبيل الحق والإيمان

فلواحدٍ: أي: لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى, كُن واحدًا: يعني: مخلصًا العبادة, في واحدٍ: يعني: في طريق واحد, طريق النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ, لا تتشعب بك الطرق والأهواء والسبل, وفسر ذلك بقوله: أعني سبيل الحق والإيمان.

والله عَزَّ وَجلَّ يقول: {أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ} [يوسف: 39].

قال: وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى: {وَقُلِ الْحَمْدُ لِلهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا ...} الْآيَةَ.

وهذه الآية تسمى بآية العز والعزة لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى, فالله عَزَّ وَجلَّ لماذا يُحمد؟ ولماذا له كمال الحمد؟ لهذه الأسباب التي ذكرها.

قال: {وَقُلِ الْحَمْدُ لِلهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا}.

فكل من اتخذ ولدًا إنما اتخذه ليكمل نقصًا ولحاجته لهذا الولد, ولذلك وجود الولد بالنسبة للمخلوق كما في حقه يكمل به نفسه.

ولذلك يفرقون بين الذي ينجب وبين العقيم, فالولد إنما هو كمال في حق المخلوق, وأما الله عَزَّ وَجلَّ فإنه غني بذاته سُبْحَانَهُ وَتعَالَى لا يحتاج إلى الولد, لأن الذي يحتاج إلى الولد يحتاج له لأحد أمرين:

إما أن يعينه في هذه الحياة الدنيا حال حياته, وإما أن يرثه ويحمل اسمه ويتكلف بما تركه له بعد موته, والله غني عن كل ذلك سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

فبيَّن الله عَزَّ وَجلَّ لماذا له الحمد, قال: {لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ}, أي: يُكمل به نفسه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

وأما هو فهو ولي الذي أمنوا, {اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ} [البقرة: 257], فهنا نفى الولاية, وفي الآية هذه التي ذكرناها أثبت الولاية.

فما الفرق بين الولايتين؟

المثبت من ذلك الولاية التي تعنى نُصرة المؤمنين, بمعنى أن الله عَزَّ وَجلَّ ينصر عباده المؤمنين, والمنفي في ذلك الولاية التي تقتضي الحاجة إلى الغير؛ ولذلك قال: {وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ}, يعني: من الحاجة, يحتاج إليه لينصره سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

قال: فَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ فِي مَعْنَى الْحَمْدِ، وَأَنَّهُ الثَّنَاءُ بِاللِّسَانِ عَلَى النِّعْمَةِ وَغَيْرِهَا، وَقُلْنَا: إِنَّ إِثْبَاتَ الْحَمْدِ لَهُ سُبْحَانَهُ متضمِّنٌ لِإِثْبَاتِ جَمِيعِ الْكَمَالَاتِ الَّتِي لَا يستحقُّ الْحَمْدَ الْمُطْلَقَ إِلَّا مَنْ بَلَغَ غَايَتَهَا.

وهذا لا يكون إلا لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى, فالحمد: هو وصف المحمود بجميع صفات الكمال مع المحبة والتعظيم.

قال: ثُمَّ نَفَى سُبْحَانَهُ عَنْ نَفْسِهِ مَا يُنَافِي كَمَالَ الْحَمْدِ مِنَ الْوَلَدِ وَالشَّرِيكِ وَالْوَلِيِّ.

قلنا: هذه الولاية هي الولاية المنفية.

قال: وَالْوَلِيِّ مِنَ الذلِّ -أَيْ: مِنْ فَقْرٍ وَحَاجَةٍ-، فَهُو سُبْحَانَهُ لَا يُوَالِي أَحَدًا مِنْ خَلْقِهِ مِنْ أَجْلِ ذِلَّةٍ وَحَاجَةٍ إِلَيْهِ.

وإنما يواليهم من أجل النُصرة, قال: {أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (62) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ} [يونس: 62-63].

فهؤلاء اتخذهم الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى أولياء ليعزهم, لا ليعتز بهم ولا ليُكمل نقصًا عنده سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

قال: ثُمَّ أَمَرَ عَبْدَهُ وَرَسُولَهُ أَنْ يُكَبِّرَهُ تَكْبِيرًا؛ أَيْ: يُعَظِّمَهُ تَعْظِيمًا وَيُنَزِّهَهُ عَنْ كُلِّ صِفَةِ نَقْصٍ وَصَفَهُ بِهَا أَعْدَاؤُهُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ.

قال: وَأَمَّا قَوْلُهُ: {يُسَبِّحُ لِلَّهِ ...} إِلَخْ؛ فَالتَّسْبِيحُ هُوَ التَّنْزِيهُ وَالْإِبْعَادُ عَنِ السُّوءِ؛ كَمَا تَقَدَّمَ.

والتسبيح قد يُعدى بنفسه وقد يُعدى بغيره, أي: بحروف الجر؛ ولذلك نقول: سبحان الله.

وقال: وَلَا شَكَّ أَنَّ جَمِيعَ الأشياء فِي السموات وفِي الْأَرْضِ تسبِّح بِحَمْدِ رَبِّهَا، وَتَشْهَدُ لَهُ بِكَمَالِ الْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ والعزَّة وَالْحِكْمَةِ وَالتَّدْبِيرِ وَالرَّحْمَةِ؛ قَالَ تَعَالَى: {وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ} [الإسراء: 44].

قال: وَقَدِ اختُلف فِي تَسْبِيحِ الجَمَادَاتِ الَّتِي لَا تَنْطِقُ؛ هَلْ هُوَ بِلِسَانِ الْحَالِ أَوْ بِلِسَانِ الْمَقَالِ؟

والمراد بلسان الحال: الاستجابة والقيام بما أُريد منها على وجه الإذعان, هذا هو المراد بلسان الحال, كما ذكرنا في خطبة الجمعة الماضية, في قول الله تعالى: {إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا (1) وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا (2) وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا (3) يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا (4) بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا} [الزلزلة: 1-5], هل حديث الأرض بلسان الحال أو بلسان المقال؟

من أهل العلم من قال: إنما هو بلسان الحال.

ومنهم من قال: إنما هو بلسان المقال, وهذا أرجح, أي: أن الأرض تشهد على من وطئها ومشى عليها, فهي من جملة الشهود, تحدث الناس أخبارها, لأن الفعل (يُحدث) ينصب مفعولين.

تُحدث الناس أخبارها, يعني: تقول: يا فلان عملت كذا يوم كذا, يا فلان عملت كذا يوم كذا, فأين المفر؟

ولذلك ينبغي أن يراقب المرء نفسه في كل زمان ومكان, ويعلم أن هناك شهودًا ستشهد عليه.

كذلك الجمادات إذا سبحت ربها سُبْحَانَهُ وَتعَالَى هل تسبحه بلسان الحال؟ يعني: تستجيب وتقوم بما أراده الله عَزَّ وَجلَّ منها على جهة الإذعان والقبول أم أنها تنطق؟

يعني: لما قال الله عَزَّ وَجلَّ للسماوات والأرض: {ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ} [فصلت: 11].

فالأصل حمل اللفظ على ظاهره, أن السماوات نطقت وأن الأرض نطقت, وقالتا أتينا طائعين, فهذا رد بلسان المقال.

قالوا ذلك, هذا هو الأصل, ولا يجوز لنا أن ننتقل عن هذا الأصل إلا بقرينة, ولا قرينة هاهنا, وقد كان الحجر يسلم على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبل البعثة, وكان الصحابة يسمعون تسبيح الطعام والحصى في يد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

إذًا: كان يسبح بلسان مقاله, لأنهم كانوا يسمعون ذلك, لكن تجد أهل البدع الذين ينفون مثل هذه الصفات عن الجمادات يقولون: ما ثَمَّ قول ولا رد.

الزمخشري جاء عند قول الله عَزَّ وَجلَّ: {قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ}, قال: ما ثَمَّ قول.

الله عَزَّ وَجلَّ يقول عن السماوات والأرض: {قَالَتَا}, وهو يقول: لم يكن هناك قول! سبحان الله, {أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ} [البقرة: 140].

قال: وَعِنْدِي أَنَّ الثَّانِيَ أَرْجَحُ: ما الثاني؟ أنها سبحت بلسان المقال.

بِدَلِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: {وَلَكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُم}؛ إِذْ لَوْ كَانَ الْمُرَادُ تَسْبِيحَهَا بِلِسَانِ الْحَالِ؛ لَكَانَ ذَلِكَ مَعْلُومًا، فَلاَ يصحُّ الاِسْتِدْرَاكُ.

لأننا نعلم علم اليقين أن هذه الكائنات طائعة منقادة لله سُبْحَانَهُ وتعَالَى, فلو كان بلسان الحال لما وقع هذا الاستدراك الذي قال الله عَزَّ وَجلَّ فيه: {وَلَكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُم}.

قال: وَقَدْ قالَ تَعَالَى خَبَرًا عَنْ داودَ عَليهِ السَّلاَمَ: {إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ * وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ} [ص: 18-19].

وكانت الجبال تسبح مع داود عَليهِ السَّلاَم.

قال: وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى: {تَبَارَكَ الَّذِي ... } إِلَخْ؛ فَقَدْ قُلْنَا: إِنَّ مَعْنَى {تَبَارَكَ} مِنَ الْبَرَكَةِ.

وأصله: من البِرْكة، التي هي مجتمع الماء، يجتمع فيها الماء الكثير ويثبُت، والبَرَكة كذلك تدل على ثُبوت الخير ودوامه وكثرته.

قال: فَقَدْ قُلْنَا: إِنَّ مَعْنَى {تَبَارَكَ} مِنَ الْبَرَكَةِ؛ وَهِيَ دَوَامُ الْخَيْرِ وَكَثْرَتُهُ، وَلَكِنْ لَا يَلْزَمُ مِنْ تِلْكَ الزِّيَادَةِ سَبْقُ النَّقْصِ، فَإِنَّ الْمُرَادَ تجدُّد الْكَمَالَاتِ الِاخْتِيَارِيَّةِ التَّابِعَةِ لِمَشِيئَتِهِ وَقُدْرَتِهِ.

ولذلك كانت هذه الصفة –صفة البركة- قديمة النوع حادثة الآحاد، فما زالت بركة ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى تحل علينا وتتجدد؛ لأن ذلك راجع إلى مشيئته وقدرته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال: فَإِنَّهَا تتجدَّد فِي ذَاتِهِ عَلَى وَفْقِ حِكْمَتِهِ، فالخلوُّ عَنْهَا قَبْلَ اقْتِضَاءِ الْحِكْمَةِ لَهَا لَا يعتبرُ نَقْصًا.

فالله عَزَّ وَجلَّ يفرح بتوبة عبده إذا تاب، إذا لم تكن هذه الصفة موجودة قبل ذلك فيما يتعلق بهذا العبد، هل هذا يُعد نقصًا؟ لا يُعد نقصًا، ولذلك قال: فالخلوُّ عَنْهَا قَبْلَ اقْتِضَاءِ الْحِكْمَةِ لَهَا لَا يعتبرُ نَقْصًا.

قلنا: لأن الصفات نوعان: صفات ذاتية لا تنفك عن ذات الله أبدًا، وصفات فعلية اختيارية، تقع على مقتضى السبب والحكمة والمشيئة، فإذا لم توجد المشيئة وإذا لم يوجد سبب ذلك فخلو الذات منها فيما يتعلق بهذه العين لا يعتبر نقصًا.

قال: وَقَدْ فَسَّرَ بَعْضُهُمُ التَّبَارُكُ بِالثَّبَاتِ وَعَدَمِ التغيُّر، وَمِنْهُ سمِّيت البِرْكَة؛ لِثُبُوتِ مَائِهَا, وَهُوَ بَعِيدٌ.

وَالْمُرَادُ بِـ{الْفُرْقَانَ} الْقُرْآنُ، سُمِّيَ بِذَلِكَ لقوَّة تَفْرِقَتِهِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ وَالْهُدَى وَالضَّلالِ.

قال: وَالتَّعْبِيرُ بِـ {نَزَّلَ} بِالتَّشْدِيدِ؛ لِإِفَادَةِ التدرُّج فِي النُّزُولِ، وَأَنَّهُ لَمْ يَنزِلْ جُمْلَةً وَاحِدَةً.

ولذلك قال: {نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا}.

قال: وَالْمُرَادُ بِـ{عَبْدِه} مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَالتَّعْبِيرُ عَنْهُ بِلَقَبِ الْعُبُودِيَّةِ لِلتَّشْرِيفِ -كَمَا سَبَقَ-.

لأن الإضافة هاهنا إضافة مخلوق إلى خالقه, فالإضافة هاهنا إضافة تشريف.

وَ{الْعَالَمِينَ}؛ جَمْعُ عالَم، وَهُوَ جَمْعٌ لِمَا يَعْقِلُ، واختُلِف فِي الْمُرادِ بِهِ، فَقِيلَ: الْإِنْسُ, وَقِيلَ: الْإِنْسُ وَالْجِنُّ, وَهُوَ الصَّحِيحُ.

لأنه قال: {لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا}, والنِذارة التي جاء بها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إنما هي للإنس والجن.

قال: فَقَدْ ثَبَتَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مرسلٌ إِلَى الْجِنِّ أَيْضًا، وَأَنَّهُ يَجْتَمِعُ بِهِمْ، وَيَقْرَأُ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنَ.

بل أثبت بعض أهل العلم صحابة من الجن, كالحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ في الإصابة, لأن نفرًا من الجن قرأ عليهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ القرآن واستمعوا وآمنوا وصاروا نُذرًا لأقوامهم, فالنذارة للإنس والجن.

قال: وَأَنَّ مِنْهُمْ نَفَرًا أَسْلَمَ حِينَ سَمِعَ الْقُرْآنَ وَذَهَبَ يُنْذِرُ قَوْمَهُ بِهِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: {وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ} [الأحقاف: 29].

وجاء في ذلك حديث عند مسلم من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ, أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: "فَذَهَبْتُ مَعَهُ فَقَرَأْتُ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنَ".

قال: وَالنَّذِيرُ وَالْمُنْذِرُ هُوَ مَنْ يُعْلِم بِالشَّيْءِ مَعَ التَّخْوِيفِ، وَضِدُّهُ الْبَشِيرُ أَوِ المبشِّر، وهوَ مَنْ يُخْبِرُكَ بِمَا يسرُّك.

والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بُعث نذيرًا وبشيرًا, صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال: وَقَوْلُهُ: {مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَد ...} إِلَخْ؛ تضمَّنت هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ أَيْضًا جُمْلَةً مِنْ صِفَاتِ التَّنْزِيهِ الَّتِي يُراد بِهَا نَفْيُ مَا لَا يَلِيقُ بِاللَّهِ عز وجل عَنْهُ، فَقَدْ نزَّه سُبْحَانَهُ نَفْسَهُ فِيهَا عَنِ اتِّخاذ الْوَلَدِ وَعَنْ وُجُودِ إِلَهٍ خالقٍ مَعَهُ، وعمَّا وَصَفَهُ بِهِ الْمُفْتَرُونَ الكذَّابون؛ كَمَا نَهَى عَنْ ضَرْبِ الْأَمْثَالِ لَهُ، وَالْإِشْرَاكِ بِهِ بِلاَ حُجَّةٍ وَلَا بُرْهَانٍ، وَالْقَوْلِ عَلَيْهِ سُبْحَانَهُ بِلاَ عِلْمٍ وَلَا دَلِيلٍ.

فَهَذِهِ الْآيَةُ تضمَّنت إِثْبَاتَ تَوْحِيدِ الْإِلَهِيَّةِ، وَإِثْبَاتَ تَوْحِيدِ الرُّبوبية، فَإِنَّ اللَّهَ بَعْدَمَا أَخْبَرَ عَنْ نَفْسِهِ بِعَدَمِ وُجُودِ إِلَهٍ مَعَهُ أَوْضَحَ ذَلِكَ بِالْبُرْهَانِ الْقَاطِعِ وَالْحُجَّةِ الْبَاهِرَةِ، فَقَالَ: {إِذًا}؛ أَيْ: إِذْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلهةٌ كَمَا يَقُولُ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ؛ {لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ}.

وهذه الدليل يسميه علماء الكلام بدليل التمانع, مشهور عندهم بهذا الاسم, وأهل السنة يقولون: هو برهان عقلي صحيح على إثبات الربوبية لله سُبْحَانَهُ

وَتعَالَى, وهو متضمن لتوحيد الألوهية؛ كما سيبين المصنف رَحِمَهُ اللهُ –أعني الشارح–.

قال: وَتَوْضِيحُ هَذَا الدَّلِيلِ.

قال الله عَزَّ وَجلَّ: {مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ}, ماذا لو كان معه إله؟ قال: {إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلاَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ}.

فمثلاً: لو كان عندنا إله مع الله –وحاشاه سبحانه– فلو أراد أحدهما مثلاً أن يحرك جسمًا وأراد الآخر أن يُسكِّنه؟ يعني: أراد أحدهم أن يُحرك هذا الكوب وأراد الآخر أن يُسكِّن هذا الكوب, أو أراد هذا إحياء شخصٍ وأراد الآخر إماتته, فالقسمة في ذلك ماذا؟

إما أن يحصل مرادهما, وهذا ممتنع, لأنه جمع بين النقيضين, إذ كيف يتحرك الكوب ويسكُن في آن واحد؟! فالكوب إما أن يكون متحركًا وإما أن يكون ساكنًا, لا يجتمع النقيضان.

وإما ألا يحصل مرادهما, يعني: لا يتحرك الكوب ولا يسكن, ولا يموت هذا ولا يحيا, وهذا يستلزم عجز كلٍّ منهما, وإما أن يحصل مراد أحدهما, فهذا هو الإله, لأنه هو الأقوى.

ولذلك قال المصنف رَحِمَهُ اللهُ: وَتَوْضِيحُ هَذَا الدَّلِيلِ أَنْ يُقَالَ: إِذَا تعدَّدت الْآلِهَةُ؛ فَلاَ بدَّ أَنْ يَكُونَ لِكُلٍّ مِنْهُمْ خَلْقٌ وَفِعْلٌ.

يعني: هذا الإله يخلق ويفعل ويشاء ويريد, وهذا يخلق ويفعل ويشاء ويريد.

قال: وَلَا سَبِيلَ إِلَى التَّعَاوُنِ فِيمَا بَيْنَهُمْ؛ فَإِنَّ الِاخْتِلاَفَ بَيْنَهُمْ ضروريٌّ.

لابد أن يخالف واحد منهما الآخر.

كَمَا أَنَّ التَّعَاوُنَ بَيْنَهُمْ فِي الْخَلْقِ يَقْتَضِي عَجزَ كُلٍّ مِنْهُمْ عِنْدَ الاِنْفِرَادِ.

يعني: لو أنهما تعاونا في خلق الأشياء فهذا يقتضي العجز في كلٍّ منهما, لأنهما اجتمعا وتعاونا في الخلق.

قال: وَالْعَاجِزُ لَا يَصْلُحُ إِلَهًا، فَلاَ بُدَّ أَنْ يستقلَّ كلُّ مِنْهُمْ بِخَلْقِهِ وَفِعْلِهِ، وحينئذٍ؛ فَإِمَّا أَنْ يَكُونُوا مُتَكَافِئِينَ فِي الْقُدْرَةِ، لَا يَسْتَطِيعُ كُلٌّ مِنْهُمْ أَنْ يَقْهَرَ الْآخَرِينَ وَيَغْلِبَهُمْ، فَيَذْهَبَ كُلٌّ مِنْهُمْ بِمَا خَلَقَ، وَيَخْتَصَّ بِمُلْكِهِ؛ كَمَا يَفْعَلُ مُلُوكُ الدُّنْيَا مِنَ انْفِرَادِ كُلٍّ بِمَمْلَكَتِهِ إِذَا لَمْ يَجِدْ سَبِيلاً لِقَهْرِ الْآخَرِينَ, وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ أَحَدُهُمْ أَقْوَى مِنَ الْآخَرِينَ، فَيَغْلِبَهُمْ، وَيَقْهَرَهُمْ، وَيَنْفَرِدَ دُونَهُمْ بِالْخَلْقِ وَالتَّدْبِيرِ، فَلاَ بُدَّ إِذًا مَعَ تعدُّد الْآلِهَةِ مِنْ أَحَدِ هَذَيْنِ الْأَمْرَيْنِ: إِمَّا ذَهَابُ كُلٍّ بِمَا خَلَقَ، أَوْ عُلُوُّ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ.

قال: وَذَهَابُ كلٍّ بِمَا خَلَقَ غَيْرُ وَاقِعٍ؛ لِأَنَّهُ يَقْتَضِي التَّنَافُرَ وَالاِنْفِصَالَ بَيْنَ أَجْزَاءِ الْعَالَمِ.

وهذا استدلال لطيف جميل.

الله عَزَّ وَجلَّ يقول في كتابه: {مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ} [الملك: 3].

وقال: {فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ (3) ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ} [الملك: 3-4].

إذًا: العالم كله منتظم, فهذا يدل على أنه ليس هناك إله ينازع الآخر في ملكه, لِأَنَّهُ -هذا التنازع- يَقْتَضِي التَّنَافُرَ وَالاِنْفِصَالَ بَيْنَ أَجْزَاءِ الْعَالَمِ, مَعَ أَنَّ الْمُشَاهَدَةَ

تُثْبِتُ أَنَّ الْعَالَمَ كُلَّهُ كَجِسْمٍ وَاحِدٍ مُتَرَابِطِ الْأَجْزَاءِ، متَّسق الْأَنْحَاءِ، فَلاَ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ إِلَّا أَثَرًا لِإِلَهٍ وَاحِدٍ, وَعُلُوُّ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ يَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ الْإِلَهُ هُوَ الْعَالِيَ وَحْدَهُ.

وهذا يعني: أن الإله الذي يستحق العبادة إنما هو إله واحد, وهو من له صفات الكمال سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

قال: وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى: {فَلاَ تَضْرِبُواْ لِلّهِ الأَمْثَالَ}؛ فَهُوَ نَهيٌ لَهُمْ أَنْ يشبِّهوه بِشَيْءٍ مِنْ خَلْقِهِ؛ فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ لَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى الَّذِي لَا يَشْرِكُهُ فِيهِ مَخْلُوقٌ.

فقال هاهنا: {فَلاَ تَضْرِبُواْ لِلّهِ الأَمْثَالَ}, فجاء النهي هاهنا عن ضرب الأمثال لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى, وضرب الأقيسة لأن المشركين عبدوا غير الله من جهة القياس, لأنهم قاسوا عبادتهم لهذه الآلهة على عبادة الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

قال: وَقَدْ قدَّمنا أَنَّهُ لَا يَجُوزُ أَنْ يُسْتَعْمَلَ فِي حَقِّهِ مِنَ الْأَقْيِسَةِ مَا يَقْتَضِي الْمُمَاثَلَةَ أَوِ الْمُسَاوَاةَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ غَيْرِهِ؛ كَقِيَاسِ التَّمْثِيلِ وَقِيَاسِ الشُّمُولِ.

ما قياس التمثيل؟ هو القياس المستعمل عند الأصوليين, وهو إلحاق فرع بأصل في حكم لعلة جامعة بينهما.

إلحاق فرع بأصل, الفرع مجهول الحكم, والأصل معلوم الحكم, فنُلحق الفرع بالأصل بسبب وجود علة ظاهرة منضبطة تجمع بين الأصل والفرع, حتى نعطي حكم الأصل للفرع, فهذا لا يجوز في حق الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

ولذلك المشركون وأهل البدع المعطلون ماذا صنعوا؟ شبهوا الله بخلقه وقاسوا الله على خلقه, قياس تمثيل أو قياس شمول.

ما قياس الشمول؟ جَعْل الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى يندرج مع خلقه تحت قضية كلية.

يقولون: كل من كان له يدان ورجلان وعين وينزل ويستوي ويأتي ويغضب فهو حادث, فإذا أثبتنا هذه الصفات لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى جعلناه حادثًا, فجعلوا الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى مع جملة الحوادث داخلاً تحت هذه القضية, فهذا قياس الشمول, وهذا كذلك لا يجوز في حق الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

قال: وَإِنَّمَا يُسْتَعْمَلُ فِي ذَلِكَ قِيَاسُ الْأَوْلَى الَّذِي مَضْمُونُهُ أَنَّ كُلَّ كمالٍ وجوديٍّ غيرِ مستلزمٍ لِلْعَدَمِ وَلَا لِلنَّقْصِ بوجهٍ مِنَ الْوُجُوهِ اتَّصف بِهِ الْمَخْلُوقُ فَالْخَالِقُ أَوْلَى أَنْ يتَّصف بِهِ.

فالحياة, صفة نقص أم صفة كمال؟ صفة كمال, كمال من كل وجه, هي صفة كمال من كل وجه لا نقص فيها مطلقًا, فإذا ثبتت هذه الصفة للمخلوق على وجه الكمال فالخالق أولى بها.

الكلام كذلك صفة كمال, كيف تُنفى عن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى؟! فله المثل الأعلى سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

قال: فَالْخَالِقُ أَوْلَى أَنْ يتَّصف بِهِ؛ لِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي وَهَبَ الْمَخْلُوقَ ذَلِكَ الْكَمَالَ، وَلِأَنَّهُ لَوْ لَمْ يتَّصف بِذَلِكَ الْكَمَالِ -مَعَ إِمْكَانِ أَنْ يُتَّصف بِهِ- لَكَانَ فِي الْمُمْكِنَاتِ مَنْ هُوَ أَكْمَلُ مِنْهُ، وَهُوَ محالٌ.

والمراد بالممكنات: المخلوقات.

فهؤلاء الذين ينفون الكلام عن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى, ويقولون: لا يتكلم لا بصوت ولا بحرف, وإنما هو كلام نفسي.

ماذا تريدون بالكلام النفسي؟ لا يستطيعون أن يضعوا ضابطًا للكلام النفسي.

ثم يثبتون الكلام بالصوت والحرف للمخلوق, وهذا من تمام كمال المخلوق أن يتكلم بصوت وحرف, ومن الذي خلق فيه الصوت والحرف والكلام؟ الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

فلو وصفنا المخلوق بذلك ونفينا ذلك عن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى لصار المخلوق الذي سماه الشيخ في الشرح رَحِمَهُ اللهُ -ممكنًا- لصار أكمل من الخالق, قال: وَهُوَ محالٌ.

قال: وَكَذَلِكَ كُلُّ نقصٍ يتنزَّه عَنْهُ الْمَخْلُوقُ، فَالْخَالِقُ أَوْلَى بالتنزُّه عَنْهُ.

كل نقص يتنزه عنه المخلوق لا وجه كمال فيه, فالخالق أولى بالتنزه عنه, لأن المخلوق قد يُطلب منه التنزه من شيء وهو كمال في حق الخالق سُبْحَانَهُ وَتعَالَى, كالكبر, فالكبر صفة نقص بالنسبة للمخلوق, وهي صفة كمال بالنسبة للخالق سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

قال: وَأَمَّا قَوْلُهُ: {قل إِنَّمَا حَرَّمَ ...} إِلَخْ؛ فَـ{إِنَّمَا} أَدَاةُ حصرٍ تُفِيدُ اخْتِصَاصَ الْأَشْيَاءِ الْمَذْكُورَةِ بِالْحُرْمَةِ، فَيُفْهِمُ أَنَّ مَن عَدَاهَا مِنَ الطَّيِّبات فَهُوَ مباحٌ لَا حَرَجَ فِيهِ؛ كَمَا أَفَادَتْهُ الْآيَةُ الَّتِي قَبْلَهَا.

لكن لماذا جاء الشيخ رَحِمَهُ اللهُ بهذه الآية؟ لأن الله عَزَّ وَجلَّ قال: {وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ}.

فصفات النقص هذه التي ذُكرت في هذه الآيات نسبها إليه المشركون واليهود والنصارى, وهذا من القول على الله بغير علم, فهذا من أعظم الظلم, ومن أعظم المحرمات.

ولذلك جاء في ذيل هذه المذكورات التي ذكرها والتي جاءت على سبيل التدرج من الحُرمة إلى ما هو أشد حُرمة, فأعلى ذلك أن يقول المرء على الله عَزَّ وَجلَّ ما لا يعلم.

قال: وَ{الْفَوَاحِشَ} جَمْعُ فَاحِشَةٍ؛ وَهِيَ الْفِعْلَةُ الْمُتَنَاهِيَةُ فِي الْقُبْحِ، وخصَّها بَعْضُهُمْ بِمَا تضمَّن شَهْوَةً وَلَذَّةً مِنَ الْمَعَاصِي؛ كَالزِّنَا، وَاللِّوَاطِ، وَنَحْوِهِمَا مِنَ الْفَوَاحِشِ الظَّاهِرَةِ، وَكَالْكِبْرِ وَالْعُجبِ وَحُبِّ الرِّيَاسَةِ مِنَ الْفَوَاحِشِ الْبَاطِنَةِ.

قال: وَأَمَّا {وَالإِثْمَ}؛ فَمِنْهُمْ مَن فَسَّرَهُ بِمُطْلَقِ الْمَعْصِيَةِ، فَيَكُونُ الْمُرَادُ مِنْهُ مَا دُونَ الْفَاحِشَةِ -لأن الفواحش من الإثم-، وَمِنْهُمْ مَن خصَّه بِالْخَمْرِ؛ فَإِنَّهَا جِماع الْإِثْمِ: ولذلك كانت الخمر أم الفواحش.

وَأَمَّا {وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ}؛ فَهُوَ التسلُّط وَالاِعْتِدَاءُ عَلَى النَّاسِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ عَلَى جِهَةِ الْقِصَاصِ وَالْمُمَاثَلَةِ.

قال: وَقَوْلُهُ: {وَأَن تُشْرِكُواْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا}، وحرَّم أَنْ تَعْبُدُوا مَعَ اللَّهِ غَيْرَهُ، وتتقرَّبوا إِلَيْهِ بِأَيِّ نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ الْعِبَادَاتِ وَالْقُرُبَاتِ؛ كَالدُّعَاءِ، وَالنَّذْرِ، وَالذَّبْحِ، وَالْخَوْفِ، وَالرَّجَاءِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا يَجِبُ أَنْ يُخْلِص فِيهِ العبدُ قلبَه ويُسْلِمَ وجهَه لِلَّهِ، وحرَّم أَنْ يتَّخذوا مِنْ دُونِهِ سُبْحَانَهُ أَوْلِيَاءَ يشرِّعون لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ فِي عِبَادَاتِهِمْ وَمُعَامَلاَتِهِمْ؛ كَمَا فَعَلَ أَهْلُ الْكِتَابِ مَعَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ؛

حَيْثُ اتَّخذوهم أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فِي التَّشْرِيعِ، فأحلُّوا مَا حرَّم اللَّهُ، وحرَّمُوا مَا أحلَّ اللَّهُ، فاتَّبعوهم فِي ذَلِكَ.

قال: وَقَوْلُهُ: {مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا}.

والسلطان في القرآن: هو الحُجة والعلم, كما قال المفسرون, كل سلطان في القرآن إنما هو الحُجة والعلم.

{مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا}.

فلم يرد في كتاب الله في أي آية ولا في سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما يجيز الشرك.

ولذلك كل من يستدل على أمر شركي بآية أو حديث نقول: قولك باطل, لماذا؟ لهذه الآية: {وَأَن تُشْرِكُواْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا}, فهذه الآية فيها أن القرآن فيه ما ينفي الشرك عن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

ولذلك هؤلاء الذين يستدلون بقول الله تعالى: {قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَسْجِدًا} [الكهف: 21].

هذه الآية هي عُمدة القبوريين في تشييد المساجد على القبور, وفي صرف العبادات لأهل القبور.

هل في هذه الآية ما يدل على جواز ذلك؟ ليس فيها ما يدل على جواز ذلك، لأن قائل ذلك أهل الشوكة والسلطان، لا أهل الإيمان والإحسان.

وهب أنها تحتمل ذلك, فنقول: هذا من المتشابهة- على فرض التنزل معهم- وقد جاءت سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بما يمحو ذلك ويقلع شجرة الشرك

من جذورها, بل في القرآن نفسه آيات متواترة تدل على أن المستحق للعبادة وحده إنما هو الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

قال: وَقَوْلُهُ: {مَا لَمْ يُنزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا} قيدٌ لِبَيَانِ الْوَاقِعِ.

ماذا أراد بهذه الجملة: قيدٌ لِبَيَانِ الْوَاقِعِ؟ الله عَزَّ وَجلَّ يقول عن اليهود: {وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ} [آل عمران: 181], نقول في قوله: {بِغَيْرِ حَقٍّ}, هذا قيد لبيان الواقع, ماذا أراد بذلك؟

الطالب: غير مسموع.

الشيخ: نعم أحسنت, يريد الشيخ أن يبين أن هذا القيد ليس له مفهوم مخالفة, فليس في الشرك ما أنزل الله به سلطانًا, وإنما ذكر ذلك على سبيل بيان الواقع, وبيان ما كانوا عليه من شناعة ومن فعل قبيح.

قال: فَإِنَّ كُلَّ مَا عُبِدَ أَوِ اتُّبِعَ أَوْ أُطِيعَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَدْ فُعِلَ بِهِ ذَلِكَ مِنْ غَيْرِ سُلْطَانٍ.

قال: وَأَمَّا الْقَوْلُ عَلَى اللَّهِ بِلاَ عِلْمٍ؛ فَهُوَ بابٌ واسعٌ جِدًّا يَدْخُلُ فِيهِ كُلُّ خَبَرٍ عَنِ اللَّهِ بِلاَ دَلِيلٍ وَلَا حُجَّةٍ.

وهذا لا يتعلق بالعلميات فقط, أي: بالكلام عن أسماء الله وصفاته والقدر والإيمان واليوم الآخر, هذا يدخل فيه كذلك الكلام في العمليات؛ لأن الذي يتكلم في مباحث الصرف والربا والذكر والصيام ويتكلم بغير علم هذا ممن قال على الله بغير علم, وهو داخل في هذه الآية.

قال: فَهُوَ بابٌ واسعٌ جِدًّا يَدْخُلُ فِيهِ كُلُّ خَبَرٍ عَنِ اللَّهِ بِلاَ دَلِيلٍ وَلَا حُجَّةٍ؛ كَنَفْيِ مَا أَثْبَتَهُ، أَوْ إِثْبَاتِ مَا نَفَاهُ، أَوِ الْإِلْحَادِ فِي آيَاتِهِ بِالتَّحْرِيفِ وَالتَّأْوِيلِ.

قَالَ العَلاَّمَةُ ابْنُ الْقَيِّمِ فِي كِتَابِهِ ((إِعْلاَمِ الْمُوَقِّعِينَ)): ((وَقَدْ حرَّم اللَّهُ الْقَوْلَ عَلَيْهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ فِي الْفُتْيَا وَالْقَضَاءِ وَجَعَلَهُ مِنْ أَعْظَمِ المحرَّمات؛ بَلْ جَعَلَهُ فِي الْمَرْتَبَةِ الْعُلْيَا مِنْهَا؛ قَالَ تَعَالَى: {قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ...} الْآيَة، فرتَّب الْمُحَرَّمَاتِ أَرْبَعَ مَرَاتِبَ، وَبَدَأَ بِأَسْهَلِهَا، وَهُوَ الْفَوَاحِشُ، وَثَنَّى بِمَا هُوَ أَشَدُّ تَحْرِيمًا مِنْهُ، وَهُوَ الْإِثْمُ وَالظُّلْمُ، ثُمَّ ثلَّث بِمَا هُوَ أَعْظَمُ تَحْرِيمًا مِنْهُمَا، وَهُوَ الشِّرْكُ بِهِ سُبْحَانَهُ، ثُمَّ ربَّع بِمَا هُوَ أَعظَمُ تَحْرِيمًا مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ، وَهُوَ الْقَوْلُ عَلَيْهِ بِلاَ عِلْمٍ، وَهَذَا يعمُّ الْقَوْلَ عَلَيْهِ سُبْحَانَهُ بِلاَ عِلْمٍ فِي أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ وَفِي دِينِهِ وَشَرْعِهِ)).

لأن المرء قد يقول على الله بغير علم فيُحل الفواحش, يقول: الزواج العرفي حلال وجائز, فيجعل الناس يقعون في الزنا.

وقد يقول على الله بغير علم فيُحل الظلم والعدوان والإثم.

وقد يقول على الله بغير علم فيُحل عبادة الأوثان والأصنام والقبور, كما هو واقع الآن -نسأل الله السلامة والعافية-.

يجعل الناس يتقربون إلى هذه القبور بما لا يتقربون به إلى الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى, وتجد خشوع هؤلاء عند هذه القبور ما لا تجد الواحد منهم يخشع لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى في صلاته, في صلاته ينقر الصلاة نقرًا لا يُحسن الصلاة, لكن إذا وقف أمام قبر أو انحنى أمامه أو سجد تجد أمورًا عجيبة نسأل الله السلامة والعافية.

ثم يقولون: إن كل ذلك ليس من الشرك في شيء! لا أدري أين الشرك إذن؟ إن لم يكن هذا من الشرك فليس في الأرض شرك!!

ثم ذكر المصنف بعد ذلك بابًا آخر من أبواب هذه الصفات التي أثبتها لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى, وهو باب عظيم يتعلق بإثبات العلو لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى وإثبات استوائه على عرشه, وهذا ما نبدأ به الدرس القادم.

أقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم, وجزاكم الله خيرًا.

الدرس الرابع والعشرون

إن الحمد لله, نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله تعالى من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله, صلى الله عليه, وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد:

فقد وصلنا إلى قول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ في عقيدته الواسطية:

وَقَوْلُهُ: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} فِي سَبْعَةِ مَوَاضِعَ:

فِي سُورَةِ الأَعْرَافِ؛ قَوْلُهُ تعالى: {إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ} [الأعراف: 54].

وَقَالَ فِي سُورَةِ يُونُسَ عليه السلام: {إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ} [يونس: 3].

وَقَالَ فِي سُورَةِ الرَّعْدِ: {اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ} [الرعد: 2].

وَقَالَ فِي سُورَةِ طَهَ: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} [طه: 5].

وَقَالَ فِي سُورَةِ الْفُرْقَانِ: {ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ} [الفرقان: 59].

وَقَالَ فِي سُورَةِ آلم السَّجْدَةِ: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ} [السجدة: 4].

وَقَالَ فِي سُورَةِ الْحَدِيدِ: {هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ} [الحديد: 4].

هذه الآيات التي ذكرها المصنف رَحِمَهُ اللهُ في هذه المواضع السبعة من كتاب ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى، إنما هي في إثبات عرش الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى واستوائه على ذلك العرش.

والعرش الذي استوى عليه ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى هو سقف المخلوقات، ولا نعرف من أي مادة خُلق هذا العرش، لكن جاء وصفه في كتاب الله وفي سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بطريقة تجعلنا نقطع أنه العرش المعروف في لغة العرب, والذي هو بمعنى السرير، فله قوائم وهو عظيم ومجيد وكريم وتحمله الملائكة من قوائمه وأركانه.

وأما الاستواء؛ فهو صفة لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى دل عليه هذه الآيات السبعة التي ذكرها المصنف رَحِمَهُ اللهُ، والاستواء أخص من العلو.

هذه الآيات التي ذكرها المصنف رَحِمَهُ اللهُ إنما هي في إثبات الاستواء، والآيات التي تأتي بعد هذه الآيات في إثبات علو الله عَزَّ وَجلَّ على خلقه، والعلو أعم وهو صفة ذاتية لله تَبَارَكَ وَتَعَالَى لا تنفك عنه أبدًا.

وأما الاستواء فهو أخص من العلو، وهو صفة فعل، والعلو كذلك إنما يُعرف من جهة الخبر والعقل؛ فيدل على علو ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كما سيأتي العقل والنقل، وأما الاستواء؛ فلا طريق إلى معرفته إلا النقل.

فلو لم يرد في كتاب الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى أن الله استوى على عرشه لم يكن لنا علم بذلك، وأما العلو؛ فهو من صفات الكمال اللازمة للرب الإله.

والاستواء -عباد الله- من أخص الصفات التي باين بها أهل السنة والجماعة سائر فرق الجهمية، والمعركة على أشدها مع فرق الضلالة فيما يتعلق بهذه الصفة

خاصة؛ فهم دائمًا وأبدًا ينفون استواء الله عَزَّ وَجلَّ على خلقه، ولا يثبتون عرشًا له، هذه الصفة التي ذكرناها، وإنما يقولون: العرش بمعنى المُلك، واستوى على عرشه، أي: استولى على مُلكه، إلى غير ذلك من الانحرافات التي ستأتي.

قال الشيخ الهراس رَحِمَهُ اللهُ: وَقَوْلُهُ: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} إلخ.

قال: هَذِهِ هِيَ الْمَوَاضِعُ السَّبْعَةُ الَّتِي أَخْبَرَ فِيهَا سُبْحَانَهُ بِاسْتِوَائِهِ عَلَى الْعَرْشِ، وَكُلُّهَا قَطْعِيَّةُ الثُّبُوتِ؛ لِأَنَّهَا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ.

فعندنا النصوص التي ترد إلينا؛ إما أن تكون قطعية الثبوت أو ظنية الثبوت.

فقطعية الثبوت يدخل فيها كتاب ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى، فكل لفظ بل كل حرف بل كل شكلة جاءت في كتاب الله عَزَّ وَجلَّ فهي قطعية الثبوت.

وكذلك ما تواتر عن نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من حديث، فهذا كذلك قطعي الثبوت، أي: نقطع أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قاله وصح عنه.

وكذلك ما تلقته الأمة بالقبول وإن كان في أصله خبر آحاد، كالأحاديث التي جاءت في الصحيحين، فكثير من أحاديث الصحيحين إنما هي أخبار آحاد لكن تلقتها الأمة بالقبول وأجمعت على ذلك، وأمة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا تجتمع على ضلالة.

ولذلك الذي يطعن في الصحيحين مجروح ومطعون في عدالته؛ لأنه يطعن في إجماع الأمة؛ لأن الأمة ما زالت تتلقى ما جاء في الصحيحين بالقبول.

فهذه الآيات التي وردت في كتاب الله عَزَّ وَجلَّ في هذه المواضع السبعة كلها في إثبات استواء الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى على عرشه، وكلها قطعية الثبوت، وهي قطعية الدلالة كذلك كما سيأتي.

لأن الله عَزَّ وَجلَّ لم يقل في موضع من هذه المواضع السبعة استولى على العرش، وإنما قال فيها كلها: {اسْتَوَى}، واستوى في لغة العرب بمعنى: علا وظهر وارتفع؛ كما سيأتي.

ولذلك نقول: إن هذه الآيات نص في إثبات استواء الله عَزَّ وَجلَّ على عرشه، ولا نقول إنها من ظهور المعنى، أي: أن الظاهر من هذه الآيات أن استوى هاهنا بمعنى: علا وارتفع؛ لأن الظاهر ما احتمل معنيين أو أكثر هو في أحدها أرجح من الآخر.

هذا لو وجدنا في إحدى هذه الآيات استوى جاءت بلفظ استولى، لكن نقول: جاءت في جميع الآيات اللفظة واحدة: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى}، استوى على العرش الرحمن؛ فهذا يدل على النصية؛ أن المراد هاهنا هو العلو والارتفاع والظهور فقط لا غير، فهي قطعية من جهة الثبوت وقطعية من جهة الدلالة كذلك.

قال: فَلاَ يَمْلِكُ الجهميُّ المعطِّل لَهَا رَدًّا وَلَا إِنْكَارًا.

أي لا يستطيع أن يرد هذه الآيات بخلاف الأحاديث.

قد يرد الحديث ويقول: هو حديث آحاد، أو لا يصح عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لكنه لو رد هذه الآيات لكفر وكذب الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

قال: كَمَا أَنَّهَا صَرِيحَةٌ فِي بَابِهَا، لَا تَحْتَمِلُ تَأْوِيلاً، فَإِنَّ لَفْظَ: {اسْتَوَى} فِي اللُّغَةِ إِذَا عُدِّي بِـ (عَلَى) لَا يُمْكِنُ أَنْ يُفْهَمَ مِنْهُ إِلَّا الْعُلُوُّ وَالِارْتِفَاعُ.

قال: وَلِهَذَا لَمْ تَخْرُجْ تَفْسِيرَاتُ السَّلَفِ لِهَذَا اللَّفْظِ عَنْ أَرْبَعِ عِبَارَاتٍ؛ ذَكَرَهَا العلاَّمة ابْنُ الْقَيِّمِ فِي ((النُّونية)).

لفظ الاستواء يأتي في كتاب الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى مطلقًا ومقيدًا، ومعنى قولنا مطلقًا: أي: لا يردفه حرف جر وإنما يأتي وحده.

كقول الله عَزَّ وَجلَّ عن موسى عَليهِ السَّلاَم: {وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى}، ما معنى واستوى؟

يعني: علا وارتفع واكتمل نموه، فإن الواحد إذا وصل إلى مرحلة الشباب والفتوة، يعني: في الغالب يكون هذا آخر ارتفاعه وآخر علوه وكمال نضجه ونموه, فاستوى هاهنا جاءت مطلقة.

وأما إذا جاءت مقيدة فهي أقسام ثلاثة: إما أن تُقيد ب(إلى)؛ كما قال الله عَزَّ وَجلَّ: {ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [البقرة: 29]، ومعناه كذلك: قصد إلأيها، وعلا وارتفع.

وقد تجد في تفاسير بعض الأئمة كالبغوي أنه فسر هذه الآية: بقصد، استوى إلى السماء، أي: قصد إلى السماء، وهذا من لزوم علوه وارتفاعه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

فالسلف قد يفسرون بدلالة اللزوم أو دلالة التضمن أو دلالة المطابقة، ولا يعني ذلك أنهم يؤولون تأويلاً يُخرج اللفظ عن معناه، {اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ}، يعني: علا على السماء وقصد إليها سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

وقد يرد هذا اللفظ مقيدًا ب(على)، أي: أن يأتي بعده حرف الجر (على)، وهذا هو الوارد في هذه الآيات السبعة التي معنا.

وكذلك في قول الله عَزَّ وَجلَّ: {لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ} [الزخرف: 13]، وقول الله تعالى: {وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ} [هود: 44].

فهذا معناه: العلو والارتفاع لا غير، معناه: العلو والارتفاع والظهور، لا يُفهم من استوى على إلا هذه المعاني.

وكذلك قد يأتي اللفظ مقرونًا ب(واو) المعية، كهذا المثال المشهور الذي يذكرونه ويقولون: استوى الماء والخشبة، فالواو هاهنا واو المعية، وأرادوا بذلك أن الماء ارتفع وساوى الخشبة في ارتفاعها.

فهذه معاني الاستواء التي ترد في كتاب الله مطلقة ومقيدة.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ:

فَلَهُمْ عِبَارَاتٌ عَلَيْهَا أَرْبَعٌ ... قَدْ حُصِّلَتْ لِلْفَارِسِ الطَّعَّانِ

وَهِيَ اسْتَقَرَّ وَقَدْ عَلاَ وَكَذلِكَ ارْ ... تَفَعَ الَّذِي مَا فِيهِ مِن نُّكْرَانِ

وَكَذَاكَ قَدْ صَعِدَ الَّذِي هُوَ رَابِعٌ ... وَأَبُو عُبَيْدَةَ صَاحِبُ الشِّيبَانِي

يَخْتَارُ هَذَا القَوْلَ فِي تَفْسِيرِهِ ... أَدْرَى مِنَ الْجَهْمِيِّ بِالْقُرآنِ

يقول: هذه الكلمة جاءت في كتاب الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى ولها معاني أربعة:

المعنى الأول: بمعنى استقر.

وهذا المعنى اختلف أهل العلم في إثباته ونفيه، وأعني هاهنا بأهل العلم أهل السنة والجماعة، فمنهم: من أثبت الاستقرار لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، وقال: هو من معاني الاستواء والعلو، استوى على عرشه، أي: علا واستقر عليه.

وممن أثبته: علماؤنا ابن تيمية وابن القيم وابن باز والعثيمين والفوزان وصالح آل شيخ, وغير هؤلاء من أهل السنة والجماعة.

وممن أنكره: الذهبي والألباني؛ قالوا: لأن ذلك ليس من معاني الاستواء، فليس من معاني الاستواء الاستقرار، وإنما المعنى هو: العلو والظهور والارتفاع.

ومن أهل العلم من قال: إنما أرادوا بالاستقرار: الاستقرار في العلو، أي: أن الله عَزَّ وَجلَّ علا وارتفع على عرشه ولم يزل على استوائه، فاستقر على هذه الصفة، وهذا منقول عن أبي عمرو الداني.

فنقول: إن الخلاف في إثبات هذا المعنى وعدم إثباته إنما هو خلاف في دائرة أهل السنة والجماعة.

والراجح: أن ذلك كذلك من معاني الاستواء.

ما هذه المعاني كما ذكر ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ؟

قال: اسْتَقَرَّ وَقَدْ عَلاَ وَكَذلِكَ ارْتَفَعَ: أي: علا وارتفع، الَّذِي مَا فِيهِ مِن نُّكْرَانِ.

وَكَذَاكَ قَدْ صَعِدَ الَّذِي هُوَ رَابِعٌ: {ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ}، أي: صعد إلى السماء: {وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا} [فصلت: 11]، فهذه المعاني التي تأتي للفظة الاستواء.

قال: فَأَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ يُؤْمِنُونَ بِمَا أَخْبَرَ بِهِ سُبْحَانَهُ عَنْ نَفْسِهِ مِنْ أَنَّهُ مستوٍ عَلَى عَرْشِهِ، بَائِنٌ مِنْ خَلْقِهِ.

أي: ليس مختلطًا بخلقه، ومثل هذه الألفاظ كلفظة بذاته أو بائن من خلقه، لم ترد في كتاب الله ولا في سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإنما استُعملت عند الحاجة إليها؛ كالرد على أهل الحلول والاتحاد الذين يقولون: إن الله في كل مكان بذاته، فنقول: إنما هو سُبْحَانَهُ وَتعَالَى مستوٍ على عرشه بائن من خلقه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

قال: بَائِنٌ مِنْ خَلْقِهِ بِالْكَيْفِيَّةِ الَّتِي يَعْلَمُهَا هُوَ جلَّ شَأْنُهُ؛ كَمَا قَالَ مَالِكٌ وَغَيْرُهُ: ((الاِسْتِوَاءُ معلومٌ، والكيفُ مجهولُ)).

والذي صح عن مالك إنما هو لفظ: الاستواء غير مجهول والكيف غير معقول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة.

الاستواء غير مجهول، أي: غير مجهول المعنى، فمعناه معروف في لغة العرب، فلا يخرج معناه عن هذه المعاني الأربعة التي ذكرناها.

والكيف غير معقول، أي: لا تُدركه العقول؛ ولذلك السلف يقولون في الصفات: "أَمِرُّوهَا كَمَا جَاءَتْ بِلاَ كَيْفٍ".

صفات ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى لها كيف، لكن هذا الكيف لا نعلمه ولا تدركه عقولنا ولا تحيط عقولنا بشيء منه؛ لأننا لم نرى الله ولم نرى نظير له سُبْحَانَهُ وَتعَالَى ولم يأتنا خبر عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بذلك.

فمعنى قول مالك -وهو كذلك منسوب لأم سلمة زوج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وصح عن ربيعة بن عبد الرحمن شيخ الإمام مالك رَحِمَهُ اللَّهُ- معنى قولنا: والكيف غير معقول؛ يعني: لا تدركه عقولنا.

قلنا: وهذا معنى قولهم: "أَمِرُّوهَا كَمَا جَاءَتْ بِلاَ كَيْفٍ"؛ يعني: بلا تكييف أو بلا سؤال عن الكيف.

ولذلك لما قال هذا المبتدع لمالك: كيف استوى؟ قال: "وما أراك إلا مبتدعًا"، وأمر بإخراجه من المسجد.

والكيف غير معقول, والإيمان به واجب، الإيمان بماذا؟ بالاستواء من جهة المعنى، أي: الإيمان بمعنى الاستواء واجب؛ لأنه معروف من جهة لغة العرب.

والسؤال عنه بدعة، أي السؤال عن هذا الكيف بدعة.

وهذه القاعدة التي ذكرها مالك هي أصل في سائر الصفات؛ كما ذكر الترمذي رَحِمَهُ اللهُ في جميعها.

أي: أننا نقول في كل صفة لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَىٰ: هي معلومة من جهة المعنى، مجهولة من جهة الكيف، والإيمان بها واجب، والسؤال عنها بدعة، فنقول ذلك في النزول، ونقول ذلك في اليد، والسمع والبصر، وغير ذلك من صفات ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، تجري عليها هذه الجمل الأربعة التي ذكرها الإمام مالك.

قال: وَأَمَّا مَا يشغِّب بِهِ أَهْلُ التَّعْطِيلِ مِنْ إِيرَادِ اللَّوَازِمِ الْفَاسِدَةِ عَلَى تَقْرِيرِ الاِسْتِوَاءِ؛ فَهِيَ لَا تَلْزَمُنَا؛ لِأَنَّنَا لَا نَقُولُ بِأَنَّ فوقيَّتَهُ عَلَى الْعَرْشِ كفوقِيَّة الْمَخْلُوقِ عَلَى الْمَخْلُوقِ.

الله عَزَّ وَجلَّ هو الذي قال ذلك، قال: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} [الشورى: 11]، فنفى أن يكون له مثل في ذاته أو صفاته سُبْحَانَهُ وَتعَالَىٰ، وقال: {هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا} [مريم: 65].

قال: وَأَمَّا مَا يُحَاوِلُونَ بِهِ صَرْفَ هَذِهِ الْآيَاتِ الصَّرِيحَةِ عَنْ ظَوَاهِرِهَا بِالتَّأْوِيلاَتِ الْفَاسِدَةِ الَّتِي تدُلُّ عَلَى حِيرَتِهِمْ وَاضْطِرَابِهِمْ؛ كَتَفْسِيرِهِمُ: {اسْتَوَى} بِـ (اسْتَوْلَى) ، أَوْ حَمْلِهِمْ {عَلَى} عَلَى مَعْنَى (إِلَى) ، وَ{اسْتَوَى} ؛ بِمَعْنَى: (قَصَدَ) ... إِلَى آخِرِ مَا نَقَلَهُ عَنْهُمْ حَامِلُ لِوَاءِ التجهُّم وَالتَّعْطِيلِ زَاهِدٌ الْكَوْثَرِيُّ.

وكان حنفيًا متعصبًا جهميًا شديد التجهم، شديد التعصب والسب والشتم لأهل السنة والجماعة لأئمتهم المتقدمين والمتأخرين.

قال: فَكُلُّهَا تشغيبٌ بِالْبَاطِلِ، وتغييرٌ فِي وَجْهِ الْحَقِّ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ فِي قليلٍ وَلَا كثيرٍ.

إذًا: هؤلاء فسروا استوى بمعنى: استولى، ما عمدتهم في ذلك؟ عمدتهم بيت مذكور عن الأخطل ومنسوب إليه، وهذه النسبة غير صحيحة.

والأخطل: هو الأخطل النصراني, وكان معاصرًا لجرير والفرزدق في الدولة الأموية، وأول ما نسب إليه هذا البيت المعتزلة، وإنما اختاروا الأخطل؛ كما يقول بعض شُراح الواسطية، اختاروا الأخطل؛ لأنه كان في زمن الاستشهاد باللغة، فاختاروه حتى يقولوا إن هذا البيت الذي قاله حجة على أن معنى استوى: استولى.

والبيت غير صحيح النسبة إلى الأخطل، فقد فتش العلماء في ديوان الأخطل فلم يجدوا هذا البيت.

ولذلك تجد هؤلاء أعني المبتدعة، تجد أمرهم عجيبًا إذا جاءهم حديث ثابت عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في غاية الصحة والثبوت يقولون هو خبر آحاد لا يُعمل به في باب العقائد، ثم هم بعد ذلك يلجئون إلى بيت مجهول النسبة ويجعلون هذا البيت عمدتهم.

وشيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ له كلام نفيس جدًا، لو أن الإنسان حفظه لما بالغ في ذلك، لو حفظه حفظًا، ذكره رحمه الله وهو يتكلم عن حال هؤلاء الذين يستشهدون بمثل هذه الأمور، يعني: بمثل هذه الأبيات، ويردون حديث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فيقول رَحِمَهُ اللهُ: وبهذا جرت عادة أئمة السلف وأتباعهم المصنفين في الأبواب أن يذكروا الآيات والأحاديث المناسبة في هذه الأبواب وغيرها؛ كما فعل البخاري ومن قبله ومن بعدهم من سائر الأئمة.

فإن الإمام أحمد وإسحاق بن راهويه وغيرهما يحتجون على أحاديث النزول وصحة معانيها بما في القرآن من آيات المجيء والإتيان ونحو ذلك، وهل يُنكر ذلك من له أدنى عقل وإيمان؟

فأهل السنة عمدتهم في إثبات عقيدتهم قال الله، قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لكن بما يستدل هؤلاء؟

يستدلون بمثل قول الأخطل، يستدلون -أعني المتأخرين يستدلون بكلام أهل التجهم والاعتزال من أئمتهم، كالجهم وأبي علي الجُبائي والقاضي عبد الجبار من أئمة المعتزلة والباقلاني والجويني-.

فيقول رَحِمَهُ اللهُ: وأيما أحسن الاستدلال على معاني الكتاب بما رواه الثقات الأثبات ورثة الأنبياء وخلفاء الرسل عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المبلغ عن الله المُبين لما أنزل الله عليه، وبما قاله الصحابة والتابعون وأئمة الهدى وتأويل القرآن الذي هو تفسيره بهذه الطرق، أم يؤخذ تفسير القرآن وتأويله وبيان معانيه من أئمة الضلال وشيوخ التجهم والاعتزال؛ كالعلاف والنظام والمريسي ونحوهم، وهؤلاء من أئمة ورؤوس أهل الاعتزال؟

قال: فإن هذه التفسيرات والتأويلات عنهم وعن أمثالهم أو يُنقل ذلك عن بعض أهل العربية الذي يتكلم فيه بنوع من الظن والهوى، وإن كان أئمة العربية وعلماؤها على خلافه.

وأيما أحسن؟!

- الاستشهاد على معاني القرآن بنفس ألفاظ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وألفاظ الصحابة والتابعين التي يُستفاد بها معنى الآيات على الخصوص وهو المطلوب، ويُعلم بها اللغة التي نزل بها القرآن وبها خاطب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالنقل الصحيح الثابت
- أم الاستشهاد على ذلك ببيت من فعل؟

تجد الواحد من هؤلاء -كما فعل ابن العربي رَحِمَهُ اللهُ، أبو بكر بن العربي وهو من أئمة المالكية، لكنه كان أشعريًا جلدًا وكان من المنافحين عن المذهب الأشعري-.

ابن العربي رَحِمَهُ اللهُ في عارضة الأحوذي في شرح الترمذي لما تكلم عن الاستواء, قال: إن له خمسة عشر معنًى في كلام العرب، وأخذ يسرد هذه المعاني ويأتي بغريب المعاني، والمعاني الوحشية المهجورة.

ثم قال بعد ذلك: فإن سألت فأي هذه المعاني أراد الله عَزَّ وَجلَّ في كتابه؟

قل: الله أعلم.

ولذلك نقول: إن معنى الاستواء لا يعلمه إلا الله، سبحان الله، يعني: هذا كلام الله عَزَّ وَجلَّ جاء في سياق المعين، وجاء مقيدًا غير مطلق، وجاء تفسيره عن سائر أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعن أئمة الهدى من الصحابة والتابعين وأتباع التابعين.

ثم نترك كل ذلك ونقول: اللفظ يحتمل كذا وكذا وكذا في لسان العرب، ولا نقول بأي هذه المعاني، لأنها كلها تصح أو ترد على هذا اللفظ.

لا شك أن هذا إنما أزهم لهذا القول الاعتقاد، أنه اعتقد ذلك أولًا، ثم بعد ذلك أراد أن ينصر اعتقاده.

وهذا الذي أراده شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ هاهنا، يقول: أيما أحسن الاستشهاد على معاني القرآن بنفس ألفاظ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وألفاظ الصحابة والتابعين التي يُستفاد بها معنى الآيات على الخصوص؟

فنقول لابن العربي: هب أن هذه المعاني التي ذكرتها تدخل في معنى الاستواء، لكن ما أراد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كل هذه المعاني، وما أراد الله عَزَّ وَجلَّ كل هذه المعاني، وإنما أراد معنًى معينًا.

قال: وهو المطلوب ويُعلم بها اللغة التي نزل بها القرآن، وبها خاطب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

يقول: إن هؤلاء يستشهدون ببيت من الشعر، كقوله –وهذا البيت كذلك منسوب للأخطل–، ولا أدري ما حكاية الأخطل معهم؟! قال: فقوله:

إن الكــلام لفــي الفــؤاد وإنــما جُعل اللسان على الفؤاد دليلاً

وهذا يستدل به الأشاعرة من أجل أن ينفوا أن الله عَزَّ وَجلَّ يتكلم بصوت وحرف، وجاءوا ببدعة هم أنفسهم مختلفون في تفسيرها، لا يتفقون على تفسير الكلام النفسي، فأرادوا بهذا البيت أن يثبتوا هذه البدعة التي جاؤوا بها.

قال:

إن الكــلام لفــي الفــؤاد وإنــما جُعل اللسان على الفؤاد دليلاً

قال: وكقوله, وهو كذلك منسوب للأخطل، قلنا: ولا تصح هذه النسبة، أما البيت الأول فهو صحيح النسبة للأخطل وموجود في ديوانه.

قال: وكقوله:

ثُمَّ اسْتَوَى بِشْرٌ عَلَى الْعِرَاقِ ... مِنْ غَيْرِ سَيْفٍ وَدَمٍ مِهْرَاقِ

وهذا هو عُمدة المعطلة في هذا الباب -أعني باب الاستواء-, فيستدلون به على تفسير الاستواء بالاستيلاء، وهذا له لوازم باطلة ستأتي.

قال: وكقوله:

وجـــوهٌ يـــوم بـــدر نـــاظرات إلى الـــرحمن تنتظـــر الفـــلاح

وهذا البيت لحسان بن ثابت رَضِي اللهُ عَنْهُ، لكن علام يستدلون بهذا البيت؟

فيستدلون بهذا البيت على تأويل النظر بمعنى: الانتظار، أي: أن أنهم ينتظرون يوم القيامة ثواب الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، وبهذا فسروا قول الله عَزَّ وَجلَّ في سورة القيامة: {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (22) إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ} [القيامة: 22-23].

فقالوا: {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (22) إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ}، قالوا: (إلى): جمع آلاء، أي: نِعم، أي: وجوه يومئذٍ منتظرة نِعم ربها.

وهذا تفسير وإن كان واردًا في لغة العرب إلا أنه هذا مع التنزل معهم ليس مرادًا هاهنا؛ لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بيَّن المراد بهذه الآية؛ كما في مسلم وغيره.

قال: وأمثال ذلك من الشعر الذي قد يُقال فيه: إنه لم يُرو بإسناد صحيح عن قائله، بل كثير من أهل صنعة الشعر يكذبهم، كهذا البيت قد استوى بشر على العراقي، قلنا: هذا مجهول النسبة.

قال: ولو روي بإسناد فمن المعلوم أن أسانيد الحديث والآثار أكثر وأكبر، والعلماء بها أعلم وأصدق، وهم أعداد لا يحصيهم إلا الله.

قال: فإذا لم يجز تفسير القرآن وتأويله بالألفاظ والمعاني التي هي بين محفوظة منقولة من إمام إلى إمام، ومن عدد إلى عدد، أفيجوز أن يُرجع في معاني القرآن إلى بيت من الشعر أو كلمة من الغريب أحسن أحوالها، أن يرويها واحد عدل عن بعض الشعراء، وإذا كانت الأخبار لا تفيد علمًا فجميع ما يذكرونه من اللغة الغريبة والشعر المنقول بمثل ذلك دونه.

يعني: هذه الأخبار التي يقولون عنها إنها أخبار آحاد، يقولون: لا تفيد علمًا، هذه أعلى في الاستدلال من هذا الذي تذكرونه، قال: ولم نعلم أنه قاله عربي، بل يجوز أن يكون كذبًا، فإذا حملنا عليه كلام الله فقد قلنا على الله ما لا نعلم.

قال: وهذا معلوم بالضرورة والاتفاق من المثبتة والنافية، أن اللغة المستفادة من الشعر والغريب، الذي يعلمه الآحاد دون ما يُستفاد من نقل أهل الحديث.

فإذًا: لا يفيد العلم بأن العربي قاله، ولو علمنا أن العربي قاله لم يكن علمنا بمراد العربي منه إلا دون علمنا بمراد الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والصحابة والتابعين من ألفاظهم.

فإذا كان هذا دون الحديث في النقل والدلالة لم يكن حمل معاني القرآن عليه بأولى من حملها على معنى الحديث، بل تلك أولى من وجوه كثيرة، بل لا يجوز أن يُقال هذا معنى الآية لمجرد إسناد الشعر والغريب ودلالة ذلك، إذ هما لا يفيدان العلم به، فيكون تفسير القرآن بهذه الطريق قولًا على الله بلا علم.

وإذا لم يكن هذا معلومًا وغيره ليس معلومًا بطلت دلالة الكتاب والسنة وسقط الاستدلال به وفهم معانيه، والله أمرنا بتدبره وعقله، فإذا لم يكن لنا طريق إلى العلم بمعناه لا من جهة نقل الشعر والغريب، ولا من جهة نقل

الحديث والآثار، بطل العلم بمعناه، فلا يصح الأمر بتدبره وعقله، وهذا خلاف القرآن.

ثم لو ثبت النقل عن العربي الشاعر أو الناثر وعُلم أنه أراد معنًى بذلك اللفظ، لكان ذلك لغة له قد أرادها باللفظ، لغة أرادها الشاعر، فلم يكن إثبات اللغة بمجرد هذا الاستعمال أولى من إثباتها بالاستعمال المنقول في الحديث والآثار، ولأولى من استعمال القرآن الموجود في نظائر ذلك اللفظ؛ فإن اللفظ في القرآن يكون له نظائر، ولهذا صنف العلماء كتب الوجوه والنظائر.

ويروى ذلك عن السلف، فالوجوه: الألفاظ المشتركة، والنظائر: الألفاظ المتواطئة، والأول فيما اتفق لفظه واختلف معناه، والثاني فيما اتفق لفظه ومعناه، يعني: الألفاظ المتواطئة.

قال: فحمل معاني كلام الله على ما يوجد من اللغة في كلامه وكلام رسوله وكلام أصحابه الذين كانوا يتخاطبون بلغته، والتابعين الذين أخذوا عنهم تلك اللغة أولى من حمل معانيه على ما يوجد من اللغة في كلام بعض الشعراء والأعراب.

فإن كل احتمال يتطرق إلى فهم كلام هؤلاء يتطرق إلى فهم كلام أولئك لما يقولونه من النظم والنثر، فإن المستمع لكلامهم يتطرق إلى فهمه لمعانيهم أكثر مما يتطرق إلى المستمع لكلام الرسول والصحابة والتابعين، فما يُذكر من احتمال مجاز أو اشتراك ونحو ذلك، فتطرقه إلى كلامهم أكثر، وهذا كله بطريق التنزل والتقرب إلى المنازع، وإلا فالأمر أجل مما ذُكر، **وذلك من طريقين**:

أحدهما: بيان استقامة هذا الطريق، يعني: طريق النبي وصحبه رَضِي اللهُ عَنْهُم.

والثاني: أنه لا طريق يقوم مقامها فيتعين.

ثم بيَّن رَحِمَهُ اللهُ كيف أن طريق النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه والتابعين طريق مستقيم، وبيَّن أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بيَّن القرآن لفظًا ومعنًى لأصحابه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم رد على من رد خبر الآحاد بعد ذلك.

الشاهد أننا نقول: إن هذا الذي استدلوا به هو بيت مجهول النسبة، ولا تصح نسبته إلى الأخطل.

ثم نقول: إن تأويل الاستواء بالاستيلاء **يترتب عليه لوازم باطلة:**

- أول هذه اللوازم أن أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والتابعين وأتباع التابعين –أعني القرون التي زكاها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- جهلوا معاني القرآن، وعلم هذه المعاني من جاء بعدهم؛ لأنهم فسروا الاستواء بالعلو والارتفاع –أعني الصحابة والتابعين وأتباع التابعين-.

أما هؤلاء؛ ففسروا الاستواء بالاستيلاء، فمعنى ذلك أن المعاني الصحيحة غابت عن السلف الصالح وعرفها هؤلاء، هذا أولًا.

- ويلزم منه كذلك لو فسرنا الاستواء بمعنى الاستيلاء، يلزم منه أن يكون الله عَزَّ وَجلَّ لما خلق السماوات والأرض لم يكن مستوليًا على عرشه.

أيها خُلق أولًا؟ أول المخلوقات العرش، إن الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه تدبر في معنى هذا الحديث: "كَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ"، ولم يكن هناك سماء ولا أرض.

الله عَزَّ وَجلَّ بعد أن خلق السماوات والأرض ماذا صنع؟ استوى على العرش، ولذلك جاء في هذه المواضع بقوله تعالى: {ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ}، وثم تفيد التراخي، ولذلك نقول: إن الاستواء صفة فعل، لأنه كان بعد أن لم يكن.

في قبضة من كان العرش قبل ذلك؟ لو قلنا: إن الاستواء بمعنى الاستيلاء، لأنهم يقولون: {اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ}، أي: استولى على عرشه ومُلكه.

كان في قبضة من وسلطان من؟ فهذا يستلزم منه أن هذه المخلوقات لم يكن الله مستوليًا عليها، ومنها العرش، لأن الله عَزَّ وَجلَّ كما قلنا، قال: {ثُمَّ}، والتي تفيد التراخي والترتيب.

- يستلزم من هذا التحريف وليس تأويلاً: وجود مغالبة، لأنهم قالوا: استوى بمعنى استولى، يعني: أخذه ممن كان يُغالبه، ولا أحد يُغالب الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، فطعنوا في ذات الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، وفي صفاته من حيث أرادوا أن ينزهوه.
- ويستلزم كذلك: أنه يصح أن نقول: إن الله استوى على الأرض والماء والشجر والحجر والبشر، لأن استوى عندهم بمعنى استولى، وهذا كلام باطل.

فهذه اللوازم الباطلة تدل على أن تفسيرهم تفسير باطل غير صحيح، لا من جهة ثبوت البيت، ولا من جهة كذلك صحة المعنى الذي أرادوه.

قال الشيخ رَحِمَهُ اللهُ بعد ذلك: وَلَيْتَ شِعْرِي! مَاذَا يُرِيدُ هَؤُلَاءِ المعطِّلة أَنْ يَقُولُوا؟!

أَيُرِيدُونَ أَنْ يَقُولُوا: لَيْسَ فِي السَّمَاءِ ربٌّ يُقْصَدُ، وَلَا فَوْقَ الْعَرْشِ إِلَهٌ يُعْبَدُ؟!.

نقول: نعم هم أرادوا ذلك، هم يقولون حقيقة بلسان حالهم ومقالهم: أن الله ليس في السماء، وأنه ليس في السماء إله يُعبد.

الأشعرية ماذا يقولون؟ يقولون: لا نقول إنه لا داخل العالم ولا خارج العالم ولا يمين العالم ولا شمال العالم ولا أعلى العالم ولا أسفل العالم، ضيعوا ربهم.

لمن تتجه القلوب إذا سجدت وقالت سبحان ربي الأعلى؟ وبهذا نوظر أبو المعالي الجويني، لما دخل عليه أبو جعفر الهمذاني وكان يقرر نفي عقيدة الاستواء والعلو، يقرر لتلاميذه وأخذ يأتي بأمور فلسفية.

فقال له أبو جعفر: دعنا من كل هذا، انظر سبحان الله أهل السنة عندهم حجج قوية، كل حجة لو أحسنت استغلالها وتوظيفها تستطيع أن تدحض جيوش هؤلاء ولو بلغوا في العلم مبلغًا يظنون أنهم قد بلغوا هذا المبلغ.

يكفي أن تقول لهم: ماذا تثبتون من صفة لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى؟ نقول ذلك ثم نعود لهذه المناظرة التي وقعت بين أبي المعالي وأبي جعفر.

يكفي أن تقول لأي أشعري، لأي جهمي، معتزلي، ماتريدي، ماذا تثبت من صفة لله؟ والله لو لم يثبت إلا الوجود، يعني: نفى العلم والحياة والقدرة والسمع والبصر، لو لم يثبت إلا الوجود كالجهمية الخُلَّص، تقول له: أليس المخلوق موجودًا؟

لو قال: المخلوق ليس موجودًا لطعن في عقله، لابد أن تجعله حينئذ يشعر أنه موجود، فمعنى أن يدي صافحت خدك، فهذا يعني أنك موجود.

قل له: أليس المخلوق موجودًا؟ إن كان عاقلاً سيقول: بلى، المخلوق موجود، أليس الله موجودًا؟ لا يستطيع أن يُنكر وجود الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، لو

أنكر ذلك لكفر، يقول: الله عَزَّ وَجلَّ موجود، تقول له: فما الفرق بين وجود الله ووجود المخلوق؟

يقول: وجود الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى لا يُشبه وجود المخلوق، لأن ذات الله لا تُشبه ذات المخلوق، فأصل الوجود هذا قدر كلي مشترك موجود في الذهن، لكن يختلف بحسب إضافته وتقييده وتخصيصه، فوجود الله إذا أُضيف إلى الله عَزَّ وَجلَّ وجود يناسب ذاته سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، وكماله، ووجود المخلوق كذلك يناسب صفات المخلوق.

فنقول له: ما الفرق بين هذا وذاك؟ سيقول: إن الفرق بين هذا وذاك كالفرق بين الذات والذات، نقول: كذلك السمع والبصر والقدرة والكلام والنزول والاستواء والفرح والغضب، هذه الصفات ثابتة كذلك للمخلوق.

الاستواء ثابت للمخلوق أم غير ثابت؟ استويت الآن على الكرسي، أنا مستوٍ على الكرسي الآن، لكن لو أنك رفعت هذا الكرسي ما الذي سيحدث؟ أسقط، لأنني أحتاج إلى الكرسي، وهذا هو الاستواء اللائق بالمخلوق.

لكن كيف استواء ربنا سُبْحَانَهُ وَتعَالَى؟ لا يعلمه إلا الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، فالله عَزَّ وَجلَّ يستوي على العرش وهو يحمل العرش، والعرش يحتاج إليه ولا يحتاج هو إلى العرش سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

فيكفي أن تناظره بهذا، أثبت صفة واحدة لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، نتفق عليها.

أبو المعالي أراد أن يقرر أن الله ليس فوق العالم، وأنه ليس مستويًا على عرشه، فقال له أبو جعفر: أخبرني عن هذه الضرورة؛ ضرورة وفطرة يجدها الواحد منا في قلبه إذا دعا ربه، يجد أن قلبه اتجه إلى العلو.

أنت عندما تقول في السجود: سبحان ربي الأعلى، الفطرة تجعلك تتجه وتتضرع إلى من هو في السماء، يعني: كيف نرد هذه الضرورة؟ فماذا صنع أبو المعالي؟ أخذ يضرب على رأسه ويقول: حيرني الهمذاني، لم يستطع أن يجيب، أنه كان متجردًا للحق.

الظن بهؤلاء الأئمة الذين كانت لهم جهود عظيمة في الأصول والفقه، الظن بهم أنهم كانوا باحثين عن الحق، لكن من قَدر الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى أن كان شيوخهم على هذه العقيدة، فظنوا أن هذه العقيدة هي العقيدة الصحيحة، والواحد منهم لو وصل إلى المعتقد الصحيح بطريق صحيح، فالظن في هؤلاء أنهم يرجعون وينشرون عقيدة السلف.

ولذلك كان الواحد منهم في آخر عمره يتوب ويرجع إلى الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، وهذا منقول عن الرازي، ومنقول عن الجويني وعن الغزالي والشهرستاني وعن غير هؤلاء من أئمة الأشاعرة.

فقال: أَيُرِيدُونَ أَنْ يَقُولُوا: لَيْسَ فِي السَّمَاءِ ربٌّ يُقْصَدُ، وَلَا فَوْقَ الْعَرْشِ إِلَهٌ يُعْبَدُ؟!.

أبو حنيفة رَحِمَهُ اللهُ كفَّر من يقول ذلك؛ من يقول: لا أدري الله في السماء أم في الأرض، قال: هو كافر، لا أدري إذا كان الله مستويًا على عرشه، قال: هو كافر، لماذا؟ لأنه رد صريح القرآن، والمعنى قطعي لا يحتمل إلا ذلك.

قال: فَأَيْنَ يَكُونُ إِذَنْ؟!.

ولعلَّهم يَضْحَكُونَ مِنَّا حِينَ نَسْأَلُ عَنْهُ بِـ(أَيْنَ)!.

نعم والله يضحكون منا.

وَنَسُوا أَنَّ أَكْمَلَ الْخَلْقِ وَأَعْلَمَهُمْ بِرَبِّهِمْ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَسَلامُهُ قَدْ سَأَلَ عَنْهُ بِـ (أَيْنَ) حِينَ قَالَ لِلْجَارِيَةِ: ((أَيْنَ اللَّهُ؟)).

وهذا في صحيح مسلم، أي: في أعلى درجات الصحة.

وَرَضِيَ جَوَابَهَا حِينَ قَالَتْ: فِي السَّمَاءِ.

لكن هؤلاء إما أن يردوا الحديث، وإما أن يطعنوا في رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والله يطعنون في رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويقولون: إنما أقرها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على جوابها وإن كان خطأً، لأنها جارية لا تفقه هذه العلوم.

فأقرها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على هذا الجواب الباطل، والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يُقر على باطل، لأن إقرار النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تشريع للأمة بعده.

ولا يجوز تأخير البيان في حق رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن وقت الحاجة، وهذا وقت الحاجة.

ثم كيف يقطع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بإيمان هذه الجارية وهي قد أجابت خطأً؟ هي لا تعرف أين الله، كيف يقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد ذلك لمعاوية: "أَعْتِقْهَا فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ"؟

قال: وَقَدْ أَجَابَ كَذَلِكَ مَن سَأَلَهُ بِـ: أَيْنَ كَانَ رَبُّنَا قَبْلَ أن يخلق السموات وَالْأَرْضَ؟.

يعني: سُئل أين كان ربنا قبل أن يخلق السماوات والأرض؟

قال: بِأَنَّهُ كَانَ فِي عَمَاءٍ.. الْحَدِيثَ.

وهذا الحديث حديث ضعيف لا يثبت عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، رواه الترمذي وابن ماجة وأحمد والطبراني، وضعفه الألباني في ضعيف الترمذي، لأن فيه وكيع بن عدس وهو ضعيف.

قال: وَلَمْ يُرْوَ عَنْهُ أَنَّهُ زَجَرَ السَّائِلَ، وَلَا قَالَ لَهُ: إِنَّكَ غَلَطْتَ فِي السُّؤَالِ.

إِنَّ قُصَارَى مَا يَقُولُهُ الْمُتَحَذْلِقُ مِنْهُمْ فِي هَذَا الْبَابِ: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى كَانَ وَلَا مَكَانَ، ثُمَّ خَلَقَ الْمَكَانَ، وَهُوَ الْآنَ عَلَى مَا كَانَ قَبْلَ الْمَكَانِ.

هذا تجدوه كثيرًا في كلامهم، يقولون: إن الله تعالى كان ولا مكان.

ثُمَّ خَلَقَ الْمَكَانَ.

يعني: خلق السماوات والأرض وخلق هذا العالم.

وَهُوَ الْآنَ عَلَى مَا كَانَ قَبْلَ الْمَكَانِ.

قال: فَمَاذَا يَعْنِي هَذَا الْمُخَرِّف بِالْمَكَانِ الَّذِي كَانَ اللَّهُ وَلَمْ يَكُنْ؟!

هَلْ يَعْنِي بِهِ تِلْكَ الْأَمْكِنَةَ الْوُجُودِيَّةَ الَّتِي هِيَ دَاخِلُ مُحِيطِ الْعَالَمِ؟!

فَهَذِهِ أَمْكِنَةٌ حَادِثَةٌ، وَنَحْنُ لَا نَقُولُ بِوُجُودِ اللَّهِ فِي شيءٍ مِنْهَا؛ إِذْ لَا يَحْصُرُهُ وَلَا يُحِيطُ بِهِ شَيْءٌ مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ.

إذًا: الله عَزَّ وَجلَّ ليس موجودًا في مكان وجودي، كالسماوات والأرض، لأن وجوده في هذه الأمكنة يعني أنها حيز له، وأنها محيطة به سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، والله عَزَّ وَجلَّ منزه عن ذلك، والعرش آخر الموجودات المخلوقة وسقفها، والله فوق العرش.

وَأَمَّا إِذَا أَرَادَ بِهَا الْمَكَانَ العَدَميَّ.

ما المراد بالمكان العدمي؟ يعني: عند الآن الأرض، ما بين السماوات والأرض مسيرة خمسمائة عام، ثم السماوات على ما وصفها عبد الله بن مسعود في الأثر الثابت عنه، وهذا مما لا يُقال بالرأي، إذًا: له حكم الرفع إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وفوق هذه السماوات الكرسي، وفوق الكرسي العرش، وفوق العرش الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

سقف المخلوقات وآخر المخلوقات ماذا؟ آخر العالم المخلوق ماذا؟ آخر الأماكن المخلوقة العرش.

ولذلك العرش أعلى هذه المخلوقات وهو عليها كالقُبة، ما الذي بعد العرش؟ مكان عدمي، يعني: غير مخلوق، آخر المخلوقات العرش، آخر ما خلقه الله عَزَّ وَجلَّ من مخلوقاته في هذا العالم هو العرش، إذًا: سقف المخلوقات.

ولذلك قال: وَأَمَّا إِذَا أَرَادَ بِهَا الْمَكَانَ العَدَميَّ الَّذِي هُوَ خلاءٌ محضٌ لَا وُجُودَ فِيهِ؛ فَهَذَا لَا يُقَالُ: إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ ثَمَّ خَلْقٌ؛ إِذْ لَا يَتعَلَّقُ بِهِ الْخَلْقُ، فَإِنَّهُ أَمْرٌ عدميٌّ، فَإِذَا قِيلَ: إِنَّ اللَّهَ فِي مَكَانٍ بِهَذَا الْمَعْنَى؛ كَمَا دلَّت عَلَيْهِ الْآيَاتُ وَالْأَحَادِيثُ.

وهو الذي أراده النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما قال: أين الله؟ فقالت: في السماء، والسماء تأتي في لغة العرب بمعنى العلو، قال تعالى: {وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً}، والماء ينزل من السماء أم من السحاب؟ من السحاب.

إذًا: المراد بالسماء هاهنا العلو، أي: أنزل من العلو الماء، لأنك لو قلت: إن معنى قول الله عَزَّ وَجلَّ: {أَأَمِنتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ} [الملك: 16].

أي على السماء، لو قلت: إن (في) هاهنا بمعنى: (على)، يقولون: أولت يا شيخ، أولت يا شيخ وأنت تقول: أن التأويل انحراف وضلال، فنقول: نحن لم نؤول، لو قلنا: إن السماء بمعنى العلو، فلا تأويل، وهذا وارد في لغة العرب.

ثم نقول: إن قول الله عَزَّ وَجلَّ: {أَأَمِنتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ}، أي: على السماء، هذا من باب تناوب الحروف وهو معروف في لغة العرب.

ولذلك لما قال فرعون: {وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ} [طه: 71].

وكما قال الله عَزَّ وَجلَّ: {قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ}.

وكما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "ارْحَمُوا مَنْ فِي الْأَرْضِ"، قل له ما تفسير هذه الآيات والأحاديث؟ ما معنى "ارْحَمُوا مَنْ فِي الْأَرْضِ"؟

لو قال لك: ارحموا دود الأرض، قل له: أنت أعجمي لا تفهم لغة العرب، {قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ}، يعني: في باطن الأرض, احفر الأنفاق حتى تسير فيها؟! هل هذا هو مراد الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى؟! هذا لا يقبله عاقل.

إذًا: هذا معلوم في لغة العرب، فإما أن نقول بتناوب الحروف، وإما أن نقول أن السماء هنا بمعنى العلو.

إذًا ما المكان الذي نثبته لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى؟ المكان العدمي، وهو الذي أراده النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، هذا المكان العدمي غير مخلوق ليس فيه خلق.

وما المكان الذي ننفيه؟ المكان الوجودي -نعني به هذا العالم-.

قال: بَلِ الْحَقُّ أَنْ يُقَالَ: كَانَ اللَّهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ قَبْلَهُ.

لأنه أولٌ بلا ابتداء، وكل شيء يستفيد أوليته منه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

قال: ثم خلق السموات وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ، ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ، وَثُمَّ هُنَا لِلتَّرْتِيبِ الزَّمَانِيِّ لَا لمجرَّد الْعَطْفِ.

نعيد هذه الجملة مرة أخرى واحفظها، قال: كَانَ اللَّهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ قَبْلَهُ.

هذا كلام النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وشيخ الإسلام ابن تيمية له شرح نفيس جدًا في مجموع الرسائل لهذا الحديث، حبذا لو رجعتم إليه، حديث من هذا: كَانَ اللَّهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ قَبْلَهُ؟ حديث عمران بن حُصين.

قال: ثم خلق السموات وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ.

أي: كان قبل خلق السماوات والأرض.

قال: ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ.

سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، فالعرش كان موجودًا، ولم يكن الله عَزَّ وَجلَّ مستويًا عليه، لكن أين كان الله؟ في العلو، لأن العلو من صفات ذاته سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، لكنه لم يكن مستويًا على العرش، ثم خلق السماوات والأرض، ثم استوى على العرش سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

ولذلك قال: وَثُمَّ هُنَا لِلتَّرْتِيبِ الزَّمَانِيِّ.

العرش كما قلنا: له صفات وردت في كتاب الله وفي سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذه الصفات تدل على أنه عرش حقيقي.

فجاء في صفات هذا العرش ماذا؟ أن له قوائم، جاء في الصحيح أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما ذكر الصعقة التي تصعق الناس، قال: "فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ

يُفِيقُ، فَإِذَا أَنَا بِمُوسَى آخِذٌ بِقَائِمَةٍ مِنْ قَوَائِمِ الْعَرْشِ"، يعني: ماسك في قائم من قوائم العرش.

"فَلاَ أَدْرِي أَفَاقَ قَبْلِي، أَمْ جُوزِيَ بِصَعْقَةِ الطُّورِ"، لأن موسى عَليهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمَ صُعق لما قال: {رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ} [الأعراف: 143]، فالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: "آخِذٌ بِقَائِمَةٍ مِنْ قَوَائِمِ الْعَرْشِ".

وقال الله عَزَّ وَجلَّ في سورة الحاقة: {وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ} [الحاقة: 17]، فمعنى ذلك أنه عرش محمول.

ووصف الله عَزَّ وَجلَّ عرشه بأنه مجيد، وبأنه كريم، وبأنه عظيم؛ كما قال في حديث الكرب، قال: "لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ الْعَظِيمُ الْحَلِيمُ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، وَرَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ".

ما معنى الكريم؟ أي: الذي فاق غيره في صفاته وفي حسنه وفي بهائه، امتاز عن غيره.

وقد انتشرت فتوى من سنتين، أو ثلاثة: أنه لا يجوز أن تقول رمضان كريم.

كان بعض طلبة العلم نشرها وانتشرت بين الطلبة لا يجوز أن تقول رمضان كريم؛ لأن الكريم هو الله.

نقول: يجوز لك أن تقول رمضان كريم، وهذا يحتمل أحد معنيين:

- إما أنه كريم فعيل، وهذا يدل على وجود خصال الخير فيه وتحقق خصال الخير فيه، هو على حقيقته فهو كريم، أي: هذه صفة لازمة له، فعيل صفة مشبهة.

- أو أنه كريم بمعنى: مُكرَم، أي: أكرمه الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى وفضله، فهذا جائز.

فكذلك وصف العرش بالكرم، أي: أنه ذو صفات حسنة، ويكفي أنه أكبر المخلوقات.

قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "مَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي الْكُرْسِيِّ إِلَّا كَحَلْقَةٍ مُلْقَاةٍ بِأَرْضِ فَلَاةٍ".

ثم قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "وَالْعَرْشُ لَا يُقَدِّرُ قَدْرَهُ إِلَّا اللَّهُ".

وهذا يدل على أنه عظيم وأنه كريم.

المعطلة ماذا قالوا؟ قالوا: العرش يأتي بمعنى المُلك والسلطان.

ولذلك تجد في التراجم الإنجليزية لمعاني القرآن الكريم، وهذه من ضمن التحريفات الكثيرة التي دخلت هذه التراجم ولا تكاد تسلم منها ترجمة، ماذا يقولون؟

إذا أتوا على هذه الصفات ومن هذه التراجم ترجمة المنتخب للمجلس الأعلى أو الشئون الإسلامية التي وصلت للطبعة الخامسة الآن، يفسرون: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى}؛ بأن الله عَزَّ وَجلَّ مسيطر، سيطر على مُلكه وسلطانه.

فهذا تأويل؛ لأنهم اعتمدوا على التفاسير الكلامية، جعلوا عمدتهم تفسير الرازي والزمخشري وغير هذه التفاسير.

فيقولون: العرش يأتي بمعنى: المُلك والسلطان، لأننا نقول في لغة العرب: فلان ذهب عرشه، أي: ذهب مُلكه.

فنقول كذلك: لا يُقال ذلك إلا لمن له عرش حقيقي، ثم إن ما جاء في صفة العرش يمنع هذا التأويل.

فكل ذلك يدل على بطلان دعوى هؤلاء بأن الاستواء إنما هو مجاز في الاستيلاء، فيرد هذه الأمور التي ذكرناها.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم، وجزاكم الله خيرًا.

الدرس الخامس والعشرون

إن الحمد لله, نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله تعالى من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله, صلى الله عليه, وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد:

فقد وصلنا إلى قول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ في عقيدته الواسطية.

وَقَوْلُهُ: {يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ} [آل عمران: 55].

وَقَوْلُهُ: {بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ} [النساء: 158].

وَقَوْلُهُ: {إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ} [فاطر: 10].

وَقَوْلُهُ: {يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ * أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا} [غافر: 36-37].

وَقَوْلُهُ: {أَأَمِنتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ * أَمْ أَمِنتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ} [الملك: 16-17].

هذه الآيات التي ذكرها المصنف رَحِمَهُ اللهُ تأتي تكملة لما سبق من الآيات, فالآيات التي قبل هذه الآيات كانت في استواء الله على عرشه, وهذه الآيات في علو الله عَزَّ وَجلَّ على خلقه.

وقد سبق وبينا الفرق بين الاستواء والعلو, وقلنا: إن العلو صفة ذات لله تبَارَكَ وَتعَالَى, فهذه الصفة من لوازم ذاته, كعظمته وكبريائه وحياته, لا تنفك عنه

أبدًا, فهو عالٍ على خلقه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى أزلا وأبدًا, وقد دل على ذلك السمع والعقل والفطرة -كما سيأتي-.

وأما صفة الاستواء؛ فإنها صفة فعل كانت بعد أن لم تكن, ولذلك جاءت هذه الصفة في مواضعها في كتاب الله مسبوقة بـ(ثم) التي تفيد التراخي, فخلق السماوات والأرض سُبْحَانَهُ وَتعَالَى وخلق العرش ثم استوى على العرش.

لكن قبل العرش أين كان الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى؟ كان في السماء, كان عاليًا على خلقه, لأن العلو -كما قلنا- صفة ذات له سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

قال الشيخ الهراس: وَقَوْلُهُ: {يَا عِيسَى ...} إلخ؛ هَذِهِ الْآيَاتُ جَاءَتْ مؤيِّدة لِمَا دلَّت عَلَيْهِ الْآيَاتُ السَّابِقَةُ مِنْ علوِّه تَعالَى وَارْتِفَاعِهِ فَوْقَ الْعَرْشِ مُبَايِنًا لِلْخَلْقِ.

ولذلك نقول: إن الاستواء يستلزم العلو, فالآيات التي ذُكر فيها الاستواء نأخذ منها صفة العلو, وأما الآيات التي ذُكر فيها صفة العلو فلا تستلزم الاستواء, لماذا؟ لأن مرد معرفتنا بهذه الصفة -أعني صفة الاستواء- إلى السمع, فلو لم يرد السمع بذلك لم يكن لنا علم باستواء ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى على عرشه.

هَذِهِ الْآيَاتُ جَاءَتْ مؤيِّدة لِمَا دلَّت عَلَيْهِ الْآيَاتُ السَّابِقَةُ مِنْ علوِّه تَعَالَى وَارْتِفَاعِهِ فَوْقَ الْعَرْشِ مُبَايِنًا لِلْخَلْقِ، وَنَاعِيَةً عَلَى المعطِّلة جُحُودَهُمْ وَإِنْكَارَهُمْ لِذَلِكَ، تَعَالَى اللَّهُ عمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا.

الله عَزَّ وَجلَّ موصوف بالعلو, وأهل السنة والجماعة إذا ذكروا العلو يذكرون له نوعين أو ثلاثة.

فمنهم من يقول: إن العلة نوعان: علو الذات, وعلو الصفات.

فالله عَزَّ وَجلَّ بذاته عالٍ على خلقه, كما سيأتي في هذه الآيات التي معنا.

وكذلك هو عالٍ على خلقه بصفاته, فله الكمال في الصفات سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

ومن أهل السنة والجماعة من يقسم علو الصفات إلى قسمين, فيقول: هناك علو قدْر, وهناك علو قهر.

علو القدر والشأن؛ يريدون به علو صفاته سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

وعلو القهر؛ يريدون به أن الله عَزَّ وَجلَّ قاهر فوق عباده, كما جاء الآية صريحة بذلك.

الذي يُثبت النوع الأول من العلو –أعني علو الذات- هم أهل السنة والجماعة فقط, وأما سائر المعطلة على اختلاف فرقهم فإنهم يُثبتون النوع الثاني دون النوع الأول, فلا يُثبتون أن الله بذاته فوق السماء وانه عالٍ على خلقه.

وإنما منهم من يقول: هو في كل مكان بذاته, ومنهم من يقول: لا نقول هو أعلى العالم ولا أسفل العالم, ولا عن يمينه ولا عن شماله.

أما أهل السنة والجماعة فينطقون بما نطق به كتاب الله وسنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما في هذه الآيات وكذلك الأحاديث التي ستأتي.

فهذا النوع –أعني علو الذات- أنكره هؤلاء, وقالوا: إن كل علو ورد في القرآن إنما يراد به علو الشأن.

يقول المصنف رَحِمَهُ اللهُ: وَنَاعِيَةً عَلَى المعطِّلة جُحُودَهُمْ وَإِنْكَارَهُمْ لِذَلِكَ، تَعَالَى اللَّهُ عمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا.

قال: فَفِي الْآيَةِ الْأُولَى يُنَادِي اللَّهُ رَسُولَهُ وَكَلِمَتَهُ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ بأنَّه متوفِّيه وَرَافِعُهُ إِلَيْهِ حِينَ دبَّر الْيَهُودَ قَتْلَهُ، وَالضَّمِيرُ فِي قَوْلِهِ:

{إِلَيَّ} هُوَ ضَمِيرُ الرَّبِّ جلَّ شَأْنُهُ، لَا يَحْتَمِلُ غَيْرَ ذَلِكَ، فَتَأْوِيلُهُ بِأَنَّ الْمُرَادَ: إِلَى مَحَلِّ رَحْمَتِي، أَوْ مَكَانِ مَلَائِكَتِي ...إلخ لَا مَعْنَى لَهُ.

وهذا تأويل المعطلة, وهذا تأويل باطل؛ لأن الله عَزَّ وَجلَّ قال: {إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ}, وهذا صريح في أن الله عَزَّ وَجلَّ في العلو, والرفع لا يكون إلا من أسفل إلى أعلى؛ فتأويل ذلك بأن الله عَزَّ وَجلَّ رافعه إلى محل رحمته أو إلى مكان ملائكته, هذا لا شك أنه خطأ وضلال وتحريف للكلم؛ لأن رحمة الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى وسعت كل شيء, لا تختص بالعلو, وكذلك ملائكة الله عَزَّ وَجلَّ في كل مكان, {وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ} [المدثر: 31].

قال: وَمِثْلُ ذَلِكَ يُقَالُ أَيْضًا فِي قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ رَدًّا عَلَى مَا ادَّعاه الْيَهُودُ مِنْ قَتْلِ عِيسَى وَصَلْبِهِ: {بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ}.

وهذا فيه إبطال لقول اليهود؛ لأن اليهود قالوا قبل هذه الآية: {إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ}.

فقال الله عَزَّ وَجلَّ: {وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا (157) بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ} [النساء: 157-158].

فأبطل الله عَزَّ وَجلَّ كلامهم وأثبت ما وقع لعيسى عَليهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَم بأن الله عَزَّ وَجلَّ رفعه بجسده وروحه, فلم يكن رفع عيسى عَليهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَم بالروح فقط, وإنما كان رفعًا للجسد والروح وهو حي -كما سيأتي-.

قال: وَقَدِ اختُلِفَ فِي الْمُرَادِ بالتوفِّي الْمَذْكُورِ فِي الْآيَةِ.

يعني قال: {إِنِّي مُتَوَفِّيكَ}, ما المراد بقول الله تعالى: : {إِنِّي مُتَوَفِّيكَ}؟

قال: فَحَمَلَهُ بَعْضُهُمْ عَلَى الْمَوْتِ.

حمله بعضهم على {إِنِّي مُتَوَفِّيكَ}, أي: إني مميتك ورافعك إليّ.

قال: وَالْأَكْثَرُونَ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِهِ النَّوْمُ, وَلَفْظُ المتوفَّى يُسْتَعْمَل فِيهِ؛ قَالَ تَعَالَى: {وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ} [الأنعام: 60].

فقال الله عَزَّ وَجلَّ: {وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ}, ونحن ماذا نصنع بالليل؟ ننام, فالنوم وفاة صغرى.

{اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا} [الزمر: 42], فجعل الله عَزَّ وَجلَّ الوفاة وفاتين: وفاة كبرى وهي الموت, ووفاة صغرى التي هي النوم.

فقالوا: أراد الله عَزَّ وَجلَّ أنه سيُنِيمه عَليهِ الصَّلاةُ والسَّلامَ ويرفعه نائمًا, قال: والأكثرون على ذلك.

قال: وَمِنْهُمْ مَن زَعَمَ أَنَّ فِي الْكَلامِ تَقْدِيمًا وَتَأْخِيرًا، وأَنَّ التَّقْدِيرَ: إِنِّي رَافِعُكَ وَمُتَوَفِّيكَ؛ أَيْ: مُمِيتُكَ بَعْدَ ذَلِكَ.

قال: وَالْحَقُّ أَنَّه عَليهِ والسَّلامَ رُفع حَيًّا، وأَنَّه سَيَنْزِلُ قُرْبَ قِيَامِ السَّاعَةِ؛ لِصحَّة الْحَدِيثِ بِذَلِكَ.

والحديث في الصحيحين من حديث أبي هريرة رَضِي اللهُ عَنْهُ, قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَيُوشِكَنَّ أَنْ يَنْزِلَ فِيكُمُ ابْنُ مَرْيَمَ حَكَمًا مُقْسِطًا، فَيَكْسِرَ الصَّلِيبَ، وَيَقْتُلَ الْخِنْزِيرَ، وَيَضَعَ الْجِزْيَةَ، وَيَفِيضَ الْمَالُ حَتَّى لَا يَقْبَلَهُ أَحَدٌ", وهذا يكون في آخر الزمان, وهو من أشراط الساعة.

وهذا الخلاف الذي ذكره المصنف رَحِمَهُ اللهُ إنما هو من اختلاف التنوع لا التضاد, لأن هذه الأقوال التي ذكرها كلها منقولة عن سلفنا الصالح.

وهذه المسألة كنت قد ناقشتها في رسالة الدكتوراه عند الكلام عن مسألة ختم النبوة, لأن هناك من التفاسير من الترجمات الإنجليزية ما نحا منحى اعتقاد القاديانية وهم أتباع مرزا غلام أحمد القادياني, وهذه طائفة ظهرت في شرق أسيا وتسمى بالطائفة الأحمدية, وهي طائفة مارقة عن دين الإسلام كافرة.

هذه الطائفة ادعت في مرزا هذا أولًا: أنه عيسى ابن مريم, وأنه المهدي الذي يكون في آخر الزمان, وترقوا إلى أن جعلوه إلهًا.

فعندنا أحاديث وعندنا كذلك هذه الآيات التي تقول إن عيسى سينزل آخر الزمان وإنه رُفع حيًّا, إنه لم يمت.

هم يقولون في المرزا هذا إنه المسيح الذي يكون آخر الزمان, فجاءوا عند هذه الآيات وقالوا: هذه الآيات صريحة في أن عيسى قد توفي, وأنه قد مات, وأنه لن يُبعث مرة أخرى أو لن ينزل آخر الزمان ليكسر الصليب ويقتل الخنزير ويأخذ الجزية, إلى غير ما قالوه من أقوال ضالة.

فنقول: إن هذه الآية –كما قلنا– فيها أقوال ثلاثة للسلف, والخلاف بين هذه الأقوال من خلاف التنوع لا التضاد, أي: نستطيع أن نجمع بين هذه الأقوال وأن نجعلها قولًا واحدًا.

- فطائفة قالت: المراد بالتوفي الإنامة, وليس توفِّي الموت, وجعلوا الآية من المتشابه, يعني: {إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ}, قالوا: هذه الآية من المتشابه, وهو يُرد إلى المحكم الذي في قول الله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ

وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}.

وقالوا: وقوله تعالى: {اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا}, فسمى النوم وفاة, وهو الوفاة الصغرى.

وكذلك قوله تعالى –وهذا استدلال لطيف- وللشيخ الهراس رَحِمَهُ اللهُ رسالة اسمها فصل المقال في نزول عيسى آخر الزمان وقتل الدجال, تكلم عن هذه المسألة وبيَّن أن عيسى عَليهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمِ رُفع حيًّا بجسده.

هذا الاستدلال إنما هو بقول الله عَزَّ وَجلَّ: {وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (54) إِذْ قَالَ اللَّهُ يَاعِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ} [آل عمران: 54-55].

وكذلك قوله تعالى: {بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا} [النساء: 158].

قال أهل العلم: ولا يتحقق معنى المكر والعزة والحكمة في الآيتين إلا على القول برفعه حيًّا لا بزعم اليهود والنصارى بموته على الصليب أو وفاته بشكل طبيعي؛ لأنه لو مات على الصليب لما قال الله عَزَّ وَجلَّ: {وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ}.

ولو توفي وفاة طبيعية لما قال: {وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ}.

أين المكر الذي قابل مكرهم؟ أنهم أرادوا قتله فرفعه الله عَزَّ وَجلَّ حيًّا, فهذا هو القول الأول, وهو أن التوفي يراد به الإنامة, أنامه الله عَزَّ وَجلَّ ورفعه على هذه الصورة.

وهذا القول الأول هو قول جمهور المفسرين, ولذلك قال الشيخ هنا: وَالْأَكْثَرُونَ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِهِ النَّوْمُ.

- القول الثاني وهو قول الطائفة الثانية, قالوا: إن في الآية تقديمًا وتأخيرًا, وقالوا: هذا من أساليب العرب المعروفة, والمراد: إني رافعك إليّ ومتوفيك آخر الزمان بعد نزولك.

من أين جاءوا بهذا القول بأن في الآية تقديمًا وتأخيرًا؟ لأن حرف العطف الذي جاء في الآية هو الواو, والواو لا تفيد الترتيب, وإنما تفيد مطلق الجمع.

إذا قلت: جاء محمد وأحمد, هذا لا يعني أن محمدًا جاء قبل أحمد, أو أن أحمد جاء قبل محمد, وإنما تفيد مطلق الجمع, فقد يكون هذا جاء قبل هذا, أو هذا جاء قبل هذا, فقالوا: الآية فيها تقديم وتأخير.

فالمراد بالآية: إني رافعك إليّ ومتوفيك بعد نزولك وقتلك الخنزير وكسرك الصليب وردك الجزية.

فقالوا: وهذا معروف في أساليب العرب.

وهذا القول منقول عن قتادة بن دعامة السَّدُوسي, وهذا القول نراه أنه لا يخالف القول الأول, أنهم قالوا: رُفع حيًّا وسيموت آخر الزمان, فيرد هذا القول كذلك إلى قول الجمهور.

- وطائفة ثالثة, يأتي على رأسهم شيخ المفسرين الطبري رَحِمَهُ اللهُ, قال: عن المراد بالتوفي هو نفس الرفع, لأن كلمة الوفاء في لغة العرب تأتي بمعنى: أخذ كامل الحق, أي: أن الله عَزَّ وَجلَّ وفَّاه حقه الذي له على الأرض في هذه المدة, فرفعه الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

فقال الطبري: إن المراد بالتوفي هو نفس الرفع, والمعنى إني قابضك إلي من الأرض ومستوفيك ببدنك وروحك.

وهذا القول منسوب لابن زيد, وحكاه ابن كثير عن مطر الوراق.

لو نظرنا في هذه الأقوال الثلاثة لوجدناها متفقة على أن عيسى عَليهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمَ رُفع حيًّا, وليس فيها أن الله توفاه على الأرض وفاة الموت.

قد يقول قائل: لكن جاء عن عبد الله بن عباس أنه قال: "توفاه أي: أماته", {إِنِّي مُتَوَفِّيكَ}, أي: إني مميتك ورافعك إليّ؟

نقول: لا تصح نسبة ذلك إلى عبد الله بن عباس كما حقق ذلك الشيخ الهراس رَحِمَهُ اللهُ في هذه الرسالة التي أشرنا إليها, فالسند لا يصح.

إذن الصحيح: أن الله عَزَّ وَجلَّ أنام عيسى عَليهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمَ ورفعه حيًّا, وأنه سينزل آخر الزمان ليقوم بهذا الذي ذكره النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ, أو أن في الآية تقديًا وتأخيرًا.

والشاهد من هذه الآية والتي بعدها فيها يتعلق بهذا الباب: هو قول الله تعالى: {وَرَافِعُكَ إِلَيَّ}.

وكذلك قوله: {بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ}, والرفع لا يكون إلا إلى علو.

قال: وَأَمَّا قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ: {إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ}.

أما الكلم الطيب؛ فيصدُق على كل كلم طيب يتقرب به المرء إلى ربه تَبَارَكَ وَتَعَالَى لا رياء فيه ولا سمعة, ويدخل في ذلك الذكر والتوحيد وقراءة القرآن.

وأما العمل الصالح؛ فإنما يكون صالحًا إذا خلا من الرياء والبدعة؛ فالعمل الصالح هو الذي يكون مداره على الإخلاص والمتابعة, هذا الذي يُرفع إليه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

من الذي يرفعه؟ الملائكة.

قال: {إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ}, الصعود لا يكون إلا علو.

{إِلَيْهِ} إلى من؟ إلى الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى, فالضمير يعود إليه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى, ولا يُعرف في لغة العرب غير ذلك أن الصعود لا يكون إلا من أسفل إلى أعلى.

قال: {تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ} [المعارج: 4], والعروج كذلك لا يكون إلا إلى علو.

هذه الملائكة تعرج بماذا؟

تعرج بالعمل الصالح, كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذا الحديث الذي ذكره المصنف: ((فَيَعْرُجُ الَّذِينَ بَاتُوا فِيكُمْ، فَيَسْأَلُهُمْ رَبُّهُمْ -وَهُوَ أَعْلَمُ- كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي؟ فَيَقُولُونَ: يَا رَبَّنَا! أَتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يصلُّون، وَتَرَكْنَاهُمْ وَهُمْ يصلُّون)).

قال: فَهُوَ صريحٌ أَيْضًا فِي صُعُودِ -يعني: هذه الآية- أَقْوَالِ الْعِبَادِ وَأَعْمَالِهِمْ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجلَّ، يَصْعَدُ بِهَا الْكِرَامُ الْكَاتِبُونَ كُلَّ يَوْمٍ عَقِبَ صَلاَةِ الْعَصْرِ، وَعَقِبَ صَلاَةِ الْفَجْرِ؛ كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيث.

قال: وَأَمَّا قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ حِكَايَةً عَنْ فِرْعَوْنَ: {يَا هَامَانُ ...} إلخ.

وهامان هو وزير فرعون.

قال: فَهُوَ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ مُوسَى عَلَيهِ السَّلاَمَ أَخْبَرَ فِرْعَوْنَ الطَّاغِيَةَ بِأَنَّ إِلَهَهُ فِي السَّمَاءِ، فَأَرَادَ أَنْ يتلمَّس الْأَسْبَابَ لِلْوُصُولِ إِلَيْهِ تَمْوِيهًا عَلَى قَوْمِهِ، فَأَمَرَ وَزِيرَهُ هَامَانَ أَنْ يَبْنِيَ لَهُ الصَّرْحَ، ثُمَّ عقَّب عَلَى ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: {وَإِنِّي لأَظُنُّهُ}؛ أَيْ: مُوسَى {كَاذِبًا} فِيمَا أَخْبَرَ بِهِ مِنْ كَوْنِ إِلَهِهِ فِي السَّمَاءِ، فمَن إِذًا أَشْبَهُ بِفِرْعَوْنَ وَأَقْرَبُ إِلَيْهِ نَسَبًا؛ نحنُ أَمْ هَؤُلَاءِ المعطِّلة؟! إنَّ فرعونَ كَذَّبَ مُوسَى فِي كَوْنِ إِلَهِهِ فِي السَّمَاءِ، وَهُوَ نَفْسُ مَا يَقُولُهُ هَؤُلَاءِ.

إذًا: قول المعطلة يشبه قول فرعون.

ومن عجيب ما رأيت ما قاله بعض الأزهرية الأشعرية استدلالًا بهذه الآية, يقول: إن عقيدة الوهابية كعقيدة فرعون, ويستدل بهذه الآية, فيقول: إن فرعون أراد أن يصعد إلى السماء لأنه يعتقد أنه هناك ربًّا في السماء, سبحان الله, من أين جاء بهذا الفهم؟! نسأل الله السلامة والعافية.

موسى عَليهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَم أخبر فرعون الطاغية بأن ربه في السماء, فزاد طغيان فرعون بأن قال: {يَاهَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ}.

وما المراد بالأسباب؟ يعني: الأبواب والطرق, أبواب وطرق السماء, حتى أطلع إلى إله موسى, وإلا لماذا يقول فرعون هذا الكلام؟ إنما قاله لأن موسى أخبره أن له ربًّا في السماء, فقال ذلك استهزاءً بعقيدة موسى، بل عقيدة جميع الأنبياء والمرسلين.

فالشاهد في هذه الآية أنه قال: {فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى} , يعني: أطلع إليه في السماء, أي: في العلو, ففيها كذلك دليل على أن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى في السماء.

قال: و قَوْلُهُ: {أَأَمِنتُم ...} إلخ.

هذه الآية يستدل بها المعطلة للتشنيع على أهل السنة والجماعة, فيقولون: إنكم لو قلتم بظاهر هذه الآية لجعلتم السماء ظرفًا للرب تَبَارَكَ وَتَعَالَى؛ لأن (في) تعني: الظرفية, نقول: الماء في الإناء؛ هذا يعني: أن الماء داخل الإناء, فإذا قلتم إن الله في السماء؛ فهذا يعني: أن السماء محيطة بالرب تَبَارَكَ وَتَعَالَى, وهذا يدل على جهلكم وعلى تنقصكم بربكم تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

فنقول: نحن ما قلنا ذلك, إنما الذي قال ذلك عن نفسه هو ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى, قال عن نفسه إنه في السماء, ثم إنكم إنما أُتيتم من قِبل جهلكم بكلام السلف وتفاسيرهم ولغة العرب؛ لأن السماء تأتي بمعنى العلو, وتأتي بمعنى السماء التي هي هذا السقف المحفوظ الذي له أبواب وله صفات ذكرها الله عَزَّ وَجلَّ في كتابه.

أما إنها تأتي بمعنى العلو فمن ذلك قول الله تعالى: {وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلاَ تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ} [البقرة: 22].

ما معنى {وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً}؟ هل الماء ينزل من السماء؟ الماء لا ينزل من السماء, وإنما الماء ينزل من السحاب.

إذًا: المراد بالسماء هاهنا: العلو، فكل ما علاك فهو سماء كما تعرفه العرب من لغتها.

فهذه كلية لغوية يا من تتبجحون بمعرفة اللغة ثم تكذبون على أهل التوحيد والسنة، تجعلونهم مجسمة مشبهة.

قال الزَّجاج: السماء في اللغة يقال لكل ما علا وارتفع قد سما يسمو.

قال الحافظ أبو عمر ابنُ عبدِ البَرِّ في الاستذكار : (أمَّا قَولُه في هذا الحديثِ للجاريةِ: (أين اللهُ؟) فعلى ذلك جماعةُ أهلِ السُّنَّةِ، وهم أهلُ الحَديثِ ورُواتُه المتفَقِّهون فيه، وسائِرُ نقَلَتِه كُلُّهم يقولُ ما قال اللهُ تعالى في كتابِه: (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى) [طه: 5] ، وأنَّ اللهَ عزَّ وجَلَّ في السَّماءِ، وعِلمُه في كُلِّ مكانٍ، وهو ظاهِرُ القُرآنِ في قَولِه عزَّ وجَلَّ: (أَأَمِنتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ) [الملك: 16] ، وبقَولِه عزَّ وجَلَّ: (إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ) [فاطر: 10] ، وقَولِه: (تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ) [المعارج: 4] ، ومِثلُ هذا كثيرٌ في القُرآنِ... ولم يَزَلِ المسلمون إذا دهَمَهم أمرٌ يُقلِقُهم فَزِعوا إلى رَبِّهم، فرَفَعوا أيديَهم ووُجوهَهم نحوَ السَّماءِ يَدْعونَه، ومخالِفونا يَنسُبونا في ذلك إلى التشبيهِ، واللهُ المستعانُ، ومَن قال بما نطق به القُرآنُ فلا عَيبَ عليه عند ذوي الألبابِ!)

أو إما أن يكون في السماء أي: على السماء, وهذا معروف كذلك في لغة العرب, مسالة تناوب الحروف, وهذا وارد بكثرة في كتاب الله, كما قال فرعون: {وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ} [طه: 71].

ما معنى {فِي جُذُوعِ النَّخْلِ}؟ أي: على جذوع النخل.

قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "ارْحَمُوا أَهْلَ الْأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ".

"ارْحَمُوا أَهْلَ الْأَرْضِ", يعني: من يسير على وجه الأرض من الدواب والإنس وغيرهم.

{قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ} [الأنعام: 11], أي: سيروا على الأرض.

{فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاَةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ} [الجمعة: 10], يعني: على الأرض.

إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة التي تبين أن (في) قد تأتي بمعنى (على).

وكذلك السماء قد تأتي بمعنى العلو.

نقول: أين القمر؟ تقول: في السماء, أين الشمس؟ في السماء.

هل الشمس والقمر في السماء؟ ليس في السماء, السماء هي السقف المحفوظ الذي له أبواب, فإذا دخلت هذا الباب وجدت الملائكة ووجدت آدم عَليهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَم, فإذا دخلت الباب الثاني أو باب السماء الثانية وجدت غيرهم من الأنبياء وهكذا, هذه هي السماء, السماء هي التي عرج إليها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليلة المعراج, هذه الزُرقة التي نراها ليست هي السماء, هذا الغلاف الجوي ليس هو السماء, لم يصل أحد إلى السماء إلا نبينا وعيسى عليهما الصلاة والسلام، ومن أمكنه الله من ذلك ، وأخفى علم ذلك عنا.

كما قال الله عَزَّ وَجلَّ: {يَامَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ} [الرحمن: 33].

ما معنى {بِسُلْطَانٍ}؟ يقولون: بالعلم الحديث –التي هي المركبات والفضاء وغير ذلك– استطعنا أن نصل إلى السماء, وهذا ليست هي السماء المقصودة.

ولتعلموا –عباد الله– أن ملاحدة الزمان ينكرون وجود السماء, أن هناك سماءً وتعلوها سماء أخرى, ثم سماء ثالثة, ينكرون ذلك, وما سبب إنكارهم؟

أنهم بنوا عقيدتهم الإلحادية في مبدأ هذا الزمان وفي وجود هذا العالم على إنكار وجود الرب تَبَارَكَ وَتَعَالَى, لأنهم بنوها على نظرية الانفجار العظيم, هذه المادة التي انفجرت وتمددت وما زالت تتوسع والكون ما زال يتوسع.

فقولُنا بوجود سماء ثابتة لها أبواب صعد منها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ هذا يخالف عقيدتهم, لأنهم يقولون إن كل شيء في كل لحظة ليس في مكانه, لأن هذا الكون يتوسع ويتمدد ويتمدد؛ ولذلك ينكرون هذه السماء، ولذا كان الركون إلى قولهم ومحاولة تأييده بما جاء في القرآن بما يسمى من الإعجاز العلمي دون النظر لأصل نظرياتهم من أعظم الفساد.

قال الشيخ رَحِمَهُ اللهُ: هَاتَانِ الْآيَتَانِ فِيهِمَا التَّصْرِيحُ بِأَنَّ اللَّهَ عز وجل فِي السَّمَاءِ، وَلَا يَجُوزُ حَمْلُ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِهِ: الْعَذَابُ، أَوِ الْأَمْرُ.

لأنهم قالوا: {أَأَمِنتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ}, يعني: أأمنتم عذاب ربكم, أو أمر ربكم في السماء.

قال: أَوِ الْأَمْرُ، أَوِ الْمَلَك؛ كَمَا يَفْعَلُ الْمُعَطِّلَةُ؛ لأَنَّه قَالَ: {مَّن}، وَهِيَ لِلْعَاقِلِ.

وهذا لا يحسُن ذكره في حق الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى, لأن الله عَزَّ وَجلَّ لم يصف نفسه بالعقل, وإنما نقول: وهي تشير إلى الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

نقول: هذا الاسم الموصول يعود على الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

أو نقول: هي للعالِم, لأن الله عَزَّ وَجلَّ موصوف بالعلم, وليس موصوفًا بالعقل, والأصل في الصفات التوقيف.

قال: وحَمْلُها عَلَى المَلَك إخراجُ اللَّفْظِ عَنْ ظَاهِرِهِ بِلاَ قَرِينَةٍ تُوجِبُ ذَلِك.

فلابد إذا أردنا أن نُخرج اللفظ عن ظاهره؛ لابد أن تكون هناك قرينة ظاهرة تجعل المرجوح راجحًا والمعنى البعيد قريبًا, ولا قرينة هاهنا؛ لا من اللفظ ولا من المعنى والعقل.

قال: وَلَا يَجُوزُ أَنْ يُفهم مِنْ قَوْلِهِ: {فِي السَّمَاءِ} أَنَّ السَّمَاءَ ظرفٌ لَهُ سُبْحَانَهُ؛ بَلْ إنْ أُرِيد بِالسَّمَاءِ هَذِهِ الْمَعْرُوفَةُ؛ فـ{فِي} بِمَعْنَى عَلَى؛ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: {وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ}, وإِنْ أُرِيدَ بِهَا جِهَةُ الْعُلُوِّ؛ فـ{فِي} عَلَى حَقِيْقَتِهَا؛ فإنَّه سُبْحَانَهُ فِي أَعْلَى العلوِّ.

فهذه هي بعض أدلة أهل السنة والجماعة في إثبات علو الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى على خلقه, العلو الذاتي.

قلنا: وأما الجهمية على اختلاف فرقهم فإنهم تأولوا العلو على أنه علو القدر والقهر.

وكذلك الفوقية, {يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ} [النحل: 50], هذه كذلك تفيد العلو, وقالوا: إنما أريد بذلك علو الشأن والقدر.

كما نقول: الذهب فوق الفضة, والأمير فوق الوزير.

وقلنا: هذا لا ينصره السياق ولا هذه الآيات الكثيرة, والأحاديث ، لأنها صريحة في أن المراد بالعلو علو الذات.

هناك أدلة أخرى كذلك وردت في كتاب الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى تدل على علوه, فمن ذلك أدلة الاستواء التي مضت, فكل أدلة الاستواء تدل على علو الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى؛ لأن استوى بمعنى: علي وارتفع.

وكذلك التصريح بعروج الأشياء إليه, عروج الملائكة, قال: {تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ}, وما معنى تعرج؟ تصعد.

وكذلك التصريح بالعلو المطلق, الذي يدل على مراتب العلو الثلاثة, فانت في سجودك تقول: "سبحان ربي الأعلى", أعلى في ذاته, وفي قدره وفي قهره سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

وتقول كذلك في سورة الأعلى: {سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى} [الأعلى: 1].

فهذا الإطلاق يدخل فيه أنواع العلو الثلاثة.

وكذلك التصريح بتنزل الكتب من عنده سُبْحَانَهُ وَتعَالَى, والنزول لا يكون إلا من علو.

قال تَبَارَكَ وَتعَالَى: {تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ} [غافر: 2].

وقال: {تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ} [فصلت: 2].

وقال كذلك: {قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ} [النحل: 102].

فهذا صريح في أن الكتاب ينزل من علو من عند الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

وكذلك التصريح باختصاص بعض المخلوقات بانها عنده, وأن بعضها أقرب إليه من بعض.

كما قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ} [الأعراف: 206].

وكما قال تعالى: {وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ} [الأنبياء: 19].

ففرَّق بين ما في السماوات وما في الأرض وما عنده سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

وكذلك التصريح برفع الأيدي إليه والإشارة بالأصبع إليه في حديث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إِنَّ رَبَّكُمْ حَيِيٌّ كَرِيمٌ، يَسْتَحِي مِنْ عَبْدِهِ إِذَا رَفَعَ إِلَيْهِ يَدَيْهِ أَنْ يَرُدَّهُمَا صِفرًا", وأنت كيف ترفع يديك؟ إلى العلو, تدعو الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

وكذلك التصريح بنزوله كل ليلة إلى السماء الدنيا, والنزول لا يكون إلا من علو, فالنزول مستلزم لعلو الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى على خلقه.

وكذلك الإشارة إليه بالإصبع.

كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حجة الوداع: "أَنْتُمْ مَسْئُولُونَ عَنِّي، فَمَاذَا أَنْتُمْ قَائِلُونَ؟", قَالُوا: نَشْهَدُ أَنَّكَ قَدْ بَلَّغْتَ وَأَدَّيْتَ وَنَصَحْتَ, فكان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يرفع أُصبعه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى السماء ويقول: ﴿اللَّهُمَّ اشْهَدْ﴾.

وكذلك سؤاله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -وهو أعلم الخلق لربه- للجارية: ﴿أَيْنَ اللَّهُ؟﴾ قَالَتْ: فِي السَّمَاءِ.

والله لا أدري هؤلاء الذين ينكرون مثل هذه الأحاديث إذا لقوا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ماذا يقولون؟!

النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول للجارية: "أَيْنَ اللَّهُ؟", والحديث في أعلى درجات الصحة, وتقول: فِي السَّمَاءِ, ومع ذلك يقولون: لا, لم يقل الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذا الحديث, وبعضهم يقول: من سأل عن الله بـ(أين) فهو مبتدع ضال, تجد هذا في كلامهم!

هذا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو أعلم الخلق بربه يسأل الجارية عن مكان الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى وتجيبه ويقرها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ, بل يشهد لها بالإيمان, قال: "أَعْتِقْهَا فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ".

على ما شهد لها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالإيمان؟ لأنها قالت: إن الله في السماء, وقالت: أنت رسول الله.

وكذلك ما جاء من تردده صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بين موسى وربه ليلة المعراج.

أنتم كل عام تحتفلون بالإسراء والمعراج, وتذكرون أن ربنا سُبْحَانَهُ وَتعَالَى خفف الصلاة خمسين صلاة, وتذكرون أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مر على موسى وذكر له أن الله فرض على أمته خمسين صلاة, وأن موسى عَليهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمَ يقول له المرة بعد المرة: ارجع إلى ربك فسأله التخفيف.

يرجع إلى أين؟ ويصعد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى ربه ويعود إلى موسى مرة أخرى.

أين عقول هؤلاء الذين يقولون: لا, ليس أعلى العالم ولا أسفل العالم, ولا عن يمينه ولا عن شماله.

ولكن -يا إخوة- هذا جراء الاعتقاد السابق, فالذي يعتقد عقيدة كهذه وتصير هذه العقيدة راسخة عنده لابد أن يلوي أعناق النصوص, وأن يردها حتى ولو كانت في كتاب الله وفي سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعليها إجماع الصحابة, يرد كل ذلك, نسأل الله السلامة والعافية.

وكذلك ما جاء في الحديث المتواتر, حديث: يا رسول الله هل نرى ربنا؟ قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ هَذَا الْقَمَرَ، لَا تُضَامُونَ

فِي رُؤْيَتِهِ، فَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لَا تُغْلَبُوا عَلَى صَلاَةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا فَافْعَلُوا"

فقال: "إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ هَذَا الْقَمَرَ", هذا الحديث أين الدلالة فيه على علو الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى؟

الطالب: الشمس في علو.

الشيخ: نعم, لأن الشمس في علو, ولأن القمر في علو, والتشبيه الوارد هاهنا تشبيه الرؤية بالرؤية, أي: وضوح الرؤية بالرؤية, وأن الجميع يرون ربهم تَبَارَكَ وَتَعَالَى, لأننا لو وقفنا جميعًا ننظر إلى الشمس لرأيناها أجمعون, وكذلك لو نظرنا إلى القمر.

ولذلك قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "لَا تُضَامُونَ فِي رُؤْيَتِهِ", سُبْحَانَهُ وَتعَالَى, أي: لا يصيبكم ضيم ولا مشقة.

لو نظرنا إلى القمر هل يحدث ذلك؟ لو أن أهل الأرض أجمعين نظروا إلى القمر هل تحدث مزاحمة؟ لا تحدث مزاحمة, فهذا الذي أراده رسو الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فهذا فيما يتعلق بأدلة النقل.

وأما أدلة العقل فظاهرة كذلك, وقد بنى وأهل السنة والجماعة اعتقادهم على النقل والعقل, لأن العقل الصريح لا يخالف النقل الصحيح.

دل العقل كذلك على أن الله في علو, وأنه لا يُقبل غير ذلك في حقه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى, ولذلك قال أهل السنة والجماعة.

هناك أدلة كثيرة من جهة العقل تدل على أن الله في السماء.

- فمن ذلك: العلم البديهي, الذي لا يستطيع الواحد منا أن يدفعه عن نفسه, علم ضروري, بأن كل موجودين ، -والله موجود سُبْحَانَهُ وَتعَالَى- إما أن يكون أحدهما ساريًا في الآخر قائمًا به كالصفات, وإما أن يكون قائمًا بنفسه بائنًا من الآخر.

فالله عَزَّ وَجلَّ قائم بنفسه بائنٌ من خلقه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى, وليس هو حالًا في مخلوقاته كحلول الصفات في الذات, هذا أولًا.

إذًا: الله عَزَّ وَجلَّ خارج هذه المخلوقات, ليس داخلاً في العالم, وهم يتفقون معنا في ذلك -أعني الأشاعرة خاصة- لأنهم يغلطون من ينسب إليهم أنهم يقولون: إننا نقول: إن الله في كل مكان بذاته.

يقولون: هذا القول ليس معروفًا عن الأشعرية, وإنما المعروف أنهم يقولون: ليس داخل العالم ولا خارج العالم, ولا عن يمينه ولا عن شماله.

- الثاني: أن الله عَزَّ وَجلَّ لما خلق هذا العالم فإما أن يكون خلقهم في ذاته أو خارجًا عن ذاته, والأول باطل بالاتفاق, هم يتفقون معنا في ذلك, لأنه يلزم أن يكون محلاً للخسائس والقاذورات, وهذا من الخلق, تعالى الله عن ذلك علوًا كثيرًا.

والثاني: يقتضي كون العالم واقعًا خارج ذاته, فيكون الله عَزَّ وَجلَّ منفصلاً فتعينت المباينة, لأن القول بأنه غير متصل بالعالم وغير منفصل عنه غير معقول.

- الثالث: كونه تعالى لا داخل العالم ولا خارجه يقتضي نفي وجوده بالكلية.

أين الله؟ يقولون: لا خارج العالم ولا داخل, ولا عن يمينه ولا عن شماله, ولا فوق ولا أسفل, ولذلك يعبدون عدمًا.

قال ابن القيم -رَحِمَهُ اللهُ-: لأنه غير معقول, فيكون موجودًا إما داخله وإما خارجه, والأول باطل فتعين الثاني فلزمت المباينة.

ثم نضيف على ذلك ونقول: العلو صفة كمال أم صفى نقص؟ صفة كمال, هل لو اتصف بها المخلوق هل فيها وجه نقص؟ ليس فيها وجه نقص, فالخالق سُبْحَانَهُ وَتعَالَى أولى بها, وهذا من قياس الأولى.

قال: وأما ثبوت ذلك بالفطرة فإن الخلق جميعًا بطباعهم وقلوبهم السليمة يرفعون أيديهم عند الدعاء ويقصدون جهة العلو بقلوبهم عند التضرع إلى الله تعالى.

ولذلك بعض هؤلاء المعطلة من أهل الشام من طائفة الأحباش كان يرد على بعض أهل السنة والجماعة, وفي رده على أهل السنة والجماعة قال: فإذا قال الله ، وأشار بيده إلى السماء، أي غلبته فطرته على ما أراد أن يتنكر له. ثم قال هذا المعطل: الآن سيقول واحد من هؤلاء المجسمة – يعني أهل السنة-: انظر, يشير إلى السماء ، يُثبت إلهًا في السماء!!

سبحان الله, هذه فطرة! ثم هو يتنكر لفطرته, نسأل الله السلامة والعافية.

ولذلك قطعها أبو جعفر الهمذاني مع الجويني, الجويني يقرر كلام اليونان, يقول: لو أننا أثبتناه في علو فهذا يعني: أن له في جهة, والجهة تعني التحيز, وهذا يعني: أنه محصور في مكان, وهذا من صفة المخلوق.

قال له أبو جعفر: دعنا من كل ذلك, لن أجادل في ذلك الآن, لكن أخبرني عن هذه الضرورة التي يجدها الواحد منا أنه إذا قال: يا رب, اتجه قلبه إلى السماء؟

فماذا قال الجويني؟ قال: حيرني الهمذاني.

لأنه كان صادقًا في البحث عن الحق, ما تنكر.

أما الرازي لما قيل له: لماذا تتجه قلوبنا إلى السماء؟ زعم أن السماء قبلة الدعاء!!

ما قال كما قال الجويني, وما أقر كما أقر الجويني, لكن حرَّف الكلم عن مواضعه.

وهل السماء قبلة الدعاء؟ الكعبة هي قبلة الدعاء, أنت إذا أردت أن تدعو الله عَزَّ وَجلَّ إلام تتجه؟ تتجه إلى القبلة, فالقبلة هي قبلة الدعاء.

لكن هؤلاء –نسأل الله السلامة والعافية- كما قلنا: اعتقدوا أولًا ثم أرادوا بعد ذلك أن يستدلوا, فما وجدوه موافقًا لاستدلالهم قالوا به, حتى ولو كان بيت شعر مجهول النسبة, وما وجده مخالفًا لاعتقادهم ردوه, حتى ولو كان آية صريحة في كتاب الله أو حديثًا في أعلى درجات الصحة عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فنسأل الله أن يُثبتنا على هذا الاعتقاد الصحيح وأن يقبضنا عليه, إنه ولي ذلك والقادر عليه.

الدرس السادس والعشرون

إن الحمد لله, نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله تعالى من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله, صلى الله عليه, وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد:

فنعود إلى كتاب العقيدة الواسطية مرة أخرى بعد انقطاعٍ لشهر رمضان، أسأل الله عَزَّ وَجلَّ أن يتقبل منا ومنكم صالح الأعمال.

كنا قد توقفنا عند كلام المصنف رَحِمَهُ اللهُ عند معية الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وشيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ يسير على ترتيب مقصود في تأليفه لهذه العقيدة المباركة.

فقد ذكر أولًا: الاستواء وأدلته، ثم ذكر بعد ذلك علو الله على خلقه، ثم أردف ذلك بذكر معية الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى ليُبين أنه لا منافاة بين علوه تعالى ومعيته، لأن الله ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

وهو كذلك في سائر صفاته تَبَارَكَ وَتَعَالَى ليس كمثله شيء، فهو عليٌّ في دنوه، قريبٌ في علوه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فذكر هذه الآيات التي فيها إثبات معية الله لخلقه، فقال رَحِمَهُ اللهُ:

وَقَوْلُهُ: {هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} [الحديد: 4].

وَقَوْلُهُ: {مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [المجادلة: 7].

وَقَوْلُهُ: {لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا} [التوبة: 40].

وَقَوْلُهُ: {إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى} [طه: 46].

وَقَوْلُهُ: {إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ} [النحل: 128].

وَقَوْلُهُ: {وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ} [الأنفال: 46].

وَقَوْلُهُ: {كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ} [البقرة: 249].

هذه الآيات التي ذكرها المصنف رَحِمَهُ اللهُ إنما ذكرها لإثبات معية الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى لخلقه.

والمعية مأخوذة من ظرف الزمان أو المكان (مع)، وهو ظرف زمان أو مكان منصوب، وإنما يُعرب ظرف زمان أو ظرف مكان بحسب ما بعده، فإن جاء بعده مكان أُعرب ظرف مكان، وإن جاء بعده زمان أُعرب ظرف زمان، وما بعده يكون مضافًا إليه، فالمعية مأخوذٌ من هذا الظرف.

والأصل: أن المعية تقتضي المصاحبة، ولا يلزم من ذلك حصول اختلاط وممازجة، كما نقول: نسير والقمر معنا، ونقول: يسافر المسافر والقمر معه، والقمر بعيد منفصل عنه، وهذا سيفيد في مباحث ستأتي.

المعية صفة من صفات الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وهي صفة ذاتية فعلية، وذلك بحسب نوع المعية، وقد ذكرنا قبل ذلك كثيرًا الفرق بين الصفة الذاتية والصفة

الفعلية، وبيَّنا أن الصفة الذاتية هي التي لا تنفك عن ذات الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، كسمعه وبصره وحياته، وكذلك المعية كما سيأتي.

والمراد هاهنا بالمعية التي هي صفة ذاتية: المعية العامة، وسيأتي حدها.

والنوع الثاني من المعية وهي: المعية التي هي صفة فعل لله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، ترجع إلى مشيئته، وتكون لسبب، وهي المعية الخاصة.

أما المعية الأولى وهي صفة الذات؛ فالمراد بها: المعية العامة، والمراد بالمعية العامة: إحاطة الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى بخلقه، وهي معية الصفات؛ فالله عَزَّ وَجلَّ يعلم خلقه ويسمعهم ويقوم على شئونهم ولا يخفى عليه شيءٌ من أعمالهم سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

ولذلك أهل العلم إذا ذكروا هذا النوع من المعية -أعني المعية العامة-، ذكروا الصفات التي تقتضي مراقبة الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى لخلقه، من سمعه وبصره وإحاطته واطلاعه عليهم، وأنه لا يخفى عليه شيءٌ من أعمالهم سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

وأما النوع الثاني من المعية وهي: المعية الخاصة؛ فهي معية النصر والتأييد، وهذه لا تكون إلا لعباد الله المؤمنين كما ورد في هذه الآيات التي سنُعرج عليها.

وأما المعية الأولى وهي المعية العامة: فهي معية لجميع خلقه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، فيدخل فيها المؤمن والكافر والبر والفاجر.

قال الشيخ رَحِمَهُ اللهُ -أعني الشيخ الهراس-، قال: تضمَّنت هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ إِثْبَاتَ صِفَةِ المعيَّة لَهُ عَزَّ وَجلَّ، وَهِيَ عَلَى نَوْعَيْنِ.

معيَّة عامَّة: شَامِلَةٌ لِجَمِيعِ الْمَخْلُوقَاتِ.

وهذا من مقتضى ربوبيته سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

فَهُوَ سُبْحَانَهُ مَعَ كُلِّ شَيْءٍ بِعِلْمِهِ وَقُدْرَتِهِ وَقَهْرِهِ وَإِحَاطَتِهِ، لَا يَغِيبُ عَنْهُ شَيْءٌ، وَلَا يُعْجِزُهُ، وَهَذِهِ المعيَّة الْمَذْكُورَةُ فِي الْآيَةِ.

يعني الآية الأولى والتي قال فيها: {هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ}.

فبيَّن ربنا تَبَارَكَ وَتعَالَى في صدر هذه الآية أنه هو الذي خلق السماوات والأرض دون غيره، ففي هذا إثبات صفة الخلق له سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

خلق ذلك في ستة أيام، وقد كان قادرًا على أن يخلق ذلك بقوله: كن، وإنما خلقه في هذه المدة، وهذا على مقتضى حكمته سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، لو أراد أن يخلقها في يوم واحد لفعل، وفي أقل من يوم لفعل، وهو على كل شيء قدير سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، لكن أراد ذلك فكان ما أراد ربنا تَبَارَكَ وَتعَالَى.

قال: {ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ}، و(ثم) تفيد التراخي، أي: أن استواء الله عَزَّ وَجلَّ على عرشه كان بعد خلقه للسماوات والأرض، ولذا كان الاستواء صفة فعل له سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، ومعناه: أنه علا وظهر وارتفع فوق عرشه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

قال: {يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ}، وهذا هو موضع الشاهد.

{وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ}، فالله عَزَّ وَجلَّ أين هو بذاته سُبْحَانَهُ وَتعَالَى؟

فوق عرشه؛ لأنه قال: {ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ}، وقال في سبع آيات أخرى، قال: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى}.

إذًا: هو عالٍ على خلقه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، وعلوه لا ينافي معيته، لأنه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، فهو عليٌّ في دنوه وفي قُربه من خلقه، وهو كذلك قريب في علوه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

وهذه الآية فيها رد على الحلولين والاتحاديين الذين يقولون إن معنى المعية: أن الله عَزَّ وَجلَّ حلَّ في خلقه، وأن الله عَزَّ وَجلَّ في كل مكان بذاته.

فهذه الآية ردٌ عليهم، لأنه قال: {ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ}، وبيَّن في آيات أخرى أنه فوق العرش.

ثم قال: {وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ}، فدل ذلك على أنه معنا معية حقيقية، لكنها معية بصفاته هذه التي ذكرناها من سمع وبصر وقدرة وإحاطة.

فقال الشيخ هاهنا: فَفِي هَذِهِ الْآيَةِ يُخْبِرُ عَنْ نَفْسِهِ سُبْحَانَهُ بِأَنَّهُ هُوَ وَحْدَهُ الذي خلق السموات وَالْأَرْضَ. يَعْنِي: أَوْجَدَهُمَا عَلَى تَقْدِيرٍ وَتَرْتِيبٍ سَابِقٍ فِي مُدَّةِ سِتَّةِ أَيَّامٍ.

فالخلق كان بعد العلم والكتابة والمشيئة، لأن الخلق آخر مراتب القدر، فما خلق الله عَزَّ وَجلَّ السماوات والأرض عبثًا، وإنما كان ذلك على مقتضى تقدير سابق وكتابة سابقة، وعلى مقتضى حكمته سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

ثُمَّ عَلاَ بَعْدَ ذَلِكَ وَارْتَفَعَ عَلَى عَرْشِهِ.

وهذا معنى الاستواء.

لِتَدْبِيرِ أُمُورِ خَلْقِهِ. وَهُوَ مَعَ كَوْنِهِ فَوْقَ عَرْشِهِ لَا يَغِيبُ عَنْهُ شيءٌ مِنَ العالَمَيْن العُلويِّ والسُّفليِّ.

ولذا جاء في أثر عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنه بعد أن ذكر المسافة التي بين السماوات والأرض، وبين كل سماء وسماء، وذكر ما فوق السماء السابعة، قال: "وفوق ذلك العرش، والله فوق العرش، ولا يخفى عليه شيءٌ من أعمالكم"، فمن العرش إلى الفرش يعلمه ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى ولا يخفى عليه شيءٌ من ذلك.

ولذا قال: {يَعْلَمُ مَا يَلِجُ} ؛ أَيْ: يَدْخُلُ {فِي الأَرْضِ.

و(ما) هذه موصولة، والأسماء الموصولة تفيد العموم، من ألفاظ العموم الأسماء الموصولة.

فيعلم ما يلج، أي: يعلم كل ما يدخل في الأرض، وهل نستطيع أن نحصر ما يدخل في الأرض؟ لا يستطيع كائن أن يحصر ما يدخل في الأرض، فالله عَزَّ وَجلَّ يعلم من كل ذلك، دقيقه وجليله ولا يخفى عليه شيء من ذلك سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

ولذا قال: {وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ} [الأنعام: 59]، متى كانت في الكتاب؟ بعد علم الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى بها، فكتب ذلك في الكتاب سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

فقال: {يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا}، و(ما) هذه أيضًا موصولة، فهو كذلك يعلم كل خارج من الأرض، كل ما يخرج من الأرض من نبات ومن حشرات ومن إنس وطير ومن عوالم تكون تحت الأرض وتخرج منها ، يعلم كل ذلك ولا تخفى عليه خافية سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

قال: {وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ}، أي: يعلم كل ما ينزل من السماء، من ملك وجن وماء ومطر وريح وورق لشجر أو غير ذلك، كل ما ينزل من علو فالله تَبَارَكَ وَتَعَالَى يعلمه لا يخفى عليه خافية.

قال: {وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا}، وما معنى {يَعْرُجُ}؟ أي: يصعد، فيعلم كل ما يصعد إلى السماء، قال: {وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا}.

ثم قال الشيخ: وَلَا شَكَّ أَنَّ مَن كَانَ عِلْمُهُ وَقُدْرَتُهُ محيطَيْن بِجَمِيعِ الْأَشْيَاءِ؛ فَهُوَ مَعَ كُلِّ شَيْءٍ.

ولذا ناسب أن يذكر هذه العمومات قبل أن يقول ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى: {وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ}.

قال: وَلِذَلِكَ قَالَ: {وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ}.

{أَيْنَ مَا}، أي: حيثما، وهذه كذلك من ألفاظ العموم، في أي مكان تكونون فالله عَزَّ وَجَلَّ يعلمكم ويعلم حالكم.

ولذا جاء في الحديث الذي سيذكره المصنف بعد ذلك: "أَفْضَلُ الإِيمَانِ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ اللهَ مَعَكَ حَيْثُمَا كُنْتَ"؛ لأن هذا يترتب عليه المراقبة، ويترتب عليه الإحسان؛ أن تعبد الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك.

وهذا الحديث رواه الطبراني، وحسنه بعض أهل العلم، والراجح أنه ضعيف من جهة السند، وصحيح من جهة المعنى.

قال: وَلِذَلِكَ قَالَ: {وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ}؛ أي: يراقبكم ويسمع كلامكم ويرى مكانكم.

فهذه الآية الأولى التي ذكرها المصنف رَحِمَهُ اللهُ فيها دليل على أي نوع من نوعي المعية؟

فيها دليل على المعية العامة، لأنها ذُكرت في سياق الكلام عن إحاطة الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى بخلقه، وأنه لا يخفى عليه شيء من أعمال خلقه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ولذا تستطيع أن تفرق بين المعية العامة والمعية الخاصة من خلال السياق، فإذا كان السياق في الكلام عن المراقبة والإحاطة وذكر قهر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى وجلاله وعظمته، فهذه المعية معية عامة.

قال رَحِمَهُ اللهُ: وقَوْلُهُ: {مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى}.

وهذه هي الآية الثانية، وهي قول الله تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [المجادلة: 7].

فهذه الآية أهل العلم يسمونها بآية العلم، لماذا؟ لأنها بدأت بالعلم وخُتمت بالعلم، فبدأها الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى بقوله: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ}، وخُتمت بقوله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: {إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}، فبُدأت بالعلم وخُتمت بالعلم.

قال رَحِمَهُ اللهُ: وقَوْلُهُ: {مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى}.

قال: يُثْبِتُ سُبْحَانَهُ شُمُولَ عِلْمِهِ وَإِحَاطَتَهُ بِجَمِيعِ الْأَشْيَاءِ، وَأَنَّهُ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ نَجْوَى الْمُتَنَاجِينَ، وَأَنَّهُ شهيدٌ عَلَى الْأَشْيَاءِ كُلِّهَا، مطّلع عَلَيْهَا.

المراد بالنجوى التناجي والكلام بصوت خفي.

قال: {مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ}، هل قال الله عَزَّ وَجلَّ ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو ثالثهم ولا خمسة إلا هو خامسهم، أم قال ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم، هذا فيه دليل على ماذا؟

فيه دليل على وحدانية الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وفيه رد على النصارى، لأن الله عَزَّ وَجلَّ لما ذكر كلام النصارى وعقيدتهم قال: "لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ"، ما قالوا إن الله رابع ثلاثة، إنما قالوا: "إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ"، لماذا؟

لأنهم ساووا بين الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى في الألوهية وبين عيسى عَليهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَم ومريم؛ فجعلوا كل هؤلاء آلهة من جنس واحد، جعلوا كل هؤلاء آلهة لهم نفس الصفات، والله عَزَّ وَجلَّ يخالف هؤلاء، هو الإله وغيره عابد له سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

فالعرب -كما يقول ابن القيم- تقول: رابع أربعة، وخامس خمسة، وثالث ثلاثة، وهذا إنما يكون إن كان المضاف من جنس المضاف إليه، نقول: جاء رابع أربعة، فالذي جاء من جنس الذي جيء إليهم، وأما الله عَزَّ وَجلَّ فإن ذاته تخالف ذوات المخلوقين.

ولذا في هذه الآية جعل نفسه رابع ثلاثة، وسادس خمسة، لأنه غيرهم تَبَارَكَ وَتَعَالَى لا يجتمع معهم في شيء.

فقال الله عَزَّ وَجلَّ هاهنا: {مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ}.

قال الشيخ: يُثْبِتُ سُبْحَانَهُ شُمُولَ عِلْمِهِ وَإِحَاطَتَهُ بِجَمِيعِ الْأَشْيَاءِ، وَأَنَّهُ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ نَجْوَى الْمُتَنَاجِينَ، وَأَنَّهُ شهيدٌ عَلَى الْأَشْيَاءِ كُلِّهَا، مطَّلِع عَلَيْهَا.

قال: وَإِضَافَةُ {نَّجْوَى} إِلَى ثَلاثَةٍ مِنْ إِضَافَةِ الصِّفَةِ إِلَى الْمَوْصُوفِ، وَالتَّقْدِيرُ: مَا يَكُونُ مِنْ ثَلاثَةٍ نَجْوَى.

ما يكون من ثلاثة متناجين، يتناجون، إلا كان هو سُبْحَانَهُ وَتعَالَى رابعهم يطلع عليهم ويسمع كلامهم ويحاسبهم على هذه النجوى.

فهذه الآية كما قلنا: يسميها أهل العلم بآية العلم، لأنها لا تقتضي حلولًا ولا اتحادًا، لأن أهل البدع كالأشعرية إذا سألتهم عن عقيدتهم في الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى يقولون: الله عَزَّ وَجلَّ لا فوق العالم ولا داخل العالم ولا خارج العالم ولا عن يمينه ولا عن شماله.

هو يقول: {هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا}، يقولون: لو أننا أجرينا هذه الآية على ظاهرها لقلنا: إن الله عَزَّ وَجلَّ يحل في خلقه، وقلنا بعقيدة النصارى.

نقول: كذبتم فيما تقولون، وفيما تدعون أن هذا هو ظاهر القرآن، لأن الآية بدأت بالعلم وانتهت بالعلم، فالمراد هاهنا معية الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى الحقيقية، المراد معية الصفات ومعية المراقبة، ولا يلزم من ذلك حلول ولا اختلاط.

ولذا قال: {ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}.

قال رَحِمَهُ اللهُ: وَقَوْلُهُ تَعَالَى: {لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا}.

قال الشيخ رَحِمَهُ اللهُ في هذه الآية وما جاء بعدها: {إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى}.

وَقَوْلُهُ: {إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ}.

وَقَوْلُهُ: {وَاصْبِرُواْ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ}.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: {كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ}.

قال: وَأَمَّا الْآيَاتُ الْبَاقِيَةُ؛ فَهِيَ فِي إِثْبَاتِ المعيَّة الخاصَّة.

إذًا: أول آيتين جاء بهما المصنف لبيان المعية العامة، والتي تقتضي الإحاطة والمراقبة، ويدخل فيها كل مخلوق، وهي من الصفات الذاتية.

وأما هذه الآيات التي ذكرها بعد ذلك وعددها خمس آيات، في إثبات المعية الخاصة.

قال: وَأَمَّا الْآيَاتُ الْبَاقِيَةُ؛ فَهِيَ فِي إِثْبَاتِ المعيَّة الخاصَّة الَّتِي هِيَ معيَّتُه لِرُسُلِهِ تَعَالَى وَأَوْلِيَائِهِ بِالنَّصْرِ وَالتَّأْيِيدِ وَالْمَحَبَّةِ وَالتَّوْفِيقِ وَالْإِلْهَامِ.

إذًا: هذه المعية لا يدخل فيها أهل الكفر والضلال، وإنما هي معية خاصة لأولياء الله الصالحين، وعباده المؤمنين، وأول هؤلاء الأولياء الأنبياء والمرسلون، فلهم هذا النوع من المعية دون غيرهم.

قال: فَقَوْلُهُ تَعَالَى: {لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا}.

قال: هذه حكايةٌ عَمَّا قَالَهُ عليه الصلاة والسلام لِأَبِي بكرٍ الصدِّيق وَهُمَا فِي الْغَارِ، فَقَدْ أَحَاطَ الْمُشْرِكُونَ بِفَمِ الْغَارِ عِنْدَمَا خَرَجُوا فِي طَلَبِهِ عليه السلام، فَلَمَّا رَأَى أَبُو بَكْرٍ ذَلِكَ انْزَعَجَ، وَقَالَ: ((وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ! لَوْ نَظَرَ أَحَدُهُمْ تَحْتَ قَدَمِهِ لَأَبْصَرَنَا)).

فَقَالَ لَهُ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا حَكَاهُ اللَّهُ عَزَّ وَجلَّ هُنَا: {لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا}.

قال: فَالْمُرَادُ بالمعيَّة هُنَا مَعِيَّةُ النَّصْرِ وَالْعِصْمَةِ مِنَ الْأَعْدَاءِ.

ما الذي دل على أن هذا النوع من المعية هو معية النصر والعصمة من الأعداء، المعية الخاصة؟

قلنا: السياق هو الذي دل على ذلك، لأن السياق فرَّق بين أمرين: بين أولياء الله تعالى الصالحين، بين النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأبي بكر الصديق، ومن يطارده من المشركين.

فالله عَزَّ وَجلَّ مع المشركين بسمعه وبصره وإحاطته، يراقبهم ويُملي لهم سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، وهو مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصاحبه بالمعية الخاصة، ولذا قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: {لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا}.

قال: وَأَمَّا قَوْلُهُ: {إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى}.

قال: فَقَدْ تقدَّم الْكَلَامُ عَلَيْهِ.

أي: لما ذكر المصنف رَحِمَهُ اللهُ صفة السمع، فالله عَزَّ وَجلَّ يقول لموسى عَليهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَم وهارون: {إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى}، أي: معية نصر وتأييد.

قال: وأنَّها خطابٌ لِمُوسَى وَهَارُونَ عليهما السلام أن لا يَخَافَا بَطْشَ فِرْعَوْنَ بِهِمَا؛ لأنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجلَّ مَعَهُمَا بِنَصْرِهِ وَتَأْيِيدِهِ.

ولذا قال ربنا: {إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى (45) قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى (46) فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ} [طه: 45-47].

أمرهم الله عَزَّ وَجلَّ أن يذهبا إلى فرعون؛ لأن الله عَزَّ وَجلَّ يؤيدهم وينصرهم ويعصمهم من بطش فرعون وجنوده، فالسياق كذلك يدل على أن المعية هاهنا معية خاصة.

قال: وَكَذَلِكَ بقيَّة الْآيَاتِ يُخْبِرُ اللَّهُ فِيهَا عَنْ مَعِيَّتِهِ للمتَّقين الَّذِينَ يُرَاقِبُونَ اللَّهَ عَزَّ وَجلَّ فِي أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ، وَيَحْفَظُونَ حُدُودَهُ.

وهذا هو معنى التقوى، فالتقوى هي مراقبة الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى في أمره ونهيه، وهي فعل المأمور وترك المحظور،: أن تعبد الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى على نور من الله ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى على نور من الله تخشى عقاب الله، هذه هي التقوى، وهي حفظ الحدود والبعد عن المحرمات؛ ولذا كان الله عَزَّ وَجلَّ مع المتقين.

وهل الناس على درجة واحدة من التقوى؟ وهل تقوى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كتقوى من دونه من الصحابة، ومن دون الصحابة من التابعين، ومن دونهم من أتباع التابعين، ثم سائر الناس؟

إذًا: التقوى تتفاوت؛ ولذا كانت المعية الخاصة تتفاوت، المعية الخاصة ليست على درجة واحدة، المعية العامة يستوي فيها جميع الخلق، فكل الخلق يراقبهم ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى ويسمعهم ويطلع عليهم.

وأما المعية الخاصة؛ فإنها تتفاوت لتفاوت خصال الإيمان عند عباد الله المؤمنين، فليس كل الناس على درجة واحدة من التقوى، وليس كل الناس على درجة واحدة من الإحسان، وليس كل الناس على درجة واحدة من الصبر ومن

الشكر ومن غير ذلك من صفات الإيمان؛ فمن كمَّل صفات الإيمان كانت معية الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى الخاصة تامة كاملة له.

ولذا قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى في الحديث الإلهي: "وَلَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ، كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي أَعْطَيْتُهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ".

وهذا هو أثر المعية الخاصة، أن الله عَزَّ وَجلَّ يسدده ويوفقه وينصره ويجيب دعائه، إلى غير ذلك من الآثار المباركة لهذا النوع من المعية.

قال: وَكَذَلِكَ بقيَّة الْآيَاتِ يُخْبِرُ اللَّهُ فِيهَا عَنْ مَعِيَّتِهِ للمتَّقين الَّذِينَ يُرَاقِبُونَ اللَّهَ عَزَّ وَجلَّ فِي أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ، وَيَحْفَظُونَ حُدُودَهُ، وَلِلْمُحْسِنِينَ الَّذِينَ يَلْتَزِمُونَ الْإِحْسَانَ فِي كُلِّ شَيْءٍ، وَالْإِحْسَانُ يَكُونُ فِي كُلِّ شَيْءٍ بِحَسَبِهِ، فَهُوَ فِي الْعِبَادَةِ. مَثَلاً. أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ؛ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يراكَ؛ كَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ جِبْرِيلَ عليه السلام.

وكذلك يلتزمون الإحسان إلى الخلق، وقد أمر الله عَزَّ وَجلَّ بالإحسان إلى الخلق، فمن كان محسنًا للخلق محسنًا في عبادته لربه تَبَارَكَ وَتَعَالَى، فهذا تتحقق له المعية الخاصة.

قال: وَكَذَلِكَ يُخْبِرُ عَنْ معيَّته للصابرين.

قال تعالى: {وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ} [الأنفال: 46]، ما الصبر؟

الصبر في لغة العرب بمعنى: الحبس.

وأما في الشرع: فهو حبس النفس في أمور ثلاثة: على طاعة الله، وعن معصية الله، وعلى أقدار الله.

حبس النفس أو التعبد لله تَبَارَكَ وَتَعَالَى بحبس النفس على طاعة الله وعن معصية الله وعلى أقدار الله، {وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (155) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (156) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ} [البقرة: 155-157]، فهذا صبر على أقدار الله وبلائه.

ما جزاء الصابرين الذين يحبسون أنفسهم على ما تكره ويتحملون المشاق والأذى في سبيل الله وابتغاء وجهه صبرًا على طاعة الله وصبرًا عن معصيته وصبرًا على قضائه ؟

قال الله عَزَّ وَجلَّ: {وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ}، أي: يكون الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى معهم.

الآية الأخيرة فيها كذلك ذكر الصبر، قال: {كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ}، وهذه جاءت في قصة طالوت وجالوت، طالوت هو المؤمن، وجالوت هو الكافر.

وكان مع طالوت فئة قليلة مؤمنة، وأما الكثرة الكاثرة؛ فإنها كانت مع جالوت، فقال الله عَزَّ وَجلَّ: {كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ}، و(كم): هذه خبرية وتفيد التكثير.

قال: {كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً}، أي: أن هناك فئات كثيرة وقد كانت قليلة في العدد غلبت فئات كبيرة في العدد.

{بِإِذْنِ اللَّهِ}، لأنهم حققوا الإيمان وحققوا العمل الصالح، فهذا هو شرط النصر وشرط معية الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، فالمؤمنون لا يغلبون بعُدتهم ولا عتادهم ابتداءً، وإنما يغلبون بما معهم من الإيمان والعمل الصالح.

ولذا قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حديث: "يُوشِكُ الْأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ﴾، قال: ﴿بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ، وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ، وَلَيَنْزَعَنَّ اللَّهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمُ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ، وَلَيَقْذِفَنَّ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهْنَ"، فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا الْوَهْنُ؟ قَالَ: "حُبُّ الدُّنْيَا، وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ".

وذلك إنما يكون بالبعد عن الدين، وبالبعد عن الإيمان والعمل الصالح؛ ولذا قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -كما في حديث عبد الله بن عمر-: "إِذَا تَبَايَعْتُمْ بِالْعِينَةِ، وَأَخَذْتُمْ أَذْنَابَ الْبَقَرِ وَرَضِيتُمْ، بِالزَّرْعِ وَتَرَكْتُمُ الْجِهَادَ سَلَّطَ اللهُ عَلَيْكُمْ ذُلًّا لَا يَنْزِعُهُ حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ".

ولذا قال هاهنا: {كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ}، أي: مؤمنة.

{غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً}، أي: كافرة.

{بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ}، فهذه كذلك فيها معية الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى لمن اتصف بالصبر، والصبر والتقوى والإحسان قلنا: الناس في هذه الصفات ليسوا على درجة واحدة.

إذا تقرر ذلك أيها الإخوة فنقول: إن هناك فروقًا بين المعيتين اتضحت من هذه الآيات التي ذكرناها:

أول هذه الفروق: أن المعية العامة من مقتضاها العلم والإحاطة والاطلاع على جميع الخلق.

وكذلك أن المعية العامة من الصفات الذاتية، وأما المعية الخاصة فهي من الصفات الفعلية.

وكذلك أن المعية العامة إنما تكون في سياق التخويف والمحاسبة على الأعمال، قلنا: هذا يُفهم من السياق، فتكون في سياق التخويف والمحاسبة على الأعمال والحث على المراقبة كما في هذه الآيات أو في الآيتين المذكورتين.

وكذلك في قول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: {يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا} [النساء: 108]، هذه الآية دالة على المعية العامة، ما الدليل على أنها تدل على المعية العامة؟

سياق الآيات، لأن الله عَزَّ وَجلَّ قال: {يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ}، وهذا يدل على ضعف إيمانهم، ويذكره الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى ليُبين حالهم وليُبين أنه يراقبهم، ولذا قال: {وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ}، والله عَزَّ وَجلَّ لا تخفى عليه خافية.

فيقول: {إِذْ يُبَيِّتُونَ}، ما معنى {يُبَيِّتُونَ}؟ أي: يسرون ويضمرون ذلك ويخفونه عن الناس.

قال: {وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا}، فالمعية هاهنا معية عامة.

ولذا قلنا الفرق الثالث: أن المعية العامة تكون في سياق التخويف والمحاسبة على الأعمال والحث على المراقبة.

الفرق الرابع: أن المعية الخاصة من مقتضاها الحفظ والعناية والنُصرة والتوفيق والتسديد، وأن الله عَزَّ وَجلَّ يحمي أوليائه ويلطف بهم سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

والفرق الخامس: أن المعية الخاصة لها سبب، ولذا كانت من صفات الفعل لا صفات الذات.

وما سبب المعية الخاصة؟ اتصاف العبد بالخصال الحميدة، فإذا اتصف العبد بمثل صفة الصبر والإيمان والتقوى والمراقبة والعمل الصالح، فهذا ينال معية الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى الخاصة.

الذي أثبت المعية على ما يليق بالله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: هم أهل السنة والجماعة، فقالوا: قد ذكر الله عَزَّ وَجلَّ أنه مع خلقه، وأن هذه المعية قد تكون معية عامة أو معية خاصة بحسب السياق، فنحن نثبت ما أثبته الله عَزَّ وَجلَّ لنفسه، وما أثبته له رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على الوجه اللائق به سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

والأصل في المعية: أنها تقتضي المصاحبة، ولا يلزم منها الاختلاط، فنفى هذا النوع من المعية صنف، وقال بلزوم الاختلاط والحلول صنف آخر.

فهؤلاء الذين نفوا هذا النوع من المعية هم الأشعرية والمعتزلة، فنفوا أن يكون الله عَزَّ وَجلَّ مع خلقه، وقالوا: إنما ذُكر ذلك على سبيل المجاز، لأننا لو أثبتنا ظاهر اللفظ فإن هذا يقتضي حلول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى في خلقه.

وفريق آخر وهم أهل الحلول والاتحاد قالوا: بل المعية معية ذاتية، وما معنى المعية الذاتية؟ أي: أن الله عَزَّ وَجلَّ مع خلقه بذاته.

ولذلك قال بعضهم: ما في الجُبة إلا الله، قال ذلك الحلاج الذي قُتل على الزندقة، كان يقول: سبحاني سبحاني ما في الجُبة إلا الله.

وكان ابن عربي يقول:

العبــد ربٌ والــرب عبــدٌ	**يـا ليـت شـعري مـن المكلـف**
إن قلــت عبــدٌ فــذاك ربٌ	**أو قلــت ربٌ أَنَّــا يُعــرف**

وهذا يعني أنه قال بوحدة الوجود، وأن الله عَزَّ وَجلَّ قد حل في خلقه، ويستدلون بمثل هذه الآيات: {وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ}.

قلنا: سياق الآيات لا يدل على ذلك، سياق الآيات بيَّن أن الله عَزَّ وَجلَّ علا على خلقه واستوى على عرشه وهو معنا بصفاته تَبَارَكَ وَتَعَالَى، واللغة لا تدل على ذلك, فالمعية في أصلها تعني المصاحبة.

كما تقول: سرت والقمر معي، والقمر في السماء وأنت في الأرض، الزوجة تقول لزوجها: سافر وأنا معك، أي: أنا معك بدعائي وقلبي وغير ذلك، الأمير يقول لجنوده: أنا معكم، وقد يكون يراقبهم من أعلى الجبل, فلا تقتضي المعية الاختلاط والامتزاج.

وقد تقتضي ذلك، لكن هذا لابد فيه من النظر إلى السياق، فإذا قلت لك: اسقني لبنًا مع ماء، فهذا يلزم منه ماذا؟ يلزم منه الاختلاط، وأن اللبن مخلوط بالماء، لكن لو ذكرنا هذه الأمثلة التي ذكرناها من قبل هذه لا تقتضي المخالطة.

ثم نقول لهؤلاء: هب أن هذه الآيات التي فيها ذكر المعية العامة فيها ما يوهم الامتزاج والاختلاط وأن الله عَزَّ وَجلَّ قد اختلط بخلقه.

ماذا عن آيات المعية الخاصة وقد فرق الله عَزَّ وَجلَّ فيها بين أولياء الله المتقين وغيرهم، فأثبت المعيّة للأولين دون الآخرين؟ قال: {إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ} [النحل: 128]، فهل يكون الله عَزَّ وَجلَّ مختلطًا بهؤلاء دون غيرهم؟

وكذلك يقال: الله عَزَّ وَجلَّ يقول في سورة التوبة: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ} [التوبة: 119]، ومن الصادقون في هذه الآية؟

أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، هذه الآية نزلت في سياق الكلام عن كعب بن مالك ومن كان معه ممن تاب الله عَزَّ وَجلَّ عليهم، ونزلت في الكلام عن المهاجرين والأنصار.

ما معنى {اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ}؟ كيف نمتزج ونختلط بمن سبقنا من أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟

إذًا المراد بالآية كونوا معهم بأن تكونوا على صفاتهم؛ فإنهم صدقوا الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى في القول والفعل والعمل، فكونوا كذلك معهم في صدق الأقوال والأفعال والأعمال، وإلا فعلى قولكم، فإن المعية هاهنا تقتضي الاختلاط، وهذا لا يقوله إلا مجنون، ولا يقوله إلا جاهل بأسباب نزول القرآن وبمراد الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

ثم نقول لهؤلاء الذين يقولون: إن المعية تستلزم الاختلاط، ويثبتون حلول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى في خلقه.

نقول: إنكم بذلك قد وصفتم الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى بأشد النقائص.

لماذا وصفوا الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى بأشد النقائص؟ لأن هناك من الأمكنة ما لا يجوز أن يكون الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى فيها، بل يستحيي بعضنا أن يكون فيها، فلو أثبتنا كون الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى في هذه الأمكنة لنسبنا له النقص سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

فعلى قولهم يكون الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى -وتعالى الله عن قولهم وعن لازم هذا القول- وهو قول باطل أن يكون الله عَزَّ وَجلَّ في أفواه الخنازير، وفي الكُنُف، وهؤلاء يقولون: الله عَزَّ وَجلَّ حل في كل مكان بذاته؛ لأنه قال: {هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا}, ولا شك أن هذا من أعظم التنقص لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

ثم نقول لهم: الله عَزَّ وَجلَّ قد أثبت أنه فوق العرش، قال: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى}، وأنتم تقولون: إنه معنا في كل مكان؛ فهذا يعني أن الله عَزَّ وَجلَّ قد حلَّ في الحوادث فصار كالمخلوقين، وهذا يعني أن الله عَزَّ وَجلَّ يتجزأ -تعالى الله عن ذلك-.

أي: أن بعضه على العرش، وبعضه مع الخلق، وهذا كذلك قول باطل، وغير ذلك من اللوازم الباطلة التي تلزم من القول بالحلول والاتحاد.

فلا ننفي معية الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى لخلقه المعية الحقيقية، وكذلك لا نقول: إنه مع خلقه بذاته اختلط بهم، وإنما نقول: هو على العرش استوى، وهو معنا يراقبنا لا تخفى عليه خافية سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

ومن قرأ مثل قول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: {وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ} [الأنعام: 91]، {وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ} [الزمر: 67]، الأرض جميعًا بمن عليها من الإنس والجن والشجر والحجر والطير.

{وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ}، في يمينه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، فكيف لا يُقال بعد ذلك: إن الله عَزَّ وَجلَّ معنا لا تخفى عليه خافية, يراقبنا وهو فوق العرش سُبْحَانَهُ وَتعَالَى؟

{وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ}.

وتظهر لنا براعة الإمام أحمد رحمه الله في الرد على من زعم الاستدلال بالآية على الحلول في الخلق، حيث قال: "لو أن رجلاً كان في يديه قدح من قوارير صافٍ، وفيه شراب صافٍ، كان بصر ابن آدم قد أحاط بالقدح من غير أن يكون ابن آدم في القدح، فالله -وله المثل الأعلى- قد أحاط بجميع خلقه، من غير أن يكون في شيء من خلقه"

فضرب مثلاً واضحًا يبيِّن للإنسان أن ذلك ممكن للمخلوق الضعيف، أفلا يكون ذلك ممكنًا للخالق القوي؟! فالإنسان يمكنه أن يكون خارج كوب الماء ثم هو يعلم كل ما يدور في الماء، فإن كان هذا ممكنا للإنسان المخلوق فالخالق سبحانه وتعالى أقدر على ذلك.

فجمع بين الآيات الدالة على إحاطة علم الله سبحانه وتعالى بكل المخلوقات وبين الآيات الدالة على علوه سبحانه وتعالى وكونه فوق السماء.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم، وجزاكم الله خيرًا.

الدرس السابع والعشرون

إن الحمد لله, نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله تعالى من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله, صلى الله عليه, وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد:

فقد وصلنا إلى كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ عن كلام الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى وأن القرآن كلام الله غير مخلوق, فقال رَحِمَهُ اللهُ:

وَقَوْلُهُ: {وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا} [النساء: 87].

وَقَوْلُهُ: {وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً} [النساء: 122].

وَقَوْلُهُ: {وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَاعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ} [المائدة: 116].

وَقَوْلُهُ: {وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا} [الأنعام: 115].

وَقَوْلُهُ: {وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا} [النساء: 164].

وَقَوْلُهُ: {مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ} [البقرة: 253].

وَقَوْلُهُ: {وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ} [الأعراف: 143].

وَقَوْلُهُ: {وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا} [مريم: 52].

وَقَوْلُهُ: {وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} [الشعراء: 10].

وَقَوْلُهُ: {وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ} [الأعراف: 22].

وَقَوْلُهُ: {وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ} [القصص: 65].

وَقَوْلُهُ: {وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ} [التوبة: 6].

وَقوْلُهُ: {وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} [البقرة: 75].

وَقَوْلُهُ: {يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ} [الفتح: 15].

وَقَوْلُهُ: {وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ} [الكهف: 27].

وَقوْلُهُ: {إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ} [النمل: 76].

وَقوْلُهُ: {وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ} [الأنعام: 92].

وَقوْلُهُ: {لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ} [الحشر: 21].

وَقوْلُهُ: {وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ * وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ} [النحل: 101-103].

هذه الآيات التي ذكرها المصنف رَحِمَهُ اللهُ وسيذكر بعد ذلك الأحاديث الثابتة عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ, كلها تدور حول إثبات الكلام لله تَبَارَكَ وَتَعَالَى كصفة له.

وهذه المسألة -أعني كلام الله تعالى- من المسائل الكبرى التي خالف فيها أهل البدع أهل السنة والجماعة, حتى قيل: إن علم الكلام ما سُمي بذلك إلا لكثرة خوض أهل البدع في هذه المسألة -مسألة كلام الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى والقرآن- ولذلك كان القول بخلق القرآن من أعظم الفتن التي ابتُلي بها المسلمون على يد المعتزلة في عهد الدولة العباسية, في خلافة ثلاثة من خلفاء دولة بني العباس: المأمون, والمعتصم, والواثق, إلى أن نصر الله عَزَّ وَجلَّ قول أهل السنة والجماعة على يد الإمام المبجل أحمد بن حنبل رَحِمَهُ اللهُ.

فهذه الآيات التي ذكرها المصنف رَحِمَهُ اللهُ في إثبات كلام الله, وأن الله تعالى يتكلم كلامًا حقيقيًا, وأن كلامه بصوت وحرف, كلام قديم النوع حادث الآحاد, أي: أنه صفة ذاتية لله تَبَارَكَ وَتَعَالَى, وهو كذلك صفة فعلية, يتكلم كيف شاء وقتما شاء سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

وإذا كان الكلام صفة له سُبْحَانَهُ وَتعَالَى دل ذلك على أنه غير مخلوق, والقرآن من كلام الله؛ فالقرآن غير مخلوق, كما هي عقيدة أهل السنة والجماعة.

المصنف رَحِمَهُ اللهُ ذكر آيات كثيرة, فذكر أحد عشر آية في إثبات صفة الكلام لله تَبَارَكَ وَتَعَالَى, وأما باقي الآيات ففي إثبات أن القرآن كلام الله غير مخلوق.

إذًا: الآيات الأُوَل هي في إثبات أن الله عَزَّ وَجلَّ يتكلم, وأنه يتكلم بصوت وحرف, وأن كلامه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى يشترك مع كلام المخلوقين في أصل المعنى, لكن الفرق بين كلام الله وكلام المخلوقين كالفرق بين ذاته وذات المخلوقين.

ولذا من جميل تصنيف شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ واستدلاله هذا التنويع الذي نوعه في هذه الآيات.

فلو نظرت في هذه الآيات التي ذكرها لوجدت أنه جاء بوصف لكلام الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى بأنه حديث, وأنه قيل أي: قول, كما قال لعيسى ابن مريم, وأن كلامه كلمات, وانه كلم موسى تكليمًا, وأن كلامه قد يقع على مقتضى مشيئته.

ولذا قلنا هو حادث الآحاد, لأنه قال: {وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ}, فلم يكلم الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى موسى إلا لما جاء لميقات ربه.

وجاء في وصف هذا الكلام أن الله نادى موسى, والنداء يخالف القول, يخالف المناجاة في صفته.

وجاء كذلك بأن الله عَزَّ وَجلَّ قرَّبه نجيًا, وبأن الله عَزَّ وَجلَّ كذلك سمَّى كلامه كتابًا وقرآنًا, وكل ذلك يدل على أن الله يتكلم كلامًا حقيقًا بصوت وحرف, وهذا هو الذي يُعرف من الكلام, الكلام لا يكون إلا بصوت وحرف.

فهذه المسألة -كما قلنا- من المسائل الكبرى التي خالف فيها أهل البدع أهل السنة والجماعة, وسيأتي ذكر مخالفتهم.

قال الشيخ الهراس رَحِمَهُ اللهُ: تضمَّنت هَذِهِ الْآيَاتُ إِثْبَاتَ صِفَةِ الْكَلَامِ لِلَّهِ عَزَّ وَجلَّ.

إذًا: الكلام صفة لله عَزَّ وَجلَّ, وهو من صفات الكمال.

أهل السنة يدللون على إثبات الكلام كصفة لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى من جهة العقل كذلك بهذا الأمر, ان الكلام صفة كمال, وأن ضده صفة نقص، فنفيه يستلزم ضده.

ولذا الإنسان الكامل هو الذي يتكلم, فإذا مُنع عن الكلام بمرض أو بخرس أو غير ذلك كان هذا نقصًا فيه, فالله عَزَّ وَجلَّ من باب أولى أن يتصف بهذه الصفة.

قال: وَقَدْ تَنَازَعَ النَّاسُ حَوْلَ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ نِزَاعًا كَبِيرًا:

فَمِنْهُمْ مَنْ جَعَلَ كَلاَمَهُ سُبْحَانَهُ مَخْلُوقًا مُنْفَصِلاً عَنْهُ.

وهؤلاء هم المعتزلة, فإنهم أثبتوا الكلام لله تَبَارَكَ وَتَعَالَى وأثبتوا أن الكلام بصوت وحرف, لكنهم جعلوا الإضافة هاهنا من إضافة المخلوق إلى الخالق, لم يجعلوا الكلام صفة لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

فأراد الأشعرية أن يردوا عليهم, فماذا صنعوا؟ جاءوا ببدعة هي أشد وأشنع من بدعة المعتزلة, لأنهم قالوا كلامًا لا يُعقل, قالوا بالكلام النفسي, أي: أن الكلام لا يخرج عن كونه في نفس الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى, فكون الله تكلم به بصوت وحرف أو أن جبريل سمعه من الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى فهذا لم يقع, وإنما ألقاه الله عَزَّ وَجلَّ في روع جبريل، ثم ما بين دفتي المصحف هو عبارة عن كلام الله، وهو مخلوق.

فهذا الكلام الذي في مصاحفنا ليس بكلام الله, وقد صرحوا بذلك, منهم من صرَّح بأن هذا الذي موجود بين دفتي المصحف كلام مخلوق, فوافقوا المعتزلة.

الكلام الذي جاء به جبريل إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كلام مخلوق خلقه الله عَزَّ وَجلَّ في نفس جبريل, أما الله عَزَّ وَجلَّ فقد تكلم في الأزل كلاما نفسيا, ولذا يجعلون الكلام صفة قديمة أزلية لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

وهو معنى واحد لا يختلف, فعندهم الأمر هو النهي, وعندهم الأمر بالصلاة هو النهي عن الزنا, والأمر بالزكاة هو الأمر بالحج, كله كلام واحد, قام قديمًا في ذات الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

ولذا كلامهم كلام عجيب, هم أنفسهم مضطربون في تفسير الكلام النفسي.

لماذا قالوا ذلك؟ قالوا: لأن الكلام لا يكون إلا من صوت وحرف, والله عَزَّ وَجلَّ منزه عن الصوت والحرف, لأن الصوت والحرف من صفات المخلوق, فلو أثبتنا كلامًا لله تَبَارَكَ وَتعَالَى ذا صوت وحرف فقد جعلنا الله عَزَّ وَجلَّ محلاً للحوادث.

وما لا يخلو من الحوادث فو حادث, هذا الأصل الباطل الذي دمر عقيدتهم, والذي ما وضعوه إلا من أجل إثبات أصل الأصول عندهم، حدوث العالم، وقِدم الخالق.

فأخص صفات الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى عندهم صفة القِدم, فإنهم لما أرادوا أن يثبتوا القدم لله دللوا على ذلك بحدوث العالم, قالوا: هذا العالم مليء بالحوادث والمتغيرات والأعراض والجواهر, وهذه كلها تتقلب وتتغير, وما لا يخلو من الحوادث فهو حادث.

إذًا: المخلوق من صفته أنه محل للحوادث, فإذا كان المخلوق بصوت وحرف؟ فلو أثبتنا لله كلامًا بصوت وحرف جعلناه محلاً للحوادث.

الأشعرية يتفقون معهم في هذا الأصل, بل كل أهل البدع يتفقون في هذا الأصل, وهو أن ما لا يخلو من الحوادث فهو حادث، هكذا بإطلاق.

ولذا الأشعرية أثبتوا كلامًا لله لكنه لا يكون بصوت وحرف, فجعلوا القرآن الذي بين أيدينا والحروف التي نراها في المصحف التي هي كلام الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى جعلوها مخلوقًا, وهي عبارة عن كلام الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

قال: فَمِنْهُمْ مَنْ جَعَلَ كَلاَمَهُ سُبْحَانَهُ مَخْلُوقًا مُنْفَصِلاً عَنْهُ، وَقَالَ: إِنَّ مَعْنَى (متكلِّم): خالقٌ لِلْكَلاَمِ: وهذا لا يُعرف في لغة العرب, قال: وَهُمُ الْمُعْتَزِلَةُ.

قال: وَمِنْهُمْ مَنْ جَعَلَهُ لَازِمًا لِذَاتِهِ أَزَلًا وَأَبَدًا، لَا يتعلَّق بِمَشِيئَتِهِ وَقُدْرَتِهِ، وَنَفَى عَنْهُ الْحَرْفَ وَالصَّوْتَ، وَقَالَ: إِنَّهُ مَعْنًى وَاحِدٌ فِي الْأَزَلِ, وَهُمُ الكُلاَّبِيَّة وَالْأَشْعَرِيَّةُ.

الكُلابية: أتباع عبد الله بن سعيد بن كُلاَّب, وهو شيخ الأشعري في الاعتقاد, وذلك أن أبا الحسن الأشعري رَحِمَهُ اللهُ لما ترك المعتزلة وما كان عليه زوج أمه أبو علي الجبائي كان محمد بن سعيد الكُلابي شديد الرد على المعتزلة وكان لقوته في المناظرة يجتذب من يناظره ويجره إليه كما يجتذب الكلاب الشيء, فتأثر به الأشعري وأخذ عقيدته, فانتشرت عقيدة الكُلابية على يد أبي الحسن الأشعري.

فالكُلابية والأشعرية يقولون: كلام الله لازم لذاته.

إذًا: هم يقولون بأن الكلام صفة ذات قديمة, تكلم الله عَزَّ وَجلَّ قديمًا بغير حرف ولا صوت, تكلم قبل أن يخلق المخلوقات.

وتوضيح ذلك بمثال ييسر الأمر: مذهب الكلابية والأشعرية أن المرأة المجادلة قبل أن تأتي إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتشكو زوجها, ويُنزل الله

تَبارَكَ وَتَعَالَى حينئذٍ: {قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا} [المجادلة: 1], تكلم الله عَزَّ وَجلَّ به قديمًا ولم يكن ثَمَّ امرأة ولا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ!!

وهذا مما أشكل به بعضهم -وهو الآمدي- على الأشعرية, إذ كيف نقول هذا الكلام؟ وكيف نقول إن الكلام صفة لازمة لله تَبارَكَ وَتَعَالَى أزلًا وأبدًا, والله عَزَّ وَجلَّ يقول: {قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا}, {وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ}, فكيف نقول إن الكلام قد كان قبل وجود موسى عَليهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمِ؟

لَا يتعلَّق بِمَشِيئَتِهِ وَقُدْرَتِهِ.

إذًا: هم ينفون أن يتكلم الله تَبارَكَ وَتَعَالَى بقدرة أو مشيئة, لماذا؟ لأنهم لو أثبتوا ذلك لعاد على الأصل الذي عندهم بالبطلان, وهو مسألة التجدد والحدوث.

لأن الله عَزَّ وَجلَّ إذا تكلم وخاطب محمداً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ, أو خاطب عيسى: {وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَاعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ} [المائدة: 116], أو خاطب قبله موسى عَليهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمِ, معنى ذلك: أنه خاطبهم بعد أن لم يكن مخاطبًا لهم, فهذا واقع بمشيئته وقدرته, وهذا يعني: الحدوث والتجدد.

وقولهم هذا مخالف لصريح المعقول والمنقول فإن الله تعالى يقول: {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} (سورة يس ٨٢) وأن تخلص الفعل المضارع للاستقبال: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً} (سورة البقرة ٣٠) أي واذكر إذ قال ربك للملائكة والمؤقت بظرف معين لا يكون قديما أزليا.

وقال تعالى: {إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} (سورة آل عمران ٥٩) وقال تعالى: {فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى} (سورة طه ١١) ومثل هذا في القرآن كثير.

إذًا: جعلوا الله محلاً للحوادث, فهؤلاء شبهوا ثم عطلوا, وقاسوا الغائب على الشاهد, مع أن هذا الأصل عندهم منفي غير معمول به مذموم –مسألة قياس الغائب على الشاهد–

ومع ذلك لو نظرت في عقيدتهم من أولها إلى آخرها لوجدتهم يعملون هذا الأصل في كل صفة لله تَبَارَكَ وَتَعَالَى نفوها, يقولون: لو أثبتنا لشبهنا الله بخلقه.

إذًا: تُنفى هذه الصفة.

قال: وَنَفَى عَنْهُ الْحَرْفَ وَالصَّوْتَ.

لماذا نفوا عن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى الحرف والصوت؟ قلنا: لأن هذا يستلزم مشابهة المخلوقين, ولأن هذا يستلزم النقص على الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

وأنا أنقل لكم كلامًا عجيبًا مما تفوه به هؤلاء في مسألة الحرف والصوت.

الكلام عند الأشعرية لا يخرج عن أوصاف خمسة, ذكروها في تعريفهم للكلام:

الأزلية, عرفنا معناها.

والأبدية.

قيامه بالنفس, ولذا يقولون بالكلام النفسي.

الوَحْدة, أي: أن الأمر هو النهي, والإنشاء هو الخبر, ولذا القرآن عندهم كالتوراة كالإنجيل, لكن إذا عُبّر عن كلام الله بالعربية كان قرآنًا, وإذا عُبّر

بالسريانية كان الإنجيل, وإذا عُبّر بالعبرانية كانت التوراة, والكلام كله واحد, وهذا معنى الوَحْدة عندهم.

قال ابن تيمية في الصفدية: وهذا القول معلوم الفساد بالضرورة فإنه يلزم أن تكون الحقائق المتنوعة شيئا واحدا قالوا ونحن نعلم بالاضطرار أن التوراة إذا عربناها لم تكن معانيها معاني القرآن ولا معنى آية الكرسي آية الدين ولا معنى سورة الإخلاص معنى تبت يدا أبي لهب قالوا ولا معنى الخبر هو معنى الأمر بأي شيء فسر المعنى سواء فسر بالعلم أو الإرادة أو بأمر آخر يخالف العلم والإرادة فنحن نعلم أن هذا ليس هو ذا

والصفة الخامسة: أنه ليس بحرف ولا صوت, لكن لماذا قالوا ليس بحرف ولا صوت؟

استمع لهذا الكلام الذي جاء على لسان السنوسي في شرحه على أم البراهين, في عدم اتصاف كلام الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى بالحرف والصوت, يقول: إذ فيه رذيلتان -لو أننا أثبتنا الحرف والصوت لله تَبَارَكَ وَتَعَالَى فهذا فيه رذيلتان- إحداهما: رذيلة العدم الذي يجب للحروف والأصوات سابقًا ولاحقًا, ويستلزم حدوث من اتصف به, وأيُّ نقيصة أعظم من نقيصة الحدوث الملازمة ربقة الافتقار على الدوام.

ما معنى هذا الكلام؟ قالوا –استمع لهذا التفسير العجيب-: لأن الله عَزَّ وَجلَّ إن تكلم بالكاف والنون فقال: (كن) بصوت وحرف, كانت النون معدومة قبل وجود الكاف, لأنه لما قال: (كن) أين كانت النون قبل وجود الكاف؟ كانت معدومة, وإن تكلم بالنون عُدمت الكاف.

ولذا قالوا: إن الله منزه عن الحرف والصوت, لأن ذلك يستلزم -كما قلنا- مشابهة المخلوقين, ويستلزم العدم أو وصف كلام الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى بالعدم.

قالوا كذلك: لأن الأحرف لا تخرج إلا من مخارج, فالميم مخرجها من الشفتين وانطباق عضو على عضو, والحاء مخرجها من الحلق, وكذا سائر الحروف.

فإذا كانت الحروف لا تخرج إلا من مخارج, والرب عَزَّ وَجلَّ منزه عن ذلك, لأنه ليس ذا ألفاظ ومخارج يتقدم بعضها على بعض.

قوله تعالى: (بسم الله الرحمن الرحيم) ليس عندهم أن الباء تسبق السين, وأن الميم تلي السين, هذا ليس عندهم, لأنهم لو قالوا بذلك لجعلوا الله عَزَّ وَجلَّ يتكلم بحرف قبل حرف.

ولذا قالوا: هذا الذي في المصحف كلام المخلوق وليس كلام الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

قالوا: لأنه ليس ذا ألفاظ ومخارج يتقدم بعضها على بعض, فإنه في حال ما يتكلم بالكاف النون معدومة, وفي حال ما يوجد النون ويتكلم بها الكاف معدومة, وما هذه صفته لا يكون إلا مخلوقة, ولأن هذه الكاف والنون نشاهدهما في مصاحفنا أجسامًا مخلوقة, فتارة تكون بالحبر, وتارة تكون باللازورد, وتارة تُنقش بالجص والآجُر على المساجد وغيرها!!

إلى غير ذلك من الأمور العقلية الفاسدة التي وصفوا كلام الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى, فهذا قول الأشعرية.

قال: وَمِنْهُمْ مَن زَعَمَ أَنَّهُ حروفٌ وأصواتٌ قديمةٌ لَازِمَةٌ للذَّات.

أي: أنها كذلك صفة ذات, وهي حروف وأصوات قديمة.

إذًا: الأشعرية تفردوا بماذا؟ بعدم الصوت والحرف, ولذا خالفوا العقل وخالفوا كلام العرب, لأن الكلام في لغة العرب لا يكون إلا بصوت وحرف, ولذا هذه البدعة التي جاءوا بها لم يأت بها أحد قبلهم.

فهؤلاء وقد وصفهم الشيخ رَحِمَهُ اللهُ بأنهم بعض الغلاة, قال: وَمِنْهُمْ مَن زَعَمَ أَنَّهُ حروفٌ وأصواتٌ قديمةٌ لَازِمَةٌ للذَّات، وَقَالَ: إِنَّهَا مُقْتَرِنَةٌ فِي الْأَزَلِ، فَهُوَ سُبْحَانَهُ لَا يَتَكَلَّمُ بِهَا شَيْئًا بَعْدَ شَيْءٍ, وَهُمْ بَعْضُ الْغُلَاةِ.

قال: وَمِنْهُمْ مَنْ جَعَلَهُ حَادِثًا قَائِمًا بِذَاتِهِ تَعَالَى، ومتعلِّقًا بِمَشِيئَتِهِ وَقُدْرَتِهِ، وَلَكِنْ زَعَمَ أَنَّ لَهُ ابْتِدَاءً فِي ذَاتِهِ، وَأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُنْ متكلِّمًا فِي الْأَزَلِ, وَهُمُ الكرَّامية, وَيَطُولُ بِنَا الْقَوْلُ لَوِ اشْتَغَلْنَا بمناقشة هذه الأقوال وَإِفْسَادِهَا، عَلَى أَنَّ فَسَادَهَا بيِّنٌ لِكُلِّ ذِي فهمٍ سليمٍ، ونظرٍ مستقيمٍ.

قال: وخلاصةُ مَذْهَبِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يَزَلْ متكلِّمًا إِذَا شَاءَ، وَأَنَّ الْكَلَامَ صِفَةٌ لَهُ قَائِمَةٌ بِذَاتِهِ، يتكلَّم بِهَا بِمَشِيئَتِهِ وَقُدْرَتِهِ.

فدلت الجملة الأولى على أن الله لم يزل متكلمًا, على أن الكلام صفة ذات.

والجملة التي بعدها: وأنه يتكلم بها بمشيئته وقدرته على أنه صفة فعل, فَهُوَ لَمْ يَزَلْ وَلَا يَزَالُ متكلِّمًا إِذَا شَاءَ، وَمَا تكلَّم اللَّهُ بِهِ فَهُوَ قائمٌ بِهِ لَيْسَ مَخْلُوقًا مُنْفَصِلاً عَنْهُ.

لأنه صفته سُبْحَانَهُ وَتعَالَى, وأضافه لنفسه, قال: {وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ}, وهذا من إضافة الصفة إلى

الموصوف, وليس من إضافة الأعيان إلى خالقها, لأن الكلام لا يقوم بذاته, وإنما يقوم بمن تكلم به.

قال: فَهُوَ قائمٌ بِهِ لَيْسَ مَخْلُوقًا مُنْفَصِلاً عَنْهُ؛ كَمَا تَقُولُ الْمُعْتَزِلَةُ، وَلَا لَازِمًا لِذَاتِهِ لُزُومَ الْحَيَاةِ لَهَا؛ كَمَا تَقُولُ الْأَشَاعِرَةُ؛ بَلْ هُوَ تابعٌ لِمَشِيئَتِهِ وَقُدْرَتِهِ, وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ نَادَى مُوسَى بصوتٍ.

قال تعالى: {وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ}, وموسى سمع ذلك من الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى؛ ولذا أجاب الله عَزَّ وَجلَّ وذهب إلى فرعون.

قال: وَنَادَى آدَمَ وَحَوَّاءَ بصوتٍ.

قال تعالى: {وَقُلْنَا يَاآدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ} [البقرة: 35].

قال: وَيُنَادِي عِبَادَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بصوتٍ.

كما جاء في سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "أن الله عَزَّ وَجلَّ ينادي بصوت يسمعه من قرُب كما يسمعه من بعُد".

قال: ويتكلَّم بِالْوَحْيِ بصوتٍ.

قال: وَلَكِنَّ الْحُرُوفَ وَالْأَصْوَاتَ الَّتِي تكلَّم اللَّهُ بِهَا صِفَةٌ لَهُ غَيْرُ مَخْلُوقَةٍ، وَلَا تُشْبِهُ أَصْوَاتَ الْمَخْلُوقِينَ وَحُرُوفَهُمْ.

ولذا قلنا أسهل رد على هؤلاء أن يقال لهم: اِيتوا بأي صفة تُثبتونها لله تَبَارَكَ وَتَعَالَى؛ كصفة الوجوب, فالجميع متفقون على أن الله عَزَّ وَجلَّ من صفاته أنه موجود.

هل تُثبتون وجودًا لله؟ يقولون: نعم, أليس المخلوق بموجود؟ يقولون: بلى, ما الفرق بين وجود الخالق ووجود المخلوق؟ يقولون: كلٌّ بحسبه.

فالوجود إذا أُضيف إلى الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى كان وجودًا لائقًا به, لائقًا بالذات, والوجود إذا أُضيف إلى المخلوق كان لائقًا به.

نقول كذلك: وكل صفة أُضيفت للخالق تليق به وهي على جهة الكمال, {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}, وكل صفة أُضيفت إلى المخلوق فهي كذلك مما يليق به, ومن ذلك الكلام، فالصفة على قدر الموصوف، والقول في الصفات كالقول في الذات.

قال: كَمَا أَنَّ عِلْمَ اللَّهِ الْقَائِمَ بِذَاتِهِ لَيْسَ مِثْلَ عِلْمِ عِبَادِهِ؛ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُمَاثِلُ الْمَخْلُوقِينَ فِي شَيْءٍ مِنْ صِفَاتِهِ.

قال: وَالْآيَتَانِ الْأُولَيَانِ هُنَا -وَهُمَا مِنْ سُورَةِ النِّسَاءِ-.

وهي قول الله تعالى: {وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا}, {وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً}, أي: لا أحد أصدق من الله عَزَّ وَجلَّ في قوله وفي حديثه.

قال: تَنْفِيَانِ أَنْ يَكُونَ أحدٌ أصدقَ حَدِيثًا وَقَوْلًا مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجلَّ، بَلْ هُوَ سُبْحَانَهُ أَصْدَقُ مِنْ كُلِّ أحدٍ فِي كُلِّ مَا يُخْبِرُ بِهِ، وَذَلِكَ لِأَنَّ عِلْمَهُ بِالْحَقَائِقِ المخبَرِ عَنْهَا أَشْمَلُ وَأَضْبَطُ، فَهُوَ يَعْلَمُهَا عَلَى مَا هِيَ بِهِ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ، وَعِلْمُ غَيْرِهِ لَيْسَ كَذَلِكَ.

قال: وَأَمَّا قَوْلُهُ: {وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى....} إلخ؛ فَهُوَ حكايةٌ لِمَا سَيَكُونُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ سُؤَالِ اللَّهِ لِرَسُولِهِ وَكَلِمَتِهِ عِيسَى عمَّا نَسَبَهُ إِلَيْهِ الَّذين ألَّهوه وَأُمَّهُ مِنَ النَّصَارَى مِنْ أَنَّهُ هُوَ الَّذِي أَمَرَهُمْ بِأَنْ يتَّخِذوه وأمَّه إلهينِ مِنْ دُونِ اللَّهِ.

وهل أجاب عيسى؟ نعم. ماذا قال؟ قال: {قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ}.

إذًا: لماذا أجاب عيسى؟ لأنه سمع كلام الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى, فدل ذلك على أن الله يتكلم بصوت وحرف.

قال: وَهَذَا السُّؤَالُ لِإِظْهَارِ بَرَاءَةِ عِيسَى عليه السلام، وَتَسْجِيلِ الْكَذِبِ وَالْبُهْتَانِ عَلَى هَؤُلَاءِ الضالِّين الْأَغْبِيَاءِ.

قال: وَأَمَّا قَوْلُهُ: {وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً}؛ فَالْمُرَادُ صِدْقًا فِي أَخْبَارِهِ، وَعَدْلًا فِي أَحْكَامِهِ؛ لِأَنَّ كَلامَهُ تَعَالَى إِمَّا أَخْبَارٌ، وَهِيَ كُلُّهَا فِي غَايَةِ الصِّدْقِ، وَإِمَّا أَمْرٌ وَنَهْيٌ، وَكُلُّهَا فِي غَايَةِ الْعَدْلِ الَّذِي لَا جَوْرَ فِيهِ؛ لِابْتِنَائِهَا عَلَى الْحِكْمَةِ وَالرَّحْمَةِ.

قال: وَالْمُرَادُ بِالْكَلِمَةِ هُنَا الْكَلِمَاتُ؛ لِأَنَّهَا أُضيفت إِلَى مَعْرِفَةٍ.

قال: {كَلِمَةُ رَبِّكَ}, (رَبِّكَ): مفرد مضاف, فهذه معرفة, فهذه تعم, ففيها معنى الجمع, فيدخل فيها الكلمة الواحدة, ويدخل فيها الكلمات, ويدخل فيها الجملة.

فيدخل فيها الكلمة الواحدة, ويدخل فيها الجملة, ويدخل فيها الطائفة من الكلام, ومن ذلك القرآن, فهو كلمة الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى, وهذا هو المعروف في لغة العرب؛ أن الكلمة قد تُطلق على الجملة وقد تُطلق على الطائفة من الكلام.

ما كلمة التوحيد؟ (لا إله إلا الله), هذه كلمة, وهي جملة وليس كلمة واحدة.

قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **"أَصْدَقُ كَلِمَةٍ قَالَهَا شَاعِرٌ كَلِمَةُ لَبِيدٍ: أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلاَ اللَّهَ بَاطِلُ"**.

قال: "أَصْدَقُ كَلِمَةٍ", ولبيد ما قال كلمة مفردة واحدة, فكل كلمات الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى مبناها على الصدق والعدل, على الصدق في الأخبار والعدل في الأحكام.

قال: فَتُفِيدُ مَعْنَى الْجَمْعِ؛ كَمَا فِي قَوْلِنَا: رَحْمَةُ اللَّهِ وَنِعْمَةُ اللَّهِ.

قال: وَأَمَّا قَوْلُهُ: {وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا}.

(كَلَّمَ): فعل ماض مبني على الفتح.

والاسم الأحسن (اللهُ) : فاعل مرفوع, وعلامة رفعه الضمة الظاهرة.

و(مُوسَى): مفعول به منصوب, وعلامة نصبه الفتحة المقدرة على آخره لأنه اسم منقوص.

(تَكْلِيمًا): مفعول مطلق, أو مصدر منصوب، مؤكد لعامله، ينفي المجاز ويؤكد وقوع الكلام من الله لا من غيره.

فمن الذي كلَّم؟ موسى أم الله؟ الله عَزَّ وَجلَّ هو الذي كلم.

ولذا لما جاء عمرو بن عبيد إلى أبي عمرو بن العلاء وأراد منه أن يقرأ هذه الآية بنصب الاسم الحسن ورفع موسى, يعني: (وَكَلَّمَ اللَّهَ مُوسَى تَكْلِيمًا)؛ فالذي كلم اللهَ هو موسى.

قال: هب أنني فعلت ذلك –وهذه ليست قراءة- فماذا تصنع بقول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: {وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ}؟ هذه الآية لا تحتمل غير هذا الضبط, فَبُهِتَ الَّذِي ابتدع.

قال: وَأَمَّا قَوْلُهُ: {وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا} وَمَا بَعْدَهَا مِنَ الْآيَاتِ الَّتِي تَدُلُّ عَلَى أَنَّ اللَّهَ قَدْ نَادَى مُوسَى وَكَلَّمَهُ تَكْلِيمًا.

لماذا جيء بقوله: {تَكْلِيمًا}؟ لأن هذا ينفي المجاز, المفعول المطلق هاهنا ينفي المجاز, لأن لو قلنا: {وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى} ربما أراد بذلك أنه أوحى إليه وحيًا, أي: كتابًا دون أن يكلمه, وهذا يصدُق عليه أن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى كلمه, فلما قال: {وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا}؛ دل ذلك على أنه كلمه حقيقة, وأن موسى سمع ذلك من ربه.

ولذلك مما يوصف به موسى عَليهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمَ وتميز به أنه كليم الله تعالى, فلو كان وحي الله عَزَّ وَجلَّ إليه كالوحي إلى غيره من الأنبياء لما كانت هذه مزية لموسى عَليهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمَ.

قال: وَنَاجَاهُ حَقِيقَةً مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ، وَبِلاَ وَاسِطَةِ ملَكٍ؛ فَهِيَ تردُّ عَلَى الْأَشَاعِرَةِ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ الْكَلاَمَ مَعْنًى قَائِمًا بِالنَّفْسِ؛ بِلاَ حَرْفٍ، وَلَا صَوْتٍ! فَيُقَالُ لَهُمْ: كَيْفَ سَمِعَ مُوسَى هَذَا الكلامَ النفسيَّ؟

فَإِنْ قَالُوا: أَلْقَى اللَّهُ فِي قَلْبِهِ عِلْمًا ضَرُورِيًّا بِالْمَعَانِي الَّتِي يُرِيدُ أَنْ يكلِّمَه بِهَا؛ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ خُصُوصِيَّةٌ لِمُوسَى فِي ذَلِكَ.

وَإِنْ قَالُوا: إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ كَلاَمًا فِي الشَّجَرَةِ أَوْ فِي الْهَوَاءِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ؛ لَزِمَ أَنْ تَكُونَ الشَّجَرَةُ هِيَ الَّتِي قَالَتْ لِمُوسَى: {إِنِّي أَنَا رَبُّكَ}.

فالتكليم الذي حصل لموسى عَليهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمَ أخص من مطلق الوحي؛ لأن الوحي في اللغة؛ الإعلام بخفاء وسرعة, لكن في الشرع إعلام الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى للأنبياء بالرسالات في خفاء وسرعة, هذا هو الوحي في الشرع.

فلما خص موسى عَليهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمَ بأنه كلمه دل ذلك على أن تكليمه الذي حصل لموسى هذا أخص من مطلق الوحي.

قال: وَكَذَلِكَ تردُّ عَلَيْهِمْ هَذِهِ الْآيَاتُ فِي جَعْلِهِمُ الْكَلَامَ مَعْنًى وَاحِدًا فِي الْأَزَلِ، لَا يَحْدُثُ مِنْهُ فِي ذَاتِهِ شيءٌ، فَإِنَّ اللَّهَ يَقُولُ: {وَلَمَّا جاء مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ} ؛ فَهِيَ تُفِيدُ حُدُوثَ الْكَلَامِ عِنْدَ مَجِيءِ مُوسَى لِلْمِيقَاتِ.

ما معنى حدوث الكلام؟ أي: وقوع الكلام بعد أن لم يقع, والقرآن قال: {وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ} [الشعراء: 5], ما معنى مُحدَث؟ أي: وقع ونزل بعد أن لم يكن واقعًا ونازلًا.

وهذا مما يستدل به على القول بأن القرآن قديم النوع حادث الآحاد, ومعنى حادث أي: متجدد, أي: أنه ينزل شيئًا فشيئًا, وهكذا نزل القرآن على نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال: وَيَقُولُ: {وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الأَيْمَنِ}؛ فَهَذَا يَدُلُّ حُدُوثِ النِّدَاءِ عِنْدَ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ, وَالنِّدَاءُ لَا يَكُونُ إِلَّا صَوْتًا مَسْمُوعًا.

قلنا: ولذلك نوَّع شيخ الإسلام ابن تيمية في الأدلة التي جاء بها.

قال: وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي شَأْنِ آدَمَ وَحَوَّاءَ: {وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا ...} الْآيَةَ؛ فَإِنَّ هَذَا النِّدَاءَ لَمْ يَكُنْ إِلَّا بَعْدَ الْوُقُوعِ فِي الْخَطِيئَةِ، فَهُوَ حَادِثٌ قَطْعًا.

وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: {وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ ...} إلخ؛ فَإِنَّ هَذَا النِّدَاءَ وَالْقَوْلَ سَيَكُونُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

وَفِي الْحَدِيثِ: ((مَا مِنْ عبدٍ إِلَّا سيكلِّمُهُ اللَّهُ يومَ الْقِيَامَةِ لَيْسَ بينَهُ وبينَه تَرجمان)).

سبحان الله، لا شك أن هناك حجابا شديدا بين قلوب هؤلاء وبين ما جاء في كتاب الله وسنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ, فالآيات والأحاديث متواترة في

إثبات أن الله يتكلم بصوت وحرف, وأنه يتكلم بمشيئة, فكيف يُعرض هؤلاء عن كل هذه الأدلة؟! نسأل الله السلامة والعافية.

قال: وَقَوْلُهُ: {وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ...} إلخ؛ هَذِهِ الْآيَاتُ الْكَرِيمَةُ تُفِيدُ أَنَّ الْقُرْآنَ الْمَتْلُوَّ الْمَسْمُوعَ الْمَكْتُوبَ بَيْنَ دفَّتي الْمُصْحَفِ هُوَ كَلامُ اللَّهِ عَلَى الْحَقِيقَةِ، وَلَيْسَ فَقَطْ عِبَارَةً أَوْ حِكَايَةً عَنْ كَلاَمِ اللَّهِ؛ كَمَا تَقُولُ الأشعريَّة.

ولذا قلنا: صرح بعض محققيهم أن ما في المصحف مخلوق, لأنهم قالوا: هو عبارة عن كلام الله.

قال: وَإِضَافَتُهُ إِلَى اللَّهِ عز وجل تدلُّ عَلَى أَنَّهُ صفةٌ لَهُ قَائِمَةٌ بِهِ، وَلَيْسَتْ كَإِضَافَةِ الْبَيْتِ أَوِ النَّاقَةِ؛ فَإِنَّهَا إِضَافَةُ مَعْنًى إِلَى الذَّاتِ، تدلُّ عَلَى ثُبُوتِ الْمَعْنَى لِتِلْكَ الذَّاتِ؛ بِخِلَافِ إِضَافَةِ الْبَيْتِ أَوِ النَّاقَةِ؛ فإنَّها إِضَافَةُ أَعْيَانٍ، وَهَذَا يردُّ عَلَى الْمُعْتَزِلَةِ فِي قَوْلِهِمْ: إِنَّهُ مَخْلُوقٌ منفصلٌ عَنِ اللَّهِ.

ودلَّت هَذِهِ الْآيَاتُ أَيْضًا عَلَى أَنَّ الْقُرْآنَ منزَّلٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، بِمَعْنَى أَنَّ اللَّهَ تكلَّم بِهِ بصوتٍ سَمِعَهُ جِبْرِيلُ عَليهِ السَّلاَمِ، فنَزَلَ بِهِ، وأدَّاه إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَمَا سَمِعَهُ مِنَ الربِّ جَلَّ شَأْنُهُ.

ولذا جاء في الصحيح: " إِذَا قَضَى اللَّهُ الْأَمْرَ فِي السَّمَاءِ، ضَرَبَتِ الْمَلَائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خُضْعَانًا لِقَوْلِهِ، كَأَنَّهُ سِلْسِلَةٌ عَلَى صَفْوَانٍ، فَإِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا: مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟ قَالُوا لِلَّذِي قَالَ: الْحَقَّ، وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ".

إذًا: جبريل سمع الكلام من الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى وبلغ ذلك إلى الملائكة.

قال: وَخُلاَصَةُ الْقَوْلِ فِي ذَلِكَ: أَنَّ الْقُرْآنَ الْعَرَبِيَّ كَلاَمُ اللَّهِ، منزَّلٌ، غَيْرُ مَخْلُوقٍ، مِنْهُ بَدَأَ، وَإِلَيْهِ يَعُودُ.

وهذا هو حد القرآن, ما حد القرآن؟ كلام الله المنزل غير المخلوق, بدأ من الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى, وإليه يعود في آخر الزمان, أو وإليه يعود صفة له سبحانه.

وأجمع آية في بيان حد القرآن؛ الآية التي في سورة الشعراء: {وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (192) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (193) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ (194) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ} [الشعراء: 192-195], إذا أردت أن تأخذ حدًا للقرآن فخذه من هذه الآية.

قال: وَاللَّهُ تكلَّم بِهِ عَلَى الْحَقِيقَةِ، فَهُوَ كَلاَمُهُ حَقِيقَةً لَا كَلاَمُ غَيْرِهِ -؛لأنه نُسب إليه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى-, وَإِذَا قَرَأَ النَّاسُ الْقُرْآنَ أَوْ كَتَبُوهُ فِي الْمَصَاحِفِ لَمْ يُخْرِجْهُ ذَلِكَ عَنْ أَنْ يَكُونَ كَلاَمَ اللَّهِ.

فالذي في المصحف كلام الله, وأما المداد والورق والحبر فهذا مخلوق, الذي نقرأه كلام الله, وأما أصواتنا وألفاظنا فمخلوقة.

ولذلك نقول: القول قول الباري والصوت صوت القاري, فالأصوات أصواتنا, أما هذا الذي نقرأه فهو كلام الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

قال: فَإِنَّ الْكَلاَمَ إِنَّمَا يُضَافُ حَقِيقَةً إِلَى مَن قَالَهُ مُبْتَدِئًا، لَا إِلَى مَن بَلَّغَهُ مؤدِّيًا.

ولذا لما نسب الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى القرآن مرة إلى محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى الرسول البشري, ومرة إلى الرسول الملكي؛ قلنا هذه النسبة باعتبار البلاغ, وليس باعتبار أصل الكلام, فالذي تكلم به هو ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

فلما قال: {إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ} [الحاقة: 40] [التكوير: 19], وهذا الوصف جاء في وصف النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وفي وصف جبريل, قلنا: هذا باعتبار البلاغ، ولذا نص على الرسالة.

قال: وَاللَّهُ تكلَّم بِحُرُوفِهِ وَمَعَانِيهِ بِلَفْظِ نَفْسِهِ، لَيْسَ شَيْءٌ مِنْهُ كَلَامًا لِغَيْرِهِ، لَا لِجِبْرِيلَ، وَلَا لِمُحَمَّدٍ، وَلَا لِغَيْرِهِمَا، وَاللَّهُ تَكَلَّمَ بِهِ أَيْضًا بِصَوْتِ نَفْسِهِ، فَإِذَا قرأه العباد قرؤوه بِصَوْتِ أَنْفُسِهِمْ، فَإِذَا قَالَ الْقَارِئُ مَثَلاً: {الْحَمْدُ للَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}؛ كَانَ هَذَا الْكَلامُ الْمَسْمُوعُ مِنْهُ كَلَامَ اللَّهِ، لَا كلامَ نَفْسِهِ، وَكَانَ هُوَ قَرَأَهُ بِصَوْتِ نَفْسِهِ لَا بِصَوْتِ اللَّهِ.

وَكَمَا أَنَّ الْقُرْآنَ كَلامُ اللَّهِ، فَكَذَلِكَ هُوَ كِتَابُهُ؛ لِأَنَّهُ كَتَبَهُ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ، وَلِأَنَّهُ مكتوبٌ فِي الْمَصَاحِفِ؛ قَالَ تَعَالَى: {إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (77) فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ} [الواقعة: 77-78].

وَقَالَ: {بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ (21) فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ} [البروج: 21-22].

وَقَالَ: {فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ (13) مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ (14) بِأَيْدِي سَفَرَةٍ (15) كِرَامٍ بَرَرَةٍ} [عبس: 13-16].

قال: وَالْقُرْآنُ فِي الْأَصْلِ مصدرٌ كَالْقِرَاءَةِ.

أي: يقال: قرأ, قراءة, وقرآنا, فهو مصدر كذلك للفعل قرأ.

قال: كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: {إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا} [الإسراء: 78].

أي: إن قراءة الفجر كانت مشهودة.

قال: وَيُرَادُ بِهِ هُنَا أَنْ يكونَ عَلَمًا عَلَى هَذَا المنزَّل مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، الْمَكْتُوب بَيْنَ دفَّتي الْمُصْحَفِ، المتعبَّد بِتِلَاوَتِهِ، المتحدَّى بِأَقْصَرِ سُورَةٍ مِنْهُ.

وهذا هو الحد المشهور في كتب علوم القرآن.

يقولون: هو ما أنزله الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى بين دفتي المصحف, وتعبد عباده بتلاوته, وتحدى بأقصر سورة منه.

قال: وَقَوْلُهُ: {قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ}؛ يدلُّ أَنَّ ابْتِدَاءَ نُزُولِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ عَزَّ وَجلَّ.

ولذا تجد في كتب العقائد منه بدأ وإليه يعود.

منه بدأ: أي: أن الله عَزَّ وَجلَّ تكلم به ابتداءً.

وإليه يعود: آخر الزمان, أو يُرفع من المصاحف ومن الصدور.

أو إليه يعود: أي: أنه صفة له سُبْحَانَهُ وَتعالَى.

قال: يدلُّ أَنَّ ابْتِدَاءَ نُزُولِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ عَزَّ وَجلَّ، وَأَنَّ رُوحَ الْقُدُسِ جِبْرِيلَ عَليهِ السَّلاَم تلقَّاه عَنِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ بالكيفيَّة الَّتِي يَعْلَمُهَا.

قلنا: خالف في ذلك المعتزلة, ولهم في ذلك شبه, نذكر منها شبهة أو شبهتين:

أولًا: قالوا إن الله يقول: {اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ} [الزمر: 62], قالوا: و(كل) تفيد العموم, والقرآن شيء؛ إذًا: هو مخلوق, وإضافته إلى الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى من إضافة المخلوق إلى الخالق.

تجدهم يستدلون بهذه الآية؛ كما جاء في كتاب عثمان بن سعيد الدارمي في الرد على بشر المريسي.

وكذلك في مناظرة عبد العزيز الكناني رَحِمَهُ اللهُ في كتابه الحيدة لأحمد بن أبي دؤاد.

فيقولون: ألم يقل الله عَزَّ وَجلَّ في كتابه: {اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ}, فيدخل في عموم كل القرآن؛ فيكون مخلوقًا.

ولا شك أن هذا من أعجب العجب, لماذا؟ لأنهم يُخرجون أفعال العباد من خلق الله, فيقولون: أفعال العباد غير مخلوقة.

ماذا عن هذه الآية: {اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ}؟ يقولون: هذه ظاهرة في العموم وليست نصًا في العموم, وأفعال العباد لا تدخل في خلق الله, لأننا لو ادخلناها في خلق الله؛ فهذا يستلزم الظلم, كيف يخلق المعصية ويقع فيها العبد ثم يحاسبه عليه؟

وقد رددنا على هذه الشبهة العليلة.

فنقول كما قالوا: الله خالق كل شيء مخلوق, والقرآن ليس بمخلوق, ثم نقول كذلك كما قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ, قال: عندنا في القرآن ما يدل على أن كلمة (كل) ليست نصًا في العموم في كل موضع؛ كما قال الله عَزَّ وَجلَّ: {تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ} [الأحقاف: 25], فلم تدمر المساكن, ولم تدمر السماوات, ولم تدمر الأرض.

قال عن بلقيس: {وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ} [النمل: 23], لها عرش عظيم, لكن هل لها عرش سليمان؟ هل لها مُلك سليمان؟

إذًا: هذه ليست نصًا في العموم, فلما كان القرآن صفة لله تَبَارَكَ وَتَعَالَى دل ذلك على أنه غير مخلوق.

فهذا بعض ما يستدلون به.

ثانيا: كذلك يستدلون بقول الله تعالى: {إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا} [الزخرف: 3].

فيقولون: إن (جعل) بمعنى: خلق, فـ{جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا }, أي: خلقناه قرآنًا عربيًا, وهذا من جهلهم بلغة العرب أو تلبيسهم, لأن كلمة (جعل) لا تأتي دائمًا بمعنى: خلق, خاصة إذا كانت تنصب مفعولين, هذا يتصور فيما إذا نصبت

مفعولًا واحدًا فإنها قد تأتي بمعنى: خلق, لكن إذا نصبت مفعولين فلا تكون بمعنى: خلق.

مثالًا على ذلك: يقول الله عَزَّ وَجلَّ: {وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً} [النحل: 91], هل معنى الآية: وقد خلقتم الله عليكم كفيلاً؟

قال عبد العزيز الكناني في الحيدة: لو قال بذلك لكفر.

قال الله عَزَّ وَجلَّ: {وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا} [الزخرف: 19].

(جَعَلُوا): فعل وفاعل.

(الْمَلَائِكَةَ): المفعول الأول.

(جَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا): أي: خلقوا الملائكة إناثًا؟ هذا لا يتصور, لكن معنى (جعلوا) هاهنا صيروا وقدَّروا, وليس معناها: خلق, فهذا كذلك استدلال باطل.

- واما الأشعرية فإنهم كذلك استدلوا على باطلهم ببيت شعر, وهو قول الأخطل المنسوب إليه:

إن الكـلام لفـي الفـؤاد وإنـما جُعل اللسان على الفؤاد دليلاً

فقالوا: هذا الأخطل يقول: إن الكلام لفي الفؤاد.

فدل ذلك على أن الكلام إنما هو معنى قائم بالنفس.

ونقول: من الذي قال ذلك؟ شاعر نصراني, وما عقيدة النصارى في كلام الله؟ ماذا يقولون في كلمة الله عيسى؟ يقولون: إن عيسى هو الكلمة, ولم يكن بالكلمة.

ماذا نقول في قول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: {وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ} [النساء: 171].

ما معنى قول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى عن عيسى: {وَكَلِمَتُهُ}؟ أي: أن عيسى كان بالكلمة, أي: أن خلقه كان بالكلمة, ولم يكن عيسى هو الكلمة, كما يقول الدارمي رَحِمَهُ اللهُ, واشتهرت هذه الكلمة عن شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ بعد ذلك.

فكل من ينقل هذه الكلمة يقول: قال شيخ الإسلام ابن تيمية إن عيسى كان بالكلمة وليس هو الكلمة, وقالها قبله الدارمي الإمام رحمهما الله تعالى.

فنحن نقول: هذه عقيدتنا في عيسى أنه كان بالكلمة (كن).

ماذا تقول النصارى في كلام الله؟ يقولون: عيسى هو الكلمة.

إذًا: النصارى عقيدتهم باطلة في مثل هذه الأمور, فقد يكون هذا البيت مما تأثر فيه الأخطل بهذه العقيدة الفاسدة.

ثم إن المحققين على أن هذا البيت ليس في ديوان الأخطل.

وقالوا كذلك: إن البيت الصحيح:

(إن البيان لفي الفؤاد وإنما), وليس إن الكلام.

فليس البيت دليلاً على ما ذهبوا إليه.

وسبحان الله يتركون عشرات الآيات والأحاديث ويستدلون ببيت شعر للأخطل!

- قالوا كذلك: يدل على ما مذهبنا قول عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يوم السقيفة: "إني زوَّرت كلامًا في نفسي", يحكي ما كان منه لما اراد أبو بكر رَضِيَ اللهُ

عَنْهُ أن يقدمه للخلافة, فقدم عمر رَضِي اللهُ عَنْهُ أبا بكر الصديق, فعمر يقول: "إني زوَّرت كلامًا في نفسي".

ما معنى: "زوَّرت كلامًا في نفسي"؟ يعني: اعددت وهيأت كلامًا في نفسي.

فيقولون: هذا يدل على أن الكلام إنما يكون معنى قائم بالنفس.

نقول: إن عمر ما قال "إني زوَّرت كلامًا" وسكت, وإنما قال: "كلامًا في نفسي"؛ فدل ذلك على أنه أراد شيئًا مقيدًا وليس مطلق الكلام.

ولذا قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "**إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا، مَا لَمْ تَعْمَلْ أَوْ تَتَكَلَّمْ**", ففرق النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بين حديث النفس وبين الكلام.

فهذه كذلك من الشبه التي استدلوا بها.

فأهل البدع لا يُثبتون كلامًا حقيقيًا لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى, وأخُص من هؤلاء الأشعرية.

ولذا قال محققوهم: إن منتهى كلام الأشعرية في كلام الله تَبَارَكَ وَتعَالَى أنه يرجع إلى صفة العلم, وهذا مضطرد في صفة السمع عندهم, وصفة البصر, وصفة الإرادة, وغير ذلك من الصفات, ومنها صفة الكلام, لأنهم لا يُثبتون سمعًا لله تَبَارَكَ وَتَعَالَى متجددًا, لا يُثبتون كلامًا لله تَبَارَكَ وَتَعَالَى متجددًا, وإنما هذا كله كان في الأزل.

ما معنى أنه في الأزل؟ أي: أن الله عَزَّ وَجلَّ يعلم أن فلانًا الذي سيُخلق سيكون منه كذا, فمرد هذه الصفات إلى صفة العلم.

والمعتزلة يردون جُل الصفات كذلك إلى صفة العلم.

ولذا أهل السنة ما كذبوا على الأشعرية لما قالوا: الأشعرية مخانيث المعتزلة.

لماذا؟ لأن المعتزلة كانوا أشجع منهم على غِلظ بدعتهم, لكنهم كانوا أشجع منهم في إظهار بدعتهم.

المعتزلة ينفون رؤية الله صراحة, لماذا ينفون رؤية الله صراحة؟ يقولون: لأن الرؤية تستلزم الجهة, والله عَزَّ وَجلَّ منزه عن الجهة.

ماذا قالت الأشعرية؟ قالوا: الله عَزَّ وَجلَّ يُرى, لكنه لا يُرى بالأبصار ولا يُرى في جهة؛ فخالفوا العقل والنقل, وانتهى أمرهم إلى نفي رؤية الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى؛ كما انتهى أمرهم هنا إلى نفي صفة الكلام عن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

فكل ذلك يدل على فساد هذه البدعة الباطلة، وعلى صحة مذهب أهل السنة والجماعة, لأن هذا المذهب مبني على ما جاء في كتاب الله وسنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ولذا نقول دائمًا: إن أهل السنة والجماعة لا يُخفون دليلاً من كتاب الله ولا من سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ ولذا تكثر الأدلة في كلامهم عن مسائل الاعتقاد, وأما أهل البدع فإنهم لا يذكرون الأدلة إلا على سبيل الشبهة.

فهذا آخر الكلام على صفة كلام الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى وعلى القرآن.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم, وجزاكم الله خيرًا.

الدرس الثامن والعشرون

إن الحمد لله, نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله تعالى من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله, صلى الله عليه, وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد:

فقد وصل الحديث بنا في العقيدة الواسطية إلى قول الشيخ رَحِمَهُ اللهُ وهو يُدلل على عقيدة أهل السنة والجماعة في رؤية الله عَزَّ وَجلَّ يوم القيامة.

قال رَحِمَهُ اللهُ: وَقَوْلُهُ: {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (22) إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ} [القيامة: 22-23].

وَقَوْلُهُ: {عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ} [المطففين: 23].

وَقَوْلُهُ: {لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ} [يونس: 26].

وَقَوْلُهُ: {لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ} [ق: 35].

هذا المبحث عقده المصنف رَحِمَهُ اللهُ لبيان عقيدة أهل السنة والجماعة التي تتعلق برؤية المؤمنين ربهم في دار القرار، وكذلك ما يكون من تنعم المؤمنين بهذه الرؤية.

وهذا أصل ثابت من أصول أهل السنة والجماعة، خالف فيه المعتزلة والخوارج، وكذلك الأشعرية على تفصيل سيأتي.

ومبحث الرؤية مع أنه يتعلق بفعل العبد، فإن العبد هو الذي يرى ربه، فالرؤية صفة للعبد وتكون من العبد، ومع ذلك درج أهل السنة والجماعة على أن يكون هذا المبحث ضمن مباحث الصفات.

فإذا ذُكرت مباحث صفات ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى، ذكروا رؤيته في الآخرة، وذلك أن الرؤية هي الغاية التي شمر لها المشمرون، كما يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ، وتنافس إليها المتنافسون.

ومن عظم هذه المسألة وعظيم شأنها؛ أنْ وضع بعض أهل السنة والجماعة مصنفات مفردة في هذه المسألة وفي التدليل عليها من كتاب الله وسنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وما جاء عن السلف الصالح.

فالذي نريد أن نقوله: إن أهل السنة والجماعة درجوا على ذكر هذا المبحث في باب الصفات وذلك لأمور:

- ومن ذلك: أن المرئي هو الله تعالى، أي لكون المرئي هو الله تعالى، فالذي يرى هو العبد والمرئي هو الله عَزَّ وَجَلَّ، ولذلك ذُكرت هاهنا.
- وكذلك لاتصال الكلام فيها بالكلام بباقي الصفات، فالذي يُثبت الرؤية لابد أن يثبت العلو علو الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وبذلك جاءت النصوص.
- وأيضًا لأن القول بإثبات الرؤية يستلزم القول بإثبات الصفات لله تعالى؛ لأنه لا يُعقل وجود مرئي بلا صفات، فطالما أن هذا الذي سيُرى موجود؛ إذًا: لابد أن تكون له صفات.
- وكذلك لأن أدلة النُفاة في إنكار الرؤية هي نفس أدلتهم العقلية الفاسدة في نفي الصفات الأخرى.

فإذا سألت الواحد من هؤلاء لماذا تنفي الرؤية؟ يقول: لأن ذلك يستلزم الجسمية ويستلزم الجهة والتشبيه وغير ذلك، وهذه نفس شبهاتهم العقلية التي استدلوا بها في نفي صفات الباري تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

فالرؤية ثابتة عند أهل السنة والجماعة، فأهل السنة والجماعة يؤمنون بأن المؤمنين يرون ربهم في الآخرة رؤية عين، أي: يرون ربهم بالأبصار في عرصات القيامة، وكذلك في الجنة، ويؤمنون بأن الله يكلمهم ويكلمونه كذلك، وكل ذلك ثابت في الكتاب والسنة.

والمصنف رَحِمَهُ اللهُ مشى على ذكر الآيات الدالة على المعتقد أولًا، ثم بعد ذلك يذكر الأحاديث.

فهذا المبحث الذي معنا هو آخر مباحث الصفات التي ذكرها المصنف رَحِمَهُ اللهُ، ودلل عليها بآيات القرآن الكريم.

ثم ينتقل بعد ذلك لذكر الأحاديث التي دلت على هذه العقائد المتعلقة بالصفات التي ذكرها سابقًا.

قال الشيخ الهراس رَحِمَهُ اللهُ: وقَوْلُهُ: {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ} إلخ.

قال: هَذِهِ الْآيَاتُ تُثْبِتُ رُؤْيَةَ الْمُؤْمِنِينَ لِلَّهِ عَزَّ وَجلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي الْجَنَّةِ.

إذًا: هذه الآية تتعلق برؤية المؤمنين ربهم في الجنة، فالمؤمنون يرون ربهم في عرصات القيامة، أي: للحساب، ويرون ربهم كذلك في الجنة.

يقول الله عَزَّ وَجلَّ: {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (22) إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ}، فالرؤية هي التي ترتب عليها نُضرة الوجوه، وهذه تكون في جنة ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

قال: وَقَدْ نَفَاهَا الْمُعْتَزِلَةُ؛ بِنَاءً عَلَى نَفْيِهِمُ الْجِهَةَ عَنِ اللَّهِ؛ لِأَنَّ الْمَرْئِيَّ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ فِي جِهَةٍ مِنَ الرَّائِي.

وهذا مما يُعلم بالعقل قبل النقل، لأنك إذا رأيت مرئيًا فلابد أن يكون في جهة، إما أن يكون أمامك أو خلفك أو أسفل منك ، أو أعلاك.

فقالوا: إن إثبات الرؤية يستلزم إثبات الجهة، والله عَزَّ وَجلَّ مُنزه عن الجهة؛ لأن الجهة تستلزم المكان والحيز، والله منزه عن المكان والحيز.

ولو تدبرت في كلامهم لوجدت أن هذا الكلام الذي جاءوا به لم يرد لا في كتاب الله ولا في سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلفظة الجهة لم ترد في الكتاب والسنة نفيًا أو إثباتًا، ولفظة الحيز كذلك لم ترد في الكتاب والسنة، ولفظة المكان لم ترد في الكتاب والسنة.

ولذا تجد أهل البدع يكثرون من ذكر الألفاظ المجملة التي تحتمل الحق والباطل، كهذه الألفاظ التي ذكرناها عنهم؛ ومن ثم كان الحق في مثل هذه الألفاظ أن يستفصل سامعها عن المراد منها.

إذا سمعت هذه الألفاظ ممن يذكرها، فالواجب عليك أن تستفصل عن مراده، يقال له: ماذا أردت بهذه الألفاظ؟

فإن أراد باطلاً نفينا اللفظ وكذلك هذا المراد الباطل، وإن أراد حقًا أثبتنا الحق لكننا لا نثبت هذا اللفظ في حق الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

فالشاهد: أن هؤلاء لماذا نفوا رؤية الله عَزَّ وَجلَّ في الآخرة قالوا: لأن هذا يستلزم الجهة، والذي يُرى في جهة إنما هو المتحيز المخلوق الذي له مكان، فإذا أثبتنا الرؤية فقد شبهنا الله عَزَّ وَجلَّ بخلقه، وسيأتي الرد على هذه الشبهة، لكن أردنا أن نُبين معنى قولهم بأن إثبات الرؤية يستلزم إثبات الجهة.

قالوا: وَمَا دَامَتِ الْجِهَةُ مُسْتَحِيلَةً.

أي: على الله تعالى، وهذه استحالة إنما هي في عقلهم فقط، وإلا فإن هذا الأمر لا يمنعه لا عقل ولا شرع، لا يمنعه عقل صريح ولا شرع صحيح ثابت في كتاب الله وسنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

لأن الله عَزَّ وَجلَّ قال عن الملائكة: {يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ} [النحل: 50]، وقال: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} [طه: 5]، واستوى بمعنى: علا وارتفع؛ فهذا يدل على أن الله عَزَّ وَجلَّ في العلو.

وقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ الْقَمَرَ لَيْلَةَ الْبَدْرِ ليس دونه سحاب»، والقمر في جهة العلو.

فكل ذلك يدل على أن الله عَزَّ وَجلَّ في العلو، وأن ذلك غير مستحيل عليه، ثم نقول: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} [الشورى: 11]، فوجوده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يخالف وجود المخلوقين، كما أن ذاته تخالف ذات المخلوقين.

قالوا: وَمَا دَامَتِ الْجِهَةُ مُسْتَحِيلَةً، وَهِيَ شَرْطٌ فِي الرُّؤْيَةِ؛ فَالرُّؤْيَةُ كَذَلِكَ مُسْتَحِيلَةٌ.

وبعض مشايخنا ذكر قاعدة مهمة في التعامل مع أهل البدع على اختلاف انحرافاتهم، قال لنا: لا تسلموا لهم بالمقدمات، حتى لا تُلزموا بالنتائج، شيخنا عادل السيد -حفظه الله- كثيرًا ما يذكر هذه القاعدة.

لا تسلموا لهم بالمقدمات، فهذه المقدمات قد تكون فاسدة، حتى لا تُلزموا بالنتائج، فهنا مقدمة هؤلاء يقولون: وَمَا دَامَتِ الْجِهَةُ مُسْتَحِيلَةً.

هذه المقدمة التي ذكروها.

وَهِيَ شَرْطٌ فِي الرُّؤْيَةِ.

وصدقوا أن الجهة شرط في الرؤية، ولذلك كان هؤلاء أعقل من الأشعرية؛ لأن الأشعرية يثبتون الرؤية لا إلى جهة، وهذا أمر لا يقبله العقل، كيف تثبتون الرؤية ولا تثبتون الجهة؟!

يعني يقولون: إن الله يُرى، لكن يُرى لا فوق ولا أسفل ولا عن يمين ولا عن شمال ولا أمامك ولا خلفك، فهذا أمر لا يقبله العقل، وجاء النقل كذلك بخلافه.

فقالوا: وَمَا دَامَتِ الْجِهَةُ مُسْتَحِيلَةً.

قلنا: هذا لا يُسلم لكم، لأن الجهة هنا جهة العلو، والمكان عدمي كما سبق بيانه عند بياننا أن العرش سقف المخلوقات وآخرها، وليس فوقه شيء مخلوق.

وَهِيَ شَرْطٌ فِي الرُّؤْيَةِ.

وهذا يُسلم لهم به.

قالوا: فَالرُّؤْيَةُ كَذَلِكَ مُسْتَحِيلَةٌ.

قلنا: الرؤية ليست مستحيلة.

واحتجُّوا مِنَ النَّقْلِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى.

إذًا: هذا دليلهم العقلي، وهو قولهم: وَمَا دَامَتِ الْجِهَةُ مُسْتَحِيلَةً، وَهِيَ شَرْطٌ فِي الرُّؤْيَةِ؛ فَالرُّؤْيَةُ كَذَلِكَ مُسْتَحِيلَةٌ.

ماذا عن النقل؟

قال: واحتجُّوا مِنَ النَّقْلِ بِقَوْلِهِ تعَالَى: {لَّا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ}، وَقَوْلُهُ لِمُوسَى عليه السلام حِينَ سَأَلَهُ الرُّؤْيَةَ: {لَن تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي}.

وسيأتي جواب الشيخ رَحِمَهُ اللهُ عن هذين الاستدلالين.

هذه الآيات التي فيها ذكر رؤية المؤمنين ربهم يوم القيامة وكذلك الأحاديث، فسرتها المعتزلة بالعلم، ولذا ترد المعتزلة صفات الباري تَبَارَكَ وَتَعَالَى إلى صفة العلم.

وسنعلم بعد قليل أن الأشعرية كذلك كما أقر بذلك محققوهم يردون الرؤية إلى العلم، فرؤية المؤمنين ربهم يوم القيامة، أي: علم المؤمنين بربهم وإدراكهم لربهم يوم القيامة، وبهذا صرح محققوهم، لا يثبتون رؤية حقيقية بالأبصار.

قال: وَأَمَّا الْأَشَاعِرَةُ.

والأشاعرة نسبة إلى أبي الحسن الأشعري رَحِمَهُ اللهُ، وقد تبرأ من هذا المنهج ووضع كتاب الإبانة وأثبت فيه رؤية المؤمنين ربهم يوم القيامة بالأبصار؛ ولذلك كان على عقيدة السلف في هذه المسألة.

قال: وَأَمَّا الْأَشَاعِرَةُ؛ فَهُمْ مَعَ نَفْيِهِمُ الْجِهَةَ كَالْمُعْتَزِلَةِ يُثْبِتُونَ الرّؤيَةَ.

قلنا: لذلك قولهم خالف العقل والنقل.

قال: وَلِذَلِكَ حَارُوا فِي تَفْسِيرِ تِلْكَ الرُّؤْيَةِ، فَمِنْهُمْ مَن قَالَ: يَرَوْنَهُ مِنْ جَمِيعِ الْجِهَاتِ، وَمِنْهُمْ مَنْ جَعَلَهَا رُؤْيَةً بِالْبَصِيرَةِ لَا بِالْبَصَرِ.

أي يفسرونها بالعلم.

وَقَالَ: الْمَقْصُودُ زِيَادَةُ الِانْكِشَافِ وَالتَّجَلِّي حَتَّى كَأَنَّهَا رُؤْيَةُ عَيْنٍ.

أي: أنهم يدركون الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى وينكشف لهم وذلك أن الله عَزَّ وَجلَّ يخلق فيهم حاسة يوم القيامة يدركون بها ربهم، هكذا قالوا: لعل الله عَزَّ وَجلَّ يخلق في المؤمنين حاسة يوم القيامة يدركون بها ربهم.

لكن هل أثبتوا رؤية إلى جهة؟ هل أثبتوا ربًا يُرى في العُلى؟ لا، لماذا؟ لنفس شبهات المعتزلة، وهذه شبهات كل أهل البدع الذين نفوا الصفات؛ لأن ذلك يستلزم الجسمية ويستلزم الجهة والحيز.

قال: وَهَذِهِ الْآيَاتُ الَّتِي أَوْرَدَهَا المؤلِّف حُجَّةٌ عَلَى الْمُعْتَزِلَةِ فِي نَفْيِهِمُ الرُّؤْيَةَ؛ فَإِنَّ الْآيَةَ الْأُولَى.

وهي قوله تعالى: {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (22) إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ}، وهي أصرح آية في إثبات رؤية الله في الآخرة.

قال: عُدِّي النَّظَرُ فِيهَا بِـ {إِلَى} ، فَيَكُونُ بِمَعْنَى الْإِبْصَارِ.

فالنظر إذا عُدي في لغة العرب بحرف الجر (إلى) لا يكون إلا النظر بالبصر، وأما إذا عُدي بـ(في)؛ فإنه يكون بمعنى التفكر، وإذا عُدي بنفسه؛ فإنه يكون بمعنى الانتظار، والقرآن نزل بلسان عربي مبين.

وهؤلاء غالبًا ما يجنحون إلى لغة العرب إذا أرادوا أن يدللوا على معتقدهم الباطل، يقولون: لغة العرب قالت كذا، والشاعر العربي يقول: إن الكلام لفي الفؤاد وإنما....

ويقول:

قد استوى بِشر على العراق ... من غير سيف أو دم مهراق

فيقولون: العرب يقولون كذا، فنقول: العرب يقولون: إن النظر إذا عُديَّ بـ(إلى)؛ فإنه لا يحتمل إلا النظر بالعين.

قال الأزهري: "ومن قال إن معنى قوله إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ يعني منتظرة فقد أخطأ ، لأن العرب لا تقول نظرت إلى الشيء بمعنى انتظرته ، إنما تقول نظرت فلانا أي انتظرته"

و أما إذا عُدي بنفسه؛ فإنه يكون بمعنى الانتظار، وإذا عُدي بـ(في)؛ فإنه يكون بمعنى التفكر، أين دليل ذلك في كتاب الله؟

{أَفَلاَ يَنظُرُونَ إِلَى الإِبلِ كَيْفَ خُلِقَتْ} [الغاشية: 17].

إذًا: النظر هنا نظر العين، لكن هل تدري ماذا يقول أهل الإعجاز العلمي هداهم الله؟

يأتون إلى ما وصل إليه العلم الحديث من تشريح للجمل، وما وصل إليه مما يتعلق بسنامه ومعدته، وما يتعلق بكذا وكذا من جسده، يقولون: هذا إعجاز القرآن، الله يقول: {أَفَلاَ يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبلِ كَيْفَ خُلِقَتْ}.

ما أراد الله عَزَّ وَجلَّ ذلك، لأن القرآن نزل يخاطب أهل الزمان الذي نزل فيهم وهم أهل العربية، فأراد الله عَزَّ وَجلَّ من هؤلاء أن ينظروا إلى الإبل التي يستعملونها، وكيف أن الله عَزَّ وَجلَّ خلقها على هذه الصورة؟ وكيف أنها تتحمل جو الصحراء، وما لها من المنافع.

ولذا قال: {أَفَلاَ يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (17) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (18) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (19) وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ} [الغاشية: 17-20].

ما أراد الله عَزَّ وَجلَّ من العرب أن يبحثوا عن أصل تكوُّن الجبال، وما أراد منهم أن يبحثوا حتى يصلوا إلى أن الجبال أوتاد، أي: أن يصلوا إلى ما هو أسفل هذه الجبال، وما غاب في الأرض، ما أراد الله عَزَّ وَجلَّ ذلك، لكن أراد أن يُذكرهم بما يشاهدونه بأعينهم مما يبين ربوبيته، واستحقاقه للعبادة وحده سبحانه.

وهذه الأربعة كان العربي يراها كل يوم مرات عديدة؛ كما قال بعض المفسرين فذكر الله عَزَّ وَجلَّ هذه الأمور الأربعة لأنها تدل على الخالق سُبْحَانَهُ وَتعَالَى بمجرد رؤيتها.

فهذه الآية التي ذكرتموها فيها: أن النظر عُدي بـ(إلى) فهو بمعنى: نظر العين.

أين نجد في كتاب الله أن النظر إذا عُدي بـ(في) فإنه بمعنى التفكر؟ {فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ (88) فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ} [الصافات: 88-89]، يعني: تفكر.

الآية التي تقول: {قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ} [يونس: 101].

{قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}، يعني: تفكروا في خلق السماوات والأرض، فالنظر هاهنا عُدي بـ(في) بمعنى التفكر.

أين في كتاب الله أن النظر إذا عُدي بنفسه يكون بمعنى الانتظار؟ {يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ} [الحديد: 13]، ما معنى {انْظُرُونَا}؟ أي: انتظرونا.

وكذلك ملكة سبأ ماذا قال؟ {وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ} [النمل: 35]، أي: منتظرة، والقرآن جاء بلسان العرب.

إذًا لماذا لا ترجعون للسان العرب في هذه المسألة؟

تقول المعتزلة: قد رجعنا إلى لسان العرب، لكنهم تكلفوا تأويل هذه الآية؛ كما نقل الشيخ رَحِمَهُ اللهُ.

قال: وَهَذِهِ الْآيَاتُ الَّتِي أَوْرَدَهَا المؤلِّف حُجَّةٌ عَلَى الْمُعْتَزِلَةِ فِي نَفْيِهِمُ الرُّؤْيَةَ؛ فَإِنَّ الْآيَةَ الْأُولَى عُدِّيَ النَّظَرُ فِيهَا بِـ{إِلَى}، فَيَكُونُ بِمَعْنَى الْإِبْصَارِ؛ يُقَالُ: نظرتُ إِلَيْهِ وأبصرتُه بِمَعْنًى.

أي: بمعنًى واحد.

ومتعلّق النَّظَرِ هُوَ الرَّبُّ جَلَّ شَأْنُهُ.

لأنه قال: {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (22) إِلَى رَبِّهَا}، فالنظر يكون إلى الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، وسبب النضرة في الآية كذلك: هو النظر إلى الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

قال: وَأَمَّا مَا يتكلَّفه الْمُعْتَزِلَةُ مِنْ جَعْلِهِمْ {نَاظِرَةٌ} بِمَعْنَى مُنْتَظِرَةٍ، وَ {إِلَى} بِمَعْنَى النِّعْمَةِ. وَالتَّقْدِيرُ: ثَوَابَ رَبِّهَا مُنْتَظِرَةٌ؛ فَهُوَ تَأْوِيلٌ مُضْحِكٌ.

لأنهم يقولون في معنى هذه الآية: {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ}، إن سبب النضرة في قوله تعالى: {إِلَى}، يقولون: إلى في لغة العرب مفرد: آلاء، {إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ}، أي: تنتظر آلاء ربها، و {إِلَى رَبِّهَا}، هذا مفرد مضاف فيعم.

فيقولون: أي: تنتظر آلاء ربها، أي: تنتظر نعم ربها، فسبب النُضرة أنها تنتظر نعم ربها، وهذا تأويل؛ كما قال الشيخ رَحِمَهُ اللهُ: مُضحك:

- لأنه لا يدل على الذهاب إليه شيء من كتاب الله ولا سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولا لغة العرب كذلك.

قال صاحب مشكل إعراب القرآن: وقد ألحد بعض المعتزلة في هذا الموضع وبلغ به التعسف والخروج من الجماعة الى أن قال إلى ليست بحرف جر انما هي اسم واحد آلاء وربها مخفوض بإضافة إلى اليه لا بحرف الجر والتقدير عنده نعمة ربها منظرة وهذا محال في المعنى لأنه تعالى قال وجوه يومئذ ناضرة أي ناعمة وقد

أخبرنا أنها ناعمة فدخل النعيم بها وظهرت دلائله عليها فكيف ينتظر ما أخبرنا الله أنه حال فيها إنما ينتظر الشيء الذي هو غير موجود فأما أمر موجود حال فكيف ينتظر وهل يجوز أن تقول أنا انتظر زيدا وهو معك لم يفارقك ولا يؤمل مفارقتك هذا جهل عظيم من متأوله وذهب بعض المعتزلة الى أن ناظرة من نظر العين ولكن قال معناه الى ثواب ربها ناظرة وهو أيضا خروج عن الظاهر ولو جاز هذا لجاز نظرت الى زيد بمعنى نظرت الى عطاء زيد وهذا نقض لكلام العرب وفيه اختلاط المعاني ونقضها على أنا نقول لو كان الأمر كذلك لكان أعظم الثواب المنتظر النظر اليه لا إله إلا هو."

- وثانيا: إن إضافة النظر للوجه الذي هو محله لا يعني إلا الرؤية الحقيقية لا الانتظار.
- وثالثا: هذا النعيم إنما هو في الجنة، والانتظار تنغيص، والجنة خلية من كل تنغيص وتكدير.

قال: وَأَمَّا الْآيَةُ الثَّانِيَةُ.

وهي قوله تعالى: {عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ}.

فَتُفِيدُ أَنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ، وَهُمْ عَلَى أَرَائِكِهِمْ. يَعْنِي: أَسِرَّتَهم.

والأسِرَّة: هو السرير الذي يكون عليه ما يُشبه (الناموسية)، هذه تسمى بالأسِرَّة، هكذا فسرها المفسرون.

قال: فَتُفِيدُ أَنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ، وَهُمْ عَلَى أَرَائِكِهِمْ. يَعْنِي: أَسِرَّتَهم، جَمْعُ أَرِيكَةٍ. يَنْظُرُونَ إِلَى رَبِّهِمْ.

قال: {عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ}، و{يَنْظُرُونَ}، هذه جاءت مطلقة غير مُعلقة بالمنظور إليه، فيدخل فيها النظر إلى الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، ويدخل فيها كذلك النظر إلى نعيمهم في الجنة.

قال: وَأَمَّا الْآيَتَانِ الْأَخِيرَتَانِ.

وهي: {لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ}، وكذلك: {لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ}.

قال: فَقَدْ صحَّ عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم تَفْسِيرُ الزِّيَادَةِ بِالنَّظَرِ إِلَى وَجْهِ اللَّهِ عَزَّ وَجلَّ.

وهذا ما جاء عند مسلم والترمذي وغيرهما من حديث صهيب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: "إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ وَأَهْلُ النَّارِ النَّارَ، نَادَى مُنَادٍ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، إِنَّ لَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ مَوْعِدًا يُرِيدُ أَنْ يُنْجِزَكُمُوهُ، فَيَقُولُونَ: وَمَا هُوَ؟ أَلَمْ يُثَقِّلْ اللَّهُ مَوَازِينَنَا، وَيُبَيِّضْ وُجُوهَنَا، وَيُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ وَيُنْجِنَا مِنْ النَّارِ؟ قَالَ: فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ، فَيَنْظُرُونَ إِلَيْهِ، فَوَاللَّهِ مَا أَعْطَاهُمْ اللَّهُ شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنْ النَّظَرِ، وهي الزيادة".

هذا قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذا من تفسير القرآن بسنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ القولية، ففسرها بذلك أعلم الخلق بربه الذي لا ينطق عن الهوى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال: وَيَشْهَدُ لِذَلِكَ أَيْضًا قَوْلُهُ تَعَالَى فِي حَقِّ الْكُفَّارِ: {كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (14) كَلاَّ إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ} [المطففين: 14-15].

والمراد بـ(يومئذ): أي: يوم القيامة.

قال: فدلَّ حَجْبُ هَؤُلَاءِ عَلَى أَنَّ أولياءَه يَرَوْنَهُ.

وهذا من مفهوم المخالفة، وبهذا فسرها الشافعي رَحِمَهُ اللهُ، ومن قبله مالك إمام دار الهجرة، فسروا الآية هكذا: أن الله عَزَّ وَجلَّ لما حجب أعدائه دل ذلك على أن أوليائه يرونه يوم القيامة.

قال: وَأَحَادِيثُ الرُّؤْيَةِ مُتَوَاتِرَةٌ فِي هَذَا الْمَعْنَى عِنْدَ أَهْلِ الْعِلْمِ بِالْحَدِيثِ.

ولذا ذكر أهل العلم أحاديث الرؤية في الأحاديث المتواترة ونظموا في هذا:

- مما تواتر حديث من كذب.... أي: "مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا"، هذا حديث متواتر.
- ومن بنى لله بيتًا واحتسب.، من بنى لله بيتًا بنى الله له بيتًا في الجنة.
- ورؤيةٌ، أي: وكذلك أحاديث الرؤية،
- شفاعةٌ، وأحاديث الشفاعة،
- والحوض، أي: أحاديث الحوض،
- ومسح خفين، يعني: هذا كذلك مما تواتر وهذه بعض.

مما تواتر حديث من كذب**ومن بنى لله بيتًا واحتسب**

ورؤية شفاعة والحوض** ومسح خفين وهذى بعض.**

فهذه أحاديث متواترة عند أهل السنة والجماعة وعند أهل العلم بالحديث، لَا يُنْكِرُهَا إِلَّا مُلْحِدٌ زِنْدِيقٌ.

قال: وَأَمَّا مَا احتجَّ بِهِ الْمُعْتَزِلَةُ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: {لَّا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ؛}؛ فَلاَ حُجَّةَ لَهُمْ فِيهِ؛ لِأَنَّ نَفْيَ الْإِدْرَاكِ لَا يَسْتَلْزِمُ نَفْيَ الرُّؤْيَةِ، فَالْمُرَادُ أَنَّ الْأَبْصَارَ تَرَاهُ، وَلَكِنْ لَا تُحِيطُ بِهِ رُؤْيَةٌ؛ كَمَا أَنَّ الْعُقُولَ تَعْلَمُهُ وَلَكِنْ لَا تُحِيطُ بِهِ عِلْمًا.

ولذا قال: {وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا} [طه: 110].

لِأَنَّ الْإِدْرَاكَ هُوَ الرُّؤْيَةُ عَلَى جِهَةِ الْإِحَاطَةِ.

إذًا أيهما أعم وأيهما أخص؟ الإدراك أخص والرؤية أعم.

قال: فَهُوَ رُؤْيَةٌ خَاصَّةٌ، وَنَفْيُ الْخَاصِّ لَا يَسْتَلْزِمُ نَفْيَ مُطْلَقِ الرُّؤْيَةِ.

نفي الخاص لا يستلزم نفي العام، يعني: إذا خرجت من المسجد وسألك سائل: هل رأيت محمدًا في المسجد؟ فإذا قلت: لم أر محمدًا، هذا لا يعني أنه لا يوجد أي رجل في المسجد، أنت نفيت الخاص هذا لا يستلزم نفي العام، فإذا نفيت الإحاطة التي هي تفسير الإدراك، فهذا لا ينفي مطلق الرؤية.

ولذا قال أهل العلم: إن إثبات الأعم لا يستلزم إثبات الأخص، رأيت رجالًا في المسجد، هذا لا يعني أنك رأيت محمدًا، ونفي الأخص لا ينفي الأعم، بينما نفي الأعم يستلزم نفي الأخص.

قال الله عَزَّ وَجلَّ عن موسى عَليهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَم: {فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ} [الشعراء: 61]، إذًا: الله عَزَّ وَجلَّ أثبت الرؤية هاهنا رؤية عامة، رأى جمع الكفار فرعون وقومه، هؤلاء رأوا من؟ رأوا قوم موسى، رؤية عامة مطلقة.

{قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ}، ماذا قال موسى؟ {قَالَ كَلاَّ} [الشعراء: 62]، موسى نفى الرؤية أم نفى الإحاطة؟ نفى الإدراك والإحاطة، لأن الإدراك في الآية بمعنى: الإحاطة.

إذن {لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ} [الأنعام: 103]، أي: لا تحيط به الأبصار، فنفي الأخص لا يستلزم نفي الأعم، وإثبات الأعم لا يستلزم إثبات الأخص، ونفي الأعم يستلزم نفي الأخص، فإذا قلت: لم أر رجالًا في المسجد، فهذا أنك لم تر لا محمدًا ولا غيره.

وإثبات الأخص يستلزم إثبات الأعم، لأن الأخص بعض أفراد العام.

فالله عَزَّ وَجلَّ قال: {لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ}، إذًا: نفى الإحاطة، ونفي الإحاطة لا يستلزم نفي الرؤية، هذا جواب عن هذه الآية.

الجواب الثاني كذلك ما ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم وغيرهما من أهل السنة والجماعة: أن هذه الآية جاءت في سياق مدح الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىن والله عَزَّ وَجلَّ لا يتمدح ولا يمدح نفسه بالنفي المحض.

ولذا كل نفي جاء في كتاب الله فإنه يستلزم كمال الضد، فإذا نفى الله عَزَّ وَجلَّ عن نفسه الإدراك بالأبصار، فهذا معناه أنه ينفي الإحاطة به، وهذا لا يستلزم أن ينفي الرؤية عنه، لأنه موجود سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

فإذا نفينا رؤيته فهذا يعني أنه من جملة المعدومات، والله عَزَّ وَجلَّ ليس كذلك، بل هو موجود يُرى يوم القيامة سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

قال: وَكَذَلِكَ اسْتِدْلَالُهُمْ عَلَى نَفْيِ الرُّؤْيَةِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى لِمُوسَى عليه السلام: {لَن تَرَانِي}.

قال: لَا يَصْلُحُ دَلِيلاً، بَلِ الْآيَةُ تَدُلُّ عَلَى الرُّؤْيَةِ مِنْ وجوهٍ كثيرةٍ.

ولذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ ومن قبله الدارمي: إن كل دليل صحيح يستدل به المبتدع هو نفسه دليل على نقيض مراده.

ففي الدليل ما يرد هذا الذي ذهب إليه.

ولذا قال الشيخ الهراس: لَا يَصْلُحُ دَلِيلاً، بَلِ الْآيَةُ تَدُلُّ عَلَى الرُّؤْيَةِ مِنْ وجوهٍ كثيرةٍ؛ مِنْهَا:

وُقُوعُ السُّؤَالِ مِنْ مُوسَى، وَهُوَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِيمُهُ، وَهُوَ أعلمُ بِمَا يَسْتَحِيلُ فِي حَقِّ اللَّهِ مِنْ هَؤُلَاءِ الْمُعْتَزِلَةِ.

هل هذا يماري فيه أحد؟ لو قالت المعتزلة: نحن أعلم من موسى لكفروا، لو قالوا نحن أعلم من أي نبي لكفروا، لأن الأنبياء صفوة الله من خلقه.

فموسى عَليهِ الصَّلاةُ والسَّلاَم أعلمُ بِمَا يَسْتَحِيلُ فِي حَقِّ اللَّهِ مِنْ هَؤُلَاءِ الْمُعْتَزِلَةِ، فَلَوْ كَانَتِ الرُّؤْيَةُ مُمْتَنِعَةً لَمَا طَلَبَهَا.

قال ثانيًا: أَنَّ اللَّهَ عز وجل عَلَّقَ الرُّؤْيَةَ عَلَى اسْتِقْرَارِ الْجَبَلِ حَالَ التجلِّي وَهُوَ ممكنٌ، والمعلَّق عَلَى الْمُمْكِنِ ممكنٌ.

الله عَزَّ وَجلَّ قال للنبي الكليم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: {وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي} [الأعراف: 143].

{فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ}، إذًا: علق الله عَزَّ وَجلَّ ذلك على أمر ممكن وهو استقرار الجبل عند رؤية الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، فلو استقر الجبل لرأى موسى ربه عَزَّ وَجلَّ.

قال: أَنَّ اللَّهَ تجلَّى لِلْجَبَلِ بِالْفِعْلِ، وَهُوَ جمادٌ.

وبهذا فسره النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه تجلى له قيد أُنملة.

قال: فَلاَ يَمْتَنِعُ إِذًا أَنْ يتجلَّى لِأَهْلِ محبَّته وَأَصْفِيَائِهِ.

يعني: إذا كان تجلى للجماد، فمن باب أولى إمكان أن يتجلى لأصفيائه وأوليائه.

قال: وَأَمَّا قَوْلُهُمْ: إِنَّ {لَن}، لِتَأْبِيدِ النَّفْيِ، وَإِنَّهَا تَدُلُّ عَلَى عَدَمِ وُقُوعِ الرُّؤْيَةِ أَصْلاً؛ فَهُوَ كَذِبٌ عَلَى اللُّغَةِ فَقَدْ قَالَ تَعَالَى حِكَايَةً عَنِ الْكُفَّارِ: {وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ} [البقرة: 95].

والضمير يعود إلى الموت، {وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ}، هذا يعود إلى الموت.

هل تمنى الكفار الموت؟ نعم، لو كانت (لن) تفيد التأبيد لما تمنوه أبدًا؛ لأن (لن) نفي لما يُستقبل.

قال: ثُمَّ قال: {وَنَادَوْا يَامَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ} [الزخرف: 77].

إذًا: تمنوا الموت بعد ذلك.

قال: فَأَخْبَرَ عَنْ عَدَمِ تمنِّيهم لِلْمَوْتِ بِـ {لَن} ، ثُمَّ أَخْبَرَ عَنْ تمنِّيهم لَهُ وَهُمْ فِي النَّارِ.

وقد عقد ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ مبحثًا لطيفًا قيمًا في هذه المسألة في الفرق بين (لن) و (لا) في إفادة التأبيد في النفي.

وقال: إن الذي يفيد التأبيد هو (لا) ودلل على ذلك، وأما (لن) فإنها لا تفيد التأبيد، وإنما يُنظر لمعناها من خلال السياق.

ولذا رد ابن مالك رَحِمَهُ اللهُ على من ذهب إلى أن (لن) تفيد التأبيد، فقال رَحِمَهُ اللهُ:

ومـن رأى النفـي بلـن مؤبـدًا فقولـه اردد وسـواه فاعضـدا

ومن رأى النفي بلن مؤبدًا, فقوله اردد: أي: اردد قوله.

وسواه فاعضدا: يعني: اذهب إلى غيره أن (لن) لا تفيد التأبيد في النفي.

قال: وَإِذًا؛ فَمَعْنَى قَوْلِهِ: {لَن تَرَانِي}: لَنْ تَسْتَطِيعَ رُؤْيَتِي فِي الدُّنْيَا؛ لِضَعْفِ قُوَى الْبَشَرِ فِيهَا عَنْ رُؤْيَتِهِ سُبْحَانَهُ، وَلَوْ كَانَتِ الرُّؤْيَةُ مُمْتَنِعَةً لِذَاتِهَا؛ لَقَالَ: إِنِّي لَا أُرى.

يعني: لجاء بلا.

أَوْ لَا يَجُوزُ رُؤْيَتِي، أَوْ لَسْتُ بمرئيٍّ وَنَحْوَ ذَلِكَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

فهذه الأدلة التي ذكرها المصنف رَحِمَهُ اللهُ ليس فيها دلالة على ما ذهب إليه المعتزلة.

ماذا عن الأشعرية؟ قلنا: الأشعرية قالوا: نثبت رؤية الله في الآخرة، لكنها ليست رؤية بالأبصار لهذه الشبهات التي ذكرناها عنهم، ولذا مآل قولهم إلى إثبات الرؤية على جهة العلم، وقد

صرح بذلك الغزالي كما في الاقتصاد في الاعتقاد، وكذلك الآمدي، ولذا هؤلاء لا يثبتون رؤية الله عَزَّ وَجلَّ في الآخرة على الحقيقة.

هناك الكثير من الأحاديث التي تثبت رؤية الله عَزَّ وَجلَّ في الآخرة وهي أحاديث متواترة ونُرجئها لمبحث السنة في إثبات صفات الباري سُبْحَانَهُ وَتعَالَى الذي سيعقده المصنف رَحِمَهُ اللهُ بعد ذلك.

لكن نقول كذلك مما ورد في كتاب الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى مما يدل على رؤية الله عَزَّ وَجلَّ في الآخرة: إثبات لقُيا الله عَزَّ وَجلَّ للمؤمنين، فكل لُقيا من الله عَزَّ وَجلَّ للمؤمنين في الآخرة فإنها تستلزم الرؤية، هكذا قال أهل اللغة؛ كما قال الله عَزَّ وَجلَّ: {تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا} [الأحزاب: 44].

قال البغوي رَحِمَهُ اللهُ: تحية المؤمنين يوم يلقونه، أي: يوم يرون الله.

{سَلاَمٌ}، أي: يسلم عليهم.

وقال أبو عبد الله بن بطة رَحِمَهُ اللهُ صاحب كتاب الإبانة الكبرى، وهو من أضخم المصنفات في ذكر اعتقاد أهل السنة والجماعة، طبعته دار الراية في تسع مجلدات، قال: سمعت أبا أحمد بن عبد الواحد صاحب اللغة يقول: سمعت أبا العباس أحمد بن يحيى ثعلبًا, وهو من أئمة اللغة كذلك, يقول في قول الله تعالى: {وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا * تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلاَمٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا} [الأحزاب: 43- 44], قال: أجمع أهل اللغة على أن اللقاء هاهنا لا يكون إلا معاينة ونظرًا بالأبصار، وهذا قاله أئمة اللغة.

إذًا: اللُقيا كذلك تستلزم رؤية الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

وكل حديث ثبت فيه أن الله عَزَّ وَجلَّ يلقى المؤمنين، فهذا فيه كذلك إثبات رؤية الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى؛ كما جاء في حديث أنس في قصة حديث بئر معونة أن الشهداء قالوا: "أَنَّا لَقِينَا رَبَّنَا فَرَضِيَ عَنَّا وَأَرْضَانَا".

وكذلك حديث عائشة: **"مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللهِ أَحَبَّ اللهُ لِقَاءَهُ"**.

وكذلك قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الأثرة التي تكون بعد موته، قال: **"فَاصْبِرُوا حَتَّى تَلْقَوُا اللهَ"**، وقال: **"اصْبِرُوا حَتَّى تَلْقَوْنِي عَلَى الْحَوْضِ"**، وهذه اللقيا إنما تستلزم رؤية النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إلى غير ذلك من الأحاديث.

فكل ذلك مما يدل على هذه المسألة العظيمة، أسأل الله عَزَّ وَجلَّ أن يجعل لنا أوفر الحظ والنصيب منها، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

قال المصنف رَحِمَهُ اللهُ بعد ذلك وهو يختم هذا الباب باب الاستدلال بكتاب الله عَزَّ وَجلَّ، قال: وَهَذَا الْبَابُ فِي كِتَابِ اللهِ كَثِيرٌ، مَنْ تَدَبَّرَ الْقُرْآنَ طَالِبًا لِلْهُدَى مِنْهُ؛ تَبَيَّنَ لَهُ طَرِيقُ الْحَقِّ.

قال الشيخ الهراس رَحِمَهُ اللهُ: مباحث عامّة حول آيات الصفات.

إِنَّ النَّاظِرَ فِي آيَاتِ الصِّفَاتِ الَّتِي سَاقَهَا المؤلِّف رَحِمَهُ اللهُ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَسْتَنْبِطَ مِنْهَا قواعدَ وَأُصُولًا هامَّة يَجِبُ الرُّجُوعُ إِلَيْهَا فِي هَذَا الْبَابِ.

وهذه القواعد ذكرناها وكررناها كثيرًا، ولذلك سنقتصر على قراءتها.

قال: الْأَصْلُ الأوَّل: اتَّفَقَ السَّلَفُ عَلَى أَنَّهُ يَجِبُ الْإِيمَانُ بِجَمِيعِ الْأَسْمَاءِ الْحُسْنَى، وَمَا دلَّت عَلَيْهِ مِنَ الصِّفَاتِ، وَمَا يَنْشَأُ عَنْهَا مِنَ الْأَفْعَالِ.

إذًا: الإيمان الواجب بأسماء الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى أن نثبت الاسم والصفة التي تضمنها هذا الاسم، وأثر هذه الصفة وهو فعل الله عَزَّ وَجلَّ في خلقه، خاصة إذا كانت الصفة متعدية.

قال: مِثَالُ ذَلِكَ الْقُدْرَةُ مَثَلاً، يَجِبُ الْإِيمَانُ بِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَالْإِيمَانُ بِكَمَالِ قُدْرَتِهِ، وَالْإِيمَانُ بِأَنَّ قُدْرَتَهُ نَشَأَتْ عَنْهَا جَمِيعُ الْكَائِنَاتِ.

هذا أثر الصفة.

وَهَكَذَا بَقِيَّةُ الْأَسْمَاءِ الْحُسْنَى عَلَى هَذَا النَّمَطِ.

وَعَلَى هَذَا؛ فَمَا وَرَدَ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ الَّتِي سَاقَهَا المصنِّف مِنَ الْأَسْمَاءِ الْحُسْنَى؛ فَإِنَّهَا داخلةٌ فِي الْإِيمَانِ بِالاسْمِ.

وَمَا فِيهَا مِنْ ذِكْرِ الصِّفَاتِ؛ مِثْلِ: عِزَّةِ اللَّهِ، وَقُدْرَتِهِ، وَعِلْمِهِ، وَحِكْمَتِهِ، وَإِرَادَتِهِ، وَمَشِيئَتِهِ، فَإِنَّهَا دَاخِلَةٌ فِي الْإِيمَانِ بِالصِّفَاتِ.

وَمَا فِيهَا مِنْ ذِكْرِ الْأَفْعَالِ الْمُطَلَقَةِ والمقيَّدة، مِثْلِ: يَعْلَمُ كَذَا، وَيَحْكُمُ مَا يُرِيدُ، وَيَرَى، وَيَسْمَعُ، وَيُنَادِي، وَيُنَاجِي، وكلَّم، ويكلِّم؛ فَإِنَّهَا داخلةٌ فِي الْإِيمَانِ بِالْأَفْعَالِ.

وسبحان الذي يهدي خلقه إلى صراطه المستقيم، الشيخ الهراس كان موغلاً في الأشعرية مدافعًا عنها وعن الفلسفة، ثم هو سبحان الله بعد ذلك يقرر هذا المعتقد معتقد أهل السنة والجماعة، بل ويضع الأصول التي ينبغي أن يسير عليها المؤمن الموحد.

قال: الْأَصْلُ الثَّانِي: دلَّت هَذِهِ النُّصُوصُ الْقُرْآنِيَّةُ عَلَى أَنَّ صِفَاتِ الْبَارِي قِسْمَانِ:

صِفَاتٌ ذاتيَّة لَا تنفكُّ عَنْهَا الذَّاتُ، بَلْ هِيَ لَازِمَةٌ لَهَا أَزَلًا وَأَبَدًا.

الأزل هذا فيما يتعلق بالماضي، والأبد فيما يتعلق بالمستقبل.

وَلَا تتعلَّق بِهَا مَشِيئَتُهُ تَعَالَى وَقُدْرَتُهُ، وَذَلِكَ كَصِفَاتِ: الْحَيَاةِ، وَالْعِلْمِ، وَالْقُدْرَةِ، وَالْقُوَّةِ، والعزَّة، وَالْمُلْكِ، وَالْعَظَمَةِ، وَالْكِبْرِيَاءِ، وَالْمَجْدِ، وَالْجَلَالِ إلخ.

قال: وصِفَاتٌ فعليَّة تَتَعَلَّقُ بِهَا مَشِيئَتُهُ وَقُدْرَتُهُ كُلَّ وَقْتٍ وَآنٍ.

وهذه الصفات ينفيها كل أهل البدع خلا أهل السنة والجماعة، الصفات الفعلية.

قال: وَتَحْدُثُ بِمَشِيئَتِهِ وَقُدْرَتِهِ آحَادُ تِلْكَ الصِّفَاتِ مِنَ الْأَفْعَالِ، وَإِنْ كَانَ هُوَ لَمْ يَزَلْ مَوْصُوفًا بِهَا، بِمَعْنَى أَنَّ نَوْعَهَا قَدِيمٌ، وَأَفْرَادَهَا حَادِثَةٌ.

ولذا يقال في مثل هذه الصفات قديمة النوع حادثة الآحاد.

قال: فَهُوَ سُبْحَانَهُ لَمْ يَزَلْ فَعَّالًا لِمَا يُرِيدُ، وَلَمْ يَزَلْ وَلَا يَزَالُ يَقُولُ ويتكلَّم وَيَخْلُقُ ويدبِّر الْأُمُورَ، وَأَفْعَالُهُ تَقَعُ شَيْئًا فَشَيْئًا، تَبَعًا لِحِكْمَتِهِ وَإِرَادَتِهِ.

فَعَلَى الْمُؤْمِنِ الإيمان بكل ما نسبه اللَّهُ لِنَفْسِهِ مِنَ الْأَفْعَالِ المتعلِّقة بِذَاتِهِ؛ كَالِاسْتِوَاءِ عَلَى الْعَرْشِ، وَالْمَجِيءِ، وَالْإِتْيَانِ، وَالنُّزُولِ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، وَالضَّحِكِ، وَالرِّضَى، وَالْغَضَبِ، وَالْكَرَاهِيَةِ، وَالْمَحَبَّةِ.

قال: والمتعلِّقة بِخَلْقِهِ؛ كَالْخَلْقِ، وَالرِّزْقِ، وَالْإِحْيَاءِ، وَالْإِمَاتَةِ، وَأَنْوَاعِ التَّدْبِيرِ الْمُخْتَلِفَةِ.

يُقال في صفة الله عَزَّ وَجلَّ: الرَزق، ولا يقال الرِزق، الرِزق هو ما يخلقه الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى ويرزقه العباد، وأما صفته فهي الرَزق، فالله يرزق رَزقًا، وهو الرزاق سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

قال: الْأَصْلُ الثَّالِثُ: إِثْبَاتُ تفرُّد الربِّ جلَّ شَأْنُهُ بِكُلِّ صِفَةِ كَمَالٍ، وَأَنَّهُ لَيسَ لَهُ شَرِيكٌ أَوْ مثيلٌ فِي شيءٍ مِنْهَا.

وَمَا وَرَدَ فِي الْآيَاتِ السَّابِقَةِ مِنْ إِثْبَاتِ الْمَثَلِ الْأَعْلَى لَهُ وَحْدَهُ، وَنَفْيِ النِّدِّ وَالْمِثْلِ وَالْكُفْءِ وَالسَّمِيِّ وَالشَّرِيكِ عَنْهُ يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ؛ كَمَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ منزَّه عَنْ كُلِّ نقصٍ وعيبٍ وآفةٍ.

الْأَصْلُ الرَّابِعُ: إِثْبَاتُ جَمِيعِ مَا وَرَدَ بِهِ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ مِنَ الصِّفَاتِ، لَا فَرْقَ بَيْنَ الذَّاتِيَّةِ مِنْهَا؛ كَالْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ وَالْإِرَادَةِ وَالْحَيَاةِ وَالسَّمْعِ وَالْبَصَرِ وَنَحْوِهَا.

وهذه الصفات السبعة التي ذكرها المصنف هي التي يثبتها الأشعرية، فالقول في بعض الصفات كالقول في بعض كما قرر ذلك شيخ الإسلام في التدمرية وغيرها.

قال: وَالْفِعْلِيَّةِ؛ كَالرِّضَا وَالْمَحَبَّةِ وَالْغَضَبِ وَالْكَرَاهَةِ، وَكَذَلِكَ لَا فَرْقَ بَيْنَ إِثْبَاتِ الْوَجْهِ وَالْيَدَيْنِ وَنَحْوِهِمَا، وَبَيْنَ الِاسْتِوَاءِ عَلَى الْعَرْشِ وَالنُّزُولِ، فَكُلُّهَا مِمَّا اتَّفَقَ السَّلَفُ عَلَى إِثْبَاتِهِ بِلاَ تَأْوِيلٍ وَلَا تَعْطِيلٍ، وَبِلاَ تَشْبِيهٍ وَتَمْثِيلٍ.

قال: وَالْمُخَالِفُ فِي هَذَا الْأَصْلِ فَرِيقَانِ:

الجهميَّة: يَنْفُونَ الْأَسْمَاءَ وَالصِّفَاتِ جَمِيعًا.

فلا يثبتون لله اسمًا ولا صفة، وهولاء غلاتهم، ومنهم غلاة الغلاة الذين ينفون النقيضين، يقولون: لا نقول حي ولا ليس بحي!!

والْمُعْتَزِلَةُ: فَإِنَّهُمْ يَنْفُونَ جَمِيعَ الصِّفَاتِ، وَيُثْبِتُونَ الْأَسْمَاءَ وَالْأَحْكَامَ، فَيَقُولُونَ: عَلِيمٌ بِلاَ عِلْمٍ، وَقَدِيرٌ بِلاَ قُدْرَةٍ، وحيٌّ بِلاَ حَيَاةٍ ... إلخ.

ما شبهتهم في ذلك؟ أن تعدد الصفات يدل على تعدد القدماء، فلو أثبتنا صفات متعددة قديمة لشابهنا النصارى في ذلك وصرنا نعبد أكثر من إله، وهذا قول يرده العقل والنقل، لأن الصفات إنما تُضاف إلى الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى وذات الله واحدة.

ولذا نقول: أسماء ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى مترادفة متباينة، مترادفة لأنها كلها تدل على ذات واحدة، ومتباينة لأنها تتضمن صفات ومرد هذه الصفات المختلفة المتباينة إلى ذات واحدة.

وقد جاء في كتاب الله عَزَّ وَجلَّ كثيرًا أن الله عَزَّ وَجلَّ يصف المخلوق بصفات: {ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (11) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا (12) وَبَنِينَ شُهُودًا (13) وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا} [المدثر: 11-14]، صفات عديدة ترجع إلى مخلوق واحد، فقولهم هذا من أبطل الباطل.

قال: وَهَذَا الْقَوْلُ فِي غَايَةِ الْفَسَادِ.

يعني: قول المعتزلة.

فَإِنَّ إِثْبَاتَ مَوْصُوفٍ بِلاَ صِفَةٍ، وَإِثْبَاتَ مَا لِلصِّفَةِ لِلذَّاتِ المجرَّدة محالٌ فِي الْعَقْلِ؛ كَمَا هُوَ باطلٌ فِي الشَّرْعِ.

وأَمَّا الْأَشْعَرِيَّةُ ومَن تَبِعَهُمْ؛ فَإِنَّهُمْ يُوَافِقُونَ أَهْلَ السُّنَّةِ فِي إِثْبَاتِ سَبْعِ صِفَاتٍ يُسَمُّونَهَا صِفَاتِ الْمَعَانِي، ويدَّعون ثُبُوتَهَا بِالْعَقْلِ.

يقولون: هذه الصفات ثابتة بالعقل، وعندهم كذلك خلل عظيم في هذه الصفات، فإثباتهم لهذه الصفات لا يعني أنهم وافقوا أهل السنة والجماعة من كل جهة في هذه الصفات، علم الله قديم عندهم لا يتجدد ولا يتعلق بالأمور المُحدثة، وكذلك إرادته، وكذلك سمعه وبصره وكلامه.

ولذلك هذه الصفات كذلك مردها عندهم إلى صفة العلم، وهذا يجعلنا نقطع بتأثر الأشعرية بشكل شديد جدًا بالمعتزلة.

ولذا كان آخر ما وصل إليه الأشعرية أنهم اقتربوا جدًا من عقيدة أهل الاعتزال، ومن الذي قربهم بهذه الصورة؟

الفخر الرازي هو الذي قربهم؛ ولذا الفخر الرازي هو العمدة عندهم الآن في تقرير عقيدة الأشعرية، وكتبه هي العمدة في تقرير عقيدة الأشعرية.

قال: وأَمَّا الْأَشْعَرِيَّةُ ومَن تَبِعَهُمْ؛ فَإِنَّهُمْ يُوَافِقُونَ أَهْلَ السُّنَّةِ فِي إِثْبَاتِ سَبْعِ صِفَاتٍ يُسَمُّونَهَا صِفَاتِ الْمَعَانِي، ويدَّعون ثُبُوتَهَا بِالْعَقْلِ، وَهِيَ: الْحَيَاةُ، وَالْعِلْمُ، وَالْقُدْرَةُ، وَالْإِرَادَةُ، وَالسَّمْعُ، وَالْبَصَرُ، وَالْكَلاَمُ.

وَلَكِنَّهُمْ وَافَقُوا الْمُعْتَزِلَةَ فِي نَفْيِ مَا عَدَا هَذِهِ السَّبْعَ مِنَ الصِّفَاتِ الْخَبَرِيَّةِ الَّتِي صحَّ بِهَا الْخَبَرُ.

ثم قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ بعد ذلك: ثُمَّ فِي سُنَّةِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

أي دليل هذه الصفات في سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فَالسُّنَّةُ تُفَسِّرُ الْقُرآنَ، وتُبَيِّنُهُ، وتَدُلُّ عَلَيْهِ، وتُعَبِّرُ عَنْهُ، وَمَا وَصَفَ الرَّسُولُ بِهِ رَبَّهُ عز وجل مِنَ الأَحَادِيثِ الصِّحَاحِ الَّتِي تَلَقَّاهَا أَهْلُ الْمَعْرِفَةِ بِالْقَبُولِ؛ وَجَبَ الإِيمَانُ بِهَا كَذَلِكَ.

وهذا ما نبدأ به إن شاء الله في الدرس القادم.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم، وجزاكم الله خيرًا.

الدرس التاسع والعشرون

إن الحمد لله, نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله تعالى من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله, صلى الله عليه, وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد:

فبعد أن انتهى المصنف رَحِمَهُ اللهُ من ذكر أدلة صفات الباري التي وردت في كتابه تعالى ؛ ثنَّى بذكر ما دل على ذلك من سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ونحن نعلم أن السنة وحي كالقرآن, فالذي أنزل القرآن هو الذي أنزل السنة؛ كما قال تعالى: {وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ} [النساء: 113]؛ فالحكمة: هي سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما قال المفسرون.

والسنة هي الأصل الثاني من أصول الإسلام, لا تخالف القرآن؛ ولذا قال علماؤنا: السنة تفسر القرآن وتبينه وتقيد مطلقه وتخصص عمومه وتبين مجمله.

فالسنة حجة كالقرآن تمامًا, فذكر المصنف رَحِمَهُ اللهُ ما عليه أهل السنة والجماعة في هذا الباب؛ لأنهم يحتجون بكتاب الله وسنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ, لا يفرقون بينهما في هذا الباب العظيم؛ الذي هو باب الاعتقاد, إذ لا يُتلقى هذا الباب إلا من قِبل الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، ولذا كان مبناه على التوقيف.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ في عقيدته الواسطية, قال: ثُمَّ فِي سُنَّةِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال الشيخ الهراس رَحِمَهُ اللهُ: وَالْكُلُّ مَحْجُوجُونَ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَإِجْمَاعِ الصَّحَابَةِ وَالْقُرُونِ المفضَّلة عَلَى الْإِثْبَاتِ الْعَامِّ.

أي: أن الدليل في هذا الباب يرجع إلى ما جاء في كتاب الله, وسنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ, وما أجمع عليه أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ, فإن أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والأمة من بعدهم لا يجتمعون على ضلالة, وهذا مما خص الله عَزَّ وَجلَّ به هذه الأمة؛ أنهم إن أجمعوا على شيء كان إجماعهم حجة.

قال: قَوْلُهُ: ((ثُمَّ فِي سُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ)) عطفٌ عَلَى قَوْلِهِ فِيمَا تقدَّم: ((وَقَدْ دَخَلَ فِي هَذِهِ الْجُمْلَةِ مَا وَصَفَ اللَّهُ بِهِ نَفْسَهُ فِي سُورَةِ الْإِخْلَاصِ ... إلخ)).

أي أن قول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: ((ثُمَّ فِي سُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ))؛ هذا عطف على هذه الجملة التي ذكرها الشيخ الهراس, وهي قول شيخ الإسلام ابن تيمية: ((وَقَدْ دَخَلَ فِي هَذِهِ الْجُمْلَةِ))؛ في جملة ما يعتقده أهل السنة والجماعة, ((مَا وَصَفَ اللَّهُ بِهِ نَفْسَهُ فِي سُورَةِ الْإِخْلَاصِ ... إلخ)), ثم ما أتبعه من أدلة من كتاب الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى, فالعمدة في ذلك كتاب الله عَزَّ وَجلَّ.

يقول: يَعْنِي: وَدَخَلَ فِيهَا مَا وَصَفَ بِهِ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ربَّه فِيمَا وَرَدَتْ بِهِ السُّنَّةُ الصَّحِيحَةُ.

قال: والسنَّة هِيَ الْأَصْلُ الثَّانِي الَّذِي يَجِبُ الرُّجُوعُ إِلَيْهِ، والتَّعويل عَلَيْهِ بَعْدَ كِتَابِ اللَّهِ عز وجل؛ قَالَ تَعَالَى: {وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ} [النساء: 113]؛ وَالْمُرَادُ بِالْحِكْمَةِ: السُّنَّةُ.

وَقَالَ: {وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ} [البقرة: 129].

وَقَالَ آمِرًا لِنِسَاءِ نبيِّه: {وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ} [الأحزاب: 34].

وَقَالَ سُبْحَانَهُ: {وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا} [الحشر: 7].

وَقَالَ صلواتُ اللَّهِ وسلامُهُ عليهِ وَآلِهِ: ((أَلَا إِنِّي أُوتِيتُ الْقُرْآنَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ)).

فهذه الآيات التي ذكرها المصنف رَحِمَهُ اللهُ وكذلك الحديث فيه بيان حجية سنة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ, لا فرق في ذلك بين الكتاب والسنة في إثبات ما ثبت لله تَبَارَكَ وَتَعَالَى من أسماء حسنى وصفات مثلى, وعلى هذا إجماع أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فمن ابتغى الهدى في غير ذلك فقد ضل وأضل؛ ولذا تجد أهل البدع لا يعولون على ما جاء في كتاب الله وسنة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ, وعلى ما كان عليه أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ, وإنما عمدتهم في ذلك ما جاءت به فلاسفة اليونان وما قال به أئمتهم من أهل البدع كالجهم والمريسي، والنظَّام والعلاَّف وعبد الجبار, وكذلك ما قال به متقدموهم على اختلافهم أسمائهم, يجعلون هذا القول هو عمدتهم.

فإذا جاء في كتاب الله أو في سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما يخالف ذلك إما ان يحرفوه, وإما أن يردوه بحجة أنه من أخبار الآحاد, وهذا كله ضلال مبين كما سيأتي.

قال الشيخ: وَحُكْمُ السُّنَّةِ حُكْمُ الْقُرْآنِ فِي ثُبُوتِ الْعِلْمِ وَالْيَقِينِ وَالِاعْتِقَادِ وَالْعَمَلِ.

إذًا: إذا جاءت آية قلنا سمعنا واطعنا وصدقنا, كما نقول في العمليات نقول في العلميات.

إذا جاءت آية تقول: أقيموا الصلاة, ماذا نصنع؟ نقول: سمعنا وأطعنا وننفذ, هذا لا يخالف فيه أحد, لا أهل السنة ولا أهل البدع.

إذا جاء حديث عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُفصل هذا المجمل, قوله تعالى: {وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ} [البقرة: 43]؛ هذا مجمل, من جهة وقت إقامة الصلاة وكيفيتها وعدد ركعاتها.

ما الذي فصَّل ذلك؟ سنة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

يختلف في ذلك أحد؟ لا يختلف في ذلك أحد.

لو طالعت كتب هؤلاء التي صنفوها في العمليات في الفقه والعبادات تجدهم يفسرون هذا المجمل بماذا؟ بما جاء في سنة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

نقول لهم: هذه الأحاديث من الذي رواها؟ يقولون: الصحابة رضي الله عنهم.

من الذي رواها عن الصحابة؟ التابعون, وهكذا أتباع التابعين, إلى آخر سلسلة الإسناد.

هل يطعنون فيهم؟ يتهمونهم بالخطأ؟ لا يتهمونهم بشيء من ذلك.

فإذا روى هؤلاء الأئمة -هم أنفسهم- أحاديث في صفات الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى لماذا تُردون هذه الأحاديث إذن؟ إذا كنتم وثِقتم في عدالة هؤلاء وفي صحة نقلهم عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لماذا تردون أحاديثهم في صفات الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى التي قالها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟

لأنهم اعتقدوا ثم استدلوا, عند اعتقادهم راسخ التعطيل, والتجهم, هذا الاعتقاد مقدم على قول كل أحد, حتى ولو كان هذا القول قول ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى, يردون هذا القول بلسان الحال أو بلسان المقال.

حتى قال بعض أئمتهم وهو يعدد أصول الكفر؛ وهو السنوسي, في شرحه على أم البراهين.

يقول: الأصل السادس من أصول الكفر إعمال ظواهر القرآن والسنة؛ كمثل إجراء قول الله تعالى: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى}, على ظاهره, فلو أنك أثبت إلهًا استوى على عرشه كما نطق القرآن بذلك؛ فقد وقعت في الكفر.

هكذا يقول, لماذا؟ كما قلنا لأنهم عندهم اعتقاد فاسد راسخ, ثم بعد ذلك يستدلون لهذا الاعتقاد.

فقال الشيخ: وَحُكْمُ السُّنَّةِ حُكْمُ الْقُرْآنِ فِي ثُبُوتِ الْعِلْمِ.

فإذا كان القرآن يفيد العلم؛ فكذلك سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تفيد العلم.

وَالْيَقِينِ وَالِاعْتِقَادِ.

أي: يجب أن نعتقد ما جاء في سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ كما جاء في كتاب ربنا، اعتقادا جازما لا شك فيه، وهذا معنى اليقين.

وَالْعَمَلِ.

لا فرق في هذه الأربعة بين كتاب الله وسنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ طالما أنها ثبتت وتلقتها الأمة بالقبول.

قال: فَإِنَّ السُّنَّةَ تَوْضِيحٌ لِلْقُرْآنِ، وبيانٌ لِلْمُرَادِ مِنْهُ: تفصِّل مُجْمَلَهُ، وتقيِّد مُطْلَقَهُ، وتخصِّص عُمُومَهُ؛ كَمَا قَالَ تَعالَى: {وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ} [النحل: 44].

فهذا دليل على أن سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وظيفتها هذه الأمور التي ذكرها المصنف رَحِمَهُ اللهُ.

ولذلك قال من قال من السلف: القرآن أحوج إلى السنة من السنة إلى القرآن, لماذا؟ لأن السنة بيِّنة, وأما القرآن فهو مجمل في كثير من مواضعه؛ بينته سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

كهذا المثال الذي ذكرناه: {وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ}, بينه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقوله وفعله.

{وَآتُوا الزَّكَاةَ} [البقرة: 43], {وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ} [الأنعام: 141]؛ هذا مجمل, بيَّن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنصبة الزكاة, وفيم تكون الزكاة, ومتى تكون الزكاة, وشرط وجوب الزكاة.

{وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ} [البقرة: 196]، بيَّن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذلك بقوله: "خُذُوا عَنِّي مَنَاسِكَكُمْ"، فبيَّن الحج بقوله وفعله وإقراره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

كذلك في الصوم, وفي غير ذلك من الأمور, فعل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذا الذي ذكره المصنف رَحِمَهُ اللهُ، فوضح القرآن وبيَّن المراد منه وفصل مجمله وقيد مطلقه وخصص عمومه.

ولو أردنا أن نضرب مثالًا على ذلك في هذا الباب الذي نحن فيه –أعني باب الاعتقاد في صفة العلو–، هل تجدون لهذه الصفة دليلاً في كتاب الله؟ أجل هناك أكثر من دليل في كتاب الله، كمثل ماذا؟

{إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ} [فاطر: 10]، {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} [طه: 5]، {سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى} [الأعلى: 1]، هذا ما جاء في كتاب الله.

أين ما جاء في سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، التي هي ما أُضيف إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من قول وفعل وتقرير؟

- أما قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ففي مثل قوله: **"يَنْزِلُ رَبُّنَا إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا"**، والنزول إنما يكون من علو؛ وكقول رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **"ما من امرأة تبيت وزوجها عليها غضبان إلا كان الذي في السماء ساخطًا عليها"**، هذا قول رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.
- وأما فعل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فكعروجه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى السماء، وكذلك وقوله في حجة الوداع وأشار بأصبعه إلى السماء، قال: **"اللهم بلغت، اللهم فاشهد"**، هذا فعل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.
- وأما إقراره؛ فكإقراره للجارية التي سألها أين الله؟ فقالت في السماء، فأقرها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بل صدقها في قولها لما قال: **"أَعْتِقْهَا فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ"**.

فسنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تؤكد ما جاء في القرآن وتفسره؛ ولذا حذر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أقوام يأتون بعده يردون سنته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ووالله ثم والله هؤلاء الذين يزعمون أنهم يحبون رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأنهم يريدون إظهار هذه المحبة بمثل هذه البدع التي يريدون نشرها بين الناس، كالموالد المحدثة، والأذكار المبتدعة. نقول: هؤلاء أعداء السنن، أصعب شيء عليهم أن يسمعوا حديثًا لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيما يتعلق بمخالفة البدع التي هم عليها، أو فيما يتعلق بإثبات صفات ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

ومثلهم كمثل رئيسهم الجهم بن صفوان، أو الجعد بن درهم؛ هذا الذي كلما قرأ القرآن وجد فيه: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى}، فود أن لو حك هذه الآية من المصحف، فحال هؤلاء كحال هذا يود الواحد منهم أن لو طمس كل هذه الأحاديث التي جاءت في سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مما يتعلق بهذا الباب.

ولذا قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ محذرًا من هذا الصنف، قال: "لَا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ مُتَّكِئًا عَلَى أَرِيكَتِهِ، يَأْتِيهِ الْأَمْرُ مِمَّا أَمَرْتُ بِهِ"، أي: من سنة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، "فَيَقُولُ: لَا أَدْرِي، مَا وَجَدْنَا فِي كِتَابِ اللَّهِ اتَّبَعْنَاهُ، أَلَا وَإِنِّي أُوتِيتُ الْكِتَابَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ".

هل هؤلاء يثبتون ما جاء في الكتاب؟ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يحكي عن صنف من الناس سيأتي بعده يريدون التحاكم إلى كتاب الله فقط. والحق أن هؤلاء لا يتحاكمون لا إلى كتاب الله ولا إلى سنة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذا الباب.

فإذا جاءت آية تثبت صفة لله عَزَّ وَجلَّ، ماذا يصنع هؤلاء؟ يحرفونها ويقولون: الآية جاءت على سبيل المجاز، ليس هذا هو المراد. الظاهر ليس مرادًا، وإنما استوى بمعنى: استولى، وقول الله تعالى: {لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ} [ص: 75]، أي: بنعمتي، {تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا} [القمر: 14]، أي: بمرأى منا وبرعايتنا.

إذًا: هؤلاء كذلك ما آمنوا بالقرآن إلا بمجرد ألفاظه، وأما المعاني التي بينها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وشرحها لأصحابه فما قبلوها عن أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فهذا الصنف الذي يذكره رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أحسن حالًا من هؤلاء، فسنة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حجة كالقرآن تمامًا.

ولذا قال الله عَزَّ وَجلَّ: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ} [النساء: 59]، فأفرد طاعة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عن طاعته سبحانه، فقال: {أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ}.

وهذا يعني: أن ما جاء به رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وإن لم يكن موجودًا في القرآن، أي: كان سنة تأسيسية، هذه السنة أسست حكمًا ليس موجودًا في القرآن، فرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُطاع في ذلك.

كهذا الحديث الذي سيبدأ به المصنف رَحِمَهُ اللهُ، وهذه الصفة التي سيبدأ بها المصنف رَحِمَهُ اللهُ وهي: صفة النزول، هذه الصفة ما دليل إثباتها؟ سنة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لأن هذه الصفة لم ترد صراحة في كتاب الله عَزَّ وَجلَّ.

فلماذا نصدقها؟ ولماذا نعتقد أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أخبر بها، وأن الله عَزَّ وَجلَّ ينزل كل ليلة؟ لأننا نوقن ونعتقد أن سنة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حجة في كل ذلك لا فرق بين العلم والعمل.

قال: فَالسُّنَّةُ تُفَسِّرُ الْقُرآنَ، وتُبَيِّنُهُ، وتَدُلُّ عَلَيهِ، وتُعَبِّرُ عَنْهُ.

هذا كلام شيخ الإسلام ابن تيمية.

السُّنَّةُ تُفَسِّرُ الْقُرآنَ، وتُبَيِّنُهُ، وتَدُلُّ عَلَيهِ، وتُعَبِّرُ عَنْهُ.

قال الشيخ الهراس: وَأَهْلُ الْبِدَعِ وَالْأَهْوَاءِ بِإِزَاءِ السُّنَّةِ الصَّحِيحَةِ فَرِيقَانِ.

أهل البدع سموا بذلك لأنهم خالفوا سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فالبدع هي كل ما أُحدث في الدين على خلاف طريقة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ودليل ذلك قوله: "مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ"، هذا هو حد البدع من سنة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وأما حدها في الاصطلاح؛ فأشهر من حدها الشاطبي رَحِمَهُ اللهُ، وقال: إنها طريقة في الدين مخترعة يُضاهى بها الطريقة الشرعية، ويُقصد بها المبالغة في التعبد لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

فأهل البدع لماذا سموا بأهل البدع؟ لأنهم خالفوا سنة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فإذا جاء أو أتى آت ووصَفَنا نحن بأهل البدع، نقول: كذبت وبيننا وبينكم سنة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وفَهم أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لهذه السنة.

ثم ننظر إي الفريقين أحق بوصف السنة من البدعة، هؤلاء كم يعملون بسنة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ ما يعملون إلا النذر القليل.

هؤلاء كم يقتدون بهدي أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ لا يقيمون لذلك وزنًا, وإنما عمدتهم في ذلك الشاذلي والبدوي والدسوقي وأصحاب المقامات والقبور والرؤى والمنامات، هذا ما يقيمون له وزنًا.

وأما سنة أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهدي أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لا تجد هذا مذكورًا في كلامهم.

قال: أَهْلُ الْبِدَعِ وَالْأَهْوَاءِ.

سموا بذلك لأنهم يتبعون أهوائهم لا يتبعون ما جاء عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وَأَهْلُ الْبِدَعِ وَالْأَهْوَاءِ بِإِزَاءِ السُّنَّةِ الصَّحِيحَةِ فَرِيقَانِ:

قال: فريقٌ لَا يتورَّع عَنْ رَدِّهَا وَإِنْكَارِهَا إِذَا وَرَدَتْ بِمَا يُخَالِفُ مَذْهَبَهُ؛ بِدَعْوَى أَنَّهَا أَحَادِيثُ آحَادٍ لَا تُفِيدُ إِلَّا الظنَّ، وَالْوَاجِبُ فِي بَابِ الِاعْتِقَادِ الْيَقِينُ، وَهُؤَلَاءِ هُمُ الْمُعْتَزِلَةُ وَالْفَلَاسِفَةُ.

بل وأفراخ المعتزلة من الأشاعرة، فكل طوائف أهل البدع ترد حديث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ليس الأمر مقصورًا على هؤلاء الذين ذكرهم المصنف أو الشارح رَحِمَهُ اللهُ.

حال هؤلاء أنهم لا يتورعون عن رد سنة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وإنكارها، حتى ولو كانت في الصحيحين، حتى ولو تلقتها الأمة بالقبول، لا يوردون هذه الأحاديث إلا على سبيل الشبهة التي تحتاج إلى رد .

قال: إِذَا وَرَدَتْ بِمَا يُخَالِفُ مَذْهَبَهُ؛ بِدَعْوَى أَنَّهَا أَحَادِيثُ آحَادٍ.

ما المراد بحديث الآحاد؟ هو كل حديث لم يتواتر عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال: لَا تُفِيدُ إِلَّا الظنَّ.

وهل أحاديث الآحاد لا تفيد إلا الظن؟ الأصل في حديث الآحاد أنه يفيد الظن، لكن إن صح عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتلقته الأمة بالقبول أفاد العلم.

أين نجد الأحاديث التي صحت عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتلقتها الأمة بالقبول فيما بيننا من أحاديث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ نجدها في الصحيحين.

هل تجدون صفة لله تَبَارَكَ وَتَعَالَى خرجت عن الصحيحين؟ لا نجد صفة لله تَبَارَكَ وَتَعَالَى لم ترد في الصحيحين، ومع ذلك هل قبل هؤلاء ما ورد عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذا الباب؟ لم يقبل، وتجد الواحد منهم يقول: البخاري خط أحمر، وهو يجادل العلمانيين.

إذًا: أنت تريد أن تثبت مجرد ألفاظ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأما معاني هذه الأحاديث فأنت تحرفها وتردها كما يردها كل علماني، لا فرق بينك وبينه.

قال: وَالْوَاجِبُ فِي بَابِ الِاعْتِقَادِ الْيَقِينُ.

نقول: الواجب في باب الاعتقاد هو اليقين أو الظن الراجح، كما قال أئمة السنة: هذا الباب يُعمل فيه باليقين أو الظن الراجح، لأنه مبني على الدليل كذلك.

قال: وَهُؤَلَاءِ هُمُ الْمُعْتَزِلَةُ وَالْفَلاَسِفَةُ.

قال: وَفَرِيقٌ يُثبتها وَيَعْتَقِدُ بِصِحَّةِ النَّقْلِ.

يقول: نعم هذا الحديث ثبت في الصحيحين، وكل ما جاء في الصحيحين فهو صحيح، لكن ما أراد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذلك، لما قال للجارية: أين الله؟ وقالت: في السماء، إنما أقرها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأنها جارية لا تفقه، فما أراد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يدخلها في إشكالات لا قِبَل لها بها، فأقرها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

يقولون: ولذا نقول: إن قول رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: في السماء، أي معناه: أن أمره في السماء، أو أن رحمته في السماء، إلى غير ذلك من التأويلات الباطلة، فإما أن يردوا اللفظ، وإما أن يحرفوا المعنى.

ولذا قال: وَلَكِنَّهُ يَشْتَغِلُ بِتَأْوِيلِهَا؛ كَمَا يَشْتَغِلُ بِتَأْوِيلِ آيَاتِ الْكِتَابِ، حَتَّى يخرِجَها عَنْ مَعَانِيهَا الظَّاهِرَةِ إِلَى مَا يُرِيدُهُ مِنْ معانٍ بِالْإِلْحَادِ وَالتَّحْرِيفِ.

فهؤلاء الذين عطلوا سنة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ التي جاءت في إثبات الصفات، هؤلاء ملاحدة ولهم نصيب من هذا الوصف؛ لأن الإلحاد هو الميل.

والإلحاد في هذا الباب في باب الأسماء والصفات هو: الميل عما يجب إثباته لله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، فمن هؤلاء من يغلو في إلحاده كالجهم بن صفوان وغلاة الباطنية والفلاسفة, فهم ينفون كل اسم وكل صفة لله تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

ومنهم من هو أقل من ذلك كالمعتزلة؛ فإنهم ينفون الصفات دون الأسماء، ومنهم من هو أقل من ذلك كالأشعرية؛ فإنهم يثبتون بعض الصفات مع إثباتهم للأسماء.

لكن كل هؤلاء ألحدوا في أسماء الله وصفاته وحرفوها عن معانيها فمستقل ومستكثر؛ ولذا نقول: إن هذا الذي يقومون به لا يسمى تأويلاً، لماذا؟

لأن التأويل إما أن يكون بمعنى تفسير، وإما أن يكون بمعنى مآل الشيء، وهذا هو الذي جاء به كتاب الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

كل تأويل ورد في القرآن فلا يخرج عن هذين المعنيين:

المعنى الأول الذي هو: التفسير.

والمعنى الآخر الذي هو: مآل الشيء.

وعلى هذا يُحمل قول الله تعالى: {وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ} [آل عمران: 7]، فو قلنا: إن (الواو) هنا عاطفة، {وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ}، فالمراد بالتأويل هاهنا: التفسير، فأهل العلم يعلمون مراد الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى وتفسير كتابه.

ولذا يقول ابن عباس: أنا ممن يعلم تأويله، وعرض مجاهد رَحِمَهُ اللهُ القرآن على ابن عباس ثلاث مرات يستوقفه عند كل آية، ما استثنى من ذلك آية وقال:

هذه من آيات المتشابهات لا نعلم معناها، نكل معناها إلى الله عَزَّ وَجلَّ، بل سأله عن كل آية.

لكن لو قلنا: إن (الواو) استئنافية، يعني: {وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ}، ونقف، ثم نقرأ{وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا}، ما معنى استئنافية؟ أي: أننا نبتدأ بها الجملة.

إذًا ما المراد بالتأويل حينئذٍ؟ مآل الشيء وحقيقته، فيدخل في ذلك كيفية صفات الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، ويدخل في ذلك حقائق عالم الغيب وحقائق الدار الآخرة، فليس في الجنة من الدنيا إلا الأسماء، لكن الكيفية لا يعلمها إلا الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَىَ.

إذًا: التأويل ورد في القرآن بمعنيين: حقيقة الشيء ومآله، وتفسيره.

وورد في لسان الأصوليين عند المتأخرين بمعنى صرف اللفظ عن ظاهره من المعنى الراجح إلى المعنى المرجوح لقرينة صحيحة، فهذا هو التأويل عندهم، وهذا التأويل كذلك صحيح، لماذا؟

لأنه مبني على دليل صحيح، ما الدليل؟ آية في كتاب الله أو حديث في سنة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أو سياق الآيات يمنع حمل الآية على ظاهرها، فكل ذلك يصح أن نطلق عليه أنه تأويل، وأما هذا الذي يصنعونه فليس بتأويل, وإنما هو تحريف.

فتأويل الاستواء بالاستيلاء؛ هذا ليس تأويلا، هذا تحريف؛ ولذا هل يُعرف الاستواء بمعنى الاستيلاء في لغة العرب؟ لا يُعرف ذلك في لغة العرب.

هل صح ذلك عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ هل صح ذلك عن واحد من أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟

تأويل الكلام بالكلام النفسي الذي ليس بصوت ولا حرف، هذا تأويل أم تحريف؟ هذا تحريف؛ ولذا هؤلاء ما خرجوا عن الإلحاد والتحريف.

قال: وهؤلاء هم متأخِّرو الْأَشْعَرِيَّةِ.

ونقول: إن الأشعرية كذلك يردون حديث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذا الباب ويقولون: إنه من باب الآحاد الذي لا يُقبل في هذا الباب.

قال: وَأَكْثَرُهُمْ توسُّعًا فِي هَذَا الْبَابِ الْغَزَالِيُّ، والرَّازي.

أكثر الأشعرية ذكرًا لحديث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولي أعناق هذه الأحاديث أبو حامد الغزالي وكذلك الفخر الرازي.

ولذا لو تصفحت كتاب بيان تلبيس الجهمية بالذات لشيخ الإسلام ابن تيمية تجد منه قطعة كبيرة جدًا ينقل فيها شيخ الإسلام ابن تيمية ما ذكره الفخر الرازي في أساس التقديس من أحاديث وردها.

يذكر الأحاديث التي جاءت في إثبات الصفات ويردها ويؤولها ويحرفها، مع أن الرازي – كما حقق ذلك بعض الباحثين- إلى أنه انتهى إلى رد أحاديث الصفات بحجة أنها آحاد، وذلك لكثرتها التي تستعصي على التأويل. في بيان التلبيس يقوم شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ برد هذا التأويل وهذا التحريف، وأما غير هؤلاء؛ فإنهم يقولون: هذه أحاديث آحاد لا تُقبل في هذا الباب.

فالشاهد: أن شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ قال: السُّنَّةُ تُفَسِّرُ الْقُرآنَ، وتُبَيِّنُهُ، وتَدُلُّ عَلَيْهِ، وتُعَبِّرُ عَنْهُ.

قال الله تعالى: {لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ} [يونس: 26]، قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "الزيادة هي النظر إلى وجه الله تعالى".

قال الله تعالى: {الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ} [الأنعام: 82]، بيَّن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن الظلم هو الشرك، ففسرت سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ القرآن وعبرت عنه.

قال رَحِمَهُ اللهُ: وَمَا وَصَفَ الرَّسُولُ بِهِ رَبَّهُ عَزَّ وَجلَّ مِنَ الأَحَادِيثِ الصِّحَاحِ الَّتِي تَلَقَّاهَا أَهْلُ الْمَعْرِفَةِ بِالْقَبُولِ؛ وَجَبَ الإيمَانُ بِهَا كَذَلِك.

قال الشيخ الهراس: قَوْلُهُ: ((وَمَا وَصَفَ الرَّسُولُ بِهِ)) إلخ.

قال: يَعْنِي: أَنَّهُ كَمَا وَجبَ الْإِيمَانُ بِكُلِّ مَا وَصفَ اللَّهُ بِهِ نَفْسَهُ فِي كِتَابِهِ مِنْ غَيْرِ تحريفٍ وَلَا تعطيلٍ وَلَا تكييفٍ وَلَا تمثيلٍ؛ كَذَلِكَ يَجِبُ الْإِيمَانُ بِكُلِّ مَا وَصَفَهُ بِهِ أَعْلَمُ الْخَلْقِ بِرَبِّهِ وَبِمَا يَجِبُ لَهُ، وَهُوَ رَسُولُهُ الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلامُهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ.

فهذه قاعدة ينبغي أن تُعمل: أن نصدق كل ما جاء عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لأنه أعلم الخلق بربه.

قال تعالى في وصفه: {وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (3) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى} [النجم: 3-4]، وهو الصادق المصدوق صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لا يفتري ولا يكذب على ربه تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

ما الذي نصدقه فيما جاء عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ قال: الأَحَادِيثِ الصِّحَاحِ.

إذًا: الذي نقبله ما صح عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال: الَّتِي تَلَقَّاهَا أَهْلُ الْمَعْرِفَةِ بِالْقَبُولِ.

وهذا القول من شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: الَّتِي تَلَقَّاهَا أَهْلُ الْمَعْرِفَةِ بِالْقَبُولِ؛ هو صفة كاشفة وليس صفة مقيدة.

صفة كاشفة يعني: غير مرادة، هذا لازم من صحة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إذا صح الحديث قبلناه.

وليس مراد شيخ الإسلام ابن تيمية أنه لا يُقبل حديث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلا بشرطين: الصحة، وأن يتلقاه أهل المعرفة بالقبول، لماذا؟

لأن من أهل البدع من يقول: صح الحديث عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ, لكنه ليس على ظاهره، لكن الأمة لم تتلقاه بالقبول، لأنه يخالف القواطع العقلية، هكذا يقولون، ويعنون بذلك عقولهم الفاسدة واعتقاداتهم السابقة.

فمعنى قولنا: إن هذه الجملة صفة كاشفة؛ أي: أن خلافها غير مراد، فهل معنى ذلك: أن الأمة لو لم تتلق الحديث الصحيح عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فإنه لا يُعمل به؟ هذا لا يوجد؛ لأن أئمة الحديث متفقون على أن الحديث إذا صح وجب العمل به خاصة في هذا الباب، لماذا؟

لأن لهذا الباب لا يقال فيه: إن الحديث قد يكون منسوخًا، لأن هذا الباب باب الأخبار والنسخ لا يقع في الأخبار.

هذا قد تجده في العمليات، قد يصح الحديث عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولا تعمل به الأمة، لماذا؟ لأنه منسوخ، نُسخ الحديث.

لكن في هذا الباب لو قلنا بالنسخ، لقلنا على الله بالبداء، أي: أن الله عَزَّ وَجلَّ ظهر له علم لم يكن ظاهرا له قبل ذلك؛ ولذا باب الأخبار لا يدخله النسخ.

فقوله: الَّتِي تَلَقَّاهَا أَهْلُ الْمَعْرِفَةِ بِالْقَبُولِ.

هي كقول الله تعالى: {وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ} [الأنعام: 38]، فكل طائر يطير بجناحيه، ولذا قال أهل العلم هذا من الصفة الكاشفة لا الصفة المقيدة.

إذا صح الحديث وتلقته الأمة بالقبول ما الذي يجب؟

قال: وَجَبَ الإِيمَانُ بِهِ.

لأن الله عَزَّ وَجلَّ قال: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ}.

وقال: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ}.

وقال تعالى: {وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ (65) فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ} [القصص: 65-66].

أما أهل البدع؛ فإنهم لا يقيمون لهذه القاعدة وزنًا؛ ولذلك رد عليهم ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ في كتابه العظيم الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة، هذا الكتاب ذكر فيه طواغيت أربعة.

وما المراد بالطاغوت؟ الطاغوت مأخوذ في لغة العرب من الطغيان ومجاوزة الحد.

وهو كل ما تجاوز به العبد الحد من معبود أو متبوع أو مطاع؛ ولذا الآلهة الباطلة تسمى طواغيت، وكل من يُتبع على خلاف هدي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يسمى بالطاغوت، والذي يدعو الناس إلى ذلك هو طاغوت.

فجعل شيخ الإسلام ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ طواغيت أربعة في كتابه تجاوز أهل البدع من الجهمية والمعطلة بها الحد في رد سنة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ورد ما ثبت من أسماء الله وصفاته، فذكر من ذلك طاغوت المجاز، وذكر من ذلك تقديم العقل على النقل، وذكر من ذلك قولهم: إن أخبار الآحاد لا يُعمل بها في باب العقائد.

ذكر ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ في هذا الكتاب: أن هذه الطريقة ليس طريقة أهل العلم الذين تلقوا الحديث عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الصحابة فمن جاء بعدهم، وليست طريقة أهل السنة والجماعة.

ولذا قال رَحِمَهُ اللهُ: وأما أهل العلم والإيمان فيشهدون له بما شهد الله به وشهدت به ملائكته وخيار القرون.

يعني: لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أنه بلغ البلاغ المبين القاطع للعذر المقيم للحجة الموجب للعلم واليقين لفظًا ومعنى.

إذًا: رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما بلغ مجرد الألفاظ، وإنما بلغ اللفظ والمعنى.

قال: والجزم بتبليغه معاني القرآن والسنة كالجزم بتبليغه الألفاظ، بل أعظم من ذلك؛ لأن ألفاظ القرآن والسنة إنما يحفظه خواص أمته، وأما المعاني التي بلغها؛ فإنه يشترك في العلم بها الخاصة والعامة؛ ولذا حرص رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على أن يبلغ المعاني قبل الألفاظ.

هل تجدون كل واحد من أمة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يحفظ القرآن، يحفظ حديث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ لا.

لكن عندهم معانٍ ثابتة في هذا الباب فيما يصح به الإيمان ويصح به الاعتقاد في باب العمليات، وإن لم يحفظ حديث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

تجد عوام يحسنون الصلاة ويحسنون الحج، هل يحفظون الأحاديث التي وردت عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في صفة الحج؟ لا، في صفة الصلاة؟ لا.

قال: هذا لا يكون إلا لخواص أمة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ ولهذا حرص رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على بيان المعاني قبل الألفاظ؛ لأن هذا مما يشترك فيه العامة والخاصة ولا تقوم الحجة عليهم إلا بذلك.

قال: ولَمَّا كَانَ بِالْمَجْمَعِ الْأَعْظَمِ، يعني: يوم عرفة.

الَّذِي لَمْ يَجْتَمِعْ لِأَحَدٍ مِثْلُهُ، لا قبله ولا بعده، فِي الْيَوْمِ الْأَعْظَمِ، فِي الْمَكَانِ الْأَعْظَمِ، قَالَ لَهُمْ: أَنْتُمْ مَسْئُولُونَ عَنِّي، فَمَاذَا أَنْتُمْ قَائِلُونَ؟ قَالُوا. نَشْهَدُ أَنَّكَ قَدْ بَلَّغْتَ وَأَدَّيْتَ وَنَصَحْتَ.

قال: فَرَفَعَ أُصْبَعَهُ الْكَرِيمَةَ إِلَى السَّمَاءِ رَافِعًا لَهَا إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقَهَا وَفَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ، قَائِلاً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: اللَّهُمَّ اشْهَدْ.

يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ وهو يذكر حاله وحال أهل العلم بالحديث وأهل العلم والإيمان، وحال أهل السنة والجماعة، يقول: فَكَأَنَّا نشهدُ، يعني: بأعيننا.

فَكَأَنَّا نشهدُ تِلْكَ الْأُصْبُعَ الْكَرِيمَةَ وَهِيَ مَرْفُوعَةٌ إِلَى اللَّهِ، وَذَلِكَ اللِّسَانَ الْكَرِيمَ وَهُوَ يَقُولُ لِمَنْ رَفَعَ أُصْبَعَهُ إِلَيْهِ: اللَّهُمَّ اشْهَدْ، وَنَشْهَدُ أَنَّهُ بَلَّغَ الْبَلَاغَ الْمُبِينَ، وَأَدَّى رِسَالَةَ رَبِّهِ كَمَا أُمِرَ، وَنَصَحَ أُمَّتَهُ غَايَةَ النَّصِيحَةِ، وكشف لهم طرائق الهدى، وأوضح لهم معالم الدين، وتركهم على المحجة البيضاء ليلها كنهارها، فَلَا يُحْتَاجُ

مَعَ كَشْفِهِ وبَيَانِهِ إِلَى تَنَطُّعِ الْمُتَنَطِّعِينَ، فالحمد لله الذي أغنانا بوحيه ورسوله عن تكلفات المتكلفين.

قال: قال أبو عبد الرحمن السُلمي -أحد أكابر التابعين الذين أخذوا القرآن ومعانيه عن مثل عبد الله بن مسعود وعثمان بن عفان رَضِي اللهُ عَنْهما، وتلك الطبقة- قال: حَدَّثَنَا الَّذِينَ كَانُوا يُقْرَءُونَنَا الْقُرْآنَ عُثْمَانُ بْنُ عفان وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ وَغَيْرُهُمَا أَنَّهُمْ كَانُوا إذَا تَعَلَّمُوا مِنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَشْرَ آيَاتٍ لَمْ يَتَجَاوَزُوهَا حَتَّى يَتَعَلَّمُوا مَا فِيهَا مِنْ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ. قَالُوا: فَتَعَلَّمْنَا الْقُرْآنَ وَالْعِلْمَ وَالْعَمَلَ.

إذًا: رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما بيَّنوا ألفاظ القرآن فقط ، وإنما نقلوا المعاني كذلك.

قال: فالصحابة أخذوا عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ألفاظ القرآن ومعانيه، بل كانت عنايتهم بأخذ المعاني عنه أعظم من عنايتهم بالألفاظ، وكانوا يأخذون المعاني أولًا.

كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقرر لهم المعاني أولًا، ثم يأخذون الألفاظ ليضبطوا بها المعاني حتى لا تشذ عنهم.

أي: كانوا يأخذون المعاني أولًا ثم بعد ذلك يأخذون الألفاظ، أو تنزل عليهم الألفاظ التي تدل على هذه المعاني.

قال جندب بن عبد الله البجلي، وعبد الله بن عمر رَضِي اللهُ عَنْهُم: "تَعَلَّمْنَا الْإِيمَانَ ثُمَّ تَعَلَّمْنَا الْقُرْآنَ فَازْدَدْنَا إِيمَانًا".

إذًا ما معنى هذا الأثر "تَعَلَّمْنَا الْإِيمَانَ ثُمَّ تَعَلَّمْنَا الْقُرْآنَ فَازْدَدْنَا إِيمَانًا"؟ أي: أنهم تعلموا المعاني أولًا ثم بعد ذلك الألفاظ؛ ولذا كان الواحد منهم يحفظ القرآن في مدة طويلة.

ماذا عن إيمانه واعتقاده؟ كالجبل الراسخ، وهذا يدل على أنهم تعلموا المعاني.

وهذا يُبين لنا حال هؤلاء الغُلاة من الصوفية، تجد الواحد منهم يحفظ ألفاظ القرآن كما أُنزل، بل تجد بعضهم لو سُئل هذه الآية في صفحة ماذا؟

يقول: في صفحة كذا على يمين الصفحة أو على يسار الصفحة، بل هذه الآية رقمها كذا، هذا موجود الآن، ويعتبرون ذلك من المعجزات.

ولو سُئل أكثر هؤلاء عن معاني هذه الآيات؟ ما عرفوا هذه المعاني.

إذًا: غاية أمر هؤلاء أن يقيموا ألفاظًا دون المعاني، وهذا خلاف طريقة أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال: فإذا كان الصحابة تلقوا عن نبيهم معاني القرآن كما تلقوا عنه ألفاظه لم يحتاجوا بعد ذلك إلى لغة أحد، فنقل معاني القرآن عنهم كنقل ألفاظه سواء، ولا يقدح في ذلك تنازع بعضهم في بعض معانيه؛ كما قد وقع في تنازعهم في بعض حروفه وتنازعهم في بعض السنة لخفاء ذلك على بعضهم.

فإنه ليس كل فرد منهم تلقى من نفس الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بلا واسطة جميع القرآن والسنة، بل كان بعضهم يأخذ عن بعض ويشهد بعضهم في غيبة بعض وينسى هذا بعض ما حفظه صاحبه، وكل ينقل عن رسول الله صَلَّى

اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذا يدل على مكانة سنة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ, وأنهم نقلوها نقلوا اللفظ والمعنى.

وجاء كذلك عن الأوزاعي عن حسان بن عطية أنه قال: كان جبريل ينزل بالقرآن والسنة ويعلمه إياها كما يعلمه القرآن.

وجاء كذلك عن إسماعيل بن عُبيد الله أنه قال: ينبغي لنا أن نحفظ ما جاء عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فإنه بمنزلة القرآن.

وجاء عن الإمام البخاري رَحِمَهُ اللهُ أنه قال: كان الصحابة رَضِي اللهُ عَنْهُم إذا جلسوا يتذاكرون كتاب ربهم وسنة نبيهم، لم يكن بينهم رأي ولا قياس؛ ولذا زجر الأئمة من رد حديث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ونقل ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ كذلك عن البخاري وغيره، قال البخاري: سَمِعْتُ الْحُمَيْدِيَّ يَقُولُ: كُنَّا عِنْدَ الشَّافِعِيِّ، فَأَتَاهُ رَجُلٌ فَسَأَلَهُ عَنْ مَسْأَلَةٍ، فَقَالَ قَضَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَذَا وَكَذَا، فَقَالَ الرَّجُلُ لِلشَّافِعِيِّ: مَا تَقُولُ أَنْتَ؟!

يعني: هذا الرجل سأل الشافعي، فقال الشافعي: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كذا، فقال الرجل للشافعي: ما تقول أنت؟!

فَقَالَ الشافعي: سُبْحَانَ اللَّهِ! تَرَانِي فِي كَنِيسَةٍ! تَرَانِي فِي بِيعَةٍ! تَرَى عَلَى وَسَطِي زُنَّارًا؟! أَقُولُ لَكَ: قَضَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كذا وكذا، وَأَنْتَ تَقُولُ لِي: مَا تَقُولُ أَنْتَ؟!

الزُنار هو ما يضعوه القساوسة والرهبان فوق ثيابهم.

قال: وقال المزني وحرملة عن الشافعي وهما من تلاميذ الشافعي، قال: إذا وجدتم سنة لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فاتبعوها ولا تلتفتوا إلى أحد.

وقال الربيع عن الشافعي: ليس لأحد قول مع سنة سنها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وهؤلاء يزعمون أنهم شافعية، لكنهم شافعية في ماذا؟ في الفروع فقط، لكنهم مالكية في ماذا؟ في الفروع.

أي في باب العمليات، في الصلاة والصوم والعبادة، تجدوهم يتعصبون لأئمة المذاهب.

ماذا عن الاعتقاد؟ يُجهِّلون الشافعية ومالكًا وابا حنيفة وأحمد بن حنبل، ويعودون إلى قول هؤلاء الضُلال من المعتزلة والفلاسفة.

الشافعي رَحِمَهُ اللهُ يقول: ليس لأحد قول مع سنة سنها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال الربيع: وسمعته روى حديثًا، فَقَالَ لَهُ رجلُ: أَتَأْخُذُ بِهَذَا يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ؟ . قَالَ: مَتَى رُوِّيتُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَدِيثًا صَحِيحًا فلَمْ آخُذْ بِهِ فَأُشْهِدُكُمْ أَنَّ عَقْلِي قَدْ ذَهَبَ.

وجاء كذلك عن الشافعي رَحِمَهُ اللهُ أنه قال: لم أسمع أحدًا ينسبه عامة إلى علم أو ينسب نفسه إلى علم يخالف في أن الله سبحانه فرض اتباع أمر رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والتسليم لحكمه؛ لأن الله تعالى لم يجعل لأحد بعده إلا اتباعه، وأنه لا يلزم قول بكل حال إلا بكتاب الله أو سنة رسول الله صَلَّى اللَّهُ

عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأن ما سواهما تبع لهما، وأن فرض الله علينا وعلى من قبلنا وبعدنا قبول الخبر عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا يختلف فيه أحد أنه الفرض.

أي هذا واجب لا مندوحة لأحد في تركه، واجب قبول الخبر عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: وقد اتفق المسلمون على أن حب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فرض.

هذا يخالف فيه أحد؟

بل هذا مما يتشدق به أهل البدع ليل نهار، والله سمعت بعضهم يقول: الوهابية لا يحبون رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

هكذا يقول: عندهم حرج شديد من محبة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ ولذا تجدهم يُحرِّمون الصلاة على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويحرِّمون زيارة قبر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، هكذا يقول.

ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ يُبين هذا الكذب، يقول: اتفق المسلمون على أن حب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فرض، بل لا يتم الإيمان والإسلام إلا بكونه أحب إلى العبد من نفسه فضلاً عن غيره، واتفقوا على أن حبه لا يتحقق إلا باتباع آثاره.

هذه علامة المحبة، باتباع آثاره والتسليم لما جاء به والعمل على سنته وترك ما خالف قوله لقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، هذا علامة المحبة، {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي} [آل عمران: 31]، أم قال فأكثروا الصلاة من الصلاة علي كيفما رأيتم؟

هل قال: فعليكم بالذكر الجماعي أدبار الصلوات، تعرف ما معنى الذكر الجماعي؟

يقولون بصوت واحد عال: اللهم صل على محمد، وعلى آل محمد....، يصلون صلوات مبتدعة كصلاة الفاتح، أو ابن بشيش، أو الصلاة المطلسمة!!وتنظر في وجه الواحد منهم فلا تجد شعرة، تنظر في تطبيقه لسنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا تجده مطبقًا للسنة، بل يتعبد إلى الله بالبدع، تنظر في اعتقاده تجده جاهلاً بالاعتقاد لا يعتقد اعتقاد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

يُخشى على هؤلاء أن يكونوا ممن قال فيهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "أَنَا فَرَطُكُمْ عَلَى الْحَوْضِ، وَلأُنَازِعَنَّ أَقْوَامًا ثُمَّ لَأُغْلَبَنَّ عَلَيْهِمْ"، يقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "يَا رَبِّ، أَصْحَابِي أَصْحَابِي"، يعني: فيهم العلامة، "غُرٌّ مُحَجَّلُونَ"، كانوا يتوضؤون ويصلون, فيقال لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ".

نطق كبيرهم بما تكنه صدورهم، نطق بأن العبرة ليست في الدليل، ليست في كتاب الله ولا في سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وإنما العبرة بماذا؟ في التجربة, وفيما دل عليه الذوق وفيما قاله الأشياخ، هكذا قال كبيرهم، فأين محبتهم لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتعظيمهم لسنة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟

فالشاهد -أيها الإخوة-: أن سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تدل على ما جاء في كتاب الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى من صفات ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

ولذا وبهذا أختم, ونُرجئ الكلام عن أحاديث الصفات إلى الدروس القادمة، ولن نطيل إن شاء الله؛ لأن الكلام عن معاني هذه الأحاديث وعن الشبهات التي أثار أهل العلم سبق في كلامنا عن الآيات، يعني: الكلام عن هذه الأحاديث لن يستغرق منا وقتا طويلا.

قال الحافظ ابن حجر في الفتح في شرحه لكتاب التوحيد للإمام البخاري، قال: الذي يظهر من تصرف البخاري في كتاب التوحيد أنه يسوق الأحاديث التي وردت في الصفات المقدسة، فيُدخل كل حديث منها في باب ويؤيده بآية من القرآن.

قلنا: هذا مما يُرجح أن الحافظ ابن حجر لم يكن أشعريًا خالصا، ولم يكن سلفيًا خالصًا في هذا الباب، لكنه كان يبتغي الحق, فيصيب مرة وقد يُخطئ مرة رَحِمَهُ اللهُ.

فيقول عن الإمام البخاري رَحِمَهُ اللهُ وهو يُبين طريقته في كتاب التوحيد أنه يذكر الآية ويذكر الحديث، فقال: يسوق الأحاديث التي وردت في الصفات المقدسة، فيُدخل كل حديث منها في باب ويؤيده بآية من القرآن؛ للإشارة إلى خروجها عن أخبار الآحاد على طريق التنزل في ترك الاحتجاج بها في الاعتقاد.

كأنه يتنزل معهم، أنتم تقولون: هذا الحديث آحاد لا يُعمل به في الاعتقاد، طيب هذه الآية بها نفس المعنى ونفس الصفة، يقول: وأن من أنكرها خالف الكتاب والسنة جميعًا.

قال رَحِمَهُ اللهُ: وقد أخرج ابن أبي حاتم في كتابه الرد على الجهمية بسند صحيح عن سلام بن أبي مطيع -وهو شيخ شيوخ البخاري- أنه ذكر المبتدعة

فقال: ويلهم ماذا ينكرون من هذه الأحاديث، والله ما في الحديث شيء إلا وفي القرآن مثله.

يقول الله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ}، والسمع والبصر جاء في سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وجاء في كتاب الله.

ويقول: {وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ} [آل عمران: 28].

ويقول: {وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ} [الزمر: 67].

وجاءت سنة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ كما في حديث الحبر بذلك، وقال: "مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ"، كل هذه صفات.

وقال: {وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا} [النساء: 164].

وقال: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} [طه: 5].

قال: ونحو ذلك، فلم يزل -أي: سلام بن مطيع رَحِمَهُ اللهُ- يذكر الآيات من العصر إلى غروب الشمس، أخذ يذكر آيات الصفات من العصر إلى غروب الشمس.

ولذا قلنا: هؤلاء لا يندرجون حتى تحت حديث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "لَا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ مُتَّكِئًا عَلَى أَرِيكَتِهِ يَأْتِيهِ الْأَمْرُ مِنْ أَمْرِي مِمَّا أَمَرْتُ بِهِ أَوْ نَهَيْتُ عَنْهُ فَيَقُولُ لَا نَدْرِي مَا وَجَدْنَا فِي كِتَابِ اللَّهِ اتَّبَعْنَاهُ".

حتى كتاب الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى هم لا يأخذون بما جاء في الكتاب؛ ولذا عطلوا وحرفوا صفات الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم، وجزاكم الله خيرًا.

الدرس الثلاثون

إن الحمد لله, نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله تعالى من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله, صلى الله عليه, وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد:

فكنا قد وقفنا في شرح العقيدة الواسطية عند قول المصنف رَحِمَهُ اللهُ: فَصْلٌ: ثُمَّ فِي سُنَّةِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَالسُّنَّةُ تُفَسِّرُ الْقُرآنَ، وتُبَيِّنُهُ، وتَدُلُّ عَلَيْهِ، وتُعَبِّرُ عَنْهُ، وَمَا وَصفَ الرَّسُولُ بِهِ رَبَّهُ عَزَّ وَجلَّ مِنَ الأَحَادِيثِ الصِّحَاحِ الَّتِي تَلَقَّاهَا أَهْلُ الْمَعْرِفَةِ بِالْقَبُولِ؛ وَجبَ الإِيمَانُ بِهَا كَذَلِك.

مضى معنا في الدرس الماضي كيف أن سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حجة كالقرآن في تقرير الأحكام والعقائد؛ ولذا كانت سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع القرآن على مراتب.

- فقد تكون السنة سنة تقريرية، أي: تقرر وتؤكد ما جاء في كتاب الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وهذا له أمثلة كثيرة تتعلق بالمعاملات والعبادات، وكذلك الاعتقادات.

ولو أردنا أن نضرب مثالًا على ذلك فيما يتعلق بباب الاعتقاد، نقول: جاء القرآن بإثبات علو الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى على خلقه، والآيات في ذلك متنوعة كثيرة، فجاءت سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لتقرر ذلك وتؤكده.

فمثلاً جاء في كتاب الله: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} [طه: 5].

{أَأَمِنتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ} [الملك: 16].

{إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ} [فاطر: 10].

{سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى} [الأعلى: 1].

وغير ذلك من الآيات التي تثبت علو الله عَزَّ وَجلَّ على خلقه.

فجاءت سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لتؤكد ذلك، كما في حديث الجارية، وكما في خطبة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حجة الوداع.

وجاء القرآن ليثبت أن لله تَبَارَكَ وَتَعَالَى يدين، يداه مبسوطتان، وكما قال:{مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ} [ص: 75].

فجاءت سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لتؤكد ذلك وتقرره، قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "وَكِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ"، أي: أن لله تَبَارَكَ وَتَعَالَى يدين تليقان به سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

- وقد تكون سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بيانية، أي: أنها تفسر مجمل القرآن وتبين ما أُبهم فيه، وهذا كذلك له أمثلة كثيرة فيما يتعلق بالعبادات والمعاملات، فبيَّنت كيفية الصلاة، وكيفية الزكاة، وكيفية الحج، وكيفية الصيام، فهذه أمور مجملة جاءت في كتاب الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

وكذلك باب العقائد؛ قال الله عَزَّ وَجلَّ: {لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ} [يونس: 26]، ما الزيادة؟ لفظة تحتمل أكثر من معنى، فبيَّنها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بيَّن أن المراد بالزيادة في هذه الآية النظر إلى وجه الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى في الجنة.

قال الله تعالى: {الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ} [الأنعام: 82]، الظلم قد يكون ظلمًا أكبر أو ظلمًا أصغر، فبيَّن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في سنته أن المراد الظلم الأكبر الذي هو الشرك.

▪ وقد تكون سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سنة تأسيسية، أي: تأتي بحكم لم يأت في كتاب الله عَزَّ وَجلَّ.

هل معنى ذلك أن السنة إن كانت من هذا النوع تُرد؟ نقول: لا، لأن الله عَزَّ وَجلَّ أوجب طاعة نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في كل ما جاء به، فسواء جاء النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بما يقرر ما في القرآن، أو جاء بما يُبين ما في القرآن، أو بحكم ليس في القرآن.

فرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُطاع في كل ما أخبر به، سواء كان ذلك يتعلق بأخبار الاعتقاد فنصدق ذلك، أو كان يتعلق بالأمر والنهي فننفذ ما جاء على لسان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لأن الله عَزَّ وَجلَّ أمر بطاعته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ومن ذلك هذا الحديث الذي ذكره المصنف رَحِمَهُ اللهُ وبدأ به، فهو من السنة التأسيسية، أي: أن هذه الصفة لم ترد في كتاب الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى صراحة.

فقال: فَمِنْ ذَلِكَ: مِثْلُ قَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

من ذلك؛ (من) تبعيضية، وهذا يعني أن المصنف لن يذكر كل الأحاديث التي جاءت بصفات ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وإنما سيذكر بعضها، والقول في الباب قول واحد مطرد عند أهل السنة والجماعة، القول في بعض الصفات كالقول في بعضها الآخر، والقول في السنة كالقول في القرآن من حيث الاحتجاجُ بهما.

قال: فَمِنْ ذَلِكَ: مِثْلُ قَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((يَنْزِلُ رَبُّنَا إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا كُلَّ لَيْلَةٍ حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرِ، فَيَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ؟ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ، مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ؟)).

بفتح الباء وكذلك بفتح الياء وبفتح الراء، لأن الأفعال هاهنا وقعت في جواب الطلب، وهذه الفاء التي سبقت الأفعال هي (فاء) السببية، تنصب الفعل الذي بعدها، أو هي منصوبة بأن مقدرة.

فهذا حديث نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الصادق المصدوق، يُخبر أن الله عَزَّ وَجلَّ ينزل كل ليلة، ونزول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى صفة فعلية له.

وما المراد بالصفات الفعلية؟ أي: أن الله عَزَّ وَجلَّ يفعل ذلك على مقتضى حكمته ومشيئته سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، فالصفات الفعلية تتعلق بماذا؟ تتعلق بالمشيئة والسبب.

متى ينزل ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى؟ ينزل كل ليلة، لم يستثن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليلة لا ينزل الله عَزَّ وَجلَّ فيها، ينزل إلى أين؟ إلى السماء الدنيا.

وكل هذا التفصيل الذي ذكره نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يدل على أن هذه الصفة صفة حقيقية ثابتة لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

فلا يقال بعد ذلك: إن الذي ينزل هو الملك؛ لأن الملك لا ينزل إلى السماء الدنيا فقط، وحتى لو قيل إنه ملك مخصوص، فهذا ادعاء لا دليل عليه، ولا يقال: إن الذي ينزل هو الرحمة؛ لأن الرحمة لا تنزل إلى السماء الدنيا ولا تنزل في الليل فقط، ولكن رحمة الله عَزَّ وَجلَّ تنزل في كل وقت وحين؛ لأن الله عَزَّ وَجلَّ وسع كل شيء رحمة وعلمًا، ثم أنَّى للرحمة أو الملك أن يقول ما ورد في الحديث مما تفرد الله به؟!

قال الشيخ الهراس رَحِمَهُ اللهُ: قَوْلُهُ: ((فَمِنْ ذَلِكَ مِثْلُ قَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)).

قال: الْكَلامُ عَلَى هَذَا الْحَدِيثِ مِنْ جِهَتَيْنِ:

الْأُولَى: صحَّته مِنْ جِهَةِ النَّقْلِ؛ وَقَدْ ذَكَرَ المؤلِّف رَحِمَهُ اللهُ أَنَّهُ متَّفق عَلَيْهِ.

إذًا: الواجب تجاه ما ورد عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمران:

- أن نثبت أولًا أن هذا ثابت عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقاله وصح عنه
- ثم أن نفهم مراد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على الوجه الصحيح.

وأما القرآن؛ فالقرآن ثابت لا شك في ذلك، فالواجب تجاه القرآن شيء واحد وهو أن نفهم مراد الله عَزَّ وَجلَّ، لكن إذا جاء خبر عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، نقول: ثبت العرش أولًا، ثم انقش، كما قال أهل العلم.

هل هذا الحديث ثابت عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ وفي هذا الباب خاصة في باب الاعتقاد؟ لأن الاعتقاد لا يثبت إلا بحديث صحيح ثابت عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أو بحديث حسن تلقته الأمة بالقبول، وهذه الصفة التي جاءت في هذا الحديث كذلك تلقتها الأمة بالقبول وتلقاها أهل السنة والجماعة.

فإذا ثبت الحديث عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ انتقلنا إلى الفهم الصحيح عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلا نمثل ولا نكيف ولا نعطل ولا نشبه، لا نعطل ولا نحرف، هذا الذي يسمونه تأويلاً، ولا نمثل ولا نكيف.

هل هذا الحديث الذي معنا حديث صحيح؟ أجل.

قال: إِنَّهُ متَّفق عَلَيْهِ.

وما معنى أن يكون الحديث متفق عليه؟ أن يرويه البخاري ومسلم.

إذًا: هل يستوي القول بأن هذا الحديث رواه الشيخان مع قولنا متفق عليه؟

لا يستويان، لأن الحديث المتفق عليه هو الذي رواه الشيخان من رواية صحابي واحد.

وأما إذا قيل: رواه الشيخان، أو رواه البخاري ومسلم، فهذا الحديث قد يُروى من طريق صحابيين مختلفين.

قال: إِنَّهُ متَّفق عَلَيْهِ.

فعلمنا أنه عند مسلم من رواية أبي هريرة، وعند البخاري من رواية أبي هريرة رَضِي اللهُ عَنْهُ.

إذًا: هو في أعلى درجات الصحة؛ لأن الحديث الصحيح له درجات، أعلى ذلك أن يرويه الشيخان.

قال: وَيَقُولُ الذَّهَبِيُّ فِي كِتَابِهِ ((الْعُلُوُّ للعليِّ الْغَفَّارِ)): ((إِنَّ أَحَادِيثَ النُّزُولِ مُتَوَاتِرَةٌ، تُفِيدُ الْقَطْعَ)).

أي: هي قطعية الثبوت، وكذلك هي قطعية الدلالة.

قطعية الثبوت، أي: هي ثابتة نقطع يقينًا أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالها.

وهي كذلك قطعية الدلالة؛ لأنها جاءت من طرق كثيرة، كل هذه الطرق فيها إثبات النزول لله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، ليس في طريق منها أن الذي ينزل هو الملك، أو أن الذي ينزل الرحمة، أو غير ذلك، فالمعنى مقطوع به.

قال: وَعَلَى هَذَا؛ فَلاَ مَجَالَ لِإِنْكَارٍ أَوْ جُحُودٍ.

وقد ذكر غير الذهبي كذلك أن هذه الأحاديث متواترة أحاديث نزول، أفاد ذلك ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ في الصواعق المرسلة، وذكر أنها وردت عن نحو ثلاثين صحابيًا من أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكذلك شيخه ابن تيمية، وكذلك من قبلهما ابن خزيمة إمام الأئمة رَحِمَهُ اللهُ في كتاب التوحيد وذكر كثيرًا من هذه الأحاديث الثابتة عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال: الثَّانِيَةُ: مَا يُفِيدُهُ هَذَا الْحَدِيثُ؛ وَهُوَ إِخْبَارُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِنُزُولِ الربِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ ... إلخ.

وَمَعْنَى هَذَا أَنَّ النُّزُولَ صِفَةٌ لِلَّهِ عَزَّ وَجلَّ عَلَى مَا يَلِيقُ بِجَلالِهِ وَعَظَمَتِهِ، فَهُوَ لَا يُمَاثِلُ نُزُولَ الْخَلْقِ؛ كَمَا أَنَّ اسْتِوَاءَهُ لَا يُمَاثِلُ اسْتِوَاءَ الخَلْقِ.

الشيخ يريد أن يقول: إن القاعدة مضطردة في ذلك، فكما أننا نقول: الاستواء معلوم والكيف مجهول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة، فكذلك نقوله في النزول، النزول معلوم، معلوم من جهة المعنى؛ لأن النزول يكون من علو؛ ولذا أهل العلم يستدلون بهذا الحديث على إثبات علو الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

والكيف مجهول والإيمان به واجب والسؤال عن الكيف بدعة، هذا يُقال في كل صفة ثابتة لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

قال: يَقُولُ شَيْخُ الْإِسْلَامِ رحمه الله فِي تَفْسِيرِهِ سُورَةَ الْإِخْلَاصِ:

((فالربُّ سُبْحَانَهُ إذَا وَصَفَهُ رَسُولُهُ بِأَنَّهُ يَنْزِلُ إلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا كُلَّ لَيْلَةٍ، وَأَنَّهُ يَدْنُو عَشِيَّةَ عَرَفَةَ إلَى الْحُجَّاجِ، وَأَنَّهُ كلَّم مُوسَى بِالْوَادِي الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ، وَأَنَّهُ اسْتَوَى إلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دخانٌ، فقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ

كَرْهًا؛ لَمْ يَلْزَمْ مِنْ ذَلِكَ أَنْ تَكُونَ هَذِهِ الْأَفْعَالُ مِنْ جِنْسِ مَا نُشَاهِدُهُ مِنْ نُزُولِ هَذِهِ الْأَعْيَانِ الْمَشْهُودَةِ حَتَّى يُقال: ذَلِكَ يَسْتَلْزِمُ تَفْرِيغَ مَكَانٍ وَشَغْلَ آخَرَ)).

لماذا؟ لأن الفعل هاهنا أُضيف إلى الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، ينزل ربنا، فنزوله على ما يليق به، وكيفية النزول على ما تليق بالله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، وإذا كان الله عَزَّ وَجلَّ تفارق ذاته ذات المخلوقين؛ فكذلك صفاته تفارق صفات المخلوقين.

فلا يلزم من ذلك كما يقول ابن تيمية: أن تكون هذه الأفعال ومنها النزول مِنْ جِنْسِ مَا نُشَاهِدُهُ مِنْ نُزُولِ هَذِهِ الْأَعْيَانِ الْمَشْهُودَةِ حَتَّى يُقال: ذَلِكَ يَسْتَلْزِمُ تَفْرِيغَ مَكَانٍ وَشَغْلَ آخَرَ.

من الذي قال ينزل ربنا؟ من الذي قال يفرح ربنا؟ من الذي قال يعجب ربنا؟ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أعلم الخلق بربه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فهل يصح بعد ذلك أن يُقال على لسان المعطلة من الأشعرية أشعرية الزمان وغيرهم إن الذي ابتدع هذه البدعة هو ابن تيمية؟ إن الذي جاء بإثبات هذه الصفات الفعلية هو ابن تيمية؟ هذا كذب صُراح.

ثم يقال بعد ذلك إنه أخذها من اليهود!!

بالأمس سمعت بعض هؤلاء الذين لا حيلة لهم في المكر بأهل السنة والجماعة إلا الكذب عليهم، والله أستطيع أن أحلف غير حانث أنه كذب في هذا المقطع على ما يزيد على عشر كذبات على أهل السنة والجماعة.

ومن ذلك كلام، لا ذمام له ولا خطام فيما يتعلق بباب العقائد، وكلام كذلك فيه من البهتان والكذب على شيخ الإسلام ابن تيمية، فيقول: إن ابن تيمية أخذ إثبات هذه الأفعال صفات الأفعال من اليهود!!

يقول هذا المفتري: لكي أعرف الوهابية وكيف يفكرون ظللت مدة أقرأ كلامهم. ابن تيمية أخذ هذا الكلام من ابن مَلَكة البغدادي!!

بداية: ليس اسمه ابن مَلَكة، اسمه ابن مَلْكة البغدادي، وهذا كان فيلسوفًا، لكنه كان أعدل هؤلاء الفلاسفة وأقربهم لقول الحق، ونقل عنه شيخ الإسلام بعض النقولات في درء تعارض العقل والنقل ردًا على غيره من الفلاسفة.

يقول هذا المدعي: أخذ هذا الكلام من ابن مَلَكة البغدادي وكان يهوديًا، لكنه أسلم قبل -والله هذا من الكذب الصُراح-، أسلم قبل أن يموت بسنة أو شهر، حتى يفسد دين الإسلام، فسماه ابن تيمية بأبي البركات!!

مع أنه معروف في الكتب التي ترجمت له قبل ابن تيمية بكثير بأبي البركات، هذا معروف عنه، وله كتاب اسمه المعتبر معروف من مجلدات ثلاثة.

فيكذب على ابن تيمية ويكذب على ابن مَلكة، ويقول: إن هذه العقيدة عقيدة يهودية وهي عقيدة الإسلام التي قالها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فجُل هؤلاء الذين يتكلمون عن أهل السنة والجماعة إنما يعتمدون على الكذب الصُراح، من كان عنده علم ما أن يسمعهم إلا ويقول: هؤلاء كذبة، يكذبون على أهل السنة والجماعة.

ولذا لا تجد الذي يجلس أمامه إلا أناسًا من شرق أسيا والأعاجم ومن لا يعرف الكتابة والقراءة، ولا يُحسن العربية، أو من أُشرب قلبه بالبدعة نسأل الله السلامة والعافية.

يقول ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ فِي تَفْسِيرِهِ سُورَةَ الْإِخْلَاصِ:

لَمْ يَلْزَمْ مِنْ ذَلِكَ أَنْ تَكُونَ هَذِهِ الْأَفْعَالُ مِنْ جِنْسِ مَا نُشَاهِدُهُ مِنْ نُزُولِ هَذِهِ الْأَعْيَانِ الْمَشْهُودَةِ حَتَّى يُقال: ذَلِكَ يَسْتَلْزِمُ تَفْرِيغَ مَكَانٍ وَشَغْلَ آخَرَ.

ولذا نحن نمسك عما يثيره بعض الناس إذا تكلموا عن صفة النزول، هل يلزم من صفة النزول أن يخلو العرش أم لا يخلو أم نتوقف؟ السلامة في ذلك أن نتوقف، لأننا لا نعلم كيفية النزول، فلا نقول: يخلو منه العرش، أولا يخلو منه العرش، كل هذا كلام فيما غاب عنا بغير دليل، والقياس في مثل هذه الأمور لا يجوز.

قال: فَأَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ يُؤْمِنُونَ بِالنُّزُولِ صِفَةً حَقِيقِيَّةً لِلَّهِ عَزَّ وَجلَّ، عَلَى الْكَيْفِيَّةِ الَّتِي يَشَاءُ، فَيُثْبِتُونَ النُّزُولَ كَمَا يُثْبِتُونَ جَمِيعَ الصِّفَاتِ الَّتِي ثَبَتَتْ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَيَقِفُونَ عِنْدَ ذَلِكَ، فَلاَ يكيِّفون وَلَا يمثِّلون وَلَا يَنْفُونَ وَلَا يعطِّلون.

وبعض الكذبة وكان أعمى البصر والبصيرة ، أسأل الله عَزَّ وَجلَّ أن يكون قد وفقه للتوبة قبل أن يموت، وكان يُبغض أهل السنة جدًا، حتى إنه كان يقول: هل في المحاضرة تيمي؟ هل في المدرج تيمي؟ إذا كان هناك تيمي موجود، يعني: نسبة إلى ابن تيمية، فليخرج وليُغسل مكانه سبع مرات إحداها بالتراب -أسأل الله السلامة والعافية-.

سمعته كذلك يتكلم عن ابن تيمية وعن إثباته للصفات، يقول: عجيب ابن تيمية هذا. يقول كلامًا غير مفهوم، يقول: نثبت الصفات بلا كيف، ليس لها كيف، يعني: ربنا ينزل والنزول هذا ليس له كيف!!

هكذا يدعي على ابن تيمية، فهل أهل السنة والجماعة يقولون النزول له كيف أم لا؟

يقولون: كيف لا يعلمه إلا الله، هذا معنى بلا كيف، أي: بلا كيف نعلمه، لكن كما قلنا: هؤلاء يفترون الكذب على أهل السنة والجماعة.

وهناك ثلاثة من العلماء صاروا أعداءً حقيقين لهؤلاء القبوريين والمعطلة والخرافيين، من هؤلاء الثلاثة من العلماء؟ ابن تيمية، ومحمد بن عبد الوهاب، وأبو إسحاق الشاطبي، هؤلاء الثلاثة لا يتكلمون عنهم إلا وتجد الحقد يخرج من صدورهم وأفواههم، لماذا؟

لأن أبا إسحاق الشاطبي رَحِمَهُ اللهُ أفسد عليهم صوفيتهم وبدعهم وخرافتهم، كما في كتابه الاعتصام، لا تجد شبهة يركبها هؤلاء إلا والشاطبي قد نقضها نقضًا.

فإذا جئنا إلى باب العقيدة وصفات الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، من الذي هدم المعبد على رأسهم؟ ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ.

فإذا جئنا إلى القبور والخرافة والطواف حولها والذبح لغير الله والنذر، من الذي فند كل ذلك ورد على شبهاتهم؟ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللهُ.

ولذلك يكرهون هؤلاء الثلاثة أشد الكره.

قال رَحِمَهُ اللهُ: فَأَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ يُؤْمِنُونَ بِالنُّزُولِ صِفَةً حَقِيقِيَّةً لِلَّهِ عَزَّ وَجلَّ، عَلَى الْكَيْفِيَّةِ الَّتِي يَشَاءُ، فَيُثْبِتُونَ النُّزُولَ كَمَا يُثْبِتُونَ جَمِيعَ الصِّفَاتِ الَّتِي ثَبَتَتْ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَيَقِفُونَ عِنْدَ ذَلِكَ، فَلاَ يكيِّفون وَلَا يمثِّلون وَلَا يَنْفُونَ وَلَا

يعطِّلون، وَيَقُولُونَ: إِنَّ الرَّسُولَ أَخْبَرَنَا أَنَّهُ يَنْزِلُ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يُخْبِرْنَا كَيْفَ يَنْزِلُ، وَقَدْ عَلِمْنَا أَنَّهُ فعَّال لِمَا يُرِيدُ، وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

وَلِهَذَا تَرَى خواصَّ الْمُؤْمِنِينَ يتعرَّضون فِي هَذَا الْوَقْتِ الْجَلِيلِ لِأَلْطَافِ رَبِّهِمْ وَمَوَاهِبِهِ.

أسعد الناس بهذا الوقت هم أهل السنة والجماعة، لكن إن قام واحد من هؤلاء المعطلة في هذا الوقت وقال: يا رب، نقول له: تناقضت، أنت لا تثبت نزولًا للرب في هذا الوقت، لماذا تقوم؟ ولماذا تدعو؟ ولماذا تتضرع إلى الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى؟

قال: فَيَقُومُونَ لِعُبُودِيَّتِهِ؛ خَاضِعِينَ خَاشِعِينَ، دَاعِينَ متضرِّعين، يَرْجُونَ مِنْهُ حُصُولَ مَطَالِبِهِمُ الَّتِي وَعَدَهُمْ بِهَا عَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فنثبت أن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى ينزل في هذا الوقت؛ ولذا قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ في نونيته:

وكذا نزولُ الربِّ جل جلاله * في النصفِ من ليل وذاك الثاني**

فيقول لستُ بسائل غيري بأحـ * ـوالِ العباد أنا العظيم الشان**

من ذاك يسألني فيعطَى سؤله * من ذا يتوبُ إلي من عصيان**

من ذاك يسألني فأغفر ذنبه * فأنا الودود الواسع الغفران**

من ذا يريد شفاءه من سقمه * فأنا القريب مجيب من ناداني**

ذا شأنه سبحانه وبحمده * حتى يكون الفجر فجرا ثان**

يا قوم ليس نزوله وعلوه * حقا لديكم بل هما عدمان**

ثم قال المصنف رَحِمَهُ اللهُ بعد ذلك: وَقَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((لَلَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ الْمُؤْمِنِ التَّائِبِ مِنْ أَحَدِكُمْ بِرَاحِلَتِهِ)) . الحديث مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

يقول الشيخ الهراس رَحِمَهُ اللهُ: قَوْلُهُ: ((لَلَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا)).

قال: تَتِمَّةُ هَذَا الْحَدِيثِ؛ كَمَا فِي الْبُخَارِيِّ وَغَيْرِهِ:

((لَلَّهُ أشدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ الْمُؤْمِنِ مِنْ رَجُلٍ بِأَرْضِ فَلاَةٍ دويَّة مَهْلَكَةٍ.

دوية؛ أي: قصر مُجلبة.

ومهلكة؛ أي: من وقع فيها.

قال: وَمَعَهُ رَاحِلَتُهُ عَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَنَزَلَ عَنْهَا، فَنَامَ وَرَاحِلَتُهُ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَاسْتَيْقَظَ وَقَدْ ذَهَبَتْ، فَذَهَبَ فِي طَلَبِهَا، فَلَمْ يَقْدِرْ عَلَيْهَا، حَتَّى أَدْرَكَهُ الْمَوْتُ مِنَ الْعَطَشِ، فَقَالَ: وَاللَّهِ لَأَرْجِعَنَّ فَلأَمُوتَنَّ حَيْثُ كَانَ رَحْلِي، فَرَجَعَ، فَنَامَ، فَاسْتَيْقَظَ، فَإِذَا رَاحِلَتُهُ عِنْدَ رَأْسِهِ.

و(إذا) هذه تسمى بـ(إذا) الفُجائية، وخبرها يُحذف جوازا.

قال: فَقَالَ: اللهمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ.

قال: أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ)).

هذا الحديث حديث جليل القدر وفيه بشارة عظيمة ترتاح لها قلوب التائبين المحسنين الذين يحسنون ظنهم بربهم تَبَارَكَ وَتَعَالَى، ويصدقونه في توبتهم.

وقد ذكر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما يكون من حال العبد وضرب المثال على ذلك بما يبين ما يكون العبد عليه من شدة الفرح، ثم قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "لَلَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ المؤمن".

إذًا: سبب فرح الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى توبة العبد.

فالفرح المنسوب لله تَبَارَكَ وَتَعَالَى الذي هو صفة له صفة ذاتية أم صفة فعلية؟ صفة فعلية، لأن لها سببًا، فإذا وجد السبب وجد المسبب الذي هو الفرح.

والفرح صفة لازمة أم صفة متعدية؟ لأن صفات الأفعال كذلك تنقسم إلى صفات لازمة وصفات متعدية، ما الفرق بين الصفة اللازمة والصفة المتعدية؟

المتعدية؛ أي: التي يتعدى أثرها إلى الخلق، فمن صفات الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى أنه يرزق.

فالرَزق: صفة فعل منه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، وهو صفة ذات كذلك، فالرَزق صفة متعدية أم صفة لازمة؟ متعدية؛ لأن أثرها يتعدى إلى الخلق.

قال: وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ إِثْبَاتُ صِفَةِ الْفَرَحِ لِلَّهِ عَزَّ وَجلَّ، وَالْكَلَامُ فِيهِ كَالْكَلَامِ فِي غَيْرِهِ مِنَ الصِّفَاتِ: أَنَّهُ صِفَةٌ حَقِيقَةٌ لِلَّهِ عَزَّ وَجلَّ، عَلَى مَا يَلِيقُ بِهِ، وَهُوَ مِنْ صِفَاتِ الْفِعْلِ التَّابِعَةِ لِمَشِيئَتِهِ تَعَالَى وَقُدْرَتِهِ.

قال: فَيَحْدُث لَهُ هَذَا الْمَعْنَى المعبَّر عَنْهُ بِالْفَرَحِ عِنْدَمَا يُحدِث عبدُه التوبة والإنابة إِلَيْهِ.

وهذا هو السبب.

قال: وَهُوَ مستلزمٌ لِرِضَاهُ عَنْ عَبْدِهِ التَّائِبِ، وَقَبُولِهِ تَوْبَتَهُ.

إذًا: الله عَزَّ وَجلَّ يفرح بتوبة العبد، وهذا يلزم منه أن يرضى الله عَزَّ وَجلَّ عن العبد، فالرضا لازم للفرح ومن آثار الفرح.

فأهل السنة والجماعة يثبتون الصفة وما يترتب على هذه الصفة وأثر هذه الصفة، وأما أهل البدع؛ فإنهم ينفون مثل هذه الصفات.

فالأشعرية –مثلاً– لا يثبتون الصفات الفعلية لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، يقولون: لأن ذلك يستلزم وقوع التغير في ذات الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، وحلول العرض بذات الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

هذه الأحاديث وهي في أعلى درجات الصحة ماتقولون فيها؟ يقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي هو أعلم الخلق بربه: **"لَلَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا"**.

يقولون: إنما يريد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يُبين أن الله يريد إثابة عبده إذا تاب ، فيفسرون الصفة بأثرها، ويردون مثل هذه الصفات إلى الصفات السبع التي أثبتوها، ومنها صفة الإرادة، فمعنى أنه يفرح، أي: أنه يريد أن يُثيبه.

وقلنا: الجواب سهل ميسور على ما قالوه. ما الجواب؟ أنتم تثبتون الإرادة، هل للمخلوق إرادة؟ يقولون: نعم المخلوق له إرادة، إذًا لماذا أثبتم لله إرادة مع أن للمخلوق إرادة؟

الجواب الطبيعي: أن إرادة المخلوق لا تشبه إرادة الخالق، نقول: وكذلك فرحه لا يشبه فرح المخلوق، وانتهى الأمر، لكن هؤلاء كما قلنا: لا يقيمون للكتاب والسنة وزنًا، ولا لكلام الصحابة والتابعين وأتباع التابعين.

لكن كما يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ في الصواعق المرسلة: هؤلاء كلام النَّظَّام عندهم، وكلام الجُبَّائي، وكلام الفلاسفة، وكلام أبي الحسن، إلى غير ذلك من الكلام، هذا الكلام مُعظم عندهم لا يخالف، لكن قد يخالف قول الصحابة، قد يخالف ويؤول كلام النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لكن لا يؤول كلام هؤلاء، ولا يُرد كلام هؤلاء.

قال: وَهُوَ مستلزمٌ لِرِضَاهُ.

إذًا: أهل السنة لا يفسرون الفرح بالرضا، لكن يقولون: رضا الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى هو نتيجة وأثر لفرح الله عَزَّ وَجَلَّ بتوبة عبده.

قال: وَإِذَا كَانَ الْفَرَحُ فِي الْمَخْلُوقِ عَلَى أَنْوَاعٍ؛ فَقَدْ يَكُونُ فَرَحَ خِفَّةٍ وَسُرُورٍ وَطَرَبٍ، وَقَدْ يَكُونُ فَرَحَ أشرٍ وبطرٍ؛ فَاللَّهُ عَزَّ وَجلَّ منزَّه عَنْ ذَلِكَ كُلِّهِ.

لأن الفرح أُضيف إليه، فهو فرح يليق بذاته سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، والمخلوق فيه الكمال والنقص، وأما الله عَزَّ وَجلَّ فهو منزه عن كل نقص.

قال: ففرحهُ لَا يُشْبِهُ فَرَحَ أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ، لَا فِي ذَاتِهِ، وَلَا فِي أَسْبَابِهِ، وَلَا فِي غَايَاتِهِ، فَسَبَبُهُ كَمَالُ رَحْمَتِهِ وَإِحْسَانُهُ الَّتِي يُحِبُّ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ يتعرَّضوا لَهَا، وَغَايَتُهُ إِتْمَامُ نِعْمَتِهِ عَلَى التَّائِبِينَ الْمُنِيبِينَ.

قال: وَأَمَّا تَفْسِيرُ الْفَرَحِ بِلازِمِهِ، وَهُوَ الرِّضَا، وَتَفْسِيرُ الرِّضَا بِإِرَادَةِ الثَّوَابِ؛ فكلُّ ذَلِكَ نفيٌ وتعطيلٌ لِفَرَحِهِ وَرِضَاهُ سُبْحَانَهُ، أَوْجَبَهُ سوءُ ظَنِّ هَؤُلَاءِ المعطِّلة برَبِّهِمْ، حَيْثُ توهَّموا أَنَّ هَذِهِ الْمَعَانِيَ تَكُونُ فِيهِ كَمَا هِيَ فِي الْمَخْلُوقِ، تَعَالَى اللَّهُ عَنْ تَشْبِيهِهِمْ وَتَعْطِيلِهِمْ.

وهذا معناه: أنهم شبهوا أولًا ثم عطلوا، قالوا: إن إثبات الصفات يستلزم التشبيه، فنحن ننفي ونُعطل حتى نفر من هذا التشبيه، فالذي يعطل لابد أن يكون قد مثَّل وشبَّه قبل ذلك.

إذًا المراد بهذا الحديث الذي جاء به المصنف رَحِمَهُ اللهُ: أن يثبت لله تَبَارَكَ وَتَعَالَى صفة فعلية وهي صفة الفرح، هذه الصفة جاءت في سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال: وَقَوْلُهُ: صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((يَضْحَكُ اللهُ إِلَى رَجُلَيْنِ يَقْتُلُ أَحَدُهُمَا الآخَرَ؛ كِلاهُمَا يَدْخُلُ الجَنَّةَ)).

قال: مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

فهذا كذلك في أعلى درجات الصحة.

يقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((يَضْحَكُ اللهُ؛ فأضاف الضحك إلى الله عَزَّ وَجلَّ؛ فهذا فيه إثبات صفة الضحك له سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

قال المصنف رَحِمَهُ اللهُ: قَوْلُهُ: ((يَضْحَكُ اللَّهُ إِلَى رَجُلَيْنِ)).

قال: يُثْبِتُ أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ الضَّحِكَ لِلَّهِ عز وجل كَمَا أَفَادَهُ هَذَا الْحَدِيثُ وَغَيْرُهُ . عَلَى الْمَعْنَى الَّذِي يَلِيقُ بِهِ سُبْحَانَهُ، وَالَّذِي لَا يُشْبِهُهُ ضَحِكُ الْمَخْلُوقِينَ عِنْدَمَا يستخفُّهم الْفَرَحُ، أَوْ يستفزُّهم الطَّرَبُ.

والطَّرَب، أي: الخفة والهزة التي تثير النفس لفرح.

قال: بَلْ هُوَ مَعْنًى يَحْدُثُ فِي ذَاتِهِ عِنْدَ وُجُودِ مُقْتَضِيهِ.

أي: عند وجود سببه.

وَإِنَّمَا يَحْدُثُ بِمَشِيئَتِهِ وَحِكْمَتِهِ؛ فَإِنَّ الضَّحِكَ إِنَّمَا يَنْشَأُ فِي الْمَخْلُوقِ عِنْدَ إِدْرَاكِهِ لأمرٍ عجيبٍ يَخْرُجُ عَنْ نَظَائِرِهِ.

ولا يلزم من ذلك أن يكون ذلك عن غير علم، وإنما الضحك والعجب كما سيأتي يقع متى؟ عند وقوع شيء خرج عن نظائره.

النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: ((يَضْحَكُ اللهُ إِلَى رَجُلَيْنِ يَقْتُلُ أَحَدُهُمَا الآخَرَ)).

الأصل في القاتل أنه في النار، هذا هو الأصل، لكن قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((كِلاهُمَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ)).

إذًا: نوعية القتل هاهنا خرجت عن نظائرها؛ فهذا الذي قُتل أولًا كان مسلمًا فمات شهيدًا فدخل الجنة، قاتله كان كافرًا وأسلم بعد ذلك وقُتل فدخل الجنة، إذًا: هذا خرج عن نظائره، وهذا سبب ضحك ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

وهذا سبب عَجَبِه كما سيأتي في الأحاديث التي بعد ذلك، فليس الضحك وليس العجب راجعًا إلى عدم العلم أو وقوع شيء لم يكن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى يعلمه فعلمه بعد ذلك.

قال: فَإِنَّ الضَّحِكَ إِنَّمَا يَنْشَأُ فِي الْمَخْلُوقِ عِنْدَ إِدْرَاكِهِ لأمرٍ عجيبٍ يَخْرُجُ عَنْ نَظَائِرِهِ، وَهَذِهِ الْحَالَةُ الْمَذْكُورَةُ فِي هَذَا الْحَدِيثِ كَذَلِكَ؛ فَإِنَّ تَسْلِيطَ الْكَافِرِ عَلَى قَتْلِ الْمُسْلِمِ مَدعاةٌ فِي بَادِئِ الرَّأْيِ لِسَخَطِ اللَّهِ عَلَى هَذَا الْكَافِرِ، وَخِذْلَانِهِ، وَمُعَاقَبَتِهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

لأنه قتل مسلمًا.

فَإِذَا منَّ اللَّهُ عَلَى هَذَا الْكَافِرِ بَعْدَ ذَلِكَ بِالتَّوْبَةِ، وَهَدَاهُ لِلدُّخُولِ فِي الْإِسْلاَمِ، وَقَاتَلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ حَتَّى يُسْتَشْهَدَ فَيَدْخُلَ الْجَنَّةَ؛ كَانَ ذَلِكَ مِنَ الْأُمُورِ الْعَجِيبَةِ حَقًّا.

الله عَزَّ وَجلَّ كان ساخطًا على هذا الكافر قبل ذلك ثم رضي عنه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

قال: وَهَذَا مِنْ كَمَالِ رَحْمَتِهِ وَإِحْسَانِهِ وَسَعَةِ فَضْلِهِ عَلَى عِبَادِهِ سُبْحَانَهُ؛ فَإِنَّ الْمُسْلِمَ يُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَيَقْتُلُهُ الْكَافِرُ، فَيُكْرِمُ اللَّهُ الْمُسْلِمَ بِالشَّهَادَةِ، ثُمَّ يمنُّ عَلَى ذَلِكَ الْقَاتِلِ، فَيَهْدِيهِ لِلإِسْلامَ وَالاسْتِشْهَادِ فِي سَبِيلِهِ، فَيَدْخُلانِ الْجَنَّةَ جميعا.

قال: وَأَمَّا تَأْوِيلُ ضَحِكِهِ سُبْحَانَهُ بِالرِّضَا أَوِ الْقَبُولِ أَوْ أَنَّ الشَّيْءَ حلَّ عِنْدَهُ بمحلِّ مَا يُضْحَكُ مِنْهُ، وَلَيْسَ هُنَاكَ فِي الْحَقِيقَةِ ضَحِكٌ؛ فَهُوَ نفيٌ لِمَا أَثْبَتَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِرَبِّهِ، فَلا يُلْتَفَتُ إِلَيْهِ.

ومن الكلام الجميل الذي قرأته اليوم كذلك، ما جاء في توبة الإمام الجويني أبي محمد الجويني؛ وهو والد إمام الحرمين الجويني صاحب الورقات، وهذا كان على السنة ومات على السنة.

فيذكر: أنه قضى جُلَّ عمره في مطالعة كتب الفلاسفة ومطالعة تأويلهم وتعطيلهم ونفيهم لصفات الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، ثم إن الله عَزَّ وَجلَّ منَّ عليه بعد ذلك بأن نظر بعين مجردة وكان طالبًا للحق، نظر في كلام رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فكان من عجيب ما قاله: إن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال هذه الأحاديث في أماكن متعددة، قال: وكان أمام النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ العالم والجاهل، والعربي والأعجمي، يعني: الذي يفهم لغة العرب والذي لا يفهم لغة العرب.

ومع ذلك قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذه الأحاديث وتركها كذا دون أن يقول إن المراد باليد النعمة أو القدرة، أو إن المراد بالعين الرعاية، أو إن النزول نزول الرحمة أو نزول الملك، بل كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول الحديث ويذكر الآية والآية محمولة على ظاهرها.

قال: فهداني الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى لهذا المعتقد السليم، وهذا معنى كلامه رَحِمَهُ اللهُ، وبهذا يُرد على هؤلاء، هذه الأحاديث التي هي أحاديث الصفات، هل هي حديث واحد، حديثان، ثلاثة، أربعة؟

صفة واحدة جاءت عن ثلاثين صحابيًا صفة النزول، ثلاثون صحابيا يروون صفة النزول، وأحاديث الرؤية متواترة وغير ذلك من الأحاديث، آيات الاستواء كثيرة جدًا، ومع ذلك يذكرها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأمامه العجمي والعربي، والذي يلازمه ولا يفارقه من أصحابه، والذي لا يراه إلا المرة بعد المرة.

ومع ذلك يسكت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن هذه المعاني الباطلة التي زعموا أنها هي المعاني الحقة لهذه الآيات والأحاديث، هذا يُبين أن هذا الذي يقولونه كله كلام باطل.

ثم قال رَحِمَهُ اللهُ بعد ذلك وهو يتكلم كذلك عن صفة فعلية لربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى، قال:

وَقَوْلُهُ: ((عَجِبَ رَبُّنَا مِنْ قُنُوطِ عِبَادِهِ وَقُرْبِ خَيْرِهِ، يَنْظُرُ إِلَيْكُمْ آزِلِينَ قَنِطِينَ، فَيَظَلُّ يَضْحَكُ يَعْلَمُ أَنَّ فَرَجَكُمْ قَرِيبٌ)). حَدِيثٌ حَسَنٌ.

لكن هذه الصفة، وهي صفة العَجَب ثبتت لربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى في غير هذا الحديث الي هو خارج الصحيح.

هذه الصفة ثبتت من حديث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أحاديث وردت في الصحيحين.

فمن ذلك ما جاء في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة رَضِي اللهُ عَنْهُ قال: جاء رجل إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: يا رسول الله إني مجهود، ما معنى مجهود؟

أي يحتاج إلى طعام وشراب، قال: فأرسل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى بعض نسائه، فقالت: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ مَا عِنْدِي إِلَّا مَاءٌ، ثم أرسل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى أخرى فقالت مثل ذلك، -هذه بيوت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.-

حتى قلن كلهن مثل ذلك، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "مَنْ يُضِيفُ هَذَا اللَّيْلَةَ"، فقال رجل من الأنصار: أَنَا يَا رَسُولَ اللهِ، قال: فَانْطَلَقَ بِهِ إِلَى رَحْلِهِ فَقَالَ لِامْرَأَتِهِ: هَلْ عِنْدَكِ شَيْءٌ؟ قَالَتْ: لَا، إِلَّا قُوتُ صِبْيَانِي، قَالَ: فَعَلِّلِيهِمْ بِشَيْءٍ.

تدرون ما معنى علليهم؟ يعني: اشغليهم بأي شيء.

فَعَلِّلِيهِمْ بِشَيْءٍ، فَإِذَا دَخَلَ ضَيْفُنَا فَأَطْفِئِي السِّرَاجَ، وَأَرِيهِ أَنَّا نَأْكُلُ، فَإِذَا أَهْوَى لِيَأْكُلَ فَقُومِي إِلَى السِّرَاجِ حَتَّى تُطْفِئِيهِ، قَالَ: فَقَعَدُوا وَأَكَلَ الضَّيْفُ، فَلَمَّا أَصْبَحَ غَدَا عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: "قَدْ عَجِبَ اللهُ مِنْ صَنِيعِكُمَا بِضَيْفِكُمَا اللَّيْلَةَ"، وهذا في صحيح مسلم.

وكذلك جاء عند البخاري وأحمد أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: "عَجِبَ رَبُّنَا عَزَّ وَجلَّ مِنْ قَوْمٍ يُقَادُونَ إِلَى الْجَنَّةِ فِي السَّلَاسِلِ".

"عَجِبَ رَبُّنَا"؛ فأضاف هذه الصفة كذلك إلى الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

هل يُقال العَجَب أم العُجب؟ الصفة الثابتة لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى العَجَب.

هل هذه الصفة ثابتة في القرآن؟ نعم، أين؟ {بَلْ عَجِبْتَ} [الصافات: 12]، هذا خطاب للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

بل عجبتُ؛ هذه إضافة لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، بل عجبتُ، أي: عجب الله عَزَّ وَجلَّ ويسخرون، وهذه قراءة حمزة والكسائي، وهي قراءة متواترة.

وكذلك جاء عند النسائي من حديث عقبة بن عامر رَضِي اللهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: "يَعْجَبُ رَبُّكَ مِنْ رَاعِي غَنَمٍ فِي رَأْسِ الشَّظِيَّةِ لِلْجَبَلِ يُؤَذِّنُ بِالصَّلاَةِ وَيُصَلِّي فيَقُولُ اللهُ: انْظُرُوا إِلَى عَبْدِي هَذَا يُؤَذِّنُ، وَيُقِيمُ لِلصَّلاَةِ يَخَافُ مِنِّي قَدْ غَفَرْتُ لِعَبْدِي، وَأَدْخَلْتُهُ الْجَنَّةَ".

فكل هذه الأحاديث وهذه الآية تثبت العجب لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى على ما يليق به، وتثبت أنه وقع لخروجه عن نظائره تعظيمًا له.

وهذا يعني أن الله عَزَّ وَجلَّ يُعظم هذا الفعل الواقع من العبد، والله عَزَّ وَجلَّ يُعظم ما هو عظيم إما لعظم سببه أو لعظمه في نفسه.

لكن متى يكون العجبُ منفيًا عن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى؟ إن كان المراد به عدم توقع حصول الشيء والجهل بحصوله.

فالإنسان يتعجب لجهله بالشيء، ولأنه لم يتوقع حصوله ، هنا نقول: هذا منفي عن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، أما إذا وقع الشيء على خلاف نظائره فنقول: هذه صفة ثابتة لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

هذه الصفة كذلك لم تثبت بهذا الحديث الحسن فقط، لكن ثبتت بالكتاب والسنة الصحيحة.

قال الشيخ الهراس رَحِمَهُ اللهُ: ((عَجِبَ رَبُّنا)).

قال: هَذَا الْحَدِيثُ يُثْبِتُ لِلَّهِ عَزَّ وَجلَّ صِفَةَ العَجَب، وَفِي مَعْنَاهُ قَوْلُهُ عَليهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَم: ((عَجِبَ رَبُّكَ مِنْ شابٍّ لَيْسَ لَهُ صَبْوَةٌ)).

وهو حديث ضعيف، وفي الصحيح غنية عنه لكن قد يُستأنس به، لأن الصفة وردت كذلك فيه.

ما معنى ((مِنْ شابٍّ لَيْسَ لَهُ صَبْوَةٌ))؟ أي ليس له ميل إلى شهوات ومتاع الدنيا، قلبه معلق بالمساجد وبطاعة الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

قال: وَقَرَأَ ابْنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه: {بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ}.

قال: بِضَمِّ التَّاءِ عَلَى أنَّها ضميرٌ للرَّبِّ جَلَّ شَأْنُهُ.

قلنا: وهي قراءة صحيحة.

قال: وَلَيْسَ عَجَبُهُ سُبْحَانَهُ نَاشِئًا عَنْ خَفَاءٍ فِي الْأَسْبَابِ.

هذا قد يكون عند المخلوق.

أَوْ جَهْلٍ بِحَقَائِقِ الْأُمُورِ؛ كَمَا هُوَ الْحَالُ فِي عَجَبِ الْمَخْلُوقِينَ؛ بَلْ هُوَ مَعْنًى يَحْدُثُ لَهُ سُبْحَانَهُ.

ولك أن تتأمل في كلام الشارح رَحِمَهُ اللهُ، قال في هذه الصفات الثلاثة، صفة العجب وفي صفة الفرح وفي صفة الضحك:إنها معنى، يعني: المعنى معروف، ولا يتكلف المرء أن يضع لها حدًا يضبطها.

ولذلك كانت صفات المعاني التي ترجع إلى المعنى هذه لا تحتاج إلى حد جامع مانع، لن تستطيع ذلك؛ لأن المعنى معروف، والمعنى إنما يكون بحسب ما يُضاف إليه، فالعجب من الله عَزَّ وَجلَّ يليق به سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

قال: بَلْ هُوَ مَعْنًى يَحْدُثُ لَهُ سُبْحَانَهُ عَلَى مُقْتَضَى مَشِيئَتِهِ وَحِكْمَتِهِ وَعِنْدَ وُجُودِ مُقْتَضِيهِ، وَهُوَ الشَّيْءُ الَّذِي يَسْتَحِقُّ أَنْ يُتَعَجَّبَ مِنْهُ.

قال: وَهَذَا العَجَب الَّذِي وَصفَ بِهِ الرسولُ ربَّه هُنَّا مِنْ آثَارِ رَحْمَتِهِ، وَهُوَ مِنْ كَمَالِهِ تَعَالَى، فَإِذَا تأخَّر الْغَيْثُ عَنِ الْعِبَادِ مَعَ فَقْرِهِمْ وشدَّة حَاجَتِهِمْ، وَاسْتَوْلَى عَلَيْهِمُ الْيَأْسُ وَالْقُنُوطُ، وَصَارَ نَظَرُهُمْ قَاصِرًا عَلَى الْأَسْبَابِ الظاهرة، وحسبوا أن لا يَكُونَ وَرَاءَهَا فرجٌ مِنَ الْقَرِيبِ الْمُجِيبِ؛ فَيَعْجَبُ اللَّهُ مِنْهُمْ.

قال: وَهَذَا محلٌّ عجيبٌ حَقًّا؛ إِذْ كَيْفَ يَقْنَطُونَ وَرَحْمَتُهُ وَسِعَتْ كلَّ شَيْءٍ، وَالْأَسْبَابُ لِحُصُولِهَا قَدْ توفَّرت؟! فَإِنَّ حَاجَةَ الْعِبَادِ وَضَرُورَتَهُمْ مِنْ أَسْبَابِ رَحْمَتِهِ.

ولذا حتى المشرك إذا احتاج إلى الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى واضطر إليه ودعاه أجابه، كما أخبر الله عَزَّ وَجلَّ في كتابه.

قال: وَكَذَا الدُّعَاءُ بِحُصُولِ الْغَيْثِ وَالرَّجَاءِ فِي اللَّهِ مِنْ أَسْبَابِهَا، وَقَدْ جَرَتْ عَادَتُهُ سُبْحَانَهُ فِي خَلْقِهِ أَنَّ الفَرَجَ مَعَ الْكَرْبِ، وَأَنَّ الْيُسْرَ مَعَ الْعُسْرِ، وَأَنَّ الشِّدَّةَ لَا تَدُومُ، فَإِذَا انضمَّ إِلَى ذَلِكَ قُوَّةُ الْتِجَاءٍ وَطَمَعٍ فِي فَضْلِ اللَّهِ، وَتَضَرُّعٌ إِلَيْهِ ودعاء؛ فتح اللهم عَلَيْهِمْ مِنْ خَزَائِنِ رَحْمَتِهِ مَا لَا يَخْطُرُ عَلَى الْبَالِ.

قال: وَالْقُنُوطُ مَصْدَرُ (قَنَطَ)، وَهُوَ الْيَأْسُ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ؛ قَالَ تَعَالَى: {وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ} [الحجر: 56].

أي: لا يقنط من رحمة الله عَزَّ وَجلَّ إلا الضالون.

قال: قَوْلُهُ: ((وقُرب خَيْرِهِ))؛ أَيْ: فَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ.

قال: وَقَدْ رُوِيَ: ((غِيَرِه)).

اللفظة الواردة في حديث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (غِيَرِهِ)، وأما لفظة (خيرِهِ) فلم ترد في الأحاديث لا الصحيح ولا الحسن ولا الضعيف، إنما الوارد (قُرب غِيَرِهِ).

قال: وَقَدْ رُوِيَ: ((غِيَرِه)).

إذًا: هذا هو الصحيح الذي قال فيه روي.

والغِيَرَ: اسْمٌ مِنْ قَوْلِكَ: غَيَّرَ الشَّيْءَ فتغيَّر.

قال: وَفِي حَدِيثِ الاِسْتِسْقَاءِ: ((مَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ يلقَ الغِيَرَ))؛ أَيْ: تَغَيُّرَ الْحَالِ، وَانْتِقَالَهَا مِنَ الصَّلاَحِ إِلَى الْفَسَادِ.

قلت: وهذا ليس بحديث عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ((مَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ يلقَ الغِيَرَ))؛ هذا ليس بحديث ولكن جاء في شعر منسوب لأبي طالب كما جاء في سيرة ابن هشام، أما أنه حديث عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فلا.

قال: قَوْلُهُ: ((آزِلِينَ قَنِطِينَ)): حَالاَنِ مِنَ الضَّمِيرِ الْمَجْرُورِ فِي ((إِلَيْكُمْ)).

ينظر إليكم حال كونكم آزلين قنطين.

وَ ((آزِلين)): جَمْعُ آزِل، اسْمُ فَاعِلٍ مِنَ الأزْل؛ بِمَعْنَى الشِّدة وَالضِّيقِ. يُقَالُ: أَزِلَ الرَّجُلُ يأزَل أزَلاً، مِنْ بَابِ فَرِحَ؛ أَيْ: صَارَ فِي ضِيقٍ وَجَدْبٍ.

فهذا الحديث كذلك فيه إثبات صفة العجب لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، وهي كغيرها من الصفات الثلاثة التي مضت.

ثم قال رَحِمَهُ اللهُ: وَقَوْلُهُ صلى الله عليه وسلم: ((لا تَزَالُ جَهَنَّمُ يُلْقَى فِيهَا وَهِيَ تَقُولُ: هَلْ مِنْ مَزِيدٍ؟ حَتَّى يَضَعَ رَبُّ الْعِزَّةِ فِيهَا رِجْلَهُ وَفِي رِوَايَةٍ: عَلَيْهَا قَدَمَهُ فَيَنْزَوِي بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ، فَتَقُولُ: قَط قَط)).

إذًا: هذا فيه إثبات الصفات الخبرية لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

ومن هذه الصفات صفة القدم أو صفة الرِجل.

وهذا ما نبدأ به الدرس القادم.

الدرس الحادي والثلاثون

إن الحمد لله, نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله تعالى من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله, صلى الله عليه, وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد:

فما زال حديثنا موصولًا في قراءة العقيدة الواسطية لشيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ, وعليها شرح العلامة الهراس.

وكنا قد وقفنا عند هذه الأحاديث التي ذكرها المصنف رَحِمَهُ اللهُ, وهو يدلل على اعتقاد أهل السنة والجماعة فيما يتعلق بصفات ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

فقال رَحِمَهُ اللهُ: وَقَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((لا تَزَالُ جَهَنَّمُ يُلْقَى فِيهَا وَهِيَ تَقُولُ: هَلْ مِنْ مَزِيدٍ؟ حَتَّى يَضَعَ رَبُّ الْعِزَّةِ فِيهَا رِجْلَهُ (وَفِي رِوَايَةٍ: عَلَيْهَا قَدَمَهُ) فَيَنْزَوِي بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ، فَتَقُولُ: قَط قَط)), مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

أورد المصنف هذا الحديث لإثبات صفة القدم لله تعالى, وهذه الصفة لم ترد في كتاب الله, وإنما جاءت في سن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وجاءت في أحاديث هي في أعلى درجات الصحة, ومنها: هذا الحديث الذي معنا؛ وهو من رواية أنس بن مالك رَضِي اللهُ عَنْهُ.

وكذلك جاء في الصحيحين من حديث أبي هريرة رَضِي اللهُ عَنْهُ, أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: "تَحَاجَّتِ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ، فَقَالَتِ النَّارُ: أُوثِرْتُ بِالْمُتَكَبِّرِينَ وَالْمُتَجَبِّرِينَ، وَقَالَتِ الْجَنَّةُ: فَمَا لِي لَا يَدْخُلُنِي إِلَّا ضُعَفَاءُ النَّاسِ وَسَقَطُهُمْ وَغِرَّتُهُمْ؟ قَالَ اللهُ لِلْجَنَّةِ: إِنَّمَا أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ مِنْ عِبَادِي، وَقَالَ لِلنَّارِ: إِنَّمَا

أَنْتِ عَذَابِي أُعَذِّبُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ مِنْ عِبَادِي، وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْكُمَا مِلْؤُهَا، فَأَمَّا النَّارُ: فَلاَ تَمْتَلِئُ حَتَّى يَضَعَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى رِجْلَهُ تَقُولُ: قَطْ قَطْ قَطْ، فَهُنَالِكَ تَمْتَلِئُ وَيُزْوَى بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ، وَلَا يَظْلِمُ اللهُ مِنْ خَلْقِهِ أَحَدًا، وَأَمَّا الْجَنَّةُ: فَإِنَّ اللهَ يُنْشِئُ لَهَا خَلْقًا".

فهذا الحديث كذلك في إثبات صفة القدم لله تَبَارَكَ وَتَعَالَى, والقَدَم هي الرِجْل.

ولذا جاء في الحديث الذي ذكره ابن تيمية: ((حَتَّى يَضَعَ رَبُّ الْعِزَّةِ فِيهَا رِجْلَهُ (وَفِي رِوَايَةٍ: عَلَيْهَا قَدَمَهُ))؛ فالقدم هي الرِجل المعروفة لغةً.

وسميت بذلك؛ لأنها تتقدم وتسبق؛ كما قال أهل اللغة.

والقدم صفة ذاتية خبرية ثابتة لله عَزَّ وَجلَّ.

ومعنى قولنا: صفة ذاتية أي: أنها لا تنفك عن ذات الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى؛ فلا يزال متصفًا بها.

ومعنى قولنا: صفة خبرية أي: أن سبيل العلم بها هو السمع فقط, فلو لم يرد السمع بذلك لتوقفنا في هذه الصفة نفياً وإثباتا.

فنحن نثبتها لله تَبَارَكَ وَتَعَالَى بلا تكليف ولا تمثيل, لا نقول: كيفية هذه الصفة كذا, ولا نقول: هي مثل صفة كذا؛ لأن الله عَزَّ وَجلَّ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير, سُبْحَانَهُ وَتعَالَى. لها كيف لكن لا نعلم هذا الكيف.

ولا تحريف ولا تعطيل, فلا نحرفها ولا نعطلها كما فعل ذلك أهل التعطيل؛ ولذا كان سبيل الأئمة إثبات هذه الصفات على ظاهرها وعلى معناها الذي ورد

في كتاب الله وفي سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على ما تعرفه العرب من كلامها.

قال أبو عبيد القاسم بن سلام رَحِمَهُ اللهُ –وهو من أئمة اللغة ومن أقران الإمام أحمد-: هذه أحاديث صحاح, حملها أصحاب الحديث والفقهاء بعضهم عن بعض.

إذًا: هذه الأحاديث حملها أهل الحديث –وهم أعلم الناس بسنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- من حيث العلم باللفظ والمعنى.

وكذلك الفقهاء حملوها بعضهم عن بعض, قال: وهي عندنا حق لا شك فيها, ولكن إذا قيل: كيف وضع قدمه؟ وكيف ضحك؟

لأن الرواية تقول: ((حَتَّى يَضَعَ رَبُّ الْعِزَّةِ فِيهَا رِجْلَهُ)).

يقول أبو عبيد: ولكن إذا قيل كيف وضع قدمه؟ وكيف ضحك؟ وكذلك غير ذلك من الصفات ويسأل عن ذلك بالكيفية؛ قلنا: لا يفسر هذا ولا سمعنا أحدًا يفسره, أي: يفسر الكيفية, وأما المعنى فمعلوم.

فالمراد بنفيه التفسير هاهنا أي: لا تفسر تفسير الجهمية والأشاعرة والمعتزلة, وليس المراد نفي المعنى، أو المراد نفي تفسير الكيفية.

وقال إمام الأئمة ابن خزيمة رَحِمَهُ اللهُ –كما في كتابه التوحيد-: باب ذكر إثبات الرجل لله عَزَّ وَجلَّ وإن رغمت أُنوف المعطلة الجهمية؛ الذين يكفرون بصفات خالقنا التي أثبتها لنفسه في محكم تنزيله, وعلى لسان نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال: يذكر ما يدعو بعض الكفار من دون الله –هذا كلام ابن خزيمة رَحِمَهُ اللهُ–, يقول الله تعالى: {أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ} [الأعراف: 195].

قال ابن خزيمة: فأعلمنا ربنا عَزَّ وَجلَّ أن من لا رجل له ولا يد ولا عين ولا سمع له؛ فهو يعبد كالأنعام بل هو أضل.

فالإله موصوف بصفات الكمال, ومن هذه الصفات: الصفات التي ذكرها الله عَزَّ وَجلَّ في كتابه وعلى لسان نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ, فنُثبتها على المعنى المعروف في لغة العرب بغير هذه الأمور الأربعة التي ذكرناها: بلا تكييف ولا تمثيل ولا تحريف ولا تعطيل.

قال الشيخ الهراس رَحِمَهُ اللهُ: قَوْلُهُ: ((لَا تَزَالُ جهنَّم ...)) إلخ؛ فِي هَذَا الْحَدِيثِ إِثْبَاتُ الرِّجْلِ والقدَم لِلَّهِ عَزَّ وجلَّ، وَهَذِهِ الصِّفَةُ تُجرى مَجْرَى بقيَّة الصِّفَاتِ، فتُثبت لِلَّهِ عَلَى الْوَجْهِ اللاَّئِقِ بِعظَمَتِهِ سُبْحَانَهُ.

وَالْحِكْمَةُ مِنْ وَضْعِ رِجْلِهِ سُبْحَانَهُ فِي النَّارِ أَنَّهُ قَدْ وَعَدَ أَنْ يَمْلأَهَا؛ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: {لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ}.

وَلَمَّا كَانَ مُقْتَضَى رحمته وعدله أن لا يعذِّبَ أَحدًا بِغَيْرِ ذنبٍ، وَكَانَتِ النَّارُ فِي غَايَةِ الْعُمْقِ وَالسَّعَةِ؛ حقَّق وَعْدَهُ تَعَالَى، فَوَضَعَ فِيهَا قَدَمَهُ.

و(في) تأتي بمعنى (على) في لغة العرب.

{وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ} [طه: 71], أي: على جذوع النخل.

{أَأَمِنتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ} [الملك: 16], أي: على السماء.

هذا معروف في لغة العرب.

فَوَضَعَ فِيهَا قَدَمَهُ، فَحِينَئِذٍ يَتَلاَقَى طَرَفَاهَا.

وهذا معنى: ((فَيَنْزَوِي بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ)), أي: ينضم بعضها إلى بعض, فَحِينَئِذٍ يَتَلاَقَى طَرَفَاهَا، وَلَا يَبْقَى فِيهَا فَضْلٌ عَنْ أَهْلِهَا.

لا يُنشئ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى للنار أهلاً ويجعلهم فيها. هذا لا يكون؛ لأن الله عَزَّ وَجلَّ ليس بظلام للعبيد سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

ولذا غلَّط العلماء شريك بن عبد الله بن أبي نمر في روايته التي ذكر فيها أن الله عَزَّ وَجلَّ يُنشئ للنار خلقًا يجعلهم فيها.

قالوا: وهذا غلط, وينافي رحمة الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى, وعدله, ثم هو مخالف لغيره من الثقات الذين رووا هذا الحديث.

لكن الذي صح وثبت وهو من كمال رحمة الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى أن الجنة لا يزال فيها فضل.

لأن الله عَزَّ وَجلَّ قال: {وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ} [آل عمران: 133].

والآية الأخرى التي في الحديث: {سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ} [الحديد: 21].

وهذا يدل على أن الجنة عظيمة, وأنها واسعة جدًا.

فإذا دخل أهل الجنة الجنة, ولا يزال في الجنة فضل منها لم يسكنه أحد, ماذا يصنع ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى؟ من كمال رحمته أن يُنشئ للجنة خلقًا ويجعلهم في هذه الأماكن؛ فهذا من كمال رحمته سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

وأما النار فإنها تمتلئ ولا يزال فيها فضل كذلك,: لا يزال فيها أماكن ليس فيها أحد ممن هم من أهلها, فماذا يصنع الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى؟ يضع قدمه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عليها حتى ينزوي بعضها إلى بعض؛ لأن الله عَزَّ وَجلَّ قال: {لَأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ}.

ولذا قال هاهنا: وَأَمَّا الْجَنَّةُ؛ فَإِنَّهُ يَبْقَى فِيهَا فضلٌ عَنْ أَهْلِهَا مَعَ كَثْرَةِ مَا أَعْطَاهُمْ وَأَوْسَعَ لَهُمْ، فَيُنْشِئُ اللَّهُ لَهَا خَلْقًا آخَرِينَ؛ كَمَا ثَبَتَ بِذَلِكَ الْحَدِيثُ.

فهنا يقول: لا تزال جهنم يُلقى فيها, وهذا يدل على كثيرة الذين يدخلون جهنم, والذين هم من أهلها, وهي تقول: {هَلْ مِنْ مَزِيدٍ}؛ أي تطلب أكثر, جهنم تسأل, والسؤال هاهنا غرضه الطلب, تطلب مزيدًا من أهلها سلمنا الله وإياكم من النار وما قرب إليها من قول وعمل.

قال: ((حَتَّى يَضَعَ رَبُّ الْعِزَّةِ فِيهَا رِجْلَهُ (وَفِي رِوَايَةٍ: عَلَيْهَا قَدَمَهُ) فَيَنْزَوِي بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ))؛ لأنها خلق من خلق الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

هل لله رجل واحدة أم رجلان؟ وقدم واحدة أم قدمان؟

الله عَزَّ وَجلَّ له قدمان, وهذا ما صح في سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ, وجاء عن بعض أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وله حكم الرفع؛ لأن هذا مما لا يقال بالرأي.

فجاء عند الدارمي في النقض على بشر المريسي, وعند عبد الله بن أحمد في السنة عن ابن عباس أنه قال: "الْكُرْسِيَّ مَوْضِعُ الْقَدَمَيْنِ والْعَرْشَ لَا يُقَدرُ قَدْرَهُ"؛ فالله عَزَّ وَجلَّ له قدمان سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

ماذا صنع أهل البدع من المعتزلة و الأشعرية والماتريدية قِبل هذه الصفات؟

قلنا: هؤلاء لا يُثبتون مثل هذه الصفات, ولهم طريقان تجاه هذه الصفات:

إن كانت الصفة واردة في كتاب الله فلهم طريقان.

وإن كانت واردة في سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فلهم طرق ثلاثة.

قال ناظمهم المعطل الجهمي:

وكل نص أوهم التشبيها أوِّله أو فوِّض ورُم تنزيها

وكل نص أوهم التشبيها, أوِّله: فمعنى ذلك: أن أي نص يأتي في كتاب الله أو في سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فالسبيل تجاه هذا النص إذا كان من نصوص صفات الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى هو التأويل.

والمراد هاهنا: التحريف, لأن التأويل عندهم لا يقوم على دليل, وإنما على قانون مقدم عندهم وشبهة عقلية فاسدة؛ فيحرفون الكلم عن مواضعه, ويسمون ذلك تأويلاً, إنما هو تعطيل وتحريف.

أو فوِّض: ما معنى فوِّض؟ يعني: قل لا يعلم معناه إلا الله.

فإذا جاء في هذا الحديث قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((حَتَّى يَضَعَ رَبُّ الْعِزَّةِ فِيهَا رِجْلَهُ)), ما معنى ذلك؟ يقول: الله أعلم بمراده وبالمعنى.

فإن قلت : إن معناه الذي دلت عليه لغة العرب ونقله لأئمتنا هو كذا؟

قالوا: إن قلت ذلك فأنت مبتدع, هذا لا يجوز.

يقال لهم: القرآن نزل بلسان عربي مبين؟ يقولون:لا يقال هذا في حق الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى؛ لأن هذا يستلزم التشبيه والتجسيم والتمثيل, وأن الله يشبه خلقه, إلى غير ذلك من القوانين الباطل التي بنوها على التشبيه قبل التعطيل، فردوا بها صريح كتاب الله وسنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وقد كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول هذه الأحاديث -كما قلنا قبل ذلك- وأمامه العربي والعجمي والعالم والجاهل والذي لازمه والذي لم ير النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلا مرة واحدة, وكان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُطلقها ولا يفسرها حتى تُفهم على لسان العرب, وأما هؤلاء فيقولون: الله أعلم بالمراد.

فاتهموا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأنه خان الرسالة, لأن الله عَزَّ وَجلَّ أمره بالبلاغ والبيان.

وهل المطلوب من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يبين اللفظ فقط دون المعنى؟ هذا ليس هو المطلوب, بل المطلوب من النبي أن يبين المعاني قبل كل شيء.

ولذا أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تعلموا الإيمان ومعاني الإيمان قبل أن يتعلموا ألفاظ القرآن؛ كما جاء عن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

فهؤلاء يقولون:

وكل نص أوهم التشبيها ** أوِّله أو فوِّض...**

ما معنى أوِّله؟

يعني -مثلاً-: هذه الصفة التي معنا -صفة القدم- ماذا تجد في كتب هؤلاء؟ يقولون في قول أعلم الخلق بربه صلى الله عليه وسلم: حتى يضع رب العزة (وفي رواية: الجبار) فيها قدمه, أو عليها قدمه.

يقولون: القدم بمعنى: ما تقدم من أهل النار إلى جهنم, أي: أن يضع الله عَزَّ وَجلَّ المقدمين من أهل النار في جهنم.

فالمراد بالقدم: قوم يقدمهم الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى؛ وهذا باطل؛ لأن الله عَزَّ وَجلَّ أضافها لنفسه.

فقال: (حَتَّى يَضَعَ قَدَمَهُ), وقال: (حَتَّى يَضَعَ رِجْلَهُ), والمعروف أن الإضافة إلى الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى إما أن تكون إضافة صفة لموصوف أو إضافة تشريف, فكيف يشرفهم الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى؟!

ولو كان المراد ما ذكره هؤلاء لقال : قدمهم؛ أي المقدمين منهم، وما أضافهم لنفسه تعالى.

ثم إن الحديث يقول: ((حَتَّى يَضَعَ رَبُّ الْعِزَّةِ عَلَيْهَا قَدَمَهُ) فأني لهم تأويل ذلك؟ ثم نقول: قد جاء في السنة: أن لله قدمين, وأن لله رجلين, فكيف تصرفون مثل هذه الأحاديث؟

فهذه الصفات إذا جاءت في الكتاب كان لهم طريقان:

الطريق الأول: التأويل الذي هو التحريف أو التفويض.

والتفويض شر من التأويل والتحريف؛ لأن التفويض معناه: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مات ولم يبلغ الدين, وأن من جاء بعد الصحابة كان أعلم بمعاني القرآن والسنة من الصحابة, وأن الصحابة كانوا كالأعاجم أمام كتاب ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

ولذا لهم مقولة قبيحة غبية في ذلك, يقولون: منهج السلف أسلم, ومنهج الخلف أعلم وأحكم.

هكذا وصفوا أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -نسأل الله السلامة والعافية- أنهم قرأوا الكتاب والحديث دون فهم للمعاني، وسلموا بذلك فلم يخوضوا كما خاض الخلف!!

فهؤلاء ما سلِم منهم القرآن, وما سلمت منهم السنة, وما سلم منهم أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

أما إذا كان النص في السنة فزد أمرًا ثالثًا وهو: رد هذه الأحاديث.

اليوم سمعت واحدًا من هؤلاء ممن لا يتكلم تقريبًا إلا بكلام الزنادقة – نسأل الله السلامة والعافية- وهو من المقدمين لديهم في هذه الأيام, يشرح أحاديث البخاري, جاء عند حديث عبد الله بن مسعود: "جَاءَ حَبْرٌ مِنَ الْأَحْبَارِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّا نَجِدُ: أَنَّ اللَّهَ يَجْعَلُ السماوات عَلَى إِصْبَعٍ وَالْأَرَضِينَ عَلَى إِصْبَعٍ".

فقال الجهمي المعطل: هذه الأحاديث أهل السنة والجماعة تجاهها على أمور ثلاثة:

يقول: أول هذه الأمور وأعلاه: أن يُحكم على هذه الأحاديث بالشذوذ وإن كانت في الصحيحين.

كيف يكون حديث في الصحيحين وتحكم عليه بأنه حديث شاذ مردود لا يُقبل, ثم تأتي بعد وتناظر العلمانيين وتقول: البخاري خط أحمر, خط أحمر كيف؟! والله لأنت أخطر على البخاري من العلمانيين؛ لأنك تتكلم باسم الدين.

معنى ذلك: أن الكتاب الأخير من صحيح البخاري كله أحاديث شاذة, كتاب التوحيد كله شاذ مردود, لأن كتاب التوحيد في صحيح البخاري موضوع في إثبات الصفات, الكتاب كله في صفات الباري تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

فالكتاب أصلاً موضوع للرد على الجهمية والزنادقة الذين يردون صفات الباري تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

فإذا كان الحديث في السنة أضافوا هذا الأمر الثالث؛ ولذا قلنا ونكرر: إن هؤلاء لا يقيمون وزنًا, لا لكتاب الله, ولا لسنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ, ولا لفهم أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال هذا الجهمي:قد يقول قائل: لكن الراوي قال: "فَضَحِكَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ تَصْدِيقًا لِقَوْلِ الْحَبْرِ"؟

نقول: غَلِط الراوي, الراوي غير معصوم, ما الذي أكد لك أن النبي ضَحِكَ ضِحْكَ تصديق؟ ممكن يكون تعجبًا واندهاشًا من قول هذا المُشبِّه المجسِّم؛ ولذا قرأ سول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: {وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ والسماوات مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ}.

{قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ}, أي في قدرته وسلطانه.

هذا كلام لا يتكلم به إلا الغلاة من المعطلة –نسأل الله السلامة والعافية-, ثم بعد ذلك يقولون للعلمانيين: البخاري خط أحمر.

فهؤلاء أولوا وحرفوا وقالوا: إن القَدَم بمعنى: ما تقدم من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى من خلقه ممن يضعهم في النار.

ماذا عن الرِجْل؟ يقولون: إن الرِجل تعني: الطائفة من الناس؛ كما جاء في حديث أيوب: أرسل الله عَزَّ وَجلَّ إليه رجل جراد من ذهب, يعني: طائفة من الجراد, وهذا تحريف وتأويل باطل, قلنا: لأن الإضافة موجودة هاهنا: حتى يضع الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى رجله عليها أضافهاإلى نفسه.

ثم نقول كذلك: أهل النار لا يقدمهم الله عَزَّ وَجلَّ؛ لأن التقديم فيه معنى التشريف؛ ولذا الله عَزَّ وَجلَّ لما ذكر أهل النار قال: {يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا} [الطور: 13].

ما معنى (يُدَعُّونَ)؟ أي: يلقون فيها إلقاءً؛ فهذا من ضلالهم.

ولذا نقول: نحن نثبت ما أثبته الله عَزَّ وَجلَّ لنفسه من أن له رجلين أو قدمين على ما يليق به سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

قال: وَقَوْلُهُ: "يَقُولُ تَعَالَى: يَا آدَمُ! فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ, فَيُنَادِي بِصَوتٍ: إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تُخْرِجَ مِن ذُرِّيَّتِكَ بَعْثًا إِلَى النَّارِ)), مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

وهذا الحديث بتمامه عند البخاري ومسلم في صحيحيهما, من حديث أبي سعيد الخدري رَضِي اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

"يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: يَا آدَمُ، يَقُولُ: لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْك، فَيُنَادَى بِصَوْتٍ: إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تُخْرِجَ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ بَعْثًا إِلَى النَّارِ، قَالَ: يَا رَبِّ وَمَا بَعْثُ النَّارِ؟ قَالَ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ - أُرَاهُ قَالَ - تِسْعَمِائَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ، فَحِينَئِذٍ تَضَعُ الْحَامِلُ حَمْلَهَا، وَيَشِيبُ الْوَلِيدُ، وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ". فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَى النَّاسِ –يعني: على أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ, فالناس هاهنا عام أريد به الخصوص- حَتَّى تَغَيَّرَتْ وُجُوهُهُمْ.

فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "مِنْ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ تِسْعَمِائَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ وَمِنْكُمْ وَاحِدٌ، ثُمَّ أَنْتُمْ فِي النَّاسِ كَالشَّعْرَةِ السَّوْدَاءِ فِي جَنْبِ الثَّوْرِ الْأَبْيَضِ، أَوْ كَالشَّعْرَةِ الْبَيْضَاءِ فِي جَنْبِ الثَّوْرِ الْأَسْوَدِ، وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا رُبُعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ", فَكَبَّرْنَا، ثُمَّ قَالَ: "ثُلُثَ أَهْلِ الْجَنَّةِ", فَكَبَّرْنَا، ثُمَّ قَالَ: "شَطْرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ"، فَكَبَّرْنَا.

هذا الحديث في إثبات كلام الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى, وأن الله يتكلم بحرف وصوت, وهذا هو المعروف من الكلام في لغة العرب, هذا هو المعقول من إطلاق لفظة الكلام؛ أن الكلام لا يكون إلا بحرف وصوت.

ولذا جاء في هذا الحديث قال: (يَا آدَمُ), و(يا) في لغة العرب: حرف نداء, والنداء إنما يكون بصوت كما هو معروف في لغة العرب.

ثم (يا) هذه حرف أم حرفان؟ حرفان؛ إذًا: هو كذلك بحرف, فكلام الله بصوت وحرف.

قال الشيخ الهراس رَحِمَهُ اللهُ: قَوْلُهُ: ((يَقُولُ تَعَالَى: يَا آدَمُ ...)) إلخ؛ فِي هَذَيْنِ الْحَدِيثَيْنِ إثباتُ الْقَوْلِ وَالنِّدَاءِ وَالتَّكْلِيمِ لِلَّهِ عَزَّ وَجلَّ.

والتنويع بين هذه الألفاظ يدل على أن الله عَزَّ وَجلَّ يتكلم كلامًا حقيقيًا؛ لأنه ما جاء بلفظ التكليم فقط, لكن قال: يكلم وينادي ويناجي, ويقول وهذا كله ورد في كتاب الله وفي سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

في هذا الحديث يقول: فينادي بصوت, وقال: (يَا آدَمُ).

وجاء في كتاب الله عَزَّ وَجلَّ قوله: {وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (10) قَوْمَ فِرْعَوْنَ} [الشعراء: 10-11].

وكذلك جاء قوله: {وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا} [النساء: 164].

وقال: {وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَاعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ} [المائدة: 116].

وقال: {وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا} [مريم: 52].

فعندنا المناجاة وعندنا التكليم وعندنا النداء, والأحاديث جاءت بأن ذلك يكون بالحرف والصوت, فكل ذلك يدل على أن الله عَزَّ وَجلَّ يتكلم كلامًا حقيقيًا.

فقال الشيخ الهراس: فِي هَذَيْنِ الْحَدِيثَيْنِ إثباتُ الْقَوْلِ وَالنِّدَاءِ وَالتَّكْلِيمِ لِلَّهِ عز وجل، وَقَدْ سَبَقَ أَنْ بيَّنَّا مَذْهَبَ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ فِي ذَلِكَ، وَأَنَّهُمْ يُؤْمِنُونَ بِأَنَّ هَذِهِ صِفَاتُ أَفْعَالٍ لَهُ سُبْحَانَهُ تَابِعَةٌ لِمَشِيئَتِهِ وَحِكْمَتِهِ.

نقول: إن كلام الله عَزَّ وَجلَّ كخلقه ورزقه؛ هو قديم النوع حادث الآحاد, يعني: أن الله لم يزل متصفًا بصفة الكلام؛ فهي صفة ذات, ويكلم من يشاء متى شاء سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

ولذا لما قال الله عَزَّ وَجلَّ لموسى: {أَنِ ائتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ}, متى كان هذا؟ هل كان في الأزل قبل ان يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة أم بعد أن ولد موسى وخُلق وكان من الأنبياء والمرسلين؟ بعد كل ذلك.

{وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ} [الأعراف: 143], متى كلمه الله عَزَّ وَجلَّ؟ لما جاء لميقات ربه.

{إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ} [القدر: 1], القرآن كلام الله, متى نزل؟ ليلة القدر, سمعه جبريل من ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى ونزل به على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

متى سمعه جبريل؟ سمعه ليلة القدر, أخبر محمدًا أن يقرأ: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ} [العلق: 1]؛ فسمع جبريل وبلغه رسولنا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فالكلام -كما قلنا- صفة ذاتية وهو صفة فعلية.

قال: وَأَنَّهُمْ يُؤْمِنُونَ بِأَنَّ هَذِهِ صِفَاتُ أَفْعَالٍ لَهُ سُبْحَانَهُ تَابِعَةٌ لِمَشِيئَتِهِ وَحِكْمَتِهِ، فَهُوَ قَالَ، وَيَقُولُ، وَنَادَى، وَيُنَادِي، وكلَّم، ويكلِّم، وَأَنَّ قَوْلَهُ وَنِدَاءَهُ وَتَكْلِيمَهُ إِنَّمَا يَكُونُ بِحُرُوفٍ وَأَصْوَاتٍ يَسْمَعُهَا مَنْ يُنَادِيهِ ويكلِّمه، وَفِي هَذَا رَدٌّ عَلَى الْأَشَاعِرَةِ فِي قَوْلِهِمْ: إِنَّ كَلَامَهُ قَدِيمٌ، وَإِنَّهُ بِلَا حرفٍ وَلَا صوتٍ.

وقد ذكرنا شبهتهم قبل ذلك, لما ذكرنا الآيات التي في صفة الكلام؛ فهذا كذلك فيه إثبات الكلام لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

ثم قال رَحِمَهُ اللهُ بعد ذلك: وَقَوْلُهُ: ((مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا سَيُكَلِّمُهُ رَبُّهُ وَلَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تَرْجُمَانٌ)).

والحديث في البخاري ومسلم, أي: في أعلى درجات الصحة, وهذا الحديث فيه كذلك إثبات الكلام لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى, , وهذا من جهتين:

- الجهة الأولى وهي قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -وهو أعلم الخلق بربه-: ((إِلَّا سَيُكَلِّمُهُ))؛ فأضاف الكلام لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى, والكلام إنما يكون بصوت وحرف، ثم هو كلام سيقع يوم القيامة، ليس كلاما نفسيا قديما.

- الجهة الأخرى وهي قوله: ((وَلَيْس بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تَرْجُمَانٌ))؛ والترجمان: هو الذي ينقل الكلام الذي يسمعه من لغة إلى لغة, ففيه أن كلام الله مسموع, وأنه يتكلم ويُكلم غيره بصوت وحرف, وإلا فالترجمان ماذا يترجم ؟ المترجم الفوري الذي يترجم بين اثنين يترجم على أي أساس؟ يسمع ويترجم؛ فيترجم ما يسمعه.

فقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((وَلَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تَرْجُمَانٌ))؛ هذا في إثبات أن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى يتكلم, وأن كلامه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى ليس ككلام غيره, وأنه يكلم كل أحد سُبْحَانَهُ وَتعَالَى على ما يفهم به كلامه.

وهذا الحديث فيه إثبات أن كلام الله عَزَّ وَجلَّ قد يكون بواسطة أو بغير واسطة؛ فكلامه الذي هو وحيه وكلامه الذي هو كلامه قد يكون بواسطة؛ كإرساله جبريل للأنبياء والمرسلين {وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا} [الشورى: 51]؛ فهذا كلام بواسطة.

وقد يكون بلا وساطة ولذا كان من خصائص موسى عَليهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمَ أنه كليم الله؛ لأنه كُلِّم بغير واسطة, وهذا ثابت لنبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كذلك كما في ليلة المعراج.

فالكلام إما أن يكون بواسطة كما في الوحي أو بغير واسطة؛ كهذا الذي سيكون في يوم القيامة كذلك, قال: ((وَلَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تَرْجُمَانٌ))؛ فمعنى ذلك: أن الله عَزَّ وَجلَّ هو الذي سيكلم خلقه يوم القيامة بغير واسطة.

وكذلك كلامه مع الملائكة, مع جبريل بالأمر والنهي والوحي وغير ذلك.

قال الشيخ الهراس رَحِمَهُ اللهُ: وَقَدْ دلَّ الْحَدِيثُ الثَّانِي عَلَى أَنَّهُ سُبْحَانَهُ سيكلِّم جَمِيعَ عِبَادِهِ بِلاَ وَاسِطَةٍ.

لكن كيف سيكلمهم كلهم سُبْحَانَهُ وَتعَالَى؟ كما يرزقهم كلهم سُبْحَانَهُ وَتعَالَى, وكما يسمعهم كلهم سُبْحَانَهُ وَتعَالَى, إذا قرأوا: {الْحَمْدُ لِلهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}, فيقول لكل واحد منهم: حمدني عبدي وأثنى علي عبدي ومجدني عبدي, مع أن هذا يقرأ قبل هذا, وهذا بعد هذا, الله عَزَّ وَجلَّ على كل شيء قدير سُبْحَانَهُ وَتعَالَى ولا يقاس بخلقه.

قال: وَقَدْ دلَّ الْحَدِيثُ الثَّانِي عَلَى أَنَّهُ سُبْحَانَهُ سيكلِّم جَمِيعَ عِبَادِهِ بِلاَ وَاسِطَةٍ، وَهَذَا تكليمٌ عامٌّ؛ لِأَنَّهُ تكليمُ محاسبةٍ، فَهُوَ يشملُ المؤمنَ والكافرَ وَالْبَرَّ وَالْفَاجِرَ.

ولذا نقول: إن التكليم هاهنا لا يلزم منه الرؤية, فلا يقال: إنه يلزم من ذلك أن يرى الكافرون ربهم يوم القيامة.

قال: وَلَا يُنَافِيهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: {وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ}؛ لِأَنَّ المنفيَّ هُنَا هُوَ التَّكْلِيمُ بِمَا يسرُّ المكلَّم، وَهُوَ تكليمٌ خاصٌّ، وَيُقَابِلُهُ تَكْلِيمُهُ سُبْحَانَهُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ تكليمَ محَبَّةٍ وَرِضْوَانٍ وَإِحْسَانٍ.

فهذا الحديث فيه إثبات الكلام لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

قال: وَقَوْلُهُ فِي رُقْيَةِ الْمَرِيضِ: ((رَبَّنَا اللهَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ، تَقَدَّسَ اسْمُكَ، أَمْرُكَ فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، كَمَا رَحْمَتُكَ فِي السَّمَاءِ اجْعَلْ رَحْمَتَكَ فِي الأَرْضِ، اغْفِرْ لَنَا حُوبَنَا وَخَطَايَانَا، أَنْتَ رَبُّ الطَّيِّبِينَ، أَنْزِلْ رَحْمَةً مِنْ رَحْمَتِكَ، وَشِفَاءً مِنْ شِفَائِكَ عَلَى هَذَا الْوَجعِ؛ فَيَبْرَأَ)).

الْوَجِعِ: أي: الموجوع.

قال: حَدِيثٌ حَسَنٌ، رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَغَيرُهُ.

وهذا الحديث اختلف أهل العلم في ثبوته من عدمه, وممن ضعفه الشيخ الألباني رَحِمَهُ اللهُ, قال: لأن فيه زيادة بن محمد, وهو ضعيف قليل الحديث.

لكن ما جاء في هذا الحديث صحيح ثابت من طرق أخرى, ففي هذا الحديث إثبات علو الله تعالى على خلقه؛ لأنه قال: ((رَبَّنَا اللهَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ)), (رَبَّنَا): منادى مضاف؛ ولذا هو منصوب, يعني: يا ربنا الله الذي في السماء.

ففيه إثبات علو الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى على خلقه.

قال الشيخ الهراس رَحِمَهُ اللهُ: قَوْلُهُ: ((رَبَّنَا اللَّهَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ ...)) إلخ؛ الْحَدِيثُ صريحٌ فِي علوِّه تَعَالَى وَفَوْقِيَّتِهِ؛ فَهُوَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: {أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ}.

وَقَدْ سَبَقَ أَنْ قُلْنَا: إِنَّ هَذِهِ النُّصُوصَ لَيْسَ الْمُرَادَ مِنْهَا أَنَّ السَّمَاءَ ظَرفٌ حاوٍ لَهُ سُبْحَانَهُ.

هل أهل السنة يقولون ذلك؟

إن قالوا: إن الله عَزَّ وَجلَّ في السماء؛ كما نطق بذلك القرآن والسنة, هل يريدون بذلك أن السماء ظرف لله وأنها تحيط بالله تَبَارَكَ وَتَعَالَى؟ ما قال ذلك واحد من أهل السنة والجماعة, بل ما قال ذلك واحد يؤمن بالله تَبَارَكَ وَتَعَالَى وأسمائه وصفاته.

ولذا قال شيخ الإسلام في آخر الحموية: ثم من توهم أن كون الله في السماء بمعنى أن السماء تحيط به وتحويه فهو كاذبٌ.إن نقله عن غيره.، وضالٌّ.إن اعتقده في ربه.وما سمعنا أحدًا يفهمه من اللفظ، ولا رأينا أحدًا نقله عن أحد، ولو سئل سائر المسلمين: هل تفهمون من قول الله تعالى ورسوله ﷺ أن الله في

السماء﴾ أن السماء تحويه؟ لبادر كل أحد منهم إلى أن يقول: هذا شيء لعله لم يخطر ببالنا.

وإذا كان الأمر هكذا فمن التكلف أن يجعل ظاهر اللفظ شيئًا محالًا لا يفهمه الناس منه، ثم يريد أن يتأوله بل عند المسلمين أن الله في السماء وهو على العرش واحد، إذ السماء إنما يراد به العلو، فالمعنى أن الله في العلو لا في السفل، وقد علم المسلمون أن كرسيه سبحانه وسع السماوات والأرض وأن الكرسي في العرش كحلقة ملقاة بأرض فلاة، وأن العرش خلق من مخلوقات الله لا نسبة [له] إلى قدرة الله وعظمته، فكيف يتوهم بعد هذا أن خلقًا يحصره ويحويه؟

وقد قال سبحانه: {وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ} [طه:71] ، وقال تعالى: {فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ} [آل عمران:137] بمعنى ﴿على﴾ ونحو ذلك، وهو كلام عربي حقيقة لا مجازًا وهذا يعلمه من عرف حقائق معاني الحروف، وأنها متواطئة في الغالب لا مشتركة." انتهى المراد.

فإذا قيل بعد ذلك من هؤلاء المشنعة المعطلة: إن هذا هو قول السنة والجماعة؛ علِمنا أن ذلك من الكذب المبين والبهتان العظيم, الذي أرادوا به تشويه عقيدة أهل السنة والجماعة.

قال الله تعالى: {أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ}؟ أي: على السماء, فـ(في) بمعنى: (على).

والأسلم من ذلك أن نقول: إن السماء هاهنا بمعنى: العلو, فكل ما علاك فهو سماء, هذا معروف في لغة العرب, كل ما كان أعلى منك فهو سماء؛ كما قال

الله عَزَّ وَجلَّ عن الكلمة الطيبة, قال: {أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ} [إبراهيم: 24].

ما معنى {وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ}؟ أصلها ثابت في الأرض كمثل شجرة طيبة, الشجرة هذه أصلها في الأرض, وفرعها في السماء.

هل يوجد شجرة فرعها يصل إلى السماء التي هي السقف المحفوظ، أم المقصود في العلو؟ في العلو.

فكل ما علاك فهو سماء, فإذا قال الله: {أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاء}, يعني: في العلو المطلق.

وكذلك قال تعالى: {أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا} [الرعد: 17]؛ والماء لا ينزل من السماء, وإنما ينزل من السحاب, فالمراد بالسماء هاهنا: العلو.

فلا يلزم من قول أهل السنة والجماعة الذي بنوه على صريح الكتاب والسنة أنهم يقولون: إن السماء ظرف لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى؛ كما يقول أهل الباطل وينسبون ذلك لأهل السنة.

قال: وَقَدْ سَبَقَ أَنْ قُلْنَا: إِنَّ هَذِهِ النُّصُوصَ لَيْسَ الْمُرَادَ مِنْهَا أَنَّ السَّمَاءَ ظرفٌ حاوٍ لَهُ سُبْحَانَهُ؛ بَلْ (فِي) إِمَّا أَنْ تكُونَ بِمَعْنَى (عَلَى)؛ كَمَا قَالَهُ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ وَاللُّغَةِ، وَ (فِي) تَكُونُ بِمَعْنَى (عَلَى) فِي مَوَاضِعَ كثيرةٍ؛ مِثْلَ قَوْلِهِ تَعَالَى: {وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ}، وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ مِنَ السَّمَاءِ جِهَةَ الْعُلُوِّ، وَعَلَى الْوَجْهَيْنِ فَهِيَ نصٌّ فِي علوِّه تعَالَى عَلَى خَلْقِهِ.

وَفِي حَدِيثِ الرُّقْيَةِ الْمَذْكُورِ.

لأنه قال: وَقَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي رُقْيَةِ الْمَرِيضِ.

والرقية مصدر من الفعل: رقى, يرقي, رقية, والمراد: ما يعاذ به المسلم من القرآن والسنة والأدعية النبوية, وهذه الرقية مشروعة وجائزة, لكن بشروط ثلاثة ذكرها اهل العلم.

- الشرط الأول: أن تكون بأسماء الله وصفاته وكلامه, أو بما ورد في حديث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.
- الشرط الثاني: أن تكون بلسان عربي مفهوم, أو بلسان غير عربي لكن يُفهم الكلام ويُسمع.

فمثلاً: لو أن إنسانا سيرقي غيره, بغير اللغة العربية, هو يعلم معنى هذا الحديث الذي قرأه, لا يستطيع أن يقرأ هذا الحديث باللغة العربية, لكن يستطيع أن يترجمه إلى لغته وأن يدعو الله عَزَّ وَجلَّ بلغته, يجوز أم لا؟

يجوز أن يرقي به حتى ولو كان بغير لغة العرب, طالما أن الكلام مفهوم ولا ضرر فيه، ولا محذور.

ولذلك من الغلط أن يتكلف بعض هؤلاء النطق بالآيات والأحاديث في الدعاء بلسان العرب وهم لا يحسنون النطق ولا يفهمون المعنى.

وقد رأيت بعض الأعاجم حول الكعبة وهو يطوف, نحن العرب نقول: "اللهم أظلنا في ظلك يوم لا ظل إلا ظلك", هم يقولون: "أذلنا في ذلِّك", ما هو الذل الذي تطلبه من الله عَزَّ وَجلَّ؟! الأجنبي إذا أراد أن ينطق العربية لا يستطيع أن ينطق الحروف المفخمة كما ننطقها.

نحن نقول: "اللهم ارزقني قلبًا", القاف ليست موجودة في اللغة الإنجليزية, يقال الذي يقابلها حرف (Q), لكنها تُنطق كاف, فبعضهم كان يقول كذلك وهو يطوف أو يدعو: "اللهم إنا نسأل كلبًا خاشعًا", وهي: "قلبًا خاشعًا", فهذا من الخطأ, هو لا يفهم معنى الكلمة, لكن هذا لو سأل الله عَزَّ وَجلَّ بلغته هذا المعنى العربي وعبر عن ذلك بطريقة صحيحة؛ فهذا هو الصحيح وهذا هو الأولى.

فالشرط الثاني: أن تكون بلسان عربي, أو بغير لسان عربي لكن لابد أن يكون مفهومًا.

- الشرط الثالث: أن يعتقد الراقي والمرقي أن الرقية لا تؤثر بنفسها, وإنما هي سبب من الأسباب المشروعة, إن شاء الله عَزَّ وَجلَّ أن يجعلها مؤثرة فعل, وإن لم يشأ ذلك كان له سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

قال في حديث الرقية –وقلنا هذا الحديث ضعيف, ضعفه بعض أهل العلم, لكن المعاني التي فيه معاني جليلة وشريفة–؛ ولذا قال: وَفِي حَدِيثِ الرُّقْيَةِ الْمَذْكُورِ توسُّلٌ إِلَى اللَّهِ عز وجل بِالثَّنَاءِ عَلَيْهِ بربوبيَّته وإلاهيَّته وَتَقْدِيسِ اسْمِهِ وعلوِّه عَلَى خَلْقِهِ وَعُمُومِ أَمْرِهِ الشَّرْعِيِّ وَأَمْرِهِ الْقَدَرِيِّ.

فهذا الحديث جمع آداب الدعاء, حديث عظيم, لأنه بدأ بالثناء على الله عَزَّ وَجلَّ بما هو أهله, فبدأ بالثناء عليه بربوبيته, فقال: ((رَبَّنَا اللهَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ، تَقَدَّسَ اسْمُكَ))؛ وكذلك ثنَّى بتقديس اسمه وبيان علوه على خلقه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى وعموم أمره الشرعي وأمره القدري.

ما الفرق بين الأمر الشرعي والأمر القدري؟

الأمر القدري: الذي هو مشيئته سُبْحَانَهُ وَتعَالَى النافذة, {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} [يس: 82], (أَمْرُهُ): يعني: الأمر الكوني القدري.

وأما الأمر الشرعي: فهو ما يريده الله عَزَّ وَجلَّ من العبد شرعًا ومحبة, ومنه: كتبه ورسالاته سُبْحَانَهُ وَتعَالَى؛ فهي من أمره الشرعي.

وقلنا: الأمر الشرعي يلزم منه المحبة؛ فكل أمر شرعي يُحبه الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

قال: ثُمَّ توسلُ إِلَيْهِ بِرَحْمَتِهِ الَّتِي شَمَلَتْ أَهْلَ سَمَاوَاتِهِ جَمِيعًا أَنْ يَجْعَلَ لِأَهْلِ الْأَرْضِ نَصِيبًا مِنْهَا.

كيف قطع الشارح رَحِمَهُ اللهُ بأن رحمة الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى شملت أهل سماواته جميعًا؟ أراد الرحمة العامة. سكان السماء لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.

من سكان السماء؟ الملائكة, خلقٌ جبلهم الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى على طاعته سُبْحَانَهُ وَتعَالَى؛ ولذا لا يسخط عليهم ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

وأما أهل الأرض ففيهم الإنس والجن, فيهم الطائع والعاصي, البر والفاجر, المؤمن والكافر.

فقال: بِرَحْمَتِهِ الَّتِي شَمَلَتْ أَهْلَ سَمَاوَاتِهِ جَمِيعًا أَنْ يَجْعَلَ لِأَهْلِ الْأَرْضِ نَصِيبًا مِنْهَا, ثُمَّ توسلُ إِلَيْهِ بِسُؤَالِ مَغْفِرَةِ الحُوب -وَهُوَ الذَّنْبُ الْعَظِيمُ-، ثُمَّ الْخَطَايَا الَّتِي هِيَ دُونَهُ.

فقال هاهنا: ((اغْفِرْ لَنَا حُوبَنَا وَخَطَايَانَا، أَنْتَ رَبُّ الطَّيِّبِينَ، أَنْزِلْ رَحْمَةً مِنْ رَحْمَتِكَ، وَشِفَاءً مِنْ شِفَائِكَ عَلَى هَذَا الْوَجعِ)).

قال: ثُمَّ توسلٌ إِلَيْهِ بِرُبُوبِيَّتِهِ الخاصَّة للطَّيِّبين مِنْ عِبَادِهِ، وَهُمُ الْأَنْبِيَاءُ وَأَتْبَاعُهُمُ، الَّتِي كَانَ مِنْ آثَارِهَا -يعني: من آثار الربوبية الخاصة- أَنْ غَمَرَهُمْ بِنَعِمِ الدِّين والدُّنيا الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ.

وهذا فيه أن الربوبية ربوبيتان:

ربوبية عامة, وهذه لكل الناس, والمراد بها: ربوبية الرزق والصحة, وهذه ربوبية كونية, وكذلك ربوبية شرعية, أي: أنزل الشرائع لخلقه, وهذا من مقتضى ربوبية سُبْحَانَهُ وَتعَالَى لجميع الخلق.

وأما الربوبية الخاصة: فهي التي يراد بها الإعانة والنصرة والتأييد؛ ولذا قال هاهنا: (أَنْتَ رَبُّ الطَّيِّبِينَ), أي: من ينصرهم ويؤيدهم, ويأتي في مقدَم هؤلاء الأنبياء والمرسلون وأتباعهم.

قال: فَهَذِهِ الْوَسَائِلُ المتنوِّعة إِلَى اللَّهِ لَا يَكَادُ يُرَدُّ دُعَاءُ مَن توسَّل بِهَا.

هذا الحديث فيه بيان ما يتوسل به العبد, فالعبد يتوسل باسم من أسماء الله أو صفة من صفاته, ويضاف إلى ذلك التوسل بالعمل الصالح؛ كتوسل الثلاثة الذين آووا إلى الغار.

وهناك نوع ثالث من أنواع التوسل الجائز: التوسل بدعاء الرجل الصالح؛ كما قال عمر: "اللم إنا كنا نتوسل إليك بنبيك -يعني: بدعاء النبي-, فإنا نتوسل إليك بدعاء عم نبيك", يا عباس قم فادع الله, فأمر العباس أن يدعو الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

فأهل السنة يقولون: إن التوسل يجوز بالأسماء والصفات, والعمل الصالح, ودعاء الرجل الصالح.

لكن هل يجوز التوسل بذات الرجل الصالح؟ لا يجوز ولا يكون, وهو ذريعة من الشرك ووسيلة إليه.

قال: وَلِهَذَا دَعَا اللَّهَ بَعْدَهَا بِالشِّفَاءِ الَّذِي هُوَ شفاءُ اللَّهِ الَّذِي لَا يَدَعُ مَرَضًا إِلَّا أَزَالَهُ، وَلَا تعلُّق فِيهِ لِغَيْرِ اللَّهِ.

قال الشيخ الهراس الأزهري رَحِمَهُ اللهُ وطيب ثراه: فَهَلْ يَفْقَهُ هَذَا عُبَّاد الْقُبُورِ مِنَ المتوسِّلين بِالذَّوَاتِ وَالْأَشَخْاصِ وَالْحَقِّ وَالْجَاهِ وَالْحُرْمَةِ وَنَحْوِ ذَلِكَ؟!

هل يفقهون هذا الكلام؟ ما يفقهون هذا الكلام, بل كثير منهم في هذه الأيام يجعل هذا الذي ذكره الشيخ رَحِمَهُ اللهُ هو صلب الدين, ولب التوحيد, وعلامة محبة النبي والأولياء, أن تقول: اللهم إني أسألك بجاه نبيك, بحق نبيك, اللهم إني أسألك بجاه السيدة سكينة, أو السيدة عائشة, أو السيد البدوي, أو ...، هذا كله من الضلال المبين.

التوسل بجاه هؤلاء من البدع, وهو ذريعة إلى الشرك, بل بعضهم يُلبِّس على الناس, ويقول: إن قولنا مدد من التوسل!!

وهذا ضلال، لأنك إذا قلت: مدد يا أم هاشم, مدد يا بدوي, هذا ليس من التوسل, هذا شرك صريح؛ لأن التوسل ما صورته؟ اللهم إني أتوسل إليك بجاه فلان, بذات فلان, أي أتخذه وسيلة.

لكن ما معنى المدد؟ يعني: أن تطلب المدد والعون من الميت نفسه, فكيف يقال أن هذا هو التوسل؟!

يأتي الواحد منهم ويقول: التوسل لا شيء فيه, وقد توسل الصحابة بالذوات, ونقل العلماء ذلك.

أراد بالعلماء المتأخرين, ممن أغرقوا في التصوف والخرافة وغير ذلك- نسأل الله السلامة والعافية- ممن جاءوا بعد الدولة الفاطمية العبيدية.

ثم ينتقلون بعد ذلك إلى سحب ما أسموه بالتوسل إلى طلب المدد من الأولياء, ويقولون: إن هذا لا شيء فيه.

فالشاهد: أن هذا الحديث كذلك فيه إثبات علو الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى على خلقه, وهذا ثابت متواتر في كتاب الله وفي سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ, ويدل عليه كذلك الحديث الذي بعده.

قال: وَقَوْلُهُ: ((أَلَا تَأْمَنُونِي وَأَنَا أَمِينُ مَنْ فِي السَّمَاءِ)), حَدِيثٌ صَحِيحٌ.

هذا الحديث في الصحيحين.

وسبب وروده كما جاء عن أبي سعيد الخدري, قال: بَعَثَ علي بن أبي طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ من اليمن بذهبية, فِي أديم مقروض لم تُفصل من ترابها، فَقَسَّمَهَا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَ أَرْبَعَةِ نَفَرٍ: زيد الخير, والأقرع بن حابس, وعيينة بن حصن, وعلقمة بن علاثة, أو عامر بن الطفيل- شك الراوي-.

قال: فوجد من ذلك بعض الصحابة من الأمصار وغيرهم.

وجاء في الرواية الكاملة للحديث: أن رأس الخوارج -في هذا الحديث- قال للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: اتق الله يا محمد, فزجره النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ, فاستأذن خالد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يقتله, فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "لَعَلَّهُ أَنْ يَكُونَ يُصَلِّي", قَالَ خَالِدٌ: وَكَمْ مِنْ مُصَلٍّ يَقُولُ بِلِسَانِهِ مَا لَيْسَ فِي قَلْبِهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إِنِّي لَمْ أُومَرْ أَنْ أَنْقُبَ عَنْ قُلُوبِ النَّاسِ".

ثم قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إِنَّهُ يَخْرُجُ مِنْ ضِئْضِئِ هَذَا قَوْمًا تَحْقِرُونَ صَلاَتَكُمْ مَعَ صَلاَتِهِمْ وَقِرَاءَتِكُمْ مَعَ قِرَاءَتِهِمْ, يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ, فَأَيْنَمَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ, فَإِنَّ قَتْلَهُمْ أَجْرٌ لِمَنْ قَتَلَهُمْ".

والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعني بذلك الخوارج.

فالشاهد في هذا الحديث: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: ((أَلَا تَأْمَنُونِي)).

ما معنى ((أَلَا تَأْمَنُونِي))؟ يعني: ألا تعتبروني أمينًا, أمينًا فيما أقسم بينكم, ألا تأمنوني على أمور الأرض وأنا أمين من في السماء, أمين الله عَزَّ وَجلَّ على الوحي؛ فمن باب أولى ان أكون أمينًا في الأرض صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فسبب إيراد المصنف رَحِمَهُ اللهُ لهذا الحديث: أنه أراد أن يُثبت علو الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى على خلقه.

قلنا: وهذا ثابت في الكتاب والسنة بكثرة.

وقوله: ((وَأَنَا أَمِينُ مَنْ فِي السَّمَاءِ)): يعني: على السماء, أو في العلو سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

قال: وَقَوْلُهُ: ((وَالْعَرْشُ فَوْقَ الْمَاءِ، وَاللهُ فَوْقَ الْعَرْشِ، وَهُوَ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ)), حَدِيثٌ حَسَنٌ، رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَغَيْرُهُ.

قلت: هذا صح موقوفًا على ابن مسعود؛ كما في العلو للذهبي, وكما في الرد على الجهمية للدارمي, ومثله لا يقال بالرأي.

ففيه:

- إثبات العرش

- وإثبات علو الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى على خلقه

- وإثبات إحاطة علم الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى بالموجودات كله

- وأن الله عَزَّ وَجلَّ عليٌّ في دُنُوِّه قريب في عُلُوِّه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

قال الشيخ الهراس: وَأَمَّا قَوْلُهُ: ((وَالْعَرْشُ فَوْقَ الْمَاءِ ...)) إلخ؛ فَفِيهِ الْجَمْعُ بَيْنَ الْإِيمَانِ بعلوِّه تَعَالَى عَلَى عَرْشِهِ، وَبِإِحَاطَةِ عِلْمِهِ بِالْمَوْجُودَاتِ كُلِّهَا, فَسُبْحَانَ مَن هُوَ عليٌّ فِي دُنُوِّه، قريبٌ فِي عُلُوِّه.

قال: وَقَوْلُهُ لِلْجَارِيَةِ: ((أَيْنَ اللهُ؟)) الحديث.

وهذا كذلك في إثبات علو الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى على خلقه, لكن هذا يحتاج إلى وقفات, لعلنا نذكرها في الدرس القادم إن شاء الله.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم, وجزاكم الله خيرًا.

الدرس الثاني والثلاثون

إن الحمد لله, نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله تعالى من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله, صلى الله عليه, وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد:

فما زال الحديث موصولًا في قراءة العقيدة الواسطية لشيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ، والتعليق على شرح العلامة الهراس.

وقد وصلنا إلى قوله رَحِمَهُ اللهُ وهو يدلل على عقيدة أهل السنة والجماعة من خلال سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: وَقَوْلُهُ لِلْجَارِيَةِ: ((أَيْنَ اللهُ؟)) . قَالَتْ: فِي السَّمَاءِ. قَالَ: ((مَنْ أَنَا؟)) . قَالَتْ: أَنْتَ رَسُولُ اللهِ. قَالَ: ((أَعْتِقْهَا فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ)). رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

وهذا الحديث رواه الإمام مسلم رَحِمَهُ اللهُ وفيه قصة، فهذا الحديث جاء من رواية معاوية بن الحكم السُلمي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

قال: كَانَتْ لِي جَارِيَةٌ تَرْعَى غَنَمًا لِي قِبَلَ أُحُدٍ وَالْجَوَّانِيَّةِ، فَاطَّلَعْتُ ذَاتَ يَوْمٍ فَإِذَا الذِّيبُ قَدْ ذَهَبَ بِشَاةٍ مِنْ غَنَمِهَا، وَأَنَا رَجُلٌ مِنْ بَنِي آدَمَ آسَفُ كَمَا يَأْسَفُونَ لَكِنِّي صَكَكْتُهَا صَكَّةً، فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم فَعَظَّمَ ذَلِكَ عَلَيَّ. قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَفَلاَ أُعْتِقُهَا؟ قَالَ: "ائْتِنِي بِهَا". فَأَتَيْتُهُ بِهَا فَقَالَ لَهَا: "أَيْنَ اللهُ؟". قَالَتْ: فِي السَّمَاءِ. قَالَ: "مَنْ أَنَا؟" قَالَتْ: أَنْتَ رَسُولُ اللهِ. قَالَ: "أَعْتِقْهَا فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ"

حديث جليل القدر، وهو غُصة في حلوق أهل البدع المعطلة؛ لأن هذا الحديث يقرر عقيدة أهل السنة والجماعة في أن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى في العلو، وهذا معنى السماء.

فالله عَزَّ وَجلَّ في السماء، أي: في العلو المطلق؛ كما قالت هذه الجارية وصدقها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

والذي وقع من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو إقرار لهذه الجارية، وإقرار النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حجة؛ لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يُقر على باطل؛ ولأنه لا يجوز تأخير البيان عن وقت الحاجة في حق رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فلما سمعها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تقول: إن الله في السماء، أي: في العلو المطلق، وسكت صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بل وحكم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأنها مؤمنة؛ فهذا كله يدل على هذه العقيدة؛ وهي أن الله عَزَّ وَجلَّ في السماء؛ كما أخبر عن نفسه في كتابه.

والمعطلة يردون هذا الحديث ويطعنون فيه؛ لأنه عارض الأصول العقلية الفاسدة عندهم.

ونقول لهم: إن رددتم هذا الحديث فكيف بغيره من عشرات الأحاديث التي وردت عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والتي فيها إثبات علو الله على خلقه؟!

فليس في الباب هذا الحديث فقط، وإنما في هذا الباب خاصة بالإضافة إلى ما جاء في كتاب الله عشرات الأحاديث والتي هي صريحة في علو الله عَزَّ وَجلَّ على خلقه.

ومن ذلك ما جاء عند النسائي وهو حديث ثابت صحيح، لما حكَّم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سعد بن معاذ رَضِي اللهُ عَنْهُ في بني قُريظة وحكم فيهم، قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "لَقَدْ حَكَمْتَ حُكْمًا حَكَمَ اللهُ بِهِ مِنْ فَوْقَ سَبْعَةِ أَرْقِعَةَ".

وكذلك ما جاء في الصحيحين من حديث أبي هريرة رَضِي اللهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: "يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ: مَلاَئِكَةٌ بِاللَّيْلِ وَمَلاَئِكَةٌ بِالنَّهَارِ، وَيَجْتَمِعُونَ فِي صَلاَةِ الْفَجْرِ وَصَلاَةِ الْعَصْرِ، ثُمَّ يَعْرُجُ الَّذِينَ بَاتُوا"، والعروج: هو الصعود إلى العلو.

وكذلك لما مات رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دخل عليه أبو بكر الصديق رَضِي اللهُ عَنْهُ فأكب عليه وقبَّل وجهه، ثم قال رَضِي اللهُ عَنْهُ: "بأبي أنت وأمي ما أطيبك حيًا وميتًا".

ثم قال: "أَلَا مَنْ كَانَ يَعْبُدُ مُحَمَّدًا فَإِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ مَاتَ، وَمَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللهَ فَإِنَّ اللهَ حَيٌّ فِي السَّمَاءِ لَا يَمُوتُ"، وهذا رواه البخاري رَحِمَهُ اللهُ في صحيحه، فهو في أعلى درجات الصحة.

والصحابة أعلم الناس بربهم بعد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فها هو الصديق رَضِي اللهُ عَنْهُ يقول: "فَإِنَّ اللهَ حَيٌّ فِي السَّمَاءِ".

وكذلك ما جاء عن أنس بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: "كانت زينب رَضِيَ اللهُ عَنْهَا تفتخر على أزواج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتقول: "إِنَّ اللهَ زَوَّجَنِي فِي السَّمَاءِ".

وفي لفظ كانت تقول: (زَوَّجكُنَّ أَهْلُكُنَّ، وزَوَّجَني اللهُ من فَوقِ سَبع سَماواتٍ)؛ وهذا كذلك عند البخاري.

وجاء من حديث جُبير بن مطعم رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **"إن الله عَزَّ وَجلَّ على عرشه فوق سماواته, وسماواته فوق أرضه مثل القبة"**، لكن هذا الحديث ضعيف من جهة السند, وإن كان صحيحًا من جهة المعنى.

وجاء عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما في حديث عبد الله بن مسعود أنه قال: **"من لم يرحم من في الأرض، لم يرحمه من في السماء"**.

وكذلك لما أُسري برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعُرج به إلى السماء العُلى، إلى غير ذلك من الأحاديث المتواترة عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ التي تدل على هذه العقيدة، وهي: أن الله عَزَّ وَجلَّ له العلو، والله عَزَّ وَجلَّ له العلو المطلق، وله أنواع ثلاثة من العلو:

النوع الأول: وهو علو الذات.

الثاني: علو القدر.

الثالث: علو القهر.

هو بذاته في العلو سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للجارية: "أَيْنَ اللهُ؟"، و(أين) يُسأل بها عن المكان، ويُسأل بها عن الجهة، فقالت: فِي السَّمَاءِ.

وكذلك قال تعالى: {وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ} [الأنعام: 18]، سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، فله علو القدر، وله علو القهر، وله علو القدر كذلك وهو الكمال في أسمائه وصفاته.

قال الشيخ الهراس رَحِمَهُ اللهُ: فَقَدْ تضمَّن شَهَادَةَ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْإِيمَانِ لِلْجَارِيَةِ الَّتِي اعْتَرَفَتْ بِعُلُوِّهِ تعَالَى عَلَى خَلْقِهِ، فدلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ وَصْفَ العلوِّ مِنْ أَعْظَمِ أَوْصَافِ الْبَارِي جَلَّ شَأْنُهُ.

لأنه لما سألها عن هذه الصفة، وهي صفة العلو؛ لأن فيها الكمال المطلق؛ حيث خصه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالسؤال عنه.

ودل أيضًا على أن الإيمان بعلوه المطلق من كل وجه، يعني: علو الذات وعلو القدر وعلو القهر، هو من أعظم أصول الإيمان, فمن أنكره فقد حُرم الإيمان الصحيح.

والعجب من هؤلاء الحمقى من المعطلة النُفاة زعمهم أنهم أعلم بالله من رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فينفون عنه الـ(أين) بعد ما وقع هذا اللفظ بعينه من الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مرة سائلاً غيره؛ كما في هذا الحديث، ومرة مجيبًا لمن سأله بقوله: (أين كان ربنا؟), لكنه حديث لا يصح، رواه الترمذي وأحمد، وضعفه الألباني في ضعيف الترمذي.

فأهل السنة والجماعة هم فقط من يُثبتون علو الله عَزَّ وَجلَّ على خلقه لهذه الأدلة المتواترة في كتاب الله وفي سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وأما المعطلة الذين هم أفراخ الجهمية وأتباعهم وإن تبرءوا من الجهم؛ فإنهم ينفون ذلك، وتجد الواحد منهم يريد أن يتبرأ من مذهب معين فيأتي بما لا تقبله العقول، وبما يوافق هذا المذهب حذو النعل بالنعل.

بعضهم يقول عن أهل السنة والجماعة الذين يسميهم بالوهابيين، يقول: هؤلاء لا يفهمون عقيدتنا، ويتهموننا بأننا نقول: إن الله في كل مكان، يقول: هذا باطل هذه ليست عقيدة الأشعرية.

نحن لا نقول بالحلول والاتحاد؛ لأن هذا يلزم منه أن يكون الله في الكُنُف والمزابل وأفواه الخنازير، ونحن لا نقول بذلك ولا نلتزم ذلك، هذا عين الكفر، لكن عقيدتنا واضحة؛ كان الله ولا مكان، وبعد أن خلق المكان كان على ما كان عليه.

ما معنى هذا الكلام؟

يقولون: نحن نقول: إن الله لا داخل العالم ولا خارج العالم ولا عن يمين العالم ولا عن شمال العالم.

أين ربكم إذن؟ هؤلاء ضيعوا إلههم, يعبدون عدمًا.

ولذا نقول: هذا المذهب الذي يتبرؤون منه -وهو مذهب الحلول والاتحاد- مذهب كفري, لكنه أدخل في العقل من مذهبكم.

فهذا الذي يقول: بأن الله موجود في كل مكان بذاته، هذا قد يتصوره العقل، والله عَزَّ وَجلَّ منزه عن ذلك سُبْحَانَهُ وَتعَالَى حاشاه سبحانه.

لكن كيف يقبل العقل الصريح المذهب الذي جاءت به الأشعرية؛ بأن الله عَزَّ وَجلَّ لا عن يمين العالم ولا شمال العالم ولا أسفل العالم ولا أعلى العالم وليس في مكان؟!

إذًا: هؤلاء لا يعبدون شيئًا، ويقولون: لو أننا أثبتنا إلهًا فوق السماء فإن هذا يستلزم الجسمية ويستلزم الحيز والمكان ويستلزم أن يكون الله محصورا في جهة معينة.

بالله عليكم هل تجدون هذه الألفاظ في شيء من كتاب الله أو سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟!

ألفاظ غريبة عن كتاب الله وعن سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ جعلوها طواغيت يردون بها صريح الكتاب والسنة.

ولذا نقول: هذه الأحاديث وهي عشرات الأحاديث بالإضافة إلى كتاب ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى، تدل على علو الله عَزَّ وَجلَّ المطلق على خلقه.

ولذا جاء كما عند مسلم: "أَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ".

وهذا كذلك يدل على علو الله المطلق على خلقه، هكذا ينبغي أن يُفهم العلو هو: أنه علو مطلق.

ليس فوق الله عَزَّ وَجلَّ شيء، وليس هو حالًا في شيء, حتى نقول: إننا لو أثبتنا العلو؛ فإن هذا يستلزم الحيز ويستلزم أن الله موجود في مكان يحيط به.

لأنهم يفترون على أهل السنة والجماعة، ويقولون: هم يقولون إن الله في السماء، أي: أن الله داخل السماء مع ملائكته يسكن السماء, هذا ربهم.

الوهابية تقول: إن الله يسكن السماء مع الملائكة.

هل هذا يقوله واحد من أهل السنة؟ لا يقول ذلك؛ لأنهم يقولون: إما أن تكون (في) بمعنى: على، والسماء هي السماء هذا البناء، وإما أن تكون في السماء، أي: في العلو المطلق، ما قال واحد منهم هذا الكلام الذي تقولونه، كما سبق النقل عن شيخ الإسلام آخر الحموية.

قال: وَقَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((أَفْضَلُ الإِيمَانِ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ اللهَ مَعَكَ حَيْثُمَا كُنْتَ)).

قال: حَدِيثٌ حَسَنٌ.

وهذا الحديث حسَّنه شيخ الإسلام وضعفه غيره من أهل العلم، لتفرد عثمان بن كثير به، لكن المعنى صحيح, وفيه إثبات معية الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى لخلقه، وأن علوه لا ينافي معيته سُبْحَانَهُ وَتعَالَى؛ لأنه القريب في علوه، وهو العلي كذلك في قربه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

قال الشيخ الهراس: قَوْلُهُ: ((أَفْضَلُ الْإِيمَانِ أَنْ تَعْلَمَ)) إلخ؛ فِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ أَفْضَلَ الْإِيمَانِ هُوَ مَقَامُ الْإِحْسَانِ وَالْمُرَاقَبَةِ، وهو أن العبدُ ربَّه كأنَّه يَرَاهُ وَيُشَاهِدُهُ، وَيعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ مَعَهُ حَيْثُ كَانَ، فَلاَ يتكلَّم وَلَا يَفْعَلُ وَلَا يَخُوضُ فِي أمرٍ إِلَّا وَاللَّهُ رقيبٌ مطَّلع عَلَيْهِ؛ قَالَ تَعالَى: {وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ} [يونس: 61].

قال: وَلَا شكَّ أَنَّ هَذِهِ المعيَّة إِذَا اسْتَحْضَرَهَا الْعَبْدُ فِي كُلِّ أَحْوَالِهِ؛ فَإِنَّهُ يَسْتَحْيِي مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجلَّ أَنْ يَرَاهُ حَيْثُ نَهَاهُ، أَوْ أَنْ يَفْتَقِدَهُ حَيْثُ أَمَرَهُ، فَتَكُونُ عَوْنًا لَهُ عَلَى اجْتِنَابِ مَا حرَّم اللَّهُ، وَالْمُسَارَعَةِ إِلَى فِعْلِ مَا أُمِرَ بِهِ مِنَ الطَّاعَاتِ عَلَى

وَجْهِ الْكَمَالِ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا، وَلَا سِيَّمَا إِذَا دَخَلَ فِي الصَّلَاةِ الَّتِي هِيَ أَعْظَمُ صِلَةٍ وَمُنَاجَاةٍ بَيْنَ الْعَبْدِ وَرَبِّهِ، فَيَخْشَعُ قَلْبُهُ، وَيَسْتَحْضِرُ عَظَمَةَ اللَّهِ وَجَلاَلَهُ، فتقلُّ حَرَكَاتِهِ، وَلَا يُسِيءُ الْأَدَبَ مَعَ رَبِّهِ بِالْبَصْقِ أَمَامَهُ أَوْ عَنْ يَمِينِهِ.

وهذا الذي ذكره الشيخ الهراس رَحِمَهُ اللهُ كله من باب الاتجاه المسلكي، ومن باب كيف يعبد العبد ربه تَبَارَكَ وَتَعَالَى على مقتضى هذه الصفات.

ولذا جاء عن مالك رَحِمَهُ اللهُ إمام دار الهجرة: أنهم كانوا يكرهون الكلام في الصفات، ويكرهون الكلام في مثل هذه الأمور، لماذا؟

لأن القوم كانوا على عقيدة سليمة، كانوا يكرهون التفصيل في مثل هذه الأمور، وإنما كانوا يتعبدون لله تَبَارَكَ وَتَعَالَى على مقتضاها.

فتكون عبادتهم كما ذكر الشيخ رَحِمَهُ اللهُ في هذا الحديث: أننا إذا علمنا أن الله عَزَّ وَجلَّ استوى على عرشه, ومع ذلك هو معنا بعلمه وسلطانه وإحاطته ومراقبته سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، هذا أثمر ماذا عند العبد؟

أن يستحيي العبد من الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى أن يراه حيث نهاه، أو أن يفتقده حيث أمره، فتكون هذه الصفات عونًا له على اجتناب الذنوب والمعاصي، وحاملة له على زيادة طاعة الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، هذا هو ما يرجوه العبد من دراسة أسماء الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى وصفاته، لا أن تكون الدراسة دراسة مجردة.

فأنت قد تجد بعض الناس متقنًا هذه الأبواب، يعلم أبواب الاعتقاد كما يجب وكما ينبغي أن يكون، ويستطيع أن يرد شبهات القوم، بل يستطيع أن يحتج للقوم وأن يرد شبهاتهم أفضل من كثير منهم.

ومع ذلك هل تجده وقت السحر قائمًا لله تَبَارَكَ وَتَعَالَى؟ هل تجده عند المعصية فارًا منها مجتنبًا لها؟ هل تجده عند الطاعة مقبلاً عليها يرجو ثواب الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى؟ هل تجد أثر علمه بهذا الاعتقاد الصحيح؟

قد لا تجد ذلك عنده، وهذا من الآفات العظيمة أن يكون العلم مجرد حجة عليك أمام الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

الثمرة الكبرى من تعلم هذا العلم: أن تتعبد لله تَبَارَكَ وَتَعَالَى به؛ كما ذكر المصنف، أو كما ذكر الشارح رَحِمَهُ اللهُ هاهنا.

فأفضل الإيمان -هذا جاء في هذا الحديث عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قلنا: وحسنه شيخ الإسلام ابن تيمية: ((أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ اللهَ مَعَكَ حَيْثُمَا كُنْتَ)).

و(حيثما): من ألفاظ العموم.

إذًا: المعية هاهنا المراد بها: المعية العامة التي لا يخرج عنها شيء من ملك الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، ومن خلقه.

والمعية معيتان كما سبق:

معية عامة, وهي: التي تقتضي الإحاطة.

ومعية خاصة, وهي: التي تقتضي النُصرة والتأييد.

فإذا عرفت ذلك وعلمت أن الله معك حيثما كنت؛ راقبت الله، وكنت كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيمن حقق مرتبة الإحسان، كنت كهذا الذي ذكره النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "**أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ**".

كذلك هذا الحديث فيه: أن الإيمان يتفاضل؛ فهو من أدلة زيادة إيمانه ونقصانه؛ لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذا الحديث الحسن قال: ((أَفْضَلُ الْإِيمَانِ))، وأفضل أفعل تفضيل، فمعنى ذلك: أن الإيمان يتفاضل, وأنه ليس على درجة واحدة.

وعقيدة أهل السنة والجماعة: أن الإيمان يزيد وينقص.

يزيد بالطاعات، وينقص بالمعاصي والزلات، وعلى هذا كثير من الأدلة في كتاب الله وفي سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال: وَقَوْلُهُ: ((إِذَا قَامَ أَحَدُكُمْ إِلَى الصَّلاةِ؛ فَلاَ يَبْصُقَنَّ قِبَلَ وَجْهِهِ، وَلَا عَنْ يَمِينِهِ؛ فَإِنَّ اللهَ قِبَلَ وَجْهِهِ، وَلَكِنْ عَنْ يَسَارِهِ، أَوْ تَحْتَ قَدَمِهِ)).

كل هذه الأحاديث يقبلها أهل السنة والجماعة ويسلمون بها وقلوبهم راضية مطمئنة, يجرونها على ظاهرها؛ لأن الذي قالها هو الصادق المصدوق صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو أعلم الخلق بربه.

وأما أهل الضلالة من المعطلة؛ فإن الواحد إذا قرأ هذا الحديث اشمأز قلبه، وتمنى أن لو حك هذه الأحاديث من دواوين السنة.

يقول: هذا الحديث كله مشكلات، يقول: فإن الله قِبل وجهه، كيف يكون الله عَزَّ وَجلَّ قبل وجهه؟ هل ترى الله عَزَّ وَجلَّ في القبلة؟

فهذا الحديث يدل على أن الأمر ليس على ظاهره, وأن هذا من قبيل المجاز.

ووالله هؤلاء ما قَدَروا الله حق قدره, {وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ} [الزمر: 67]، إذا كانت الأرض قبضته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كيف نُؤِّل مثل هذه الأحاديث؟

أرض في قبضته سُبْحَانَهُ وَتعَالَى؛ فهو محيط بك من كل مكان يراك ويراقبك ومعك بسمعه وبصره وإحاطته سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

قال: ((فَإِنَّ اللَّهَ قِبَلَ وَجْهِهِ)).

إذًا: الله عَزَّ وَجلَّ قِبل وجهك سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، ولا يلزم من ذلك أن يكون معك في الأرض داخل الأرض، فأنت إذا سرت في الصحراء ترى القمر أمامك قِبل وجهك، وهل القمر في الأرض؟

فإذا كان هذا متصورًا في مخلوق، فكيف بالخالق سُبْحَانَهُ وَتعَالَى؟!

لكن القوم كما قلنا قامت عندهم شبهات صدتهم عن الاعتقاد الصحيح، فترى الواحد منهم يعظم هذه الشبهات ولا ضير عنده أن يرد صريح كتاب الله وسنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فقال: ((فَلاَ يَبْصُقَنَّ قِبَلَ وَجْهِهِ، وَلَا عَنْ يَمِينِهِ؛ فَإِنَّ اللهَ قِبَلَ وَجْهِهِ، وَلَكِنْ عَنْ يَسَارِهِ، أَوْ تَحْتَ قَدَمِهِ)).

قال الشيخ الهراس رَحِمَهُ اللهُ: وقَوْلُهُ: ((إِذَا قَامَ أَحَدُكُمْ إِلَى الصَّلاَةِ))؛ دلَّ عَلَى أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجلَّ يكونُ قِبَلَ وَجهِ المُصلِّي.

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلاَمِ فِي ((الْعَقِيدَةِ الْحَمَوِيَّةِ)): ((إِنَّ الْحَدِيث حقٌّ عَلَى ظَاهِرِه، وَهُوَ سُبْحَانَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ.

إذًا: الله عَزَّ وَجلَّ فوق العرش وهو قِبل العبد إذا قام يصلي؛ كما قلنا كالقمر يكون أمامك وأنت كذلك في الأرض، القمر أين؟ في العلو، وأنت في الأرض، ولا منافاة بين الأمرين.

قال: وَهُوَ قِبَل وَجْهِ الْمُصَلِّي، بَلْ هَذَا الْوَصْفُ يثبُتُ لِلْمَخْلُوقَاتِ؛ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ لَوْ أَنَّهُ يُنَاجِي السَّمَاءَ أَوْ يُنَاجِي الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ؛ لَكَانَتِ السَّمَاءُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ فَوْقَهُ، وَكَانَتْ أَيْضًا قِبل وَجْهِهِ.

ونزيد على ذلك ونقول: إن الذي قال: إن الله عَزَّ وَجلَّ قِبل وجه المصلي، هو الذي قال: إن الله في السماء، والشرع لا يجمع بين المتناقضات.

ولذا قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ: نحن نقول بهذا الحديث؛ لأن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى أمام وجه المصلي، ولكن يجب أن نعلم أن الذي قال: إنه أمام وجه المصلي؛ هو الذي قال: إنه في السماء، ولا تناقض في كلام هذا وهذا؛ إذ يمكن الجمع من ثلاثة أوجه:

الوجه الأول: أن الشرع جمع بينهما ولا يجمع بين متناقضين.

الوجه الثاني: أنه يمكن أن يكون الشيء عاليًا وهو قِبل وجهك، فها هو الرجل يستقبل الشمس أول النهار, فتكون أمامه وهي في السماء، ويستقبلها في آخر النهار تكون أمامه وهي في السماء، فإذا كان ممكنًا في المخلوق؛ ففي الخالق من باب أولى بلا شك.

الوجه الثالث: هب أن هذا ممتنع في المخلوق؛ فإنه لا يمتنع في الخالق؛ لأن الله تعالى ليس كمثله شيء في جميع صفاته سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

ويستفاد من هذا الحديث: وجوب الأدب مع الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

ويُستفاد منه كذلك: أنه متى آمن المصلي بذلك واعتقد ذلك؛ فإنه يُحدث له خشوعًا وهيبة من الله عَزَّ وَجلَّ؛ فلا يلتفت يمينًا ولا شمالًا، ولا ينظر إلى السماء، وإنما ينصب وجهه ونظره إلى حيث يسجد.

فهذا الحديث فيه إثبات أن الله عَزَّ وَجلَّ معنا سُبْحَانَهُ وَتعَالَى ومحيط بنا مع كونه فوق العرش في السماء.

قال: وَقَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((اللهُمَّ رَبَّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَالأَرْضِ وَرَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ، فَالِقَ الْحَبِّ وَالنَّوَى، مُنْزِلَ التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنَ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ نَفْسِي وَمِنْ شَرِّ كُلِّ دَابَّةٍ أَنْتَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا، أَنْتَ الأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ؛ اقْضِ عَنِّي الدَّيْنَ وَأَغْنِنِي مِنَ الْفَقْرِ)).

قال: رِوَايَةُ مُسْلِمٌ.

وهذا الحديث حديث جليل القدر، ينبغي لكل مسلم أن يحفظه وأن يدعو الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى به؛ لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علمنا في هذا الحديث وفي غيره من الأحاديث كيف ندعو الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وكيف نثني عليه قبل أن نسأله حاجتنا سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

والدعاء على مراتب، هذا الحديث بيَّن أكمل هذه المراتب, وهي: أن تثني على الله عَزَّ وَجلَّ بأسمائه وصفاته قبل أن تسأل حاجتك.

وكذلك من المراتب: أن تتضرع إلى الله عَزَّ وَجلَّ بحاجتك وفقرك وعبوديتك له سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، كما في دعاء ابن مسعود في الهم، وفي سيد الاستغفار.

وكذلك هناك مرتبة ثالثة: وهي أن تسأل الله عَزَّ وَجلَّ حاجتك مباشرة، وأكمل ذلك كله أن تفعل كما فعل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ولذلك كانت الأحاديث العظام في الاستغفار والدعاء مبناها على ذلك، على كثرة الثناء على الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، دعاء الكرب كله ثناء.

دعاء المكروب: "**اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُك وَابْنُ عَبْدِك وَابْنُ أَمَتِك نَاصِيَتِي بِيَدِك**"، كله ثناء على الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى وتضرع لله عَزَّ وَجلَّ بفقر العبد إليه وبعبوديته.

كذلك سيد الاستغفار مبناه على ذلك.

فكل هذه الأحاديث, ومنها هذا الحديث فيها آداب الدعاء، وكيف يدعو المرء ربه تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

فيقول: (اللهُمَّ)؛ أي: يا الله، لكن حُذفت ياء النداء وعوض عنها بـ(ميم) الجمع، حتى يكون البدء: بسم الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى تبركًا به.

وجاء عن بعض السلف: أن هذه (الميم) هي مجمع الدعاء، يعني: فيها أسماء الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى كلها.

فلو أن الإنسان قال: (اللهم)؛ فكأنه دعا الله عَزَّ وَجلَّ بأسمائه وصفاته كلها، جاء ذلك عن النضر بن شُميل وعن الحسن البصري، وذكر ذلك ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ في جلاء الأفهام.

يعني لو أنك قلت في صدر الدعاء: (اللهم)؛ فكأنك دعوت الله بكل الأسماء والصفات.

(اللهُمَّ رَبَّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَالأَرْضِ وَرَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ)؛ هذه ربوبية عامة ربوبية الخلق.

(رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ)؛ ربنا هذه ربوبية خاصة أخص من الربوبية الأولى.

(وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ)؛ كذلك ربوبية عامة.

(فَالِقَ الْحَبِّ وَالنَّوَى، مُنْزِلَ التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ)؛ وهذه ربوبية خاصة وهي ربوبية الهداية.

الربوبية الأولى ربوبية الخلق والرَزق والتدبير، وهذه الربوبية ربوبية الهداية؛ لأن الله عَزَّ وَجلَّ أنزل هذه الكتب لكي يهتدي الناس بها.

وقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (مُنْزِلَ التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنَ)؛ فيه دليل على أن الإنجيل مُنزلٌ كذلك من قِبل الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وهذا موافق لصدر سورة آل عمران: {الم (1) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ (2) نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ (3) مِنْ قَبْلُ} [آل عمران: 1-4].

فالإنجيل فيه حكايات عن عيسى عَليهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَم، لكن فيه كلام الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، هذا من حيث الأصل وإن حُرفت بعض هذه الفقرات التي في الإنجيل، لكن الإنجيل فيه كلام الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

ومن العجيب أنك إلى الآن لا تكاد تقلب صفحة من صفحات الإنجيل إلا وتجد فيها ما يدل على استحقاق الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى لأن يوحد وأن يُعبد دون من سواه، هذا كثير جدًا في الإنجيل موجود إلى الآن، فأبى الله عَزَّ وَجلَّ إلا أن يظهر توحيده وإن اجتهد هؤلاء في تحريفه، وتأليه المسيح عليه السلام.

فالتوراة منزلة من قِبل الله، وكذلك الإنجيل والقرآن، وهذا الترتيب باعتبار الزمان.

قال: (أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ نَفْسِي وَمِنْ شَرِّ كُلِّ دَابَّةٍ أَنْتَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا)؛ والعياذ هو أن تلتجئ إلى الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى في دفع ما يضر.

قال: (أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ نَفْسِي)؛ والنفس ليست على درجة واحدة، فهناك النفس المطمئنة، وهناك النفس اللوامة، وهناك النفس الأمارة بالسوء النفس التي امتلأت شرًا؛ فيُشرع للعبد أن يستعيذ بالله تَبَارَكَ وَتَعَالَى من شر نفسه، وبما قد تُملي النفس على صاحبها من شرور تريد منه أن يقع فيها.

قال: (وَمِنْ شَرِّ كُلِّ دَابَّةٍ أَنْتَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا)؛ والدابة في لغة العرب: هي كل ما يدب على وجه الأرض، فيدخل في ذلك الإنسان والدواب.

وأما في العُرف: فتُطلق على ذوات الأربع.

لكن ما المراد هاهنا الدابة في لغة العرب؟ المراد هاهنا: كل ما يدب على وجه الأرض فأنت تستعيذ بالله تَبَارَكَ وَتَعَالَى من شره، تقول: (أَنْتَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا).

والناصية: هي مقدم الشعر الذي يكون في مقدم الرأس.

وهذا دليل على قهر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى لمخلوقاته وسلطانه عليهم سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، وأنه لا يعجزه شيء.

قال: (أَنْتَ الأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ)؛ وهذا هو الشاهد، وهذا الحديث موافق للقرآن، فلو ردوا الحديث ماذا يسمعون في القرآن؟

قال: (أَنْتَ الأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ)؛ فهذه أسماء أربعة لله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، فهو الأول والآخر والظاهر والباطن.

وهذه الأسماء الأربعة دلت على الإحاطة المكانية والإحاطة الزمانية، فالله عَزَّ وَجلَّ أول قبل كل شيء، وهو آخر بعد كل شيء محيط بالخلق سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، وهو ظاهر فوق كل شيء ليس فوقه شيء؛ ولذا قلنا: له العلو المطلق.

وبهذا رد شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ في كتابه بيان تلبيس الجهمية على الشبهة التي ذكرها الرازي من كون الأرض كروية فكيف يكون الله في جهة العلو دائما؟.

وهذا يعني: أنه لو أخذنا بظاهر حديث الجارية ....

يقولون-: إن الجارية كانت بكماء أشارت حتى يفرون من لفظ في السماء، يقولون: أشارت إلى العلو، مع أن قولها في الصحيح.

يقولون: أشارت، فلا تسمع واحدا من هؤلاء المعطلة يقول: قالت: في السماء.

يقولون: لو أخذنا بهذا الحديث على فرض صحته؛ فهذه الجارية التي تكون في أقصى المشرق أشارت إلى السماء.

والأرض كروية ماذا عن الجارية التي تكون في أقصى المغرب؟ فإنها تشير إلى الجهة الأخرى، فهذه الجارية تشير هكذا، وهذه الجارية تشير هكذا.

فهل هذه أشارت إلى السماء وهذه أشارت إلى السماء؟ هذه أشارت إلى العلو وهذه أشارت إلى العلو؟ نقول: قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (أَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ)؛ أي: أن الله عَزَّ وَجلَّ له العلو المطلق سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

خاصة أن هذه الأرض تحيط بها السماء من كل جانب، تحيط بها السماء من كل ناحية، وعرش الله عَزَّ وَجلَّ فوق السماء كالقبة؛ فأينما أشار العبد إلى السماء أشار إلى ربه تَبَارَكَ وَتعَالَى، وهذا عالم الغيب، ولا يقاس عالم الغيب على عالم الشهادة.

قال: (فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ)، ثم جاء في الحاجة قال: (اقْضِ عَنِّي الدَّيْنَ وَأَغْنِنِي مِنَ الْفَقْرِ).

إذًا هذا الحديث كما قلنا: فيه أدب الدعاء.

قال الشيخ الهراس رَحِمَهُ اللهُ: وقَوْلُهُ: ((اللهُمَّ ربَّ السموات)) الحديث؛ تضمَّن الْحَدِيثُ إِثْبَاتَ أَسْمَائِهِ تَعَالَى: الْأَوَّلِ، وَالْآخِرِ، وَالظَّاهِرِ، وَالْبَاطِنِ، وَهِيَ مِنَ الْأَسْمَاءِ الْحُسْنَى، وَقَدْ فَسَّرَهَا النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَا لَا يدعُ مَجَالًا لقائلٍ، فَهُوَ أَعْلَمُ الْخَلْقِ جَمِيعًا بِأَسْمَاءِ رَبِّهِ وَبِالْمَعَانِي الَّتِي تدلُّ عَلَيْهَا، فَلَا يصحُّ أَنْ يُلْتَفَت إِلَى قَوْلِ غَيْرِهِ أَيًّا كَانَ.

قال: وَفِي الْحَدِيثِ أَيْضًا يعلِّمنا نبيُّنا صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ كَيْفَ نُثْنِي عَلَى ربِّنا عَزَّ وَجلَّ قَبْلَ السُّؤَالِ، فَهُوَ يُثْنِي عَلَيْهِ بربوبيَّته الْعَامَّةِ الَّتِي انْتَظَمَتْ كُلَّ شَيْءٍ، ثُمَّ بربوبيَّته الْخَاصَّةِ الممثَّلة فِي إِنْزَالِهِ هَذِهِ الْكُتُبِ الثَّلَاثَةِ تَحْمِلُ الْهُدَى وَالنُّورَ إِلَى عِبَادِهِ، ثُمَّ يَعُوذُ وَيَعْتَصِمُ بِهِ سُبْحَانَهُ مِنْ شَرِّ نَفْسِهِ وَمِنْ شَرِّ كُلِّ ذِي شَرٍّ مِنْ خَلْقِهِ، ثُمَّ يَسْأَلُهُ فِي آخِرِ الْحَدِيثِ أَنْ يَقْضِيَ عَنْهُ دَيْنَهُ، وَأَنْ يُغْنِيَهُ مِنْ فقرٍ.

قال المصنف رَحِمَهُ اللهُ بعد ذلك: وَقَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا رَفَعَ الصَّحَابَةُ أَصْوَاتَهُمْ بِالذِّكْرِ: ((أَيُّهَا النَّاسُ! أرْبِعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ؛ فَإِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا، إِنَّمَا تَدْعُونَ سَمِيعًا بَصِيرًا قَرِيبًا. إِنَّ الَّذِي تَدْعُونَهُ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ عُنُقِ رَاحِلَتِهِ)).

بعض الناس إذا خطب بهذا الحديث أو قرأه يقول: فإنكم لا تدعون أصمًا ولا غائبًا، وهذا خطأ، لماذا هو خطأ؟ لأن كلمة أصم ممنوعة، وعلة المنع؟ أفعل

التي مؤنثها فعلاء، هذه أفعل التي مؤنثها فعلاء، فأصم للمذكر لا تنون، وللمؤنث صماء.

فيقال: أبيضُ، ولا يقال أبيضٌ، وأسودُ، ولا يقال أسودٌ؛ لأن أبيض بيضاء، أسود سوداء.

أنا أريد أن أقول: رأيت أعرجًا أم أعرج بالأمس، أعرج هذه مفعول به، قل: أعرجَ ولا تنونها؛ لأن المؤنث عرجاء، هذا في كل أفعل التي مؤنثها فعلاء، إلا في حالتين طبعًا يُصرف ما هما؟ الإضافة والتعريف، فهنا تجر بالكسرة، ويقع الصرف.

فقال: (فَإِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا)، لماذا قال غائبًا؟ لأنها مصروفة ليس فيها ما يمنعها من الصرف.

(إِنَّمَا تَدْعُونَ سَمِيعًا بَصِيرًا)؛ إن الذي تدعونه أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته.

قال الشيخ الهراس: أَفَادَ هَذَا الْحَدِيثُ قُرْبَهُ سُبْحَانَهُ مِنْ عِبَادِهِ.

وهو مع ذلك فوق عرشه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

وَأَنَّهُ لَيْسَ بِحَاجَةٍ إِلَى أَنْ يَرْفَعُوا إِلَيْهِ أَصْوَاتَهُمْ؛ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السرَّ والنَّجوى.

وهذا فيه بيان لخطأ رفع الصوت بالذكر من غير حاجة والدعاء والجهر بالصلاة على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بصوت جماعي، نقول: النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: "إِنَّمَا تَدْعُونَ سَمِيعًا بَصِيرًا، إِنَّ الَّذِي تَدْعُونَ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ عُنُقِ رَاحِلَتِهِ".

ولذا قال الله عَزَّ وَجلَّ: {ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً} [الأعراف: 55]؛ هذا هو الأصل في الذكر والدعاء.

أما هذا الذي يقع في المساجد على هذه الصورة نقول: هذا من البدع والضلالات التي ما أنزل الله بها من سلطان.

قال: وَأَنَّهُ لَيْسَ بِحَاجَةٍ إِلَى أَنْ يَرْفَعُوا إِلَيْهِ أَصْوَاتَهُمْ؛ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السرَّ والنَّجوى، وَهَذَا الْقُرْبُ الْمَذْكُورُ فِي الْحَدِيثِ قُرْبُ إِحَاطَةٍ، وَعِلْمٍ، وَسَمْعٍ، وَرُؤْيَةٍ، فَلاَ يُنَافِي علوَّه عَلَى خَلْقِهِ.

فهذا الحديث في بيان قرب الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى من عباده المؤمنين، والله عَزَّ وَجلَّ لا يحتاج منا كما قلنا لأن نرفع أصواتنا.

لكن الإنسان قد يحتاج لرفع الصوت؛ إما لبعد من يخاطبه؛ فأنت ترفع صوتك لكي تُسمعه، وإما لعدم سماعه, وأما الله عَزَّ وَجلَّ؛ فإنه سميع بصير وسع سمعه الأصوات كلها سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

ويكفيك في ذلك سبب نزول سورة المجادلة، اقرأ سبب النزول وتدبر في هذا السبب، واقرأ كلام عائشة رَضِي اللهُ عَنْهَا وكيف كانت تصنع المرأة المجادلة، ومع ذلك يُنزل الله عَزَّ وَجلَّ: {قَدْ} [المجادلة: 1].

و(قد): تفيد التحقيق، {قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ}.

هذه الآية فيها أبلغ رد على الأشاعرة، والله فيها أبلغ رد على الأشاعرة، الأشاعرة ونحن نكثر الكلام عن الأشاعرة؛ لأن هذا هو المذهب الذي يُنادى به على أنه مذهب أهل السنة والجماعة.

الأشاعرة يثبتون صفات سبعة، يسمونها صفات المعاني.

من هذه الصفات: السمع والبصر، وأنتم تعلمون أنهم يقولون: إن سمع الله وبصره لا يتعلق بالموجودات الحالية، وهو سمع قديم وبصر قديم كعلمه القديم، كإرادته القديمة، هذه عقيدتهم، ومرد السمع والبصر للعلم عندهم.

ولذا آل قولهم إلى قول المعتزلة، المعتزلة كذلك يردون الصفات إلى العلم يقولون: إن الله يسمع لكن بسمع القديم، ومعنى هذا الكلام: أنه لا يسمعنا الآن سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

ثم يقولون بعد ذلك: إن هذا هو مذهب أهل السنة والجماعة الذي نريد أن ننزه به الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى عن مشابهة الخلق، فعطلوا الله عَزَّ وَجلَّ عن صفاته.

قال: قَوْلُهُ: ((إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ الْقَمَرَ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، لَا تُضَامُونَ فِي رُؤْيَتِهِ، فَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن لَّا تُغْلَبُوا عَلَى صَلاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَصَلاةٍ قَبْلَ غُرُوبِهَا؛ فَافْعَلُوا)).

قال: مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

قال الشيخ الهراس رَحِمَهُ اللهُ: هَذَا الْحَدِيثُ الصَّحِيحُ الْمُتَوَاتِرُ يَشْهَدُ لِمَا دلَّت عَلَيْهِ الْآيَاتُ السَّابِقَةُ مِنْ رُؤْيَةِ الْمُؤْمِنِينَ لِلَّهِ عَزَّ وَجلَّ فِي الْجَنَّةِ، وتمتُّعهم بِالنَّظَرِ إِلَى وَجْهِهِ الْكَرِيم.

وَهَذِهِ النُّصُوصُ مِنَ الْآيَاتِ وَالْأَحَادِيثِ تدلُّ عَلَى أَمْرَيْنِ:

أَوَّلُهُمَا: علوُّه تعالى على خلقه؛ لِأَنَّهَا صَرِيحَةٌ فِي أَنَّهُمْ يَرَوْنَهُ مِنْ فَوْقِهِمْ.

ثَانِيهِمَا: أَنَّ أَعْظَمَ أَنْوَاعِ النَّعِيمِ هُوَ النَّظَرُ إِلَى وَجْهِ اللَّهِ الْكَرِيمِ.

قال: وَقَوْلُهُ: ((كَمَا تَرَوْنَ الْقَمَرَ لَيْلَةَ الْبَدْرِ)) ؛ الْمُرَادُ تَشْبِيهُ الرُّؤْيَةِ بِالرُّؤْيَةِ، لَا تَشْبِيهُ الْمَرْئِيِّ بِالْمَرْئِيِّ؛ يَعْنِي: أَنَّ رُؤْيَتَهُمْ لِرَبِّهِمْ تَكُونُ مِنَ الظُّهُورِ وَالْوُضُوحِ كَرُؤْيَةِ الْقَمَرِ فِي أَكْمَلِ حَالَاتِهِ، وَهِيَ كَوْنُهُ بَدْرًا، وَلَا يَحْجُبُهُ سَحَابٌ، وَلِهَذَا قَالَ بَعْدَ ذَلِكَ: ((لَا تُضامون فِي رُؤْيَتِهِ)).

قال: رُوِيَ بِتَشْدِيدِ الْمِيمِ مِنَ التَّضامِّ؛ بِمَعْنَى: التَّزَاحُمِ والتَّلَاصُقِ، وَالتَّاءُ يَجُوزُ فِيهَا الضَّمُّ وَالْفَتْحُ.

تُضامون، أو تَضامون.

عَلَى أَنَّ الْأَصْلَ تتضامُّون، فَحُذِفَتْ إِحْدَى التَّاءَيْنِ تَخْفِيفًا، وَرُوِيَ بِتَخْفِيفِ الْمِيمِ مِنَ الضَّيْمِ.

يعني: تُضامُون.

بِمَعْنَى: الظُّلْمِ؛ يَعْنِي: لَا يَلْحَقُكُمْ فِي رُؤْيَتِهِ ضيمٌ وَلَا غبنٌ.

وَفِي حثِّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ عَلَى صَلَاةِ الْعَصْرِ وَصَلَاةِ الْفَجْرِ خَاصَّةً إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ مَن حَافظَ عَلَيْهِمَا فِي جَمَاعَةٍ نَالَ هَذَا النَّعِيمَ الْكَامِلَ، الَّذِي يضمحلُّ بِإِزَائِهِ كُلُّ نَعِيمٍ، وَهُوَ يدلُّ عَلَى تَأْكِيدِ هَاتَيْنِ الصَّلَاتَيْنِ كَمَا دلَّ عَلَى ذَلِكَ الْحَدِيثُ الْآخَرُ:

((يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ ملائكةٌ بِاللَّيْلِ وَمَلَائِكَةٌ بِالنَّهَارِ، وَيَجْتَمِعُونَ فِي صَلَاةِ الصُّبْحِ وَصَلَاةِ الْعَصْرِ)). مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

إذًا: هذا الحديث في إثبات رؤية المؤمنين ربهم في الآخرة، وسبقت أدلة الكتاب على ذلك، ومن ذلك قوله تعالى: {لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ} [يونس: 26]، والزيادة هي النظر إلى وجه الله تعالى.

{وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (22) إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ} [القيامة: 22-23]، {لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ} [ق: 35]، إلى غير ذلك من الأدلة.

وأما السنة؛ فإنها متواترة، قال يحيى بن معين: عندي سبعة عشر حديثًا في الرؤية كلها صحاح.

وقال الإمام أحمد: والأحاديث التي رويت عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إِنَّكُمْ تَرَوْنَ رَبَّكُمْ"، صحيحة وأسانيدها غير مدفوعة، والقرآن شاهد أن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى يُرى في الآخرة، فهذه عقيدة أهل السنة والجماعة، ماذا عن الفرق الأخرى؟

أما المعتزلة فإنهم ينفون هذه الرؤية، يقولون: لأن الرؤية تستلزم الجهة، والله عَزَّ وَجلَّ منزه عن الجهة؛ لأن الرؤية ستكون في علو والعلو جهة، والله منزه عن الجهة؛ لأن الجهة تستلزم الحيز والمكان.

كل هذا منفي عندهم، فنزهوا الله عَزَّ وَجلَّ -زعموا- عن مشابهة خلقه، مع أن الله عَزَّ وَجلَّ هو الذي أخبر بذلك عن نفسه وكذلك نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لكنه الاعتقاد السابق على الاستدلال، فكان نتيجة ذلك الزيغ والانحراف عن الصراط المستقيم، فنفوا لذلك الرؤية صراحة.

ماذا عن الأشعرية؟ هم دائمًا يتخذون مذهبًا وسطًا، لكن المذهب الوسط الأصل فيه أن يكون هو المذهب الصحيح، فهل مذهبهم كذلك؟

قالوا -فيمن يسمونهم بالحشوية أو المجسمة ويعنون أهل السنة والجماعة- يقولون: إن الله يُرى في جهة, وهذا يستلزم كذا وكذا مما سبق نقله عن المعتزلة.

قيل لهم: المعتزلة يقولون: لا يُرى.

ماذا تقولون؟ قالوا:نقول: يُرى لكن لا في جهة، يعني: لا فوق ولا تحت ولا شمال ولا يمين، إذًا: جاءوا بما لا يُعقل، ولهم أمور كثيرة جاءوا فيها بما لا يُعقل.

مسألة الكسب -كسب الأشعري-؛ أنت إذا قطعت بالسكين فأنت لم تقطع والسكين لم تقطع، لكن الذي قطع هو الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، والقطع حصل عند السكين لا بالسكين, الإحراق يكون عند النار لا بالنار، الشبع يكون عند الأكل لا بالأكل، والريُّ يقع عند الماء لا بالماء!!

لماذا؟ -هكذا يقولون-: لأننا لو أثبتنا ذلك لأثبتنا مؤثرًا آخر في الكون مع الله؛ فجعلنا من له تصرف في كونه مع الله، وهذا شرك!

وهذا الذي يقولونه ضلال ويخالفه العقل والحس، لأن كل ذلك إنما يقع بتقدير الله تعالى وخلقه.

لكن ما الذي جرهم إلى ذلك؟ الاعتقاد السابق الباطل، فيقولون: إن الله عَزَّ وَجلَّ يُرى لا في جهة، وهذا لا شك أنه غير صحيح.

وقد رد عليهم شيخهم صاحب المذهب أبو الحسن الأشعري، لكنهم لا يقرون بكلام الأشعري, ويجعلون غير الأشعري أعلم من الأشعري بعقيدتهم، هذا تجده في كلامهم.

تراهم إما أن يقولوا: إن كلام هذا الإمام عندهم، أضبط وأوفق للقواعد العقلية من كلام الأشعري على فرض ثبوت هذا الكلام عن الأشعري، أو أن هذا الكلام منحول على الأشعري وليس بكلامه.

وقد نقل شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ في بيان تلبيس الجهمية في الجزء الرابع كلامًا لأبي الحسن الأشعري رَحِمَهُ اللهُ، وحُجة عقلية يرد بها على من نفى إمكانية رؤية الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى في الآخرة.

فقال رَحِمَهُ اللهُ في الصفحة [317]؛ كما نقل عن أبي الحسن الأشعري، قال أبو الحسن في الإبانة رحمه الله بعد أن احتج بحجج كثيرة على إثبات الرؤية من الكتاب

قال: ومما يدل على جواز رؤية الله بالأبصار، يعني: لا يقول كما تقول الأشعرية؛ لأن الأشعرية يقولون: يُرى لكن بحاسة الإدراك، ترى الله، أي: تدرك الله عَزَّ وَجلَّ، يخلق الله عَزَّ وَجلَّ فيك حاسة يوم القيامة تعلم بها الله أو تدرك الله عَزَّ وَجلَّ.

يقال لهم: ومَن مِن الخلق لا يدرك الله يوم القيامة ولا يعلمه؟ مَن مِن الخلق لا يعلم الله عَزَّ وَجلَّ يوم القيامة؟

فقال: ومما يدل على جواز رؤية الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى بالأبصار أنه ليس موجودًا إلا وجائز أن يُرى، وإنما لا يجوز أن يُرى المعدوم، الذي لا يُرى هو المعدوم، وهل الله عَزَّ وَجلَّ معدوم أم موجود؟ موجود سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، إذًا: يُرى.

قال: -هذا كلام أبي الحسن-: فلما كان الله موجودًا مثبتًا كان غير مستحيل أن يرينا نفسه عَزَّ وَجلَّ، وإنما أراد من نفى الرؤية لله عَزَّ وَجلَّ بالأبصار التعطيل، فلما لم يمكنهم ذلك صُراحًا أظهروا ما يؤول إلى التعطيل وجحدوا الله تعالى، تعالى الله عما يقول الظالمون علوًا كبيرًا.

هذا كلام أبي الحسن في الأشعرية.

قال: ومما يدل على جواز رؤية الله تعالى بالأبصار أن الله تعالى يرى الأشياء.

انظر إلى هذه الحجة: الله عَزَّ وَجلَّ يرى الأشياء، وإذا كان للأشياء رائيًا، إذا كان الله عَزَّ وَجلَّ للأشياء رائيًا وليس يجوز أن يرى الأشياء من لا يرى نفسه، وإذا كان لنفسه رائيًا فجائز أن يرينا نفسه.

أي: إذا كان الله عَزَّ وَجلَّ يرى الأشياء، إذًا: هو يرى نفسه، إذًا: نفسه موجودة وذاته موجودة سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

قال: وإذا كان لنفسه رائيًا، يرى نفسه، فجائز أن يرينا نفسه، وذلك أنه من لا يعلم نفسه لا يعلم شيئًا، فلما كان الله تعالى عالمًا بالأشياء كان عالمًا بنفسه، فكذلك من لا يرى نفسه لا يرى الأشياء، فلما كان رائيًا للأشياء كان رائيًا لنفسه، وإذا كان رائيًا لها فجاز أن يرينا نفسه، كما أنه لما كان عالمًا بنفسه جاز أن يُعلمناها.

وقد قال الله عَزَّ وَجلَّ: {إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى} [طه: 46]؛ فأخبر أنه سمع كلامهما ويراهما، ومن زعم أن الله لا يُرى بالأبصار يلزمه ألا يجوز أن يكون الله عَزَّ وَجلَّ عالمًا ولا قادرًا ولا رائيا، لأن العالم القادر الرائي جائز أن يُرى.

ثم شرح شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ هذا الكلام، ثم دلل رَحِمَهُ اللهُ على ذلك من هذا الحديث الذي معنا.

وانظر إلى استنباطات شيخ الإسلام ابن تيمية ونحن نشرح عقيدته، كيف استنبط من هذا الحديث حديث: "إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ"، كل هذه الأدلة.

يقول رَحِمَهُ اللهُ في نفس المجلد بعد أن ذكر هذا الحديث حديث الرؤية، يقول رَحِمَهُ اللهُ: والنصوص متواترة في ذلك ففي الصحيحين وغيرهما الحديث المشهور عن الزهري، قال: حدثنا سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ، وَعَطَاءُ بْنُ يَزِيدَ اللَّيْثِيُّ: أن أبا هريرة أخبرهما: أن الناس قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ فقَالَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "هَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الشَّمْسِ". الحديث.

قال: وهكذا هو في الصحيحين من حديث زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد الخدري قال: وَسَاقَ الْحَدِيثَ.

قال: وفي صحيح مسلم من حديث سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة قال: قال أناس: يا رَسُولَ اللهِ، أَنَرَى رَبَّنَا؟ وذكر الحديث.

قال: فهذا فيه مع إخباره أنهم يرونه فيه إخبارهم أنهم يرونه في جهة منهم من وجوه:

- الوجه الأول: أن الرؤية في لغتهم في لغة العرب لا تُعرف إلا لرؤية ما يكون بجهة منهم.

إذًا: الرؤية لا تكون إلا في جهة، فأما رؤية ما ليس في جهة؛ فهذا لم يكونوا يتصورونه ولا يعرفونه فضلاً عن أن يكون اللفظ يدل عليه؛ كما قد اعترف هو بذلك فيما سبق.

وأيضًا فإنك لست تجد أحدًا من الناس يتصور وجود موجود في غير جهة، طالما أنه موجود؛ فلابد أن يكون في جهة، هذا مما تقبله العقول، وأما خلاف ذلك فلا تقبله العقول، فضلاً عن أن يتصور أنه يُرى، فضلاً عن أن يكون اسم الرؤية المشهورة في اللغات كلها يدل على هذه الرؤية الخاصة، هذا أولًا.

إذًا: سألوا الرؤية والرؤية لا تكون إلا من جهة.

▪ الوجه الثاني: أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **"فَإِنَّكُمْ تَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ الشَّمْسَ صَحْوًا، وَكَمَا تَرَوْنَ الْقَمَرَ صَحْوًا"**.

قال: فشبَّه لهم رؤيته برؤية الشمس والقمر، وليس ذلك تشبيهًا للمرئي بالمرئي، وإنما هو تشبيه للرؤية بالرؤية.

قال: ومن المعلوم أنه إذا كانت رؤيته مثل رؤية الشمس والقمر، وجب أن يُرى في جهة من الرائي، كما أن رؤية الشمس والقمر كذلك؛ فإنه لو لم يكن كذلك لأخبرهم برؤية مطلقة.

أي لقال لهم: سترون ربكم. لكن ماذا قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ **"فَإِنَّكُمْ تَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ"**.

"كَمَا تَرَوْنَ"؛ هذا التشبيه فيه أمران: أنك ترى الشمس والقمر في جهة العلو، وفي الوضوح؛ ولذا قال: **"لَا تُضَامُّونَ"**, أو **"لَا تُضَارُونَ"**.

قال: لأخبرهم برؤية مطلقة متى أولها على ما يتأول ما يقول أو من يقول بالرؤية في غير جهة -الذين هم الأشعرية-, وأما بعد أن يستفسرهم عن رؤية الشمس صحوًا ورؤية البدر صحوًا ويقول: إنكم ترون ربكم كذلك؛ فهذا لا يمكن أن يُتأول على الرؤية التي يزعمونها -التي هي رؤية الأشاعرة في نفي الجهة-؛ فإن هذا اللفظ لا يحتملها لا حقيقة ولا مجازًا.

▪ الوجه الثالث: أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **"هَلْ تُضَارُّونَ فِي الشَّمْسِ لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ؟ هَلْ تُضَارُّونَ فِي القمر لَيْسَ دُونه سَحَابٌ؟"**؛ فشبَّه رؤيته برؤية أظهر المرئيات، إذ لم يكن ثم حجاب منفصل عن الرائي يحول بينه وبين المرئي.

ومن يقول: إنه يُرى في غير جهة يمتنع عنده أن يكون بينه وبين العباد حجاب منفصل عنهم، إذ الحجاب لا يكون إلا لجسم، ولما يكون في جهة، وهم يقولون: الحجاب عدم خلق الإدراك في العين.

والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مثَّل رؤيته برؤية هذين النورين العظيمين إذا لم يكن دونهما حجاب.

- الوجه الرابع: أنه أخبر أنهم: "لَا يُضَارُّونَ فِي رُؤْيَتِهِ"، وفي حديث آخر: "لَا يُضَامُونَ فِي رُؤْيَتِهِ".

ونفي الضير والضيم؛ إنما يكون لإمكان لحوقه للرائي، ومعلوم أن ما يسمونه رؤية وهو رؤية ما ليس بجهة من الرائي لا فوقه ولا في شيء من جهته لا يتصور فيه ضير ولا ضيم.

أي أن هؤلاء الأشعرية يقولون: إن الله يُرى لكن ليس في جهة.

هل قولكم هذا يستلزم منه أن يُصاب الرائي بضرر؟ أنتم ترون الله لا في جهة، هل نحتاج إلى أن ينضم بعضكم إلى بعض ليرى الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى؟ هل هذا قد يتصور فيه عدم الوضوح؟ لأنهم يفسرون الرؤية بالإدراك والعلم.

لكن لما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "لَا تُضَارُونَ فِي رُؤْيَةِ"، أو "لَا تُضَامُّونَ فِي رُؤْيَتِهِ", قال: هذا لا يتصور إلا في رؤية إلى جهة، وإلا بوجود مرئي، وإلا أن يكون فوقه؛ فإنه قد يلحقه فيه ضيم وضير إما بالازدحام عليه. أو كلال البصر لخفائه؛ شيء بعيد وأنت لا تراه فالبصر يُصاب بالكلال والضعف والأذى، فلما قال: "لَا تُضَامُّونَ فِي رُؤْيَتِهِ"، أي: لا يصيبكم خفاء ولا ضرر؛ فدل ذلك على أن الرؤية المراد بها: رؤية حقيقية.

وذكر وجوهًا أخرى رحمه الله في هذا الحديث كثيرة جدًا, كلها تدل على أن الله عَزَّ وَجلَّ يُرى في الآخرة، ثم نقل الإجماع في ذلك، ونقل تفاسير السلف لآيات الرؤية وما ذكروه في كتب الاعتقاد.

ونكتفي بهذا القدر.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم، وجزاكم الله خيرًا.

الدرس الثالث والثلاثون

إن الحمد لله, نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله تعالى من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله, صلى الله عليه, وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد:

فنواصل ما كنا قد شرعنا فيه من قبل من قراءة شرح العلامة الهراس على العقيدة الواسطية لشيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ.

وكان حديثنا يدور حول بعض الأحاديث التي ذكرها شيخ الإسلام، والتي تتعلق بصفات الباري تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

قال المصنف رَحِمَهُ اللهُ بعد أن فرغ من ذكر بعض هذه الأحاديث، قال: إِلَى أَمْثَالِ هَذِهِ الأَحَادِيثِ الَّتِي يُخْبِرُ فِيهَا رِسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَن رَّبِهِ بِمَا يُخْبِرُ بِهِ؛ فَإِنَّ الْفِرْقَةَ النَّاجِيَةَ أَهْلَ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ يُؤْمِنُونَ بِذَلِكَ؛ كَمَا يُؤْمِنُونَ بِمَا أَخْبَرَ اللهُ بِهِ فِي كِتَابِهِ؛ مِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ وَلا تَعْطِيلٍ، وَمِنْ غَيْرِ تَكْيِيفٍ وَلَا تَمْثِيلٍ؛ بَلْ هُمُ الْوَسَطُ فِي فِرَقِ الأُمَّةِ؛ كَمَا أَنَّ الأُمَّةَ هِيَ الْوَسَطُ فِي الأُمَمِ.

هذه القطعة من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ يُبين فيها أن القاعدة واحدة: ما جاء في كتاب الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى هو هو ما جاء في سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الصحيحة التي تلقتها الأمة بالقبول.

كل ذلك حجة في تقرير عقائد المسلمين.

وأهل السنة والجماعة لا يفرقون بين قرآن وسنة، فيقولون كما يقول غيرهم من أهل البدع والضلالة: نأخذ بالقرآن دون السنة، بل عقيدتهم مستمدة من

كتاب الله ومن سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومما أجمع عليه أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فهم أولى الناس بهذا اللقب الذي ذكره المصنف رَحِمَهُ اللهُ من كونهم الفرقة الناجية وأهل السنة والجماعة.

فقال رَحِمَهُ اللهُ: إِلَى أَمْثَالِ هَذِهِ الأَحَادِيثِ الَّتِي يُخْبِرُ فِيهَا رِسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَن رَّبِهِ بِمَا يُخْبِرُ بِهِ.

والأحاديث التي يُثبت بها الاعتقاد لابد أن يتوفر فيها شرطان:

- الشرط الأول: وهو أن تكون هذه الأحاديث صحيحة ثابتة عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلا يقوم الاعتقاد على حديث ضعيف، وإنما لابد من ثبوت الأحاديث
- وهذا يلزم منه إذا ثبتت هذه الأحاديث أن تتلقاها الأمة بالقبول.

فقول المصنف رَحِمَهُ اللهُ: إِلَى أَمْثَالِ هَذِهِ الأَحَادِيثِ الَّتِي يُخْبِرُ فِيهَا رِسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَن رَّبِهِ بِمَا يُخْبِرُ بِهِ.

أي: عن ربه، هذا ما عليه أهل السنة والجماعة، لأن السنة وحي كالقرآن، ورسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أعلم الخلق بربه، ولا ينطق عن الهوى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا يقول إلا ما يُقوَّل، وقوله في الرضا كقوله في الغضب صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو أفصح الخلق وأبينهم لمراد الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وهو أنصحهم وهو أفهمهم لكلام الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وهو أحسنهم قصدًا.

كل ذلك يُبين لنا أن السنة التي صحت عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إذا كانت في هذا الباب –أعني باب الاعتقاد-، فإنها معمول بها، لا فرق في ذلك بين متواتر أو آحاد.

قال: فَإِنَّ الْفِرْقَةَ النَّاجِيَةَ أَهْلَ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ يُؤْمِنُونَ بِذَلِكَ.

الفرقة الناجية والطائفة المنصورة وأهل السنة والجماعة والسلفيون وأهل الحديث والأثر؛ هذه كلها تشير لمعنى واحد، تشير لمن كان على ما كان عليه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصحبه.

وهذه الأوصاف كلها مأخوذة من كتاب الله ومن سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهم الفرقة الناجية لأنهم ناجون من النار.

كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما سُئل عن الطائفة الناجية أو الفرقة الناجية كما جاء في حديث الفرق، قال: "وَسَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَى ثَلاَثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً"، وهذا يعني أن هذه الفرقة تنجو من النار.

ما وصف هذه الفرقة؟ قال: "مَنْ كَانَ عَلَى مَا أَنَا عَلَيْهِ الْيَوْمَ وَأَصْحَابِي"، وهم كذلك الطائفة المنصورة، كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ وَلَا مَنْ خَذَلَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَة".

منصورون في الدنيا والآخرة، منصورون في الدنيا بماذا؟ بالحجة والبيان، فحجتهم دائمًا ظاهرة قاهرة واضحة قوية لا تقوم أمامها حجة، وهم كذلك منصورون في الآخرة، لأن النجاة لهم في الآخرة.

قال الله تعالى: {إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ} [غافر: 51].

إذًا: النصر موعود من قِبل الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى في الدنيا وفي الآخرة.

وهم كذلك أهل السنة والجماعة، هم أهل السنة لأنهم يتابعون سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأكثر الناس دعاية ودعوة للتمسك بسنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، للتمسك بما كان عليه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في القول والفعل والعمل والسلوك والأخلاق، في الاعتقادات والمعاملات والعبادات.

في كل ذلك يتمسكون بما كان عليه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا يخرجون عن ذلك، ولا يقدمون على سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عقلاً ولا هوى ولا ذوقًا ولا وجدًا ولا رأيًا، وهذه الأمور المذكورة هي عمدة أهل البدع التي يُخضعون سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لها، فتجد أكثرهم بل كلهم يقدمون عقولهم على ما جاء في سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ ولذلك هم أهل السنة.

وأهل الشيء ألصق الناس به وأقرب الناس إليه، فهم أهل السنة لا غيرهم، وهم الجماعة كذلك، وهذا لازم لمتابعة سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإن من تابع السنة وتمسك بها لابد أن يكون داعيًا إلى الجماعة ونبذ الفُرقة، لأنهم معتّصمون بكتاب الله وسنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال الله تعالى: {وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا} [آل عمران: 103]، وما حبل الله؟ كتاب الله وسنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال: "تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا إِنِ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ لَنْ تَضِلُّوا بَعْدِي أَبدًا، كِتَابَ اللهِ وسنتي"، فمن لازم الاعتصام بالسنة نبذ الفُرقة وحصول الجماعة.

ولذا سُمي من خالف أهل السنة والجماعة بأهل الأهواء والبدع، بأهل الأهواء والفُرقة، لماذا؟ لأنهم يقدمون أهوائهم على سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

وَسَلَّمَ، وهذا يلزم منه أن تحصل الفُرقة بينهم؛ ولذا لا تجد فرقة من هذه الفرق إلا وهي منشطرة متعددة متشعبة، فرقوا دينهم وكانوا شيعا.

فالأشعرية ليسوا على رأي واحد، وإنما يختلفون في أمور كثيرة، وكذلك المعتزلة، وكذلك الخوارج، وغير هؤلاء.

وأما أهل السنة والجماعة ففي المشرق والمغرب وفي كل مكان على عقيدة واحدة لأن مشربهم واحد.

قال: فَإِنَّ الْفِرْقَةَ النَّاجِيَةَ أَهْلَ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ يُؤْمِنُونَ بِذَلِكَ؛ كَمَا يُؤْمِنُونَ بِمَا أَخْبَرَ اللهُ بِهِ فِي كِتَابِهِ.

يعني: لا يفرقون بين الكتاب والسنة، لا يقولون كما يقول أهل الكتاب: نؤمن ببعض الكتاب ونكفر ببعض، وهذا لازم قول أهل البدع وحال أهل البدع وإن لم يقولوا ذلك بألسنتهم، لكن حالهم خير شاهد على ذلك.

قال: مِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ وَلا تَعْطِيلٍ، وَمِنْ غَيْرِ تَكْيِيفٍ وَلَا تَمْثِيلٍ.

وهذه الكلمات بيَّنا معناها في صدر هذه العقيدة المباركة.

قال: بَلْ هُمُ الْوَسَطُ فِي فِرَقِ الأُمَّةِ؛ كَمَا أَنَّ الأُمَّةَ هِيَ الْوَسَطُ فِي الأُمَمِ.

المصنف في هذا المبحث سيُبين لنا وسطية أهل السنة والجماعة في أمور خمسة؛ ولذا هذا المبحث سماه بعض أهل العلم بمبحث الوسطية، العقيدة تسمى بالعقيدة الواسطية لأنها كتبت بواسط، أما هذا المبحث فيسمى بالوسطية، وهذا مأخوذ من قول الله تعالى: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ} [البقرة: 143].

فما معنى الوسط؟ جاء في المصباح المنير الوَسَط بالتحريك، يعني: بتحريك السين (وسط)، الوسط بالتحريك المعتدل والعدل الخيار.

قال: والمراد بالوسط هنا، يعني: في هذه الآية، العدل الخيار، فلما قال الله عَزَّ وَجلَّ: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا}، أي: عدلًا خيارًا، ولذا كانت أمة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خير أمة أُخرجت للناس، ولا تتحقق هذه الخيرية إلا لأنهم وسط بين الأمم، وأهل السنة وسط بين الفرق.

فأهل السنة وسط بمعنى: أنهم عدول خيار يتوسطون فرق الأمة بين الإفراط والتفريط؛ ولذا سيذكر المصنف رَحِمَهُ اللهُ أصولًا خمسة كان أهل السنة وسطًا فيها بين الفرق.

- **الأصل الأول: وهو الصفات.**
- **الأصل الثاني: وهو أفعال الله تعالى.**
- **الأصل الثالث: وهو باب الوعيد، ما توعد الله عَزَّ وَجلَّ به العصاة في الآخرة.**
- **الأصل الرابع: وهو أسماء الإيمان والدين.**

أي بم نسمي فاعل الكبيرة في الدنيا؟ وبم نسميه في الآخرة؟

- **الأصل الخامس: وهو أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.**

فهذه هي الأصول الخمسة التي سيذكرها المصنف رَحِمَهُ اللهُ.

ولذا قال: بَلْ هُمُ الْوَسَطُ فِي فِرَقِ الأُمَّةِ؛ كَمَا أَنَّ الأُمَّةَ هِيَ الْوَسَطُ فِي الأُمَمِ.

قال الشيخ الهراس رَحِمَهُ اللهُ: قَوْلُهُ: ((إِلَى أَمْثَالِ هَذِهِ الْأَحَادِيثِ)).

قال: لَمَّا كَانَ مَا ذَكَرَهُ الْمُؤَلِّفُ مِنَ الْأَحَادِيثِ لَيْسَ هُوَ كُلَّ مَا وَرَدَ فِي بَابِ الصِّفَاتِ مِنَ الْأَخْبَارِ؛ نبَّه عَلَى أَنَّ أَمْثَالَ هَذِهِ الْأَحَادِيثِ الَّتِي ذَكَرَهَا مِمَّا يُخْبِرُ فِيهِ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ رَبِّهِ بِمَا يُخْبِرُ بِهِ، فَإِنَّ حُكْمَهُ كَذَلِكَ.

لأن الباب واحد لا نفرق بين أحاديث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ما هذا الحكم؟

قال: وَهُوَ وُجُوبُ الْإِيمَانِ بِمَا يتضمَّنه مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ وَصِفَاتِهِ.

ثُمَّ عَادَ فأكَّد مُعْتَقَدَ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ. وَهُوَ أَنَّهُمْ يُؤْمِنُونَ بِمَا وَرَدَتْ بِهِ السُّنَّةُ الصَّحِيحَةُ مِنْ صِفَاتٍ؛ كَإِيمَانِهِمْ بِمَا أَخْبَرَ اللَّهُ بِهِ فِي كِتَابِهِ، مِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ، وَلَا تَعْطِيلٍ، وَمِنْ غَيْرِ تَكْيِيفٍ، وَلَا تَمْثِيلٍ.

ثُمَّ أَخْبَرَ عَنْ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ بِأَنَّهُمْ وسطٌ بَيْنَ فِرَق الضَّلاَلِ والزَّيغ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ؛ كَمَا أَنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ وسطٌ بَيْنَ الْأُمَمِ السَّابِقَةِ؛ قَالَ تَعَالَى: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا}.

قال: وَمَعْنَى {وَسَطًا} : عُدولاً خِيارًا؛ كَمَا وردَ الْحَدِيثُ بِذَلِكَ.

قال: فَهَذِهِ الأمَّة وسطٌ بَيْنَ الْأُمَمِ الَّتِي تجنَحُ إِلَى الغلوِّ الضارِّ وَالْأُمَمِ الَّتِي تَميلُ إِلَى التَّفريط الْمُهْلِكِ.

وهي أمة اليهود وأمة النصارى، فأمة اليهود كان فيها الجفاء حتى طعنوا في الأنبياء وسبوهم ونسبوا إلى الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى النقائص، وهذا موجود في كتبهم إلى الآن.

والأمة الأخرى وهي أمة النصارى، وهذه الأمة غلت في الرهبان والقساوسة وفي عيسى ابن مريم عليهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمَ.

فقال: فَإِنَّ مِنَ الْأُمَمِ مَن غَلاَ فِي الْمَخْلُوقِينَ، وَجعَلَ لَهُمْ مِنْ صِفَاتِ الْخَالِقِ وَحُقُوقِهِ مَا جَعَلَ؛ كَالنَّصَارَى الَّذِينَ غَلَوا فِي الْمَسِيحِ والرُّهبان.

وَمِنْهُمْ مَن جَفَا الْأَنْبِيَاءَ وأتباعَهم، حَتَّى قتلهُم، وردَّ دَعْوَتَهُمْ؛ كَالْيَهُودِ الَّذِينَ قَتَلُوا زَكَرِيَّا وَيَحْيَى، وَحَاوَلُوا قَتْلَ الْمَسِيحِ، ورَمَوْه بالبُهتان.

وَأَمَّا هَذِهِ الْأُمَّةُ؛ فَقَدْ آمَنَتْ بِكُلِّ رَسُولٍ أَرْسَلَهُ اللَّهُ، وَاعْتَقَدَتْ رِسَالَتَهُمْ، وَعَرَفَتْ لَهُمْ مَقَامَاتِهِمُ الرَّفِيعة الَّتِي فضَّلهم اللَّهُ بِهَا.

ولذا هذه الأمة أمة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ونبينا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أقل الأنبياء ذكرًا في كتاب الله، ولو كان هذا الكتاب كتاب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما خلا من ذكره، ولتقدم ذكره على ذكر غيره، والذي نجده عكس ذلك.

فأكثر الأنبياء ذكرًا في كتاب الله آخر نبيين عيسى وموسى عَليْهِم الصَّلاَةُ والسَّلاَم، أكثرهم موسى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقد ذكر شيخ الإسلام في غير موضع في كتبه سبب ذلك، ويأتي كذلك في الذكر عيسى عَليهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَم.

وسبحان الله كان هذا من أكثر الأسباب التي دعت النصارى للدخول في دين الإسلام، لأن الواحد من هؤلاء ربما نفر من دين النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الأمين وهو خاتم الأديان دين الإسلام بمعناه الخاص، ربما نفر ويكون سبب هذه النفرة ماذا؟ أن يسمع أن الإسلام يتعرض مثلاً بالطعن في عيسى أو في موسى أو ينكر نبوة عيسى عَليهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَم، أو نبوة موسى، أو يضع من قدر أمه مريم عليها السلام.

فإذا جاء النصراني الذي يبحث عن الحق ونظر بتجرد في كتاب الله، وهذا يحصل كثيرًا عند الغرب خاصة، إذا سمعت هؤلاء الذين يدخلون في دين الله أفواجًا بكثرة، تجد أن من أعظم أسباب دخولهم في هذا الدين العظيم ما كان في كتاب الله من حسن ذكر لعيسى ابن مريم وأمه، ومن دفاع عن عيسى وأمه عَليْهِمَا الصَّلاَةُ والسَّلاَم، مع ما فيه من تقرير للتوحيد.

هم يقرون أن الدين الوحيد الذي يدعو الآن إلى التوحيد هو دين الإسلام، وأما غير ذلك من الأديان فإنها تدعوا إلى أمور غير معقولة، ومن ذلك مسألة التثليث هذه التي لا تُعقل.

فدين النبي الأمين صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو الدين الوسط، فاليهود فعلوا ما ذكره الشارح رَحِمَهُ اللهُ، والنصارى كذلك فعلوا ما ذكره.

قال: وَأَمَّا هَذِهِ الْأُمَّةُ؛ فَقَدْ آمَنَتْ بِكُلِّ رَسُولٍ أَرْسَلَهُ اللَّهُ، وَاعْتَقَدَتْ رِسَالَتَهُمْ، وَعَرَفَتْ لَهُمْ مَقَامَاتِهِمُ الرَّفِيعة الَّتِي فضَّلهم اللَّهُ بِهَا.

ومن جميل ما يُذكر في سبب إسلام بعض هؤلاء، وهذا ذكره المترجم المسلم محمد أسد الذي كان في الأصل يهوديًا وكتب ترجمة للقرآن الكريم وفيها الكثير من الخلل.

لكن يذكر في قصة حياته أنه كان يركب القطار ذات يوم، فسمع حوارًا بين نصراني ومسلم، فسأل النصراني المسلم لماذا تبيحون الزواج منا وتحرمون زواج الرجل منا من نسائكم؟ يعني: لماذا أليس هذا من الظلم؟

تقولون: إن دينكم يقول: إن المسلم يجوز له أن يتزوج الكتابية، وأما الكتابي؛ فلا يجوز له أن يتزوج المسلمة، فكان مما أعجب محمد أسد وكان سببًا في دخول الإسلام من ضمن الأسباب التي أثرت فيه رد هذا الرجل.

قال له: لأن المسلم إذا تزوج الكتابية يتزوجها ويعلم أن لها نبيًا وهو عيسى عَليهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَم، ونحن نؤمن بجميع الأنبياء، فلا يهين نبيها وإنما يُبين لها محاسن هذا الدين دين الإسلام بالحسنى.

وأما الكتابي منكم؛ فإنه لا يؤمن بمحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلا يؤمن على هذه المرأة أن يهين دينها ونبيها وأن يسب نبيها، لكن لو تزوج مسلم كتابية هل يتصور أن يسب نبيها موسى أو عيسى عَليهِما الصَّلاَةُ والسَّلاَم يومًا ما ؟! فكان ذلك مما أعجبه.

قال: وَمِنَ الْأُمَمِ أَيْضًا مَن استحلَّت كلَّ خبيثٍ وطيِّبٍ.

وَمِنْهَا مَن حرَّم الطَّيِّبات غُلُوًّا وَمُجَاوَزَةً.

وَأَمَّا هَذِهِ الْأُمَّةُ؛ فَقَدْ أحَلَّ اللَّهُ لَهَا الطَّيِّبات، وحرَّم عَلَيْهَا الْخَبَائِثَ.

إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي مَنَّ اللَّهُ عَلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ الْكَامِلَةِ بالتوسُّط فِيهَا.

فَكَذَلِكَ أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ متوسِّطون بَيْنَ فِرَقِ الْأُمَّةِ الْمُبْتَدِعَةِ الَّتِي انحرفتْ عَنِ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ.

وهذا الباب كذلك من أعظم الأبواب التي يستطيع المسلم أن يدعو به إلى دينه.

هذه الأبواب التي ذكرها المصنف رَحِمَهُ اللهُ، مسألة وسطية هذا الدين وعلو قدره في التوحيد والعبادات والمعاملات والأخلاق.

لا نحتاج إلى أن نبرهن لهم أن الإسلام دل على هذا الاكتشاف العلمي الذي جئتم به على هذه النظرية، على كذا، أو كذا ؛ لأن القرآن الكريم ليس كتاب طب ولا فلك ولا غير ذلك، ثم هذه النظرية قد يثبت عكسها بعد ذلك فيكون ذلك طعنًا في القرآن.

لكن أكثر هؤلاء لماذا يدخلون في هذا الدين العظيم؟ بسبب هذه الأمور التي ذكرها شيخ الإسلام، خاصة الأخلاق، الأمة الوحيدة التي تحارب اللوطية الآن هي أمة الإسلام ، حتى ولو كان في بعض دول العالم الإسلامي الكثير من الانحرافات لكنها لا تُقر مثل هذه الفواحش، فهذا من أعظم السبل للدعوة لهذا الدين.

فهذه الأمة كما قلنا أمة وسط في هذه الأمور التي ذكرها المصنف رَحِمَهُ اللهُ، ومن ذلك أنهم وسط في حق الله تعالى، وسط بين اليهود والنصارى، فاليهود جفوا، والنصارى غلوا، ووسط في حق الأنبياء، فاليهود كذلك جفوا في حق الأنبياء والمرسلين، والنصارى غلوا وجعلوا عيسى ابن الله، وجعلوا الروح القدس من الآلهة، ومريم من الآلهة.

وكذلك في العبادات هم أمة وسط في العبادات، فالنصارى يتدينون لله بعدم الطهارة، ولذا سمعنا بعض الرهبان والقساوسة أنه يتبجح ويتفاخر أنه ظل أربعين سنة لم يمس جسده ماء.

ولا يتطهرون من الخبث ولا النجاسات، والواحد منهم يجامع زوجته وهي في الحيض لا بأس بذلك، وأما اليهود فإنهم على الضد من ذلك إذا أصاب ثوب أحدهم النجاسة؛ فإن الواجب عليه أن يقرض هذا الذي أصابه النجاسة.

إذا كانت المرأة حائضًا فإنه لا يواكلها ولا يشاربها ولا يجلس معها ولا تكون معه في بيت واحد، إلى غير ذلك من الأمور.

وكذلك هم وسط في باب المحرمات من المآكل والمشارب، فالنصارى استحلوا كل خبيث وكل مُحرم، ولذلك يشربون الخمر ويأكلون لحم الخنزير والميتة وغير ذلك.

وأما اليهود فإنهم حرموا على أنفسهم ما لم يحرمه الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، قال تعالى: {وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ} [الأنعام: 146].

وفي القصاص كذلك أمة الإسلام وسط في مسألة القصاص، من اعتدى عليك ما الواجب عليك أن تصنعه؟ أنت مُخير بين القصاص أو الدية أو العفو.

ماذا عن اليهود؟ لابد من القصاص، ماذا عند النصارى في كتبهم؟ هناك نص مشهور في الإنجيل هذا النص يقول: من ضربك على خدك الأيمن، فأدر له خدك الأيسر، ويزعمون أن ذلك دين التسامح الذي جاء به المسيح،وقطعا هذا غير معمول به الآن من قبل هؤلاء خاصة تجاه المسلمين.

وأما أمة الإسلام ودين الإسلام؛ فهو دين وسط، فأهل السنة والجماعة بين الفرق وسط كالإسلام بين الملل كما قال المصنف رَحِمَهُ اللهُ.

يقال: بين المِلل، ولا يقال بين الأديان، لماذا؟ لأن الدين واحد، {إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ} [آل عمران: 19].

ثم ذكر المصنف هذه الأصول الخمسة، قال: فَهُمْ وَسَطٌ فِي بَابِ صِفَاتِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتعَالَى بَيْنَ أهْلِ التَّعْطِيلِ الْجَهْمِيَّةِ، وَأَهْلِ التَّمْثِيلِ الْمُشَبِّهَةِ.

هم وسط، وعرفنا معنى الوسطية.

فِي بَابِ صِفَاتِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتعَالَى بَيْنَ أهْلِ التَّعْطِيلِ الْجَهْمِيَّةِ، وَأَهْلِ التَّمْثِيلِ الْمُشَبِّهَةِ.

الجهمية: نسبة إلى الجهم بن صفوان الترمذي, وهو رأس الفتنة والضلال, وإليه ترجع سائر الفرق التي خالفت في باب الصفات والقدر، وكان صاحب خصومات وكلام.

كان يجادل وكان لبقًا فصيحًا لكنه لم يكن زكيًا، كان ذكيًا ولكنه لم يكن زكيًا طاهرًا, بل كان خبيثًا، أخذ هذه المقالة عن الجعد بن درهم وهو شيخه، ولم يكن الجعد يُحسن الكلام كالجهم بن صفوان، ولذا نُسبت المقالة إليه.

وقد جمع الجهم بن صفوان بين ضلالات ثلاثة كبرى وتابعته الفرق فيها:

- أما الضلالة الأولى: فهي قوله بالتعطيل، فعطل الرب تَبَارَكَ وَتَعَالَى عن كل اسم وصفة، لم يثبت لله عَزَّ وَجلَّ اسمًا ولا صفة إلا صفة الوجود المطلق فقط، وأما غير ذلك من الصفات فلا يثبت لله عَزَّ وَجلَّ شيئا من ذلك، ولذا مآل قول الجهمية إلى عبادة العدم لا يعبدون إلهًا موجودًا.

ولذا كان عبد الله بن المبارك رَضِي اللهُ عَنْهُ و رَحِمَهُ اللهُ يقول: إنا لنحكي كلام اليهود، ولا نستطيع أن نحكي كلام الجهمية.

ماذا يقول اليهود ؟ يقولون كلامًا شنيعًا في حق الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى وفي حق الأنبياء والمرسلين، يقولون: إن الرب صارع يعقوب وصرعه يعقوب، يقولون:

إن الله فقير ونحن أغنياء، يقولون: إن الله تعب بعد أن فرغ من خلق السماوات والأرض واستراح في اليوم السابع يوم السبت.

يقولون كلامًا شنيعًا، ومع ذلك يقول عبد الله بن المبارك : إنا لنحكي كلام اليهود ولا نحكي كلام الجهمية، لماذا يقول عبد الله بن المبارك ذلك؟

لأن اليهود وإن قالوا ذلك فإنهم لم يعطلوا الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى عن صفاته؛ ولذا التوراة مليئة بذكر أسماء الله وصفاته، لكنهم طعنوا في ذات الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى ونسبوا إليه النقائص.

ماذا عن الجهمية؟ لم يثبتوا إلهًا أصلاً، لم يثبتوا إلهًا له أسماء ولا صفات، ولذا كان كلام الجهمية أشد من كلام اليهود، ومن ثمَّ كفَّرهم أهل العلم ونُقل تكفيرهم عن خمسمائة من علماء السلف.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ في نونيته:

ولقد تقلد كفرهم خمسون في * عشر من العلماء في البلدان**

خمسين في عشرة بكم؟ خمسمائة.

واللالكائي الإمام حكاه عنـ*ـهم بل حكاه قبله الطبراني**

يعني: حكى هذا التكفير الإمام اللالكائي في أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، ونقل ذلك الطبراني قبله.

فأول ضلالة للجهمية هي القول بتعطيل الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى عن أسمائه وصفاته.

- الضلالة الثانية: هي القول بالجبر, وأن الإنسان مجبور على فعله وحركاته، وأنه لا إرادة له ولا اختيار، وأن حركاتك كلها اضطرارية

كحركة المرتعش والعروق النابضة، وكحركات الأشجار في مهب الريح، لا إرادة لك ولا اختيار.

كيف أُضيفت إليك في كتاب الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى ؟ أُضيفت مجازًا، وأما أن يكون لك اختيار أو أن يكون لك فعل، فليس للعبد قدرة ولا إرادة ولا فعل البتة.

ولذا يقول قائلهم:

ألقاه في اليم مكتوفًا وقال له*** إياك إياك أن تبتل بالماء

هذا هو حال الإنسان، مكتوف اليدين والقدمين، ألقي في الماء، ثم بعد ذلك يقال له: لا تبتل!!

هكذا يقولون عن الإنسان، وهذا ضلال مبين، إذ هو فتح لباب الزندقة والانخلاع من الدين بحجة الجبر.

وأخذت الفرق عنهم هذا القول، لكن منهم الغالي؛ كالجهمية الأوائل أتباع الجهم بن صفوان، ومنهم المتوسط في ذلك؛ كالأشعرية -كما سيأتي- القائلين بالكسب، فمآل قولهم إلى الجبر، فهذه هي الضلالة الثانية.

- الضلالة الثالثة: وهي القول بالإرجاء؛ وهو إخراج العمل عن مسمى الإيمان.

أي أن أعمالك لا تدخل في حد الإيمان، الإيمان عندهم مجرد المعرفة، فمجرد معرفتك بوجود الرب تكفي في تحقيق الإيمان، لا يدخل في ذلك إقرار القلب ولا نطق، ولا عمل بالجوارح.

بل عند الجهم أن من جحد بلسانه لا يكفر بذلك، طالما أن القلب مُقر بمعرفة الرب فهو مؤمن؛ ولذا إبليس عنده مؤمن، فرعون مؤمن، كل المشركين مؤمنون، وهذا يستلزم إبطال الشرع والرسالات.

لماذا أرسل الله عَزَّ وَجلَّ الرسل وأنزل الكتب إذًا ؟ إذا كان كل الناس يعرفون الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وعندهم أن الإيمان لا ينقص ولا يتفاضل أهله فيه، فهذه ضلالة أخرى وتابعته الفرق كذلك فمنهم مستقل ومستكثر.

فقال المصنف رَحِمَهُ اللهُ: فَهُمْ وَسَطٌ فِي بَابِ صِفَاتِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتعَالَى بَيْنَ أَهْلِ التَّعْطِيلِ الْجَهْمِيَّةِ.

عرفنا معنى الجهمية وأنهم عطلوا صفات الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

وَأَهْلِ التَّمْثِيلِ الْمُشَبِّهَةِ.

أي: الذين مثلوا الله بخلقه، فتجد الواحد من هؤلاء يقول: الله عَزَّ وَجلَّ ذكر لنفسه يدين في كتابه، ولا نعقل يدًا إلا كهذه اليد.

إذًا: يد الله مثل أيدينا، هؤلاء هم الممثلة المشبهة، وقد كفرهم أهل العلم كذلك.

أهل السنة والجماعة وسط بين هؤلاء وأولئك، فقالوا: إن إثبات الصفات إثبات وجود ومعنى، وأما الكيف؛ فإنه لا يعلمه إلا الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، فكانوا وسطًا في ذلك.

ولذا قال الشيخ الهراس رَحِمَهُ اللهُ: وقَوْلُهُ: ((فهُم وسطٌ فِي بَابِ صِفَاتِ اللَّهِ))؛ يَعْنِي: أَنَّ أَهْلَ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ وسَطٌ فِي بَابِ الصِّفَاتِ بَيْنَ مَن يَنْفِيهَا ويعطِّل الذَّاتَ العليَّة عَنْهَا، ويحرِّف مَا وَرَدَ فِيهَا مِنَ الْآيَاتِ وَالْأَحَادِيثِ عَنْ

مَعَانِيهَا الصَّحيحة إِلَى مَا يَعْتَقِدُهُ هُوَ مِنْ معانٍ بِلاَ دليلٍ صَحِيحٍ، وَلَا عقلٍ صَرِيحٍ؛ كَقَوْلِهِمْ: رَحْمَةُ اللَّهِ: إِرَادَتُهُ الْإِحْسَانَ، وَيَدُهُ: قدرتُه، وعينُه: حِفْظُهُ وَرِعَايَتُهُ، وَاسْتِوَاؤُهُ عَلَى الْعَرْشِ: اسْتِيلاؤُهُ ... إِلَى أَمْثَالِ ذَلِكَ مِنْ أَنْوَاعِ النَّفْيِ والتَّعطيل الَّتِي أَوْقَعَهُمْ فِيهَا سُوءُ ظَنِّهم بربِّهم، وتوهُّمهم أَنَّ قِيَامَ هَذِهِ الصِّفَاتِ بِهِ لَا يُعْقَل إِلَّا عَلَى النَّحْوِ الْمَوْجُودِ فِي قِيَامِهَا بِالْمَخْلُوقِ.

وكل ذلك قد مضى الرد عليه.

سبحان الله: من الذي يقرر هذا الكلام ههنا؟ الشيخ الأزهري الهراس رَحِمَهُ اللهُ، يعني به الأشعرية.

ولذا تجد الآن في أروقة الأزهر مقالة تتردد كثيرًا نقلها إليَّ بعض الأزهرية، يقولون لهم في مجالس العلم واثناء المحاضرات: إياكم أن تظنوا أن خليل هراس سيعود مرة أخرى، لا أحد فيكم يفكر أن الهراس سيتكرر مرة ثانية, الأمر انتهى، يقولون لهم هذا الكلام.

لأن الشيخ خليل هراس رجل أزهري أخذ الدكتوراه في بيان معتقد ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ، مع أنه ما عمد إلى ذلك في الأساس إلا ليُبين ضلال هذا الرجل، فلما اطَّلع على مؤلفاته علم أنه على الصراط المستقيم، والهدي القويم، فكان منافحًا عنه وشارحًا لكتبه.

فالشيخ الهراس يقول ذلك وهو من أعلم الناس بعقيدة الأشعرية، فسبب جنوح هؤلاء إلى التعطيل ماذا؟ يقول: إِلَى أَمْثَالِ ذَلِكَ مِنْ أَنْوَاعِ النَّفْيِ والتَّعطيل الَّتِي أَوْقَعَهُمْ فِيهَا سُوءُ ظَنِّهم بربِّهم.

ولذا المعطلة قبل أن يعطلوا شبهوا، ما من معطل إلا وقد شبَّه قبل ذلك، أنت لماذا تعطل الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى عن صفة اليد؟ يقول: لأننا لو أثبتنا اليد شبهناه بخلقه.

إذًا: هو تصور يد المخلوق وأضافها لله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وظن أنه لو أثبت هذه اليد لصار الله عَزَّ وَجلَّ مشابهًا للخلق، فقال: هذا يلزم منه أن نعطل الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى عن هذه الصفة وغيرها من الصفات؛ ولذا هؤلاء أساءوا الظن بربهم تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وتوهموا النقص فيه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

قال: وتوهُّمهم أَنَّ قِيَامَ هَذِهِ الصِّفَاتِ بِهِ لَا يُعْقَل إِلَّا عَلَى النَّحْوِ الْمَوْجُودِ فِي قِيَامِهَا بِالْمَخْلُوقِ.

قال: وَلَقَدْ أَحْسَنَ الْقَائِلِ حَيْثُ يَقُولُ:

وَقُصَارَى أَمْرِ مَنْ أَوَّلَ أَنْ ظَنُّوا الظُّنُونَا ... فَيَقُولُونَ عَلَى الرَّحْمَنِ مَا لَا يَعْلَمُونَا

يعني: غاية جهد هؤلاء أنهم ظنوا الظنون وأساءوا الظن بربهم تَبَارَكَ وَتَعَالَى، فقالوا على الله عَزَّ وَجلَّ بغير علم.

قال: وَإِنَّمَا سُمِّي أَهْلُ التَّعْطِيلِ جَهْمِيَّةً نِسْبَةً إِلَى الْجَهْمِ بْنِ صَفْوَانَ التِّرْمِذِيِّ.

والترمذي: نسبة إلى ترمذ, من بلاد ما وراء النهر.

رَأْسِ الْفِتْنَةِ.

وليس من أقرباء الإمام أبي عيسى الترمذي صاحب الجامع، وإنما هذه نسبة إلى البلد وليست إلى العائلة.

رَأْسِ الْفِتْنَةِ وَالضَّلَالِ.

قال: وَقَدْ تُوُسِّع فِي هَذَا اللَّفْظِ حَتَّى أَصْبَحَ يُطلق عَلَى كُلِّ مَنْ نَفَى شَيْئًا مِنَ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ.

فكل من نفى شيئًا من أسماء الله وصفاته فهو جهمي.

فَهُوَ شَامِلٌ لِجَمِيعِ فِرَقِ النُّفاة؛ مِنْ فَلاَسِفَةٍ، وَمُعْتَزِلَةٍ، وَأَشْعَرِيَّةٍ، وَقَرَامِطَةٍ بَاطِنِيَّةٍ.

كل هؤلاء يدخلون في الجهمية كما يقول الهراس رحمة الله عليه.

قال: فَأَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ وَسَطٌ بَيْنَ هَؤُلَاءِ الْجَهْمِيَّةِ النُّفَاةِ وَبَيْنَ أَهْلِ التَّمْثِيلِ المشبِّهة الَّذِينَ شَبَّهُوا اللَّهَ بِخَلْقِهِ، ومثَّلوه بِعِبَادِهِ.

وَقَدْ رَدَّ اللَّهُ عَلَى الطَّائِفَتَيْنِ بِقَوْلِهِ: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ}، فَهَذَا يردُّ عَلَى المشبِّهة. وَقَوْلُهُ: {وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} يردُّ عَلَى المعطِّلة.

فمن أراد تحقيق المذهب الحق في هذا الباب العظيم، فعليه أن يقرأ الآية كاملة معتقدا ما تضمنته من النفي المجمل والإثبات المفصل من غير تكييف ولا تمثيل ولا تحريف أو تعطيل.

قال: وَأَمَّا أَهْلُ الْحَقِّ؛ فَهُمُ الَّذِينَ يُثْبِتُونَ الصِّفَاتِ لِلَّهِ تَعَالَى إِثْبَاتًا بِلاَ تَمْثِيلٍ، وينزِّهُونه عَنْ مُشَابَهَةِ الْمَخْلُوقَاتِ تَنْزِيهًا بِلاَ تَعْطِيلٍ، فَجَمَعُوا أَحْسَنَ مَا عِنْدَ الْفَرِيقَيْنِ؛ أَعْنِي: التَّنْزِيهَ وَالْإِثْبَاتَ، وتركوا ما أخطؤوا وأساؤوا فِيهِ مِنَ التَّعْطِيلِ وَالتَّشْبِيهِ.

ستجد أن هذا هو الحال في سائر هذه الأبواب الخمسة؛ أنه ما من فريق من هذه الفرق الضالة إلا وأخذ بعض النصوص وترك بعضها؛ ولذا تجد المعطلة دائمًا يستدلون بهذه الآية ولا يكملونها، لماذا تعطلون الله عن صفاته؟

يقولون: لأن الله قال: {لَيسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ}، وقطعا ليست هذه عمدة التعطيل عندهم ، لكن إذا استدلوا يستدلون بشطر الآية الأول: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ}.

ماذا عن {وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}؟ فتجد أهل التعطيل يستدلون ببعض النصوص.

ثلاث آيات ترد دائمًا في كتبهم إذا تكلموا في هذا الباب هذه الآية: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ}، {وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ} [الإخلاص: 4]، {لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ} [الأنعام: 103].

وهذه الآيات الثلاثة هي التي ذكرها الإمام أحمد رَحِمَهُ اللهُ في رده على الجهمية والزنادقة، في بيان أن عمدة الجهم في التعطيل هذه الآيات الثلاثة.

سائر الأبواب ستجد هؤلاء أخذوا بعض النصوص وتركوا بعضها.

قال: وقَوْلُهُ: ((وَهُمْ وَسَطٌ)).

قال: قَالَ الشَّيْخُ العلاَّمة مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ مَانِعٍ فِي تَعْلِيقِهِ عَلَى هَذِهِ الْعِبَارَةِ مَا نَصُّهُ: ((اعْلَمْ أَنَّ النَّاسَ اخْتَلَفُوا فِي أَفْعَالِ الْعِبَادِ؛ هَلْ هِيَ مقدورةٌ لِلرَّبِّ أَمْ لَا؟

قال: فَقَالَ جهمٌ وَأَتْبَاعُهُ -وَهُمُ الْجَبْرِيَّةُ-: إِنَّ ذَلِكَ الْفِعْلَ مقدورٌ للرَّب لَا لِلْعَبْدِ.

وَكَذَلِكَ قَالَ الْأَشْعَرِيُّ وَأَتْبَاعُهُ: إِنَّ الْمُؤَثِّرَ فِي الْمَقْدُورِ قُدْرَةُ الرَّبِّ دُونَ قُدْرَةِ الْعَبْدِ.

وَقَالَ جُمْهُورُ الْمُعْتَزِلَةِ -وَهُمُ الْقَدَرِيَّةُ؛ أَيْ: نُفَاةُ الْقَدَرِ-: إِنَّ الرَّبَّ لَا يَقْدِرُ عَلَى عَيْنِ مَقْدُورِ الْعَبْدِ. وَاخْتَلَفُوا: هَلْ يَقْدِرُ عَلَى مِثْلِ مَقْدُورِهِ؟ فَأَثْبَتَهُ الْبَصْرِيُّونَ؛ كَأَبِي عَلِيٍّ، وَأَبِي هَاشِمٍ، ونَفَاهُ الكعبيُّ وَأَتْبَاعُهُ البغداديُّون.

فكان أهل السنة والجماعة كما قلنا وسطًا في هذا الباب، أعني باب الأسماء والصفات.

قال: وَهُمْ وَسَطٌ فِي بَابِ أَفْعَالِ اللهِ بَيْنَ الْجَبْرِيَّةِ وَالْقَدَرِيَّةِ.

هذا المبحث سيأتي مفصلاً إن شاء الله في باب القدر، المصنف رَحِمَهُ اللهُ أطال النفس في هذا الباب باب القدر، سيأتي تفصيله بعد ذلك.

لكن المراد هاهنا إجمالًا: بيان وسطية أهل السنة والجماعة في أفعال الله، أي: هل الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى خالق فعل العبد أم لا؟ هل للعبد إرادة ومشيئة وكسب وتأثير في فعله أم لا؟ هذا هو المراد هاهنا.

فأهل السنة والجماعة وسط في هذا الباب بين فريقين: بين الجبرية والقدرية.

وكل من الفريقين قسمان: فالجبرية منهم جبرية غُلاة ومتوسطة، نقول ذلك إجمالًا ويأتي التفصيل بعد ذلك.

الجبرية الغُلاة وهم الجهمية أتباع الجهم بن صفوان، وغُلاة الصوفية الذين يقولون بالحلول والاتحاد.

فعند هؤلاء أن العبد كالريشة في مهب الريح لا اختيار له البتة، ذكرنا هذا منذ قليل وذكرنا البيت المشهور في ذلك، فهؤلاء هم غُلاة الجبرية الجهمية.

وأما الجبرية المتوسطة وهم الأشعرية؛ فالإنسان عندهم مختار في الظاهر، من الذي يأكل؟ الإنسان، ماذا يترتب على أكله؟ الشبع. من الذي يشرب؟ الإنسان،

ما الذي يترتب على شربه؟ الري، ما الذي يقطع؟ السكين. ماذا يترتب على ذلك؟ القطع، ما الذي يحرق؟ النار، أثر ذلك يظهر أم لا يظهر؟ يظهر.

فهؤلاء يقولون: الإنسان فاعل مختار، وهذا باعتبار الظاهر، وأما الحقيقة فلا، لا تأثير لفعل الإنسان في الشيء، الإنسان لا تأثير له البتة، فالفعل يُضاف للعبد مجازًا، والفاعل على الحقيقة هو الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

ولذا ينفون الأسباب ويقولون: إن الأسباب لا تؤثر لا بنفسها ولا بغير نفسها، يقولون: الأسباب لا تؤثر لا بنفسها ولا بجعل الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى الأسباب مؤثرة، وإنما المؤثر الأوحد هو الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، ولذا ينفون كل باء للسببية وردت في كتاب الله، ويجعلونها بمعنى: عند.

فأنت إذا قطعت بالسكين كان القطع عند السكين لا بالسكين، وإذا شربت كان الري عند شرب الماء لا بالماء، الماء لا يروي وإنما حصل الري عند الشرب، وحصل الإحراق عند وجود النار.

لماذا ذهبوا لهذا المذهب؟ لأن عندهم أصل الأصول، وأخص صفات الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى القدرة على الاختراع، ولذلك يفسرون (لا إله إلا الله)، يعني: لا قادر على الاختراع إلا الله.

فلو أثبت تأثيرًا للماء أو للسكين أثبت قادرًا آخر ومؤثرًا آخر مع الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، أثبت خالقًا فأشركت، وهذا ضلال مبين يخالف العقل والنقل كما سيأتي ذلك مفصلاً إن شاء الله في موضعه.

وهذا الذي سماه الحسن الأشعري بالكسب، أي: أن فعل العبد يُنسب للعبد كسبًا، وليس من فعله على الحقيقة.

قلنا: الجبرية غُلاة ومتوسطة، والمتوسطة هم الأشعرية.

ماذا عن القدرية؟ لأنه قال: فِي بَابِ أَفْعَالِ اللهِ بَيْنَ الْجَبْرِيَّةِ وَالْقَدَرِيَّةِ.

القدرية كذلك قسمان: وهم الذين ينفون قدر الله، وهؤلاء قسمان: غُلاة ومتوسطة.

الغُلاة ينفون كل مراتب القدر، فينفون علم الله السابق ويقولون: إن الله لا يعلم بالأشياء إلا بعد وقوعها.

وهذا يعني: أن الله عَزَّ وَجلَّ لا يعلم بهذه المحاضرة إلا بعد جلوسنا، قبل ذلك لم يكن يعلم سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، وما كتب ذلك في اللوح المحفوظ، ولا قدره ولا قضاه ولا فعل شيئا من ذلك.

وهؤلاء هم الذين كفَّرهم السلف الصالح، وهذه الفرقة الغالية في الضلال انقرضت، وهم الذين جاء فيهم أول حديث في صحيح مسلم الذين يقولون: (إِنَّ الْأَمْرَ أُنُفٌ)، أي: مستأنف، لا يبدأ الأمر إلا بعد أن يقع، يعلم الله عَزَّ وَجلَّ به بعد أن يقع لا قبل ذلك.

قال فيهم عبد الله بن عمر: "إذا لقيت هؤلاء فأعلمهم أني بريء منهم وهم برئاء مني"، فهؤلاء الغلاة.

والطائفة الأخرى وهم القدرية المتوسطة وهم المعتزلة، وقولنا: متوسطة، ليس معنى ذلك أنهم على الحق، بل هم أهل ضلال، لكن لماذا هم متوسطة؟ لأنهم أثبتوا علم الله السابق وأثبتوا الكتابة، لكنهم يقولون: إن العبد هو الذي يخلق فعل نفسه وليس الله عَزَّ وَجلَّ هو الذي يخلق فعله.

فأهل السنة والجماعة وسط بين هؤلاء وأولئك.

قال الشيخ الهراس رَحِمَهُ اللهُ: وَقَالَ أَهْلُ الْحَقِّ: أَفْعَالُ الْعِبَادِ بِهَا صَارُوا مُطِيعِينَ وَعُصَاةً.

لأن الذي أطاع هو العبد هذا فعل العبد، والذي عصا هو العبد.

وَهِيَ مَخْلُوقَةٌ لِلَّهِ تَعَالَى.

الله عَزَّ وَجلَّ قال: {وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ} [الصافات: 96].

قال: وَالْحَقُّ سُبْحَانَهُ منفردٌ بِخَلْقِ الْمَخْلُوقَاتِ، لَا خَالِقَ لَهَا سِوَاهُ.

فَالْجَبْرِيَّةُ غلَوْا فِي إِثْبَاتِ الْقَدَرِ، فنفَوْا فِعْلَ الْعَبْدِ أَصْلاً.

وَالْمُعْتَزِلَةُ نُفَاةُ الْقَدَرِ جَعَلُوا الْعِبَادَ خَالِقِينَ مَعَ اللَّهِ، وَلِهَذَا كَانُوا مَجُوسَ هَذِهِ الْأُمَّةِ.

قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "الْقَدَرِيَّةُ مَجُوسُ هَذِهِ الْأُمَّةِ"؛ لأن المجوس يثبتون خالقين، يثبتون إلهين: إلهًا للنور وإلهًا للظلام، إلهًا للخير وإلهًا للشر.

فهؤلاء كذلك أثبتوا إلهين؛ لأنهم قالوا: إن الله عَزَّ وَجلَّ خالق ما في هذا الكون من شجر وحجر وسماء وأرض، وأما العبد؛ فإنه هو الذي يخلق فعل نفسه.

فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "الْقَدَرِيَّةُ مَجُوسُ هَذِهِ الْأُمَّةِ"، وصححه الألباني رَحِمَهُ اللهُ، وهذا من أعلام نبوته صلى الله عليه وسلم؛ لأنه أخبر بحال هؤلاء واعتقادهم قبل وقوعه منهم صلى الله عليه وسلم.

قال: وَلِهَذَا كَانُوا مَجُوسَ هَذِهِ الْأُمَّةِ.

وَهَدَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَهْلَ السُّنَّةِ لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ، وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صراطٍ مستقيمٍ، فَقَالُوا: الْعِبَادُ فَاعِلُونَ، وَاللَّهُ خَالِقُهُمْ وَخَالِقُ أَفْعَالِهِمْ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: {وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ} [الصافات: 96].

فالعبد عند إرادة وعنده قدرة، وأهل العلم يقولون: إذا توفرت الإرادة الجازمة مع القدرة التامة نتج فعل العبد.

الأخ الكريم ملأ كوب الماء، وأنا عندي إرادة جازمة أن أشرب، وعندي قدرة تامة على رفع الكوب والشرب، ما الذي نتج عن ذلك؟ الفعل الذي هو الشرب، من الذي شرب؟ العبد. من الذي خلق هذه الأفعال كلها؟ الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، وهذا معنى قول الله تعالى: {وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ}.

وكل ذلك يدخل تحت مشيئة الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، فالله يخلق الإرادة والقدرة، والعبد هو القائم بالفعل المسبَّب، أي: الناتج عن الإرادة والقدرة، فخالق السبب خالق للمسبب.

ما سبب الشرب؟ وجود إرادة ومشيئة وقدرة، ومن الذي خلق هذه؟ الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، فخالق السبب هو خالق المسبب سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

قال: وَإِنَّمَا نَقَلْنَا هَذِهِ الْعِبَارَةَ بِنَصِّهَا؛ لِأَنَّهَا تلخيصٌ جيِّدٌ لِمَذَاهِبِ المتكلِّمين فِي الْقَدَرِ وَأَفْعَالِ الْعِبَادِ.

ثم ذكر المصنف بعد ذلك الأصل الثالث الذي خالفت فيه الفرق أهل السنة والجماعة.

وهذا الأصل له صلة بالأصل الذي بعده وهو أصل الأسماء، ولذا نُرجئه إن شاء الله للدرس القادم. أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم، وجزاكم الله خيرًا.

الدرس الرابع والثلاثون

إن الحمد لله, نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله تعالى من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله, صلى الله عليه, وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد:

فنواصل حديثنا عن عقيدة أهل السنة والجماعة التي سطرها شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ في عقيدته الواسطية.

وكنا قد توقفنا في الدرس الماضي عند الكلام عن وسطية أهل السنة في أمور خمسة, هذه الأمور الخمسة كان أهل السنة وسطًا فيها بين الفرق كما أن الإسلام وسط بين الملل, وهي: الصفات, وأفعال الله, وباب الوعد والوعيد, وأسماء الإيمان والدين, وأصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ومضى الكلام عن الأصلين الأولين: الصفات, وأفعال الله تعالى, واليوم إن شاء الله نتكلم عن قول المصنف رَحِمَهُ اللهُ عن الأصل الثالث.

قال: وَفِي بَابِ وَعِيدِ اللهِ بَيْنَ الْمُرْجِئَةِ والْوَعِيدِيَّةِ مِنَ الْقَدَرِيَّةِ وَغيْرِهِمْ.

الوعيد عكس الوعد, وهو: ما أوعد الله عَزَّ وَجلَّ به أصحاب الذنوب والمعاصي.

ففي هذا الباب أهل السنة والجماعة وسط بين أهل الإرجاء وأهل الوعيد, قال: بَيْنَ الْمُرْجِئَةِ والْوَعِيدِيَّةِ.

أما المرجئة, فالمرجئ: اسم فاعل من الفعل أرجأ, بمعنى: أخَّر, فالإرجاء في لغة العرب بمعنى: التأخير.

وسمو بذلك: لتأخيرهم العمل عن مسمى الإيمان, فلا يُدخلون العمل في حد الإيمان, إذ ليس الإيمان عندهم قولًا وعملاً, وإنما هو معرفة؛ وهذا قول غلاة المرجئة الجهمية, أو تصديق أو نطق بالكلمة.

وقد يجمع بعضهم بين التصديق والنطق بالكلمة, لكنهم اتفقوا على إخراج العمل من مسمى الإيمان.

فسموا بذلك: لتأخيرهم العمل عن مسمى الإيمان؛ فلا يدخل العمل فيه, وإنما الإيمان المعرفة أو التصديق, وبعضهم يضيف إلى ذلك النطق بالكلمة.

ومن ثَمَّ فلو سرق وزنا وقتل وارتكب الكبائر فهذا لا يقدح في إيمانه وفي اسمه المؤمن, وإن كان سيأتي خلاف في حكمه في الآخرة, وهذا الخلاف واقع بين مرجئة الفقهاء وغيرهم من المرجئة, وسيأتي الكلام عنه.

يقولون: إنه لا يضر مع الإيمان ذنب, طالما أنك عرفت أو صدقت ونطقت بالكلمة فلا يضر مع إيمانك ذنب, فإيمانك كإيمان جبريل وميكائيل وأبي بكر وعمر, كما لا ينفع مع الكفر طاعة.

هؤلاء هم المرجئة, وهم على درجات:

منهم: غلاة؛ وهم الجهمية الذين يقولون: إن الإيمان مجرد المعرفة, أن تعرف الله, ومن ثم يدخل في هذا الحد: إبليس, وفرعون, وهامان, وقارون ، لأن الجميع يعرفون الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى, وهذا ضلال وغلو شديد.

ومنهم: المتوسطة؛ وهم الأشاعرة, وهؤلاء يقولون: إن الإيمان هو تصديق القلب فقط والنطق ليس شرطًا في صحة الإيمان, يكفي أن تصدق بقلبك, والأعمال من باب أولى لا تدخل في مسمى الإيمان.

ومنهم: مرجئة الفقهاء؛ وهؤلاء سيأتي الكلام عنهم, ولماذا نسب الإرجاء إلى هؤلاء الفقهاء.

وأما الوعيدية؛ فقلنا: الوعيد: هو ما قابل الوعد.

فالوعيدية: هم الذين قالوا بخلود من مات مصرًا على الكبيرة دون الشرك في الآخرة.

فلو أن المؤمن وقع في كبيرة ومات على ذلك دون أن يتوب؛ فهؤلاء يقولون بإنفاذ الوعيد في حقه, أي أنه: خالد مخلد في النار لا يخرج منها أبدًا, ليس في مشيئة الله.

وهؤلاء قسمان: الخوارج والمعتزلة.

فأهل السنة والجماعة وسط بين هذين الفريقين:

بين الفريق الذي يقول: تكفي الكلمة أو تكفي المعرفة أو التصديق, ولا يضر مع الإيمان ذنب, ويرجئون العمل عن مسمى الإيمان, وهم المرجئة.

والفريق الآخر الذي هو: القدرية, والخوارج الذين يكفرون بالكبيرة وظاهر قولهم كقول أهل السنة والجماعة, يقولون: إن الإيمان قول وعمل.

لكن ما الفرق بين قول الوعيدية وقول أهل السنة والجماعة؟

أن الإيمان عند أهل السنة والجماعة يتبعض ويتجزأ, منه أصول وفروع, ومن ثم هناك أمور لو تركها المؤمن لا يكفُر, تقدح في كمال الإيمان الواجب، لكن لا ترجع على أصله بالبطلان والنقض، وهناك أمور لو تركها أو جحدها كَفَر.

وأما هؤلاء؛ فالإيمان عندهم كلٌّ لا يتجزأ, إذا ذهب بعضه ذهب كله؛ ولهذا يقولون: إن من ارتكب كبيرة صار كافرًا حلال الدم، أو في منزلة بين المنزلتين كما تقول المعتزلة.

وأهل السنة والجماعة يقولون: إن من ارتكب كبيرة فهو فاسق مِلِّيّ ليس كامل الإيمان ويستحق الذم, لكنه ليس بكافر, كما سيأتي في الأدلة في أبوابها.

يقول الشيخ الهراس رَحِمَهُ اللهُ: قَوْلُهُ: ((وَفِي بَابِ وَعِيدِ اللَّهِ ...)) إلخ؛ يَعْنِي: أَنَّ أَهْلَ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ وَسَطٌ فِي بَابِ الْوَعِيدِ بَيْنَ المفرِّطين مِنَ الْمُرْجِئَةِ الَّذِينَ قَالُوا: لَا يضرُّ مَعَ الْإِيمَانِ ذنبٌ، كَمَا لَا تَنْفَعُ مَعَ الْكُفْرِ طَاعَةٌ, وَزَعَمُوا أَنَّ الْإِيمَانَ مجرَّد التَّصْدِيقِ بِالْقَلْبِ، وَإِنْ لَمْ يَنْطِقْ بِهِ، وسُمُّوا بِذَلِكَ نِسْبَةً إِلَى الْإِرْجَاءِ؛ أَيِ التَّأْخِيرِ؛ لِأَنَّهُمْ أَخَّرُوا الْأَعْمَالَ عَنِ الْإِيمَانِ.

وَلَا شكَّ أَنَّ الْإِرْجَاءَ بِهَذَا الْمَعْنَى كفرٌ يخرجُ صاحِبَهُ عَنِ الملَّة؛ فإنه لابد فِي الْإِيمَانِ مِنْ قولٍ بِاللِّسَانِ، واعتقادٍ بالجَنَان، وعملٍ بِالْأَرْكَانِ، فَإِذَا اختلَّ واحدٌ مِنْهَا لَمْ يَكُنِ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا.

أي: لابد من اجتماع هذه الأمور الثلاثة, لابد أن يعتقد بقلبه, وأن ينطق بلسانه, وأن يعمل بجوارحه, هذه هي أركان الإيمان, فإن اختل واحد منها لم يكن الرجل مؤمنًا.

فلو نطق بلسانه فقط دون اعتقاد قلبه كان منافقًا, ولو اعتقد بقلبه فقط دون النطق والعمل صار مُدَّعيًا مرجئيا, لماذا؟

لأن اعتقاد القلب لابد أن يصدقه النطق باللسان والعمل بالجوارح, فهذا دليل على انتفاء العمل من قلبه, وعلى أن تصديقه غير صحيح.

وكذلك إذا عمِل فقط دون أن ينطق ودون أن يعتقد؛ فهذا كذلك فيه شبه من المنافقين؛ لأنهم كانوا يصلون مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وكانوا يأتون بالفرائض, لكن ما كانوا يعتقدون الإيمان الصحيح؛ ولذا قال: فَإِذَا اختلَّ واحدٌ مِنْهَا لَمْ يَكُنِ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا.

إذًا: لابد أن يجمع بين هذه الأمور الثلاثة.

قال: وَأَمَّا الْإِرْجَاءُ الَّذِي نُسِبَ إِلَى بَعْضِ الْأَئِمَّةِ مِنْ أَهْلِ الْكُوفَةِ؛ كَأَبِي حَنِيفَةَ وَغَيْرِهِ، وَهُوَ قَوْلُهُمْ: إِنَّ الْأَعْمَالَ لَيْسَتْ مِنَ الْإِيمَانِ، وَلَكِنَّهُمْ مَعَ ذَلِكَ يُوَافِقُونَ أَهْلَ السُّنَّةِ عَلَى أَنَّ اللَّهَ يعذِّب مَن يعذِّب مِنْ أَهْلِ الْكَبَائِرِ بِالنَّارِ، ثُمَّ يُخْرِجُهُمْ مِنْهَا بِالشَّفَاعَةِ وَغَيْرِهَا، وَعَلَى أَنَّهُ لَا بُدَّ فِي الْإِيمَانِ مِنْ نطقٍ بِاللِّسَانِ، وَعَلَى أَنَّ الْأَعْمَالَ الْمَفْرُوضَةَ وَاجِبَةٌ يستحقُّ تَارِكُهَا الذمَّ وَالْعِقَابَ؛ فَهَذَا النَّوْعُ مِنَ الْإِرْجَاءِ لَيْسَ كُفْرًا، وَإِنْ كَانَ قَوْلًا بَاطِلاً مبتَدعًا؛ لِإِخْرَاجِهِمُ الْأَعْمَالَ عَنِ الْإِيمَانِ.

إذًا: هذا النوع من الإرجاء يسمى بإرجاء الفقهاء.

لماذا نُسب إلى الفقهاء؟ لأن الذين قالوا به من الفقهاء, ومن هؤلاء أبو حنيفة رَحِمَهُ اللَّهُ, وهو أحد الأئمة الأربعة, وقبله شيخه حماد بن أبي سليمان, وهو أول من قال به.

فهؤلاء قالوا بهذا النوع من الإرجاء.

لماذا سموا بالمرجئة؟ لأنهم وقعوا في شيء من الإرجاء.

ما هذا الشيء؟ هم يقولون: لابد من اعتقاد القلب والتصديق, ولابد من نطق اللسان, لكنهم أخروا العمل عن مسمى الإيمان.

وهذه البدعة –أعني بدعة إرجاء الفقهاء- ظهرت كردة فعل لبدعة الخوارج والمعتزلة؛ فإن الخوارج والمعتزلة لما كفروا الصحابة لما وقع بينهم ما وقع من فتنة وقتال وغير ذلك قَابَل هؤلاء المرجئة البدعة ببدعة؛ كما ظهرت الأشعرية لتقابل المعتزلة ببدعة أخرى؛ فإن المعتزلة نفوا صفات الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

فخرجت الأشعرية فقابلتهم ببدعة أخرى, وهي أنهم نفوا بعض الصفات دون بعضها, وإن كانت أصولهم واحدة.

فظهرت هذه البدعة –أعني بدعة الإرجاء- في مقابل مذهب الخوارج والمعتزلة.

قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: إِنَّمَا أَحْدَثَهُ –يعني: هذا النوع من الإرجاء- قَوْمٌ قَصْدُهُمْ جَعْلُ أَهْلِ الْقِبْلَةِ كُلِّهِمْ مُؤْمِنِينَ لَيْسُوا كُفَّارًا, قَابَلُوا الْخَوَارِجَ وَالْمُعْتَزِلَةَ فَصَارُوا فِي طَرَفٍ آخَرَ.

لماذا؟ قلنا: لأن المعتزلة قالوا في هؤلاء الذين اقتتلوا ووقعوا في كبيرة: هم في منزلة بيم المنزلتين, يعني: لا هم بالكفار ولا بالمؤمنين.

وقالت الخوارج: بل هم كفار.

فاختلفوا في الأسماء واتفقوا في الأحكام –كما سيأتي-؛ لأن المعتزلة والخوارج اتفقوا على أن هؤلاء إن ماتوا على ذلك فهم خالدون مخلدون في النار.

فلما ظهر هؤلاء قابلهم –كما قلنا- مرجئة الفقهاء, لكن هذا النوع من الإرجاء تطور وغلا من نشأ عليه وتشبث به بعد ذلك إلى أن وصل إلى أن يقول بعضهم: إن الإيمان هو مجرد المعرفة, وهذا أكثر أنواع الإرجاء غلوًا.

وتفرع الإرجاء بعد ذلك إلى فروع كثيرة, وصار بابًا واسعًا للانفكاك عن احكام الشريعة.

وهذا تجده على لسان بعض الناس الآن, تجد بعض الناس لا يصلي ولا يصوم ولا يزكي وقد لا يفعل أي شيء من أفعال الخير, ومع ذلك يقول: أهم شيء الذي في القلب, طالما أن قلبك أبيض فلا تهتم!!

وبعض الناس يتكلم عن الأخلاق ومعاملة الجوار وغير ذلك ويقول: هذا اهم من العبادات, أهم من الصلاة والصوم والعبادة والزكاة والحج وغير ذلك, وهذا خطأ فادح؛ لأنهم جعلوا الأصول والغايات وسيلة لغيرها.

حتى إن بعضهم يقول: إن صلاتك وزكاتك وحجك وصيامك ما لم تؤدي إلى مكارم الأخلاق فليست بشيء وليست نافعًة لك, وهذا كله من الضلال المبين, وهذا كله بسبب الإرجاء.

هذا الإرجاء –كما قلنا– فتح الباب للتفلت من أحكام الشريعة؛ ولذا تجد الآن الفساق من الفنانين والمغنيين وغيرهم يفعلون ما يفعلون وإذا تصدق الواحد منهم أو عطف على مسكين أو غير ذلك ظن أنه وصل إلى كمال الإيمان, هذا كله بسبب الإرجاء وبسبب غياب هذه الحقائق عن هذه الأمة؛ ولذا اشتد نكير السلف على هؤلاء, لم يكفروهم, لكن بينوا أن قولهم هذا بدعة.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: وَكَانَ أَكْثَرُهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكُوفَةِ – يعني: مرجئة الفقهاء–, فَقَالُوا: إنَّ الْأَعْمَالَ لَيْسَتْ مِنْ الْإِيمَانِ وَكَانَتْ هَذِهِ الْبِدْعَةُ أَخَفَّ الْبِدَعِ فَإِنَّ كَثِيرًا مِنْ النِّزَاعِ فِيهَا نِزَاعٌ فِي الِاسْمِ وَاللَّفْظِ دُونَ الْحُكْمِ.

وسنذكر بعد قليل الأمور التي وافق فيها مرجئة الفقهاء أهل السنة والجماعة.

ولذا قال بعض أهل العلم: إن النزاع بينهم وبين أهل السنة والجماعة نزاع لفظي.

وسنذكر الأمور التي خالفوا فيها أهل السنة والجماعة؛ ولذا قال بعض أهل العلم: ليس النزاع بينهم وبين أهل السنة نزاعًا لفظيًا, وإنما هو نزاع حقيقي.

فيقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: وَكَانَتْ هَذِهِ الْبِدْعَةُ أَخَفَّ الْبِدَعِ, فَإِنَّ كَثِيرًا مِنْ النِّزَاعِ فِيهَا نِزَاعٌ فِي الِاسْمِ وَاللَّفْظِ دُونَ الْحُكْمِ؛ إذْ كَانَ الْفُقَهَاءُ الَّذِينَ يُضَافُ إلَيْهِمْ هَذَا الْقَوْلُ, مِثْلَ حَمَّادِ بْنِ أَبِي سُلَيْمَانَ وَأَبِي حَنِيفَةَ وَغَيْرِهِمَا, هُمْ مَعَ سَائِرِ أَهْلِ السُّنَّةِ مُتَّفِقِينَ عَلَى أَنَّ اللَّهَ يُعَذِّبُ مَنْ يُعَذِّبُهُ مِنْ أَهْلِ الْكَبَائِرِ بِالنَّارِ, ثُمَّ يُخْرِجُهُمْ بِالشَّفَاعَةِ كَمَا جَاءَتْ الْأَحَادِيثُ الصَّحِيحَةُ بِذَلِكَ, وَعَلَى أَنَّهُ لَا بُدَّ فِي الْإِيمَانِ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِلِسَانِهِ.

فقالوا: الاعتقاد والنطق.

وَعَلَى أَنَّ الْأَعْمَالَ الْمَفْرُوضَةَ وَاجِبَةٌ وَتَارِكُهَا مُسْتَحِقٌّ لِلذَّمِّ وَالْعِقَابِ -هذا باعتبار الآخرة-, فَكَانَ فِي الْأَعْمَالِ هَلْ هِيَ مِنْ الْإِيمَانِ وَفِي الِاسْتِثْنَاءِ وَنَحْوِ ذَلِكَ عَامَّتُهُ نِزَاعٌ لَفْظِيٌّ؛ فَإِنَّ الْإِيمَانَ إذَا أُطْلِقَ دَخَلَتْ فِيهِ الْأَعْمَالُ.

ثم قال رَحِمَهُ اللهُ: كانوا لا يستثنون في الإيمان, وكانوا يقولون: الإيمان هو الإيمان الموجود فينا, ونحن نقطع بأنَّا مصدقون, ويرون الاستثناء شكًّا.

أي كانوا لا يستثنون في الإيمان ويحرمون ذلك, وهذا مما خالفوا فيه أهل السنة والجماعة.



هل يجوز لك أن تقول: أنا مؤمن إن شاء الله أم لا يجوز؟ هؤلاء قالوا: لا يجوز لك أن تقول أنا مؤمن إن شاء الله, لماذا؟

لأنك لو قلت ذلك؛ فهذا معناه أنك شاك في إيمانك, الإيمان عندهم هو الاعتقاد والنطق بالكلمة لأنهم يُخرجون العمل عن مسمى الإيمان, وقد نطقت بالكلمة واعتقدت, فأنت مؤمن كامل الإيمان, فلماذا تستثني؟.

وأما أهل السنة والجماعة فيجيزون ويمنعون بحسب المراد من هذا الأمر, فإذا نظر الواحد منا إلى اعماله وما فيها من تقصير وما قد يتلبس به من بعض المعاصي فهو يستثني؛ لأنه ليس كامل الإيمان, وقد يكون مفرطًا.

وهناك موضع آخر يمنعون الاستثناء في الإيمان.

يعني: هل أنت مؤمن بالله وملائكته ورسله واليوم والقدر؟ أجل, لا أشك في ذلك ولا أستثني, لكن هؤلاء منعوا الاستثناء في الإيمان.

ومعنى منع الاستثناء: أن يقول المرء أنا مؤمن إن شاء الله.

وقال شيخ الإسلام كذلك: ثُمَّ إنَّ "السَّلَفَ وَالْأَئِمَّةَ اشْتَدَّ إنْكَارُهُمْ عَلَى هَؤُلَاءِ وَتَبْدِيعُهُمْ وَتَغْلِيظُ الْقَوْلِ فِيهِمْ؛ وَلَمْ أَعْلَمِ أَحَدًا مِنْهُمْ نَطَقَ بِتَكْفِيرِهِمْ."

السلف الصالح لم يقولوا هؤلاء كفار, ولكن بدَّعوهم, وهذا -كما قلنا- لأنهم وافقوا أهل السنة والجماعة في أمور وخالفوهم في أمور.

فلو أردنا أن نذكر الأمور التي اتفق فيها مرجئة الفقهاء مع أهل السنة والجماعة، نقول: اتفقوا معهم في إدخالهم اعتقاد القلب في الإيمان مع القول بوجوب نطق اللسان خلافًا للمرجئة, فقالوا: الاعتقاد والنطق بالقول.

وأما المرجئة كالأشعرية قالوا: يكفي التصديق, فلو صدقت دون ان تنطق بالكلمة فلا ضير عليك.

وكذلك اتفقوا مع أهل السنة والجماعة في حكم أهل الكبائر في الآخرة, ليس الكلام هاهنا عن الدنيا.

فاتفقوا مع أهل السنة والجماعة في حكم أهل الكبائر في الآخرة, وأن منهم من يدخل النار؛ ولذا يقولون: باستحقاق فاعل المحرمات للذم والعقوبة في الآخرة.

ولذا قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ كما في المنهاج: فهؤلاء لا ينازعون أهل السنة والحديث في حكمه في الآخرة, وإنما ينازعونهم في الاسم -يعني: في اسمه في الدنيا-, وينازعون أيضًا فيمن قال ولم يفعل.

يعني: عندهم الذي يقول الكلمة مع اعتقاد القلب هذا مؤمن عندهم, ولم يعمل عملاً قط من أعمال الجوارح, هذا عندهم مؤمن.

وأما النزاع الحقيقي ونقاط الخلاف التي فارقوا فيها أهل السنة والجماعة فيأتي في صدر ذلك اسم من ارتكب الكبيرة -ما اسمه في الدنيا؟- فهو عندهم مؤمن تام الإيمان.

قلنا: مع قولهم بأنه إن وافى الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى على ذلك في الآخرة؛ فإما أن يعفو الله عَزَّ وَجَلَّ عنه وإما أن يعذبه, وأما في الدنيا فهو تام الإيمان.

وكذلك في حكم من قال الكلمة ولم يعمل, هو عندهم كذلك مؤمن ينجو من النار والخلود حالًا أو مآلًا؛ لأنه جاء بالاعتقاد والكلمة.

فكذلك الذي صدَّق ونطق ومات على ذلك دون ان يعمل ما حاله في الآخرة؟ يقولون: هذا ينجو, إما أن ينجو حالًا, يعني: في الحال يعفو الله عَزَّ وَجلَّ عنه, وإما أن ينجو مآلًا بعد ذلك, يعني: يُعذب بقدر ذنبه ثم يخرج من النار.

ولا يقولون بالاستثناء في الإيمان؛ لأنه شك -كما قلنا-, ولا يقولون بزيادة الإيمان ولا نقصانه.

ولذا لما ذكر الطحاوي رَحِمَهُ اللهُ عقيدته التي جاء في صدرها أن هذه هي عقيدة أبي حنيفة وتلميذيّه, قال في حد الإيمان: وَأَهْلُهُ فِي أَصْلِهِ سَوَاءٌ.

أهل الإيمان في أصله سواء, لماذا هم سواء؟ لأنه عبارة عن التصديق والنطق بالكلمة, والناس يصدقون وينطقون بالكلمة, وهذا انحراف بينه أهل السنة والجماعة في شرحهم على هذه العقيدة.

فليس تصديق الأنبياء والمرسلين كتصديق أبي بكر وعمر كتصديق من دونهم, فليسوا سواءً في التصديق.

لكن هذه هي أخف بدع الإرجاء, وأخف فرق الإرجاء.

ولذا نجد من عواقب هذا الإرجاء في زماننا هذا كثرة الكلام عن إيمان النصارى ودخول النصارى الجنة في الآخرة, وهل هم من أهل الوعد أم هم من أهل الوعيد؟ كل هذا عقيدة هؤلاء في حد الإيمان, وهذا من آثار هذا الاعتقاد, وكل هذا من هذا الإرجاء.

قال: وَأَمَّا الْوَعِيدِيَّةُ.

أي الذين أعملوا نصوص الوعيد دون الوعد.

فإذا سمعوا قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ", قالوا: فاعل ذلك كافر. الخوارج والمعتزلة ما جمعوا بين نصوص الوعد ونصوص الوعيد, لكن أخذوا نصوص الوعيد دون نصوص الوعد.

قال: وَأَمَّا الْوَعِيدِيَّةُ؛ فَهُمُ الْقَائِلُونَ بِأَنَّ اللَّهَ يَجِبُ عَلَيْهِ عَقْلاً أَنْ يعذِّب الْعَاصِيَ؛ كَمَا يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يُثِيب الْمُطِيعَ، فَمَنْ مَاتَ عَلَى كَبِيرَةٍ وَلَمْ يَتُبْ مِنْهَا لَا يَجُوزُ عِنْدَهُمْ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُ.

فلو شرب الخمر مرة واحدة ولم يتب منها ولقي الله عَزَّ وَجلَّ على ذلك؛ فهو وعابد الوثن سواء عندهم, خالد مخلد في النار لا يخرج منها.

وَمَذْهَبُهُمْ باطلٌ مخالفٌ لِلْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ؛ قَالَ تَعَالَى: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ} [النساء: 48], [النساء: 116].

وَقَدِ اسْتَفَاضَتِ الْأَحَادِيثُ فِي خُرُوجِ عُصَاةِ الموحِّدين مِنَ النَّارِ وَدُخُولِهِم الْجَنَّة.

إذًا: من الأدلة التي ترد قولهم: هذه الآية العظيمة الجامعة المانعة, وهي قول الله عَزَّ وَجلَّ: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ}؛ فالذي استثنى الله عَزَّ وَجلَّ مغفرته في الآخرة هو الشرك, وهذه الآية تتعلق بأحكام الآخرة.

وأما أحكام الدنيا: {قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِم لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} [الزمر: 53]؛ فكل من تاب تاب الله عليه حتى ولو وقع في أنواع متعددة من الكفر

والشرك والجحود, وتاب يتوب الله عَزَّ وَجلَّ عليه؛ كما قال {قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ} [الأنفال: 38].

قال: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء}, قلنا: هذه الآية تتعلق بأحكام الآخرة؛ فالشرك لا يُغفر في الآخرة لأي أحد كائن من كان.

ولذا لا يغفر الله عَزَّ وَجلَّ لأبي إبراهيم, وإبراهيم خليل الرحمن, ومع ذلك يسأل إبراهيم الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى في الآخرة ألا يخزيه في أبيه, ومع ذلك لا يقبل الله عَزَّ وَجلَّ شفاعته في أبيه ويكون مصير أبيه النار.

أبو طالب كم دافع عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ ولكنه مات مشركًا, هو من أهل النار المخلدين فيها, فلا يغفر أن يُشرك به ويغفر ما دون ذلك.

ما معنى {مَا دُونَ ذَلِكَ}؟ أي ما سوى ذلك, ما سوى الشرك.

{لِمَن يَشَاء}: لأنه في مشيئة الله, إن شاء عذبه وإن شاء غفر له.

قال: وَقَدِ اسْتَفَاضَتِ الْأَحَادِيثُ فِي خُرُوجِ عُصَاةِ الموحِّدين مِنَ النَّارِ.

هذه الأحاديث يردها أهل الاعتزال والخوارج, وألف فيها الدكتور مصطفى محمود -عفا الله عنه وغفر له- مؤلفًا في ردها ، وقال: من مات على كبيرة ومعصية هو خالد مخلد فيها.

واستدل ببعض الآيات التي وردت في كتاب الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى؛ كقول الله تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ} [البقرة: 254].

وكذلك قوله تعالى: {فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ} [المدثر: 48].

وهذه الآيات جاءت في سياق الكلام عن الكفار والمشركين, وليست في عصاة أهل التوحيد

ومن أعظم الأدلة التي يُرد بها على هؤلاء في تكفيرهم مرتكب الكبيرة ما جاء في حد الرجم. آيات الرجم نُسخت لفظًا وإن بقيت حكمًا، ويدل على ذلك الأحاديث التي فيها الرجم، وكذلك سنة الخلفاء الراشدين.

النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رجم ماعزًا, ورجم الغامدية, والرجم تطهير.

فلو كان الزاني كافرًا هل يطهره الرجم؟ لا يطهره الرجم.

فدل ذلك على أن مرتكب الكبيرة ليس بكافر. إذا كان مرتكب الكبيرة كافرًا فلماذا رجمهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبيَّن أن الرجم تطهير لهم من ذنوبهم؟

قال: فَمَذْهَبُ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ وسطٌ بَيْنَ نُفَاةِ الْوَعِيدِ مِنَ الْمُرْجِئَةِ وَبَيْنَ مُوجِبِيهِ مِنَ القدريَّة.

مُوجبيه أي الذين يقولون: يجب أن ينفذ وعيد الله, أوجبوا على الله عَزَّ وَجلَّ ما لم يوجبه على نفسه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

قال: فمَن مَاتَ عَلَى كبيرةٍ عِنْدَهُمْ؛ فَأَمْرُهُ مفوَّضٌ إِلَى اللَّهِ، إِنْ شَاءَ عَاقبَهُ، وَإِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ.

هو يحكي الآن مذهب أهل السنة والجماعة, يقول: فَأَمْرُهُ مفوَّضٌ إِلَى اللَّهِ، إِنْ شَاءَ عَاقبَهُ، وَإِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ.

ولذا نحن لا نقطع لواحد مات من المؤمنين بجنة أو نار, الله أعلم بحاله؛ لأن الله عَزَّ وَجلَّ قد يعفو عنه ويكون من أهل الجنة, وقد يعذبه ويكون من أهل النار ابتداءً ثم يخرج منها بعد ذلك.

قال: كَمَا دلَّت عَلَيْهِ الْآيَةُ السَّابِقَةُ.

وَإِذَا عَاقَبَهُ بِهَا؛ فَإِنَّهُ لَا يُخَلَّدُ خُلُودَ الْكُفَّارِ، بَلْ يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ، وَيَدْخُلُ الْجَنَّةَ.

ثم قال رَحِمَهُ اللهُ بعد ذلك: وَفِي بَابِ أَسْمَاءِ الإِيمَانِ والدِّينِ بَيْنَ الْحَرُورِيَّةِ وَالْمُعْتَزِلَةِ، وَبَيْنَ الْمُرْجِئَةِ وَالْجَهْمِيَّةِ.

هذا استكمال للأصل الذي قبله.

قلنا: أهل السنة والجماعة وسط بين المرجئة الوعدية الذين أعملوا نصوص الوعد, والوعيدية الذين أعملوا نصوص الوعيد.

قال: وَفِي بَابِ أَسْمَاءِ الإِيمَانِ والدِّينِ بَيْنَ الْحَرُورِيَّةِ وَالْمُعْتَزِلَةِ، وَبَيْنَ الْمُرْجِئَةِ وَالْجَهْمِيَّةِ.

الكلام هاهنا عن الأسماء. هؤلاء الذين وقعوا في كبيرة من الكبائر, ما اسمهم؟ أو ما وصفهم في الدنيا؟ عند المرجئة وعند الخوارج والمعتزلة، وكذلك عند أهل السنة والجماعة؟

قال الشيخ الهراس رَحِمَهُ اللهُ: ((وَفِي بَابِ أَسْمَاءِ الْإِيمَانِ ...)) إلخ؛ كَانَتْ مَسْأَلَةُ الْأَسْمَاءِ وَالْأَحْكَامِ من أول ماوقع فِيهِ النِّزَاعُ فِي الْإِسْلَامِ بَيْنَ الطَّوَائِفِ الْمُخْتَلِفَةِ.

ما المراد بمسألة الأسماء؟ الأسماء في الدنيا.

الذي يفعل الكبيرة ما اسمه عند المرجئة؟ مؤمن كامل الإيمان.

ما اسمه عند الخوارج؟ كافر حلال الدم.

ما اسمه عند المعتزلة؟ في منزلة بين المنزلتين, لا كافر ولا مؤمن.

وهذا هو المراد بكلمة الأسماء.

ما المراد بكلمة الحكام؟ أي: حكمه في الدنيا والآخرة.

قال: كَانَتْ مَسْأَلَةُ الْأَسْمَاءِ وَالْأَحْكَامِ من أول ماوقع فِيهِ النِّزَاعُ فِي الْإِسْلاَمِ بَيْنَ الطَّوَائِفِ الْمُخْتَلِفَةِ، وَكَانَ لِلأَحْدَاثِ السِّيَاسِيَّةِ وَالْحُرُوبِ الَّتِي جَرَتْ بَيْنَ عليٍّ وَمُعَاوِيَةَ رَضِي اللهُ عَنْهُمَا فِي ذَلِكَ الْحِينِ، وَمَا تَرَتَّبَ عَلَيْهَا مِنْ ظُهُورِ الْخَوَارِجِ وَالرَّافِضَةِ والقدريَّة أَثَرٌ كَبِيرٌ فِي ذَلِكَ النِّزَاعِ.

قال: وَالْمُرَادُ بِالْأَسْمَاءِ هُنَا أَسْمَاءُ الدِّينِ، مِثْلُ: مُؤْمِنٍ، وَمُسْلِمٍ، وَكَافِرٍ، وَفَاسِقٍ ... إلخ.

وَالْمُرَادُ بِالْأَحْكَامِ أَحْكَامُ أَصْحَابِهَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

قال: فَالْخَوَارِجُ الْحُرُورِيَّةُ.

الخوارج لماذا سموا بالخوارج؟ لأنهم خرجوا على عليّ بن أبي طالب رَضِي اللهُ عَنْهُ, وسماهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ, وهم الفرقة الوحيدة التي جاءت فيها الأحاديث الصحيحة في وصفهم وتعيينهم وبيان شدة بدعتهم وضلالهم.

الفرقة الوحيدة التي جاء وصفها وجاء اسمها وجاء بيان شدة بدعتها, وما الذي يجب على ولي أمر المسلمين إن لقي هؤلاء. جاء كل ذلك في الصحيحين وفي غيرهما من كتب السنة في هذه الفرقة خاصة دون غيرها من الفرق.

فلا تجد تسمية للأشاعرة في حديث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولا للمعتزلة, تجد المعتزلة باسم القدرية, هذا ورد في بعض الأحاديث التي يحسنها أو يصححها بعض أهل العلم بمجموع طرقها الكثيرة, وبعض أهل العلم لا يصحح ذلك.

لكن فرقة الخوارج هي التي جاء النص عليها لخطورة بدعتها, ولأن بدعتها كلما قُطعت ظهرت مرة أخرى؛ كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "كلما قُطع منهم قرنٌ ظهر آخر", هكذا أخبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ ولذا حذر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منهم.

فالخوارج هم الذين خرجوا على علي بن أبي طالب رَضِي اللهُ عَنْهُ وفارقوه بسبب مسألة التحكيم التي كانت على إثر الخلاف بينه وبين معاوية رَضِي اللهُ عَنْهُمَا, وقصة التحكيم مشهورة, ولما ذهب إليهم عبد الله بن عباس رَضِي اللهُ عَنْهُ وناظرهم, وأخذوا على علي بن أبي طالب أمورًا ثلاثة, جعلوا ادلتها من القرآن فقط؛ لأنهم كانوا يحكِّمون الكتاب فقط. سفهاء الأحلام -كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-

فقالوا: قاتل ولم يسب, وقالوا: حكم الرجال ومحى نفسه من إمرة المؤمنين؛ فهو إذًا: أمير للكافرين.

فناظرهم عبد الله بن عباس رَضِي اللهُ عَنْهُ وكبتهم, وكانوا اثنى عشر ألفًا, فرجع بعضهم وضل باقيتهم على ما هم عليه, عندهم رقة في الدين شديدة؛ ولذلك يستبيحون دماء المسلمين, وقد رأينا ذلك من القاعدة والدواعش وغيرهم.

ولذا قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيهم: "يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ مُرُوقَ السَّهْمِ مِنَ الرَّمِيَّةِ", وهذا يدل على رقة دينهم؛ ولذا كفرهم بعض أهل العلم, فقاتلهم علي رَضِي اللهُ عَنْهُ ومن كان معه من أهل الحق.

لماذا سميت الخوارج بالحرورية؟ نسبة إلى حروراء, البلدة التي اعتصموا فيها وتجمعوا فيها قبل قتال علي بن أبي طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

أما المعتزلة فأتباع واصل بن عطاء، سموا بذلك: لأنهم اعتزلوا مجلس الحسن البصري – كما هو مستفيض عن سبب تسميتهم- لما سُئل عن حكم مرتكب الكبيرة, وقبل أن يجيب الحسن أجاب واصل بن عطاء, وكان لبقًا فصيح اللسان وعاقلاً, لكن غرّه عقله, وكم من إنسان عنده ذكاء وليس عنده زكاء, يعني: طهارة ونقاء.

فقال: هو في منزلة بين المنزلتين, يعني: ليس بمؤمن ولا بكافر, واعتزل المجلس وجلس إلى سارية في المجلس وتجمع حوله بعض من مال إلى قوله, فقالوا: اعتزلنا واصل, فسموا بالمعتزلة.

فالمعتزلة كذلك ماذا يسمون مرتكب الكبيرة في الدنيا؟ يقولون: هو في منزلة بين المنزلتين.

ولذا يقول الشيخ رَحِمَهُ اللهُ: فَالْخَوَارِجُ الْحَرُورِيَّةُ وَالْمُعْتَزِلَةُ ذَهَبُوا إِلَى أَنَّهُ لَا يستحقُّ اسمَ الْإِيمَانِ إِلَّا مَن صدَّق بجَنانه، وأقرَّ بِلِسَانِهِ، وَقَامَ بِجَمِيعِ الْوَاجِبَاتِ، وَاجْتَنَبَ جَمِيعَ الْكَبَائِرِ.

هذا هو المؤمن عندهم, كامل الإيمان؛ ولذا الإيمان عندهم كلٌّ لا يتجزأ, لا يوجد عندهم أصل وفرع, كلٌّ لا يتجزأ, وهذا خلاف منهج الحق؛ كما بينه شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ في كتابه الإيمان الكبير.

وضرب مثالًا واضحا جدًا لذلك: مثَّل الأعمال بالشجرة, هل لو قطفت ورقة ماتت الشجرة؟ غصن؟ أخذت ثمرة؟ هذه فروع لا تموت الشجرة بقطعها.

لكن لو قطعت جذع الشجرة؟ إذًا: هناك أصول وفروع, وهذا يدل على أن الإيمان يتجزأ, النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: "الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ".

إذًا: الإيمان عند اهل السنة والجماعة يتبعض ويتجزأ منه أصول وفروع.

قال: فَمُرْتَكِبُ الْكَبِيرَةِ عِنْدَهُمْ لَا يُسَمَّى مُؤْمِنًا بِاتِّفَاقٍ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ.

يعني: بين المعتزلة والخوارج.

وَلَكِنَّهُمُ اخْتَلَفُوا: هَلْ يسمَّى كَافِرًا أَوْ لَا؟

فَالْخَوَارِجُ يُسَمُّونَهُ كَافِرًا، ويستحلّون دَمَهُ وَمَالَهُ، وَلِهَذَا كفَّروا عَلِيًّا وَمُعَاوِيَةَ وَأَصْحَابَهُمَا، واستحلُّوا مِنْهُمْ مَا يستحلُّون مِنَ الْكُفَّارِ.

قال: وَأَمَّا الْمُعْتَزِلَةُ؛ فَقَالُوا: إِنَّ مُرْتَكِبَ الْكَبِيرَةِ خَرَجَ مِنَ الْإِيمَانِ وَلَمْ يَدْخُلْ فِي الْكُفْرِ؛ فَهُوَ بِمَنْزِلَةٍ بَيْنَ الْمَنْزِلَتَيْنِ، وَهَذَا أَحَدُ الْأُصُولِ الَّتِي قَامَ عَلَيْهَا مَذْهَبُ الِاعْتِزَالِ.

عندهم أصول خمسة, وهذه الأصول إذا سمعتها قلت: هذه أصول أهل السنة والجماعة, وإذا فتشت، وجدت تحتها نارًا تأجج وبدعًا مغلظة, فأحد هذه الأصول هو المنزلة بين المنزلين.

وهؤلاء متناقضون؛ لأنهم يقولون: لو مات, ليس بمؤمن ولا كافر, ومع ذلك يقولون: يصلى عليه ويورث ويُدفن في مقابر المسلمين, ثم هو يوم القيامة يخلد في النار.

وما من صاحب بدعة إلا وهو متناقض.

قال: واتَّفق الْفَرِيقَانِ أَيْضًا عَلَى أَنَّ مَن مَاتَ عَلَى كَبِيرَةٍ وَلَمْ يَتُبْ مِنْهَا فَهُوَ مخلَّد فِي النَّارِ.

فَوَقَعَ الِاتِّفَاقُ بَيْنَهُمَا فِي أَمْرَيْنِ:

1- نَفْيُ الْإِيمَانِ عَنْ مُرْتَكِبِ الْكَبِيرَةِ.

2- خُلُودُهُ فِي النَّارِ مَعَ الْكُفَّارِ.

وَوَقَعَ الْخِلَافُ أَيْضًا فِي مَوْضِعَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: تَسْمِيَتُهُ كَافِرًا.

وَالثَّانِي: اسْتِحْلَالُ دَمِهِ وَمَالِهِ، وَهُوَ الْحُكْمُ الدُّنْيَوِيُّ.

قال: وَأَمَّا الْمُرْجِئَةُ؛ فَقَدْ سَبَقَ بَيَانُ مَذْهَبِهِمْ، وَهُوَ أَنَّهُ لَا يَضُرُّ مَعَ الْإِيمَانِ مَعْصِيَةٌ؛ فَمُرْتَكِبُ الْكَبِيرَةِ عِنْدَهُمْ مؤمنٌ كَامِلُ الْإِيمَانِ، وَلَا يستحقُّ دُخُولَ النَّارِ.

قال: فَمَذْهَبُ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ وسطٌ بَيْنَ هَذَيْنِ الْمَذْهَبَيْنِ؛ فَمُرْتَكِبُ الْكَبِيرَةِ عِنْدَهُمْ مؤمنٌ نَاقِصُ الْإِيمَانِ.

ولذا قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ", وهذا يدل على نقصان إيمانه, فنفي الإيمان عنه لا ينفي الإسلام؛ لأن الإسلام أوسع دائرة, أضيق منها الإيمان, أضيق منها الإحسان, فإذا خرج المرء من مرتبة

الإحسان سقط في مرتبة الإيمان, فإذا خرج من مرتبة الإيمان سقط في مرتبة الإسلام.

فَمُرْتَكِبُ الْكَبِيرَةِ عِنْدَهُمْ مؤمنٌ نَاقِصُ الْإِيمَانِ، قَدْ نَقَصَ مِنْ إِيمَانِهِ بِقَدْرِ مَا ارْتَكَبَ مِنْ مَعْصِيَةٍ، فَلاَ يَنْفُونَ عَنْهُ الْإِيمَانَ أَصْلاً؛ كَالْخَوَارِجِ وَالْمُعْتَزِلَةِ.

أهل السنة لا يسلبونه مطلق الإيمان, ولا يصفونه بالإيمان الكامل أو الإيمان المطلق.

ما مطلق الإيمان؟ أصل الإيمان.

الوعيدية سلبوا مرتكب الكبيرة مطلق الإيمان, أي أصل الإيمان.

ماذا عن المرجئة؟ نعتوا مرتكب الكبيرة بالإيمان المطلق.

قال: وَلَا يَقُولُونَ بِأَنَّهُ كَامِلُ الْإِيمَانِ؛ كَالْمُرْجِئَةِ وَالْجَهْمِيَّةِ.

قال: وَحُكْمُهُ فِي الْآخِرَةِ عِنْدَهُمْ أَنَّهُ قَدْ يَعْفُو اللَّهُ عز وجل عَنْهُ فَيَدْخُلُ الْجَنَّةَ ابْتِدَاءً، أَوْ يعذِّبه بِقَدْرِ مَعْصِيَتِهِ، ثُمَّ يُخْرِجُهُ وَيُدْخِلُهُ الْجَنَّةَ كَمَا سَبَقَ، وَهَذَا الْحُكْمُ أَيْضًا وَسَطٌ بَيْنَ مَن يَقُولُ بِخُلُودِهِ فِي النَّارِ، وَبَيْنَ مَن يَقُولُ: إِنَّهُ لَا يَسْتَحِقُّ عَلَى الْمَعْصِيَةِ عِقَابًا.

وهذا الذي اعتقده أهل السنة والجماعة دل عليه مجموع نصوص الوعد والوعيد التي استدل بها كلا الفريقين من الوعدية والوعيدية، فوقع اعتقاد أهل السنة بعد استدلالهم وإعمالهم لجميع النصوص بخلاف غيرهم.

ثم قال رَحِمَهُ اللهُ بعد ذلك في بيان الأصل الخامس, قال: وَفِي أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَ الرَّافِضَةِ والْخَوَارِجِ.

أي هم وسط أيضًا في أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

الصحابي تكرر معناه كثيرًا معنا, من الصحابي؟ من لقي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ واجتمع به مؤمنًا ومات على ذلك وإن تخلل ذلك ردة.

بعض الصحابة آمن بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ, ثم ارتد, ثم آمن بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فالصحيح: أن هذا صحابي, ولا يشترط طول الملازمة؛ ولذلك كل من حج مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حجة الوداع ولم يكن لقي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلا يومئذٍ وما رآه ولقيه بعد ذلك؛ فهو من أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

أهل السنة والجماعة وسط في أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ, بين الرافضة والخوارج.

الرافضة: هم الذين يسمون الآن بالشيعة, وموطنهم الأصلي الآن (إيران), الرافضة الإمامية الاثنى عشرية, هم الذين غلوا في أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رَضِي اللهُ عَنْهُ, وغلوا في أهل البيت.

ولذلك يقولون: لا ولاء إلا ببراء, يعني: لا ولاء لأحد إلا إذا برئ من أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ, طالما أنك لم تبرأ من أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتتبرأ منهم وتكفرهم؛ فلا ولاء لنا معك.

ويقول قائلهم وهو المسمى: بنعمة الله الجزائري -وهو نقمة الله- في كتاب له يسمى ببحار الأنوار, يقول: إن الرب الذي نبيه محمد وخليفة نبيه أبو بكر ليس ربنا ولا إلهنا -عياذًا بالله-.

ولهم أقوال شنيعة جدًا في هذا الباب, في أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ, ولا يفتؤون عن الطعن في عائشة رَضِي اللهُ عَنْهَا وحفصة وزوجات النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه.

فغلوا في أهل البيت ونصبوا العداوة لأصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ, خاصة الثلاثة الأُول, وهم: أبو بكر, وعمر, وعثمان, ويطعنون في عائشة وحفصة وطلحة والزبير والمهاجرين والأنصار, ويقولون كما قلنا: لا ولاء إلا ببراء.

ومنهم من يقول: إن جبريل غلط في رسالته, فكانت الرسالة لعلي رَضِي اللهُ عَنْهُ, لكن لما كان علي شبيهًا برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كشبه الغراب بالغراب غلط في رسالته. هذه الطائفة تسمى بالطائفة الغرابية.

انظر كيف شبَّهوا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وشبَّهوا عليا؟!

يقولون: لما كان علي رَضِي اللهُ عَنْهُ شبيهًا بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كشبه الغراب بالغراب أخطأ جبريل فنزل بالرسالة على نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دون علي رَضِي اللهُ عَنْهُ, فأين رب محمد ورب علي؟

لماذا لم يصحح لجبريل؟ -نسأل الله السلامة والعافية- فهؤلاء لا دين ولا عقل, دينهم مبناه على الكذب الذي يسمى بالتقية.

الرافضة من حيث الإطلاق كفار غير مؤمنين , وليسوا من دين الإسلام في شيء, وأما التعيين؛ فهذا يحتاج إلى إقامة الحجة وفهمها, وغير ذلك من الأمور التي بينها أهل السنة والجماعة, لكن من حيث الإطلاق ليسوا بمؤمنين.

لماذا سموا بالرافضة؟ لأنهم رفضوا زيد بن علي بن الحسين حينما قالوا له: تبرأ من الشيخين: من أبي بكر وعمر رَضِي اللهُ عَنْهُمَا, فقال: معاذ الله نتولاهما ونتبرأ ممن يتبرأ منهما؛ فرفضوا زيد بن علي بن الحسين.

فأهل السنة والجماعة وسط في أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بين الرافضة الذين غلوا في أهل البيت, والخوارج الذين خرجوا على علي بن أبي طالب وفارقوه -كما ذكرنا- وكفروا من كان مع علي بن أبي طالب من أهل بيته وغيرهم من أصحاب رسول الله.

يقول الشيخ الهراس رَحِمَهُ اللهُ: قَوْلُهُ: ((وَفِي أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ...)) إلخ, الْمَعْرُوفُ أَنَّ الرَّافِضَةَ -قبَّحهم اللَّهُ- يَسُبُّونَ الصَّحَابَةَ رضي الله عنهم، وَيَلْعَنُونَهُمْ، وَرُبَّمَا كفَّروهم أَوْ كفَّروا بَعْضَهُمْ، وَالْغَالِيَةُ مِنْهُمْ -مَعَ سَبِّهِمْ لِكَثِيرٍ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالْخُلَفَاءِ- يَغْلُونَ فِي عليٍّ وَأَوْلَادِهِ، وَيَعْتَقِدُونَ فِيهِمُ الْإِلَهِيَّةَ.

وَقَدْ ظَهَرَ هَؤُلَاءِ فِي حَيَاةِ عليٍّ رَضِي اللهُ عَنْهُ بِزِعَامَةِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَبَأٍ, الَّذِي كَانَ يَهُودِيًّا وَأَسْلَمَ.

وتُنسب إليه طائفة السبئية, وقد أظهر عبد الله بن سبأ الإسلام, وكان يهوديًا ليُفسد دين الإسلام؛ كما أفسد بولس دين النصارى؛ كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ.

وادَّعى في علي رَضِي اللهُ عَنْهُ الإلهية وغلا فيه جدًا؛ ولذا حرَّق علي رَضِي اللهُ عَنْهُ السبئية ؛ حفر لهم الأخاديد وألقاهم فيها وحرَّقهم, لكن الناس اختلفوا, هل حرَّق عبد الله بن سبأ معهم أم فر من هذا التحريق؟

وفي هذا يقول علي رَضِي اللهُ عَنْهُ بيتًا مشهورًا:

لَمَّا رَأَيْتُ الأَمْرَ أَمْرًا مُنْكَرًا ... أَجَّجْتُ نَارِي وَدَعَوْتُ قَنْبَرًا

قنبرا: هذا كان مولى لعلي رَضِي اللهُ عَنْهُ, وهو الذي أمره بحفر الأخاديد, فحرَّقهم علي رَضِي اللهُ عَنْهُ وأنكر عليه بعض الصحابة هذا التحريق, وقالوا: لا يحرق بالنار إلا رب النار.

قال عبد الله بن عباس: "لو كان الأمر إلي لقتلتهم بالسيف, وأما التحريق؛ فهذا لا يكون إلا لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى"

وتحريق علي رَضِي اللهُ عَنْهُ للسبئية يدل على شدة كفرهم, فكان زعيمهم عبد الله بن سبأ, وكان يهوديًا وأسلم وأراد أن يكيد للإسلام وأهله؛ كما كاد اليهود من قبل للنصرانية وأفسدوها على أهلها.

قلنا: على يدي بولس, وله قصة مشهورة في ذلك لما كان ذاهبًا إلى دمشق, ورجع إلى النصارى وادعى أن المسيح ظهر له وأمره بكذا وكذاو وغيَّر دين المسيح عَليهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَم.

قال: وَقَدْ حرَّقهم عَلِيٌّ بِالنَّارِ لِإِطْفَاءِ فِتْنَتِهِمْ، وَرُوِيَ عَنْهُ فِي ذَلِكَ قَوْلُهُ:

لَمَّا رَأَيْتُ الأَمْرَ أَمْرًا مُنْكَرًا ... أَجَّجْتُ نَارِي وَدَعَوْتُ قَنْبَرًا

قال: وَأَمَّا الْخَوَارِجُ؛ فَقَدْ قَابَلُوا هَؤُلَاءِ الرَّوَافِضَ، فكفَّروا عَلِيًّا وَمُعَاوِيَةَ ومَن مَعَهُمَا مِنَ الصَّحَابَةِ، وَقَاتَلُوهُمْ واستحلُّوا دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ.

وَأَمَّا أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ؛ فَكَانُوا وَسَطًا بَيْنَ غلوِّ هَؤُلَاءِ وَتَقْصِيرِ أُولَئِكَ، وَهَدَاهُمُ اللَّهُ إِلَى الِاعْتِرَافِ بِفَضْلِ أَصْحَابِ نبيِّهم.

ولذا لا تجد أحدًا يدافع عن أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويحفظ مكانهم كأهل السنة والجماعة, للصغير والكبير من أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ

عَلَيْهِ وَسَلَّمَ, وكلهم كبراء, أعني للمتقدمين في الإسلام والمتأخرين منهم, لا يفرقون بين واحد من أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حفظ المكانة وفي الدفاع عنهم.

ويقولون: وَأَنَّهُمْ أَكْمَلُ هَذِهِ الْأُمَّةِ إِيمَانًا وَإِسْلَامًا وَعِلْمًا وَحِكْمَةً، وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يَغْلُوا فِيهِمْ، وَلَمْ يَعْتَقِدُوا عِصْمَتَهُمْ؛ بَلْ قَامُوا بِحُقُوقِهِمْ، وأحبُّوهم لِعَظِيمِ سَابِقَتِهِمْ وَحُسْنِ بَلَائِهِمْ فِي نُصْرَةِ الْإِسْلَامِ وَجِهَادِهِمْ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ولذلك كانوا أسعد الناس بما جاء عن أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من آثار تبين هذا الدين, فتجدهم دائمًا يقولون: كتاب الله وسنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بفهم أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فنسأل الله عَزَّ وَجلَّ بأسمائه الحسنى وصفاته المثلى أن يجعلنا من المستقيمين على هدي أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ, وأن يُمسكنا بذلك إلى أن نلقاه, إنه ولي ذلك والقادر عليه.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم, وجزاكم الله خيرًا.

الدرس الخامس والثلاثون

إن الحمد لله, نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله تعالى من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله, , صلى الله عليه, وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد:

فما زال حديثنا موصولًا في قراءة العقيدة الواسطية لشيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ، وعليها شرح العلامة الهراس رَحِمَهُ اللهُ.

وكنا قد وصلنا إلى قول المصنف رَحِمَهُ اللهُ: فَصْلٌ: وَقَدْ دَخَلَ فِيمَا ذَكَرْنَاهُ مِنَ الإِيمَانِ بِاللهِ الإِيمَانُ بِمَا أَخْبَرَ اللهُ بِهِ فِي كِتَابِهِ، وَتَوَاتَرَ عَن رَّسُولِهِ، وَأَجْمَعَ عَلَيْهِ سَلَفُ الأُمَّةِ؛ مِنْ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ فَوْقَ سَمَاوَاتِهِ، عَلَى عَرْشِهِ، عَلِيٌّ عَلَى خَلْقِهِ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ مَعَهُمْ أَيْنَمَا كَانُوا، يَعْلَمُ مَا هُمْ عَامِلُونَ؛ كَمَا جَمَعَ بَيْنَ ذَلِكَ فِي قَوْلِهِ: {هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} [الحديد: 4].

قال رَحِمَهُ اللهُ: وَلَيْسَ مَعْنَى قَوْلِهِ: {وَهُوَ مَعَكُمْ} أَنَّهُ مُخْتَلِطٌ بِالْخَلْقِ؛ فَإِنَّ هَذَا لَا تُوجِبُهُ اللُّغَةُ.

هذا الكلام جاء بعد أن ذكر المصنف رَحِمَهُ اللهُ شيئًا من أحاديث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الصفات، ثم أردف ذلك بالكلام عن وسطية أهل السنة والجماعة في أمور خمسة.

فقال رَحِمَهُ اللهُ عقب ذلك: وَقَدْ دَخَلَ فِيمَا ذَكَرْنَاهُ مِنَ الإِيمَانِ بِاللهِ.

إذًا: ما مضى إنما هو في الإيمان بالله وأسمائه وصفاته سُبْحَانَهُ وَتعالَى؛ فيدخل فيما يجب أن يؤمن به المرء الإيمان بما أخبر الله به في كتابه وتواتر عن رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأجمع عليه سلف الأمة.

فكأن هذا الذي سيذكره المصنف رَحِمَهُ اللهُ وذكره قبلُ من العلم الضروري الذي لا يستطيع المؤمن أن يدفعه عن نفسه؛ لأنه تواتر في كتاب الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، فثبت ثبوتًا قطعيًا، والمعنى كذلك معنى قطعي لا يحتمل التأويل كما دللنا على ذلك فيما مضى.

وكذلك تواتر عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلم يرد عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذا الباب –أعني في باب الصفات- حديثان أو ثلاثة أو أربعة، وإنما بيَّن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذا الباب بقوله وفعله وإقراره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وتواتر ذلك عنه حتى أحال هذا التواتر المعنوي تحريفه عن معناه الصحيح. أعني بالتواتر المعنوي هنا ما اضطرد من ذكره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لهذه الصفات دون التعرض لها بمثل هذه المعاني المحرفة التي ذكرها معطلة الخلف، فدل ذلك أن مذهب أهل السنة والجماعة هو ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم وصحبه الكرام رضي الله عنهم.

ولا يستطيع المرء أن يدفع هذا الاعتقاد إلا إذا انحرف عن الصراط المستقيم، وقدَّم عقله وهواه وما أخذه من الفلاسفة على كلام النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وما أجمع عليه سلف الأمة.

إذًا: هذه الأمور الثلاثة تفيد العلم الضروري الذي لا يستطيع المرء أن يدفعه عن نفسه، ولذا تجد الواحد من هؤلاء قد يناظر في نفي علو الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى على

خلقه، وبينما هو يحدث جلساءه يشير دون أن يشعر إلى السماء فيقول: إن الله تعالى سينصرنا.

ثم ينتبه بعد ذلك إلى إشارته ويقول: سيقول المشبهة أو الممثلة: قد أشار إلى السماء، أوقعه ما تبقى من فطرته في حرج شديد؛ لأن هذا مما تؤز إليه الفطرة أزًّا، بقي شيءٌ من فطرته يدل هو على أن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى في السماء.

فلما أشار إلى السماء قلنا: لعله يرجع ويُقر، لكن هؤلاء أشربت قلوبهم البدعة -نسأل الله السلامة والعافية-.

الجويني لما قال له الهمداني: دعنا من كل ما تقول وأخبرنا عن هذه الضرورة التي يجدها الواحد في قلبه إذا قال يا الله اتجه إلى السماء. قال الجويني: حيرني الهمذاني، وكان ذلك من أسباب رجوعه فيما ظنه عقيدة السلف، وإنما هو التفويض المحض عفا الله عنه.

وأما ما نراه الآن من تعنت الجهمية ومن تأويلاتهم بل تحريفاتهم الباطلة لكتاب الله وسنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومن طعنهم الذي لا ينقطع في أهل السنة والجماعة ونبذهم بالألقاب القبيحة؛ فهذا لم نجده من قبل بهذه الصورة، وهذا يدل على مدى انحراف هؤلاء، فلا هم حصلوا علمًا لأنهم ليسوا في العلم كمن سبقهم من الأشعرية والمعتزلة والماتريدية، بل لا يبلغون نصف هؤلاء في العلم، ولا أدنى من ذلك، ومع ذلك تجد هؤلاء أشد ما يكونون انحرافًا -نسأل الله السلامة والعافية-.

فهذه الأمور التي سيذكرها المصنف رَحِمَهُ اللهُ دلَّ عليها كتاب الله وما تواتر عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وما أجمع عليه سلف الأمة.

إذًا: العبرة بإجماع سلف الأمة، إجماع من مضى من القرون الفاضلة من الصحابة والتابعين وأتباع التابعين؛ لأن هؤلاء هم الذين زكاهم ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى ورضي عنهم، وزكاهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وزكَّى فهومهم.

فإذا جاء واحد من هؤلاء بعد ذلك أيضًا وقال: إن تسعين بالمئة من الأمة أشعرية أو ماتريدية وهؤلاء هم أهل السنة والجماعة، نقول: كذبت.

لو سألت عاميا في الشارع هل أنت أشعري؟ ربما ظن أنك تسبه، هل أنت ماتريدي؟ ربما لا يستطيع نطقها!!

وعلى فرض صحة هذا القول -وليس بصحيح- نقول: العبرة بما كان عليه سلف الأمة، لا بما صار إليه الناس؛ لأن الكلام في دين رب العالمين، وهذا لا يؤخذ إلا من كتاب الله وسنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وما أجمع عليه سلف الأمة، لا مما تعارف الناس عليه لغربة الدين بين أهله.

هذه الثلاثة دلت على ماذا؟

قال: مِنْ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ فَوْقَ سَمَاوَاتِهِ، عَلَى عَرْشِهِ، عَلِيٌّ عَلَى خَلْقِهِ.

دل على ذلك الكتاب والسنة والإجماع كما مضى. آيات كثيرة جدًا في كتاب الله مضت تدل على أن الله عَزَّ وَجلَّ في السماء؛ ولذا لا يعيدها المصنف رَحِمَهُ اللهُ مرة أخرى.

استوى في العلو المطلق على عرشه، وكذلك سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ القولية والفعلية والتقريرية، ومضى ذلك أيضًا، وكذلك أجمع السلف الصالح على هذا الأمر.

إذا قال قائل: أين نجد إجماعهم؟ نقول: الإجماع منقول، ومما يدل على ذلك أيضا أنهم فسروا القرآن ولم يحرفوا الآيات التي وردت في علو الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى وفي استوائه عن ظاهرها، ما قالوا استوى بمعنى استولى أو سيطر أو قهر، أو هذا يدل على كمال سلطانه وملكه وغير ذلك، ما قال واحد منهم هذا الكلام، وإنما أجمع السلف الصالح على خلاف ذلك، أجمعوا على أن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى مستوٍ على عرشه استواءً يليق بجلاله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

فليس مختلطًا بخلقه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، هو مع خلقه بعلمه وسمعه وإحاطته وقدرته سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، وهو بذاته فوق السماء استوى على عرشه.

ولذا قال: وَهُوَ سُبْحَانَهُ مَعَهُمْ أَيْنَمَا كَانُوا.

معهم بماذا؟ بصفاته سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، معية حقيقية.

أَيْنَمَا كَانُوا، يَعْلَمُ مَا هُمْ عَامِلُونَ؛ كَمَا جَمَعَ بَيْنَ ذَلِكَ فِي قَوْلِهِ.

وهو سُبْحَانَهُ وَتعَالَى أعلم بنفسه من غيره جمع بين معيته للخلق واستوائه على العرش.

قال: {هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ}.

أي: أن الاستواء وقع بعد خلق السماوات والأرض في ستة أيام، لم يكن مستويًا قبل ذلك سُبْحَانَهُ وَتعَالَى على العرش، ومع ذلك كان في العلو سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

ثم قال: {يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ}.

إذًا: هو فوق العرش ومعنا بصفاته سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

{وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ}.

قال رَحِمَهُ اللهُ: وَلَيْسَ مَعْنَى قَوْلِهِ: {وَهُوَ مَعَكُمْ} أَنَّهُ مُخْتَلِطٌ بِالْخَلْقِ؛ فَإِنَّ هَذَا لَا تُوجِبُهُ اللُّغَةُ.

وهو خلاف ما أجمع عليه سلف الأمة، وخلاف ما فطر الله عليه الخلق.

إذًا: شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ يقول: هذا لا تقول اللغة بوجوب الذهاب إليه، ومن ثم لو أثبتناه أثبتنا الحلول فلابد من التأويل كما يقول المعطلة، ورد كذلك على الحلولية الذين يقولون: إن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى حلَّ في خلقه وهو في كل مكان بذاته.

ويستدلون بهذه الآية: {وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ}؛ فيقولون: إن المعية تقتضي الاختلاط، فشيخ الإسلام رد ذلك من أوجه ثلاثة:

الوجه الأول قال: فَإِنَّ هَذَا لَا تُوجِبُهُ اللُّغَةُ.

ما معنى لا توجبه؟ أي: لا تقول اللغة إن هذا لابد أن يكون، كلما ذُكرت المعية؛ فإنها تعني الاختلاط والممازجة.

شيخ الإسلام يقول: فَإِنَّ هَذَا لَا تُوجِبُهُ اللُّغَةُ، وإنما هذا بحسبه.

ولذا فرَّق رَحِمَهُ اللهُ بين ما توجبه اللغة وما تجيزه اللغة. ما قال رحمه الله: فإن هذا لا تجيزه اللغة، وإنما قال: ما توجبه اللغة، لأن اللغة تجيز ذلك؛ أن المعية أحيانًا تقتضي الاختلاط.

عندما يكون اللبن مع الماء فهذا يقتضي الاختلاط.

لكن عندما تقول: سرت والقمر معي، هل هذا يقتضي الاختلاط؟ لا، إذا قال الأمير لجنوده: سيروا بسم الله، وأنا معكم, هذا يقتضي الاختلاط؟ لا يقتضي الاختلاط.

ولذا قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ وهو دقيق في ألفاظه: فَإِنَّ هَذَا لَا تُوجِبُهُ اللُّغَةُ.

وهو خلاف ما أجمع عليه سلف الأمة.

أين هذا الإجماع؟ نقول: أنهم أجروا ألفاظ القرآن على ظاهرها، فمن قال بخلاف ذلك فليأتنا، وقد فسر السلف الصالح القرآن كله؛ والعبرة بتفسيرهم.

فإذا جاء واحد من هؤلاء وقال لك: استوى بمعنى استولى هكذا فسروا، نقول: من الذي فسر ذلك؟ فرد هؤلاء إلى القرون الفاضلة، فهُمُ الحجةُ في الفهم والبيان.

يقولون لك: لا تستطيعون الاستغناء عن الأشاعرة والماتريدية لأن الأسانيد كلها أشاعرة وماتريدية، نقول: أسانيد ماذا؟

يقولون: أسانيد الأحاديث فأنتم تأخذون سند البخاري وسند مسلم وسند كذا وكذا وكذا، والأسانيد مليئة بالأشعرية والماتريدية.

نقول: كذبتم، وهل هؤلاء الذين ذكرتم كانوا موجودين في القرون الفاضلة؟ ما كانوا موجودين في القرون الفاضلة، هل تجدون في إسناد لحديث في صحيح مسلم رجلاً أشعريًا، رجلاً ماتريديًا؟ ما كان هؤلاء موجودين.

هل تجدون في أسانيد البخاري رجلاً أشعريًا أو ماتريديًا؟ في أسانيد أحمد أو المسند؟ لا تجد، وإنما هؤلاء جاءوا بعد ذلك ودخلوا في هذه الأسانيد المحفوظة، حملوها عن غيرهم من أهل السنة.

ثم يقال لهم: هذه الأسانيد التي فيها أشعرية أو ماتريدية أو غيرهم ، هل تُصحح بها الأحاديث وتُضعف؟ لا تُصحح بها الأحاديث ولا تُضعف، لماذا؟ لأن الإسناد المعتبر قد انقطع في وقت ما كانت أشعرية ولا ماتريدية.

يقولون: هاتوا لنا إسنادًا في القراءات يخلو من أشعري أو ماتريدي، نقول: ائت بهذه الأسانيد، مبدأ هذه الأسانيد من؟ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم التابعون، ثم أتباع التابعين، ثم كذا وكذا، وقد استقرت القراءة وتواترت.

إذًا: كذلك دخولكم في هذه الأسانيد تشريف لكم، وأما القراءات فهي ثابتة متواترة عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعن أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فشيخ الإسلام يقول: وهو خلاف ما أجمع عليه سلف الأمة، وخلاف ما فطر الله عليه الخلق.

إذًا: هذا الذي ذكره المصنف رَحِمَهُ اللهُ من علو الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى على خلقه، مع كونه معنا بصفاته سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، دل عليه أمور خمسة:

دل على ذلك كتاب الله، وسنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وما أجمع عليه سلف الأمة، وما فطر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى عليه الخلق.

قلنا: القلوب تنصرف عند الدعاء إلى السماء، وكذلك العقل؛ لأن العلو صفة كمال، والله عَزَّ وَجلَّ متصف أبدًا بالكمال، وكل صفة هي كمال من غير وجه نقص في حق المخلوق فالله أولى بها سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، فدل على ذلك أمور خمس.

قال الهراس رَحِمَهُ اللهُ: قَوْلُهُ: ((وَقَدْ دَخَلَ فِيمَا ذَكَرْنَاهُ مِنَ الْإِيمَانِ)) إلخ.

قال: صرَّح المؤلِّف هُنَا بِمَسْأَلَةِ علوِّ اللَّهِ تَعَالَى وَاسْتِوَائِهِ عَلَى عَرْشِهِ بَائِنًا مِنْ خَلْقِهِ؛ كَمَا أَخْبَرَ اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ فِي كِتَابِهِ، وَكَمَا تَوَاتَرَ الْخَبَرُ بِذَلِكَ عَنْ رَسُولِهِ، وَكَمَا أَجْمَعَ عَلَيْهِ سَلَفُ الْأُمَّةِ.

قلنا: هذه الثلاثة تفيد العلم الضروري الذي لا يستطيع المرء أن يدفعه عن نفسه.

قال: وَكَمَا أَجْمعَ عَلَيْهِ سَلَفُ الْأُمَّةِ الَّذِينَ هُمْ أَكْمَلُهَا عِلْمًا وَإِيمَانًا، مؤكِّدًا بِذَلِكَ مَا سَبَقَ أَنْ ذَكَرَهُ فِي هَذَا الصَّدَدِ، ومشدِّدًا النَّكِيرَ عَلَى مَن أَنْكَرَ ذَلِكَ مِنَ الْجَهْمِيَّةِ وَالْمُعْتَزِلَةِ ومَن تَبِعَهُمْ مِنَ الْأَشَاعِرَةِ.

الأشاعرة تبع للجهمية والمعتزلة وإن نفوا ذلك، ولذا يقال : إن الأشاعرة مخانيث المعتزلة، مخانيث الجهمية؛ لأنهم جبنوا عن التصريح بما صرح به الجهمي، لكن مآل كلامهم وقولهم إلى اعتقاد الجهمية والمعتزلة.

قال: ثُمَّ بَيَّنَ أَنَّ اسْتِوَاءَهُ عَلَى عَرْشِهِ لَا يُنَافِي معيَّته وَقُرْبَهُ مِنْ خَلْقِهِ.

ولذا يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ في نونيته:

وله العلو من الوجوه جميعها *** ذاتًا وقهرًا مع علو الشأن

وله العلو من الوجوه جميعها؛ لأن الله عَزَّ وَجلَّ له علو القدر والقهر والذات.

له أنواع ثلاثة من العلو: له علو القدر، أي: علو الصفات، وعلو القهر، {وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ} [الأنعام: 18]، وعلو الذات سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

قال: ذاتًا وقهرًا مع علو الشأن.

وعلوه فوق الخليقة كلها * فطرت عليه الخلق والثقلان**

أي: الإنس والجن.

لا يستطيع معطل تبديلها * أبدا وذلك سنة الرحمن**

كل إذا ما نابه أمر يرى * متوجها بضرورة الإنسان**

نحو العلو فليس يطلب خلفه ***وأمامه أو جانب الإنسان

وإنما يطلب العلو.

ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ له كلام نفيس كذلك في كلمة (مع)، {وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ}.

يقول رَحِمَهُ اللهُ -كما في مختصر الصواعق- في هذه الآية: ليس ظاهر اللفظ ولا حقيقته أنه مختلط بالمخلوقات ممتزج بها، ولا تدل لفظة (مع) على هذا بوجه من الوجوه، فضلاً عن أن يكون حقيقة اللفظ وموضوعه؛ فإن (مع) في كلامهم للصُحبة اللائقة.

(مع) في كلام العرب تأتي للصُحبة اللائقة التي تليق بالسياق، وهي تختلف باختلاف متعلقاتها ومصحوبها، فكون نفس الإنسان معه لون، وكون علمه وقدرته وقوته معه لون آخر، وكون زوجته معه لون، وكون أميره ورئيسه معه

لون، وكون ماله معه لون؛ فالمعية ثابتة في هذا كله مع تنوعها واختلافها؛ فيصح أن يقال: زوجته معه وبينهما شُقة بعيدة، يعني: مسافة بعيدة، وكذا يقال: فلان معه دار كذا وضيعة كذا.

ثم قال: فتأمل نصوص المعية؛ كقوله تعالى: {مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ} [الفتح: 29].

وقال تعالى: {وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ} [البقرة: 43].

وقال تعالى: {لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا} [التوبة: 83].

وقال: {يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ} [الحديد: 14].

وقال: {وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ} [التوبة: 119].

وقال: {وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ} [هود: 40].

فلما قال: {مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ}؛ يعني: الصحابة، فالمعية هنا معية مصاحبة ذات لذات؛ فذات محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تصاحب ذات أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

لما قال الله تعالى: {وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ}؛ المعية هنا معية صفات، يعني: كونوا معهم في صفاتهم، فكما كانوا صادقين كونوا أنتم كذلك صادقين.

وقال: {وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ}.

وقال: {فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ} [الأعراف: 64].

وقال: {فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ} [البقرة: 249].

وقال: {فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ} [آل عمران: 53].

وقال: {وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ} [المائدة: 84].

ثم قال: وأضعف ذلك هل يقتضي موضع واحد منها مخالطة في الذوات التصاقًا وامتزاجًا، فكيف تكون حقيقة المعية في حق الرب تعالى عن ذلك حتى يُدَّعى أنها مجاز لا حقيقة؟"

سمعت واحدًا من هؤلاء بالأمس يقول: هؤلاء الوهابية يتبجحون بقاعدة لو أجريناها على ظاهرها لكفرنا، لكنهم يتكلمون بجهل، معذورون بجهلهم!!

ووالله لهو الجاهل ولا يدري ما يخرج من عقله.

ما القاعدة؟ أن نثبت لله كل ما أثبته لنفسه وكل ما أثبته له رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وهذه القاعدة نكررها كثيرًا, الله عَزَّ وَجلَّ إذا أثبت شيئًا لنفسه فهو أعلم بنفسه من غيره سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، وكذلك نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أعلم الخلق بربه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

ثم ضرب هذا الجهمي أمثلة على ذلك، يعني يقول الله تعالى: {وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ} [الأنفال: 30].

هل أثبت واحد من العلماء المكر لله؟ هكذا يسأل؟ نعم، ما زال سلفنا الصالح يثبتون المكر لله تَبَارَكَ وَتَعَالَى كصفة مقابلة لمكر المخلوق.

ولذا نقول: هذه الصفات صفات مقيدة الله يمكر بمن يمكر بالمؤمنين، وهذا موجود في التفاسير عن الصحابة والتابعين وأتباع التابعين.

قلت لكم: لكن هؤلاء جهلة لا يقرؤون، وإنما عمدتهم في ذلك كلام الرازي والجويني وكتب المتأخرين، لكن هل ينظرون في تفاسير الطبري وابن كثير والكتب المسندة في التفاسير؟ لا ينظرون في مثل هذه الكتب.

يقول لك: الله عَزَّ وَجلَّ يقول: {وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ}، أجروا هذه اللفظة على ظاهرها إذن!!

وما قال ذلك إلا لجهله بلغة العرب؛ لأن العرب تقول في المعية: ما ذكره ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ إن كل معية بحسبها، {اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ}، لا تستوي مع: {فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ}, هذه معية صفات، بينما هذه معية ذات.

فقال رَحِمَهُ اللهُ: فليس في ذلك ما يدل على أن ذاته تعالى فيهم، ولا هي ملاصقة لهم ولا مخالطة ولا مجاورة بوجه من الوجوه، وغاية ما تدل عليه (مع) المصاحبة والمرافقة والمقارنة في كل أمر من الأمور، وذلك اقتران في كل مقام بحسبه.

إذًا: يُنظر إلى السياق، فإن قيل إن الله مع خلقه بطريق العموم كان من لوازم ذلك علمه بهم وتدبيره لهم وقدرته عليهم.

وإذا كان خاصًا كقوله: {إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ} [النحل: 128]، كان من لوازم ذلك معيته لهم بالنُصرة، لأن المعية معيتان: معية عامة تقتضي الإحاطة والمراقبة، ومعية خاصة تقتضي النُصرة والتأييد، وهذا كله ظاهر في كتاب الله.

قال: من لوازم ذلك معيته لهم بالنُصرة والتأييد والمعونة، فعلوه سبحانه لا يناقض معيته، ومعيته لا تُبطل علوه، بل كلاهما حق.

انتهى من مختصر الصواعق.

فالله عَزَّ وَجلَّ عليٌّ على عرشه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، وهو معنا بصفاته معية حقيقية.

ثم قال المصنف رَحِمَهُ اللهُ بعد ذلك وهو يؤكد ويزيد الأمر وضوحًا، يقول: بَلِ الْقَمَرُ آيَةٌ مِنْ آيَاتِ اللهِ مِنْ أَصْغَرِ مَخْلُوقَاتِهِ، وَهُوَ مَوْضُوعٌ فِي السَّمَاءِ، وَهُوَ مَعَ الْمُسَافِرِ وَغَيْرُ الْمُسَافِرِ أَيْنَمَا كَانَ.

فالقمر في السماء وتقول: القمر معي، ولا يعني ذلك اختلاطه بك.

ولذا قال الهراس رَحِمَهُ اللهُ: فَإِنَّ المعيَّة لَيْسَ مَعْنَاهَا الِاخْتِلَاطَ وَالْمُجَاوَرَة الحسيَّة.

وضرب شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ لذلك مثلاً بالقمر الذي هو موضوع في السماء: وَهُوَ مَعَ الْمُسَافِرِ وَغَيْرُ الْمُسَافِرِ أَيْنَمَا كَانَ.

بظهوره واتصاله.

ومثل ذلك أنك تخرج وصديق لك تسافران تقفان في المحطة، هو سيذهب إلى مدينة الاسكندرية، وأنت ستذهب إلى أسوان.

القطار سيسير جهة الجنوب وفي الجهة الأخرى المقابلة جهة الشمال، ومع ذلك إذا نظر الذي سيذهب إلى أسوان من نافذة القطار سيجد القمر يسير معه، وكذلك الذي يذهب إلى الاسكندرية يجد القمر يسير معه، والقمر واحد، هل يعني ذلك الامتزاج والمخالطة؟

يقولون: وقعتم في التأويل، نقول: أنتم مجانين -نسأل الله السلامة والعافية-

.

قال: وَضَرَبَ لِذَلِكَ مَثَلاً بِالْقَمَرِ الَّذِي هُوَ مَوْضُوعٌ فِي السَّمَاءِ، وَهُوَ مَعَ الْمُسَافِرِ وَغَيْرِهِ أَيْنَمَا كَانَ؛ بِظُهُورِهِ وَاتِّصَالِ نُورِهِ، فَإِذَا جَازَ هَذَا بِالنِّسْبَةِ لِلْقَمَرِ، وَهُوَ مِنْ أَصْغَرِ مَخْلُوقَاتِ اللَّهِ؛ أَفَلاَ يَجُوزُ بِالنِّسْبَةِ إِلَى اللَّطِيفِ الْخَبِيرِ الَّذِي أَحَاطَ بِعِبَادِهِ عِلْمًا وَقُدْرَةً، وَالَّذِي هُوَ شهيدٌ مطَّلع عَلَيْهِمْ، يَسْمَعُهُمْ، وَيَرَاهُمْ، وَيَعْلَمُ سرَّهم وَنَجْوَاهُمْ، بَلِ الْعَالَمُ كُلُّهُ سَمَاوَاتُهُ وَأَرْضُهُ مِنَ الْعَرْشِ إِلَى الْفَرْشِ كُلُّهُ بَيْنَ يَدَيْهِ سُبْحَانَهُ؛ كَأَنَّهُ بندقةٌ فِي يَدِ أَحَدِنَا.

قال تعالى: {وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ} [الأنعام: 91]، قلنا: هذه الآية وردت في كتاب الله في مواضع ثلاثة:

وفي هذه المواضع ترد على المشركين أو على من نسبوا لله تَبَارَكَ وَتَعَالَى ما لا يليق به.

في سورة الحج: {مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ} [الحج: 74].

لكن في الموضعين الآخرين: {وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ}.

وفي آخر الزمر: {وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ} [الزمر: 67].

هذا ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى، لكن هؤلاء ما قدروه حق قدره.

ولذا يقول الشارح رَحِمَهُ اللهُ: بَلِ الْعَالَمُ كُلُّهُ سَمَاوَاتُهُ وَأَرْضُهُ مِنَ الْعَرْشِ إِلَى الْفَرْشِ.

من العرش الذي هو سقف المخلوقات، إلى هذا الفرش.

كُلُّه بَيْنَ يَدَيْهِ سُبْحَانَهُ؛ كَأَنَّهُ بندقةٌ فِي يَدِ أَحَدِنَا؛ أفلاَ يَجُوزُ لِمَنْ هَذَا شَأْنُهُ أَنْ يُقَالَ: إِنَّهُ مَعَ خَلْقِهِ مَعَ كَوْنِهِ عَالِيًا عَلَيْهِمْ بَائِنًا مِنْهُمْ فَوْقَ عَرْشِهِ؟!

قال: بَلَى؛ يَجِبُ الْإِيمَانُ بكلٍّ مِنْ علوِّه تَعَالَى ومعيِّته، وَاعْتِقَادِهِ أَنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ حقٌّ عَلَى حَقِيقَتِهِ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يُساء فَهْمُ ذَلِكَ، أَوْ يُحمل عَلَى معانٍ فَاسِدَةٍ؛ كَأَنْ يُفْهَمَ مِنْ قَوْلِهِ: {وَهُوَ مَعَكُمْ} معيَّةَ الِاخْتِلَاطِ وَالِامْتِزَاجِ؛ كَمَا يَزْعُمُهُ الْحُلُولِيَّةُ! أَوْ يُفْهَمَ مِنْ قَوْلِهِ: {فِي السَّمَاءِ} أَنَّ السَّمَاءَ ظرفٌ حاوٍ لَهُ محيطٌ بِهِ!

وهذا أيضًا مما يكذبون به على أهل السنة والجماعة، يقولون ليل نهار يستدلون بحديث الجارية، الجارية سألها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "أَيْنَ اللَّهُ؟" فقَالَتْ: فِي السَّمَاءِ.

يقولون: هل هذا يُعقل؟ هكذا يقولون: أن تكون السماء ظرفًا لله تَبَارَكَ وَتَعَالَى تحيط به؟ من يقول هذا؟! لكنهم غلو في التجسيم والتمثيل!!

والله هذا كذب على أهل السنة والجماعة.

ما قال واحد منهم هذا وما سطره في كتابه، وإنما شنَّع على من قال ذلك تشنيعًا عظيمًا كالممثلة والمشبهة؛ لأن الله عَزَّ وَجلَّ ما أراد ذلك، وما فسر سلفنا الصالح الآية بهذه الطريقة.

واللغة لا توجب ذلك هنا أيضا، ، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ في سابقتها؛ لأن فِي السَّمَاءِ، بمعنى: في العلو، السماء في لغة العرب يا من لا تفهمون لغة العرب بمعنى العلو، كل ما علاك فهو سماء، هذا معروف في لغة العرب.

ولذا يقول: {أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً}، والماء لا ينزل من السماء إنما ينزل من السحاب، فمعنى: {أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ}، يعني: أنزل من العلو.

فإذا قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: {أَأَمِنتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ} [الملك: 16]، أي: من في العلو سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

ولما سأل الجارية: "أَيْنَ اللَّهُ؟" وقَالَتْ: فِي السَّمَاءِ؛ أرادت في العلو المطلق ليس فوقه شيء، لأنه الظاهر الذي ليس فوقه شيء سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

فإذا قال بعض هؤلاء وهم يعلمون أنهم كاذبون: إننا نقول: إن قول الله تعالى: {فِي السَّمَاءِ}، تعني: أن السماء ظرف حاوٍ له محيط به، نقول: هذا كذب ما قلنا ذلك، وننزه الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى عن ذلك.

قال: كَيْفَ وَقَدْ وسع كرسيُّه السموات وَالْأَرْض جَمِيعًا؟!

الكرسي موضع القدمين قدمي الرحمن، والكرسي الذي هو موضع القدمين وسع السماوات والأرض، فكيف يُقال بعد ذلك إن السماء تحوي ربنا تَبَارَكَ وَتعَالَى عن ذلك؟!

قال: وَهُوَ الَّذِي يُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ؟!

فَسُبْحَانَ مَن لَا يَبْلُغُهُ وَهْمُ الْوَاهِمِينَ، وَلَا تُدْرِكُهُ أَفْهَامُ الْعَالِمِينَ.

ثم قال رَحِمَهُ اللهُ: وَهُوَ سُبْحَانَهُ فَوْقَ عَرْشِهِ، رَقِيبٌ عَلَى خَلْقِهِ، مُهَيْمِنٌ عَلَيْهِمْ، مُطَّلِعٌ عَلَيْهِم إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِن مَّعَانِي رُبُوبِيَّتِهِ. وَكُلُّ هَذَا الْكَلامِ الَّذِي ذَكَرَهُ اللهُ ـ مِنْ أَنَّهُ فَوْقَ الْعَرْشِ وَأَنَّهُ مَعَنَا ـ حَقٌّ عَلَى حَقِيقَتِهِ، لَا يَحْتَاجُ إِلَى تَحْرِيفٍ، وَلَكِنْ يُصَانُ عَنِ الظُّنُونِ الْكَاذِبَةِ؛ مِثْلِ أَنْ يُظَنَّ أَنَّ ظَاهِرَ قَوْلِهِ: {فِي السَّمَاءِ}، أَنَّ السَّمَاءَ تُظِلُّهُ أَوْ تُقِلُّهُ، وَهَذَا بَاطِلٌ بِإِجْمَاعِ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالإِيمَانِ؛ فَإِنَّ اللهَ قَدْ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ

السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ، وَهُوَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَنْ تَزُولَا، وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ؛ إِلَّا بِإِذْنِهِ، وَمَنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ.

إذًا: أكد شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ ما ذكره من أن الله عَزَّ وَجلَّ مطلعٌ علينا، رقيب علينا، مهيمن علينا سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، وكل ذلك من معاني ربوبيته، وهو مع ذلك قد استوى على عرشه.

وأكد ذلك بهذه الآيات التي تدفع هذا الظن الكاذب، ظن أن قوله تعالى: {فِي السَّمَاءِ}، يعني: أن السماء تحيط به سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

فذكر بعض هذه الآيات، ومن هذه الآيات قوله تعالى: {وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ} [البقرة: 255]، وهذا يدل على عظم الكرسي، فكيف بالعرش الذي استوى عليه ربنا تَبَارَكَ وَتعَالَى؟

فإذا كان الكرسي بهذه العظمة والعرش لا يقدر قدره إلا الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، فكيف تحويه السماوات والأرض أو تحوط به أو تظله؟! تعالى الله تعالى عما يقول الظالمون علوًا كبيرًا.

وكذلك قوله: {إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا}، أي: أن تضطرب، فالذي يُمسك السماوات بغير عمد ترونها ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

والصحيح من قولي المفسرين: أن السماوات بلا عمد؛ لأن المفسرين اختلفوا في هذه الآية على قولين: ما معنى {بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا}؟ هل السماء لها أعمدة لكننا لا نراها أم أنها هكذا ممسوكة بلا أعمدة؟

لأن الله عَزَّ وَجلَّ قال عن السماوات: {بِغَيْرِ عَمَدٍ}، ترونها بغير عمد أم أنها بعمد لكنكم لا ترون ذلك؟

الصحيح من قولي أهل العلم المفسرين: أنها بغير عمد، فالله عَزَّ وَجلَّ يمسك السماوات والأرض أن تزولا، أي: أن تضطرب.

{وَلَئِنْ زَالَتَا}، لو اضطربت السماوات والأرض ما أمسكهما أحد من الخلق، ، ولعجزت قدرتهم وقواهم عنهما.

فإذا كان الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى بهذا الوصف، فكيف يُتصور بعد ذلك أن تكون السماء حاوية له سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، وأن تكون حيزًا له، وما ذكر الله عَزَّ وَجلَّ مثل هذه الآيات إلا ليدل على عظيم سلطانه وقوة قدرته سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، حتى تمتلئ القلوب مهابة وإجلالًا لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، لا أن تنحرف إلى ما انحرف إليه هؤلاء وظنوا بالله الظنون -نسأل الله السلامة والعافية-.

وقال تعالى: {وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ}، فالأمر كله يرجع إلى أمره ومشيئته؛ ولذا هذه السماء التي ترونها على هذه الصورة الآن وهذه الأرض التي يمسكها ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى، إذا شاء أن تميد يوم القيامة وأن تضطرب وأن تُبدل الأرض غير الأرض والسماوات وبرزوا لله الواحد القهار، كان ما أراده الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

فكل هذه الآيات التي ذكرها المصنف رَحِمَهُ اللهُ تدل على أن هذا الظن ظن فاسد، ولا نحتاج معه إلى تحريف كتحريف هؤلاء؛ لأنه ظنٌّ باطل بإجماع أهل العلم والإيمان والعبرة بقولهم، ويأتي في مقدمتهم أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ و رَضِيَ اللهُ عَنْهُم.

قال: وَقَد دَّخَلَ فِي ذَلِك.

يعني: فيما يجب أن تؤمن به.

الإِيمَانُ بِأَنَّهُ قَرِيبٌ مُجِيبٌ؛ كَمَا جَمَعَ بينَ ذَلِكَ في قَوْلِهِ: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ} [البقرة: 186]، وَقَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((إِنَّ الَّذِي تَدْعُونَهُ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُم مِّن عُنقِ رَاحِلَتِهِ)).

قال: وَمَا ذُكِرَ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ مِنْ قُرْبِهِ وَمَعِيَّتِهِ.

فالله قريب منا سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، قريب من عباده المؤمنين الذين يدعونه، وهو معنا كذلك.

فهذا القرب وهذه المعية قال: لَا يُنَافِي مَا ذُكِرَ مِنْ عُلُوِّهِ وَفَوْقِيَّتِهِ؛ فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ فِي جَمِيعِ نُعُوتِهِ، وَهُوَ عَلِيٌّ فِي دُنُوِّه، قَرِيبٌ فِي عُلُوِّهِ.

هو عالٍ في دنوه من خلقه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، وهو كذلك قريب في علوه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

قال الشيخ الهراس رَحِمَهُ اللهُ: ((وَقَدْ دَخَلَ فِي ذَلِك الْإِيمَانُ)).

أي: يَجِبُ الْإِيمَانُ بِمَا وَصَفَ اللَّهُ بِهِ نَفْسَهُ مِنْ أَنَّهُ قريبٌ مجيبٌ، فَهُوَ سُبْحَانَهُ قريبٌ مِمَّن يَدْعُوهُ وَيُنَاجِيهِ، يَسْمَعُ دُعَاءَهُ وَنَجْوَاهُ، وَيُجِيبُ دُعَاءَهُ مَتى شَاءَ وَكَيْفَ شَاءَ، فَهُوَ تَعَالَى قريبٌ قربَ الْعِلْمِ وَالْإِحَاطَةِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ} [ق: 16].

هذه آية عامة، وهذا معناه: أن القرب هاهنا قرب عام من جميع الخلق؛ لأن الآية تقول: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ}، والمراد هاهنا المؤمن أم جنس الإنسان؟ جنس الإنسان، ما الدليل على ذلك؟

باقي الآية قال: {وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ (16) إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ (17) مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ} [ق: 16-18]، وهذا في كل أحد.

إذًا: ظاهر هذه الآية أن القرب قرب عام.

وقوله تعالى{وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ}، هذا قرب خاص.

فهل القرب كذلك ينقسم؟ بعض أهل العلم قال بذلك لهذه الآيات، قال: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ}، قالوا: وهذا قرب عام.

وقوله {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ}, وكذلك قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((إِنَّ الَّذِي تَدْعُونَهُ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُم مِّن عُنقِ رَاحِلَتِهِ))؛ فهذا كله قرب خاص.

ولذا قال بعض أهل العلم: إن القرب كذلك منه عام ومنه خاص.

ولذا يقول الشيخ الهراس رَحِمَهُ اللهُ: فَهُوَ تَعَالَى قريبٌ قربَ الْعِلْمِ وَالْإِحَاطَةِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ}.

قال: وَبِهَذَا يتبيَّن أَنَّهُ لَا مُنَافَاةَ أَصْلاً بَيْنَ مَا ذُكر فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ مِنْ قُرْبِهِ تَعَالَى ومعيَّته وَبَيْنَ مَا فِيهِمَا مِنْ علوِّه تَعَالَى وفوقيَّته.

فَهَذِهِ كُلُّهَا نعوتٌ لَهُ عَلَى مَا يَلِيقُ بِهِ سُبْحَانَهُ، لَيْسَ كَمِثْلِهِ شيءٌ فِي شيءٍ مِنْهَا.

قلنا: هذه الآية استدل بها بعض أهل العلم على تقسيم القرب، لكن رد ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ وتلميذه ابن القيم وقالا: إن القرب لا ينقسم،

وإنما هو قرب واحد قرب من عباده المؤمنين، ليس هناك قرب عام، إنما هي معية عامة، وأما القرب فهذا مخصوص بعباد الله المؤمنين.

ولذا سنقرأ كلام ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ لأنه كلام نفيس يحتاج إلى شرح، قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ في هذه الآية التي ذكرناها وهي قوله تعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ}.

قال: فَهَذِهِ الْآيَةُ لَهَا شَأْنٌ وَقَدِ اخْتَلَفَ فِيهَا السَّلَفُ وَالْخَلَفُ عَلَى قَوْلَيْنِ:

فَقَالَتْ طَائِفَةٌ: نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ بِالْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ وَالْإِحَاطَةِ وَعَلَى هَذَا فَيَكُونُ الْمُرَادُ قُرْبَهُ سُبْحَانَهُ بِنَفْسِهِ، وَهُوَ نُفُوذُ قُدْرَتِهِ وَمَشِيئَتِهِ فِيهِ وَإِحَاطَةُ عِلْمِهِ بِهِ.

وَالْقَوْلُ الثَّانِي: أَنَّ الْمُرَادَ قُرْبُ مَلَائِكَتِهِ مِنْهُ، وَأَضَافَ ذَلِكَ إِلَى نَفْسِهِ بِصِيغَةِ ضَمِيرِ الْجَمْعِ عَلَى عَادَةِ الْعُظَمَاءِ فِي إِضَافَةِ أَفْعَالِ عَبِيدِهَا إِلَيْهَا بِأَوَامِرِهِمْ وَمَرَاسِيمِهِمْ, فَيَقُولُ الْمَلِكُ نَحْنُ قَتَلْنَاهُمْ وَهَزَمْنَاهُمْ.

مع أنه لم يشارك في المعركة, هذا معروف في لغة العرب.

قَالَ تَعَالَى: {فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ} [القيامة: ١٨]؛ وَجِبْرَائِيلُ هُوَ الَّذِي يَقْرَؤُهُ عَلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وَقَالَ: {فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ} [الأنفال: ١٧]؛ فَأَضَافَ قَتْلَ الْمُشْرِكِينَ يَوْمَ بَدْرٍ إِلَيْهِ، وَمَلَائِكَتُهُ هُمُ الَّذِينَ بَاشَرُوهُ إِذْ هُوَ بِأَمْرِهِ، وَهَذَا الْقَوْلُ أَصَحُّ مِنَ الْأَوَّلِ لِوُجُوهٍ:

- أَحَدُهَا: أَنَّهُ سُبْحَانَهُ قَيَّدَ الْقُرْبَ فِي الْآيَةِ بِالظَّرْفِ, وَهُوَ قَوْلُهُ: {إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ} [ق: ١٧]؛ كَالْعَامِلِ فِي الظَّرْفِ مَا فِي قَوْلِهِ: {وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ}

[ق: ١٦] مِنْ مَعْنَى الْفِعْلِ، وَلَوْ كَانَ الْمُرَادُ قُرْبَهُ سُبْحَانَهُ بِنَفْسِهِ لَمْ يَتَقَيَّدْ ذَلِكَ بِوَقْتِ تَلَقِّي الْمَلَكَيْنِ.

لأن المعية العامة تكون في كل وقت وحين, وكذلك القرب العام يكون في كل وقت وحين, فلما قيده بتلقي الملكين؛ دل ذلك على أن القُرب هاهنا قُرب الملكين وليس قرب الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

قال: لَمْ يَتَقَيَّدْ ذَلِكَ بِوَقْتِ تَلَقِّي الْمَلَكَيْنِ, وَلَا كَانَ فِي ذِكْرِ التَّقْيِيدِ بِهِ فَائِدَةٌ، فَإِنَّ عِلْمَهُ سُبْحَانَهُ وَقُدْرَتَهُ وَمَشِيئَتَهُ عَامَّةُ التَّعَلُّقِ.

هذا الوجه الأول.

قال:

- الثَّانِي: أَنَّ الْآيَةَ تَكُونُ قَدْ تَضَمَّنَتْ عِلْمَهُ وَكِتَابَةَ مَلَائِكَتِهِ لِعَمَلِ الْعَبْدِ، وَهَذَا نَظِيرُ قَوْلِهِ: {أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ} [الزخرف: ٨٠].

هي هي: {إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ}.

قال:

- الثَّالِثُ: إِنَّ قُرْبَ الرَّبِّ تَعَالَى إِنَّمَا وَرَدَ خَاصًّا وَلَا عَامًّا.

القرب الذي أُضيف إليه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى ورد خاصًا بالمؤمنين لا عامًا.

قال: قُرْبُهُ مِنْ دَاعِيهِ بِالْإِجَابَةِ.

يعني: يدعوه العبد فيجيبه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

وَمِنْ مُطِيعِهِ بِالْإِثَابَةِ.

فإذا أطاع العبد أثابه الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

قال: وَلَمْ يَجِئِ الْقُرْبُ كَمَا جَاءَتِ الْمَعِيَّةُ خَاصَّةً وَعَامَّةً، فَلَيْسَ فِي الْقُرْآنِ وَلَا فِي السُّنَّةِ أَنَّ اللَّهَ قَرِيبٌ مِنْ كُلِّ أَحَدٍ وَأَنَّهُ قَرِيبٌ فِي الْكَافِرِ وَالْفَاجِرِ، وَإِنَّمَا جَاءَ خَاصًّا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ} [البقرة: ١٨٦]؛ فَهَذَا قُرْبُهُ مِنْ دَاعِيهِ وَسَائِلِهِ بِهِ، وَكَمَا فِي قَالَ تَعَالَى: {إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ} [الأعراف: 56], وَلَمْ يَقُلْ قَرِيبَةٌ.

وهذه الآية يأتي السؤال البلاغي فيها كثيرًا: {إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ}.

(رحمة): مؤنثة أم مذكرة؟ مؤنثة, وهذا يقتضي أن يقال: (إن رحمت الله قريبة من المحسنين).

لماذا جاءت على خلاف الأصل: {إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ}؟

نسمع كلام ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: وَلَمْ يَقُلْ قَرِيبَةٌ، وَإِنَّمَا كَانَ الْخَبَرُ عَنْهَا مُذَكَّرًا.

قال: والذي عندي –عند ابن القيم- أن الرحمة لما كانت من صفات الله تعالى، وصفاته قائمة بذاته، فإذا كانت قريبة من المحسنين، فهو سبحانه قريب منهم قطعا، وقد بينا أنه سبحانه قريب من أهل الإحسان، ومن أهل سؤاله بإجابته, ويوضح ذلك أن الإحسان يقتضي قرب العبد من ربه، فيقرب ربه منه لما يقرب إليه بإحسانه يقرب تعالى إليه، فإنه من تقرب منه شبرا تقرب منه ذراعا، ومن تقرب منه ذراعا تقرب منه باعا، فهو قريب من المحسنين بذاته ورحمته قربا ليس له نظير، وهو مع ذلك فوق سماواته على عرشه، كما أنه سبحانه يقرب من عباده في آخر الليل وهو على عرشه، ويدنو من أهل عرفة عشية عرفة، وهو على عرشه، فإن علوه سبحانه على سماواته من لوازم ذاته، فلا يكون قط إلا عاليا,

ولا يكون فوقه شيء البتة، كما قال أعلم الخلق به: "وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ", وهو سبحانه قريبٌ في علوه، عالٍ في قربه.

ثم قال رَحِمَهُ اللهُ: والذي يسهل عليك فهم هذا: معرفة عظمة الرب وإحاطته بخلقه.

أن تقدر الله حق قدره, وأنه ليس كمثله شيء, وأنه يُمسك السماوات والأرض أن تزولا, فكيف يستحيل في حق من هذا بعض عظمته أن يكون فوق عرشه ويقرُب من خلقه كيف يشاء وهو على العرش سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

ثم قال رَحِمَهُ اللهُ بعد ذلك: وَمِنَ الإِيمَانِ باللهِ وَكُتُبِهِ الإيمانُ بِأَنَّ الْقُرْآنَ كَلامُ اللهِ.

وهذا يحتاج إلى مزيد تفصيل, نُرجئه إن شاء الله إلى الدرس القادم.

الدرس السادس والثلاثون

إن الحمد لله, نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله تعالى من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله, صلى الله عليه, وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد:

فقد وصلنا إلى قول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: وَمِنَ الإِيمَانِ باللهِ وَكُتُبِهِ الإيمانُ بِأَنَّ الْقُرْآنَ كَلامُ اللهِ، مُنَزَّلٌ، غَيْرُ مَخْلُوقٍ، مِنْهُ بَدَأَ، وَإِلَيْهِ يَعُودُ، وَأَنَّ اللهَ تَكَلَّمَ بِهِ حَقِيقَةً.

هذه الأصول التي أجملها المصنف رَحِمَهُ اللهُ بعد أن فصَّل فيها وبيَّن أدلتها فيما سبق، إنما أجملها ليؤكد على ضرورة الإيمان بها وأنها من أصول الإيمان.

فذكر أن من الإيمان بالله وكتبه: الإيمانُ بِأَنَّ الْقُرْآنَ كَلامُ اللهِ.

وذلك أن الله عَزَّ وَجلَّ من صفته أنه يتكلم، فالإيمان بكونه يتكلم من الإيمان بالله تعالى وصفاته، وكذلك هو من الإيمان بكتبه، لأن وحيه كلام.

الله عَزَّ وَجلَّ لما أوحى بالقرآن إلى نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إنما تكلم به وسمعه جبريل وبلغه نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ ولذا كان الإيمان بالقرآن إيمانًا بالله وبكتبه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

وقد أرسل لي بعض إخواني سند رواية الإمام قالون المذكور في مصحف الجماهيرية الليبية الشقيقة فوجدت فيه أن نهاية الإسناد الشريف إلى جبريل عليه السلام عن اللوح المحفوظ!!.....

--

وهذا يعني أن جبريل عليه السلام لم يسمع القرآن من الله تعالى وإنما أخذه من اللوح المحفوظ أو من بيت العزة في السماء الدنيا، وهذه عقيدة المعطلة نفاة كلام الباري بصوت وحرف وعلى رأسهم الأشعرية.

وهذا القول باطل مخالف للآيات والأحاديث وإجماع سلف الأمة من أن القرآن الكريم كلام الله تكلم به بصوت وحرف وسمعه جبريل وبلغه نبينا صلى الله عليه وسلم .وقد ثبت النقل عن السلف أن جبريل سمع القرآن من الله تعالى.

قال شيخ الإسلام في الفتاوى: ومذهب سلف الأمة، وأئمتها، وخلفها أن النبي صلى الله عليه وسلم سمع القرآن من جبريل، وجبريل سمعه من الله عز وجل. اهـ.

وهذا الأصل –أعني الإيمان بالقرآن–، اضطربت فيه أمة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اضطرابًا شديدًا، وأعني بذلك أمة الإجابة وأمة الدعوة، وذلك أنهم اختلفوا في القرآن.

فالاختلاف الذي وقع في القرآن على نوعين كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ في مجموع الفتاوى: اختلاف في تنزيله، واختلاف في تأويله.

فالذي اختلف في تنزيله وأنكره أمة الدعوة، والذي اختلف في تأويله أمة الإجابة، أي: التي أجابت للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأعلنت الإسلام دينًا لها.

فمن أمة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهي أمة الدعوة من أنكر أن يكون القرآن كلام الله، وأن يكون نزل على نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وحيٌ من قِبل الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

وهذا ما ذكره الله عَزَّ وَجلَّ عن الكافرين والمشركين في قوله تعالى: {وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ} [الأنعام: 91].

وكذلك في مقالة الوحيد الذي ذكره الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى في كتابه لما قال: {إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ} [المدثر: 25]، يعني: أنه من افتراء محمد وليس منزلًا من عند الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

ولذا كان من أصول الإيمان بالله وكتبه: أن يؤمن المرء بأن القرآن منزل من عند الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى تكلم به حقيقة.

والاختلاف الآخر هو الاختلاف في تأويله، وهو أن يقول المرء: أنا أؤمن بأن هذا القرآن كلام الله تكلم به، لكن هذا ليس مرادًا لله تَبَارَكَ وَتَعَالَى من هذه الآية.

إذا قال الله عَزَّ وَجلَّ: {بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ} [المائدة: 64]، أو إذا قال: {تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا} [القمر: 14]، أو: {وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي} [طه: 39]، أو غير ذلك من آيات الصفات.

يقول: ليس المراد هاهنا إثبات صفات الباري تَبَارَكَ وَتَعَالَى، فيقع الاختلاف في تأويله، ويتم تأويله على خلاف مراد الله ومراد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فمن الإيمان بالله الإيمان بأن القرآن كلام الله منزل، أي: أن الله أنزله؛ كما قال تعالى: {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ} [القدر: 1].

وكما قال تعالى: {نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (193) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ (194) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ} [الشعراء: 193-195].

وكما قال الله عَزَّ وَجلَّ: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ} [النساء: 136].

فلا يتم إيمان العبد إلا بالإيمان بأن القرآن منزل من عند الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، غير مخلوق؛ لأن القرآن كلام الله، وكلام الله صفة له، وصفات الله غير مخلوقة.

فالقرآن كلام الله حيث تصرَّف, سواء كان محفوظًا في الصدور، أو كان متلوًا بالألسن، أو كان مكتوبًا في المصاحف؛ فلا يخرج بذلك عن أن يكون كلام الله؛ كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ، فهذه من أصول الإيمان.

مِنْهُ بَدَأَ.

أي: منه خرج سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، لأنه هو الذي تكلم به ابتداءً، وإنما يضاف الكلام إلى من قاله ابتداءً لا من قاله مبلغًا مؤديًا، كما سيأتي في الفقرة التي بعد ذلك.

هذه قاعدة: الكلام يُضاف إلى من قاله ابتداءً ويُنسب إليه، لا يُضاف إلى من قاله مبلغًا مؤديًا؛ لأننا وجدنا في كتاب الله إضافة القرآن إلى الرسول الملكي مرة، ومرة أخرى إلى الرسول البشري.

قال الله عَزَّ وَجلَّ في موضعين في كتابه في الحاقة، والتكوير: {إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ}.

وفي موضع أراد الرسول البشري، أي: محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وفي موضع آخر أراد الرسول الملكي الذي هو جبريل.

ما نوع هذه الإضافة هاهنا؟ نقول: هي إضافة بلاغ وليست إضافة ابتداء وإنشاء؛ لأن القرآن كلام الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وسيأتي ذلك في كلامه.

فقال: كلام الله مِنْهُ بَدَأَ.

قلنا: أي: الذي تكلم به ابتداءً لا غيره سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

وَإِلَيْهِ يَعُودُ.

يعني: يعود كصفة له، لأن القرآن صفة لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، أو أنه يعود إليه في آخر الزمان؛ كما جاء في الحديث: أن من أشراط الساعة أن يُرفع القرآن في الصدور أو من الصدور والمصاحف.

وهذه المسألة -أعني مسألة كلام الله- من أكبر المسائل التي وقع فيها الامتحان، حتى إن بعض أهل العلم قال: إن أهل الكلام ما سموا بأهل الكلام إلا لخوضهم في هذه المسألة.

لم يسموا بذلك بسبب جدالهم وكثرة كلامهم وتشقيقاتهم، لا، قال: إنما سموا بسبب هذه المسألة.

وهذه المسألة هي التي وقعت بسببها الفتنة في أمة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ووقعت بسببها المحنة لأهل السنة والجماعة.

الله عَزَّ وَجلَّ يقول في كتابه: {المص (1) كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ} [الأعراف: 1-2]؛ فهذا فيه إثبات أن القرآن منزل من قِبل الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

{فَلاَ يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (2) اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ} [الأعراف: 2-3].

فهاتان الآيتان فيهما جملة من العقائد, من ذلك: أن القرآن منزل من قِبل الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

ومن ذلك أيضًا: أن واجب المؤمن اتجاه القرآن ألا يكون في صدره حرج منه من جهة الاعتقاد.

أن يعتقد أن القرآن كلام الله غير مخلوق, وهو صفة له سُبْحَانَهُ وَتعَالَى تكلم به.

ومن جهة التسليم، أي: أن يُسلم بكل ما جاء في القرآن، {فَلاَ وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} [النساء: 65]؛ وهذا هو محض الاتباع.

ولذا قال الله عَزَّ وَجلَّ: {اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ}.

ولذا قسم أهل العلم المؤمنين بالقرآن إلى قسمين:

- القسم الأول: وهم الكاملون في إيمانهم به.

وهؤلاء الذين اعتقدوا أن القرآن كلام الله غير مخلوق، وأقبلوا عليه وفهموا معانيه, وآمنوا بهذه المعاني واعتقدوها وتخلقوا بأخلاقها, وتأدبوا بآدابها وأحلوا حلاله وحرموا حرامه وآمنوا بمتشابهه وردوا المتشابه إلى المُحكم، وفعلوا ما فيه من الأوامر على قدر الاستطاعة، واجتنبوا ما فيه من النواهي ولم يفرقوا بين نصوصه, فلم يؤمنوا ببعض الكتاب ويكفروا ببعض.

من جاء بما ذكرناه؛ فهو مؤمن كامل الإيمان بالقرآن، فهذا هو القسم الأول، نسأل الله عَزَّ وَجلَّ أن يجعل لنا أوفر الحظ والنصيب من هذا القسم.

- والقسم الآخر: وهم ناقصو الإيمان به.

وهؤلاء قسمان:

- قسم: مبتدعة؛ وهم كل من ابتدع بدعة ترك لها شيئًا من كتاب الله وسنة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وهم على مراتب، أي: ليسوا في درجة واحدة، بعضهم أصحاب بدع مغلظة، وبعضهم أخف من ذلك.

- وقسم: فسقة ظلمة؛ وهم الذين شابهوا اليهود في أنهم علموا ما جاء في القرآن ولم يعملوا به؛ فتجرؤوا على مخالفة ما جاء في كتاب الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى وركبوا المعاصي والذنوب وتركوا الواجبات؛ ولذلك كان إيمانهم بكتاب الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى إيمانًا ناقصًا.

قال الشيخ الهراس رَحِمَهُ اللهُ: قَوْلُهُ: ((وَمِنَ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَكُتُبِهِ)) إلخ.

قال: جَعَلَ المصنِّف الْإِيمَانَ بِأَنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللَّهِ دَاخِلاً فِي الْإِيمَانِ بِاللَّهِ؛ لِأَنَّهُ صفةٌ مِنْ صِفَاتِهِ.

ما الدليل على أن القرآن صفة من صفات الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى؟ نقول أولًا: لأن القرآن كلام الله، وقد جاء في كتاب الله أن الله يتكلم.

أين في كتاب الله أن الله يتكلم؟ قال الله عَزَّ وَجلَّ: {وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا} [النساء: 164]، وقال تعالى: {وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ} [الأعراف: 143].

هذا أولًا: يثبت أن الله عَزَّ وَجلَّ يتكلم.

نقول كذلك: ولأن الله عَزَّ وَجلَّ أضاف القرآن لنفسه في كتابه، كما قال الله عَزَّ وَجلَّ: {وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ} [التوبة: 6]، ما نوع الإضافة هاهنا؟

قلنا: الإضافة على نوعين:

إضافة صفة إلى موصوف.

وإضافة تشريف؛ وهي إضافة أعيان إلى خالقها، أي: إضافة مخلوق إلى خالق.

فمن أي نوعي الإضافة هذه الآية: {فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللَّهِ}؟

هي من إضافة الصفة إلى الموصوف؛ لأن القرآن ليس عينًا تقوم بنفسها، لكن لابد أن يقوم بذات الموصوف به.

وكذلك قال الله عَزَّ وَجلَّ: {وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} [الأنعام: 115].

{كَلِمَتُ رَبِّكَ}؛ أي: القرآن، والمراد بالكلمة هاهنا: الكلمة الشرعية؛ لأن كلمات الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى نوعان: كلمات كونية، وكلمات شرعية، والقرآن من الكلمات الشرعية.

فقال: {وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا}؛ أي: صدقًا في الأخبار، وعدلًا في الأحكام؛ ولذا قلنا: إن كلمات الله عَزَّ وَجلَّ هاهنا هي الكلمات الشرعية، فأضافها الله عَزَّ وَجلَّ كذلك إلى نفسه.

وكذلك جاء في الحديث أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: "أَلَا رَجُلٌ يَحْمِلُنِي إِلَى قَوْمِهِ، فَإِنَّ قُرَيْشًا قَدْ مَنَعُونِي أَنْ أُبَلِّغَ كَلَامَ رَبِّي".

والشاهد هاهنا: قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "كَلَامَ رَبِّي"؛ فأضاف الكلام كذلك إلى الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى وأراد القرآن.

ولذا قال المصنف رَحِمَهُ اللهُ: فَلاَ يتمُّ الْإِيمَانُ بِهِ سُبْحَانَهُ إِلَّا بِهَا.

يعني: بالإيمان بهذه الصفة صفة الكلام وكون القرآن كلام الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

إِذِ الْكَلاَمُ لَا يَكُونُ إِلَّا صِفَةً للمتكلِّم، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ موصوفٌ بِأَنَّهُ متكلِّم بِمَا شَاءَ مَتَى شَاءَ.

وبهذا خالف أهل السنة والجماعة غيرهم؛ لأنهم يقولون: إن نوع الكلام قديم، أي: أن الله عَزَّ وَجلَّ موصوف بصفة الكلام، فصفة الكلام صفة ذاتية لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، لكنه حادث الآحاد.

لما كلم الله عَزَّ وَجلَّ موسى عَليهِ الصَّلاةُ والسَّلامَ كان ذلك وقت وجود موسى، ولما جاء عيسى بعده كلم الله عَزَّ وَجلَّ عيسى وقت وجود عيسى، ولما جاء محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كلم الله عَزَّ وَجلَّ محمد، فلم يكن كلام الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى لمحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قديمًا ككلامه لموسى وكلامه لعيسى.

وهذا معناه: أن الله عَزَّ وَجلَّ يتكلم بما شاء متى شاء، وهذا هو الذي دل عليه كتاب الله وسنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

والكلام لا يكون إلا بصوت وحرف، هذا معلوم في لغة العرب، وجاءت سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لتؤكد ذلك، فإن الله عَزَّ وَجلَّ ينادي يوم القيامة بصوت يسمعه من بعُد كما يسمعه من قرُب، هذا ثابت عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حديث جابر رَضِي اللهُ عَنْهُ.

وكذلك جاء: "لَا أَقُولُ (الم) حَرْفٌ، وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْفٌ، وَلَامٌ حَرْفٌ، وَمِيمٌ حَرْفٌ"، وهذا يدل كذلك على أن القرآن بصوت وحرف.

فقال المصنف رَحِمَهُ اللهُ: وَأَنَّهُ لَمْ يَزَلْ وَلَا يَزَالُ يتكلَّم؛ بِمَعْنَى أَنَّ نَوْعَ كَلَامِهِ قديمٌ وَإِنْ كَانَتْ آحَادُهُ لَا تَزَالُ تَقَعُ شَيْئًا بَعْدَ شيءٍ بِحَسَبِ حِكْمَتِهِ.

هل لا زال الله عَزَّ وَجلَّ يتكلم إلى الآن؟ نعم لا زال يتكلم إلى الآن يأمر وينهى كل يوم هو في شأن سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، يخلق هذا، ويميت هذا، ويرزق هذا، كل ذلك يأتي من كلامه، ألا له الخلق والأمر.

وهذه من الآيات التي استدل بها أهل السنة والجماعة على أن كلام الله غير مخلوق، لأنه فرَّق بين الخلق والأمر، فدل ذلك على أن الخلق خلاف الأمر، وأن الخلق يكون بالأمر: {كُنْ فَيَكُونُ}.

وكذلك قوله تعالى: {الرَّحْمَنُ (1) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (2) خَلَقَ الْإِنْسَانَ} [الرحمن: 1-3]، أين وجه الدلالة في هذه الآيات؟ أنه غاير سُبْحَانَهُ وَتعَالَى بين العلم والخلق، فقال: {عَلَّمَ الْقُرْآنَ (2) خَلَقَ الْإِنْسَانَ}، ما قال: خلق القرآن، فدل ذلك على أن القرآن غير مخلوق.

أنا أذكر هذه الأدلة لأننا لم نذكرها فيما مضى ذكرنا أدلة غيرها، وكثرة الأدلة مما يثبت اعتقاد العبد، لأن أهل السنة عمدتهم في ذلك كتاب الله وسنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عندهم أدلة كثيرة جدًا.

ولذا تجد في كلام ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ كثيرًا من ذلك، يقول: وهذه المسألة عليها ألف دليل في كتاب الله وفي سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولن أكون مبالغًا إن قلت هناك أكثر من ذلك من الأدلة، لكن ما دليل المعطلة؟

لا تجد إلا آية أو آيتين من المتشابه في كتاب الله، ثم عمدتهم بعد ذلك الأصول الفاسدة التي بنوا عليها هذا الاعتقاد.

فمن الأدلة كذلك: قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "مَنْ نَزَلَ مَنْزِلًا، ثُمَّ قَالَ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ لَمْ يَضُرَّهُ شَيْءٌ حَتَّى يَرْتَحِلَ مِنْ مَنْزِلِهِ".

أين وجه الدلالة من هذا الحديث على أن كلام الله غير مخلوق وأنه صفة له؟

"كلمات الله"، والإضافة هنا من إضافة الصفة للموصوف، الاستعاذة.

أظهر وجه في هذا الحديث هو الاستعاذة؛ أنه لا تجوز الاستعاذة بمخلوق، والاستعاذة إنما تكون في حق المخلوق، المخلوق هو الذي يستعيذ، الله عَزَّ وَجلَّ لا يستعيذ من شيء سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، له أن يُقسم بما يشاء من خلقه، وليس لنا أن نُقسم بشيء من الخلق، أما الاستعاذة؛ فهذه في حق المخلوق نحن الذين نستعيذ.

هل تجوز الاستعاذة بمخلوق؟ الاستعاذة لا تجوز بمخلوق، وإنما هي بالله أو صفاته سُبْحَانَهُ وَتعَالَى،

فكما قال: "أَعُوذُ بِوَجْهِكَ"، هنا قال: "أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ"، فلما استعاذ بكلمات الله دل ذلك على أن كلمات الله غير مخلوقة.

قال غير واحد من السلف: من أنكر أن يكون الله متكلمًا، أو أن يكون القرآن كلامه، فقد أنكر رسالة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بل ورسالة جميع الرسل التي حقيقتها تبليغ كلام المُرسل وهو الله عَزَّ وَجلَّ.

يعني لو قلنا: إن الله لا يتكلم وإنما خلق الكلام، لو لم يكن ثمَّ كلام فلماذا يُبلغ الرسول؟ وكيف يُعقل كونه رسولًا؟

فالذي يقول: إن الله لا يتكلم، هذا أبطل الرسالة وأبطل القدر كما يقول ابن القيم.

كيف يُبطل الشرع والقدر؟ لأن الشرع عبارة عن كلام، قلنا: الشرع وحي، فإن قلنا: إن الله لا يتكلم، إذًا: لا رسالة، هذا أبطل الوحي وأبطل الشرع.

كيف أبطل القدر؟ لأن آخر مراتب القدر الخلق، والخلق يكون بماذا؟ بكن، وهذا كلام الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، فهو كذلك يُبطل القدر.

قال عبد الله بن أحمد رَحِمَهُ اللهُ: قلت لأبي: إن هاهنا من يقول: إن الله لا يتكلم بصوت، فقال أحمد رَحِمَهُ اللهُ: يا بني هؤلاء جهمية زنادقة إنما يدورون على التعطيل، فكل ذلك يدل على ما ذكرناه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ -كما في مجموع الفتاوى- : وَمَذْهَبُ سَلَفِ الْأُمَّةِ وَأَئِمَّتِهَا مِنْ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانِ وَسَائِرِ أَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ كَالْأَئِمَّةِ الْأَرْبَعَةِ وَغَيْرِهِمْ.

انظر كم عدَّ شيخ الإسلام ابن تيمية؟ هذا هو اعتقاد أهل السنة والجماعة.

قال: هذا مَذْهَبُ سَلَفِ الْأُمَّةِ وَأَئِمَّتِهَا مِنْ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانِ.

إذًا: هذا مذهب القرون الثلاثة الأولى الفاضلة ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، ثم يأتي آت بعد ذلك ويقول: هذا مذهب أبي الحسن الأشعري.

وكيف كان حال المسلمين قبل أبي الحسن الأشعري في هذه القرون التي مضت؟

قال: وَسَائِرِ أَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ كَالْأَئِمَّةِ الْأَرْبَعَةِ.

ولا تجد واحدًا من هؤلاء المنحرفين عن الصراط المستقيم في هذا الباب – أعني في باب الصفات- إلا وهو في الفروع، أي: في الفقه، شافعيا أو مالكيا أو حنبليا أو حنفيا؛ لأن الماتريدية حنفية في الفروع، ومعظم الأشعرية شافعية.

وكذلك هناك أشعرية مالكية ، خاصة في شمال غرب أفريقيا في تونس والمغرب والجزائر وموريتانيا.

ما اعتقاد الأئمة الأربعة؟ اعتقادهم اعتقاد أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ما جاء في كتاب الله وسنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ولذا تتعجب إذا وجدت الواحد من هؤلاء يقول: أنا أشعري العقيدة شافعي المذهب صوفي السلوك والطريقة ، هذا تسمعه بكثرة، يعدد أمورًا كثيرة، نسأل الله السلامة والعافية.

يقول شيخ الإسلام: وَمَذْهَبُ سَلَفِ الْأُمَّةِ وَأَئِمَّتِهَا مِنْ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ وَسَائِرِ أَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ كَالْأَئِمَّةِ الْأَرْبَعَةِ وَغَيْرِهِمْ مَا دَلَّ عَلَيْهِ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ وَهُوَ الَّذِي يُوَافِقُ الْأَدِلَّةَ الْعَقْلِيَّةَ الصَّرِيحَةَ أَنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللَّهِ مُنَزَّلٌ غَيْرُ مَخْلُوقٍ مِنْهُ بَدَأَ وَإِلَيْهِ يَعُودُ فَهُوَ الْمُتَكَلِّمُ بِالْقُرْآنِ وَالتَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ كَلَامِهِ لَيْسَ ذَلِكَ مَخْلُوقًا مُنْفَصِلاً عَنْهُ وَهُوَ سُبْحَانَهُ يَتَكَلَّمُ بِمَشِيئَتِهِ وَقُدْرَتِهِ فَكَلَامُهُ قَائِمٌ بِذَاتِهِ لَيْسَ مَخْلُوقًا بَائِنًا عَنْهُ وَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَشِيئَتِهِ وَقُدْرَتِهِ لَمْ يَقُلْ أَحَدٌ مِنْ سَلَفِ الْأُمَّةِ إنَّ كَلَامَ اللَّهِ مَخْلُوقٌ بَائِنٌ عَنْهُ وَلَا قَالَ أَحَدٌ مِنْهُمْ إنَّ الْقُرْآنَ أَوْ التَّوْرَاةَ أَوْ الْإِنْجِيلَ لَازِمَةٌ لِذَاتِهِ أَزَلًا وَأَبَدًا وَهُوَ لَا يَقْدِرُ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِمَشِيئَتِهِ وَقُدْرَتِهِ.

وهذا كلام الأشعرية؛ لأنهم يقولون: إن كلام الله قديم، لا فرق بين كلامه بالقرآن أو التوراة أو الإنجيل، الكلام واحد، الأمر والنهي والخبر والإنشاء كله واحد، لكن إن عُبر عن ذلك بالعربية فهو القرآن، بالعبرية فهو التوراة، السريانية فهو الإنجيل.

هكذا يقولون، لكن كله كلام واحد ليس فيه تقديم ولا تأخير، لا يتقدم حرف على حرف، ولا كلمة على كلمة، مذهب عجيب، وهو كلام نفسي ليس بصوت ولا حرف.

ولذا يُنكر شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ أن يكون هذا المذهب مذهبًا لواحد من هؤلاء الذين سبق ذكرهم.

يقول: وَلَا قَالَ أَحَدٌ مِنْهُمْ إنَّ الْقُرْآنَ أَوْ التَّوْرَاةَ أَوْ الْإِنْجِيلَ لَازِمَةٌ لِذَاتِهِ أَزَلًا وَأَبَدًا وَهُوَ لَا يَقْدِرُ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِمَشِيئَتِهِ وَقُدْرَتِهِ.

وقالوا: إنَّ نَفْسَ نِدَائِهِ –هذا كلام الأشعرية- لِمُوسَى أَوْ نَفْسَ الْكَلِمَةِ الْمُعَيَّنَةِ قَدِيمَةٌ أَزَلِيَّةٌ بَلْ قَالُوا –يعني أهل السنة والجماعة- لَمْ يَزَلْ اللَّهُ مُتَكَلِّمًا إذَا شَاءَ فَكَلَامُهُ قَدِيمٌ بِمَعْنَى أَنَّهُ لَمْ يَزَلْ مُتَكَلِّمًا إذَا شَاءَ. وَكَلِمَاتُ اللَّهِ لَا نِهَايَةَ لَهَا، وهذا من الأدلة على أن كلام الله غير مخلوق، لأن المخلوق له نهاية وله بداية، والله سبحانه تكلم بالقرآن العربي وبالتوراة العبرية.

قال شيخ الإسلام: وَلَمَّا ظَهَرَ مَنْ قَالَ إنَّهُ مَخْلُوقٌ قَالُوا رَدًّا لِكَلَامِهِ: إنَّهُ غَيْرُ مَخْلُوقٍ.

إذًا: ما جاءوا بهذه الكلمة إلا ردًا على أهل البدع، وإلا فالذي جاء في كتاب الله وسنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن القرآن كلام الله.

ومثل ذلك قولهم: بائنٌ من خلقه، الله عَزَّ وَجلَّ استوى على عرشه وبان من خلقه، انفصل عن خلقه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، ليس ممتزجًا بالمخلوقات، ما قالوا هذه الكلمة كذلك إلا ردًا على الحلولية.

قال: وَأَوَّلُ مَنْ عُرِفَ أَنَّهُ قَالَ هُوَ قَدِيمٌ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَعِيدِ بْنِ كُلَّابٍ.

وهو شيخ أبي الحسن الأشعري.

لماذا سُمي أو لُقب بابن كُلاَّب؟ لأنه كان بارعًا في المناظرة، وكان وقت أن تاب أبو الحسن الأشعري من مذهب أهل الاعتزال يناظر أهل الاعتزال، وكان كالذي يأخذ مناظره بالكلوب.

فأُعجب به أبو الحسن الأشعري وبطريقته فسار على نهجه، لكن الشهرة بعد ذلك صارت لمذهب أبي الحسن الأشعري.

ولا تجد خلافًا بين الكُلابية والأشعرية إلا في أمور يسيرة جدًا، فهذا القول هو في حقيقته قول عبد الله بن سعيد بن كُلاَّب، وهو كذلك قول أبي الحسن الأشعري.

قال رَحِمَهُ اللهُ بعد ذلك: وَأَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هُوَ كَلامُ اللهِ حَقِيقَةً، لَا كَلامَ غَيْرِهِ. وَلا يَجُوزُ إِطْلاقُ الْقَوْلِ بِأَنَّهُ حِكَايَةٌ عَنْ كَلاَمِ اللهِ، أَوْ عِبَارَةٌ.

قال الشيخ الهراس رَحِمَهُ اللهُ: وَقَدْ قُلْنَا فِيمَا سَبَقَ: إِنَّ الْإِضَافَةَ فِي قَوْلِنَا: الْقُرْآنُ كَلَامُ اللَّهِ؛ هِيَ مِنْ إِضَافَةِ الصِّفَةِ لِلْمَوْصُوفِ، فَتُفِيدُ أَنَّ الْقُرْآنَ صِفَةُ الرَّبِّ سُبْحَانَهُ، وَأَنَّهُ تَكَلَّمَ بِهِ حَقِيقَةً بِأَلْفَاظِهِ وَمَعَانِيهِ، بِصَوْتِ نَفْسِهِ.

فاللفظ من عند الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، والمعنى من عند الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، تكلم به بصوت وحرف.

قال: فَمَنْ زَعَمَ أَنَّ الْقُرْآنَ مخلوقٌ مِنَ الْمُعْتَزِلَةِ؛ فَقَدْ أَعْظَمَ الفِرية عَلَى اللَّهِ، وَنَفَى كَلامَ اللَّهِ عَنِ اللَّهِ وَصْفًا، وَجَعَلَهُ وَصْفًا لِمَخْلُوقٍ، وَكَانَ أَيْضًا متجنيًّا عَلَى اللُّغَةِ، فَلَيْسَ فِيهَا متكلِّم بِمَعْنَى خَالِقٍ لِلْكَلَامِ.

لا يأتي في لغة العرب أن المتكلم معناه خالق الكلام، لكن المتكلم هو الذي صدر منه الكلام؛ لأن كلمة متكلم اسم فاعل من الفعل تكلم، واسم الفاعل من المشتقات، والمشتقات تتضمن صفات.

وعلى أساس هذه الصفات اشتُق منها اسم الفاعل؛ ولذا تجد في كلام الأصوليين والبلاغيين يقولون: ما عُلق على مشتق يؤذن بمأخذ الاشتقاق صفة له.

فلما قال الله عَزَّ وَجلَّ وأخبر عن نفسه أنه متكلم؛ دل ذلك على أن الكلام صفة له، وليس معنى ذلك أنه خالق الكلام؛ ولذا تجد كلامًا عجيبًا للمعتزلة يقولون: إن الله عَزَّ وَجلَّ خلق الكلام في الشجرة لما خاطبت موسى.

طيب الشجرة لما خاطبت موسى هل يجوز للشجرة أن تقول إني أنا الله؟ هذا لا يقوله إلا رب العالمين تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

قال: فَلَيْسَ فِيهَا متكلِّم بِمَعْنَى خَالِقٍ لِلْكَلَامِ.

ومَن زَعَمَ أَنَّ الْقُرْآنَ الْمَوْجُودَ بَيْنَنَا حِكَايَةٌ عَنْ كَلَامِ اللَّهِ؛ كَمَا تَقُولُهُ الكُلَاَّبية.

الكُلابية تقول: إن القرآن الموجود بيننا هو حكاية عن كلام الله، والحكاية، أي: المماثلة؛ كما يقول الشيخ ابن عثيمين، حكاية, يعني: مثل كلام الله وليس هو كلام الله.

قال: كأن هذا المعنى الذي هو الكلام عندهم حُكي بمرآة كما يحكي الصدى كلام المتكلم، لكن هل هو كلام الله؟ ليس هو كلام الله.

والأشعرية قالوا هو عبارة عن كلام الله.

والعبارة -كما يقول الشيخ ابن عثيمين- معناها: أن المتكلم عبَّر عن كلامه النفسي بحروف وأصوات خُلقت.

ولذا قلنا: إن مآل قول الأشعرية إلى أن ما في المصحف ليس كلام الله وهو مخلوق، وهذا صرَّح به بعض أئمتهم يقولون: ما في المصحف مخلوق.

قالوا: مآل عقيدتنا في القرآن إلى قول أهل الاعتزال، هذا موجود في بعض كتبهم، صرحوا بذلك، فلا يجوز أن نطلق هذه العبارة؛ بأن هذا الذي في المصحف حكاية عن كلام الله أو عبارة عن كلام الله.

قال الهراس رَحِمَهُ اللهُ: وَمَن زَعَمَ أَنَّ الْقُرْآنَ الْمَوْجُودَ بَيْنَنَا حِكَايَةٌ عَنْ كَلَامِ اللَّهِ؛ كَمَا تَقُولُهُ الكُلاَّبية، أَوْ أَنَّهُ عِبَارَةٌ عَنْهُ؛ كَمَا تَقُولُهُ الْأَشْعَرِيَّةُ؛ فَقَدْ قَالَ بِنِصْفِ قَوْلِ الْمُعْتَزِلَةِ.

لماذا؟ الشيخ قال في بداية الكلام قبل ذلك: إن اللفظ والمعنى لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، الحرف والمعنى لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، الله هو الذي تكلم به، ومعنى القرآن أراده الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

المعتزلة ماذا قالوا؟ قالوا: الله عَزَّ وَجلَّ لا يتكلم، خلق القرآن خلق ألفاظه.

ماذا قال أهل التعطيل من الكُلابية والأشعرية؟ هل قالوا إن الله يتكلم؟

من الذي نفى الكلام عن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى؟ المعتزلة قالوا: الله عَزَّ وَجلَّ لا يتكلم، كما نفوا سائر الصفات؛ ولذا قالوا: القرآن مخلوق اللفظ والمعنى مخلوق.

الأشعرية والكُلابية ماذا قالوا؟ قالوا: الله عَزَّ وَجلَّ تكلم كلامًا نفسيا قديمًا في الأزل، الكلام صفة قديمة له سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

إذًا: أثبتوا الكلام، لكن في الحقيقة عطلوا.

هذا ليس إثباتًا للكلام؛ لأن الكلام لا يكون إلا بصوت وحرف، والكلام لا يكون صفة كمال إلا إذا كان بقدرة ومشيئة، فنفوا عن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى كل ذلك، جعلوا الكلام صفة قديمة لا علاقة له بالقدرة والمشيئة.

أي لا يقدر الله عَزَّ وَجلَّ على أن يتكلم وقتما شاء كيفما شاء؛ ولذا وصفوا الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى بالعجز.

إذًا: هم أثبتوا الكلام كصفة لله تنزلًا معهم، لكنهم لم يثبتوا ما في المصاحف كلامًا لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى؛ ولذا وافقوا المعتزلة في نصف اعتقادهم.

يقول الشيخ رَحِمَهُ اللهُ: فَقَدْ قَالَ بِنِصْفِ قَوْلِ الْمُعْتَزِلَةِ؛ حَيْثُ فرَّق بَيْنَ الْأَلْفَاظِ وَالْمَعَانِي.

لذلك سُمي هؤلاء بمخانيث المعتزلة، لأنك تجد الأشعرية خاصة يوافقون المعتزلة في أصول كثيرة لكنهم يجبنون عن التصريح بذلك، وهذا موجود خاصة عند متأخريهم كالرازي.

قال: فَجعَلَ الْأَلْفَاظَ مَخْلُوقَةً، وَالْمَعَانِيَ عِبَارَةً عَنِ الصِّفَةِ الْقَدِيمَةِ؛ كَمَا أَنَّهُ ضَاهَى النَّصَارَى فِي قَوْلِهِمْ بِحُلُولِ اللاَّهُوتِ. وَهُوَ الْكَلِمَةُ. فِي النَّاسُوتِ. وَهُوَ جَسَدُ عِيسَى عليه السلام؛ إِذْ قَالَ بِحُلُولِ الْمَعَانِي الَّتِي هِيَ الصِّفَةُ الْقَدِيمَةُ فِي هَذِهِ الْأَلْفَاظِ الْمَخْلُوقَةِ، فَجعَلَ الْأَلْفَاظَ نَاسُوتًا لَهَا.

تجد الواحد بعد ذلك يكتب في عقيدته: ومن عقيدته أن القرآن كلام الله غير مخلوق.

هو صادق في كلامه على أساس معتقده؛ لأنه يعتقد أن القرآن كلام الله، أي: الذي هو في ذات الله ونفسه.

الأشعرية إذا أطلقوا هذه الكلمة وقالوا: القرآن كلام الله غير مخلوق أرادوا ماذا؟

أرادوا الكلام النفسي الذي هو في ذات الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، ما أرادوا الذي في المصاحف، الذي في المصحف عبارة عن كلام الله، صرَّح بذلك سعيد فودة من سوريا, وهو من مُنظِّريهم في هذه الأيام.

وكذلك الدكتور أحمد الطيب هداه الله له مقطع فيديو يتكلم فيه عن القرآن ويُقر أنه كلام نفسي وأن الله لا يتكلم بصوت وحرف، وأن هذا المذهب الذي جاء به السلفيون الوهابية بدءا بابن تيمية فمن بعده ذلك مذهب منحرف لا تعرفه الأمة ولا علماء الأمة.

وهذا كله كلام باطل، سبق التدليل على صحة خلافه.

قال الهراس رَحِمَهُ اللهُ: وَالْقُرْآنُ كَلاَمُ اللَّهِ؛ حَيْثُ تصرَّف، فَمَهْمَا كَتَبْنَاهُ فِي الْمُصَاحِفِ.

لا نتكلم عن الورق والمداد، الحبر، نتكلم عن كلام الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، هذا الذي في المصحف هو كلام الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

قال: فَمَهْمَا كَتَبْنَاهُ فِي الْمُصَاحِفِ، أَوْ تَلَوْنَاهُ بِالْأَلْسِنَةِ؛ لَمْ يَخْرُجْ بِذَلِكَ عَنْ أَنْ يَكُونَ كَلاَمَ اللَّهِ؛ لِأَنَّ الْكَلاَمَ. كَمَا قَالَ الْمُصَنِّفُ. إِنَّمَا يُضَافُ إِلَى مَن قَالَهُ مُبْتَدِئًا؛ لَا إِلَى مَن قَالَهُ مبلِّغًا مؤدِّيًا.

ولذا نحن مثلاً لو قلنا هذا البيت من الشعر:

فلواحدٍ كن واحدًا في واحدٍ ... أعني سبيل الحق والإيمان

هذا لمن؟ هذا البيت لابن القيم في نونيته.

فلواحدٍ؛ أي: لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

كن واحدًا؛ أي: مخلصًا.

في واحدٍ؛ يعني: في طريق واحد طريق النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -أعني سبيل الحق والإيمان-.

أنا قرأت هذا البيت الآن، هل يُنسب لي؟ يُنسب لي بلاغًا، لكن من الذي قاله؟ ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ هو الذي قاله.

ثم قال بعد ذلك، أعني الهراس رَحِمَهُ اللهُ: وَأَمَّا مَعْنَى قَوْلِ السَّلَفِ: ((مِنْهُ بَدَأَ وَإِلَيْهِ يَعُودُ)) ؛ فَهُوَ مِنَ الْبَدْءِ؛ يَعْنِي: أَنَّ اللَّهَ هُوَ الَّذِي تكلَّم بِهِ ابْتِدَاءً، لَمْ يُبْتَدَأْ مِنْ غَيْرِهِ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْبُدُو؛ بِمَعْنَى الظُّهُورِ.

يَحتمل بفتح الياء هذا هو الصحيح في لغة العرب وليس يُحتمل؛ لأن كلمة يُحتمل بمعنى: يُغتفر، وإنما تقول: يَحتمل أن يكون من البدو؛ بمعنى الظهور.

يَعْنِي أَنَّهُ هُوَ الَّذِي تكلَّم بِهِ وَظَهَرَ مِنْهُ، لَمْ يَظْهَرْ مِنْ غَيْرِهِ.

وَمَعْنَى: ((إِلَيْهِ يَعُودُ)) ؛ أَيْ: يَرْجِعُ إِلَيْهِ وَصْفًا؛ لِأَنَّهُ وَصْفُهُ الْقَائِمُ بِهِ، وَقِيلَ: مَعْنَاهُ يَعُودُ إِلَيْهِ فِي آخِرِ الزَّمَانِ، حِينَ يُرْفَعُ مِنَ الْمَصَاحِفِ وَالصُّدُورِ؛ كَمَا وَرَدَ فِي أَشْرَاطِ السَّاعَةِ.

لأنه جاء في حديث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حديث حذيفة يدرس الإسلام كما يدرس وشي الثوب, جاء فيه: "وَيَسْرِي عَلَى كِتَابِ اللهِ عَزَّ وَجلَّ فِي لَيْلَةٍ، فَلاَ يَبْقَى مِنْهُ شَيْءٌ".

إذا نظرت في المصحف وجدت ورقا أبيض، رُفع من السطور ورُفع من الصدور -نسأل الله السلامة والعافية-.

قال: وَأَمَّا كَوْنُ الْإِيمَانِ بِأَنَّ الْقُرْآنَ كَلامُ اللَّهِ دَاخِلاً فِي الْإِيمَانِ بِالْكُتُبِ؛ فَإِنَّ الْإِيمَانَ بِهَا إِيمَانًا صَحِيحًا يَقْتَضِي إِيمَانَ الْعَبْدِ بِأَنَّ اللَّهَ تكلَّم بِهَا بِأَلْفَاظِهَا وَمَعانِيهَا، وَأَنَّهَا جَمِيعًا كَلامُهُ هُوَ؛ لَا كَلامُ غَيْرِهِ، فَهُوَ الَّذِي تكلَّم بِالتَّوْرَاةِ بِالْعِبْرَانِيَّةِ، وَبِالْإِنْجِيلِ بِالسُّرْيَانِيَّةِ، وَبِالْقُرْآنِ بِلِسَانٍ عربيٍّ مُبِينٍ.

قال شيخ الإسلام: بَلْ إِذَا قَرَأَهُ النَّاسُ أَوْ كَتَبُوهُ فِي الْمَصَاحِفِ؛ لَمْ يَخْرُجْ بِذَلِكَ عَنْ أَنْ يَكُونَ كَلامَ اللهِ تَعالَى حَقِيقَةً، فَإِنَّ الْكَلامَ إِنَّمَا يُضَافُ حَقِيقَةً إِلَى مَنْ قَالَهُ مُبْتَدِئًا، لَا إِلَى مَنْ قَالَهُ مُبَلِّغًا مُؤَدِّيًا. وَهُوَ كَلامُ اللهِ؛ حُرُوفُهُ، ومَعَانِيهِ؛ لَيْسَ كَلامُ اللهِ الْحُرُوفَ دُونَ الْمَعَانِي، وَلَا الْمَعَانِيَ دُونَ الْحُرُوفِ.

وإنما هو كلام الله عَزَّ وَجلَّ الحرف والمعنى

ثم قال رَحِمَهُ اللهُ بعد ذلك: وَقَد دخَلَ أَيْضًا فِيمَا ذَكَرْنَاهُ مِنَ الإِيمَانِ بِهِ وَبِكُتُبِهِ وَبِمَلائِكَتِهِ وَبِرُسُلِهِ: الإِيمَانُ بِأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ يَرَوْنَهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ عيَانًا بِأَبْصَارِهِمْ كَمَا يَرَوْنَ الشَّمْسَ صَحْوًا لَيْسَ بِهَا سَحابٌ، وَكَمَا يَرَوْنَ الْقَمَرَ لَيْلَةَ الْبَدْرِ لَا يُضامُونَ فِي رُؤْيَتِهِ. يَرَوْنَهُ سُبْحانَهُ وَهُمْ فِي عَرَصَاتِ الْقِيامَةِ، ثُمَّ يَرَوْنَهُ بَعْدَ دُخُولِ الْجَنَّةِ؛ كَمَا يَشَاءُ اللهُ تَعَالَى.

هذه المسألة أفضنا فيها الكلام ، وكذلك شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ ذكر دليلها من القرآن أولًا، ثم بعد ذلك ذكر دليلها من سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال الهراس رَحِمَهُ اللهُ: قَوْلُهُ: ((وَقَدْ دَخَلَ أَيْضًا فِيمَا ذَكَرْنَاهُ)) إلخ.

قال: تَقَدَّمَ الْكَلاَمُ عَلَى رُؤْيَةِ الْمُؤْمِنِينَ لربِّهم عز وجل فِي الْجَنَّةِ؛ كَمَا دَلَّتْ عَلَى ذَلِكَ الْآيَاتُ وَالْأَحَادِيثُ الصَّرِيحَةُ، فَلاَ حَاجَةَ بِنَا إِلَى إِعَادَةِ الْكَلاَمِ فِيهَا.

غَيْرَ أَنَّ قَوْلَهُ: ((يَرَوْنَهُ سُبْحَانَهُ وَهُمْ فِي عَرَصَاتِ الْقِيَامَةِ)).

العَرَصَات جمع عَرْصَة، وهي: كل موضع واسع لا بناء فيه، وهذه طبيعة الأرض يوم القيامة، {يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ} [إبراهيم: 48]، تُمد الأرض كمد الأديم.

عندما تذبح الجَمل وتسلخه وتفرش الجلد على الأرض. هكذا ستكون الأرض، {لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا} [طه: 107]، يعني: ليس فيها لا جبال ولا بيوت ولا أي شيء، تكون مستوية.

قال: غَيْرَ أَنَّ قَوْلَهُ: ((يَرَوْنَهُ سُبْحَانَهُ وَهُمْ فِي عَرَصَاتِ الْقِيَامَةِ)) قَدْ يُوهِمُ أَنَّ هَذِهِ الرُّؤْيَةَ أَيْضًا خَاصَّةٌ بِالْمُؤْمِنِينَ، وَلَكِنَّ الْحَقَّ أَنَّهَا عامَّة لِجَمِيعِ أَهْلِ الْمَوْقِفِ؛ حِينَ يَجِيءُ الرَّبُّ لِفَصْلِ الْقَضَاءِ بَيْنَهُمْ؛ كَمَا يَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: {هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ} [البقرة: 210] الْآيَةَ.

ثم ذكر معنى العَرَصَات.

هذه المسألة الأخيرة التي ذكرها الشارح رَحِمَهُ اللهُ: من الذي سيرى الله عَزَّ وَجلَّ في عرصات يوم القيامة؟

أهل السنة والجماعة متفقون على أن الذي سيرى الله عَزَّ وَجلَّ في الجنة هم أهل الجنة المؤمنون، لكن ماذا عن عرصات يوم القيامة؟ ماذا عن أرض المحشر؟ من الذي سيرى الله عَزَّ وَجلَّ؟

اختلف أهل العلم في ذلك على أقوال ثلاثة، وهذه الأقوال بسطها شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ في رسالته لأهل البحرين، وهي رسالة موجودة في مجموع الفتاوى.

جاءته رسالة من أهل البحرين أن الناس اختلفوا وكادوا يقتتلون حتى إن بعضهم حرَّم صلاة الجمعة خلف بعضهم بسبب هذه المسألة؛ لأنهم اختلفوا في هذه المسألة: من الذي سيرى الله عَزَّ وَجلَّ في عَرَصَات القيامة؟

هذه هي الأقوال الثلاث في المسألة:

- منهم من قال: إن الذي يرى الله عَزَّ وَجلَّ في عرصات القيامة أهل التوحيد خاصة، لن يرى الله عَزَّ وَجلَّ في أرض المحشر إلا أهل التوحيد.
- ومنهم من قال: إن الذي سيرى الله عَزَّ وَجلَّ في عرصات يوم القيامة هم من أظهر التوحيد سواء أظهره بلسانه دون قلبه أو بلسانه وقلبه، أي: اعتقد ونطق، فوافق اعتقاده ما نطق به، وهذا لأهل التوحيد.

وكذلك من نطق دون اعتقاد، وهذا لأهل النفاق، فقالوا: إن الذي سيرى الله عَزَّ وَجلَّ في عرصات يوم القيامة هم المؤمنون والمنافقون.

- ومنهم من قال -كما رجح الشيخ الهراس هاهنا-: إن جميع الناس يرون الله عَزَّ وَجلَّ يوم القيامة الكافر والمؤمن والمنافق، ثم تكون رؤية النعيم بعد ذلك لأهل النعيم في الجنة، هذه الرؤية التي في العرصات رؤية حساب ورؤية توبيخ ورؤية عرض، وأما في الجنة فلأهل التوحيد.

فالأقوال في المسألة ثلاث، ولكل فريق أدلته؛ ولذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: والأمر في ذلك خفيف لا يستلزم هجرًا ولا مقاطعة.

وذكر أمثلة أخرى تتشابه مع هذه المسألة: كالاختلاف في رؤية النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ربه ليلة المعراج، وكالاختلاف في حساب الكفار يوم القيامة.

ما المراد بالحساب؟ هل المراد أن حسناتهم توضع مقابل سيئاتهم في الميزان أم أن الحساب يُراد به عرض الأعمال؟

هذا كذلك مما اختلفوا فيه، وذكر أمورًا أخرى فقال: هذه المسألة من هذا القبيل التي لا تقتضي هجرًا ولا تبديعًا ولا خصومة ولا غير ذلك.

فالشيخ هاهنا رجح أن الرؤية إنما تكون عامة؛ لأن الله عَزَّ وَجلَّ قال: {هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ}.

وهناك أدلة أخرى من كتاب الله، وكذلك من سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ظاهرها أن أهل الكفر يرون الله عَزَّ وَجلَّ يوم القيامة.

ثم بعد ذلك يقول الله عَزَّ وَجلَّ: ليتبع كل واحد منكم ما كان يعبده، فمن كان يعبد عُزيرًا يتبع عُزيرًا، ومن كان يعبد المسيح يتبع المسيح، ثم تكون عاقبتهم إلى النار.

وكذلك من قال: أهل التوحيد فقط هم الذين يرون الله عَزَّ وَجلَّ له أدلته.

وكذلك الذين قالوا: يدخل في ذلك المنافقون لهم أدلتهم.

فالخلاف في المسألة خلاف واسع غير مقطوع به، خلاف قوي والأدلة فيه تكاد تكون متكافئة.

لكن الذي عليه أهل السنة والجماعة أن المؤمنين يرون الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى في الجنة، هذا هو الأصل، والخلاف فيمن يراه في عرصات القيامة هذا فرع.

ولذلك الذي يُبدَّع الذي ينفي الرؤية في الآخرة، الذي يجحد الرؤية في الآخرة كافر؛ كما قال أهل السنة والجماعة، هذا هو الأصل الذي من خالفه خرج عن معتقد أهل السنة والجماعة، وقد يخرج عن الإسلام.

النُفاة لهم أدلة ذكرناها قبل ذلك ورددنا عليها؛ كقوله تعالى: {لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ} [الأنعام: 103]، وقلنا: إن نفي الإدراك لا يستلزم نفي الرؤية، وهذا معروف في لغة العرب.

ودللنا عليه كذلك بآية الشعراء: {فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (61) قَالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِي رَبِّي سَيَهْدِينِ} [الشعراء: 61-62]؛ يعني: حصلت الرؤية لكن موسى نفى الإدراك عَليهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَم.

وابن القيم رَحِمَهُ اللهُ وكذلك قبله شيخ الإسلام ابن تيمية استدلوا بهذه الآية على إثبات الرؤية، واستدلوا بآيات كثيرة جاءت فيها صفات منفية عن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

والقاعدة عند أهل السنة والجماعة: أن كل نفي ورد في كتاب الله؛ فإنه يستلزم إثبات كمال الضد، فلا يكون في حق الله عَزَّ وَجلَّ النفي المحض والعدم المحض.

وبهذا نكون قد انتهينا من هذا الأصل.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم، وجزاكم الله خيرًا.

الدرس السابع والثلاثون

إن الحمد لله, نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله تعالى من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله, صلى الله عليه, وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد:

فما زال حديثنا موصولًا في قراءة هذا المعتقد المبارك الذي سطره شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ في عقيدته الواسطية، وعليه كذلك شرح مبارك وهو شرح العلامة خليل هراس.

وكنا قد وصلنا إلى قول المصنف رَحِمَهُ اللهُ:

فَصْلٌ: وَمِنَ الإِيمَانِ بِالْيَوْمِ الآخِرِ الإِيمَانُ بِكُلِّ مَا أَخْبَرَ بِهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِمَّا يَكُونُ بَعْدَ الْمَوْتِ، فَيُؤْمِنُونَ بِفِتْنَةِ الْقَبْرِ، وَبِعَذَابِ الْقَبْرِ وَنَعِيمِهِ. فَأَمَّا الْفِتْنَةُ؛ فَإِنَّ النَّاسَ يُمْتَحَنُونَ فِي قُبُورِهِمْ، فَيُقَالُ للرَّجُلِ: مَن رَّبُكَ؟ وَمَا دِينُكَ؟ وَمَن نَّبِيُّك؟

فيُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ، فَيَقُولُ الْمُؤْمِنُ: رَبِّيَ اللهُ، وَالإِسْلاَمُ دِينِي، وَمُحَمَّدٌ صلى الله عليه وسلم نَبِيِّي. وَأَمَّا الْمُرْتَابُ؛ فَيَقُولُ: هَاه هَاه؛ لَا أَدْرِي، سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ شَيْئًا فَقُلْتُهُ، فَيُضْرَبُ بِمِرْزَبَةٍ مِنْ حَدِيدٍ، فَيَصِيحُ صَيْحَةً يَسْمَعُهَا كُلُّ شَيْءٍ؛ إِلَّا الإِنْسَانَ، وَلَوْ سَمِعَهَا الإِنْسَانُ؛ لَصُعِقَ. ثُمَّ بَعْدَ هَذِهِ الْفِتْنَةِ إِمَّا نَعِيمٌ وَإِمَّا عَذَابٌ.

هذا الفصل الذي عقده المصنف رَحِمَهُ اللهُ، عقده لبيان ما ينبغي أن يؤمن به المؤمن من أركان الإيمان، وأركان الإيمان -كما نعلم-: ستة.

والركن الخامس منها هو: الإيمان باليوم الآخر؛ فهذا مبدأ الكلام عن الاعتقاد المتعلق بهذا الركن وهو اليوم الآخر.

سُمي بذلك؛ لأنه لا يوم بعده، فهو آخر يوم من أيام الدنيا، والإيمان به يعني: التصديق الجازم بكل ما أخبر به النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مما يكون بعد الموت.

فاليوم الآخر يبدأ بعد الموت، فهناك حياتان: الحياة الدنيا التي نحياها الآن، وحياة الآخرة التي تبدأ بعد الموت وهي الحياة الحقيقية.

وهذا الركن -كما قلنا-: هو الركن الخامس من أركان الإيمان، ولا يتم إيمان العبد إلا به.

ودل على هذا الركن الكتاب والسنة وإجماع المسلمين، إلا نفرًا قليلاً من شُذاذ بني آدم أنكروا الإيمان بهذا الركن.

ودل عليه كذلك العقل والفطرة، فمن ذلك قول الله تعالى: {إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ (5) وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ} [الذاريات: 5-6].

ما معنى الدين؟ الجزاء، الدين في هذه الآية بمعنى الجزاء، أي أن الجزاء لابد أن يقع، وهذا الجزاء يكون في القبر ويكون بعد بعث الناس من قبورهم يوم القيامة.

وكذلك دل عليه قول الله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ (7) أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} [يونس: 7-8].

فلو تدبرنا في هذه الآية نجد أن الله عَزَّ وَجلَّ قابل بين حياتين: بين الحياة الدنيا التي يتشبث بها الكفار ويفرون من لقاء الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، واطمأنوا لهذه الحياة فهي مصدر الطمأنينة عندهم؛ ولذلك كانوا غافلين عن آيات الله الشرعية والكونية.

والحياة الأخرى؛ وهي الحياة التي تكون بعد الموت، فقال: {إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا}؛ ولقاء الله عَزَّ وَجلَّ إنما يكون في الآخرة؛ فلا يلقى العبد ربه في هذه الحياة الدنيا ولا يراه، وإنما يكون ذلك في الآخرة.

{وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ (7) أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ}؛ أي: في القبر ويوم القيامة كذلك بما كانوا يكسبون.

ذكر اللّه تعالى في كتابه الطمأنينتين ، فقال في طمأنينة المؤمن :(الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ القلوب .الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ)

فذكر في الآيتين:

- سبب الطمأنينة
- ومحلها
- وجزاءها .

وقال في طمأنينة الكافر الملحد: (إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ . أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

فذكر في الآيتين كذلك:

- سبب الطمأنينة
- ومحلها
- وجزاءها

فشَتَّان ما بينهما !

فهذا هو الإيمان باليوم الآخر الذي بدأه المصنف رَحِمَهُ اللهُ بهذا الفصل.

قال الشيخ الهراس رَحِمَهُ اللهُ: قَوْلُهُ: ((وَمِنَ الْإِيمَانِ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ)) إلخ.

قال: إِذَا كَانَ الْإِيمَانُ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ أَحَدَ الْأَرْكَانِ السِّتَّةِ الَّتِي يَقُومُ عَلَيْهَا الْإِيمَانُ؛ فَإِنَّ الْإِيمَانَ بِهِ إِيمَانًا تَامًّا كَامِلاً لَا يَتَحَقَّقُ إِلَّا إِذَا آمَنَ الْعَبْدُ بِكُلِّ مَا أَخْبَرَ بِهِ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ أُمُورِ الْغَيْبِ الَّتِي تَكُونُ بَعْدَ الْمَوْتِ.

إذًا: مبنى هذا الركن على الإيمان بالغيب؛ ولذا هذا الركن محنة لهؤلاء الذين لا يؤمنون بالغيب، لا يؤمنون إلا بعالم الشهادة، لا يؤمنون إلا بالمحسوسات، وهذا سبيل أهل الإلحاد من الفلاسفة وبعض المعتزلة الذين ينكرون عذاب القبر.

وكذلك هو الحال الآن في أغلب هؤلاء الذين يسكنون في الغرب في أوروبا وأمريكا، فالغالب على هؤلاء أنهم لا يؤمنون إلا بالمحسوس، وأما ما كان من عالم الغيب وأما ما كان من أسباب خفية فلا يؤمنون بشيء من ذلك.

ولذا الواحد لو فسَّر كسوف الشمس أو خسوف القمر أو شيئًا مما يحدث في هذا العالم ورده إلى فعل الله عَزَّ وَجلَّ في هذا الكون وإلى أسباب غيبية قد لا يعلمها الإنسان، تجد هؤلاء يستهزءون به ويردون كلامه، لماذا؟ لأنهم لا يبنون كلامهم ولا اعتقادهم إلا على كل محسوس، تنكروا للدين.

ولذا كان الإيمان بهذا الركن علامة فارقة بين أهل الإيمان وأهل الإلحاد، ومن أبرز صور أو سمات أهل الإيمان: أنهم يؤمنون بالغيب، {الم (1) ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ (2) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ} [البقرة: 1-3].

وما الغيب؟ كل ما غاب عنك وأخفاه الله عَزَّ وَجلَّ وابتلاك بالإيمان به، لا تراه بعينك ومع ذلك تصدقه، لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو الصادق المصدوق أخبر به؛ ولذا نقول: سمعنا وأطعنا، سمعنا وصدقنا في خبر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ولذا قال الشيخ الهراس رَحِمَهُ اللهُ: لا يكون إيمان العبد إيمانًا تامًا كاملاً إلا إذا آمن على هذه الصورة التي سيذكرها رَحِمَهُ اللهُ.

يقول: وَالضَّابِطُ فِي ذَلِكَ أَنَّهَا أمورٌ ممكنةٌ أَخْبَرَ بِهَا الصَّادِقُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَسَلَامُهُ وآلِه.

ما معنى أنها أخبار ممكنة؟ أي: لا تحيلها العقول، ليست أمورًا مستحيلة، ليس عزيزًا على الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى أن يحيي الأجساد وأن يقيمها مرة أخرى بعد موتها، وأن يجمع العظام والبِلى مرة أخرى بعد فنائها وفراقها.

فالذي أنشأها أول مرة قادر سُبْحَانَهُ وَتعَالَى على أن يحييها مرة أخرى، فهذا أمر ممكن ليس بمستحيل، هذا معنى أن ذلك أمر ممكن، أي: لا تحيله العقول.

لكن قد تحار فيه العقول، أي: قد لا تبلغه العقول، ولذا الواجب على المسلم أن يُسلم وأن يُصدق بما أخبر به النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: **الشرع قد يجيء بما تحار فيه العقول لا بما تحيله العقول.**

أضرب لكم مثالًا لأقرب لكم المعنى: بعض الناس من أبناء الملوك كان يتكلم في صفات الباري تَبَارَكَ وَتَعَالَى، فجاء به عبد الرحمن بن مهدي رَحِمَهُ اللهُ صاحب الإمام أحمد وسأله سؤالًا وقال له: هل تعلم الخبر الذي جاء في جبريل عَليهِ السَّلاَم؛ أن له ستمائة جناح؟

قال: أجل، قال: لو جئنا بطائر من طيور الدنيا وقلت لك: ضع الجناح الثالث، ترى في أي موضع ستضع الجناح؟ نحن نعلم أن كل طائر له جناحان، لو أردنا أن نضع جناحًا ثالثًا أين ستضعه؟ ستحتار، تضعه أعلى ظهره أم في بطنه أم على رأسه؟ ستحتار, فقال: ما بالك بستمائة جناح؟! كيف لا تدركه العقول في حق المخلوق، فكيف بالخالق سبحانه؟

ولذل قلنا: الشرع قد يأتي بما تحار فيه العقول لا بما تحيله العقول، والله عَزَّ وَجلَّ على كل شيء قدير، فكف هذا الفتى عما كان يخوض فيه.

فالأمور التي أخبر بها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وجاءت في كتاب الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، مما يتعلق بما يكون بعد الموت في القبر وبعد البعث أمور ممكنة وليست أمورًا مستحيلة، وأخبر بها الصادق المصدوق صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ ولذا وجب علينا أن نؤمن بها وأن نصدقها.

قال: وَكُلُّ مُمْكِنٍ أَخْبَرَ بِهِ الصَّادِقُ يَجِبُ الْإِيمَانُ بِوُقُوعِهِ كَمَا أَخْبَرَ؛ فَإِنَّ هَذِهِ الْأُمُورَ لَا تُسْتَفَادُ إِلَّا مِنْ خَبَرِ الرَّسُولِ.

إذًا: هذا الأمر مبناه على التسليم بكل ما جاء به النبي الأمين صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال: فَأَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ يُؤْمِنُونَ بِذَلِكَ كُلِّهِ.

وَأَمَّا أَهْلُ الْمُرُوقِ وَالْإِلْحَادِ مِنَ الْفَلاَسِفَةِ وَالْمُعْتَزِلَةِ؛ فَيُنْكِرُونَ هَذِهِ الْأُمُورَ؛ مِنْ سُؤَالِ الْقَبْرِ، وَمِنْ نَعِيمِ الْقَبْرِ، وَعَذَابِهِ، وَالصِّرَاطِ، وَالْمِيزَانِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ؛ بِدَعْوَى أَنَّهَا لَمْ تَثْبُتْ بِالْعَقْلِ، وَالْعَقْلُ عِنْدَهُمْ هُوَ الْحَاكِمُ الأَوَّلُ الَّذِي لَا يَجُوزُ الْإِيمَانُ بِشَيْءٍ إِلَّا عَنْ طَرِيقِهِ.

يقول: وَأَمَّا أَهْلُ الْمُرُوقِ.

ما معنى المروق؟ في الحديث: يمرقون كما يمرق السهم، أي الخروج، خرجوا عند دين الإسلام.

وَالْإِلْحَادِ.

وما معنى الإلحاد؟ الإلحاد في لغة العرب بمعنى الميل، أي: هؤلاء مالوا عما يجب اعتقاده فيما يتعلق بهذا الجانب.

مِنَ الْفَلاَسِفَةِ وَالْمُعْتَزِلَةِ؛ فَيُنْكِرُونَ هَذِهِ الْأُمُورَ؛ مِنْ سُؤَالِ الْقَبْرِ، وَمِنْ نَعِيمِ الْقَبْرِ، وَعَذَابِهِ، وَالصِّرَاطِ، وَالْمِيزَانِ.

سيأتي تفصيل كل ذلك.

وَغَيْرِ ذَلِكَ؛ بِدَعْوَى أَنَّهَا لَمْ تَثْبُتْ بِالْعَقْلِ.

لأنهم يقدمون العقل على النقل ويجعلون عقلهم هو الحاكم، فإن عارضه نقل فإنهم يردون هذا النقل، إن كان النقل في كتاب الله تأولوه، وإن كان في سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ردوه بحجة أنه خبر آحاد.

قال: وَالْعَقْلُ عِنْدَهُمْ هُوَ الْحَاكِمُ الأَوَّلُ الَّذِي لَا يَجُوزُ الْإِيمَانُ بِشَيْءٍ إِلَّا عَنْ طَرِيقِهِ، وَهُمْ يردُّون الْأَحَادِيثَ الْوَارِدَةَ فِي هَذِهِ الْأُمُورِ بِدَعْوَى أَنَّهَا أَحَادِيثُ آحَادٍ لَا تُقبل فِي بَابِ الِاعْتِقَادِ.

وسيأتي أن هذه الأحاديث أحاديث متواترة، أحاديث فتنة القبر وعذابه ونعيمه هي أحاديث متواترة عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وليست أحاديث آحاد.

قال: وَأَمَّا الْآيَاتُ، فيؤوِّلونها بِمَا يَصْرِفُهَا عَنْ مَعَانِيهَا.

لأنهم لا يستطيعون صراحة رد الآية، لو ردوها لكان كفرهم بينا لكل أحد، لكنهم لا يجرؤون على ذلك، وإنما يؤولونها تأويلات باطلة.

قال: وَالْإِضَافَةُ فِي قَوْلِهِ: ((بِفِتْنَةِ الْقَبْرِ)) عَلَى مَعْنَى فِي؛ أَيْ: بِالْفِتْنَةِ الَّتِي تَكُونُ فِي الْقَبْرِ. وَأَصْلُ الْفِتْنَةِ وَضْعُ الذَّهَبِ وَنَحْوِهِ عَلَى النَّارِ لِتَخْلِيصِهِ مِنَ الْأَوْضَارِ وَالْعَنَاصِرِ الْغَرِيبَةِ.

الْأَوْضَارِ؛ هي الأوساخ وما علق بالذهب والشوائب.

ثُمَّ استُعْمِلَتْ فِي الِاخْتِبَارِ وَالِامْتِحَانِ.

إذًا: أصل كلمة الفتنة في لغة العرب هي وضع الذهب ونحوه على النار، لتخليصه مما علق به.

وكذلك هي في لغة العرب بمعنى الاختبار؛ كما قال الله عَزَّ وَجلَّ لموسى عَليهِ السَّلاَم: {وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا } [طه: 40]؛ أي: اختبرناك.

ثُمَّ استُعْمِلَتْ فِي الِاخْتِبَارِ وَالِامْتِحَانِ.

وَأَمَّا عَذَابُ الْقَبْرِ وَنَعِيمُهُ؛ فَيَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي حقِّ آلِ فِرْعَوْنَ: {النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا} [غافر: 46].

{وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ}، وفي القراءة الأخرى: أُدخلوا آلَ فرعون أشد العذاب.

ما وجه الدلالة في هذه الآية؟ أن الله عَزَّ وَجلَّ فرق بين عذابين؛ قال الله عَزَّ وَجلَّ: {النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا}؛ أي: يعرضون عليها صباح مساء.

ثم قال: {وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ}، فهناك عذاب يكون قبل قيام الساعة وهو العذاب الذي يكون في الدنيا وهو المقصود بقوله تعالى: {النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا}، وهو عذاب القبر الذي يكون في البرزخ.

وَقَوْلُهُ سُبْحَانَهُ عَنْ قَوْمِ نُوحٍ: {مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا} [نوح: 25].

فهذه النار التي دخلها قوم نوح ممن أشرك بالله وكذب نوحًا عليه السلام، هذه النار التي دخلها دخلها في هذه الحياة الدنيا لما أغرقهم الطوفان.

ولذا يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ -كما في الداء والدواء-: فالأجساد للغرق، والأرواح للحرق.

غرقت الأجساد في الطوفان، واحترقت الأرواح بالنيران في هذه الحياة الدنيا، لأن هذا الطوفان صار قبرًا لهم وصار هو الحياة البرزخية لهم.

ولذا يقول الله عَزَّ وَجلَّ: {مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ}؛ أي: بسبب خطيئاتهم أُغرقوا، فأدخلوا نارًا، و(الفاء) تفيد السرعة والتعقيب، بمجرد إغراقهم دخلوا النار التي تكون في البرزخ وعذبوا عذاب القبر.

ولذا نقول: إن كلمة القبر لا يُراد بها في لسان الشرع مجرد المكان الذي يُحفر ليوضع فيه الإنسان، وإنما قد تكون أعم من ذلك، كلمة القبر قد تكون أعم من ذلك.

يقول الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ لما أراد أن يفسر هذه الكلمة من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية لما قال: يفتنون في قبورهم.

قال: جمع قبر، وهي مدافن الأموات، والمراد ما هو أعم؛ فيشمل البرزخ وهو ما بين موت الإنسان وقيام الساعة, سواء دُفن الميت أو أكلته السباع في البر أو الحيتان في البحر أو أتلفته الريح، فكل ذلك برزخ له وهو قبر له.

فهذه الآية كذلك تدل على هذا المعتقد السني.

قال: وَقَوْلُهُ عَليهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَم: ((الْقَبْرُ إِمَّا رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ، أَوْ حُفْرَةٌ مِنْ حُفَرِ النَّارِ)).

وهذا ليس بحديث عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، هذا رواه الطبراني في الأوسط، وفي سنده محمد بن أيوب، وقد اتُّهم بالوضع كما في اللسان.

قال الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة: موضوع، أي أن هذا ليس حديثاً عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإن سمعناه كثيرًا عند المقابر، يقولون:قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((الْقَبْرُ إِمَّا رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ، أَوْ حُفْرَةٌ مِنْ حُفَرِ النَّارِ)).

هذا المعنى صحيح؛ لأن القبر قد يكون نعيمًا أو عذابًا، لكن هل ثبت ذلك من كلام النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لهذا اللفظ؟ لم يثبت، لكن هذا يؤخذ من مجموع أحاديث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

كحديث البراء بن عازب الذي أخبر فيه إن الميت إذا كانت في انقطاع من الدنيا وإقبال على الآخرة، ثم وصف حال المؤمن، ثم بعد ذلك وصف حال الفاجر أو الكافر، فذكر ما يكون من نعيم أو عذاب في القبر.

أما هذه اللفظة فلم تثبت عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلا يجوز لك أن تنسبها لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإلا صار المرء بذلك كاذبًا على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ, وقد قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ".

ولذا الواجب على طالب العلم وعلى المسلم: أن يتحرى في نسبة الأحاديث إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال: والمِرْزَبَة –بِالتَّخْفِيفِ-: الْمِطْرَقَةُ الْكَبِيرَةُ، وَيُقَالُ لَهَا أَيْضًا: إِرْزَبَّة؛ بِالْهَمْزَةِ وَالتَّشْدِيدِ.

هذا الذي ذكره الشيخ الهراس مجملاً في هذا الأمر العظيم الذي يكون بعد الموت، جاء مفصلاً في كتاب الله وفي سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأعني بذلك: ما يكون في القبر بعد الموت من فتنة ونعيم وعذاب، دل على ذلك كما قلنا كتاب الله وسنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فمن الأدلة ما ذكرنا من قول الله تعالى: {النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا} [غافر: 46]، وكذلك من قوله: {مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا}.

كذلك قول الله تعالى: {وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ} [الأنعام: 93]، هذه الآية تتعلق بماذا؟

تتعلق بعذاب القبر، وسكرات الموت، وما يكون من معاينة لملائكة العذاب، كما قال ذلك سلفنا الصالح.

العمدة في تفسير هذه الآيات المبينة أن ذلك يعني عذاب القبر أو نعيم القبر إما أن يكون كلام رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أو تفسير الصحابي أو من تلقى عنهم من التابعين.

لأن هذا أمر مبناه على الغيب المحض وعلى التسليم؛ فلابد أن يكون فيه خبر عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

أو عمن تلقى عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لأن منكري عذاب القبر في هذا الزمان يقولون: لم يرد ذكر عذاب القبر صراحة في كتاب الله.

يقول قائلهم: ائت لي بآية في كتاب الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى تقول عذاب القبر أو نعيم القبر، وهذا تجده بكثرة في لسان هؤلاء المجرمين ممن ينكرون سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فنقول: الآيات متكاثرة وتفسير السلف لها موجود في كتب التفسير المسندة، وكلها تدل على هذا الأمر، وهذا مما أجمع عليه أهل السنة والجماعة، فمن ذلك هذه الآية: {وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ}.

{فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ}؛ أي: في سكرات الموت، الروح ستخرج الآن.

{وَالْمَلائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ}؛ أي في هذه الحياة الدنيا، الكلام ليس عن العذاب الذي سيكون في الآخرة، وإنما العذاب الذي سيكون في هذه الحياة الدنيا، أي: بعد الموت وبعد الوضع في القبر.

وكذلك قال الله عَزَّ وَجَلَّ: {وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى} [طه: 124]، هذه المعيشة الضنك أين تكون؟ تكون

في القبر؛ لأن الله عَزَّ وَجلَّ قال بعد ذلك: {وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى}، ما جمع بين المعيشة الضنك والعمى في سياق واحد وفي زمن واحد، لكن قال: {وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى}.

ولذا جاء عن عبد الله بن مسعود وغيره من السلف أنهم قالوا: المعيشة الضنك هي عذاب القبر.

وكذلك قال الله عَزَّ وَجلَّ: {سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ} [التوبة: 101]، و(ثم): تفيد التراخي.

{سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ}؛ قال المفسرون: أحد العذابين الفضيحة في الدنيا.

والثاني: عذاب القبر.

ثم قال الله عَزَّ وَجلَّ: {ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ}؛ الذي يكون يوم القيامة؛ ففضح الله عَزَّ وَجلَّ المنافقين, لأن هذه الآية في سورة التوبة فضحهم في الحياة الدنيا وكادت هذه الصورة أن تسميهم بأسمائهم، وكذلك لهم العذاب الأليم في القبر؛ لأنهم ليسوا بمؤمنين، وكذلك يكون لهم العذاب العظيم في الآخرة.

وقال تعالى: {وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ} [الأنفال: 50]، وهذا الضرب للوجوه والأدبار كذلك يكون عند خروج الروح، أي: هذا مقدمة لحياة البرزخ التي ستكون فيها روح الإنسان.

وقال تعالى: {وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ} [الطور: 47].

وأما سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المتواترة، فمنها ما جاء في الصحيحين عن ابن عباس رَضِي اللهُ عَنْهُما قال: مرَّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقبرين، فقال: "يُعَذَّبَانِ، وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ"، ثم قال: "بَلَى".

أي ما يعذبان في كبير في نظر الناس؛ لأن الأمور التي سيذكرها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يتهاون فيها الناس جدًا، لكنها عظيمة عند الله تعالى وهي من الكبائر.

ولذا قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مستدركًا: "بَلَى، كَانَ أَحَدُهُمَا لَا يَسْتَتِرُ مِنْ بَوْلِهِ"، لا يستنزه من بوله، ما كان يحسن الاستنجاء، "وَكَانَ الْآخَرُ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ". وفي رواية: "بالغيبة".

فهذا من أسباب عذاب القبر؛ ولذا سنعلم أن المنجيات من عذاب القبر وفتنة القبر قد تكون منجيات شرعية أو قدرية، فمن المنجيات الشرعية من عذاب القبر عكس ما جاء في هذا الحديث، الاستبراء من البول، يعني: حسن التطهر, وحسن الاستنجاء.

ولذا جاء عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: "عَامَّةَ عَذَابِ الْقَبْرِ من الْبَوْلِ".

وفي رواية: "أَكْثَرُ عَذَابِ الْقَبْرِ مِنَ الْبَوْلِ"، (من) هاهنا سببية، أي: بسبب البول.

فمن المنجيات الشرعية من عذاب القبر: أن يُحسن المرء التطهر، لكن لا يصل ذلك إلى حد الوسوسة؛ لأن بعض الناس قد يمكث في الخلاء نصف ساعة

أو ساعة ، كلما أراد أن يخرج يقول: ليس بعد، إلى أن يخرج وقت الصلاة، نسأل الله السلامة والعافية.

فلابد من الاستبراء من البول؛ فهذا من المنجيات الشرعية، وكذلك حفظ اللسان من الغيبة والنميمة.

وكذلك من المنجيات الشرعية: قراءة سورة المُلك كل ليلة، قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "سُورَةٌ مِنَ الْقُرْآنِ ثَلاثُونَ آيَةً، تَشْفَعُ لِصَاحِبِهَا حَتَّى يُغْفَرَ لَهُ: تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ"، وهي سورة الملك، سماها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وكذلك عدم الأخذ من الغنيمة، لأنه جاء عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن الصحابة مدحوا رجلاً قاتل معهم، فذكر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن الشملة التي غلها من الغنيمة تحترق عليه في قبره، نسأل الله السلامة والعافية.

وكذلك الجهاد في سبيل الله، فإن الذي يموت شهيدًا في سبيل الله لا يُفتن في قبره، "كَفَى بِبَارِقَةِ السُّيُوفِ فَوْقَ رُؤُوسِهِم"؛ كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما سُئل ما بال الشهيد لا يُفتن في قبره.

وغير ذلك من الأسباب الشرعية التي لو أخذها المرء أو عمل بها؛ فإنها تكون سببًا في نجاته من فتنة القبر وعذاب القبر.

وأما الأسباب القدرية -أي التي لا دخل للإنسان فيها وإنما يقدرها الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى- فمنها: أن يموت ليلة الجمعة أو يوم الجمعة، فهذا من حسن الخاتمة، وبذلك ينجو من فتنة القبر.

وكذلك جاء عن زيد بن ثابت قال: "بَيْنَمَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي حَائِطٍ لِبَنِي النَّجَّارِ عَلَى بَغْلَةٍ لَهُ، وَنَحْنُ مَعَهُ إِذْ حَادَتْ بِهِ فَكَادَتْ تُلْقِيهِ، وَإِذَا أَقْبُرٌ سِتَّةٌ أَوْ خَمْسَةٌ أَوْ أَرْبَعَةٌ. فَقَالَ: "مَنْ يَعْرِفُ أَصْحَابَ هَذِهِ الْأَقْبُرِ؟".

فَقَالَ رَجُلٌ: أَنَا. قَالَ: "فَمَتَى مَاتَ هَؤُلَاءِ؟". قَالَ: مَاتُوا فِي الْإِشْرَاكِ. فَقَالَ: "إِنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ تُبْتَلَى فِي قُبُورِهَا، فَلَوْلَا أَنْ لَا تَدَافَنُوا لَدَعَوْتُ اللهَ أَنْ يُسْمِعَكُمْ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ الَّذِي أَسْمَعُ مِنْهُ". ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْنَا بِوَجْهِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: "تَعَوَّذُوا بِاللهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ". فقَالُوا: نَعُوذُ بِاللهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ.

إذًا: هذا كذلك من الأسباب الشرعية التي تنجي من عذاب القبر؛ وهو الدعاء الذي ندبنا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إليه، سواء كان ذلك في آخر التشهد أو أن ندعوا ذلك دعاء مطلقًا.

وهذا الحديث فيه أن الكفار والمشركين كذلك يُفتنون في قبورهم، والمؤمن يُفتن في قبره، والمنافق كذلك يُفتن في قبره، كما جاء في حديث البراء بن عازب، لكن من الذي ينجو من فتنة القبر؟

الأنبياء لا يُفتنون في قبورهم، معنى أنهم لا يُفتنون، أي: لا يُسألون في قبورهم هذه الأسئلة الثلاثة، ولا يأتيهم الملكان، فهذا هو معنى الفتنة.

فتنة القبر؛ أن يأتي ملكان أسودان أزرقان -نسأل الله السلامة والعافية- يُقال لأحدهما مُنكر، وللآخر نكير، يسألان العبد ثلاثة أسئلة: من ربك؟ وما دينك؟ وما تقول في النبي الذي بُعث فيك صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟

فلا يُسأل الأنبياء، لماذا لا يُسأل الأنبياء؟ لأن الشهيد إن كان لا يُسأل فالنبي من باب أولى، النبي أعلى درجة من الشهيد؛ ولأن المقبور يُسأل عن إيمانه بالنبي، يقول له: من ربك؟ وما دينك؟ وما تقول في النبي الذي بُعث فيك؟

فلا يُسأل النبي، ولا يُسأل الصديق؛ لأن الصديق أعلى درجة من الشهيد، {وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ} [النساء: 69]؛ فالصديق أعلى درجة من الشهيد.

ولا يُسأل كذلك الشهيد في قبره، ولا يُسأل غير المكلف، كالصبي الصغير، وكالمجنون ممن كان فاقد العقل في هذه الحياة الدنيا؛ لأن الذي يُسأل يُسأل عما قدمه من عمل في هذه الحياة الدنيا، لأن العبرة في القبر بماذا؟

بالعمل وليس بحفظ الإجابة، لأننا نحفظ الإجابة ، حتى بعض الكفار يحفظون هذه الإجابة، لو سألت الواحد منهم ماذا تقول في قبرك إذا سُئلت؟ يقول: أقول: ربي الله، وديني الإسلام، ومحمد نبيي، يريد: لا ضير أن أقول، لكن العبرة بالعمل، {يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (88) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ} [الشعراء: 88-89].

أي: سليم في اعتقاده، وصدَّق هذا الاعتقاد العمل الصالح، فكان يعمل بجوارحه وينطق بلسانه ويعتقد الاعتقاد الصحيح بقلبه.

ولذا قال بعض علمائنا: كل سؤال تستطيع أن تحفظه وأن تسترده وتسترجعه عند الحاجة إليه ما عدا أسئلة القبر.

مهما حفظها الإنسان وحفظ جوابها ولم يكن عاملاً بمقتضى هذه الأسئلة؛ فإنه لن يستطيع أن يُجيب.

لن يستطيع أن يقول المرء: ربي الله إلا إذا كان مؤمنًا بالله تَبَارَكَ وَتَعَالَى ربًا خالقًا رازقًا إلهًا يستحق العبودية دون من سواه، له الأسماء الحسنى والصفات المثلى، منزه عن كل عيب ونقص، منزه عن الشريك والولد والند والصاحبة، لن يستطيع المرء أن يقول هذه الكلمة إلا إذا كان مستكملاً لهذه الأمور.

ديني الإسلام، أين العمل؟ لا يكفي مجرد النطق بالكلمة، لابد من العمل، ونحن نعلم أن الإسلام يعني العمل.

ونبيّي محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وما علامة صدق إيمانك بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ أين متابعتك للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الاعتقاد والقول والعمل والمنهاج والسلوك والبعد عن البدعة والتزام السنة والصراط المستقيم؟

ولذلك الأمر شديد، ومما يدل على شدة هذا الأمر: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما ذكر فتنة الدجال قرَّبها بماذا؟ بفتنة القبر، وهذا يدل على أن فتنة القبر فتنة شديدة لا يثبت فيها إلا من ثبته الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

وكذلك يدل على فتنة القبر وعذابه ونعيمه ما جاء عن أم سلمة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال لما مات أبو سلمة: "اللهُمَّ افْسَحْ لَهُ فِي قَبْرِهِ، وَنَوِّرْ لَهُ فِيهِ".

إذن هذه العقيدة مبناها على التسليم وعلى الإيمان بالغيب.

قد يقول قائل: كيف يكون الإفساح في القبر وأنت تفتح قبور جميع المقبورين وتجدها سواء؟ نقول: هذا لا دخل للعقل فيه وإنما نُسلم، لماذا؟

لأن الدور ثلاثة: هذه الدار التي نحياها الآن دار الحياة الدنيا، ودار البرزخ، ودار الآخرة، وكل دار لها أحوالها وكيفيتها، هذه الدار نعلم حالها وكيفيتها؛ لأننا نشاهدها ونطلع عليها، فهي من عالم الشهادة.

ماذا عن البرزخ؟ هذا من عالم الغيب، ماذا عن أحواله؟ لا يعلم حقيقة هذه الأحوال إلا الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

ولذا الواجب علينا أن نقول: سمعنا وصدقنا، فإذا قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "اللهُمَّ افْسَحْ لَهُ فِي قَبْرِهِ"؛ آمنا وصدقنا أن القبر يُفسح للمؤمن مد بصره؛ كما جاء في بعض أحاديث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

هذا ما يشعر به الميت المؤمن، يرى قبره وقد وسِّع له سبعين ذراعًا، كما جاء عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أو مد بصره، "وَنَوِّرْ لَهُ فِيهِ".

وكذلك قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إِنَّ هَذِهِ الْقُبُورَ مَمْلُوءَةٌ ظُلْمَةً عَلَى أَهْلِهَا"، ما إعراب ظُلمة؟ هي في الأصل كانت مفعولًا به ثانيًا، إن الله يملأ هذه القبور ظُلمةً على أهلها؛ فصار المفعول الأول نائب فاعل، وبقي المفعول الثاني.

"مَمْلُوءَةٌ ظُلْمَةً عَلَى أَهْلِهَا، وَإِنَّ اللهَ يُنَوِّرُهَا لَهُمْ بِصَلاَتِي عَلَيْهِمْ"، إذًا: القبور تُنار كذلك، لكن كيف يكون هذا النور؟ لا يعلمه إلا الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، ولذا نقول: سمعنا وصدقنا، نُصدق كل ما أخبر به النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وغير ذلك من الأدلة.

أضف إلى ذلك إجماع أهل السنة والجماعة على هذا الأصل، والأحاديث التي وردت في ذلك أحاديث متواترة عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذه الأمور -كما قلنا-: لا تُدرك بالعقول وإنما مبناها على التسليم.

عذاب القبر ونعيمه هل يكون على الجسد أم على الروح أم على الروح والجسد؟

العذاب والنعيم يكون على الروح والجسد، العذاب والنعيم في هذه الحياة الدنيا يكون على الجسد والروح تابع للجسد؛ ولذا إذا نُعِّم الجسد يتبع ذلك نعيم الروح، وإذا عُذِّب الجسد يتبع ذلك عذاب الروح.

ماذا عن القبر؟ عكس ذلك، يكون النعيم والعذاب للروح والجسد تابع له.

ومعنى ذلك: أن العذاب والنعيم يكونان على الروح والجسد، لكن الأصل أن يكون على الروح والجسد تابع.

ولذا حتى لو بلي الجسد يبقى النعيم والعذاب، لماذا؟ لأن الروح إما أن تُنعم وتكون في الجنة، أو تكون في الدرك الأسفل من النار، نسأل الله السلامة والعافية، فيبقى النعيم والعذاب حتى وإن بلي الجسد.

وأما في الآخرة؛ فهذا أكمل ما يكون عليه الإنسان، يجتمع العذاب والنعيم على الروح والجسد بصورة كاملة؛ كما ذكر ذلك ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ في كتابه الروح وفي غيره من الكتب.

أهل العلم يُقسِّمون أحوال الروح واختلاف مستقر الروح ما بين الموت إلى قيام الساعة، ولا يجعلون الأرواح على درجة واحدة، قلنا: لأن الأصل في النعيم والعذاب يكون على الروح في البرزخ، والبدن تابع لذلك.

فمن هذه الأرواح أرواح تكون في أعلى عليين في الملأ الأعلى وهي أرواح الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، وهؤلاء متفاوتون في منازلهم أعظم تفاوت كما رآهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليلة المعراج.

فروح إبراهيم ليست كروح موسى وليست كروح يوسف ولا روح عيسى ولا آدم، فمنازل الأنبياء والرسل في السماوات هذا على حسب درجتهم عند الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وهذا الترتيب وهذه المكانة إنما كانت لأرواحهم وإنما هم في قبورهم، الأنبياء في قبورهم بأجسادهم وإنما هذه كانت أرواحهم.

ومن الأرواح أرواح في حواصل طير خضر تسرح في الجنة حيث شاءت، وهي أرواح بعض الشهداء لا جميعهم، بل من الشهداء من تُحبس روحه عن دخول الجنة لدين عليه.

قد يموت شهيدًا ومع ذلك تُحبس روحه عن دخول الجنة بسبب دين عليه؛ كما جاء في المسند أن رجلاً جاء إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: يا رسول الله مالي إن قُتلت في سبيل الله؟ قال: "الجَنَّةَ"، فلما ولَّى الرجل، قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إِلَّا الدَّيْنَ سَارَّنِي بِهِ جِبْرِيلُ آنِفًا".

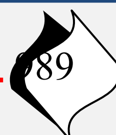
أي: أخبر به النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يُغفر له كل شيء إلا الدين، فمعنى ذلك: أن روحه تُحبس بسبب الدين.

ومن هؤلاء من تكون روحه محبوسة على باب الجنة، ومنهم من تكون روحه محبوسة في قبره، إلى غير ذلك مما جاء في سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وأما العُصاة والكفار؛ فكذلك تختلف أرواحهم فمنهم من تكون روحه في تنور من نار -نسأل الله السلامة والعافية-, فُرن من نار كأرواح الزُناة والزواني، لما سمع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صوتهم.

وكذلك من هؤلاء من تكون روحه في نهر من دم تسبح فيه ويُلقم الأحجار.

فكذلك الأرواح ليست على درجة واحدة.



فقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ في هذه العقيدة التي ذكرها:

وَمِنَ الإِيمَانِ بِالْيَوْمِ الآخِرِ الإِيمَانُ بِكُلِّ مَا أَخْبَرَ بِهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِمَّا يَكُونُ بَعْدَ الْمَوْتِ، فَيُؤْمِنُونَ بِفِتْنَةِ الْقَبْرِ.

قلنا ما المراد بفتنة القبر؟ سؤال الملكان, يُجلسانه ويسألانه هذه الأسئلة.

وَبِعَذَابِ الْقَبْرِ وَنَعِيمِهِ.

فالقبر فيه عذاب ونعيم، يُضيق على صاحبه حتى تختلف أضلاعه، وكذلك يُفسح لصاحبه حتى يكون مد بصره.

قال: فَأَمَّا الْفِتْنَةُ؛ فَإِنَّ النَّاسَ يُمْتَحَنُونَ فِي قُبُورِهِمْ، فَيُقَالُ للرِّجُلِ.

طيب ماذا عن المرأة؟ هل المرأة تُسأل في قبرها؟ نعم تُسأل في قبرها.

إذًا: قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فَيُقَالُ للرِّجُلِ؛ هذا من باب التغليب، وإلا فالنساء شقائق الرجال في أبواب التكليف والجزاء، فالمرأة تُفتن في قبرها وتُعذر وتُنعم، وتكون كذلك من أهل الجنة كما تكون من أهل النار.

فقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فَيُقَالُ للرِّجُلِ؛ هذا من باب التغليب.

فَيُقَالُ للرِّجُلِ: مَن رَّبُكَ؟ وَمَا دِينُكَ؟ وَمَن نَّبِيُّك؟

وهذا فيه أن المرء ينبغي له أن يعيش في هذه الحياة الدنيا من أجل هذه الأسئلة الثلاثة، أنت ما تطعم ولا تشرب ولا تتعلم ولا تجلس هذه المجالس إلا من أجل معرفة الإجابة على هذه الأسئلة الثلاثة، ثم بعد ذلك العمل الذي يكون سببًا في إجابتك، قلنا: لأن العبرة في القبر بالعمل وليس بحفظ إجابة هذه الأسئلة.

وَمَا دِينُكَ؟ وَمَن نَّبِيُّك؟

فيُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ.

هذه الآية في سورة إبراهيم. قال فيها جمهور المفسرين: إنها في فتنة القبر.

ولذا قال بعد ذلك: فَيَقُولُ الْمُؤْمِنُ: رَبِّيَ اللهُ.

أي إذا سُئل يقول: ربي الله، الفتنة عظيمة، ولا يثبت إلا من ثبته الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى. القبر ضيق جدًا مُظلم مُحكم عليك، يأتيك ملكان على هذه الصورة التي وصفها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أسودان أزرقان، يرجع عنك مالك وأهلك ولا يبقى إلا عملك، يُجلسانك وينتهرانك ويسألانك شديدًا: من ربك؟ ما دينك؟ ما تقول في النبي الذي بُعث فيك؟

فالأمر شديد؛ ولذا قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ.

بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ؛ أي: بكلمة التوحيد؛ لأنه كان موحدًا متابعًا للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ودليل ذلك قول الله عَزَّ وَجلَّ: {مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ} [إبراهيم: 24].

فالقول الثابت؛ أي: كلمة التوحيد.

أو القول الثابت؛ يعني: ما يلقيه الله عَزَّ وَجلَّ في روع العبد ويلهمه الإجابة بناء على ما كان منه من العمل.

فَيَقُولُ الْمُؤْمِنُ: رَبِّيَ اللهُ، وَالإِسْلاَمُ دِينِي، وَمُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَبِيِّي.

هذا يقوله المؤمن كامل الإيمان، ويقوله العاصي كذلك، لأن الحديث فرَّق بين مؤمن ومرتاب منافق.

فقال: فَيَقُولُ الْمُؤْمِنُ: رَبِّيَ اللهُ، وَالإِسْلاَمُ دِينِي.

الإسلام بمعناه العام أم الخاص؟ المراد الإسلام الذي جاء به كل نبي، لأن الناس أجمعين يُفتنون في قبورهم.

وَمُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَبِيِّي.

هذا يقوله مؤمنو هذه الأمة خاصة، وهذا فيه رد على الذين يصححون دين أهل الكتاب، فيقولون: إن اليهود والنصارى من أهل النجاة!! كيف ذلك واليهودي والنصراني من هذه الأمة إذا سُئل في قبره وما تقول في النبي الذي بُعث فيك؟ من الذي بُعث فيه؟ لا ينجو إلا بقوله: محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لأنه من هذه الأمة.

نحن نتكلم عمن ولد في هذه الأمة ومات، إذا سُئل في قبره فيُقال: ما تقول في النبي الذي بُعث فيك؟ محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، هل سيقول نبيي محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من كان كافرًا به، جاحدًا لنبوته؟ لا قطعا. إذًا: كيف يكون من أهل النجاة؟!

ولذا لا تكون النجاة في القبر وفي الآخرة لهذه الأمة إلا لأهل الإسلام الذين أسلموا إسلامًا خاصًا وهو الإسلام الذي جاء به محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وآمنوا بجميع الأنبياء والرسل ولم يفرقوا بين واحد من رسله.

ولذا قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -كما في صحيح مسلم- من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: "وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ: يَهُودِيٌّ وَلَا نَصْرَانِيٌّ، ثُمَّ لَا يُؤْمِنُ بِي، إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ"؛ يعني: الذين هم أصحابها، أي: المخلدين فيها.

فهذا الحديث فيه دليل على أن النجاة لا تكون إلا لمن آمن بنبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إيمانًا كاملاً.

قال: وَأَمَّا الْمُرْتَابُ؛ فَيَقُولُ: هَاه هَاه؛ لَا أَدْرِي، سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ شَيْئًا فَقُلْتُهُ.

أي أن هذا كان مجرد نطق اللسان، وهذا فعل المنافق ما كان يعتقد ذلك بقلبه، وإنما كان ينطق الكلمة لا يُصدق بها ولا يأتي بمقتضاها.

يقول: سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ شَيْئًا فَقُلْتُهُ.

أي كان يحفظ ذلك، فلما وُضع في القبر ما استطاع أن يُجيب وإنما قال: هَاه هَاه؛ لَا أَدْرِي.

قال: فَيُضْرَبُ بِمِرْزَبَةٍ مِنْ حَدِيدٍ، فَيَصِيحُ صَيْحَةً يَسْمَعُهَا كُلُّ شَيْءٍ؛ إِلَّا الإِنْسَانَ.

من الذي يُضرب؟ المرتاب هو الذي يُضرب.

قال: فَيُضْرَبُ بِمِرْزَبَةٍ مِنْ حَدِيدٍ، فَيَصِيحُ صَيْحَةً يَسْمَعُهَا كُلُّ شَيْءٍ؛ إِلَّا الإِنْسَانَ، وَلَوْ سَمِعَهَا الإِنْسَانُ؛ لَصُعِقَ. ثُمَّ بَعْدَ هَذِهِ الْفِتْنَةِ إِمَّا نَعِيمٌ وَإِمَّا عَذَابٌ.

كما جاء في حديث البراء بن عازب، يعني: هذا الذي يقول: ربي الله، وديني الإسلام، ونبيي محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ, يقول الله عَزَّ وَجَلَّ: صدق عبدي فأفسحوا له قبره وأفرشوه من الجنة، ويأتيه رجل طيب الثياب، طيب الرائحة، أبيض الوجه أو الثياب فيقول: من أنت فوجهك الذي يأتي بالخير؟ فيقول: أنا عملك الصالح، فيكون معه يؤنسه في قبره، فهذا يُنعم في قبره.

ومع ذلك يقول: ربي أقم الساعة؛ لأنه يعلم أن نعيم الآخرة سيكون أعظم من ذلك بكثير، فالجنة فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

ماذا عن الآخر المنافق المرتاب والكافر ؟ هذا يُضيق عليه قبره، ويُضرب بمرزبة وتختلف عليه أضلاعه، ويأتيه عمله في صورة رجل سيء الوجه والصورة، قبيح الرائحة -نسأل الله السلامة والعافية- فيقول من أنت فوجهك الذي لا يأتي بخير؟

فيقول: أنا عملك السيء، فيكون معه في قبره وتُفتح له طاقة من الجنة وطاقة من النار، ويُبين له أن الله عَزَّ وَجلَّ أبدله بمكانه الذي في الجنة مكانًا في النار، فيُعذب في قبره، ومع ذلك يقول: ربي لا تُقم الساعة، مع أنه يُعذب في قبره، لأنه يعلم أن عذاب الله عَزَّ وَجلَّ يوم القيامة أشد من ذلك، نسأل الله السلامة والعافية.

فهذا ما ينبغي للمؤمن أن يعتقده وأن يعمل من أجله.

هناك مباحث أخرى تتعلق بهذه المسألة، لكن الذي ينبغي أن يعتقده المسلم في هذا الأمر أن هناك فتنة وعذابًا ونعيمًا للقبر، وأن كل ذلك يسبق يوم القيامة، وأن عذاب القبر ليس على درجة واحدة، فمن الناس من يُعذب في قبره أبدًا، ثم إذا خرج يوم القيامة زاد عذابه وهم الكفار والمنافقون.

وأما العُصاة من أهل التوحيد؛ فإنهم يُعذبون على قدر ذنوبهم، ثم بعد ذلك تكون قبورهم نعيمًا عليهم، فالمرء يُعذب في قبره على قدر ذنبه إن كان من أهل التوحيد.

فنسأل الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى بأسمائه الحسنى وصفاته المثلى أن ينجينا وإياكم من عذاب القبر، ومن فتنة القبر، وأن يرزقنا حسن إجابة هذه الأسئلة التي ذكرها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأن يجعلنا من أهل الثبات الذين قال الله عَزَّ وَجلَّ فيهم: {يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ}، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم، وجزاكم الله خيرًا.

الدرس الثامن والثلاثون

إن الحمد لله, نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله تعالى من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله, صلى الله عليه, وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد:

فكنا قد وصلنا في الدرس الماضي إلى قول المصنف رَحِمَهُ اللهُ:

وَمِنَ الإِيمَانِ بِالْيَوْمِ الآخِرِ الإِيمَانُ بِكُلِّ مَا أَخْبَرَ بِهِ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم مِمَّا يَكُونُ بَعْدَ الْمَوْتِ، فَيُؤْمِنُونَ بِفِتْنَةِ الْقَبْرِ، وَبِعَذَابِ الْقَبْرِ وَنَعِيمِهِ. فَأَمَّا الْفِتْنَةُ؛ فَإِنَّ النَّاسَ يُمْتَحَنُونَ فِي قُبُورِهِمْ، فَيُقَالُ للرَّجُلِ: مَن رَّبُكَ؟ وَمَا دِينُكَ؟ وَمَن نَّبِيُّكَ؟ فيُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ، فَيَقُولُ الْمُؤْمِنُ: رَبِّيَ اللهُ، وَالإِسْلامُ دِينِي، وَمُحَمَّدٌ صلى الله عليه وسلم نَبِيِّي. وَأَمَّا الْمُرْتَابُ؛ فَيَقُولُ: هَاه هَاه؛ لَا أَدْرِي، سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ شَيْئًا فَقُلْتُهُ، فَيُضْرَبُ بِمِرْزَبَةٍ مِنْ حَدِيدٍ، فَيَصِيحُ صَيْحَةً يَسْمَعُهَا كُلُّ شَيْءٍ؛ إِلَّا الإِنْسَانَ، وَلَوْ سَمِعَهَا الإِنْسَانُ؛ لَصُعِقَ. ثُمَّ بَعْدَ هَذِهِ الْفِتْنَةِ إِمَّا نَعِيمٌ وَإِمَّا عَذَابٌ.

ثم قال المصنف رَحِمَهُ اللهُ بعد ذلك وهو يقرر ما يكون يوم القيامة: إِلَى أَنْ تَقُومَ الْقِيَامَةُ الْكُبْرى، فَتُعَادُ الأَرْوَاحُ إِلَى الأَجْسَادِ.

أي يبقى الناس في قبورهم في البرزخ إلى أن تقوم القيامة الكبرى، وهذا فيه إشارة إلى القيامة الصغرى، والقيامة الصغرى هذه تخص كل إنسان على حِدة، ونعني بها خروج روحه، فالمرء إذا خرجت روحه قامت قيامته.

ويُذكر ذلك حديثًا عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولا يصح، وإنما هو من قول السلف الصالح، فهذه تسمى بالقيامة الصغرى؛ إذا مات الإنسان قامت قيامته وبقي في قبره يُسأل ويُنعم أو يُعذب؛ كما سبق في الدرس الماضي.

يبقى على ذلك إلى أن تقوم القيامة الكبرى، فتعاد الأرواح إلى الأجساد، ويقوم الناس لرب العالمين ليحاسبهم.

ولذا قال هاهنا: إِلَى أَنْ تَقُومَ الْقِيَامَةُ الْكُبْرى.

والقيامة الكبرى شانها عظيم؛ ولذا كثرت أسماؤها، فمن أسمائها: الساعة، والطامة، والصاخة، والغاشية، والجاثية، وغير ذلك من الأسماء، وأسماؤها أعلام وأوصاف، هي أعلام؛ لأنها تدل على مسمى واحد وهو ما يكون في آخر هذا الزمان من قيام الناس لرب العالمين وحسابهم.

وهي كذلك أوصاف؛ لأن كل اسم من هذه الأسماء يتضمن صفة ليس في غيره؛ فهي مترادفة متباينة، ولذا لماذا سُميت الغاشية؟ لأنها تغشى الناس، أي: تفاجئهم، لماذا سميت الطامة؟ لأنها كذلك تفاجئ الناس، لماذا سميت الصاخة؟ لما يصيب الناس من فزع شديد، فهي صَيْحة شديدة تُصِمّ الأُذُن وتصخها لشدَّتها.

وهكذا في كل اسم من أسماء يوم القيامة له معنى يختلف عن المعنى الآخر، ولذلك قلنا: هي أعلام وأوصاف تدل على ذات واحدة على يوم القيامة، وهذا اليوم له صفات متعددة.

الشيخ الهراس رَحِمَهُ اللهُ لم يذكر شيئًا يتعلق بهذه الجملة وهي قول شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ: إِلَى أَنْ تَقُومَ الْقِيَامَةُ الْكُبْرى، فَتُعَادُ الأَرْوَاحُ إِلَى الأَجْسَادِ.

الكلام الآن عما يسبق يوم القيامة الكبرى، هذه الأرواح أين تكون؟ تكون في البرزخ في حياة لا يعلم كيفيتها إلا الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، هذه الأرواح تختلف أو يختلف مستقرها فليست على درجة واحدة.

فأرواح المؤمنين في الجنة وليست كذلك على درجة واحدة، فمنها: ما يعلق في شجر الجنة، ومنها: ما يكون في قناديل معلقة تحت العرش في حواصل طير خضر، ومنها: ما يسرح في الجنة.

وأما أرواح الكافرين والمنافقين؛ فإن مستقرها النار، هكذا تكون الأرواح إلى أن تقوم الساعة، فإذا قامت الساعة عادت الأرواح إلى الأجساد، لكن هذا كذلك يسبقه شيء كثير اختصره شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ.

فقبل ذلك تكون أشراط الساعة أي أماراتها وعلامتها التي تدل عليها؛ أشراط صغرى وأشراط كبرى، ذكرها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والأشراط الكبرى تقع بين يدي الساعة، وقبل ذلك أيضا تكون نفخات نفختان أو ثلاثة على خلاف بين أهل العلم: نفخة الفزع والصعق، ونفخة البعث للقيام لرب العالمين.

و من العلماء من يجعل النفخ ثلاث نفخات؛ ولذا نقول: إن أهل العلم اختلفوا في ذلك على قولين:

فمنهم من أخذ بظاهر النصوص وقال: هي نفخات ثلاثة، وهذا ما رجحه شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ، وكذلك تلميذه ابن القيم وجمع من المحققين: نفخة الفزع، ونفخة الصعق، ونفخة البعث والقيام.

النفخة الأولى التي هي نفخة الفزع؛ جاءت في سورة النمل؛ قال الله عَزَّ وَجلَّ: {وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ} [النمل: 87]؛ فهذه نفخة الفزع.

والنفخة الثانية وهي نفخة الصعق؛ جاءت مع نفخة البعث في آية واحدة في سورة الزمر؛ قال الله عَزَّ وَجلَّ: {وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ} [الزمر: 68]؛ وهذا الاستثناء اختلف فيه أهل العلم وسيأتي بيان بعض ما ذكروه.

ثم قال الله عَزَّ وَجلَّ: {ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ}؛ و(ثم): تفيد التراخي، فمعنى ذلك: أن النفخ يكون ثلاث مرات، وهذا ظاهر القرآن.

ومن أهل العلم من قال: إنهما نفختان:

نفخة الصعق؛ وهي طويلة ممتدة أولها فزع وآخرها صعق.

والنفخة الأخرى: وهي نفخة البعث.

ودللوا على ذلك بحديث رواه الإمام مسلم رَحِمَهُ اللهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: "يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَلاَ يَسْمَعُهُ أَحَدٌ إِلَّا أَصْغَى لِيتًا وَرَفَعَ لِيتًا"، يعني: صفحة عنقه يستمع ما هذا.

قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "وَأَوَّلُ مَنْ يَسْمَعُهُ رَجُلٌ يَلُوطُ حَوْضَ إِبِلِهِ"، يعني: يُصلح حوض الإبل, قال: "فَيَصْعَقُ وَيَصْعَقُ النَّاسُ".

إذًا: هذه النفخة بدأت بماذا؟ بانتباه هذا الرجل وفزعه لها، وانتهت بماذا؟ بالصعق، وهذا رواه مسلم من حديث عبد الله بن عمرو رَضِي اللهُ عَنْهُ وعن أبيه.

والراجح والله أعلم أنهم ثلاث نفخات, لظاهر القرآن.

كم بين هذه النفخات؟ أربعون؛ كما ذكر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أو بين نفخة الصعق والبعث أربعون، لكن كم هذه الأربعون؟ سكت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يُبين.

ولذا لما سُئل أبو هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أربعون يومًا؟ قال: أبيت، يعني: أبيت أن أُجيب بما لا علم لي به، أربعون شهرًا؟ قال: أبيت، أربعون سنة؟ قال: أبيت، فأبى أن يُجيب.

فهذا كذلك يكون بين يدي الساعة وقبل قيام الناس لرب العالمين، وكذلك يكون دك الجبال ونسفها وبسط الأرض، وانفطار السماء وانشقاقها، وتناثر النجوم، كل ذلك يكون بين يدي الساعة حتى تُهيأ الأرض ليقوم الناس لرب العالمين.

ولذا ينبغي للمرء إذا قرأ في أشراط الساعة وما يكون بين يدي الساعة وما يكون يوم القيامة، أن لا يكون ذلك لمجرد المعرفة، وإنما هو اعتقاد يترتب عليه عمل

و استعداد لهذا اليوم، فالأمر شديد.

ولو تدبرنا هذه الأمور التي سنذكرها من الميزان وتطاير الصحف والحساب وغير ذلك، نجد أن مدار كل ذلك على العمل؛ فما الذي يوزن؟ ما الذي يكون في الصحف؟ ما الذي يُسأل عنه المرء بين يدي الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى؟ العمل العمل.

ولذا قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "يَتْبَعُ الْمَيِّتَ ثَلاَثَةٌ، فَيَرْجِعُ اثْنَانِ وَيَبْقَى مَعَهُ وَاحِدٌ، فَيَرْجِعُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ وَيَبْقَى عَمَلُهُ"، وعما يُسأل في قبره؟ يُسأل عن العمل، وما الذي يكون معه في قبره يؤنسه في قبره أو يجعله وحشة عليه؟ العمل كذلك.

ولذا هذه الأمور لا تُذكر لمجرد الاعتقاد ولمجرد تصديق القلب بها وإقرار اللسان، لا، هذا ينبغي أن ينبني عليها العمل وأن ينبني عليه الاستعداد ليوم القيامة.

ولذا قلنا: هذه العقيدة -أعني الإيمان باليوم الآخر- هي أكثر عقيدة ذُكرت في السور المكية، لماذا؟ لأنها تحمل النفوس على الانتباه وعلى الرجوع إلى الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، سواء كان ذلك في شرك أو معصية؛ ولذا خاطب الله عَزَّ وَجلَّ بها المشركين كثيرًا في كتابه، وكذلك على لسان نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

الإيمان باليوم الآخر أو بالقيامة الكبرى دل عليه كتاب الله وسنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وإجماع المسلمين.

ولذا قال المصنف رَحِمَهُ اللهُ بعد ذلك: وَتَقُومُ الْقِيَامَةُ الَّتِي أَخْبَرَ اللهُ بِهَا فِي كِتَابِهِ، وَعَلَى لِسَانِ رَسُولِهُ، وَأَجْمَعَ عَلَيْهَا الْمُسْلِمُونَ. فَيَقُومُ النَّاسُ مِنْ قُبُورِهِمْ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلاً، وَتَدْنُو مِنْهُمُ الشَّمْسُ، وَيُلْجِمُهُمُ الْعَرَقُ. فَتُنْصَبُ الْمَوَازِينُ، فَتُوزَنُ بِهَا أَعْمَالُ الْعِبَادِ، {فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (102) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ} [المؤمنون: 102-103].

وَتُنْشَرُ الدَّوَاوِينُ، وَهِيَ صَحَائِفُ الأَعْمَالِ، فَآخِذٌ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ، وآخِذٌ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ أَوْ مِنْ وَّراءِ ظَهْرِهِ؛ كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ وَتعَالَى: {وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا (13) اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا} [الإسراء: 13-14].

قال: وَيُحَاسِبُ اللهُ الخَلائِقَ.

ذكر المصنف رَحِمَهُ اللهُ في هذه القطعة من الاعتقاد أن الدليل قد قام عليها من كتاب الله وسنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأجمع عليها المسلمون –أعني الإيمان بقيام الناس لرب العالمين–.

أما كتاب الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى؛ فقد قال تعالى: {يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (1) يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ} [الحج: 1-2].

وقال: {لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ} [القيامة: 1]؛ أي: أقسم بيوم القيامة، والنفي للتوكيد؛ كما قال علماء التفسير.

وقال تعالى: {الْحَاقَّةُ (1) مَا الْحَاقَّةُ (2) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ} [الحاقة: 1-3]، وقال: {الْقَارِعَةُ (1) مَا الْقَارِعَةُ (2) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ (3) يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ (4) وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ} [القارعة: 1-5].

إلى غير ذلك من أسماء سور يوم القيامة، وكذلك من الأوصاف التي دلت على عظيم هول هذا اليوم.

وأما سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فكذلك ذُكر فيها هذا الاعتقاد في أحاديث كثيرة عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وأما الإجماع؛ فهذا مما أجمع عليه المسلمون، من يخالف هذا الاعتقاد ليس بمسلم، لا نقول هذا مما أجمع عليه أهل السنة والجماعة، بل هذا مما أجمع عليه المسلمون على اختلاف فرقهم وطوائفهم؛ أن هناك قيامة كبرى وبعثًا بعد الموت.

ولذا نقول: الذي خالف في ذلك، بل الذي خالف في بعض ذلك مما هو معلوم من الدين بالضرورة خارج عن دين الإسلام.

فالذي يقول: إن البعث يكون للأرواح لا للأجساد؛ كما تقول الفلاسفة: يكفر بذلك.

ولذا الغزالي رَحِمَهُ اللهُ في كتابه تهافت الفلاسفة أخذ عشرين مسألة على ابن سينا ومن كان على منواله في الضلال وكفرهم في مسائل ثلاثة.

من هذه المسائل أنهم ينكرون بعث الأجساد بعد الموت ويقولون: إن البعث إنما يكون للأرواح دون الأجساد، وهذه عقيدة النصارى لو تعلمون.

النصارى يعتقدون أن البعث والنعيم والعذاب يكون في الآخرة للأرواح لا للأجساد.

فهذا الاعتقاد دل عليه كتاب الله وسنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأجمع عليه المسلمون كافة.

ويدل عليه كذلك العقل الصريح والنظر الصحيح، لماذا؟ لأن هذه الدنيا دار ابتلاء أنزل الله عَزَّ وَجلَّ الكتب وأرسل الرسل وابتلى الناس.

ومن الناس من آمن بالأنبياء والمرسلين وترك الشهوات والمعاصي والذنوب ابتغاء مرضات الله ورضوانه في الآخرة، مع أن هذا كان متاحًا له في الدنيا، لكنه ترك كل ذلك لله تعالى.

فكيف يستوي المؤمن الذي ترك ذلك وحرم نفسه منه مع الكافر الذي تمتع بملذات الدنيا وبكل ما يغضب الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى وعصى الأنبياء والمرسلين؟! أين الجزاء إن لم يكن هناك يوم آخر؟!

هب أن إنسانًا ظلم أخر في هذه الحياة الدنيا والمظلوم لم يستطع أن يأخذ حقه ومات على ذلك، فكيف يُقتص لهذا من ذاك؟

ولذا نقول: الحكمة تدل كذلك على هذا الأمر، والعقل الصريح أو النظر الصحيح يدل على هذا الأمر.

قال: فَيَقُومُ النَّاسُ مِنْ قُبُورِهِمْ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ.

كما قال الله عَزَّ وَجلَّ: {يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ} [المطففين: 6]، وهذا يدل على أن هذا القيام سيكون طويلاً.

ولذا جاء في وصفه أن الشمس تكون فوق الرؤوس، ومن كون الناس يقفون طويلاً حتى يذهب بعضهم إلى الأنبياء رجاء الشفاعة في بدء الحساب وكذلك ما جاء في وصف العرق، فاليوم طويل والهول طويل، ولا يُنجي منه إلا العمل الصالح.

طالما أنك في هذه الحياة الدنيا فاسع واعمل، اعمل ما يرضي الله تبَارَكَ وَتَعَالَى.

قال: حُفَاةً عُرَاةً غُرْلاً.

قال الشيخ الهراس رَحِمَهُ اللهُ: قَوْلُهُ: ((وَتَقُومُ الْقِيَامَةُ)) إلخ؛ يَعْنِي: الْقِيَامَةَ الْكُبْرَى، وَهَذَا الْوَصْفُ لِلتَّخْصِيصِ، احْتَرَزَ بِهِ عَنِ الْقِيَامَةِ الصُّغْرَى.

لأنه خصصه بالصفة؛ قال: الْقِيَامَةَ الْكُبْرَى.

احْتَرَزَ بِهِ عَنِ الْقِيَامَةِ الصُّغْرَى الَّتِي تَكُونُ عِنْدَ الْمَوْتِ؛ كَمَا فِي الْخَبَرِ: ((مَنْ مَاتَ فَقَدْ قَامَتْ قِيَامَتُهُ)).

قلنا: هذا لا يثبت عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإنما ثبت من كلام المغيرة بن شعبة رَضِي اللهُ عَنْهُ، وثبت كذلك من كلام عمر بن عبد العزيز، لكنه لا يصح مرفوعًا.

قال: وَذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ عز وجل إِذَا أَذِنَ بِانْقِضَاءِ هَذِهِ الدُّنْيَا.

هذا أمر لا يعلمه إلا الله متى يكون.

سألوا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: متى الساعة يا رسول الله؟ قال: "مَا المسؤول عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ"، متى الساعة؟ قال: "مَاذَا أَعْدَدْتَ لَهَا؟"، {يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا (42) فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا (43) إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا} [النازعات: 42-44].

أي: منتهى علمها إلى الله، لا يعلم ذلك لا ملك مُقرب ولا نبي مرسل، ولا واحد من الخلق، منذ أن خلق الله الخليقة وأرسل الرسل إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، لا يعلم ذلك إلا الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

وهذا كما قلنا: يُبين ضلال هؤلاء الذين وضعوا النظريات في نشأة العالم، وكذلك في فناء العالم، وحددوا وقتًا معينًا ينتهي فيه هذا العالم بذهاب ضوء

الشمس وبانكماش هذا العالم مرة أخرى ليعود كما كان يسمون ذلك الانكماش العظيم The Big Crunch، كل هذا من الضلال، لأن الله عَزَّ وَجلَّ قال عن الساعة: {لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً} [الأعراف: 187].

قال: وَذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ عز وجل إِذَا أَذِنَ بِانْقِضَاءِ هَذِهِ الدُّنْيَا؛ أَمَرَ إِسْرَافِيلَ عليه السلام أَنْ يَنْفُخَ فِي الصُّورِ النَّفْخَةَ الْأُولَى، فَيَصْعَقُ كُلُّ من في السموات ومن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ.

كما قال في سورة الزمر، وهذا الاستثناء اختُلف فيه كثيرًا، فقيل: المستثنى أرواح الشهداء، فإنها لا تفنى ولا تهلك، وقيل: جبريل، وقيل: الولدان المخلدون في الجنة، وقيل غير ذلك، مما هو من اجتهادات أهل العلم.

قال: وَتُصْبِحُ الْأَرْضُ صَعِيدًا جُرُزًا.

والصعيد الجرز هو الأملس الذي لا ينبت شيئًا، فلا يكون على وجه الأرض شيءٌ يحجب الرؤية، أرض ملساء بيضاء نقية لا ترى فيها عوجًا ولا أمتًا كما وصفها الله تعالى.

وَتُصْبِحُ الْأَرْضُ صَعِيدًا جُرُزًا، وَالْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلاً.

يدكها الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى دكًا، تُبدل الأرض غير الأرض والسماوات.

قال: وَيَحْدُثُ كُلُّ مَا أَخْبَرَ اللَّهُ بِهِ فِي كِتَابِهِ، لَا سِيَّمَا فِي سُورَتَيِ التَّكْوِيرِ وَالاِنْفِطَارِ.

وهود وغير ذلك من السور التي ذكرت ما يكون يوم القيامة.

قال: وَهَذَا هُوَ آخِرُ أَيَّامِ الدُّنْيَا.

ثُمَّ يَأْمُرُ اللَّهُ السَّمَاءَ، فَتُمْطِرُ مَطَرًا كمنيِّ الرِّجَالِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا.

إذا وقعت النفخة الأولى التي حصل فيها الصعق، وكذلك النفخة الثانية لو قلنا: إنهم ثلاث نفخات، وقعت الأولى الفزع ثم الصعق، ومات الناس أجمعون، ووقع ما لم يشاهده أحد مما يكون من حال السماء وحال الأرض والجبال، وبقي الأمر على ذلك.

قال المصنف أو الشارح رَحِمَهُ اللهُ: فَتُمْطِرُ مَطَرًا كمنيِّ الرِّجَالِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا.

قال: فَتُمْطِرُ مَطَرًا كمنيِّ الرِّجَالِ.

أي يكون مطرًا غليظًا.

أَرْبَعِينَ يَوْمًا، فَيَنْبُتُ مِنْهُ النَّاسُ فِي قُبُورِهِمْ.

يخرجون من قبورهم تجتمع أبدانهم مرة أخرى. سبحان الله مِن هؤلاء من مات منذ آدم عليه السلام، ما بقي منه إلا كما ذكر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلا عجب الذنب، وهي العظمة اليسيرة التي تكون في الفقرة الأخيرة التي تكون في الظهر، فيجتمع الإنسان منها مرة أخرى بقدرة القادر سُبْحَانَهُ وَتعالَى.

فَيَنْبُتُ مِنْهُ النَّاسُ فِي قُبُورِهِمْ مِنْ عَجْبِ أَذْنَابِهِمْ، وَكُلُّ ابْنِ آدَمَ يَبْلَى إِلَّا عَجْبَ الذَّنَبِ.

حَتَّى إِذَا تمَّ خلقُهُم وتركيبُهم.

وبقيت أجسادهم على هذه الصورة رُدت إليهم شعورهم، ورُد إليهم ما قُطع منهم، وكانوا على هذا الأمر ما شاء الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى إلى أن يأمر إسرافيل بأن ينفخ في الصور النفخة الثانية أو الثالثة؛ وهي نفخة القيام لرب العالمين.

فَيَقُومُ النَّاسُ مِنَ الْأَجْدَاثِ أَحْيَاءً.

والأجداث جمع جَدَث، وهو القبر، يقومون من قبورهم.

فَيَقُولُ الْكُفَّارُ والمنافقون حينئذ: {يَاوَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا} [يس: 52].

هذا يدل على شدة الفزع، ويدل على إدراك هؤلاء أنهم إذا خرجوا من القبور فإنهم ملاقون حسابًا عظيمًا عذابًا شديدًا.

فَيَقُولُ الْكُفَّارُ والمنافقون: {يَاوَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا}.

وَيَقُولُ الْمُؤْمِنُونَ: {هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ}.

ثُمَّ تَحْشُرُهُمُ الْمَلَائِكَةُ إِلَى الْمَوْقِفِ حُفَاةً غَيْرَ مُنْتَعلين، عُراةً غَيْرَ مُكْتَسِينَ، غُرلاً غَيْرَ مُخْتَتِنِينَ؛ جَمْعُ أَغْرَل، وَهُوَ الْأَقْلَفُ، والغُرلة: القَلَفة.

ويقال كذلك: القُلْفة، لها ضبطان، وهي التي تكون أعلى الذكر وتُقطع عند الختان، وكذلك الأمر بالنسبة للمرأة إذا اختتنت، كل ذلك يُرد إلى ابن آدم مرة أخرى.

قال: وَأَوَّلُ مَنْ يَكْتَسِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِبْرَاهِيمُ؛ كَمَا فِي الْحَدِيثِ.

فسبحان الله القادر القدير المقتدر!! يخرجون من بطون الأرض كما يخرجون من بطون أمهاتهم، يعود إليهم كل شيء مرة أخرى حفاة عراة غرلًا.

قال: وَهُنَاكَ فِي الْمَوْقِفِ تَدْنُو الشمس من رؤوس الْخَلَائِقِ، ويُلْجِمُهم الْعَرَقُ، فَمِنْهُمْ مَن يَبْلُغ كَعْبَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَبْلُغُ رُكْبَتَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَن يَبْلُغُ ثَدْيَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَبْلُغُ تَرْقُوَتَهُ؛ كُلٌّ عَلَى قَدْرِ عَمَلِهِ.

إذًا: مرد الأمر إلى العمل، فمستقل ومستكثر في قدر هذا العرق، وفي النجاة من الشمس، فمن الأمور التي تكون يوم القيامة دنو الشمس من رؤوس الخلائق تدونو كما جاء عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قدر ميل.

هل الميل يُراد به العود الذي يكون في المُكحلة أم الميل المعروف والذي هو كيلو وثلث؟ الله أعلم، لكن هذا يدل على قرب الشمس جدًا من رؤوس بني آدم، ويدل على شدة الحر، وعلى شدة أهوال يوم القيامة.

الآن لا نطيق الحر ونخفف الحر بهذه المبردات التي حُرمنا منها اليوم، ونسأل الله عَزَّ وَجلَّ أن لا يحرمنا منها، نسأل الله عَزَّ وَجلَّ أن يجيرنا وإياكم من عذاب النار ومن حر النار.

ما الذي يخفف حر يوم القيامة فضلاً عن حر النار ويُنجي من حر يوم القيامة؟ العمل؛ ولذا أصحاب الأعمال العظيمة الذين رجحت أعمالهم وكثرت في مقابل سيئاتهم, بل ربما لا تكون لهم سيئات، هؤلاء لا يُحاسبون وإنما يدخلون الجنة بغير حساب، كما ذكر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سبعين ألفا يدخلون الجنة بغير حساب، مرد ذلك مرة أخرى إلى العمل.

فمن الأمور التي تكون يوم القيامة دنو الشمس من رؤوس الخلائق، فما الذي يُنجي من ذلك بارك الله فيكم؟

"سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ تَعَالَى فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: إِمَامٌ عَدْلٌ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي الْمَسَاجِدِ، وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللَّهِ، اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ، فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ، فَأَخْفَاهَا حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ"، فهذه أسباب النجاة من الشمس يوم القيامة.

قال: وَيُلْجِمُهم الْعَرَقُ، فَمِنْهُمْ مَن يَبْلُغُ كَعْبَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَبْلُغُ رُكْبَتَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَن يَبْلُغُ ثَدْيَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَبْلُغُ تَرْقُوَتَهُ؛ كلٌّ عَلَى قَدْرِ عَمَلِهِ.

أين الناس في مثل هذا الموقف؟ كل في مكانه، في بيته، في مربع يختص به أم كلٌّ بجوار غيره من الخلائق؟ الزحام شديد، والله عَزَّ وَجلَّ على كل شيء قدير. تقف بجوار من بجوارك وقد يبلغ عرقك إلى ركبتيك، ويبلغ عرق غيرك إلى ترقوته، والله عَزَّ وَجلَّ على كل شيء قدير، وأحوال الآخرة لا يعلم كيفيتها إلا الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، فالكيفية لا نعلمها نجانا الله وإياكم من أهوال يوم القيامة.

قال: كلٌّ عَلَى قَدْرِ عَمَلِهِ، وَيَكُونُ أناسٌ فِي ظلِّ اللَّهِ عز وجل.

فَإِذَا اشتدَّ بِهِمُ الْأَمْرُ، وعظُمَ الْكَرْبُ؛ اسْتَشْفَعُوا إِلَى اللَّهِ عز وجل بِالرُّسُلِ وَالْأَنْبِيَاءِ أَنْ يُنْقِذَهُمْ مِمَّا هُمْ فِيهِ.

هذه الشفاعة العظمى. هذه الشفاعة يلجأ إليها أهل الموقف من أجل بدأ الحساب، لا من أجل النجاة من النار.

والذي يتدبر في ذلك يعلم هول هذا الموقف، يعني: يذهبون إلى الأنبياء من أجل أن يبدأ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى الحساب.

قال: وكلُّ رسولٍ يُحِيلُهُمْ عَلَى مَن بَعْدَهُ؛ حَتَّى يَأْتُوا نَبِيَّنَا صلى الله عليه وسلم، فَيَقُولُ: ((أَنَا لَهَا)).

كيف يقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذلك؟ أليس هذا تزكية لنفسه؟ كيف يقول ذلك نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ قال ذلك لأن الله عَزَّ وَجلَّ وعده بذلك في سورة الإسراء قال: {عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا} [الإسراء: 79]، و(عسى) من الله واجبة.

ولذا قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((أَنَا لَهَا))؛ لأنه علم أن الله عَزَّ وَجلَّ وعده بذلك، وهذا مما فضله به سبحانه على غيره من الرسل.

قال: وَيَشْفَعُ فِيهِمْ، فَيَنْصَرِفُونَ إِلَى فَصْلِ الْقَضَاءِ.

أي إلى بدء الحساب، والفصل بين الخلق، ولو أراد الله أن يبدأ الحساب دون ذلك لفعل، لكنها أسباب جعلها سبحانه، وهذا خلقه يفعل فيه ما يشاء.

قال: وَهُنَاكَ تُنْصَبُ الْمَوَازِينُ، فتوزَنُ بِهَا أَعْمَالُ الْعِبَادِ، وَهِيَ مَوَازِينُ حَقِيقِيَّةٌ، كُلُّ مِيزَانٍ مِنْهَا لَهُ لسانٌ وكفَّتان، ويقلِبُ اللَّهُ أَعْمَالَ الْعِبَادِ . وَهِيَ أعراضٌ . أَجْسَامًا؛ لَهَا ثقلٌ، فَتُوضَعُ الْحَسَنَاتُ فِي كِفَّةٍ، وَالسَّيِّئَاتُ فِي كِفَّةٍ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: {وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ} [الأنبياء: 47].

هذا كذلك مما يكون في أرض المحشر وهو نصب الموازين ووضعها، وكما قال الشارح رَحِمَهُ اللهُ: وَهِيَ مَوَازِينُ حَقِيقِيَّةٌ؛ هذه الموازين موازين حقيقية، دل على ذلك كتاب الله وسنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وإجماع المسلمين.

ونقل هذا الإجماع أبو إسحاق الزجاج رَحِمَهُ اللهُ، لا كما يقوله بعض المعتزلة، فليس كل المعتزلة ينكرون الميزان ، وإنما ينكره طائفة منهم يقولون: المراد بالميزان الوارد في كتاب الله وفي سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ العدل.

{وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ}؛ أي: نحقق العدل يوم القيامة، لأنهم ينكرون أن تنقلب الأعراض إلى أجسام، يقولون: إن أعمال العباد، أعراض فكيف توزن؟ كيف يوضع العمل في الميزان؟

فأنكروا ذلك بعقولهم، وأولوا ما جاء في كتاب الله وردوا ما جاء في سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ونقول: هذا ضلال منهم كما بيّن أهل العلم.

ولذا يقول القرطبي رَحِمَهُ اللهُ كما في التذكرة: لو جاز حمل الميزان على ما ذكروه، أي: العدل، لجاز حمل الصراط على الدين الحق، لأن : {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ} [الفاتحة: 6]، تعني اهدنا طريق الحق.

ولذا جاء في تفسيره الإسلام صراط أبي بكر وعمر، وما جاء به النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الهدى، كل ذلك يعود إلى الدين الحق، فلو قلنا إن المراد بالميزان تحقيق العدل، فكذلك نقول في الصراط يُراد به، وليس هناك صراط في الآخرة يُضرب فوق جهنم.

قال: ولا حُملت الجنة والنار على ما يرد على الأرواح دون الأجساد من الأحزان والأفراح.

ولتعلموا أن هذا فاشٍ في كثير من الكتب التي ترجمت معاني القرآن الكريم، خاصة هذه الكتب التي ترجمها أناس من شرق أسيا كعبد الله يوسف, وهو من أشهر من ترجم معاني القرآن الكريم وكتابه من أشهر الكتب التي انتشرت وتداولها غير المتكلمين باللسان العربي.

حتى إن مجمع الملك فهد كان يطبع هذه الترجمة ويكرر طباعتها، ثم يرسل إليه العلماء الأخطاء التي توجد في هذه الترجمة، فيصحح المجمع ما يرد إليه من أخطاء، ثم تظهر أخطاء جديدة إلى أن تركوها وجاءوا بترجمة الدكتور محسن خان والشيخ محمد تقي الدين الهلالي، وهي الترجمة المعتمدة الآن وهي على عقيدة أهل السنة والجماعة.

فأغلب هؤلاء يؤولون هذه الآيات التي وردت في النعيم الذي يكون في الآخرة وفي الميزان وفي الصراط وغير ذلك ، فيجعلون ذلك أمورًا معنوية تخييلية لا حقيقة لها، وهذا كلام الفلاسفة تأثروا به.

فيقول القرطبي: ولجاز حمل الجنة والنار على ما يرد على الأرواح دون الأجساد من الأحزان والأفراح، ولجاز حمل الشياطين والجن على الأخلاق المذمومة والملائكة على القوة المحمودة.

قال: وهذا كله فاسد؛ لأنه رد لما جاء به الصادق صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قلت: ثم هو مخالف لما دلت عليه هذه النصوص من أنه ميزان حقيقي؛ لأن النصوص جاءت بأن هذا الميزان له كفتان، وهذا لا يوصف به العدل.

النصوص جاءت بأن العامل يوزن، وأن العمل يوزن، وأن صحائف الأعمال توزن، النصوص جاءت بأن إحدى الكفتين ترجح، كل ذلك لا يوصف به العدل.

والشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ يقول: ولو كان المراد بالميزان العدل لذكر الله عَزَّ وَجلَّ العدل، فإنه أشرف للذكر، فلما لم يذكر الله عَزَّ وَجلَّ هذه الكلمة دل على أنه ميزان حقيقي؛ ولذا قال: فتوزن أعمال العباد بالموازين.

قال: وَهُنَاكَ تُنْصَبُ الْمَوَازِينُ.

هل هو ميزان واحد أم موازين؟ نقول: هذا مما اختلف فيه أهل العلم، والاختلاف فيه لا يضر لأنه من فروع الاعتقاد، لكن الذي يضر هو تأويل الميزان نفسه أو رده وإنكاره ، لكن هل هو ميزان واحد أم أكثر من ميزان؟ هذا لا يضر.

فمن أهل السنة من قال: هي موازين، قالوا: هذا ظاهر القرآن: {وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ}، {وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ} [القارعة: 8]، {فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ} [القارعة: 6]، فقالوا: هذا الذي جاء به القرآن.

ومنهم من قال: بل هو ميزان واحد وإنما جُمع بسبب الموزون فيه؛ لأن الأعمال التي توزن فيه كثيرة؛ ويوزن فيه العامل نفسه، وصحائف الأعمال، ولذا جاء بصيغة الجمع.

وجاء كذلك في سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما يدل على أنه ميزان واحد لا يقدر قدره إلا الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

فجاء عن سلمان الفارسي -وهذا رواه الحاكم- أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: "يوضع الميزان يوم القيامة، فلو وزن فيه السماوات والأرض لوسعت, فتقول الملائكة: يا رب لمن يزن هذا؟ فيقول الله عَزَّ وَجلَّ: لمن شئت من خلقي، فتقول الملائكة: سبحانك ما عبدناك حق عبادتك"، قال: "ويوضع الصراط مثل حد الموسى، فتقول الملائكة: من تجيز على هذا؟ فيقول الله عَزَّ وَجلَّ: من شئت من خلقي، فيقولون: سبحانك ما عبدناك حق عبادتك".

وهذا جاء مرفوعًا وموقوفًا على سلمان، وأهل العلم قالوا: الموقوف أصح، لكن مثله لا يقال بالرأي فله حكم الرفع؛ كما قال الشيخ الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في السلسة الصحيحة.

فهذا الحديث يقول فيه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "يوضع الميزان"؛ فهو ميزان واحد عظيم شأنه.

قال: "فلو وزن فيه السماوات والأرض لوسعت"؛ ولذا قلنا بعض أهل العلم قال: هو ميزان واحد والجمع باعتبار الأعمال، وممن قال بذلك الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ في الفتح.

قال: "فتوزن بها أعمال العباد"؛ ما الذي يوزن؟

ثبت أن الأعمال قد توزن، والعامل يوزن والعمل والصحيفة كذلك توزن، أين نجد أن العمل يوزن؟ أين نجد ذلك في كتاب الله وفي سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن العمل يوزن؟

قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "وَالْحَمْدُ لِلهِ تَمْلأُ الْمِيزَانَ"، هذا العمل، وقوله: "كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ".

أين نجد أن العامل هو الذي يوزن؟ حديث ساق عبد الله بن مسعود قال: "لَهُمَا أَثْقَلُ فِي الْمِيزَانِ مِنْ جبل أُحُدٍ"، وكذلك قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "يُؤْتَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِالرَّجُلِ السَّمِينُ، فَلاَ يَزِنُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ"

أين نجد أن الصحيفة هي التي توزن؟ حديث البطاقة، ولذا نقول: الصحيح أن كل ذلك يوزن، وبكل ذلك جاء الكتاب والسنة.

قال: وَهِيَ مَوَازِينُ حَقِيقِيَّةٌ، كُلُّ مِيزَانٍ مِنْهَا لَهُ لسانٌ وكفَّتان.

أما الكفتان؛ فقد دل عليهما الدليل؛ كما في حديث البطاقة، وكما في حديث وصية نوح عَليهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمَ لولده: "أُوصِيكَ بِلاَ إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَإِنَّ السَّمَاوَاتِ السَّبعَ وَالأَرضِينَ السَّبعَ لَو وُضعَتْ فِي كِفَّةٍ، وَوُضِعَتْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ فِي كِفَّةٍ؛ لَرَجَحَتْ بِهِنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ".

وأما اللسان؛ فهذا هو المعروف من الميزان؛ المعروف من ميزان الدنيا، وأما أن دليلاً دل على ذلك من كتاب الله أو سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فلا يوجد، لكن هذا منقول فيه الإجماع.

أبو إسحاق الزجاج رَحِمَهُ اللهُ لما نقل الإجماع قال: هو ميزان حقيقي له لسان وكفتان.

قال: ويقلِبُ اللَّهُ أَعْمَالَ الْعِبَادِ . وَهِيَ أعراضٌ . أَجْسَامًا؛ لَهَا ثقلٌ، فَتُوضَعُ الْحَسَنَاتُ فِي كِفَّةٍ، وَالسَّيِّئَاتُ فِي كِفَّةٍ.

والله عَزَّ وَجلَّ على كل شيء قدير، ولهذا رد بعض المعتزلة كون الميزان حقيقيا، قالوا: كيف توزن الأعمال وهي أعراض؟ تعرفون ما معنى أعراض؟ أي صفات لا تقوم بنفسها لابد أن تقوم في جواهر، هكذا يقولون باصطلاحهم: أي في أجسام، فنقول: الله عَزَّ وَجلَّ على كل شيء قدير.

وقد جاء ما يدل على ذلك؛ وهو أن الموت يوم القيامة يؤتى به على صورة كبش ويُذبح بين الجنة والنار والموت عرض، وجعله الله عَزَّ وَجلَّ جسمًا يُذبح، فالله عَزَّ وَجلَّ على كل شيء قدير، وفي مثل هذا نقول: سمعنا وصدقنا.

قال: فَتُوضَعُ الْحَسَنَاتُ فِي كِفَّةٍ، وَالسَّيِّئَاتُ فِي كِفَّةٍ.

هذا الوزن إنما يكون لمن؟ هل يكون للكفار؟ الكفار لا حسناتِ لهم. نقول حسناتِ بالكسر دون التنوين؛ لأن اسم لا النافية للجنس هاهنا مبني، والمبني لا يُنون؛ ولذا هذا من أثقل ما يكون في نطق اسم لا النافية للجنس، الذي هو الجمع المختوم بألف وفاء. فالكافر لا حسناتِ له.

قال: كَمَا قَالَ تَعَالَى: {وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ}.

وهذا يدل على تمام عدل الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، فالله عَزَّ وَجلَّ قادر على أن يحكم في العباد بعلمه، لكن من تمام إعذاره للخلق وإقامة العدل يوم القيامة أن ينصب الموازين، وأن يقف كل واحد أمام ميزانه ليرى عمله.

ولذا بكت عائشة رَضِي اللهُ عَنْهَا يومًا وقالت للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يا رسول الله هل تذكرون أهليكم يوم القيامة؟ قال: "نعم، إلا في ثلاثة مواضع"، وذكر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمام الميزان، المرء ينظر إلى الميزان يقف أمامه ، يرى هل تثقل كفة الحسنات أم كفة السيئات؟

ويقول الله عَزَّ وَجلَّ: {فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (7) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ} [الزلزلة: 7-8]، وهذا كله كما قلنا: يدل على تمام عدله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

قال: ثُمَّ تُنْشَرَ الدَّوَاوِينُ، وَهِيَ صَحَائِفُ الْأَعْمَالِ.

الدواوين جمع ديوان وهي الصحف التي تتطاير، فآخذ كتابه بيمينه، وآخذ كتابه بشماله من وراء ظهره، كما جاء في كتاب الله.

قال: ثُمَّ تُنْشَرَ الدَّوَاوِينُ، وَهِيَ صَحَائِفُ الْأَعْمَالِ.

كل ذلك قبل الحساب، كل ذلك يكون قبل العرض والحساب، فهذه أمور تسبق العرض والحساب.

قال: {فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ (7) فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا} [الانشقاق: 7-8].

الأعسر الذي لم يكن يحسن عمل شيء في الدنيا بيده اليمنى لكنه كان مؤمنًا، يأخذ كتابه يوم القيامة بيمينه، والكافر والمنافق الذي كان يستعمل يمينه في كل عمله في الدنيا يأخذ كتابه يوم القيامة بشماله من وراء ظهره، والمرد أيضًا إلى العمل وما في هذه الصحف.

قال: وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا.

يحاسب حسابًا يسيرًا الذي هو العرض، تُعرض عليه أعماله من غير تحقيق ولا مناقشة، عملت كذا يوم كذا، وعملت كذا يوم كذا، وعملت كذا يوم كذا؛ ولذا يقول الله عَزَّ وَجلَّ كما سيأتي في الفقرة التي بعد ذلك: سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ.

قال: وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ أَوْ مِنْ وَرَاءِ ظَهْرِهِ.

من أهل العلم من قال: من الكافرين من يأخذ كتابه بشماله، ومنهم من يأخذ كتابه من وراء ظهره.

والصحيح: أنه يأخذ كتابه بشماله من وراء ظهره، والجزاء من جنس العمل، لأنه لما استدبر الشريعة واستدبر كتاب الله تَبارَكَ وَتَعَالَى كان أخذه للكتاب من وراء ظهره، {وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا} [الكهف: 49].

قال: وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ أَوْ مِنْ وَرَاءِ ظَهْرِهِ، فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا، وَيَصْلَى سَعِيرًا، وَيَقُولُ: يَا لَيْتَنِي لَمْ أوتَ كِتَابِيَهْ.

لكن هذا ندم حين لا ينفع الندم، أسأل الله عَزَّ وَجلَّ أن يسلمنا وإياكم.

قال: وَلَمْ أدرِ مَا حِسَابِيَهْ؛ قَالَ تَعَالَى: {وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ} [الكهف: 49].

و (الألف) في الكتاب للعهد، أي: الكتاب الذي يكون يوم القيامة كتاب الصحف.

{فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ}؛ وهذا الوضع للكتاب يكون بعد الجحد والإنكار؛ لأن من هؤلاء من تُعرض عليه أعماله يقال له: عملت كذا يوم كذا؟ فيقول: ظلمني كتبتُك، فيجعل الله عَزَّ وَجلَّ شاهدًا عليه من نفسه، ثم يكون الكتاب بعد ذلك.

ولذا قال: {فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَاوَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا}.

إذًا من الذي سيحاسبك؟ أنت من ستحاسب نفسك، وهذا من عدل الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، أنت من ستنظر في كتابك لترى ما قدمت.

قال الحسن رَحِمَهُ اللهُ: لقد عَدَل عليك من جعلك حسيب نفسك, سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

ما أخفى كتابك، ما قال لك: هذا حكمنا فيك، شئت أم أبيت، وإنما جعل لك الموازين ونصب لك الدواوين لكي تكون حسيبًا على نفسك.

قال: وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى: {وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ} [الإسراء: 13]؛ فَقَدْ قَالَ الرَّاغِبُ: ((أَيْ: عَمَلَهُ)).

كتاب الراغب الأصفهاني رحمه الله اسمه المفردات في غريب القرآن؛ وهو من أفضل ما وُضع في غريب القرآن؛ كما قال علماؤنا، لأنه ينظر إلى سياق الكلمة

لا يأتي بمعناها المجرد في لغة العرب، لكن لابد من الانتباه لبعض المخالفات العقدية التي وقعت منه في هذا الكتاب. [1]

قال: فَقَدْ قَالَ الرَّاغِبُ: ((أَيْ: عَمَلَهُ الَّذِي طَارَ عَنْهُ مِنْ خيرٍ وشرٍّ)).

وَلَكِنَّ الظَّاهِرَ أَنَّ الْمُرَادَ بِالطَّائِرِ هُنَا نَصِيبُهُ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا، وَمَا كُتِب لَهُ فِيهَا مِنْ رِزْقٍ وَعَمَلٍ؛ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: {أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ} [الأعراف: 37].

يَعْنِي: مَا كُتِبَ عَلَيْهِمْ فِيهِ.

هذه الآية اختلف فيها أهل العلم على قولين: هل المراد بالطائر؛ كما ذكر الراغب العمل الذي قدمه في هذه الحياة الدنيا، أم ما قدره الله عَزَّ وَجلَّ عليه أو له من نصيب من رزق وعمل وغير ذلك؟

والراجح -والله أعلم-: قول الراغب؛ ولذا استشهد شيخ الإسلام ابن تيمية بهذه الآية.

قال الشيخ السعدي رَحِمَهُ اللهُ في تفسير هذه الآية: وهذا إخبارٌ عن كمال عدله سبحانه؛ أن كل إنسان يلزمه طائره في عنقه.

أي: ما عمل من خير وشر يجعله الله ملازمًا له لا يتعداه إلى غيره، فلا يُحاسب بعمل غيره ولا يُحاسب غيره بعمله.

وهناك آية في سورة طه تدل على ذلك؛ أن الله عَزَّ وَجلَّ لا يأخذ من حسناتك لغيرك ولا يضع سيئات غيرك عليك، {فَلاَ يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا} [طه: 112]، لا تهضم حسناتك، لا تؤخذ حسناتك، وكذلك لا توضع سيئات غيرك عليك.

[1] - راجع (تنبيهات حول كتاب المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني) مقال على موقع الإمام الآجري.

قال الشيخ السعدي رَحِمَهُ اللهُ: ونُخرج له يوم القيامة كتابًا فيه ما عمله من الخير والشر صغيره وكبيره، ويقال له: اقرأ كتابك، قال: وهذا من أعظم العدل والإنصاف أن يُقال: حاسب نفسك.

لماذا سماه الله طائرًا؟ سُمي العمل طائرًا لأنه طار عن المرء، ولا يمكن استرجاعه، ودوِّن في كتابه، وقع العمل سواء كان خيرًا أو شر، ودوِّن في كتاب وكأنه وضع في صندوق ولن يُفتح هذا الصندوق إلا يوم القيامة ليُعرض على ابن آدم.

قال: قَوْلُهُ: ((وَيُحَاسِبُ اللَّهُ الخلائقَ)).

قلنا هذا فيه أن الحساب يكون بعد نشر الدواوين؛ ولذا قال الله عَزَّ وَجلَّ: {فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ (7) فَسَوْفَ يُحَاسَبُ}، ذكر الكتاب أولًا, ثم ذكر بعد ذلك الحساب، {فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا (8) وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا}.

قال: الْمُرَادُ بِتِلْكَ الْمُحَاسَبَةِ تَذْكِيرُهُمْ وَإِنْبَاؤُهُمْ بِمَا قدَّموه مِنْ خَيْرٍ وشرٍّ أحصَاه اللَّهُ وَنَسُوهُ؛ قَالَ تَعَالَى: {ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [الأنعام: 108].

من أسماء الله الحسيب، ما معنى الحسيب؟ له معنيان: الحسيب بمعنى: الكافي، {وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا} [النساء: 6]، ولذا أنت تقول: حسبي الله ونعم الوكيل.

ولها معنى آخر وهو: بمعنى الحاسب اسم الفاعل؛ أي: الذي يحاسب العباد على أعمالهم ويكتب كل ما يعمله ابن آدم، تكتب ذلك الملائكة بأمر الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

قال: وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: ((مَن نوقِشَ الْحِسَابَ عُذِّب)).

فَقَالَتْ عَائِشَةُ رضي الله عنها: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَوَلَيْسَ اللَّهُ يَقُولُ: {فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا}؟

فَقَالَ: ((إِنَّمَا ذَلِكَ الْعَرْضُ، وَلَكِنْ مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ يَهْلِكْ)).

إنما ذلك العرض أي: يُعرض العمل على المؤمن مجرد عرض لا تحقيق فيه ولا هلاك، ثم بعد ذلك يعفو الله عَزَّ وَجلَّ عن ابن آدم.

ثم قال المصنف بعد ذلك وهو يذكر حديث النجوى، قال: وَيَخْلُو بِعَبْدِهِ الْمُؤْمِنِ، فَيُقَرِّرُهُ بِذُنُوبِهِ؛ كَمَا وُصِفَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ. وَأَمَّا الْكُفَّارُ؛ فَلا يُحَاسَبُونَ مُحَاسَبَةَ مَنْ تُوزَنُ حَسَنَاتُهُ وَسَيِّئَاتُهُ؛ فَإِنَّهُ لَا حَسَنَات لَهُمْ، وَلَكِنْ تُعَدُّ أَعْمَالُهُمْ، فَتُحْصَى، فَيُوقَفُونَ عَلَيْهَا وَيُقَرَّرُونَ بِهَا.

ويخزون بها -نسأل الله السلامة والعافية-

يقول الشيخ رَحِمَهُ اللهُ: وَأَمَّا قَوْلُهُ: ((وَيَخْلُو بِعَبْدِهِ الْمُؤْمِنِ)).

وهذا معروف بحديث النجوى، والنجوى: الكلام الخفي الذي لا يطلع عليه أحد، وهذا من تمام ستر الله عَزَّ وَجلَّ على عباده المؤمنين.

قال: فَقَدْ وَرَدَ عَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما أَنَّ اللَّهَ عز وجل يُدني مِنْهُ عَبْدَهُ الْمُؤْمِنَ.

هذا لا يكون لكل عبد مؤمن، وإنما هذا يختص الله عَزَّ وَجلَّ به من يشاء من عباده، ولذا جاء في حديث آخر ما يكون من حال صاحب البطاقة يُنادى على رؤوس الخلائق، وتُعرض عليه أعماله وسجلاته، فالألف واللام هاهنا ليست

للعموم؛ ولذا صاحب المعصية في مشيئة الله يوم القيامة قد يستره ويعفو عنه، وقد يعذبه سُبْحَانَهُ وَتعالَى.

قال: فَيَضَعُ عَلَيْهِ كَنَفَه.

أي: ستره.

وَيُحَاسِبُهُ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ، ويقرِّره بِذُنُوبِهِ، فَيَقُولُ: أَلَمْ تَفْعَلْ كَذَا يَوْمَ كَذَا؟ أَلَمْ تَفْعَلْ كَذَا يَوْمَ كَذَا؟ حَتَّى إِذَا قرَّره بِذُنُوبِهِ، وَأَيْقَنَ أَنَّهُ قَدْ هَلَكَ؛ قَالَ لَهُ: سترتُها عَلَيْكَ فِي الدّنيا وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ.

قال: وَأَمَّا قَوْلُهُ: ((فَإِنَّهُ لَا حَسَنَاتِ لَهُمْ)) ؛ يَعْنِي: الْكُفَّارَ؛ لِقَوْلِهِ تَعالَى: {وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا} [الفرقان: 23].

وَقَوْلِهِ: {مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ} [إبراهيم: 18].

قال: وَالصَّحِيحُ [أَنَّ] أَعْمَالَ الْخَيْرِ الَّتِي يَعْمَلُهَا الْكَافِرُ يُجَازَى بِهَا فِي الدُّنْيَا فَقَطْ، حَتَّى إِذَا جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَجَدَ صَحِيفَةَ حَسَنَاتِهِ بَيْضَاءَ.

وَقِيلَ: يخفَّف بِهَا عَنْهُ مِنْ عَذَابِ غَيْرِ الْكُفْرِ.

الله أعلم بذلك، لكن الذي جاءت به سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن الكافر لا يجازى على حسناته في الآخرة وإنما يُجازى عليها في الدنيا.

قولنا الكافر: يدخل في ذلك أهل الكتاب ممن أشرك وثلَّث، أو ممن وحد ولم يؤمن بمحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، هؤلاء إن جاءوا يوم القيامة وكانوا قد عملوا أعمالًا عظيمة في الدنيا؛ فإنهم لا حسنات لهم في الآخرة، يُجازون بذلك في

الدنيا؛ لأن النجاة في الآخرة لا تكون إلا للموحد المتابع لنبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ممن أدرك رسالته.

وأما من كان قبل ذلك فيكفيه الإيمان برسوله ونبيه وبمن سبقهم من الأنبياء والمرسلين.

فكان يكفي النصارى الإيمان بعيسى مع توحيد الله قبل بعثة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، لكن لما بُعث محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يتم إيمانهم إلا بالإيمان بمحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

نكتفي بهذا القدر.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم، وجزاكم الله خيرًا.

الدرس التاسع والثلاثون

إن الحمد لله, نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله تعالى من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله, صلى الله عليه, وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد:

فما زال حديثنا موصولًا حول هذا الاعتقاد المبارك اعتقاد أهل السنة والجماعة، والذي سطره شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ في العقيدة الواسطية.

وحديثنا كذلك ما زال موصولًا في الكلام عن الإيمان باليوم الآخر وما يكون فيه.

وقد وصلنا إلى قول المصنف رَحِمَهُ اللهُ: وَفِي عَرَصَاتِ الْقِيَامَةِ الْحَوضُ الْمَوْرُودُ لِلنَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم، ماؤُه أَشَدُّ بَيَاضًا مِنَ اللَّبَنِ، وَأَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ، آنِيَتُهُ عَدَدُ نُجُومِ السَّمَاءِ، طُولُهُ شَهْرٌ، وَعَرْضُهُ شَهْرٌ، مَن يَّشْرَبُ مِنْهُ شَرْبَةً؛ لَا يَظْمَأُ بَعْدَهَا أَبَدًا.

الكلام ههنا عن حوض النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو الذي يكون في عرصات القيامة، وسبق أن بيَّنا معنى العرصات قلنا: هي جمع عرصة، والعرصة المكان المتسع الخالي من البنيان، أو الذي يكون بين البنيان.

وهكذا تكون الأرض يوم القيامة. في عرصات القيامة يكون حوض النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما يكون حوض غيره من الأنبياء.

والحوض في لغة العرب: مجتمع الماء وسيلانه، وهو مصدر من الفعل (حاض-يحيض-حوضًا- وحيضًا)، ومنه حيضة المرأة؛ لأن دمها يسيل.

والمراد هاهنا: التصديق الجازم بما أجمع عليه أهل السنة والجماعة، وأجمع عليه أهل الحق من أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ له حوضٌ في عرصات القيامة ترد عليه أمته.

لكن هل لغيره من الأنبياء أحواض؟ نقول: نعم، ثبت ذلك عند الترمذي وابن أبي عاصم والطبراني من حديث سمرة رَضِي اللهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: "إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوْضًا، وَإِنَّهُمْ يَتَبَاهَوْنَ أَيُّهُمْ أَكْثَرُ وَارِدَةً، وَإِنِّي أَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ وَارِدَةً"؛ أي: من يرد من أمته على الحوض.

فهذا الحديث فيه دليل على أن كل نبي له حوض ترد عليه أمته.

وفيه دليل كذلك على سبق هذه الأمة لغيرها يوم القيامة في كل شيء، وهذا يصدق قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "نَحْنُ الْآخِرُونَ الْأَوَّلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ"؛ أي: الآخرون زمنًا الأولون في كل شيء يوم القيامة، فهذا مما يكرم الله عَزَّ وَجلَّ به نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأمة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

أهل السنة والجماعة يؤمنون بهذا الحوض كما يؤمن به كثير من الفرق الأخرى وإن خالفوا في بعض اعتقاد أهل السنة والجماعة إلا أنهم وافقوهم في هذا الباب –أعني إيمانهم بالحوض– ولم يخالف في ذلك إلا طائفتان:

- **الطائفة الأولى**: وهي المعتزلة؛ فإن بعضهم رد أحاديث الحوض، لأن عقولهم لم تتصور ذلك، فردوه كما ردوا غيره من أمور تكون يوم القيامة أو أولوها بالعدل أو غير ذلك.
- **والطائفة الأخرى**: وهم الخوارج والروافض؛ فهؤلاء يثبتون الحوض، لكنهم يخالفون فيمن يُذاد عن حوض النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛

فيقولـون: إن الـذي سـيُذاد عـن حـوض النبـي صَـلَّى اللَّهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ أصحابه؛ لأن الخوارج كفَّروا أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذين وقع بينهم ما وقع من فتنة، فقالوا: هؤلاء يُذادون عن الحوض.

وكـذلك الـروافض الـذين يكفـرون أصـحاب النبـي صَـلَّى اللَّهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ؛ ولـذلك يستدلون بما سيأتي من أحاديث الحـوض على كفر أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وكذبوا في ذلك.

يقـــول الشـــيخ الهـــراس رَحِمَـــهُ اللهُ: وَأَمَّـــا قَوْلُـــهُ: ((فِي عَرَصَـــات الْقِيَامَةِ))؛ الْحَوضُ الْمَوْرُودُ.

المورود اسم مفعول من الفعل (وُرِدَ – يورد), فهو مورود؛ أي: يرده النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأمته.

قال الهراس: فَإِنَّ الْأَحَادِيثَ الْوَارِدَةَ فِي ذِكْرِ الْحَوْضِ تَبْلُغُ حدَّ التَّوَاتُرِ، رَوَاهَا مِنَ الصَّحَابَةِ بِضعٌ وَثَلَاثُونَ صَحَابِيًّا، فَمَن أَنْكَرَهُ؛ فَأَخْلِق بِهِ أَنْ يُحالَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ وُرُودِهِ يَوْمَ الْعَطَشِ الْأَكْبَرِ، وَقَدْ وَرَدَ فِي أَحَادِيثَ: ((إِنَّ لِكُلِّ نبيٍّ حَوْضًا)).

قلنا: وهذا ثابت عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وَلَكِنَّ حَوْضَ نبيِّنا صلى الله عليه وسلم أَعْظَمُهَا وَأَحْلاَهَا وَأَكْثَرُهَا وَارِدًا.

جَعَلَنَا اللَّهُ مِنْهُمْ بِفَضْلِهِ وَكَرَمِه.

فهـذه القطعـة مـن كـلام الشـارح رَحِمَـهُ اللهُ يُبـين فيهـا أن أحاديـث الحـوض متواترة، والمتواتر هو الذي يرويه جمع عن جمع تحيل العادة تواطأهم على الكذب، ومستندهم في ذلك الحس.

أي: أن هؤلاء الصحابة الذين ذكر الشيخ عددهم وهم بضع وثلاثون، كلهم سمع هذا الحديث من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه ذكر الحوض وأن له حوضًا، وأن أمته ترد على هذا الحوض.

ولذا قلنا: حتى هؤلاء الذين لا يأخذون بأحاديث الآحاد في المعتقد أثبتوا هذا المعتقد في كتبهم -أعني الأشعرية-, لماذا؟ لأن أحاديث الحوض أحاديث متواترة عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال: فَمَن أَنْكَرَهُ؛ فأَخْلِق بِهِ أَنْ يُحالَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ وُرُودِهِ يَوْمَ الْعَطَشِ الْأَكْبَرِ.

لأنهم بدلوا وغيروا؛ ولذا أخرج الشيخان وغيرهما من حديث عبد الله بن عمرو أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: "حَوْضِي مَسِيرَةُ شَهْرٍ، مَاؤُهُ أَبْيَضُ مِنَ اللَّبَنِ، وَرِيحُهُ أَطْيَبُ مِنَ الْمِسْكِ، وَكِيزَانُهُ كَنُجُومِ السَّمَاءِ، مَنْ شَرِبَ مِنْهَا فَلاَ يَظْمَأُ أَبَدًا".

وجاء عند مسلم أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: "لَيَرِدَنَّ عَلَيَّ الْحَوْضَ أقوام فيختلجون دُونِي"، أي: يمنعون ويحال بينهم وبين النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأقول: أصحابي.

بهذا استدل الروافض على كفر أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لكن لو قرأنا الأحاديث التي وردت في صفة الحوض لعلمنا لماذا قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أصحابي؟ لأن الذي يرد على الحوض به علامة أمته صلى الله عليه وسلم:

أنهم غُرٌّ مُحجلون من آثار الوضوء، وهذه صفة أمة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ ولذا قال في أمته: "أصحابي"، ما أراد حد الصحبة الشرعية صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإنما أراد أنهم من أمته.

وقوله: "فَيُقَالُ: إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ" فيه أمران:

- الأمر الأول: أن التمسك بالكتاب والسنة سبيل لورود الحوض، وهذا صريح قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: "تَرَكْت فِيكُمْ مَا إِنْ تَمَسَّكْتُمْ بِهِ لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُ: كِتَابَ اللَّهِ تَعَالَى وسنتي، ولن يتفرقا حتى يردا على الحوض".

فمعنى ذلك: أن الذي يتمسك بالكتاب والسنة يرد على حوض النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومنطوق هذا الحديث الذي معنا وهو: "فَيُقَالُ: إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ"؛ فيه أن أهل البدع لا يردون على حوض النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأن الإحداث عام، والضلالة شُعب، والبدع متفرقة.

فقد يُراد بالإحداث هاهنا إحداث الكفر، وقد يُراد به إحداث الضلالة، يعني: كانوا منافقين يصلون كما يصلي الناس، ويصومون كما يصوم الناس، فيأتون بالعلامة، لكنهم لم يكونوا مؤمنين.

وقد يكون هؤلاء مسلمين، لكنهم ابتدعوا في دين الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وكانوا من أهل الوعيد ومن الفرق، فحيل بينهم وبين حوض النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

من الذي سيرد على حوض النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذن؟؛ لأن هذا الورود ورود عظيم، النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: "مَنْ شَرِبَ مِنْهُ لَا يَظْمَأُ بَعْدَهُ أَبَدًا"، فلابد أن نعلم الأسباب التي تجلب لنا هذا الورود وتحققه لنا.

- أول سبب: هو التمسك بكتاب الله وسنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومجانبة البدعة وأهلها.
- السبب الثاني: الصبر على جور الأئمة، أي: على الأئمة الظلمة الذين يأخذون حقوق الناس.

قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "سَتَرَوْنَ بَعْدِي أَثَرَةً وَأُمُورًا تُنْكِرُونَهَا"، استئثار بالمال والسلطان، قالوا: فماذا نصنع يا رسول الله؟ قال: "اصْبِرُوا حَتَّى تَلْقَوْنِي عَلَى الْحَوْضِ"، فهذا سبيل كذلك للورود على حوض النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

أدي الذي عليك وسل الله الذي لك ولن يضيع أجرك، إن أُخذ منك حقك في الدنيا فلن يضيع في الآخرة، وشتان بين ما يكون لك في الدنيا وما يكون لك في الآخرة، تُظلم في مال أو حق أو غير ذلك، فيكون مقابل ذلك أن ترد حوض رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

- كذلك من الأمور التي تحقق الورود على حوض النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: عدم إعانة أئمة الجور، فالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمرك أن تصبر على ظلمهم، وأمرك كذلك ألا تعينهم على ظلمهم.

وهذا السبيل الوسط؛ سبيل أهل السنة والجماعة بين أهل الثورات الخوارج وبين الذين يزينون لأئمة الجور والظلم عملهم، فيأتون بالأحاديث والآيات وما

سبق من فعل الأئمة والأقوال الشاذة والفتاوى ليبرروا لهم باطلهم، لا، أهل السنة وسط بين هؤلاء وأولئك.

فمن الأمور التي تحقق لنا الورود على حوض النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ألا نطيع أئمة الجور، أي: في المعصية، وألا نصدقهم في كذبهم، وألا نعينهم على ظلمهم، ندعوا لهم بالصلاح لكن لا نعينهم على جورهم وفسقهم.

جاء ذلك في حديث كعب بن عُجرة قال: **"أُعِيذُكَ بِاللهِ مِنْ إِمَارَةِ السُّفَهَاءِ"**، قال: يا رسول الله وما إمارة السفهاء؟ قال: **"قَوْمٌ يَسْتَنُّونَ بِغَيْرِ سُنَّتِي، وَيَهْدُونَ بِغَيْرِ هَدْيِي، من دخل عليهم فصدقهم في كذبهم وأعانهم على ظلمهم فليسوا مني ولن يردوا على حوضي"**.

إذًا: لا نخرج عليهم ولا نثور كما يثور أهل الضلالة، وكذلك لا نزين لهم أعمالهم، وقد طبق ذلك أئمة السلف رحمهم الله وتدينوا لله به.

فهذا الحسن البصري رَحِمَهُ اللهُ له موقف مشهود في ذلك لما جاءه الناس يريدون الخروج على الحجاج منعهم من ذلك، وبيَّن لهم أنه قد يخلف الحجاج القردة والخنازير. إن أردتم أن يكون عليكم أمثال عمر فكونوا كأبي ذر في الزهد وترك الدنيا والطاعة وغير ذلك.

وبيَّن لهم ذلك، فخرجوا من عنده وهم يقولون: نطيع هذا العِلج.

من يسمع هذا الكلام يظن أن الحسن البصري من أعوان الظلمة، وممن سخرهم الحجاج لينافحوا عنه وأنه كان يحب الحجاج.

لكن لما مات الحجاج رآه إمامه الذي كان يؤمه في رمضان في رؤيا ، قال له: ماذا فعل الله بك؟ قال له: قتلني بكل نفس قتلتها مرة، والحجاج قتل كم؟ مائة وعشرين ألف نفس قتلهم صبرًا، ما معنى صبرًا؟ أي بدون قتال.

فقال: قتلني بكل نفس قتلتها مرة، فقال له هذا الرجل الذي كان يؤمه في الصلاة: فماذا ترجو؟ قال: أرجو ما يرجوه أهل لا إله إلا الله، يعني: من العفو والمغفرة.

فذهب هذا الرجل إلى محمد بن سيرين وذكر له هذه الرؤيا، فقال: ونحن نرجو له ما يرجوه أهل لا إله إلا الله.

أراد ابن سيرين رحمه الله: أن الجنة لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، وقال لها: أنتِ رحمتي أرحم بك من أشاء، فالله عَزَّ وَجلَّ يفعل في عباده ما يشاء سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

ثم ذهب هذا الرجل للحسن البصري الذي كان ينهى عن الخروج، فذكر له ما قاله الحجاج، فقال: وأنا لا أرجو له ما يرجوه أهل لا إله إلا الله، يعني: كان يمقته في الله ويبغضه جدًا، لكنه كان ينهى عن الخروج عليه، ولا يزين له باطله.

فمن الأمور التي تحقق ورود الحوض كما قلنا: عدم إعانة أئمة الظلم على ظلمهم.

- كذلك من الأمور التي تحقق الورود على حوض النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إسباغ الوضوء والمحافظة عليه؛ لأن هذا علامة أمة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الغُرة والتحجيل؛ كما ورد في أحاديث الحوض.

فقال: فأَخْلِق بِهِ أَنْ يُحالَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ وُرُودِهِ يَوْمَ الْعَطَشِ الْأَكْبَرِ.

أي: يوم القيامة، ولذا الصحيح من أقوال أهل العلم أن الحوض يكون قبل الميزان، وقبل تطاير الصحف، وقبل المرور على الصراط.

فالحوض هو أول ما يلقاه الناس إذا خرجوا من قبورهم، لأنهم يخرجون ويقفون هذا الموقف الشديد فيبلغ العطش بهم مبلغًا شديدًا، فيكون الحوض أول إكرام الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى لعباده المؤمنين في أرض المحشر، وهذا هو الصحيح أن الحوض أول ما يلقاه المؤمنون.

قال: وَلَكِنَّ حَوْضَ نبيِّنا صلى الله عليه وسلم أَعْظَمُهَا وَأَحْلاَهَا وَأَكْثَرُهَا وَارِدًا، جَعَلَنَا اللَّهُ مِنْهُمْ بِفَضْلِهِ وَكَرَمِهِ.

قلت: ودل على ذلك الأحاديث المتواترة عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومنها ما جاء في صحيح مسلم عن أنس قال: أَغْفَى رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم إِغْفَاءَةً، فَرَفَعَ رَأْسَهُ مُتَبَسِّمًا، فَإِمَّا قَالَ لَهُمْ، وَإِمَّا قَالُوا لَهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ لِمَ ضَحِكْتَ؟.

يعني: إما أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سألهم وإما أنهم سألوه لما ضحكت؟ فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "أُنْزِلَتْ عَلَيَّ آنِفًا سُورَةٌ". فَقَرَأَ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ حَتَّى خَتَمَهَا، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "أَتَدْرُونَ مَا الْكَوْثَرُ؟"، قالوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قال: "فَإِنَّهُ نَهْرٌ وَعَدَنِيهِ رَبِّي عز وجل فِي الْجَنَّةِ، وَعَلَيْهِ خَيْرٌ كَثِيرٌ".

الكوثر من الكثرة؛ ولذا بعض السلف يفسر الكوثر بالخير الكثير، ومن الخير الكثير النهر، فيكون تفسيره للكوثر أعم ممن فسره بالنهر.

فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "تَرِدُ عَلَيْهِ أُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، آنِيَتُهُ عَدَدُ النُّجُومِ"، هذا في صفة الحوض، فآنيته عدد النجوم أو عدد الكواكب.

قال بعد ذلك: "يُخْتَلَجُ الْعَبْدُ مِنْهُمْ، فَأَقُولُ يَا رَبِّ إِنَّهُ مِنْ أُمَّتِي، فَيُقَالُ إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ".

هذا كذلك فيه رد على ضُلاَّل الصوفية الذين يقولون: إن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حي في قبره يعلم ما نصنع، النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُقال له هذا في هذا الحديث وهذا من أصرح الأحاديث في الرد عليهم.

يقال للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ"، ولو كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعلم حال أمته بعده لعلم بذلك، ولما قيل له هذا الكلام: "إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ".

وقد ذكرت لكم قبل ذلك موقفًا حصل بيني وبين دكتورة عندنا في كلية دار العلوم، جاءها سؤال وكانت تدرس مادة الشريعة، تسأل الطالبة: كنت مع زميلتي ونجلس مع صديق أسفل الشجرة – هذه ليست صداقة شرعية بلا شك– فقال لها هذا الشاب: قولي ما أقول، زوجتك نفسي، فقالت: زوجتك نفسي، فقال: قبلت، قال: هكذا تزوجنا، ما حكم هذا الزواج؟

فانتفضت الدكتورة وقالت: هذا زنا، وهذا لا يجوز، وهذا يغضب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لأن النبي يعلم ذلك ويُحزنه ومُطلع على مثل هذه الأمور.

فأرسلت لها ورقة أُبين لها أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حي في قبره لكنه قد مات، فقالت: من الذي أرسل هذه الورقة؟ فقمت، قالت: هذا الكلام لا يجوز

في حق النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذا يدل على عد توقير النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قلت لها: وقد جاء في ذهني هذا الحديث: فكيف إذا قيل للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما يُذاد أقوام عن حوضه، فيقال له: **"إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ"**، قالت: اجلس، وإلا سألت الله ألا ترى النبي في اليقظة!!

فأردت أن أُجيبها فنهرتني فجلست، فذهبت إلى البيت وأعددت بحثًا في مكانة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بين الجفاء والغلو، ونقلت أقوال أهل العلم.

فلما دخلت المحاضرة كانت قد دخلت قبلي، فوضعت البحث أمامها، فقالت: اسمع!! في المرة الفائتة ذهبتُ إلى مكان بعيد وكنت سأدعو عليك، لكن دعوت الله ألا يريك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقظةً إلا مرة واحدة عقابًا لك!! فقلت لها: الله المستعان، وكانت تُدرِّس لنا مادة الشريعة!

فهذا من أصرح الأدلة في الرد على هؤلاء الغُلاة الذين يزعمون أنهم يعظمون النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يزعمون حضوره وحضور غيره كالخضر. في مجالسهم. هم يأتون بما يُغضب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بل بما قد يخرجهم من دين الإسلام.

وجاء كذلك عن ثوبان أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **"تردون عليَّ الحوض، وأنا أرد عنه الناس بعصاي"**، أي ناس؟ من غير أمة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ولذا نقول: إن الذود عن الحوض ذودان:

- زود عام
- وزود خاص، الذود يعني: الدفع والرد.

▪ **الزود العام** وهو: زود غير أمة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الحوض، وهذا من كمال شفقته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على أمته، مع أن حوض النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طوله شهر، وعرضه شهر.

هو أعظم حوض، ومع ذلك يرد غير أمته عن حوضه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، هذا زود عام، يردهم ليذهبوا إلى أحواض أنبيائهم.

▪ **وهناك زود خاص** وهو: زود أهل الإحداث؛ كما جاء في الحديث الذي مضى.

قال: **"وأنا أرد عنه الناس بعصاي"**، قلنا: يا رسول الله ما عرضه؟ قال: **"كما بين مقامي هذا إلى عمان"**، قلنا: وما آنيته؟ قال: **"عَدَدُ النُّجُومِ"**؛ أي: كثيرة جدًا.

وفي رواية قال: "كَالنُّجُومِ"؛ أي: في عددها وحُسنها، وهذا أشمل.

"فِيهِ مِيزَابَانِ مِنَ الْجَنَّةِ أحدهما من ذهب والآخر من ورق، مَنْ شَرِبَ مِنْهُ لَمْ يَظْمَأْ بَعْدَهَا أَبَدًا"، قال ثوبان: فادع الله عَزَّ وَجلَّ أن يجعلني من وارديه، وهذا كذلك رواه مسلم وغيره.

هنا قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **"لَمْ يَظْمَأْ بَعْدَه أَبَدًا"**؛ إذًا: ألن يشرب أهل الجنة في الجنة؟ ماذا عن خمر الجنة وعسل الجنة ولبن الجنة وأنهار الجنة إذا كانوا لم يظمئوا أبدًا؟ نقول: إن شراب أهل الجنة شراب نعيم وتلذذ وليس شراب عطش.

أهل الموقف لماذا يشربون من الحوض؟ لأنهم يخرجون من قبورهم عطاشا، وأما أهل الجنة فإنهم في نعيم دائم؛ ولذا لا ينامون ولا يهرمون ولا يبولون ولا

يمرضون ولا يتغوطون، فالعطش نقص، وأهل الجنة منزهون عن النقص؛ ولذا إذا شربوا شربوا عن تلذذ.

ومن هنا قال الله عَزَّ وَجلَّ: {عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا} [الإنسان: 6]، يشرب بها أم يشرب منها؟ الآية تقول: {يَشْرَبُ بِهَا}، أنا إذا شربت أشرب بالكوب أم من الكوب؟

لماذا قال الله عَزَّ وَجلَّ: {يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ}؟ لأنها ضُمِّنت معنى الفعل يرتوي، يقال: ارتوى بـ، ومعنى الفعل: يلتذ، فإذا شربوا كان شربهم شرب ارتواء وشرب لذة.

أسأل الله عَزَّ وَجلَّ أن يجعلنا وإياكم من أهل النعيم، ومن الواردين على حوض النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

جاء كذلك عند الشيخين من حديث أنس، قال: "لَمَّا أُسْرِيَ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مَضَى بِهِ جِبْرِيلُ فِي السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَإِذَا هُوَ بِنَهْرٍ عَلَيْهِ قَصْرٌ مِنْ لُؤْلُؤٍ وَزَبَرْجَدٍ، فَذَهَبَ يشم تُرَابه، فَإِذَا هُوَ مِسْكٌ. قَالَ: "يَا جِبْرِيلُ، مَا هَذَا النَّهْرُ؟". قَالَ: هُوَ الْكَوْثَرُ الَّذِي خَبَأَ لَكَ رَبُّكَ"؛ ومن هذا الكوثر يكون ملئ الحوض.

قال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ شارح صحيح مسلم، وهل هو القرطبي صاحب التذكرة المفسر؟ لا.

القرطبي رَحِمَهُ اللهُ، هذا تلميذ المفسر. قال: مما يجب على المكلف أن يعلمه ويصدق به أن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى قد خصَّ نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالحوض المصرح باسمه وصفته وشرابه في الأحاديث الصحيحة الشهيرة التي يحصل بمجموعها العلم القطعي؛ لأن الأحاديث متواترة.

إذ روى ذلك عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الصحابة نيِّفٌ عن الثلاثين، أي يزيد على الثلاثين، منه في الصحيحين ما ينيف على العشرين، وفي غيره ما بقية ذلك، مما صح نقله واشتُهرت رواته، ثم رواه عن الصحابة المذكورين من التابعين أمثالهم، ومن بعدهم أضعاف أضعافهم وهلُمَّ جرا.

وأجمع على إثباته السلف وأهل السنة من الخلف، وأنكرت ذلك طائفة من المبتدعة وأحالوه عن ظاهره وغلو في تأويله من غير استحالة عقلية ولا عادية تلزم من حمله على ظاهره وحقيقته، ولا حاجة تدعوا إلى تأويله، فَخَرَقَ من حرَّف إجماع السلف وفارق مذهب أئمة الخلف.

قال ابن أبي العز في شرح الطحاوية كذلك: وَالَّذِي يَتَلَخَّصُ مِنَ الْأَحَادِيثِ الْوَارِدَةِ فِي صِفَةِ الْحَوْضِ: أَنَّهُ حَوْضٌ عَظِيمٌ، وَمَوْرِدٌ كَرِيمٌ، يُمَدُّ مِنْ شَرَابِ الْجَنَّةِ، مِنْ نَهْرِ الْكَوْثَرِ، الَّذِي هُوَ أَشَدُّ بَيَاضًا مِنَ اللَّبَنِ، وَأَبْرَدُ مِنَ الثَّلْجِ، وَأَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ، وَأَطْيَبُ رِيحًا مِنَ الْمِسْكِ، وَهُوَ فِي غَايَةِ الِاتِّسَاعِ، عَرْضُهُ وَطُولُهُ سَوَاءٌ، كُلُّ زَاوِيَةٍ مِنْ زَوَايَاهُ مَسِيرَةُ شَهْرٍ.

ولذا قال بعض أهل العلم: هذا يدل على أن الحوض مربع؛ لأن زواياه سواء طوله كعرضه.

قال رَحِمَهُ اللهُ: فَسُبْحَانَ الْخَالِقِ الَّذِي لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ. وَقَدْ وَرَدَ فِي أَحَادِيثَ: إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوْضًا، وَإِنَّ حَوْضَ نَبِيِّنَا صلى الله عليه وسلم أَعْظَمُهَا وَأَحْلَاهَا وَأَكْثَرُهَا وَارِدًا. جَعَلَنَا اللَّهُ مِنْهُمْ بِفَضْلِهِ وَكَرَمِهِ.

هذا ما نقله الشيخ الهراس رَحِمَهُ اللهُ.

وهذا يُبين لنا أن نقل أهل العلم عن بعضهم دون إشارة لا يُقال إن ذلك من السرقات العلمية، لأن هذا أمر معلوم، ما زال الخلف ينقلون عن السلف، ينقلون صفحات من كتبهم وأقوالًا.

لكن لما كانت هذه الأقوال معلومة النسبة فلا يقال إن ذلك من السرقة، متى يقال هذا سرقة؟ إذا أخذت هذا الكتاب ونسبته لنفسي، يقال عندئذٍ: هذا سرقة.

الأكمل والأفضل أن ينسب هذا الكلام لصاحبه، لكن إن نقل ذلك دون عزو لشهرته فلا يقال إن ذلك من السرقة.

الشيخ بكر أبو زيد رَحِمَهُ اللهُ في مقدمته لكتاب الإعلام بفوائد عمدة الأحكام لابن المُلقن والكتاب في مجلدات عشرة، ذكر أن ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ استبطن هذا الكتاب كله في فتح الباري ولم يُشر إلي إلا نذر اليسير، لا يقال إن هذا من السرقة، فانتبه بارك الله فيك.

وقال كذلك القرطبي في التذكرة في مكان الحوض: واختُلف في الميزان والحوض أيهما يكون قبل الآخر؟ فقيل: الميزان، وقيل: الحوض.

قال أبو الحسن القابسي: والصحيح أن الحوض قبل.

قال القرطبي: والمعنى يقتضيه، فإن الناس يخرجون عطاشًا من قبورهم -كما تقدم-؛ فيُقدم قبل الميزان والصراط.

إذًا: هذا هو الصحيح؛ أن الحوض يكون قبل الميزان والصراط.

وهذه المسألة فيها خلاف بين أهل العلم، منهم من قال: هو قبل الصراط، ومنهم من قال: بعد الصراط، ومنهم من قال: قبل الصراط وبعد الصراط

حوض، يعني: الحوض يمتد إلى ما بعد الصراط، ومنهم من قال: هناك حوضان حوض قبل الصراط وحوض بعد الصراط.

لكن الظاهر -كما قلنا-: أنه حوض واحد قبل الصراط، وقد يمتد لما بعد الصراط خاصة أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بيَّن أنه حوض عظيم.

ثم قال المصنف رَحِمَهُ اللهُ بعد ذلك: وَالصِّرَاطُ مَنْصُوبٌ عَلَى مَتْنِ جَهَنَّمَ، وَهُوَ الْجِسْرُ الَّذِي بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، يَمُرُّ النَّاسُ [عَلَيْهِ] عَلَى قَدْرِ أَعْمَالِهِمْ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ، وَمِنْهُم مَن يَمُرُّ كَالْبَرْقِ، وَمِنْهُم مَن يَمُرُّ كَالرِّيحِ، ومِنْهُم مَن يَمُرُّ كَالْفَرَسِ الْجَوَادِ، وَمِنْهُم مَن يَمُرُّ كَرِكَابِ الإِبِلِ، ومِنْهُم مَن يَعْدُو عَدْوًا، وَمِنْهُم مَن يَمْشِي مَشْيًا، وَمِنْهُم مَن يَزْحَفُ زَحْفًا، وَمَنْهُم مَن يُخْطَفُ خَطْفًا وَيُلْقَى فِي جَهَنَّمَ؛ فَإِنَّ الْجِسرَ عَلَيْهِ كَلَالِيبُ تَخْطَفُ النَّاسَ بِأَعْمَالِهِم، فَمَنْ مَرَّ عَلَى الصِّرَاطِ؛ دَخَلَ الْجَنَّةَ.

فَإِذَا عَبَرُوا عَلَيْهِ؛ وَقَفُوا عَلَى قَنْطَرَةٍ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَيُقْتَصُّ لِبَعْضِهِم مِّن بَعْضٍ، فَإِذَا هُذِّبُوا وَنُقُّوا؛ أُذِنَ لَهُمْ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ.

الكلام هاهنا عن أمر آخر ينبغي أن نؤمن به وأن نصدقه و نجزم به وهو: الإيمان بالصراط.

والصراط -كما يقول الشيخ الهراس رَحِمَهُ اللهُ-: أَصْلُ الصِّرَاطِ الطَّرِيقُ الْوَاسِعُ؛ قِيلَ: سُمِّيَ بِذَلِكَ لِأَنَّهُ يَسْتَرِطُ السَّابِلَةَ.

السابلة؛ أي: الذين يسيرون على السبيل، طريق.

أَيْ: يَبْتَلِعُهُمْ إِذَا سَلَكُوهُ.

وهذا لوسعه، وهذا في أصل الوضع اللغوي للكلمة.

قال: وَقَدْ يُسْتَعْمَلُ فِي الطَّرِيقِ الْمَعْنَوِيِّ؛ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ} [الأنعام: 153].

قال: وَالصِّرَاطُ الْأُخْرَوِيُّ الَّذِي هُوَ الْجِسْرُ الْمَمْدُودُ عَلَى ظَهْرِ جهنَّم بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ حقٌّ لَا رَيْبَ فِيهِ؛ لِوُرُودِ خَبَرِ الصَّادِقِ بِهِ، ومَن اسْتَقَامَ عَلَى صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي هُوَ دِينُهُ الْحَقُّ فِي الدُّنْيَا اسْتَقَامَ عَلَى هَذَا الصِّرَاطِ فِي الْآخِرَةِ، وَقَدْ وَرَدَ فِي وَصْفِهِ أَنَّهُ: ((أَدَقُّ مِنَ الشَّعْرَةِ، وأحدُّ مِنَ السَّيْفِ)).

الصراط يؤمن به أهل السنة والجماعة؛ يؤمنون أن هناك صراطين: صراط في الدنيا، وصراط في الآخرة.

صراط الدنيا هو الذي جاء فيه قول الله تعالى: {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ} [الفاتحة: 6]، اهدنا هداية دلالة وإرشاد، وتوفيق، وثبات؛ لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هُدي إلى الصراط المستقيم ومع ذلك كان يقول في صلاته: {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ}؛ فكان يدعو الله عَزَّ وَجلَّ أن يثبته على هذا الصراط، ثم ما غاب عنا أكثر مما علمناه، ولذا نسأل الله دوام الهداية.

وهو الذي جاء فيه كذلك قوله تعالى: {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا} [الأنعام: 153]، وهو الذي خطَّ فيه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خطًا مستقيمًا، وقال: "هَذَا سَبِيلُ اللَّهِ"، وخط خطوطًا عن يمينه وشماله وقال: "هَذِهِ سُبُلٌ، عَلَى كُلِّ سَبِيلٍ مِنْهَا شَيْطَانٌ يَدْعُو لَهُ"، ثُمَّ قَرَأَ: {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}".

إذًا: عندنا صراط في الدنيا، وعندنا صراط في الآخرة، فمن ضيَّق على نفسه في الدنيا والتزم صراط الله و حدوده ولم يلج الأبواب التي على هذا الصراط، ولم يقتحم الستور المُرخاة؛ كما جاء في حديث عبد الله بن مسعود.

واتبع الداعي الذي هو على رأس هذا الصراط، والواعظ الذي في قلبه نجا ووصل إلى الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، ووسع الله له صراط الآخرة؛ لأن السير على صراط الآخرة على حسب الأعمال.

النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بيَّن حال للسائرين على الصراط يوم القيامة، هل كل منا يختار من ذلك ما يشاء؟ لا، وإنما هو بحسب العمل.

لن يقول إنسان: إن الذي أمامي مر كلمح البصر. سألحق به، ليست لك وإنما هي بيد الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى بناءً على ما قدمت من عمل؛ فمن استقام على صراط الدنيا استقام على صراط الآخرة.

قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **"يُضرب الصراط بين ظهري جهنم، ويمر المؤمنون عليه فرقًا"**، أي: ليسوا سواء، يمرون على هذا الذي ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية. مرور أهل الإيمان على الصراط مرور عبور، منهم من يمر كلمح البصر وكالبرق وكالريح، هذا المرور مرور عبور، وهناك مرور ورود، أي: هناك من يرد النار ويقع فيها.

قال تعالى: {وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا (71) ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا} [مريم: 71-72].

فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "وَيَمُرُّ الْمُؤْمِنُونَ عَلَيْهِ فِرَقًا، فَيَمُرُّ أَوَّلُكُمْ كَالْبَرْقِ، ثُمَّ كَمَرِّ الرِّيحِ. ثُمَّ كَمَرِّ الطَّيْرِ وَشَدِّ الرِّجَالِ"، فالذي يعدو شديدًا يمشي على رجله، "حَتَّى يَجِيءَ الرَّجُلُ فَلاَ يَسْتَطِيعُ السَّيْرَ إِلَّا زَحْفًا".

قال: "وَفِي حَافَتَيِ الصِّرَاطِ كَلاَلِيبُ"، والكلاليب جمع كلوب، هذه الكلاليب ما صفتها؟ حديدة محنية الرأس يُعلق فيها اللحم ويُدلَّى في النار.

هل رأيت الحديدة التي يعلق فيها الجزار اللحم؟، هذا هو الكلوب -نسأل الله السلامة والعافية-.

قال: "وَفِي حَافَتَيِ الصِّرَاطِ كَلاَلِيبُ مُعَلَّقَةٌ مَأْمُورَةٌ"، فلن تخطف هكذا اعتباطًا، ولكنها تعرف من تخطف، هي مأمورة بأمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، تأخذ من أُمرت بأخذه.

"فَمَخْدُوشٌ نَاجٍ"؛ أي بعض أهل الصراط يُخدش يصيبه الكلوب لكنه ينجو.

"وَمَكْدُوسٌ فِي النَّارِ"؛ أي يؤخذ ويكون من أهل النار -نسأل الله السلامة والعافية-.

وجاء كذلك في صحيح مسلم عن عائشة أنها سألت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَيْنَ يَكُونُ النَّاسُ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ؟ قال: "عَلَى الصِّرَاطِ".

وكذلك لما سأله حبر من اليهود، قال كذلك صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وجاء كذلك عند البخاري وغيره، قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -كما في حديث أبي سعيد الخدري-: "ثُمَّ يُضْرَبُ الْجِسْرُ عَلَى جَهَنَّمَ، وَتَحِلُّ الشَّفَاعَةُ، وَيَقُولُونَ: اللَّهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ"؛ وهذا يدل على أن الموقف عظيم.

قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ، وَمَا الْجِسْرُ؟ قَالَ: "دَحْضٌ مَزِلَّةٌ"؛ يعني: زلق لا يثبت عليه قدم؛ وهذا يدل على اتساعه.

وجاء كذلك بلاغًا عند مسلم من قول أبي سعيد الخدري، قال: "بَلَغَنِي أَنَّ الْجِسْرَ أَدَقُّ مِنَ الشَّعْرَةِ، وَأَحَدُّ مِنَ السَّيْفِ"، كيف الجمع بين هذا وذاك؟ الكيفية لا يعلمها إلا الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

هو واسع جدًا ولذلك يكون على هذه الصورة زلق لا تثبت عليه قدم، دحض مزلة، الإنسان ينزلق عليه عياذاً بالله يسقط في النار، ومع ذلك هو أدق من الشعرة وأحد من السيف، الثبات لا يكون إلا بتثبيت الله بسبب العمل الصالح.

قال: "فِيهِ خَطَاطِيفُ وَكَلَالِيبُ، وَحَسَكٌ تَكُونُ بِنَجْدٍ فِيهَا شُوَيْكَةٌ"، يقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "يُقَالُ لَهَا: السَّعْدَانُ"، يعرفها أهل نجد شوكة عظيمة تكون عليه. اجمع هذه الأوصاف لتعلم خطورة وهول الموقف.

ولذا الناس يوم القيامة وفيهم الأنبياء يقولون إذا وردوا الصراط: "اللَّهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ".

قال: "فِيهَا شُوَيْكَةٌ يُقَالُ لَهَا: السَّعْدَانُ، فَيَمُرُّ الْمُؤْمِنُونَ كَطَرْفِ الْعَيْنِ وَكَالْبَرْقِ وَكَالرِّيحِ وَكَالطَّيْرِ وَكَأَجَاوِيدِ الْخَيْلِ وَالرِّكَابِ، فَنَاجٍ مُسَلَّمٌ وَمَخْدُوشٌ مُرْسَلٌ، وَمَكْدُوسٌ فِي نَارِ جَهَنَّمَ".

قال: "حتى يمر آخرهم سحبًا"؛ أي: يُسحب سحبًا -نسأل الله السلامة والعافية-.

الحديث الذي ذكره عبد الله بن مسعود رَضِي اللهُ عَنْهُ كذلك واضح في أن المرور بحسب العمل، قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "يَجْمَعُ اللَّهُ النَّاسَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ"، قال وفي هذا الحديث: "فَيُعْطَوْنَ نُورَهُمْ عَلَى قَدْرِ أَعْمَالِهِمْ".

كذلك الآية في سورة الحديد: {يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ} [الحديد: 12]، أين يكون هذا؟ هذا على الصراط.

{يَسْعَى نُورُهُمْ}؛ نور العمل.

{بَيْنَ أَيْدِيهِمْ}؛ يعني: أمامهم.

{وَبِأَيْمَانِهِمْ}؛ أي: يأخذون النور بأيمانهم نور عظيم.

{يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (12) يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ} [الحديد: 12-13].

{انْظُرُونَا}؛ أي: انتظرونا.

{نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ}؛ أي: نمشي في نوركم، فالكافر لا نور له، وهذا يعني أن الجسر مظلم فوق النار وهو زلق وعليه شوك وأحد من السيف وأدق من الشعرة، ثم هو مظلم، كيف تكون النجاة؟ بالعمل، كيف يكون النور؟ بالعمل.

ولذا يقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "فَيُعْطَوْنَ نُورَهُمْ عَلَى قَدْرِ أَعْمَالِهِمْ، فَمِنْهُمْ مَنْ يُعْطَى نُورَهُ مِثْلَ الْجَبَلِ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُعْطَى نُورَهُ فَوْقَ ذَلِكَ،

وَمِنْهُمْ مَنْ يُعْطَى نُورَهُ مِثْلَ النَّخْلَةِ بِيَمِينِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُعْطَى دُونَ ذَلِكَ بِيَمِينِهِ، حَتَّى يَكُونَ آخِرُ (ذَلِكَ) مَنْ يُعْطَى نُورَهُ عَلَى إِبْهَامِ قَدَمِهِ، يُضِيءُ مَرَّةً وَيُطْفَأُ مَرَّةً".

تصور حال هذا المار أين نوره؟ في اصبع قدمه الكبير! قارن بين هذا وبين من نوره أمامه مثل الجبل؛ ولذا اختلف سيرهم وسعيهم على الصراط.

قال: "يُضِيءُ مَرَّةً وَيُطْفَأُ مَرَّةً، إِذَا أَضَاءَ قَدَّمَ قَدَمَهُ"، سبحان الله كانه ينتظر أن يضيء فيضع قدمًا.

"وَإِذَا طُفِئَ قَامَ"، ما معنى قام؟ أمسك عن المشي والسير نسأل الله السلامة.

قال: "فَيَمُرُّ وَيَمُرُّونَ عَلَى الصِّرَاطِ، وَالصِّرَاطُ كَحَدِّ السَّيْفِ، دَحْضٌ، مَزِلَّةٌ، فَيُقَالُ لَهُمْ: امْضُوا عَلَى قَدْرِ نُورِكُمْ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَانْقِضَاضِ الْكَوْكَبِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَالرِّيحِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَالطَّرْفِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَشَدِّ الرَّجُلِ، يَرْمُلُ رَمَلاً، فَيَمُرُّونَ عَلَى قَدْرِ أَعْمَالِهِمْ، حَتَّى يَمُرَّ الَّذِي نُورُهُ عَلَى إِبْهَامِ قَدَمِهِ، تَجُرُّ يَدٌ، وَتَعْلَقُ يَدٌ، وَتَجُرُّ رِجْلٌ، وَتَعْلَقُ رِجْلٌ، وَتُصِيبُ جَوَانِبَهُ النَّارُ".

قال: "فَيَخْلُصُونَ، فَإِذَا خَلَصُوا قَالُوا: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنْكِ بَعْدَ أَنْ أَرَانَاكِ، لَقَدْ أَعْطَانَا اللَّهُ مَا لَمْ يُعْطِ أَحَدًا".

هؤلاء قد سُبقوا، آخر أهل الجنة دخولًا الجنة هو آخر أهل النار خروجًا من النار، يظن أنه لم ينج من النار أحد، لشدة الهول الذي رآه، مع أنه قد سبقه أهل الجنة وأخذوا أخذاتهم، كما جاء في حديث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فإذا مروا على الصراط لا يدخلون الجنة، وإنما يقفون على القنطرة وهي جسر. كذلك تتمة الصراط، لكنها طرف الجسر الذي يلي الجنة، هذا يقف عليه أهل الجنة .

هذه القنطرة خاصة بالمؤمنين، قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "يَخْلُصُ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ، فَيُحْبَسُونَ عَلَى قَنْطَرَةٍ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، فيقتص لِبَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ"، يعني: هذا سفك دم هذا، وهذا أكل مال هذا، وهذا سب هذا، وهذا فعل كذا وكذا؛ فيُقتص لبعضهم من بعض.

لماذا يُقتص لبعضهم من بعض؟ تنقية وتهذيب لهم، حتى إذا دخلوا الجنة دخلوا على قلب رجل واحد لا غل ولا حسد ولا حقد؛ لأن هؤلاء لو دخلوا الجنة ربما كان في صدر واحد منهم شيء على أخيه، لكن يُهذب الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى هؤلاء من كل ذلك.

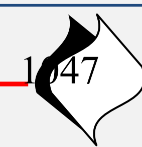
ولذا قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "فيقتص لِبَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ مَظَالِمُ كَانَتْ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا، حَتَّى إِذَا هُذِّبُوا وَنُقُّوا أُذِنَ لَهُمْ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ، فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَأَحَدُهُمْ أَهْدَى بِمَنْزِلِهِ فِي الْجَنَّةِ مِنْهُ بِمَنْزِلِهِ كَانَ فِي الدُّنْيَا".

إذا دخلت الجنة، أسأل الله عَزَّ وَجلَّ أن يجعلنا وإياكم من أهل الجنة، لا تذهب تأتي بالسمسار الذي اشتريت منه البيت وتقول له: البيت أين؟ يقول له: تعال معي لأريك إياه.

لا، بل أنت تعلم مكان بيتك، كأن هذا بيتك من عشرين سنة تعلم بيتك وتعلم مكانه؛ كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "لَأَحَدُهُمْ أَهْدَى بِمَنْزِلِهِ فِي الْجَنَّةِ مِنْهُ بِمَنْزِلِهِ كَانَ فِي الدُّنْيَا".

فنسأل الله عَزَّ وَجلَّ بأسمائه الحسنى وصفاته المثلى أن يجعلنا وإياكم من أهل النعيم، ومن أهل الجنة أهل الفردوس الأعلى، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم، وجزاكم الله خيرًا.



الدرس الأربعون

إن الحمد لله, نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله تعالى من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله, صلى الله عليه, وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد:

فما زال حديثنا يدور حول ما يكون من أحوال يوم القيامة.

وقد وصلنا في هذه العقيدة المباركة إلى قول المصنف رَحِمَهُ اللهُ: وَأَوَّلُ مَن يَسْتَفْتِحُ بَابَ الْجَنَّةِ مُحَمَّدٌ صلى الله عليه وسلم، وَأَوَّلُ مَن يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنَ الأُمَمِ أُمَّتُهُ.

قال الشيخ الهراس رَحِمَهُ اللهُ: قَوْلُهُ: ((وَأَوَّلُ مَنْ يَسْتَفْتِحُ بَابَ الْجَنَّةِ مُحَمَّدٌ صلى الله عليه وسلم))؛ يَعْنِي: أَوَّلُ مَنْ يُحَرِّكُ حَلَقَهَا طَالِبًا أَنْ يُفْتَح لَهُ بَابُهَا؛ كَمَا قَالَ عليه السلام: ((أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا فَخْرَ، وَأَنا أَوَّل مَن تنشقُّ عَنه الْأَرْضُ وَلَا فَخْرَ، وَأَنَا أَوَّل مَنْ يحرِّك حلَق الْجَنَّةِ، فَأَدْخُلُهَا وَيَدْخُلُهَا مَعِي فُقَرَاءُ أمَّتي)).

قال: يَعْنِي: بَعْدَ دُخُولِ الرُّسُلِ وَالْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ الصَّلاةُ وَالسَّلَامُ يَكُونُ فُقَرَاءُ هَذِهِ الْأُمَّةِ أَوَّلَ النَّاسِ دُخُولًا الْجَنَّةَ.

هذه القطعة التي ذكرها المصنف رَحِمَهُ اللهُ فيها بيان فضل هذه الأمة، وبيان فضل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأن الله عَزَّ وَجلَّ رفعه فوق غيره من الأنبياء والمرسلين، وهذا ظاهر في أمور كثيرة في الدنيا والآخرة.

والكلام هاهنا عما يكون في الآخرة، ومن ذلك أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أول من يستفتح باب الجنة.

ما معنى يستفتح؟ أي: يطلب فتح باب الجنة، فالسين والتاء تفيد الطلب، كم بابا للجنة؟

ثمانية أبواب، هذه الأبواب عليها خزنة، وأبواب مغلقة، فلا تُفتح هذه الأبواب إلا بإذن، فالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يشفع لأمته في دخول الجنة ويحرك حِلق أبواب الجنة.

ولذا جاء في الصحيح أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: "آتِي بَابَ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ"، وهذا يكون بعد العرض والحساب والمرور على الصراط والقنطرة، فإذا هذب الناس ونُقوا وكان مآلهم إلى الجنة؛ كان المؤمنون من هذه الأمة أول الناس دخولًا من الأمم خلف نبيهم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فيأتي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ باب الجنة فيستفتح.

وفي حديث آخر: "فأُحرِّك حِلق الجنة, فَيَقُولُ الْخَازِنُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَأَقُولُ: مُحَمَّدٌ، فَيَقُولُ: بِكَ أُمِرْتُ، لَا أَفْتَحُ لِأَحَدٍ قَبْلَكَ".

إذًا: هذا الخازن مأمور من قِبل الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى ألا يفتح باب الجنة لأحد قبل محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فيشفع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كذلك في دخول الجنة.

ولذا جاء كذلك عند مسلم أنه قال: "أَنَا أَوَّلُ شَفِيعٍ فِي الْجَنَّةِ"، أي: في دخول الجنة، والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو الذي يشفع الشفاعة الكبرى، فهذا كذلك مما خص به ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فهو الأول في دفع ما يضر, يشفع الشفاعة الكبرى حتى يبدأ الحساب، وذلك لما يصيب الناس من كرب وهم وغم، وهو صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يشفع الشفاعة التي يترتب عليها جلب ما يسر، وهي التي تكون في آخر الموقف في دخول الجنة؛ فهذا مما اختص به نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فيقول: أَوَّلُ مَن يَّسْتَفْتِحُ بَابَ الْجَنَّةِ.

هل الجنة موجودة الآن؟ نعم موجودة الآن، ما الدليل على ذلك؟ أن الله عَزَّ وَجلَّ قال عنها: {أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ} [آل عمران: 133]، (أعدت): هذا فعل ماض؛ وهذا يعني أن الله عَزَّ وَجلَّ أعدها.

ويدل على ذلك كذلك أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رآها ودخلها صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وسمع فيها كذلك خشخشة أو صوت نعل بلال رَضِي اللهُ عَنْهُ، فكل ذلك يدل على وجود الجنة.

وهذا ما عليه أهل السنة والجماعة ، وكذلك النار.

وأما المعتزلة؛ فإنهم يقولون: إن الجنة لم تُخلق بعد، وكذلك النار، وهذا على مذهبهم في التحسين والتقبيح، يقولون: لأن خلقها الآن نوع من العبث، تُخلق الآن وتكون خاوية، ما الفائدة في خلقها؟ لن توجد الجنة إلا يوم الحساب.

فنقول: أرواح المؤمنين في الجنة، كما جاء في أحاديث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهي تتزين ولا تزال تُعد وتُهيأ لأهل الجنة، وإذا جاء الخبر عن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى من قِبل الصادق المصدوق صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإننا نصدق بذلك.

فيقول: أَوَّلُ مَن يَّسْتَفْتِحُ بَابَ الْجَنَّةِ مُحَمَّدٌ صلى الله عليه وسلم، وَأَوَّلُ مَن يَّدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنَ الأُمَمِ أُمَّتُهُ.

أي: بعد دخول الأنبياء والرسل؛ لأن الأنبياء والرسل أفضل من فقراء أمة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأن الحديث جاء في أن الفقراء يدخلون بعد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لكن هذا يكون بعد دخول الأنبياء والمرسلين.

هل النار كذلك لدخولها إذن؟ قد علمنا الآن أن الجنة لدخولها إذن، لابد من الإذن حتى تُفتح أبواب الجنة، فهل النار كذلك؟ لا، النار مُفتحة أبوابها تقول: هل من مزيد، لا تزال تقول ذلك حتى يضع الجبار قدمه عليها.

وقد استنبط بعض العلماء ذلك من آيات سورة الزمر؛ فالله عَزَّ وَجلَّ قال: {حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا} [الزمر: 73]، (الواو): هذه في سياق الكلام عن الجنة.

ولما جاء ذكر النار قال: {حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا} [الزمر: 71]، لماذا قال هاهنا {وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا}، وقال في النار {فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا}؟

قوله تعالى: {حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا}؛ يدل على أن شيئًا لم يكن قبل الفتح وإنما هي مستعدة مُفتحة الأبواب لأهل النار -نسأل الله السلامة والعافية-.

لكن لما قال في الجنة: {وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا}؛ هذا يدل على أن هناك شيئًا قبل الدخول وقبل الفتح؛ وهو شفاعة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والله أعلم.

قال رَحِمَهُ اللهُ بعد ذلك: وَلَه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْقِيَامَةِ ثَلاثُ شَفَاعَاتٍ: أَمَّا الشَّفَاعَةُ الأُوْلَى؛ فَيَشفَعُ فِي أَهْلِ الْمَوْقِفِ حَتَّى يُقْضَى بَيْنَهُمْ بَعْدَ أَنْ يَتَرَاجعَ الأَنْبِيَاءُ؛ آدَمُ، وَنُوحٌ، وَإِبْرَاهِيمُ، وَمُوسَى، وَعِيسى ابْنُ مَرْيَمَ عَنِ الشَّفَاعَةِ حَتَّى تَنْتَهِيَ إِلَيْهِ. وَأَمَّا الشَّفَاعَةُ الثَّانِيَةُ؛ فَيَشْفَعُ فِي أَهْلِ الْجَنَّةِ أَن يَدْخُلُوا الْجَنَّةَ. وَهَاتَانَ

الشَّفَاعَتَانِ خَاصَّتَانِ لَهُ. وَأَمَّا الشَّفَاعَةُ الثَّالِثَةُ؛ فَيَشْفَعُ فِيمَنِ اسْتَحَقَّ النَّارَ، وَهَذِهِ الشَّفَاعَةُ لَهُ وَلِسَائِرِ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَغَيْرِهِمْ، فَيَشْفَعُ فِيمَنِ اسْتَحَقَّ النَّارَ أَن لَّا يَدْخُلَهَا، وَيَشْفَعُ فِيمَنْ دَخَلَهَا أَن يَخْرُجَ مِنْهَا. وَيُخْرِجُ اللهُ مِنَ النَّارِ أَقْوَامًا بِغَيْرِ شَفَاعَةٍ؛ بَلْ بِفَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ، وَيَبْقَى فِي الْجَنَّةِ فَضْلٌ عَمَّنْ دَخَلَهَا مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا، فَيُنْشِئُ اللهُ لَهَا أَقْوَامًا فَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ.

إذًا: هذه القطعة في الكلام عن مبحث الشفاعة، وهذا مبحث غاية في الأهمية، وأخص بالذكر الشفاعة الشركية؛ ولذا أغلب حديثنا اليوم سيكون حول هذا الأمر، لماذا؟

لكثرة ما وقع فيه بعض من يدعون الأموات, يقولون: مدد يا رسول الله، مدد يا حسين، مدد يا بدوي، اشفع لنا يا رسول الله، إنا نستغيث بك، ثم يقولون: هذا ليس من الشرك في شيء!

فهذا المبحث يدور حول الشفاعة.

الشفاعة في لغة العرب مشتقة من (الشفع) الذي هو ضد (الوتر)؛ فالوتر الواحد، والشفع اثنان أو زوج، (فالشين والفاء والعين)؛ أصل صحيح يدل على مقارنة شيئين، ويدل على ضم الشيء إلى نظيره ليصير زوجًا.

ولذا الوتر إذا جئت إليه بوتر آخر صار شفعا، وقد أقسم عَزَّ وَجَلَّ بالشفع والوتر، فهذه هي الشفاعة في لغة العرب.

وأما الشفاعة في الاصطلاح: فهي التوسط للغير في جلب خير أو دفع ضير.

يعني: أنت قد تتوسط لإنسان عند آخر من أجل نوال مصلحة، من أجل يوظف في وظيفة ما، أو من أجل دفع ضرر عنه، يعني: عقوبة مثلاً، فهذا هو معنى الشفاعة.

ذكر المصنف رَحِمَهُ اللهُ في هذه القطعة: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ له يوم القيامة ثلاث شفاعات: أَمَّا الشَّفَاعَةُ الأُوْلَى؛ فَيَشفَعُ فِي أَهْلِ الْمَوْقِفِ حَتَّى يُقْضَى بَيْنَهُمْ بَعْدَ أَنْ يَتَرَاجَعَ الأَنْبِياءُ؛ آدَمُ، وَنُوحٌ، وَإِبْرَاهِيمُ، وَمُوسَى، وَعِيسى ابْنُ مَرْيَمَ عَنِ الشَّفَاعَةِ حَتَّى تَنْتَهِيَ إِلَيْهِ.

وهذه هي الشفاعة العظمى؛ وهذا هو المقام المحمود الذي وعده الله نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: {عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا} [الإسراء: 79]، وهذه الشفاعة خاصة بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ولذا يتراجع عنها أولو العزم، فهؤلاء الأنبياء الخمسة الذين جاء ذكرهم في هذه القطعة هم أولو العزم. كل نبي من هؤلاء الأنبياء نوح وإبراهيم وموسى وعيسى؛ هؤلاء من أولي العزم، ومنهم أبو البشر آدم.

فهؤلاء الأنبياء المذكورون في هذه القطعة هم أولو العزم بالإضافة إلى آدم عَليهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَم، كل منهم يعتذر عن هذه الشفاعة إلى أن تصل إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهي مختصة به صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ ولذا إذا جاءت إليه قال: "أَنَا لَهَا، أَنَا لَهَا"؛ لأن الله عَزَّ وَجلَّ وعده بذلك.

وهذا النوع من الشفاعة لم يخالف فيه أحد من من أهل القبلة.

حتى المعتزلة الذين يخالفون -كما سنعلم- في الشفاعة في أهل الكبائر, وكذلك الخوارج يقرون بهذه الشفاعة للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال: وَأَمَّا الشَّفَاعَةُ الثَّانِيَةُ؛ فَيَشْفَعُ فِي أَهْلِ الْجَنَّةِ أَن يَدْخُلُوا الْجَنَّةَ.

كما مضى في الحديث أنه أول من يحرك حِلق الجنة.

قال: وَهَاتَانَ الشَّفَاعَتَانِ خَاصَّتَانِ لَهُ.

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قلت: وهناك نوع ثالث يختص به رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كذلك وهو: شفاعته في تخفيف العذاب عن بعض المشركين -كما جاء في عمه أبي طالب-؛ فإنه يكون في ضحضاح من نار؛ كما جاء في الحديث، فهذا كذلك مما اختص به النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

والذي يدل على هذا الاختصاص: أن إبراهيم عليه السلام أبا الأنبياء لما يأتي يوم القيامة ويريد أن يشفع في أبيه؛ لا يقبل الله عَزَّ وَجلَّ شفاعته في أبيه، فهذا يدل على اختصاص النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بشفاعته في عمه أبي طالب.

قال: وَأَمَّا الشَّفَاعَةُ الثَّالِثَةُ؛ فَيَشْفَعُ فِيمَنِ اسْتَحَقَّ النَّارَ، وَهَذِهِ الشَّفَاعَةُ لَهُ وَلِسَائِرِ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَغَيْرِهِمْ، فَيَشْفَعُ فِيمَنِ اسْتَحَقَّ النَّارَ أَن لَّا يَدْخُلَهَا، وَيَشْفَعُ فِيمَنْ دَخَلَهَا أَن يَخْرُجَ مِنْهَا.

هذا النوع خالف فيه الخوارج والمعتزلة، فنفوا هذا النوع من الشفاعة، وهذا راجع إلى مذهبهم العقدي الفاسد في حكم مرتكب الكبيرة؛ لأن الخوارج والمعتزلة لهم عقيدة فاسدة في الإيمان وفي حكم مرتكب الكبيرة، فالإيمان عندهم قول وعمل واعتقاد، والإيمان عند أهل السنة والجماعة قول وعمل واعتقاد.

ما الفرق بين الإيمان عند الخوارج والمعتزلة وأهل السنة والجماعة؟ أن الإيمان عند الخوارج والمعتزلة كل لا يتجزأ؛ إذا ذهب بعضه ذهب كله؛ ولذا مرتكب

الكبيرة عندهم إذا ارتكب الكبيرة خرج من الإيمان، وإن مات على ذلك فهو خالد مُخلد في النار.

لكن المعتزلة لهم تفصيل في الدنيا يقولون: ليس بمؤمن ولا كافر، والخوارج يقولون: خرج من الإيمان، لكنهما اتفقا على خلوده في النار إن مات بلا توبة.

ولذا يقولون: هذا مات بلا توبة، فكيف تكون له الشفاعة يوم القيامة؟ وكيف تكون له النجاة يوم القيامة؟ هذا يقبح ولا يحسن أن يقع من قِبل الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وأخذوا الآيات التي جاءت في الكلام عن نفي الشفاعة عن المشركين وأنزلوها في المؤمنين.

{فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ (48) فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ} [المدثر: 48-49]؛ هذه الآيات لو جئت بسياق الآيات تجد أن الله عَزَّ وَجلَّ يقول في سورة المدثر بعد أن قال: {كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (38) إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ (39) فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ (40) عَنِ الْمُجْرِمِينَ} [المدثر: 38-41].

إذًا: الكلام عن المجرمين، وكلمة المجرمين إذا جاءت في القرآن أو في السنة فيراد بها أهل الشرك والكفر.

ولذا يحذر المسلم أن يطلق هذه الكلمة على واحد من أهل الإسلام يقول: هذا مجرم؛ لأن هذه الكلمة في عُرف الشريعة لا تُطلق إلا على أهل الكفر والشرك.

{عَنِ الْمُجْرِمِينَ (41) مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ (42) قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (43) وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ (44) وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ (45) وَكُنَّا

نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ (46) حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ (47) فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ} [المدثر: 41-48].

إذًا: الشفاعة المنفية هاهنا منفية عن أهل الكفر والشرك، **لأن شروط الشفاعة ثلاثة:**

- أن يرضى الله عَزَّ وَجلَّ عن الشافع، فلابد أن يكون الشافع من أهل التوحيد والإيمان
- وأن يرضى عن المشفوع فيه، لابد أن يكون موحدًا كذلك وإن كان مات على ذنب
- وأن يأذن الله عَزَّ وَجلَّ في ذلك.

يقول الله عَزَّ وَجلَّ في سورة البقرة: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ} [البقرة: 254]؛ إذًا: نفي الشفاعة هاهنا عن الكافرين، فلا شفاعة للكافر يوم القيامة.

ماذا فعلت الخوارج والمعتزلة؟ أخذت هذه الآيات وأنزلتها في المؤمنين، فقالوا: لا شفاعة في مؤمن عاص يوم القيامة، وهذا خطأ، لماذا؟

لأن الله عَزَّ وَجلَّ يقول في آية جامعة في كتابه محكمة: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ} [النساء: 48]؛ وهذه الآية تتعلق بأحكام الآخرة لا الدنيا. الدنيا قال الله فيها: {قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا} [الزمر: 53]، من تاب تاب الله عليه حتى وإن كان من أكفر الكافرين، إن تاب تاب الله عليه.

وأما في الآخرة: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ}؛ أي: ما سوى ذلك لمن يشاء.

ما فائدة هذا القيد {لِمَنْ يَشَاءُ}؟ هذا فيه إثبات الشفاعة، وفيه إثبات المشيئة، أن الله عَزَّ وَجلَّ إن شاء عذبه وإن شاء غفر له.

كيف يغفر الله عَزَّ وَجلَّ له يوم القيامة؟ إما أن يغفر له ابتداءً، وإما أن يغفر له بشفاعة الشافعين.

كما قال هاهنا في هذه القطعة في المتن، قال: وَهَذِهِ الشَّفَاعَةُ لَهُ.

أي: لنبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلِسَائِرِ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَغَيْرِهِمْ.

ولذا يشفع الصالحون، ويشفع الأقرباء، وتشفع الملائكة، ويشفع الصغار؛ كل هؤلاء يشفعون في بعض المؤمنين؛ ليعفو الله عَزَّ وَجلَّ عنهم، أو ليخرجهم من النار.

قال: فَيُشَفَّعُ فِيمَنْ اسْتَحَقَّ النَّارَ أَنْ لَا يَدْخُلَهَا وَيُشَفَّعَ فِيمَنْ دَخَلَهَا أَنْ يَخْرُجَ مِنْهَا.

قلنا: وهذه للآية التي معنا.

وأما الأحاديث عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فهي أحاديث كما قلنا متواترة عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ومن ذلك قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "**شَفَاعَتِي لِأَهْلِ الْكَبَائِرِ مِنْ أُمَّتِي**"، وكذلك ما جاء في الصحيحين من حديث أبي سعيد الخُدري وأبي هريرة رَضِي اللهُ عَنْهُما وعن غيرهما من أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قد يقول قائل: كيف يشفع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في كافر والشفاعة لا تكون إلا في موحد؟

قلنا: هذا مما اختص به النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، هذه خاصة برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذا يدل على مكانته، ثم إن شفاعة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إنما تكون في عمه أبي طالب فقط.

لماذا خُصَّ عمه أبو طالب بذلك؟ لأنه كان يرعى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويدافع عنه، وكان ردءًا لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يدفع عنه كل أذى هو وخديجة رَضِي اللهُ عَنْهَا، آمنت خديجة برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لكن أبا طالب لم يؤمن بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

من تاب هذا في الدنيا تاب الله عليه، أما من مات مشركا فلا مغفرة ولا استغفار له، ولذا هذه الآيات ذُكرت في عبد الله بن أبي بن سلول، {اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ} [التوبة: 80].

وبعض أهل العلم قال: إنها ذُكرت في موت أبي طالب عم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهذا كله في الدنيا، أن من مات على الشرك لا يُستغفر له.

ولذا قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "اسْتَأْذَنْت رَبِّي أَنْ أَزُورَ قَبْرَ أُمِّي فَأَذِنَ لِي وَاسْتَأْذَنْته فِي أَنْ أَسْتَغْفِرَ لَهَا فَلَمْ يَأْذَنْ لِي"، لأن أم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ماتت على الشرك.

وكذلك أبو النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على الصحيح -كما جاء في صحيح مسلم- قال: "إِنَّ أَبِي وَأَبَاكَ فِي النَّارِ".

وهذه المسألة خلاف بين أهل العلم، وهي خلاف بين المتقدمين والمتأخرين، فأكثر الأئمة المتقدمين على ظاهر الحديث أن أبا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأمه من أهل الوعيد في الآخرة، وأنهما ماتا على الشرك.

ونقول: إن أبا الخليل إبراهيم مات على الشرك وعلى الكفر، هل قدح ذلك في إبراهيم؟ ما قدح في إبراهيم، هل هذا يقدح في النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ لا يقدح في النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

من الذي أخبر بذلك؟ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذا القول مال إليه الإمام النووي والرازي و البهوتي و غيرهم من أئمة المذاهب.

وأنا ذكرت النووي؛ لأن الأزاهرة يفتخرون به ويقولون: هو أشعري.

وذكرت الرازي؛ لأن الرازي رأس الأشاعرة، وهو عمدتهم في تقرير مذهب الأشاعرة.

طيب الرازي في تفسيره يؤكد هذه المسألة، بل يقول: إن القول بأن أبا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأمه من أهل النجاة في الآخرة، هذا القول منسوب للرافضة.

جاء السيوطي رَحِمَهُ اللهُ، وألَّف كتبًا كثيرة ليستخرج منها أو لينتهي إلى أن أبوي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أهل النجاة في الآخرة، وذكر أحاديث ضعيفة وموضوعة، وأن الله عَزَّ وَجلَّ أحياهما لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أو أنهما كانا من أهل الفترة أو غير ذلك.

إذًا: هذه المسألة فيها خلاف، خلاف بين المتقدمين والمتأخرين، وهو خلاف قد يقال: له حظ من النظر.

يأتي بعض الأزاهرة في هذه الأزمان ليريد أن يُلبِّس على الناس، ويقول: إن هذه المسألة الخلاف فيها محسوم، محسوم إلى ماذا؟

إلى أنهما من أهل النجاة، وإلى أن كل من يقول إن أبوي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أهل الوعيد أو أنهما ماتا على الشرك؛ هذا يكره رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذا في قلبه شيء تجاه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أي: من الحقد والغل، وهذا غلط مُبين، وخلط عجيب.

كل ما استدل به من قال إنهما من أهل النجاة إما آيات عامة: {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا} [الإسراء: 15]، وأراد أن يدلل أنهما من أهل الفترة، أو أحاديث ضعيفة وموضوعة.

أما الذي استدل به من قال إنهما من أهل الوعيد فهو أحاديث في الصحيح: "أَبِي وَأَبَاكَ فِي النَّارِ"، في صحيح مسلم، "اسْتَأْذَنْتُ رَبِّي أَنْ أَسْتَغْفِرَ لِأُمِّي فَلَمْ يَأْذَنْ لِي"، في الصحيح.

إذن: الأحاديث صحيحة، فكيف يقال بالقطع للقول المرجوح.

إذن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يشفع في عمه أبي طالب ولا يشفع في أبيه وأمه، الأمر كله لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

لكن لو أن المذهب المرجوح هو الراجح، أي: أن أبوي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كانا من أهل النجاة، يعني: كانا من أهل الفترة وأن الله عَزَّ وَجلَّ سيمتحنهما يوم القيامة، هل هذا يُحزننا؟ هذا يغضبنا؟ لا بل نسعد لذلك، لأن عقيدتنا مبناها على الدليل الصحيح، قال الله، قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال: وَيُخْرِجُ اللهُ مِنَ النَّارِ أَقْوَامًا بِغَيرِ شَفَاعَةٍ؛ بَلْ بِفَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ.

في الحديث أن الله عَزَّ وَجلَّ يقول: ﴿شَفَعَتِ الْمَلاَئِكَةُ وَشَفَعَ النَّبِيُّونَ وَشَفَعَ الْمُؤْمِنُونَ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾؛ فيُخرج الله عَزَّ وَجلَّ أقوامًا من النار, يخرجهم برحمته سُبْحَانَهُ وَتعالَى.

قال: وَيَبْقَى فِي الْجَنَّةِ فَضْلٌ عَمَّنْ دَخَلَهَا مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا.

الجنة عرضها السماوات والأرض، إذا دخل أهل الجنة الجنة بقي فيها شيءٌ لم يُسكن، بقي فيها مكان خالٍ من أهلها من أهل الجنة، فماذا يصنع الله عَزَّ وَجلَّ؟

يُنشئ له أقوامًا لم يعملوا خيرًا قط ولم يكونوا من أهل هذه الدنيا ويجعلهم من أهل الجنة, وذلك بفضله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، ولا يكون ذلك في النار، لأن الله حكم عدل لا يظلم الناس شيئا.

هذه الشفاعات التي ذكرها المصنف رَحِمَهُ اللهُ عند التفصيل أنواع كثيرة، أوصلها صاحب الطحاوية إلى ثمانية أنواع:

شفاعته العظمى، وشفاعته في أهل الجنة أن يدخلوها، والشفاعة له ولسائر المؤمنين والنبيين والصديقين يشفعون فيمن استحق النار ألا يدخلها، وفي من دخلها أن يخرج منها، وشفاعته في رفع درجات من يدخل الجنة فوق ما كان يقتضيه ثواب أعمالهم، يعني: يشفع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أقوام في الجنة حتى يرفع الله عَزَّ وَجلَّ درجتهم في المهديين في عليين كما دعا لأبي سلمة رَضِي اللَّهُ عَنْهُ، والشفاعة في أقوام أن يدخلوا الجنة بغير حساب، وهذا استنبطوه من حديث عكاشة: "أَرْجُو أَنْ أَكُونَ مِنْهُمْ"، وشفاعته في أهل الكبائر من أمته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ممن دخلوها فيخرجون منها.

الناس في الشفاعة على طرفين ووسط:

- فمن الناس من نفى الشفاعة وهم الخوارج والمعتزلة، والكلام هاهنا عن الشفاعة في أهل الكبائر، واستدلوا بالآيات التي في أهل الكفر والشرك وردوا أحاديث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

- وقسم: أثبتوها لكل أحد، حتى إنهم أثبتوها للأصنام والأولياء والمقبورين؛ قال الله عَزَّ وَجلَّ: {وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ} [يونس: 18].

وقال الله عَزَّ وَجلَّ على لسانهم: {مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى} [الزمر: 3]، أرادوا بعبادتهم شفاعتهم.

- وقسم توسطوا وهم أهل السنة والجماعة، فأثبتوا الشفاعة بشروطها الثلاثة، ما هذه الشروط؟ أن يأذن الله عَزَّ وَجلَّ بالشفاعة، وأن يرضى عن الشافع، وأن يرضى عن المشفوع فيه.

ودليل ذلك قول الله عَزَّ وَجلَّ: {وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا}، و(كم) للتكثير، {إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى} [النجم: 26]، فلما استثنى الله عَزَّ وَجلَّ بعد النفي؛ دل ذلك على وجود الشفاعة, لكن بشروطها التي ذكرناها: أن يرضى عن الشافع وعن المشفوع فيه, وأن يأذن الله عَزَّ وَجلَّ ولا يرضى إلا عن الموحدين.

فهذه هي الأقسام الثلاثة للناس في الشفاعة.

حديثنا اليوم إن شاء الله عن الاستشفاع بالمقبورين والأولياء والصالحين.

- والواحد من هؤلاء إن قلت له: هذا لا يجوز، وهذا يشبه فعل المشركين الذين قال الله عَزَّ وَجلَّ: {وَكُفْرِهِمْ}، لما قالوا: {مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى} [الزمر: 3]، إذا قلت له: هذا الفعل الذي تفعله هو فعل المشركين، يقول: لا، الأمر يختلف.

كيف يختلف؟ يقول: إنا نتوسل بهم إلى الله، هؤلاء قوم أطهار ونحن أصحاب ذنوب ومعاصي.

ولذا نتخذهم واسطة إلى الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، فنقول كذلك المتقدمون من أهل الشرك ما اتخذوا هؤلاء شفعاء إلا لأنهم اعتقدوا فيهم الولاية، وإلا لأن هؤلاء كانوا صالحين، {وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا} [نوح: 23]، من هؤلاء؟ هذه أسماء أناس صالحين، كما في خبر عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

ما معنى أنهم صالحون؟ أي: موحدون طائعون لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، فعبدوهم واتخذوهم وسطاء وشفعاء لهم عند الله.

وقال الله عَزَّ وَجلَّ كذلك: {أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّى} [النجم: 19]، من اللات؟ رجل كان يلت السويق، أي: كان يصنع طعاما ويقدمه للحجيج، كان رجلاً صالحًا، فعبدوا الصخرة التي كان يلت السويق عليها، فكفرهم الله عَزَّ وَجلَّ بذلك.

يقولون: نحن نستشفع بالحسين، ألا تدري من الحسين؟ ابن بنت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، سيد شباب أهل الجنة.

فيقال: ما الفرق بين الحسين رضي الله عنه، وهؤلاء الذين ذكرناهم؟ هذا صالح وهؤلاء صالحون، لكن صلاحهم لأنفسهم وليس لغيرهم.

إذًا: العلة واحدة والمعبود في القديم كالمعبود في الحديث، هذا الأمر الأول.

- الأمر الثاني نقول: أنتم تخلطون بين التوسل والاستغاثة، فهذا القول الذي يقولونه وهو مدد يا حسين، مدد يا بدوي، مدد يا علي.

حتى وصل الغلو ببعضهم، وهذا سمعته من بعض الرافضة، أنه كان يسأل شيخه المُعمم هل لو قلت: مدد يا علي و يا الله وقعت في الشرك لأنني قارنت الاستغاثة بعلي بالله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى؟

صار الأصل أن يقول: مدد يا علي، فلما نسي وقَرَنَ ذكر الله عَزَّ وَجلَّ مع ذكر علي، يقول هل وقعت هكذا في الشرك؟ لأن التوحيد عنده أنه يقول: مدد يا علي فقط.

نقول: هؤلاء يخلطون بين التوسل والاستغاثة تلبيسا على تابعيهم.

التوسل؛ أي: طلب الوسيلة، هل التوسل مشروع أم غير مشروع؟ التوسل منه ما هو مشروع ومنه ما هو غير مشروع.

- ما المشروع؟ الذي ثبت في كتاب الله وفي سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

التوسل؛ أن تتوسل بأسماء الله وصفاته، أو أن تتوسل بالعمل الصالح، أو أن تتوسل بدعاء الرجل الصالح، هذا هو التوسل المشروع، **"اللهم إني أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك"**، هذا توسل بماذا؟ **"يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث"**؛ هذا توسل بأسماء الله وصفاته.

الثلاثة الذين دخلوا الغار وأُغلق عليهم، توسلوا بماذا؟ بالأعمال الصالحة، (اللهم إن كنت تعلم أن هذا العمل إنما عملته ابتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن فيه)؛ فهذا توسل بالعمل الصالح.

عمر رَضِي اللهُ عَنْهُ لما قال للعباس رضي الله عنهما لما أصابهم القحط، قال: "اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبيك"، يعني: بدعاء نبيك، "فإننا نتوسل إليك اليوم بعم نبيك"؛ فهذا توسل بدعاء الرجل الصالح.

فلو أنك طلبت من صالح أن يدعو لك ونويت بذلك أن ينتفع هو لأنه سعى في حاجة أخيه المسلم كما تنتفع أنت؛ فهذا مشروع، فهذا هو التوسل المشروع.

- التوسل غير المشروع والذي هو بدعة أو ذريعة إلى الشرك: وهو التوسل بجاه الصالحين وذواتهم.

تقول: يا رب أسألك بحق جاه النبي، بجاه النبي لتفعل كذا. هل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ له جاه عند الله عَزَّ وَجلَّ؟ نعم له جاه، أو تتوسل بذات النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، هذا كله لا يجوز.

إذًا: التوسل بجاه الصالحين أو ذوات الصالحين؛ هذا لا يجوز وهو بدعة وذريعة إلى الشرك، لأنه يؤدي إلى الغلو في الصالحين.

هل هذا النوع عليه دليل، التوسل بالصالحين بذواتهم؟ إذا قلنا : ليس عليه دليل، جاء هؤلاء بحديث عثمان بن حُنيف رضي الله عنه.

أنا أقول لكم: كيف يقرر أهل هذا الزمان ممن يعظمون القبور تقريرات فاقوا فيها أسلافهم؟

المعطلة في هذا الزمان أعظم شبهة من أسلافهم؛ يتفننون في اختراع الشبهات للتدليل على مذاهبهم الباطلة، وهذا سبيل الباطل؛ صارت شبهاتهم أكثر من أسلافهم.

ولذا أنت لو نظرت في رد الإمام أحمد على الجهمية والمعتزلة، هل رده رَحِمَهُ اللهُ كرد شيخ الإسلام ابن تيمية على الجهمية والمعتزلة؟

الذي يقرأ كلام الإمام أحمد يقول: هذا كلام طالب علم ليس كلام عالم لسهولته ويُسره مع قطعه للشبهة رضي الله عن الإمام أحمد، وأما كلام شيخ الإسلام ابن تيمية؛ فإنه يحتاج إلى طالب علم متمكن أو عالم ليفهم الكلام، لشدة شبهة أهل زمانه.

فإذا جئنا لهذا الزمان وجدنا أن هؤلاء زادوا شبهات على شبهات الأولين، يقولون: ثبت في سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ التوسل بذات النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قلنا لهم: أين ذلك؟

قالوا: ما جاء عند أحمد وصححه الألباني، ويؤكد على الكلمة هذه، هذا شيخكم الألباني صحح الحديث.

صححه الألباني من حديث عثمان بن حُنيف أن رجلاً ضرير البصر أتى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: ادعو الله أن يعافيني، فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **"إن شئت دعوت لك، وإن شئت أخرت ذاك, فهو خير لك"**.

وفي رواية: **"وَإِنْ شِئْتَ صَبَرتَ، فهو خَيْرٌ لَكَ"**، فقال: ادْعُه، فَأمرهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنْ يَتوضَّأَ، فَيُحْسِنَ وُضُوءَهُ، فيصلي ركعتين، وَيَدْعُوَ بهذا الدُّعَاءِ: (اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ وَأَتوجَّهُ إِلَيْكَ بِنَبِيِّكَ محمدٍ نَبيِّ الرَّحْمَةِ).

وأتوجه إليك بنبيك؛ قال هاهنا: بنبيك ليس بدعاء نبيك، هنا توسل بماذا؟ يقول لك: هذا توسل بذات النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

يا محمد إني أتوجه بك إلى ربي في حاجتي هذه فتُقضى لي، اللهم فشفعه في وشفعني فيه، قال: ففعل الرجل فبرأ، يعني: رُدَّ إليه بصره مرة أخرى.

فيقولون: هذا الحديث صححه الألباني، والرجل توسل بذات النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إذًا يجوز لنا أن نقول: بجاه النبي، وبجاه الحسين، وبجاه علي، وبجاه البدوي، وأن نتوسل بهؤلاء عند قبورهم، أو أن نتوسل بهم في البر والبحر كما يغلو بعضهم؛ لدلالة هذا الحديث على ذلك، وبعض الناس يُلبَّس عليه بمثل هذه الأحاديث، وينقلب عن المذهب الحق.

الشيخ الألباني رَحِمَهُ اللهُ في كتابه العظيم -وهو من أعظم الكتب في هذه المسألة في التوسل المشروع منه والممنوع- بعد أن ذكر هذا الحديث أجاب عنه، فقال رَحِمَهُ اللهُ: وأما نحن فنرى أن هذا الحديث لا حجة لهم فيه على التوسل بالذات.

وانظر كيف سيستخرج الشيخ الألباني رَحِمَهُ اللهُ الحجة عليهم من هذا الحديث؟

قال: بل هو دليل آخر على النوع الثالث من أنواع التوسل المشروع وهو التوسل بدعاء الرجل الصالح؛ لأن توسل الأعمى إنما كان بدعائه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والأدلة على ما نقول من الحديث نفسه كثيرة، وأهمها:

- **أولًا**: أن الأعمى إنما جاء إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليدعو له، هذا نص الحديث، وذلك قوله: ادْعُ الله أنْ يُعافِيَني، ما قال: اللهم إني أتوسل إليك بجاه نبيك.

إذًا: صدر الحديث يقول الرجل الأعمى للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (ادْعُ الله أنْ يُعافِيَني)، فهو توسل إلى الله تعالى بدعائه؛ لأنه يعلم أن دعائه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أرجى للقبول عند الله، بخلاف دعاء غيره.

ولو كان قصد الأعمى التوسل بذات النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أو جاهه أو حقه، لما كان ثمة حاجة به إلى أن يأتي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويطلب منه الدعاء له، بل كان يقعد في بيته ويدعو ربه بأن يقول مثلاً: (اللهم إني أسألك بجاه نبيك ومنزلته عندك أن تشفيني وتجعلني بصيرًا)، لكنه لم يفعل، تكلف أن يذهب وأن يطلب الدعاء من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، هذا أولًا.

- **ثانيًا**: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعده بالدعاء مع نُصحه له ببيان ما هو الأفضل له، وهو قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **"إنْ شِئْتَ دَعَوْتُ، وَإنْ شِئْتَ صَبَرتَ، فهو خَيْرٌ لَكَ"**، هذه الجملة نفس الجملة قالها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لمن؟

للمرأة السوداء التي كانت تُصرع . قالت: يا رسول الله إني أُصرع فادع الله ألا أُصرع، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **"إن شئت دعوت الله لك، وإن شئت صبرتي، ولك الجنة"**، قالت: بل أصبر، ولكن ادع الله ألا أتكشف، فدعا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الله ألا تتكشف، فكانت بعد ذلك إذا أصابها الصرع لا تتكشف، يعني: لا يظهر شيء من جسدها.

وهذا الرجل جاء كذلك للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال له: "إنْ شِئْتَ صَبَرتَ، فهو خَيْرٌ لَكَ، وإنْ شِئْتَ دَعَوْتُ اللهَ لَك"، هذا ثانيًا.

- قال **ثالثًا**: إصرار الأعمى على الدعاء, وهو قوله: فادع؛ فهذا يقتضي أن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دعا له؛ لأنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خير من وفى بما وعد، وقد وعده بالدعاء له إن شاء كما سبق؛ فلابد أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دعا له، فثبت المراد وقد وجه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الأعمى بدافع من رحمته وبحرص منه أن يستجيب الله تعالى دعائه فيه.
- قال: وَجَّهَه إلى النوع الثاني من التوسل المشروع وهو التوسل بالعمل الصالح.

فقد طلب من الرجل أن يتوجه إلى الله عَزَّ وَجلَّ بدعائه، فيجمع بين دعاء الرجل الصالح وبين دعائه هو الذي هو عمل صالح.

قال: ليجمع له الخير من أطرافه، فأمره أن يتوضأ ويصلي ركعتين ثم يدعو لنفسه، وهذه الأعمال طاعة لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى يقدمها بين يدي دعاء النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهي تدخل في قوله تعالى: {وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ} [المائدة: 35].

قال: وعلى هذا فالحادثة كلها تدور حول الدعاء، وليس فيها ذكر شيء مما يزعم.

- **رابعًا**: أن في الدعاء الذي علمه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إياه أن يقول: اللَّهُمَّ فَشَفِّعْهُ فِيَّ، شفعه بالدعاء، وهذا يستحيل حمله على التوسل بذاته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أو جاهه أو حقه.

إذ إن المعنى: اللهم اقبل شفاعته في؛ أي: اقبل دعاءه في أن ترد عليَّ بصري، والشفاعة لغة: الدعاء.

قال في لسان العرب: الشفاعة كلام الشفيع للملك في حاجة يسألها لغيره توسط للغير عند الغير برفع الضُر أو جلب الخير.

قال: والشافع: الطالب لغيره يتشفع به إلى المطلوب.

قال: فثبت بهذا الوجه أيضًا أن توسل الأعمى إنما كان بدعائه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا بذاته.

- **خامسًا:** أن مما علم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الأعمى أن يقول: وَشَفِّعْنِي فِي؛ أي: اقبل شفاعتي، أي: دعائي في أن تقبل شفاعته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أي: دعائه في أن ترد عليَّ بصري.

قال: ولهذا ترى المخالفين يتجاهلون هذه الزيادة، هذه الجملة، ولا يتعرضون لها من قريب أو من بعيد، لأنها تنسف بنيانهم من القواعد وتجتسه من الجذور.

- **سادسًا** وهذا استنباط لطيف وجيد: أن هذا الحديث ذكره العلماء في معجزات النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ودعائه المستجاب صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولو كان المقصود من الحديث التوسل بذاته وبشخصه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما ذكروه في دعائه المستجاب.

قال: وما أظهره الله ببركة دعائه من الخوارق والإبراء من العاهات، فإنه بدعائه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لهذا الأعمى أعاد الله عليه بصره؛ ولذلك رآه

المصنفون في دواء النبوة كالبيهقي وغيره، فهذا يدل على أن السر في شفاء الأعمى إنما هو دعاء النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

إذًا: هذا هو التوسل، فالتوسل منه ما هو مشروع ومنه ما هو ممنوع.

هل التوسل بذات الصالحين مشروع؟ غير مشروع.

طيب ماذا عن الاستغاثة؟ قلنا: هؤلاء يخلطون بين التوسل والاستغاثة، التوسل؛ أي أن تقول: أتوسل إليك بجاه فلان، أما إن خاطبت فلانًا المقبور، فهذه هي الاستغاثة؛ لأن الاستغاثة معناها: طلب الغوث والإعانة.

{فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ} [القصص: 15]، ما معنى استغاثه؟ يعني: طلب أن يغيثه وأن يعينه؛ ولذا نقول: الاستغاثة إن كانت من حي، يعني: أنت تستغيث بحي، إن كانت بحي مشروعة لكن بشروط: لابد أن يكون فيما يقدر عليه، وأن يكون حاضرًا.

إذا قلت: أنا أستغيث بك، يعني: أطلب منك أن تعينني في أمر ما، أن تذهب معي إلى الطبيب، هل تستطيع أن تفعل ذلك أم لا تستطيع؟ هذا جائز.

أستغيث بالمخلوق هذا في دفع ضر لا يستطيع أن يدفعه إلا الله، لا يجوز.

أما أن أستغيث به في جلب نفع لا يستطيع أن يأتي به إلا الله، فهذا لا يجوز، هذا شرك ، هذا بالنسبة للحي.

ماذا عن الميت؟ لا تجوز الاستغاثة بالميت مطلقًا وهي من الشرك فالذي يقول: مدد يا بدوي، مدد يا حسين، مدد يا رسول الله، هذا من حيث الإطلاق شرك أكبر يُخرج المرء من الإسلام.

الآن ابحث هكذا على اليوتيوب أو على الانترنت، اكتب ما حكم قول مدد يا رسول الله؟ انظر ماذا سيظهر لك؟ كم من مقطع فيديو للأزاهرة!! واستمع لهؤلاء. ماذا يقولون؟

بعضهم يقول: هذا مجاز وهو مشروع، لأن الطالب ما أراد حقيقته وإنما أراد منه أن يتوسط إلى ربه تَبَارَكَ وَتَعَالَى ليدفع عنه الضر، أو يجلب له الخير.

اقرأ قول الله تعالى:{مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى} [الزمر: 3]، هذا ليس بمجاز، هذا الداعي وهذا المستغيث يجد في قلبه من الرجاء والخوف من المقبور ما لا يكون إلا لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

ولذا تجد الواحد من هؤلاء يستكين ويطأطئ رأسه ويُلصق جسده بهذا القبر أو هذا الضريح، وتجده في خشوع، وبعضهم يسجد على عتبة القبر ويسأل حاجته، ثم يقال: هذا مجاز بعد ذلك!! لا والله ليس هذا بمجاز بل هذا هو عين الشرك.

فالاستغاثة هي: طلب الغوث، وقولهم: مدد يا فلان، هذا ليس توسلاً, وإنما هو استغاثة شركية، يقولون: لكن عندنا دليل على ذلك، ما الدليل على ذلك؟

يقولون ما ذكره ابن كثير، وابن كثير تلميذ ابن تيمية، وأنتم تعظمون يا وهابية ابن تيمية، ما ذكره ابن كثير عند تفسيره لقول الله تعالى: {وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا} [النساء: 64].

يقول لك قائلهم: افتح تفسير ابن كثير، وتفسير ابن كثير هذا –كما يقول يسري جبر عامله الله بما يستحق– :تفسير ابن كثير هذا تفسير وهابي، يقول لك:

كل ما كان من كتب يعظمها الوهابية فابتعد عنها، هذه كتب أهل البدع، ويُعدد هذه الكتب ويذكر من هذه الكتب تفسير ابن كثير تفسير القرآن العظيم، يقول لك: ابتعد عن هذا الكتاب لأن الوهابية تعظم هذا الكتاب.

طيب نحن نعظم القرآن الكريم ونعظم صحيح البخاري وصحيح مسلم، فهؤلاء يقولون: ارجع إلى تفسير هذه الآية وانظر ماذا ذكر ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ، ذكر قصة العُتيبي أسفل هذه الآية، ما قصة العُتيبي؟

هذه القصة فيها أن أعرابيًا حج، فلما جاء إلى باب مسجد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أناخ راحلته فعقلها، ثم دخل المسجد حتى أتى قبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ووقف بحذاء وجه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يعني: عند وجهه، فقال: بأبي أنت وأمي يا رسول الله جئتك مثقلاً بالذنوب والخطايا، مستشفعًا بك على ربك.

لأنه قال في محكم كتابه: {وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا }؛ وقد جئتك بأبي أنت وأمي مُثقلاً بالذنوب والخطايا أستشفع بك على ربك أن يغفر لي ذنوبي، وأن تشفع فيَّ، ثم أقبل في عرض الناس وهو يقول، يعني: بعد أن طلب حاجته قام وانصرف وهو يقول:

يـا خـير مـن دُفنـت في الـتُرب — فطاب من طيبه الأبقاع والأكم
نفس الفـداء بقبر أنـت سـاكنه — فيه العفاف وفيه الجود والكرم

ثم انصرف الأعرابي، قال: فغلبتني عيني, فرأيت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في النوم فقال: **"يا عُتْبِيُّ، الْحَقِ الأَعْرَابِيَّ، فَبَشِّرْهُ أَنَّ اللهَ قَدْ غفرَ لَهُ"**، العُتبي الذي يروي هذه القصة.

فيقولون: هذا جاء قبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ واستغاث به وناداه وغفر الله عَزَّ وَجلَّ له، والذي ذكر هذه القصة ابن كثير.

- فنقول كيف ذكرها ابن كثير؟ هل ذكر إسنادها؟ هل ذكرها محتجًا بها؟ مقرًا بما فيها؟ لا والله.

ثم على فرض أنه ذكرها مقرًا بما فيها، كلٌّ يُخطئ ويصيب، المعصوم هو النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأما من بعد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فكلٌّ يؤخذ منه ويُرد، وكلٌّ يُعرض كلامه على كتاب الله وسنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، هذا أولًا.

- ثم نقول ثانيًا: هذه القصة سندها واه لا يصح، تكلم عنه أهل العلم، ومن هؤلاء ابن عبد الهادي تلميذ شيخ الإسلام ابن تيمية. إذا كنتم تحتجون بتلاميذ شيخ الإسلام ابن تيمية، فماذا يقول ابن عبد الهادي رَحِمَهُ اللهُ؟

يقول: وهذه الحكاية التي ذكرها بعضهم يرويها عن العُتبي بلا إسناد، وبعضهم يرويها عن محمد بن حرب الهلالي، وبعضهم يرويها عن محمد بن حرب عن أبي الحسن الزعفراني عن الأعرابي، وقد ذكرها البيهقي في كتاب شعب الإيمان بإسناد مُظلم، يعني: قصة موضوعة.

عن محمد بن روح بن يزيد بن البصري، قال: حدثني أبو حرب الهلالي، قال: حج أعرابي, فلما جاء إلى باب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم ذكر نحو ما تقدم، قال: وقد وضع لها بعض الكذابين إسنادً إلى علي بن أبي طالب رَضِي اللهُ عَنْهُ.

قال: وفي الجملة ليست هذه الحكاية المذكورة المنكورة عن الأعرابي مما يقوم به حجة، وإسنادها مُظلم مختلق.

ولو كانت ثابتة لم يكن فيها حُجة على مطلوب المعترض، ولا يصلح الاحتجاج بمثل هذه الحكاية ولا الاعتماد على مثلها عند أهل العلم، وبالله التوفيق.

هذا ذكره في كتابه الصارم المُنكي في الرد على السبكي.

وقال الشيخ الألباني رَحِمَهُ اللهُ: وهذا إسنادٌ ضعيفٌ مُظلم، لم أعرف أيوب الهلالي ولا من دونه وأبو يزيد الرُقاشي، أورده الذهبي في المقتنى في سرد الكُنى ولم يسمه، وأشار إلى أنه لا يُعرف بقوله، حكى شيئًا وأرى أنه يشير إلى هذه الحكاية.

قال: وهي مُنكرة ظاهرة النكارة، وحسبك أنها تعود إلى أعرابي مجهول الهوية.

ماذا عن قول الله تعالى: {وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ}؟ هل هذا معناه أن كل من وقع في ذنب يُشرع له أن يذهب إلى قبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ لا، هذا مختص بحياته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا بعد وفاته.

ويدل على ذلك قوله تعالى: {فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ}، أي: يقول: يا رسول الله ادع الله أن يغفر لي، فيطلب من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يدعو الله عَزَّ وَجلَّ أن يغفر له، هذا في حياته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال: والذين يأتونه بعد وفاته، من أين لهم إذا استغفروا الله أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد استغفر لهم في قبره، حتى ينالوا كرامة قوله تعالى: {لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا}، هذا كلام الشيخ الألباني.

بل إن مجيئهم إلى قبره بعد وفاته لهذا الغرض ذريعة إلى الاستغاثة به واللجوء إليه وسؤاله من دون الله، كما يفعل الناس اليوم، وهذا من الشرك بالله تعالى.

ولذا هؤلاء غلطوا في التوسل وكذلك غلطوا في الاستغاثة بالأموات، حتى صار الواحد منهم يُعظم المسجد الذي فيه قبر جدًا، مع أن أحاديث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في المساجد التي فيها قبور واضحة بيِّنة في الصحيحين، **"لَعَنَ اللَّهُ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى"**.

لماذا لعنهم الله عَزَّ وَجلَّ؟ هل لأنهم يهود ونصارى؟ لا، ذكر العلة: **"اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ"**.

ثم قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **"ألا إني أنهاكم عن ذلك"**، ينهى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وهذا التحذير كان في حياة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكان قبل موته، وكان عند موته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فيأتي مثل يسري جبر هذا الذي جعل أهل التوحيد عدوًا لدودًا له ولأتباعه، يقول: الصلاة في المسجد الذي فيه قبر أعظم بكثير وأكثر بركة من الصلاة بالمسجد الذي ليس فيه قبر.

يقول هكذا: فلو خُيرت بين مسجدين، يعني: حان الوقت وأمامك مسجدان، مسجد ليس فيه قبر، ومسجد فيه قبر، فاختر المسجد الذي فيه قبر

ففيه بركة؛ لأن المقبور الذي فيه صالح وعنده ملائكة تؤمِّن على الدعاء وتأمينهم مستجاب، فإذا دعوت الله في الصلاة استجاب الله لدعائك، هذا خلط وتلبيس ما بعده تلبيس وخلط.

ويقول: ويكفي في الدلالة على ذلك أن تعلم أن أعظم مسجدين بهما قبور: المسجد النبوي، والمسجد الحرام، وكذب هداه الله، ليس بالمسجد الحرام قبر لنبي ولا لرسول ولا صالح، وكل ما جاء في ذلك فهو ضعيف أو باطل.

وأما مسجد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فالمسجد بُني قبل القبر، والمسجد له فضيلة قبل وجود القبر، والذي أدخل القبر المسجد ليس أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا أهل الفضل من القرون الفاضلة، وإنما الذي أدخله أهل السياسة لتوسعة المسجد، وما أصابوا في ذلك.

ما صنعوا الأصلح، فكيف تُترك هذه الفضيلة لوجود قبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟

ثم إن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دعا الله عَزَّ وَجلَّ ألا يجعل قبره وثنًا يُعبد من بعده، واستجاب الله عَزَّ وَجلَّ لنبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فأحاط أهل التوحيد قبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بجدران كثيرة، حتى لا يصل إليه أحد، وجعلوه في مكان لا يستقبله مصل في مسجد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أي مكان أنت تصلي فيه في المسجد النبوي لا تستقبل قبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وهذا كله من حفظ توحيد الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، ومن استجابة الله عَزَّ وَجلَّ لدعاء النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

إذا سمعت هؤلاء لا تجد شبهاتهم تخرج عن هذه الشبهات، قصة العُتبي، أو الرجل الأعمى الذي أتى إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أو هذه الآية، أو الخلط بين التوسل والاستغاثة، أو الكلام بباطل بزعم أنهم يتكلمون بلغة العرب وليس كلامهم من لغة العرب في شيء.

فالحمد لله الذي بصَّرنا بالحق وجعلنا من أهل التوحيد، ونسأل الله عَزَّ وَجلَّ أن يثبتنا على ذلك حتى نلقاه.

قال الشيخ الهراس رَحِمَهُ اللهُ: وَأَمَّا قَوْلُهُ: ((وَلَهُ صلى الله عليه وسلم فِي الْقِيَامَةِ ثَلاثُ شَفَاعَاتٍ)) ؛ فَأَصْلُ الشَّفَاعَةِ مِنْ قَوْلِنَا: شَفَعَ كَذَا بِكَذَا إِذَا ضَمَّهُ إِلَيْهِ، وُسِمِّيَ الشَّافِعُ شَافِعًا لِأَنَّهُ يضمُّ طَلَبَهُ وَرَجَاءَهُ إِلَى طَلَبِ الْمَشْفُوعِ لَهُ.

وَالشَّفَاعَةُ مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي ثَبَتَتْ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَأَحَادِيثُهَا مُتَوَاتِرَةٌ.

إذًا: ليست أحاديث الآحاد، بل أحاديث متواترة؛ ولهذا يثبتها الأشعرية يثبتون هذه الشفاعة، لكن أشعرية الزمان أضافوا إلى أشعريتهم التصوف؛ فجمعوا بين ضلالتين؛ جمعوا بين التعطيل والغلو في الصالحين.

قال: قَالَ تَعَالَى: {مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ} [البقرة: 255].

قال: فَنَفْيُ الشَّفَاعَةِ بِلاَ إِذْنٍ إِثْبَاتٌ لِلشَّفَاعَةِ مِنْ بَعْدِ الْإِذْنِ.

قَالَ تَعَالَى عَنِ الْمَلَائِكَةِ: {وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى} [النجم: 26].

أي: يرضى عن الشافع والمشفوع.

قال: فبيَّن اللَّهُ الشَّفَاعَةَ الصَّحِيحَةَ، وَهِيَ الَّتِي تَكُونُ بِإِذْنِهِ، وَلِمَنْ يَرْتَضِي قَوْلَهُ وَعَمَلَهُ.

وَأَمَّا مَا يتمسَّك بِهِ الْخَوَارِجُ وَالْمُعْتَزِلَةُ فِي نَفْيِ الشَّفَاعَةِ مِنْ مِثْلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: {فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ} [المدثر: 48].

هذه الآية في سورة المدثر، قلنا: وهي في سياق الكلام عن المجرمين.

وقوله تعالى: {وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ} [البقرة: 123].

قال: فَإِنَّ الشَّفَاعَةَ المنفيَّة هُنَا هِيَ الشَّفَاعَةُ فِي أَهْلِ الشِّرْكِ، وَكَذَلِكَ الشَّفَاعَةُ الشِّرْكِيَّةُ الَّتِي يُثْبِتُهَا الْمُشْرِكُونَ لِأَصْنَامِهِمْ، وَيُثْبِتُهَا النَّصَارَى لِلْمَسِيحِ وَالرُّهْبَانِ، وَهِيَ الَّتِي تَكُونُ بِغَيْرِ إِذْنِ اللَّهِ وَرِضَاهُ.

في الدنيا، فيجعلون الأصنام ويجعلون المسيح والرهبان يجعلون هؤلاء شفعاء يقربونهم إلى الله.

قال: وَأَمَّا قَوْلُهُ: ((أَمَّا الشَّفَاعَةُ الْأُولَى؛ فَيَشْفَعُ فِي أَهْلِ الْمَوْقِفِ حَتَّى يُقضى بَيْنَهُمْ))؛ فَهَذِهِ هِيَ الشَّفَاعَةُ الْعُظْمَى، وَهِيَ الْمَقَامُ الْمَحْمُودُ الَّذِي يَغْبِطُهُ بِهِ النبيُّون، وَالَّذِي وَعَدَهُ اللَّهُ أَنْ يَبْعَثَهُ إِيَّاهُ بِقَوْلِهِ: {عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا} [الإسراء: 79].

يَعْنِي: يَحْمَدُهُ عَلَيْهِ أَهْلُ الْمَوْقِفِ جَمِيعًا.

وَقَدْ أَمَرَنَا نبيُّنا صلى الله عليه وسلم إِذَا سَمِعْنَا النِّدَاءَ أَنْ نَقُولَ بَعْدَ الصَّلَاةِ عَلَيْهِ: ((اللَّهُمَّ ربَّ هَذِهِ الدَّعْوَةِ التَّامَّة، وَالصَّلَاةِ الْقَائِمَةِ، آتِ مُحَمَّدًا الْوَسِيلَةَ وَالْفَضِيلَةَ، وَابْعَثْهُ مَقَامًا مَحْمُودًا الَّذِي وعدتَه)).

قال: وَأَمَّا قَوْلُهُ: ((وَأَمَّا الشَّفَاعَةُ الثَّانِيَةُ؛ فَيَشْفَعُ فِي أَهْلِ الْجَنَّةِ أَنْ يَدْخُلُوا الْجَنَّةَ))؛ يَعْنِي: أَنَّهُمْ. وَقَدِ استحقُّوا دُخُولَ الْجَنَّةِ. لَا يُؤْذَنُ لَهُمْ بِدُخُولِهَا إِلَّا بَعْدَ شَفَاعَتِهِ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: ((وَهَاتَانِ الشَّفَاعَتَانِ خاصَّتان لَهُ))؛ يَعْنِي: الشَّفَاعَةَ فِي أَهْلِ الْمَوْقِفِ، وَالشَّفَاعَةَ فِي أَهْلِ الْجَنَّةِ أَنْ يَدْخُلُوهَا.

وتنضمُّ إِلَيْهِمَا ثَالِثَةٌ، وَهِيَ شَفَاعَتُهُ فِي تَخْفِيفِ الْعَذَابِ عَنْ بَعْضِ الْمُشْرِكِينَ؛ كَمَا فِي شَفَاعَتِهِ لِعَمِّهِ أَبِي طَالِبٍ، فَيَكُونُ فِي ضَحْضَاحٍ مِنْ نَارٍ؛ كَمَا وَرَدَ بِذَلِكَ الْحَدِيثُ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: ((وَأَمَّا الشَّفَاعَةُ الثَّالِثَةُ؛ فَيَشْفَعُ فِيمَنِ استحقَّ النَّارَ)).

قال: وَهَذِهِ هِيَ الشَّفَاعَةُ الَّتِي يُنْكِرُهَا الْخَوَارِجُ وَالْمُعْتَزِلَةُ؛ فَإِنَّ مَذْهَبَهُمْ أَنَّ مَن استحقَّ النَّارَ؛ لَا بدَّ أَنْ يدخُلَها، وَمَنْ دَخَلَهَا.

فأوجبوا على الله عَزَّ وَجلَّ ما لم يوجبه على نفسه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

قال: وَمَنْ دَخَلَهَا؛ لَا يَخْرُجُ مِنْهَا لَا بِشَفَاعَةٍ وَلَا بِغَيْرِهَا.

قال: وَالْأَحَادِيثُ الْمُسْتَفِيضَةُ الْمُتَوَاتِرَةُ تردُّ عَلَى زَعْمِهِمْ وَتُبْطِلُهُ.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم، وجزاكم الله خيرًا.

الدرس الحادي والأربعون

إن الحمد لله, نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله تعالى من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله, صلى الله عليه, وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد:

فما زال حديثنا موصولًا في قراءة هذا المعتقد المبارك, والذي سطره شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ في عقيدته الواسطية, وعليه شرح مبارك كذلك وهو شرح العلامة محمد خليل هراس عليه الرحمة.

وكنا قد وصلنا إلى قول المصنف رَحِمَهُ اللهُ بعد أن ذكر الإيمان باليوم الآخر وما يتعلق بذلك من مباحث.

قال: وَأَصْنَافُ مَا تَضَمَّنَتْهُ الدَّارُ الآخِرَةُ مِنَ الْحِسَابِ وَالثَّوَابِ وَالْعِقَابِ وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ وَتَفَاصِيلُ ذَلِكَ مَذْكُورَةٌ فِي الْكُتُبِ الْمُنَزَّلَةِ مِنَ السَّمَاءِ، وَالآثَارِ مِنَ الْعِلْمِ الْمَأْثُورِ عَنِ الأَنْبِيَاءِ، وَفِي الْعِلْمِ الْمَوْرُوثِ عَنْ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم مِنْ ذَلِكَ مَا يَشْفِي وَيَكْفِي، فَمَنِ ابْتَغَاهُ وَجَدَهُ.

هذه القطعة التي ختم بها المصنف رَحِمَهُ اللهُ مبحث الإيمان باليوم الآخر، بين فيها عدة أمور:

من هذه الأمور:

- أن ما ذكره من أحوال الدار الآخرة ومن أمور تكون في يوم القيامة من حساب وثواب وعقاب وجنة ونار؛ كل ذلك مذكور في الكتب المنزلة

من السماء؛ وهذا يدل على أن العلم بهذا الأمر علم نافع مأثور، بل هو من أنفع العلوم؛ لأن ذلك يحمل النفوس على طاعة الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

- إذا علم المرء أن هناك حسابًا في الآخرة، وأن هناك جزاءً وجنةً ونارًا؛ حمله ذلك على طاعة الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وعلى الإكثار من هذه الطاعة؛ كما أن ذلك يحمله على ترك المعصية؛ لأنه يعلم أنه إن وقع في هذه المعصية؛ فإنه متوعد بالعذاب في الآخرة.

قد يقول قائل: هناك مشيئة واحتمال للعفو والمغفرة، فيقال: ولكن ما الذي يجعل قلب العبد مطمئنًا أنه سيكون من أهل العفو والمغفرة؟ إن مات على ذنب ومعصية، لعله يكون من أهل النار، نسأل الله السلامة والعافية.

فإذا جعل المرء ذلك نُصب عينيه استقام في هذه الحياة الدنيا على الصراط المستقيم؛ ولذا جاء ذكر هذا اليوم في الكتب المنزلة على المرسلين، بل كثُر ذكر ذلك، ونجد هذا خاصة في كتابنا القرآن في السور المكية؛ فإن أكثر عقيدة ذُكرت في السور المكية التي تخاطب الكفار والمشركين هي عقيدة الإيمان باليوم الآخر.

العقيدة التي تُبين أن المرء سيقف بين يدي الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى ليس بينه وبينه ترجمان، ينظر أيمن منه فلا يرى إلا النار، وينظر أشأم منه فلا يرى إلا النار، وينظر أمامه فلا يرى إلا النار، ولا ينفعه إلا العمل، ولا ينفعه إلا البعد عن معصية الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

ولذا كثُرت هذه العقيدة في كتاب الله، بل هي ثلث العلم الموجود في كتاب الله، فالعلم الموجود في كتاب الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى أقسامه ثلاثة؛ كما يقول ابن القيم

رَحِمَهُ اللهُ: علم التوحيد، وعلم الحلال والحرام؛ الذي هو الأمر والنهي، وعلم الجزاء.

فعلم الجزاء قسم من هذه الأقسام المهمة، ومدار العلوم التي تضمنها الوحي على هذه الأقسام الثلاثة.

وفي ذلك يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ في نونيته:

والعلم أقسام ثلاث ما لها * من رابع والحق ذو تبيان**

علم بأوصاف الإله وفعله * وكذلك الأسماء للرحمن**

والأمر والنهي الذي هو دينه * وجزاؤه يوم المعاد الثاني**

فقال: علم بأوصاف الإله وفعله، وكذلك الأسماء للرحمن؛ فهذا علم التوحيد.

وقال: والأمر والنهي الذي هو دينه؛ وهذا هو علم الحلال والحرام، افعل ولا تفعل.

قال: وجزاؤه يوم المعاد الثاني؛ وهذا هو علم الجزاء.

فلما كان العلم بالجزاء الأخروي والثواب والعقاب على هذه الأهمية واحتاج الناس إليه لحملهم على الأمر والنهي؛ كثُر ذكره في كتاب الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، ليحملهم على الاستعداد لهذا اليوم.

إن من أسباب وقوع الناس في المعصية، وتكالبهم على الدنيا والتمسك بها، والظن أنها دار الخلود، الغفلة عن الدار الآخرة، والغفلة عن الموت.

قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "يُوشِكُ الْأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَى الْأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا"، فَقَالَ قَائِلٌ: وَمِنْ قِلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: "بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ

كَثِيرٌ، وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ، وَلَيَنْزَعَنَّ اللَّهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمُ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ، وَلَيَقْذِفَنَّ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهْنَ"، فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا الْوَهْنُ؟ قَالَ: "حُبُّ الدُّنْيَا، وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ".

فنسيان الدار الآخرة ونسيان الجزاء الأخروي يؤدي إلى محبة الدنيا، وتشييد هذه الدنيا وإعمارها على حساب الآخرة.

وفي هذا كذلك يقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إِذَا تَبَايَعْتُمْ بِالْعِينَةِ، ورَضيتُم بِالزَّرْعِ، وَاتَّبَعْتُمْ أَذْنَابَ الْبَقَرِ"، وهذه كلها من أمور الدنيا, لا يفعلها ولا يقع فيها إلا من أُشرب قلبه حب الدنيا، تمكنت الدنيا من قلبه فتبايع بالعينة، فيستوي عنده المكسب الحلال مع المكسب الحرام، غايته أن يُحصِّل المال.

"ورَضيتُم بِالزَّرْعِ"؛ وهذا كناية عن الانشغال بالدنيا.

"وَاتَّبَعْتُمْ أَذْنَابَ الْبَقَرِ"؛ هذا كذلك: سلط الله عليكم ذلًا لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم.

ولذا -كما قلنا-: كثُر ذكر اليوم الآخر، وكثُر ذكر الجنة والنار في كتاب الله وفي سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذا الخطاب مما قلَّ جدًا على ألسنة الدعاة في هذه الأيام، قلما تجد واحداً يتحدث عن الجنة والنار، بل قلما تجد ذلك فيما هو معدٌ ليكون خطبًا للناس، تذكيرهم بالعقاب الأخروي وبالوقوف بين يدي الله وبالجنة والنار، وترك ذلك والغفلة عنه يؤدي إلى غفلة الناس ونسيانهم لهذا اليوم العظيم.

قال المصنف: وَأَصْنَافُ مَا تَضَمَّنَتْهُ الدَّارُ الآخِرَةُ مِنَ الْحِسَابِ وَالثَّوَابِ وَالْعِقَابِ وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ وَتَفَاصِيلُ ذَلِكَ مَذْكُورَةٌ فِي الْكُتُبِ الْمُنَزَّلَةِ مِنَ السَّمَاءِ.

وهذه القطعة كذلك فيها دليل على أن هذه الأمور مبناها على الدليل، تفاصيل ما يكون في اليوم الآخر هذا مرجعه إلى الدليل لا دخل للعقل فيه ولا للهوى ولا للذوق ولا لشيء من ذلك، وهو من الإيمان بالغيب، وهو من أعظم صفات أهل الإيمان.

قال: وَالآثَارِ مِنَ الْعِلْمِ الْمَأْثُورِ عَنِ الأَنْبِيَاءِ.

والعلم المأثور عن الأنبياء الذي وصل إلينا على أقسام ثلاثة:

- **القسم الأول**: وهو ما نقطع بضعفه وعدم صحته.

فلا يصح السند إلى المنقول عنهم، وما نقطع كذلك بكذبه؛ لأن شرعنا جاء بتكذيبه، مما هو منقول عن الأنبياء بطريق غير صحيح مُحرف كالطعن في الأنبياء والمرسلين؛ كما في الكتب المحرفة كالكتاب المقدس وأسفار اليهود خاصة، والحكم في ذلك واضح وهو: أنه يُرد ولا يُقبل.

- **والقسم الثاني**: وهو ما جاء شرعنا بتصديقه، وهذا يُقبل.

- **والقسم الثالث**: وهو ما سكت عنه شرعنا فلم يصدقه ولم يكذبه.

فهذا كذلك لا نصدقه ولا نكذبه ككثير من الروايات والقصص المنقولة عن أهل الكتاب.

إذًا: العلم المأثور عن الأنبياء؛ إما أن يثبت بالوحي، أي: صح السند إليه وأقره وحينا من كتاب وسنة؛ فهذا نقبله ونعتقده، وإما ألا يكون ثابتًا؛ فهذا نرده خاصة إذا جاء شرعنا بتكذيبه، فهذا هو العلم الموروث عن الأنبياء والمرسلين.

قال: وَفِي الْعِلْمِ الْمَوْرُوثِ عَنْ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم مِنْ ذَلِكَ مَا يَشْفِي وَيَكْفِي.

فلا نحتاج في تفاصيل هذه الأمور أن ننظر في التوراة أو الإنجيل أو في الكتب السابقة، لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فصَّل ذلك تفصيلاً.

قال: فَمَنِ ابْتَغَاهُ وَجَدَهُ.

قال الشيخ الهراس رَحِمَهُ اللهُ: وَأَمَّا قَوْلُهُ: ((وَأَصْنَافُ مَا تضمَّنَتْهُ الدَّارُ الْآخِرَةُ مِنَ الْحِسَابِ)) إلخ.

قال: فَاعْلَمْ أَنَّ أَصْلَ الْجَزَاءِ عَلَى الْأَعْمَالِ خَيْرِهَا وَشَرِّهَا ثابتٌ بِالْعَقْلِ كَمَا هُوَ ثابتٌ بِالسَّمْعِ.

إذًا: أصل الجزاء نستطيع أن نثبته بالعقل مع ثبوته بالسمع.

ما معنى أصل الجزاء؟ أي أنه لابد أن يكون هناك حسابٌ وجزاء، لماذا؟ لأن هذا مقتضى حكمة الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، يخلق الناس ويُنزل إليهم الكتب ويرسل إليهم الرسل، يُبين لهم النجدين طريق الخير من طريق الشر، ويكون من شرعه الذي ينزله على الأنبياء والمرسلين الجهاد ودعوة الناس إلى كلمة التوحيد، فمن الناس من يطيع، ومنهم من يأبى، ثم لا يكون جزاء على كل ذلك، هذا خلاف الحكمة.

ولذا قال: إن أصل الجزاء نستطيع أن نثبته بالعقل، وهو واقع بالسمع، نثبته بالعقل كيف؟ لأن الله عَزَّ وَجلَّ حكيم عليم.

حكيم؛ أي: ذو حكمة.

وما الحكمة؟ أن يضع الأمور في مواضعها اللائقة بها سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، ولأن الله عَزَّ وَجلَّ أمر الناس؛ ولذا قال: {أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ} [المؤمنون: 115].

ما معنى {خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا}، أي لا تؤمرون ولا تنهون.

إذًا: هناك أمر ونهي، هناك حلال وحرام، فهذا يستلزم ماذا؟ يستلزم حساب الناس على فعالهم.

هل التزموا الحلال وفعلوه؟ هل تركوا الحرام أم ماذا؟ ولذا -كما قلنا-: هذا يُدلل عليه بالعقل.

ولذا قال الشيخ رَحِمَهُ اللهُ، -أعني شيخ الإسلام ابن تيمية-، قال: واعْلَمْ أَنَّ أَصْلَ الْجَزَاءِ عَلَى الْأَعْمَالِ خَيْرِهَا وَشَرِّهَا ثابتٌ بِالْعَقْلِ كَمَا هُوَ ثابتٌ بِالسَّمْعِ، وَقَدْ نبَّه اللَّهُ الْعُقُولَ إِلَى ذَلِكَ فِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ مِنْ كِتَابِهِ.

وذكر بما هو مستقر في العقول الصحيحة أنه لا يترك الناس سُدى، أو يكونوا خلقوا عبثًا لا يؤمرون ولا ينهون، ولا يثابون ولا يعاقبون، وأن العقول الصحيحة تُنكر ذلك أشد الإنكار، وهذا شيء محسوس متناقل بين الناس بالتواتر الذي لا يقبل الشك، ولا يزال يُري عباده سبحانه آياته في الآفاق وفي أنفسهم ما تبين به الحق لأولي العقول وأولي الألباب.

وأما تفاصيل الجزاء ومقاديره؛ فلا يُدرك إلا بالسمع، والنقول الصحيحة عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى.

ومن الحكمة في محاسبة الخلق على أعمالهم ووزنها وظهورها مكتوبة في الصحف مع إحاطة علم الله بذلك، ليُري عباده كمال حمده وكمال عدله وسعة رحمته وعظمة مُلكه؛ ولهذا قال: {مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ} [الفاتحة: 4]، مع أن ملكه عام لهذا اليوم وغيره.

لكن لماذا خص يوم الدين بالذكر؟ ليُبين أنه لابد من الجزاء.

فقال الهراس رَحِمَهُ اللهُ: فَاعْلَمْ أَنَّ أَصْلَ الْجَزَاءِ عَلَى الْأَعْمَالِ خَيْرِهَا وَشَرِّهَا ثابتٌ بِالْعَقْلِ كَمَا هُوَ ثابتٌ بِالسَّمْعِ، وَقَدْ نبَّه اللَّهُ الْعُقُولَ إِلَى ذَلِكَ فِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ مِنْ كِتَابِهِ؛ مِثْلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: {أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ}.

أي: لا تؤمرون ولا تُنهون؛ ولذا قال بعدها: {فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ} [المؤمنون: 116].

ما معنى تعالى الله؟ أي: تنزه عن هذا الاعتقاد وهذا الظن؛ أن يخلق الناس هكذا دون أمر أو نهي، ودون حساب في الآخرة.

وقال تعالى: {أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى} [القيامة: 36], أي: لا يؤمر ولا يُنهى.

والسؤال في هذه الآية وفي الآية التي قبلها يُراد به ماذا؟ يُراد به النفي، نفي هذا الظن ونفي هذا الحسبان، وأنه لن يكون، لماذا لا يكون؟ أجاب الهراس رحمه الله:

قال الشيخ الهراس: فَإِنَّهُ لَا يَلِيقُ فِي حِكْمَةِ الْحَكِيمِ أَنْ يَتْرُكَ النَّاسَ سُدًى مهمَلين، وَلَا يُؤْمَرُونَ، وَلَا يُنْهَون، وَلَا يُثابون وَلَا يُعاقبون؛ كَمَا لَا يَلِيقُ بِعَدْلِهِ وَحِكْمَتِهِ أَنْ يُسَوِّيَ بَيْنَ الْمُؤْمِنِ وَالْكَافِرِ، وَالْبَرِّ وَالْفَاجِرِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: {أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ} [ص: 28].

هذا المذكور في هذه الآية لازم لاعتقاد عدم وجود جزاء في الآخرة، فالذي يعتقد أنه لا جزاء في الآخرة يلزم من قوله واعتقاده أن يسوي الله بين الذين آمنوا وعملوا الصالحات وبين المفسدين في الأرض والفجار.

هذا يلزم منه ولابد؛ لأن الذي آمن وعمل صالحًا ما جزاؤه في الآخرة؟ ليس هناك جزاء.

هذا الذي فجر وأفسد في الأرض ما جزاؤه في الآخرة؟ ليس هناك جزاء.

إذًا: استوى كلا الفريقين، وهذا خلاف حكمة الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

قال: فَإِنَّ الْعُقُولَ الصَّحِيحَةَ تَأْبَى ذَلِكَ وَتُنْكِرُهُ أشدَّ الْإِنْكَارِ.

قال: وَكَذَلِكَ نبَّهَهُم اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ بِمَا أَوْقَعَهُ مِنْ أَيَّامِهِ فِي الدُّنْيَا مِنْ إِكْرَامِ الطَّائِعِينَ، وَخِذْلَانِ الطَّاغِينَ.

وَأَمَّا تَفَاصِيلُ الْأَجْزِيَةِ وَمَقادِيرُهَا؛ فَلاَ يُدْرَكُ إِلَّا بِالسَّمْعِ.

ولذا ميزان الآخرة وتطاير الصحف وأخذ الصحف باليمين أو بالشمال، وكذلك المرور على الصراط، هذا كله لا يُدرك إلا بالسمع.

ما المراد بالسمع؟ أي: بالمأثور عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من قرآن وسنة.

قال: فَلاَ يُدْرَكُ إِلَّا بِالسَّمْعِ وَالنُّقُولِ الصَّحِيحَةِ عَنِ الْمَعْصُومِ الَّذِي لَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلاَمُهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ.

هذا المبحث -وهو مبحث الجنة والنار- أصبح من الأمور النادرة التي يتذكرها الناس, يقرؤون عنها, أو يسمعونها، أو تطرق آذانهم في خطب الجمعة؛ ولذا قست القلوب -نسأل الله السلامة والعافية-.

فإن هذا مما يُحيي القلوب؛ أن يكون المرء على ذُكرٍ من الجنة والنار، هكذا قال حنظلة، قال: يا رسول الله نكون عندك فتذكرنا الجنة والنار كأنها رأي عين، حتى إذا خرجنا من عندك وعافسنا الزوجات والأولاد والضيعات نسينا، ما الذي يترتب على هذا النسيان؟

تقسو القلوب؛ ولذا في صدر الحديث ماذا قال حنظلة رَضِي اللهُ عَنْهُ لأبي بكر؟ قال: نافق حنظلة، -هو لم ينافق قطعًا رضي الله عنه- لكن النفاق مرده إلى القلب؛ لأن المنافق يقول ما لا يعتقد، ويفعل ما لا يعتقد.

فمعنى قوله رَضِي اللهُ عَنْهُ: نافق حنظلة؛ أي: أنه يشعر بقسوة قلبه؛ ولذا كما قلنا: ذكر الجنة والنار مما تلين به القلوب وترق وتعود إلى الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى؛ ولذا سنخصص حديثنا اليوم عن الجنة والنار.

فنقول أولًا: الجنة حق، والنار حق، مخلوقتان الآن؛ كما دل على ذلك كتاب الله وسنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

أين الجنة؟ الجنة في السماء، وهذا الذي دل عليه كتاب الله وسنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن الجنة في السماء؛ قال الله تعالى: {وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى (13) عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى (14) عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى} [النجم: 13-15].

رأى من؟ رأى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جبريل عند سدرة المنتهى، وأين سدرة المنتهى؟ في السماء، ما الذي عند سدرة المنتهى؟ قال: {عِنْدَهَا}؛ و(عند): ظرفية, ظرف مكان، {عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى}.

وقال تعالى: {وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ} [الذاريات: 22]، قال ابن عباس: {وَمَا تُوعَدُونَ}؛ يعني: الجنة، {وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ}؛ في الدنيا، {وَمَا تُوعَدُونَ}؛ في الآخرة؛ أي: الجنة.

وهذا قاله كذلك غير واحد من المفسرين.

وقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -كما في الصحيحين-: "الْجَنَّةِ مِائَةُ دَرَجَةٍ مَا بَيْنَ كُلِّ دَرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ"؛ وهذا يدل على أن الجنة في غاية العلو والارتفاع، وإنما يكون العلو إلى أعلى، وهذا يدل على أنها في السماء.

وأصرح من ذلك في حديث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قوله: "إِذَا سَأَلْتُمْ اللَّهَ فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ"، يعني لا تقل: اللهم ارزقني الجنة، ولكن الأولى أن تقول: (اللهم ارزقني الفردوس الأعلى)؛ فإنه أوسط الجنة, وأعلى الجنة, وفوقه عرش الرحمن, ومنه تفجر أنهار الجنة.

وأين عرش الرحمن؟ في السماء، {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} [طه: 5]، وعرشه فوق السماء السابعة، فإذا كان سقف الجنة عرش الرحمن؛ دل ذلك على أن الجنة في السماء.

وكذلك قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -كما في الصحيحين- من حديث أبي سعيد الخدري، قال: "إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ يَتَرَاءَوْنَ أَهْلَ الْغُرَفِ مِنْ فَوْقِهِمْ، كَمَا تتراءون الْكَوْكَبَ الدُّرِّيَّ الْغَابِرَ فِي الْأُفُقِ، مِنَ الْمَشْرِقِ أَوِ الْمَغْرِبِ، لِتَفَاضُلِ مَا بَيْنَهُمْ".

أهل الجنة في منازلهم يرون منازل غيرهم ممن فاقوهم في الدرجات بسبب الأعمال وبسبب كمال الإيمان.

قال الصحابة: يَا رَسُولَ اللَّهِ تِلْكَ مَنَازِلُ الْأَنْبِيَاءِ لَا يَبْلُغُهَا غَيْرُهُمْ؛ يعني: هذه التي ذكرت يا رسول الله من هذا الوصف: "كَمَا تتراءون الْكَوْكَبَ الدُّرِّيَّ الْغَابِرَ فِي الْأُفُقِ، مِنَ الْمَشْرِقِ أَوِ الْمَغْرِبِ، لِتَفَاضُلِ مَا بَيْنَهُمْ"، قالوا الصحابة: يَا رَسُولَ اللَّهِ تِلْكَ مَنَازِلُ الْأَنْبِيَاءِ لَا يَبْلُغُهَا غَيْرُهُمْ.

قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "بَلَى، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، رِجَالٌ آمَنُوا بِاللَّهِ وَصَدَّقُوا الْمُرْسَلِينَ"؛ أي: قد يبلغ هذه المنازل رجال ليسوا بأنبياء ولا مرسلين، وإنما كمُل إيمانهم وتصديقهم بالمرسلين، إلى غير ذلك مما يدل على أن الجنة في السماء.

ماذا عن النار؟ أين النار؟ جمهور أهل العلم على أن النار في الأرض.

ومما يدل على ذلك: قول الله تعالى: {النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ} [غافر: 46].

{النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا}.

هذا في الدنيا. هذا العرض في الأرض أم في السماء؟ في الأرض، لماذا ليس في السماء؟

لأن الله عَزَّ وَجلَّ قال في سورة الأعراف: {إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ} [الأعراف: 40].

إذًا: أرواحهم لا تصعد إلى السماء.

أين يكون هذا العذاب غدوًا وعشيًا؟ يكون في الأرض.

ويدل على ذلك أيضًا: ما جاء في صحيح الجامع من حديث البراء بن عازب -وهو الحديث المشهور في فتنة القبر وامتحان الخلق- يقول الله عَزَّ وَجلَّ في عذاب الكافر والمنافق والمرتاب بعد أن تُرد روحه ولا تُفتح له أبواب السماء، يقول الله عَزَّ وَجلَّ: "اكْتُبُوا كِتَابَهُ فِي سِجِّينٍ فِي الْأَرْضِ السُّفْلَى".

ماذا كان عن كتاب الأبرار؟ {إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ} [المطففين: 18]؛ فهذا يدل على أن النار في الأرض السفلى؛ ولذا -كما قلنا-: جمهور أهل العلم على أن النار في الأرض ، لكنهم اختلفوا أين هي؟

منهم من قال: في الأرض السفلى.

ومنهم من قال: هي هذه البحار، أي: أسفل البحار، {وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ} [التكوير: 6]؛ لأن النار تحتها -نسأل الله السلامة والعافية-.

هل الجنة موجودة الآن؟ أجل هي موجودة الآن، وقد خالف في ذلك المعتزلة، هم يؤمنون بالجنة والنار، لكن يقولون: ذلك لن يكون إلا يوم القيامة، خلقها لن يكون إلا يوم القيامة؛ لأن خلقها الآن مع عدم وجود ساكنيها نوع من عدم الحكمة -هكذا يقولون- والعبث.

لكن نقول: إن الجنة والنار فيها الآن من خلق الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى كما جاء الدليل بذلك، فالجنة فيها الولدان المخلدون، وفيها الملائكة، وفيها أرواح الصالحين وأرواح الأنبياء والمرسلين والشهداء، والنار كذلك فيها أرواح الأشقياء؛ كما قال الله عَزَّ وَجلَّ: {النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا}.

ودل على وجود الجنة والنار آيات كثيرة؛ قال الله عَزَّ وَجلَّ: {وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ} [آل عمران: 133]، {أُعِدَّتْ}؛ هذا يدل على وجودها الآن.

وقال الله عَزَّ وَجلَّ: {أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ} [التوبة: 89]، {أَعَدَّ}؛ وهذا يدل على وجودها.

ودل على ذلك أيضًا: ما ذكره الله عَزَّ وَجلَّ في قصة آدم وحواء عليهما السلام: {وَقُلْنَا يَاآدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ} [البقرة: 35].

والصحيح: أن الجنة جنة السماء وليست جنة في الأرض؛ وقد ذكر ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ في حادي الأرواح خلافًا في الجنة التي أُهبط منها آدم، فذكر أن أناسًا يقولون: إن الجنة التي خرج منها آدم جنة في الأرض، بستان من بساتين الأرض، وذكر أدلة هؤلاء، لكن هذا منسوب لبعض المتكلمين وليس هو قول أهل السنة والجماعة، فأهل السنة والجماعة على أن الجنة في السماء، الجنة التي أُهبط منها آدم هي جنة السماء.

ودل على ذلك أيضًا: ما قيل للرجل الذي جاء من أقصى المدينة يسعى، {قَالَ يَاقَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (20) اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ} [يس: 20-21].

قال الله عَزَّ وَجلَّ: {قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَالَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (26) بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ} [يس: 26-27].

وأما سنة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ ففيها حديث الإسراء في الصحيحين، قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "ثُمَّ انْطَلَقَ بِي جِبْرِيلُ حَتَّى نَأْتِيَ سِدْرَةَ الْمُنْتَهَى،

فَغَشِيَهَا أَلْوَانٌ لَا أَدْرِي مَا هِيَ؟ قَالَ: ثُمَّ أُدْخِلْتُ الجَنَّةَ، فَإِذَا فِيهَا جَنَابِذُ اللُّؤْلُؤِ، وَإِذَا تُرَابُهَا المِسْكُ".

أسأل الله عَزَّ وَجلَّ أن يجعلنا وإياكم من أهل النعيم المقيم في الآخرة.

وكذلك جاء عند البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رَضِي اللهُ عَنْهُ, أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: "مَرَّ رَجُلٌ بِغُصْنِ شَجَرَةٍ عَلَى ظَهْرِ طَرِيقٍ فَقَالَ: وَاللهِ لَأُنَحِّيَنَّ هَذَا عَنِ المُسْلِمِينَ لَا يُؤْذِيهِمْ فَأُدْخِلَ الجَنَّةَ"، فهذا من الأعمال التي تكون سببًا في دخول الجنة؛ عدم أذية المسلمين.

فإذا كان هذا الرجل نحى غصنًا من طريق المسلمين فكان سببًا في دخول الجنة، فكيف بمن يُنحي ما هو أعلى من ذلك عن المسلمين ويدفع عنهم الأذى؟

وكذلك قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -كما في الصحيحين- من حديث ابن عمر، قال: "إِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا مَاتَ، عُرِضَ عَلَيْهِ مَقْعَدُهُ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ، إِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ فَمِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ".

"ومن مات فقد قامت قيامته"، إذا مت ودُفنت في قبرك وأجبت الملكين وكنت من أهل الجنة؛ يُعرض عليك مقعدك في الجنة صباح مساء لتستبشر؛ ؛ أنه يرى النعيم الذي ينتظره.

قال: "إِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ فَمِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ، وَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَمِنْ أَهْلِ النَّارِ"، يُعرض عليه مقعده كذلك بالغداة والعشي، فيقال: هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة.

وجاء في حديث الكسوف عند البخاري ومسلم أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: "رَأَيْتُ الجَنَّةَ، وَتَنَاوَلْتُ عُنْقُوداً؛ وَلَوْ أَصَبْتُهُ لَأَكَلْتُمْ مِنْهُ مَا بَقِيَتِ الدُّنْيَا، وَأُرِيتُ النَّارَ؛ فَلَمْ أَرَ مَنْظَراً كَاليَوْمِ قَطُّ أَفْظَعَ"، أي: أفظع من النار.

فقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "وَتَنَاوَلْتُ عُنْقُوداً؛ وَلَوْ أَصَبْتُهُ لَأَكَلْتُمْ مِنْهُ مَا بَقِيَتِ الدُّنْيَا"؛ هذا دليل على قول ابن عباس رَضِي اللهُ عَنْهُ: "ما في الدنيا من الجنة إلا الأسماء".

الجنة فيها عنب، عناقيد عنب، والدنيا فيها عناقيد عنب، لكن شتان ما بين عنقود الجنة وعنقود الدنيا، الاشتراك في الاسم فقط، وأما الطعم واللون والرائحة وغير ذلك فشتان ما بينهما.

وفي حديث أبي هريرة رَضِي اللهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال لما خلق الله الجنة والنار أرسل جبريل إلى الجنة، فقال: "انْظُرْ إِلَيْهَا وَإِلَى مَا أَعْدَدْتُ لِأَهْلِهَا فِيهَا"، أسأل الله عَزَّ وَجلَّ أن يجعلنا وإياكم من أهلها.

ويقول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: "أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ"، أَعْدَدْتُ؛ هذا يدل على وجودها الآن، "مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ"، نسأل الله عَزَّ وَجلَّ أن يجعلنا من هؤلاء.

وكذلك جاء في الصحيحين من حديث أبي هريرة رَضِي اللهُ عَنْهُ, أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: "تَحَاجَّتِ الجَنَّةُ وَالنَّارُ"، ولو لم تكن موجودة لم يقع هذا التحاج، أي المخاصمة.

"فَقَالَتِ النَّارُ: أُوثِرْتُ بِالْمُتَكَبِّرِينَ وَالْمُتَجَبِّرِينَ، وَقَالَتِ الجَنَّةُ: مَا لِي لَا يَدْخُلُنِي إِلَّا ضُعَفَاءُ النَّاسِ وَسَقَطُهُمْ".

إلى غير ذلك من الأدلة التي تدل على وجود الجنة والنار.

هل تفنى الجنة ؟ هل سيأتي عليها يوم تفنى لا يبقى فيها نعيم ولا يبقى فيها أهلها؟ وهل النار كذلك؟

فنقول: الذي عليه اعتقاد أهل الإسلام أن الجنة والنار لا تفنيان أبدًا.

ولذا يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ في درء تعارض العقل والنقل قال: وقال أهل الإسلام جميعًا: ليس للجنة والنار آخر؛ ولذا يقول الله عَزَّ وَجلَّ: {خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا}، وأنهما لا تزالان باقيتين، وكذلك أهل الجنة لا يزالون في نعيم الجنة.

أو قال: لا يزالون في الجنة يتنعمون، وأهل النار في النار يعذبون؛ فهذا يدل على دوام نعيم الجنة وعذاب النار.

وقال كذلك في بيان تلبيس الجهمية: وقد اتفق سلف الأمة وأئمتها وسائر أهل السنة والجماعة على أن من المخلوقات ما لا يُعدم ولا يفنى بالكلية؛ كالجنة والنار والعرش وغير ذلك، ولم يقل بفناء جميع المخلوقات إلا طائفة من أهل الكلام المبتدعين، كالجهم بن صفوان ومن وافقه من المعتزلة ونحوهم.

قال: وهو قول باطل يخالف كتاب الله وسنة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإجماع سلف الأمة وأئمتهم.

هذه النقول عن شيخ الإسلام ابن تيمية ترد ترد على من اتهم شيخ الإسلام ابن تيمية بأنه يقول: بأن النار تفنى، وهذا يدندن عليه أهل الباطل من الصوفية المعطلة في هذا الزمان.

إذا أرادوا أن يُكفِّروا شيخ الإسلام ابن تيمية يقولون: إنه كان يقول بفناء النار، وهذا باطل ولم يصدر عن شيخ الإسلام ابن تيمية، وقد ذكرنا نقلين عنه يدلان على كذب ذلك عليه رَحِمَهُ اللهُ.

والدليل على أن الجنة باقية لا تفنى أبدًا: قول الله تعالى: {أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا} [الرعد: 35]؛ أي: وظلها دائم، ومعنى (دائم) أي: أنه لا ينقطع.

وقوله تعالى: {وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ} [الحجر: 48].

قال الله عَزَّ وَجلَّ عن أهل الجنة:

{لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ}.

وقال: {عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ} [هود: 108]، ما معنى {غَيْرَ مَجْذُوذٍ}؟ أي: غير مقطوع، عطاءٌ دائم لا ينفذ.

وقال الله عَزَّ وَجلَّ: {جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا} [مريم: 61].

أين الدليل في هذه الآية؟

قوله تعالى: {جَنَّاتِ عَدْنٍ}؛ أي: جنات إقامة يقال: عَدَنَ بالمكان؛ أي: أقام فيه، فهذا يدل على إقامتهم في الجنة وأنها لا تفنى.

وقال الله عَزَّ وَجلَّ: {لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى} [الدخان: 56]، التي يكون بعدها فتنة القبر والحساب ودخول الجنة.

وقال: {جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ} [طه: 76]، عرفنا معنى كلمة عدن.

وقال: {لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ} [فصلت: 8]؛ أي: غير مقطوع.

وقال: {خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا}.

وقال: {إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ} [ص: 54].

وهذا كله يدل على بقاء الجنة، إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة جدًا في كتاب الله التي فيها هذا الوعد العظيم الذي جعله الله عَزَّ وَجلَّ لعباده المؤمنين.

وأما سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فقد جاء عن أبي هريرة رَضِي اللهُ عَنْهُ, أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: "مَنْ يَدْخُلِ الْجَنَّةَ يَنْعَمُ لَا يَبْأَسُ، لَا تَبْلَى ثِيَابُهُ وَلَا يَفْنَى شَبَابُهُ"؛ وهذا يدل على خلود أهل الجنة فيها، إذ لو فني الشباب لفني أهل الجنة، وإذا فني أهل الجنة فهذا يستلزم فناء الجنة؛ لأنها دار نعيم هؤلاء.

لكن لما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "وَلَا يَفْنَى شَبَابُهُ"؛ كان من لازم ذلك بقاء الجنة.

وجاء كذلك عند مسلم أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: "يُنَادِي مُنَادٍ: إِنَّ لَكُمْ أَنْ تَصِحُّوا فَلاَ تَسْقَمُوا أَبَدًا"؛ وهذا يدل على بقائهم أبدًا وأنهم لا يموتون.

"وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَحْيَوْا فَلاَ تَمُوتُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَشِبُّوا فَلاَ تَهْرَمُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَنْعَمُوا فَلاَ تَبْتَئِسُوا أَبَدًا".

وجاء كذلك أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال وهذا عند الترمذي والدارمي من حديث أبي هريرة وحسنه الألباني، قال: "أَهْلُ الجَنَّةِ جُرْدٌ مُرْدٌ كُحْلٌ، لا يَفْنى شَبابُهُمْ ولا تَبلَى ثِيابُهم"، أي: لا شعر على أجسادهم.

مُرْدٌ؛ أي: لا شعر على ذقنهم.

وهذا يعني أن أحوال الآخرة قد تخالف أحوال الدنيا.

أنت منهي عن شرب الخمر في الدنيا، ومع ذلك هي من نعيم أهل الجنة، منهي عن لبس الحرير في الدنيا، والحرير من نعيم أهل الجنة، فأهل الجنة إذا دخلوا الجنة كانوا مُردًا.

وهذا يدل على أن اللحية في الدنيا تكليف؛ ولذا جاء الأمر بها في سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: "لا يَفْنى شَبابُهمْ ولا تَبْلَى ثِيابُهُمْ"

وجاء كذلك عن جابر قال: سأل رجلٌ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: يا رسول الله أينام أهل الجنة؟ فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "النَّوْمُ أَخُو الْمَوْتِ وَأَهْلُ الْجَنَّةِ لَا يَنَامُونَ"، إذًا: أهل الجنة لا ينامون.

كيف لا ينام؟ ألا يشعر بفتور الجسد وحاجته إلى الراحة؟

نقول: هذا لا يكون في الجنة، الأجساد غير الأجساد، والحالات والهيئات غير الحالات والهيئات؛ ولذا الجنة كلها نعيم، كل ما يقطعك عن النعيم؛ فإنه لا يكون في الجنة؛ لأنك لو نمت لانقطعت عن النعيم؛ فلا تنام في الجنة.

لو أردت الخلاء لانقطعت عن النعيم؛ ولذا أهل الجنة لا يبولون ولا يتغوطون ولا يهرمون ولا يسقمون، لماذا؟ لأن كل ذلك يقطعك عن النعيم.

فكيف يستبدل المرء الأدنى بالذي هو خير؟ كيف يستبدل الدنيا بالآخرة؟ كيف يستبدل نعيمًا زائلاً بنعيم باق لا يفنى ولا يبيد؟

ولذا نقول: ذكر الجنة والنار مما يحمل العبد على الزهد في هذه الحياة الدنيا وعلى تركها لأهلها، من نافسك في دنياك -كما يقول الحسن البصري- فألقها في نحره، لا قيمة لها، وإنما الشأن كل الشأن أن يكون لك حظ ونصيب عظيم في الآخرة -أسأل الله عَزَّ وَجلَّ أن يجعلنا من هؤلاء-.

ومما يدل كذلك على بقاء الجنة وأنها لا تبلى: قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -كما عند البخاري-: "يُؤْتَى بِالْمَوْتِ فِي صُورَةِ كَبْشٌ أَمْلَحُ فَيُوقَفُ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ ثُمَّ يُذْبَحُ ثُمَّ يُقَالُ يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ خُلُودٌ فَلاَ مَوْتَ وَيَا أَهْلَ النَّارِ خُلُودٌ فَلاَ مَوْتَ"، وهذا يدل على ماذا؟

على أن الموت شيء موجود وليس عدمًا خلافًا للفلاسفة؛ ولذا يقول الله عَزَّ وَجلَّ: {الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ} [الملك: 2]، فكما أن الحياة مخلوقة فكذلك الموت مخلوق، {لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً}.

إلى غير ذلك من الأدلة.

وأما النار؛ فهي كذلك موجودة لا تفنى، وأعني بالنار التي لا تفنى ولا تبيد نار الكافرين والمشركين.

يأتي وصفهم في كتاب الله بأنهم أصحاب النار، أي: أهلها الملازمون لها؛ لأن الصحبة تقتضي طول الملازمة، فهذه النار لا تفنى ولا تبيد, بخلاف نار الموحدين؛ فإنها لابد أن تفنى يومًا ما؛ لأنه لا يبقى فيها أحد، كل موحد لابد أن تنفعه كلمة التوحيد يومًا ما حتى ولو دخل النار، حتى ولو طال مكثه في النار، لابد أن يخرج من النار.

حتى الذي يقتل مسلمًا متعمدًا – على الراجح-، والذي يقتل نفسه بحديدة، والذي يتردى من شاهق، أو يقتل نفسه بالسُم، ما الوعيد الذي جاء في حقه؟ يُعذب فيها، جاء في بعض الألفاظ: "خالدًا فيها أبدًا"؛ والمراد بذلك إن لم يغفر له، فهذا يدل على طول مكثه في النار، ولكن هل يخرج منها بعد ذلك أم لا يخرج؟ لابد أن تنفعه كلمة التوحيد يومًا ما، ولابد أن يخرج من النار إلى الجنة.

ولذا من الخطأ أن يعتقد بعض الناس أن قاتل نفسه كافر. إذا انتحر فلان تجد بعضهم لا يصلي عليه، أو يقول: هو كافر، نقول: ليس بكافر؛ لأنه الذي يفعل ذلك في الغالب يكون جاهلا، يكون إيمانه ضعيف.

أي لا يستحل ذلك، ضاقت به الدنيا فقتل نفسه، فهذا إن عذبه الله عَزَّ وَجلَّ بالنار وطال مكثه فيها؛ فلابد أن يخرج منها.

وأما نار الكافرين؛ فهذه التي لا تفنى ولا تبيد، ودل على ذلك قول الله تعالى: {فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ} [البقرة: 24]، هذا يدل على وجودها.

وكذلك قال: {النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا}.

وقال: {وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ} [الملك: 5].

وقال: {وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا} [الفتح: 6]؛ هذا يدل على وجودها الآن.

وأما سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فمنها قوله: "اشْتَكَتِ النَّارُ إِلَى رَبِّهَا، فَقَالَتْ: رَبِّ أَكَلَ بَعْضِي بَعْضًا، فَأَذِنَ لَهَا بِنَفَسَيْنِ: نَفَسٍ فِي الشِّتَاءِ وَنَفَسٍ فِي الصَّيْفِ، فَأَشَدُّ مَا تَجِدُونَ مِنَ الْحَرِّ، وَأَشَدُّ مَا تَجِدُونَ مِنَ الزَّمْهَرِيرِ"؛ يعني: من نفس جهنم.

وكذلك ما جاء عند مسلم من حديث عائشة: "أَنَّ اللهَ خَلَقَ الْجَنَّةَ، وَخَلَقَ النَّارَ فَخَلَقَ لِهَذِهِ أَهْلاً، وَلِهَذِهِ أَهْلاً".

وأما الدليل على عدم فنائها: قول الله عَزَّ وَجلَّ: {إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (74) لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ} [الزخرف: 74-75].

وكذلك قوله: {وَنَادَوْا يَامَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ} [الزخرف: 77]؛ أي: باقون في النار.

وقال تعالى: {مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا} [الإسراء: 97]، ما معنى {كُلَّمَا خَبَتْ}؟ يعني: كلما ضعُفت نارها زادها الله عَزَّ وَجلَّ سعيرًا.

وكذلك قال الله عَزَّ وَجلَّ: {الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى (12) ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى} [الأعلى: 12-13].

وقوله تعالى: {إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا} [الفرقان: 65]، ما معنى {كَانَ غَرَامًا}؟ يعني: كان دائمًا لازمًا ملازمًا لهم لا ينفك عنهم.

وكذلك قوله تعالى: {وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ} [البقرة: 167].

وقوله: {وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ} [المائدة: 37].

وقوله: {لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا} [فاطر: 36].

وقوله: {خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا}، إلى غير ذلك من الآيات، والأحاديث كالأحاديث التي ذكرناها قبل ذلك.

سبق أن بيَّنا أن شيخ الإسلام ابن تيمية لم يقل إن النار تفنى وتبيد، وهذا النقل كذب عليه.

ماذا عن تلميذه ابن القيم؟ الكلام الآن عن نار المشركين، عن نار المتجبرين الكافرين.

ابن القيم له في هذه المسألة ثلاثة أقوال:

- القول الأول: وهو ما ذكره في حادي الأرواح وشفاء العليل، وهو القول بفنائها، يقول: إن النار الكبرى تفنى في الآخرة.

ومن ذلك قوله في حادي الأرواح: لا ريب أن القول بفنائهما -يعني: الجنة والنار- قول أهل البدع من الجهمية والمعتزلة.

أي الذي يقول بفناء الجنة والنار معًا، قال: وهذا القول لم يقله أحد من الصحابة ولا التابعين ولا أحد من أئمة المسلمين.

قال: وأما فناء النار وحدها - هذا قاله بعد أن ذكر الأدلة- فقد أوجدناكم من قال به من الصحابة وتفريقهم بين الجنة والنار، فكيف يكون القول به من أقوال أهل البدع.

يريد أن يقول رحمه الله: إن القول بفناء النار في الآخرة هذا ليس قولًا لأهل البدع، ولكن هذا منقول عن بعض الصحابة والتابعين، فله حظ من النظر.

واستدل على ذلك بأدلة غير صريحة، ومن ذلك قول الله تعالى: {فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ (106) خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ} [هود: 106-107].

قال: لما ذكر الله عَزَّ وَجلَّ خلود أهل الجنة، قال: {عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ} [هود: 108]؛ أي غير منقطع.

ولما ذكر عذاب أهل النار قال: {خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ}.

فلما قابل هذا بذاك؛ دل ذلك على أن نار المشركين قد تفنى يومًا ما.

واستدلوا كذلك بقول الله عَزَّ وَجلَّ: {لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا} [النبأ: 23].

والأحقاب: مدد من الأزمان؛ فدل ذلك على أنه إن انقضت هذه الأحقاب فنيت نار المشركين؛ هذا يدل على عدم دوامها.

لكن هذه الأدلة رد عليها أهل السنة والجماعة، ورد عليها من قال بدوام نار المشركين، هذا هو القول الأول له.

- القول الثاني: وهو التوقف في المسألة.

فبعد أن ذكر رحمه الله دليل الفريقين توقف في المسألة؛ فلم يقطع بدوامها أو فنائها، وهذا مذكور في الصواعق المرسلة.

- القول الثالث وهذا هو آخر أقواله -كما رجح ذلك بعض أهل العلم-؛ لأنه مذكور في آخر كتبه: وهو أنها لا تفنى ولا تبيد.

وهو المنصوص عليه في الوابل الصيب ، وكذلك في طريق الهجرتين، وهذا آخر ما انتهى إليه ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ, وهو الموافق لكتاب الله وسنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وما عليه أهل السنة والجماعة.

فهذه الأدلة التي ذكرناها فيها خلود أهل النار الذين هم أهلها فيها وأنهم لا يموتون ، وهذا يدل على أن النار لا تفنى.

ثم قال المصنف بعد ذلك: وَتُؤْمِنُ الْفِرْقَةُ النَّاجِيَةُ - أَهْلُ السُّنَّة وَالْجَمَاعَةِ - بِالْقَدَرِ: خَيْرِهِ وَشَرِّهِ.

هذا آخر أصل من أصول الإيمان وأركانه، فأركان الإيمان: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله وباليوم الآخر وبالقدر خيره وشره.

فهذا آخر أركان الإيمان التي سيذكرها المصنف رَحِمَهُ اللهُ ويطيل النفس فيها وفي مراتبها؛ لأن كل مرتبة من هذه المراتب خالف فيها قومٌ أهلَ السنة والجماعة، فهذا نُرجئه إن شاء الله للدرس القادم.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم، وجزاكم الله خيرًا.

الدرس الثاني والأربعون

إن الحمد لله, نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله تعالى من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله, صلى الله عليه, وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد: فقد وصلنا إلى قول المصنف رَحِمَهُ اللهُ:

وَتُؤْمِنُ الْفِرْقَةُ النَّاجِيَةُ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ.

هذا آخر ركن من أركان الإيمان؛ وهو الإيمان بالقضاء والقدر.

وهو ركن عظيم؛ ولذا خصه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالذكر في أركان الإيمان, مع أنه يدخل في توحيد الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى وفي الإيمان بأسمائه وصفاته؛ لأن التقدير صفة لله عَزَّ وَجلَّ, ولأن القضاء كذلك صفة من صفات الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

والله عَزَّ وَجلَّ من أسمائه القادر والمقتدر، ومع ذلك خصه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الذكر لما سُئل عن أركان الإيمان وذلك لأهميته في حياة المسلم؛ لأنه لا يكتمل إيمانه إلا بالجمع بين القدر والشرع.

القدر مداره كما سنعلم على مراتب أربعة، ولا يكتمل إيمان العبد المؤمن إلا بأن يجمع بين هذه المراتب الأربعة وهي: العلم والكتابة والمشيئة والخلق، وبين الشرع الذي هو الأمر والنهي، فلا يركن إلى القدر ليعارض بذلك الشرع، ولا يركن إلى الشرع، أي: إلى الأمر والنهي ليعارض القدر.

ولذا ذكره المصنف رَحِمَهُ اللهُ هاهنا بناءً على ما جاء في حديث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

والخوض في القدر قد جاء النهي عنه، والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: "إِذَا ذُكِرَ الْقَدَرُ فَأَمْسِكُوا"، ومع ذلك لا يكاد كتاب من كتب الاعتقاد عند أهل السنة والجماعة يخلو من ذكر مباحث القدر ومن الرد على المخالفين.

وليس في ذلك معارضة لنهي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولأمره بالإمساك عن القدر، لماذا؟

- لأن الله عَزَّ وَجلَّ ذكر القدر في كتابه وأمر بالإيمان به
- والآيات التي في كتاب الله تدخل في أمره بتدبر القرآن: {أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا} [النساء: 82].

فكل آية في كتاب الله تحتاج إلى التدبر، فمن أخرج الآيات التي اشتملت على القدر فلابد أن يأتي بالدليل.

- ثم إن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما نهى عن الخوض في القدر وأمر بالإمساك عنه إنما أراد الخوض بالباطل؛ كالاحتجاج بالقدر على فعل المعصية، أو الاحتجاج بالقدر على ترك الشرع، فنهى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن ذلك.
- أو نهى أن يُخاض في القدر على سبيل المعارضة كما كان حال إبليس؛ لأن إبليس عارض سجوده لآدم عليه السلام محتجًا بالقدر، فهذا هو الذي يصدُق عليه حديث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

- ما زال أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يتكلمون في مسائل القدر، بل كان بعض التابعين يختبر غيره في القدر ليُحرز عقله، وليرى هل آمن بالقدر على الوجه الصحيح أم لا؟

فعن أبي الأسود الديلي، قال: قال لي عمران بن الحصين: أرأيت ما يعمل الناس اليوم، ويكدحون فيه، أشيء قضي عليهم، ومضى عليهم من قدر ما سبق؟ أو فيما يستقبلون به مما أتاهم به نبيهم، وثبتت الحجة عليهم؟ فقلت: بل شيء قضي عليهم، ومضى عليهم، قال: فقال: أفلا يكون ظلما؟ قال: ففزعت من ذلك فزعا شديدا، وقلت: كل شيء خلق الله، وملك يده، فلا يسأل عما يفعل وهم يسألون، فقال لي: يرحمك الله، إني لم أرد بما سألتك إلا لأحزر عقلك؛

﴿إن رجلين من مزينة أتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالا: يا رسول الله، أرأيت ما يعمل الناس اليوم، ويكدحون فيه، أشيء قضي عليهم، ومضى فيهم من قدر قد سبق، أو فيما يستقبلون به مما أتاهم به نبيهم، وثبتت الحجة عليهم؟ فقال: لا، بل شيء قضي عليهم، ومضى فيهم، وتصديق ذلك في كتاب الله، عز وجل: (ونفس وما سواها. فألهمها فجورها وتقواها)﴾

إذًا: لا معارضة بين نهي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الخوض في القدر وعن ذكر هذه المباحث في كتب الاعتقاد عند أهل السنة والجماعة.

فقال رَحِمَهُ اللهُ: وَتُؤْمِنُ الْفِرْقَةُ النَّاجِيَةُ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ.

هذه ألقاب لأهل السنة والجماعة, الفرقة الناجية؛ لأنهم تمسكوا بما كان عليه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصحبه، والنجاة لا تكون إلا لمن تمسك بذلك؛ كما جاء في الحديث: "وَسَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَى ثَلاَثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا فِرْقَةً وَاحِدَةً"، قَالُوا: مَنْ هِيَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: "مَنْ كَانَ عَلَى مِثْلِ مَا أَنَا عَلَيْهِ الْيَوْمَ وَأَصْحَابِي".

وهي الجماعة، جماعة الاعتقاد؛ يجمعهم اعتقاد واحد، وجماعة الأبدان؛ لأنهم لا يتفرقون يتمسكون بكتاب الله وسنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويجتمعون على من ولاه الله عَزَّ وَجلَّ عليهم في العسر واليسر والمنشط والمكره.

وهم كذلك أهل السنة والجماعة؛ لأنهم سلكوا سبيل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذا معنى السنة؛ الطريقة المسلوكة التي سلكها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهم الجماعة كذلك.

ولذا لا يتفرقون ولا تجدهم فرقًا ولا أحزابًا، بخلاف غيرهم من أهل البدع؛ فإنهم أحزاب وفرق شتى، {كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ} [المؤمنون: 53].

وهم كذلك أهل الحديث والأثر، وهم كذلك الطائفة المنصورة التي لا تزال ظاهرة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وظهورهم دائم مستمر بالحجة والبرهان؛ فهم دائمًا ظاهرون بالحجة والبرهان، وإن لم يكن دائمًا في بعض الأعصار بالسيف والسنان.

أهل السنة والجماعة قد تجدهم في أوقات معينة ضعفاء من جهة التمكين في الأرض، تجدهم مستضعفين يتسلط عليهم أعداؤهم من أهل البدع، لا تجد لهم شوكة في الأرض.

وأما حجتهم؛ فدائمًا ظاهرة قاهرة لا يستطيع أحد أن يغلبهم؛ ولذا كانوا الطائفة المنصورة، تؤمن هذه الطائفة بالقدر خيره وشره.

وهذا الركن يسمى: الإيمان بالقضاء والقدر.

والقدر في لغة العرب بمعنى: التقدير؛ كما قال الله عَزَّ وَجلَّ: {إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ} [القمر: 49]؛ أي: بتقدير سابق؛ فسبق الخلق علم الله عَزَّ وَجلَّ وكتابته لمقادير الأشياء في اللوح المحفوظ ومشيئته التي قارنت الخلق.

فقوله: {إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ}؛ أي: بتقدير سابق، لما خلق القلم وقال له: اكتب، فكتب كل ما هو كائن إلى يوم القيامة.

وقال تعالى: {فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ} [المرسلات: 23]، قدرنا؛ أي: قدَّرنا، {فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ}.

وأما القضاء؛ فهو في اللغة بمعنى: الحكم، وبمعنى: المنع، وبمعنى: النفوذ، ومنه القاضي، لأنه يحكم بين الناس، ولأنه يمنع المظالم بناءً على ما ظهر له، ولأن قضائه نافذ، فالقضاء بمعنى: الحكم.

لكن هل هما بمعنى واحد؟ لو نظرنا إلى اللغة لوجدنا افتراقًا بينهما، فهذا يعني التقدير، وهذا يعني الحكم.

وأما في الشرع؛ فالصحيح أنهما إذا افترقا اجتمعا، وإذا اجتمعا افترقا، ما معنى هذا الكلام؟ أي إذا ذُكر القدر وحده فيدخل فيه القضاء، وإذا ذُكر القضاء وحده فيدخل فيه القدر.

وأما إذا اجتمعا فالقدر سابق والقضاء لاحق، القدر الذي هو التقدير سابق، والقضاء الذي هو الخلق لاحق؛ لأن مراتب القدر على هذا الترتيب، علم الله عَزَّ وَجلَّ، وكتابته للمقادير، ومشيئته، وخلقه، فخلقه هذا هو القضاء.

وما سبق ذلك من علم وكتابة في اللوح المحفوظ فهذا هو التقدير، فإذا ذُكر القضاء والقدر معًا، فالقدر سابق والقضاء لاحق، وأما إذا ذُكر القدر وحده فيدخل فيه القضاء، وكذلك إذا ذُكر القضاء وحده فإنه يدخل فيه القدر.

فالقدر هو: ما قدره الله تعالى في الأزل أن يكون في خلقه.

وأما القضاء: فهو ما قضى به سُبْحَانَهُ وَتعَالَى في خلقه من إيجاد أو إعدام أو غير ذلك.

وعلى هذا يكون التقدير سابقًا على القضاء.

عندنا إشكال الآن: الله عَزَّ وَجلَّ يقول: {وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا} [الفرقان: 2]، خلق فقدر، وقلنا: إن الخلق هو القضاء، وهنا عطف التقدير على الخلق، خلق ضع مكانها قضى، القضاء النافذ، إذا نفذ قضاء الله عَزَّ وَجلَّ فهذا يعني خروجه من العدم إلى الوجود، فهنا عطف ماذا على ماذا؟

عطف التقدير الذي هو سابق على الخلق الذي هو القضاء اللاحق، فكيف نفك هذا الإشكال؟

نقول: التقدير يأتي في لغة العرب كذلك بمعنى: المساواة، فقوله: {وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا}؛ أي: أحسن خلقه وصورته وسواه على أكمل صورة؛ كما قال تعالى: {قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى} [طه: 50].

وهذا معنى التقدير، يعني: التسوية والإكمال.

وكذلك قول الله تعالى: {مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (6) الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (7) فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ} [الانفطار: 6-8].

إذًا: التقدير هاهنا قد يكون بمعنى التسوية وإكمال الخلق، وقد يكون التقدير هاهنا بمعنى التقدير الذي هو سابق، لكن الترتيب هاهنا ترتيب في الذكر لا في المعنى، ما معنى هذا الكلام؟

يعني: اقرأ هذه الآية، هذه الآية في سورة الفرقان؛ قال تعالى: {تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا (1) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا} [الفرقان: 1-2].

إذًا لماذا حصل ترتيب الذكر هاهنا؟ ليناسب رؤوس الآية؛ فالآية الأولى: {نَذِيرًا}، وهذه الآية: {تَقْدِيرًا}، وإن كان في الأصل أن يكون التقدير سابقًا على القضاء.

قال الشيخ الهراس رَحِمَهُ اللهُ: وَالْإِيمَانُ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ مِنَ اللَّهِ تبارك وتعالى أحدُ الْأَرْكَانِ الستَّة الَّتِي يَدُورُ عَلَيْهَا فَلَكُ الْإِيمَانِ؛ كَمَا دلَّ عَلَيْهِ حَدِيثُ جِبْرِيلَ وَغَيْرُهُ، وَكَمَا دلَّت عَلَيْهِ الْآيَاتُ الصَّرِيحَةُ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ عز وجل.

قال: وَالْإِيمَانُ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ.

هل في القدر خير وشر؟ نقول: أما باعتبار القدر الذي هو تقدير الله عَزَّ وَجلَّ وفعله فليس فيه شر، قال: {وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ}، من الذي قدَّر؟ الله عَزَّ وَجلَّ، هذه صفته وصفاته كلها خير.

ولذا كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: "وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ".

إذًا: تقدير الله عَزَّ وَجلَّ الذي هو فعله في خلقه الذي مبناه على الحكمة وعلى العدل والفضل، هذا لا شر فيه.

وأما الخير والشر؛ فهو باعتبار المقدور، باعتبار المخلوق الذي هو الفعل الذي يقع من العبد، وباعتبار خلق الله عَزَّ وَجلَّ، أي: مخلوق الله عَزَّ وَجلَّ.

فمن المخلوقات ما هو خير محض كالملائكة، ومنها ما هو شر محض كالشياطين، ومنها ما فيه خير وشر كابن آدم وكالجن، ففيها الخير والشر.

فالخير والشر باعتبار ماذا؟ باعتبار المقدور المخلوق، وأما فعل الله عَزَّ وَجلَّ فلا شر فيه؛ ولذلك كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: "وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ".

ولذا لم تأت نسبة الشر صراحة لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى في كتابه، أن يُنسب الشر إلى الله عَزَّ وَجلَّ وأن يُضاف إليه صراحة ، هذا لم يرد في كتاب الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

كيف يأتي إذن؟ إما أن يأتي مجملاً ضمن مخلوقاته؛ كما في سورة الفلق: {قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (1) مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ} [الفلق: 1-2]، والله عَزَّ وَجلَّ هو الذي خلق المخلوقات.

وإما أن يأتي بالصيغة ما لم يُسم فاعله تأدبًا مع الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى؛ كما قالت الجن: {وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا} [الجن: 10]؛ انظر أدب الجن كيف فرقوا بين نسبة الشر ونسبة الخير إلى الله؟

وزان الآية أن يقولوا: وأنا لا ندري أراد الله بهم شرًا أم أراد بهم خيرًا، لكنهم ما قالوا ذلك تأدبًا مع الله عَزَّ وَجلَّ، وإنما قالوا: {وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ

أُرِيدَ}، مع أن المريد هو الله، لكن تأدبوا مع الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى وقالوا: {أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا}؛ والرشد خير؛ فأضافوه صراحة ونسبوه لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

فقال: وَالْإِيمَانُ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ مِنَ اللَّهِ تبارك وتعالى أحدُ الْأَرْكَانِ الستَّة الَّتِي يَدُورُ عَلَيْهَا فَلَكُ الْإِيمَانِ؛ كَمَا دلَّ عَلَيْهِ حَدِيثُ جِبْرِيلَ وَغَيْرُهُ، وَكَمَا دلَّت عَلَيْهِ الْآيَاتُ الصَّرِيحَةُ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجلَّ.

إذًا: الإيمان بالقدر أصل من أصول الإيمان، وركن من أركانه ، فمن آمن بالأركان الخمسة دون الركن السادس كفر؛ ولذا كفَّر الصحابة غُلاة القدرية الذين أنكروا العلم وهو أول مراتب القدر؛ أنكروا علم الله السابق.

وكانوا يقولون: إن الأمر أُنُف؛ أي: مستأنف، أي: أن الله عَزَّ وَجلَّ لا يعلم وجود الاشياء ووقوعها إلا بعد أن تقع وتوجد، وأما قبل ذلك فلم يكن لله عَزَّ وَجلَّ علم بها، وهذا نفي لعلم الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، ولذا كفروهم.

قال عبد الله بن عمر: "إذا لقيت هؤلاء فأعلمهم أني بريء منهم وأنهم برئاء مني".

والذي يحلف به عبد الله بن عمر ، لو أن أحدهم أنفق مثل أُحُد ذهبًا ما قُبل منه حتى يؤمن بالقدر خيره وشره، أي: حتى يؤمن بعلم الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى السابق وبكتابته للمقادير في اللوح المحفوظ وبمشيئته وخلقه.

قال: وقد ذكر المؤلف هاهنا أن الإيمان بالقدر على درجتين، وأن كلاً منهما تتضمن شيئين:

فالدرجة الأولى تتضمن أولًا: الإيمان بعلم الله القديم أو بعلمه القديم المحيط بجميع الأشياء.

المصنف رَحِمَهُ اللهُ قسَّم مراتب القدر إلى مرتبتين:

المرتبة الأولى: وهي المرتبة السابقة، التي تسبق وقوع المقدور.

لو ضربنا مثالًا لذلك: أنت الآن وجدت وخُلقت، هذا هو المقدور الذي وقع والقضاء الذي نفذ، هذا سبقه مرتبة، ما هذه المرتبة؟ مرتبة العلم والكتابة.

إذًا: هذه المرتبة تسبق ماذا؟ تسبق وقوع المقدور.

والمرتبة الأخرى: وهي التي تقارن وقوع المقدور وتكون معه، وهي التي يدخل فيها المشيئة والخلق.

قال: أَوَّلاً: الْإِيمَانُ بِعِلْمِهِ الْقَدِيمِ الْمُحِيطِ بِجَمِيعِ الْأَشْيَاءِ، وَأَنَّهُ تَعَالَى عَلم بِهَذَا الْعِلْمِ الْقَدِيمِ الْمَوْصُوفِ بِهِ أَزَلًا وَأَبَدًا كلَّ مَا سَيَعْمَلُهُ الْخَلْقُ فِيمَا لَا يَزَالُ، وَعَلِمَ بِهِ جَمِيعَ أَحْوَالِهِمْ مِنَ الطَّاعَاتِ وَالْمَعَاصِي وَالْأَرْزَاقِ وَالْآجَالِ.

فَكُلُّ مَا يُوجَدُ مِنْ أَعْيَانٍ وَأَوْصَافٍ وَيَقَعُ مِنْ أَفْعَالٍ وَأَحْدَاثٍ فَهُوَ مطابقٌ لِمَا عَلِمَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجلَّ أَزَلًا.

لأن علم الله عَزَّ وَجلَّ محيط بكل شيء، علم ما كان وما سيكون وما هو كائن، بل علم ما لم يكن لو كان كيف يكون، وهذا لا يكون إلا لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى؛ ولذا كانت صفة علمه تفارق صفة علم المخلوق؛ لأن المخلوق موصوف كذلك بالعلم.

علم الله عَزَّ وَجلَّ لم يسبقه جهل، ولذا لا يقال في علم الله عَزَّ وَجلَّ إنه علم مكتسب، لأن العلم المكتسب يكون بعد أن لم يكن.

وأما علم المخلوق؛ فإنه علم مكتسب، أنت حضرت درس اليوم فاكتسبت علمًا جديدًا يتعلق بهذا المبحث بمبحث القدر؛ ولذا علمك علم مكتسب، كان بعد أن لم يكن.

وأما علم الله عَزَّ وَجلَّ؛ فلا يوصف بذلك؛ لأن علمه لا يسبقه جهل، وعلمنا مسبوق بجهل، وعلمه لا يتبعه نسيان ولا خرف، وعلمنا يتبعه نسيان وخرف وذهول وغير ذلك.

ولذا نفى النسيان عن نفسه وقال: {وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا} [مريم: 64]، وقال: {فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى} [طه: 52]، وهذا يلزم منه إثبات كمال ضد الصفات المنفية.

ولذا أدخل المصنف رَحِمَهُ اللهُ كل ذلك في صفة علم الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، فقال: الْإِيمَانُ بِعِلْمِهِ الْقَدِيمِ.

بعض أهل العلم جوز أن توصف صفات الله عَزَّ وَجلَّ بالقِدَم، والمراد هاهنا الأولية..

ودل على ذلك دعاء دخول المسجد، لأنك تقول: وبسلطانه القديم، تستعيذ بالله من الشيطان الرجيم وتقول: وبسلطانه القديم، و(الباء) هذه باء الاستعاذة والاستعاذة لا تكون بمخلوق.

فلما استُعيذ بسلطانه القديم دل ذلك على أن بعض صفات الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى قد توصف بالقِدَم، فعلم الله قديم, ولو قال: علم أولي فلا خلاف في أنه أولى.

قال: الْإِيمَانُ بِعِلْمِهِ الْقَدِيمِ الْمُحِيطِ بِجَمِيعِ الْأَشْيَاءِ.

إذًا: لا يَعزب شيء عن علم الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، وهذه المباحث -يا إخوة- ما ينبغي أن تكون مجرد علم واعتقاد، لكن لابد أن يقترن بها إيمان يترتب عليه عمل ومراقبة.

فالشيخ رَحِمَهُ اللهُ يقول: بِعِلْمِهِ الْقَدِيمِ الْمُحِيطِ بِجَمِيعِ الْأَشْيَاءِ.

وسع كل شيء رحمةً وعلمًا، فإذا علم المرء ذلك راقب الله عَزَّ وَجلَّ في السر والعلن، خشي الله عَزَّ وَجلَّ حق الخشية؛ لأنه يعلم أن الله عَزَّ وَجلَّ مطلع عليه أينما كان، في أي زمان وفي أي مكان.

ولذا يذكرون أن فتى ذهب لعالم وبيَّن له أنه أراد أن يعصي الله عَزَّ وَجلَّ، فقال له: إن أردت أن تعصي الله عَزَّ وَجلَّ فاعصه في غير ملكه، فاعصه دون علمه، وهذا لن يكون؛ لأن الملك ملكه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، ولأنه لا تخفى عليه خافية، لأن علمه أحاط بكل شيء.

إذًا: هذه المرتبة من مراتب الإيمان تولد المراقبة عند العبد، وتغرس الخشية في قلب العبد المؤمن؛ لأنه يعلم إحاطة علم الله عَزَّ وَجلَّ به، وأنه تعالى علم بهذا العلم القديم الموصوف به أزلًا وأبدًا.

ما الفرق بين الأزل والأبد؟ الأزل فيما مضى، والأبد فيما يُستقبل؛ ولذا يقول الله عَزَّ وَجلَّ لأهل الجنة: {خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا}، يا أهل الجنة خلود بلا موت.

ويقول كذلك لأهل النار: {خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا}، إذًا: الأبد هو الزمان الذي يُستقبل، فالله عَزَّ وَجلَّ لا أول لعلمه ولا منتهى لعلمه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

علم سبحانه بهذا العلم كل ما سيعمله الخلق فيما لا يزال بجزئياته الدقيقة، بتفاصيله، يعلم الله عَزَّ وَجلَّ كل ذلك، لا يختلف عليه شيء من ذلك، وعلم به جميع أحوالهم من الطاعات والمعاصي والأرزاق والآجال.

ولذا لو أراد الله عَزَّ وَجلَّ أن يعاقبهم وأن يحاسبهم على مقتضى علمه فيهم لفعل، لكنه مسبب الأسباب.

ولذا جعل من تقديره وحكمته خلق الملائكة، خلق الكرام الكاتبين، خلق الصحف التي تُعرض على ابن آدم يوم القيامة ليُعذر الله عَزَّ وَجلَّ من خلقه، وليتم عدله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، وليظهر عدله ، ولو أراد أن يحاسبهم على مقتضى علمه فيهم لفعل سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

قال: فَكُلُّ مَا يُوجَدُ مِنْ أَعْيَانٍ وَأَوْصَافٍ وَيَقَعُ مِنْ أَفْعَالٍ وَأَحْدَاثٍ فَهُوَ مطابقٌ لِمَا عَلِمَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجلَّ أَزَلًا.

قد يقول قائل: إذا كان الأمر كذلك ففيم العمل؟ إذا كان ما نعمله مطابق لعلم الله فينا فلماذا نعمل؟ يأتي الجواب عن هذا السؤال.

قال: ثَانِيًا: أَنَّ اللَّهَ كَتَبَ ذَلِكَ كُلَّهُ وسجَّله فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ.

إذًا: هذه الدرجة الثانية من المرتبة الأولى التي ذكرها شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ.

أَنَّ اللَّهَ كَتَبَ ذَلِكَ كُلَّهُ وسجَّله فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ، فَمَا عَلِمَ اللَّهُ كَوْنَهُ وَوُقُوعَهُ مِنْ مَقَادِيرِ الْخَلَائِقِ وَأَصْنَافِ الْمَوْجُودَاتِ وَمَا يَتْبَعُ ذَلِكَ مِنَالْأَحْوَالِ وَالْأَوْصَافِ وَالْأَفْعَالِ وَدَقِيقِ الْأُمُورِ وَجَلِيلِهَا قَدْ أَمَرَ الْقَلَمُ بِكِتَابَتِهِ؛ كَمَا قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

وَسَلَّمَ: ((قدَّر اللَّهُ مَقَادِيرَ الْخَلاَئِقِ قَبْلَ أن يخلق السموات وَالْأَرْض بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ)).

وَكَمَا قَالَ فِي الْحَدِيثِ الَّذِي ذَكَرَهُ الْمُؤَلِّفُ: ((إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ؛ قَالَ لَهُ: اكْتُبْ. قَالَ: وَمَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبْ مَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ)).

إذًا: هذه هي الدرجة وهي مرتبة الكتابة.

لكن ما الدليل على الدرجة الأولى من كتاب الله؟ ما الدليل على درجة العلم؟ آيات كثيرة أثبتت علم الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى ، {وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (59) وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ} [الأنعام: 59: 60]، الآية مليئة بإثبات علم الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى وبيان صفته وماهيته لمن تدبرها.

{أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ} [الحج: 70].

إذًا: هذا كله يدل على إثبات علم الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

ما الدليل على مرتبة الكتابة؟ نفس الآية: {إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ}، وكذلك الآية التي ذكرناها: {وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ} [يس: 12]، {مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ} [الأنعام: 38].

والصحيح: أن الكتاب هو اللوح المحفوظ.

{وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}، إذًا: اللوح المحفوظ فيه كل شيء إجمالًا وتفصيلاً، وهذا يدل على هذه المرتبة.

وأما من سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((قدَّر اللَّهُ مَقَادِيرَ الْخَلاَئِقِ قَبْلَ أن يخلق السموات وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ)).

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ؛ قَالَ لَهُ: اكْتُبْ. قَالَ: وَمَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبْ مَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ)).

(أول) على الظرفية، يعني: وقت أن خلق الله القلم، ((إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ))؛ لأن الصحيح أن العرش أول المخلوقات وليس القلم.

((إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ؛ قَالَ لَهُ: اكْتُبْ. قَالَ: وَمَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبْ مَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ))؛ فهذا دليل على هذه المرتبة.

قال المصنف رَحِمَهُ اللهُ: وَالإِيمَانُ بِالْقَدَرِ عَلَى دَرَجَتَينِ؛ كُلُّ دَرَجَةٍ تَتَضَمَّنُ شَيْئَيْنِ. فَالدَّرَجَةُ الأُولَى: الإِيمَانُ بِأَنَّ اللهَ تَعَالَى عَلِيمٌ بِالْخَلْقِ، وَهُمْ عَامِلُونَ بِعِلْمِهِ الْقَدِيمِ الَّذِي هُوَ مَوْصُوفٌ بِهِ أَزَلاً وَأَبَدًا، وَعَلِمَ جَمِيعَ أَحْوَالِهِم مِّنَ الطَّاعَاتِ وَالْمَعَاصِي وَالأَرْزَاقِ وَالآجَالِ، ثُمَّ كَتَبَ اللهُ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ مَقَادِيرَ الْخَلْقِ. فَأَوَّلُ مَا خَلَقَ اللهُ الْقَلَمَ قَالَ لَهُ: اكْتُبْ. قَالَ: مَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبْ مَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ. فَمَا أَصَابَ الإِنْسَانَ لَمْ يَكُن لِّيُخْطِئَهُ، وَمَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُن لِّيُصِيبَهُ.

وهذا نص حديث رسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لكن ما معنى قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **"فَمَا أَصَابَ الإِنْسَانَ لَمْ يَكُن لِّيُخْطِئَهُ"**؟

أي: أن القدر لابد أن يقع، لا يستطيع المرء أن يهرب من قضاء الله وقدره إلا أن يخرج من مُلكه، ولا يستطيع المرء أن يخرج من مُلك الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

ما معنى "وَمَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُن لِّيُصِيبَهُ"؟ ما لم يكن مقدرًا له فلن يصيبه؛ ولذلك بعض الأمور تقع, فتقول لأخيك المسلم: هي ليست من نصيبك، لا تحزن، فاتته صفقة تجارية، أو فاته يوم عمل، إلى غير ذلك من الأمور.

فهذا معنى قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: وما أخطأك لم يكن ليصيبك، إذا علم المرء ذلك؛ ارتاح قلبه وعلم أن الأمر أولًا وآخرًا مرده إلى قضاء الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى وقدره.

هي كقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعبد الله بن عباس: "وَاعْلَمْ: أَنَّ الأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إلاَّ بِشَيءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ، وَإِن اجتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إلاَّ بِشَيءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ".

لكن هذا لا يعني الركون إلى القدر، المرء يأخذ بالأسباب ، ثم بعد ذلك يكون ما قدره الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، فإن وقع غير ما يريد ماذا يقول؟ قدر الله وما شاء فعل.

ولذا قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ"؛ أي: خذ بالأسباب - الأسباب الشرعية- والأسباب العادية التي أجراها الله عَزَّ وَجلَّ في كونه.

طالب علم في الثانوية العامة، أو طالب علم شرعي يريد أن ينفع الناس، يريد أن يحصل ذلك دون أن يأخذ بالأسباب، لا يجتهد في مذاكرته وفي مراجعته وفي حفظه، هذا لن يكون؛ لأنه ليس بنبي ينزل عليه الوحي ليُعلم الناس، وإنما العلم بالتعلم؛ كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فهذا معنى: "احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ".

"وَاسْتَعِنْ بِاللهِ"؛ أي: لا تركن إلى نفسك وإلى علمك وإلى عزيمتك وما أعطاك الله عَزَّ وَجلَّ من قدرة، لا تقل: إنما أوتيته على علم، لكن استعن بالله ولا تعجز.

إن أصابك شيء، إن فاتك شيء، إن لم يُقدر لك ما أردته لا تقل: لو أني فعلت كذا لكان كذا، لأن هذا فيه معارضة للقدر، وهذه (لو) التي تفتح باب الشيطان، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل.

بعض العوام إذا فاته خير يقول: أخذت الشر وراحت، يريد: لعل هذا قد يكون سببًا لشر أو غير ذلك، وقدر الله كله جميل، فلا ندري ما الذي أخذته، هكذا يريد، يقول ذلك بفطرته وعاميته، يريد أن يعبر عن رضاه بقضاء الله وقدره.

ولذا يقول: وَمَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ، جَفَّتِ الأَقْلاَمُ، وَطُوِيَتِ الصُّحُفُ.

أي: لا يُزاد ولا يُنقص في اللوح المحفوظ، انتهى القلم من كتابة المقادير، وإنما الذي يُزاد ويُنقص ما في أيدي الملائكة من الصحف، هذا الذي يمحو الله فيه ما يشاء ويثبت.

وأما ما في اللوح المحفوظ مُبرم، لا يُزاد فيه ولا يُنقص، وسيأتي المثال.

قال: جَفَّتِ الأَقْلاَمُ، وَطُوِيَتِ الصُّحُفُ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: {أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ}، وَقَالَ: {مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ} [الحديد: 22].

وهذه آية عظيمة قال علقمة رَحِمَهُ اللهُ في تفسيرها: هو المؤمن يعلم أن ما أصابه إنما هو من قضاء الله وقدره، فيرتاح قلبه؛ كما قال الله عَزَّ وَجلَّ: {مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ}؛ يعني: هذا مكتوب.

{مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا}، أي: من قبل أن نخلقها، من قبل أن نخرجها من العدم إلى الوجود، هي مكتوبة في كتاب الله في اللوح المحفوظ.

قال: {إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ}.

قال: وَهَذَا التَّقْدِيرُ التَّابِعُ لِعِلْمِهِ سُبْحَانَهُ يَكُونُ فِي مَوَاضِعَ جُمْلَةً وَتَفْصِيلاً: فَقَدْ كَتَبَ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ مَا شَاءَ. وَإِذَا خَلَقَ جَسَدَ الْجَنِينِ قَبْلَ نَفْخِ الرُّوحِ فِيهِ؛ بَعَثَ إِلَيْهِ مَلَكًا، فَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ، فَيُقَالُ لَهُ: اكْتُبْ: رِزْقَهُ، وَأَجَلَهُ، وَعَمَلَهُ، وَشَقِيٌّ أَمْ سَعِيدٌ.. وَنَحْوَ ذَلِكَ. فَهَذَا التَّقْدِيرُ قَدْ كَانَ يُنْكِرُهُ غُلاةُ الْقَدَرِيَّةِ قَدِيمًا، وَمُنْكِرُهُ الْيَوْمَ قَلِيلٌ.

مسألة العلم والكتابة هذه كان ينكرها غُلاة القدرية، لكن هؤلاء انقرضوا.

وأما متوسطة القدرية الذين هم المعتزلة؛ فإنهم ينكرون المشيئة والخلق، ينكرون مشيئة الله عَزَّ وَجلَّ لفعل العبد وخلقه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى لفعل العبد، وسيأتي سبب ذلك.

الشيخ سعدي رَحِمَهُ اللهُ له كلام طيب رقيق على هذه القطعة التي ذكرها شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ في شرحه على الواسطية

يقول الشيخ: اعلم أن الإيمان بالقدر أمره عظيم وشأنه مهم جدًا، وهو أحد أركان الإيمان الستة، وقد انحرف فيه طوائف من أهل البدع والضلال فضلاً عن المنكرين من الملحدين وغيرهم.

وقد فصَّله الشيخ في هذا الفصل -يعني: شيخ الإسلام- بهذا الكلام الجامع النفيس الذي لا يوجد له نظير في تحقيقه وتفصيله وجمعه وتوضيحه، وهو مجموع من نصوص الكتاب والسنة ومن العقيدة السلفية الخالصة.

إذًا كيف السبيل إلى العلم بالقضاء والقدر؟ يرجع ذلك إلى أمرين لا ثالث لهما:

الأمر الأول: وهو الوحي؛ العلم بالقضاء والقدر مرده إلى الوحي.

والأمر الآخر: وقوع المقدور؛ فإذا وقع المقدور علمنا أن الله عَزَّ وَجلَّ قدر ذلك؛ لأن القدر غيب وهو سر الله عَزَّ وَجلَّ في خلقه.

أقول: فالذي يقول: لن أعمل لأن الله عَزَّ وَجلَّ إن كان كتبني من أهل الجنة فأنا من أهل الجنة أو من الأخرى -عياذاً بالله- فهو من الأخرى، نقول: وما أدراك؟! هذا غيب، والغيب لا يمكن الاطلاع عليه إلا بخبر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أخبر جماعة من الصحابة أنهم من أهل الجنة.

إذًا: هذا خبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ثم إن الأمر الثاني الذي يترتب عليه معرفة القدر هو وقوع المقدور؛ ودخول الجنة لا يكون إلا بعد الموت، فهل مت؟ إذًا: اعمل، والله عَزَّ وَجلَّ جعل فيك الاختيار والمشيئة والإرادة والعزيمة.

ولذا تجد الذي يقول هذا الكلام نشيطًا في أمور الدنيا، في تأمين مستقبله، وفي عمله، وفي طعامه وشرابه، والبحث عن الزوجة، وإنجاب الأولاد، وتحصين نفسه من الأمراض وغير ذلك.

لماذا تأخذ بالأسباب في مثل هذه الامور إذا كان مرد الأمر إلى قضاء الله وقدره؟ ثم إذا جاء أمر الله من الطاعة وترك المعصية رد الأمر إلى قضاء الله وقدره، تراه يقول: لو أراد الله أن يهديني لهداني، هكذا يقول، وهذا ضلال مبين وانحراف عن الصراط المستقيم.

ولذا قال الشيخ: وهو مجموع من نصوص الكتاب والسنة ومن العقيدة السلفية الصحيحة أو الخالصة، فذكر أنه لا يتم الإيمان بالقدر إلا بتحقيق هذه الأمور الأربعة التي يفتقر كل منها إلى البقية.

أراد الشيخ السعدي: أننا لو رتبنا هذه المراتب الأربعة بدءاً من الخلق، لوجدنا أن الخلق يسبقه مشيئة؛ لأن الله عَزَّ وَجلَّ لما خلق ذلك خلق بناءً على مشيئته وحكمته سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، والخلق والمشيئة مردهما إلى ما كتبه القلم في اللوح المحفوظ، وما كتبه القلم في اللوح المحفوظ إنما كان بناءً على ما أخبره الله عَزَّ وَجلَّ من علمه في خلقه.

إذًا: هذه المراتب مبنية بعضها على بعض.

قال: وقد ارتبط بعضها ببعض ارتباطًا وثيقًا، لا ينفصل إلا بالانحراف إلى الأقوال المنحرفة، وذلك أنه ثبت في نصوص الكتاب والسنة إحاطة علم الله بجميع الموجودات السابقة والحاضرة والمستقبلة من أعيان وأوصاف وأفعال للمكلفين وغيرهم.

وتثبت النصوص أيضًا أن الله أثبت علمه بالكائنات والموجودات دقيقها وجليلها باللوح المحفوظ في نصوص لا يمكن إحصاؤها.

وتثبت النصوص أيضًا، يعني: الكتاب والسنة، أن مشيئة الله عامة وأن إرادته القدرية شاملة لا يخرج عنها حادث صغير ولا كبير ولا عين ولا فعل ولا وصف، ما المراد بالعين؟ قال: لا يخرج عنها حادث صغير ولا كبير ولا عين ولا فعل ولا وصف.

العين، يعني: الذات، محمد وأحمد وياسر وعلي، هؤلاء لا يخرجون عن علم الله وعن تقديره سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، وفعالهم كذلك، وأوصافهم كذلك، كل ذلك في علم الله وفي تقديره، وأنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

قال: والنصوص على شمول قدرة الله ومشيئته لكل حدث لا تُحصى، وتثبت النصوص أيضًا أن العباد مختارون غير مجبورين على أفعالهم.

هل العبد مجبور على فعله؟ هل هو كالريشة في مهب الريح؟ هل هو كالمكتوف الذي أُلقي في الماء؟ لا إرادة له ولا اختيار ولا مشيئة؟ لا، العبد له اختيار ومشيئة.

ما الدليل على ذلك في النصوص؟ {وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ} [الإنسان: 30]، فأثبت لهم مشيئة سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

قال: وخالق السبب التام خالق للمسبب.

السؤال الآن: ما سبب فعلك هذا الذي صدر منك؟ ما الذي أدى إلى ظهور فعلك؟ أنا الآن أتكلم أمامكم، فما الذي أدى إلى ظهور هذا الكلام وخروجه من

العدم إلى الوجود؟ عندي إرادة؛ ولذا أتيت إلى المسجد، ومشيئة لإلقاء هذا الدرس, وعزيمة فجلست وألقيت.

من الذي خلق الإرادة والمشيئة والعزيمة؟ الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، هذه أسباب نتج عنها مسببات، أي: نتائج، الذي هو الكلام الذي يُقال الآن؛ فخالق السبب هو خالق المسبب؛ ولذا قال: {وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ} [الصافات: 96].

لكن من الذي يتكلم؟ أنا، من الذي يصوم؟ العبد، من الذي يصلي؟ العبد، ومن الذي خلق ذلك؟ الله عَزَّ وَجلَّ؛ ولذا قال هاهنا: وخالق السبب التام خالق للمسبب؛ يعني: للنتائج.

قال: وبهذا ينحل عن العبد الإشكال ويتسع قلبه للجمع بين إثبات عموم مشيئته وقدرته وشمولها لأفعال العباد.

يتسع قلب العبد للجمع بين إثبات عموم مشيئته؛ هو الذي شاء سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، وعموم قدرته؛ فهو على كل شيء قدير، وشمول قدرته لأفعال العباد؛ فهو الذي خلق أفعال العباد.

يجمع العبد بين ذلك وبين وقوعها شرعًا وحسًا وعقلاً باختيارك أنت، فهذه الأفعال التي تقع مني الآن وقعت باختياري أنا؛ ولذا أنا إذا أردت أن أشرب ماذا أصنع؟ أشرب، فالشرب شرب العبد، لكن هذا ناتج عن ماذا؟

ناتج عن إرادة وعزيمة ومشيئة خلقها الله في العبد.

إذًا هل يُعترض بذلك على فعل العبد للمعصية؟ فيقال: إن أثبتنا خلق الله عَزَّ وَجلَّ لفعل العبد؛ فقد نسبنا الظلم إليه؛ كما تقول القدرية؛ لأن القدرية

يقولون: كيف نقول إن الله عَزَّ وَجلَّ خالق فعل العبد وفعل العبد فيه المعصية ثم هو يعذبه على هذه المعصية ويدخله النار؟

يقول المعتزلي: كيف نقول إن الله خالق فعل العبد، ثم هذا العبد قد يقع في معصية، ويعذبه على هذه المعصية، أليس هذا ظلمًا من الله للعبد؟ ولذا أرادوا أن ينزهوا الله عَزَّ وَجلَّ عن الظلم فنفوا خلق الله لفعل العبد.

نقول: من الذي عصى؟ من الذي زنا؟ من الذي سرق؟ العبد، هذا ثابت وواقع شرعًا وحسًا وعقلاً.

العقلاء مجمعون على أن الذي وقع في ذلك هو العبد، أن الذي سرق وزنا، الذي صام، الذي أكل، الذي شرب، هو العبد، لكن من الذي خلق سبب ذلك؟ الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

الأمر الثاني الذي ينبغي الوقوف عليه: الله عَزَّ وَجلَّ لما خلق الاختيار والإرادة والمشيئة في العبد هل تركه هكذا أم أنزل الكتب وأرسل الرسل وبيَّن قُبح الزنا وقُبح السرقة وحُسن الصلاة وحُسن الطاعة وهداه النجدين؟

إذًا: لما خلق الله عَزَّ وَجلَّ العبد وخلق فيه الاختيار والمشيئة وتركه ليفعل ما يشاء، كان هذا بناءً على ماذا؟ بناءً على مشيئته السابقة، وبناءً على أمره الشرعي أنه أنزل الكتب وأرسل الرسل، فليس فيه ظلم للعبد.

قال: فمتى جمع العبد هذه المراتب الأربعة وآمن بها إيمانًا صحيحًا، كان هو المؤمن بالقدر حقًا الذي يعلم أن الله بكل شيء عليم، وأن علمه بالحوادث قد أودعها في اللوح المحفوظ، والحوادث كلها تجري على علمه تعالى وكتبه وتقع

بأسباب ربطها العزيز الحكيم بمسبباتها، والأسباب والمسببات من قضاء الله وقدره.

ولذا لما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأصحابه: "مَا مِنكُمْ مِنْ أَحَدٍ، إِلَّا وَقَدْ كُتِبَ مَقْعَدُهُ مِنَ النَّارِ وَمَقْعَدُهُ مِنَ الجَنَّةِ"، فقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَفَلاَ نَتَّكِلُ عَلَى كِتَابِنَا وَنَدَعُ الْعَمَلَ؟

إذا كان الله عَزَّ وَجلَّ قد كتب أهل الجنة وأهل النار، لماذا لا نتكل على الكتاب السابق؟ قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ، أَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ فَيُيَسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَأَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاءِ فَيُيَسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ".

من الذي شقي؟ العبد، ومن الذي سَعِد؟ العبد، بناءً على ما عنده من مشيئة واختيار وعزيمة، وإن كان الذي خلق المشيئة والاختيار والعزيمة هو الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

ثم قرأ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: {فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى (5) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (6) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى (7) وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى (8) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى (9) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى} [الليل: 5-10].

قال: وتوضيح ذلك أن العبد إذا صلى وصام وعمل الخير أو عمل شيئًا من المعاصي، كان هو الفاعل لذلك العمل الصالح وذلك العمل السيء، وفعله المذكور بلا ريب واقع باختياره، هذا وقع باختيارك أنت، وهو يحس ضرورة أنه غير مجبور على الفعل أو الترك، وأنه لو شاء لم يفعل.

أنت جئت إلى هذا المسجد باختيارك وإرادتك، ولو أردت ألا تأتي لما أتيت، بل أكاد أجزم أن بعضكم كانت نفسه تحدثه بالغياب عن مجلس اليوم، هذا موجود في كل إنسان، لأن الشواغل قد تمنعه عن ذلك.

تريد أن تزور فلانا، وبعد ذلك أنت توازن بين حضور الدرس وبين قضاء هذه الأمر، ثم ترجح عندك الحضور للدرس، تقول: المصلحة تُقضى بعد ذلك.

إذًا: أنت لما جئت جئت باختيارك ومشيئتك؛ ولذا يقول: وهو يُحس ضرورة أنه غير مجبور على الفعل أو الترك، وأنه لو شاء لم يفعل، وكما أن هذا هو الواقع فهو الذي نص عليه سبحانه في كتابه، ونص عليه رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ حيث أضاف الأعمال صالحها وسيئها إلى العباد، {ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} [النحل: 32]؛ فنسب العمل لهم، وأخبر أنهم الفاعلون لها، وأنهم محمودون عليها إن كانت صالحة، ومثابون عليها، ومذمومون إن كانت سيئة، ومعاقبون عليها.

قال: فقد تبين بهذا واتضح أنها واقعة منهم وباختيارهم، وأنهم إن شاءوا فعلوا، وإن شاءوا تركوا، وأن هذا الأمر ثابت عقلاً وحسًا وشرعًا ومشاهدة.

ومع ذلك فإذا أردت أن تعرف أنها كذلك واقعة منهم واعترض معترض وقال: كيف تكون داخلة في القدر؟ وكيف تشملها المشيئة؟ يعني: كيف تقع باختيارك ومشيئتك أنت وتقول أنها من تقدير الله؟

قال: فيقال: بأي شيء وقعت هذه الأعمال الصادرة من العباد خيرها وشرها؟ فهي بقدرتهم ومشيئتهم وإرادتهم، وهذا يعترف به كل أحد.

ويقال أيضًا: إن الله خلق قدرتهم ومشيئتهم وإرادتهم، هي وقعت بقدرتك ومشيئتك، والله عَزَّ وَجلَّ خلقك وخلق قدرتك ومشيئتك.

والجواب كذلك يعترف به كل أحد، وأن الله هو الذي خلق قدرتهم وإرادتهم، وهو الذي خلق ما به تقع الأفعال، كما أنه الخالق للأفعال، وهذا هو الذي يحل الإشكال ويتمكن العبد أن يعقل بقلبه اجتماع القدر والقضاء والاختيار.

ولذا المجنون هل يحاسب على أفعاله؟ لا يحاسب على أفعاله، مع أنه هو الذي فعلها؟ لأنه لا إرادة له ولا اختيار ولا مشيئة؛ ولذا لا يظلمه ربه تَبَارَكَ وَتَعَالَى ويحاسبه على أفعاله.

أما أنت فلماذا تُحاسب على أفعالك؟ لأنك تعملها بإرادة ومشيئة واختيار.

قال: ومع ذلك فهو تعالى أمد المؤمنين بأسباب وألطاف وإعانات متنوعة كونية وشرعية، أرسل الرسل وأنزل الكتب، هذه إعانات شرعية.

أنت أحسن حالًا من هذا الذي يقضي وقته كله على المقاهي، يقضي وقته كله مع الطالحين، أنت أحسن حالًا من هؤلاء، لأنك أخذت بالأسباب الشرعية.

وهناك كذلك إعانات كونية قدرية، كيف؟ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال في الحديث: "وَأَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ فَيُيَسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ"، هذا توفيق، وهذه هداية التوفيق، هذه منحة من الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى لا تكون لأي أحد.

وفقك الله عَزَّ وَجلَّ أنت واختصك بالحضور للدرس وبالطاعة دون غيرك، فهذه إعانة من الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، فهو خلق الأسباب، وخلق المسببات، وأعانك على فعل الخير شرعًا وقدرًا سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

قال: وكذلك خذل الفاسقين ووكلهم إلى أنفسهم ولم يُعنهم، لأنهم لم يؤمنوا به ولم يتوكلوا عليه، فولّاهم ما تولّوه لأنفسهم.

ولذا الواحد منا ينظر إلى الفاسق والعاصي نظرتين:

نظرة بعين القدر؛ فيحزن لحاله؛ لأن الله عَزَّ وَجلَّ لم يوفقه ولم يهده، وسبق عليه القدر أن يكون من أهل الشقاء بما كسبت يده.

وينظر إليه كذلك نظرة شرعية؛ فيكره ما هو عليه.

أنت ترحم الفاسق والعاصي، أي تُشفق عليه، وترجو أن يعود وأن يتوب إلى الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، وفي نفس الوقت تبغضهم لما معهم من ذنب ومعصية.

قال: ولما ضاق تحقيق هذا المقام على قلوب كثير من الخلق؛ انحرفت هنا طائفتان من الناس: طائفة يقال لهم: الجبرية؛ غلو في إثبات القدر.

أي نفوا مشيئة العبد واختياره، وتوهموا أن العبد ليس له فعل حقيقة، وأنه لا يمكن أن يثبت للعبد عموم المشيئة ويثبت له أيضًا عموم الاختيار؛ ولذا جعلوا العبد كالريشة في مهب الريح، لم يجعلوا له اختيارًا ولا مشيئة.

والطائفة الأخرى التي تسمى بالقدرية الذين هم نفاة القدر قابلتهم فشهدت وقوع أفعالهم بقدرتهم واختيارهم وتوهموا أنه لا يمكن مع ذلك أن يدخل ذلك في قضاء الله وقدره، ولم تتسع قلوب الجبرية والقدرية للجمع بين الأمرين، فرد كل منهما قسمًا كبيرًا من نصوص الكتاب والسنة المؤيدة للقول الصحيح.

فالجبرية ردت النصوص التي تثبت فعل العبد ومشيئته واختياره.

والقدرية ردت النصوص التي تثبت مشيئة الله وخلقه لفعل العبد.

أما أهل السنة؛ فجمعوا بين هذا وذاك، وكانوا أسعد الناس بما جاء في كتاب الله وسنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ ولذا قال الشيخ: وهدى الله أهل السنة والجماعة فآمنوا بجميع الكتاب والسنة، وآمنوا بقضائه وقدره وشمولهما لكل موجود، وبشرعه وأمره، فلم يعارضوا القدر بالشرع ولا الشرع بالقدر.

لماذا تترك الزنا مع أنه قد يكون مكتوبًا على العبد؟ هل تعني كتابته على العبد أن يرضى به؟ لا.

ولذا نقول: ليس كل مقدور يرضى به العبد؛ لأن المقدور إن كان مما يحبه الله ويرضاه فهذا يحبه العبد ويرضى به؛ كالصلاة والزكاة والحج والصيام وبر الوالدين، هذا يحبه الله عَزَّ وَجلَّ، أرضى به وأفعله، لأن الله يحبه.

الذنوب والمعاصي من مقدور الله ومن خلقه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، هل ترضى بها؟ لا نرضى بها، وإنما نبغضها.

فعدم رضاك بها وبغضك لها وقع بناءً على أمر الله الشرعي، وإن كان هو الذي قدرها في كونه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى وقدر أن تقع من بعض العباد، فتجمع بين القدر الإيمان بالقدر والإيمان بالشرع.

قال: وهدى الله أهل السنة والجماعة فآمنوا بجميع الكتاب والسنة، وآمنوا بقضائه وقدره وشمولهما لكل موجود وبشرعه وأمره، وأن العباد فاعلون حقيقة مختارون، فإيمانهم بعموم القدر يوجب لهم الاستعانة التامة بربهم.

لأن الأمر أولًا وآخرًا مرده إلى مشيئة الله، فأنت تستعين بالله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

قال: لعلمهم أنه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن, وأن له في عباده المؤمنين ألطافًا وتيسيرًا لا يناله أحد منهم إلا بقوة الإيمان والتوكل، وأوجب لهم إيمانهم بالشرع والأمر والنهي والأسباب وأنها مرتبطة بمسبباتها شرعًا وقدرًا.

أوجب لهم الجد والاجتهاد في فعل الأسباب النافعة.

قال: وبذلك تعرف أن الإيمان الصحيح سبب لكل خير.

ثم ذكر رَحِمَهُ اللهُ بعد ذلك فوائد الإيمان بالقضاء والقدر، وذكر منها:

- أن ذلك يوجب للعبد سكون القلب وطمأنينته وقوته وشجاعته؛ لأننا نعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه.

يقول: الحمد لله على كل حال، قدر الله وما شاء فعل، كما أنه يُسلي العبد عن المصائب ويوجب له الصبر والتسليم والقناعة بما رزقه الله, قال: {وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ} [التغابن: 11]، نزلت به مصيبة هي من قضاء الله وتقديره.

ولذا قال علقمة: "هُوَ الرَّجُلُ تُصِيبُهُ الْمُصِيبَةُ فَيَعْلَمُ أَنَّهَا مِنْ عِنْدِ اللهِ فَيَرْضَى وَيُسَلِّمُ".

- قال: ومن فوائده أنه يوجب للعبد شهود منة الله عليه فيما يمن به عليه من فعل الخيرات وأنواع الطاعات, فلا يُعجب بنفسه.

لا تُعجب بحالك، لأن الأمر أولًا وآخرًا مرده إلى مشيئة الله، لو شاء ألا يقع ذلك منك لكان الأمر كما شاء، فإذا وقع الخير فلا تُعجب بنفسك وإنما هو من توفيق الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

- قال: ولا يُدلي بعلمه لعلمه أنه تعالى هو الذي تفضل عليه بالتوفيق والإعانة وصرف الموانع والعوائق، وأنه لو وُكل إلى نفسه لضعُف وعجز عن العمل.

بعض الناس من الممكن أن يدخل في تجارة ويجرب مرة واثنين وثلاثة، كلما دخل في تجارة تخسر، بينما إنسان آخر كلما دخل في تجارة ربحت، فهل يُعجب بنفسه؟ يقول هذا من ذكائي، فطنتي، حسن تدبيري وتنسيقي ودراسة الجدوى وغير ذلك؟ الأمر كله بيد الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى وتوفيقه، فهذا ينبغي أن يكون العبد منه على ذكر.

- قال: كما أنه سبب لشكر نعم الله بما يُنعم عليه من نعم الدين والدنيا؛ فإنه يعلم أنه ما بالعبد من نعمة إلا من الله.

هذا في أمور الدنيا وأمور الدين.

قال تعالى في آخر سورة الشورى: {لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ (49) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ} [الشورى: 49-50].

إذًا: مرد كل ذلك إلى تقديره سُبْحَانَهُ وَتعَالَى وعلمه في خلقه. الشيخ الهراس رَحِمَهُ اللهُ له تعليق يسير على هذا الذي ذكرناه، نُرجئه إلى الدرس القادم حتى لا نطيل عليكم. أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم، وجزاكم الله خيرًا.

الدرس الثالث والأربعون

إن الحمد لله, نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله تعالى من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله, صلى الله عليه, وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد:

فمازال حديثنا موصولًا في قراءة هذا المبحث المهم: وهو مبحث الإيمان بالقضاء والقدر من هذا المتن المبارك متن العقيدة الواسطية لشيخ الإسلام ابن تيمية، وعليه شرح العلامة خليل هراس رَحِمَهُ اللهُ وطيَّب ثراه.

وكنا قد تناولنا في الدرس الماضي الإيمان بالدرجة الأولى، لأن شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ قسَّم الإيمان بالقدر إلى درجتين:

درجة سابقة على وقوع المقدور، وهذه تتضمن مرتبة العلم ومرتبة الكتابة.

ودرجة هي تقارن وقوع المقدور, وهي مرتبة المشيئة ومرتبة الخلق.

وكان قد بقي لنا من الكلام عن هذه المرتبة أو الدرجة الأولى أن نقرأ كلام الشيخ خليل هراس رَحِمَهُ اللهُ.

فقال رَحِمَهُ اللهُ: وَ(أولَ) هُنَا بِالنَّصْبِ عَلَى الظَّرْفِيَّةِ.

(أول)؛ أي: وقت أن خلق الله القلم قال له: اكتب، وهذا هو الصحيح، وليست أول مرفوعة على الابتداء.

لأن هناك رواية لهذا الحديث: **"أَوَّلُ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ"**، فتكون أول: مبتدأ، والقلم: خبر، وهذه الرواية بالمعنى كما قال بعض أهل العلم.

ولذا الضبط الصحيح: "أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ، قَالَ لَهُ: اكْتُبْ"؛ فـ(أول) على الظرفية، أي: وقت أن خلق الله القلم.

قال: وَالْعَامِلُ فِيهِ (قَالَ)؛ أَيْ: قَالَ لَهُ ذَلِكَ أَوَّلَ مَا خَلَقَهُ.

فما أن خلق الله عَزَّ وَجلَّ القلم إلا وكلفه بأن يكتب مقادير الخلائق إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

قال: وَقَدْ رُوِيَ بِالرَّفْعِ عَلَى أَنَّهُ مُبْتَدَأٌ، وَخَبَرُهُ الْقَلَمُ.

وَلِهَذَا اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي الْعَرْشِ وَالْقَلَمِ؛ أَيُّهُمَا خُلِقَ أَوَّلًا.

أهل السنة والجماعة منهم من يقول:

- إن أول المخلوقات العرش، وعلى هذا القول جمهور أهل السنة والجماعة.
- ومنهم من يقول: إن أول ما خلق الله القلم.
- ومنهم من يقول: إن أول ما خلق الله الماء؛ لأن الحديث فيه: "وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ".

ولأن الآية تقول: {وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ} [الأنبياء: 30]؛ فمعنى ذلك: أن الماء سابق على خلق المخلوقات.

فهذه ثلاثة أقوال لأهل السنة والجماعة؛ ولذا الخلاف فيها لا يضر، الخلاف فيها خلاف في الفروع وليس في أصول الاعتقاد.

قال: وَلِهَذَا اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي الْعَرْشِ وَالْقَلَمِ؛ أَيُّهُمَا خُلِقَ أَوَّلًا.

وَحَكَى الْعَلاَّمَةُ ابْنُ الْقَيِّمِ فِي ذَلِكَ قَوْلَيْنِ، وَاخْتَارَ أَنَّ الْعَرْشَ مخلوقٌ قَبْلَ الْقَلَمِ.

ذكرنا تفصيل ذلك في الشرح على نقد الإمام الدارمي على بشر المريسي.

قَالَ ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ فِي ((النُّونِيَّةِ)):

وَالنَّاسُ مُخْتَلِفُونَ فِي الْقَلَمِ الَّذي ... كُتِبَ الْقَضَاءُ بِهِ مِنَ الدَّيَّانِ

هَلْ كَانَ قَبْلَ الْعَرْشِ أَوْ هُوَ بَعْدَهُ ... قَوْلانِ عِنْدَ أَبِي الْعَلاَ الْهَمَدَانِي

وهذا فيه تسهيل أصلها أبي العلاء.

قَوْلانِ عِنْدَ أَبِي الْعَلاَ الْهَمَدَانِي.

وهو من علماء أهل السنة والجماعة في القرن الخامس.

قال: وَالْحَقُّ أَنَّ الْعَرْشَ قَبْلُ لأَنَّهُ.

وَالْحَقُّ أَنَّ الْعَرْشَ قَبْلُ.

أي: قبل خلق القلم.

لأَنَّهُ ... [وَقْتَ] الْكِتَابَةِ كَانَ ذَا أَرْكَانِ.

أي وقت أن خلق الله القلم وقال له: اكتب، كان العرش موجودًا وله أركان.

قال: وَكِتَابَةُ الْقَلَمِ الشَّرِيفِ تَعَقَّبَتْ.

يعني: أعقبت، جاءت بعد: تَعَقَّبَتْ ... إِيجَادَهُ مِنْ غَيْرِ فَصْلِ زَمَانِ.

ما معنى هذه الجملة الأخيرة؟

وَكِتَابَةُ الْقَلَمِ الشَّرِيفِ تَعَقَّبَتْ ... إِيجَادَهُ.

هذا معنى الحديث، أول ما خلق الله القلم قال له: اكتب، هذا هو المراد بهذا البيت.

تَعَقَّبَتْ ... إِيجَادَهُ.

الضمير يعود إلى القلم.

قال: مِنْ غَيْرِ فَصْلِ زَمَانٍ.

قال: وَإِذَا كَانَ الْقَلَمُ قَدْ جَرَى بكلِّ مَا هُوَ كائنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ بِكُلِّ مَا يَقَعُ مِنْ كَائِنَاتٍ وَأَحْدَاثٍ؛ فَهُوَ مُطَابِقٌ لِمَا كُتِبَ فِيهِ.

فالذي يجري في خلقه سبحانه مطابق لما كُتب في اللوح المحفوظ.

فَمَا أَصَابَ الْإِنْسَانَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ، وَمَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ.

لأنه ليس مقدرًا له أن يفعله أو أن يناله.

كَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا وَغَيْرِهِ.

وهو حديث: "يا غُلامُ إنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِماتٍ: احْفظِ الله يَحْفظْكَ، احْفظِ الله تَجِدْهُ تُجاهَكَ، إذا سَأَلْتَ فاسْألِ الله، وإذا اسْتعنْتَ فاسْتعِنْ بالله، واعلمْ أنَّ الأُمَّةَ لو اجْتمعتْ على أنْ يَنْفعُوكَ بشيءٍ، لم يَنْفعُوكَ إلّا بشيءٍ قد كَتبهُ اللهُ لكَ".

لأن القدر سابق والمقدور لاحق؛ فلا يكون مقدور إلا إذا كان موجودًا في القدر وفي اللوح المحفوظ.

"وإن اجتمعوا على أنْ يَضُرُّوكَ بشيءٍ لم يضُرُّوكَ إلّا بشيءٍ قد كَتبهُ اللهُ عليكَ، رُفِعتِ الأقلامُ وجَفَّتِ الصُّحُفُ".

قال: وَهَذَا التَّقْدِيرُ التَّابِعُ لِلْعِلْمِ الْقَدِيمِ.

التَّقْدِيرُ، يعني: الذي في اللوح المحفوظ تابع لعلم الله الأول، فعلم الله عَزَّ وَجلَّ علم أولي علم بلا ابتداء، علم لم يسبقه جهل، علم غير مكتسب، فالعلم أولًا ثم التقدير بعد ذلك.

متى وقع التقدير؟ قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة.

متى كان علم الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى؟ علم أولي لا بداية له؛ لأن الله عَزَّ وَجلَّ كان بصفاته، فكما أنه الأول الذي ليس قبله شيء؛ فكذلك علمه ليس قبله علم وليس قبله جهل، وهذا معنى هذه القطعة.

وَهَذَا التَّقْدِيرُ التَّابِعُ لِلْعِلْمِ الْقَدِيمِ تَارَةً.

والأولى أن يقول: العلم الأولي.

هَذَا التَّقْدِيرُ تَارَةً يَكُونُ جُمْلَةً؛ كَمَا فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ؛ فَإِنَّ فِيهِ مَقَادِيرَ كُلِّ شَيْءٍ، وَيَكُونُ فِي مَوَاضِعَ تَفْصِيلاً يخصُّ كُلَّ فردٍ؛ كَمَا فِي الْكَلِمَاتِ الْأَرْبَعِ الَّتِي يُؤْمَرُ الْمَلَكُ بِكِتَابَتِهَا عِنْدَ نَفْخِ الرُّوحِ فِي الْجَنِينِ؛ يَكْتُبُ رِزْقَهُ، وَأَجَلَهُ، وَعَمَلَهُ، وشقيٌّ أَمْ سَعِيدٌ.

قال: فَهَذَا تقديرٌ خاصٌّ.

هذه القطعة من كلام الشيخ رَحِمَهُ اللهُ تنقلنا إلى الكلام عن مراتب القدر، مراتب التقدير.

- عندنا تقدير عام كما قال الشيخ رَحِمَهُ اللهُ: وهو التقدير لجميع الأشياء في اللوح المحفوظ، وهو المعني بقول الله تعالى: {مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ} [الأنعام: 38] فالكتاب هو اللوح المحفوظ، فكتب الله عَزَّ وَجلَّ كل شيء شاءه وكان خلقه على مقتضى ما في اللوح المحفوظ.

- والتقدير الثاني: وهو التقدير العُمُري؛ وهو الذي ثبت في حديث عبد الله بن مسعود، قال حدثنا الصادق المصدوق صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أربَعِينَ يومًا نُطْفَةً، ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذلِكَ"

متى يقول ذلك؟ إذا وقعت النطفة في رحم الأنثى، يقع تقدير الله عَزَّ وَجلَّ لهذه النطفة، تتكون النطفة وتتخلق حتى إذا وصلت مائة وعشرين يومًا، أي أربعة أشهر، أرسل الله عَزَّ وَجلَّ ملكًا يكتب كلمات أربعة: يأمره بكتب رزقه وعمره وعمله وشقي أم سعيد، فهذا ورد في الصحيحين في حديث عبد الله بن مسعود.

- التقدير الثالث: وهو التقدير السنوي؛ وهو الذي يجري على ابن آدم كل سنة وهذا يكون في ليلة القدر؛ قال الله عَزَّ وَجلَّ في هذه الليلة: {فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ} [الدخان: 4].

في هذه الليلة تكتب الملائكة من اللوح المحفوظ فلان سيحج هذا العام، فلان سيعتمر، فلان سيرزقه الله ولدًا، فلان سيصح، فلان سيمرض، فلان سيموت، وهذا تقدير عُمُري، تُكتب مقادير العبد في هذه السنة، في هذه الليلة المباركة.

قال ابن عباس رَضِي اللهُ عَنْهُ في قول الله تعالى: {فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ}، قال: "يُكتب من أم الكتاب".

إذًا: هذا نسخ يكون من أم الكتاب، ما أم الكتاب؟ القرآن؟ لا، أم الكتاب هنا المقصود به: اللوح المحفوظ.

"يُكتب من أم الكتاب في ليلة القدر ما هو كائن في السنة من الخير والشر والأرزاق والآجال، يقال: يحج فلان، ويحج فلان".

وقال الحسن ومجاهد: "يُبرم في ليلة القدر في شهر رمضان كل أجل وعمل وخلق ورزق وما يكون في تلك السنة"، كل هذا يُكتب ويُنقل من اللوح المحفوظ.

- والتقدير الرابع: وهو التقدير اليومي؛ هذا يقع كل يوم، وهذا دل عليه قول الله تعالى: {كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ} [الرحمن: 29].

جاء عند ابن جرير رَحِمَهُ اللهُ في تفسيره: عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال في تفسير هذه الآية: {كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ}، قال: "**مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَغْفِرَ ذَنْبًا، وَيُفَرِّجَ كَرْبًا، وَيَرْفَعَ قَوْمًا، وَيَضَعَ آخَرِينَ**"، وهذا حسنه العلامة الألباني في ظلال الجنة.

إذًا: هذا مرفوع إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهذا يسمى بالتقدير اليومي.

فذكر الشيخ رَحِمَهُ اللهُ –أعني الشيخ الهراس- هاهنا تقديرًا مجملاً في اللوح المحفوظ، وتقديرًا مفصلاً وهذا يكون في العُمر والسنة واليوم.

قال بعد ذلك: وَهَذَا التَّقْدِيرُ السَّابِقُ عَلَى وُجُودِ الْأَشْيَاءِ قَدْ كَانَ يُنْكِرُهُ غُلاَةُ الْقَدَرِيَّةِ قَدِيمًا.

التقدير السابق الذي يدخل فيه العلم والكتابة، هذا كان ينكره غُلاة القدرية الذين كفَّرهم الصحابة

هؤلاء كانوا يقولون: إن الأمر أُنُف، أي: أن الله عَزَّ وَجلَّ لا يعلم الأشياء إلا بعد أن وقع، الله عَزَّ وَجلَّ لا يعلم هذا المجلس إلا بعد أن وقع، وأما بالأمس فلم يكن الله عَزَّ وَجلَّ يعلم أن مجلسًا سيُعقد كهذا اليوم، هكذا كانوا يقولون.

وهذا وصف لله بالجهل، وفيه نسبة النقص إلى الله عَزَّ وَجلَّ، ولذلك كفَّرهم أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

هذا التقدير كان ينكره قديمًا غُلاة القدرية، قال: مِثْلُ: مَعْبَدٍ الْجُهَنِيِّ، وغَيلان الدِّمشقي، وَكَانُوا يَقُولُونَ: إِنَّ الْأَمْرَ أُنُفٌ.

أي: مستأنف.

قال: وَمُنْكِرُ هَذِهِ الدَّرَجَةِ مِنَ الْقَدَرِ كَافِرٌ؛ لِأَنَّهُ أَنْكَرَ مَعْلُومًا مِنَ الدِّينِ بِالضَّرُورَةِ.

أنكر علم الله؛ ولذا الشافعي وغيره قال: ناظروهم بالعلم، ناظروا القدرية بالعلم، فإن جحدوا كفروا.

أي قولوا لهم: أليس الله يعلم ما كان وما يكون وما سيكون؟ فإن قالوا: لا، فقد كفروا؛ لأنهم جحدوا ما هو معلوم من الدين بالضرورة الذي هو علم الله عَزَّ وَجلَّ والذي هو من صفات كماله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

قال: وَمُنْكِرُ هَذِهِ الدَّرَجَةِ مِنَ الْقَدَرِ كَافِرٌ؛ لِأَنَّهُ أَنْكَرَ مَعْلُومًا مِنَ الدِّينِ بِالضَّرُورَةِ، وَقَدْ ثَبَتَ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَالْإِجْمَاعِ.

أي ثبت علم الله وثبتت كتابته للمقادير بكتاب الله وسنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وإجماع الصحابة ومن بعدهم من أئمة الهدى.

ثم قال المصنف رَحِمَهُ اللهُ بعد ذلك في بيان المرتبة الثانية، والتي يدخل فيها درجتان وهما: المشيئة والخلق.

قال: وَأَمَّا الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ؛ فَهِيَ مَشِيئَةُ اللهِ النَّافِذَةُ، وَقُدْرَتُهُ الشَّامِلَةُ، وَهُوَ: الإِيمَانُ بِأَنَّ مَا شَاءَ اللهُ كَانَ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ.

إذًا: ذكر المصنف رَحِمَهُ اللهُ في هذه الدرجة المرتبة الأولى, وهي: مرتبة المشيئة وبيَّن المراد بها، فقال: هي مشيئة الله النافذة وقدرته الشاملة.

مشيئته النافذة؛ لأن الله عَزَّ وَجلَّ قال: {وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا} [البقرة: 253]، {تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ}.

ما معنى {وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا} أي: لو كانت مشيئة الله عَزَّ وَجلَّ ألا يقتتلوا فلابد أن تنفذ هذه المشيئة، ولن يقع الاقتتال، هذا معنى مشيئته النافذة: أن ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن.

لو أخذ المرء بكل أسباب الدنيا ولم يكن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى شاء أن يقع المقدور فلا يقع.

إنسان أخذ بكل أسباب الغنى؛ دخل في جمعيات، وعمل مشاريع ودراسة جدوى وجاء بالعمال وغير ذلك، لكن ما شاء الله عَزَّ وَجلَّ أن ينتقل من فقر إلى غنى؛ لا يكون، لأن مشيئة الله عَزَّ وَجلَّ هي النافذة.

قال: فَهِيَ مَشِيئَةُ اللهِ النَّافِذَةُ، وَقُدْرَتُهُ الشَّامِلَةُ.

هل قدرة الله عَزَّ وَجلَّ شاملة؟ لا يخرج عن قدرته شيء من خلقه؟ نعم، ما الدليل على ذلك؟

دل على ذلك النقل والعقل:

قال الله تعالى: {وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}، {إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}.

فكل ما يصدُق عليه أنه شيء فالله عَزَّ وَجلَّ قدير ومقتدر وقادر عليه، لأن هذه كلية لا مخصص لها. هذا من جهة النقل.

أما العقل، فمن الذي خلق الخلق؟ من الذي يدبر أمرهم؟ من الذي يُصرف حالهم؟ من الذي يرزقهم ويحييهم ويميتهم؟

الله عَزَّ وَجلَّ، فإذا كان الله عَزَّ وَجلَّ بهذه الصفة فلا شك أنه على كل شيء قدير، وأن قدرته شاملة سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

ما معنى هذه الدرجة؟ قال شيخ الإسلام: وَهُوَ: الإِيمَانُ بِأَنَّ مَا شَاءَ اللهُ كَانَ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ، وَأَنَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِنْ حَرَكَةٍ وَلَا سُكُونٍ؛ إِلَّا بِمَشِيئَةِ اللهِ سُبْحَانَهُ، لَا يَكُونُ فِي مُلْكِهِ مَا لَا يُرِيدُ.

فلا يكون في ملكه ما لا يريد كونًا وقدرًا، وقد يكون في ملكه ما لا يريده شرعًا، كيف يكون في ملكه ما لا يريده شرعًا؟ هل الله عَزَّ وَجلَّ لا يريد المعاصي شرعًا؟ نعم لا يريد المعاصي شرعًا، لماذا لا يريد المعاصي شرعًا؟

لأن الإرادة الشرعية ترادف المحبة، فإذا كان الله عَزَّ وَجلَّ لا يريد المعاصي شرعًا؛ فهذا يعني أنه لا يحبها سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، والله لا يحب الفساد.

لكن هل تقع المعاصي في كونه بغير إرادته الكونية القدرية؟ لا؛ إذ لا يخرج شيء عن قدرته ومشيئته سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

هل وجود المعاصي له حكمة أم ليس له حكمة؟ لا شك أن وجود الشر في كونه له حكمة، وسيأتي تفصيل ذلك.

قال: لَا يَكُونُ فِي مُلْكِهِ مَا لَا يُرِيدُ.

إذًا: هذه الجملة تحتاج إلى تفصيل، لا يكون في ملكه ما لا يريد كونًا وقدرًا لا شرعًا.

وَأَنَّهُ سُبْحَانَهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ مِنَ الْمَوْجُودَاتِ وَالْمَعْدُومَاتِ.

هو قادر سُبْحَانَهُ وَتعَالَى على كل ما يسمى موجودًا، كل شيء موجود قادر عليه، وقادر على أن يُعدم كل شيء، وقادر على إخراج المعدوم من العدم إلى الوجود سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

قال: مَا مِنْ مَخْلُوقٍ فِي الأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ إِلَّا اللهُ خَالِقُهُ سُبْحَانَهُ، لا خَالِقَ غَيْرُهُ، وَلَا رَبَّ سِوَاهُ.

وهذا فيه رد على المعتزلة الذين يخرجون أفعال العباد من خلق الله، مع أن الله عَزَّ وَجلَّ قال في كتابه: {اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ} [الرعد: 16]، وأفعال العباد شيء أم ليست بشيء؟ شيء.

إذًا: هي داخلة في خلق الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

قال تعالى: {وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ} [الصافات: 96] أي خلقكم وعملكم.

قال: {وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا}، والاقتتال فعل العبد، ولو أراد الله ألا يكون ما كان، فدل لك على أنه وحده هو الذي يخرجه من العدم إلى الوجود.

ولذا قال الشيخ رَحِمَهُ اللهُ: مَا مِنْ مَخْلُوقٍ فِي الأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ إِلَّا اللهُ خَالِقُهُ سُبْحَانَهُ، لا خَالِقَ غَيْرُهُ، وَلَا رَبَّ سِوَاهُ. وَمَعَ ذَلِكَ؛ فَقَدْ أَمَرَ الْعِبَادَ بِطَاعَتِهِ وَطَاعَةِ رُسُلِهِ، وَنَهَاهُمْ عَنْ مَعْصِيَتِهِ.

يريد أن يُبين في هذه القطعة أن لا تعارض بين القدر والشرع، فخلقه سبحانه لا يعارض إرسال الرسل، وإنزال الكتب، لا يعارض أمرك بالطاعة ونهيك عن المعصية.

فلا تعارض بين الشرع والقدر؛ لأن القدر هو أساس الشرع، التقدير الذي كُتب في اللوح المحفوظ فيه أن الله عَزَّ وَجلَّ سيرسل لهذه الأمة محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأنه سيأمرهم بكذا وينهاهم عن كذا، وسيأتي إليهم بالقرآن الكريم، وفي القرآن الكريم الأمر بالصلاة والزكاة والحج والصيام، والنهي عن كذا وكذا وكذا.

إذًا: القدر أساس الشرع، ولا تعارض بين القدر والشرع.

هل هناك من عارض بين القدر والشرع؟ أجل، هناك من رد القدر وآمن بالشرع، وهناك من آمن بالقدر ورد الشرع، وهناك من آمن بهما وادعى التعارض بينهما، ولذا القدرية على أقسام ثلاثة:

- قدرية مجوسية (نسبة إلى المجوس)، ماذا يقول المجوس؟ يقولون: إن هذا العالم له خالقان: خالق للشر وخالق للخير، خالق الشر هو الظُلمة، وخالق الخير هو النور.

فالمعتزلة الذين ينفون أن يكون الله خلق فعل العبد شابهوا المجوس؛ ولذا قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **"القدرية مجوس أمتي"**؛ لأنهم أثبتوا خالقين، جعلوا العبد يخلق فعل نفسه، وجعلوا الله عَزَّ وَجلَّ يخلق سائر الأشياء الأخرى.

لماذا قالوا إن الله عَزَّ وَجلَّ لا يخلق فعل العبد؟ حتى لا ينسبوا الشر إلى الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، عظموا الأمر والنهي، بل من تعظيمهم للأمر والنهي أنهم قالوا:

إن الذي يرتكب الكبيرة إن مات على ذلك يكون مخلدًا في النار، عظموا الأمر والنهي، لكنهم ردوا القدر.

عرفنا أن من مراتب القدر المرتبة الرابعة والثالثة: الخلق والمشيئة، فردوا الخلق والمشيئة، فهذه تسمى بالقدرية المجوسية.

إذًا: القدرية المجوسية أثبتوا الأمر والنهي وردوا القدر.

- القسم الثاني القدرية المشركة: هؤلاء أثبتوا القدر وردوا الأمر والنهي، أثبتوا القدر واحتجوا به، وردوا الأمر والنهي، قالوا: {لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا} [الأنعام: 148].

إذًا: هؤلاء احتجوا بقدر الله السابق، جاءتهم الرسل ونزلت الكتب هل آمنوا بالرسل وبالكتب؟ ما آمنوا بالكتب ولا الرسل واحتجوا بالقدر.

إذًا: هؤلاء أثبتوا القدر وردوا الأمر والنهي.

- القسم الثالث: وهم القدرية الإبليسية (نسبة إلى إبليس)، ما صفة هؤلاء؟ هؤلاء أثبتوا القدر وأثبتوا الأمر والنهي، لكنهم زعموا التعارض بين الأمر والنهي والقدر.

ماذا قال إبليس؟ {قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ} [الأعراف: 12]، إذًا: إبليس أثبت الخلق لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، إذًا: أثبت القدر.

ماذا قال إبليس أيضا؟ {قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ} [الحجر: 39].

إذًا: احتج بالقدر على المعصية وعلى ترك الأمر والنهي، فلم يسجد لآدم وزين لبني آدم الغواية.

فالذي جاء على لسان إبليس أنه آمن بالقدر، وكذلك هو يؤمن أن الله عَزَّ وَجلَّ يأمر وينهى لكنه عارض القدر بالأمر والنهي، أمره الله عَزَّ وَجلَّ بأن يسجد، فكان الجواب: كيف تأمرني أن أسجد لآدم وأنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين؟!

الآن من الذي خلق إبليس؟ الله، وهل يُقر إبليس بذلك؟ يُقر بذلك.

بم أمر الله عَزَّ وَجلَّ إبليس ؟ أن يسجد لآدم، هذا أمر أم لا؟ أمر، شرع أم ليس بشرع؟ شرع، هل امتثل إبليس؟ لا، لم يمتثل إبليس، عارض الأمر بالقدر، {قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ}.

كأنه يستدرك على الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، طالما أنك خلقتني خيرًا منه, فالأصل: أن يسجد لي, لا أن أسجد له، فهذه تسمى بالطائفة الإبليسية.

هذه أقسام القدرية.

فقال الشيخ هاهنا ليرد على هؤلاء: وَمَعَ ذَلِكَ؛ فَقَدْ أَمَرَ الْعِبَادَ بِطَاعَتِهِ.

إذًا: الذي شاء أن يخلقهم وخلقهم وكتب كل ذلك أمر العباد بطاعته.

وَطَاعَةِ رُسُلِهِ، وَنَهَاهُمْ عَنْ مَعْصِيَتِهِ.

هذه القطعة كذلك فيها رد على الجبرية الذين يقولون: إن العبد مجبور على فعله، وهو كالريشة في مهب الريح، كالمكتوف الذي أُلقي في الماء.

يقولون: طالما أن الله قدر كل شيء وشاءه وخلقه، إذًا: لا حيلة للعبد ولا قدرة ولا اختيار ولا فعل له.

وهذا موجود بكثرة بين الناس؛ الآن يفصلون بين الإيمان والعمل، يقولون: الإيمان في القلوب، أما أعمال الجوارح؛ فهذه بيد الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، لو أراد أن يهدينا لهدانا.

فالشيخ رَحِمَهُ اللهُ يقول: نقطع ونؤمن أن الله علم وكتب وشاء وخلق، لكن هذا لا يعني الاتكال على القدر السابق؛ ولذا أمر الله عَزَّ وَجلَّ العباد بطاعته وطاعة رسله ونهاهم عن معصيته.

قال: وَهُوَ سُبْحَانَهُ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ وَالْمُحْسِنِينَ وَالْمُقْسِطِينَ، وَيَرْضَى عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ، وَلا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ، وَلَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ، وَلَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ، وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ، وَلَا يُحِبُّ الْفَسَادَ.

في هذه القطعة يريد أن يُبين شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ أنه لا يلزم من إرادة الله للشيء أن يكون محبوبًا له، فقد يريد الله الشيء وهو لا يحبه، قد يريد الله الشيء في كونه كونًا وقدرًا وهو لا يحبه لحكمة، أراد وجود إبليس في كونه، أراد وجود يأجوج ومأجوج، أراد وجود المسيح الدجال، أراد وجود المعاصي، هل هذه موجودة في كون الله بغير إرادته؟ بإرادته.

ولذا ناظر القاضي عبد الجبار المعتزلي أبا إسحاق الاسفرائيني أمام الأمير- فأراد عبد الجبار -وهو معتزلي ينفي المشيئة وخلق الله لفعل العبد- أراد أن ينصر مذهبه، فقال -وهو يخاطب أبا إسحاق-: سبحان من تنزه عن الفحشاء.

أنت إذا سمعت هذه الجملة تقول له: بوركت، حقا تنزه ربنا عن الفحشاء، لكن هو ما أراد ذلك، أراد أن ينفي خلق الله لفعل العبد، ومن فعل العبد

الذنوب والمعاصي؛ لأنه يظن أنه لو أثبت خلق الله للذنب والمعصية؛ فهذا فيه نسبة الظلم لله، كيف يخلقها في العبد ثم يحاسبه عليها بعد ذلك؟

و قد رددنا على ذلك في الدرس الماضي وقلنا: الذي خلقها هو الذي جعل لك إرادة ومشيئة واختيارًا وما تركك وحدك، بل أنزل الكتب وأرسل الرسل.

أهل السنة والجماعة أذكياء وأزكياء، أذكياء من الذكاء، عندهم فطنة، وأزكياء، أي عندهم طهارة في القلوب وصراحة في العقول، نقاهم الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى؛ فهم نقاوة الخلق, أسأل الله عَزَّ وَجلَّ أن يجعلنا منهم، وأن يثبتنا على ذلك حتى نلقاه.

أبو إسحاق لما سمع ذلك ماذا قال؟ قال: سبحان من لا يكون في ملكه ما لا يشاء.

الأول قال: سبحان من تنزه عن الفحشاء، الفحشاء موجودة في هذا الملك أم ليست موجودة؟ موجودة، فأبو إسحاق قال: سبحان من لا يكون في ملكه ما لا يشاء.

فقال عبد الجبار : أيرضى ربنا أن يُعصى؟ فقال أبو إسحاق: أيُعصى قهرًا؟

إذًا هذا لما قال: أيرضى ربنا أن يُعصى؟ أراد كذلك أن ينصر مذهبه، فقال أبو إسحاق: أيُعصى قهرًا؟ يعني: إن وقعت معصية الله عَزَّ وَجلَّ في كونه وهي واقعة، أيُعصى قهرًا؟

إذًا: أراد الله عَزَّ وَجلَّ أن يُعصى كونًا وقدرًا ابتلاء للخلق، وإن كان لم يُرد ذلك شرعًا ومحبة سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

فأراد المصنف رَحِمَهُ اللهُ في هذه القطعة أن يُبين أنه لا تلازم بين أن يريد الله عَزَّ وَجلَّ الشيء وأن يكون محبوبًا، قد يريد الشيء ولا يكون محبوبًا له سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

فقال هاهنا: وَهُوَ سُبْحَانَهُ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ وَالْمُحْسِنِينَ وَالْمُقْسِطِينَ.

إذًا: إذا كان الرجل محسنًا وأتى بالإحسان طائعا لله، فهذا اجتمعت فيه إرادتان، كونية وشرعية.

أنتم الآن جئتم المسجد وجلستم هذا المجلس الطيب المبارك إن شاء الله، هذا وقع أم لم يقع؟ وقع، أراده الله عَزَّ وَجلَّ؟ أراده، كونًا وقدرًا؟ نعم، لأنه وقع، طيب شرعًا؟ نعم، لأنه يحبه.

فإذا وقعت طاعة الطائع؛ فهذا يجتمع فيه الإرادة الكونية القدرية والإرادة الشرعية.

فقال: وَهُوَ سُبْحَانَهُ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ وَالْمُحْسِنِينَ وَالْمُقْسِطِينَ، وَيَرْضَى عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ، وَلا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ، وَلَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ.

هل يوجد كافرون على وجه الأرض؟ أجل، هل تقع معصية وفسق وفحشاء؟ أجل، أرادها الله عَزَّ وَجلَّ كونًا وقدرًا؟ أجل، أرادها شرعًا؟ لا.

إذًا المعاصي والذنوب يتعلق بها الإرادة الكونية فقط.

أما الطائعون وأفعالهم الصالحة فهؤلاء يتعلق بهم الكونية والشرعية، وضربنا المثل لما كان الشيخ رَحِمَهُ اللهُ يذكر الأحاديث والآيات بإيمان أبي بكر وكفر أبي جهل.

أبو بكر رَضِي اللهُ عَنْهُ آمن أم لم يؤمن؟ آمن، فاجتمع فيه الإرادة الكونية والإرادة الشرعية؛ لأن الله عَزَّ وَجلَّ أراد إيمانه كونًا وقدرًا فوقع.

فالإرادة الكونية القدرية تعني الوقوع، {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} [يس: 82]، لابد أن يقع، وكذلك تحققت فيه الإرادة الشرعية؛ لأن الله عَزَّ وَجلَّ يحب إيمان المؤمنين.

ماذا عن أبي جهل؟ تحققت فيه الإرادة الكونية القدرية فقط، ولم تتحقق فيه الإرادة الشرعية، لأن الله عَزَّ وَجلَّ لا يحب الفساد ولا يرضى لعباده الكفر.

قال: وَالْعِبَادُ فَاعِلُونَ حَقِيقَةً، وَاللَّهُ خَلَقَ أفْعَالَهُم.

وهذا ثابت بكتاب الله وسنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكذلك بالعقل.

أين الدليل في كتاب الله على أنك فاعل حقيقة؟ {وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ} [الإنسان: 30]، أين الدليل؟ {وَمَا تَشَاءُونَ}.

قال: {لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ} [التكوير: 28]، {شَاءَ مِنْكُمْ}؛ أنت الذي شئت، و {أَنْ يَسْتَقِيمَ}؛ نسب الاستقامة للعبد.

قال: {وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ} [الصافات: 96]، إذًا: أنت الذي تعمل، أنت الذي تأكل، تشرب، تصلي، تزكي، تحج، تأتي بالمعاصي.

وهذا معلوم كذلك من جهة العقل فأنت تعلم من نفسك حقيقة أنك أنت الذي تشرب الآن.

فقال: وَالْعِبَادُ فَاعِلُونَ حَقِيقَةً، وَاللَّهُ خَلَقَ أفْعَالَهُم. وَالْعَبْدُ هُوَ: الْمُؤْمِنُ، وَالْكَافِرُ، وَالْبَرُّ، وَالْفَاجِرُ، وَالْمُصَلِّي، وَالصَّائِمُ.

المؤمن هذا اسم فاعل، والكافر اسم فاعل، والبر والفاجر والمصلي والصائم؛ كلها أسماء أفعال تضمنت صفات.

المؤمن هو من آمن، أم أن الذي آمن الله عَزَّ وَجلَّ ؟ العبد المؤمن، وكذلك الذي كفر العبد، والذي أتى بالبر العبد، وأتى بالفجور العبد، والذي صلى العبد، والذي صام العبد.

فالعبد هو المؤمن والكافر والبر والفاجر والمصلي والصائم، لكن من الذي خلق كل ذلك؟ الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

قال: وِلِلْعِبَادِ قُدْرَةٌ عَلَى أَعْمَالِهِمْ، وَلَهُمْ إِرَادَةٌ، وَاللهُ خَالِقُهُمْ وَقُدْرَتَهُمْ وَإِرَادَتَهُمْ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: {لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ (28) وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} [التكوير: 28-29].

قال: وَهَذِهِ الدَّرَجَةُ مِنَ الْقَدَرِ.

أي الدرجة التي يدخل فيها المشيئة والخلق.

قال: يُكَذِّبُ بِهَا عَامَّةُ الْقَدَرِيَّةِ.

أي أكثر القدرية، أما القدرية الأول فهؤلاء انقرضوا، وإنما الذي يُكذب بهذه الدرجة المعتزلة الذين هم موجودون الآن، والذين وجدوا بعد القدرية الأول.

قال: يُكَذِّبُ بِهَا عَامَّةُ الْقَدَرِيَّةِ الَّذِينَ سَمَّاهُمُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَجُوسَ هَذِهِ الأُمَّةِ، وَيَغْلُو فِيهَا قومٌ مِنْ أَهْلِ الإِثْبَاتِ، حَتَّى سَلَبُوا الْعَبْدَ قُدْرَتَهُ وَاخْتِيَارَهُ، وَيُخْرِجُونَ عَنْ أَفْعَالِ اللهِ وَأَحْكَامِهِ حُكْمَهَا وَمَصَالِحَهَا.

فالأشعرية جبرية، لكنهم من متوسطة الجبرية، عندنا غُلاة الجبرية، ومتوسطة الجبرية: غُلاة الجبرية هؤلاء هم الذين يقولون: إن العبد لا إرادة له ولا اختيار ولا مشيئة، وإنه كالريشة في مهب الريح.

ويردون كل ذلك إلى القدر.

دخل رجل على امرأته وجدها تزني -عياذاً بالله-, فلما أراد أن يفتك بالذي يزني بها ردته وقالت: خالفت الكتاب والسنة، الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، فقال: جزاكِ الله خيرًا كدت أن أهلك!! هؤلاء هم غُلاة الجبرية.

أما الأشعرية فهم متوسطة في الجبر، هل يثبتون للعبد إرادة ومشيئة ؟ أجل. لها تأثير في المقدور؟ لا، المؤثر على الحقيقة هو الله، ولذا لا يثبتون تأثيرًا للأشياء.

السكينة ليست من خصائصها القطع عندهم، النار ليس من خصائصها الإحراق، الماء ليس من خصائصه الري ولا تأثير لذلك ، ولو قلت بذلك لكفرت عندهم.

ومن توسط منهم قال: قد جاء الذي يقول ذلك ببدعة منكرة، لماذا ؟

يقولون: لأنك لو قلت ذلك لجعلت قادرًا آخر مع الله، لجعلت مؤثرًا في الخلق آخر مع الله، وأعظم صفات الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى القدرة على الاختراع، والقدرة على التأثير.

ولذا أنت إذا شربت الآن فليس الماء سببًا في الري، ولكن الله خلق الري عند الشرب، الماء ليس له أي تأثير، لكن ربنا خلق الري.

إذا أمسكت السكين؟ ليس للسكين قدرة على القطع، لكن الله خلق القطع عند إمرار السكين على المقطوع الذي تريد أن تقطعه.

ماذا عن النار؟ ليس لها قدرة على الإحراق؛ فأنكروا الأسباب وقدحوا في العقل، وردوا دلالة كثير من الآيات وأولوها ؛ ولذا هم ينكرون كل (باء) للسببية.

لا يوجد عندهم شيء اسمه باء السببية، الباء التي تُبين أن هذا سبب في هذا، الماء لما نزل من السماء فأنبت الأرض، لا يقولون ذلك، يقولون: لو أثبت ذلك لكفرت، أثبت مؤثرًا مع الله وقادرًا مع الله، لكن ما الذي حدث؟

الإنبات حصل عند نزول الماء على الأرض، هل الماء ليس له أي تأثير؟ ليس له أي تأثير، وهذه تسمى عندهم بنظرية الكسب، وهذه النظرية لا حقيقة لها وهم أنفسهم مختلفون في تفسيرها، وهي التي قال بها أبو الحسن الأشعري وقالوا بها بعده.

قال: حَتَّى سَلَبُوا الْعَبْدَ قُدْرَتَهُ وَاخْتِيَارَهُ، وَيُخْرِجُونَ عَنْ أَفْعَالِ اللهِ وَأَحْكَامِهِ حُكْمَهَا وَمَصَالِحَهَا.

ولذلك تقول الأشعرية: أفعال الله غير معللة ليس لها حكم ولا مصالح، لو أراد الله عَزَّ وَجلَّ أن يعذب الأنبياء والرسل لفعل، {لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ} [الأنبياء: 23].

ولو أراد وشاء أن يُدخل أبا جهل وأبا لهب وعتات المشركين الجنة لفعل، هو محض مشيئة وإرادة.

وهذا خلاف الحكمة وخلاف التعليل، يقولون: قد قال الله{لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ}؛ فنسبوا لله تَبَارَكَ وَتَعَالَى النقص وما يتنزه عنه المخلوق؛ إذ القرآن مليء بالآيات الدالة على حكمته من خلقه سبحانه، وقد أشار ابن تيمية إلى ذلك في التدمرية لما أراد تناقضهم في إثبات بعض الصفات عقلا دون بعضها.

قال الشيخ الهراس رَحِمَهُ اللهُ: قَوْلُهُ: ((وَأَمَّا الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ مِنَ الْقَدَرِ)) إلخ؛ فَهِيَ تَتَضَمَّنُ شَيْئَيْنِ أَيْضًا:

أَوَّلُهُمَا: الْإِيمَانُ بِعُمُومِ مَشِيئَتِهِ تَعَالَى، وَأَنَّ مَا شَاءَ اللَّهُ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ.

احفظ هذه الجملة العظيمة تُرِحك فيما يصيبك من بلاء ونصب وتعب وفقر في هذه الحياة الدنيا، ما شاء الله كان، إذا فاتك شيء؛ قل: ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، قدَّر الله وما شاء فعل.

قال: وَأَنَّهُ لَا يَقَعُ فِي مُلْكِهِ مَا لَا يُرِيدُ.

أي لا يقع في ملكه ما لا يريده كونًا وقدرًا.

قال: وَأَنَّ أَفْعَالَ الْعِبَادِ مِنَ الطَّاعَاتِ وَالْمَعَاصِي وَاقِعَةٌ بِتِلْكَ الْمَشِيئَةِ الْعَامَّةِ الَّتِي لَا يَخْرُجُ عَنْهَا كائِنٌ؛ سَوَاءٌ كَانَ مِمَّا يُحِبُّهُ اللَّهُ وَيَرْضَاهُ أَمْ لَا.

إذا كان الأمر مما يحبه الله ويرضاه فهذا اجتمع فيه الإرادتان: الإرادة الكونية القدرية والإرادة الشرعية.

السؤال: اذكر آية في كتاب الله فيها ذكر الإرادة الكونية القدرية؟ نحن قلنا: الإرادة الكونية القدرية لابد أن تقع، ولا يلزم أن تكون محبوبة لله.

الجواب: {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}؛ هذه إرادة كونية قدرية لابد أن تقع.

قال نوح عَليهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمَ لقومه: {وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ} [هود: 34]، هنا إرادة كونية قدرية.

لماذا هي إرادة كونية قدرية؟ لأن الله لا يحب الغواية.

اذكر آية فيها ذكر الإرادة الشرعية، التي تعني المحبة؟ {يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ} [النساء: 26].

آية أخرى: {يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ} [البقرة: 185].

{وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ} [النساء: 27].

{وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيمًا} [النساء: 27].

{يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ} [النساء: 28].

كل هذه إرادة شرعية.

هل الإرادة السرعية يلزم وقوعها؟ لا يلزم، الله عَزَّ وَجَلَّ يريد من جميع خلقه أن يؤمنوا، ومع ذلك: {وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ} [الأنعام: 116].

هل الإرادة الكونية يلزم وقوعها؟ يلزم وقوعها، لا يتخلف المراد، {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}.

هل الإرادة الشرعية يلزم منها أن يكون المراد محبوبًا لله؟ نعم، هل الإرادة الكونية كذلك؟ قد يكون محبوبًا لله.

هل يلزم أن نرضى بكل ما يريده الله شرعا؟ نعم، لأنه محبوب لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، من جهة إرادة الله عَزَّ وَجلَّ نرضى بها، ومن جهة وقوعها كذلك نرضى بها، لأن الله عَزَّ وَجلَّ يحبها.

ماذا عن الإرادة الكونية القدرية؟ لا يلزم، قد نرضى بها وقد لا نرضى بها.

إن كان في المصائب والبلايا؟ نرضى، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: العين تدمع، والقلب يحزن ولا نقول إلا ما يُرضي الله.

ماذا عن الذنوب والمعاصي؟ لا نرضى ونرد ذلك بالشرع.

فقال رَحِمَهُ اللهُ: وَثَانِيهُمَا: الْإِيمَانُ بِأَنَّ جَمِيعَ الْأَشْيَاءِ وَاقِعَةٌ بِقُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَأَنَّهَا مَخْلُوقَةٌ لَهُ؛ لَا خَالِقَ لَهَا سِوَاهُ، لَا فَرْقَ فِي ذَلِكَ بَيْنَ أَفْعَالِ الْعِبَادِ وَغَيْرِهَا؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: {وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ} [الصافات: 96].

قال: ويجبُ الْإِيمَانُ بِالْأَمْرِ الشَّرْعِيِّ.

أي لا تركن إلى القدر، لكن يجب أن تؤمن بالأمر الشرعي.

وَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى كلَّف الْعِبَادَ، فَأَمَرَهُمْ بِطَاعَتِهِ وَطَاعَةِ رُسُلِهِ، وَنَهَاهُمْ عَنْ مَعْصِيَتِهِ.

وَلَا مُنَافَاةَ أَصْلاً بَيْنَ مَا ثَبَتَ مِنْ عُمُوم مَشِيئَتِهِ سُبْحَانَهُ لِجَمِيعِ الْأَشْيَاءِ وَبَيْنَ تَكْلِيفِهِ الْعِبَادَ بِمَا شَاءَ مِنْ أَمْرٍ ونهيٍ؛ فَإِنَّ تِلْكَ الْمَشِيئَةَ لَا تُنَافِي حُرِّيَّةَ الْعَبْدِ وَاخْتِيَارَهُ لِلْفِعْلِ، وَلِهَذَا جَمَعَ اللَّهُ بَيْنَ الْمَشِيئَتَيْنِ بِقَوْلِهِ: {لِمَن شَاء مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ * وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَن يَشَاء اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ}.

فأثبت مشيئة للعبد.

كَمَا أَنَّهُ لَا تلازمَ بَيْنَ تِلْكَ الْمَشِيئَةِ وَبَيْنَ الْأَمْرِ الشَّرْعِيِّ المتعلّق بِمَا يُحِبُّهُ اللَّهُ وَيَرْضَاهُ، فَقَدْ يَشَاءُ اللَّهُ مَا لَا يحبُّه، ويحبُّ مَا لَا يَشَاءُ كَوْنَهُ.

فقد يشاء الله ما لا يحبه، مثاله: الكفر، خلق إبليس.

قد يشاء الله ما لا يحبه، يشاء وجوده في كونه وهو لا يحبه، كمثل الكفر، ووجود إبليس، والمعاصي.

ويحبُّ مَا لَا يَشَاءُ كَوْنَهُ.

يحب من جميع خلقه أن يؤمنوا بالأنبياء والمرسلين، ومع ذلك يأتي النبي يوم القيامة ومعه الرجل.

نبي يأتي قومه ولم يؤمن به إلا رجل، مع أن الله عَزَّ وَجلَّ يحب أن يؤمن الجميع، لكنه ما شاء ذلك سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، ويأتي نبي وليس معه أحد.

قال: فَقَدْ يَشَاءُ اللَّهُ مَا لَا يحبُّه، ويحبُّ مَا لَا يَشَاءُ كَوْنَهُ:

فَالْأَوَّلُ: كَمَشِيئَتِهِ وُجُودَ إِبْلِيسَ وَجُنُودِهِ.

وَالثَّانِي: كَمَحَبَّةِ إِيمَانِ الْكُفَّارِ، وَطَاعَاتِ الفجَّار، وَعَدْلِ الظَّالِمِينَ، وَتَوْبَةِ الْفَاسِقِينَ، وَلَوْ شَاءَ ذَلِكَ؛ لَوُجِدَ كُلُّهُ.

وَلَوْ شَاءَ ذَلِكَ؛ المشيئة ترادف الإرادة الكونية القدرية.

إذًا: المشيئة تساوي الإرادة الكونية القدرية، شاء؛ أي أراد كونًا وقدرًا.

هل الإرادة تنقسم أم لا ؟ تنقسم إلى كونية قدرية وشرعية.

هل المشيئة تنقسم؟ لا تنقسم.

ولذلك أخطأ ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ في تفسيره لسورة الكهف حين ذكر أن المشيئة تنقسم إلى: كونية قدرية، وإلى شرعية؛ وهذا خطأ؛ لأن المشيئة واحدة.

ونقل ذلك الشيخ حافظ حكمي رَحِمَهُ اللهُ في معارج القبول، وهذا كذلك سهو منه؛ لأن المشيئة لا تنقسم، لا يوجد شيء اسمه مشيئة شرعية.

مشيئة أي: لابد أن يقع، المشيئة ترادف الإرادة الكونية القدرية فقط.

قال: وَكَذَلِكَ لَا مُنَافَاةَ.

قوله: لا تلازم، ولا منافاة، لا كذا، لا كذا، كل هذا يذكره لأن من الناس من عارض هذا بهذا، من ظن التعارض بين القدر والأمر، من ظن أن كل ما أراده الله فلابد أنه يحبه.

ولذا رد المصنف ورد الشارح على كل هؤلاء، قال: وَكَذَلِكَ لَا مُنَافَاةَ بَيْنَ عُمُومِ خَلْقِهِ تَعَالَى لِجَمِيعِ الْأَشْيَاءِ، وَبَيْنَ كَوْنِ الْعَبْدِ فَاعِلاً لِفِعْلِهِ؛ فَالْعَبْدُ هُوَ الَّذِي يوصَفُ بِفِعْلِهِ.

هذا خير دليل، من الذي يصوم؟ العبد، من الصائم القائم؟ العبد، من الكافر العاصي؟ العبد، لا يوصف الله عَزَّ وَجلَّ بشيء من ذلك.

فَهُوَ الْمُؤْمِنُ وَالْكَافِرُ، وَالْبَرُّ وَالْفَاجِرُ، وَالْمُصَلِّي وَالصَّائِمُ، وَاللَّهُ خَالِقُهُ، وَخَالِقُ فِعْلِهِ؛ لِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي خَلَقَ فِيهِ الْقُدْرَةَ وَالْإِرَادَةَ اللَّتَيْنِ بِهِمَا يَفْعَلُ.

ثم ذكر الهراس كلام الشيخ السعدي رَحِمَهُ اللهُ الذي ذكرناه في الدرس الماضي،

ثم قال المصنف رَحِمَهُ اللهُ بعد ذلك: وَخُلاَصَةُ مَذْهَبِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ فِي الْقَدَرِ وَأَفْعَالِ الْعِبَادِ مَا دلَّت عَلَيْهِ نُصُوصُ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ مِنْ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ هُوَ الْخَالِقُ لِكُلِّ شَيْءٍ مِنَ الْأَعْيَانِ وَالْأَوْصَافِ وَالْأَفْعَالِ وَغَيْرِهَا، وَأَنَّ مَشِيئَتَهُ تَعَالَى عَامَّةٌ شَامِلَةٌ لِجَمِيعِ الْكَائِنَاتِ، فَلاَ يَقَعُ مِنْهَا شَيْءٌ إِلَّا بِتِلْكَ الْمَشِيئَةِ، وَأَنَّ خَلْقَهُ

سُبْحَانَهُ الْأَشْيَاءَ بِمَشِيئَتِهِ إِنَّمَا يَكُونُ وَفْقًا لِمَا عَلِمَهُ مِنْهَا بِعِلْمِهِ الْقَدِيمِ، وَلِمَا كَتَبَهُ وقدَّره فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ، وَأَنَّ لِلْعِبَادِ قُدْرَةً وَإِرَادَةً تَقَعُ بِهَا أَفْعَالُهُمْ، وَأَنَّهُمُ الْفَاعِلُونَ حَقِيقَةً لِهَذِهِ الْأَفْعَالِ بِمَحْضِ اخْتِيَارِهِمْ، وَأَنَّهُمْ لِهَذَا يستحقُّون عَلَيْهَا الْجَزَاءَ: إِمَّا بِالْمَدْحِ وَالْمَثُوبَةِ، وَإِمَّا بِالذَّمِّ وَالْعُقُوبَةِ، وَأَنَّ نِسْبَةَ هَذِهِ الْأَفْعَالِ إِلَى الْعِبَادِ فِعْلاً لَا يُنَافِي نِسْبَتَهَا إِلَى اللَّهِ إِيجَادًا وَخَلْقًا.

إذًا: هي من العبد فعل، ومن الله إيجاد وخلق.

لِأَنَّهُ هُوَ الْخَالِقُ لِجَمِيعِ الْأَسْبَابِ الَّتِي وَقَعَتْ بِهَا.

ضل في القدر طائفتان -كما تقدم-: القدرية وذكرنا أصنافهم، والجبرية كذلك، وبيَّنا قولهم.

بقيت نقطة أو بعض الكلمات التي أريد أن أنقلها.

لماذا خلق الله عَزَّ وَجلَّ إبليس مع أنه شر؟ فلو أراد الله عَزَّ وَجلَّ ألا يُعصى لما خلق إبليس، كما يقول عمر بن عبد العزيز.

إذن لماذا خلق الله عَزَّ وَجلَّ إبليس؟

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ يُبين الحِكمة من ذلك:

- أنه يُظهر لعباده قدرة الرب على خلق المتضادات والمتقابلات، وهذا أكمل في بيان قدرته، فخلق هذه الذات التي هي أخبث الذوات إبليس وشرها، وهي سبب كل شر في مقابلة ذات جبريل.

سبحان الله، خلق هذا الخبيث في مقابلة ذات جبريل التي هي من أشرف الذوات وأطهرها وأزكاها، وهي مادة كل خير، فتبارك خالق هذا وهذا.

كما ظهرت قدرته في خلق الليل والنهار، والداء والدواء، والحياة والموت، والحسن والقبيح، والخير والشر، وذلك من أدل دليل على كمال قدرته وعزته وملكه وسلطانه؛ فإنه خلق هذه المتضادات وقابل بعضها ببعض وجعلها محال تصرفه وتدبيره، فخلو الوجود عن بعضها بالكلية تعطيل لحكمته وكمال تصرفه وتدبير مملكته، هذه أول حكمة.

- ومنها: ظهور آثار أسمائه القهرية، مثل: القهار والمنتقم والعدل والضار والشديد العقاب والسريع العقاب وذي البطش الشديد والخافض والمذل، هذه منها أسماء ومنها أخبار عن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

فإن هذه الأسماء والأفعال كمال لابد من وجود متعلقها، ولو كان الجن والإنس على طبيعة الملائكة لم يظهر أثر هذه الأسماء.

هب أن الإنس والجن جميعًا كانوا على طبيعة طيبة حسنة، والله عَزَّ وَجلَّ من أسمائه الجبار، ومن أسمائه القهار، وهو المنتقم سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، فأين تظهر آثار هذه الأسماء إن لم يكن هناك عُصاة وظلمة وجبابرة؟

فخلق الشر وخلق هؤلاء لتظهر آثار أسمائه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

- ومنها ظهور أثر أسمائه المتضمنة لحلمه وعفوه وستره وتجاوزه عن حقه وعتقه لمن يشاء من عبيده، فلولا خلقه ما يكرهه من الأسباب المفضية إلى ظهور آثار هذه الأسماء لتعطلت هذه الحكم والفوائد.

فكم من إنسان يعصي ويحلم عليه ربه ويستره؟ إذًا: هذا من الحكم من خلق العُصاة، ومن خلق المعصية.

قال رَحِمَهُ اللهُ بعد ذلك: ولذا قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللهُ بِكُمْ، وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ فَيَسْتَغْفِرُونَ اللهَ، فَيَغْفِرُ لَهُمْ"، هل هذا الحديث فيه دليل على أن يكون العبد جريئًا على الذنب والمعصية؟ لا.

إذن: ما المراد بهذا الحديث الذي ذكره ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ؟ أن هذا يظهر منه آثار أسماء الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، تُذنب فتتوب، فيغفر الله عَزَّ وَجلَّ لك، فترتفع درجتك عند الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

- قال: ومنها ظهور آثار أسماء الحكمة والخبرة؛ فإنه الحكيم الخبير الذي يضع الأشياء مواضعها، وينزلها منازلها اللائقة بها، فلا يضع الشيء في غير موضعه، ولا ينزله في غير منزلته التي يقتضيها كمال علمه وحكمته وخبرته سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

الشيخ ابن عثيمين كذلك له كلام طيب جدًا في بيان الحكمة، يقول: فإن قلت: كيف يقع ما لا يرضاه وما لا يحبه؟ وهل أحد يُكرهه على أن يوقع ما لا يحب وما لا يرضاه؟

الشيخ يقول: لا أحد يُكرهه على أن يوقع ما لا يحب ولا يرضى، وهذا الذي يقع من فعله عَزَّ وَجلَّ، وهو مكروه له لا يحبه، لا يحب الفساد، هو مكروه له من وجه محبوب له من وجه آخر، لما يترتب عليه من المصالح العظيمة.

فمثلاً: الإيمان محبوب لله تعالى، والكفر مكروه له، فأوقع الكفر وهو مكروه له لمصالح عظيمة؛ لأنه لولا وجود الكفر ما عُرف الإيمان، ولولا وجود الكفر ما عرف الإنسان قدر نعمة الله عليه بالإيمان.

أنت تقارن بين حالك وحال الكافر، تقارن بين حالك وحال الذي يسجد للبقرة، وحال من يقول: إن الله ثالث ثلاثة، يطوف حول قبر أو صنم، ولولا وجود الكفر لما قام الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لأن الناس كلهم يكونون على المعروف.

ولولا وجود الكفر ما قام الجهاد، ولولا وجود الكفر لكان خلق النار عبثًا؛ لأن النار مثوى الكافرين، ولولا وجود الكفر لكان الناس أمة واحدة ولم يعرفوا معروفًا ولم ينكروا منكرًا، وهذا لا شك أنه مُخل بالمجتمع الإنساني.

وكذلك يقال في الصحة والمرض والابتلاء، فمن أعظم أسباب الإلحاد في هذا الزمان مسألة وجود الشر في هذا العالم.

أذكر أن قناة الجزيرة أخرجت فيلما سنة (2017)، وكان اسمه حصاد سبع سنين، أو في سبع سنين أي بعد ثورة (25 يناير).

أتوا بشاب اسمه حسن البنا ، وبالحالة الذي صار عليها، والحالة التي كان عليها أيام الثورة.

أتوا ببنت, البنت هذه صارت تحلق شعرها كالذكور وصارت تضع الوشم على جسدها وتبرجت بعد أن كانت من أسرة سلفية، -هكذا تقول-، أبوها كان سلفيًا، وأمها كانت سلفية، وكانت تحفظ القرآن وكذا وكذا.

أتوا برجلٍ ترك مصر وهاجر إلى سوريا وانضم إلى داعش هناك.

فجاءوا بهذه النماذج الثلاثة، طبعًا هذه النماذج: هذه البنت صارت ملحدة تطعن في وجود الله وتُنكر وجوده.

لماذا يتكلم هؤلاء بمثل هذه الأمور؟ يقولون: ألا يرى الله عَزَّ وَجلَّ ما يقع في هذا العالم من ظلم، ما وقع من تقتيل وحرق وسجن وغير ذلك.

إذًا وجود هذا الشر الكثير في العالم دليل على عدم وجود الله؛ لأن الله لو كان موجودًا لنصر المظلومين ولأظهر الحق- هكذا قالت-

وقد كانت جماعة الإخوان وقتئذ تقول دائما: الله معنا، الله معنا، وقد خطبت خطبة وقتها بعنوان: معية الله لمن تكون؟! بينت فيها أن المعية لا تكون إلا لمن نصر دينه بدينه، لا تكون إلا لمن نصر دينه على منهاج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

لكن نُصرة الدين بالعقول والسياسات الفاسدة والمكر والخديعة وخلاف الشرع، هذا لا يكون.

لماذا وقع لهم مثل هذه الأمور التي يذكرونها من قتل وتشديد وتعذيب وغير ذلك؟ إنها الحكمة التي ذكرها ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ، والتي يذكرها العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ هاهنا.

يقول الشيخ ابن عثيمين: وكم من إنسانٍ إذا أسبغ الله عليه النعمة بالبدن والمال والولد والبيت والمركوب، ترفع ورأى أنه مستغنٍ بما أنعم الله به عليه عن طاعة الله عَزَّ وَجلَّ.

والله لو نصر الله هؤلاء على ما هم فيه من بدعة وبُعد عن الشرع واحتكام لغير شرع الله لتبدلت الأرض، ولفسدت الأرض، ولانمحى دين رب العالمين؛ لأن الله عَزَّ وَجلَّ لا ينصر من يحارب دينه، ومن يريد أن ينصر الشرع بغير الشرع!

لكن لما وقعت هذه المفسدة العظيمة التي حصلت وما وقع لبعضهم من ظلم، بعضهم ظُلم، وبعضهم أخذ جزاءه.

الحكمة من ذلك ماذا؟ {قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ} [آل عمران: 165].

أفاق بعضهم بعد ذلك وقال: أردنا أن ننصر الشرع بغير الشرع، ورجع كثير من الشباب إلى منهج السلف الصالح.

فالله عَزَّ وَجلَّ يقول: {ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} [الروم: 41].

إذًا: الفساد والابتلاء والقتل والتشريد والابتلاء بالفقر والمرض ، {لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ}.

من الممكن أن يكون المرء في نعمة، ومع ذلك لا يصلي ولا يصوم ولا يذكي، فجأة بين يوم وليلة وجد مصنعه احترق وضاع كل شيء، هذا بذنبه، ما كان يصلي، معه مال وما حج لله عَزَّ وَجلَّ ولا مرة ولا اعتمر، فقد يكون هذا سببا في أن يعود إلى الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

فوجود الشر في هذا العالم له حكم عظيمة، فهؤلاء الذين قالوا: إنهم ألحدوا بسبب كذا وكذا ، نقول: أخطأتم.

أولًا: أنت أيها المُلحد جاحد تريد إلهًا بشريًا، تريد إلهًا تحكم عليه بما يُحسِّنه عقلك، يقولون: هذا الإله لابد أن يكون كذا وكذا يتصف صفات معينة.

من أين جئت بهذه الصفات؟ جئت بها من عقلك القاصر؟ لا، الله عَزَّ وَجلَّ لا يفعل في هذا الخلق إلا على مقتضى حكم عظيمة، قد ندرك هذه الحكم وقد لا ندركها.

فالشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ يقول –وبه اختم–، يقول: فإذا رأى الإنسان أنه مستغنٍ بما أنعم الله به عليه عن طاعة الله؛ كما قال الله تعالى: {كَلاَّ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى (6) أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى} [العلق: 6-7].

قال: وهذه مفسدة عظيمة، فإذا أراد الله أن يرد هذا الإنسان إلى مكانه، ابتلاه حتى يرجع إلى الله.

إذًا: وقوع الشر في هذا العالم ابتلاء حتى يرجع العبد إلى الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

قال: وشاهد هذا قوله تعالى: {ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ}.

الشيخ له كلام طيب جدًا، يعني: حبذا لو رجعتم إليه وقرأتموه.

لكن هذا خلاصة هذا الباب العظيم الذي من أتقنه ومن أحكمه –باب الإيمان بالقضاء والقدر– لا يتكل على القضاء والقدر، لا يترك الأسباب الشرعية والقدرية التي يستطيع أن يقوم بها، لا يعارض بين الشرع والقدر، لا يعارض بين تقدير الله عَزَّ وَجلَّ لأفعال العبد وكونهم يفعلونها باختيارهم يهنئوا ويرتاحوا في هذه الحياة الدنيا، وفي الآخرة إن شاء الله.

ثم ذكر المصنف رَحِمَهُ اللهُ بعد ذلك أصلاً آخر من أصول أهل السنة والجماعة, وهو: أن الإيمان قول وعمل واعتقاد.

وهذا نذكر فيه مسألة الأسماء والأحكام.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم، وجزاكم الله خيرًا.

الدرس الرابع والأربعون

إن الحمد لله, نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله تعالى من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله, صلى الله عليه, وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد:

فقد وصلنا في هذه العقيدة المباركة العقيدة الواسطية لشيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ إلى الكلام عن الإيمان وأركانه.

وشيخ الإسلام يسير على طريقة مقصودة، فإنه رَحِمَهُ اللهُ ذكر أركان الإيمان الستة، وختمها بالكلام عن الإيمان في القضاء والقدر.

ثم بعد ذلك ذكر الإيمان وما يتركب منه وأنه قول وعمل واعتقاد، وذلك لأن قيام الدين على فعل المأمور وترك المحذور، وهذا يتعلق بقول القلب وعمله وأقوال اللسان وعمله، وكذلك عمل الجوارح.

والله عَزَّ وَجلَّ لما ذكر الإيمان في كتابه ذكره مقرونًا دائمًا بالعمل، ولذا ذكره المصنف رَحِمَهُ اللهُ ليُبين أهمية ذلك، وذكره كذلك للمخالفة التي وقعت فيه، وهذه المخالفة كان فيها إفراط أو تفريط، فكانت المخالفة من الخوارج والمعتزلة وهم الوعيدية، وكذلك كانت من الكرامية ومن المُرجئة، وكل هؤلاء خالفوا في هذا الأصل العظيم كما سنرى.

فقال رَحِمَهُ اللهُ: وَمِنْ أُصُولِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ أَنَّ الدِّينَ وَالإِيمَانَ قَوْلٌ وَعَمَلٌ، قَوْلُ الْقَلْبِ وَاللِّسَانِ، وَعَمَلُ الْقَلْبِ وَاللِّسَانِ وَالْجَوَارِحِ. وَأَنَّ الإِيمَانَ يَزِيدُ بِالطَّاعَةِ، وَيَنْقُصُ بِالْمَعْصِيَةِ.

وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ لا يُكَفِّرُونَ أَهْلَ الْقِبْلَةِ بِمُطْلَقِ الْمَعَاصِي وَالْكَبَائِرِ؛ كَمَا يَفْعَلُهُ الْخَوَارِجُ؛ بَلِ الأُخُوَّةُ الإِيمَانِيَّةُ ثَابِتَةٌ مَعَ الْمَعَاصِي؛ كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ: {فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ} [البقرة: 178], وَقَالَ: {وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (9) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ} [الحجرات: 9-10].

قال: وَلَا يَسْلُبُونَ الْفَاسِقَ الْمِلِّيَّ اسْمَ الإِيمَانِ بِالْكُلِّيَّةِ، وَلَا يُخَلِّدُونَهُ فِي النَّارِ؛ كَمَا تَقُولُ الْمُعْتَزِلَةُ. بَلِ الْفَاسِقُ يَدْخُلُ فِي اسْمِ الإِيمَانِ؛ كَمَا فِي قَوْلِهِ: {فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ} [النساء: 92]، وَقَدْ لَا يَدْخُلُ فِي اسْمِ الإِيمَانِ الْمُطْلَقِ؛ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا } [الأنفال: 2]، وَقَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلا يَسْرِقُ السَّارِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَشْرَبُ الْخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَنْتَهِبُ نُهْبَةً ذَاتَ شَرَفٍ يَرْفَعُ النَّاسُ إِلَيْهِ فِيهَا أَبْصَارَهُمْ حِينَ يَنْتَهِبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ)).

قال: وَيَقُولُونَ: هُوَ مُؤْمِنٌ نَاقِصُ الإِيمَانِ، أَوْ مُؤْمِنٌ بِإِيمَانِهِ فَاسِقٌ بِكَبِيرَتِهِ، فَلاَ يُعْطَى الاسْمَ الْمُطْلَقَ، وَلَا يُسْلَبُ مُطْلَقَ الاسْمِ.

هذه هو خلاصة معتقد أهل السنة والجماعة في الإيمان وما يتركب منه.

فيقول رَحِمَهُ اللهُ: وَمِنْ أُصُولِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ أَنَّ الدِّينَ وَالإِيمَانَ قَوْلٌ وَعَمَلٌ.

والإيمان من الدين، لأن الدين مراتبه ثلاثة: الإسلام والإيمان والإحسان، وإنما عطف المصنف رَحِمَهُ اللهُ الإيمان على الدين مع أنه منه لزيادة الاهتمام به، ولأن الكلام سيكون عنه، فالدين كل ما يتدين به المرء لله تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

وأما الإيمان فإنه في لغة العرب يعني: التصديق الجازم والإقرار.

وأما في الشرع: فكما عرفه المصنف رَحِمَهُ اللهُ: بأنه: قول وعمل.

وبعض السلف يقولون: قول وعمل ونية.

وبعضهم يقول: قول وعمل ونية واعتقاد.

ولا خلاف في هذه العبارات، فالعبارات كلها مردها إلى معنى واحد وهو: أن الإيمان قول وعمل، قول القلب وعمل القلب، وقول اللسان وعمل الجوارح.

قول القلب وعمل القلب، إذًا: القلب له قول وعمل.

ما قول القلب؟ ما ينعقد عليه ويجزم به مما يتعلق بهذا الباب.

إذًا المراد بقول القلب في كلام السلف: العقائد التي يعترف بها القلب ويعتقدها، من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، فهذا يسمى قول القلب.

وأما عمل القلب فهو حركته التي يحبها الله ورسوله.

يقول الشيخ السعدي رَحِمَهُ اللهُ: وضابط عمل القلب محبة الخير وإرادته الجازمة، وكراهية الشر والعزم على تركه، وعمل القلب هذا هو الذي ينشأ عنه عمل الجوارح، ولذا كانت أعمال القلوب هي الأصل.

إذا انتفت أعمال القلوب انتفى الإيمان بالكلية، أعمال القلوب كالمحبة والتوكل والرجاء والإنابة والرغبة والرهبة والخشية والخوف، هذه أعمال القلوب.

فإذا انتفت هذه الأعمال لأن هذه الأعمال ينبغي أن تكون لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، فإذا زالت من القلوب انتفى الإيمان بالكلية، لكن قد توجد هذه الأعمال ويتخلف بعض عمل الجوارح.

قد توجد هذه الأعمال أعمال القلوب ويتخلف بعض عمل الجوارح، فيقع المرء في كبيرة من الكبائر، هل يكون كافرًا بذلك يخرج من الإيمان؟ هذا ما سنعرفه، وكيف فارق أهل السنة والجماعة الوعيدية والوعدية في هذا الباب؟

فيقول رَحِمَهُ اللهُ هاهنا: أَنَّ الدِّينَ وَالإِيمَانَ قَوْلٌ وَعَمَلٌ، قَوْلُ الْقَلْبِ وَاللِّسَانِ.

ما معنى قول القلب؟ اعتقاد القلب.

قول اللسان، أي: نطق اللسان من قراءة القرآن والذكر والنطق بكلمة التوحيد، هذا هو قول اللسان.

وَعَمَلُ الْقَلْبِ وَاللِّسَانِ وَالْجَوَارِحِ.

قلنا: عمل القلب هو ما يقوم بالقلب من محبة الخير وكراهية الشر، ويترتب عليه حركة القلب من خوف ورغبة وإنابة وتوكل ورجاء وغير ذلك مما ينبغي أن يكون لله وحده سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

فقال: قَوْلُ الْقَلْبِ وَاللِّسَانِ، وَعَمَلُ الْقَلْبِ وَاللِّسَانِ وَالْجَوَارِحِ.

أعمال الجوارح التي هي الصلاة والصوم والزكاة والحج وغير ذلك، هذه أعمال الجوارح التي تقوم بالجوارح، وبعضهم يعبر عن ذلك بالأركان، يقول:

قول باللسان واعتقاد بالجنان، وعمل بالجوارح والأركان، يزيد بطاعة الرحمن وينقص بطاعة الشيطان.

بعض أهل العلم يقول: الإيمان خمس نونات، يعني: مرده إلى أمور خمسة تنتهي بحرف (النون)، أنه اعتقاد بالجنان؛ يعني: بالقلب، ونطق باللسان، وعمل بالأركان، ويزيد بطاعة الرحمن، وينقص بطاعة الشيطان.

كل ركن من هذه الأركان، أو كل جملة من هذه الجمل خالف فيها بعض المنتسبين لأهل القبلة، كما سنرى.

قال: وَعَمَلُ الْقَلْبِ وَاللِّسَانِ وَالْجَوَارِحِ. وَأَنَّ الإِيمَانَ يَزِيدُ بِالطَّاعَةِ، وَيَنْقُصُ بِالْمَعْصِيَةِ.

دل على هذه الزيادة آيات كثيرة في كتاب الله، وكذلك أحاديث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فمن ذلك قول الله تعالى: {ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ} [فاطر: 32]، هذه الآية يُستدل بها على أن الإيمان يزيد وينقص، لماذا؟

لأن الصحيح من أقوال أهل العلم: أن هذه الآية في أهل الإسلام، لأن الله عَزَّ وَجلَّ قال بعد ذلك: {جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا} [فاطر: 33]، فالواو في {يَدْخُلُونَهَا}، تعود على هذه الأقسام الثلاثة.

فأهل الإسلام ينقسمون إلى: سابقين بالخيرات وهم من كمَّلوا مراتب الإيمان، أدوا الواجبات والمستحبات وتركوا المحرمات والمكروهات، وهؤلاء هم المقربون، فهؤلاء زاد إيمانهم.

قال: {وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ}، من المقتصد؟ الذي أدى الواجب وترك المحرم واقتصر على ذلك.

ومن الظالم لنفسه؟ الذي تجرأ على بعض المحارم، فارتكب بعض الكبائر، وهو ما يسمى بالفاسق المِلي، في لسان علماء الاعتقاد.

يسمى بالفاسق لأن الفسق في لغة العرب يعني: الخروج، يُقال: فسقت المرأة، أي: خرجت عن طاعة زوجها، وفسقت الرطبة، أي: خرجت عن قشرتها، وتسمى الفأرة فويسقة، فهو فاسق لأنه وقع في بعض الذنوب والكبائر.

وهو ملي لماذا؟ لأنه مسلم ينتسب إلى هذه الملة من أهل القبلة، فهذا إيمانه ناقص، فهذا تجرأ على بعض المحرمات وقصَّر في بعض الواجبات مع بقاء أصل الإيمان.

دل على زيادة الإيمان ونقصانه كذلك قول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: {إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى} [الكهف: 13].

ودل على زيادة ونقصان الإيمان كذلك قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في النساء: "فإِنَّهُنَّ نَاقِصَاتُ عَقْلٍ وَدِينٍ"، ونقصان الدين يقابله زيادة الدين.

ودل كذلك على زيادة الإيمان ونقصانه في كتاب الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى قوله تعالى: {وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا}.

وقوله تعالى: {وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى} [محمد: 17].

وقوله تعالى: {فَزَادَهُمْ إِيمَانًا} [آل عمران: 173].

وكذلك قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسِتُّونَ أو وسبعون شُعْبَةً أَعْلاَهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ, وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنْ الطَّرِيقِ, وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنْ الْإِيمَانِ".

إذًا أهل السنة والجماعة يقولون: إن الإيمان يزيد وينقص، يزيد بالطاعات وينقص بالمعاصي والزلات.

هل خالف في ذلك أحد من الفرق أهل السنة والجماعة؟ أجل، لا يقول بالزيادة والنقصان إلا أهل السنة والجماعة، لماذا؟ لأن الفرق الأخرى عندها الإيمان كلٌ لا يتجزأ ولا يتبعض.

فالخوارج والمعتزلة عندهم الإيمان قول وعمل واعتقاد كأهل السنة والجماعة، لكن عندهم من ارتكب كبيرة من الكبائر خرج من الإيمان.

عند المعتزلة ليس بكافر، فهو في منزلة بين المنزلتين.

وعند الخوارج خرج من الإيمان إلى الكفر، لكن مآله عند الفريقين إلى النار يُخلد فيها إن مات على ذلك.

فلما قالوا: إن الإيمان لا يتجزأ لم يقولوا بالزيادة ولا النقصان.

ماذا عن المُرجئة؟ المُرجئة عندهم الإيمان التصديق، وبعضهم يزيد على ذلك قول اللسان، لكنه لا يجعله شرطًا في صحة الإيمان، هو علامة على الإيمان لكن ليس شرطًا في صحة الإيمان.

والناس في أصله سواء عند المُرجئة، ولذا إيمان محمد كإيمان أحمد كإيمان عمر كإيمان جبريل كإيمان أبي بكر، الناس في أصل الإيمان سواء، إذًا: عندهم الإيمان لا يزيد ولا ينقص.

وبعضهم يغلو في ذلك ويجعل الإيمان مجرد المعرفة، أي: لا يقول بالتصديق وإنما يقول بمجرد المعرفة.

ومنهم كذلك الكرَّامية أتباع محمد بن كرَّام السجستاني القائلين بأن الإيمان هو مجرد النطق بالكلمة، يعني: ليس التصديق من أركان الإيمان، تصديق القلب ليس من أركان الإيمان، ولا عمل القلب من أركان الإيمان، ولا عمل الجوارح من أركان الإيمان، وإنما هو مجرد النطق بالكلمة.

قالوا: لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبلها من المنافقين، وعصم دمائهم بها، فدل ذلك على أن الإيمان هو مجرد الكلمة، وهذه الكلمة لا يختلف الناس فيها، الناس فيها سواء.

إذًا: الذين قالوا بالزيادة والنقصان هم أهل السنة والجماعة.

هذه الفرق التي خالفت أهل السنة والجماعة تركت نصوصًا من كتاب الله ومن سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تدل دلالة واضحة على أن الإيمان يزيد وينقص.

إن نقص الإيمان بارتكاب بعض الذنوب والمعاصي فهل يخرج صاحبه من الإيمان إلى الكفر؟ لا يخرج من الإيمان إلى الكفر، وإنما قلنا: يسمى عندنا أهل السنة والجماعة بفاسق المِلي، أي: هو من أهل الوعيد في الآخرة، إن شاء الله عذبه وإن شاء غفر له.

فقال رَحِمَهُ اللهُ هاهنا: وَأَنَّ الإِيمَانَ يَزِيدُ بِالطَّاعَةِ، وَيَنْقُصُ بِالْمَعْصِيَةِ.

الإيمان يزيد بالطاعة، ويدخل في هذه الطاعة = قراءة القرآن، وذكر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، ومعرفة الله بأسمائه وصفاته، وقراءة سيرة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

وَسَلَّمَ، لتعلم كيف كان يعبد الله عَزَّ وَجلَّ، وقراءة قصص الصالحين، والبعد عن كل ما يغضب الله عَزَّ وَجلَّ من ذنوب ومعاصي= كل ذلك يزيد من إيمان العبد.

وينقص بالمعصية، ما الذي يؤدي إلى نقصان الإيمان؟ الوقوع في الذنوب والمعاصي، والبعد عن الطاعات، فالذي يفرط في أداء الطاعات هذا إيمانه ينقص، ويدل على ذلك قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن النساء: "نَاقِصَاتِ عَقْلٍ وَدِينٍ".

لماذا تكون المرأة في بعض الأحوال ناقصة دين؟ لأنها إذا حاضت تركت الصلاة والصيام، يعني: تركت الطاعة فأدى ذلك إلى نقصان دينها، فهذا يدل على أن ترك الطاعة يؤدي إلى نقصان الدين، وإن لم تكن ملومة على نقصان دينها ههنا.

كذلك الجهل بالله وأسمائه وصفاته، فهذا الذي يسب الدين، وهذا الذي يزني ويسرق ويفعل غير ذلك -نسأل الله السلامة والعافية- لماذا صنع ذلك؟ لأنه جاهل بالله وأسمائه وصفاته وما عنده من العقوبة التي تنتظره إن لم يتب من ذلك، فهذا كله يؤدي إلى نقصان الدين.

قال: وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ لا يُكَفِّرُونَ أَهْلَ الْقِبْلَةِ بِمُطْلَقِ الْمَعَاصِي وَالْكَبَائِرِ؛ كَمَا يَفْعَلُهُ الْخَوَارِجُ.

لا يُكَفِّرُونَ أَهْلَ الْقِبْلَةِ؛ من أهل القبلة؟ أهل الإسلام، أهل القبلة هم من نطقوا بالكلمة واستقبلوا قبلتنا، هذا ضابط أهل القبلة، من نطقوا بالكلمة واستقبلوا قبلتنا.

فلا يُكفر أهل السنة والجماعة أهل القبلة بمطلق المعاصي والكبائر، أي: لا يكفرونهم بكل ذنب ومعصية، وقد مضى حد الكبيرة، قلنا: وهو ما توعد عليه الشرع صاحبه بحدٍ أو لعنٍ أو طرد من رحمة الله، هذا حد الكبيرة، أو ما جاء فيه جزاء خاص.

من وقع في الكبيرة هل هو كافر؟ هذا يصدق على كل كبيرة أم ماذا يريد شيخ الإسلام بقوله: بِمُطْلَقِ الْمَعَاصِي وَالْكَبَائِرِ؟ هل معنى ذلك أنهم لا يكفرون بكل المعاصي والكبائر؟ لا، يكفرون ببعض المعاصي وببعض الكبائر خاصة عند من يُكفر بترك الصلاة، لأن من أهل العلم من يقول: أن تارك الصلاة كافر.

لكن متى يُكفِّر أهل السنة والجماعة بمطلق المعاصي والكبائر؟ إن استحلها صاحبها، يعني قال: الزنا حلال، هذا يكفر باستحلاله، لكن هل لو زنا يكفر؟ لا يكفر، زنا مرة أخرى؟ مرة ثالثة، رابعة، عاشرة، هل يقال إنه مستحل؟

لا يقال إنه مستحل، لأن الاستحلال عمل قلبي لا نطلع عليه إلا إذا نطق بذلك وقال: إن الزنا حلال، قال: إن أكل الربا حلال، هذا هو حد الاستحلال.

لكن لو أكل الربا المرة بعد المرة ، فهذا إيمانه ضعيف جدًا، لكن لا نحكم عليه بالكفر، لأن أهل السنة والجماعة لا يُكفرون بمطلق المعاصي والكبائر، إي بمجرد فعله لها.

قال: كَمَا يَفْعَلُهُ الْخَوَارِجُ.

قلنا: لأن الخوارج الأصل عندهم أن من ارتكب كبيرة خرج من الإيمان.

قالوا: لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: "لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ"، قالوا: طالما أنه نفى عنه الإيمان فهذا يدل على أنه كافر وليس بمسلم.

وسيذكر المصنف رَحِمَهُ اللهُ بعد ذلك الأدلة التي تدل على أن مرتكب الكبيرة لم يخرج من الإيمان إلى الكفر.

قالوا كذلك: الله عَزَّ وَجلَّ قال: {بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [البقرة: 81].

قالوا: الآية تقول: {وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ}، ثم حكم عليه بالخلود في النار فهذا يدل على صحة مذهبنا.

والرد عليهم أن هذه الآية يراد فيها بالسيئة التي تحيط بعمل العبد الشرك والكفر، لأن المرء إذا أشرك أو كفر حبط عمله، كما قال السلف في تفسير هذه الآية، ثم إن سياق الآية في أهل الكفر ، ودليل ذلك سباقها ولحاقها، فقد أردفها بالكلام عن أهل الإيمان والطاعة.

قال: كَمَا يَفْعَلُهُ الْخَوَارَجُ؛ بَلِ الأُخُوَّةُ الإِيمَانِيَّةُ ثَابِتَةٌ مَعَ الْمَعَاصِي.

لكن هل الأخوة على درجة واحدة؟ هل أخوة الإيمان على درجة واحدة؟ لا، ولذا نقول: الأخوة على درجات ثلاث، الأخوة تعني المحبة الإيمانية، أن يكون المرء أخاً لك في الله.

- فمن الناس من لا يُحب مطلقًا وليس لك أخًا في الدين، وهو غير المسلم، فلا يُحب مطلقًا المحبة الشرعية، لأنه قد يُحب محبة طبعية.

إنسان أبوه غير مسلم أحبه طبعًا، إنسان تزوج كتابية يحبها طبعًا، نحن نتكلم عن المحبة الشرعية، فغير المسلم لا يُحب محبةً شرعية مطلقا.

- ومن الناس من يُحب من كل وجه.

إذًا: من الناس من لا يُحب بأي وجه، ومنهم من يُحب من كل وجه وهو المؤمن الذي استكمل الإيمان كالأنبياء والمرسلين والصالحين والصديقين، فهذا يُحب من كل وجه.

- ومن الناس من يُحب من وجه دون وجه، أي: يُحب من وجه ويُبغض من وجه، وهم الذين خلطوا عملاً صالحًا وآخر سيئًا، فيُحب لطاعته ويُبغض لمعصيته.

لذا ينبغي أن نفهم هذه القطعة، بَلِ الأُخُوَّةُ الإِيمَانِيَّةُ ثَابِتَةٌ؛ قلنا: بحسب ما معه من الإيمان، مَعَ الْمَعَاصِي.

قال: كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ.

هذه الآيات استدل بها أهل السنة والجماعة على أن مرتكب الكبرة ليس بكافر.

قال الله عَزَّ وَجلَّ: {فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ}.

هذه الآية جاءت بعد آية القصاص، {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ} [البقرة: 178].

لماذا القصاص؟ لأن مسلمًا قتل آخر، والقتل كبيرة من الكبائر، بل إن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: "قِتَالُ الْمُسْلِمِ كُفْرٌ"، "سِبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ، وَقِتَالُهُ كُفْرٌ"، لكن هل هو كفر مُخرج من الملة؟ ليس مخرجًا من الملة، ما الدليل؟

أن الله عَزَّ وَجلَّ أثبت الأخوة للقاتل مع قتله للمسلم، قال: {فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ}.

{فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ}.

إذًا: هذه الآية أثبتت الأخوة مع وقوع كبيرة من الكبائر.

وقال تعالى: {وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا}.

والقتال بين المسلمين كبيرة من الكبائر، ومع ذلك أثبت الإيمان للفريقين.

قال: {وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا}؛ وهذا فيه رد على الخوارج الذين كفَّروا أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما وقعت بينهم الفتنة.

قال: {فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (9) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ}.

هذه الآية الثانية أكدت هذا المعتقد وهو أن مرتكب الكبيرة ليس بكافر.

وقع بغي هاهنا، قال: {فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا}؛ والبغي كبيرة من الكبائر، ومع ذلك أثبت الشرع لهم كذلك الأخوة.

قال: وَلَا يَسْلُبُونَ الْفَاسِقَ الْمِلِّيَّ اسْمِ الإِيمَانِ بِالْكُلِّيَّةِ.

لا يسلبونه الإيمان بالكلية، أي: لا يسلبونه اسم الإيمان بالكلية، وهذا فيه مخالفة للخوارج والمعتزلة، هذا حكم مرتكب الكبيرة –أي الفاسق الملي–، نريد من بعضكم أن يفسر لنا هذا المصطلح: الفاسق الملي.

فاسق: أي: خرج عن الطاعة، لا يخرج عن الطاعة إلا بارتكاب كبيرة من الكبائر.

وملي: أي: هو منتسب لملة الإسلام، لا يسلبون عنه اسم الإيمان بالكلية.

الذي يقع في كبيرة ماذا تسميه المعتزلة؟ يجعلونه في منزلة بين المنزلتين، أي: ليس بمؤمن ولا كافر.

ماذا تسميه الخوارج ؟ تسميه كافرا حلال الدم.

أما أهل السنة والجماعة فيقولون عنه: إنه فاسق ملي، فاسق لما معه من المعصية، وملي لأنه من أهل الإسلام.

ولذا تجد بعضهم يقول: هو فاسق بكبيرته أو بمعصيته مؤمن بما معه من الإيمان.

هذا بالنسبة لأسماء الدنيا، لأن هذا الباب في الأسماء والأحكام.

ماذا عن أحكام الآخرة؟ قال: وَلَا يُخَلِّدُونَهُ فِي النَّار؛ كَمَا تَقُولُ الْمُعْتَزِلَةُ.

أهل السنة يقولون في مرتكب الكبيرة إن مات على ذلك دون توبة إنه في مشيئة الله إن شاء عذبه وإن شاء عفا عنه، ما دليل ذلك؟ {إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ} [النساء: 48]، وأحاديث الشفاعة المتواترة.

والخوارج يحكمون عليه بالكفر، ويحكمون عليه في الآخرة بالخلود في النار، ولذا يردون أحاديث الشفاعة كلها.

والمعتزلة كالخوارج في أحكام الآخرة.

ولذا قال هاهنا رَحِمَهُ اللهُ: وَلَا يَسْلُبُونَ الْفَاسِقَ الْمِلِّيَّ اسْمِ الإِيمَانِ بِالْكُلِّيَّةِ، وَلَا يُخَلِّدُونَهُ فِي النَّار؛ كَمَا تَقُولُ الْمُعْتَزِلَةُ.

أهل السنة في أحكام الآخرة يعتبرونه في مشيئة الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، هو مسلم مات على كبيرة من الكبائر، لكنه في مشيئة الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، كان في الدنيا فاسقًا مليًا، وهو في الآخرة فاسقٌ ملي كذلك.

نعم إن شاء عفا عنه وإن شاء عذبه، لكن هذا العذاب هل يُخلد فيه؟ لا، ولذا سبق أن فرقنا بين نار الموحدين ونار أصحاب الجحيم، لما تكلمنا عن عقيدة أهل السنة والجماعة في الجنة والنار في الدرس قبل الماضي.

ورددنا على من يقول: إن شيخ الإسلام يقول بفناء النار، قلنا: عندنا ناران: نار عُصاة الموحدين هذه تفنى لا يبقى فيها أحد، يأتي عليها يوم لا يبقى فيها أحد، لأن أهل التوحيد لابد أن تنفعهم هذه الكلمة يومًا ما، طالما أنه مات على كلمة التوحيد لابد أن يخرج منها من النار يومًا ما.

فهذا يعني قطعًا أن هذه النار سيأتي عليها يوم وليس فيها أحد، ولذا تفنى.

وأما أصحاب النار الذين هم أصحابها فهذه قال الله عَزَّ وَجلَّ فيها: {خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا}.

قال: وَلَا يَسْلُبُونَ الْفَاسِقَ الْمِلِّيَّ اسْمِ الإيمَانِ بِالْكُلِّيَّةِ، وَلَا يُخَلِّدُونَهُ فِي النَّارِ؛ كَمَا تَقُولُ الْمُعْتَزِلَةُ. بَلِ الْفَاسِقُ يَدْخُلُ فِي اسْمِ الإيمَانِ.

الفاسق قد يُراد به فاسق الاعتقاد، وقد يراد به فاسق العمل، والمراد هاهنا: فاسق العمل، يعني: الذي أتى بكبيرة من الكبائر فاستحق اسم الفسق، وأما فاسق الاعتقاد فهو الذي جاء بما ينقض إسلامه فليس هو المراد هاهنا.

قال: بَلِ الْفَاسِقُ يَدْخُلُ فِي اسْمِ الإيمَانِ؛ كَمَا فِي قَوْلِهِ: {فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ}.

عندنا الإيمان المطلق ومطلق الإيمان.

الإيمان المطلق: الشيء المطلق هو الشيء الكامل، ولذا فالإيمان المطلق، أي: الإيمان الكامل.

وأما مطلق الإيمان، مطلق الشيء، أي: أصله، فإذا قيل: مطلق الإيمان، أي: أصل الإيمان، يعني: جاء بالقدر المُجزئ من الإيمان، جاء بالقدر الواجب المُجزئ من الإيمان.

وكلمة الإيمان المطلق كذلك تُطلق ويُراد بها: الإيمان الذي لا يتقيد لا بكمال الإيمان ولا بأصله.

كلمة الإيمان المطلق يؤتى بها ويُراد: الإيمان الذي خلا من كل قيد، فلا يدل على أن كمال الإيمان مطلوب أو أصل الإيمان مطلوب، وهذا هو المراد في هذه الجملة من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية.

بدليل الآية التي استدل بها، قال: بَلِ الْفَاسِقُ يَدْخُلُ فِي اسْمِ الإيمَان.

قلنا: الإيمان المطلق، يعني: الإيمان الكامل.

إذًا: هل أراد شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ هاهنا أن الفاسق يدخل في اسم الإيمان الكامل؟ لا، وإنما أراد الإيمان الذي أُطلق من كل قيد فلم يتقيد بكمال ولا بأصل.

والدليل على ذلك قوله تعالى، كما في قوله: {فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ}.

هذه الآية جاءت في كفارة القتل الخطأ، لو أن إنسانًا قتل آخر خطئًا ما كفارته؟ أن يُحرر رقبة مؤمنة، ما المراد بالإيمان هاهنا؟ هل لابد أن يُحرر رقبة كاملة الإيمان؟ يعني: يبحث عن عبدٍ أو أمةٍ استكمل الإيمان؟ هل لابد أن يبحث عن عبد أو أمة من أولياء الله الصالحين؟

ليس هذا هو المراد هاهنا، وإنما المراد أن الكفارة تكون برقبة مؤمنة سواء كانت مستكملة الإيمان أو معها أصل الإيمان.

إذًا قول شيخ الإسلام هاهنا رَحِمَهُ اللهُ: بَلِ الْفَاسِقُ يَدْخُلُ فِي اسْمِ الإِيمَان.

يعني: الذي أُطلق من كل قيد، فلم يُقيد بالإيمان الكامل ولا بأصل الإيمان.

قال: وَقَدْ لَا يَدْخُلُ فِي اسْمِ الإِيمَانِ الْمُطْلَقِ.

كرر كلمة الإيمان المطلق، لكن أراد بالثانية ماذا؟ الإيمان الكامل، لما قال: وَقَدْ لَا يَدْخُلُ فِي اسْمِ الإِيمَانِ الْمُطْلَقِ؛ يعني: لا يدخل في اسم الإيمان الكامل، لا يُقال عن الفاسق إنه آمن إيمانًا كاملاً، لأنه لم يأت بالإيمان الواجب أصلاً.

لم يستكمل الإيمان الواجب بدليل أن كبيرته قدحت في إيمانه الواجب، لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: ﴿لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾.

فلما قال: وَقَدْ لَا يَدْخُلُ فِي اسْمِ الإِيمَانِ الْمُطْلَقِ؛ يعني: الإيمان الكامل. ما الدليل على قولنا هذا؟

قال: كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ}.

{إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ}؛ هذا الوصف وصف لأهل الإيمان الذين استكملوا الإيمان، ما الدليل على ذلك؟ (إنما) التي تدل على الحصر، فالمؤمنون الذين استكملوا الإيمان هم {الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ}.

هل الفاسق يدخل في هذه الآية؟ لا، إذًا ما المراد بقول شيخ الإسلام في الإطلاق الثاني: لَا يَدْخُلُ فِي اسْمِ الإِيمَانِ الْمُطْلَقِ؛ أي: لا يدخل في اسم الإيمان الكامل.

قال: وَقَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

يعني: الذي يدل على أنه لا يدخل في اسم الإيمان الكامل.

((لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ)).

الإيمان الكامل، لأنه لو كان مؤمنًا الإيمان الكامل لمنعه إيمانه من الزنا.

قال: وَلا يَسْرِقُ السَّارِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ.

أي: الإيمان الكامل.

وَلَا يَشْرَبُ الْخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَنْتَهِبُ نَهْبَةً ذَاتَ شَرَفٍ.

يعني: لها قيمة، يسرق شيئًا ذا قيمة.

يَرْفَعُ النَّاسُ إِلَيْهِ فِيهَا أَبْصَارَهُمْ حِينَ يَنْتَهِبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ)).

يعني: الإيمان الكامل.

قال: وَيَقُولُونَ: هُوَ مُؤْمِنٌ نَاقِصُ الإِيمَانِ.

هذه مصطلحات أهل السنة والجماعة التي أطلقوها على مرتكب الكبيرة، لم يقولوا هو في منزلة بين المنزلتين، ولم يقولوا هو كامل الإيمان، كما تقول المُرجئة، ولم يقولوا هو كافر كما تقول الخوارج.

وإنما وَيَقُولُونَ: هُوَ مُؤْمِنٌ نَاقِصُ الإِيمَانِ، أَوْ مُؤْمِنٌ بِإِيمَانِهِ فَاسِقٌ بِكَبِيرَتِهِ، فَلاَ يُعْطَى الاسْمَ الْمُطْلَقَ.

الاسم المطلق الذي هو كمال الإيمان، من الذي يعطي الفاسق الاسم المطلق؟ المُرجئة، المُرجئة هم الذين يقولون: لا يضر مع الإيمان ذنب، والإيمان عندهم هو التصديق أو المعرفة، طالما أنك صدقت بقلبك؛ فلا يضر ذنب مع ذلك.

فَلاَ يُعْطَى الاسْمَ الْمُطْلَقَ، وَلَا يُسْلَبُ مُطْلَقَ الاسْمِ.

أي: لا يُسلب أصل الإيمان، لا يُقال إنه كافر كما تقول الخوارج والمعتزلة.

يقول الشيخ الهراس رَحِمَهُ اللهُ: سَبَقَ أَنْ ذَكَرْنَا فِي مَسْأَلَةِ الْأَسْمَاءِ وَالْأَحْكَامِ.

الأسماء هذا باعتبار الدنيا. هل مسألة الأسماء هذه مهمة؟ نعم، لأن يتعلق بها ولاء وبراء.

الخوارج لما كفَّروا أصحاب الكبائر تبرئوا منهم، الخوارج الآن الدواعش والقاعدة وغيرها من الأسماء، لماذا يحاربون أهل الإسلام؟

لأنهم كفَّروهم فتبرئوا منهم، لأنهم يقولون: هؤلاء واقعون في كبيرة من الكبائر، إذًا: هم كفار والكافر لا ولاء له، فتبرئوا منهم، ولذا لما أطلقوا عليهم الكفر وهذا هو الاسم في الدنيا، ترتب عليه حكم خطير.

فالمسلم الذي هو على عقيدة أهل السنة والجماعة كيف يعامل مرتكب الكبيرة؟ لا يحبه من كل وجه ولا يبغضه من كل وجه، ولذا أنت تنصح مرتكب الكبيرة وتقول: يا أخي تب إلى الله إن مت على ذلك ربما كنت في خطر عظيم، تفعل كذا، تفعل كذا.

لكن هل لو مات تصلي عليه؟ نعم، لو مات يرث؟ يرث، لو ارتكب كبيرة يُقام عليه الحد؟ نعم يُقام عليه الحد، والحد تطهير وكفارة؛ ولذا قلنا: مسألة الأسماء مسألة مهمة جدًا.

الخوارج لما كفَّروا الناس اعتزلوهم ولم يصلوا معهم، سيد قطب وهو منبع التكفير في هذا العصر ما كان يصلي مع الناس في المساجد، بل كان يسمي المساجد معابد الجاهلية، فهذه المسألة مسألة مهمة جدًا مسألة الأسماء في الدنيا والأحكام في الآخرة.

فيقول: أَنَّ أَهْلَ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ يَعْتَقِدُونَ أَنَّ الْإِيمَانَ قَوْلٌ بِاللِّسَانِ وَاعْتِقَادٌ بِالْجَنَانِ وَعَمَلٌ بِالْأَرْكَانِ، وَأَنَّ هَذِهِ الثَّلَاثَةَ دَاخِلَةٌ فِي مُسَمَّى الْإِيمَانِ الْمُطْلَقِ.

فَالْإِيمَانُ الْمُطْلَقُ يَدْخُلُ فِيهِ جَمِيعُ الدِّينِ: ظاهرُه وباطنُه، أصولُه وفروعُه.

فمن أتى بكل ذلك استحق اسم الإيمان المطلق.

فَلاَ يستحقُّ اسْمَ الْإِيمَانِ الْمُطْلَقِ إِلَّا مَنْ جَمَعَ ذَلِكَ كُلَّهُ وَلَمْ يَنْقُصْ مِنْهُ شَيْئًا.

قال: وَلَمَّا كَانَتِ الْأَعْمَالُ وَالْأَقْوَالُ دَاخِلَةً فِي مُسَمَّى الْإِيمَانِ.

ما الدليل على أن الأعمال والأقوال داخلة في مسمى الإيمان؛ لأن أهل السنة والجماعة إذا كتبوا أو شرحوا الاعتقاد لابد أن يكون كلامهم هذا مبنيًا على الدليل؟

دليلنا أنه لا يُذكر الإيمان إلا ويُقرن به العمل الصالح، بل بعض الأعمال الصالحة يُطلق عليها الإيمان، كما قال الله عَزَّ وَجلَّ في تحويل القبلة في شأن الصلاة فيمن مات قبل أن تُحول القبلة، قال الله تعالى: {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ} [البقرة: 143].

ما معنى {إِيمَانَكُمْ}؟ أي صلاتكم كما هو واضح من سبب نزولها وكلام أئمة التفسير، {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ}؛ أي: صلاتكم.

كذلك حديث وفد عبد قيس فيه لما سأل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الإيمان، ذكر أركان الإسلام، فهذا كله دليل على أن الأعمال داخلة في مسمى الإيمان خلافًا للمُرجئة.

قال: وَلَمَّا كَانَتِ الْأَعْمَالُ وَالْأَقْوَالُ دَاخِلَةً فِي مُسَمَّى الْإِيمَانِ؛ كَانَ الإيمانُ قَابِلاً لِلزِّيَادَةِ وَالنَّقْصِ.

لأن الناس ليسوا في ذلك سواء حتى في أصله، هل تصديقنا وإقرارنا كمن رأى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ هل تصديق واحد منا الآن كتصديق الصحابة؟ هل تصديق بعض الصحابة كتصديق أبي بكر وعمر؟ هل تصديق أبي بكر وعمر كتصديق الأنبياء والمرسلين؟

إذًا: الناس ليسوا في أصله سواء، وكذلك ليسوا في الأعمال سواء.

فقال: وَلَمَّا كَانَتِ الْأَعْمَالُ وَالْأَقْوَالُ دَاخِلَةً فِي مُسَمَّى الْإِيمَانِ؛ كَانَ الإيمانُ قَابِلاً لِلزِّيَادَةِ وَالنَّقْصِ، فَهُوَ يَزِيدُ بِالطَّاعَةِ وَيَنْقُصُ بِالْمَعْصِيَةِ؛ كَمَا هُوَ صَرِيحُ الْأَدِلَّةِ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَكَمَا هُوَ ظاهرٌ مشاهدٌ مِنْ تَفَاوُتِ الْمُؤْمِنِينَ فِي عَقَائِدِهِمْ وَأَعْمَالِ قُلُوبِهِمْ وَأَعْمَالِ جَوَارِحِهِمْ.

ولذا جاء في الأثر: "ما سبقهم أبو بكر بكثرة صلاة ولا زكاة، ولكن بشيء وقر"، أي كان تصديق أبي بكر أعظم من تصديق غيره.

قال: وَمِنَ الْأَدِلَّةِ عَلَى زِيَادَةِ الْإِيمَانِ وَنَقْصِهِ أَنَّ اللَّهَ قَسَّمَ الْمُؤْمِنِينَ ثَلَاثَ طَبَقَاتٍ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ: {ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ}.

قال: فَالسَّابِقُونَ بِالْخَيْرَاتِ هُمُ الَّذِينَ أَدَّوا الْوَاجِبَاتِ وَالْمُسْتَحَبَّاتِ وَتَرَكُوا المحرَّمات وَالْمَكْرُوهَاتِ، وَهَؤُلَاءِ هُمُ المقرَّبون.

وَالْمُقْتَصِدُونَ هُمُ الَّذِينَ اقْتَصَرُوا عَلَى أَدَاءِ الْوَاجِبَاتِ وَتَرْكِ المحرَّمات.

فهؤلاء جاءوا بالإيمان الواجب ما زادوا على ذلك، ما أتوا بالإيمان المستحب.

هل هؤلاء يوم القيامة من أهل الوعد أم من أهل الوعيد؟ من أهل الجنة أم في مشيئة الله؟ أهل الجنة.

هذا المقتصد الذي أدى الفرض وترك المُحرم وما زاد على ذلك، هذا من أهل الوعد يوم القيامة.

قال بعد ذلك: وَالظَّالِمُونَ لِأَنْفُسِهِمْ هم الذين اجترؤوا عَلَى بَعْضِ المحرَّمات وقصَّروا بِبَعْضِ الْوَاجِبَاتِ مَعَ بَقَاءِ أَصْلِ الْإِيمَانِ مَعَهُمْ.

قال: وَمِنْ وُجُوهِ زِيَادَتِهِ وَنَقْصِهِ كَذَلِكَ أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ مُتَفَاوِتُونَ فِي عُلُومِ الْإِيمَانِ.

هل من يحضر مثل هذه المجالس إيمانه كإيمان العامي؟ إيمانه كإيمان الذي يفرط في طلب العلم؟ لا يستوون، وهذا معنى قول الشيخ: مُتَفَاوِتُونَ فِي عُلُومِ الْإِيمَانِ.

فَمِنْهُمْ مَنْ وَصَلَ إِلَيْهِ مِنْ تَفَاصِيلِهِ وَعَقَائِدِهِ خيرٌ كثيرٌ، فَازْدَادَ بِهِ إِيمَانُهُ، وتمَّ يقينُه.

حتى نحن الجلوس متفاوتون، نحن متفاوتون في العلم؛ ولذا قال: فَمِنْهُمْ مَنْ وَصَلَ إِلَيْهِ مِنْ تَفَاصِيلِهِ وَعَقَائِدِهِ خيرٌ كثيرٌ، فَازْدَادَ بِهِ إِيمَانُهُ، وتمَّ يقينُه، وَمِنْهُمْ مَنْ هُوَ دُونَ ذَلِكَ.

ولذا إبراهيم عَليهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَم أراد أن يرتقي من مسألة علم اليقين لعين اليقين، وهذا هو تفسير قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "نَحْنُ أَحَقُّ بِالشَّكِّ مِنْ إِبْرَاهِيمَ"، الحديث في صحيح مسلم.

قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "نَحْنُ أَحَقُّ بِالشَّكِّ مِنْ إِبْرَاهِيمَ﴾، ﴿ولو كنت مكان يوسف لأجبت الداعي".

فبعض الناس قد يفهم هذا الحديث على غير معناه الصحيح، يفهم أن إبراهيم شك، ويفهم من قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "ولو كنت مكان يوسف لأجبت الداعي"، أن المراد المرأة التي دعته، وليس هذا هو معنى الحديث.

النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ينفي الشك عن إبراهيم فيقول –تواضعا وبيانا لفضل الخليل-: لو كان أحد أحق بالشك فنحن لا إبراهيم، إبراهيم لا يشك، إبراهيم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خليل الرحمن.

إذا كان الأمر كذلك فما معنى قول الله تعالى: {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي} [البقرة: 260]، هل كان إبراهيم على شك؟

لا، وإنما أراد أن ينتقل من علم اليقين، هو يعلم أن الله قادر على كل شيء وقادر على إحياء الموتى، لكن أراد أن يرى ذلك بعينه لينتقل من علم اليقين إلى عين اليقين ليزداد إيمانًا، فقال الله له:

{قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى}؛ إذًا: أثبت لنفسه الإيمان، {وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي}؛ اطمئنان القلب زيادة في الإيمان، ولذا قال الله عَزَّ وَجلَّ: {فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}، الآية التي قبلها: {عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [البقرة: 259].

"**ولو كنت مكان أخي يوسف لأجبت الداعي**"، أي داعٍ؟ الذي جاءه في السجن يطلب منه أن يجيب الملك، {قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللاَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ} [يوسف: 50].

وهذا فيه بيان صبر يوسف، كأنه قال: لا والله، لن أخرج حتى تثبت براءتي.

النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُزكي يوسف عَليهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمِ يقول: "**لو كنت مكان يوسف لأجبت الداعي وخرجت، ثم بعد ذلك نفيت التهمة عن نفسي**"، هذا يدل على صبر يوسف وحكمته عَليهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمِ.

فقال رَحِمَهُ اللهُ: وَمِنْهُمْ مَنْ هُوَ دُونَ ذَلِكَ، حَتَّى يَبْلُغَ الحالُ ببعضهم أن لا يَكُونَ مَعَهُ إِلَّا إيمانٌ إجماليٌّ.

ليس معه إلا أصل الإيمان أمور مُجملة، يعني: من نبيك؟ محمد، ماذا تعرف عن محمد؟ لا شيء، قد لا يعرف أباه ولا أمه، لا يعرف تفاصيل حياته، ولا كيف كان يعبد الله عَزَّ وَجلَّ؟ كيف كان يعامل زوجاته؟ هو يعلم أن نبي هذا الزمان الذي ينبغي أن يؤمن به هو محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

إذا ذُكر صلى عليه، وهذا رجل يصلي ويصنع، لكن لا يعرف تفاصيل حياة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ معه إيمان إجمالي فقط.

قال: إِلَّا إيمانٌ إجماليٌّ لَمْ يَتَيَسَّرْ لَهُ مِنَ التَّفَاصِيلِ شَيْءٌ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ مُؤْمِنٌ.

لكنه ليس كامل الإيمان.

وَكَذَلِكَ هُمْ مُتَفَاوِتُونَ فِي كَثِيرٍ مِنْ أَعْمَالِ الْقُلُوبِ وَالْجَوَارِحِ، وَكَثْرَةِ الطَّاعَاتِ وَقِلَّتِهَا.

قال: وَأَمَّا مَنْ ذَهَبَ إِلَى أَنَّ الْإِيمَانَ مجرَّد التَّصْدِيقِ بِالْقَلْبِ.

هذا قول الأشاعرة، والأشاعرة مُرجئة.

وَأَنَّهُ غَيْرُ قَابِلٍ لِلزِّيَادَةِ أَوِ النَّقْصِ؛ كَمَا يُروى عَنْ أَبِي حَنِيفَةَ وَغَيْرِهِ؛ فَهُوَ محجوجٌ بِمَا ذَكَرْنَا مِنَ الْأَدِلَّةِ.

ذكر أبا حنيفة لأنه من مُرجئة الفقهاء، والخلاف بين أهل السنة ومُرجئة الفقهاء خلاف حقيقي وليس خلافًا لفظيًا؛ لأن مُرجئة الفقهاء يقولون: إن عمل الجوارح من لوازم الإيمان، أي: طالما أن القلب فيه إيمان لابد أن يظهر هذا على الجوارح، لكن عمل الجوارح ليس ركنًا من أركان الإيمان.

هل يؤاخذ به المرء في الآخرة؟ يؤاخذ به المرء في الآخرة، هكذا تقول مُرجئة الفقهاء كأبي حنيفة وحماد بن أبي سليمان شيخه.

لكن الشيخ الألباني رَحِمَهُ اللهُ في تعليقه على العقيدة الطحاوية أخذ على ابن أبي العز لما شرح هذه العقيدة وقال: إن الخلاف بيننا وبين مُرجئة الفقهاء لفظي، قال: ليس لفظيًا، وذكر أمورًا خالف فيها أهل السنة والجماعة مُرجئة الفقهاء.

- منها: أننا نقول بالزيادة والنقصان، وهم لا يقولون بزيادة الإيمان ولا نقصانه.
- منها: أننا نستثني في الإيمان، ، وهم لا يستثنون في الإيمان، وأمور أخرى ذكرها الشيخ رَحِمَهُ اللهُ.

لكن حال مُرجئة الفقهاء أخف من المُرجئة، المُرجئة يُخرجون العمل عن مسمى الإيمان، يقولون: الإيمان هو التصديق.

قال: كَمَا يُروى عَنْ أَبِي حَنِيفَةَ وَغَيْرِهِ؛ فَهُوَ محجوجٌ بِمَا ذَكَرْنَا مِنَ الْأَدِلَّةِ، قَالَ عليه السلام: ((الْإِيمَانُ بضعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً؛ أَعْلاَهَا: قَوْلُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ)).

فلما قال: أعلاها وأدناها، دل ذلك على أن الإيمان يزيد وينقص.

قال: وَمَعَ أَنَّ الْإِيمَانَ الْمُطْلَقَ.

ما معنى المطلق؟ الكامل.

مركَّب مِنَ الْأَقْوَالِ وَالْأَعْمَالِ وَالِاعْتِقَادَاتِ؛ فَهِيَ لَيْسَتْ كُلُّهَا بِدَرَجَةٍ وَاحِدَةٍ؛ بَلِ الْعَقَائِدُ أصلٌ فِي الْإِيمَانِ.

أصل الإيمان اعتقاد القلب وتصديقه ، كل ما يتعلق بالقلب هو أعلى مما يتعلق بالجوارح، ولذا إذا انتفت محبة القلب؟ إذا انتفت الخشية؟ إذا انتفت الرغبة، الرهبة؟ إذا كان الخوف من غير الله؟ لم يكن المرء مؤمنًا ولا مسلمًا.

لكن إن لم يُزك، إن لم يحج، إن لم يصوم؟ كبيرة من الكبائر.

ولذا يقول الشيخ رَحِمَهُ اللهُ: بَلِ الْعَقَائِدُ أصلٌ فِي الْإِيمَانِ.

اعتقاد القلب هذا هو الأصل.

فَمَن أَنْكَرَ شَيْئًا مِمَّا يَجِبُ اعْتِقَادُهُ فِي اللَّهِ أَوْ مَلاَئِكَتِهِ أَوْ كُتُبِهِ أَوْ رُسُلِهِ أَوِ الْيَوْمِ الْآخِرِ أَوْ مِمَّا هُوَ معلومٌ مِنَ الدِّينِ بِالضَّرُورَةِ؛ كَوُجُوبِ الصَّلاَةِ، وَالزَّكَاةِ، وَحُرْمَةِ الزِّنَا وَالْقَتْلِ ... إلخ؛ فَهُوَ كافرٌ، قَدْ خَرَجَ مِنَ الْإِيمَانِ بِهَذَا الْإِنْكَارِ.

وَأَمَّا الْفَاسِقُ المِلِّي الَّذِي يَرْتَكِبُ بَعْضَ الْكَبَائِرِ مَعَ اعْتِقَادِهِ حُرْمَتَهَا.

لماذا قال مع اعتقاد حرمتها؟ لأنه لو اعتقد حِلها كفر، وهذا هو حد الاستحلال، فهذا يقع في الذنب، ومع ذلك إذا عتبت عليه يقول لك: ادع الله لي أن يهديني، أنا أعلم أنها حرام، لكن شيطانه يغلبه، نفسه تغلبه، فهذا فاسق ملي.

قال: فَأَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ لَا يَسْلُبُونَ عَنْهُ اسْمَ الْإِيمَانِ بالكلِّيَّة، وَلَا يخلِّدونه فِي النَّارِ؛ كَمَا تَقُولُ الْمُعْتَزِلَةُ وَالْخَوَارِجُ، بَلْ هُوَ عِنْدَهُمْ مؤمنٌ نَاقِصُ الْإِيمَانِ، قَدْ نَقَصَ مِنْ إِيمَانِهِ بِقَدْرِ مَعْصِيَتِهِ، أَوْ هُوَ مؤمنٌ فاسقٌ، لَا يُعْطُونَهُ اسْمَ الْإِيمَانِ الْمُطْلَقِ، وَلَا يَسْلُبُونَهُ مُطْلَقَ الْإِيمَانِ.

قال: وأدلَّة الْكِتَابِ والسنَّة دالَّةٌ عَلَى مَا ذَكَرَهُ الْمُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ مِنْ ثُبُوتِ مُطْلَقِ الْإِيمَانِ مَعَ الْمَعْصِيَةِ.

يعني: أصل الإيمان مع المعصية.

قَالَ تَعَالَى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ} [الممتحنة: 1].

استنباط طيب.

{لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ}؛ هذه الآية نزلت في حاطب بن أبي بلتعة، وما الذي صنعه حاطب؟ وقع في كبيرة.

ولذا ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ في الزاد لما ذكر هذه الواقعة تكلم عن أحكام الجاسوس، حاطب بن أبي بلتعة رَضِي اللهُ عَنْهُ ماذا صنع؟ أرسل رسالة لقريش

يحذرهم قدوم محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في فتح مكة، وهذه كبيرة، لكن هل فعل ذلك محبة في دين أهل الشرك وموالاة لهم؟

لا. انتبه يقول شيخنا المفسر عادل السيد حفظه الله: قصة حاطب بن أبي بلتعة أصل في تقرير عقيدة أهل السنة والجماعة في الولاء والبراء، لأن الخوارج يستدلون بهذه الآية: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ}.

هذه الآية يرد بها على الآية التي يستدلون بها من سورة المائدة، التي هي قول الله تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ} [المائدة: 51].

يقول لك: انظر الرئيس عمل معاهدة كامب ديفيد مع اليهود، كُفر، كفَّروا السادات بالمعاهدة وقتلوه، لماذا؟ بسبب هذه الآية، لأن الله عَزَّ وَجلَّ يقول: {وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ}.

يقول لك: ليس أنا القائل، ربنا هو الذي قال، رد على ربنا، وقد قابلت بعض هؤلاء وكان دائمًا يقول هذه الكلمة: لم أقل أنا هذا الكلام، ربنا الذي قال.

فقلت له: افهم هذه الآية: {وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ}.

ما المراد بـ(منهم)؟ هل المراد على دينهم؟ وهل هذا يدخل فيه كل من والى اليهود والنصارى حتى ولو والاهم لأمر من أمور الدنيا يطمع في مال أو جاه أو يخشى على كرسي أو غير ذلك، يخشى بأسهم؟ هل هذا يكفُر؟

لا يكفُر، وإنما التولي والموالاة التي تعني النُصرة ويخرج بها المرء من الإسلام إلى الكُفر هي التي تكون من أجل الدين.

ضم هذه الآية التي في سورة المائدة إلى آية الممتحنة ولا يجوز تفسير الآية بما يخالف سبب نزول، ما سبب نزول آية الممتحنة؟

قلنا: آية الممتحنة آية عظيمة جدًا في هذا الباب، حاطب رضي الله عنه مسلم من أهل بدر، ومع ذلك حصلت موالاة للكفار حيث أرسل إليهم، والموالاة هنا ليست في مقابل أذية مسلم واحد فقط.

ما الذي كان سيترتب على وصول هذه الرسالة لأهل مكة لو وصلت؟ ربما أدت إلى استئصال المسلمين، أي ربما كانت الأذية كبيرة جدًا والجُرم عظيما جدًا.

ولذا قال عمر رَضِي اللهُ عَنْهُ: يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **"لا، إنه قد شهد بدرًا، لعل الله قد اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم"**.

الآية فيها دليل إن الله عَزَّ وَجلَّ خاطبهم بوصف الإيمان مع كونهم اتخذوا عدوًا وليًا، قال: {لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ}، لكن المودة ليست مودة الدين.

حاطب لما أراد أن يفسر سبب ما صنع قال: لم يكن لي عندهم يد ، وليس هناك من يحمي أهلي، فأردت أن أحمي أهلي، أن يكون لي عندهم يد.

فالشاهد في هذه الآية: أن الله وصفهم أو نعتهم بالإيمان مع ذكر كبيرة وقع فيها حاطب رَضِي اللهُ عَنْهُ.

قال: فَنَادَاهُمْ بِاسْمِ الْإِيمَانِ، مَعَ وُجُودِ الْمَعْصِيَةِ، وَهِيَ مُوَالَاةُ الْكُفَّارِ مِنْهُمْ.

ثم قال رَحِمَهُ اللهُ: فَائِدَةٌ: الْإِيمَانُ وَالْإِسْلَامُ الشرعيَّان مُتَلَازِمَانِ فِي الْوُجُودِ.

الشرعيَّان أي: المحدودان بالحد الشرعي، فالإيمان الشرعي يُطلق على اعتقاد القلب.

ما أركان الإيمان؟ تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر، هذا موجود في القلب، اعتقاد القلب وتصديقه.

وما الإسلام؟ عمل الظاهر، أن تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمد رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت.

قال: مُتَلاَزِمَانِ فِي الْوُجُودِ.

ما معنى مُتَلاَزِمَانِ فِي الْوُجُودِ؟ يعني: إذا وجد الإيمان في القلب فهذا لابد أن يتبعه عمل الجوارح، لابد أن يظهر أثر الإيمان الذي في القلب على الجوارح، لكن أن يقول المرء: أنا مؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ولا يصلي لله، لا يسجد له سجدة، لا يصوم لله، لا يأتي بعمل من أعمال الجوارح، نقول: إن عملك الظاهر نقض ما تدعيه من اعتقاد الباطل.

ولذا قال المصنف: الْإِيمَانُ وَالْإِسْلاَمُ الشرعيَّان مُتَلاَزِمَانِ فِي الْوُجُودِ، فَلاَ يُوجَدُ أَحَدُهُمَا بِدُونِ الْآخَرِ.

إذا وجد إيمان القلب فلابد أن يظهر ذلك على الجوارح، وإذا وجد عمل الجوارح فهذا دليل على وجود إيمان القلب.

قال: بَلْ كُلَّمَا وُجِدَ إيمانٌ صحيحٌ معتدٌّ بِهِ، وُجِدَ مَعَهُ إسلامٌ، وَكَذَلِكَ الْعَكْسُ، وَلِهَذَا قَدْ يُسْتَغْنى بِذِكْرِ أَحَدِهِمَا عَنِ الْآخَرِ.

كما قلنا في حديث وفد عبد قيس لما سأل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الإيمان، فذكر أركان الإسلام، ولذا أهل السنة والجماعة أو علماؤنا يقولون: إن الإيمان والإسلام إذا اجتمعا افترقا، وإذا افترقا اجتمعا.

إذا اجتمعا، أي: جاء ذكر الإيمان والإسلام في سياق واحد، فيكون الإيمان لعمل القلب، والإسلام لعمل الجوارح.

وإذا افترقا، أي: ذُكر الإيمان وحده، دخل فيه مراتب الدين الثلاثة.

كذلك إذا ذُكر الإسلام؟ فالغالب أنه يدخل فيه كذلك مراتب الدين الثلاثة.

قال: وَلِهَذَا قَدْ يُسْتَغْنى بِذِكْرِ أَحَدِهِمَا عَنِ الْآخَرِ؛ لِأَنَّ أَحَدَهُمَا إِذَا أُفْرِدَ بِالذِّكْرِ؛ دَخَلَ فِيهِ الْآخَرُ، وَأَمَّا إِذَا ذُكِرا مَعًا مُقْتَرِنَيْنِ؛ أُريد بِالْإِيمَانِ التَّصْدِيقُ وَالِاعْتِقَادُ، وأُريد بِالْإِسْلَامِ الِانْقِيَادُ الظَّاهِرِيُّ مِنَ الْإِقْرَارِ بِاللِّسَانِ وَعَمَلِ الْجَوَارِحِ.

وَلَكِنَّ هَذَا بِالنِّسْبَةِ إِلَى مُطْلَقِ الْإِيمَانِ، أَمَّا الْإِيمَانُ الْمُطْلَقُ؛ فَهُوَ أخصُّ مُطْلَقًا مِنَ الْإِسْلَامِ.

لأن الإيمان المطلق يعني: الإيمان الكامل، فهذا أخص من الإسلام.

ولذا القاعدة عندنا: أن من لم يكن محسنًا كان مؤمنًا، ومن لم يكن مؤمنًا كان مسلمًا؛ فدل ذلك على أن الإحسان أخص من الإيمان، والإيمان أخص من الإسلام.

قال: وَقَدْ يُوجَدُ الْإِسْلَامُ بِدُونِهِ؛ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: {قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا} [الحجرات: 14].

قال: فَأَخْبَرَ بِإِسْلَامِهِمْ مَعَ نَفْيِ الْإِيمَانِ عَنْهُمْ.

هذه الآية في أهل النفاق أم في أهل الإيمان؟

إن قلنا: في أهل النفاق؛ فهؤلاء جاءوا بإسلام الظاهر دون عمل القلب، وهذا عصم دماءهم وأمرهم إلى الله عَزَّ وَجلَّ كما كان حال المنافقين.

وإن قلنا: إن الأعراب هؤلاء كانوا مسلمين، فليس معنى ذلك أن أصل الإيمان لم يكن معهم، وهذا ما أردت أن أُبينه لأن بعض العلماء يقولون: كل مؤمن مسلم، وليس كل مسلم مؤمنًا.

ما معنى ليس كل مسلم مؤمنًا؟ هل معنى ذلك أن الإسلام قد يوجد مع انتفاء الإيمان بالكلية؟ لا، لكن لابد من وجود أصل الإيمان، ولذا لا يوجد إسلام بدون إيمان، فحتى هذا ولو رق دينه فلابد أن يكون معه أصل الإيمان.

قال: فَأَخْبَرَ بِإِسْلاَمِهِمْ مَعَ نَفْيِ الْإِيمَانِ عَنْهُمْ.

حَدِيثِ جِبْرِيلَ ذِكْرُ الْمَرَاتِبِ الثَّلاَثِ: الْإِسْلاَمِ، وَالْإِيمَانِ، وَالْإِحْسَانِ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّ كُلاًّ مِنْهَا أخصُّ مِمَّا قَبْلَهُ.

وشيخ الإسلام ابن تيمية لما أراد أن يرد على الخوارج في مسألة تركيب الإيمان من القول والعمل والاعتقاد وأنه يتجزأ، شبهه بالشجرة في كتاب الإيمان الكبير، لأن سائر الفرق التي تخالف أهل السنة تقول: كلٌّ لا يتجزأ، الإيمان لا يتبعض ولا يتجزأ.

لكن شيخ الإسلام شبهه بالشجرة، الشجرة لها جذر ، وساق وفروع وأوراق، بعض الشجرة إذا زال لا تموت ، يعني: لو قطعت فرعًا من الشجرة لا تموت، أزلت الأوراق لا تموت، لكن لو قطعت الجذر تموت، الجذر هذا هو أصل الإيمان.

فإزالة الفروع هذه تكون بارتكاب الكبائر، ومع ذلك لا يترتب على ذلك زوال الشجرة، فكذلك الإيمان.

نكتفي بهذا القدر.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم، وجزاكم الله خيرًا.

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.

|

الدرس الخامس والأربعون

إن الحمد لله, نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله تعالى من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله, صلى الله عليه, وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد:

فقد وصلنا إلى مبحث مبارك من مباحث هذه العقيدة الواسطية، وهذا المبحث تظهر فيه فضيلة أهل السنة والجماعة ووسطيتهم وعقيدتهم المباركة فيما يتعلق بأصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فالمبحث حول ما يجب اعتقاده تجاه أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهم من لقوا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وآمنوا به وماتوا على ذلك، وهم من نظر الله عَزَّ وَجلَّ في قلوب العباد فاصطفاهم دون سائر العباد لصحبة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وجعلهم وزراءه الذين ينصرون دينه ويُبلغونه، فقاموا بذلك خير قيام.

ولذا الذي يطعن في أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يطعن في رسول الله، لأن الذي رباهم هو النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فكأنه يطعن في تربية النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأصحابه.

بل الذي يطعن في الصحابة يطعن في ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى؛ لأن الله عَزَّ وَجلَّ هو الذي اصطفاهم كونًا وقدرًا لصُحبة نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فكأنه يقول بلسان الحال أو المقال: إن الله –وحاشاه– أساء الاختيار.

يقول أبو زُرعة رَحِمَهُ اللهُ: إذا رأيت الرجل ينتقص أحدًا من أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فاعلم أنه زنديق؛ لأنه يطعن في الله ويطعن في رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويُكذب القرآن الذي ترضى عنهم في مواضع كثيرة يقول: {رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ}، ويرد خبر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي زكاهم فيه، والأخبار في ذلك متواترة.

ولذا لم يتوقف أبو زُرعة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ و رَحِمَهُ اللهُ في القول بزندقة الذي يطعن في أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: إذا رأيت الرجل ينتقص أحدًا من أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فاعلم أنه زنديق.

وذلك أن الرسول حق، والقرآن حق، وإنما أدى إلينا هذا القرآن والسنة أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

إذًا: الذي ينتقص أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يريد أن يصل إلى الطعن في القرآن، وإلى الطعن في سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ولذا قال أبو زُرعة: وإنما يريدون أن يجرحوا شهودنا؛ ليُبطلوا الكتاب والسنة، والجرح بهم أولى وهم زنادقة.

ولذا لو نظرت في حال الرافضة الذين يطعنون في أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويُكفرونهم تجدهم لا يقيمون لسنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وزنًا، ولا يقيمون لفهم أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للقرآن وزنًا كذلك.

إذا نظرت في طريقة العلمانيين والحداثيين الذين يقولون: هؤلاء رجال ونحن رجال، وليس يُشترط أن نرجع إلى فهمهم في فهم الكتاب والسنة, تجدهم

يطعنون كذلك في أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وتسمع الكلام العجيب منهم إذا تكلم الواحد منهم في حديث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أو في تفسير آية من آيات كتاب الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

فالصحابة لهم منزلة عظيمة في هذه الأمة، ليس المراد هاهنا: أن نُبين فضل الصحابة الذي جاء في الكتاب والسنة، وإنما الذي ينبغي التأكيد والتوكيد عليه أنه لولا هؤلاء الصحابة لما وصل الدين كما وصل إلينا الآن، ولما بقي لنا هذا الفهم الصحيح للدين كما بقي الآن.

وهم أصل الطائفة المنصورة التي لا تزال قائمة وظاهرة إلى يوم القيامة، لأن هذه الطائفة التي توجد في كل زمان من أين يأخذون فهم الدين؟ يأخذونه من منبع النهر، النهر يسير ولا يزال يسير إلى أن يرث الله عَزَّ وَجلَّ الأرض ومن عليها.

هذا النهر -أعني فهم الكتاب والسنة-، منبعه من عند من؟ من عند الصحابة، فالصحابة لهم فضل عظيم وهم أفضل الخلق بعد الأنبياء، فأفضل الخلق الرسل ثم الأنبياء ثم أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ولذا تجد أهل السنة في عقائدهم يؤكدون هذا الأمر -أعني بيان منزلة أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-.

فقال رَحِمَهُ اللهُ: وَمِنْ أُصُولِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ سَلامَةُ قُلُوبِهِمْ وَأَلْسِنَتِهِمْ لأَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

إذًا: نحن تسلم قلوبنا اتجاه الصحابة فلا غل ولا حقد ولا حسد تجاه واحد من أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولو لم يلقى النبي إلا مرة واحدة فله كل تعظيم في قلوبنا، فلا نعتقد فيهم إلا كل جميل، هذا من جهة القلب.

ماذا عن اللسان؟ قال: وَأَلْسِنَتِهِمْ.

أي لا نذكر أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلا بالثناء الحسن، لأن الذي يذكرهم بغير ذلك على غير السبيل وعلى غير منهاج رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال: وَمِنْ أُصُولِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ سَلامَةُ قُلُوبِهِمْ وَأَلْسِنَتِهِمْ لأَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كَمَا وَصَفَهُمُ اللهُ بِهِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى.

و (الهاء) هاهنا تعود إلى أهل السنة والجماعة وتعود على المؤمنين الذين هم مؤمنون حققوا الإيمان، كيف وصفهم الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى؟

قال: {وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ} [الحشر: 10].

يعني: من أهل الإيمان، جاءوا من بعد المهاجرين والأنصار؛ لأن هذه الآية سبقها ذكر المهاجرين وذكر الأنصار، فبيَّن الله عَزَّ وَجلَّ فضائل المهاجرين والأنصار.

ثم قال: {وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ}.

فهذه الآية لو تدبرناها لوجدناها جمعت بين سلامة القلب وسلامة اللسان وطهارته، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ؛ لأن الله عَزَّ وَجلَّ قال:

{يَقُولُونَ}؛ يعني: يقولون بألسنتهم، وهذا يلزم منه عدم انتقاص الصحابة، يلزم منه الترضي والدعاء لهم.

قال: {يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ}؛ وأول من يدخل في السبق بالإيمان أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

{وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِلَّذِينَ آمَنُوا}؛ وهذا سلامة القلب.

{رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ}.

قال: وَطَاعَةَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي قَوْلِهِ: ((لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهُ لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلا نَصِيفَهُ)).

ما حكم طاعة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ واجبة، ولا مجال لمعارضتها.

فهنا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: "لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي"؛ والنهي يقتضي التحريم.

"أَصْحَابِي": هذا جمع مضاف؛ فيدخل فيه كل الصحابة بلا استثناء.

إذًا: الذي يسب واحدًا من أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أو ينتقص واحدًا من أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويقول: إنه فعل كذا وكذا، ويذكر بعض الأمور التي اجتهد فيها وأخطأ، فنقول: هذا في صدره شيءٌ تجاه أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فلا يُعارض قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ونهيه هاهنا بعقل ولا هوى ولا اجتهاد.

فلا يُقال: إن معاوية فعل كذا وكذا وكذا وكذا، حتى إن بعضهم يصل إلى تكفيره وإلى اتهامه بعدم الدخول في الإسلام، كما هو حال الرافضة، وكما هو حال من تأثر بهم كسيد قطب وغيره.

فتجد الواحد من هؤلاء يطعن في معاوية ويقول: والدليل على ذلك: أنه فعل كذا، وأنه جعل المُلك في ولده يزيد، وأنه فعل كذا، وجعلها مُلكًا جبريًا بعد أن كانت خلافه، هل يُقبل منه؟ لا يُقبل منه وهو آثم فيما تكلم به.

ولا يُقال: إنه اجتهد وله أجر في اجتهاده لو أخطأ، هو آثم؛ لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: "لَا تَسُبُّوا"، ما معنى لا تسبوا؟ السب أعم من مجرد الشتم، السب يعني: الانتقاص.

فلو أن واحدًا انتقص واحدًا من أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولو بالإشارة كأنه يقلل من شأنه، فهذا سب لأصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ولذا قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "وَإِذَا ذُكِرَ أَصْحَابِي فَأَمْسِكوا"، إما أن تذكرهم بكل جميل، أو أن تكف عما وقع منهم وشجر بينهم، لأن هذا وقع كونًا وقدرًا.

والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أخبر به وبيَّن لنا شرعًا ما الذي يجب علينا أن نفعله؛ أن نُمسك، وأن لا نذكرهم إلا بكل جميل.

ولذا لما قيل لعبد الله بن المبارك: عمر بن عبد العزيز أفضل أم معاوية؟ الناس يجعلون عمر بن عبد العزيز خامس الخلفاء الراشدين وليس هذا بصحيح؛ لأن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ و رَحِمَهُ اللَّهُ وإن كان خليفةً راشدًا عدلًا إلا أنه ليس

خامس الخلفاء الراشدين, وإنما الخامس هو الحسن بن علي رضي الله عنهما, وهو الذي أكمل المدة التي ذكرها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "الْخِلَافَةُ ثَلَاثُونَ سَنَةً".

فستة الأشهر التي تولاها الحسن أكملت الثلاثين، ومع ذلك عمر بن عبد العزيز كان خليفةً راشدًا عدلًا، تواتر ذلك عنه.

فيُذكر لعبد الله بن المبارك معاوية, وكأن الذاكر يريد أن ينتقص معاوية، فقال عبد الله بن المبارك رَحِمَهُ اللهُ: لغبار في أنف معاوية خيرٌ من ملئ الأرض من عمر بن عبد العزيز.

التراب الذي يدخل في أنف معاوية -لأنه صحابي-، والصُحبة لا يعدلها شيء؛ ولذا سيأتي معنا الحديث الذي يذكر فيه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه أناسًا يأتون بعد أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للعامل فيهم أجر خمسين من الصحابة.

يقول: "أَجْرُ خَمْسِينَ مِنْكُمْ"، هذا الحديث قد يظن الظان أن هذا الذي سيأتي بعد الصحابة أفضل من الصحابة، نقول: زيادة الأجر لا تدل على التفضيل وعلو المكانة.

هذا الذي يأتي بعدهم يجتهد كثيرًا يصوم النهار ويقوم الليل ويجاهد في سبيل الله، لكن له أعوان يعينونه على ذلك، هذا ما نصر الإسلام من أول ظهوره، هذا ما كان وحده يحارب المشركين، هذا ما صحب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وما نال شرف الصُحبة.

ولذا كثرة العمل لا تدل على أنه أفضل من واحد من أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أجره كثير لكنه ليس بمنزلة واحد من الصحابة ولو لم يلق النبي إلا مرة واحدة.

من الذي قال له النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي"؟ خالد بن الوليد رضي الله عنه. وما منزلة خالد؟ صحابي من أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقع شيءٌ بينه وبين عبد الرحمن بن عوف رَضِي اللهُ عَنْهُما، فلما علم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال لخالد الذي هو صحابي: "لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي, فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهُ لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلا نَصِيفَهُ"

(أَحَدَكُمْ)؛ يعني: الذين أنفقوا وأسلموا بعد الفتح.

هل رأيتم جبل أُحُد؟ الذي ذهب لمدينة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رأى جبل أُحُد، كم هو عظيم!!

ومع ذلك يقول لخالد: لو أنفق أحدكم يا من أسلمتم بأخرة مثل أُحُد ذهبًا ما بلغ مُد أدهم، يعني: مُد عبد الرحمن بن عوف ومُد أبي بكر وعمر وعثمان وابن مسعود وعلي، أي: المتقدمين من الصحابة، من المهاجرين.

"مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ"، المُد: هو ملئ الكفين.

"وَلا نَصِيفَهُ"، هو ملئ الكف الواحد، مع أن هذا ينفق مثل أُحُد ذهبًا.

هذا قيل لواحد من الصحابة وهو خالد، فما حال هذا الذي يأتي بعد الصحابة؟! كيف ينتقص أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟

لا يُقال: إنه يتكلم لمصلحة الإسلام، وإنه يتكلم بسبب ما جرى للإسلام والمسلمين بعد ذلك، لا يُقبل منه شيء من ذلك، الصحابة لهم مكانة، وهذه المكانة العظيمة لا تجدها إلا في قلب أهل السنة والجماعة.

الذي يُقال في معاوية يُقال في عثمان رَضِي اللهُ عَنْهُ، يُقال في أبي هريرة، يُقال في عمرو بن العاص، يُقال في غير هؤلاء من أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

إذا وجدت الواحد يتكلم في واحد من الصحابة فاعلم أنه على ضلالة، فإن سب الصحابة أجمعين فهو كافر.

معاوية هو باب الصحابة كما قال سلفنا الصالح، فإذا كُسر الباب تم الولوج لغيره من الصحابة.

كما أن أبا هريرة رَضِي اللهُ عَنْهُ هو باب حديث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإذا تم الطعن في أبي هريرة تم الطعن في حديث رسول الله، لأن أبا هريرة هو أكثر الصحابة رواية لحديث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ولذا تجد هؤلاء الحداثيين والعقلانيين والعلمانيين بين الحين والآخر يتكلمون عن أبي هريرة ورواية أبي هريرة، لا يريدون شخص أبي هريرة وإنما يريدون سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وإذا وجدت الواحد يتكلم في صحيح البخاري، فاعلم أنه ما يريد صحيح البخاري ولا يريد البخاري، وإنما يريد السنة، لكنه يعلم أنه إن كُسر باب البخاري سهُل الدخول بعد ذلك إلى مسلم وإلى السنن الأربعة، وإلى غير ذلك من سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ولذا تجد هؤلاء لا ينتقون من الصحابة إلا من إذا طُعن فيه وتم الطعن تم حصول الخلل العظيم في جانب من جوانب الإسلام، لماذا يطعنون في معاوية؟ لماذا يطعن الخوارج في معاوية؟

لأنه إن تم الطعن في معاوية تم الكلام عن الحاكمية والحكم بغير ما أنزل الله ، فتم السبيل للخوارج.

لماذا يتكلمون في أبي هريرة؟ لهذا السبب الذي ذكرناه.

لماذا يتكلمون في غيره من الصحابة؟ لابد أن تجد أن خلف هذا الباب أمر جلل وعظيم.

السؤال: هل معاوية من كتبة الوحي؟

الجواب: معاوية من كتبة الوحي، لكن هم لا يطعنون في معاوية لأنه من كتبة الوحي، الذي يطعن في معاوية يطعن فيه للوثة سياسية خارجية بسبب مسألة الحاكمية، ولتأثره بالرافضة، هذا هو الأساس في الطعن في معاوية رَضِي اللهُ عَنْهُ.

ويكفيه شرفًا أنه من كتبة وحي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأنه خال المؤمنين، لأنه أخو أم حبيبة زوج رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهو خال المؤمنين.

قال: وَيَقْبَلُونَ مَا جَاءَ بِهِ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ وَالإِجْمَاعُ مِنْ فَضَائِلِهِمْ وَمَرَاتِبِهِمْ. وَيُفَضِّلُونَ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ .وَهُوَ صُلْحُ الْحُدَيْبِيَةِ.

سماه الله عَزَّ وَجَلَّ فتحًا لما ترتب عليه من أمور عظيمة، حسبه بعض الصحابة شرًا في بدء الأمر، لكنه كان باب خير عظيم، وكان على إثره دخول

الناس في دين الله أفواجًا، وتأمين الناس في القدوم على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وفي انتشار دعوته، فسماه الله عَزَّ وَجلَّ فتحًا.

قال: وَهُوَ صُلْحُ الْحُدَيْبِيَةِ. وَقَاتَلَ عَلَى مَنْ أَنْفَقَ.

يعني الجملة: يفضلون من أنفق من قبل الفتح وهو صُلح الحديبية، وقاتل، يفضلون هذا على من أنفق من بعد وقاتل.

ومع ذلك قال الله عَزَّ وَجلَّ: {وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى} [النساء: 95]، والحُسنى هي الجنة.

إذًا: أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الجنة، وهذا يسمى بأسلوب الاحتراز، لأن الواحد إذا سمع تفضيل الله عَزَّ وَجلَّ لمن أنفق من قبل الفتح وقاتل على من أنفق من بعد وقاتل، قد يظن أن من أنفق من بعد الفتح وقاتل ليس من أهل الجنة وليس من أهل الوعد، ولذا قال الله عَزَّ وَجلَّ: {وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى}.

قال: وَيُقَدِّمُونَ الْمُهَاجِرِينَ عَلَى الأَنْصَارِ.

لأن الله عَزَّ وَجلَّ قدمهم في كتابه في موضعين: في سورة الحشر فقدم ذكرهم، وفي سورة التوبة، قدمهم كذلك تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

والمهاجرون مقدمون على الأنصار لأنهم جمعوا بين الهجرة والنُصرة، وأما الأنصار فإنهم نصروا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما هاجر إليهم.

قال: وَيُؤْمِنُونَ بِأَنَّ اللهَ قَالَ لأَهْلِ بَدْرٍ . وَكَانُوا ثَلاثَ مِائَةٍ وَبِضْعَةَ عَشَرَ: ((اعْمَلُوا مَا شِئْتُم. فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ)).

هذا قاله النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأهل بدر، وهذا من علامات نبوة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

كما يقول الحافظ بن حجر: لأنه لا يُعلم واحد من أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ممن شَهِدَ بدرًا خالف طريقة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد موته، فصدق فيهم قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وليس معنى الحديث: اعملوا ما شئتم من الموبقات فقد ضمنتم الجنة، لكن هذا وعد سابق وبشرى لأهل بدر، وإلا فإن أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ممن شهدوا بدرًا كان الواحد منهم إذا سمع مثل هذه البشرى يجتهد في العبادة.

وإذا قرأت في سيرة أبي بكر وعمر وعثمان وعلي والزبير وطلحة ممن قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيهم عشرة في الجنة، يبشرهم بذلك وهم أحياء يمشون على الأرض، ما وجدت الواحد من هؤلاء يتكل على هذه البشرى ويقول: ضمنت الجنة، ولكن كانوا يجتهدون.

متى قُتل عليّ؟ وهو خارج لصلاة الصبح.

متى قُتل عمر؟ وهو يصلي بالناس.

أبو بكر رَضِي اللهُ عَنْهُ كان كثير البكاء إذا قرأ القرآن رَضِي اللهُ عَنْهُ، وكان كثير العبادة والخشوع.

كيف كان حال عمر لما ولي الخلافة؟ اقرأ في سيرة عمر، مع أنه مُبشر بالجنة رَضِي اللهُ عَنْهُ، فهذا لا يعني أن يتكل هؤلاء على هذه البشرى، وما كان الواحد منهم كذلك.

قال: وَبِأَنَّهُ لَا يَدْخُلُ النَّارَ أَحَدٌ بَايَعَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ.

يعني: بايع بيعة الرضوان، وهذا نص حديث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أن أحدًا لن يدخل النار ممن بايع تحت الشجرة.

كَمَا أَخْبَرَ بِهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بَلْ لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ، وَكَانُوا أَكْثَرَ مِنْ أَلْفٍ وَأَرْبَعِ مِائَة.

قال: وَيَشْهَدُونَ بِالْجَنَّةِ لِمَنْ شَهِدَ لَهُ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كَالْعَشَرَةِ، وَثَابِتِ بْنِ قَيْسِ بنِ شَمَّاسٍ، وَغَيْرِهِم مِّنَ الصَّحَابَةِ.

قال: وَيُقِرُّونَ بِمَا تَوَاتَرَ بِهِ النَّقْلُ عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِي اللهُ عَنْهُ وَغَيْرِهِ مِنْ أَنَّ خَيْرَ هَذِهِ الأُمَّةِ بَعْدَ نَبِيِّهَا: أَبُو بَكْرٍ، ثُمَّ عُمَرُ. وَيُثَلِّثُونَ بِعُثْمَانَ، وَيُرَبِّعُونَ بِعَلِيٍّ رَضِي اللهُ عَنْهُم؛ كَمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ الآثَارُ.

يقرون بما تواتر به النقل.

إذًا: ليس هذا من أخبار الآحاد هذا خبر متواتر ينقله الكافة عن الكافة لا يتواطؤون على الكذب، من الذي ذكر هذا الخبر؟ علي رَضِي اللهُ عَنْهُ الذي يغلوا فيه الروافض ويطعنون بسبب هذا الغلو في أبي بكر وعمر وعثمان وسائر الصحابة.

علي رَضِي اللهُ عَنْهُ وهو بالكوفة وسط شيعته كان يقول رَضِي اللهُ عَنْهُ ويقرر ويؤكد ويعيد: "إنَّ خَيْرَ هَذِهِ الأُمَّةِ بَعْدَ نَبِيِّهَا: أَبُو بَكْرٍ، ثُمَّ عُمَرُ. وَيُثَلِّثُونَ بِعُثْمَانَ".

وهذا فيه رد على الروافض الذين يقولون: إن أبا بكر وعمر وعثمان اغتصبوا الخلافة من علي رَضِي اللهُ عَنْهُ.

ها هي الخلافة قد أتت علياً رَضِي اللهُ عَنْهُ، فلماذا لم يطعن فيهم؟ ولماذا يُبين فضلهم وسط شيعته؟ ولا يخشى أحدًا من الخلق وهم حوله، وكان شجاعًا رَضِي اللهُ عَنْهُ، بل تواتر النقل عن شجاعته رَضِي اللهُ عَنْهُ، وهو الذي كان يقول:

أَنَا الَّذِي سَمَّتْنِي أُمِّي حَيْدَرَهْ ... كَلَيْثِ غَابَاتٍ كَرِيهِ الْمَنْظَرَهْ

كان أسدًا في الحروب لا يخشى أحدًا من الخلق رَضِي اللهُ عَنْهُ، ومع ذلك يقول وسط شيعته: إن خير الناس بعد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أبو بكر وعمر وعثمان.

فأهل السنة والجماعة يرتبون الصحابة على هذا الترتيب ويثلثون بعثمان ويربعون بعلي رَضِي اللهُ عَنْهُم، كما دلت عليه الآثار.

وهؤلاء هم الخلفاء الأربعة، وترتيب الخلفاء في الفضل كترتيبهم في الخلافة.

إذًا: أفضلهم أبو بكر فعمر فعثمان فعلي رضي الله عن أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال: وَكَمَا أَجْمَعَ الصَّحَابَةُ عَلَى تَقْدِيمِ عُثْمَانُ فِي الْبَيْعَةِ. مَعَ أَنَّ بَعْضَ أَهْلِ السُّنَّةِ كَانُوا قَدِ اخْتَلَفُوا فِي عُثْمَانَ وَعَلِيٍّ رَضِي اللهُ عَنْهُما.

وهو خلاف قديم منقول عن أبي حنيفة وغيره، لكنهم رجعوا عن ذلك، الخلاف هاهنا في الخلافة أم الفضل؟ في الفضل، لم يختلف واحد من أهل السنة والجماعة وأئمتهم في ترتيبهم في الخلافة، وإنما الخلاف الذي وقع ثم ارتفع -وهو خلاف قديم- كان في الفضل، في المفاضلة بين علي وعثمان، فكان بعضهم يفضل علياً على عثمان.

وجمهورهم يفضل عثمان على علي، لكن استقر الأمر بعد ذلك على تفضيل عثمان رَضِي اللهُ عَنْهُما.

قال: مَعَ أَنَّ بَعْضَ أَهْلِ السُّنَّةِ كَانُوا قَدِ اخْتَلَفُوا فِي عُثْمَانَ وَعَلِيٍّ رَضِي اللهُ عَنْهُما بَعْدَ اتِّفَاقِهِمْ عَلَى تَقْدِيمِ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ. أَيُّهُمَا أَفْضَلُ؟ فَقَدَّمَ قَوْمٌ عُثْمَانَ: وَسَكَتُوا، أَوْ رَبَّعُوا بِعَلِيٍّ، وَقَدَّم قَوْمٌ عَلِيًّا، وَقَوْمٌ تَوَقَّفُوا.

أي قالوا: لا نقدم عثمان ولا علياً، يذكرون أبا بكر ثم عمر ثم يمسكون.

قال: لَكِنِ اسْتَقَرَّ أَمْرُ أَهْلِ السُّنَّةِ عَلَى تَقْدِيمِ عُثْمَانَ، ثُمَّ عَلِيٍّ.

وهذا يصلح مثالًا للإجماع الذي يحصل بعد خلاف.

عندما نذكر هذه المسألة في أصول الفقه نذكر كثيرًا مسألة الخروج، لأن بعض الناس يقول: المسألة ليست إجماعًا لأن الحسين خرج، ولأن بعض التابعين خرج، كما في زمن الحجاج.

فنقول: ولو تنزلنا معكم أن هؤلاء خرجوا، لو تنزلنا معكم في ذلك، نقول: لكن استقر أمر أهل السنة والجماعة وإجماعهم على تحريم الخروج، فهذا حتى ولو قلنا: كان خلافًا قديمًا إلا أن هذا الخلاف لم يستقر، بل ارتفع واستقر الإجماع على تحريم ذلك وعدم جوازه.

هنا نذكر هذه المسألة في مباحث الإجماع في أصول الفقه، نضيف إليها هذه المسألة كذلك وهي: أن بعضهم كان يقدم علياً على عثمان، ثم ارتفع هذا الخلاف؛ كما يقول شيخ الإسلام: الذي استقر عليه أمر أهل السنة والجماعة تقديم عثمان ثم علي.

قال: وَإِنْ كَانَتْ هَذِه الْمَسْأَلَةُ ـ مَسْأَلَةُ عُثْمَانَ وَعَلِيٍّ ـ لَيْسَتْ مِنَ الأُصُولِ الَّتِي يُضَلَّلُ الْمُخَالِفُ فِيهَا عِنْدَ جُمْهُورِ أَهْلِ السُّنَّةِ.

أي هي مسألة فرعية، مسألة تفضيل في المكانة ليس الخلافة.

قال: لَكِنِ الَّتِي يُضَلَّلُ فِيهَا: مَسْأَلَةُ الْخِلاَفَةِ.

فلو أن رجلاً قدم علياً على عثمان في الخلافة وقال: علي أحق بالخلافة من عثمان، هذا ضال مُضل، لأن خلافة عثمان وقعت إجماعًا.

ولذا الذي يقدم علياً على عثمان في الخلافة أزرى بالمهاجرين والأنصار، أي انتقصهم، لأن المهاجرين والأنصار اجتمعوا على عثمان.

عمر رَضِي اللهُ عَنْهُ لما طُعن اختار الستة الذين مات رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو راضٍ عنهم، هؤلاء تنحى أكثرهم إلى أن بقي الأمر بين علي وعثمان، فمن الذي تولى أخْذَ رأيِ المهاجرين والأنصار؟

عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه، طاف على بيوت المهاجرين والأنصار يسألهم: من الأحق بالخلافة؟ فكلهم بلا استثناء اختار عثمان وقدمه على علي رضي الله عنهما. هل اختار هؤلاء بناءً على هوى أم دين؟ بناءً على دين وتقوى.

فإذا جاء واحد بعد ذلك وقدم عليا على عثمان فهذا أزرى بالمهاجرين والأنصار، أي: انتقص المهاجرين والأنصار.

ولذا قال أحمد وغيره: هو أضل من حمار أهله، الذي يقدم عليا على عثمان في الخلافة.

يقول شيخ الإسلام: لَكِنِ الَّتِي يُضَلَّلُ فِيهَا: مَسْأَلَةُ الْخِلاَفَةِ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ يُؤْمِنُونَ أَنَّ الْخَلِيفَةَ بَعْدَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَبُو بَكْرٍ، وَعُمَرُ، ثُمَّ عُثْمَانُ، ثُمَّ عَلِيٌّ. وَمَنْ طَعَنَ فِي خِلاَفَةِ أَحَدٍ مِنْ هَؤُلاءِ؛ فَهُوَ أَضَلُّ مِنْ حِمَارِ أَهْلِهِ.

يقول الشيخ الهراس رَحِمَهُ اللهُ: يَقُولُ المؤلِّف: إِنَّ مِنْ أُصُولِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ الَّتِي فَارَقُوا بِهَا مَن عَدَاهُمْ مِنْ أَهْلِ الزَّيْغِ وَالضَّلاَلِ.

الروافض، ويدخل تحتهم كذلك النواصف؛ لأنهم يقدحون في آل بيت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهم صحابة كذلك، ويدخل فيهم الحداثيون العقلانيون الذين يطعنون في فهم أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ويدخل فيهم أهل البدع من الأشعرية والقدرية وإن قالوا بلسانهم: إنهم يعظمون الصحابة إلا أنهم لا يقبلون فهمهم في بعض أصول الدين، قد يقبلون فهمهم في أمور العبادات، وأما في أمور الاعتقاد –أعني في مسألة أن الإيمان قول وعمل، ومسألة الصفات–، يردون فهم هؤلاء ويقدمون عقلهم على فهمهم.

فأهل السنة والجماعة لا يزرون، يزرون من الفعل (أذرى) الرباعي؛ ولذا ضم أوله.

أحمد وغيره يقول: من طعن في خلافة عثمان فقد أزرى، أزرى هذا فعل رباعي، كيف نأتي بالمضارع منه؟ يُزري، أفلح–يُفلح.

الله عَزَّ وَجلَّ يقول: {إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ}

كيف أعرب الظالمون؟ : بعض الناس يظن أنها نائب فاعل، لا، هي فاعل، فاعل لأن الفعل الذي قبلها مبني للمعلوم من الفعل (أفلح–يُفلح)، فهنا يُزري.

أَنَّهُمْ لَا يُزْرون بِأَحَدٍ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

أي: لا ينتقصون.

وَلَا يَطْعَنُونَ عَلَيْهِ، وَلَا يَحْمِلُونَ لَهُ حِقْدًا وَلَا بُغْضًا وَلَا احْتِقَارًا، فَقُلُوبُهُمْ وَأَلْسِنَتُهُمْ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ بَرَاءٌ، وَلَا يَقُولُونَ فِيهِمْ إِلَّا مَا حَكَاهُ اللَّهُ عَنْهُمْ بِقَوْلِهِ: {رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ} [الحشر: 10] الْآيَةَ.

قال: فَهَذَا الدُّعَاءُ الصَّادِرُ مِمَّن جَاءَ بَعْدَهُمْ مِمَّن اتَّبعوهم بِإِحْسَانٍ يدلُّ عَلَى كَمَالِ محبَّتهم لِأَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَثَنَائِهِمْ عَلَيْهِمْ، وَهُمْ أَهْلٌ لِذَلِكَ الْحُبِّ وَالتَّكْرِيمِ؛ لِفَضْلِهِمْ، وَسَبْقِهِمْ، وَعَظِيمِ سَابِقَتِهِمْ، وَاخْتِصَاصِهِمْ بِالرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلِإِحْسَانِهِمْ إِلَى جَمِيعِ الْأُمَّةِ.

كيف أحسنوا إلى جميع الأمة؟ هم الذين نشروا الإسلام ونقلوا لنا الدين رضي الله عنهم.

لِأَنَّهُمْ هُمْ المبلِّغون لَهُمْ جَمِيعَ مَا جَاءَ بِهِ نبيُّهم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَمَا وَصَلَ لأحدٍ علمٌ وَلَا خبرٌ إِلَّا بِوَاسِطَتِهِمْ، وَهُمْ يوقِّرُونهم أَيْضًا طَاعَةً لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ حَيْثُ نَهَى عَنْ سَبِّهِمْ والغضِّ مِنْهُمْ، وبيَّن أَنَّ الْعَمَلَ الْقَلِيلَ مِنْ أَحَدِ أَصْحَابِهِ يَفْضُلُ الْعَمَلَ الْكَثِيرَ مِنْ غَيْرِهِمْ، وَذَلِكَ لِكَمَالِ إِخْلَاصِهِمْ، وَصَادِقِ إِيمَانِهِمْ.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ في ذكر سبب تقديم الصحابة على من جاء بعدهم وإن كان بعضهم أكثر عملاً منهم، قال في معرض ذكر السلف والمتأخرين:

"وَقَدْ يَكُونُ لَهُمْ مِنْ الْحَسَنَاتِ مَا يَكُونُ لِلْعَامِلِ مِنْهُمْ أَجْرُ خَمْسِينَ رَجُلاً يَعْمَلُهَا فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَجِدُونَ مَنْ يُعِينُهُمْ عَلَى ذَلِكَ وَهَؤُلَاءِ

الْمُتَأَخِّرُونَ لَمْ يَجِدُوا مَنْ يُعِينُهُمْ عَلَى ذَلِكَ؛ لَكِنَّ تَضْعِيفَ الْأَجْرِ لَهُمْ فِي أُمُورٍ لَمْ يُضَعَّفْ لِلصَّحَابَةِ لَا يَلْزَمُ أَنْ يَكُونُوا أَفْضَلَ مِنْ الصَّحَابَةِ وَلَا يَكُونُ فَاضِلُهُمْ كَفَاضِلِ الصَّحَابَةِ؛ فَإِنَّ الَّذِي سَبَقَ إلَيْهِ الصَّحَابَةُ مِنْ الْإِيمَانِ وَالْجِهَادِ وَمُعَادَاةِ أَهْلِ الْأَرْضِ فِي مُوَالَاةِ الرَّسُولِ وَتَصْدِيقِهِ وَطَاعَتِهِ فِيمَا يُخْبِرُ بِهِ وَيُوجِبُهُ قَبْلَ أَنْ تَنْتَشِرَ دَعْوَتُهُ وَتَظْهَرَ كَلِمَتُهُ وَتَكْثُرَ أَعْوَانُهُ وَأَنْصَارُهُ وَتَنْتَشِرَ دَلَائِلُ نُبُوَّتِهِ بَلْ مَعَ قِلَّةِ الْمُؤْمِنِينَ وَكَثْرَةِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَإِنْفَاقِ الْمُؤْمِنِينَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ابْتِغَاءَ وَجْهِهِ فِي مِثْلِ تِلْكَ الْحَالِ أَمْرٌ مَا بَقِيَ يَحْصُلُ مِثْلُهُ لِأَحَدِ كَمَا فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي, فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنْفَقَ أَحَدُكُمْ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ".

وَقَدْ اسْتَفَاضَتْ النُّصُوصُ الصَّحِيحَةُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "خَيْرُ الْقُرُونِ قَرْنِي الَّذِينَ بُعِثْت فِيهِمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ".

ولذا كانوا مقدمين على غيرهم."

قال: وَأَمَّا قَوْلُهُ: ((ويفضِّلون مَن أنفَق مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ. وَهُوَ صُلْحُ الْحُدَيْبِيَةِ. وَقَاتَلَ عَلَى مَن أَنْفَقَ مِنْ بَعْدِهِ وَقَاتَلَ))؛ فلورود النص القرآني بِذَلِكَ.

فعمدة أهل السنة والجماعة الدليل.

قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْحَدِيدِ: {لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلاً وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى} [الحديد: 10].

قال: وَأَمَّا تَفْسِيرُ الْفَتْحِ بِصُلْحِ الحُديبية؛ فَذَلِكَ هُوَ الْمَشْهُورُ، وَقَدْ صحَّ أَنَّ سُورَةَ الْفَتْحِ نَزَلَتْ عقيبَهُ.

هذا هو الضبط الصحيح لا يُقال عُقيب كذا، وإنما يُقال: عَقيب، عَقيب الشيء، أي: الذي يليه.

قال: وَسُمِّيَ هَذَا الصُّلْحُ فَتْحًا؛ لِمَا ترتَّب عَلَيْهِ مِنْ نَتَائِجَ بَعِيدَةِ الْمَدَى فِي عِزَّة الْإِسْلاَمِ، وقوَّته وَانْتِشَارِهِ، وَدُخُولِ النَّاسِ فِيهِ.

قال: وَأَمَّا قَوْلُهُ: ((ويقدِّمون الْمُهَاجِرِينَ عَلَى الْأَنْصَارِ))؛ فَلأَنَّ الْمُهَاجِرِينَ جَمَعُوا الْوَصْفَيْنِ: النُّصْرَةَ وَالْهِجْرَةَ، وَلِهَذَا كَانَ الْخُلَفَاءُ الرَّاشِدُونَ وَبَقِيَّةُ الْعَشَرَةِ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ، وَقَدْ جَاءَ الْقُرْآنُ بِتَقْدِيمِ الْمُهَاجِرِينَ عَلَى الْأَنْصارِ فِي سُورَةِ التَّوْبَةِ وَالْحَشْرِ، وَهَذَا التَّفْضِيلُ إِنَّمَا هُوَ لِلْجُمْلَةِ عَلَى الْجُمْلَةِ، فَلاَ يُنَافِي أَنَّ فِي الْأَنْصَارِ مَن هُوَ أَفْضَلُ مِنْ بَعْضِ الْمُهَاجِرِينَ.

من الذي سبق بالإيمان؟ المهاجرون، من الذي يُقدم؟ المهاجرون، لكن هذا تقديم من حيث الجملة، وأما الأفراد –أعني من الصحابة–، فقد يكون الواحد من الأنصار أفضل من بعض المهاجرين.

قال: وَقَدْ رُوِي عَنْ أَبِي بَكْرٍ أَنَّهُ قَالَ فِي خُطْبَتِهِ يَوْمَ السَّقِيفَةِ.

سقيفة بني ساعدة؛ التي تم فيها اختيار أبي بكر رضي الله عنه خليفة للمسلمين.

قال: ((نَحْنُ الْمُهَاجِرُونَ، وَأَوَّلُ النَّاسِ إِسْلاَمًا، أَسْلَمْنَا قَبْلَكُمْ، وقُدِّمْنا فِي الْقُرْآنِ عَلَيْكُمْ، فَنَحْنُ الْأُمَرَاءُ، وَأَنْتُمُ الْوُزَرَاءُ)).

لكن لعل هذا لا يصح، لا يصح عن أبي بكر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ –أعني أن السند إليه لا يصح–، لكن هو في المعنى صحيح، لأنهم كانوا أول الناس إسلامًا جمعوا بين الهجرة والنُصرة، والقرآن قدمهم في موضعين.

قال: وَأَمَّا قَوْلُهُ: ((وَيُؤْمِنُونَ بِأَنَّ اللَّهَ قَالَ لِأَهْلِ بَدْرٍ ...)) إلخ؛ فَقَدْ وَرَدَ أَنَّ عُمَرَ رضي الله عنه لَمَّا أَرَادَ قَتْلَ حَاطِبِ بْنِ أَبِي بَلْتَعَةَ وَكَانَ قَدْ شَهِدَ بَدْرًا لِكِتَابَتِهِ كِتَابًا إِلَى قُرَيْشٍ يُخْبِرُهُمْ فِيهِ بِمَسِيرِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ لَهُ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((وَمَا يُدريك يَا عُمَرُ؟ لعلَّ اللَّهَ اطَّلع عَلَى أَهْلِ بدرٍ فَقَالَ: اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ)).

قال: وَأَمَّا قَوْلُهُ: ((وَبِأَنَّهُ لَا يَدْخُلُ النَّارَ أحدٌ بَايَعَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ ...)) إلخ؛ فَلِإِخْبَارِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِذَلِكَ، وَلِقَوْلِهِ تَعَالَى: {لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ} [الفتح: 18].

قال: فَهَذَا الرِّضَا مانعٌ مِنْ إِرَادَةِ تَعْذِيبِهِمْ.

لأن الله عَزَّ وَجلَّ لا يرضى إلا عمن يستحق الرضا، لا يرضى إلا عن أهل الإيمان والعمل الصالح.

والله عَزَّ وَجلَّ قال: {لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ}، إذًا: هذا الرضا حصل بسببٍ؛ هو مبايعة أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولم يأت بعد ذلك ما ينقض هذا الرضا من الصحابة، من ردة أو بدعة أو غير ذلك.

قال: ومستلزمٌ لِإِكْرَامِهِمْ وَمَثُوبَتِهِمْ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: ((وَيَشْهَدُونَ بِالْجَنَّةِ لِمَنْ شَهِدَ لَهُ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ كَالْعَشَرَةِ، وَثَابِتِ بْنِ قَيْسِ بْنِ شَمَّاسٍ، وَغَيْرِهِمْ مِنَ الصَّحَابَةِ)).

قال: أَمَّا الْعَشَرَةُ؛ فَهُمْ: أَبُو بَكْرٍ، وَعُمَرُ، وَعُثْمَانُ، وَعَلِيٌّ، وَطَلْحَةُ، وَالزُّبَيْرُ، وَسَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ، وَسَعِيدُ بْنُ زَيْدٍ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ، وَأَبُو عُبيدة بْنُ الْجَرَّاحِ.

وَأَمَّا غَيْرُهُمْ؛ فَكَثَابِتِ بْنِ قَيْسٍ، وعُكَّاشة بْنِ مِحْصَنٍ، وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلامٍ.

قال: وَكُلِّ مَن وَرَدَ الْخَبَرُ الصَّحِيحُ بِأَنَّهُ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ.

وردت أخبار كثيرة جدًا عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في بعض الصحابة ممن هم من أهل الجنة، أي: قطع لهم الوحي أنهم من أهل الجنة ومن هؤلاء العشرة، وكذلك الحسن والحسين.

قال: "الْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ سَيِّدَا شَبَابِ الْجَنَّةِ"، وهذا عند الترمذي وصححه، وكذلك بلال وثابت بن قيس، كما ذكر شيخ الإسلام هاهنا.

فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عنه: "إِنَّهُ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ"، وذلك أن ثابت بن قيس كان خطيب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلما أنزل الله عَزَّ وَجلَّ: {لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ} [الحجرات: 2].

فنظر ثابت في حاله وظن أنه يرفع صوته عند رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أحيانًا، فقال: أنا ممن حبط عمله ولزم بيته، فلما افتقده رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أرسل إليه فأخبر الذي جاءه بذلك أنه خشي أن يكون من هذه الآية من أهل هذه الآية، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "اذْهَبْ إِلَيْهِ، فَقُلْ لَهُ: إِنَّكَ لَسْتَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، وَلَكِنْ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ".

وكذلك عبد الله بن سلام، قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما في حديث سعد بن أبي وقاص، قال: "مَا سَمِعْتَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ لِأَحَدٍ يَمْشِي عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ إِنَّهُ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ إِلَّا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ".

وكذلك بلال بن رباح، وكذلك المرأة التي كانت تُصرع، وكذلك الأعرابي الذي أتى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: يا رسول الله دُلَّنِي عَلَى عَمَلٍ، إِذَا عَمِلْتُهُ دَخَلْتُ الْجَنَّةَ. فقال: " تَعْبُدُ اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمُ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ"، إلى غير ذلك.

فقال الأعرابي: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا أَزِيدُ عَلَى هَذَا، فَلَمَّا وَلَّى قال النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَلْيَنْظُرْ إِلَى هَذَا".

وكذلك حارثة لما استُشهد، وكذلك جعفر، وكذلك ابن النبي إبراهيم عليه السلام، فقد جاء عند البخاري أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذكر أن له مُرضعًا في الجنة يرضع منها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ, وصلى الله على أبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكذلك فاطمة وخديجة وزوجات النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهؤلاء نُقر ونقطع لهم أنهم من أهل الجنة.

ماذا عن غيرهم؟ هل يجوز لنا أن نشهد لواحد بأنه من أهل الجنة ممن لم يشهد له الكتاب ولا السنة؟ هذا مما اختلف فيه أهل السنة والجماعة:

- فمنهم من قال: لا يُشهد لأحد بجنة إلا من شهد له الكتاب والسنة.
- ومنهم من قال: بل يُشهد لمن شهد له الناس، فإذا أثنى الناس خيرًا على رجل واستفاض ذلك، بل أثنى عليه جيرانه بالخير، قالوا: هو من أهل الجنة.

وذكروا أمثلة لذلك قالوا: كما استفاض ذلك عن عمر بن عبد العزيز والحسن البصري وأحمد بن حنبل، كل هؤلاء كانوا مشهورين بالصلاح، فبعض أهل العلم شهد لهم بالجنة، قطع لهم، استدلوا بماذا؟

استدلوا بقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "يُوشِكُ أَنْ تَعْلَمُوا أَهْلَ الْجَنَّةِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ"، قالوا: وَبِمَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قال: "بِالثَّنَاءِ الْحَسَنِ وَالثَّنَاءِ السَّيِّئِ".

يعني: إذا أثنى الناس على الرجل خيرًا واستفاض ذلك علمنا أنه من أهل الجنة، وإذا أثنوا عليه شرًا علمنا أنه من أهل النار.

وكذلك استدلوا بقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما مرت عليه جنازة فأثنوا عليها خيرًا، قال: ﴿وَجَبَتْ﴾، فمرت أخرى فأثنوا عليها شرًا قال: "وَجَبَتْ"، فقال الصحابة قلت في الأولى وجبت وفي الأخرى وجبت، قال: "هَذَا أَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِ خَيْرًا، فَوَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ، وَهَذَا أَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِ شَرًّا، فَوَجَبَتْ لَهُ النَّارُ، أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ".

وكذلك قال: "إِذَا سَمِعْتَ جِيرَانَكَ يَقُولُونَ: أَنْ قَدْ أَحْسَنْتَ، فَقَدْ أَحْسَنْتَ، وَإِذَا سَمِعْتَهُمْ يَقُولُونَ: قَدْ أَسَأْتَ، فَقَدْ أَسَأْتَ".

إلى غير ذلك مما استدلوا به.

لكن الراجح والله أعلم: أننا لا نقطع لواحد أنه من أهل الجنة أو النار إلا من قطع له الكتاب والسنة، وأما بخلاف ذلك فنقول: نحسبه كذلك والله حسيبه، ونرجو له الجنة؛ لأننا لا نعلم على أي شيء يُختم للرجل.

إن الرجل ليعمل العمل الصالح الزمن الطويل حتى ما يكون بينه وبين الجنة إلا قدر شبر أو قدر ذراع فيعمل العمل أهل النار فيكون من أهلها، كما أخبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، نسأل الله عَزَّ وَجلَّ حسن الخاتمة.

فقال المصنف رَحِمَهُ اللهُ هاهنا وهو يذكر هذا المعتقد المبارك: وَيَشْهَدُونَ بِالْجَنَّةِ لِمَنْ شَهِدَ لَهُ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ كَالْعَشَرَةِ.

قال: وَأَمَّا قَوْلُهُ: وَيُقِرُّونَ بِمَا تَوَاتَرَ بِهِ النَّقْلُ عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه وَغَيْرِهِ مِنْ أَنَّ خَيْرَ هَذِهِ الأُمَّةِ بَعْدَ نَبِيِّهَا: أَبُو بَكْرٍ، ثُمَّ عُمَرُ.

قال: فَقَدْ وَرَدَ أَنَّ عَلِيًّا رضي الله عنه قَالَ ذَلِكَ عَلَى مِنْبَرِ الْكُوفَةِ، وَسَمِعَهُ مِنْهُ الْجَمُّ الْغَفِيرُ؛ وَكَانَ يَقُولُ: ((مَا مَاتَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى عَلِمْنَا أَنَّ أَفْضَلَنَا بَعْدَهُ أَبُو بَكْرٍ، وَمَا مَاتَ أَبُو بَكْرٍ حَتَّى عَلِمْنَا أَنَّ أَفْضَلَنَا بَعْدَهُ عُمَرُ)).

لكن هذا ضعفه الألباني رَحِمَهُ اللهُ في تحقيقه على كتاب السنة لابن أبي عاصم، لكن هذا ما عليه أهل السنة والجماعة أن ترتيبهم في الفضل كترتيبهم في الخلاف.

قال: وَأَمَّا قَوْلُهُ: ((ويُثَلِّثون بِعُثْمَانَ، ويربِّعون بعليٍّ..)) إلخ؛ فَمَذْهَبُ جُمْهُورِ أَهْلِ السُّنَّةِ أَنَّ تَرْتِيبَ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ فِي الْفَضْلِ عَلَى حَسَبِ تَرْتِيبِهِمْ فِي الْخِلاَفَةِ، وَهُمْ لِهَذَا يفضِّلون عُثْمَانَ عَلَى عَلِيٍّ، محتجِّين بِتَقْدِيمِ الصَّحَابَةِ عُثْمَانَ فِي الْبَيْعَةِ عَلَى عليٍّ.

قال: وَبَعْضُ أَهْلِ السُّنَّةِ يفضِّل عَلِيًّا؛ لِأَنَّهُ يَرَى أَنَّ مَا وَرَدَ مِنَ الْآثَارِ فِي مَزَايَا عليٍّ وَمَنَاقِبِهِ أَكْثَرُ.

أي أنه نظر في حديث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فوجده يقول: "لَأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ غَدًا رَجُلاً يُحِبُّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ"، قالوا: هذا لعلي ولم يكن لغيره.

قالوا: إن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال لعلي: "أَلَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى، إِلَّا أَنَّهُ لَيْسَ نَبِيٌّ بَعْدِي"، إلى غير ذلك من الآثار والأحاديث.

قالوا: هذه تُرجح تفضيل علي على عثمان، لكن أهل السنة والجماعة نظروا إلى الأدلة الأخرى التي جاءت في حق عثمان فوجدوا أنه أفضل وأن منزلته أعلى، ويكفي في ذلك إجماع المهاجرين والأنصار على تقديمه رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

قال: وَبَعْضُهُمْ يتوقَّف فِي ذَلِكَ.

وَعَلَى كُلِّ حالٍ؛ فَمَسْأَلَةُ التَّفْضِيلِ لَيْستْ . كَمَا قَالَ الْمُؤَلِّفُ . مِنْ مَسَائِلِ الْأُصُولِ الَّتِي يُضلَّل فِيهَا الْمُخَالِفُ، وَإِنَّمَا هِيَ مَسْأَلَةٌ فرعيَّة يتَّسع لَهَا الْخِلاَفُ.

قلنا: هذا الخلاف ارتفع.

وَأَمَّا مَسْأَلَةُ الْخِلاَفَةِ؛ فَيَجِبُ الِاعْتِقَادُ بِأَنَّ خِلاَفَةَ عُثْمَانَ كَانَتْ صَحِيحَةً.

سيد قطب يقول: أن خلافة عثمان كانت فجوة بين الخلافة الراشدة خلافة أبي بكر وعمر وخلافة علي.

كأن هذه القطعة من الزمن سقطت من التاريخ خلافة عثمان، عامله الله بما يستحق.

قال: وَأَمَّا مَسْأَلَةُ الْخِلاَفَةِ؛ فَيَجِبُ الِاعْتِقَادُ بِأَنَّ خِلاَفَةَ عُثْمَانَ كَانَتْ صَحِيحَةً؛ لِأَنَّهَا كَانَتْ بِمَشُورَةٍ مِنَ السِّتَّةِ، الَّذِينَ عيَّنهم عُمَرُ رَضِي اللهُ عَنْهُ لِيَخْتَارُوا الْخَلِيفَةَ مِنْ بَعْدِهِ، فَمَنْ زَعَمَ أَنَّ خِلاَفَةَ عُثْمَانَ كَانَتْ بَاطِلَةً، وَأَنَّ عَلِيًّا كَانَ أَحَقَّ بِالْخِلاَفَةِ مِنْهُ؛ فَهُوَ مبتدعٌ ضالٌّ يَغْلِبُ عَلَيْهِ التشيُّع؛ مَعَ مَا فِي قَوْلِهِ مِنْ إزراءٍ بِالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ.

فأهل السنة والجماعة تسلم قلوبهم وألسنتهم لأصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويثنون عليهم ويترضون عنهم ويعرفون قدرهم وفضلهم، وأنه لولا هؤلاء الصحب الذين أخلصوا لله دينًا وأحسنوا العمل لما وصل إلينا كتاب الله ولا سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على ما هي الآن.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم، وجزاكم الله خيرًا.

الدرس السادس والأربعون

إن الحمد لله, نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله تعالى من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله, صلى الله عليه, وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد:

فما زال الكلام يدور حول مبحث أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأهل بيته وأزواجه، في هذه العقيدة المباركة العقيدة الواسطية لشيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ، وعليها شرح العلامة الهراس.

قال شيخ الإسلام: وَيُحِبُّونَ أَهْلَ بَيْتِ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم، وَيَتَوَلَّوْنَهُمْ، وَيَحْفَظُونَ فِيهِمْ وَصِيَّةَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: حَيْثُ قَالَ يَوْمَ غَدِيرِ خُمٍّ: ((أُذَكِّرُكُمُ اللهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي)).

وَقَالَ أَيْضًا لِلْعَبَّاسِ عَمِّه. وَقَدِ اشْتَكَى إِلَيْهِ أَنَّ بَعْضَ قُرَيْشٍ يَجْفُو بَنِي هَاشِمٍ. فَقَالَ: ((وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ؛ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحِبُّوكُمْ؛ للهِ وَلِقَرَابَتِي)).

وَقَالَ: ((إِنَّ اللهَ اصْطَفَى بَنِي إِسْمَاعِيلَ، وَاصْطَفَى مِنْ بَنِي إِسْمَاعِيلَ كِنَانَةَ، وَاصْطَفَى مِنْ كِنَانَةَ قُرَيْشًا، وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ، وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ)).

قال: وَيَتَوَلَّوْنَ أَزْوَاجَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ، وَيُؤْمِنُونَ بِأَنَّهُنَّ أَزْوَاجُهُ فِي الآخِرَةِ: خُصُوصًا خَدِيجَةَ رَضِي اللهُ عَنْهَا أُمَّ أَكْثَرِ أَوْلَادِهِ، وَأَوَّلَ مَنْ آمَنَ بِهِ وَعَاضَدَهُ عَلَى أَمْرِه، وَكَانَ لَهَا مِنْهُ الْمَنْزِلَةُ الْعَالِيَةُ.

وَالصِّدِّيقَةَ بِنْتَ الصِّدِّيقِ رضي الله عنها، الَّتِي قَالَ فِيهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((فَضْلُ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ)).

وَيَتَبَرَّؤُونَ مِنْ طَرِيقَةِ الرَّوَافِضِ الَّذِينَ يُبْغِضُونَ الصَّحَابَةَ وَيَسُبُّونَهُمْ. وَطَرِيقَةِ النَّوَاصِبِ الَّذِينَ يُؤْذُونَ أَهْلَ الْبَيْتِ بِقَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ.

الكلام هاهنا عن أهل بيت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهم كما قال العلامة الهراس: هُمْ مَن تحرُم عَلَيْهِمُ الصَّدَقَةُ.

آل بيت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا تحل لهم الصدقة، يأكلون من الهدية، وأما الصدقة؛ فلا يأكلون منها، لأنها أوساخ الناس؛ كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال: وَهُمْ: آلُ عَلِيٍّ، وَآلُ جَعْفَرٍ، وَآلُ عَقِيلٍ، وَآلُ الْعَبَّاسِ، وَكُلُّهُمْ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ، وَيَلْحَقُ بِهِمْ بَنُو الْمُطَّلِبِ؛ لِقَوْلِهِ عليه السلام: ((إِنَّهُمْ لَمْ يُفَارِقُونَا جاهليَّةً وَلَا إِسْلَامًا)).

هؤلاء أهل بيت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ترد هذه الإضافة في مقدمة كثير من تصانيف الأئمة أنهم إذا صلوا على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ألحقوا به آله.

فما المراد بالآل؟ اختلف العلماء في ذلك على أقوال خمسة:

ومن هذه الأقوال: أنهم أهل بيت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذا هو أرجح الأقوال.

ومنهم من قال: إن الآل هم أتباعه على دينه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ولذا إذا عُطف عليهم الصحابة كان من عطف الخاص على العام؛ لأن الصحابة ممن آمن بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإن عُطفوا هم على الصحابة كان من عطف العام على الخاص.

وأما إذا قيل: أهل بيت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهذا لا يحتمل إلا أنهم أهل البيت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أقربائه ممن آمنوا به، ممن ذكرهم الشيخ هاهنا، وكذلك أزواج رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فهم أهل البيت, وفيهم نزل قول الله تعالى: {إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا} [الأحزاب: 33]، والآية في ذكر زوجات رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ما الواجب اتجاه أهل بيت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟

أهل بيت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إن كانوا أقرباءه فهم أشرف الناس نسبًا؛ ولذا لما ذكر العلماء الخلاف في أيهما أفضل خديجة أم عائشة، وتطرقوا للكلام عن فاطمة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.

قالوا: إن فاطمة أفضل من جهة النسب، هي أفضل من خديجة وعائشة لأنها بنت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأهل بيت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أفضل الناس نسبًا.

ما عقيدة أهل السنة والجماعة تجاه هؤلاء؟

قال: فَأَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ يَرْعَوْنَ لَهُمْ حُرْمَتَهُمْ وَقَرَابَتَهُمْ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ كَمَا يُحِبُّونَهُمْ لِإِسْلَامِهِمْ، وَسَبْقِهِمْ، وَحُسْنِ بَلَائِهِمْ فِي نُصْرَةِ دِينِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

إذًا: الشيخ الهراس رَحِمَهُ اللهُ ذكر أسبابًا ثلاثة تجعل أهل السنة والجماعة يعتقدون في آل بيت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذا الاعتقاد الحسن.

- أما الأمر الأول: فهم أقرباء رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، آمنوا به وأسلموا، وكانوا من السابقين إلى الإسلام، وَحُسْنِ بَلاَئِهِمْ فِي نُصْرَةِ دِينِ اللَّهِ عَزَّ وَجلَّ.

فأول من آمن من النساء خديجة زوج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ وهي من آل بيت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وله مواقف مشهودة في مؤازرة النبي صلى الله عليه وسلم ورضي الله عنها، وأول من آمن من الصبيان علي؛ فهو من آل بيت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكذلك فاطمة بنت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال: وَ ((غَدِيرُ خُم)) . بِضَمِّ الْخَاءِ ؛ قِيلَ: اسْمُ رَجُلٍ صَبَّاغٍ أُضِيفَ إِلَيْهِ الْغَدِيرُ الَّذِي بَيْنَ مكَّة وَالْمَدِينَةِ بِالْجُحْفَةِ. وَقِيلَ: خُم اسْمُ غَيْضَةٍ هُنَاكَ نُسِب إِلَيْهَا الْغَدِيرُ، والغَيْضَة: الشَّجَرُ الْمُلْتَفُّ.

ماذا قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في غدير خُم كما عند مسلم؟ قال: "أُذَكِّرُكُمُ اللهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي"، أي: أهل بيت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أي: احفظوا لهم حقهم ولا تؤذوهم بعد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، واحفظوا لهم قرابتهم من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دون إفراط أو تفريط.

فلا نفعل كما فعلت النواصب تجاه أهل بيت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من بغضهم والتنقص وسبهم، ولا نفعل كذلك كما فعلت الروافض من الغلو في

أهل بيت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حتى ادعى من ادعى منهم الألوهية في علي رَضِي اللهُ عَنْهُ، وغلوا في آل بيت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وإنما أهل السنة والجماعة وسط في هذا الأمر كسائر أبواب الاعتقاد.

فقال: "أُذَكِّرُكُمُ اللهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي".

قال: وَقَالَ أَيْضًا لِلْعَبَّاسِ عَمِّه . وَقَدِ اشْتَكَى إِلَيْهِ أَنَّ بَعْضَ قُرَيْشٍ يَجْفُو بَنِي هَاشِمٍ. فَقَالَ: ((وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ؛ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحِبُّوكُمْ؛ للهِ وَلِقَرَابَتِي)).

وهذا لا يثبت من جهة الإسناد عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما حقق ذلك أهل العلم.

قال: وَقَالَ: ((إِنَّ اللهَ اصْطَفَى بَنِي إِسْمَاعِيلَ، وَاصْطَفَى مِنْ بَنِي إِسْمَاعِيلَ كِنَانَةَ، وَاصْطَفَى مِنْ كِنَانَةَ قُرَيْشًا، وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ، وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ)).

إذًا: رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خيار من خيار من خيار، فلم يكن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من سِفاح قط، ونسبه خير نسب، لكن هل هذا النسب يمنع أن يكون في أجداده مشركون على غير ملة الإسلام؟ لا يمنع ذلك.

ولا يمنع أن يكون في أعمامه على غير ملة الإسلام؛ لأن بعض أهل الضلالة في هذا الزمان استدل بهذا الحديث على إيمان أبي طالب، مع أنه ثبت في الصحيح أن أبا طالب مات على الكفر.

واستدل به على إيمان غيره من آل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كعمه عبد المطلب أو غيره، استدل بهذا الحديث فقال: إن عبد المطلب كان مؤمنًا، مع أن أبا طالب آخر ما قال: هو على ملة عبد المطلب.

وذكر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن مآله كان إلى النار، ولذا طلب العباس من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يشفع في عمه وهي شفاعة خاصة، فيردون كل هذه الأحاديث بهذا الذي لم يقل به واحد من أهل العلم.

فلم يستدل واحد من أهل العلم –فيما أعلم–بهذا الحديث للتدليل على نجاة أبي طالب أو نجاة غيره كعبد المطلب، فنقول: إن نسب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المذكور لا يعني أن كل من كان في هذا النسب كانوا على الإسلام.

الخيرية ههنا في عدم السِفاح، وفي الأصالة العربية، وفي مكانة هذه القبيلة التي منها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وليس المراد هاهنا الإسلام، وإلا فخليل الرحمن أبوه كان كافرًا يصنع الأصنام؛ فلا يطعن هذا في نسب إبراهيم عَليهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمْ.

فقال رَحِمَهُ اللهُ: وَأَمَّا قَوْلُهُ عليه السلام لِعَمِّهِ: ((وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يحبُّوكم لِلَّهِ وَلِقَرَابَتِي)).

قلنا: هذا لا يصح؛ لأن فيه يزيد بن أبي زياد وهو ضعيف، رواه الترمذي والنسائي وأحمد في المسند ولا يثبت ولذا ضعفه الألباني رَحِمَهُ اللهُ.

قال: وَأَمَّا قَوْلُهُ عليه السلام لِعَمِّهِ: ((وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يحبُّوكم لِلَّهِ وَلِقَرَابَتِي))؛ فَمَعْنَاهُ: لَا يَتِمُّ إِيمَانُ أحدٍ حَتَّى يُحِبَّ أَهْلَ بَيْتِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِلَّهِ؛ أَوَّلًا: لِأَنَّهُمْ مِنْ أَوْلِيَائِهِ وَأَهْلِ طَاعَتِهِ الَّذِينَ تَجِبُ مَحَبَّتُهُمْ وَمُوَالَاتُهُمْ فِيهِ.

أهل بيت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أولياء لله تعالى؛ لأن حد الولاية {أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (62) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا

يَتَّقُونَ} [يونس: 62-63]، والشرطان تحققا في أهل بيت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلهم المحبة لولايتهم، وهم أهل الطاعة كذلك، هذا أولًا.

وَثَانِيًا: لِمَكَانِهِمْ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ، وَاتِّصَالِ نَسَبِهِمْ بِهِ.

فالطعن فيهم طعن في رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والحديث وإن كان ضعيفا من جهة السند, لكنه صحيح من جهة المعنى.

إذًا: لا يكتمل إيمان العبد الكمال الواجب حتى يحب أهل بيت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فنقول: إن الحديث وإن كان ضعيفًا من جهة السند إلا أن معناه صحيح.

إذًا: من كمال إيمان العبد الواجب أن يحب أهل بيت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأن يتقرب إلى الله عَزَّ وَجلَّ بذلك.

كيف تظهر هذه المحبة؟ تظهر على اللسان وفي القلوب.

كيف تكون على اللسان؟ بالثناء الحسن عليهم؛ أن نقول كما قال الله عَزَّ وَجلَّ فيهم في سورة الحشر: {وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ} [الحشر: 10].

وأول من يصدُق عليهم ذلك أهل بيت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه رضي الله عنهم.

كيف يتحقق ذلك بالقلب؟ ألا يكون في قلبك حقد ولا حسد ولا غل ولا شيء على أهل بيت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما هو الحال بالنسبة للصحابة.

قال: وَثَانِيًا: لِمَكَانِهِمْ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ، وَاتِّصَالِ نَسَبِهِمْ بِهِ.

قال: وَيَتَوَلَّوْنَ.

ما معنى التولي؟ التولي، أي: المحبة والنُصرة، أي: يحبون أزواج رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وينصرونهن ويثنون عليهن ويدافعون عنهن.

قال: هُنَّ مَن تزوجهُنَّ بِنِكَاحٍ، فَأَوَّلُهُنَّ خَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ رَضِي اللهُ عَنْهَا، تزوَّجها بِمَكَّةَ قَبْلَ الْبِعْثَةِ، وَكَانَتْ سِنُّهُ خَمْسًا وَعِشْرِينَ، وَكَانَتْ هِيَ تَكْبُرُهُ بِخَمْسَةَ عَشَرَ عَامًا، وَلَمْ يتزوَّج عَلَيْهَا حَتَّى توفِّيت، وَقَدْ رُزِقَ مِنْهَا بِكُلِّ أَوْلَادِهِ إِلَّا إِبْرَاهِيمَ، وَكَانَتْ أَوَّلَ مَنْ آمَنَ بِهِ، وقوّاه عَلَى احْتِمَالِ أَعْبَاءِ الرِّسَالَةِ.

كل هذا الذي ذكره الشيخ الهراس رَحِمَهُ اللهُ جعل بعض أهل العلم يقدِّم خديجة على عائشة؛ لأن الخلاف واقع في التفضيل بين خديجة وعائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهما.

أيهما أفضل؟

- **بعض أهل العلم ذكر أن خديجة أفضل**، لهذا الذي ذكره الشيخ الهراس رَحِمَهُ اللهُ، فهذه بعض فضائلها أنها أول من آمن برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لم يتزوج عليها حتى توفيت، أعانت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقوته على احتمال أعباء الرسالة.

ولها موقف مشهود لما جاءه الوحي، وقال: "لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي"، قالت رضي الله عنها: "كَلاَّ وَاللَّهِ مَا يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا، إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ".

إلى غير ذلك مما ذكرته من فضائل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

هذا الكلام قالته ولم يكن ثمَّ وحي نزل، فهذا نابع من كمال عقلها رضي الله عن خديجة.

كذلك من فضائلها، وهذا لا يُعلم لغيرها من أزواج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بل لا يُعلم لغيرها من النساء أنها وحدها التي أرسل إليها ربنا السلام.

خديجة هي التي أرسل إليها ربنا السلام، عائشة رَضِي اللهُ عَنْهَا أرسل إليها جبريل السلام، وأما التي أرسل إليها ربنا السلام فخديجة، وهي التي بشرها ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى ببيت في الجنة من قصب لا نصب فيه ولا وصب، أي: من لؤلؤ.

وغير ذلك من الفضائل؛ ولذلك قدَّم بعض أهل العلم خديجة على عائشة.

- **وبعضهم قدم عائشة على خديجة**، باعتبار نفعها للأمة؛ لأنها أعلم نساء الصحابة، بل أعلم نساء الأمة وهي التي نشرت علم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهي أحب النساء إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولذا قدمها بعضهم على خديجة.

والراجح في ذلك التفصيل، أن يقال: خديجة أفضل باعتبار بدء الإسلام ونفعها لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعائشة أفضل لما كان منها من خدمة الإسلام ونفع المؤمنين.

وأما من جهة النسب؛ ففاطمة أفضل، بل بعضهم قدم فاطمة مطلقًا؛ لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما بكت بعد أن أخبرها بقرب موته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: "أَلَا تَرْضَيْنَ أَنْ تَكُونِي سَيِّدَةَ نِسَاءِ الجنة".

والسيد هو المقدم على غيره، فلما قال: "سَيِّدَةَ نِسَاءِ الجنة"؛ دل ذلك على فضلها على غيرها، والخلاف في هذه المسألة خلاف فرعي: لا يترتب عليه خلل في الاعتقاد.

قال: وَقَدْ مَاتَتْ قَبْلَ الْهِجْرَةِ بِثَلَاثِ سِنِينَ عَنْ خَمْسٍ وَسِتِّينَ سَنَةً، فَتَزَوَّجَ بَعْدَهَا سَوْدَةَ بِنْتَ زَمْعَةَ رَضِي اللهُ عَنْهَا.

وَعَقَدَ عَلَى عَائِشَةَ رَضِي اللهُ عَنْهَا، وَكَانَتْ بِنْتَ سِتِّ سِنِينَ، حَتَّى إِذَا هَاجَرَ إِلَى الْمَدِينَةِ بَنَى بِهَا وَهِيَ بِنْتُ تِسْعٍ.

إذًا: ما تزوج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ امرأة إلا بعد أن ماتت خديجة.

كم كان عمر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما ماتت خديجة؟ بلغ الخمسين صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأنها ماتت قبل هجرة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بسنتين أو ثلاثة.

ولما هاجر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هاجر في الثالثة والخمسين، أي ذهبت زهرة شباب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع خديجة رضي الله عنها:

- ما تزوج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلا بعد موت خديجة
- ولم يتزوج امرأة غيرها حال حياتها
- ولم يتزوج بكرًا إلا عائشة رَضِي اللهُ عَنْهَا.

هذه ثلاثة، فكيف يقال بعد ذلك إن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يتزوج لأجل النساء؟! وكان رجلاً شهوانيًا أو كان كذا كما يقول أهل الكفر والنفاق؟! كل ذلك من الباطل الذي تلوكه ألسنة أهل الضلال والزندقة ، ثم إن التعدد سنة الأنبياء، فلا يُعرف عن نبي من الأنبياء أنه لم يكن مُعددا.

سليمان عَليهِ الصَّلاةُ والسَّلاَم قال: "لَأَطُوفَنَّ اللَّيْلَةَ عَلَى تِسْعِينَ امْرَأَةً".

وفي رواية: "لَأَطُوفَنَّ اللَّيْلَةَ عَلَى مِائَةِ امْرَأَةٍ، كُلُّهُنَّ تلد رجلاً يُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ".

أبوه داود كان مُعددًا، إبراهيم عَليهِ الصَّلاةُ والسَّلاَم كانت له هاجر وسارة.

إذًا: هذه سنة الأنبياء.

والله عَزَّ وَجلَّ يقول للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -كما في سورة الرعد-: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً} [الرعد: 38].

فيقول: فَتَزَوَّجَ بَعْدَهَا سَوْدَةَ بِنْتَ زَمْعَةَ رَضِي اللهُ عَنهَا.

وَعَقَدَ عَلَى عَائِشَةَ رَضِي اللهُ عَنْهَا، وَكَانَتْ بِنْتَ سِتِّ سِنِينَ، حَتَّى إِذَا هَاجَرَ إِلَى الْمَدِينَةِ بَنَى بِهَا وَهِيَ بِنْتُ تِسْعٍ.

أخذ العلماء من ذلك أن الرجل يجوز له أن يعقد على الصغيرة، لكنه لا يُمكن منها إلا حال إطاقتها للزواج، وتسع سنين قد تبلغ المرأة فيه خاصة في جزيرة العرب، ثم إن هذا كان وحيا من الله تعالى كما دلت السنة.

قال: وَمِنْ زَوْجَاتِهِ أَيْضًا أُمُّ سَلَمَةَ رَضِي اللهُ عَنْهَا، تَزَوَّجهَا بَعْدَ زَوْجِهَا أَبِي سَلَمَةَ.

وَزَيْنَبُ بِنْتُ جَحْشٍ تَزَوَّجهَا بَعْدَ تَطْلِيقِ زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ لَهَا، أَوْ عَلَى الْأَصَحِّ زَوَّجَهُ اللَّهُ إِيَّاهَا.

أي الأصح في القول: زَوَّجَهُ اللَّهُ إِيَّاهَا.

لأن الله عَزَّ وَجلَّ هو الذي أمره أن يأمر زيدًا أن يطلق زينب بنت جحش رضي الله عنها، ثم أمره الله عَزَّ وَجلَّ أن يتزوج زينب، حتى يتم إبطال هذه العادة التي كانت في الجاهلية, وهي عادة التبني.

قال: وَجُوَيْرِيَةُ بِنْتُ الْحَارِثِ، وَصَفِيَّةُ بِنْتُ حُيَيٍّ، وَحَفْصَةُ بِنْتُ عُمَرَ، وَزَيْنَبُ بِنْتُ خُزَيْمَةَ، وَكُلُّهُنَّ أُمَّهَاتُ الْمُؤْمِنِينَ، وَهُنَّ أَزْوَاجُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْآخِرَةِ، وَأَفْضَلُهُنَّ عَلَى الْإِطْلَاقِ خَدِيجَةُ وَعَائِشَةُ رَضِي اللهُ عَنْهما.

ثم قال: وَيَتَبَرَّؤُونَ مِنْ طَرِيقَةِ الرَّوَافِضِ الَّذِينَ يُبْغِضُونَ الصَّحَابَةَ وَيَسُبُّونَهُمْ. وَطَرِيقَةِ النَّوَاصِبِ الَّذِينَ يُؤْذُونَ أَهْلَ الْبَيْتِ بِقَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ.

قال الهراس: يُرِيدُ أَنَّ أَهْلَ السنة والجماعة يتبرؤون مِنْ طَرِيقَةِ الرَّوَافِضِ الَّتِي هِيَ الْغُلُوُّ فِي عليٍّ وَأَهْلِ بَيْتِهِ، وَبُغْضُ مَن عَدَاهُ مِنْ كِبَارِ الصَّحَابَةِ، وَسَبُّهُمْ، وَتَكْفِيرُهُمْ.

إذًا: هذا هو حال الروافض الموجودين الآن في إيران، هؤلاء يسبون أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويسبون عائشة وحفصة وأبا بكر وعمر، ولا يستثنون إلا النفر القليل من الصحابة، ويحكمون عليهم بالردة واغتصاب الخلافة من علي رَضِي اللهُ عَنْهُ.

- ولذا الذي يسب الصحابة أجمعين كافر بالإجماع؛ لأنه مُكذب للقرآن، لأن القرآن ترضى عن أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومات النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والترضي موجود في القرآن ما رُفع ولا نُسخ، إذًا: هذا تكذيب للقرآن.

- والذي يسب من اشتهر فضله بين الناس فهو كذلك كافر كأبي بكر وعمر وعثمان
- والذي يسب من برأه القرآن، يسبه بما برأه منه القرآن فهو كافر كذلك، فالذي يطعن في عائشة رَضِي اللهُ عَنْهَا ويطعن في فراش رسول الله، هذا كذلك كافر
- والذي يطعن في واحد من الصحابة من غير هذا الذي ذكرناه فاسق وواقع في كبيرة من الكبائر، كمن يطعن في معاوية أو يطعن في عمرو بن العاص أو يطعن في أبي هريرة رَضِي اللهُ عَنْهُ هذا فاسق ساقط العدالة.

قال: وَأَوَّلُ مَنْ سَمَّاهُمْ بِذَلِكَ زَيْدُ بْنُ عَلِيٍّ رَحِمَهُ اللهُ لِأَنَّهُمْ لَمَّا طَلَبُوا مِنْهُ أَنْ يَتَبَرَّأَ مِنْ إِمَامَةِ الشَّيْخَيْنِ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ لِيُبَايِعُوهُ أَبَى ذَلِكَ، فَتَفَرَّقُوا عَنْهُ، فَقَالَ: ((رَفَضْتُمُونِي))، فَمِنْ يومئذٍ قِيلَ لَهُمْ: رَافِضَةٌ.

قال: وَهُمْ فِرَقٌ كَثِيرَةٌ: مِنْهُمُ الْغَالِيَةُ، وَمِنْهُمْ دون ذلك.

وأكثر الشيعة الآن غالية، حتى الزيدية الموجودون في اليمن والذين ينسب إليهم الحوثيون كذلك هم غالية، ويغلون في علي وفي أهل بيت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولذا تجد التأييد لهم من إيران.

قال: ويتبرَّؤُون كَذَلِكَ مِنْ طَرِيقَةِ النَّوَاصِبِ الَّذِينَ ناصَبوا أَهْلَ بَيْتِ النبوَّة الْعَدَاءَ لِأَسْبَابٍ وَأُمُورٍ سِياسِيَّةٍ مَعْرُوفَةٍ، وَلَمْ يَعُدْ لِهَؤُلَاءِ وُجُودٌ الْآنَ.

هؤلاء الناصبة غير موجودين الآن فيما أظن.

ثم قال رَحِمَهُ اللهُ بعد ذلك وهو يُكمل هذا المبحث في أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأهل بيته، قال: وَيُمْسِكُونَ عَمَّا شَجَرَ بَيْنَ الصَّحَابَةِ،

وَيَقُولُونَ: إِنَّ هَذِهِ الآثَارَ الْمَرْوِيَّةَ فِي مَسَاوِيهِمْ مِنْهَا مَا هُوَ كَذِبٌ، وَمِنْهَا مَا قَدْ زِيدَ فِيهِ وَنُقِصَ وَغُيِّرَ عَنْ وَجْهِهِ، وَالصَّحِيحُ مِنْهُ هُمْ فِيهِ مَعْذُورُونَ: إِمَّا مُجْتَهِدُونَ مُصِيبُونَ، وَإِمَّا مُجْتَهِدُونَ مُخْطِئُونَ.

إذًا: هذا المبحث في ذكر الواجب تجاه ما وقع من أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لأن بعض أهل الزيغ وممن في قلبه مرض قد يقول: الأصل سقوط عدالة من وقع في كبيرة من الكبائر، هذا أصل معلوم متفق عليه.

لماذا نُخرج أصحاب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من هذا الأصل؟ ألم يقع في كبيرة من الكبائر؟ بلى.

ألم يقع منهم قتال؟ قاتل بعضهم بعضًا بل قتل بعضهم بعضًا؟ هذا قد تجدونه في لسان هؤلاء الزنادقة الذين يبغضون أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فيُرد على هؤلاء ويُقال:

أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليسوا كغيرهم، لماذا ليسوا كغيرهم؟

- **أولًا**: لأن الله عَزَّ وَجلَّ أخبر قبل وقوع ذلك منهم أن ذلك واقع كونًا وقدرًا، فالله عَزَّ وَجلَّ أخبر نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن هذا سيقع من أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، هذا أخبره حال حياته.

ولذا قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الحسن: ﴿إِنَّ ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ وَلَعَلَّ اللهَ أَنْ يُصْلِحَ بِهِ بَيْنَ فِئَتَيْنِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ عَظِيمَتَيْنِ﴾، أو كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

إذًا: هذا أخبر به النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأخبر أنه لابد أن يقع.

فهل لما أخبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بذلك أخبر أن الترضي عن الصحابة نُسخ ورُفع أم مات النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والترضي موجود والقطع لهم بالجنة موجود؟ موجود.

هل نسخ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما ذكره من أن بعض هؤلاء في الجنة؟ ما نسخ ذلك وما رد ذلك، والأخبار لا تُنسخ كما هو معلوم.

إذًا: الصحابة ليسوا كغيرهم في هذا المبحث.

- **الأمر الثاني**: يُقال: إن ما وقع من الصحابة إنما وقع عن اجتهاد.

والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: ﴿إِذَا اجْتَهَدَ الْحَاكِمُ فَأَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ وَإِذَا اجْتَهَدَ فَأَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ﴾.

فيم اجتهد الصحابة؟ هل اجتهدوا في قبول أصل الدين؟ أي: في قبول الكتاب والسنة أم اجتهدوا في فهم الكتاب والسنة؟

إذًا: اجتهدوا في الفهم والتنزيل، فبعضهم أصاب التأويل وبعضهم أخطأ، وكلهم مأجور على ذلك.

ولذا الصحابة ليسوا كاليهود والنصارى؛ لأن اليهود والنصارى اجتهدوا في قبول ورد ما جاء من عند الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

ولذا حرفوا وزادوا ونقصوا، وأما الصحابة فإنهم قبلوا كل ما جاء عن الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، بل هم الذين نقلوا لنا الدين ، وإنما اجتهدوا في أمور, فمنهم من أصاب ومنهم من أخطأ، هذا ثانيًا.

- وثالثًا: نقول: إن للصحابة مما يشفع لهم ما ليس لغيرهم؛ من سبق الإسلام ونُصرة الدين وبحار الحسنات التي تُغمر فيها بعض سيئاتهم،

فلهم من الحسنات والأجور العظيمة ما ليس لغيرهم، ثم إن هذا الذي وقع منهم كُفِّر بتوبة أو باستغفار أو بحسنات أو بعمل سابق أو بابتلاء أو بغير ذلك.

لكل هذه الأمور أُمرنا بالترضي عن أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع إخبارنا أنه سيقع منهم كذا وكذا من الأمور، وأُمرنا بالإمساك عما شجر بينهم رضي الله عن أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ولذا قال: وَيُمْسِكُونَ؛ يعني: أهل السنة والجماعة.

عَمَّا شَجَرَ بَيْنَ الصَّحَابَةِ، وَيَقُولُونَ: إِنَّ هَذِهِ الآثَارَ الْمَرْوِيَّةَ فِي مَسَاوِيهِمْ.

على أقسام ثلاثة: القسمان الأولان مردودان وهما:

القسم الأول: ما هو كذب، قال: مِنْهَا مَا هُوَ كَذِبٌ.

والكذب من جملة المردود.

قال: وَمِنْهَا مَا قَدْ زِيدَ فِيهِ وَنُقِصَ وَغُيِّرَ عَنْ وَجْهِهِ.

وهذا كذلك مردود، لأنا لا نعلم حقيقته، قال: غُير عما فيه.

قال: وَالصَّحِيحُ مِنْهُ هُمْ فِيهِ مَعْذُورُونَ.

أي نُقل لنا نقلاً صحيحًا أن الصحابة قد وقع منهم كذا وكذا، نُقل عن الصحابة وصح ذلك أنهم قد وقع منهم كذا وكذا من الأمور والهنات.

وهُمْ فِيهِ مَعْذُورُونَ: إِمَّا مُجْتَهِدُونَ مُصِيبُونَ، وَإِمَّا مُجْتَهِدُونَ مُخْطِئُونَ.

وكانوا من أهل الاجتهاد رضي الله عنهم، فهم بين الأجر والأجرين.

قال: وَهُم مَّعَ ذَلِكَ لَا يَعْتَقِدُونَ أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَ الصَّحَابَةِ مَعْصُومٌ عَنْ كَبَائِرِ الإِثْمِ وَصَغَائِرِهِ.

إذًا: اعتقاد عصمة الصحابة هذا من حيث الجملة، فالصحابة معصومون من حيث الجملة، ولذا كان إجماعهم حُجة رَضِي اللهُ عَنْهُم.

وأما الواحد منهم؛ فغير معصوم من الوقوع في كبيرة؛ وقد وقعت من بعضهم أمور زمان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فمنهم من زنا، ومنهم من سرق، ومنهم من اغتاب، ومنهم من وقع في كذا وكذا، فهم بشر، ويدخلون في قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿كُلُّ بَنِي آدَمَ خَطَّاءٌ﴾، وما ضمن الله عَزَّ وَجلَّ لواحد منهم العصمة.

ولذا قال: لَا يَعْتَقِدُونَ أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَ الصَّحَابَةِ مَعْصُومٌ عَنْ كَبَائِرِ الإِثْمِ وَصَغَائِرِهِ؛ بَلْ يَجُوزُ عَلَيْهِمُ الذُّنُوبُ فِي الْجُمْلَةِ. وَلَهُم مِّنَ السَّوَابِقِ وَالْفَضَائِلِ مَا يُوجِبُ مَغْفِرَةَ مَا يَصْدُرُ مِنْهُمْ . إِنْ صَدَرَ ،، حَتَّى إِنَّهُمْ يُغْفَرُ لَهُم مِّنَ السَّيِّئَاتِ مَا لَا يُغْفَرُ لِمَنْ بَعْدَهُمْ؛ لأَنَّ لَهُم مِّنَ الْحَسَنَاتِ الَّتِي تَمْحُو السَّيِّئَاتِ مَا لَيْسَ لِمَنْ بَعْدَهُمْ.

ماذا قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لحاطب بن أبي بلتعة؟ قال: "لَعَلَّ اللَّهَ قدِ اطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ: اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ".

ماذا قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعثمان لما جهز جيش العُسرة؟ "مَا ضَرَّ عُثْمَانَ مَا فَعَلَ بَعْدَ الْيَوْمِ".

فهذا يُبين لنا أن الله قد يغفر لهم ما لا يغفره لغيرهم.

المُد من أحدهم من الاعمال الصالحة يفوق ما يُعادل جبل أُحُد من أعمالنا نحن، كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

إذًا: الله عَزَّ وَجلَّ اصطفاهم وزكاهم وجعلهم وزراء نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وبارك لهم في أجورهم ما لم يبارك لغيرهم، وجعل لهم من الفضل والصُحبة ما ليس لغيرهم.

قال: وَقَدْ ثَبَتَ بِقَوْلِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُمْ خَيْرُ الْقُرُونِ.

الثابت من قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: "خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي".

وأما خير القرون؛ فهذا لم يثبت عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأن بعض المصنفين قد يذكر الحديث بهذا اللفظ: خير القرون قرني، ثم يقول: رواه البخاري، والبخاري لم يروه بهذا اللفظ وإنما قال: "خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي".

قال: وَقَدْ ثَبَتَ بِقَوْلِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُمْ خَيْرُ الْقُرُونِ، وَأَنَّ الْمُدَّ مِنْ أَحَدِهِمْ إِذَا تَصَدَّقَ بِهِ كَانَ أَفْضَلَ مِنْ جَبَلِ أُحُدٍ ذَهَبًا مِمَّنْ بَعْدَهُمْ. إِذَا كَانَ قَدْ صَدَرَ مِنْ أَحَدِهِمْ ذَنْبٌ؛ فَيَكُونُ قَدْ تَابَ مِنْهُ.

هذه هي مكفرات الذنوب التي يذكرها شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ في مواضع كثيرة من كتبه، وذكرها كذلك تلميذه ابن القيم.

الواحد قد يقع في ذنب، لكن ما الذي يكفر هذا الذنب؟ إما أن تقع منه توبة، فقال: فَيَكُونُ قَدْ تَابَ مِنْهُ، أَوْ أَتَى بِحَسَنَاتٍ تَمْحُوهُ.

أي جاء بذنب لكن لو وضع هذا الذنب في كفة ووضعت حسناته في كفة لرجحت الحسنات.

أَو غُفِرَ لَهُ؛ بِفَضْلِ سَابِقَتِهِ، أَوْ بِشَفَاعَةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الَّذِي هُمْ أَحَقُّ النَّاسِ بِشَفَاعَتِهِ.

فلو تصورنا أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سيشفع في واحد من أصحابه ليخرجه من النار حتى يدخل الجنة.

فلو تصورنا ذلك فأول من يشفع فيه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أصحابه فهم أحق الناس بشفاعته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال: أَوْ ابْتُلِيَ بِبَلاَءٍ فِي الدُّنْيَا كُفِّرَ بِهِ عَنْهُ.

فَإِذَا كَانَ هَذَا فِي الذُّنُوبِ الْمُحَقَّقَةِ؛ فَكَيْفَ الأُمُورُ الَّتِي كَانُوا فِيهَا مُجْتَهِدِينَ: إِنْ أَصَابُوا؛ فَلَهُمْ أَجْرَانِ، وَإِنْ أَخْطَؤُوا؛ فَلَهُمْ أَجْرٌ وَاحِدٌ، وَالْخَطَأُ مغْفُورٌ.

قال: ثُمَّ إِنَّ الْقَدْرَ الَّذِي يُنْكَرُ مِنْ فِعْلِ بَعْضِهِمْ قَلِيلٌ نَزْرٌ مَغْفُورٌ فِي جَنْبِ فَضَائِلِ الْقَوْمِ وَمَحَاسِنِهِمْ؛ مِنَ الإِيمَانِ بِاللهِ، وَرَسُولِهِ، وَالْجِهَادِ فِي سَبِيلِهِ، وَالْهِجْرَةِ، وَالنُّصْرَةِ، وَالْعِلْمِ النَّافِعِ، وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ. وَمَن نَّظَرَ فِي سِيرَةِ الْقَوْمِ بِعِلْمٍ وَبَصِيرَةٍ.

اقرأ هذه الجملة واجعلها نُصب عينيك واجعلها عقيدة لك.

وَمَن نَّظَرَ فِي سِيرَةِ الْقَوْمِ بِعِلْمٍ وَبَصِيرَةٍ، وَمَا مَنَّ اللهُ عَلَيْهِم بِهِ مِنَ الْفَضَائِلِ؛ عَلِمَ يَقِينًا أَنَّهُمْ خَيْرُ الْخَلْقِ بَعْدَ الأَنْبِيَاءِ.

خير الخلق بعد الأنبياء هم أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ ولذا أفضل الخلق بعد الأنبياء أبو بكر الصديق ثم عمر رَضِي اللهُ عَنْهُ، ثم عثمان ثم علي؛ لأن الصحابة أفضل الخلق بعد الأنبياء، وافضل الصحابة أبو بكر الصديق، ثم باقي الخلفاء الأربعة.

قال: لَا كَانَ وَلا يَكُونُ مِثْلُهُمْ، وَأَنَّهُمُ الصَّفْوَةُ مِنْ قُرُونِ هَذِهِ الأُمَّةِ الَّتِي هِيَ خَيْرُ الأُمَمِ وَأَكْرَمُهَا عَلَى اللهِ.

قال الشيخ الهراس رَحِمَهُ اللهُ: وَيُمْسِكُ أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ عَنِ الْخَوْضِ فِيمَا وَقَعَ مِنْ نِزَاعٍ بَيْنَ الصَّحَابَةِ.

ولذا أحمد رَحِمَهُ اللهُ لما سُئل عما وقع من الصحابة قال: {تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [البقرة: 134]، وهذا ورد عن غيره من السلف.

يعني: ما وقع بينهم طهر الله منه سيوفنا، أفلا نُطهر منه ألستنا، لن نُسأل عنه أمام الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، ولو خضنا فيه لعاد علينا بالضرر أمام الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

ولذا نحن نتدين لله تَبَارَكَ وَتَعَالَى ونتعبد إليه بالإمساك عما شجر بين أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وقلت لكم: إن الذي يقول: لكن الذي فعله معاوية يقدح في كذا وكذا ويخالف ما كانت عليه الدولة الإسلامية، ويقول: أنا أريد أن أُعيد الأمة إلى ما كانت عليه زمن الخلافة الراشدة، أو أنا أريد أن أنصر حقنا، كل هذا لا يُقبل منه، حتى وإن زعم أنه يريد صلاح الأمة، لا يُقبل منه وهو مأزور في كلامه عن واحد من أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ولذا يُمْسِكُ أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ عَنِ الْخَوْضِ فِيمَا وَقَعَ مِنْ نِزَاعٍ بَيْنَ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُم؛ لَا سِيَّمَا مَا وَقَعَ بَيْنَ عَلِيٍّ وَطَلْحَةَ وَالزُّبَيْرِ بَعْدَ مَقْتَلِ عُثْمَانَ.

تجد بعض الأئمة السابقين إذا ذكر الصحابة يترحم عليهم، تجده إذا ذكر بعض الصحابة قال: رَحِمَهُ اللهُ، ولا يقول: رَضِيَ اللهُ عَنْهُ, والأولى أن يترضى عن أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

لكن من أين جاءوا بالترحم؟ من آية الحشر: {وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ} [الحشر: 10].

إذًا: هم يدعون لأصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالرحمة فهمًا لهذه الآية؛ أنهم يدعون لهم بالمغفرة والرحمة.

قال: لَا سِيَّمَا مَا وَقَعَ بَيْنَ عَلِيٍّ وَطَلْحَةَ وَالزُّبَيْرِ بَعْدَ مَقْتَلِ عُثْمَانَ، وَمَا وَقَعَ بَعْدَ ذَلِكَ بَيْنَ عَلِيٍّ وَمُعَاوِيَةَ وَعَمْرِو بْنِ الْعَاصِ وَغَيْرِهِمْ، وَيَرَوْنَ أَنَّ الْآثَارَ الْمَرْوِيَّةَ فِي مَسَاوِئِهِمْ أَكْثَرُهَا كذبٌ أَوْ محرَّفٌ عَنْ وَجْهِهِ.

قلنا: وهذان القسمان مردودان، هذه الآثار غالبًا إذا فتشت في أسانيدها وجدتها مليئة بالرواة الرافضة والمتشيعة كلوط بن يحيي وسيف بن عمر، وغير هؤلاء.

قال: وَأَمَّا الصَّحِيحُ مِنْهَا؛ فَيَعْذِرُونَهُمْ فِيهِ، وَيَقُولُونَ: إِنَّهُمْ مُتَأَوِّلُونَ مُجْتَهِدُونَ.

طالما أنهم كانوا من أهل الاجتهاد فهم معذورون، متى لا يُعذر المتأول؟ الذي يجتهد ولم يكن من أهل الاجتهاد، والصحابة كانوا من أهل الاجتهاد.

قال: وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ لَا يدَّعون لَهُمُ الْعِصْمَةَ مِنْ كِبَارِ الذُّنُوبِ وَصِغَارِهَا، وَلَكِنَّ مَا لَهُمْ مِنَ السَّوَابِقِ وَالْفَضَائِلِ وَصُحْبَةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْجِهَادِ مَعَهُ قَدْ يُوجِبُ مَغْفِرَةَ مَا يَصْدُرُ مِنْهُمْ مِنْ زَلَّاتٍ؛ فَهُمْ بِشَهَادَةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَيْرُ الْقُرُونِ، وَأَفْضَلُهَا، ومُدُّ أحدهم أَوْ نَصِيفه أَفْضَلُ مِنْ جَبَلِ أحدٍ ذَهَبًا يتصدَّق بِهِ مَن بَعْدَهُمْ، فسيِّئاتهم مَغْفُورَةٌ إِلَى جَانِبِ حَسَنَاتِهِمُ الْكَثِيرَةِ.

قال الهراس: يُرِيدُ المؤلِّف رَحِمَهُ اللهُ أَنْ يَنْفِيَ عَنِ الصَّحَابَةِ رَضِي اللهُ عَنْهُم أَنْ يَكُونَ أَحَدُهُمْ قَدْ مَاتَ مُصِرًّا عَلَى مَا يُوجِبُ سَخطَ اللَّهِ عَلَيْهِ مِنَ الذُّنُوبِ.

هذا لم يقع لواحد من أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يموت مصرًا على كبيرة من الكبائر.

بَلْ إِذَا كَانَ قَدْ صَدَرَ الذَّنْبُ مِنْ أَحَدِهِمْ فِعْلاً؛ فَلاَ يَخْلُو عَنْ أَحَدِ هَذِهِ الْأُمُورِ الَّتِي ذَكَرَهَا؛ فَإِمَّا أَنْ يَكُونَ قَدْ تَابَ مِنْهُ قَبْلَ الْمَوْتِ، أَوْ أَتَى بِحَسَنَاتٍ تُذْهِبُهُ وَتَمْحُوهُ، أَوْ غُفِر لَهُ بِفَضْلِ سَالِفَتِهِ فِي الْإِسْلاَمِ؛ كَمَا غُفِر لِأَهْلِ بَدْرٍ وَأَصْحَابِ الشَّجَرَةِ، أَوْ بِشَفَاعَةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُمْ أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِهِ، وأحقُّهم بهَا، أَوِ ابْتُلِيَ بِبَلاَءٍ فِي الدُّنْيَا فِي نَفْسِهِ أَوْ مَالِهِ أَوْ وَلَدِهِ فَكُفِّر عَنْهُ بِهِ.

قال: فَإِذَا كَانَ هَذَا هُوَ مَا يَجِبُ اعْتِقَادُهُ فِيهِمْ بِالنِّسْبَةِ إِلَى مَا ارْتَكَبُوهُ مِنَ الذُّنُوبِ الْمُحَقَّقَةِ؛ فَكَيْفَ فِي الْأُمُورِ الَّتِي هِيَ مَوْضِعُ اجْتِهَادٍ وَالْخَطَأُ فِيهَا مغفورٌ.

من أراد أن يعلم كيف كانت توبة أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فليقرأ في قصة الغامدية.

المرأة الغامدية رَضِي اللهُ عَنْهَا كيف تابت؟ هذه توبة امرأة لو وزعت على سبعين من أهل المدينة لوسعتهم، يعني: من أصحاب الذنوب المحققة، كما قال علماء الحديث وشُراح هذا الحديث.

هذه المرأة جاءت واعترفت وأقرت على نفسها بالزنا، ثم ردها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى تضع حملها، ثم جاءت وهي تُصر على التطهير، ثم ردها

النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى تفطم ولدها، فلما فطمته عادت وفي يده كسرة خبز، ثم رُجمت وتطهرت، وهي في كل ذلك ثابتة لا تجزع رَضِي اللهُ عَنْهَا.

ماعز رَضِي اللهُ عَنْهُ رآه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يسبح في نهر من أنهار الجنة، وهذا يدل على صدق توبته, رضي الله عن أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

الواحد منهم كان إذا وقعت منه هنة لا يزال يتصدق ويتصدق ، ويفعل الأعمال الصالحة الكثيرة، هذا مذكور عن عمر وعن عائشة وعن غير هؤلاء من أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

إذًا: هؤلاء كانوا أحق الناس بخشية ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى، والعودة إليه والتوبة إليه.

ولذا يقول المصنف رَحِمَهُ اللهُ هاهنا: فَإِذَا كَانَ هَذَا هُوَ مَا يَجِبُ اعْتِقَادُهُ فِيهِمْ بِالنِّسْبَةِ إِلَى مَا ارْتَكَبُوهُ مِنَ الذُّنُوبِ الْمُحَقَّقَةِ؛ فَكَيْفَ فِي الْأُمُورِ الَّتِي هِيَ مَوْضِعُ اجْتِهَادٍ وَالْخَطَأُ فِيهَا مغفورٌ.

ثُمَّ إِذَا قِيس هذا الذي أخطؤوا فِيهِ إلى جانب ماهم مِنْ مَحَاسِنَ وَفَضَائِلَ؛ لَمْ يَعْدُ أَنْ يَكُونَ قَطْرَةً فِي بَحْرٍ.

فَاللَّهُ الَّذِي اخْتَارَ نَبِيَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هُوَ الَّذِي اخْتَارَ لَهُ هَؤُلَاءِ الْأَصْحَابَ.

ولذا الطعن في الصحابة طعن في النبي وطعن في الرب العلي.

طَعْن في النبي؛ لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو الذي رباهم، وطَعْن في الرب العلي؛ لأن الرب تَبَارَكَ وَتَعَالَى هو الذي اختارهم لصحبة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال: فَهُمْ خَيْرُ الْخَلْقِ بَعْدَ الْأَنْبِيَاءِ، وَالصَّفْوَةُ الْمُخْتَارَةُ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ الَّتِي هِيَ أَفْضَلُ الْأُمَمِ.

ومَن تأمَّل كَلاَمَ المؤلِّف رَحِمَهُ اللهُ فِي شَأْنِ الصَّحَابَةِ عَجِبَ أَشَدَّ الْعَجَبِ مِمَّا يَرْمِيهِ بِهِ الْجَهَلَةُ المتعصِّبُون.

يَرْمِيهِ؛ الضمير يعود على شيخ الإسلام، ولعل الشيخ يقصد الأشعرية الذين يبغضون شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ وينتقصونه بما هو منه براء، فيتهمونه بأنه ينتقص الصحابة وأنه يكفرهم، وكذلك الرافضة يتهمونه بأنه ينتقص من آل بيت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

لم يَسلم شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ من أذى واحد من أهل البدع، والله يأجره على ذلك إن شاء الله ولعل الله عَزَّ وَجَلَّ عجَّل له البشرى في الدنيا قبل الآخرة بأن وضع له القبول في الأرض ونشر علمه.

فلا تجد مكانًا يقوم على السنة إلا وهو يرجع إلى كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ في تقرير هذه السنة، ولا تنزل نازلة بالمسلمين في هذه الأوقات إلا ويرجع المخالف قبل الموافق لشيخ الإسلام ابن تيمية لكلامه.

عجيب أمر شيخ الإسلام ابن تيمية، لا تنزل نازلة بالمسلمين إلا وتجد في ضمن كلامه علاجاً لهذه المشكلة، ومباحث تتعلق بهذه المشكلة، تجد هذا حتى في كلام المؤسسة الأزهرية وفي كلام المتفقهة الأزهرية يستدلون بكلام ابن القيم

رَحِمَهُ اللهُ في مثل هذه النوازل الحادثة التي تتعلق بالأسرة والطلاق والزواج والمعاملات كالبيع والشراء، وهذا من عاجل بشرى الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى للمؤمن أن يضع له القبول في الأرض.

فيقول الشيخ رَحِمَهُ اللهُ: ومَن تأمَّل كَلامَ المؤلِّف رَحِمَهُ اللهُ فِي شَأْنِ الصَّحَابَةِ عَجِبَ أَشَدَّ الْعَجَبِ مِمَّا يَرْمِيهِ بِهِ الْجَهَلَةُ المتعصِّبُون، وادِّعائهم عَلَيْهِ أَنَّهُ يتهجَّم عَلَى أَقْدَارِهِمْ، ويغضُّ مِنْ شَأْنِهِمْ، وَيَخْرِقُ إِجْمَاعَهُمْ ... إِلَى آخِرِ مَا قَالُوهُ مِنْ مَزَاعِمِ وَمُفْتَرَيَاتٍ.

وكل ذلك كذب على شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ.

فالواجب أن نُمسك عما شجر بين أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأن نترضى عنهم، وأن يكون حالنا كحال هذا القائل الذي قال:

ونُمسك عمَّا كان بين صحابةٍ	وما صح معذورونَ فيه فقلْ قدِ
فإما لهم أجرانِ أو أجرٌ يا فتى	فلا تبغ قولًا غير ذلك تعتدِ
وليسوا بمعصومين فاسمعْ	ولكن لهم ما يُوجب العَفو
فقدْ صح عن خيرِ	لخير القرون افهم بغير

القافية دال مكسورة، فقل قدِ، فلا تبغي قولًا غير ذلك تعتدِ، تعتدِ: جواب الطلب، يعني: إن ابتغيت قولًا غير ذلك وقعت في الاعتداء.

أسأل الله عَزَّ وَجلَّ أن يجعلنا ممن يترضى عن أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأن يُلحقنا بهم، وأن يُمسِّكنا بما كانوا عليه من اعتقاد صحيح سليم حتى نلقاه، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم، وجزاكم الله خيرًا.

الدرس السابع والأربعون

إن الحمد لله, نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله تعالى من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله, صلى الله عليه, وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد:

فما زال حديثنا موصولًا في الكلام عن هذا المعتقد المبارك (معتقد أهل السنة والجماعة)، والذي ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ في عقيدته الواسطية.

وكنا قد وصلنا إلى مبحث كرامات الأولياء، وهذا المبحث عقده شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ ليُبين وسطية أهل السنة والجماعة بين الفِرق في هذا المبحث، فأهل السنة والجماعة وسط بين الفِرق، كما أن الإسلام وسط بين الملل.

وهذا الباب الذي معنا –أعني باب كرامات الأولياء- فرَّط فيه أُناس وأفرط فيه آخرون، فأنكره كليةً المعتزلة؛ وذلك لشُبهة عندهم قالوا: إن أعظم ما يدل على صدق النبي خرقه للعادة، وما يجريه الله على يديه من معجزات.

فلو أثبتنا الكرامات للأولياء؛ لاشتبهت مع معجزات الأنبياء، فمعجزات الأنبياء وآياتهم خرق للعادة، أي: العادة التي اعتاد عليها الجن والإنس أجمعون.

فلو أثبتنا كرامات الأولياء والتي هي خرق للعادة كذلك؛ لاشتبه أمر الولي بأمر النبي عَليهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمَ.

وهذا الكلام غير صحيح؛ وذلك أن النبي وإن كان وليا من أولياء الله الصالحين، بل سيد الأولياء، إلا أنه يتحدى بها معه من الآيات والمعجزات مع

ادِّعاء النبوة، أي يقول: إنه نبي من قِبَل الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وأما الولي فلا يدَّعي النبوة.

ثم إن الولي يجرى الله عَزَّ وَجلَّ على يديه من خرق العادة، باعتبار أهل زمانه، أي: العادة التي اعتادها أهل زمانه، وهذا قد لا يكون خرقا للعادة في الأزمان التي تعقبه.

وبيان ذلك لما قال عمر رَضِي اللهُ عَنْهُ وهو بالمدينة: "يَا سَارِيَةُ الْجَبَلَ"، سارية علم منادى، مبني على الضم، "يَا سَارِيَةُ الْجَبَلَ"، يعني: الزم الجبل، كشف الله عَزَّ وَجلَّ لعمر رَضِي اللهُ عَنْهُ الحُجُب، وكان سارية رَضِي اللهُ عَنْهُ يقاتل الفُرس، فرآه عمر وهو في المدينة, فناداه وأمره أن يتحصن بالجبل.

طيب هل كان في وقتهم يستطيع أحد أن يرى غيره في مكان آخر؟ لا، إذًا: هذا خرق للعادة، أي: ما اعتاد عليه الناس في هذا الزمان.

أنت الآن تستطيع أن ترى غيرك وهو في مكان آخر من خلال مكالمات الفيديو والهواتف وبرامج الزوم وغير ذلك.

إذًا: هذا كان خرقًا للعادة باعتبار زمانهم.

وأما معجزات الأنبياء؛ فهي خرق لعادة الإنس والجن إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها؛ ولذا كانت الآية الكبرى لنبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ القرآن.

والله عَزَّ وَجلَّ يقول عن القرآن: {قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ} [الإسراء: 88]، هذا إلى متى؟ إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

الآية التي أجراها الله عَزَّ وَجلَّ على يد موسى عَليهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَم, وهي أن العصا تنقلب حية، هل هذا يستطيعه أحد؟ لا يستطيعه أحد إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها؛ لأن هذا خلق وتحويل وليس تخييلاً.

ولذا لما رأى ذلك السحرة خروا سُجدًا وآمنوا برب العالمين؛ لأن هذا ليس من جنس السحر.

إذًا: هناك فرق بين خرق العادة للولي وخرق العادة للنبي، لا يشتبه هذا بذاك.

وهؤلاء -كما قلنا-: فرَّطوا في هذا المبحث، مبحث كرامات الأولياء؛ لأنه ثابت بالكتاب والسنة وبإجماع أهل السنة والجماعة، ثم هو واقع ومُشاهد وملموس.

وهناك فريق آخر أفرطوا في هذا الجانب وغلَوا في إثباتها، حتى جاءوا بما ينافي الشرع والعقل وهم الصوفية؛ فجعلوا كرامات لأناسٍ يزعمون أنهم أولياء وليسوا بأولياء، وذكروا عنهم أمورًا لا يقبلها لا عقل ولا شرع.

فكان أهل السنة والجماعة وسطًا في هذا الباب، ولذا ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية للمخالفة التي وقعت فيه.

والمقصود بالكرامة: النعمة التي يُجريها الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى على يد الولي والمنحة التي تكون من الله عَزَّ وَجلَّ لهذا الولي، تثبيتًا لقلبه أو لحصول مصلحة دينية أو دنيوية، فهذا معنى الكرامة.

وأما الولي؛ فالولاية في لغة العرب تعني: المحبة والنُصرة.

وأما الولي في الشرع: فهو كل مؤمن تقي غير نبي، فهو الولي في عرف العلماء.

من أين أخذوا هذا؟ من آية سورة يونس: {أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (62) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ} [يونس: 62-63]؛ فالولي كل مؤمن تقي غير نبي.

هل هذا يعني أن الأنبياء ليسوا أولياء؟ هم سادات الأولياء، لكن النبوة والرسالة مرتبة أعلى من الولاية، يُقال: الوَلاية، أي: المحبة والنُصرة.

وأما الوِلاية بالكسر: فهي الإمارة.

فالولي في اصطلاحهم، أي: في اصطلاح أهل السنة والجماعة: كل مؤمن تقي غير نبي.

والوَلاية لها جانبان:

جانب يتعلق بالعبد، أي متى يكون العبد وليًا لله؟ إذا كان مستقيمًا على الأمر والنهي، أي: يُنفذ الطلب، إذا أمره الله عَزَّ وَجلَّ بأمر نفذه، وإذا نهاه عن شيء انتهى عنه.

وجانب يتعلق بالرب تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وهو محبة الله عَزَّ وَجلَّ لذلك العبد، فإذا أحبه وسدده كان وليًا له.

وهذا مأخوذ من الآية ومأخوذ من حديث البخاري، قال الله تعالى: ﴿مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ﴾، الجانب الأول جانب العبد.

هذا جانب العبد أن يتقرب إلى الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى بالفرض والنفل، أن يلتزم الأمر والنهي.

ما الذي يتعلق بجانب الرب؟ ﴿فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ﴾.

وهل هذا يستلزم العصمة؟ هل يستلزم أن يكون الولي معصومًا؟ لا يُفهم هذا من الحديث؛ ولذا فقد يُخطئ الولي، وقد لا يقع فهمه للكتاب والسنة على الوجه الصحيح، وقد يتأول.

ولذا لا يُتابع على كل ما يقول وكل ما يأتي به إلا بعد عرض كلامه وأحواله على الكتاب والسنة، هكذا قالوا:

قال أبو سليمان الداراني: إنه يقع في قلب النكتة.

أي الإلهام والفهم والفتح من الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، فلا أقبله إلا بشاهدين: الكتاب والسنة؛ لأن ما يقع في قلبه قد يكون من قِبل الشيطان؛ لأنه ليس بمعصوم، العصمة للنبي، وأما غير النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فليس بمعصوم يحاول الشيطان أحيانًا أن يغويه.

ولذا نقول: إن الولي ليس معصومًا؛ فهذا هو حد الولاية عند أهل السنة والجماعة.

إذًا: الولاية لها طريق يستطيع المرء أن يسلكه.

وينبغي أن نعلم أن الولاية مكتسبة، أي: أن لها طريقًا تستطيع أن تسلكه لتكون وليًا لله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وهو أن تأتي بالفرض والنفل، أن تفعل المأمور وتترك المحظور، الأمر يسير على من يسره الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى عليه.

قلنا: المعتزلة أنكروا الولاية.

ماذا عن الولاية عند الصوفية؟

الولاية عند الصوفية تختلف في حدها الشرعي عن أهل السنة والجماعة.

قال أبو القاسم القشيري -صاحب طبقات الصوفية-: الولي له معنيان:

الولي كلمة ولي على وزن (فعيل)، قال لها معنيان:

إما أن تكون فعيل بمعنى مفعول، أي: من يتولى الله أمره.

والثاني: فعيل مبالغة من الفاعل، ولي، أي: والي؛ وهو الذي يتولى عبادة الله وتجري عبادته على التوالي من غير أن يتخللها عصيان.

إذًا: الولي عندهم لا يكون وليًا إلا إذا كف عن المعصية أي يكون معصومًا.

قال: وكلا الوصفين واجب حتى يكون الولي وليًا؛ ولذا صار الولي عندهم معصومًا، وصار فعاله حُجة وأقواله لا تُرد ولا تُكذب.

ولذا إذا قرأت في طبقات الشعراني الطبقات الكبرى وهو يذكر فيها ترهات الصوفية وخرفاتهم تجد عجبًا من كلامهم وفعالهم، ويقولون: إن ذلك من الولاية، يذكر عن بعضهم أنه كان يُرى في أكثر من موضع في نفس الوقت ونفس الزمان، يخطب على أكثر من منبر في نفس اليوم في نفس الوقت، يأتي بأفعال لا يقبلها شرع ولا عقل.

فترتب على هذا الحد انحرافات كثيرة حتى أُعطي بعض أوليائهم صفات الربوبية، وقد سمعنا في زمننا هذا من يقول: إن الولي يخلق.

الجفري يقول: إن الولي يقول للشيء كن فيكون، يخلق، نسأل الله السلامة والعافية.

وبعضهم زعم أنه كلم الله كفاحًا كما كلم موسى ربه تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وهذا نقله عبد الحليم محمود شيخ الأزهر السابق, نقله في كتاب له عن أبي الحسن الشاذلي، وهذا من سادات الصوفية ومن أوليائهم عندهم.

فنقل عنه أنه كلم الله عَزَّ وَجلَّ عند جبل غزوان، ذهب إلى هذا الجبل فكلمه ربه وسأله عن حاله فذكر له أنه اعتزل الناس؛ لأنه ضاق ذرعًا بهم، فكلمه ربه أمره أن يعود إلى الناس مرة أخرى وأن الله سيجري على يديه كذا وكذا.

هذه قصة من؟ موسى، {وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى} [طه: 84]، فزعم أنه كلم الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

وغلوا كذلك في مراتب الأولياء، الأولياء ليسوا على مرتبة واحدة كذلك عند أهل السنة والجماعة؛ لأن الولاية ترجع في درجتها إلى ما معك من الإيمان والتقوى، إن حقق العبد الإيمان والتقوى كان وليًا كاملاً لله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وإن نزلت درجة الإيمان والتقوى عن ذلك شيئًا نزلت درجة الولاية.

ولذا كل مؤمن فهو ولي لله تَبَارَكَ وَتَعَالَى لما معه من الإيمان، ويكون له من نصر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى وتأييده ومحبته على حسب ما معه من الإيمان والتقوى.

ماذا عن الصوفية؟ الصوفية كذلك جعلوا الولاية درجات، فعندهم الأقطاب وعندهم الأولياء، والغوث والإمام، ويجعلون بعض هذه المراتب لها التصرف في العالم.

يجعلون للغوث أو القطب مطلق التصرف في العالم، ينظرالله عَزَّ وَجلَّ إليه هو ويراقبه في تدبيره للعالم.

وهذا يشبه نظرية الفيض عند الفلاسفة ذكرناها في مبدأ الكلام على هذه العقيدة، فهذا تفلسف في التصوف فعندهم ما يسمى بالتصوف الإشراقي الفلسفي.

قال رَحِمَهُ اللهُ: وَمِنْ أُصُولِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ.

قلنا: الأصل في لغة العرب، يعني: أساس الشيء، أي: هذا من أُسس اعتقادهم.

قال: وَمِنْ أُصُولِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ: التَّصْدِيقُ.

أي: الإقرار، بِكَرَامَاتِ الْأَوْلِيَاءِ وَمَا يُجْرِي اللَّهُ عَلَى أَيْدِيهِمْ مِنْ خَوَارِقِ الْعَادَاتِ.

هذه الكلمة كلمة خوارق العادات لم تأت بلفظها لا في كتاب الله ولا في سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإنما هي من اصطلاح العلماء، وأول من أظهرها المعتزلة، قلنا: لأنهم جعلوا عمدة صدق النبي أن يُجري الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى على يديه الخوارق والمعجزات.

قال: فِي أَنْوَاعِ الْعُلُومِ وَالْمُكَاشَفَاتِ وَأَنْوَاعِ الْقُدْرَةِ وَالتَّأْثِيرَاتِ كَالْمَأْثُورِ عَنْ سَالِفِ الْأُمَمِ فِي سُورَةِ الْكَهْفِ وَغَيْرِهَا وَعَنْ صَدْرِ هَذِهِ الْأُمَّةِ مِنْ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَسَائِرِ قُرُونِ الْأُمَّةِ وَهِيَ مَوْجُودَةٌ فِيهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

قال الشيخ الهراس رَحِمَهُ اللهُ: وَقَدْ تَوَاتَرَتْ نُصُوصُ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَدَلَّتِ الْوَقَائِعُ قَدِيمًا وَحَدِيثًا عَلَى وُقُوعِ كَرَامَاتِ اللَّهِ لِأَوْلِيَائِهِ المتَّبعين لِهَدْيِ أَنْبِيَائِهِمْ.

إذًا: شرط وقوع الكرامة أن يكون الولي مستقيمًا على شرع الله، متابعًا لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإلا كانت من خوارق الشياطين.

قال: وَالْكَرَامَةُ أَمْرٌ خارقٌ لِلْعَادَةِ، يُجْرِيهِ اللَّهُ عَلَى يَدِ وليٍّ مِنْ أَوْلِيَائِهِ؛ مَعُونَةً لَهُ عَلَى أَمْرٍ دينيٍّ أَوْ دنيويٍّ.

ويفرِّق بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْمُعْجِزَةِ بِأَنَّ الْمُعْجِزَةَ تَكُونُ مَقْرُونَةً بِدَعْوَى الرِّسَالَةِ، بِخِلاَفِ الْكَرَامَةِ.

هذا تفريق، وذكرنا تفريقًا آخر: أن الخرق خرق العادة فيما يتعلق بالمعجزة إنما يكون باعتبار عادة الخلق أجمعين الإنس والجن، وأما خرق العادة بالنسبة للولي باعتبار أهل الزمان.

والفرق الثاني الذي ذكره الشيخ رَحِمَهُ اللهُ: أن الولي لا يدَّعي النبوة، فالمعجزة التي ترد على يد النبي تكون مقرونة بدعوى الرسالة.

ولذا يتحدى قومه بهذه المعجزة وهذه الآية ليُثبت صدق ما يقوله من أنه نبي أو رسول من قِبل الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

صالح عَليهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَم لما جاء قومه وقال لهم: {اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ}، ودعاهم إلى الله عَزَّ وَجلَّ وبين لهم أنه رسول من قِبل الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، طلبوا منه معجزة وآية.

فكانت الآية التي تدل على صدق كلامه وعلى كونه رسولًا حقًا: أن يُخرج الناقة من الجبل.

فإذًا: هو قَرَنَ كلامه عن المعجزة وتحديهم بالمعجزة بادَّعاء النبوة، وبقوله: إنه رسول من قِبل الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

لكن الولي لا يقول إنه نبي، بل الأصل في الكرامة أنها ينبغي سترها، كما يقول أهل العلم، الكرامة ما ينبغي أن يتفاخر بها الولي؛ كما يفعل الصوفية وغلاتهم في هذا الزمان.

يقول بعضهم: وهذا كذب صُراح: كل يوم أرى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقظة، جاءني النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وسماني حبيبي، قال: يا حبيبي، لا يناديني إلا يا حبيبي!!

هذا كذب، وعلى فرض صحة ذلك نقول: ما ينبغي أن يصنع الولي مثل هذا الذي يصنعه هذا الرجل؛ لأن الكرامة كما قلنا ينبغي أن تستر.

سمعت بعض شيوخنا قديمًا قال: حاولنا مرة أن نفتح بابًا، جربنا المفتاح فلم يفتح، فجاء أحد الإخوة قال: دعني أفتح الباب فقد أجرى الله على يدي كذا وكذا، فأراد أن يفتح الباب فانكسر المفتاح، فالكرامة قد تكون ابتلاء نسأل الله السلامة.

هذا الكلام الذي سيذكره الشيخ الهراس بنصه هو كلام الشيخ السعدي رَحِمَهُ اللهُ.

قال: ويتضمَّن وُقُوعُ هذه الكرامات حكم وَمَصَالِحَ كَثِيرَةً؛ أَهَمُّهَا.

قال: أَوَّلًا: أَنَّهَا كَالْمُعْجِزَةِ، تَدُلُّ أَعْظَمَ دَلَالَةٍ عَلَى كَمَالِ قُدْرَةِ اللَّهِ، وَنُفُوذِ مَشِيئَتِهِ.

أن الذي يُجري ذلك هو الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، يعني: اعتبر بمعجزات الأنبياء.

الأصل في النار أنها تحرق، طيب تؤجج نار عظيمة لم يُرى مثلها لإبراهيم عَليهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَم، ويؤتى بالمنجنيق، يعني: شيء يُشبه الدبابة حتى يُلقى

إبراهيم عَليهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمَ في هذه النار، ومع ذلك تكون النار بردًا وسلامًا على إبراهيم.

من الذي جعلها كذلك؟ الله، من الذي سلب خاصيتها التي هي الإحراق؟ الله، فهذا يدل على قدرة الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، وأنه يتصرف في مُلكه كما يشاء.

يونس عَليهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمَ لما أُلقي في البحر والتقمه الحوت ونزل في ظلمات البحر، أين النفس؟ وأين الهواء؟ هل يستطيع أن يعيش في هذا الموضع؟ لا يستطيع، ومع ذلك يبقى ما يبقى, ثم بعد ذلك يقول: (لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين)؛ فيأمر الله عَزَّ وَجلَّ الحوت أن يُخرجه وأن يلفظه وهو حي.

ولذا يقول أُمية بن أبي الصلت:

وأنـت بفضـل منـك نجيـت يـونس   وقـد بـات في أضـعاف حـوتٍ لياليـا

كاد شِعره أن يُسلم، لكنه لم يؤمن بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حسدًا؛ لأنه كان يظن أن الرسالة ستنزل عليه.

يقول:

وأنـت بفضـل منك نجيـت يـونس   وقد بات في أضعاف حوتٍ لياليَا

فمن الذي فعل ذلك؟ الله عَزَّ وَجلَّ؛ فهذا يدل على تمام قدرته ونفوذ مشيئته سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، فهذه المخلوقات ميسرة بتيسير الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، إذا أراد شيئًا قال للشيء كن فيكون.

قال: وَأَنَّهُ فعَّال لِمَا يُرِيدُ، وَأَنَّ لَهُ فَوْقَ هَذِهِ السُّنَنِ وَالْأَسْبَابِ الْمُعْتَادَةِ سُنَنًا أُخْرَى لَا يَقَعُ عَلَيْهَا عِلْمُ الْبَشَرِ، وَلَا تُدْرِكُهَا أَعْمَالُهُمْ.

يأتي الغمام وتظن أن السماء ستمطر ولا تُمطر.

هناك أسباب أخرى منعت نزول المطر، هل تعلمها؟ لا تعلمها، لا يعلمها إلا الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

قال: فَمِنْ ذَلِكَ قِصَّةُ أَصْحَابِ الْكَهْفِ، وَالنَّوْمُ الَّذِي أَوْقَعَهُ اللَّهُ بِهِمْ فِي تِلْكَ الْمُدَّةِ الطَّوِيلَةِ، مَعَ حِفْظِهِ تَعَالَى لِأَبْدَانِهِمْ مِنَ التَّحَلُّلِ وَالْفَنَاءِ.

ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال، الله هو الذي يقلبهم سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، {وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ} [الكهف: 18]، {وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا} [الكهف: 25]، هذه كرامة من كرامات الأولياء.

لأن هؤلاء كانوا موحدين وكانوا من أشراف قومهم. تركوا ما عليه أقوامهم من عبادة الأصنام وعبدوا الله الواحد الأحد.

فقال: وَمِنْهَا مَا أَكْرَمَ اللَّهُ بِهِ مَرْيَمَ بِنْتَ عِمْرَانَ مِنْ إِيصَالِ الرِّزْقِ إِلَيْهَا وَهِيَ فِي الْمِحْرَابِ؛ حَتَّى عَجِبَ مِنْ ذَلِكَ زَكَرِيَّا عليه السلام.

مريم عليها السلام لم تكن نبية خلافًا لابن حزم، وأم موسى عليها السلام كذلك لم تكون نبية؛ لأن الأنبياء لابد أن يكونوا ذكورًا.

من يأتي بآية في كتاب الله تُبين الذكورة في الأنبياء؟ هم يستدلون بمثل قول الله تعالى: {وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ} [القصص: 7]، يقولون: وحي، إذًا: هي نبية.

الآية القاطعة في ذلك آخر سورة يوسف: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ} [يوسف: 109]، {إِلَّا رِجَالًا}، فالنبي لابد أن يكون رجلاً.

فهذه الكرامة التي جعلها الله عَزَّ وَجلَّ لمريم بنت عمران هي كرامة وليست آية ومعجزة، لأنها لم تكن نبية.

فقال: وَمِنْهَا مَا أَكْرَمَ اللَّهُ بِهِ مَرْيَمَ بِنْتَ عِمْرَانَ مِنْ إِيصَالِ الرِّزْقِ إِلَيْهَا وَهِيَ فِي الْمِحْرَابِ؛ حَتَّى عَجِبَ مِنْ ذَلِكَ زَكَرِيَّا عليه السلام، وَسَأَلَهَا: {أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ} [آل عمران: 37].

قال: وَكَذَلِكَ حَمْلُهَا بِعِيسَى بِلاَ أَبٍ، وَوِلَادَتُهَا إِيَّاهُ، وَكَلَامُهُ فِي الْمَهْدِ، وَغَيْرُ ذَلِكَ.

إذًا لماذا يُجري الله عَزَّ وَجلَّ الكرامة على يد الولي؟ لإظهار تمام قدرته سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

- ثَانِيًا: أَنَّ وُقُوعَ كَرَامَاتِ الْأَوْلِيَاءِ هُوَ فِي الْحَقِيقَةِ مُعْجِزَةٌ لِلأَنْبِيَاءِ؛ لِأَنَّ تِلْكَ الْكَرَامَاتِ لَمْ تَحْصُلْ لَهُمْ إِلَّا بِبَرَكَةِ مُتَابَعَتِهِمْ لِأَنْبِيَائِهِمْ، وَسَيْرِهِمْ عَلَى هَدْيِهِمْ.

ولذا الكرامات المذكورة في الكتب التي أُلفت في كرامات الأنبياء أو في كتب السير، أو التي ذُكرت عن الأمم السابقة؛ ذُكرت لمن هذه الكرامات؟ ذُكرت لأُناس متقين متابعين لأنبيائهم.

فوقوع الكرامة هو في الحقيقة معجزة للنبي ودليل على صدق النبي؛ لأن الله عَزَّ وَجلَّ إذا أيَّد المتبوع ونصره وأظهر على يديه الكرامة؛ فهذا دليل على صدق من تبعه -أعني النبي-.

ولذا ذكروا في السير أن خالد بن الوليد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لما كان في معركة وقالوا له: لن نستسلم لك حتى تشرب سُمًا، فجاءوا بالسُم وشربه خالد بن الوليد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ولم يُصب بشيء، كرامة من قِبل الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

الأسود العنسي لما جاء بأبي مسلم الخرساني رَحِمَهُ اللهُ، جاء به وكان في اليمن، قال: تشهد أن محمداً رسول الله؟ قال: أشهد، ثم قال: تشهد أني رسول الله، قال: لا أسمع، تشهد أن محمداً رسول الله، قال: أشهد، تشهد أني رسول الله، قال: لا أسمع، فألقاه في النار, فما أصابته النار.

قد يقول قائل: هذه معجزة، وأنت تقول: أن المعجزة خاصة بالنبي يُتحدى بها الإنس والجن إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها؟ نقول: وهل كانت نار أبي مسلم كنار إبراهيم عَلَيهِ الصَّلَاةُ والسَّلَامَ؟ وهل البرد والسلام الذي أصاب إبراهيم هو الذي أصاب أبا مسلم؟

لكن هذه الكرامة التي أيد الله عَزَّ وَجلَّ بها أبا مسلم دليل على صدق من؟ صدق رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

إذًا: وقوع كرامات الأولياء هو في الحقيقة معجزة للأنبياء؛ لأن تلك الكرامات لم تحصل لهم إلا ببركة متابعتهم لأنبيائهم وسيرهم على هديهم.

- ثَالِثًا: أَنَّ كَرَامَاتِ الْأَوْلِيَاءِ هِيَ الْبُشْرَى الَّتِي عجَّلها اللَّهُ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا؛ فَإِنَّ الْمُرَادَ بِالْبُشْرَى كُلُّ أَمْرٍ يدلُّ عَلَى وِلَايَتِهِمْ وَحُسْنِ عَاقِبَتِهِمْ، وَمِنْ جُمْلَةِ ذَلِكَ الْكَرَامَاتُ.

قال: هَذَا؛ وَلَمْ تَزَلِ الْكَرَامَاتُ مَوْجُودَةً لَمْ تَنْقَطِعْ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، والمشاهدةُ أكبرُ دَلِيلاً.

لأن هذه الكرامات وقعت أيام النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبعد موت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وما زالت تقع إلى الآن، قد تكون كرامات معنوية أو كرامات حسية، خوارق للعادات يجريها الله عَزَّ وَجلَّ على يد أُناس صالحين.

وكذلك قد تكون الكرامة كرامة معنوية، فهذا العالم يموت ولا يزال علمه ينتشر بين الناس وينتفع به الخلق، هذه كرامة أكرم الله عَزَّ وَجلَّ بها هذا العالم الذي مات؛ لأنه كان مخلصًا في طلبه للعلم وفي دعوته إلى الله تَبارَكَ وَتَعَالَى.

وسنذكر كثيرًا من الكرامات بعد أن ننتهي من كلام الشيخ.

قال: وَأَنْكَرَتِ الفلاسفةُ كَرَامَاتِ الْأَوْلِيَاءِ كَمَا أَنْكَرُوا مُعْجِزَاتِ الْأَنْبِيَاءِ.

وذلك لأنهم لا يؤمنون إلا بالسبب الحسي المباشر، فإن لم يروا سببًا حسيًا لم يؤمنوا به.

وَأَنْكَرَتِ الْكَرَامَاتِ أَيْضًا الْمُعْتَزِلَةُ.

وذكرنا سبب إنكارهم.

وَبَعْضُ الْأَشَاعِرَةِ؛ بِدَعْوَى الْتِبَاسِهَا بِالْمُعْجِزَةِ، وَهِيَ دَعْوَى بَاطِلَةٌ؛ لِأَنَّ الْكَرَامَةَ -كَمَا قُلْنَا- لَا تَقْتَرِنُ بِدَعْوَى الرِّسَالَةِ.

قال: لَكِنْ يَجِبُ التَّنَبُّهُ إِلَى أَنَّ مَا يَقُومُ بِهِ الدَّجاجلةُ وَالْمُشَعْوِذُونَ مِنْ أَصْحَابِ الطُّرُقِ الْمُبتدعة الَّذِينَ يُسَمُّونَ أَنْفُسَهُمْ بالمتصوِّفة مِنْ أَعْمَالٍ وَمَخَارِيقَ شَيْطَانِيَّةٍ؛ كَدُخُولِ النَّارِ، وَضَرْبِ أَنْفُسِهِمْ بِالسِّلَاحِ، وَالْإِمْسَاكِ بِالثَّعَابِينِ، وَالْإِخْبَارِ بِالْغَيْبِ ... إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ؛ لَيْسَ مِنَ الْكَرَامَاتِ فِي شَيْءٍ.

لأن شرط الكرامة الاستقامة، فالكرامة من شرطها أن تقع على يد مستقيم على الإيمان متابع للشريعة.

ولذا يقول الليث بن سعد رَحِمَهُ اللهُ: إذا رأيتم الرجل يمشي على الماء فلا تغتر به حتى تعرضوا أمره على الكتاب والسنة.

نُقل هذا القول للشافعي، فماذا قال الشافعي؟ قال: قصَّر الليث رَحِمَهُ اللهُ، بل إذا رأيتم الرجل يمشي على الماء ويطير في الهواء فلا تغتروا به حتى تعرضوا أمره على الكتاب والسنة.

إذًا الذي تقول له: قم صلِّ، يقول: صليت بالمسجد الحرام، هو لا يصلي الفريضة ويقول: صليت بالمسجد الحرام، هل هذا موافق للكتاب والسنة؟ ليس موافقاً للكتاب والسنة، إذًا: هذه أحوال شياطين.

كذلك هذا الذي ذكره الشيخ رَحِمَهُ اللهُ من أن بعضهم يضرب نفسه بالسلاح، يوجد فيديوهات موجودة الآن من أُناس من أفريقيا وغيرها ترى بعضهم يُدخل السلاح من هاهنا ويُخرجه من الجانب الآخر من بطنه، وكذلك يضرب السكين في رأسه، هذه كلها أحوال شيطانية وهي من جنس فعل السحرة والمشعوذين والكُهان، وليست من كرامات الأولياء في شيء.

الكرامة -كما قلنا-: من بشرى الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى لعبده، تقع - كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية-: فِي أَنْوَاعِ الْعُلُومِ وَالْمُكَاشَفَاتِ.

يعني: يعلم ما لا يعلم غيره، يفتح الله عَزَّ وَجلَّ عليه في العلم، يحفظ ما لا يحفظ غيره، يكشف الله عَزَّ وَجلَّ له ما لا يكشفه لغيره كما وقع لعمر كما ذكرنا: "يَا سَارِيَةُ الْجَبَلَ"، هذا وقع لعمر، فهذا نوع من الكرامة.

قال كذلك رَحِمَهُ اللهُ: وَأَنْوَاعِ الْقُدْرَةِ وَالتَّأْثِيرَاتِ.

أي: أن الله يُقدره على أمور لا يُقدر غيره عليها، ومثال ذلك: ما جاء عن بعض الصحابة والتابعين كالعلاء بن الحضرمي وكسعد بن أبي وقاص أنهم مشوا على الماء وهم في الغزو، جمَّد الله عَزَّ وَجلَّ لهم الماء.

ليس معنى جمَّد الماء أنه صار ثلجًا، لا، الماء كما هو, لكن جعل الله عَزَّ وَجلَّ أرجلهم تستقر فوق الماء، فلا تغوص أرجلهم في الماء حتى عبروا إلى الجانب الآخر، فهذه كرامة.

وهي من هذا الباب الذي ذكره الشيخ رَحِمَهُ اللهُ؛ من باب القدرة والتأثيرات، أي: أن الله جعل لهم من القدرة ما ليس لغيرهم.

الكرامات -كما قلنا- ثابتة بكتاب الله وبسنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكذلك هي واقعة في أمة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ, ولا تزال تقع إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

ومن ذلك كذلك ما هو مذكور من قصة أبي مسلم الخولاني كما ذكرنا مع الأسود العنسي، وكذلك من قصة سفينة مولى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال: "رَكِبْنَا الْبَحْرَ فِي سَفِينَةٍ، فَانْكَسَرَتِ السَّفِينَةُ، فَرَكِبْتُ لَوْحًا مِنْ أَلْوَاحِهَا، فَطَرَحَنِي فِي أَجَمَةٍ فِيهَا أَسَدٌ فَلَمْ يَرُعْنِي إِلَّا بِهِ"، يعني: في غابة كثيرة الشجر.

فَقُلْتُ: يَا أَبَا الْحَارِثِ، -وأبو الحارث من أسماء الأسد-، يَا أَبَا الْحَارِثِ، أَنَا مَوْلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَطَأْطَأَ رَأْسَهُ، وَغَمَزَ بِمَنْكِبِهِ شِقِّي فَمَا زَالَ يَغْمِزُنِي وَيَهْدِينِي الطَّرِيقَ حَتَّى وَضَعَنِي عَلَى الطَّرِيقِ، فَلَمَّا وَضَعَنِي عَلَى الطَّرِيقِ هَمْهَمَ فَظَنَنْتُ أَنَّهُ يُوَدِّعُنِي.

فهذه كرامة.

وكذلك العلاء بن الحضرمي -وهذا كان عامل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على البحرين- كان يقول في دعائه: يَا عَلِيمُ يَا حَلِيمُ يَا عَلِيُّ يَا عَظِيمُ فَيُسْتَجَابُ لَهُ وَدَعَا اللَّهَ بِأَنْ يُسْقُوا وَيَتَوَضَّئُوا لَمَّا عَدِمُوا الْمَاءَ وَالْإِسْقَاءَ لِمَا بَعْدَهُمْ

فَأُجِيبَ وَدَعَا اللَّهَ لَمَّا اعْتَرَضَهُمْ الْبَحْرُ وَلَمْ يَقْدِرُوا عَلَى الْمُرُورِ بِخُيُولِهِمْ فَمَرُّوا كُلُّهُمْ عَلَى الْمَاءِ مَا ابْتَلَّتْ سُرُوجُ خُيُولِهِمْ؛ وَدَعَا اللَّهَ أَنْ لَا يَرَوْا جَسَدَهُ إذَا مَاتَ فَلَمْ يَجِدُوهُ فِي اللَّحْدِ.

هذا كذلك كرامة.

وكذلك من كرامات الأولياء ما حصل للصحابي الجليل -وهذا في الصحيح- أُسيد بن حُضير رَضِي اللهُ عَنْهُ وهو يقرأ سورة الكهف، فنزل من السماء مثل الظُلَّة فيها أمثال السُرُج -وهي الملائكة- نزلت لقراءته، وكانت الملائكة تسلم على عمران بن حصين رَضِي اللهُ عَنْهُ حتى اكتوى فتركت السلامة عليه.

وكان سلمان وأبو الدرداء يأكلان في صحفة فسبحت الصحفة أو سبح ما فيها.

وكذلك عباد بن بشر وأُسيد بن حُضير خرجا من عند رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في ليلة مظلمة، فأضاء لهما نور مثل طرف السوط، يعني: آخر السوط عليه نور، فلما افترقا افترق النور معهما، فصار مع كل واحد منهما نور.

وكذلك خُبيب بن عدي رَضِي اللهُ عَنْهُ لما كان أسيرًا عند المشركين بمكة -والقصة في الصحيح- كان يؤتى بعنب يأكله وليس بمكة عنبة، ينظرون إليه وهو أسير عندهم فيجدون العنب أمامه وليس بمكة عنب.

وكذلك عمرو بن فُهيرة قُتل شهيدًا فالتمسوا جسده، فلم يقدروا عليه، وكان لما قُتل رُفع، فرآه عامر بن الطُفيل يرون أن الملائكة رفعته.

وكذلك أم أيمن رَضِي اللهُ عَنْهَا خرجت مهاجرة وليس معها زاد ولا ماء فكادت تموت عطشًا، فلما كان وقت الفطر وكانت صائمة سمعت حسًا على رأسها فرفعته فإذا دلو مُعلق، فشربت منه حتى رويت وما عطشت بقية عمرها.

البراء بن مالك رَضِي اللهُ عَنْهُ كان إذا أقسم على الله أبر قسمه، هذه كرامة ما بعدها كرامة، يعني يقول: أقسمت عليك يا رب أن تمنحنا أكتاف اليهود فتكون الهزيمة لليهود، أن تفتح لنا هذا الحصن يفتح الله عَزَّ وَجلَّ لهم الحصن.

وكانت الحرب إذا اشتدت على المسلمين في الجهاد يقولون: يا براء أقسم على ربك؛ هذا من حسن الظن بالله، لا يوجب أحد على الله شيئًا، لكن هذا من حسن الظن بالله ومن كمال الولاية والتقوى.

يقولون: يا براء أقسم على ربك، فيقول: يا رب أقسمت عليك لما منحتنا أكتافهم فيُهزم العدو، فلما كان يوم القادسية قال: أقسمت عليك يا رب لما منحتنا أكتافهم وجعلتني أول شهيد، فمنحوا أكتافهم وقُتل البراء شهيدًا.

كذلك خالد بن الوليد -ذكرنا قصة السُم-، وكذلك سعد بن أبي وقاص لما مشى على الماء.

كذلك سعيد بن زيد، كان مجاب الدعاء، لما ادَّعت عليه أروى بنت الحكم ما هو براء منه، فقال: اللهم إن كانت كاذبة فاللهم أعمي بصرها واقتلها في أرضها؛ فعميت ووقعت في حفرة من أرضها فماتت.

كذلك يذكرون عن الحسن البصري -زمن الحجاج - أن الجند دخلوا يطلبونه وهو جالس في جوف بيته ولم يره الجند، يبحثون عنه وهو جالس في جوف البيت ، وخرجوا ولم يأخذوه معهم، هذه كرامة من قِبَل الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

إلى غير ذلك من الكرامات، فالكرامة ثابتة -كما قلنا- بكتاب الله وبسنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لكنها قد تكون ابتلاءً.

ولذا على المسلم إذا أكرمه الله عَزَّ وَجلَّ بكرامة أن يسأل الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى الثبات، وألا يغتر بذلك.

إذًا: أهل السنة والجماعة في هذا الأصل -أعني أصل كرامات الأولياء-، وسط بين جفاء وغلو، الجفاء من قِبل المعتزلة الذين أنكروا الكرامة وبيَّنا سبب الإنكار، والغلو والذي هو من قِبَل الصوفية حتى ادعوا الكرامة لأُناس كانوا أشبه بفاقدي العقول، المجانين وهذا مما تأثر به العوام.

كنت تسمع منذ قريب عن بعض أُناس من بلدتنا، يعني: يتبول على نفسه وثيابه قذرة ويمشي في الطريق وربما كان مكشوف العورة، ويجعلونه وليًا من أولياء الله، وهذا لا يجوز مطلقًا، كيف يكون الولي فاقد العقل؟! كيف يكون الولي مجنونًا؟!

وقد وضع الله عَزَّ وَجلَّ شرط الولاية في كتابه، كيف يكون الولي مرفوعًا عنه التكليف؟! كيف يكون ذلك؟! هذا غير مُكلف، والله عَزَّ وَجلَّ يقول: {الَّذِينَ آمَنُوا}، أي: يفهمون الخطاب، فصدَّقوا وجاءوا بالتقوى بفعل المأمور وترك المحظور، هذا هو شرط الولي.

أما أن يُقال عن هؤلاء: إنهم أولياء، أو إنهم يفعلون كذا وكذا وكذا من الكرامات؛ فهذا كله من تلبيس الشياطين.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم، وجزاكم الله خيرًا.

الدرس الثامن والأربعون

إن الحمد لله, نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله تعالى من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله, صلى الله عليه, وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد:

فما زال الحديث موصولًا حول هذه العقيدة المباركة العقيدة الواسطية لشيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ.

وقد وصلنا إلى قوله رَحِمَهُ اللهُ: فَصْلٌ: ثُمَّ مِنْ طَرِيقَةِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ اتِّبَاعُ آثَارِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَاطِنًا وَظَاهِرًا، وَاتِّبَاعُ سَبِيلِ السَّابِقِينَ الأَوَّلِينَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ، وَاتِّبَاعُ وَصِيَّةِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حَيْثُ قَالَ: ((عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِي، تَمَسَّكُوا بِهَا، وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ؛ فَإِنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ)).

هذا الأصل ختم به شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ هذه العقيدة المباركة قبل أن يذكر أصولًا لأهل السنة والجماعة تتعلق بمكارم الأخلاق والسلوك.

فهذا الأصل كالجامع لما قبله؛ لأنه يُبين طريقة أهل السنة والجماعة التي خالفوا بها غيرهم؛ وهي أنهم لا يقدمون أحدًا على ما جاء عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه.

وهذا الأصل صمام الأمان؛ يحفظ من تمسك به:

- لأن الدين الذي جاء به النبي الأمين صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يُفهم إلا من خلال هذا الأصل، من خلال كتاب الله وسنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

وَسَلَّمَ وما كان عليه السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان إلى يوم الدين.

- وهو سبيل النجاة من البدع؛ فمن تمسك بهذا الأصل سَلِمَ من البدع والفُرقة واتباع السُبُل التي يدعو إليها شياطين الإنس والجن.
- وكذلك هو السبيل للنجاة من الفتن؛ فتن الشبهات خاصة، وكذلك فتن الشهوات.

ذكره المصنف رَحِمَهُ اللهُ في آخر هذه العقيدة المباركة ليُبين لك الطريق الذي ينبغي أن تسير عليه؛ كما قال الله تعالى على لسان نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [الأنعام: 153].

قال: ثُمَّ مِنْ طَرِيقَةِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ اتِّبَاعُ آثَارِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

والاتباع: هو الاقتفاء والتتبع والسير خلف غيرك.

هذا معنى الاتباع، ولا اتباع إلا بعلم، وبهذا يُفرق بين الاتباع والتقليد، لأن التقليد قبول قول الغير من غير معرفة دليله، أو من أين أخذ هذا القول.

وأما الاتباع؛ فإنه مبني على العلم بما كان عليه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصحبه، فمن كان هذا سِمته فيصدق عليه أنه مُتَبِع.

فقال: اتِّبَاعُ.

قلنا الاتباع هو: الاقتفاء، وهذا الاقتفاء لابد فيه من علم.

اتِّبَاعُ آثَارِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

أي: ما جاء عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من قول وعمل واعتقاد وتقرير، اتباع منهج النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ما قال: اتباع محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإنما قال: اتِّبَاعُ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ ليُبين أن سبب الاتباع هو كون النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رسولًا من قِبَل الله، فالنجاة إنما تكون في اتباع هذا الرسول.

ولذا قال: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ} [الأحزاب: 21]، وهذه الآية أصل كبير في التأسي بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهم يتبعون آثار رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ما المراد بالآثار؟ هل يراد بها هاهنا الآثار الحسية من ثيابه وأدواته التي كان يستعملها صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؟ هذا غير موجود الآن.

إذًا المراد: سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ,أي ما تركه من سنة.

يتبعون النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في ذلك باطنًا وظاهرًا، وهذا يجمع صلاح الباطن وصلاح الظاهر.

باطنًا يُراد به: الإخلاص المنافي للرياء والشرك.

وظاهرًا يراد به: صحة صورة العمل، ولا تكون صورة العمل صحيحة إلا إذا كانت على منهاج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وإلا كان العمل بدعة.

فأهل السنة والجماعة يجمعون بين أصلين عظيمين:

الأصل الأول: وهو الإخلاص.

والأصل الثاني: وهو متابعة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذا معنى الظاهر والباطن.

وفيه قول الله تعالى: {وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ} [البينة: 5].

وفيه قول الله تعالى: {فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا} [الكهف: 110]، والعمل الصالح ما كان على سنن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

{وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا}، أي: أن يُخلص في عمله ولا يرجو إلا الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، فمن كان عمله على هذه الطريقة كان من المقبولين إن شاء الله.

ثم قال: وَاتِّبَاعُ سَبِيلِ السَّابِقِينَ الأَوَّلِينَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ.

كذلك أهل السنة والجماعة, وهذا ليس لغيرهم، وهو مما يَشرُف به أهل السنة والجماعة: تعظيم آثار أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فللصحابة رضي الله عنهم في قلوب أهل السنة والجماعة ما ليس لغيرهم وما ليس عند غيرهم.

لا تجد تبجيلاً وتعظيمًا ومعرفة لأقدار المهاجرين والأنصار عند أحد كما هو عند أهل السنة والجماعة، فيتبعون سبيل السابقين الأولين.

السابقين أي زمنًا، لأن الأنصار والمهاجرين سبقونا زمنًا، أو السابقون بالأعمال الصالحة.

قال: الأَوَّلِينَ؛ أي: الذين يتقدموا في الزمن علينا.

مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ.

لماذا قدم المهاجرين على الأنصار؟

- لأن الله قدمهم، هذا هو الجواب الأول، قدمهم في موضعين من كتابه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى: في سورة التوبة وفي سورة الحشر؛ فالله عَزَّ وَجلَّ لما قدمهم دل ذلك على أنهم أفضل من الأنصار، هذا أولًا.
- وثانيًا: لأنهم جمعوا بين الهجرة والنُصرة، فنصروا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهاجروا إليه.

هل هذه التسمية تسمية ممدوحة أم مذمومة؟ تسمية ممدوحة؛ لأن الله عَزَّ وَجلَّ هو الذي سماهم بذلك.

هل يجوز لغيرهم أن يتسمى بأسماء وألقاب؟

فنقول كما قال أهل العلم: إن كانت هذه التسميات يترتب عليها التفرقة والتحزب والتميز عن الناس بأصول مبتدعة صارت التسمية مذمومة؛ كأسماء الفرق الكثيرة والجماعات التي نسمع عنها، جماعة التبليغ وجماعة الإخوان وجماعة الجهاد والجماعة الإسلامية وكذا وكذا، وغير هذه الجماعات.

فهذه أسماء مذمومة لا لمجرد التسمية؛ ولذا لما تسمى هؤلاء بهذه الأسماء في مبدأ ظهورهم لم يُنكر عليهم أهل السنة والجماعة هذه الأسماء.

لكن لما بانت أصول هؤلاء وأنهم يريدون إحداث الفُرقة في الناس والتميز عن الناس بأصول معينة يضعونها ، كالإخوان تجد لهم الأصول العشرين، والتبليغ تجد لهم الأصول الستة معروفة، وكذلك الجهاد يأخذون أصولًا معينة ويتركون غيرها، فكانت سبيلاً للتميز عن الناس وللفُرقة والتحزب، مع ما تحت هذه الأصول من بدع وضلالات، فصارت هذه الأسماء أسماء مذمومة.

وهناك أسماء مباحة، كالجمعية الشرعية هذا اسم، جمعية أنصار السنة هذا اسم، جمعية كذا لتحفيظ القرآن الكريم، جمعية كذا الخيرية، هذه أسماء، لكن ما حكم هذه الأسماء؟ هي مباحة، لماذا؟ لأنها ما دعت إلى أصول معينة خالفت بها أصول أهل السنة والجماعة.

هذه العائلة تسمى بعائلة كذا، وهذه تسمى بعائلة كذا، وهذه المنطقة تسمى بمنطقة كذا، هذه الأسماء مباحة لأنها لا يترتب عليها محظور شرعي.

وأما إذا كانت التسمية يترتب عليها محظور شرعي؛ فإنها تكون محظورة مردودة.

كذلك السلفية، وهذا الأمر تكلم عنه الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ في شرحه على الأربعين.

اسم السلفية اسم عظيم شريف؛ لأن الذي يريد أن ينتسب إليه يقصد الانتساب إلى ما كان عليه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصحبه.

لكن إن صارت السلفية حزبًا يُعادى ويوالى عليه على أساس فكر مشايخ معينة أو جماعة معينة لها أصول وخاصة في أزمان الفتن، صارت التسمية مذمومة.

وشاهدُ ذلك: ما وقع من أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما كسع رجلٌ من المهاجرين رجلاً من الأنصار في المدينة، فقال الأنصاري: يا للأنصار، وقال المهاجري: يا للمهاجرين، لا ينادي يقول: يا فلان و يا علان، لكن ينادي على الأنصار وهذا ينادي على المهاجرين.

مع أن أصل التسمية تسمية ممدوح في كتاب الله وفي سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "أَبِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ وَأَنَا بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ؟! دَعُوهَا فَإِنَّهَا مُنْتِنَةٌ".

فإياك أن تتعصب لأسماء معينة أو لجماعات معينة.

فقال: وَاتِّبَاعُ سَبِيلِ السَّابِقِينَ الأَوَّلِينَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ.

ثم قال: وَاتِّبَاعُ وَصِيَّةِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حَيثُ قَالَ: ((عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي.

أي: الزموا سنتي، وما سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هي: طريقته المسلوكة في فهم الدين.

هذا معنى سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فليس المراد هاهنا السنة التي تقابل الواجب كما عند الأصوليين والفقهاء، وإنما المراد طريقته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ التي سنَّها وجعلها طريقًا لفهم الدين، ومنها قوله: "فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي".

قال: عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي.

أي: الزموا سنتي، لأن عليكم اسم فعل أمر بمعنى الزموا.

وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِي.

الخلفاء الأربعة مدحهم الشرع على لسان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وزكاهم, وقال: هم راشدون، أي: كاملوا العقل والفهم والرشد مهديون.

ولذا لو نظرت في هذا الحديث تجد أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد أن أمر بالتمسك بسنته وسنة الخلفاء الأربعة هل قال: تمسكوا بهما أم بها؟

الحديث يقول: "تَمَسَّكُوا بِهَا"، هل قوله:(بها) يعود إلى سنته؟ أم يعود إلى سنة الخلفاء أم إلى سنة النبي وسنة الخلفاء؟ سنة النبي وسنة الخلفاء.

فهذا يدل على أن ما سنه الخلفاء الراشدون هو من سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وهذا يأخذنا لمسألة أخرى: هل المراد ما اتفق الخلفاء الراشدون الأربعة عليه أم ما سنه واحد من هؤلاء الخلفاء؟

المراد ما سنه واحد من هؤلاء الخلفاء، ولا يشرط اتفاقهم على ذلك.

ولذا عمر رَضِي اللهُ عَنْهُ لما صلى الناس أفرادًا صلاة التراويح صلاة القيام في خلافة أبي بكر، ثم في صدر خلافة عمر، ثم جمعهم عمر رَضِي اللهُ عَنْهُ على إمام واحد وهو أُبي، هذه السنة من الذي أحياها؟ عمر رَضِي اللهُ عَنْهُ.

هل هذه من سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ أجل هي من سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكذلك لما أنشأ الدواوين، ولما جمع أبو بكر مصحف رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وجمع اللخاف والأوراق وغير ذلك وجعله عند حفصة.

ولما جمع عثمان رَضِي اللهُ عَنْهُ الناس على مصحف واحد، وكذلك لما سنَّ الأذانين، كل ذلك من سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فالعمل بهذه السنة عمل بسنة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ولو نظرت في هذه السنن التي ذكرناها لوجدت إجماع الصحابة على هذه السنن، وهذا مما يقوي القول بأن سنة الواحد منهم علينا اتباعها وأن نأخذ بها، وليس المراد أن يجتمع الأربعة على سنة واحدة.

قال: تَمَسَّكُوا بِهَا، وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ.

انظر إلى ألفاظ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ما قال خذوها، اعملوا بها، لكن قال: ((تَمَسَّكُوا))، والتمسك يدل على شدة الأخذ مع إحكامه وعدم تركه.

وزاد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على ذلك قوَله: وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ.

عَضُّوا: هذا فعل أمر، نحن بالعامية نقول: عُضُّوا، لكن هي بالعربية الفصحى: عَضَّوا، وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ؛ يعني بالعماية: عُضوا عليها بالنواجذ.

والشيء إذا وضعته تحت ناجذيك هل يستطيع أحد أن يأخذه منك؟ لا، فهذا يدل كذلك على شدة التمسك.

لكن لماذا أمرنا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأن نتمسك وأن نعض عليها بالنواجذ؟ بيَّن السبب بعد ذلك، قال: وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ.

قال في هذا الحديث أيضًا: "فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنكُمْ بَعْدِي فَسَيَرَى اخْتِلاَفًا كَثِيرًا"، هذا إخبار من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليس المراد منه إقرار الاختلاف، لكن البيان والتحذير.

فهذا يعني: أنه لا نجاة من هذا الاختلاف الذي وصفه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأنه كثير، لا نجاة من ذلك إلا أن تتمسك بسنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعده.

ثم قال: وَإِيَّاكُمْ.

أي: أُحذركم.

وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ.

أُحذركم محدثات الأمور الدينية لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جاء لبيان الشرعيات.

إذًا: هو يحذرنا من المحدثة الدينية التي هي البدعة، الطريقة المسلوكة في الدين على خلاف هدي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه والتي يراد بها المبالغة في التعبد.

طريقة مخترعة في الدين يقصد صاحبها السالك لها المبالغة في التعبد، ووصفها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأنها مُحدثة.

والشيء المُحدث: هو الشيء الجديد، والبدعة كذلك مأخوذة من البَدْع والابتداع؛ وهو اختراع وجعل الشيء على غير مثال سابق.

وهذا يعني: أن البدعة اختراع في الدين, وأنها أمور جديدة لم يأت بها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولا أصحابه رضي الله عنهم، فكل ذلك يحذرنا إياه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ثم علل ذلك بقوله: فَإِنَّ.

و (إن): تعليلية.

قال: فَإِنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ.

وهذه كلية لا مخصص لها، فكل بدعة ضلالة وإن رآها الناس حسنة، وهذا القول كرره النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في خطبة الجمعة وفي خطبة الحاجة ولم يستثن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذا فيه رد على من يُقسم البدعة إلى حسنة

وسيئة، أو يُقسِّم البدعة إلى الأحكام التكليفية الخمسة؛ كما جاء عن القرافي ورد عليه الشاطبي في كتاب الاعتصام.

يقولون: هناك بدعة واجبة، وبدعة مستحبة، وبدعة مباحة وبدعة مكروهة، وبدعة مُحرمة.

وانتصر لذلك كذلك العز بن عبد السلام، لكن حقق بعض أهل العلم ذلك وقال: إنما أرادوا البدعة الدنيوية، المخترعات الدنيوية.

فهناك مخترعات قد تكون واجبة لأنها وسائل لأمور مشروعة، وهناك مخترعات قد تكون مستحبة وقد تكون مباحة وقد تكون مكروهة وقد تكون مُحرمة إذا أدت إلى مُحرم، وقالوا: وهذا من إحسان الظن بالعلماء الذين قسموا البدع إلى أقسام خمسة.

قال: فَإِنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ.

ضع هذه قاعدة نصب عينيك: أن الأصل في العبادات التوقف، والعبادات غير مقصورة على الصلاة والصوم والزكاة، لكن أنظر إلى ما هو سوى ذلك من الأذكار وأنواع العبادات والصلاة على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والزيادة في الأذان والتشهد وغير ذلك من أمور تُثار الآن حولك.

هذه كذلك عبادات؛ لأنك تقصد بها القُربة إلى الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، فالزيادة فيها على ما تركنا عليه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من البدعة.

ودليل ذلك: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **"كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلاَلَةٌ"**، فاعرض ما جاء به هؤلاء على ما كان عليه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

الكتب موجودة عندنا بفضل الله ، كتب الصحاح والسنن والمسانيد والآثار موجودة، قل لهذا: ائت بنص واحد، ائت بعمل لواحد من أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على هذه الصورة التي تعبد بها الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى أو تصلي على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال: وَيَعْلَمُونَ.

ما قال يظنون ولا يتوهمون ولا يشكون، وإنما جاء بأعلى مراتب الإدراك، أعلى مراتب الإدراك التي هي العلم، إدراك الشيء إدراكًا جازمًا على ما هو عليه في الواقع، هذا سبيل أهل السنة والجماعة، وهذا حال أهل السنة والجماعة.

يَعْلَمُونَ؛ أي: علم اليقين، يعلمون ذلك اعتقادًا وعملاً.

وَيَعْلَمُونَ أَنَّ أَصْدَقَ الْكَلامِ كَلامُ اللهِ.

هل تجد هذا عند أهل البدع؟ هم يقولون بأفواههم: أصدق الكلام كلام الله، فإذا جاءت آيات الصفات ضربوا بها عُرض الحائط، لقول الفارابي أو ابن سينا أو الجويني أو الرازي أو غير هؤلاء.

إذًا: خالف قولهم فعلهم، لكن أهل السنة والجماعة يعلمون أن أصدق الكلام كلام الله، هكذا وصف الله عَزَّ وَجلَّ كلامه: {وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً} [النساء: 122]، {وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا} [النساء: 87]، لا أحد.

ولا يُشرع لك وأنت تصلي خلف الإمام أن تقول: لا أحد؛ لأن بعض الناس في مثل هذه المواضع يقول: لا أحد، هذا من الكلام غير الجائز في الصلاة.

والله عَزَّ وَجلَّ يقول: {وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ} [هود: 119]، وكلمة من المفرد المضاف فتعم كلام الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى كلَّه.

{وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا}؛ صدقًا في الأخبار وعدلًا في الأحكام، كما قال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ في تفسيره، {لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ} [الأنعام: 115].

وَيَعْلَمُونَ أَنَّ أَصْدَقَ الْكَلامِ كَلامُ اللهِ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَيُؤْثِرُونَ كَلَامَ اللهِ عَلَى غَيْرِهِ مِنْ كَلامِ أَصْنَافِ النَّاسِ.

لهذا السبب الذي ذكرناه؛ أنه لا أحسن من كلام الله كلام، ولا أصدق من كلام الله كلام.

ما معنى يؤثرون؟ أي: يفضلون ويقدمون؛ ولذا كلام الله عَزَّ وَجلَّ مُفضل ومُقدم على كلام كل أحد.

ومن ذلك أنك إذا دعوت ربك فالأَوْلى أن تدعو بما دعا به الأنبياء في كتاب الله، كذلك في الرقية الأولى أن ترقي بما جاء في كتاب الله؛ لأنه كلام الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وشرف عظيم لك أن تتلو كلام الله، وإن من تيسير الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى لنا أن نتلوا كلامه الذي هو صفته.

وهذا من عجيب كلام المفسرين لما تكلموا عن قول الله عَزَّ وَجلَّ: {وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ} [القمر: 17].

فهذا القرآن حروفه وتراكيبه من كلام العرب ، والذي نزل عليهم القرآن عرب أقحاح، فلماذا قال الله عَزَّ وَجلَّ {وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ}؟ لأنه كلام الله، ولو لم ييسره الله لما استطاع واحد أن يتكلم به لأنه صفته، والصفة على قدر الموصوف.

هل يستطيع الواحد أن ينظر إلى الله عَزَّ وَجلَّ في هذه الحياة الدنيا؟ لا، موسى لما طلب ذلك قال الله عَزَّ وَجلَّ: {لَنْ تَرَانِي} [الأعراف: 143].

هل الرؤية ممكنة أم مستحيلة؟ ممكنة لو أرادها الله لوقعت، ومع ذلك حجبها الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى رأفة بنا وابتلاءً لنا، فقس على ذلك كلام الله عَزَّ وَجلَّ، هذا كلامه الذي هو صفته، كيف تقرأه وهو صفته؟ لأن الله عَزَّ وَجلَّ يسره.

وَيَعْلَمُونَ أَنَّ أَصْدَقَ الْكَلامِ كَلامُ اللهِ.

هذا كلام السلف في كتب الاعتقاد حول كلام الله المُعجز أن الله عَزَّ وَجلَّ يسره لنا؛ ولهذا نقرأه بكل سهولة ويُسر، وإلا فإنه كلام عظيم؛ لأنه من عظيم سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

قال: وَيَعْلَمُونَ أَنَّ أَصْدَقَ الْكَلامِ كَلامُ اللهِ.

سبق أن تكلمنا عن الإضافة؛ فهو كلام الله على الحقيقة، تكلم به بصوت وحرف.

وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَيُؤْثِرُونَ كَلامَ اللهِ عَلَى غَيْرِهِ مِنْ كَلامِ أَصْنَافِ النَّاسِ، وَيُقَدِّمُونَ هَدْيَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى هَدْيِ كُلِّ أَحَدٍ.

أي: طريقته المسلوكة، لم يستثن شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ وحُق له؛ لأن هدي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو خير الهدي؛ لأنه رسولٌ معصوم من قِبل الله تَبَارَكَ وَتعَالَى، واجب الاتباع.

ولذا أمر الله عَزَّ وَجلَّ باتباعه في مواضع كثيرة من كتابه: {أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ} [النساء: 59]، {وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا} [النور: 54]؛ ولأنه لا نجاة في الدنيا والآخرة إلا بمتابعة هدي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

لكل ذلك قال: وَيُقَدِّمُونَ هَدْيَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى هَدْيِ كُلِّ أَحَدٍ. وَلِهَذَا سُمُّوا أَهْلَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ.

فنحن أهل الكتاب الذي هو القرآن وأهل الشيء هم ألصق الناس به الذين يعتنون به ويعطونه مكانته اللازمة، فسمي أهل السنة والجماعة بأهل الكتاب والسنة.

وَسُمُّوا أَهْلَ الْجَمَاعَةِ؛ لأَنَّ الْجَمَاعَةَ هِيَ الاِجْتِمَاعُ، وَضِدُّهَا الْفُرْقَةُ.

إذًا: يُبين الشيخ رَحِمَهُ اللهُ هاهنا أن عمدة طريقة أهل السنة والجماعة أمور ثلاثة: الكتاب والسنة والإجماع.

الكتاب كلام الله المُنزل على عبده محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سمعه من جبريل وبلغه الأمة.

والسنة مضى بيانها.

وكذلك هم أهل الاجتماع والإجماع.

والإجماع في لغة العرب: الاتفاق، الإجماع يُطلق على العزم وعلى الاتفاق، لكن الأقرب لمعنى الإجماع الشرعي: الاتفاق؛ لأن العزم يتصور من واحد، والإجماع لا يكون إلا من اثنين فأكثر.

وأما في الاصطلاح: فهو اتفاق مجتهدي أمة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في كل عصر على حكم شرعي، فهذا هو الإجماع.

ولذا لو خالف واحد من أهل الاجتهاد لا يُقال هناك إجماع في المسألة، لجواز أن يصيب الواحد وتخطئ الجماعة؛ كما في واقعة أسرى بدر, أصاب عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وكان رأيه هو الذي نزل به القرآن.

قولنا: اتفاق مجتهدي، فيه أن الإجماع لا يكون إلا من مجتهدي هذه الأمة الذين بذلوا جهدهم بناءً على ما عندهم من علم راسخ ليصلوا إلى حكم في المسألة؛ فلا يدخل في ذلك العوام ولا الدعاة، ليسوا من أهل الإجماع على مسألة شرعية، كذلك لا إجماع إلا بعد موت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فالإجماع له خصائص:

- الإجماع لا يُنسخ
- وهو من الخاص لا العام
- وهو من أصول الدين المعتبرة
- وهو مما خص الله عَزَّ وَجلَّ به هذه الأمة؛ فإن الله عَزَّ وَجلَّ صان هذه الأمة من أن تجتمع على ضلالة، قال صلى الله عليه وسلم: **"لا تجتمع أمتي على ضلالة"** المقصود بأمتي: أمة الإجابة من أمة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذين آمنوا به.

فهؤلاء يستحيل أن يجتمعوا على ضلالة في مسألة ما، عصمهم الله من ذلك، إذا أجمعوا على حكم مسألة؛ فهذا الحكم هو الحكم الصحيح بلا شك، وهذا لهم وليس لغيرهم.

ولذا أجمعت النصارى على صلب المسيح، والله عَزَّ وَجلَّ يقول: {وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ} [النساء: 157]، إذًا: أجمعوا على ضلالة.

أجمعت النصارى على تعظيم يوم الأحد، وأجمعت اليهود على تعظيم يوم السبت؛ فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في البخاري: **"فَضَلُّوا"**، ضلوا عن هذا اليوم الذي عظمه الله عَزَّ وَجلَّ.

ما الأمة التي وفقت لهذا اليوم؟ أمة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إذًا: الإجماع المعتبر هو إجماع هذه الأمة.

والإجماع من أشد الأسلحة التي يحارَب بها أهل البدع، والتي يحارَب بها الطاعنون في الكتاب والسنة من الحداثيين والعلمانيين والقرآنيين، لماذا؟ لأن الواحد من هؤلاء لو جئت له بآية، ربما أوَّلها، وربما ادعى أنها منسوخة، لو جئت له بحديث ربما طعن فيه بحجة أنه من أخبار الآحاد أو أوَّله أو غير ذلك، وهذا نراه في أهل البدع وفي غيرهم.

ماذا عن الإجماع؟ اتفقت الأمة بعد موت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على كذا، كيف ترد ذلك؟

يخرج من يقول: هما صلاتان لا غير!!

يقول: لأن الله قال: فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون، صلاة الصبح وصلاة آخر النهار لا يوجد شيء اسمه خمس صلوات!!

ماذا عما اتفقت عليه الأمة وأجمعت عليه إجماعا عمليا؟، هذا الإجماع موروث عمن سبقهم، وهؤلاء عمن سبقهم إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لا يستطيع أن يجيب.

ولذا شبه بعض أهل العلم الإجماع بالحصن الحصين والسياج الذي يحيط بهذا الدين، يحفظ هذا الدين من تحريف كل محرف ومخرف، فهناك أمور كثيرة جدًا ترد على أهل البدع فيها بذكر الإجماع.

هذا الذي يقول: استوى بمعنى استولى أين ذلك؟ نقول له: الأمة أجمعت على أن الاستواء هو العلو والارتفاع، فيقول: أين؟ يقال له: افتح أي كتاب

تفسير، اقرأ معنى الاستواء، أنظر في كلام العرب، العرب أجمعوا على هذا المعنى؛ ولذا تجد الإجماع دائما غُصة في حلوق هؤلاء.

قال: وَلِهَذَا سُمُّوا أَهْلَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَسُمُّوا أَهْلَ الْجَمَاعَةِ؛ لأَنَّ الْجَمَاعَةَ هِيَ الِاجْتِمَاعُ.

قلنا: الإجماع هو الاتفاق.

وَضِدُّهَا الْفُرْقَةُ.

هذا يُفهم منه أن أهل السنة مجتمعون على ما تركه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ متآلفون فيما بينهم، وهم الوارثون لتركته على الحقيقة.

هذا معنى الاجتماع؛ متآلفون فيما بينهم لا يضلل بعضهم بعضًا ولا يبدع بعضهم بعضا على قلب رجل واحد وإن اختلفت بلدانهم؛ لأن المشرب واحد، المنبع الذي يأخذون منه ماء روحهم واحد، الذي يأخذون منه الدين واحد، ولذا لا يختلفون تراهم مجتمعين، لا تجد عندهم بدعةً تبدأ بدعة واحدة ثم تتفرق كسائر أهل الفُرق.

قال: وَإِنْ كَانَ لَفْظُ الْجَمَاعَةِ قَدْ صَارَ اسْمًا لِنَفْسِ الْقَوْمِ الْمُجْتَمِعِينَ.

يعني: هم أهل الاجتماع.

وَالإِجْمَاعُ هُوَ الأَصْلُ الثَّالِثُ الَّذِي يُعْتَمَدُ عَلَيْهِ فِي الْعِلْمِ وَالدين.

عندنا أصول أربعة متفق عليها: الكتاب والسنة والإجماع والقياس، وهذه الأصول قد تُرد إلى الأصل الأول فقط وهو الكتاب؛ لأن الكتاب دال على حُجية السنة، {وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا} [الحشر: 7]، والآيات التي أمرت بطاعة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ثم الكتاب والسنة يدلان على حجية الإجماع: {وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا} [النساء: 115].

وهذه الآية مشهور في كتب الأصول المطولة وفي الكتب التي تكلمت عن مناقب الشافعي؛ أن الشافعي استدل بها على حُجية الإجماع وصار الناس يستدلون بهذه الآية من بعده على حُجية الإجماع.

والسنة: "لا تجتمع أمتي على ضلالة".

ثم دل الكتاب والسنة والإجماع كذلك على حُجية القياس.

أين نجد ذلك في الكتاب؟ الآيات في الاعتبار كثيرة وفيها دليل القياس؛ قال الله عَزَّ وَجلَّ: {إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ} [يونس: 24].

هذا مثل ذكره الله عَزَّ وَجلَّ وهو من باب القياس، يُبين حقارة هذه الدنيا، وأن الإنسان لا يطمئن إليها وضرب لها المثل.

الآيات التي في آخرها: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ}، {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ}، {لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ}، {فَاعْتَبِرُوا يَاأُولِي الْأَبْصَارِ} [الحشر: 2]؛ لأن القياس هو الاعتبار، وهو إلحاق النظير بالنظير والشبيه بالشبيه، فضرب الله عَزَّ وَجلَّ أمثلة كثيرة في كتابه.

وكذلك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما جاءه رجل وكأنه شك في ولده فقال: "هَلْ لَكَ مِنْ إِبِلٍ"، قَالَ: نَعَمْ، قال: "هَلْ فِيهَا مِنْ أَوْرَقَ"، أورق أي أسود، يعني: وسط هذه النوق البيض، قال: أجل، قال: "ما سبب ذلك" قال: لَعَلَّهُ نَزَعَهُ عِرْقٌ، أي ربما كان جده أو جد جده أسود، قال: "فَلَعَلَّ ابْنَكَ هَذَا نَزَعَهُ"، وهذا من إلحاق النظير بالنظير.

ومع ذلك يقول الآمدي رَحِمَهُ اللهُ وغيره من الأصوليين: أقوى دليل على حُجية القياس إجماع الصحابة, أنهم أجمعوا على حُجية القياس.

إذًا: الكتاب والسنة والإجماع دلوا على حُجية القياس.

فقال: وَالإِجْمَاعُ هُوَ الأَصْلُ الثَّالِثُ الَّذِي يُعْتَمَدُ عَلَيْهِ فِي الْعِلْمِ وَالدين. وَهُمْ يَزِنُونَ بِهَذِه الأُصُولِ الثَّلاثَةِ جَمِيعَ مَا عَلَيْهِ النَّاسُ مِنْ أَقْوَالٍ وَأَعْمَالٍ بَاطِنَةٍ أَوْ ظَاهِرَةٍ.

سبحان الله ! شيخ الإسلام ابن تيمية جعل الكتاب والسنة والإجماع كأنهم ميزان، ينصب الميزان، فإذا جاء فلان بعمل فإننا نأتي بهذا العمل ونضعه في هذا الميزان، فإن رجح عمله ووافق الكتاب والسنة والإجماع فنقول: ربح البيع، وإلا خاب البيع ورُد عليك.

يقول شيخ الإسلام: وَهُمْ يَزِنُونَ بِهَذِه الأُصُولِ الثَّلاثَةِ جَمِيعَ مَا عَلَيْهِ النَّاسُ مِنْ أَقْوَالٍ وَأَعْمَالٍ بَاطِنَةٍ أَوْ ظَاهِرَةٍ مِمَّا لَهُ تَعَلُّقٌ بِالدِّينِ.

لأن الكلام في الشرعيات لا في الأمور الدنيوية، الأمور الدنيوية قال فيها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأُمُورِ دُنْيَاكُمْ".

وأما الشرع؛ فلابد أن تقف حيث أوقفك الدليل. هناك أصول ينبغي أن تعرض عليها ما جئت به، وأن تزن بها أقوالك وأعمالك.

قال: وَالإِجْمَاعُ الَّذِي يَنْضَبِطُ هُوَ مَا كَانَ عَلَيْهِ السَّلَفُ الصَّالِحُ.

الإجماع الذي ينضبط وتستطيع أن تحصره وأن تقول: إن الناس أجمعوا على هذا الأمر هو ما كان عليه السلف الصالح، لماذا؟ لقلة عددهم، ولأن المسلمين انتشروا وتفرقوا في البلدان بعد ذلك.

ولا يريد شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ أن يقول: إن الإجماع مستحيل بعد ذلك، الإجماع ممكن بعد عصر الصحابة والسلف الصالح لكنه متعذر، ويصعب أن تقطع به.

وعلى هذا حمل بعضهم قول الإمام أحمد: من ادعى الإجماع فهو كاذب، وما يدريك لعل الناس قد اختلفوا.

هكذا قال أحمد رَحِمَهُ اللهُ، هذا توجيه من التوجيهات التي وجهوا بها كلام أحمد، وإلا فأحمد يحتج بالإجماع رَحِمَهُ اللهُ.

فشيخ الإسلام ابن تيمية يقول: إن الإجماع الذي تستطيع أن تحصره وأن تقول: إن الناس قد أجمعوا ما كان عليه السلف الصالح.

طيب ماذا عن الإجماع الذي حصل بعدهم؟ قال: إِذْ بَعْدَهُمْ كَثُرَ الاخْتِلاَفُ، وَانْتَشَرَ فِي الأُمَّةِ.

الأمة أيام السلف الصالح كانت على قلب رجل واحد، ولم يكونوا منتشرين؛ ولذا كان يسهل أن تقول في المسألة إجماع، لكن بعد ذلك ظهرت الفرق والجماعات والأهواء وكثُر الناس واتسعت رقعة الدولة الإسلامية؛ فصار

القول بالإجماع متعذرًا وليس مستحيلاً، هو ممكن لكن ليس لكل أحد أن يقول في المسألة إجماع.

قال الشيخ الهراس رَحِمَهُ اللهُ: قَوْلُهُ: ((ثُمَّ مِنْ طَرِيقَةِ أَهْلِ السُّنَّةِ ...)) إلخ؛ هَذَا بَيَانُ الْمَنْهَجِ لِأَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ فِي اسْتِنْبَاطِ الْأَحْكَامِ الدِّينِيَّةِ كُلِّهَا، أُصُولِهَا وَفُرُوعِهَا، بَعْدَ طَرِيقَتِهِمْ فِي مَسَائِلِ الْأُصُولِ، وَهَذَا الْمَنْهَجُ يَقُومُ عَلَى أُصُولٍ ثَلاَثَةٍ.

والأصل في لغة العرب يعني: الأساس، ما يقوم عليه الشيء.

إذًا: هذه الأصول التي سيذكرها المصنف رَحِمَهُ اللهُ هي عمدة أهل السنة والجماعة في استنباط الأحكام الدينية، وفي معرفة أصول الدين وفروعه.

أَوَّلُهَا: كِتَابُ اللَّهِ عَزَّ وَجلَّ، الَّذِي هُوَ خَيْرُ الْكَلامِ وَأَصْدَقُهُ، فَهُمْ لَا يقدِّمون عَلَى كَلاَمِ اللَّهِ كَلاَمَ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ.

قلنا: لقول الله تعالى: {وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً}، {وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا}.

وَثَانِيهَا: سُنَّةُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَمَا أُثر عَنْهُ مِنْ هَدْيٍ وَطَرِيقَةٍ، لَا يُقَدِّمُونَ عَلَى ذَلِكَ هَدْيَ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ.

وَثَالِثُهَا: مَا وَقَعَ عَلَيْهِ إِجْمَاعُ الصَّدْرِ الْأَوَّلِ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ.

الصدر يعني: القرون المقدمة الفاضلة، صدر الشيء ما كان في مقدمته.

قَبْلَ التفرُّق وَالاِنْتِشَارِ وَظُهُورِ الْبِدْعَةِ وَالْمَقَالَاتِ، وَمَا جَاءَهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ مِمَّا قَالَهُ النَّاسُ وَذَهَبُوا إِلَيْهِ مِنَ الْمَقَالَاتِ وَزَنُوهَا بِهَذِهِ الْأُصُولِ الثَّلَاثَةِ الَّتِي هِيَ الْكِتَابُ، وَالسُّنَّةُ، وَالْإِجْمَاعُ، فَإِنْ وَافَقَهَا؛ قَبِلُوهُ، وَإِنْ خَالَفَهَا ردُّوه؛ أَيًّا كَانَ قَائِلُهُ.

وهذا منتشر في كلام السلف الصالح، وقبل ذلك عندنا قول الله عَزَّ وَجلَّ: {فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ} [النساء: 59].

يقول ابن عباس رَضِي اللهُ عَنْهُ : "**يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء، أقول لكم: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتقولون: قال أبو بكر وعمر!**".

والله إن هذا القول كفيل لكل منصف أن يُعطي شيخه قدره وحقه ومكانته.

ابن عباس رَضِي اللهُ عَنْهُ يُعترض عليه بقول من؟ أبي بكر وعمر، أفضل الناس بعد الأنبياء والمرسلين وأعلم الخلق بعد الأنبياء والمرسلين، ومع ذلك يقول "**يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء**"؛ لأنهم يقدمون قول أبي بكر وعمر على قول رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وكذلك قال الإمام أحمد: "عجبت لقوم عرفوا الإسناد وصحته -يعني: جاءهم الدليل من سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يذهبون إلى رأي سفيان", سفيان الثوري، أو ابن عُيينة.

أريد منك أن تقرأ ترجمة سفيان الثوري وسفيان بن عُيينة، لتعلم قدر هؤلاء في العلم والعمل والزهد والنُسك والتنسك والعبادة.

لا يقلُّون منزلة عن أحمد بن حنبل رَضِي اللهُ عَنْهُ، ومع ذلك يقول: "عجبت لقوم عرفوا الإسناد وصحته يذهبون إلى رأي سفيان".

والله يقول: {فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [النور: 63].

وقال الشافعي رَحِمَهُ اللهُ: "أجمع العلماء على أن من استبانت له سنة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يكن له أن يدعها لقول أحد".

وقال مالك رَحِمَهُ اللهُ: "ما منا إلا رادٌ ومردود عليه إلا صاحب هذا القبر صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ".

وسأل رجل الإمام الشافعي عن مسألة، فقال: جاء عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال كذا وكذا، فقال له السائل: يا أبا عبد الله تقول بهذا؟ فارتعب الشافعي واصفر لونه وقال: ويحك وأي أرض تُقُلني وأي سماء تضلني، إذا رويت عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شيئًا ولم أقل به، نعم على الرأس والعين.

وقال: إذا وجدتم في كتابي خلاف سنة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقولوا بسنة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ودعوا ما قلت.

إلى غير ذلك مما هو مذكور عن السلف الصالحين.

وأسعد الناس بهذه الأقوال هم أهل السنة والجماعة، وأما أتباع هؤلاء الأئمة؛ فإن بعضهم -والله لا أقول هذا في الأصول-, بل أقول هذا في الفروع، في الصلاة والصوم وغير ذلك، والله يتعصبون لقول شيخهم الذي سبق نقل تعظيمه للكتاب والسنة، الآن يتعصبون لقوله الذي أخطأ فيه في الفروع لا أقول في الأصول، ويقدمون قوله على ما ثبت في سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فيأتي الواحد منهم مثلاً بقول مرجوح في القنوت فيقول: إن القنوت في صلاة الصبح سنة واجبة لو تركناها وجب علينا أن نسجد للسهو، يقول هذا مذهب الشافعي.

نقول له: ثبت الدليل على خلاف ذلك، لم يصح الحديث الذي استدل به الشافعي وغيره من الشافعية، وهو حديث أنس: ما زال يقنط في صلاة الصبح حتى فارق الحياة.

هل يرجعون لقول الشافعي في أن من استبانت له سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يكن له أن يدعها لقول أحد؟ لا، لا يأخذون بمثل هذا الكلام, أقول في الفروع وليس في الأصول، ما بالك بالأصول التي هي مسائل الاعتقاد.

فالحمد لله على نعمة الإسلام والسنة.

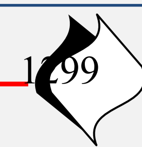
فقال رَحِمَهُ اللهُ: فَإِنْ وَافقَهَا؛ قَبِلُوهُ، وَإِنْ خَالَفَهَا ردُّوه؛ أَيًّا كَانَ قَائِلُهُ.

أَيًّا كَانَ قَائِلُهُ؛ يعني: وجد قائله فكان تامة والله أعلم.

قال: وَهَذَا هُوَ الْمَنْهَجُ الْوَسَطُ، وَالصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ، الَّذِي لَا يضلُّ سَالِكُهُ، وَلَا يَشْقَى مَن اتَّبعه، وسطٌ بَيْنَ مَن يَتَلاعَبُ بِالنُّصُوصِ، فيتأوَّل الْكِتَابَ، وَيُنْكِرُ الْأَحَادِيثَ الصَّحِيحَةَ، وَلَا يَعْبَأُ بِإِجْمَاعِ السَّلَفِ، وَبَيْنَ مَنْ يَخْبِطُ خَبْطَ عَشْوَاءَ، فَيَتَقَبَّلُ كُلَّ رَأْيٍ، وَيَأْخُذُ بِكُلِّ قَوْلٍ، لَا يُفَرِّقُ فِي ذَلِكَ بَيْنَ غثٍّ وسمينٍ، وصحيحٍ وسقيمٍ.

هذا المنهج هو الذي يعصم صاحبه من الزلل، لا يضل ولا يشقى ما دام متمسكا به، لأنه منهج عليه نور من الوحيين وسبيل المؤمنين، فلا إفراط لهوى، ولا تفريط لجهل. ثم ذكر المصنف رَحِمَهُ اللهُ أصولًا جامعة من أصول أهل السنة والجماعة تتعلق بأخلاقهم وسلوكهم، ولعلها تكون آخر درس لنا في الأسبوع القادم إن شاء الله في هذه العقيدة المباركة.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم، وجزاكم الله خيرًا.



الدرس التاسع والأربعون

إن الحمد لله, نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله تعالى من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله, صلى الله عليه, وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد:

فهذا هو الدرس الأخير من دروس هذه العقيدة المباركة (العقيدة الواسطية) لشيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ.

وقد ختمها شيخ الإسلام بهذه الأصول العظيمة، والتي تتعلق بالأخلاق ومكارمها، ليُبين أن من أصول أهل السنة والجماعة أنهم كذلك يتمسكون بكل خُلُق حميد، ويبتعدون وينأون عن كل خُلُق مرذول بغيض.

وأن هذا لا ينفك عن الإيمان بالله وأسمائه وصفاته وملائكته وكتبه ورسله، بل هو ثمرة هذا الإيمان، ولذا قد تجد خللاً عند بعض الناس وإن كان ينتسب إلى أهل السنة والجماعة في هذه المباحث التي ذكرناها.

تجده لا يقيم وزنًا كبيرًا لمكارم الأخلاق، مع أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: "إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلاَقِ"؛ فكأن الله عَزَّ وَجلَّ حصر بعثته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في بيان الأخلاق الحميدة.

فختم شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ هذه العقيدة بهذه الأصول المباركة التي ينبغي أن يتمسك بها كل مسلم بصفة عامة، وأهل السنة والجماعة بصفة خاصة، لأنهم نقاوة الناس، ولأنهم المنارة التي تنير للناس طريقهم وتُبين لهم

طريق النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وكذلك طريق أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في القول والفعل والاعتقاد.

فقال رَحِمَهُ اللهُ: ثُمَّ هُم مَّعَ هَّذِهِ الأُصُولِ.

يعني: ما سبق من الأصول.

يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ، وَيَنْهَونَ عَنِ الْمُنْكَرِ عَلَى مَا تُوجِبُهُ الشَّرِيعَةُ.

قال الشيخ الهراس رَحِمَهُ اللهُ: قَوْلُهُ: ((ثُمَّ هُمْ مَعَ هَذِهِ الْأُصُولِ ...)) إلخ؛ جَمَعَ الْمُؤَلِّفُ فِي هَذَا الْفَصْلِ جِمَاعَ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ الَّتِي يتخلَّق بِهَا أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ؛ مِنَ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ؛ وَهُوَ مَا عُرِف حُسْنُه بِالشَّرْعِ وَالْعَقْلِ، وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ؛ وَهُوَ كُلُّ قبيحٍ عَقْلاً وَشَرْعًا؛ عَلَى حَسَبِ مَا تُوجِبُهُ الشَّرِيعَةُ مِنْ تِلْكَ الْفَرِيضَةِ؛ كَمَا يُفْهَمُ مِنْ قَوْلِهِ عليه السلام: ((مَن رَأَى مِنكُمْ مُنكَرًا؛ فليُغيّره بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ؛ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ؛ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ)).

إذًا: من أصول أهل السنة والجماعة أنهم يأمرون بالمعروف، وما المعروف؟

قال الهراس: هُوَ مَا عُرِف حُسْنُه بِالشَّرْعِ وَالْعَقْلِ.

لأن أهل السنة والجماعة يقولون: إن الأمور قد يُعرف حسنها بالشرع وكذلك بالعقل، ويقولون كذلك: إن الأمور قد يُعرف قبحها كذلك بالشرع والعقل، لكن الجزاء لا يكون إلا على مقتضى الشرع.

وهذا خلاف المعتزلة الذين يقولون: إن مرد ذلك إلى التحسين والتقبيح العقليين، أي: أن العقل هو الذي يعرف ذلك وحده والشرع كاشف لذلك.

وكذلك خلاف الأشاعرة الذين يقولون: إن مرد ذلك إلى الشرع، وهذا يعني أن الشرع لو أمر بالشرك بالله أو جاء بتعذيب الأنبياء في الآخرة وكذلك

بإكرام الكفار في الآخرة وإدخالهم الجنة؛ فهذا كله مرده إلى الشرع؛ لأن الله لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون، وهذا ضلال مبين لأنه خلاف حكمة الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

ولذا أهل السنة والجماعة كانوا وسطًا في ذلك، فيقولون: من الأمور ما يُعرف حسنه بالشرع ومنها ما يُعرف حسنه بالعقل كذلك، وكذلك من جهة القبح، لكن الجزاء على هذه الأمور لا يستقل العقل به وإنما مرده إلى الشرع.

فمن أصول أهل السنة والجماعة أنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وفي هذا جاءت الأدلة، قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ".

وحكم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أنه واجب على الكفاية، أي: إن قام به البعض سقط الإثم عن الباقين، وإن لم يقم به أحد كان الإثم على الجميع ممن يستطيعون ذلك.

وهذا يختلف باختلاف المأمور به والمنهي عنه، فقد يتطلب المأمور به واحدًا فقط ليقوم به، إذًا: هذا يتعين عليه، وقد يتطلب جماعة ليقوموا به، فهذا يتعين على هؤلاء، وكذلك ما يتعلق بالنهي.

قال: عَلَى مَا تُوجِبُهُ الشَّرِيعَةُ.

أي: لابد أن تأمر بالمعروف بالمعروف، وأن تنهى عن المنكر بالمعروف كذلك، أي: بناءً على ما عُرف في شريعة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ولذا قال الله عَزَّ وَجلَّ: {قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي} [يوسف: 108].

{عَلَى بَصِيرَةٍ}؛ يعني: على كتاب الله وسنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومراعاة المصالح والمفاسد.

ولذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: فَلاَ بُدَّ مِنْ الْعِلْمِ بِالْمَعْرُوفِ وَالْمُنْكَرِ وَالتَّمْيِيزِ بَيْنَهُمَا. وَلَا بُدَّ مِنْ الْعِلْمِ بِحَالِ الْمَأْمُورِ وَالْمَنْهِيِّ. وَمِنْ الصَّلاَحِ أَنْ يَأْتِيَ بِالْأَمْرِ وَالنَّهْيِ بِالصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ.

إذًا: هذه شروط ينبغي أن تتوفر في الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر؛ أن يكون عالمًا بأن هذا معروف وأن هذا منكر، وأن يكون عارفًا كذلك بحال المأمور به، وأن يكون كذلك حليمًا صبورًا على الأذى.

قال الله عَزَّ وَجلَّ: {وَالْعَصْرِ (1) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (2) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} [العصر: 1-3]، والعمل لا يكون إلا بعد العلم؛ إذًا: لابد أن يعلم أولًا ويعمل.

{وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ}، وهذا هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

{وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ}، أي: صبروا على ذلك.

والناس في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر طرفان ووسط، فمن الناس من لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر ويقول: دع الناس يفعلون ما يشاءون، وقد يختلط عليه الأمر ويستدل ببعض الآيات على غير وجهها؛ كقول الله تعالى: {عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ} [المائدة: 105].

وفريق آخر يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر لكن على خلاف هدي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من غير فقه ولا حلم ولا صبر، وهذا كله خلاف الحق.

ولذا أهل السنة والجماعة كما قلنا: يأمرون بالمعروف بالمعروف، وينهون عن المنكر بالمعروف كذلك، وينظرون فيما يؤول إليه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لأن إنكار المنكر والأمر بالمعروف ليس على درجة واحدة؛ لأنك قد تنهى عن المنكر ويزول هذا المنكر ويخلفه ضده الذي هو المعروف، وهذه درجة مشروعة ومندوب إليها وقد تكون واجبة.

وكذلك من المنكر ما إن أنكرته قلَّ، لكنه لا يزول في جملته، يعني: لا يزول كلية وإنما يقل، هذه كذلك درجة مشروعة.

وقد تنهى عن المنكر ويخلفه مثله، وهذه الدرجة؛ كما يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: مردها إلى الاجتهاد.

أي إلى اجتهاد الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر، هو الذي ينظر هذا الذي يخلفه هل هو في نفس درجة المنكر أم أنه قد يترتب عليه مصالح أخرى؟ ولذا هذا يرجع إلى الاجتهاد.

والدرجة الأخيرة وهي: أن ينهى عن المنكر ويخلفه ما هو شر منه، فهذه يحرُم إنكارها.

فأنت مثلاً قد تجد إنسانًا يشرب الدخان وتعلم من حاله أنك لو أنكرت عليه ذلك لربما سب دين رب العالمين.

إذًا: هذا يحرُم عليك أن تُنكر عليه.

وجاء عن شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ أنه ما كان يُنكر على التتار شربهم الخمر، وكان بعض تلاميذه يدعوه إلى الإنكار عليهم في شرب الخمر؛ لأن شرب

الخمر مُحرم، فكان شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ لا يقوم بذلك ولا يستجيب لهم، لماذا؟

لأنهم إن تركوا شرب الخمر عادوا إلى عقولهم وأضروا بالمسلمين، فكان شربهم الخمر وسكرهم أخف مفسدة.

فمن أصول أهل السنة والجماعة -كما قلنا-: أنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر.

قال: وَيَرَوْنَ إِقَامَةَ الْحَجِّ وَالْجِهَادِ وَالْجُمَعِ وَالأَعْيَادِ مَعَ الأُمَرَاءِ أَبْرَارًا كَانُوا أَوْ فُجَّارًا، وَيُحَافِظُونَ عَلَى الْجَمَاعَاتِ.

هذه القطعة لا تكاد تخلو عقيدة لأهل السنة والجماعة منها، هذه الجملة التي ذكرناها، وذلك لمخالفة الخوارج فيها؛ فإنهم لا يرون إقامة هذه الأمور والتي هي سبيل الاجتماع كالحج والجهاد والجمع والأعياد، لا يرون إقامتها إلا مع الإمام البر، العادل.

وأما الإمام إذا جار، ولي الأمر إذا جار وظلم؛ فإنهم يخرجون عليه ويمنعون طاعته في المعروف.

فنص أهل السنة والجماعة على هذا الأمر، يقول: وَيَرَوْنَ.

من الذي يرى؟ يعني: أهل السنة والجماعة؛ ولذا إذا وجدت في كتاب اعتقاد إمامًا من الأئمة يقول: ويرى أهل السنة والجماعة، أو ويرون، فهذا نص على إجماعهم.

قال: وَيَرَوْنَ إِقَامَةَ الْحَجِّ وَالْجِهَادِ وَالْجُمَعِ وَالأَعْيَادِ مَعَ الأُمَرَاءِ أَبْرَارًا كَانُوا أَوْ فُجَّارًا.

البَر مِن هؤلاء مَن كثرت طاعته وغلب خيره شره، والفاجر من الأمراء هو من كثُر فجوره وذنبه ومعصيته، هذا يسمى فاجرًا.

فأهل السنة والجماعة يرون إقامة الحج، لأن الحج قديمًا كان الذي يتولاه ولي الأمر، أو ينيب عليه أحدًا من الأمراء، فيرون إقامة الحج والجهاد والجمع والأعياد مع هؤلاء، لأن الدنيا لا تقوم إلا بذلك، ولا يستقيم حال الناس إلا بذلك.

وإلا فلو قلنا -كما تقول الخوارج-:إنه لابد من وجود إمام عدل يقوم بمثل هذه الأمور لتعطلت هذه الشعائر قريبًا من عهد أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فإنه ما كاد يحكم المسلمين رجل من المسلمين إلا وكانت له هنات، إلا وكان فيه ما قال فيه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يأخذ ما له ولا يؤدي للناس الذي عليه، يستأثر بالدنيا.

ولذا بيَّن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن مراعاة المصلحة الأعلى مصلحة الأمة أمر واجب، ولهذا أمر بذلك ونص عليه أهل السنة والجماعة.

- والصحابة رَضِي اللهُ عَنهُم هم أول من أعمل هذا الأصل، فكانوا يصلون خلف كل بر وفاجر، كانوا يصلون خلف من يعرفون فجوره، كما صلى أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ كابن مسعود وغيره خلف الوليد بن عقبة بن أبي معيط, وقد كان واليًا وكان يشرب الخمر، وصلى الصبح بهم ذات مرة أربعًا وقال: إن شئتم أزيدكم، وجلده عثمان بن عفان رَضِي اللهُ عَنهُ على ذلك، ومع ذلك كانوا يصلون خلفه.

وكان ابن عمر يصلي خلف الحجاج بن يوسف، ونحن نعلم ظلم الحجاج وجوره وحج معه أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فهذا كله من أجل هذا الذي ذكرناه، هذا أولًا.

وكذلك النصوص التي وردت في ذلك؛ قال الله عَزَّ وَجلَّ: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ} [النساء: 59]، {مِنْكُمْ}؛ أي: طالما أنه من المسلمين، ما أراد منكم؛ أي: العادل منكم فقط، وإنما طالما أنه مسلم لم يأت بكفر بواح عندكم من الله فيه برهان، يعني: لا يختلف عليه اثنان؛ فإنه يجب طاعته في طاعة الله، فإن أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة مع عدم نزع اليد من الطاعة.

-

وقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما سأله بعض أصحابه، فقال له: يا نبي الله أرأيت إن قامت علينا أمراء يسألون حقهم ويمنعون حقنا، فما تأمرنا؟ فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " اسْمَعُوا وَأَطِيعُوا، فَإِنَّمَا عَلَيْهِمْ مَا حُمِّلُوا وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ"

وجاء كذلك في حديث عبادة بن الصامت رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنه قال: "بَايَعْنَا رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، فِي الْعُسْرِ وَالْيُسْرِ، وَالْمَنْشَطِ وَالْمَكْرَهِ، وَأَنْ لَا نُنَازِعَ الْأَمْرَ أَهْلَهُ"، قال: " إِلَّا أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا، عِنْدَكُمْ مِنَ اللَّهِ فِيهِ بُرْهَانٌ"، أي: لا يختلف عليه اثنان، كفر لا شك فيه، فعند ذلك فلا سمع ولا طاعة، وليس بولي الأمر إن كان الأمر كذلك وقامت عليه الحُجة.

لكن هل هذا يعني وجوب الخروج؟ نقول: الخروج منوط كذلك بالقدرة والاستطاعة ومراعاة المصالح والمفاسد، وهذا لا ينظر فيه إلا أهل الشوكة وأهل

الحل والعقد، وإلا ترتب على ذلك فساد عظيم كما رأينا في بلدان المسلمين، فيقيمون معهم الحج والجمعة والجماعات والأعياد، ويحافظون على الجماعات.

أي يصلون الجماعات ويحضرون الفريضة معهم كذلك لأنها من شعائر الإسلام، وهذا مما خالف فيه أهل السنة والجماعة غيرهم من أهل البدع كالخوارج -كما قلنا- وكالروافض؛ لأن الروافض لا يقيمون الجمعة والجماعات ولا يرون وجوبها في هذه الأيام إلا إذا خرج إمامهم المعصوم، وهذا ضلال مبين.

قال: وَيَدِينُونَ بِالنَّصِيحَةِ للأُمَّةِ.

هذا أخذه المصنف رَحِمَهُ اللهُ من قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -كما عند مسلم- من حديث تميم الداري رَضِي اللهُ عَنْهُ، قال: "الدِّينُ النَّصِيحَةُ"، وهذا حديث عظيم، لعلنا نشرحه الجمعة القادمة إن شاء الله لما فيه من الفوائد.

قال: "الدِّينُ النَّصِيحَةُ"، قالوا: لمن يا رسول الله؟ قال: "لِلهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ".

ما الواجب علينا؟ قال: وَيَدِينُونَ بِالنَّصِيحَةِ للأُمَّةِ.

يدينون مأخوذ من الديانة، أي: التعبد، أي: يتعبدون إلى الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى بإسداء النصيحة للأمة.

ما النصيحة؟ إخلاص النية من الغش للمنصوح له، فإذا نصحته كانت نصيحتك وكانت موعظتك له خالصة لوجه الله، فيدينون بالنصيحة لله فيؤمنون بالله ولا يشركون به ولا يلحدون في أسمائه وصفاته ويدعون إلى الإيمان بالله تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

وكذلك ينصحون لكتابه؛ فيؤمنون به ويحلون حلاله ويُحرمون حرامه ويدعون إلى التمسك به.

وكذلك ينصحون للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فيصدقونه فيما أخبر ويمتثلون ما أمر به وينتهون عما نهى عنه وزجر, ولا يعبدون الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى إلا على مقتضى ما جاء على لسانه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويدعون الناس للتمسك بهديه.

وكذلك ينصحون لأئمة المسلمين؛ فيعينونهم على الحق, ويردونهم إن وقعوا في باطل وضلال بالمعروف كذلك على ما جاء في سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وكذلك ينصحون لأمة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فيبينون لهم خيري الدنيا والآخرة.

هذا ما ينبغي أن يكون عليه أهل السنة والجماعة.

قال: يَدِينُونَ بِالنَّصِيحَةِ للأُمَّةِ.

لهذا الحديث الذي ذكرناه، ولأنها رسالة الأنبياء، فمبنى رسالة الأنبياء على النصيحة.

قال الأنبياء: {أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ} [الأعراف: 62]، هذا نوح عَليهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَم.

وقال هود: {أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ} [الأعراف: 68].

وقال صالح: {لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ} [الأعراف: 79].

إذًا: الواحد منا أهل السنة والجماعة يتدين لله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، ويتعبد بالنصيحة لله ولرسوله ولكتابه ولأئمة المسلمين وعامته.

قال: وَيَعْتَقِدُونَ مَعْنَى قَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ الْمَرْصُوصِ؛ يَشُدُّ بَعْضَهُ بَعْضًا))، وَشَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ.

وهذا جاء في الصحيحين من حديث أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

قال الشيخ الهراس: كَمَا فِي هَذِهِ الْأَحَادِيثِ الَّتِي يشبِّه فِيهَا الرَّسُولُ الْمُؤْمِنِينَ بِالْبُنْيَانِ الْمَرْصُوصِ.

المرصوص هذه تأتي في الشرح، لكن لم ترد في حديث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يعني: ليس في لفظ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ الْمَرْصُوصِ)؛ ما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المرصوص، وإنما قال: "كَالْبُنْيَانِ، يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا".

فشبه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما يقول الهراس: الْمُؤْمِنِينَ بِالْبُنْيَانِ الْمَرْصُوصِ الْمُتَمَاسِكِ اللَّبنات.

جمع لبنة.

أَوْ بِالْجَسَدِ الْمُتَرَابِطِ الْأَعْضَاءِ.

قال: مِنْ دَعْوَةٍ إِلَى الْخَيْرِ، وَإِلَى مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ، فَهُمْ يَدْعُونَ إِلَى الصَّبْرِ عَلَى الْمَصَائِبِ، وَالشُّكْرِ عَلَى النَّعْمَاءِ، وَالرِّضَا بِقَضَاءِ اللَّهِ وَقَدَرِهِ.. إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا ذَكَرَهُ.

أي مما سيأتي في هذه العقيدة.

فأهل السنة والجماعة يعتقدون؛ أي: ينعقد قلبهم على معنى هذا الحديث: أن المؤمن للمؤمن كالبنيان؛ أي: أنهم متراحمون، متعاونون، متحابون؛ كما جاء في الحديث: "لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ".

فهم في حالهم كالبنيان المرصوص؛ أي: المجموع الذي جُمعت لبناته، فصار شيئًا واحدًا لا يقوم بمفرده.

فهذا الحائط وهذا البنيان لا يقوم بمفرده، ما السبب في تماسكه وفي صموده وقوته؟

أن اللبنة وضعت بجانب أختها فصار قويًا متماسكًا، فكذلك المؤمنون ينبغي أن يكونوا.

إذًا: هذا الحديث يرشدنا إلى الاتحاد وإلى عدم التفرق؛ ولذا شبَّك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بين أصابعه -كما في هذا الحديث- وينهانا كذلك عن التفرق والاختلاف والتباغض والتحاسد والتعادي، فهذا ما ينبغي أن يكون عليه المسلمون.

ولذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ في بعض كتبه: يجب على جميع المسلمين أن يكونوا يدًا واحدة على الكفر، وأن يجتمعوا ويقاتلوا على طاعة الله ورسوله والجهاد في سبيله.

ماذا إن كان هناك خلاف وتنازع بينهم؟ فالنصيحة وبيان الحق، لكن هذا لا يؤدي إلى الاقتتال وإلى التنازع وإلى التشرذم، لأن المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص.

وهذا الحديث يدخل فيه كامل الإيمان والمقتصد وناقص الإيمان، كامل الإيمان يأمر كامل الإيمان مثله بأن يصبر على ما هو عليه، ويأمر المقتصد بأن يجتهد حتى يصل إلى رتبة كمال الإيمان المستحب، ويأمر الظالم لنفسه الذي هو ناقص الإيمان بأن يُقلع عما هو عليه من ذنب ومعصية وتقصير، فهم كالبنيان يشد بعضه بعضًا، وهم يد واحدة على من سواهم، كما جاء في حديث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فهذا من أصول الإيمان وأصول الإسلام العظيمة التي جاءت في كتاب الله وسنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ ولذا تجدون الكثير من الآيات والأحاديث التي تأمر بالاجتماع والألفة والمحبة وتنهى عن التفرق.

ولذا ما نجح العدو من اليهود والنصارى في أن يغزو بلاد المسلمين وأن يحتلها إلا بعد أن زرع الفُرقة بين المسلمين أفرادًا ودولًا، فتجد الواحد الآن لا يهتم إلا بنفسه، ولا يتفاخر إلا بعروبته، وإلا بجنسيته، وليس له اهتمام بغيره من المسلمين، نسأل الله السلامة والعافية، ونسأل الله عَزَّ وَجَلَّ أن يرد المسلمين إلى أن يعتقدوا ويعملوا بهذا الحديث: **"الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ الْمَرْصُوصِ؛ يَشُدُّ بَعْضَهُ بَعْضًا"**؛ كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وقال كذلك: وَقَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ كَمَثَلِ الْجَسَدِ؛ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ؛ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالْحُمَّى وَالسَّهَرِ)). وهذا حديث ورد في الصحيح.

هذا الحديث يدل على أن المسلمين أفراحهم واحدة، وآلامهم واحدة، إذا فرح منهم واحد فرح الجميع، وإذا تألم بعضهم تألم الجميع، لأن الأصل بينهم التراحم والتواد والتعاطف؛ كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وكما قال الله عَزَّ وَجلَّ في وصف أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهم الأسوة والقدوة لنا، قال: {رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا} [الفتح: 29]، فنسأل الله عَزَّ وَجلَّ أن يجعلنا من هؤلاء.

قال: وَيَأْمُرُونَ بِالصَّبْرِ عِنْدَ الْبَلاءِ.

يَأْمُرُونَ؛ هذا الضمير ضمير الجمع، (الواو) هذه واو الجماعة؛ تعود إلى أهل السنة والجماعة.

وَيَأْمُرُونَ بِالصَّبْرِ عِنْدَ الْبَلاءِ، وَالشُّكْرِ عِنْدَ الرَّخَاءِ وَالرِّضَا بِمُرِّ الْقَضَاءِ.

الصبر في الشرع هو حبس النفس، الصبر لغة: هو الحبس، يقال: مات صبرًا، يعني: مات محبوسًا.

وأما الصبر في الشرع: فهو حبس النفس على ما تكره؛ لأن النفس قد تكره بعض الأمور، يحبس المرء نفسه على ما تكره تقربًا إلى الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

والصبر له منزلة عظيمة وأجر عظيم عند الله عَزَّ وَجلَّ؛ ولذا قال الله عَزَّ وَجلَّ: {إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ} [الزمر: 10].

والصبر الذي فيه هذا الجزاء هو الصبر عند الصدمة الأولى، وهو الصبر الذي ينوي به صاحبه أن يتقرب إلى الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

وصدق من قال:

والصبر مثل اسمه مرٌّ مذاقتُه لكنْ عواقبُه أحلى من العسل

هل تعرف الصبار؟ ما طعمه؟ مُر، هكذا الصبر:

والصبر مثل اسمه مرٌّ مذاقته　　　لكن عواقبه أحلى من العسل

وهذا لمن صبر واحتسب عند الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

فأهل السنة والجماعة: يصبرون عند البلاء: والبلاء الامتحان بالشدائد والمصائب، فإذا امتحنه الله عَزَّ وَجلَّ صبر واحتسب عند الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، والصبر واجب؛ ولذا أمر الله عَزَّ وَجلَّ به كثيرًا في كتابه.

وكذلك يأمرون بالشكر عند الرخاء، فإذا أنعم الله عَزَّ وَجلَّ على العبد شكر بلسانه وقلبه وجوارحه، بان ذلك وظهر عليه.

وَالرِّضَا بِمُرِّ الْقَضَاءِ.

أي: ما لا يلائم طبيعة الإنسان، لكن ما حكم الرضا؟ هل هو كالصبر، يعني: يجب عليك أن ترضى أم أنه مستحب؟

نقول: أما الرضا باعتبار القضاء فعلاً لله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، فالله عَزَّ وَجلَّ هو الذي يقضي ويُقدِّر، فالرضا بهذا الاعتبار واجب؛ لأن هذا فعل الله عَزَّ وَجلَّ في خلقه.

وأما الرضا باعتبار مفعولات الله التي تقع من الخير والشر باعتبار ما يصيب المرء من الابتلاء والشدائد، فيُسن الرضا هاهنا ويستحب، لكن الواجب الصبر أن تصبر، وأما الرضا الذي هو منزلة أعلى من الصبر فهذا يستحب.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ عن الصبر: حبس النفس عن الجزع، وحبس اللسان عن التشكي والتسخط، يعني: لا تشكو حالك للناس, لكن اشكوا أمرك لله تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

يعقوب ماذا قال؟ قال: {إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ} [يوسف: 86].

أيوب ماذا قال؟ قال: (رَبِّي أَنِّي مسني الضّر وَأَنت أرْحم الرَّاحِمِينَ).

تشكو حالك إلى الله لا إلى الناس، لأنك لو شكوت حالك للناس فكأنك تشكو الله، وهذا مذموم.

قال: وحبس الجوارح عن لطم الخدود وشق الجيوب.

قال: وقد تكاثرت الأدلة في الأمر بالصبر والحث عليه؛ ولذا قلنا: هو واجب.

قال: ومن أسماء الله تعالى الصبور، من أسماء الله عَزَّ وَجلَّ؛ أي: ما وصف الله عَزَّ وَجلَّ به نفسه، وأهل العلم أحيانًا قد يطلقون الاسم على الصفة وعلى ما جاء في الإخبار عن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى ولا يريدون حقيقة ذلك.

ولذا تجد بعضهم يذكر أن الشيء من أسماء الله، فهل من أسماء الله أنه شيء؟ هذا يُخبر به عن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى؛ لأن باب الأسماء توقيفي لابد أن يكون هناك نص في كتاب الله وفي سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على أن هذا الاسم من أسماء الله، ثم يتحقق فيه الضوابط التي ذكرها أهل العلم.

ولذا الصبور ليس من أسماء الله، وإن كان صفة له سُبْحَانَهُ وَتعَالَى؛ كما جاء في الحديث قال: "مَا أَحَدٌ أَصْبَرُ عَلَى أَذًى سَمِعَهُ مِنَ اللَّهِ، يَدَّعُونَ لَهُ الْوَلَدَ، ثُمَّ يُعَافِيهِمْ وَيَرْزُقُهُمْ"، وبهذا استدل ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ.

والصبر أقسامه ثلاثة:

صبر على طاعة الله.

وصبر عن معاصي الله.

وصبر على أقدار الله.

أيهما أحب إلى الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى؟ نقول: هذا باعتبار حال العبد.

وكذلك أيهما أشد على النفس أن تصبر على الطاعة أم أن تصبر عن المعصية أم أن تصبر على البلاء؟ نقول: هذا يختلف.

ولذا قد تجد بعض الناس يحافظ على كل فرض ونفل، فيصلي الصلوات في وقتها في المسجد حيث ينادى بها ويقيم الليل ويصوم النهار، لكنه لا يصبر على معصية.

وتجد بعض الناس يصبر على البلاء والشدائد، لكنه قد يفرط في طاعة؛ ولذا نقول: هذا يختلف من واحد لآخر على ما يمن الله عَزَّ وَجلَّ به على عباده.

فأهل السنة والجماعة يأمرون بالصبر عند البلاء والشكر عند الرخاء، يعني: يشكرون الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى ليزيدهم.

قال: وَالرِّضَا بِمُرِّ الْقَضَاءِ.

قال: وَيَدْعُونَ إِلَى مَكَارِمِ الأَخْلاقِ، وَمَحَاسِنِ الأَعْمَالِ.

مكارم الأخلاق -كما يقول الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ-: أي: أطايبها، والكريم من كل شيء هو الطيب منه بحسب ذلك الشيء.

فأهل السنة والجماعة يدعون إلى كل خُلُق كريم، والخُلُق الصفة التي ترسخ في نفس العبد وتصبح سجية له أمرًا سهلاً ميسورًا من غير تكلف.

والخُلُق قد يكون جبليًا وقد يكون مكتسبًا؛ هناك أخلاق جبلك الله عَزَّ وَجلَّ عليها، فأنت تجد بعض الناس لينًا طيبًا هينًا سهلاً، هذا جبله الله عَزَّ وَجلَّ على ذلك.

ومن الخُلُق ما يُتعلم، يستطيع المرء أن يكتسبه وأن يغيره كذلك؛ ولذا أنظر إلى حال أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبل إيمانهم كيف كانوا؟ وماذا كانوا يصنعون؟

وانظر إلى حالهم بعد أن آمنوا بالله ورسوله إلام صاروا رَضِي اللهُ عَنْهُم؟ تغيرت أخلاقهم، والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: "إِنَّمَا الْعِلْمُ بِالتَّعَلُّمِ"، وإنما الحلم بالتحلم، يعني: تعلم الحلم، هكذا قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وقال لأشج عبد القيس: "إِنَّ فِيكَ خَصْلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ"، قال: تَخَلَّقْتُ بِهِمَا. أَمْ جَبَلَنِي اللَّهُ عَلَيْهِمَا؟ قال: "بَلْ جَبَلَكَ اللَّهُ عَزَّ وَجلَّ عَلَيْهِمَا"؛ فهذا يعني: أن من الأخلاق ما يستطيع المرء أن يتعلمه وأن يكتسبه؛ ولذا يُخطئ بعض الناس إذا نهيته عن شيء فيقول: هذه طبيعتي لا أستطيع أن أغير ذلك، نقول: أخطأت تستطيع لكن جاهد نفسك وتوكل على الله عَزَّ وَجلَّ واستعن به.

قال: وَيَدْعُونَ إِلَى مَكَارِمِ الأَخْلاقِ، وَمَحَاسِنِ الأَعْمَالِ.

محاسن الأعمال، أي: ما يتعلق بالجوارح سواء كان ذلك في أمور الدنيا أو الآخرة في البيع والشراء والإجارة وغير ذلك، وكذلك في عبادة الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى يحسنون كل ذلك.

قال: وَيَعْتَقِدُونَ مَعْنَى قَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا)).

وهذا حديث رواه أبو داود وأحمد وحسنه الإمام الألباني رَحِمَهُ اللهُ في الصحيحة.

يقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذا الحديث: "أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا".

إذًا: من المؤمنين من هو كامل الإيمان ومنهم من هو أكمل من غيره، ومنهم من هو مقتصد ومنهم من هو ظالم لنفسه، وهذا يدل على أن الإيمان ليس على درجة واحدة وأن أهله فيه ليسوا سواء وأنهم يتفاضلون وأنه يزيد وينقص.

فقال: ((أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا)).

هذا الحديث أصل في حرص المسلم على تحسين خلقه؛ لأن حسن الخلق علامة على كمال الإيمان، ولذا أهل السنة والجماعة يولون للأخلاق الحسنة المكانة العظيمة ويدعون إليها ويعتقدون أنها من مكملات إيمان العبد ومن تمام توحيده.

كما بدأنا هذا الدرس وقلنا: بعض الإخوةقد تجده على عقيدة سليمة في الأسماء والصفات، وفي كراهية الشرك وعدم الوقوع فيه سواء كان الشرك باللفظ أو الفعل أو غير ذلك، ومع ذلك لا يتورع عن الكذب، ولا يتورع عن أكل أموال الناس بالباطل وعن خُلف الوعد -نسأل الله السلامة والعافية-.

فنقول: أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خُلُقًا، وبهذا وصف الله عَزَّ وَجلَّ نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: {وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ} [القلم: 4].

قال مجاهد: أي: على دين عظيم، فالخُلُق الدين، من زاد عليك في الخُلُق زاد عليك في الدين كما قال أئمتنا رضي الله عنهم.

فيَعْتَقِدُونَ مَعْنَى قَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا)).

نسأل الله عَزَّ وَجلَّ أن يُحسِّن أخلاقنا.

قال: وَيَنْدُبُونَ.

ما المراد بالندب؟ الدعوة بشدة، يعني: يدعون بشدة، ولذا قال الشاعر الجاهلي، قال عن قومه وعشيرته:

لا يسألون أخاهم حين يندبهم   في النائبات على ما قال برهانا

البيت الذي قبل ذلك:

قـومٌ إذا أبـدى الشرـ ناجذيـه   قـاموا إليـه زرافات ووحـدانا

لا يسألون أخاهم حين يندبهم   في النائبات على ما قال برهانا

يصف قومه بأن الواحد منهم إذا طلب المعونة لا يسألون أخاهم هل هذا الذي تطلب فيه العون هو شر أم خير، وإنما يكونون دائمًا معه، هذا كان خُلُق أهل الجاهلية، انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا.

انصر أخاك مظلومًا، يعني: ترد إليه حقه، وظالمًا تعينه على ظلمه، هذا كان خُلُق أهل الجاهلية، حتى جاء الإسلام فأقر الحق ورد الباطل.

فأهل السنة والجماعة يندبون كما قال: وَيَنْدُبُونَ.

أي: يدعون بشدة.

إِلَى أَنْ تَصِلَ مَنْ قَطَعَكَ، وَتُعْطِيَ مَنْ حَرَمَكَ.

يعني: تقابل السيئة بالحسنة.

وَتَعْفُوَ عَمَّنْ ظَلَمَكَ.

أي: تصفح وتتجاوز، فهذا هو الأصل في السُّني، إلا إذا كان العفو يترتب عليه تمادي الظالم في ظلمه وعدم كفه عن ذلك.

إنسان يظلم الناس في طرقاتهم ولا يترك أحدًا إلا ويتعرض له بالأذى، هل يجوز لك أن تعفو عنه إن كان هناك سبيل للاقتصاص منه ولإيقافه عن ظلمه؟ لا

يجوز لك أن تعفو عنه، لكن لابد من القصاص ومن ردعه، كذلك بالمعروف كما بيَّنا.

فلو طلب جيرانك منك أن تعفو عنه، وأنت تعلم أنك إن عفوت عنه ازداد في ظلمه وطغيانه وتَجبره، فهذا لا يجوز لك أن تعفو عنه؛ لأن عفوك هذا لا يؤدي إلى الإصلاح؛ لذا العفو مشروط بالإصلاح.

فأهل السنة والجماعة يعفون عند المقدرة، هذا هو الأصل فيهم، وهي سمة جليلة وهي من خصال المؤمنين، لكن هذا مشروط كما قلنا بماذا؟ بالإصلاح.

وهذا الذي ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية: أَنْ تَصِلَ مَنْ قَطَعَكَ، وَتُعْطِيَ مَنْ حَرَمَكَ، وَتَعْفُوَ عَمَّنْ ظَلَمَكَ.

جاء في حديث رواه أحمد والطبري في التفسير ولكنه لا يصح عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال ابن أبي حاتم: هذا مرسل، وله شاهد كذلك عند أحمد وفيه ضعف كذلك وطرقه ضعيفة.

طرق هذا الحديث ضعيفة، لكن المعنى دل عليه كتاب الله وسنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال الله عَزَّ وَجلَّ: {خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ} [الأعراف: 199].

فأهل السنة والجماعة يندبون إلى صلة الأرحام وعدم قطعها، وقد جاء في ذلك الشيء العظيم من حديث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وكذلك إعطاء من حرمك وأن تعفو عمن ظلمك لكن بالشرط الذي ذكرناه.

قال: وَيَأْمُرُونَ بِبِرِّ الْوَالِدَيْنِ، وَصِلَةِ الأَرْحَامِ.

يأمرون بمثل هذه الأمور العظيمة.

بر الوالدين فريضة، والعقوق جريمة، وجاء عن عبد الله بن عباس رَضِي اللهُ عَنْهُما قال: "ثلاث مقرونات بثلاث, لا يقبل الله واحدة منها إلا بالأخرى".

الله عَزَّ وَجلَّ قرن في كتابه عبادته ببر الوالدين: {وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا} [الإسراء: 23]، {أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ} [لقمان: 14]؛ فمن شكر لله ولم يشكر لوالديه لا يقبل الله عَزَّ وَجلَّ منه.

وقال: {وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ}؛ فلا يصلح أن تطيع الله دون طاعة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وقال: {وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ}؛ ولذا لا يحسن أن يؤدي المرء زكاة ماله وهو لا يصلي؛ فقرن الله عَزَّ وَجلَّ في غير ما آية في كتابه الأمر ببر الوالدين والإحسان إليهم بطاعته وتوحيده سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

قال: وَيَأْمُرُونَ بِبِرِّ الْوَالِدَيْنِ، وَصِلَةِ الأَرْحَام.

أي: أن تصل قرابتك وإن قطعوك؛ ولذا قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **"لَيْسَ الْوَاصِلُ بِالْمُكَافِئِ"**، لكن من الاصل؟ **"الَّذِي إِذَا قُطِعَتْ رَحِمُهُ وَصَلَهَا"**، هكذا قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وقال: **"الرَّحِمُ مُعَلَّقَةٌ بِالْعَرْشِ تَقُولُ: مَنْ وَصَلَنِي وَصَلَهُ اللهُ، وَمَنْ قَطَعَنِي قَطَعَهُ اللهُ"**، فيأمرون ببر الوالدين وصلة الأرحام وحسن الجوار؛ كما قال المصنف رَحِمَهُ اللهُ.

ولذا جاء في أحاديث كثيرة الأمر بالوصية بالجار؛ لأن هذا سبيل الألفة والترابط في المجتمع المسلم حتى يكون كالجسد الواحد، قال: "مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ جَارَهُ".

قال لأبي ذر رضي الله عنه: "إِذَا طَبَخْتَ مَرَقَةً فَأَكْثِرْ مَاءَهَا، وَتَعَاهَدْ جِيرَانَكَ"، قال كما في حديث أبي هريرة: "مَا زَالَ جِبْرِيلُ يُوصِينِي بِالْجَارِ، حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُوَرِّثُهُ".

قال: "وَاللَّهِ لَا يُؤْمِنُ، وَاللَّهِ لَا يُؤْمِنُ، وَاللَّهِ لَا يُؤْمِنُ، من لَا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ".

هذه أخلاق أهل السنة والجماعة التي ينبغي أن يكونوا عليها وأن يضموها إلى صحيح الاعتقاد في أسماء الله وصفاته.

قال: وَالإِحْسانِ.

يعني: يأمرون بالإِحْسانِ إِلَى الْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ، وَالرِّفْقِ بِالْمَمْلُوكِ.

يعني: وقت أن كان هناك مماليك.

قال: وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْفَخْرِ، وَالْخُيَلاءِ، وَالْبَغْيِ، وَالاسْتِطَالَةِ عَلَى الْخَلْقِ بِحَقٍّ أَوْ بِغَيْرِ حَقٍّ.

وَيَأْمُرُونَ بِمَعَالِي الأَخْلاَقِ، وَيَنْهَوْنَ عَنْ سَفْسَافِهَا.

إذًا: هناك منهيات وكذلك مأمورات، ينهون عن الفخر.

ما المراد بالفخر؟ أي: التمدح بالخصال كأن يتمدح المرء بنسبه وحسبه.

وكذلك الخُيلاء وهو الكبر والاستطالة على الخلق، "بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ"؛ كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، احتقارهم.

وكذلك ينهون عن البغي وهو التعدي ومجاوزة الحد والاستطالة على الخلق، وهذا كله مبناه على كتاب الله وسنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، هذه خصال لا يحبها الله عَزَّ وَجلَّ، {إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ} [لقمان: 18].

وقال: {سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ} [الأعراف: 146].

وقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "بَيْنَمَا رَجُلٌ يَجُرُّ إِزَارَهُ مِنَ الْخُيَلَاءِ خُسِفَ بِهِ، فَهُوَ يَتَجَلْجَلُ فِي الْأَرْضِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ" نسأل الله السلامة والعافية.

وَيَأْمُرُونَ بِمَعَالِي الأَخْلاَقِ.

أي: يأمر أهل السنة والجماعة بمعالي الأخلاق، يعني: عظيم الأخلاق كالعفة والشجاعة والأمانة والتواضع، يعني: ما يكون عكس هذه الأخلاق التي ذكرها من المنهيات.

قال: وَيَنْهَوْنَ عَنْ سَفْسَافِهَا.

والمراد بالسفساف: الأمر الحقير الرديء من كل شيء، يعني: ينهون عن رديء الأخلاق.

قال: وَكُلُّ مَا يَقُولُونَهُ وَيَفْعَلُونَهُ مِنْ هَذَا وَغَيْرِهِ؛ فَإِنَّمَا هُمْ فِيهِ مُتَّبِعُونَ لِلْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ.

والله يا أخوة هذه نعمة عظيمة أن يعظم الله عَزَّ وَجلَّ في قلبك كتاب الله وسنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهم في ذلك متبعون للكتاب والسنة.

وَطَرِيقَتُهُمْ هِيَ دِينُ الإِسْلامِ الَّذِي بَعَثَ اللهُ بِهِ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال: لَكِنْ لَمَّا أَخْبَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ أُمَّتُهُ سَتَفْتَرِقُ عَلَى ثَلاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً؛ كُلُّهَا فِي النَّارِ؛ إِلَّا وَاحِدَةً، وَهِيَ الْجَمَاعَةُ.

وقد سبق في مبدأ شرح هذه العقيدة الكلام على مباحث هذا الحديث تفصيلاً كما بيَّنها الإمام المحقق أبو إسحاق الشاطبي في كتاب الاعتصام ونقلنا ذلك.

فيقول شيخ الإسلام: لَكِنْ لَمَّا أَخْبَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ أُمَّتُهُ سَتَفْتَرِقُ عَلَى ثَلاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً؛ كُلُّهَا فِي النَّارِ؛ إِلَّا وَاحِدَةً، وَهِيَ الْجَمَاعَةُ.

قال: وَفِي حَدِيثٍ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: ((هُمْ مَنْ كَانَ عَلَى مِثْلِ مَا أَنَا عَلَيْهِ الْيَومَ وَأَصْحَابِي))، صَارَ الْمُتَمَسِّكُونَ بِالإِسْلامِ الْمَحْضِ الْخَالِصِ عَنِ الشَّوْبِ هُمُ أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ.

أسأل الله عَزَّ وَجلَّ أن يجعلنا منهم، وأن يُمسِّكنا بذلك وأن يثبتنا عليه حتى نلقاه.

قال: وَفِيهِمُ الصِّدِّيقُونَ، وَالشُّهَدَاءِ، وَالصَّالِحُونَ، وَمِنْهُمُ أَعْلامُ الْهُدَى، وَمَصَابِيحُ الدُّجَى، أُولو الْمَنَاقِبِ الْمَأْثُورَةِ، وَالْفَضَائِلِ الْمَذْكُورَةِ، وَفِيهِمُ الأَبْدَالُ، وَفِيهِمُ أَئِمَّةُ الدِّينِ، الَّذِينَ أَجْمَعَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى هِدَايَتِهِمْ.

قال الهراس: وَأَمَّا قَوْلُهُ: ((وَفِيهِمُ الصِّدِّيقون)).

قال: فالصِّدِّيق صِيغَةُ مُبَالَغَةٍ مِنَ الصِّدْقِ، يُرَادُ بِهِ الْكَثِيرُ التَّصْدِيقِ.

أي الذي يكثر تصديقه حتى صارت التصديق سجيةً له وخصلة لا تفارقه؛ ولذا يسمى صديقًا فعيلاً صيغة مبالغة.

قال: وَأَبُو بَكْرٍ رَضِي اللهُ عَنْهُ هُوَ الصدِّيق الْأَوَّلُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ.

وَأَمَّا الشُّهَدَاءُ؛ فَهُوَ جَمْعُ شَهِيدٍ، وَهُوَ مَن قُتِلَ فِي الْمَعْرَكَةِ.

هذا هو الأصل في إطلاق الشهيد الذي يُقتل في معركة مع غير المسلمين، هذا هو الأصل، وإلا فشهداء أمة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كثير؛ كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال: وَأَمَّا الْأَبْدَالُ؛ فَهُمْ جَمْعُ بدْل، وَهُمُ الَّذِينَ يَخْلُفُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا فِي تَجْدِيدِ هَذَا الدِّينِ وَالدِّفَاعِ عَنْهُ.

إن كان المراد بالأبدال هذا المعنى فالمعنى صحيح.

قال: كَمَا فِي الْحَدِيثِ: ((يَبْعَثُ اللَّهُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ عَلَى رأس كل مئة سَنَةٍ مَن يُجَدِّدُ لَهَا أَمْرَ دِينِهَا)).

فنقول: إن كان المراد بالأبدال هذا المعنى فالمعنى صحيح، لكن هذه اللفظة لم ترد في كتاب الله ولا في سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولم تكن في لسان أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ولذا تجد الصوفية وغلاتهم يكثر استخدامهم لهذه الكلمة ويريدون بها معاني غير صحيحة، وينسبون لهؤلاء ما لا يكون إلا لله من علم الغيب والتصرف في الخلق وغير ذلك.

ولا يقال إن الأبدال هم الأولياء والعُباد؛ لأن هذا الإطلاق غير شرعي، وهو كذلك غير عربي.

قال الشيخ السلمان رَحِمَهُ اللهُ: ونص أحمد على أن لله أبدالًا في الأرض.

لكن ماذا أراد الإمام أحمد رحمه الله إن صح ذلك عنه؟ قال: قيل: من هم؟ قال: إن لم يكونوا أصحاب الحديث فلا أعرف لله أبدالًا.

إذًا: أراد بهم كذلك الذي يخلف بعضهم بعضًا، يجدد الله عَزَّ وَجلَّ بهم هذا الدين.

قال: وَفِيهِمْ أَئِمَّةُ الدِّينِ.

يعني: بذلك أهل السنة والجماعة، فهم الأئمة في هذا الدين، وهم الذين يحملون هذا العلم إلى من بعدهم، وهم الذين ينفون عن هذا العلم تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين؛ كما جاء عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذا فيه تعديل لحملة أهل العلم، وفيه بيان لمنزلتهم.

فذكر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن هذه الأمة ستفترق من بعده، وأنها ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة، وهي التي كانت علي ما كان عليه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه -نسأل الله عَزَّ وَجلَّ أن يجعلنا من هؤلاء-.

قال: وَهُمُ الطَّائِفَةُ الْمَنْصُورَةُ.

يعني: الفرقة الناجية هي الطائفة المنصورة، طائفة، يعني: جماعة وهذا دليل على قلتهم، منصورة؛ فهي منصورة بالسيف والسنان وبالحجة والبرهان، قد تُنصر بالسيف والسنان، يعني: بالقوة في وقت دون وقت، كما هو الحال الآن، لكنها منصورة أبدًا بالحجة والبرهان.

ولذا تجدون أهل السنة والجماعة أعلى الناس حُجة، وحجتهم غير مدخولة وهي حجة قوية؛ ولذا قال: **"لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق إلى أن تقوم الساعة"**.

قال: وَهُمُ الطَّائِفَةُ الْمَنْصُورَةُ الَّذِينَ قَالَ فِيهِمُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى الْحَقِّ مَنْصُورَةً، لَا يَضُرُّهُم مَّنْ خَالَفَهُمْ، وَلَا مَنْ خَذَلَهُمْ؛ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ)).

وهذا الحديث رواه مسلم وغيره من أصحاب السنن, وهو حديث ثابت عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فيقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **"حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ"**؛ أي: حتى تكون ساعة موتهم، حتى يبعث الله عَزَّ وَجلَّ ريحًا طيبًا، فيتوفى كل من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان، وإلا فإن الساعة لا تقوم إلا على شِرار الخلق من الكفار والمشركين.

فهذه الطائفة لا تبقى إلى أن تقوم القيامة عليهم؛ لأن قيامة الله عَزَّ وَجلَّ على بعض الخلق عقوبة لهم؛ أن يعاينوا ذلك؛ ولذا يقبض الله عَزَّ وَجلَّ روح كل مؤمن قبل أن يكون ذلك.

والطائفة المنصورة اختُلف فيها من هي؟ فقال البخاري: هم أهل العلم، وأهل العلم هم أساس كل طائفة، لأنه لا عمل إلا بالعلم؛ ولذا هم أصل وغيرهم فرع وأثر لهم.

وقال أحمد بن حنبل ويزيد بن هارون: إن لم يكونوا أهل الحديث فلا أدري من هم.

وكذلك قال ابن المبارك وعلي بن المديني، وقال النووي: من الممكن أن يكونوا من أهل العلم ومن المجاهدين ومن الأمراء ومن غير ذلك كلٌ في مجاله، فينصر دين الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى فيما أقامه الله عَزَّ وَجلَّ فيه.

قال: نَسْأَلُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَنَا مِنْهُمْ وَأَنْ لَا يُزِيغَ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا، وَأَنْ يَهَبَ لَنَا مِن لَّدُنْهُ رَحْمَةً إِنَّهُ هُوَ الوَهَّابُ. وَاللهُ أَعْلَمُ.

وَصَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا.

والحمد لله رب العالمين، ونسأل الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى أن يرزقنا حسن العمل بهذه العقيدة، وأن يوفقنا إلى الثبات عليها حتى نلقاه, إنه ولي ذلك والقادر عليه.

آمين

أبو عائش محمد سميح فاضل فضل الشيخ

عامله الله بفضله ووفقه لكل خير

كان الفراغ من النظر فيه ليلة الخميس 23 من شهر ذي الحجة 1446

من هجرة المصطفى ﷺ.